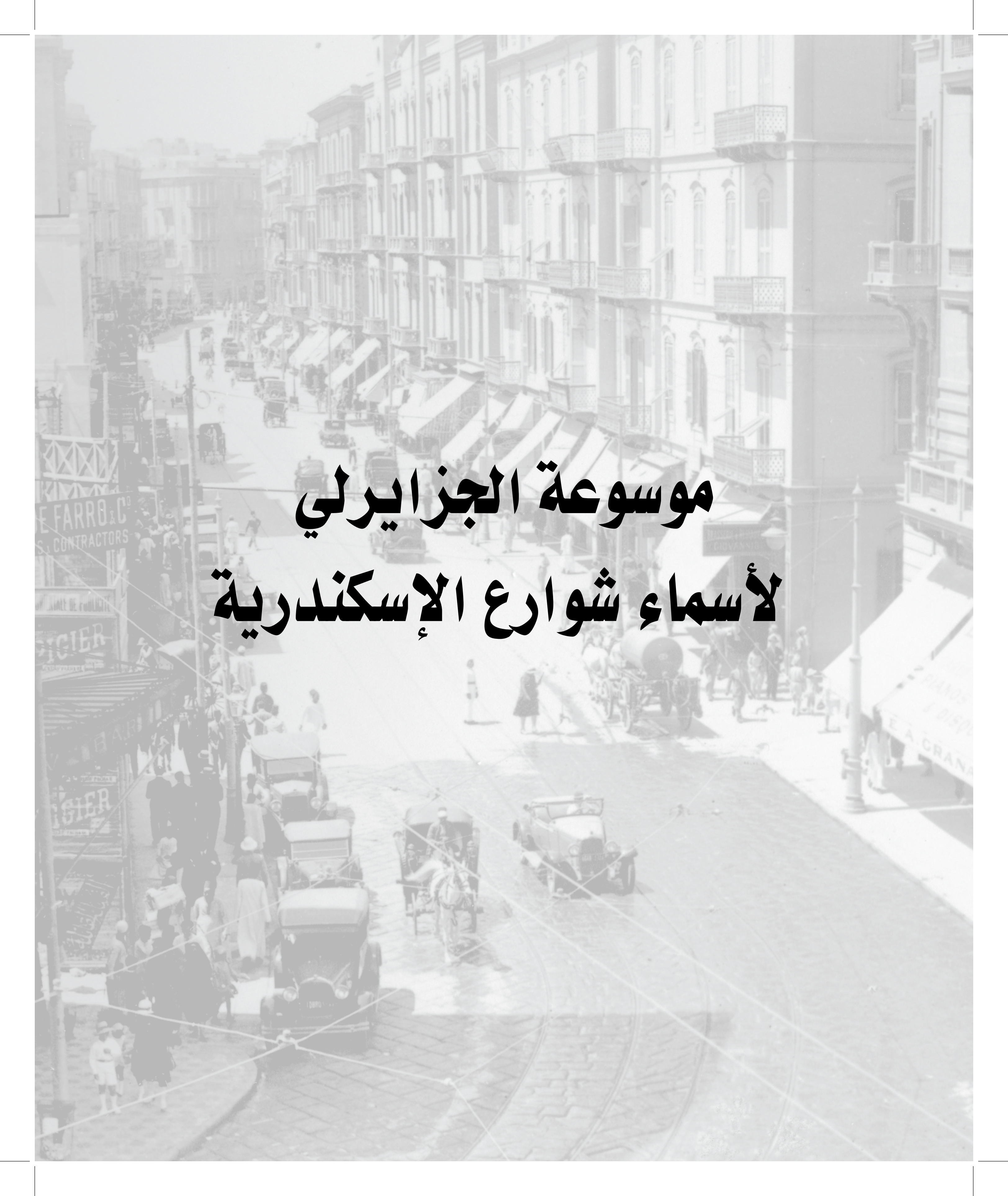


موسوعة الجزايرلي
لأسماء شوارع الإسكندرية





موسوعة الجزايرلي لأسماء شوارع الإسكندرية

الجزء الثاني

يوسف فهمي الجزايرلي

٢٠١١



مركز دراسات الإسكندرية وحضارة البحر المتوسط

مكتبة الإسكندرية بيانات الفهرسة– أثناء – النشر (فان)

الجزايرلي، يوسف فهمي أحمد.
موسوعة الجزايرلي لأسماء شوارع الإسكندرية / يوسف فهمي الجزايرلي. – الإسكندرية، مصر: مكتبة الإسكندرية، 2011.
ص. سم.

تدمك 9–136–452–977–978

1. الإسكندرية (مصر) –– الشوارع –– دوائر معارف. ٢. الشوارع –– أسماء –– دوائر معارف. أ. العنوان.

ديوي – 962.1003 2011522551

تدمك 9–136–452–977–978 الجزء الثاني
رقم الإيداع 2011/10666

المعلومات الواردة في هذه الموسوعة مصدرها مخطوطة المؤلف الأصلية دون أي تغيير بالحذف أو بالإضافة.
الخرائط والصور مضافة من المجموعة الخاصة بالدكتور محمد عوض.

مراجعة لغوية وتدقيق: إدارة النشر
تصميم الغلاف والصفحات الداخلية: مينا نادر نجيب
طبع في جمهورية مصر العربية
١٠٠٠ نسخة

فهرس الحروف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الباء



٣٩٨- البابلي - حارة - بقسم محرم بك

هو محمد بن عبده البابلي بك الذي كان من كبار تجار الجواهر في مصر والبابلي لقب نسبته إلى بابل، وهي مدينة بيبلون القديمة على شاطئ نهر الفرات بالعراق، ويطلق العرب اسم بابل على هذه المدينة التي كانت قائمة في موقع مدينة بغداد الحالي وعلى الإقليم الذي يضم الكوفة والحلة، وينسب إلى بابل الخمر الجيدة، والسحر الذي يعمل في العقول والنفوس.

وقد أدخل عبده البابلي ولديه محمد وأحمد في مدرسة البوليس، وبعد إتمامهما الدراسة بها ألحقا ببعض الأعمال في الحكومة المصرية، ولكنهما لم يمكثا طويلاً حتى تركا العمل الحكومي وتفرغا لأعمالهما، واشتهر محمد البابلي بظرفه وفكاهته الحلوة حتى أن بعض الأدباء قد جمع كتابًا ممتعًا في نكته وطرائفه، وكان من أصدقاء حافظ إبراهيم الملازمين له.

ومن نكته المشهورة الظريفة أنه كان يملك عصًا وضع على جانبها الأعلى الحرفين الأولين من اسمه وهما (م - ب) أي محمد البابلي بالذهب المنقوش، وذات يوم رجاه أحد الثقلاء الذين كانوا يلحون في طلب عطائه السخي أن يهبه العصا قائلاً: إنها أعجبته، فأسرع البابلي قائلاً: إنها مش بتاعتي»، قال الثقيل: «كيف ذلك وأنا أعرف عن يقيني أنها من مقتنياتك الفخمة»، فرد البابلي: «انظر إلى الحرفين الذهبيين الأول (م) يعني (مش)، والثاني (ب) يعني (بتاعتي)، أي (مش بتاعتي)، فضحك الثقيل وانصرف.

وقد عاتبه شاعر النيل حافظ إبراهيم بهذه الأبيات الثلاثة خلال عام ١٩٠٠م (١٣١٨هـ) قائلاً:

أخي وَاللَّهِ قد مُلئ الوِطابُ
وداخَلني بِصُحْبتكَ ارْتيابُ

رَجَوْتُكَ مَرَّةً وعتبْتُ أخرى
فلا أَجْدَى الرجاء ولا العتابُ

نَبَذْتَ مَوَدَّتي فاهْنأْ بِبِعْدِي
فآخِرُ عَهْدِنا هذا الكتابُ

وكتب إليه من السودان يلومه على نسيانه وهو يقاسي الآلام المبرحة والحرمان المرير:

كيف تنسَى يا (بابليُّ) غريبًا
باتَ بين الظنونِ والأوهامِ

وحزينًا إذا تَنَفَّسَ عادتْ
فحمةُ الليلِ جَمْرةً من ضرامِ

بات تحت البلاءِ حتَّى تمنَّى
لو يكونُ المبيتُ تحتَ الرِّغامِ

وكتب إليه يعاتبه ويداعبه في البيت الأخير من القصيدة التي منها قوله:

لا كتابٌ منكَ يُطفئُ ما
في فؤادي بات يَشْتعلُ

لا وَلاَ رَدٌّ يُعلِّلُني

أَوْ على التسليم يَشْتملُ

يا صديقي لا مُؤاخَذَةٌ

أنتَ يابْنَ البابلي . . .

٣٩٩- الباجوري - حارة - بقسم اللبان

لقب الباجوري يستطيع كل من ينتسب إلى قرية الباجور مركز سبك بمحافظة المنوفية حمله، وبالإسكندرية أكثر من أسرة تحمل هذا اللقب، وكان أحد أفرادها يصدر جريدة «الرياضة» التي ماتزال تعنى بأخبار خيول السباق ويتهافت على شرائها هواة السباق الذي لا يرحم جيوبهم، فمنهم من يفقدون ثروتهم في المراهنة، ومنهم من يفقد مرتبه الشهري أو أجره اليومي بغية الكسب الحرام، فيرجع إلى داره وهو لا يملك قوت عياله، وحبذا لو منعت الدولة هذا النوع من المراهنات لتبقي على حياة الأسر.

ولعلَّ لقب الباجوري الذي تحمله هذه الحارة بقسم اللبان هو لقب الشيخ إبراهيم بن محمد الباجوري الذي ولد في بلدة الباجور عام ١١٩٨هـ (١٧٨٣م)، وقد درس في الجامع الأزهر ابتداء من عام ١٢١٢هـ (١٧٩٧م) واعتكف في الجيزة إبان الاحتلال الفرنسي، وفي عام ١٢١٦هـ (١٨٠١م) رجع إلى تحصيل العلم بالقاهرة، وبعد ذلك بقليل بدأ في إلقاء دروس بالأزهر، وحاز شهرة علمية كبيرة، فكان يستمع إلى دروسه المئات من الطلاب، وقد قال عنه أحد تلاميذه إنه كان أعلم من درَّس في الأزهر غير منازع.

وفي شعبان عام ١٢٦٣هـ (١٨٤٧م) عُيِّن شيخًا للأزهر واحتفظ بهذا المنصب إلى وفاته في ذي القعدة عام ١٢٧٧هـ (يونية ١٨٦١م) بالغًا من العمر حوالي ٧٩ عامًا، وفي أواخر أيامه أقعده الكبر عن القيام بأعباء منصبه، فعينت الحكومة أربعة وكلاء لأداء عمله.

وكانت السلطات الحاكمة في عهد سعيد الأول (انظر هذه المادة)، قد بدأت تتدخل في شؤون الأزهر بكيفية سافرة بعد أن كان هذا التدخل مستترًا في عهد محمد علي (انظر هذه المادة)، وأخذت الأحداث تتتالى سراعًا في كيان الأزهر نفسه مما أدى إلى وجوب الإصلاح في النواحي التعليمية والإدارية، فقد كان النظام في ذلك الحين يعتمد في فروعه وأصوله على شيخ الأزهر نفسه، فكان يقوم بتوزيع مخصصات العلماء، ويتخذ الإجراءات التنظيمية للإدارة ويشرف مباشرة على الشؤون المختلفة الأخرى.

ولكبر سن الباجوري وقت تعيينه شيخًا بالأزهر لم يستطع الاحتفاظ بسيطرته على المعهد، ووقع في ذلك الوقت تمرد من الطلبة المغاربة بسبب توزيع المخصصات، فلجأ الشيخ الباجوري إلى الشرطة بغية إخماد هذا التمرد العنيف، ثم حدث بعد ذلك بقليل احتكاك بين طلبة سوريا وطلبة الصعيد أدى إلى تدخل قائد القاهرة العسكري، فداهم الأزهر على رأس قوة من الجنود الألبانيين فدخلوا الأزهر بأحذيتهم منتهكين حرمته الدينية، وكان إسماعيل باشا (انظر مادة الخديوي الأول) يتولى الحكم في ذلك التاريخ لوجود سعيد الأول في الحج، فأمر بتكوين مجلس من أربعة وكلاء برياسة الشيخ مصطفى العروسي (انظر مادة العروسي) لتصريف شؤون الأزهر، وظل الشيخ الباجوري لا يملك من السلطة إلا الاسم.

ومؤلفات الشيخ الباجوري الكثيرة تدور حول المسائل العلمية التي كان يعنى بها في العصور الوسطى ومعظمها شروح وتعليقات أخذ جل مادتها من العلماء المبرزين الذي تقدموه، وأهم هذه المؤلفات: «الحواشي على شرح أبي شجاع» لابن قاسم، و«الحواشي على شرح الأرجوزة الرحبية» للشنشوري، و«أم البراهين» وهي حاشية على شرح السنوسي، وحاشية على شرح إبراهيم اللقاني المسمى «جوهرة التوحيد»، وشرح لكتابه «كفاية العوام فيما يجب عليهم من علم الكلام» وهو لشيخه الفضالي، وللشيخ الباجوري كتب في السيرة النبوية، وهي: «حاشية على شمائل الترمذي»، و«حاشية على مولد ابن حجر الهيتمي»، و«حاشية على تفسير ابن هشام لقصيدة «بانَتْ سعاد» وحاشيات أخرى عديدة.

٤٠٠ – الباجي – حارة – بقسم ميناء البصل

١) **أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي**: كان متكلمًا جليل الشأن، وأديبًا كبيرًا من أدباء الأندلس في القرن الحادي عشر الميلادي، ولد عام ٤٠٣هـ (١٠١٢م) من أسرة من بطليموس كانت هاجرت من باجة وهي «بيخا» الحديثة في جنوبي البرتغال، وتعلم الباجي في أول أمره بمدارس قرطبة (انظر هذه المادة)، وأحرز بعض النجاح في نظم الشعر. وفي عام ٤٢٦هـ (١٠٣٥م) سافر إلى المشرق، وغاب عن الأندلس ثلاثة عشر عامًا؛ قضى منها ثلاث سنوات في مكة حيث كان يعمل في خدمة الحافظ أبي ذر الهروي الذي تعلم في هراة ويلخ وأماكن أخرى في خراسان، وقد درس الباجي على يدي الحافظ الهروي الفقه المالكي والحديث، وكان يلازمه في موطنه بالسروات وهي الصقع الجبلي بين تهامة ونجد واليمن، وانتقل الباجي بعد ذلك إلى بغداد ودرس فيها ثلاثة أعوام أخرى، على الرغم من فقره الذي أجبره على أن يعمل حارسًا بالليل، ثم رحل إلى الموصل حيث أقام فيها عامًا آخر، وقَّف خلاله جهوده على دراسة علم الكلام الذي كان قد استحدث منذ قريب في حلب ودمشق ومصر.

وفي عام ٤٣٩هـ (١٠٤٧م) عاد إلى الأندلس بعد أن تتلمذ عليه العالم الورع التقي ابن أبي رُندُقة الطُرطوشي (انظر مادة سيدي الطرطوشي)، وكان الباجي خالي الوفاض عند عودته كما كان عند رحيله إلى المشرق، بيد أنه رجع إلى وطنه بعقلية أوسع أفقًا، وفي هذا الوقت تقريبًا نزل على رأي فقهاء الأندلس فتناظر في جزيرة ميورقة إحدى جزر أرخبيل البليار مع ابن حزم المشهور (انظر مادة ابن حزم)، وقد اعتزل ابن حزم الحياة العامة بعد هذه المناظرة.

ويقول ابن سعيد (انظر هذه المادة) في كتابه «المُغْرِبُ»: إن الباجي ابتلي بإحراق كتبه، وقد اشتغل الباجي بالتجارة حتى بعد عودته، فكان يزاول طرق الذهب، وكان يعمل في أوقات أخرى موثقًا أو قاضيًا في الأرياف، وقد رسخت شهرته تدريجيًّا، ومن ثم حصل على المال والرفاهية، واتصل بملوك الطوائف منذ سقوط الخلافة الأُموية في الأندلس، ويظهر أن هذا الاتصال يرجع أساسًا إلى رغبته في حث هؤلاء الملوك على الاتحاد والعيش معًا في سلام، غير أن اقتراحاته في هذا الشأن قوبلت بالاستخفاف إلا في سرقسطة على الحدود الشمالية الشرقية. وطلب المقتدر بن هود صاحب سرقسطة الباجي فعمل في خدمته وقتًا طويلاً يدل على ذلك أن مصنفاته ظهرت في سرقسطة طوال مدة خدمته لملكها المقتدر الذي حكم في المدة من عام ١٠٤٦ إلى ١٠٨١م (٤٣٨ – ٤٧٤هـ)، وكان الباجي مؤلفًا غزير الإنتاج، ومن مؤلفاته

شرح لموطأ مالك أسماه «المنتقى» وقد نال هذا الشرح تقديرًا عظيمًا، وطبع من مؤلفاته: رسالة في الحدود، ورسالة في الفقه والحديث، وجواب على رسالة الراهب من إفرنسه، وهي في علم الكلام، وتوفي بمدينة المرية بالأندلس عام ٤٧٤هـ (١٠٨١م) بالغًا من العمر حوالي ٧٠ عامًا، ومن المصادفات الغريبة أنه كان في خدمة المقتدر بن هود في ذلك الوقت نفسه عالم آخر يحمل لقب الباجي أيضًا هو:

٢) **الوزير الكاتب أبو عمرو الباجي**: كان أحد كتاب الأندلس البلغاء، وقد خدم بالكتابة في عدة دويلات لدى ملوك الطوائف، وأخصهم المقتدر بن هود صاحب سرقسطة، وقد كتب أبو عمرو الباجي يصف مطرًا نزل بعد قحط فقال: «إن لله قضايا واقعةً بالعدلِ، وعطايا جامعةً للفضلِ، ومنحًا يَبْسُطُها إذا شاء ترفيهًا وإنعاما، ويقبضها إذا أراد تنبيهًا وإلهاما، ويجعلها صلاحًا وخيرا، وعلى آخرين فسادًا وضَيْرا، وهو الذي يُنزِل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الوليُّ الحميد، وإنه بعد ما كان من امتساك الحيَا، وتوقُّفِ السُّقيا الذي رِيعَ به الآمنُ، واسْتُطير له الساكنُ، ورجفتِ الأكبادُ فزعًا، وذَهلت الألبابُ جزعا، وأذكتْ ذُكاءُ حَرَّها، ومَنعَتْ السماءُ دَرَّها، واكتست الأرضُ غُبْرةً بعد خُضْرة، ولَبِسَتْ شحوبًا بعد نَضْرة، وكادت بُرود الأرضِ تُطْوى، ومُدودُ نِعَم اللَّه تُزْوى، نشر اللَّه تعالى رحمته، وبسط نعمتَه، وأتاح مِنَّتَه، وأزاح مِحْنتَه، فبعث الرياح لواقح، وأرسل الغمام سوافح، بماءٍ دفقٍ، ورواءٍ غَدَقٍ، من سماء طبقَ، استهلَّ جفنُها فَدَمع، وسحَّ دفْعُها فهمع، وصاب وَبْلُها فنقع، ما استوفت الأرضُ رِيًّا، واستكملت من نباتها أثاثًا ورئيا، فزينةُ الأرضِ مشهورة، وحِلَّة الروض منثورة، ومِنَّةُ الرب موفورة، والقلوب ناعمةٌ بعد بؤسِها، والوجوهُ ضاحكةٌ بعد عبوسها، وآثار الجزع ممحوة، وسورة الحمد متلوة، ونحن نستزيد الواهب نعمة التوفيق، ونستهديه في قضاء الحقوق إلى سواء الطريق، ونستعيذُ به من المنَّة أن تصيرَ فتنة، ومن المِنحة أن تعود مِحْنة، وهو حسبنا الله ونعم الوكيل».

وهذا النثر الفني المسجوع دليل واضح على قوة الوزير الكاتب أبو عمر الباجي في التعبير وحسن الأسلوب وبراعة توافق نهايات التسجيعات مما لا يؤدي إلى الملل من قراءتها والتمتع بسياقها الخلاب.

٤٠١- البارودي - شارع - بقسم الجمرك

٤٠٢- البارودي - شارع - بقسم الرمل

اطلب ترجمته في «سامي البارودي».

٤٠٣- بارودي (الدكتور) - شارع - بقسم باب شرقي (فوستر سابقًا)

اطلب ترجمته في «الدكتور بارودي».

٤٠٤- البازار - شارع - بقسم العطارين

«البازار» كلمة فارسية معناها «سوق»، وهي باللغة الفهلوية تنطق «واجار»، والبازار بمعناها الأصيل: مجموعة من الدكاكين في شارع مسقوف بسقف من الخشب، أو البناء، وله بابان يغلقان من طرفيه في الليل، وعندما يتقاطع هذا الشارع مع شارع آخر تسمى نقطة تقاطعهما مربعًا، وهي بالفهلوية «جهارسوك» أي السوق المربع، أو الأسواق الأربعة، لأن لفظة «جهار» معناها أربعة بالفارسية.

وتفتح أبواب الخانات (الدكاكين) عادة في وسط البازار، وينطبق هذا الوسط تمامًا على السوق الكائنة بحي العطارين، وتطل الجهة الشرقية منها على شارع صفية زغلول، والغربية على شارع شكور باشا (الرائد سامح الرفاعي حاليًّا)، وتضم هذه السوق مجموعة من المحال المعدة لبيع الخضروات والفاكهة والدواجن واللحوم والأسماك والمعلبات والمواد الغذائية الأخرى، وهي تقوم بتموين سكان الجهات المحيطة بها طوال النهار وجزءًا كبيرًا من الليل.

٤٠٥- باشا - شارع - بقسم مينا البصل (الاشتراكية حاليًّا)

٤٠٦- الباشا - شارع - بقسم مينا البصل (عبد الوهاب يوسف حاليًّا)

٤٠٧- الباشاوات - شارع - بقسم الرمل (عبد الجليل سعد حاليًّا)

كلمة باشا تركية مأخوذة من الكلمة الفارسية «بادشاه»، ولفظة باشا تدل على أعلى الألقاب الرسمية التي كانت مستعملة في تركيا حتى قيام الجمهورية فيها وإلغاء الألقاب، على غرار ما حدث في مصر عقب ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢، ومازال هذا اللقب مستعملاً في بعض الممالك الإسلامية التي كانت تابعة للإمبراطورية العثمانية مثل: الأردن، والمملكة المغربية، وكلمة باشا تستعمل دائمًا مع اسم العلم، شأنها في ذلك شأن ألقاب الشرف الأوروبية، إلا أنها تذكر بعد الاسم وليس قبله كما هي الحال في أوروبا، ولقب باشا لا يورّث مثل الألقاب الأوروبية، ولا يترتب عليه مخصصات للزوجات، ولا يقترن ذكره بذكر إقطاع من الإقطاعيات، فهو ذو طابع عسكري أكثر منه إقطاعي، غير أن منحه لم يكن مقصورًا على العسكريين، بل كان يمنح لبعض كبار الموظفين المدنيين من غير رجال الدين، وظهر لقب باشا في أول أمره خلال القرن الثامن الميلادي، وكان يدل في ذلك الحين على «المولى»، وفي ذلك العهد كان يمنح للنساء أحيانًا مثل لقب سلطان فيقال «سلطانة».

وفي أواخر القرن الثالث عشر الميلادي أضيف لقب «باشا» إلى أسماء بعض أمراء الدويلات التركية والتركمانية التي اقتسمت حكم آسيا الصغرى (الأناضول)، وكان عددهم محدودًا، ثم أُضفي هذا اللقب على الوزراء الأتراك، وكبار الموظفين مثل قبودان باشا، ودفتردار باشا.

في أول عهد الجمهورية التركية احتفظ بلقب «باشا» للعسكريين فقط، ثم ألغي بقرار من المجلس الوطني الكبير بأنقرة في ٢٦ نوفمبر ١٩٣٤، واستبدل بلقب باشا لقب «جنرال»، وبلقب مشير لقب «مارشال».

وكلمة «باشا» التي كان يحملها الشارع بقسم مينا البصل، وكلمة «الباشا» التي كانت تطلق على الشارع الآخر بالقسم نفسه قد أطلقتا على غير مسمى، لأن الباشاوات لم ينزحوا في سكناهم إلى قسم مينا البصل الذي كان يعد في أوائل إنشاء المجلس البلدي خارج أسوار المدينة، وكان مقرًّا للطبقة العاملة والنازحين من الأرياف والصعيد، وكان أهل الإسكندرية الخلَّص يطلقون عليهم عبارة «أهل خارج السور» وقلما كان يخالطونهم، أو «يناسبونهم» بالمصاهرة، وذلك حتى أوائل القرن العشرين، ثم ذابت هذه التفرقة البغيضة الآن.

أما كلمة الباشاوات التي كانت تطلق على الشارع بقسم الرمل فلعلها تدل على أن بعض الإقطاعيين ممن يحملون لقب الباشاوية كانوا يقيمون بهذا الشارع، فأطلقت عليه البلدية هذا الاسم الدال على التفرقة بين الناس في المقامات مخالفة لقول الله تعالى أن عباده يمتازون لديه بالتقوى دون سواها.

أما ترجمة الأسماء الجديدة لهذه الشوارع الثلاثة فاطلبها في «الاشتراكية، وعبد الوهاب يوسف وعبد الجليل سعد».

٤٠٨- بالي - شارع - بقسم الرمل

في مرحلة طفولتي وبداية مرحلة الصبا صادقت شخصًا في عمري تقريبًا يحمل لقب بالي، وكانت أسرته تسكن بشارع مصطفى باشا العرب (انظر هذه المادة) خلف سور «الترساخانة» (دار الصناعة)، وكان صديقي هذا يزاملني في الدراسة بمدرسة إبراهيم الأول التابعة لجمعية العروة الوثقى الإسلامية، وأعرف أن أسرته من أصل تركي نزحت إلى الإسكندرية في بداية القرن التاسع عشر الميلادي، ولم يبق من هذه الأسرة ما أستطيع الاتصال به للتعرف على تاريخ حياة أفرادها.

غير أن التاريخ يدوّن سيرة حياة وليّ من أولياء الله الأتراك، كان بقيد الحياة في عهد السلطان عثمان غازي مؤسس الدولة التركية العثمانية، والذي بويع بالسلطنة عام ٦٩٩هـ (١٢٩٩م)، واستمر حكمه حتى عام ٧٢٧هـ (١٣٢٦م).

وولي الله الآنف الذكر هو «المولى أده بالي»، ولد بالبلاد القرامانية، وقرأ هناك بعضًا من العلوم، ثم رحل إلى الشام حيث تفقه على مشايخها، وقرأ التفسير والحديث والأصول على هؤلاء المشايخ، ثم عاد إلى بلاده قرامان واتصل بخدمة السلطان الغازي عثمان الأول، فكان ممن يُرجع إليهم في المسائل الدينية والشرعية، وفي شؤون الدولة، وكان عالمًا عاملاً وعابدًا وزاهدًا، وكانت له ثروة كبيرة، ولكنه سلك المسلك الصوفي في زهد متاع الدنيا، وبنى زاوية في الدولة العثمانية ينزل فيها المسافرون، وقد تزوج السلطان عثمان الأول ابنته فأنجبت له أولادًا، وتولى «المولى أده بالي» عام ٧٢٦هـ (١٣٢٥م)، وكان قد بلغ من العمر حوالي ١٢٠ عامًا.

٤٠٩- البحيري (الشيخ) - حارة - بقسم كرموز

اطلب ترجمته في «الشيخ البحيري».

٤١٠- البخاري - شارع - بقسم الرمل

يحمل لقب البخاري اثنان من مفكري العرب الذين دون المؤرخون سيرة حياتهم وهما:

١) **محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدَزِبه الجعفي (وكنيته أبو عبد الله ولقب بالبخاري):** نسبة إلى المدينة التي ولد فيها في الثالث عشر من شهر شوال عام ١٩٤هـ الموافق ٢١ من يوليو عام ٨١٠ م، وهي بُخارَى الكائنة في واحة كبيرة بأوزبكستان الحالية على المجرى الأسفل لنهر زرافشان وترتفع عن سطح البحر بمقدار ٧٢٢ قدمًا أي حوالي ٢٢٢ مترًا.

وكان جده الأكبر «بَرْدَزِبه» فارسيًّا على دين قومه، ثم أسلم ولده المغيرة على يد اليمان الجعفي الذي كان وليًّا على بخارى، فنسب إليه نسبة ولاء عملاً بمذهب من يرى أن من أسلم على يد شخص كان ولاؤه له، ولذا قيل للبخاري الجعفي.

وتوفي والده وهو صغير فنشأ يتيمًا في كنف والدته التي تولت رعايته بحنانها الحادب. وكان البخاري نحيف الجسم، متوسط القامة، وقد قال في الحديث عن نفسه إنه أُلهم العناية بالأحاديث النبوية منذ كان في المكتب صغيرًا لم يتجاوز عمره عشر سنين، وعندما بلغ السادسة عشرة كان قد حفظ كتب ابن المبارك ووكيع وغيرهما، وعرف كلامهم، وهم من أصحاب الرأي.

ثم خرج مع أخيه أحمد – الذي يكبره – ومع أمه إلى مكة، وبعد أن أدوا فريضة الحج، رجع أخوه إلى بخارى حيث وافته المنية، وأقام هو بمكة لطلب الحديث، ولما بلغ الثامنة عشرة صنَّف كتاب: «قضايا الصحابة والتابعين وأقاويلهم»، وكتاب «التاريخ الكبير»، وكان إذ ذاك عند قبر النبي عليه الصلاة والسلام، وفي أثناء إقامته بمكة أخذ الحديث عن أشهر شيوخه، كما أخذ عن أشهر شيوخه بالمدينة.

وقبل ذهابه إلى مكة سمع الحديث في مسقط رأسه بخارى ثم سمعه من سادة وقته في بلخ، ومرو، ونيسابور، وبغداد، والبصرة، والكوفة، وواسط، ثم سافر إلى مصر، وسمع من مشايخها، وعاد إلى دمشق، وقيسارية، وعسقلان، وحمص، حيث أخذ الحديث عن سادته، ويعزى إليه قوله: «إنه كتب عن ألف وثمانين نفسًا كلهم من أصحاب الحديث».

واشتهر بالعلم، ورواية الأحاديث الصحيحة وهو مايزال في ميعة الشباب، ووصفه علماء الحديث والفقه بأنه من عمالقة العباقرة، فقال فيه قتيبة بن سعد: «جالست الفقهاء والزهاد والعبَّاد فما رأيت منذ عقلت مثل البخاري، فهو في زمانه مثل عمر بن الخطاب»، وقال فيه أيضًا: «لو كان البخاري في الصحابة لكان آية»، وقال رجاء بن رجاء الحافظ في وصفه: «إنه آية من آيات الله تمشي على الأرض»، وقال إمام الأئمة أبو بكر محمد بن إسحق بن خزيمة فيه: «ما تحت أديم السماء أعلم بالحديث من البخاري».

ومن شمائله وسجاياه الكريمة أنه كان غاية في الحياء وغاية في الشجاعة الأدبية والسخاء والورع، وكان زاهدًا في الدنيا ومتاعها، وشديد الرغبة في دار البقاء والخلود، يعمل لها وسع طاقته، وكان يردد قوله: «أرجو أن ألقى الله ولا يحاسبني أني اغتبت أحدًا»، ويشهد على صدق هذا القول لباقته الفائقة في التضعيف، فإن أبلغ ما يقول في الرجل المتروك أو الساقط: «فيه نظر»، أو يصفه بأن الفقهاء «سكتوا عنه»، ولا يقول: «فلان كذاب».

وكان قليل الأكل، كثير الإحسان إلى الناس، مفرطًا في الجود والكرم، وقد رحل إلى مصر في طلب العلم، وقطع ستة عشر عامًا في التجوال بين ربوع آسيا، ثم رجع إلى مدينة بخارى مسقط رأسه، فنصبت له القباب على فرسخ من البلد، واستقبله عامة أهلها، ونثروا عليه الدراهم والدنانير، وظل مدة يحدثهم. فأرسل إليه أمير البلد خالد بن محمد الذهلي نائب الخلافة العباسية يتلطف معه ويسأله أن يأتيه بكتابه «الجامع الصحيح» ويحدث الناس به في قصره، فامتنع البخاري وقال لرسوله: «قل له أنا لا أذل العلم ولا أحمله إلى

أبواب السلاطين، فإن كانت له حاجة إلى شيء منه فليحضر إلى مسجدي أو داري، فإن لم يعجبه هذا فهو سلطان، ويستطيع منعي من المجلس ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة أني لا أكتم العلم»، وبسبب هذا القول النبيل الشجاع حصلت بينه وبين الأمير جفوة فأمره الأمير بالخروج من البلد، وتقول الأسطورة التي يرويها بعض كتاب سيرته كما هي عادتهم، تقول هذه الأسطورة أن البخاري دعا على الأمير فلم يأت شهر حتى ورد أمر الخلافة بأن ينادى عليه وهو فوق أتان، فنودي عليه وحبس إلى أن مات، ولم يبق أحد ممن ساعده إلا ابتلي ببلاء شديد.

ولدى خروجه من بخارى كتب إليه أهل سمرقند يرجونه الحضور إليهم، فلما كان «بخرتنك» على بعد فرسخين من سمرقند بلغه أنه وقع بين أهلها فتنة بسببه، فطائفة منهم يريدون حضوره، وطائفة أخرى يكرهونه، وكان له أقرباء بخرتنك فنزل عندهم حتى ينجلي الأمر، وأصابه المرض ولكنه قاومه عندما جاءه رسول من أهل سمرقند يدعونه للحضور فلبس خفَّيْه وعمامته وأخذ يخطو متثاقلاً نحو دابته ثم شعر بالوهن وسقط بين أيدي أقاربه، وتوفي ليلة السبت ٣٠ رمضان عام ٢٥٦هـ (٣١ أغسطس عام ٨٧٠م) بالغًا من العمر ٦٠ عامًا، ودفن بخرتنك.

وتعتمد شهرته في العالم الإسلامي وفي العالم بأسره على جامعه في الحديث وعنوانه «الجامع الصحيح»، وهو أجلّ كتب الإسلام وأفضلها بعد القرآن الكريم، وقد رتبه على أبواب الفقه فكانت عدة كتبه سبعًا وتسعين احتوت على قسمي العبادات والمعاملات وسيرة الرسول عليه السلام مع مغازيه وما ورد من المأثور في تفسير آي الذكر الحكيم، وغير ذلك من الأبواب.

وقد روي عن البخاري قوله: «أخرجت هذا الكتاب من نحو ستمائة ألف حديث، وصنفته في ستة عشر عامًا، وجعلته حجة فيما بيني وبين الله»، وقد اشترط البخاري على نفسه أن يخرج الحديث المتفق على ثقة نقلته إلى الصحابي المشهور من غير اختلاف بين الثقات الأَثبات، ويكون إسناده متصلاً غير مقطوع، وإن كان للصحابي راويان فصاعد فحسن، وإن لم يكن إلا راوٍ واحد وصح الطريق إليه فكفى».

وقد التزم «الجامع الصحيح» ألا يورد فيه إلا الأحاديث الصحيحة، ثم رأى ألا يخليه من الفوائد الفقهية، والنكت الحكيمة، فاستخرج بفهمه من المتون المعاني الكثيرة، وفرقها في أبواب الكتاب بحسب تناسبها، واعتنى فيه بآيات الأحكام.

وقد اعتنى محمد شرف الدين اليونيني الحنبلي بضبط رواية «الجامع الصحيح»، وقابل أصله الموقوف بمدرسة آقيفا بالقاهرة بأصول مسموعة على الحافظ أبي ذر الهروي، والحافظ أبي القاسم ابن عساكر (انظر مادة ابن عساكر)، وأبي الوقت، وذلك بحضرة جمال الدين بن مالك (انظر مادة ابن مالك)، وذلك بدمشق عام ٦٧٦هـ (١٢٧٧م).

وأظهر البخاري في اختياره للأحاديث براعة فائقة، ثم محصَّها في دقة، وكان شديد الأمانة في إيراد المتن، وبذل جهدًا كبيرًا لكي يصل إلى ضبط ما يمكن الوصول إليه، ومن جهة أخرى لم يتردد في تفسير المواد بتعليقات موجزة متميزة عن النصوص.

والنسخة المتداولة حتى الآن هي التي نشرها محمد اليونيني المتوفى عام ٦٥٨هـ (١٢٦٠م) بمساعدة اللغوي المشهور ابن مالك المتوفى عام ٦٧٢هـ (١٢٧٣م)، وطبع «الجامع الصحيح» مرات كثيرة في بولاق والقاهرة ودلهي وبومباي.

وترجمه إلى الفرنسية، ووضع له شرحًا وتعليقات المستشرق «ل. بلتييه L. Peltier»، وطبعه في باريس عام ١٩٠٩م بعنوان Le livre des testaments du Qakik d'el-Bokkari.

أما الشروح الكثيرة «للجامع الصحيح» فقد طبع منها: «فتح الباري في شرح صحيح البخاري» لابن حجر العسقلاني (انظر مادة العسقلاني) عام ٨٥٢هـ (١٤٢٨م)، و«عمدة القاري في شرح البخاري» لمحمود بن أحمد العيني عام ٨٥٥هـ (١٤٥١م) بالقاهرة والآستانة عام ١٩٠٩، ١٩١٠م، و«إرشاد الساري في شرح البخاري» لأحمد بن محمد بن أبي بكر القسطلاني المتوفى عام ٩٣٣هـ (١٥١٧م) ببولاق في أعوام ١٢٧٥، ١٢٧٦، ١٢٨٨، وفي القاهرة عام ١٣٠٧، ١٣٢٦هـ مع تحفة الباري لزكريا الأنصاري المتوفى عام ٩٢٦هـ (١٥٢٠م)، وشرحه أبو زيد عبد القادر ابن علي الفاسي، وذلك في فاس عام ١٣٠٧هـ.

وقد صنَّف البخاري في أثناء حجته الأولى وذهابه إلى المدينة كتابًا يتناول تراجم رجال السند عنوانه: «التأريخ الكبير»، وهو يعد مقدمة لكتابه: «الجامع الصحيح»، ومن هذا الكتاب اقتضب موجزًا أسماه «التأريخ الصغير».

وللبخاري علاوة على ما تقدم مجموعة في الحديث عنوانها: «الثلاثيات»، وتفسير للقرآن مازال في حاجة إلى دراسة دقيقة، ومنه نسخة مخطوطة بالجزائر، وينسب للبخاري كتاب بعنوان «تنوير العينين برفع اليدين في الصلاة»، ويوجد من هذا الكتاب نسخة بمدينة كلكته تاريخها عام ١٢٥٦هـ مع ترجمة لها باللغة الأردية، كما ينسب إليه كتاب «قرة العينين» المطبوع على هامش كتاب «جدُّ الكلام في القراءة خلف الإمام»، وهو من تأليفه، وقد طبع بالقاهرة عام ١٣٢٠هـ.

٢) محمد بن عبد الباقي أبو المعالي علاء الدين المكي البخاري: كان كاتبًا عربيًّا، ألَّف رسالة في محاسن الأحباش عام ٩٩١هـ (١٥٨٣م)، وقد أخذ في تأليفها عن رسالة السيوطي (انظر هذه المادة) التي عنوانها: «الطراز المنقوش في محاسن الجيوش»، كما أخذ عن غيره، ومن رسالة البخاري عدة مخطوطات محفوظة في مكتبة برلين ودار الكتب بالقاهرة، وقد ترجم هذه الرسالة المستشرق «فيسفايلر M. Weisweiler» بهانوفر بألمانيا عام ١٩٢٤م، وهناك مختارات من متن الرسالة ومختار آخر وضعه نور الدين الحلبي المتوفى عام ١٠٤٤هـ (١٦٣٥م) طبع بالقاهرة عام ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م).

٤١١ – بدر الجمالي – شارع – بقسم محرم بك

كان بدر الجمالي مملوكًا أرمنيًّا من مماليك الأمير الشامي «جمال الدولة ابن عمار» ولذلك عرف بالجمالي نسبة إليه، ولابد أن يكون مولده في بداية القرن الخامس الهجري لأنه عندما بلغته الوفاة عام ٤٨٧ هـ (١٩٠٤م) كان عمره قد تجاوز الثمانين عامًا.

وقد ذاعت شهرته في الشام قبل أن يتولى الوزارة لدى الخلفاء الفاطميين في مصر، إذ عُيِّن حاكمًا لمدينة دمشق

مرتين، غير أن معاملته الصارمة للجند الذين تعودوا على اللين من رؤسائهم أوقعته في كثير من المآزق، وبعد ذلك صار كبير قواد عكا، وكان عليه أن يحارب جند ملكشاه (انظر هذه المادة)، وكان لبدر الجمالي حرس خاص من الأرمن وجند من المخلصين له من التتار.

وكانت الدولة الفاطمية التي بلغت مرتبة عالية من الرقي مشرفة على الانهيار في عهد الخليفة المستنصر بالله الذي طالت مدة خلافته، فبلغت ستين عامًا من (٤٢٧ إلى ٤٨٧هـ) (١٠٣٥ - ١٩٠٤م)، فقد كان السلاجقة يزحفون على الشام والمرتزقة من الأتراك يتمادون في غلوائهم ويقاتلون الجنود السودانيين والمغاربة، ويحاصرون قصر الخليفة ويتحكمون في زمام شؤون الدولة، وكان عددهم يربو على الثلاثين ألفًا. وكان القحط قد حل بالبلاد واستنفد مواردها. وقضت المنازعات الداخلية على هيبة الحكومة وسلطانها، وأصاب الناس الجوع والمرض، وذهبت أعمال العنف والتخريب بما كان للدولة من ازدهار، وخيل للناس أن هذه الدولة سيعصف بها الاضطراب والفوضى فتذهب ريحها إلى الأبد.

وعقب اغتيال رئيس المرتزقة الأتراك «نصر الدولة» عن طريق مؤامرة دبرت للإطاحة به، لم يجد الخليفة المستنصر بالله بدًّا من الاستنجاد «ببدر الجمالي»، فسار «بدر» إلى مصر في سنة ٤٦٦هـ (١٠٧٣م) على رأس جنود حرسه المستبدين والمرتزقة الأتراك، ولم يدرك هؤلاء سر مجيء «بدر الجمالي»، ووقعوا في الفخ الذي نصب لهم، وسرعان ما قضى الجمالي على زعمائهم بالقتل الجماعي إثر توليه قيادة القوات المسلحة والإشراف الفعلي على شؤون الحكومة.

وقد أعاد الجمالي الأمن إلى نصابه بمجهود شاق لم يخل من الصرامة، ومن ثم دخلت الدولة الفاطمية في طور جديد من أطوار عزها.

وصار الجمالي سيد الموقف، ونُصِّب أميرًا للجيوش (أي مِرْجوش في لغة العوام) وقاضيًا للقضاة، وداعيًا للدعاة ووزيرًا، ولكن لقب «أمير الجيوش» (انظر هذه المادة) كان ألصق به من الألقاب الأخرى.

ويعرف جبل المقطم «بجبل الجيوشي» وذلك لأن «بدر الجمالي» شيد مشهدًا فوقه زعم عامة الناس أن وليًّا من أولياء الله يدعى «الجيوشي» قد دفن فيه.

وبعد أن أعاد الجمالي الهدوء إلى القاهرة أخذ في العمل على استتباب النظام شرقي الدلتا ثم غربها، كما استولى على الإسكندرية في سرعة، وكان غزو الصعيد كان شاقًّا لأن القبائل العربية التي تمت بالأرومة إلى بني هلال وبني سُليم نادت باستقلالها عن الدولة، ولم يوفق الجمالي في إخضاع الشام مثلما وُفِّق في إخضاع التمرد في مصر، إذ الأمور كانت في غاية الاضطراب هناك، فدمشق سقطت في أيدي السلاجقة في نهاية عام ٤٦٨هـ (١٠٧٦م)، ولم تعد إلى حوزة الفاطميين بعد ذلك، وفي العام التالي ظهر القائد السلجوقي «أتسيز» أمام القاهرة نفسها، ولكن الجمالي وجد من الوقت ما سمح له بجمع قواته ورد السلاجقة على أعقابهم، وعلى الرغم من محاولاته في السنوات اللاحقة ٤٧١ و٤٧٨ و٤٨٢هـ (١٠٧٨ - ١٠٨٥ - ١٠٨٩م) لم يوفق في استعادة دمشق والاستيلاء على الشام، ولم يكن في حوزة الفاطميين عند وفاته عام ٤٨٧هـ (١٩٠٤م) غير

مدن قليلة في جنوب الشام، ومما أضعف نفوذه هناك الثورات المستمرة التي كان الموعز بها أحد أبنائه في مصر.

ويقول كتّاب سيرته إنه كان حسن الأخلاق، وقد أجمعت المصادر التاريخية على امتداحه، وقد زاد دخل مصر من الضرائب في عهده من مليونين إلى ثلاثة ملايين من الدنانير، وقد ساعدت هذه الموارد المالية على الاستفادة من الدروس التي تعلمها من غزوة السلاجقة، فحصّن القاهرة بسور ثانٍ، وبنى الأبواب الثلاثة المنيعة التي مازالت محل الإعجاب، وهي باب زويلة، وباب النصر، وباب الفتوح.

وفي شهر ربيع الأول من عام ٤٨٧هـ (مارس – إبريل ١٠٩٤م) ختمت حياته الجمة النشاط بعد أن أعد ابنه «الأفضل شاهنشاه» كي يخلفه في جميع مناصبه، وبعد أشهر قلائل لحق به الخليفة المستنصر.

ويرجع الفضل في تجديد بناء مسجد العطارين (انظر هذه المادة) إلى بدر الجمالي، فقد زار الإسكندرية عام ٤٧٧هـ (١٠٨٤م) فوجد المسجد قد تخرب فأمر بتجديده والصرف عليه من أموال أخذها من أهل المدينة، وبالمسجد لوحة من الرخام ثبتها الجمالي تذكارًا لهذا الحادث ومازالت موجودة حتى الآن، وتذكر المراجع التاريخية أن المسجد القديم الذي جدده الجمالي قام على أنقاض كنيسة القديس أثناسيوس.

وكان الوزراء في النصف الأول من عهد المستنصر بالله وزراء تنفيذ، إذ كانت كل السلطة في يدي الخليفة الفاطمي، وكان على الوزراء أن ينفذوا أوامره، أما في النصف الثاني من ذلك العهد فقد صار الوزراء وزراء تفويض، فكانت الأمور كلها مفوضة إليهم يتصرفون فيها بمحض إرادتهم، وأصبح الخليفة لا يملك من الحكم إلا الاسم، وأول الوزراء المفوضين في ذلك الحين كان بدر الجمالي، كما كان أول وزير من أرباب السيوف لأن الوزراء قبله كانوا من أرباب القلم أي من العلماء والمفكرين، وكان هو أول من ورَّث ابنه الوزارة، إذ تولاها بعد موته ابنه شاهنشاه الذي أُضْفِي عليه لقبًا جديدًا آخر هو «الأفضل» وصار يدعى «أمير الجيوش، وقاضي القضاة، وداعي الدعاة، الأفضل شاهنشاه» (انظر مادة الأفضل).

٤١٢ – بدر الدين – حارة – بقسم الجمرك

هو علي بك بدر الدين الذي كان من أشهر رجال المحاماة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الميلاديين. وكان ذائع الصيت في مهنته لدرجة أنه كان يضارع في شهرته لدى المحاكم معاصره إبراهيم بك الهلباوي ويتفوق عليه في السمعة الطيبة ولاسيما بعد أن تولى الدفاع عن الإنجليز المحتلين للبلاد في قضية دنشواي المشؤومة مما جعل شاعر النيل حافظ بك إبراهيم (انظر هذه المادة) يدمغه بخاتم الخيانة الوطنية عندما قال له في قصيدته المشهورة عن مذبحة دنشواي (انظر مادة دنشواي):

أنتَ جلاَّدُنا ولا تَنْسَ أنَّا

قد لَبِسْنا على يَدَيْكَ الحِدادا

وعلي بك بدر الدين أصله من مدينة رشيد (انظر هذه المادة)، وبعد تخرجه من مدرسة الإدارة (التي تضارع مدرسة الحقوق القديمة) نزح إلى الإسكندرية، وفتح مكتبًا لأعماله، واستقر في مسكنه بالحارة التي تحمل اسم بدر الدين بحي الجمرك، وقد جني من مهنته أرباحًا مجزية، ومايزال الكثير

من أفراد أسرته بمدينة رشيد، وكان أحد أولاده ناظرًا لمدرسة رشيد الثانوية إلى عهد قريب.

٤١٣- بدر الدين - شارع - بقسم الرمل (فان لنيب سابقًا)

كل ما توصلت إلى معرفته من سيرة «بدر الدين» هو أنه من مواليد مدينة الإسكندرية، وقد نزح إلى القاهرة لتلقي العلم بالأزهر، وعقب تخرجه استقر هناك وتولى أحد المناصب القضائية.

وكانت وفاته بالقاهرة خلال عام ١٤٣٤م (٨٣٨هـ)، وقد أطلقت لجنة تسمية الشوارع اسمه (دون ألقاب) على هذا الشارع الذي كان يحمل اسم «فان لنيب» بعد قيام الثورة الوطنية في يوليو عام ١٩٥٢م (١٣٧٢هـ)، وتقرير استبدال أسماء الأعلام العرب بالأسماء الأجنبية.

٤١٤- بدوي - شارع - بقسم العطارين

٤١٥- بدوي بك - شارع - بقسم محرم بك (امتداد الشارع الأول)

هذان الشارعان يحملان اسم المرحوم محمد بك بدوي ابن محمد بن محمد بدوي، ولد بمدينة المنصورة خلال عام ١٢٧٩هـ (١٨٦٢م)، وهو عميد أسرة بدوي المعروفة بنشاطها الدائب في التجارة والصناعة، والتي أنجبت رجالاً كان لهم أثر قوي في الحركة الاقتصادية والعلمية المصرية.

وقد اشتغل محمد بك بدوي بالتجارة منذ صباه ثم هاجر من المنصورة إلى المدينة المنورة حيث زاول الاتجار في الأقمشة المختلفة، ومال القبان «البقالة» مدة ثلاث سنوات.

وفي عام ١٣١٣هـ (١٨٩٥م) استقر بالإسكندرية واشترك مع خاله محمد أبي النصر في تجارة مال القبان بشارع الميدان (محمود فهمي النقراشي) حاليًا، وكان محمد أبو النصر من كبار تجار الإسكندرية في هذا النوع من التجارة، وله شهرة وسمعة طيبة بين الناس.

وفي ذلك الحين نفسه خطا محمد بدوي أولى خطواته في سبيل الصناعة، فكان من الرواد الأُوَل الذين نافسوا الأجانب في تصنيع البلاد للتخلص من احتكارهم الجشع للإنتاج الصناعي الذي يدرُّ عليهم الأرباح الطائلة، ففي عام ١٣٢٢هـ (١٩٠٤م) أقام هذا العصامي الجسور مصنعًا كبيرًا لإنتاج أنواع الإطريات المختلفة «المكرونة» التي كان صنعها في ذلك الحين وقفًا على الإيطاليين وبعض اليونانيين، يحتفظون بأسرار صنعها إبقاءً على ما يحصلون عليه من فوائد مالية مغدقة. أنشأ محمد بدوي مصنع الإطريات بالشارع الذي يحمل اسمه بالجهة المعروفة بأرض غربال خلف المدرسة العباسية القديمة التي حلت محلها الآن كلية العلوم بجامعة الإسكندرية، ويعد هذا المصنع من أوائل المصانع المصرية الصميمة التي تنتج هذه الأصناف من المواد الغذائية الضرورية.

وفي عام ١٣٣٣هـ (١٩١٤م) خطا محمد بدوي خطوته الثانية في سبيل التصنيع الغذائي، فأقام مصنعًا لإنتاج أصناف الحلوى مثل: الأشربة المسكَّرة (الشربات) والملبّس، وراحة الحلقوم، وما إليها، ومازال هذا المصنع يؤدي رسالته الصناعية

الهامة، وأضاف إلى منتجاته أنواع البسكوت بكميات كبيرة تغطي حاجة البلاد من جميع هذه الأصناف.

وفي شارع محمد بك بدوي نفسه أنشأ الرجل العصامي أول مصنع في القطر المصري لإنتاج الأواني المنزلية واللافتات من الصاج المطلي بالميناء الملونة، وتشمل الأدوات المنزلية التي ينتجها هذا المصنع: العجون والسلطانيات وبرادات الشاي، وطفايات السجاير، والمغارف وما إليها، وقد أُمِّم هذا المصنع منذ سنوات قليلة، وصار وحدة من وحدات القطاع العام الصناعي، وكان إنشاء هذا المصنع خلال عام ١٣٥٣هـ (١٩٣٤م).

وعلى الرغم من أعباء محمد بدوي التجارية والصناعية الكثيرة كان لا ينفك عن قضاء أشهر من بعض السنين بالمدينة المنورة بجوار قبر رسول الله عليه الصلاة والسلام، وذلك حنينًا للسنوات الثلاث التي قطعها من عمره في عهد الصبا في كنف هذا القبر الطاهر، فكان يجاور في هذه الأشهر، ويقوم خلالها بأداء فريضة الحج.

ولحبه لفقراء المدينة المنورة، وعطفه الحادب عليهم أذاع نداءً خيِّرًا تكونت على إثره لجنة من المحسنين ضمت الاقتصادي الكبير محمد طلعت حرب (انظر هذه المادة)، والسيد خشبة، ومحمد كامل الشيشيني للعمل على جمع التبرعات، وإيداعها ببنك مصر، ثم توزيع عائد أسهمها على هؤلاء الفقراء، فكان محمد بدوي يحمل هذا العائد ويقوم بتوزيعه عليهم، علاوة على ما كان يتبرع به من ماله الخاص.

ومحمد بك بدوي هو والد المرحوم الدكتور عبد الحميد بدوي (انظر هذه المادة) المشرع القانوني الذائع الصيت، والذي تولى منصب القاضي بمحكمة العدل الدولية وصار نائبًا لرئيسها قبل وفاته، ووالد محمد بهجت بدوي الذي كان أحد أعضاء مجلس بلدي الإسكندرية، وهو والد المرحوم الدكتور حلمي بهجت بدوي (انظر هذه المادة) الذي تولى رياسة هيئة قناة السويس في أوائل تأميمها، ووالد محمد كامل بدوي أحد أعضاء المجلس البلدي السابقين المنتخبين، وقد تولى رياسة مجلس إدارة الغرفة التجارية ردحًا طويلاً من الزمن.

وتوفي محمد بك بدوي عام ١٣٦٦هـ (١٩٤٦م) بالغًا من العمر ٨٤ عامًا.

٤١٦- بدوي سالم - زقاق - بقسم الرمل

هو بدوي سالم أفندي الذي تعلم في مكاتب مصر ودخل مدرسة الطب البشري بقسم الصيدلة، ثم وقع عليه الاختيار للسفر إلى فرنسا للتخصص في العلوم الكيميائية ولاسيما في صناعة الصابون وشمع العسل وغيرهما من المواد، وقد بدأ دراسته بفرنسا عام ١٨٤٥ م (١٢٦١ هـ) وعاد إلى مصر بعد إتمام دراسته في أواخر عام ١٨٤٧ م (١٢٦٣هـ) وكان ذلك في عهد محمد علي، وعقب عودته منح رتبة الملازم الثاني وعين أستاذًا للأقرباذين (الصيدلية) بمدرسة الطب المصرية، ولا يعرف تاريخ ومكان وفاته.

٤١٧- بدير - حارة - بقسم اللبان

هو أحمد بدير تخرج عام ١٩٠٥م (١٣٢٣هـ)، ودرس بمدرسة القربية الابتدائية ثم بالمدرسة العباسية الثانوية بالإسكندرية، ونقل بعد ذلك إلى مدرستي الخديوية والسعيدية في فترتين نقل، عقب الثانية إلى دار العلوم وظل بها إلى أن

وافته المنية عام ١٩٢٩م (١٣٤٨هـ) بالغًا من العمر ٥١ عامًا، إذ ولد عام ١٨٧٨م (١٢٩٥هـ)، فأبَّنه العلماء، وقد تتلمذ في صباه على الإمام محمد عبده، كما كان مشرفًا على طلبة الأزهر من أهل مسقط رأسه بلقاس.

وكلمة «بُدَيْر» تصغير كلمة بدر التي تعني القمر في اكتمال نوره في الليلة الرابعة عشرة من كل شهر قمري، وقد يكون اسم الشارع للأستاذ أحمد بدير المدونة ترجمته قبل لأنه درَّس بالمدرسة العباسية فترة من حياته العملية، أو يكون لبدير آخر سكن هذه الحارة، ولم أستدل على أية معلومات عنه.

٤١٨- البرامكة - شارع - بقسم العطارين

البرامكة اسم يطلق على أسرة فارسية الأصل كان من أبنائها الوزراء الأول من الفرس في الخلافة الإسلامية، واسم (بَرْمَك) ليس لشخص، وإنما هو لقب يطلق على الموبذ في «نَوْيَهار» وهو منصب كان وراثيًا، وكانت الأراضي الملحقة بمعبد «الموبذ» في أيدي أبناء هذه الأسرة، ومساحة هذه الأراضي تصل إلى ٧٤٠ ميلاً مربعًا، وظلت هذه المساحة في حوزة البرامكة زمنًا طويلاً، ويقول ياقوت في كتابه «معجم البلدان» إن بليدة راون من نواحي طخارستان شرقي بلخ، وهي بليدة ليست كبيرة، أما المستشرق «بارتولد .W Barthold» فيذكر في دائرة المعارف الإسلامية أنها كبيرة كثيرة الخيرات. وهذه البليدة كانت ملكًا ليحيى بن خالد بن برمك.

ومعنى كلمة «نَوْيَهار» تدل على المعبد الجديد إشارة إلى معبد بوذي، وقد عرف بعض جغرافي العرب هذا المعبد ومنهم ابن الفقيه (انظر هذه المادة) الذي قال إن نويهار تعبد فيه الأوثان، وليس بيتًا من بيوت النار، ومن الوصف الذي جاء في المصادر يتضح أنه ينطبق تمامًا على المعابد البوذية.

ولقد حاول مؤرخو الفرس الربط بين هذه الأسرة البرمكية وبين تاريخ الدولة الساسانية، فجعلوا معبد نويهار معبدًا من بيوت النار، ونسبوا إنشاءه إلى ملوك الفرس الأقدمين، وما من شك في أن هذا الزعم نشأ بعد عهد هارون الرشيد، ثم ذاع أمره في المؤلفات المتأخرة التي تأثر بها الرواة المحليون والعلماء المحدثون على السواء.

ومن المحتمل أن يكون ابن المقفع (انظر هذه المادة) هو صاحب هذا الزعم، وإن كان معاصره خالد البرمكي لم يكن له من النفوذ أيام أبي العباس والمنصور، ما كان ليحيى البرمكي في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد، غير أن مكانة خالد وكرمه الذي عمَّ خيره أهل بيته جميعًا كانا من المغريات بوضع الروايات الفارسية التي تعظم من شأن البرامكة، وتعلي من قدرهم.

ويقول البلاذري إن «نويهار» هدم في عهد معاوية بن أبي سفيان (انظر مادة معاوية) في حوالي عام ٤٢هـ (٦٦٣ - ٦٦٤م)، ويقول الطبري إن الأمير نيزك صلَّى في نَوْيَهار عام ٩٠هـ (٧٠٨ - ٧٠٩م).

ولم تذكر المصادر التاريخية عن برمك أبي خالد البرمكي وعن أجداده شيئًا، وكل ما يعرف عنهم يدخل في نطاق الأساطير، ولم يستطع ابن خلِّكان الجزم بأن برمك رأس الأسرة البرمكية قد اعتنق الإسلام.

ويذهب ابن الفقيه إلى أن خالد بن برمك هذا من ابنة أمير جعفاني، ويقول الطبري (انظر هذه المادة) في حديثه عن حملة قتيبة بن مسلم العسكرية على العصاة في بلخ عام ٨٦هـ (٧٠٥م) أن زوجة الموبذ كانت من السبايا، وأنها أمضت ليلة مع عبد الله أخي قتيبة، وحملت بخالد في هذه الليلة، ثم أطلق سراحها مع بقية الأسرى في اليوم التالي، وواضح مما ذكره الطبري عن أصل هذه القصة الطريفة أنها من تصنيف عبد الله أخي قتيبة، وأنها لا تشرِّف الأسرة البرمكية بالدم العربي، بقدر ما كان غرضها تقريب البيت العربي من البرامكة أصحاب الحظوة لدى الخليفة العباسي، ومن المحتمل معرفة تاريخ مولد خالد البرمكي في ثنايا هذه الأسطورة.

أما وفاة خالد بن برمك فقد ذكر أنها كانت خلال عام ١٦٥هـ (٧٨١ – ٧٨٢م)، ويدل ذلك التاريخ على أنه كان في الخامسة والسبعين عند وفاته، وكان أبوه برمك عالِمًا ومبرَّزًا في الفلك والطب والفلسفة، وقد عالج الأمير مسلمة بن عبد الملك بن مروان من داء كان يشكو منه، ويستدل من ذلك على أنه رحل إلى دار الخلافة في عهد الخليفة عبد الملك عام ٨٦هـ (٧٠٥م)، وهو العام الذي توفي فيه هذا الخليفة الأُموي، ويظهر أن برمك عاد إلى موطنه بعد ذلك.

وفي عام ١٠٧هـ (٧٢٥ – ٧٢٦م) أعاد بناء بلخ التي كانت قد خُرِّبت، وذلك بأمر الوالي أسد بن عبد الله، فقام بالبناء على أحسن وجه. ومما تقدم يتضح أنه من العسير معرفة تاريخ ولادة خالد بن برمك، ومراحل تعليمه بالضبط، ومن العسير أيضًا معرفة تاريخ تقربه من الخليفة ابن العباس عبد الله السفاح بعد قتل أبي سلمة حفص الخلال، أو سبب هذا التقرب الذي بلغ من توثق الروابط بينهما حدًّا جعل زوجة كل منهما ترضع ابنة الآخر، وبعد عام ١٣٢هـ (٧٤٩م) أسند إلى خالد الإشراف على ديوان الخراج، وتقول بعض المصادر ومن بينها كتاب «وفيات الأعيان» لابن خلكان: «إنه كان يلقب بالوزير في ذلك الحين، ويظهر أنه كان أول الكتاب الذين حملوا لقب الوزارة».

والواقع هو أن خالدًا لم يكن وزيرًا بالمعنى الذي دلت عليه هذه الكلمة فيما بعد، ولم تكن شهرته مقصورة على القدرة في الحكم والسداد في المشورة، وإنما تعدتهما إلى البراعة في الحرب، فقد انضم إلى أبي مسلم وقائده قحطبة بن شبيب لمناصرة آل بيت رسول الله ومحاربة بني أمية، ثم صار عاملاً على طبرستان في المدة من عام ١٤٨ إلى ١٥٢هـ (٧٦٥ – ٧٦٩م)، وخرَّب في أثناء ذلك مصمقان في جبل دماوند، ويقال إن أهل طبرستان نقشوا – عقب هذا الانتصار – صورة خالد وسلاحه على دروعهم.

وفي عام ١٦٣هـ (٧٧٩ – ٧٨٠م) ظهرت براعته الحربية في الاستيلاء على صمالو، وهو حصن من حصون الروم، على الرغم من أنه كان قد تقدمت به السن.

ونجد خالدًا مشيرًا للخليفة العباسي المنصور، ففي عام ١٤٦هـ (٧٦٣ – ٧٦٤م) أخذ الخليفة بمشورته في تخطيط مدينة بغداد، وفي عام ١٤٧هـ (٧٦٤م) أُخذ بمشورته في تنازل عيسى بن موسى عن حقه في ولاية العهد، ويُنسب لخالد علاوة على ذلك تخطيط كثير من المباني ببغداد وتخطيط مدينة المنصورة في طبرستان في أثناء ولايته عليها.

وقبيل وفاة المنصور عُيِّن عاملاً على الموصل، ونصب ابنه يحيى على أذربيجان، ويذكر المؤرخون أن أهل الموصل لم

يوقروا عاملا كما وقرروا خالدًا، إذ لم يكن يلجأ إلى القسوة في معاملتهم، ويقول المسعودي بأن أحدًا من أبنائه لم يصل إلى درجة نيل الخصال التي كان عليها خالد، الذي توفي عام ١٦٥هـ (٧٨١ – ٧٨٢م) كما تقدم القول.

ويقول ابن عساكر (انظر هذه المادة): «إن ولادته كانت سنة ٩٠ هـ (٧٠٨ هـ)، وعلى هذا الأساس يكون قد بلغ ٧٦ عامًا عند وفاته».

ويذكر ابن خلِّكان أن ابنه يحيى توفي في ٣ من المحرم عام ١٩٠هـ (٨٠٥م) بالغًا من العمر السبعين أو الرابعة والسبعين، ومن ثم يكون قد ولد عام ١٢٠هـ (٧٣٨م)، أو قبل ذلك ببضع سنين، وعلى خلاف أبيه خالد لم يشتهر إلا بأنه كان عاملاً ووزيرًا، فلم يُرْوَ عنه غزو أو فتح، وأهم ما خلفه من الأعمال قناة سيحان بالبصرة، وعهد إليه الخليفة المهدي بتأديب ابنه هارون الرشيد عام ١٦١هـ (٧٧٧م)، وبعد عام ١٦٣هـ (٧٧٩م) كان يحيى يشرف على ديوان الرسائل لولي العهد الذي استعمل على جميع الولايات التي تقع غرب نهر الفرات، بما في ذلك أرمينية وأذربيجان، وتعرضت حياة يحيى البرمكي للخطر في الفترة القصيرة التي حكم فيها الخليفة الهادي (انظر هذه المادة) بسبب اتصاله الوثيق بهارون الرشيد الذي رغب خصومه في إرغامه على التنازل عن حقه في ولاية العهد، ولذلك بمجرد أن وصل هارون الرشيد إلى عرش الخلافة اتخذ من يحيى البرمكي وزيرًا له، وكان مازال يدعوه «يا أَبَتِ»، ومنحه سلطة لا حد لها، ومكث يحيى يحكم بمعاونة ولديه الفضل وجعفر سبعة عشر عامًا من عام ١٧٠ إلى ١٨٨هـ (٧٨٦ – ٨٠٣م)، أما ابناه الآخران: موسى ومحمد، فلم يكن لهما نفوذ يذكر في الدولة وتصريف أمورها.

وكان الفضل بن يحيى البرمكي المولود عام ١٤٨هـ (٧٦٥– ٧٦٦م) أكبر أبناء يحيى وأعظمهم شأنًا، وقد عين عاملاً في المدة الواقعة بين عامي ١٧٦ و١٨٠هـ (٧٩٢ – ٨٠٩م) على الولايات التي تشمل الجبال وطبرستان ودنباوند وقومس، كما كان عاملاً مدة من الزمن على أرمينية وأذربيجان، وكذلك على خراسان من عام ١٧٨ إلى عام ١٧٩هـ (٧٩٤ – ٧٩٥م)، ويقول اليعقوبي (انظر هذه المادة) إنه لم يوفق في حروبه بأرمينية، أو بداغستان بنوع خاص، وتنسب إليه في خراسان أعمال ليس من المعقول أن يكون قد قام بها في مدة ولايته القصيرة على هذه البلاد، ويقال إنه جنَّد للخليفة ٥٠٠ ألف من الخراسانيين، أرسل عشرين ألفًا منهم إلى بغداد، وأبقى الآخرين في خراسان، وإنه أحرز انتصارات باهرة، وشيد الكثير من المساجد، والرباطات العسكرية، وحفر قناة جديدة في بلخ، وشيد مسجدًا جامعًا في بخارى، وهو أول من أدخل القناديل في المساجد خلال شهر رمضان، ويقول المسعودي إن الفضل كان منغمسًا في اللهو والصيد في أثناء الأيام الأولى من ولايته، ولكنه انتهى عن ذلك عندما وصله كتاب من أبيه يحيى ينهاه عن ذلك.

أما جعفر بن يحيى فقد استفاضت شهرته في القصص، وقد ولد عام ١٥٠هـ (٧٦٧م)، وكان في السابعة والثلاثين من عمره عند وفاة والده يحيى، ويقول المستشرق «بارتولد» نقلاً عن الجاحظ في كتابه «البيان والتبيين» الجزء الثاني صحيفة ١٥١ إن جعفرًا كان أول من استعمل رباط الرقبة (الأُربة بالفصحى) لطول عنقه، ويقول الطبري في تاريخه إن أباه يحيى لم يكن راضيًا عن صلته بالخليفة هارون الرشيد الوثيقة جدًّا لأنها تُردُّ إلى رذيلةٍ شاذة!!.

وبما أن هارون الرشيد قد ولد في حوالي عام ١٤٩هـ (٧٦٦م) أي بعد ميلاد جعفر بعام واحد فإن الأمر يختلط على المحقق في أي من الرجلين كان يمارس هذه الرذيلة مع من الآخر، ولا يستطيع – من جهة أخرى – أن يجزم بأن الاثنين كانا يمارسانها على التناوب.

وعلى العكس من هذا الوصف الشائن الذي ينسبه الطبري إلى الرجلين، فإن المصادر التاريخية الأخرى تحيط كل منهما بالتجلة والتعظيم، ومن هؤلاء الذين بجَّلوا جعفر البرمكي، ابن خلِّكان الذي ذكر في كتابه «وفيات الأعيان»: «أن جعفر ابن يحيى الملقب بأبي الفضل كان من علوّ القدر ونفاذ الأمر، وبعد الهمة، وعظم المحل، وجلالة المنزلة عند هارون الرشيد بحالة انفرد بها، ولم يشارك فيها، وكان سمح الأخلاق، طلق الوجه ظاهر البشر، وأما جوده وسخاؤه وبذله وعطاؤه فكان أشهر من أن يذكر، وكان من ذوي الفصاحة، والمشهورين باللسن والبلاغة، ويقال إنه وقع ليلة بحضرة الرشيد زيادة على ألف توقيع، ولم يخرج في شيء منها عن موجب الفقه، وكان أبوه قد ضمه إلى القاضي أبي يوسف (انظر هذه المادة) الحنفي حتى علمه وفقهه»، فهل كل هذه المناقب تستقيم مع ما ذكره الطبري في تاريخه مما يشين سمعة جعفر والرشيد على السواء؟.

ويذكر ابن خلكان في سماحة أخلاقه أن رجلاً جاءه يعتذر عما بدر منه في حقه فقال له جعفر: «قد أغناك الله بالعذر منا عن الاعتذار إلينا، وأغنانا بالمودة لك في سوء الظن بك»، ويقول عن تضلعه في اللغة العربية والبلاغة إنه أرسل توقيعًا إلى أحد عماله وقد شكت منه الناس، فقال في هذا التوقيع للعامل: «قد كثر شاكوك، وقل شاكروك، فإما اعتدلت وإما اعتزلت»، وهذا التوقيع يشبه إلى حد كبير توقيع أحد الخلفاء الراشدين إلى أحد العمال، وقد جاء به: «أيها العامل كثرت الشكوى، وعمت البلوى، فإما عدلت وإما عزلت»، ويثني ابن خلكان على كرمه وسعة عطائه الذي يفوق الوصف، ثم يقصّ حكاية دخول عبد الملك بن صالح عليه وهو في إحدى ليالي سمره ولهوه فيكرم وفادته، وبعد أن يأكل ابن صالح على مائدته ويشرب من نبيذه يسأله فيما يطلب من الخليفة هارون الرشيد فيقول إنه يريد أن يصفح الخليفة عنه لما بدر منه، وأن يدفع ما عليه من الديون وقدرها أربعة آلاف ألف درهم، وأن يسمح هارون بأن يتزوج ابنه من ابنة الخليفة، وأن يرفع على رأسه لواءً لرفع قدره، فكان جعفر يقول له عند كل واحد من هذه المطالب لقد أجيبت حاجتك، وقد صفح الخليفة عن عبد الملك بن صالح ودفع عنه دينه وزوَّجه ابنته العالية، وولاه حكم مصر، وكل ذلك بأمر جعفر البرمكي الذي كان الخليفة لا يرد له طلبًا، فكان هو الحاكم الفعلي للدولة العباسية يأمر فيطاع في غير تردد، هذا إذا صحت هذه الرواية، ولم تكن من وضع ابن خلكان نفسه.

ومن الحكايات التي تروى عن جعفر أنه اشترى جارية بأربعين ألف دينار فقالت الجارية لمولاها اذكر ما عاهدتني عليه أنك لا تأكل لي ثمنًا، فبكى الرجل، وقال اشهدوا أنها حرة وقد تزوجتها، فما كان من جعفر إلا أن وهب له المال ولم يأخذ منه شيئًا، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على السفه الذي اندمج فيه هؤلاء البرامكة الفرس الذين كانوا من أوائل المعاول التي هدمت الدولة العباسية بعد ذلك وقوضت دعائم الدولة العربية، فتفكك تماسكها وتفتتت صلابتها على مر السنوات التالية.

وتؤكد المصادر التاريخية أن جعفر كان متمكنًا عند هارون الرشيد، غالبًا على أمره واصلاً منه، وبلغ من علوّ المرتبة عنده ما لم يبلغه إنسان غيره، لدرجة أنه يقال إن الرشيد اتخذ ثوبًا له زيقان، فكان يلبسه هو وجعفر جملة، ولم يكن للرشيد صبر عنه، وكل هذه الأقوال قد يكون في جانب ما ذهب إليه الطبري من أن الصلة بين الرجلين كانت مشينة، ولاسيما فيما يتعلق بزواج جعفر من العباسة أخت الرشيد.

فالرشيد كان شديد المحبة لأخته العباسة لدرجة أن بعض المؤرخين يقولون إنه كان يعشقها، وقد كانت أعز النساء عليه، وكان لا يقدر على مفارقتها، فكان متى غاب جعفر أو العباسة لا يتم له سرور، ومن ثم عرض على جعفر أن يتزوجها ليراهما دائمًا معًا، واشترط على جعفر ألا يجتمع بها في خلوة أبدًا، فتزوجها جعفر على هذا الشرط، وبقي هذا الشرط القاسي منفذًا مدةً من الزمن، غير أن العباسة أحبت جعفرًا وراودته عن نفسه فأبى وخاف بطش الرشيد، فعمدت العباسة إلى الخديعة بأن أغرت عُتابة أمه بأن ترسلها إليه عوضًا عن الجواري التي كانت ترسل واحدة منهن كل ليلة لابنها جعفرًا ليلهو عن زوجته، وبعد أن سكر جعفر دخلت عليه العباسة، وكان لا يعرفها معرفة واضحة لأنه كان يخاف أن ينظر إليها في حضرة الرشيد، وهكذا قضى منها وطرًا، ولما عرف الأمر طار السكر من رأسه، وقد حملت العباسة وولدت ولدًا خافت عليه، فأرسلته إلى مكة. وكان يحيى البرمكي والد جعفر المؤتمن على حريم القصر، وكان يضيّق الخناق على زبيدة وجواريها فشكته زبيدة زوجة الرشيد وفضحت سر جعفر والعباسة، وأبلغت الرشيد بأمر الطفل، فخرج الرشيد إلى الحج ومعه جعفر، وتقصى أمر الطفل فعلم أنه صحيح، وأن أمه العباسة أخرجته إلى اليمن، ومن ثم أضمر السوء للبرامكة، وقد يكون في هذه القصة - إن صحت - ما يؤيد ظنون الطبري في أمر الرشيد وجعفر، وما يؤيد قول الآخرين في هيام الرشيد بأخته العباسة مما يتجاوز حب الأخ لأخته، ويتعداه إلى ما يدعو إلى سوء الظن بهذه العلاقة الشاذة.

والثابت هو أن جعفر لم يفارق الرشيد إلا في رحلة قصيرة إلى الشام عام ١٨٠هـ (٧٩٦ - ٧٩٧م) لكي يصلح بين قبائل العرب التي كانت تتقاتل، ومع هذا فقد أسرف جعفر في التعبير عن حزنه لفراق الخليفة ورغبته في العودة إليه، وقد استعمله الرشيد على ولايات واسعة عدة مرات، فكان يدير شؤونها بوساطة نواب عنه، وهو في بغداد لا يغادرها.

وتقول بعض المصادر إنه من الصعب الجزم بأن أمور الدول العباسية كانت كلها في قبضة يديه دون الخليفة باعتباره وزيرًا، ومن الصعب كذلك تعيين المباني والأعمال البارزة التي قام بها، غير أنه مما يدل على نفوذه الكبير في الدولة ظهور اسمه على سكة النقود بجانب اسم الخليفة الرشيد.

ولم يكن لأبيه يحيى البرمكي خلال الأعوام السبعة عشر التي قضاها في الحكم من سعة النفوذ ما يذكر، وقد كان على جعفر في الأعوام الأولى لحكمه أن يعرض شؤون الدولة على الخيزران أم الخليفة هارون الرشيد حتى وفاتها عام ١٧٢هـ (٧٨٩ - ٧٩٠م)، وعقب وفاتها أُخذ الخاتم منه، وعُهد بكثير من أمور الرعية إلى الفضل بن الربيع الذي كان منافسه، ثم خلفه في الوزارة فيما بعد عقب نكبة البرامكة، كما سيأتي في القول عن ذلك.

ويروي ابن خلكان قصة قتل جعفر فيقول إن الخليفة هارون الرشيد دعا غلامه المدعو «ياسر» وأمره بأن يذهب إلى جعفر بن يحيى فورًا، ثم يأتيه برأسه عاجلاً، فدخل ياسر على جعفر ولديه المغنّون والسُّمَّار، ولما علم بخبر قتله قبَّل قدمي ياسر جبنًا، وسرعان ما قطع رأسه وقدمها للرشيد، وقد رثاه كثير من الشعراء لما كان يغدق عليهم من العطايا من أموال الدولة ليبقى في مكان العظمة والأبهة هو وأفراد أسرته، مستغلاً ضعف الخليفة، وحبه المفرط له.

وفي عام ١٧٩هـ (٧٩٥ – ٧٩٦م) خلف الفضل ابن الربيع محمدًا ابن خالد البرمكي في الحجابة، وكان استعمال علي بن عيسى بن ماهان على خراسان مخالفًا لرغبة هذا الوزير، وفي حجة عام ١٨١هـ (٨٩٧م) أجيب إلى طلبه في اعتزال الحكم والبقاء في مكة، ولكنه عاد إلى بغداد في العام التالي، ويبدو أنه تولى الوزارة مرة أخرى.

ويتضح من سياق هذه الحوادث أن نكبة البرامكة سبقتها ممهدات عدة، أدت في النهاية إلى وقوعها، ومن ثم فإن هذه النكبة لم تكن نتيجة لرغبة فجائية للخليفة الرشيد.

ففي الليلة الأولى من شهر صفر عام ١٨٧هـ (٢٩ يناير عام ٨٠٣م) قتل جعفر البرمكي وزج أبوه يحيى وإخوته الثلاثة في السجن، وصودرت أملاكهم، وأُعطي الأمان لأقارب جعفر، ولم يلحق بمحمد بن خالد أخي يحيى أو بأفراد أسرته مكروه.

وقد أمر الرشيد فعلق رأس جعفر على جسر بغداد الأوسط، كما علق نصفا جسمه على الجسرين الآخرين، ويظهر من هذا التنكيل البشع أن هارون الرشيد قصد به التنفيس عن ضيق نفسه وأعماق وجدانه المغمور بالخزي، لما كان بينه وبين جعفر من صلات مشبوهة، وما كان بينه وبين أخته العباسة من أمر عجيب، كما قصد به إبلاغ الناس أنه مازال الخليفة الحقيقي وأمير المؤمنين دون منازع ولا شريك.

ومات يحيى البرمكي وابنه الفضل قبل الرشيد، ولا نعرف عن مصير ابنيه الآخرين موسى ومحمد شيئًا.

وتفرق أفراد الأسرة البرمكية بعيدًا عن بغداد، فكان عمران بن موسى بن يحيى المدافع عن المدائن بلد آل ساسان أمام جيش المأمون (انظر هذه المادة)، ثم كان نائبًا لعامل السند في عام ٢١٦هـ (٨٣١م)، وذُكر أبو القاسم عباس ابن محمد بن يحيى البرمكي على أنه واحد من آخر وزراء الدولة السامانية.

ولا يوجد بالمراجع التاريخية ما يساعد على إحصاء أعمال البرامكة، وتقدير محاسنهم ومساوئهم، والشائع هو أنهم كانوا مسلمين معروفين بالتقوى واشتهروا بحجهم وبالمباني التي شيدوها، وذلك في بعض المراجع التي تتعرض لسيرتهم، أما المراجع الأخرى فتتهمهم بالاستخفاف بالتعاليم الإسلامية وبالإسلام نفسه، وأورد الجاحظ (انظر هذه المادة) في كتابه «البيان والتبيين» بيتين من الشعر لشاعر مجهول (نسبهما الأصمعي لابن قتيبة) (انظر هذه المادة)، قال فيهما:

إذا ذُكِرَ الشِرْكُ في مجلسٍ
أنارتْ وُجوهُ بَني بَرْمكِ

وإنْ تُليَتْ عنْدهم آية
أَتُوا بالأحاديثِ عن مَزْدَكِ

وليس من الغريب أن ينسب إليهم هذا الشرك ، فإسلامهم كان حديثًا ، وتأثرهم بالديانة المزدكية الفارسية كان مايزال راسخًا في نفوسهم ، يعتمل في قرارة عقلهم الباطن وفي عمق وجدانهم .

ومزدك هو صاحب الديانة المزدكية ، وقد خرج في أيام قَبَّاذ بن فيروز فبدل شريعة زرادشت ، واستحل المحارم وسوَّى بين الناس في الأموال والنساء والعبيد ، وكثر أتباعه ، وعظم شأنه ، وتبعه قَبَّاذ نفسه ، ولم يزل كذلك حتى ولي كسرى أنوشروان الحكم فقتله ، وأباد أتباعه .

وقال الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين) الآنف الذكر ، إن شاعرًا آخر – لم يذكر اسمه – قال عن نفسه:

إن الفراغَ دعاني
إلى ابتناءِ المساجد

وإنَّ رأيي فيها
كرأي يَحْيَى بن خالد

وهذا يدل على أن الناس كانوا يرون في هؤلاء البرامكة زنادقة يدارون مروقهم بتصنع التقوى ، والمحافظة على الدين الإسلامي ، ومن جهة أخرى يروي لنا التاريخ أن الخليفة العباسي المنصور اتهم وزيره خالدًا بأن هواه مع الفرس ، ويذكر الطبري أن الخليفة الهادي يحيى بالكفر ، وليس من المستبعد أن هارون الرشيد تبين في صديقه وحبيبه جعفر نزعة الزندقة خلال مجالسهما الماجنة ، ولما ثاب الخليفة إلى رشده بعد مرور السنين ، لم يجد بدًّا من الفتك بهؤلاء الزنادقة جرثومة الفساد في الأمة العربية منذ أن تظاهروا باعتناق الإسلام لتحقيق مآربهم المادية النفعية ، فكانوا من أقوى المعاول التي هدمت كيان الدولة العباسية .

ومما يدل على أن سقوط سيطرة البرامكة على الحكم كان فاتحة العودة إلى تعاليم الإسلام الحقة أن السكة بعد عام ١٨٧هـ (٨٠٢م) لم تكن تحمل اسم الخليفة أو وليّ عهده كما كان منذ عهد الخليفة المهدي .

وإذا كان البرامكة قد نمّوا موارد الدولة المالية بسبب اتساع رقعة الفتوحات الإسلامية فإنهم أغدقوا الثراء على مواليهم ، وعلى كل من كان يدين لهم بالولاء والطاعة ، ومن ثم نجد أن كثيرًا من المؤرخين الذين أعماهم العطاء الجزيل يسرفون في مدح البرامكة ، ويسكتون عن معظم مساوئهم ومخازيهم .

وليس صحيحًا أن يقال إن عهد هارون الرشيد كان عهد الخلافة الذهبي حينما كان البرامكة يمارسون أعباء الوزارة ، كما يقول بعض المؤرخين الذين شملتهم الرعاية البرمكية ، ومن الغريب أن صاحب الأغاني – وهو أبو الفرج الأصفهاني (انظر مادة أبي الفرج) – أطنب في صفاتهم وتمجيدهم وما كان لهم من فضائل على حد قوله ، وكل ما يذكر لهم بالخير هو أن النظام توطد في عهدهم في ولاية عربية خالصة هي ولاية الشام .

ويلاحظ أن أبا الفرج الأصفهاني ، وابن خلكان اللذين كالا المديح للبرامكة من الفرس ، ومن هنا نستبين تشيعهما للبرامكة في غير تحفظ ، ومن جهة أخرى فإن ابن خلكان من أسرة البرامكة ، إذ إنه يلقب بالبرمكي الإربلي .

٤١٩- برتوليه - شارع - بقسم المنشية (النجرة حاليًّا)

هو «كلود لويس كونت دى برتوليه Claude Louis Comte de Berthollet» ولد بمدينة «تالوار Talloire» بالقرب من «آنسي Annecy»، خلال عام ١٧٨٤م (١١٦١هـ)، وكان أحد الكيمائيين الفرنسيين المشهورين، وقد درَّس مادة الكيمياء لنابوليون بونابرت عقب انتهائه من معارك إيطاليا التي حالفه النصر فيها، وقد كلفه بونابرت بتعبئة ما يلزم لحملته لغزو مصر من مهندسين وعلماء، وذلك من مدرسة الهندسة بباريس، ومن معهد التاريخ الطبيعي، ومن «كلية فرنسا Collège de France».

إذا كان نابوليون بونابرت في حاجة لهؤلاء الأخصائيين أكثر من غيرهم فيما اعتزم عليه، وهو هدفه الخفي الذي يتركز في حفر قناة السويس، وفتح طريق الهند دون أن تعلم بريطانيا بنواياه، ولذلك كان «برتوليه» يتحدث عن هذا المشروع بعبارات مبهمة غامضة لا تفصح عن هذه النوايا بكيفية واضحة.

وبرتوليه هو مكتشف إزالة الخواص الملونة في مادة الكلور، واستخدام ذلك في تبييض الأقمشة، ومكتشف استخدام الفحم في ترشيح مياه الشرب، ومكتشف المسحوق المفرقع من مادة كلورات البوتاس، وواضع قوانين تفكك الأملاح، وغيرها من القوانين الطبيعية.

وقد تبع نابوليون بونابرت في حملته على مصر بعد أن عبأ الكثير من العلماء والمفكرين الذين انضموا إلى البعثة التي أطلق عليها اسم «قومسيون العلوم والفنون»، وكان معظم أعضائها من الشبان الذين لم تثنهم المخاطر والصعاب عن الانخراط في سلك هذه البعثة العلمية، وكان بونابرت قد عين أكثر من مائة في البعثة، ولكن خمسين آخرين طلبوا الانضمام إليها قبيل سفر الحملة، وكان من بينهم «فيفان دينون Vivant Denon» (انظر مادة دينون)، وبعد رحيل الحملة الفرنسية عن مصر عاد «برتوليه» إلى فرنسا في ٢٣ أغسطس عام ١٧٩٩م (١٢١٤هـ).

٤٢٠- البرجوان - شارع - بقسم مينا البصل

هو الأستاذ أبو الفتوح برجوان، وقد أطلق اسمه منذ زمن بعيد على حارة بالقاهرة تسمى حارة برجوان، ويستدل من سيرة حياته أنه كان أحد الذين خدموا الدولة الفاطمية في عهد العزيز بالله، خامس خلفائها (انظر مادة الفواطم)، وفي عهد ابنه الحاكم بأمر الله كان يدير شؤون الدولة وشؤون مصر، والحجاز، والشام، والمغرب، علاوة على أعماله الرئيسية في القاهرة، وكان نافذ الأمر مطاعًا، على الرغم من أنه كان زنجيًّا أسود اللون، مما يدل على أن الحكم الإسلامي لا يفرق بين الألوان والأجناس بالنسبة لبني آدم جميعًا، غير أن ابن القلانسي يقول إنه كان أبيض اللون.

وذكر ابن الصيرفي الكاتب المصري في جملة ما كتب عن أخبار وزراء مصر: «أن برجوان عين وزيرًا وأخذ ينظر في أمور الدولة ابتداءً من شهر رمضان عام ٣٨٧هـ (٩٩٧م)».

وفي يوم الخميس ١٥ جمادى الأولى عام ٣٩٠هـ (١٠٠٠م) أمر الحاكم بأمر الله الذي عرف بشذوذه العقلي، بقتل وزيره برجوان، فضربه أبو الفضل ريدان الصقلي صاحب مظلة الخليفة في جوفه بسكين، فمات في الحال، ويقول ابن

الصيرفي: «إن برجوان هذا ترك عددًا من السراويل نيف على الألف وكانت من السراويل الديبقي بألف تكة من الحرير، كما خلف من الملابس والأثاث والفرش والآلات والكتب والطرائق عددًا لا يستطاع حصره».

وريدان الصقلي قاتل برجوان ينسب إليه باب الريدانية أحد أبواب القاهرة خارج باب الفتوح في الزمن الغابر.

وقد استولى الحاكم بأمر الله على جميع ممتلكات برجوان عقب اغتياله، ومنحها لقائد قواده أبي عبد الله الحسين بن القائد جوهر (انظر هذه المادة)، ثم أمر الحاكم بأمر الله بقتل ريدان في أوائل عام ٣٩٣هـ (١٠٠٣م)، فقتله مسعود الصقلي صاحب السيف، وهكذا قضى على المقتول والقاتل.

وكان برجوان هذا خصيًّا، ولقب بالأستاذ، أما نسبته فغير محققة، ويقول المقريزي إنه صقلبيّ أو صقليّ الأصل، وقد جعله العزيز بالله الفاطمي وصيًّا على وليِّ عهده الطفل، فلما مات العزيز بالله أقام برجوان ابنه خليفة ولقب «بالحاكم بأمر الله»، واقتصر دور برجوان في أول الأمر على الوصاية على الخليفة الحدث، أما السلطة فكانت في يد «الواسطة» وهو ابن عمار الكتامي قائد جند البربر والحزب البربري المغربي، وكانت سياسة ابن عمّار مزعجة للخليفة الحاكم بأمر الله ولوصيه برجوان، وما من شك في سياسة البربر قد أغضبت الأتراك والمصريين في الجيش بل وأغضبت جميع سكان مصر.

وقد انحاز برجوان إلى المشارقة ضد البربر المغاربة فكتب إلى منكوتكين الوالي التركي على دمشق يدعوه إلى القدوم بجيشه لتخليص مصر والخليفة من طغيان البربر، فتقدم منكوتكين في جيش من الأتراك والديلم والسودان والعرب ولكنه هزم قرب عسقلان أمام جيش بربري أنفذه ابن عمار بقيادة سليمان بن جعفر بن فلاح، ومن ثم اضطر برجوان إلى الخضوع حينًا لابن عمار، غير أنه استطاع بعد ذلك بقليل أن يتحدى ابن عمار مرة أخرى، ونجح في هذا التحدي وألحق الهزيمة بابن عمار، وتولى الوساطة مكانه بعد اختفائه، وصار المدير الفعلي لشؤون الدولة الفاطمية، وذلك في رمضان عام ٣٨٧هـ (٩٩٧م)، وقد عامل البربر في رفق، وكانت شوكتهم قد تحطمت إلى غير رجعة.

وفي الشام ذبح الجنود البربر الكتامية، واستطاع برجوان أن يخضع العرب المتمردين في فلسطين وفي صور، كما نجح في صد هجمات الروم برًّا وبحرًا، وانتهت المفاوضات الدبلوماسية بعقد صلح بين الإمبراطوريتين البيزنطية، والفاطمية مدته عشر سنوات.

أما في الغرب فقد نجح برجوان في غزو برقة وطرابلس، وولّي على كل من المقاطعين خصيًّا، غير أن فتح طرابلس كان قصير الأبد.

وشجعت هذه الانتصارات برجوان على اتخاذ موقف التشدد والتحكم حيال الخليفة الشاب؛ فمنعه من ركوب الجياد ومن الإنفاق على العطايا والمنح، وذهب في هذا التحكم إلى نعت الحاكم بأمر الله بأنه «الوَزَغَة» فأثار هذا اللقب المشين حفيظة الخليفة، وهكذا أمر الخليفة المملوك الخصي أبا الفضل ريدان الصقلي بقتل برجوان فقتله.

وقد أثار مصرع برجوان غضب العامة وغضب الأتراك، إذ خشوا عودة الحكم البربري، غير أن الخليفة ظهر لهم عند

باب قصره، ودافع عن تصرفه مؤكدًا أن برجوان كان يريد عزله فأخذ يتآمر عليه.

ويقال إن برجوان كان ذواقة محبًّا لمناعم الحياة، وكانت داره ملتقى الشعراء والموسيقيين، ودهش معاصروه عقب قتله من صنوف الملابس والكتب والاصطبلات والأمتعة التي تركها.

٤٢١- البردي - حارة - بقسم باب شرقي

اسمه أحمد بن محمد بن عبد الرحمن أبو عبيد البردي، وهو مؤلف كتاب «الغريبين»، ويلقب بالعبدي المؤدب الهروي الفاشاني، وكان من أكابر العلماء، وقد برز علمه الغزير الواسع الأفق في كتابه الآنف الذكر، ومن أخباره القليلة إنه كان من أصحاب أبي منصور الأزهري اللغوي، وقد تتلمذ عليه وانتفع به وتخرَّج على يديه.

وفي كتابه «الغريبين» جمع بين تفسير غريب القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، فذاع صيت هذا الكتاب في كافة البلدان الإسلامية لنفعه الجزيل.

ويقول مؤرخو سيرته إنه كان يحب التبذل، ويتناول في الخلوة، ويعاشر أهل الأدب في مجالس الملذات والطرب، وقد أشار الباخرزي إلى ذلك عندما تعرض لتراجم بعض أدباء خراسان.

ويرجع لقبه «الهروي» إلى مدينة هراة إحدى مدن خراسان الكبرى، ولقبه «الفاشاني» إلى «فاشان» وهي قرية من قرى هراة، ويتضح من هذين اللقبين أنه ولد «بفاشان» بالقرب من هراة بخراسان.

وكانت وفاته في شهر رجب سنة ٤٠١هـ (١٠١٠م) ومازال تاريخ ميلاده مجهولاً.

٤٢٢- بركة - حارة - بقسم محرم بك

لقب بركة تحمله أسرة من أسر الإسكندرية القديمة، كان جدها الأكبر يقطن بحي الجمرك، ولعل «بركة» الذي أطلق اسمه على هذه الحارة بقسم محرم بك، أحد أفراد هذه الأسرة.

وبما أن بقسم الجمرك شارع يحمل اسم «الشيخ محمد بركة»، وبما أن أحد أولياء الله السكندريين الذين نقلت أضرحتهم إلى مجمع الأضرحة الكائن بجوار مسجد سيدي أبي العباس المرسي يدعى «سيدي محمد بركة»، ولما كانت أسرة «بركة» الشهيرة كان مقر أفرادها بحي الجمرك، فإن الغالب على الظن والمرجح عندي هو أن الشيخ محمد بركة هو جد الأسرة التي نحن بصددها، ومن ثَمَّ يستطيع القارئ أن يطلب ترجمة هذه الأسرة في «الشيخ محمد بركة».

٤٢٣- البُستي - شارع - بقسم العطارين

لقب البُستي ينسب إلى مدينة بُست (بضم الباء) من إقليم سجستان، وكانت ببلاد الفرس، ويقول ابن خلكان في كتابه «وفيات الأعيان» إنها مدينة من بلاد كابل بين هراة وغزنة، كثيرة الأشجار والأنهار، ولقب البُستي يحمله أكثر من واحد ممن عرف التاريخ سيرة حياتهم وأهمهم:

١) أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطابي البستي: كان أديبًا مجيدًا، وفقيهًا ضليعًا، ومحدثًا من الموثوق بهم، وله مؤلفات بديعة منها: «غريب الحديث»، و«معالم السنن في شرح سنن أبي داود»، و«أعلام السنن في شرح البخاري»،

و«الشجاج»، و«شأن الدعاء»، و«إصلاح غلط المحدثين»، وغيرها من المؤلفات الفقهية المفيدة.

وقد سمع الحديث في العراق من أبي علي الصفار، وأبي جعفر الرزاز وغيرهما من الفقهاء، وروى الحديث عنه الحاكم أبو عبد الله بن الربيع النيسابوري، وعبد الغفار ابن محمد الفارسي وأبي القاسم عبد الوهاب بن أبي سهل الخطابي وغيرهم.

وكان يُشبَّه في عصره بأبي عبيد القاسم بن سلام (انظر مادة ابن سلام) علمًا وأدبًا وزهدًا وورعًا وتدريسًا وتأليفًا، وكان شاعرًا يميل في شعره إلى الحكمة والوعظ، ومن هذا قوله:

شرُّ السِباع العَوادي دُوْنَه وَزَرُ
والناسُ شرَّهم ما دونهُ وَزَرُ

كم مَعْشرٍ سلموا لم يؤذِهمْ سُبُعٌ
وما ترى بشرًا لم يُؤذِه بَشَرُ

ومن قوله في لؤم الناس وخيالهم والنصح بمداراتهم ليؤمن شرهم:

مادُمْتَ حيًّا فدار الناسَ كِلِّهُمو
فإنما أنتَ في دارِ المداراةِ

مَنْ يَدْرِ دارَى، ومن لم يدْرِ سوف يُرَى
عَمَّا قليلٍ نَديمًا للندامات

ويقول في الحكمة التي تجعله غريبًا عن أهل بُست، على الرغم من أنه يعيش في كنفهم:

وما غُرْبة الإنسانِ في شقَّةِ النوَى
ولكنَّها واللَّهِ في عَدِمِ الشَكْلِ

وإنِّي غريبٌ بين بُسْتٍ وأهْلِها
وإنْ كان فيها أُسْرتي وبها أهلي

وله غير هذه المؤلفات وهذه المقتطفات من الشعر أشياء كثيرة في العلم والأدب، وكانت وفاته في شهر ربيع الأول عام ٣٨٨هـ (٩٨٨م) بمدينة بُسْت.

٢) **أبو الفتح علي بن محمد البُسْتي:** ولد عام ٣٦٠هـ (٩٧١م) بمدينة بست بإقليم كابل، وكان من كبار الكتاب المعروفين بحسن الصناعة والإمعان في أنواع البديع ولاسيما الجناس، وهو شاعر مغتنّ يميل إلى الصنعة والتعمُّل، وكان من كبار أدباء زمانه، وأعرفهم باللغة والأدب، وقد تولى الكتابة لصاحب مدينة بُسْت، وبعد أن دخل سبُكْتُكين هذه المدينة صار كاتبًا له، فوكل إليه كثيرًا من أمور ديوانه وأسراره، فكان بذلك معظمًا مبجلاً معترفًا له بالفضل.

ورغب حاكم بُسْت الجديد محمود بن سبُكْتُكين أن يصحبه البُستي إلى تركيا، ولكن الشاعر توفي في أثناء الطريق في بخارى عام ٤٠١هـ (١٠١٠م) بالغًا من العمر حوالي ٤٠ عامًا، أي في عنفوان رجولته.

ولم يكن أبو الفتح البُستي شاعرًا وكاتبًا فحسب، وإنما ناثرًا مبدعًا ولاسيما في السجع القصير، مما يدخل نثره السجعي

في باب الأمثال المرصعة بأنواع الجناس ذات المعاني الممتعة، وإن كانت الصنعة تظهر في تدبيجها واضحة، وقد اقتبس بعضها من الحكم المعروفة أو الأمثال المضروبة مثل قوله:

«عادات الساداتِ ساداتُ العاداتْ، مَنْ أَصْلَحَ فاسِدَه أَرْغَمَ حاسِده، مِنْ سعادةِ جَدِّك وقوفُك عِنْد حَدِّك، الدِعَة رائدُ الضَّعة، من يكن لك نسيبًا فلا تَرْجُ مِنْه نصيبًا، إذا بقي ما قاتُكَ فلا تَأْسَ على ما فاتُك».

ومن هذه الجمل يتضح تعمله في صناعة الألفاظ واختيارها على أوسع نطاق، أما شعره فيتسم هو الآخر بالصناعة المتكلفة، وإن كان يضم طائفة كثيرة من المعاني الجزلة، ومن ثم فهو من الشعراء الفنيين الذين يعنون باختيار الألفاظ، وحسن الأسلوب.

وله شعر رقيق الحاشية في الوصف والغزل، ومقطوعات طريفة في باب الحكم والأمثال، وعلى هذا الأساس يستطاع القول بأنه كان ناظمًا أكثر منه شاعرًا موهوبًا، واسع الخيال مطبوع الإدراك الشعري.

ولم يبق من ديوانه إلا جزء في مكتبة ليدن بألمانيا، وقصيدتان محفوظتان في مكتبة جوته.

وأشهر منظوماته التعليمية تعرف باسم «عنوان الحلم»، وقد شرح هذه المنظومة عبد الله بن محمد بن أحمد النقركار المتوفى عام ٧٧٦هـ (١٣٧٤م)، كما شرحها عبد الرحمن العمري الميلاني عام ٧٨٠هـ (١٣٧٧م)، وكتب عيدروس رسالة في شرح البيتين الأولين من هذه القصيدة.

ومن شعره في الحكم قوله:

بَيْنَ من يُعطي ومن يأخُذُ
في التقديرِ عَرْضُ

فَيَدُ المُعْطي سِماءٌ
وَيَدُ الآخِذِ أَرْضُ

وعلى الآخِذِ أن يشكرُ
إنَّ الشكر فَرْضُ

وقال في هذا اللون أيضًا:

أَفِدْ طبعكَ المكدودَ بالهمِّ راحةً
يَجِمُّ وَعَلِّلْهُ بشيءٍ من المَزْحِ

ولكن إذا أعطيته ذاكَ فليكُنْ
بمقدارِ ما يُعْطِيَ الطعامَ من المِلحِ

وقال في الشكوى:

الدَهْرُ خدَّاعَةٌ خَلوبُ
وَصَفْوُه بالقِذَى مَشُوبُ

وأكثرُ الناسِ فاعتزلهُمْ
قوالبٌ ما لها قلوبُ

فلا تَغُرَّنكَ الليالي
وبَرْقُها الخلب الكذوبُ

ففي قفا أُنْسها كروبٌ

وفي حشا سِلْمِها حروبُ

وقال في الفخر بنفسه:

يقولون ذِكْرُ المرء يحيا بِنَسْله

وليس له ذكر إذا لم يكن نَسْلُ

فقلتُ لهم نَسْلي بدائعُ حِكمتي

فإنْ فاتنا نَسْلٌ فإنَّا بها نَسْلو

ومن هذين البيتين يتبين أن شاعرنا لم يرزق نسلاً .

ومن قوله في الشيب والكبر مع أنه مات ولمَّا يتجاوز الأربعين سنة من عمره:

دَعْ دموعي تسيل سيْلاً بدارا

وضُلوعي يَصْلَيْن بالوجْدِ نارا

قد أعاد الأسى نهاري ليلاً

مُذْ أعاد المشيبُ ليلي نهارا

٤٢٤- بشر فارس (الدكتور) - شارع - بقسم المنتزه (أديب شماع سابقًا)

اطلبه ترجمته في «الدكتور بشر فارس» .

٤٢٥- البشري (الشيخ) - حارة - بقسم مينا البصل

اطلب ترجمته في «الشيخ سليم البشري» .

٤٢٦- البصري - شارع - بقسم محرم بك

يطلق لقب «البصري» على ثلاثة ممن ذكر المؤرخون سيرة حياتهم وهم:

١) **أبو الحسن بن أبي الحسن يسار (الملقب بالحسن البصري):** وهو العالم العربي الجليل ، من أكابر التابعين . واطلب ترجمته في «حسن البصري» إذ بقسم اللبان شارع يحمل اسمه .

٢) **القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر ابن القاسم الباقلاني البصري:** كان على مذهب أبي الحسن الأشعري ، ومن مؤيدي عقيدته ، ومن أشد مناصريه ، وقد سكن مدينة بغداد ، وألف كتبًا كثيرة مشهورة في علم الكلام ، والعلوم الأخرى ، وكان في سعة علمه وغزارته أوحد زمانه وانتهت إليه رياسة مذهب المعتزلة ، فكان من أئمتهم المرموقين ، وكان موصوفًا بحسن الاستنباط وسرعة البديهة في الجواب والإطالة في المناظرة ، وله كتب قيمة في الفقه .

وكانت وفاته في ٢٣ من شهر ذي القعدة عام ٤٣٦هـ (١٠٤٤م) ببغداد ، ولا يعرف تاريخ ميلاده أو مكانه ، وصلى عليه ابنه الحسن ودفن في مقبرة باب حرب ، ونسبة الباقلي التي هي من ألقابه ترجع إلى البقل وبيعه وحرفت إلى الباقلاني .

وقد رثاه بعض شعراء عصره بقوله:

أُنظرْ إلى جبلٍ تمشي الرجالُ به

وانظر إلى القبرِ ما يَحْوِي من الصَلَفِ

وانظر إلى صارمِ الإسلامِ مُغتمدًا
وانظر إلى دُرَّةِ الإسلامِ في الصَدَفِ

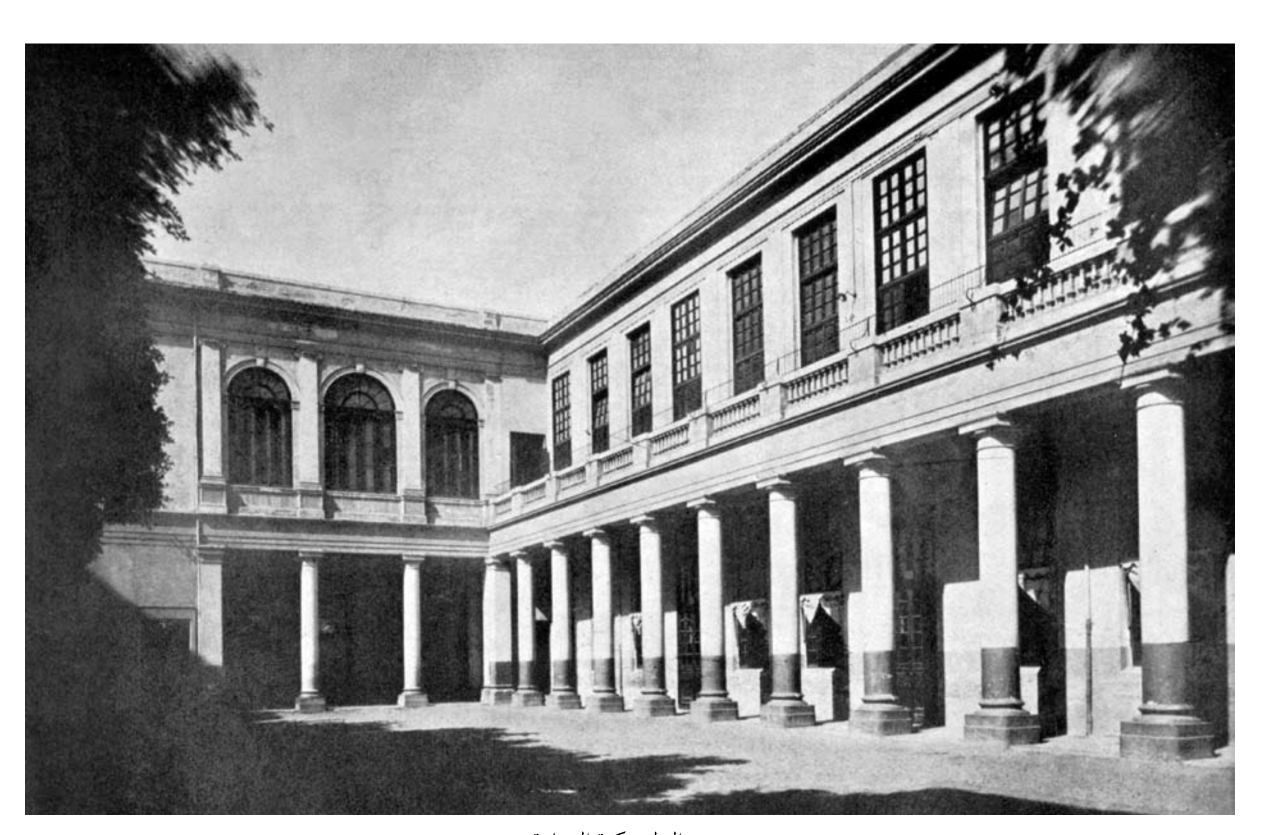
٣) محمد القاسم بن عبد الله البصري: ذكره الشعراني في كتابه «طبقات الصوفية» فقال إنه كان من أعيان مشايخ العراق وعظماء العارفين بالله وأجلاء المقربين إليه، وكان يصدر الفتاوى على مذهب الإمام مالك، ويتكلم في علوم الشريعة والحقيقة، وكان يجلس على كرسي عال في البصرة وله كلام كثير وحكم مشهورة متداولة بين الناس، وكان – على حد قول الشعراني – صاحب كرامات شتى على غرار معظم الصوفيين الذين ضم تراجمهم كتاب الشعراني (الطبقات).

وتوفي محمد القاسم البصري بمدينة البصرة عام ٥٠٨هـ (١١١٤م)، ودفن بها، وقبره يزار للتبرك به.

ولم يذكر الشعراني تاريخ ميلاده ومكانه ولا مراحل تعليمه ومؤلفاته.

٤٢٧- البطريركية اليونانية – شارع – بقسم العطارين

البطريركية أو البطريقية عند العرب هي مكان إقامة البطريق الذي هو كبير القساوسة في المدينة أو الإقليم، وينصبه كبير البطارقة وهو «البابا» عند المسيحيين.



البطريركية اليونانية

وسمي هذا الشارع باسم البطريركية اليونانية لوجود كنيسة «سان ساباس Saint Sabas» فيها، وللقديس سابا شارع موازٍ لشارع البطريركية اليونانية، وقد انتقل مكان إقامة البطريق اليوناني إلى مبنى البطريرقية الجديد بشارع بورسعيد بحي الإبراهيمية بضاحية الرمل، وأقيم أمامها مبنى لمكتبة البطريرقية تضم طائفة كبيرة من الكتب اليونانية القديمة والحديثة، وبعض المخطوطات التاريخية الهامة.

أما تاريخ كنيسة سان ساباس (أو سان سابا) فاطلبه في كلمة «سان سابا».

٤٢٨- بغداد - شارع - بقسم العطارين

٤٢٩- بغداد - شارع - بقسم الرمل (أحمد محمد الأدهم حاليًا)

مدينة بغداد هي عاصمة القطر العراقي، وتقوم في مكان مدينة «بابل» القديمة التي كانت عاصمة دولة بابل التاريخية، وكانت مساحتها لا تتجاوز الخمسين كيلومترًا مربعًا، وقد كانت بغداد عاصمة خلفاء بني العباس الزاهرة وعاصمة العالم الإسلامي بأسره، ويخترقها نهر دجلة.

ويختلف الرواة في مصدر اسم «بغداد» فالبعض يقول إنه مشتق من الكلمتين الفارسيتين القديمتين «بغ» ومعناها البستان، و«داد» وتدل على اسم صنم للعجم فجاء اسم «بغداد» أي بستان الصنم، ويناقض الكثيرون هذا الرأي ويدحضونه بحجة أنه عثر على وثيقة من عصر حمورابي أي منذ عام ١٨٠٠ق.م. عليها كلمة «بغدادو» مما يقطع بأن الاسم كان مستعملاً قبل حمورابي، ومن ثَمَّ يكون قد ظهر قبل السيطرة الفارسية، ويذهب المؤرخون المعاصرون إلى أن أصل الكلمة آرامي مؤلف من كلمتين هما: «ب» أي البيت، و«كدادا» أي الغنم، ويكون معنى الكلمة المركبة «بيت الغنم». غير أن الأمر لا يعدو مجال التخمين والاجتهاد، ويترجم القائلون بأن الاسم فارسي لفظة «بغداد» بأنها تعني بالفارسية «هبة الله» أو «عطية الله».

أما الاسم الذي أطلقه الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور على المدينة التي أنشأها عام ١٤٥هـ (٧٦٢م)، وهو «دار السلام» فقد قصر استعماله على الشؤون الرسمية، ومن ثم ضربت السكة به، ونقش على الموازين والمكاييل، وذيلت به المكاتبات، وقد جمع المنصور لتشييد «دار السلام» أشهر المهندسين في عهده ومائة ألف عامل وبنَّاء من مختلف البلاد، وكان في جملة المشرفين على العمل الإمام أبو حنيفة النعمان، وتنسب بغداد أحيانًا إلى منشئها فتدعى «المنصورية»، ولها اسم آخر لا يعرف مصدره هو «الزوراء»، وقد ذكر هذا الاسم في بعض القصائد وأخصها لامية العجم للطغرائي (انظر مادة الطغرائي) إذ يقول:

أصالةُ الرأي صانتني عن الخَطَلِ
وحليةُ الفضلِ زانتني لدى العطلِ

مَجْدِي أخيرًا ومجدي أولاً شرع
والشمس رَأْدَ الضُحى كالشمس في الطفلِ

فيما الإقامةُ بالزوراءِ لا سكني
بها ولا ناقتي فيها ولا جملي

وقد انتهى العمل في تشييد بغداد بعد أربعة أعوام، وتكلف تشييدها أربعة ملايين وألف درهم، وقامت في شكل دائري تحيط بها ثلاثة أسوار على الضفة الغربية لنهر دجلة، وظلت هذه المدينة العتيدة عاصمة لسبعة وثلاثين خليفة عباسي خلال خمسة قرون، وعاشت طوال هذه المدة عيشة متفاوتة من بذخ وترف وتبذير وعلم وثقافة إلى فيضان وحريق وحروب وفتن أهلية، وفي عهد الخليفة المعتضد بالله شرع في هدم سور المدينة الدائري، ونقل الناس حجارته لبناء المنازل، وهكذا ضاع الكثير من معالم المدينة المدوَّرة، وتدل الأخبار التاريخية على أن هذه المدينة كانت ذات أبواب أربعة، وفوق كل باب قبة على قمتها تمثال يتجه مع اتجاه الريح، وأن قطر دائرتها ٢٣٥٢ مترًا، وقد اندثرت «بغداد المنصورية» أو «دار السلام» تمامًا لتحل مكانها بغداد الحديثة.

وكثيرًا ما خلط الرحالة الأوروبيون في القرون الوسطى بين بغداد وبابل، كما خلطوا في بعض الأحيان بينها وبين سلوقية وطيسفون، فقد وردت بغداد في مؤلفاتهم باسم «بابل Babel» و«بابلونيا Babellonia» وغيرهما من الأسماء المشابهة، وإطلاق هذه التسمية على بغداد شائع في التفاسير التلمودية لشيوخ العشائر البابلية في العصر العباسي وفي مصنفات اليهود المتأخرين.

وعندما تم بناء بغداد أقام الخليفة أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء العباسيين قصره في وسطها، وكان يعرف بباب الذهب، أو القبة الخضراء كما بنى المسجد الجامع، وجلبت معظم الأحجار التي استخدمت في بنائها من أطلال طيسفون المجاورة، ولما بدأت بغداد تزدحم بالسكان شيد المنصور قصرًا آخر خارجها هو «قصر الجلد»، وفي عام ١٥١هـ (٧٦٨م) شيد عدة مبان في شمال المدينة لولده وولي عهده المهدي، وأهم هذه المباني قصر الرصافة.

وينقسم تاريخ بغداد الذي يبدأ بعهد أبي جعفر المنصور إلى عهدين عظيمين: الأول عهد الخلفاء العباسيين الذي دام خمسمائة سنة، وكانت فيه بغداد عاصمة دولة إسلامية عظيمة شاسعة الأطراف، ومركزًا هامًّا للحياة العقلية، ومكانًا مرموقًا لتجارة الشرق الأدنى، فكسفت شمسها الوضَّاحة عواصم الولايات في العالم الإسلامي المتمدن في ذلك الحين بفضل اتساعها وعمرانها وازدهارها وثرائها، أما العهد الثاني فيبدأ بسقوط الخلافة العباسية، ويستمر عبر القرون التالية، ففي العهد التركي بقيت مدة طويلة عالية المكانة باعتبارها أكبر الولايات التركية وأهمها، فكانت بهذا الوصف تعادل القاهرة أو تأتي بعدها في الترتيب مباشرة، ثم تقلصت رقعتها بوصف كونها ولاية، وضعف تبعًا لذلك سلطانها السياسي، وانحصرت أهميتها في الناحية التجارية فاستعادت الكثير من مجدها القديم وظلت محتفظة به إلى أن عاد لها مجدها السياسي في العصر الحاضر بوصف كونها عاصمة القطر العراقي.

ولقد بلغت بغداد أزهى عصورها في عهد خلفاء المنصور الخمسة من المهدي إلى وفاة المأمون أي من عام ١٥٩ إلى عام ٢١٨هـ (٧٧٥ – ٨٣٣م)، فقد كانت مساحتها لا تتجاوز ستة أميال مربعة عندما ارتقى المهدي عرش الخلافة، ولما نقل هذا الخليفة بلاطه إلى قصر الرصافة على الشاطئ الشرقي لدجلة اتسع هذا الجزء من المدينة سريعًا، إذ استقرت به الأسر الغنية وأتباعها من الموالي، وكان عددهم يبلغ عدة آلاف، وشيدت بهذا الجزء قصور فخمة أجملها قصر البرامكة الذي كان مسرحًا للهو والسرور، والذي انتقل إلى بيت الخلافة بعد

نكبة البرامكة، وعقب وفاة هارون الرشيد قام النزاع المسلح بين ولديه الأمين والمأمون، فحوصرت بغداد لأول مرة في تاريخها ودام حصارها أربعة عشر شهرًا، وفي عام ١٩٦هـ (٨١٢م) هاجمها هرثمة وطاهر قائدا المأمون، ورزح الجانب الغربي منها تحت المجانيق، فتخرَّب معظم نصفها الشمالي، ثم قتل الأمين في أوائل عام ١٩٨هـ (٨١٣م) فرفع الحصار وأصبحت المدينة خرائب ورمادًا، إذ دمرت النيران أحياء بأكملها وأتت على سجلات الدولة بأسرها.

وفي عهد المعتصم خليفة المأمون الذي دام حكمه من عام ٢١٨ إلى ٢٢٧هـ (٨٣٣ - ٨٤٢م) صارت البلدة الصغيرة «سامراء» الواقعة على مسيرة ثلاثة أيام من منبع نهر الدجلة عاصمة الخلافة، وظلت كذلك خمسًا وخمسين سنة، حوصرت خلالها بغداد مرة أخرى، وذلك عام ٢٥١هـ (٨٦٥م) في عهد المستعين وأصيب الجانب الشرقي منها بأضرار جسيمة، وتخربت أهم أحيائه كالرصافة والشمَّاسية والمخرِّم، وأعيد بناء أجزاء منها فقط بعد ذلك، وفي عام ٢٧٩هـ (٨٩٢م) عاد الخليفة المعتمد إلى بغداد وجعلها حاضرة الدولة للمرة الثانية، وبقيت كذلك إلى سقوط دولة بني العباس، وقد بذل المعتضد والمكتفي والمقتدر نشاطًا كبيرًا في تعمير المدينة، فشيدت في عهودهم عدة قصور وحدائق ونشأت أحياء جديدة في الجانب الشرقي منها واكتظت بالسكان، وعقب وفاة المكتفي أخذت سلطة الخلفاء في التدهور السريع وازدادت القلاقل على مر الأيام في العاصمة وبخاصة ثورات الجند المصحوبة بالحرائق، وأعمال السلب والنهب مما أدى إلى اضمحلالها السريع.

وتحسنت أحوالها عندما استولى عليها معز الدولة أحمد الديلمي البويهي عام ٣٣٤هـ (٩٤٢م)، واستمر الحكم في بيته أكثر من قرن، شيد في خلاله - هو وخلفاؤه - القصور الفخمة في الجزء الشمالي من الجانب الشرقي، غير أن البويهيين لم يستطيعوا إعادة الازدهار إلى بغداد، ففشلت جهودهم في هذا السبيل، وسادت الفوضى بعد وفاة عضد الدولة عام ٣٧٢هـ (٩٨٣م) مدينة بغداد ولاسيما بسبب النضال بين الشيعة وأهل السنة، مما كان سببًا في وقوع الكثير من حوادث السلب والنهب والتخريب، وفي عام ٤٤٧هـ (١٠٥٥م) دخل بغداد طغرل بك السلجوقي ومن ثم صارت الخلافة في حماية آل سلجوق الأقوياء الذين قاموا ببعض العمائر والمدارس، ومنها المدرسة النظامية التي شيدها الوزير المشهور نظام الملك عام ٤٥٧هـ (١٠٦٥م).

وساد السلام بغداد بصفة عامة في القرنين الأخيرين من العهد العباسي وكانت الحرائق - على الرغم من ذلك - تشب فيها بين الحين والآخر كما حدث في أعوام ٤٦٦ و٥٥٤ و٦١٤هـ (١٠٧٤، ١١٥٩، ١٢١٧م) كما غمرها الفيضان الخطر عدة مرات.

وفي عام ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) داهمها هولاكو فاستسلم آخر الخلفاء العباسيين دون قيد أو شرط، ثم قتل ولم يخربها جند هولاكو من المغول والأتراك كما خربوا غيرها من المدن لأن هولاكو كان يريد اتخاذها عاصمة لملكه، ثم استولى تيمور لنك على بغداد عام ٧٩٥هـ (١٣٩٢م) لأول مرة ولم يحدث بها أضرارًا، ولكنه ذبح أهلها في المرة الثانية عام ٨٠٣هـ (١٤١٠م) ثم خرب كثيرًا من المساكن والمنشآت العامة، ثم فتحها التركماني أوزون حسن، وفي عام ٩١٤هـ

(١٥٠٧م) غزاها الشاه إسماعيل الصفوي وظلت في حوزة خلفائه إلى عام ٩٤١هـ (١٥٣٤م)، وفي عام ٩٤١هـ نفسه دخلها السلطان سليمان الأول التركي وظل يحكمها من ذلك الحين وال تركي.

وقد سد السلطان مراد الرابع باب الظلم ورمم عدة أضرحة مثل ضريح أبي حنيفة وضريح عبد القادر الجيلاني، وفي هذا العهد انحط قدر بغداد وانخفض عدد سكانها إلى ١٤,٠٠٠ نسمة فقط، ثم أخذت بعد ذلك في النهوض ونشط رخاؤها فزاد عدد سكانها إلى ١٥٠,٠٠٠ في القرن التاسع عشر، لم يبق منهم بعد الطاعون الذي اجتاحها عام ١٨٣١م سوى ٣٠,٠٠٠ نسمة، ثم تزايد عدد السكان عبر السنين إلى أن أصبح أكثر من مليون نسمة.

ويوضح التاريخ أن المذابح التي اقترفها المغول استمرت أربعين يومًا، قتل خلالها أكثر من ثمانين ألفًا من السكان ودمرت مكتبتها ودور العلم فيها.

وقد أثرت هذه النكبة الوحشية في نفوس الشعراء فرثاها الشاعر الرصافي بقوله في جنود هولاكو:

فَظَلَّت بهم بغدادُ ثكلى مُرِنَّة
تُفَجَّع بين القتلِ والسبي والنهبِ

وجاسوا خلال الدورِ ينتهبونها
وصبّوا عليها بَطْشَهُم أيَّما صبِّ

ولم تمض ١٣٩ سنة على هذه المذبحة حتى حدثت مذبحة تيمور لنك الذي فتك بأهلها فتكًا ذريعًا، واستحل جنده المدينة أسبوعًا كاملاً اقترفوا فيه من المنكرات ما تقشعر له الأبدان.

وألحقت بغداد بالإمبراطورية العثمانية عام ٩٤١هـ واستمر حكمهم حتى عام ١٣٣٥هـ (١٩١٧م)، إذ دخلتها جيوش الحلفاء، وكان الحكم العثماني نقطة سوداء أخرى في تاريخ المدينة، إلا أن بعض الولاة قاموا بعدة إصلاحات في البلاد مثل مدحت باشا ولكنها كانت ومضات قصيرة من الازدهار، وقد رحل الأتراك عن مدينة بغداد في ليلة الحادي عشر من شهر مارس ١٩١٧م (١٣٣٦هـ) وليس فيها من معالم العمران إلا القليل، ولولا المباني التي تمت في عهد مدحت باشا الذي دامت ولايته على العراق من عام ١٢٨٦ إلى عام ١٢٩٠هـ (١٨٦٩ – ١٨٧٣م) ولولا الشارع الوحيد الذي بدأ فتحه خليل باشا في سنة ١٣٣٥هـ (١٩١٦م) لأمكن القول إن الحكم التركي لم يترك له أثرًا في المدينة، ودخلها الإنجليز في اليوم التالي، ولم يقوموا بعمل عمراني سوى إتمام فتح هذا الشارع، وإقامة بعض الأبنية، واستقر الحكم الوطني في ٢٣ من أغسطس عام ١٩٢١م (١٣٤٠هـ)، فأخذت هذه العاصمة العربية العتيدة تسترجع مجدها، فقد كانت مساحتها في مستهل القرن العشرين لا تتعدى الستة كيلو مترات، فامتدت في عام ١٩٥٤م (١٣٧٤هـ) إلى ثمانين كيلو مترًا، ثم وصلت إلى ٨١٠ من الكيلومترات في الوقت الراهن.

وكان أهل المدينة يخشون الفيضانات، فكانوا يقيمون منازلهم داخل منطقة سد من الرمال يحيط بالعاصمة، ثم حدث فيضان عام ١٣٧٤هـ (١٩٥٤هـ) الذي قدرت خسائره بحوالي ١٨ مليونًا من الدينارات، فأقيم عقبه سد «الثرثار» شمال المدينة وبلغت نفقاته ١٦ مليونًا من الدينارات فحمى بغداد من خطر الفيضانات الجامحة، ونتيجة للخوف من أضرار الفيضانات امتد اتساع المدينة طوليًّا بحوالي ٢٥ كيلومترًا،

ويخترقها نهر دجلة الذي تقوم المباني على ضفتيه، ومنذ عام ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م) أخذ السكان في إنشاء الدور التي زادت في عرض العاصمة إلى حد كبير، علاوة على المساكن الشعبية الكثيرة التي تعدى عددها الألفين، وأقيمت الجسور على نهر دجلة مما سهل مشكلة المواصلات.

ولقد اندثرت مدينة أبو جعفر المنصور تمامًا وحلت محلها بغداد الحديثة ذات الميادين الرحبة التي تخترقها الحافلات (الأتوبيسات) الحمراء ذات الطابقين لتتجه في شتى النواحي وتعج بالسيارات الخاصة وسيارات الأجرة، وتنهض حركة عمرانية واسعة النطاق لتوسيع رقعة بغداد الحديثة فأخذ القائمون على تنظيمها في شق الشوارع وبناء الأحياء الجديدة، ومن الأبنية الهامة الكبيرة الملعب الرياضي العظيم «الإستاد» الذي يتسع لثلاثين ألف شاهد، وحفرت قناة طولها حوالي ٣٠ كيلومترًا في الجزء الشرقي من بغداد لتصل بين نهري دجلة وديالى ولتروي الأراضي الرملية، فتجعل منها منتزهات نضرة، وساعدت هذه القناة على اتساع امتداد المدينة في ناحية العرض وأقيمت عليها الجسور وشقت في أنحائها الطرق والشوارع التي ربطت بغداد بضواحيها، التي منها الكاظمية، والدريعات، والوشاش، ومدينة البياع وبغداد الجديدة ومنطقة الكرخ.

وأكبر ميادين المدينة الجديدة هو ميدان التحرير ولاسيما من حيث الاتساع، وفي هذا الميدان تلتقي خمسة شوارع رئيسية هي: الرشيد، والجمهورية، والسعدون، والكفاح، وأبو تمام، وجسر الجمهورية، وتضم المدينة عددًا كبيرًا من المساجد الأثرية والحديثة.

ويقسم نهر دجلة بغداد إلى قسمين، أولهما الشرقي ويسمى «الكرخ» وبجواره شيد أبو جعفر المنصور «مدينته المدورة»، وكان الكرخ منطقة تجارية، إذ إن الخليفة المنصور حرَّم البيع والشراء داخل مدينته، ويشتمل حي الكرخ على قضاء الكاظمية، وبعض المساجد القديمة والحديثة، وأما القسم الغربي فيسمى الرصافة، ويرتبط قسم الرصافة بالكرخ بأربعة جسور حديثة التشييد، وهو أكبر من الكرخ من حيث المساحة ويضم معظم دور الوزارات والشركات وهو عصب الحياة التجارية لازدحامه بالمتاجر والبنوك والحوانيت.

ومن الآثار القليلة الباقية ببغداد «الباب الوسطاني» من سور المدينة الشرقي الذي بدأ إقامته الخليفة المستظهر بالله عام ٤٨٨هـ (١٠٩٥م) وأكمله الخليفة المسترشد بالله عام ٥١٧هـ (١١١٩م)، ومن هذه الآثار الهامة «طاق كسرى» وهو الأثر التاريخي الباقي من مدينة طيسفون الساسانية وقد أطلق عليها اسم «المدائن» بعد الفتح الإسلامي، و«طاق» هو بقية إيوان بناه كسرى، وقد انهار الجناح الأيمن من الطاق في إبريل عام ١٣٠٥هـ (١٨٨٧م) إثر فيضان نهر دجلة لم يتحمله هذا الأثر الكبير الذي يبلغ ارتفاع قوسه ٣٧ مترًا وعرضه ٢٥,٦ من الأمتار، أما الجناح الأيسر فقد تداركته مصلحة الآثار ببناء دعامة له من الحجر وذلك خلال عام ١٣٥٩هـ (١٩٤٠م) ومحت الرياح والأمطار الكثير من التماثيل الرائعة التي كانت منقوشة على أجنحة الإيوان، وقد خلدها الشاعر البحتري (انظر هذه المادة) بقوله من قصيدته السينية الشهيرة:

تَصِفُ العينُ أنهم جِدُّ أحْياءُ
لهم بينهم إشارةُ خرس

يَغْتلي فيهم ارتيابيَ، حتَّى
تتقرَّاهـم يداي بِلَمْسِ

ومن الآثار الأقل قدمًا «مدفع أبو خزامة» المصنوع من النحاس، وقد سبك عام ١٠٤٧هـ (١٦٣٧م)، وأطلق عليه هذا الاسم لوجود شرخ في فوهته، وقد نقش على هذا المدفع زخارف هي عبارة من نجوم سداسية الشكل وأسماك وأطواق، ويبلغ طوله أربعة أمتار وستة وخمسين سنتيمترًا، وقطر فوهته ٥٢ سنتيمترًا، وهو أحد مدافع السلطان مراد الرابع العثماني استعمله في حصار القسطنطينية، ثم استخدمه في دك أسوار بغداد، وماتزال بعض نساء بغداد يحملن أطفالهن ويدرن بهم حوله ثلاث مرات، ثم يدخلن رؤوس الأطفال في فوهته اعتقادًا بأنهم سيصبحون أقوياء عند الكبر.

وعند الأصيل من كل يوم تظهر ألسنة النيران على امتداد شاطئ نهر دجلة، يهرع إليها كثير من السكان لتناول أكلة «المسقوف» المكونة من الأسماك التي تشوى في السفود على لهب هذه النيران، وتؤكل مع «العَمْبَة» وهي مخلل ثمار المانجو.

وترتدي النساء والفتيات المحافظات العباءة السوداء الحريرية، أما الفتاة الحديثة فترتدي الزي الإفرنجي على أحدث الطرز، وارتفع مستوى التعليم النسوي فصارت الفتاة العراقية تشارك الفتيان في جميع المراحل التعليمية من أدبية وعلمية.

وتزدهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدفاعية على مر السنين في الوقت الحاضر بفضل ثورة العراق التقدمية ليأخذ الشعب العراقي المجيد مكانه، ويستعيد أمجاده الماضية التي أنارت الدنيا بضوئها الوضَّاح قرونًا عدة، وينبثق ضياء بغداد اللامع كما كان في عهودها الذهبية.

٤٣٠- البقلي - عطفة - بقسم الجمرك

٤٣١ - البقلي - شارع - بقسم محرم بك

٤٣٢- البقلي بك - شارع - بقسم الرمل

يرجع لقب أسرة البقلي إلى بلدة زاوية البقلي بمديرية المنوفية (محافظة المنوفية حاليًّا)، وفيما يلي ترجمة من يحملون هذا اللقب، وعرفوا لأنهم ممن أسهموا في تطوير الحركة الفكرية العلمية بمصر، أو ممن كانوا ينتمون لفرع هذه الأسرة بالإسكندرية، واشتهروا بالحسب وعراقة النسب:

١) **الشيخ البقلي الكبير**: وكان من أعيان بلدة البقلي، وشيد بها الزاوية التي عرفت البلدة بها، وأقام مدرسة أولية لتعليم أطفال بلدته، وما جاورها من القرى والضياع، الكتابة والقراءة والقرآن الكريم.

٢) **خليل البقلي**: وكان أحد الطلاب الذين أرسلهم محمد علي في بعثة تعليمية إلى فرنسا، لتعلم صناعة «بصم الشيت» أي تزيين القماش بالرسومات الملونة، وقد بدأ دراسته في يناير عام ١٨٣٠م (١٢٤٦هـ)، وسافر أثناء البعثة إلى إنجلترا لمشاهدة مصانعها، والتدرب عمليًّا على الرسم والنقش، ثم عاد إلى فرنسا، وأتم دراسته، وعاد إلى مصر في أوائل عام ١٨٣٦م (١٢٥٢هـ) فتكون بعثته قد استغرقت ستة أعوام، ولا يعرف سير حياته العملية بعد رجوعه إلى الوطن، ولا الوظائف التي شغلها، ولا تاريخ ومكان وفاته.

٣) محمد علي البقلي باشا: ولد بزاوية البقلي عام ١٨١٥م (١٢٣١هـ)، وتعلم الكتابة والقراءة، وحفظ شيئًا من القرآن الكريم بكتاب مسقط رأسه (ولعل هذا المكتب هو المدرسة التي شيدها جده المدونة ترجمته في البند الأول)، ثم التحق محمد بمكتب الحكومة بأبي زعبل، وواصل دراسته التجهيزية بمدرسة أبي زعبل، ودخل مدرسة الطب هناك، وهي المدرسة التي أسست في عهد محمد علي عام ١٨٢٦م (١٢٤٢هـ)، وكان «كلوت بك» (انظر هذه المادة) أول ناظر لها، وبعد أن أتم تعليمه في هذه المدرسة اختير عضوًا في البعثة الطبية التي أرسلت إلى فرنسا، وبدأ دراسته في نوفمبر عام ١٨٣٢م (١٢٤٨هـ)، وكان مرتبه الشهري ١٥٠ قرشًا، خص نفسه منها بمائة قرش، والباقي لوالدته، وقد بذل قصارى جهده في تحصيل العلوم الطبية والجراحية وفاق الكثيرين من أقرانه مع أنه كان أصغرهم سنًّا، ولما أتم علومه العالية ألف رسالة في الرمد الصديدي المصري، ونال الشهادة وعاد إلى مصر عام ١٨٣٨م (١٢٥٤هـ) فعين بمستشفى قصر العيني في وظيفة جرَّاح أول ومدرس في عمليات الجراحة الصغرى والكبرى والتشريح الجراحي برتبة (صاغقول أغاسي) أي رائد، ثم رقي بعد قليل إلى رتبة البكباشي (المقدم).

وفي عهد عباس الأول حدثت منافسة بينه وبين بعض أطباء المستشفى الأوروبيين نقل على أثرها إلى وظيفة طبيب بأحد أقسام مدينة القاهرة، واستمر على شغل هذه الوظيفة التي لا تتفق ومؤهلاته وعلمه مدة خمس سنوات، وفي عهد سعيد الأول رقي إلى رتبة قائمقام (عقيد)، وصار كبير أطباء الجيش، وبعد أن لزم بيته فترة من الزمن أعيد تعيينه بمستشفى قصر العيني في وظيفة كبير الجراحين، ومدرس الجراحة، ووكيل المستشفى، والمدرسة الطبية، ورقي إلى رتبة أميرالاي (عميد)، ثم اختاره سعيد الأول طبيبًا خاصًّا له مع بقائه في وظائفه ورقَّاه إلى رتبة المتمايز، وفي عهد الخديوي إسماعيل عين رئيسًا للمستشفى والمدرسة الطبية معًا.

وفي عام ١٨٧٥م (١٢٩٢هـ) ترك العمل ولزم منزله دون سبب معروف، ثم طلب السفر إلى بلاد الحبشة صحبة حسن باشا ابن الخديوي إسماعيل، واستشهد في تلك البلاد خلال عام ١٨٧٦م (١٢٩٣هـ)، وكان قد منح الوسام المجيدي من الرتبة الثالثة مكافأة له على ما أداه من خدمات طبية جليلة أثناء وباء عام ١٨٦٥م (١٢٨٢هـ)، ومنح رتبة الباشاوية في أواخر أيام حياته.

وقد ألف الدكتور محمد علي البقلي الكتب التالية: «روضة النجاح الكبرى في العمليات الجراحية الصغرى» طبع عام ١٨٤٣م (١٢٥٩هـ)، و«غُرَر النجاح في أعمال الجَرَّاح» في مجلدين، وطبع عام ١٨٤٦م (١٢٦٣هـ)، و«غاية الفلاح في فن الجَرَّاح»، طبع عام ١٨٦٤م (١٢٨١هـ)، و«نشر الكلام في جراحة الأقسام» (لم يطبع)، و«قانون الطب» (وقد توفي قبل أن يتمه)، و«قانون الألفاظ الشرعية والاصطلاحات السياسية» (وقد توفي قبل أن يتمه)، وعلاوة على علو باعه في الطب، والتأليف أصدر عام ١٨٦٥م (١٢٨٢هـ) مجلة شهيرة أطلق عليها اسم «اليَعْسُوب»، وكان يساعده في تحريرها الشيخ إبراهيم الدسوقي (انظر مادة الدسوقي، السيد إبراهيم عبد الغفار الدسوقي)، وكانت أول مجلة طبية تصدر باللغة العربية في مصر ويوجد منها مجلد بدار الكتب.

٤) أحمد سلاَّم البقلي بك: أحمد أحفاد الشيخ البقلي الكبير صاحب الترجمة الأولى، وبعد أن تخرج من مدرسة المهندسخانة شغل بعض الوظائف الحكومية إلى أن وصل إلى كبير مهندسي التنظيم بمدينة الإسكندرية، وكان قسم التنظيم في ذلك الحين يسمى (الأرناطو) وهي كلمة إيطالية تقابلها كلمة (أورنيمان ornement) الفرنسية التي تعني التجميل أو التحسين، وبقي أحمد البقلي في وظيفته إلى أن وافته المنية عام ١٩٠٤م (١٣٢٢هـ)، ودفن بالإسكندرية، وابن شقيق المهندس أحمد سلام البقلي هو الدكتور محمد توفيق البقلي الذي كان طبيب مصلحة الجمارك، والدكتور محمد عباس سليمان البقلي الذي كان وكيلاً لوزارة الصحة لشؤون الرمد، وأحيل على التقاعد منذ وقت غير بعيد.

وترتبط أسرة البقلي الإسكندرانية بصلات النسب والمصاهرة بأسر الدخاخني والكيال والديب (انظر هذه المواد)، وجميعها من أسر الإسكندرية القديمة.

ولقب البقلي لابد أن يكون مشتقًّا من كلمة (بَقْل) وهو كل ما ينبت في بزره لا في أصل ثابت وجمعه بقول وأبقال، ومازال أهل الإسكندرية وغيرهم من سكان مصر يدعون (البدال) بكلمة (البقَّال) وهي في الأصل تطلق على بائع البقول، ولعل الشيخ البقلي كبير أسرة البقلي كان يتاجر في البقول أثناء حياته فأكسبه ذلك لقب البقلي.

٥) حسنين علي البقلي بك: هو أخو الدكتور محمد علي البقلي صاحب الترجمة المدونة بالبند الثالث من هذه التراجم، تعلم في مدارس مصر، ولما أتم علومه بها، ووصل إلى درجة الأستاذية عُيِّن مدرسًا بالمدارس المصرية، فدرس بمدرسة أبي زعبل، وقصر العيني، والمهندسخانة تم اختير للسفر إلى باريس وهو برتبة (الصاغقول أغاسي) (الرائد) فتعلم بها علوم الكيمياء والطبيعية، وحصل على شهادة في هذه العلوم، وعاد إلى مصر وتزوج من سيدة تركية وعين ششنجيًّا، وهو الذي أنشأ الدمغة على المصوغات والمقتنيات الذهبية والفضية في مصر، ثم عين ناظرًا لدار الضرب بالقلعة مع بقائه ششنجيًّا عموميًّا للحكومة، وتزوج بعد وفاة زوجته التركية من السيدة فطومة بنت عمه عفيفي أفندي الكبير مهندس الري في عهد محمد علي، وجدّ أحمد باشا عفيفي رئيس محكمة الاستئناف وناظر الخاصة السلطانية في عهد حسين كامل، وقد رزق البقلي من زوجته فطومة بابنه حافظ حسنين أحد طلاب البعثة العملية في عهد سعيد الأول، وكان حسنين البقلي موضع احترام محمد علي وذريته، وبلغ مرتبه في زمن سعيد ٤٥ جنيهًا في الشهر، ولمكافئته على ما أداه من النفع أصدر سعيد أمرًا بأن يخصص له جزء من دخل الدفعة الذي تحصل عليه الحكومة وترقى في الرتب العسكرية إلى رتبة القائمقام (العقيد)، ويقول الشيخ محمد عمر التونسي (انظر مادة ابن التونسي)، إن حسنين البقلي كان يدرس علم النبات وإنه اشترك في ترجمة كتاب فرنسي في الاصطلاحات الطبية والعلمية جلبه «كلوت بك» من فرنسا، وتقدم به إلى مهرة المعلمين المصريين بمدرسة الطب، وأوصاهم بترجمته إلى اللغة العربية فقام كل منهم بترجمة جزء من هذا الكتاب، ومن بينهم حسنين البقلي.

وبعطفة البقلي الكائنة بقسم الجمرك كان يسكن بعض أفراد أسرة البقلي الذين استقروا بالإسكندرية بمنزل أقاموه وسميت العطفة بلقبهم.

٦) **أحمد حمدي البقلي بك**: هو ابن الدكتور محمد علي البقلي باشا المدونة ترجمته بالبند الثالث من تاريخ أسرة البقلي، وقد أرسل ضمن طلبة البعثة في عهد سعيد الأول إلى فرنسا في يونية عام ١٨٦١م (١٢٧٧هـ)، وهو حديث السن ليتعلم مبادئ العلوم، فانتظم في سلك تلاميذ مدرسة «شاسفان» إلى أن أتم دروسه بها، فألحق بمدرسة الطب بباريس، وبقي يواصل دراسته إلى أن نال شهادة الدكتوراه عام ١٨٦٨م (١٢٨٥هـ)، ومن ثم تكون مدة بعثته العلمية قد استغرقت سبع سنوات، وعاد إلى مصر في عهد الخديوي إسماعيل وعين معلمًا بمدرسة الطب ثم رُقِّي أستاذًا في الجراحة العليا، وكبيرًا لأطباء قسم الجراحة بمستشفى قصر العيني، وفي عام ١٨٧٧م (١٢٩٤هـ) منح الرتبة الثالثة، ونال الوسام المجيدي من الدرجة الرابعة والميدالية في ٢ من يونية عام ١٨٧٨م (١٢٩٥هـ) ثم رقي البكوية من الدرجة الثانية في ١٤من ديسمبر عام ١٨٧٩(١٢٩٧هـ)، وكان قد وصل إلى وظيفة كبير جراحي القصر العيني، ثم عين بعد ذلك مفتشًا عامًّا للصحة واختير عضوًا بالقومسيون الطبي، وظل يمارس هاتين الوظيفتين إلى أن أدركته الوفاة في شهر مايو عام ١٨٩٩(١٣١٧هـ)، وكان أحمد حمدي بك البقلي عالمًا إلى جانب مهاراته الفائقة في طب الجراحة على غرار والده، وقد ترك المؤلفات التالية: «رسالة باللغة الفرنسية في داء الفيل (تضخم الساقين) عند العرب»، وبهذه الرسالة نال شهادة الدكتوراه، و«تحفة الحبيب في العمليات الجراحية الصغرى والأربطة والتعصيب»، وقد طبع هذا الكتاب في القاهرة عام ١٨٧٩م (١٢٩٧هـ)، «الراحة في أعمال الجراحة»، وطبع في القاهرة عام ١٨٨٠ (١٢٩٨هـ)، و«المنتخب» وهو مجلة طبية وكان يصدرها وكانت تطبع في القاهرة في المدة الواقعة بين عامي ١٨٨١ و١٨٨٢م (١٢٩٩ – ١٣٠٠هـ)، و«التحفة العباسية في الأمراض التصنعية والادعائية»، وطبع بالقاهرة عام ١٨٩٣م (١٣١١هـ)، وكان أحمد حمدي البقلي بك طبيبًا ذائع الصيت واسع الشهرة.

٧) **محمود رشدي البقلي**: تلقى العلم بمدارس مصر ثم اختير وهو برتبة (الأسبيران) أي تلميذ ضابط للسفر إلى ميونخ ضمن البعثة الثانية، التي أرسلت في عهد سعيد الأول بالنمسا، ثم أتمت دراستها بفرنسا في عهد الخديوي إسماعيل، وقد بدأ دراسته بمدينة ميونخ في إبريل عام ١٨٦٢م (١٢٧٩هـ) لتلقي العلوم الصحية، وكان مرتبه الشهري ٧٠ قرشًا تنازل لوالده من هذا المرتب الضئيل عن ٤٠ قرشًا كان يتناولها بالإنابة عنه في مصر محمد أفندي بدر الطبيب بقصر العيني، وظل يدرس بميونخ إلى أواخر أغسطس عام ١٨٦٣هـ (١٢٨٠هـ)، إذ نقل إلى فرنسا حيث أتم علومه، وعاد إلى مصر في أكتوبر عام ١٨٧٠م (١٢٨٧هـ)، فعين مساعد خوجة للتشريع بمدرسة الطب، ثم ارتقى إلى أستاذ لهذا العلم بالمدرسة فقسمها، ونقل بعد ذلك إلى الوظائف الطبية بالأقاليم، وآخر وظيفة كان يشغلها هي وظيفة كبير أطباء مديرية المنوفية (محافظة المنوفية حاليًّا)، وذلك خلال عام ١٨٨٧م (١٣٠٥هـ).

وكان محمود رشدي البقلي من أمهر رجال الطب في مصر، وهو مؤلف القاموس الطبي المشهور الذي كتبه باللغتين العربية والفرنسية، وقد انتفع بهذا القاموس الأطباء في عصره، ومازال يعد من المراجع الهامة الطبية.

وقد أصيب أثناء توظيفه بمديرية المنوفية باضطراب عصبي لازمه طويلاً، واستفحل داؤه، فأحيل على التقاعد وهو

مصاب بعد عام ١٨٨٩م (١٣٠٧هـ)، وكان برتبة صاغ (رائد).

٨) حافظ حسنين البقلي: وهو ابن حسنين علي البقلي صاحب الترجمة المدونة بالبند الخامس من تاريخ أسرة البقلي، وحافظ ابن شقيق محمد علي البقلي باشا صاحب الترجمة المدونة بالبند الثالث، واطلب ترجمة حافظ حسنين البقلي في (حافظ حسنين) إذ إن له شارعًا باسمه بقسم مينا البصل.

٩) علي محمد البقلي بك: هو ابن المرحوم محمد علي باشا البقلي صاحب الترجمة المدونة بالبند رقم (٣) من تراجم أسرة البقلي، وهو أكبر أولاد الدكتور محمد علي باشا من جارية سودانية تزوجها، وقد تعلم على محمد البقلي في مدرسة الفرير بالخرنفش، ثم التحق بمدرسة قصر العيني مدة قليلة من الزمن التمس والده عقبها من سعيد الأول أن يرسله هو وأخاه أحمد حمدي البقلي صاحب الترجمة المدونة بالبند رقم (٦) إلى أوروبا بمناسبة ما كان قد عزم عليه بالنسبة إلى إرسال حافظ حسنين (انظر هذه المادة) ابن المرحوم حسنين علي البقلي بك إليها إثر موت أبيه، كما موضح بترجمته بالبند رقم (٥)، فأجاب سعيد الأول هذا الطلب، وأرسل علي محمد البقلي إلى فرنسا، وقد أرسل الخديوي إسماعيل بعد ذلك ابن محمد علي باشا البقلي الثالث حامد محمد علي البقلي إلى فرنسا لتعلم الحقوق، وقد بدأ علي محمد البقلي صاحب هذه الترجمة تعلمه في مدرسة خصوصية، إلى أن تأهل لدخول المدارس العليا فألحق بمدرسة العلوم الطبيعية والكيميائية بفرنسا عام ١٨٦٢م (١٢٧٩هـ) برتبة الملازم الثاني وكان مرتبه الشهري ٥٠٠ قرش، وأتم علومه بهذه المدرسة وعاد إلى الوطن في أكتوبر عام ١٨٧٠م (١٢٨٧هـ)، فتكون مدة دراسته بمدرسة العلوم الطبيعية والكيميائية استغرقت ثمانية أعوام، ولدى رجوعه عين مدرسًا للصيدلة بمدرسة قصر العيني وظل في هذه الوظيفة يؤدي عمله على خير ما يطلب من الموظف الكفء النزيه، مما استحق عليه الثناء والتقدير من زملائه ورؤسائه لغزارة علمه ودماثة أخلاقه، إلى أن حل الوباء بمصر عام ١٨٨٣م (١٣٠١هـ) فراح ضحيته، وهو يؤدي واجبه الإنساني، وكانت وفاته في ٢١ من يوليو عام ١٨٨٣م (١٣٠١هـ)، وكان قد وصل إلى رتبة الصاغ (الرائد) وذكرت وظيفته الأخيرة في الوقائع المصرية على أنها (أجزجي وششنجي ومعلم التحليلات الكيميائية).

٤٣٣- البلخي - حارة - بقسم كرموز (السيد عبد الكريم سعيد حاليًا)

لقب البلخي ينسب إلى بلخ وهي مدينة من مدن خراسان العظيمة، وقد فتحها الأحنف بن قيس التميمي في خلافة عثمان بن عفان (انظر هذه المادة)، ويحمل لقب البلخي ثلاثة ممن دون الرواة سيرة حياتهم وهم:

١) أبو زيد أحمد بن سهل البلخي: جغرافي عربي، ولد في (شامستيان) من أعمال مدينة بلخ، وكان يزاول التدريس في مسقط رأسه، واعتنق في شبابه مذهب الإمامية، ودرس الفلسفة بعد ذلك، هو وأبو يوسف الكندي (انظر هذه المادة) وعاش في رعاية أبي علي الجيهاني وزير السامانيين، غير أن الوحشة والجفوة دبَّتا بينهما بعد ذلك، ثم دعي لزيارة بخارى فلم يأنس من نفسه الجرأة على عبور نهر جيحون.

وقد ذكر صاحب الفهرست بيانًا بأسماء ٤٣ مؤلفًا للبلخي فقدت جميعها في عهد متقدم، أما حاجي خليفة فلم يصل

إلى علمه إلا ستة من هذه المؤلفات، ومن بينها كتاب «صور الأقاليم الإسلامية»، ومن جهة أخرى جاء ذكر البلخي في مؤلفات المقدسي ومستوفى، وذلك فيما يتعلق بكتابه الآنف الذكر، وقد نسب إليه خطأ كتاب «البدء والتاريخ» الذي ألفه مطهر بن طاهر المقدسي، وقد نسب إلى البلخي عن طريق الخطأ منذ القرن الثالث عشر الميلادي.

وبما أن البلخي تلقى الفلسفة مع أبي يوسف الكندي، وبما أن الكندي توفي عام ٢٦٠هـ (٨٧٣م) فيكون البلخي قد عاشر في تلك الفترة من الزمن التي عاش فيها الكندي، وقد عاد البلخي في رجولته إلى المذهب السني.

٢) أبو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخي: كان من المنجمين المشهورين في زمانه وله مصنفات في هذا الفن الذي يرتكز على الدجل والحيل، ومن هذه المؤلفات كتاب «المدخل والزيج» وغيرهما، ويقول ابن خلكان إنه كان لهذا البلخي إصابات عجيبة، وكان متصلاً بالملوك يخبرهم بما يزعم أن النجوم أوضحته له.

ومازالت كنية «أبو معشر» تتردد على ألسنة العامة من الناس ولاسيما الذين يؤمنون بالتنجيم والزار ومعرفة المستقبل في الفنجانات، وفي خطوط الكف، ومازال الصبية يصيحون من وقت إلى آخر في سخرية فكاهية قائلين: «أبو معشر، يابو معشر اللي عليها عفريت يحضر».

وكانت وفاة أبي معشر البلخي في سنة ٢٧٢هـ (٨٨٥م)، ولا يعرف تاريخ ميلاده.

٣) أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود (المعروف بالكعبي البلخي المعتزلي): ولد ببلخ، وعاش زمنًا طويلاً ببغداد (انظر مادة بغداد)، حيث تتلمذ على أبي الحسن الخياط المعتزلي. ثم أقام مدرسة في «نسف»، ونجح بعد ذلك في هداية عدد من كان خراسان إلى اعتناق الدين الإسلامي، ومن مصنفاته: كتاب «المقالات»، وكتاب «محاسن خراسان»، وقد ذكر فيه سيرة حياة ابن الراوندي.

واشتهر أبو القاسم البلخي بدفاعه القوي عن نظرية المعتزلة المتفائلة التي تقول: «إن الله لا يقدر أن يترك الأصلح إلى الأقل صلاحًا، والإنسان يقدر ويجب عليه أن يفعل الأصلح، أما الله فلا يقدر لأنه ليس فوقه تعالى من يجبره على فعل أصلح مما فعل». ويتفق البلخي مع المعتزلة فلا يجد في الله صفات متميزة عن ذاته، وهو يقول: إن العدم الممكن الوجود شيء ثابت خارج الوجود، أي أنه جوهر بسيط، وهو يرى أن الذرة غير ممتدة خالية من صفات تقوم بذاتها، وأن صفات الجسم منتزعة من مجموعة من الذرات، ومن ثم فهي عارضة غير أصيلة، وهو يفرق بين الإدراك وبين تأثيره، وذلك حين يقول: إن الإنسان يدرك بفعله الأشياء المحسوسة، ولكن الحواس نفسها لا تدرك شيئًا، وإنما هي الأدوات التي تصل بوساطتها التأثرات الجوهرية إلى العقل، ثم يقول: إن العقل الإرادي يستلزم التردد والحسم وهما من خصائص الإنسان المخلوق الناقص، أما بالنسبة إلى الله فإن مثل هذا الفعل لا وجود له مطلقًا، ويقول أيضًا إن الإمامة يجب أن ترتد إلى قريش، فإذا اشتبه في قيام مؤامرة يمكن أن يبايع بالإمامة غير القرشي.

وهكذا يتضح أن أبا القاسم البلخي من فلاسفة المعتزلة الراجحي العقل، وأن له نظريات فلسفية عميقة.

أما ترجمة صاحب الاسم الجديد للحارة فاطلبها في «السيد عبد الكريم سعيد».

٤٣٤- بلزوني - شارع - بقسم باب شرقي (فاطمة اليوسف حاليًا)

هو «جان بابتيست بلزوني Jean Baptiste Belzoni» عالم ورحالة إيطالي ولد بمدينة «بادو Padoue» بإيطاليا عام ١٧٧٨م (١١٩٢هـ) وكرس حياته لبحث الآثار المصرية ومات بمدينة «جاتو Gato» عام ١٨٢٣م (١٢٣٩هـ)، بالغًا من العمر حوالي ٤٦ عامًا.

وقد حضر إلى مصر عام ١٨١٥م (١٢٣١هـ) وبعد أن عرض على محمد علي تصميماته ومشروعاته المتعلقة بالآلات الهيدروجنية وهي التي لم تصادف قبولاً من محمد علي، اتجه بكليته إلى الأبحاث الأثرية والكشف عنها لحساب إنجلترا وذلك بمعاونة وتأييد القنصل الإنجليزي «سالت Salt» بالإسكندرية وتحت رعايته، وقد زار أطلال ساحل البحر الأحمر والأطلال الأثرية في واحة سيوة.

وفي عام ١٨١٧م (١٢٣٣هـ) اكتشف قبر «سيتي الأول» وأرسل أنموذجًا مصغرًا لهذا القبر إلى باريس، وكان له الفضل في إزالة الرمال عن «معبد أبو سمبل» (انظر هذه المادة) بعد أن كانت هذه الرمال تغطي واجهته المنحوتة في الصخر، ثم أخذ يعمل على فتح بابه وتمكن من الولوج في داخل المعبد بعد عناء شاق، إذ كان يخلع جميع ملابسه ليستطيع الدخول وسط حرارة شديدة وظلام دامس كان ينيره بشعلة في يده يرفعها نحو تمثال رمسيس الثاني الهائل، وبعد ذلك تمكن من دخول هرم خفرع ومن ثمَّ ذاع صيته في كثير من بلدان أوروبا ولا سيما في باريس.

وكان عملاقًا فارع القامة ولذلك كان يدعى عملاق «بادو»، وبفضل تقاطيع وجهه وهيئته غير العادية استرعى أنظار الناس إليه وإلى المعرض القيم الذي أقامه بشارع الإيطاليين بباريس.

وقد ظل اثنان من الفنانين يعملان مدة ٢٧ شهرًا لتجسيم أهم الآثار التي عرضها بلزوني بالحجم الطبيعي، ومن ثمَّ تدفق أهل باريس ثم أهل لندن على المعرض في تزاحم شديد ليشاهدا تلك الآثار العجيبة ومن بينها أنموذج لقبر سيتي الأول.

وقد بهرت هذه المعروضات «شامبوليون» (انظر هذه المادة) وأبدى أسفه لما قاله «جومار Jomard» منافس بلزوني من أنه يشك في أن الآثار التي اكتشفها بلزوني تتعلق بمعبد أبو سمبل حقيقة وأن لها قيمة أثرية قيمة، واعتمادًا على هذا الرأي الخاطئ الذي أبداه «جومار» لم تعط اللجنة العلمية الأهمية التي يستحقها كشف بلزوني الأثري، فكان يقال في البلاط إن الأمر يتعلق بسخافات لا قيمة لها، غير أن الناس في باريس أخذوا يهتمون بالمعلومات الخاصة بمصر بعد مشاهدة معرض بلزوني الذي صار اسمه على كل لسان.

وكانت حياة بلزوني في شبابه حياة مزعزعة غير مستقرة تضعه في صفوف الأفاقين، فقد دخل الدير ولبس مسوح القساوسة ثم عمل مهندسًا قبل أن يوجه اهتمامه للآثار.

أما ترجمة صاحبة الاسم الجديد للشارع فاطلبها في «فاطمة اليوسف».

٤٣٥- البلقاء - حارة - بقسم الجمرك

البلقاء هو الاسم العربي للنصف الجنوبي من إقليم شرق نهر الأردن أي الجزء الجنوبي من المملكة الأردنية حاليًا، ووفاقًا لما ذكر في كتب التاريخ عن غزوة مؤتة فإن إقليم البلقاء يضم أيضًا البلاد التي تقع في الجنوب من «أرنون Arnon» لأن قرى: مآب، ومؤتة، ومشارف، تقع داخل حدودها، ويقول الواقدي (انظر هذه المادة) إن حدودها الجنوبية على مسيرة يوم واحد من ذات أطلاح . . . ويطلق على إقليم شرق الأردن بأسره اسم «البلقاء» أو البثينية أو حوران، وتذكر بمدينة «أربد» على أنها من مدن البلقاء، غير أننا نلاحظ أن البلقاء بمعناها الضيق عند الجغرافيين هي الناحية التي عاصمتها «عَمَّان»، وكانت من بين بلاد فلسطين، وكانت عادة من أعمال دمشق، ولو أن المقدسي (انظر هذه المادة) يذكر عَمَّان من بين ولايات فلسطين.

وكانت البلقاء قضاءً منفصلاً يتولاه عامل، وقد ذكر ذلك في بعض الأحيان، ويقول الدمشقي إن البلقاء كانت تابعة لمملكة الكرك وذلك في حوالي عام ٧٠٠هـ (١٣٠٠م) ثم ألحقت بدمشق مرة أخرى في عهد المماليك (انظر هذه المادة)، وكانت عاصمتها «حُسبان»، وكثيرًا ما يتحدث الجغرافيون عن ظاهر البلقاء، ولذلك يطلق عليها أحيانًا اسم «الظاهر» بدلاً من البلقاء.

والبلقاء بمعناها المحدد تشمل البلاد التي بين زرقاء عَمَّان، وزرقاء معين، وهي بالتقريب «بيرايا Peraea» القديمة وعاصمتها «السَّلْط» ولكن لايزال يطلق اسم البلقاء على الأقاليم التي إلى الجنوب من «أرنون».

والبلقاء لها شهرة واسعة النطاق بالنسبة إلى جودة الحنطة التي تنبت في أرجائها.

٤٣٦- البلوي - شارع - بقسم مينا البصل

يحمل لقب البلوي اثنان من مفكري العرب أحدهما مصري والآخر أندلسي، وفيما يلي ترجمة كل منهما وفاقًا لوجودهما في قيد الحياة:

١) **أبو محمد عبد الله بن محمد المديني البَلَوي**: كان مؤرخًا من مؤرخي مصر في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ولا يعرف تاريخ ومكان ميلاده، ولا تاريخ وفاته على وجه التحديد، فكان ينتمي بالنسبة إلى قبيلة (بَلي) العربية من قبائل اليمن ونسبها هو «بَلي بن الحافي بن قضاعة»، وكان أفرادها متفرقين في أجزاء مختلفة من الحجاز والشام ومصر؛ ومن ثم يكون «البلوي» من فرع هذه القبيلة الذي استقر بالقطر المصري.

ولم يبق من مؤلفاته التي ذكرت في كتاب الفهرست سوى كتابه بعنوان «سيرة أحمد بن طولون» (انظر مادة ابن طولون) الذي اكتشفه محمد كرد علي (انظر هذه المادة) خلال عام ١٣٥٤هـ (١٩٣٥م) ونشره عام ١٣٥٨م (١٩٣٩م) وصدره بمقدمة وبتعليقات حصيفة مفيدة.

وجميع التراجم التي تناولت سيرة حياته وذكرت في كتب: «ميزان الاعتدال» للذهبي (انظر هذه المادة)، و«الفهرست» للطوسي (انظر هذه المادة)، و«لسان الميزان»

لابن حجر العسقلاني (انظر هذه المادة) تجمع على أنه كان ملفقًا في رواية الحديث، ومن ثم لا يوثق في روايته إذا كان يضع بعض الأحاديث الكاذبة، ويقول ابن حجر العسقلاني إن البلوي كتب رحلة الشافعي فطوَّلها فجاء معظم ما ورد فيها مختلقًا.

أما كتابه «سيرة ابن طولون» فيعد الآن من أهم المراجع لدراسة تاريخ هذا الحاكم الذي عاش في الفترة الواقعة بين عامي ٢٢١ و٢٧١هـ (٨٣٥ - ٨٤٤م) وكان أول ولاة مصر والشام الذين لم يكونوا تابعين للخلافة العباسية إلا بالاسم، كما يعد من أقوى المصادر بالنسبة إلى تاريخ مصر والخلافة العباسية والشرق الأوسط بصفة عامة، في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ولاسيما أنه أكثر تفصيلاً من المراجع الأخرى في هذا الموضوع مثل «سيرة ابن طولون» لابن الداية، وكتاب «أخبار سيبويه المصري» لابن زولاق (انظر هذه المادة)، وكتاب «الولاة والقضاة» للكندي (انظر هذه المادة).

وما من شك في أن الشبه كبير بين كتاب البلوي وكتاب ابن الداية، والمرجح هو أن الاثنين اعتمدا في تأليف كتابيهما على الوثائق الرسمية لديوان الإنشاء الذي أنشأه أحمد بن طولون.

وبما أن ابن الداية قد توفي بعد عام ٣٣٠هـ (٩٤١م) فمن الجلي أن البلوي صنَّف كتابه عن ابن طولون بعد هذا التاريخ.

ويُلقي كتاب البلوي الضوء على تاريخ نظم الإدارة في ذلك الحين من التاريخ الإسلامي مثل الخراج والشرطة والبريد والعدل والتجسس وما إلى ذلك من النظم، علاوة على أنه ينطوي على طائفة كبيرة من الوثائق الرسمية الخاصة بذلك العصر.

٢) **يوسف البلوي بن الشيخ**: كان معلمًا وأديبًا، ولد بمدينة مالقا بالأندلس، وألف كتابه المشهور بعنوان «ألف باء» وهو عبارة عن دائرة معارف بالنسبة للعلوم المعروفة في زمانه. وكانت وفاته خلال عام ٦٠٤هـ (١٢٠٧م).

٤٣٧- البنَّا - حارة - بقسم الجمرك

اطلب ترجمته في «الشيخ البنا».

٤٣٨- بنها - شارع - بقسم العطارين

بنها من كبريات مدن مصر الواقعة في الوجه البحري أي في دلتا نهر النيل، وتقع على الضفة الشرقية من فرع دمياط، وهي الآن عاصمة محافظة القليوبية (انظر هذه المادة) ومركز هام لمحطات السكة الحديدية الرئيسية بين القاهرة والإسكندرية، وتقع على مسافة ٤٥ كيلومترًا شمال القاهرة، وكانت في القرون الوسطى جزءًا من مديرية الشرقية من الناحية الإدارية، ويصل عدد سكانها في الوقت الراهن إلى أكثر من ٦٠,٠٠٠ واسمها العربي «بنها» تحريف للكلمة القبطية «بَنَهُو».

ولهذه المدينة العريقة شأن في التاريخ المأثور وذلك بالنسبة إلى العلاقات التي توثقت دبلوماسيًّا بين رسول الله عليه السلام وبين المقوقس (قيرس) الذي ذكر بأنه كان ملكًا للقطر المصري، ومن الهدايا التي بعث بها المقوقس إلى النبي الكريم كمية من عسل بنها وهي الهدايا التي تضمنت ماريا القبطية والدة إبراهيم ابن الرسول الذي توفي صغيرًا، والمعروف هو

أن ذكر عسل بنها بالذات ضمن تلك الهدايا هو الذي جعل من هذه المدينة مكانًا يعرف باسم «بنها العسل» .

وعسل بنها اشتهر من زمن بعيد ، فاليعقوبي (انظر هذه المادة) وهو من أقدم جغرافيّي العرب يذكر أن بنها تُخرِجُ عسلاً ذائع الصيت ، ومن جهة أخرى يمتدح ياقوت الحموي (انظر هذه المادة) جودة عسلها الذي كان من مفاخر مصر ، وفي أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ذاعت أغنية تؤيد جودة العسل البنهاوي وكان من بين مرجعاتها قول الناس الجماعي «والعسل جَانَا يَارُزّ بنها» دلالة على الأرز المطبوخ بالعسل البنهاوي اللذيذ .

ويقول الإدريسي في تعريف مدينة «بنها» ومنية العسل وهي منية جليلة كثيرة الأشجار والفواكه وتتصل بها عمارات وتقابلها في الضفة الغربية للنيل منيتها الكبرى المنسوبة إلى «بِنّة» ويتضح من هذه العبارة أن اسم بنها كان «بِنّة» في زمن الإدريسي (انظر هذه المادة) .

وفيما عدا ذلك فليس لمدينة بنها جذور في التاريخ القديم مما يدل على قلة شأنها ، وفي نهاية القرن التاسع عشر كانت تصدر كميات كبيرة من السلع التي إليها يرجع الفضل في أسمائها كما كانت تصدر البرتقال واليوسفي وكانت لهما شهرة لجودة صنفهما .

وكبري بنها من الكباري الهامة المصرية ، وبالمدينة الآن منشآت كثيرة وعمارات سكنية كبيرة ومدارس ابتدائية وإعدادية وثانوية للبنين والبنات ودور هامة للحكم المحلي والقضاء ، ومن ثمَّ صارت هذه المدينة ذات أهمية خاصة من الناحية العمرانية ومن ناحية أنها مركز تجمع بعض خطوط السكة الحديد الذاهبة إلى شرق الدلتا وغربها طوال النهار والليل .

٤٣٩- بني سويف - شارع - بقسم باب شرقي

يطلق اسم بني سويف على مدينة بني سويف العاصمة وعلى المحافظة الثالثة من محافظات الوجه القبلي (الصعيد) وتقع في شمالها محافظة الجيزة وفي غربها محافظة الفيوم وفي جنوبها محافظة المنيا أو المنية كما تكتب في بعض الأطالس الجغرافية (انظر مواد الجيزة والفيوم والمنيا) .

ومدينة بني سويف (ويرسم اسمها بني سُوَيْف) بضم السين وفتح الواو وسكون الياء ، تقوم على الشاطئ الغربي لنهر النيل وهي محطة من أهم محطات السكة الحديدية الواقعة على الخط الرئيسي الذي يصل القاهرة بجميع محافظات الوجه القبلي .

ولم تظهر أهمية مدينة بني سويف إلا منذ وقت غير مستغرق في القدم ، ويقول المؤرخ السخاوي (انظر هذه المادة) إن اسم المدينة القديم كان «بِنمسْوُيَهْ» ثم حُرِّف فصار بني سويف ، واسم بِنمسْوُيَهْ الذي ذكره السخاوي قد يقارن باسم «مَنْفَسويهْ» الذي أورده ابن الجيعان في كتابه «التحفة السنية» ، أما الاسم الخاص «منقوسنه» الذي ذكره ابن دقماق (انظر هذه المادة) في كتاب «الانتصار» فيدل ويثبت أن المدينة لها تاريخ قديم ، وفي عهد أقدم من ذلك كانت «أهناسية المدينة» الكائنة على عدة كيلومترات غربي بني سويف قصبة المركز ، ولم ترتفع أهمية بني سويف إلا في عهد محمد علي .

ولما قسمت مصر إلى مديريات صارت بني سويف عاصمة المديرية الثانية من مديريات مصر العليا ثم أطلق اسم المدينة على المديرية بأسرها التي قسمت إلى ثلاثة مراكز، وكانت تضم أكثر من ٣١٥,٠٠٠ نسمة يسكنون ١٦١ قرية و٢٥٩ محلة، وكان بمركز بني سويف أكثر من ١٤٠,٠٠٠ نسمة وكان بالمدينة نفسها أكثر من ١٥,٠٠٠ نسمة وكان لها ١٥ ضاحية بها حوالي ٨٠٠٠ ساكن، ويبلغ عدد سكان مدينة بني سويف في الوقت الراهن أكثر من مائة ألف ساكن، وتضم من المباني والمنشآت الرسمية ومكاتب البريد والتلغراف الشيء الكثير، ولها نشاط تجاري وصناعي مطرد الازدهار كما أنها من المراكز الزراعية الهامة في الوجه القبلي، ويبدأ منها خط القوافل المتجه إلى الأديرة القبطية على البحر الأحمر بعد عبور النيل عند قرية الجزيرة العربية إحدى ضواحي المدينة، وبها مقام الشيخة حورية الموجود في أهم مساجدها وجامع البحر القديم المبني من الصخور، وبالقرب منها محجر لاستخراج الرخام المرقش.

وأهم مراكز محافظة بني سويف مدينة «ببا» في أقصى الجنوب، والشنّاوية، وبوش، وأشمنت، والواسطة في شمال مدينة بني سويف، وتخترق المحافظة من الجنوب إلى الشمال وبمحاذاة السكة الحديد الترعة الإبراهمية.

٤٤٠ - بني العباس - شارع - بقسم العطارين

٤٤١ - بني العباس - شارع - بقسم محرم بك (امتداد)

اطلب ترجمتهما في «العباسيين».

وجملتنا «بني العباس، والعباسيين» كتبتا هكذا لأن كلاً منهما مسبوق بكلمة «شارع» في اللافتة الموضوعة على الشارعين وهما: شارع بني العباس وشارع العباسيين، ومن ثم تكون كتابة اللافتتين صحيحة بالإضافة وفاقًا للقاعدة النحوية.

٤٤٢ - بهاء الدولة - شارع - بقسم مينا البصل

يحمل لقب «بهاء الدولة» أحد أمراء بني بويه ويحمله وزيره، وفيما يلي ترجمة كل منهما:

١) **أبو نصر فيروز (الملقب ببهاء الدولة)**: وهو ابن عضد الدولة البويهي الذي وافته المنية في شوال من عام ٣٧٢هـ (مارس ٩٨٣م) فأقيم صمصام الدولة أحد أبنائه أميرًا للأمراء، غير أن أخاه شرف الدولة لم يعترف بولاية أخيه؛ فنشبت بينهما حرب جرت أخاهما براء الدولة إلى الاشتراك فيها، وكان عمره وقتذاك خمسة عشر عامًا.

وبعد قتال عنيف خضع صمصام الدولة لحكم أخيه شرف الدولة، وألقي به في السجن عام ٣٧٦هـ (٩٨٧م) وعندها نُصِّب شرف الدولة أميرًا للأمراء، ولكنه لم يعش طويلاً بعد ذلك وتوفي عام ٣٧٩هـ (٩٨٩م)، فخلفه بهاء الدولة الذي بادر إلى إطلاق سراح أخيه صمصام الدولة، وبدأ النضال بين صمصام وبين ابن أخيه أبي علي بن شرف الدولة. وفي العام التالي أمر بهاء الدولة بقتل أبي علي، وتحول الشجار إلى الأخوين بهاء الدولة وصمصام الدولة، تم بينهما صلح بعد مدة من الزمن اتفق فيه الطرفان على أن تكون فارس وأرجان من نصيب بهاء الدولة. وكان أهل بغداد مصدر متاعب وقلق

لبهاء الدولة في ذلك الحين ، وقد اضطر من جهة أخرى إلى قتال عمه فخر الدولة ، ولكن فخر الدولة تحالف مع الأمير الكردي بدري حسنويه واستطاع غزو الأهواز ، فأنفذ بهاء الدولة جيشًا لقتاله ، فاضطر فخر الدولة إلى الفرار ، وإخلاء الأهواز بعد أن طغى فيضان نهر دجلة على معسكره .

وفي عام ٣٨١هـ (٩٩١م) خلع الخليفة العباسي الطائع عن العرش بتحريض من بهاء الدولة الذي كان يطمع في ثروته ، وظل بهاء الدولة الحاكم الحقيق للدولة في عهد خلف الطائع ولو أن بهاء الدولة نفسه كان آلة طيعة في أيدي جنده .

ثم تجدد النزاع بين بهاء الدولة ، وأخيه صمصام الدولة عام ٣٨٣هـ (٩٩٣م) فهزم صمصام الدولة جيش أخيه ، واحتل خوزستان ، ثم استعاد الأمير التركي طغادر هذه الولاية لبهاء الدولة ولكن البصرة وقعت عام ٣٨٦هـ (٩٩٦م) في قبضة صمصام الدولة ، فطرد التركي من خوزستان .

وانعكست الآية بعد ذلك بقليل ، إذ قتل صمصام الدولة عام ٣٨٨هـ (٩٩٨م) ، وسرعان ما انحاز قائده أبو علي ابن أستاذ هرمز إلى بهاء الدولة ، الذي استطاع فتح خوزستان وفارس وكرمان التي طرد عامل بهاء الدولة منها بعد ذلك بعامين .

غير أن عامل بهاء الدولة الذي خلف العامل المطرود تمكن من إعادة كرمان إلى أميره بهاء الدولة .

ووقع هذا الأمير في نضال عنيف مع بني عقيل إذ أراد أن يحد من استقلال أبي الجواد العقيلي أمير الموصل فأنفذ إليه جيشًا بقيادة أبي جعفر الحجاج الذي هُزِمَ في عدة مواقع دون أن تكسر شوكته ، وفي عام ٣٨٦هـ (٩٩٦م) توفي أبو جعفر فتقاتل أخواه على الإمارة ، وتألب العصاة في الوقت نفسه دائبين على التآمر في خوزستان ، وقد حاصر حاضرتها الأميران بدري حسنويه وأبو جعفر الحجاج بالاشتراك مع ابن واصل الذي كان قد خرج عن طاعة بهاء الدولة ، ثم أُسر ابن واصل آخر الأمر فرفع الحصار من بغداد وعقد الصلح مع بهاء الدولة .

وتوفي الأمير البويهي بهاء الدولة في جمادى الأولى عام ٤٠٣هـ (١٠٠٢م) بأرجان بالغ من العمر حوالي ٤٣ عامًا ، ومن ثم يكون قد ولد عام ٣٦٠هـ (٩٧٠م) وليس في سيرة هذا الأمير ما يستحق التخليد وإطلاق اسمه على أحد شوارع الإسكندرية .

وكان بنو بويه قد بلغوا في عهد عضد الدولة ، والد بهاء الدولة أوج سطوتهم وسلطانهم ولكن هذا المجد اضمحل للحروب الطاحنة التي نشبت بين أبنائه عقب وفاته كما تقدم ومن ثم أخذت أمور دولتهم تزداد سوءًا على سوء .

٢) أبو نصر سابور بن أردشير (الملقب ببهاء الدولة): كان من مشاهير الوزراء وأماثل الرؤساء ومن أكفأهم وأوسعهم دراية بالأمور . وكان بيته محط آمال الشعراء وقد مدحه الكثيرون منهم – فقد قال أبو الفرج الببغاء في مدحه:

لمتُ الزمانَ على تأخير مطلبتي
فقال ما وجه لومي وهو محظور

فقلت لو شئتَ ما فات الغنى
أملي فقال أخطأت بل لو شاء سابور

لُذ بالوزير أبي نصر وسل شططًا
أسرِفْ فإنك في الإسراف معذور

وقد تقبلت هذا النصح من زمني
والنصح حتى من الأعداء مشكور

وقد أفرد أبو منصور الثعالبي (انظر مادة الثعالبي) لمدحه بابًا خاصًّا في كتابه «اليتيمة» وكان له دار ببغداد أشار إليها أبو العلاء المعري (انظر مادة المعري) بقوله في إحدى قصائده المشهورة:

وغنت لنا في دار سابور قينة
من الورق مطراب الأصائل ميهال

وقد ولد هذا الوزير بشيراز ببلاد العجم ليلة السبت ١٥ من ذي القعدة عام ٣٣٦هـ (٩٤٧م) وتوفي ببغداد عام ٤١٦هـ (١٠٢٥م) بالغًا من العمر إلى ٧٩ عامًا. وقد تولى الوزارة لأبي نصر فيروز الملقب ببهاء الدولة المدونة ترجمة حياته قبل.

ولم يشتهر هذا الرجل بالعلم أو بالمواقف الهامة التي تؤثر في حياة الشعوب وتكون جديرة بتخليد صاحبها على مر الأعوام، ومن ثم يصعب معرفة السبب الذي حدا ببلدية الإسكندرية لإطلاق اسمه أو اسم مخدومه أبي نصر فيروز البويهي على الشارع بقسم مينا البصل اللهم إلا إذا كان هناك بهاء الدولة آخر يستحق التخليد، ولم أعثر على ترجمة حياته لأن الإخبارات (الملفات) المتعلقة بأسماء الشوارع لم يبق منها شيء في محفوظات بلدية الإسكندرية وهو أمر يدعو إلى الأسف الشديد.

٤٤٣ - بهاء الدين - شارع - بقسم الرمل

يحمل لقب بهاء الدين عدد ممن دون المؤرخون مراحل حياتهم ومن بينهم:

١) **بهاء الدين زكريا**: ويطلق عليه عادة لقب «بهاء الحق» لأنه كان أحد أولياء الطريقة السهروردية، وقد ولد بالقرب من مُلْتان خلال عام ٥٦٥هـ (١١٦٩م)، وكان من أخلص مريدي الشيخ شهاب الدين السهروردي صاحب تلك الطريقة الصوفية التي أنشأها في بغداد ثم صار خليفته بعد وفاته.

ورحل بهاء الحق بعد ذلك إلى مُلْتان واستقر بها، وبنى فيها ضريحًا له، ثم مات. ولهذا الولي صيت ذائع في جنوب غرب مقاطعة «البنجاب» وفي مقاطعة السند بالباكستان، ويقدسه أصحاب القوارب الذين يعملون في نهر السند، وليّهم الذي يرعاهم ويحميهم.

وقد أصبح الضريح الذي بناه آية من آيات الفن الرائع بقلعة مُلتان القديمة، وتعلوه قبة على هيئة نصف الكرة وتزينه نقوش من القرميد الجميل المطلي بالميناء.

وبما أنه أشرف على المائة من عمره فتكون وفاته قد حدثت في حوالي عام ٦٦٥هـ (١٢٦٦م).

٢) **بهاء الدين زهير**: اطلب ترجمته في «البهاء زهير» وهو الاسم الذي اشتهر به، وله شارع بهذا الاسم في قسم اللبان.

٣) **الصاحب بهاء الدين بن حنا**: وقد ذكر ترجمته محمد ابن أحمد بن إياس (انظر مادة ابن إياس) في الجزء الأول من

كتابه القيم «بدائع الزهور في وقائع الدهور» فقال إن الملك الظاهر بيبرس (انظر مادة بيبرس) الذي حكم الديار المصرية في المدة من ٦٥٨ إلى ٦٧٩هـ (١٢٥٩–١٢٨٠م) فصل عن تولية الحكم الصاحب زين الدين بن الزبير من الوزارة وعين مكانه الصاحب بهاء الدين بن حنا وزيرًا للديار المصرية، وأن بهاء الدين بن حنا هو الذي بنى مكان الآثار النبوية المطلة على نهر النيل، وكان قد اشترى هذه الآثار الشريفة بجملة كبيرة من المال، وأودعها ذلك المكان الذي شيده، وصار الناس يقصدونه للزيارة كل يوم أربعاء، ومازال هذا المكان يعرف باسم «آثار النبي» أو «أثر النبي في لغة العامة»، وفي ٤ شعبان عام ٦٥٨هـ (١٢٥٩م) خرج الظاهر بيبرس إلى المطرية، والأمراء بين يديه، وصعد القاضي فخر الدين بن لقمان على المنبر، وقراء تقليد الخليفة العباسي المستنصر للسلطان بيبرس ثم لبس بيبرس الخلعة وهي جبة سوداء بطوق ذهب، وعمامة سوداء بعذبة ذهب وسيف، ثم سار موكبه، وكان بهاء الدين ابن حنا يحمل التقليد على رأسه، ويدل ذلك على أن ابن حنا كان وزيرًا عندما تولى الظاهر بيبرس الحكم في مصر.

٤٤٤- البهاء زهير - حارة - بقسم اللبان

هو أبو الفضل بن محمد علي المهلبي العتكي الأزدي بهاء الدين زهير الكاتب، واشتهر بين الناس «بالبهاء زهير»، وكان من فضلاء عصره، وأحسنهم نظمًا ونثرًا وخطًّا، ومن أكبرهم مروءة وكرمًا.

وكانت ولادته بمدينة ملكة بالأقطار الحجازية في اليوم الخامس من شهر ذي الحجة عام ٥٨١هـ (٢٧ فبراير عام ١١٨٦م) وينتهي نسبه إلى المهلب بن أبي صفرة، وقد رحل في صغره إلى مصر ودرس في مدينة قوص من أعمال الصعيد القرآن والأدب، واستقر آخر الأمر بالقاهرة في حوالي عام ٦٢٥هـ (١٢٢٧م).

وتولى في بداية حياته العملية خدمة الملك الصالح نجم الدين أبي الفتح أيوب بن الملك الكامل (انظر مادتي الملك الصالح والكامل) بالديار المصرية، ثم صحبه في حملته على الشام والجزيرة العليا والبلاد الشرقية وأقام بها إلى أن استولى الملك الصالح على دمشق فانتقل إليها في صحبته، واستمر على الإقامة هناك إلى أن وقعت الكارثة للملك الصالح بسبب خيانة جنوده، ففقد دمشق وقبض عليه ابن عمه الملك الناصر داوود صاحب الكرك واعتقله بقلعتها، فأقام البهاء زهير بنابلس ردحًا من الزمن وظل على وفائه لمليكه ولم يتصل بغيره، ولم يزل على هذا الحال إلى أن استرد الملك الصالح أيوب ملكه للديار المصرية فعاد إليها بهاء الدين ليواصل خدمته لسيده الذي عينه وزيرًا بعد أن كان صاحب ديوان إنشائه، وأغدق عليه النعم وآيات التشريف، وكانت عودته إلى القاهرة في أواخر شهر ذي القعدة عام ٦٣٧هـ (١٢٣٩م). ويقول ابن خلكان (انظر هذه المادة) في كتابه «وفيات الأعيان»: «إنه اجتمع بالبهاء زهير في القاهرة عقب عودته إليها فوجده فوق ما سمع عنه من مكارم الأخلاق، ودماثة السجايا، وقال إنه كان مكينًا عند صاحبه الملك، كبير القدر لديه، لا يطلع على أسراره غيره وكان لا يتوسط عنده إلا في فعل الخير والنفع للناس».

ونجد البهاء زهير خلال عام ٦٤٦هـ (١٢٤٦م) في المنصورة إلى جانب مولاه الملك الصالح أيوب وهو يقاتل الحملة الصليبية السابقة التي قادها القديس لويس.

والبهاء زهير من مشاهير الشعراء العرب، ويمتاز شعره بالرقة وخفة الروح، وهو في هاتين نسيج حده لا يشابهه فيهما مشابه، حتى أصبح شعره مضرب المثل في العذوبة والسهولة وحلاوة الجرس، ومثالاً للشعر المصري في أجمل صوره، وقد تناول ديوانه فنون الشعر وأغراضه، وله مجون لطيف ومزاح مقبول، وكان بينه وبين ابن مطروح (انظر هذه المادة) مودة ومحاورات أدبية شيقة.

ويقول ابن خلكان إن شعره من السهل الممتنع، وأنه متداول بين الناس ينشدونه ويطربون لسماعه.

ومن شعره الغزلي الذي يشبه النثر العذب السياق لولا وزنه وقافيته:

إنْ شكا القلب هجركم
مَهَّد الحب عُذْركم

لو رأيتم محلَّكم
من فؤداي لسَرَّكم

قصِّروا مدة الجفا
طوَّل الله عمْركم

ومن وصفه الغزلي في محبوبه، وشكواه من هوى ذلك المحبوب قوله:

كيف خلاصي من هَوَىً
مازج روحي واخْتلطْ

وتائهٍ أقبضُ في
حبي له وما انْبسطْ

يا بدرُ إن رُمت به
تشبُّهًا رُمْتُ شططْ

ودعه يا غصن البقا
ما أنت من ذلك النمطْ

إلى أن يقول في هذا المحبوب الجميل الصورة الكامل المحاسن:

ما فيه من عيبٍ سِوَى
فتورُ جَفْنيه فقطْ

يا قمر السعد الذي
نجمي عليه قد هبطْ

يا مانعي حلو الرضا
ومانِحي مُرَّ السَخَطْ

حاشاك أن ترضى بأن
أموتَ في الحب غَلَطْ

ومن مجونه اللطيف، وصف بَغلة أحد أصدقائه بهذه الأبيات الخفيفة الروح التي يتطرق فيها إلى وصف هذا الصديق الثقيل الظل الغبي:

لك يا صديقي بغلةٌ ... ليست تساوي خردلَهْ

تمشي فتحسبها العيون ... على الطريق مُشكَّلهْ

وتخال مدبرة إذا ... ما أقبلت مستعجَلهْ

مقدار خطوتها الطويلة ... حين تسرع أنمُله

تهتز وهي مكانها ... فكأنما هي زَلزَله

أشبَهْتها بل أشبهتْك ... كأن بينكما صِله

تحكي صفاتك في الثقا ... لة والمهانة والبلهْ

ومن قوله في الرثاء:

يا واحدًا ما كان لي غيرهُ ... بعدَكَ وافلّةَ أنصاري

يا منتهى سُؤْلي ويا مُشتكى ... حزني ويا حافظ أسراري

الدار من بعدك قد أصبحتْ ... في وحشةٍ يا مؤنس الدارِ

إن كنتَ قد أصبحتَ في جنة ... إنيَ من فقدك في نارِ

جارك قلبي كيف أحرقته ... واللّه أوصى الجارَ بالجارِ

وقال عندما تقدمت به السن:

قالوا كَبِرْتَ عن الصبا ... وقطعتَ تلك الناحيه

فدع الصبا لرجالهِ ... واخلع ثيابَ العاريه

ونعم كبرْتُ وإنما ... تلك الشمائلُ باقيه

وتفوح من عطفي ... أنفاس الشباب كما هِيَهْ

ويميل بي نحو الصبا ... قلب رقيق الحاشيه

فيه من الطرب القديم ... بقية في الزاويه

وحدثت بينه وبين مليكه جفوة بسبب سوء تفاهم أدى إلى فقدانه الحظوة لدى مولاه، وعقب وفاة الملك الصالح رحل البهاء إلى الشام، حيث نظم أحسن مدائحه في أمير دمشق الناصر يوسف، ولكنه لم يظفر منه بعطاء، فعاد إلى القاهرة بائسًا محسورًا، وكابد فيها الوحدة والفقر ملازمًا لبيته لا يبرحه.

وفي شهر شوال عام ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) حدث وباء بالقاهرة فأصيب البهاء زهير به، وتوفي في يوم الأحد الرابع من ذي القعدة من ذلك العام بالغًا من العمر ٧٤ عامًا، ودفن بالقرافة الصغرى بالقرب من قبة الإمام الشافعي.

٤٤٥- بهجت باشا - شارع - بقسم محرم بك

٤٤٦- بهجت باشا - شارع - بقسم الرمل

هو مصطفى محمد محرمجي الذي عرف فيما بعد باسم بهجت باشا، ولد بالقاهرة عام ١٢٢٤هـ (١٨٠٩م) ولما بلغ السابعة عشر عامًا اختير للسفر ضمن الطلاب الذين أرسلهم محمد علي لتلقي العلوم عام ١٨٢٦ (١٢٤٢هـ) وهي البعثة العلمية الثالثة، وقد أدى الامتحان الذي عمل له ولزملائه ونال جائزة قدمها إليه الكونت بليار أحد قواد الحملة الفرنسية على مصر، وكان هذا القائد تحت قيادة الجنرال «ديزكس Desaix» (انظر هذه المادة)، وجاء في التقرير عن سير دراسته أنه يواصل دراسة العلوم الهندسية بنجاح، وكان من أصغر الطلاب سنًّا هو ورفاقه الذين منهم رفاعة بك (انظر هذه المادة)، ومحمد شنن (انظر هذه المادة)، وقد تخصص في «هندسة القوى المائية Hydraulique»، وفي أكتوبر عام ١٨٣٥م (١٢٥١هـ) سافر من باريس إلى إنجلترا للسياحة وتطبيق العلم على العمل، وكان راتبه الشهري أثناء البعثة مائة قرش، وعاد إلى الوطن في أواخر عام ١٨٣٥م (١٢٥١هـ)، واشتهر بهجت باشا مصطفى محرمجي بآثاره الهندسية، وقد تولى نظارة المعارف والأشغال.

ولدى عودته إلى مصر من البعثة قام بالتدريس بمدرسة الطوبجية، وكان أحمد باشا فائد معيدًا لدروسه في هذه المدرسة (انظر مادة أحمد باشا فايد).

وتوفي مصطفى محرمجي بهجت باشا عام ١٨٧٢م (١٢٨٩هـ) بالغًا من العمر ٦٣ سنة ميلادية.

٤٤٧- البهنسا - شارع - بقسم مينا البصل

كانت البهنسا من المدن المصرية المشهورة في القرون الوسطى، وهي تقع بين بحر يوسف وسفوح التلال المتصلة بسلسلة جبال ليبيا في مصر الوسطى وتبعد عن مدينة «بني مزار» بمسافة قدرها ١٥ كيلومترًا نحو الغرب، وبها محطة للسكة الحديدية على بعد ١٩٨ كيلومترًا جنوب القاهرة واسمها في اللغة المصرية القديمة «برمزيت Permezet» وبالقبطية «بِنْجه» وباليونانية «بمبني» أو «أوكسيرنيكوس».

وكانت البهنسا من المدن المزدهرة المشهورة بكنائسها وأديارها الكثيرة إبان العصر البوزنطي ويقال إنه كان في حيزها ٣٦٠ كنيسة تتبع أسقفية، وجاء في رواية قبطية أن مريم العذراء والطفل يسوع أقاما بها في أثناء الفرار من مصر.

وكان لها شأن عظيم خلال الفتح العربي إذ كانت موضعًا حصينًا ضخم الأسوار، ويبدو أن حاميتها البوزنطية قد بذلت جهودًا جبارة في الدفاع عنها مما جعل الناس يذكرونها طويلاً

ونسجوا حول دفاعها قصة حربية يُشَك في صحة تفاصيلها وأطلقوا على هذه القصة اسم «فتوح البهنسا» وهي قصة شعبية من إلهام القصاص المصري في ذلك الحين .

وكانت البهنسا في مبدأ الأمر قصبة كورة فنعمت برخاء مزدهر في العصور الوسطى وظلت كذلك إلى أن أعيد التنظيم الإداري في مصر الذي نفذ وفاقًا للأمر الذي أصدره الوزير الفاطمي «بدر الجمالي» (انظر هذه المادة) في عهد الخليفة المستنصر بالله أي في نهاية القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، ويتحدث عنها «ابن بطُّوطة» فيصفها بأنها مدينة كبيرة تحيط بها البساتين الكثيرة ذات الثمار الوفيرة .

وكانت هذه المدينة القديمة ذات صيت ذائع بما كانت تنتجه من الأقمشة الفاخرة التي كانت تصنع من أنفس الأنسجة ومنها الحرائر الموشاة بالذهب إلى جانب الستائر وأغطية الخيام وأشرعة المراكب والأقمشة الكبيرة الحجم من الصوف والكتان والقطن وقد رسمت عليها صور بالألوان الثابتة ترمز إلى الحيوانات المختلفة من الحشرات إلى الفيلة، ويقول الإدريسي (انظر هذه المادة) إن الأقمشة التي تصنع بالبهنسا كانت تحمل اسمها، ويدل على ذلك ويؤكد صحته أن قطعة من الصوف متعددة الألوان وتحمل صور أرانب صغيرة لها رءوس آدمية مازالت محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، وقد أثنى ابن بطوطة على قماشها الصوفي الممتاز .

ولم تعد البهنسا تلك المدينة الزاهرة – فأصابها الاضمحلال على مر السنين – فصارت بلدة لا أهمية لها فضمت في القرن التاسع عشر إلى مديرية بني سويف (انظر هذه المادة) (محافظة بني سويف حاليًّا)، قبل أن تلحق بمديرية المنيا (انظر هذه المادة) (محافظة المنيا حاليًّا) .

وفي عام ١٨٩٠م كان من المستطاع مشاهدة هذه الأنقاض من كل نوع تضم أعمدة من الجرانيت وأجزاء من تيجان الأعمدة وبقايا تماثيل وفخار وآجر ملقاة على الأرض في مكان البهنسا، وهي الآن عبارة عن كومة من الأطلال وفاقًا لما ذكر في دليل الآثار الذي نشر حديثًا .

إن منطقة البهنسا كانت حافلة بالغابات في عهد الفاطميين والأيوبيين، وكانت هذه الغابات مدرَّجة وتقوم في حيز الأملاك التي تستغلها الإدارة الحكومية وكانت أخشابها تستخدم لتزويد البحرية بما يلزمها لبناء السفن، وقد اعتمد المقريزي (انظر هذه المادة) في نقل هذه الرواية على ما ذكرهُ ابن ممَّاتي ولكنه يضيف قائلاً: إن ذلك كله قد اندثر تمامًا ولم يعد المرء يسمع أحدًا يتحدث عن هذا النظام لأن الأفراد قطعوا هذه الأشجار .

٤٤٨- بوتي (الدكتور) - شارع - بقسم العطارين (محمد موسى حاليًّا)

انظر ترجمة بوتي في «الدكتور بوتي» .

ومحمد موسى في حرف «م» .

٤٤٩- بورسعيد - شارع - بقسم باب شرقي (أمبرواز راللي سابقًا)

٤٥٠- بورسعيد - شارع - بقسم باب شرقي (سرابيون سابقًا)



كلية سان مارك بشارع بورسعيد

٤٥١– بورسعيد – شارع – بقسم سيدي جابر (تجران باشا سابقًا)

عبارة «بورسعيد» تدل على معنيين، الأول وهو «بور» ويعني «ميناء» باللغة العربية وهو بالفرنسية «Port»، ومن ثمَّ فمدلول العبارة عربيًّا هو «ميناء سعيد» نسبة لسعيد الأول الذي حكم مصر بعد عباس الأول وقد منح الدبلوماسي الفرنسي «الفيكونت فردينان ديلسبس Ferdinand De Lesseps» امتياز حفر قناة السويس.

وميناء سعيد يقع على البحر الأبيض المتوسط عند المدخل الشمالي لقناة السويس وبينه وبين القاهرة ١٤٥ ميلاً عن طريق الإسماعيلية والزقازيق، وبينه وبين الإسكندرية ١٢٥ ميلاً بحريًّا بمحاذاة الشاطئ، وكان موقع المدينة الحالي منخفضًا عن سطح البحر ماعدا اللسان الرملي الذي يفصل المنزلة عن البحر المتوسط ويتراوح عرضه بين ٢٠٠ و٣٠٠ ياردة، وقد اختار موقع المدينة فريق من المهندسين الفرنسيين على رأسهم «لاروش Laroche» وذلك لعمق مياه البحر عندها ولأنها أقرب نقطة عبر البرزخ إلى السويس وهو البرزخ الذي جرت فيه بعد ذلك القناة.

وما إن بُدئ بالعمل في القناة حتى بنيت خمسة مساكن من الخشب أقيمت على خوازيق وأنشئ مخبز وجهاز لتقطير المياه اللازمة لحاجة القائمين بالعمل.

وبعد عام واحد بدأت الكراكات في تعميق مياه الميناء واستخدم التراب المستخرج من التعميق في بناء المساكن التي سرعان ما وصل عددها إلى ١٥٠، بجانبها ١٥٠ كوخًا، ومستشفى، وكنيستان، إحداهما للكاثوليك والأخرى للأرثوذكس ومسجد هذا إلى جانب المصانع الخاصة بمتطلبات حفر القناة، ومع كل هذا العمران فإن ما بني لم يسد حاجة السكان الذين أخذ تزايدهم يضطرد بسرعة ولاسيما عندما تقدمت أعمال الحفر في القناة حتى وصلت إلى مكان الإسماعيلية (انظر هذه المادة).

ولما كانت المحاجر بعيدة عن الميناء فقد بدأ «إخوان دَسُّو Dassaud Frères» في صنع الأحجار الصناعية التي تستطيع مقاومة التيارات البحرية وكان تأسيس هذه الشركة خلال عام ١٨٦٥م.

ويقول علي باشا مبارك (انظر هذه المادة) في كتابه الخطط التوفيقية: «إن الواحد من هذه الأحجار يزن اثنين وعشرين طنًّا، واستعملت في بناء السدين الضخمين اللذين في الميناء الخارجي وفي تهيئة أراضي الميناء». واستطاعت سفن البريد في العام نفسه أن تشق القناة إلى الإسماعيلية على حين أخذت السفن الأخرى تجلب الواردات إلى بورسعيد، وفي عام ١٨٦٨م تمَّ بناء السدين، وفي عام ١٨٦٩م تم حفر القناة وترتب على ذلك اكتظاظ المدينة بالقناصل وغيرهم من مبعوثي الأمم المختلفة، ومن ثمَّ وصل عدد السكان إلى عشرة آلاف.

وبدأ تاريخ وجود «بورسعيد» عندما غاص أول معول في الأرض لحفر القناة في ٢٥ إبريل عام ١٨٥٩م (انظر مادة قناة السويس).

ولو أنها من أحدث مدن جمهورية مصر العربية إلا أن لها جذورًا متغلغلة في أعماق التاريخ المصري، فقد قدِّر لها أن يكون موقعها في الطرف الشمالي الشرقي لمصر الفرعونية القديمة، في المنطقة التي عرفها التاريخ باسم «بيلوز» (انظر هذه المادة)، وكان يجري في غربها وجنوبها فرع من فروع النيل يعرف بالفرع «البيلوزي»، وعلى مر القرون المنصرمة جارت رمال الصحراء على هذا الفرع، وتخلف عن ذلك بعض البحيرات الداخلية الصغيرة، وفي العهد البطلمي والعهد الروماني في مصر صار اسم منطقة «بيلوز» الفرما التي صارت في عهد الفتح العربي مركزًا دفاعيًّا هامًّا على الحدود المصرية الشرقية، غير أن قلة فيضان النيل في الفرع البيلوزي وطغيان رمال الصحراء على هذه المنطقة أفقدا الفرما قيمتها.

وبقيت المنطقة على حالها من الضعف إلى أن شُرع في حفر قناة السويس فظهرت بورسعيد إلى حيز الوجود وقد أقيمت على شبه جزيرة رملية على الضفة الغربية لمدخل القناة تفصل بحيرة المنزلة عن البحر الأبيض المتوسط على بعد ٢٨ كيلومترًا من أطلال الفرما الباقية.

وسارت أعمال الحفر والإنشاء بطيئة، ولولا أن العنصر البشري الذي قام بهذه الأعمال الشاقة قوي وصبور على المحن لقامت في وجه المشروع صعاب كان من العسير التغلب عليها.

ويصف أهل بورسعيد مدينتهم بأنها الوجه الباسم الجميل الذي تطل به مصر على سفن أهل الدنيا التي تمر بقناة السويس، وتقول عنها المراجع والكتب إنها نقطة اتصال الشرق بالغرب، ويذكر التاريخ الحديث أنها إحدى مدن خمس في العالم استطاعت أن تسجل اسمها في سجل الخلود وذلك بالبطولة الفذة التي أبداها سكانها في أثناء الاعتداء الثلاثي الغاشم عام ١٩٥٦م.

وموقعها الجغرافي يجعلها ذات جوّ ممتاز بالنسبة للطقس العام الذي يسود القطر المصري، فهي أشبه بجزيرة تحف بها قناة السويس شرقًا والبحر المتوسط شمالاً وبحيرة المنزلة غربًا بجنوب، ومن ثمَّ تلطف هذه المساحات المائية الشاسعة جوها في جميع فصول السنة وتجعلها صالحة لأن تكون مصيفًا ومنطقة استجمام مريحة على مرّ الفصول.

وسطر الزمن فوق جبينها سطورًا من الشقاء منذ مولدها، فقد شهدت مأساة حفر قناة السويس وما فعلته السخرة البشعة بالمواطنين المصريين طوال أعمال الحفر فسقط منهم الآلاف في غير شفقة أو رحمة من الحكام ومن منفذي المشروع على السواء فكانت الكرامة الإنسانية تمتهن وأموال البلاد تستنزف في غير مبالاة، ثم قُدر عليها أن ترابط القوات الإنجليزية الاستعمارية على مقربة منها فترة غير قصيرة من تاريخها، هذا إلى جانب ما عانته من النفوذ الأجنبي الممقوت قبل ثورة الشعب في يوليو عام ١٩٥٢م فقبل قيام هذه الثورة الشعبية كانت بورسعيد مقسمة إلى ثلاثة أحياء وهي: حي الإفرنج وكان مخصصًا لإقامة الأجانب من مختلف الأجناس ومفضلاً عن غيره بالرعاية والعناية الفائقة، وحي العرب وكان مخصصًا لإقامة المواطنين المصريين الموسرين وأفراد الطبقة المتوسطة وكان نصيبه من العناية أقل من نصيب حيّ الإفرنج، ثم حي المناخ وكان مخصصًا لسكنى الطبقة المتواضعة من الشعب المصري ومحرومًا من كل عناية وكانت تتخلله أكواخ خشبية ومساكن متواضعة ليس فيها أية وسائل للراحة أو الصحة العامة.

وكان الحي الأوروبي المحظوظ قريبًا من مدخل القناة ومن الشاطئ من ناحية الشمال والشمال الشرقي، أما الحي الوطني فكانت رقعته تزداد ناحية الغرب والجنوب الغربي حول الجامع الذي افتتح رسميًّا للصلاة يوم الجمعة ١٤ شعبان عام ١٣٠٠هـ (١٨٨٣م).

وتمد ترعة الإسماعيلية التي يبدأ مأخذها من النيل المدينة بالمياه العذبة وذلك بوساطة أنابيب، وتخزن هذه المياه في صهريج كبير يكفي السكان عدة أيام.

ويدل تزايد عدد سكان بورسعيد السريع على تقدمها العمراني الوثَّاب، ففي عام ١٩٠٧ وصل هذا العدد إلى ٤٩,٧٨٤ نسمة ثم قفز في عام ١٩٥٠ إلى ١٧٨,٤٣٢نسمة، وأخذ التعداد يزداد بمعدل ٤٪ سنويًّا، إلى أن بلغ ما يقرب من ربع مليون على حين أنه لم يتجاوز الألفي نسمة في عام ١٨٥٩.

ولم يمضِ على هذه المدينة الحديثة وقت طويل حتى عظم شأنها باعتبارها مركزًا من مراكز التجارة في مصر لا تفوقها في ذلك إلاَّ الإسكندرية بل إنها أصبحت – من جهة أخرى – من أهم محطات النقل البحري بين الشرق والغرب، ومن ثمَّ صارت الحاجة ماسة إلى توسيع مينائها الخارجي الذي يشغل مساحة قدرها ٥٧٠ فدانًا ومدّ رصيفيها اللذين بنيا بحيث يحميان القناة من اندفاع المياه المستمر وطغيان مياه البحر الدائمة

التدافع ومن تراكم الرمال، ولذلك شيد حوض عائم كبير طوله ٢٥٩ قدمًا وعرضه ٨٥ قدمًا وعمقه ١٨ قدمًا يستطيع أن يرفع ٣٥٠٠ طن، ثم أنشئت أحواض أخرى على الضفة الشرقية للقناة في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٠٣ و١٩٠٩ وأقيمت المدينة الجديدة «بور فؤاد Port Fouad» نسبة إلى الملك السابق فؤاد الأول وذلك في الناحية الشرقية توفيرًا لراحة العمال الأجانب ومعظمهم من عمل شركة القناة السابقة.

وفي عهد الخديوي إسماعيل أقيمت أربع منارات «Phares» على نفقة الحكومة واحد في رشيد والثاني في البرلس والثالث في برج العزبة بالقرب من دمياط والرابع في بورسعيد وهو بارتفاع ١٧٤ قدمًا ويُرى نوره على بعد عشرين ميلاً ويقوم عند قاعدة الرصيف الغربي وعلى طرفه المتجه للبحر كان ينتصب تمثال فردينان دي ليسيبس الذي نحته المثال الفرنسي «إ. فرمييه E. Fermiet» وأزيح عنه الستار عام ١٨٩٩م، وقد أحاطت به الثورة عند تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦.

وكانت أشهر الأبنية في المدينة هي منشآت شركة القناة التي أقامتها بمبالغ باهظة لراحة موظفيها وعمالها وكانت الغالبية العظمى منهم فرنسيين وأجانب من جنسيات عديدة؛ ولذلك كانت المدينة تضم أناسًا من مختلف الجنسيات قبل التأميم ولا تشتهر بصناعة خاصة، إذ كان معظم السكان الوطنيين يمارسون الاتجار في المصنوعات الشرقية والتحف يبيعونها للسياح في أثناء عبورهم القناة.

ويسجل تاريخ مدينة بورسعيد ثلاثة أحداث كان لها تأثير قوي في كيانها العام ويتمثل الحدث الأول في قيام ثورة ٢٣يوليو ١٩٥٢ إذ كان قيامها إيذانًا بانقلاب جذري في حياتها، فبعد أن كانت السيادة والأفضلية في أرجائها للأجانب والدخلاء، صار المواطن العربي على قدم المساواة معهم فشملت الرعاية الطبية والخدمات الصحية والاجتماعية والثقافية حي العرب وحي المناخ، ومن جهة أخرى أخذت المدينة تتطلع إلى تحقيق موارد اقتصادية غير تلك التي كانت الشركة تفرضها عليها بوصف كونها ميناء على القناة، ومن ثمَّ دبت في أرجائها بوادر نهضة صناعية وزراعية.

فأسرعت الحكومة في بناء حوالي ٦٠٠٠ مسكن صحي للطبقة الكادحة عوضًا عن الأكواخ التي كانت تملأ حيَّ المناخ، وحددت لهذه المساكن إجارة تتراوح بين جنيه وجنيه وربع الجنيه وبين ثلاثة جنيهات ونصف في الشهر هذا علاوة على نحو ٣٠٠ مسكن تعاوني لسكنى الموظفين وتمَّ كل هذا في الفترة بين ١٩٥٣ و١٩٦٠م، وذلك على الرغم من الاضطرابات التي أحدثتها حرب العدوان الثلاثي الغاشم عام ١٩٥٦ وهو الحدث الثاني في تاريخ المدينة إذ اختار القدر أن تكون بقعتها المكان الذي يرحل منه آخر جندي إنجليزي عن أرض الوطن بعد أن جثم الاحتلال البريطاني على صدر مصر ٧٤ عامًا، وأما الحدث الثالث فوقع في ٦ نوفمبر من ذلك العام نفسه عندما احتلت القوات الفرنسية والإنجليزية بورسعيد ردًّا على تأميم قناة السويس، وقد سبقت العدوان الثلاثي البشع عدة غارات جوية أشاعت الدمار في كثير من أحياء المدينة، ولكن هذا لم ينقص من بسالة أهل بورسعيد فقاوموا المعتدين إلى أن أجلوهم عن مدينته الحبيبة التي أخذت لنفسها مكانًا مرموقًا في سجل الخلود.

وكانت المساحة العمرانية للمدينة قبل عدوان ١٩٥٦ حوالي ٨٠٠ فدان أي ٣,٢٦٠,٥٠٠ متر مربع، كان مخصصًا منها للسكنى نحو سبعة أثمانها بينما خصص الثمن الباقي للمرافق العامة من شوارع ومتنزهات وساحات وحدائق، وكانت كثافة السكان ٢٧٠ نسمة للفدان في المتوسط وهي نسبة عالية جدًّا لأن النسبة العادية لا تتجاوز ٢٠٠ نسمة.

وما إن زال كابوس العدوان حتى بُدئ في تنفيذ المشروعات العمرانية على أوسع نطاق مستطاع، فأقبل الشباب المتطوعون من كل فج للاشتراك فيها، فأقيم ٣٢٠٠ مسكن شعبي منها ١٥٠٠ في حي المناخ، وشقت الشوارع وصممت المرافق العامة على أحدث الطرق، وتقضي خطة الإسكان بإنشاء ١٠٠٠ مسكن سنويًّا، وفي مجال التعليم أقيمت المدارس التي تستوعب جميع أبناء المرحلة الابتدائية وأقيمت المستشفيات بمعدل سرير واحد لكل ٢٠٠ من سكانها وهي نسبة لا تقل عن مثيلتها في سويسرا.

ومن المفيد أن يعرف القارئ مراحل العدوان الثلاثي الذي دبرته الصهيونية يؤيدها الاستعمار البريطاني والفرنسي الذي حقد على مصر لمساعدتها ثوار الجزائر في ذلك الحين على استرداد حقهم في الاستقلال والحياة الحرة الكريمة.

ففي ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ بدأت قوات المظلات الإسرائيلية تسقط في شبه جزيرة سيناء المصرية، وفي ٣٠ أكتوبر تلقت مصر الإنذار البريطاني الفرنسي وقد رفضته مصر على الفور، وفي ٣١ أكتوبر انتهت مدة الإنذار عند الساعة السادسة والنصف، وعند الساعة التاسعة والنصف بدأت الطائرات البريطانية والفرنسية إلقاء القنابل على مصر، وفي ٢ نوفمبر تم انسحاب القوات المصرية إلى غرب قناة السويس، وفي ٣ نوفمبر قامت إذاعتا دمشق والقدس بالعمل بدلاً من إذاعة صوت العرب وذلك لإصابة الإذاعة المصرية بالقنابل، وفي ٥ نوفمبر نزل رجال المظلات المعتدون في بورسعيد خلال فترة المساء، وفي الوقت نفسه بعث الاتحاد السوفيتي بإنذار إلى بريطانيا وفرنسا، وقيل إن هذا الإنذار يحذر الدولتين من أن روسيا ستضربهما بالصواريخ الذرية البعيدة المدى إذا لم يكفا فورًا عن الاعتداء على مصر، ومن جهة أخرى حشدت الدول العربية والصديقة المتطوعين استعدادًا للسفر فورًا متى طلبت مصر ذلك، وفي ٦ نوفمبر عند الفجر بدأ نزول القوات المعتدية إلى شاطئ بورسعيد، وفي ٧ نوفمبر أصدر مجلس الأمن أمرًا بإيقاف إطلاق النار، وبقيت مدينة بورسعيد تدافع في بطولة نادرة طوال مدة تلك الحرب الظالمة حتى يوم ٢٢ ديسمبر يوم انسحاب القوات المعتدية منها نهائيًّا.

وعقب هذه الحرب الغاشمة أخذ في وضع تخطيط لنمو المدينة الباسلة فتم استصلاح ٥٠٠ فدان من الأراضي المالحة في الجنوب لزراعتها بالخضراوات فصار إنتاجها يكفي لحاجة السكان، وبُدئ في وضع المراحل اللازمة لتجفيف ٣٠,٠٠٠ فدان من بحيرة المنزلة للزراعة وذلك بالاشتراك مع المحافظات المحيطة ببورسعيد وقدر لإتمام هذا المشروع ١٥ مليونًا من الجنيهات.

وفي ٢٣ ديسمبر عام ١٩٦١م افتتح ميناء الصيد الذي أنشئ عند ملتقى قناة السويس بالبحر المتوسط وهو مزود بأرصفة تصد الأمواج عن مراكب الصيد التي بلغ عددها في ذلك الحين ٣٠٠ مركب بين شراعي وتجاري، وجهز الميناء بالثلاجات الكبيرة لحفظ الأسماك كما جهز بمصنع للثلج

للغرض نفسه، ثم أقيم مصنعان لحفظ الجمبري تبلغ قيمة صادراته السنوية حوالي مائة ألف من الدولارات، هذا إلى جانب مصنع للنسيج ينسج الخيام والمظلات وقلوع المراكب ومعدات الشواطئ والرحلات، ومصنع لإنتاج الشباك لصيد الأسماك والطيور وشباك الستائر والألعاب الرياضية وشباك التمويه على العدو التي تغطى بها المعدات الحربية، ومصنع لتجفيف البصل الذي لا يصلح للتصدير لعدم توافر المواصفات المطلوبة في الخارج، ويصدر الإنتاج إلى الخارج وقد بلغ مقداره ٣٩٠ طنًّا في عام ١٩٦١م، ومصنع للمنسوجات الصوفية وخيوط الغزل الصوفي (التريكو)، ومصنع لتنقية الملح وآخر لتعبئة الموالح وتغليفها بالشمع على أحدث الأساليب، وكل هذه المصانع تعد نواة لحركة تصنيع واسعة النطاق يؤازرها كثير من مراكز التدريب المهني وتقوم بجانبها جمعيات تعاونية لإنتاج الملابس والأحذية والأدوات المعدنية والغسالات الكهربية والخلاطات. ويصل عدد السفن التي كانت تدخل ميناء بورسعيد قبل عدوان عام ١٩٦٧م الإسرائيلي إلى ٥٤ سفينة أي ضعف ما يدخل ميناء نيويورك في اليوم، وبالمدينة مطار وحيد هو مطار الجميل ويقع على بعد ثمانية كيلومترات من البلدة ويستقبل الطائرات ذات المحركين التي تقطع المسافة بين بورسعيد والقاهرة في ٤٠ دقيقة على حين أن القطار يقطعها في أربع ساعات، وأهم شوارع المدينة هو شارع الحميدي التجاري وبه أكبر سوق لتجارة الخضر والفاكهة.

وتعمل الفتيات في المصانع ولاسيما في مصنعي الشباك وخيوط الصوف (التريكو)، ومدرسة بورسعيد الثانوية للبنات تعد من أحسن مدارس جمهورية مصر العربية، والنادي الرياضي (استاد بورسعيد) يضم ١٥ ملعبًا وصالة ويتسع لحوالي ٢٥ ألف مشاهد وتقام فيه المباريات الكبرى والحفلات العامة وبه قاعة مغلقة تتسع لخمسة آلاف متفرج وتزاول فيه الألعاب الرياضية غير لعبة كرة القدم.

وفي ٥ يونية عام ١٩٦٧م شنت إسرائيل الحرب على الدول العربية واستهدفت بورسعيد مرة أخرى لهجمات العدو الإسرائيلي وانتهت هذه الحرب السريعة في يوم الخميس ٨ يونية، إذ وافقت مصر على وقف إطلاق النار بعد أن وصلت القوات الإسرائيلية إلى الضفة الشرقية من قناة السويس، ومازالت الحرب قائمة بين إسرائيل والعرب حتى كتابة هذا البحث في ١٩ سبتمبر عام ١٩٧٢ ولله الأمر، وما من شك في أن بورسعيد الباسلة تواصل صمودها في المعركة على الرغم من تعرضها للمخاطر وهجرة الكثير من سكانها بسبب هذه الحرب الجائرة.

٤٥٢- البوريني - حارة - بقسم الجمرك

يحمل لقب «البوريني» اثنان ممن وفقت إلى الوقوف على بعض نواحي سيرتيهما وهما:

١) **الشيخ الحسن البوريني**: ولد عام ٩٦٣هـ (١٥٥٦م) وتوفي عام ١٠٢٤هـ (١٦١٥م) بالغًا من العمر حوالي ٦٠ عامًا، وكان مؤرخًا وشاعرًا. وقضى قسمًا من حياته في التدريس، وهو مؤلف كتاب: «تراجم الأعيان من أبناء الزمان»، وله ديوان مخطوط بمدينة الآستانة، وله شرح لديوان عمر بن الفارض (انظر مادة ابن الفارض) وقد طبع هذا الشرح بالقاهرة عام ١٢٧٩هـ (١٨٦٢م)، واسمه بالكامل الحسن بن محمد الدمشقي الصفّوري بدر الدين البوريني،

وكان الشيخ الحسن البوريني من تلاميذ العلامة أحمد المقري (انظر مادة المقري) وقد طلب منه أن يجيزه فبعث إليه بهذه الأبيات من شعره:

يا سيدي وملاذي
وعالم الثقلينِ

ومَنْ غدا بمكانٍ
علا على الفرقدينِ

أَجَزْتَ بالدرس قومًا
فاقوا به النيرين

فزيِّن العبد أيضًا
من مثل ذاك بزين

وإن يكن في ختامٍ
فذاك قرةُ عيني

فأجازه العلامة «المقري» في التدريس بقصيدة من ٦٠ بيتًا، وذلك حين كان المقري بالشام، ويدل هذا على أن الحسن البوريني ولد وتوفي بالبلاد الشامية، وإن كان أصله من شمال إسبانيا الإسلامي، وكانت ولادته بصفورية بالجليل.

٢) الشيخ محمود البوريني: وكان مفتيًا لمدينة الإسكندرية على المذهب الحنفي، وتولى قبل ذلك رياسة المحكمة الشرعية بالمدينة، ويقول أفراد أسرة البوريني الذين مازالوا من سكان الإسكندرية ومن أسرها الشهيرة، يقولون إن لقب البوريني يرجع إلى أن جدَّهم الأكبر من أصل إسباني، وكانت عائلته من أهالي الشمال القريبة مدنهم وقراهم من جبال «البيرينية» التي أطلق عليها العرب جملة «جبال البرانس»، وهي على الحدود الشمالية الفاصلة بين إسبانيا وفرنسا، ومن كلمة «البيرينييه» اشتق لقب البوريني نسبة إلى هذه الجبال بعد تحريفه بعض الشيء.

ويتناقل أفراد أسرة البوريني بالإسكندرية سيرة جدهم الأكبر فيقولون إنه كان ربانًا «قبودانًا» لإحدى البواخر وكان يدعى أحمد البوريني، وقد ورث مهنة «القبودانية» عن والده، وقد هوجمت سفينته بمجموعة من قرصان البحار ولكنه استطاع بحيله الماهرة القبض عليهم، وحبسهم في أحد عنابر السفينة.

والشيخ محمود بن أحمد قبودان البوريني أول من استقر بالإسكندرية من الأسرة، وكان من العلماء وله مصنف بعنوان «أحوال أهل القبور» مازال مخطوطًا لدى من بقي من أفراد الأسرة في قيد الحياة. وتوفي الشيخ محمود عن ٧٠ عامًا، ودفن بالإسكندرية وكانت جنازته مشهورة، إذ شيعه فيها أكثر من ثلاثين ألفًا من أهالي الإسكندرية، وكان الخديوي توفيق يترجل من عربته ليقبل يده لما كان يتصف به من التقوى والورع، وما من شك في أن الحارة بقسم الجمرك سميت باسمه.

ومن أبرز أولاد الشيخ محمود الشيخ محمد البوريني الذي كان إمامًا لمسجد البوصيري (انظر مادة سيدي البوصيري) ثم مسجد أبي العباس (انظر هذه المادة) ثم إمامًا لسراي رأس التين (انظر مادة قصر رأس التين)، وتولى الإمامة في الباخرة المحروسة في عهد الخديوي عباس الثاني.

ولما سافر الخديوي لقضاء فصل الصيف في الآستانة سافر الشيخ محمد البوريني في معيته، وبقي مع الخديوي بعد منع الإنجليز له من الرجوع إلى مصر في أوائل الحرب العالمية الأولى التي بدأت في أواخر عام ١٩١٤م، ثم ذهب إلى الآستانة واستقر بها إلى نهاية تلك الحرب، وعند عودته إلى الإسكندرية تولى الإمامة بزاوية الشيخ سلامة الراس (انظر هذه المادة) بسبب غضب السلطات الإنجليزية عليه، وكذلك الملك فؤاد، ثم استطاع بجهده الشخصي أن يتولى إمامة مسجد يحيى باشا بالرمل، وبقي يزاول مهام هذه الإمامة إلى أن وافته المنية خلال عام ١٣٥٩هـ (١٩٤٠م) بالغًا من العمر حوالي ٦٥ عامًا، وكان من مؤسسي جمعية الشبان المسلمين بالإسكندرية منذ نشأتها، وكانت وفاته بقرية خربته حيث هاجر إليها في أثناء الحرب العالمية الثانية، ودفن هناك.

٤٥٣- البوصيري - شارع - بقسم الجمرك

اطلب ترجمته في «سيدي البوصيري».

٤٥٤- بوكوك - شارع - بقسم الرمل (علي الجارم حاليًّا)

اسمه الكامل «إدوار بوكوك Edward Pocoche» وهو مستشرق إنجليزي يعد من أقدم المستشرقين الذين أتقنوا تعلم اللغة العربية، وقد ولد بمدينة أكسفورد وتعلم في مرحلة تثقيفه الأولى بمدرسة مجانية ثم انتسب إلى كلية «كورب كريشي كولييج»؛ حيث حصل عام ١٦٢٤م (١٠٣٤هـ) على شهادة الماجستير في الآداب، ولشدة ذكائه ونبوغه انتخب أستاذًا لتدريس التوراة في الكلية التي تخرج منها، وفي عام ١٦٢٩م (١٠٣٩هـ) صار قسيسًا.

ولرغبته الصادقة في التزود بالمعرفة على أوسع نطاق تاقت نفسه إلى دراسة اللغة العربية تمهيدًا لرحلة يقوم بها إلى الشرق العربي، فتتلمذ في أول الأمر على «ماتياس باستورا» الألماني وأخذ يدرس على يديه مبادئ اللغة العربية حتى إذا أتقن أبجديتها وتعلم بعض كلماتها اتصل بالمستشرق «وليم بيدويل» أشهر علماء الإنجليز بالعربية في ذلك الحين وأول من ترجم القرآن إلى اللغة الإنجليزية.

وأحب «بوكوك» بعد ذلك أن يوسع دائرة معرفته بلغة الضاد وأن يحيط علمًا بدقائقها وقواعدها، فرأى أن لابدَّ له لتحقيق بغيته من رحلة إلى بلاد الشرق العربي لينهل من ينابيع اللغة العربية وساعده على ذلك تعضيد أستاذيه لما اعتزم أن يحققه من رحلته.

وكان لمدينة حلب في ذلك الوقت مركز تجاري مرموق فكانت مكتظة بالتجار الأوروبيين علاوة على أنها كانت طريق تجارة الشرق إلى الغرب وتجارة الغرب إلى الشرق وملتقى الطرق بين آسيا والشام في الجزيرة العربية والعراق، وظلت محتفظة بهذا المركز التجاري الهام إلى قبيل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح في جنوب القارة الإفريقية وقبل حفر قناة السويس، ومن ثمَّ كانت مقصد التجار الإنجليز والفرنسيين والهولانديين والإيطاليين لدرجة أن البيوتات التجارية الأوروبية كانت ثمانين بيتًا في عام ١٧٧٥م (١١٨٩هـ).

وتذكر بعض المراجع التاريخية أن الإنجليز كانوا من أوائل الأجانب الذين أسسوا في حلب «وكالة تجارية» تتألف من قنصل وعشرة تجار ووكيل قنصل وحاجب وقسيس.

ولقد نزع «بوكوك» قبيل سفره إلى الشرق ثوبه الجامعي وارتدى اللباس الكهنوتي لأنه يمتّ إلى أسرة من رجال الدين، ومن ثمَّ يمكن الافتراض بأنه استقر بحلب بصفة قسيس للقنصلية الإنجليزية.

وعقب وصوله إلى هذه المدينة أخذ في البحث عن أستاذ ضليع في أصول اللغة العربية ليتتلمذ عليه، ولم يطل بحثه إذ سرعان ما وقع اختياره على «الشيخ فتح الله» الذي لازمه طول مدة إقامته في حلب، ولقد بحث الأستاذ سامي الكيالي عن «الشيخ فتح الله» بين الكثيرين من مفكري حلب الذين يحملون هذا الاسم، ثم اهتدى بعد طول البحث في المراجع الحلبية التي تؤرخ تلك الحقبة من الزمن إلى الاقتناع الأكيد بأن ذلك العالم الذي تلقى «بوكوك» على يديه دروس اللغة العربية فنبغ فيها هو «الشيخ فتح الله البيلوني» الذي كان على جانب وفير من علوم العربية إلى جانب أنه كان أديبًا ناقدًا شاعرًا ومتحدثًا، وكان من الرجالات المبرَّزين في العهد العثماني، فألَّف الكتب وتولى الإفتاء بالقدس وسافر إلى مختلف المدن وتتلمذ عليه والي حلب «نصوح باشا» الذي ندبه السلطان أحمد الأول لقمع الفتن والاضطرابات التي اقترفها الجنود الإنكشاريون فأفلح في مهمته ونال حب الحلبيين، وكان «الشيخ فتح الله البيلوني» من المقربين إليه فصحبه معه عندما عين واليًا على ديار بكر وعندما تولى وظيفة الصدر الأعظم في الآستانة.

وكان لهذه الرحلات في صحبة نصوح باشا أثر حميد في صقل شخصية «الشيخ البيلوني» واتساع أفق ثقافته وذيوع صيته مما حفز رجال القنصلية الإنجليزية في حلب على اختياره – عقب عودته من تلك الرحلات إلى وطنه – ليكون أستاذًا «لإدوار بوكوك».

وقد توثقت الصلات بين الأستاذ وتلميذه فكان يلازمه طوال يومه ويقرأ عليه ويأخذ منه العلم والمعرفة مدة خمس سنوات كاملات فاستطاع أن يحذق اللغة العربية الفصحى بعد أن حذق العامية من أفواه الحلبيين.

واهتم «بوكوك» بكنوز حلب من المخطوطات النفيسة النادرة وكانت مبعثرة في مختلف مدارس المدينة ومساجدها وبيوتها القديمة يعلوها التراب، فعمل جاهدًا على شراء المئات من الكتب المخطوطة بأثمان زهيدة ونقلها إلى لندن، ومازال يشتري كل ما يقع تحت يده من المخطوطات النادرة حتى بلغ عددها أكثر من الألف، وفي رواية أخرى أنها تعدت الألفين.

ويقول الدكتور «ج. أ. أوبري Oubrey» صاحب كتاب «المستشرقين البريطانيين» في سياق حديثه عن «بوكوك» «إنه جمع في أثناء السنوات الخمس التي عاشها في حلب مجموعة نفيسة من المخطوطات العربية تكوِّن الآن قسمًا من المخطوطات العربية بالمكتبة البودلية (نسبة إلى أستاذه وليم بدويل) مترجم القرآن الذي أهدى مكتبته إلى جامعة أكسفورد».

وعاد «بوكوك» إلى إنجلترا مزهوًّا بعلمه وبما نقله من كنوز ثقافية فذاعت شهرته وأسند إليه في ١٠ أغسطس عام ١٦٣٦م (١٠٤٦هـ) الكرسي الجديد لأستاذية اللغة العربية فأخذ يلقي على طلابه محاضرات في الأدب العربي والنحو والبلاغة مبتدئًا ببلاغة الإمام علي بن أبي طالب.

وعقب نهاية السنة الدراسية سافر إلى الآستانة مع المستشرق البريطاني المتخصص في شئون الفلك «وليم جريفز» وكان يجيد اللغتين العربية والفارسية، ومن الآستانة رجع إلى حلب حيث استطاع جمع طائفة أخرى من المخطوطات النفيسة النادرة ونقلها إلى إنجلترا لتضم إلى المجموعة السابقة بجامعة أكسفورد، كما نقل شجرة تين غرسها في حرم هذه الجامعة وظل يركن إلى ظلها طوال حياته.

وانصرف «بوكوك» بعد ذلك إلى الحياة الأدبية فأخذ يؤلف الكتب وينشر بعض المخطوطات، ومن الكتب التي ألفها: كتاب «الحضارة العربية» الذي صدر عام ١٦٤٩م (١٠٥٩هـ) وأهداه إلى ملك بريطانيا، وكتاب «مختصر التاريخ العام» لابن البطريق (انظر هذه المادة) وقد صدر عام ١٦٥٨م (١٠٦٩هـ)، وترجمة «مجمع الأمثال» للميداني (انظر هذه المادة)، وترجمة لامية العجم مع دراسة نقدية لهذه القصيدة التي نظمها «الطغرائي» (انظر هذه المادة)، ومقالة عن مزايا القهوة من كتاب طب عربي نشرها عام ١٦٥٩م (١٠٧٠هـ).

ويرقد أستاذ «إدوار بوكوك» «الشيخ فتح الله البيلوني» في تربة مهجورة في زاوية متهدمة تقع في زقاق البيلوني وراء خان الميسر بمدينة حلب، وكان لهذا الشيخ الجليل الفضل في إنارة الطريق لرجل تعتبره دوائر الاستشراق من الرواد الذين وضعوا هذا العلم على دعائم وطيدة.

وبعد أن قام «إدوار بوكوك» بطبع «تاريخ مختصر الدول» لابن العبري ورسالة «حيّ بن يقظان» لابن الطفيل (انظر هذه المادة) مع ترجمتها اللاتينية وافته المنية عام ١٦٩١م (١١٠٣هـ).

أما ترجمة صاحب الاسم الجديد للشارع فاطلبها في «علي الجارم».

٤٥٥- بيروت - حارة - بقسم العطارين

بيروت هي عاصمة الجمهورية اللبنانية، واشتق اسمها من كلمة بئروت العبرية التي تعني «البئر»، وكانت هذا البئر المورد الوحيد لمد سكانها بالماء حتى العصر الروماني، وقد طال الجدل حول اشتقاق اسمها واستقر البحث أخيرًا على اشتقاقه من الكلمة العبرية الآنفة الذكر، وتقع في سفح جبل يطل على البحر الأبيض المتوسط، وموقعها صالح للسكنى منذ ما قبل التاريخ، ويدل على ذلك الآثار الباقية من العصرين الأشيلي، والليفالواري.

ويذكر اسمها في ألواح تل العمارنة - أي في القرن الرابع عشر قبل الميلاد - بلفظ «بيروتا Beruta» على أنها ميناء على الساحل الفينيقي، وكانت في ذلك الحين البعيد بليدة متواضعة، وتعرضت «بيروتا» خلال فترة طويلة من تاريخها تقدر بنحو اثني عشر قرنًا لاجتياح الجيوش القادمة من مصر، أو الآتية من بلاد الجزيرة، ومن بين هذه الجيوش جيش رمسيس الثاني (انظر هذه المادة) في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وجيش «أسار حدون» ملك أشور في القرن السابع قبل الميلاد.

وخلال عام ٢٠٠ق.م. انتصر أنطيوخس الأكبر على بطليموس الخامس وضم «بيروتا» إلى المملكة السلوقية وسوريا، ثم دمرت عام ١٤٠ ق.م. على يد «تريفون Tryphon» مغتصب عرش سوريا، وعلى الرغم من هذه الكوارث شهد ميناء بيروت نهضة عظيمة لارتباطه التجاري

بالرومان والإيطاليين، ومن ذلك الحين اتضح شأن بيروت بوصف كونها همزة وصل بين الغرب والشرق.

واستولى عليها «أجريبا» (انظر هذه المادة) باسم الإمبراطور أغسطس فأعيد بناؤها، وضمت عمارات ضخمة جميلة، واستقرت بها كتائب من الجنود الرومانيين المحنكين، ورفع مستواها عام ١٤ ق. م. إلى مرتبة مستعمرة رومانية، وسرعان ما غدت مركزًا إداريًّا كبيرًا ومحطة هامة للتبادل التجاري، ومدينة علم يقصدها الدارسون، ومن ثم صارت مدرسة القانون بها تنافس بعظمتها الإسكندرية وقيصرية وأثينا، وأدت الزيادة في عدد السكان إلى شق قناة هامة لمدِّها بالماء (هي قناطر زبيدة) في وادي ماكوراس (نهر بيروت).

وفي نهاية القرن الرابع الميلادي كانت بيروت من أهم المدن الفينيقية ومقر الأسقفية، غير أن الزلزال العنيف وموجة المد القاسية دمرتها في يوليو عام ٥٥١م، وفقدت المدينة رواءها، ولخلوها من التحصينات استطاع جيش أبو عبيدة الجراح الاستيلاء عليها عام ١٤هـ (٦٣٥م)، وذلك عندما دخلت معظم المدن ذات الصبغة الرومانية في حوزة الحكم الإسلامي الذي أسرع إلى تعميرها فقد أمر الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان (انظر هذه المادة) بجلب مستوطنين من بلاد الفرس لإعادة عمرانها وعمران المنطقة المحيطة بها، فازدهرت فيها من جديد تربية دود القز واستؤنفت علاقاتها التجارية مع دمشق (انظر هذه المادة) ومصر.

وكانت بيروت في القرن الأول الهجري تعد رباطًا لإعداد المحاربين في كنفها، وفي عام ٣٦٤هـ (٩٧٥م) استولى «يوحنا تزيمسكس» عليها ولكن الفاطميين استردوها بعد ذلك بوقت قصير من البيزنطيين (الروم).

ويذكر المؤرخون الذين عاصروا القرنين الرابع والخامس الهجريين (العاشر والحادي عشر الميلادي) أن المدينة في عهدهم كانت محصنة وخاضعة لجيوش دمشق، وجاءت الحروب الصليبية فجعلها الصليبيون مركزًا للتموين عام ٤٩٢هـ (١٠٩٩م) ثم عادوا إليها عقب الاستيلاء على مدينة القدس، وفي عام ٥٠٣هـ (١١١٠م) حاصرها بلدوين الأول وبرتران دي سان جيل برًّا وبحرًا، ولكن الأسطول المصري نجح في تقديم المؤن لأهلها، غير أن مددًا عسكريًّا من سفن بيزة وجنوة استطاع الاستيلاء عليها في ٢١ شوال عام ٥٠٣هـ (١٣ مايو عام ١١١٠م).

وفي عام ١١١٢م، تَمَّ تعيين أول أسقف لاتيني لها، ومن ثم شيدت في أرجائها كنيسة يوحنا المعمداني التي صارت المسجد العمري فيما بعد.

وسعى صلاح الدين (انظر هذه المادة) عام ٥٧٨هـ (١١٨٢م) إلى فضل كونتية طرابلس عن مملكة القدس باسترداد بيروت، ولكن المدينة لم تستسلم إلا في محاولة صلاح الدين الثانية التي قام بها في جمادى الثانية عام ٥٨٣هـ (أغسطس عام ١١٨٧م)، ثم استولى «أماريك اللوزنياني» عليها عام ٥٣٩هـ (١١٩٧م) وخرجت منها الحامية الأيوبية.

وبعد أن تولى المماليك الحكم في مصر بوقت قصير لم يجد أمراء بيروت بدًّا من الخضوع لهم عن طريق المفاوضات حفاظًا على استغلالهم بالنسبة لغيرهم من الفرنج، وقد قطع الظاهر بيبرس (انظر مادة بيبرس) على نفسه عهدًا بضمان

السلام لبيروت، وذلك في عام ٦٦٧هـ (١٢٦٩م)، وفي عام ٦٨٤هـ (١٢٨٥م) أبرم السلطان قلاوون (انظر هذه المادة) هدنة سمحت باستئناف النشاط التجاري للمدينة، وأخيرًا حدث في عام ٦٩٠هـ (١٩٢١م) أن احتل الأمير سنجر أبو شجاع – القادم من دمشق – بيروت باسم الملك الأشرف خليل.

وظلت المدينة ولاية هامة في عهد المماليك تقيم فيها حامية كبيرة من جيش دمشق، وظل امتلاكها ورقة رابحة في أيدي المتنافسين عليها طوال العصور الوسطى لاستطاعة الحصول على منها على مادتين هامتين من المواد الخام الاستراتيجية هما الخشب من غابات الصنوبر جنوب المدينة، والحديد من المناجم الموجودة على مقربة منها.

وفي القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) اضطربت الحركة التجارية في المدينة بسبب المنافسة بين أهالي جنوة في إيطاليا، وأهالي قطالونيا، وفي ذلك الحين نفسه قوَّى أمراء المماليك استحكاماتها، ولاسيما في عهد برقوق (انظر هذه المادة)، وبقيت بيروت طوال القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ملتقى التجار الغربيين لشراء الأقمشة الحريرية وكانت أنواع الفاكهة والثلج تُصدر في الوقت نفسه إلى مصر.

وخلال القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) تعرض التجار الفرنجة للنهب والسلب من ولاة بيروت الذين كانوا يتمتعون بالاستقلال الذاتي لأنهم كانوا يعينون من قبل الباب العالي العثماني.

وفي عهد فخر الدين عام ١٠٩٥هـ (١٦٣٤م) شهدت بيروت عصرًا زاهرًا فتجددت علاقاتها التجارية مع البنادقة وزادت صادراتها من الحرير على صادراتها من الموالح، وكانت تستورد الأرز والكتان من مصر.

وكانت هذه المدينة أعظم المدن الساحلية كثافة في السكان بعد طرابلس الشام، وذلك في منتصف القرن الرابع عشر، وكان الموارنة المسيحيون نواة الأهالي يحميهم أمراء الدروز.

وفي أثناء الحرب التركية ضد روسيا تعرضت بيروت للهجمات وضربت بالقنابل مرات عدة ثم احتلها الروس في أكتوبر عام ١٧٧٣م، وظلوا بها حتى فبراير عام ١٧٧٤م.

وقضت الحملات التي شنها إبراهيم باشا ابن محمد علي (انظر مادة إبراهيم الأول) عام ١٨٣١م على التجارة في المدينة، وهي الحملات التي انتهت بضربها بالقنابل من الأساطيل الإنجليزية والنمساوية والتركية المشتركة عام ١٨٤٠م، وأدت مذبحة النصارى في الشام على أيدي الترك إلى خروج معظمهم إلى بيروت، ومن ثم اكتسبت المدينة الصغيرة التي كان عدد سكانها ٢٠,٠٠٠ نسمة طابعًا مسيحيًّا بيِّنًا.

وظلت نهضة بيروت مستمرة منذ قيامها من حوالي قرن من الزمن، واتسعت رقعتها سريعًا، وفاقت شهرتها ما كانت عليه في عهدها الروماني وصارت الآن عاصمة جمهورية مستقلة ومقرًّا للمجلس النيابي والحكومة في البلاد بعد أن كانت مقرًّا للمندوب السامي الفرنسي لدى حكومات الشرق في أثناء الانتداب الفرنسي الذي دام من ١٩٢٠ إلى ١٩٤٣م، وبتزايد عدد السكان المختلفين في الجنسية والطباع

إلى حد كبير، وغالبيتهم من العرب، فوصل في الوقت الحاضر (١٩٧٣م) إلى ما يقرب من ٣٠٠,٠٠٠ نسمة، ويفد عليها يوميًّا أعدادًا كبيرة من القرويين والتجار والعمال مما يزيد في تعدادها.

وتضم بيروت ثلاث جامعات (أمريكية وفرنسية ولبنانية)، وفرعًا من جامعة الإسكندرية، كما تضم عدة مؤسسات أكاديمية من مختلف الجنسيات، وبها مكتبة قومية عظيمة، وكل ذلك يجعل منها مركزًا هامًّا للإشعاع الفكري في الشرق الأوسط العربي.

وهي الآن مركزًا كبيرًا للتجارة والتبادل التجاري، وبما أنها ميناء يتسع بحالة مطردة النمو وذلك منذ عام ١٨٩٣م، وتربطه بسوريا والأردن سكة حديدية، فإن هذا الاتساع أتاح لها القيام بمعاملات تجارية على قدر عظيم من الأهمية يصل حجمها تصدير واستيراد إلى حوالي ثلاثة ملايين من الأطنان سنويًّا.

وأدى حجم هذه المعاملات التجارية إلى إنشاء بورصة للعقود وفتح فروع لمعظم المصارف الدولية الكبرى، وبالمدينة الآن مطار دولي يصلها بكافة دول العالم، وبها سوق للذهب، وتقوم في أرجائها العمارات الضخمة والمنشآت الحديثة الطراز، والفنادق الكبيرة لاستقبال السائحين الذي يفدون عليها بمئات الآلاف كل سنة للاستمتاع بمناظر جبال لبنان الجميلة الخلابة.

وما من شك في أنها الآن مركز مرموق للتجارة والتوزيع، وتعد - بما لها من شأن كبير - حلقة اتصال بين الغرب والشرق ولاسيما أنابيب البترول العربي تمر بلبنان لتصديره إلى مختلف الأقطار الغربية.

٤٥٦- بيرونا - حارة - بقسم العطارين (حامد علي أبو جمعة حاليًّا)

هو المسيو «ألكسندر بيرونا Alexandre Perona» الذي شغل منصب قنصل ألمانيا بالإسكندرية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، وكان أول من سجل تقلبات مناخ المدينة على مدار فصول السنة الأربعة بوساطة آلات الرصد الدقيقة التي جلبها من ألمانيا لهذا الغرض العلمي، وكان منزله بميدان القناصل (ميدان عرابي حاليًّا)، وكان يقوم بأخذ التسجيلات «الميتورولوجية» التي تبين التغيرات الجوية في أنحاء الإسكندرية مرتين في اليوم، وذلك من أجهزة الرصد التي وضعت بدار القنصلية النمساوية التي كان مقرها بشارع مسجد العطارين (انظر هذه المادة) في ذلك الحين. وظلت هذه الأجهزة تؤدي عملها طوال الفترة الواقعة بين عامي ١٨٧٥ و١٨٩٦ أي على مدى ٢٣ عامًا، وكان المسيو «بيرونا» يأخذ التسجيلات عند الساعة التاسعة صباحًا والتاسعة مساءً، وينشرها في الجريدة الفرنسية اليومية وذلك دون أية مقابلة مالية.

وكانت مصلحة الموانئ والمنائر قد أنشأت في شهر سبتمبر عام ١٨٨٤م (١٣٠٢هـ) محطة أرصاد جوية فوق كوم الناضورة الواقع في منتصف شارع الباب الأخضر المعروف بالسكة الجديدة (انظر مادة الباب الأخضر)، وذلك على ارتفاع ٣٢ مترًا عن سطح البحر، ومازال هذا المرصد يؤدي عمله حتى اليوم، وما من شك في أن مصلحة الموانئ والمنائر

كانت تسترشد بمعلومات المسيو «بيرونا» التي تسجلها آلاته الدقيقة والتي كان يرسلها إليها مرتين في اليوم.

وفي عام ١٩٤١م (١٣٦٠هـ) أنشئ مرصد آخر في مطار الإسكندرية بجهة حدائق النزهة، ومن البيانات التي كان المسيو «بيرونا» يحصل عليها بواسطة آلاته والبيانات التي اشترك معه في تسجيلها مرصد كوم الناضورة، في المدة الواقعة بين تاريخ إنشائه في عام ١٨٨٤م، وتاريخ انقطاع آلات المسيو بيرونا عن العمل في عام ١٨٩٦ وهي حوالي ١٣ سنة، وكذلك البيانات التي يسجلها المرصدان بكوم الناضورة ومطار النزهة حتى الآن، نقول إنه من هذه البيانات الجوية أمكن تقدير معدل التقلبات الجوية تقديرًا علميًّا صحيحًا من حيث درجة الحرارة، وسقوط الأمطار على مدار السنة، فمعدل درجات الحرارة والرطوبة بالمدينة خلال شهر يناير يقدر بحوالي ١٣,٧ درجة مئوية، ويأخذ هذا المعدل في الارتفاع التدرجي الوئيد إبان شهري فبراير ومارس، ثم يسرع في الارتفاع ابتداء من شهر إبريل إلى أن يصل إلى الذروة في أغسطس فيبلغ ٢٦,٢ درجة مئوية، ثم يأخذ في الهبوط التدرجي البطيء في سبتمبر وأكتوبر، ويسرع في الانخفاض في شهري نوفمبر وديسمبر، ومن ثم يقدر معدل درجة الحرارة على مدار السنة بنحو ٢٠,١ درجة مئوية، هذا ويلطف نسيم البحر شدة الحرارة خلال النهار في فصل الصيف، ويستمر نسيم البر في سريانه العليل من الساعة الثامنة مساء إلى شروق الشمس.

أما درجة الرطوبة فتنخفض جدًّا في فصلي الربيع والخريف فتصل إلى ٦٨٪ في مارس وتزيد درجة واحدة في أكتوبر، وتصل إلى ذروتها في أغسطس فتبلغ ٧٥٪، وتسقط الأمطار على المدينة في مدة لا تزيد على الستين يومًا في السنة، ولا يتجاوز مقدارها ١٨٠ ملليمترًا.

وما من شك في أن المسيو بيرونا كان له الفضل في تحديد هذه النسب الجوية، ولم أتوصل إلى معرفة تاريخ ومكان مولده أو وفاته.

أما ترجمة صاحب اسم الحارة الجديد فاطلبها في «حامد علي أبو جمعة».

٤٥٧ – البيهقي – شارع – بقسم مينا البصل

لقب البيهقي يرجع في أصله إلى ناحية من أعمال نيسابور في خراسان كانت حاضرتها في الأزمان الغابرة «خسروجرد» الواقعة على بعد أربعة أميال من سبزوار التي أصبحت حاضرة البيهق فيما بعد، وعرف أهلها بالتعصب للمذهب الشيعي، وخرج من قرى بيهق المحدث الشافعي أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي الذي سيأتي في ذكره فيما بعد.

ويحمل لقب البيهقي ممن ذكر المؤرخون سيرة حياتهم خمسة هم:

١) **إبراهيم بن محمد البيهقي**: مؤلف عربي عرف عنه أنه من زمرة ابن المعتز (انظر هذه المادة)، وقد ألف إبراهيم البيهقي كتابًا في الأدب أسماه «كتاب المحاسن والمساوئ» طبعه المستشرق «شوالي Schwally» عام ١٩٠٢م وأعيد طبعه بالقاهرة عام ١٩٠٦م، وقد ألفه إبراهيم البيهقي في عهد الخليفة المقتدر الذي استغرق حكمه المدة من عام ٢٩٥هـ إلى عام ٣٢٠هـ (٩٠٨ – ٩٣٢م).

٢) أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن عبد الله بن موسى البيهقي (الملقب بالخسروجردي): نسبة إلى «خسروجرد»، التي كانت حاضرة ناحية «بيهق» من أعمال نيسابور في خراسان، وهو مؤلف عربي وحجة في الحديث الشافعي، وكان مشهورًا في عصره بأنه واحد زمانه وفرد أقرانه في الفنون من كبار أصحاب الحاكم أبي عبد الله البيع في الحديث ثم تفوق عليه في أنواع العلوم الأخرى، وكان ميلاده في شهر شعبان عام ٣٨٤هـ (سبتمبر عام ٩٩٤م) بخسروجرد، وقد أخذ الفقه عن أبي الفتح ناصر بن محمد العمري المروزي، ثم غلب عليه الحديث، واشتهر به، ورحل في طلبه إلى العراق والجبال والحجاز وسمع بخراسان من علماء عصره، وكذلك من مشاهير علماء البلدان الأخرى التي رحل إليها في طلب العلم، وهي كثيرة العدد، وحصل خلال رحلاته على علم واسع النطاق بالحديث والعقائد على مذهب الأشعري (انظر هذه المادة)، وما إن عاد إلى بلده حتى طُلب لتدريس الفقه الشافعي وفاقًا للنصوص العظيمة القيمة التي جمعها للإمام الشافعي وسماها «كتاب نصوص الإمام الشافعي» وهي في عشرة مجلدات، وكان أول من جمع هذه النصوص من علماء الفقه الشافعي، وقد عرف هذا الكتاب القيم باسم «المبسوط» وقال عنه ابن السبكي في «الطبقات»: «وأما المبسوط في نصوص الشافعي فما صُنِّف في نوعه مثله»، وقد قال الجويني (إمام الحرمين) (انظر هذه المادة) في حق البيهقي: «ما من شافعي المذهب إلا وللشافعي عليه منَّة إلا أحمد البيهقي، فإن له على الشافعي منَّة»، وقد طُلب للتدريس بمدينة نيسابور فانتقل إليها لنشر العلم وكان على سيرة السلف الصالح، ومن الذين سلكوا طريق الزهد، فكان يقنع بالقليل مروِّضًا نفسه على العبادة والتهدج والعزوف عن كل ما يمت إلى مباهج الدنيا بصلة.

ومن أشهر مصنفاته كتابه العظيم في الحديث «كتاب السنن والآثار» أو كتاب «السنن الكبير أو السنن الكبرى»، وقد طبع في حيدرآباد بالهند في عامي ١٣٤٤ و١٣٥٦هـ (١٩٢٥ – ١٩٣٧م) في عشرة مجلدات، ومنه نسخة مخطوطة في القاهرة، وطبع نقدٌ لهذا الكتاب ألفه علي ابن عثمان بن التركمان بعنوان «الجوهر النقي في الرد على البيهقي» في مجلدين بحيدرآباد عام ١٣١٦هـ (١٨٩٨م)، وله كتاب «السنن الصغير»، وكتاب «دلائل النبوة» علاوة على مناقب الشافعي المطلبي، ومناقب أحمد بن حنبل، وهناك مخطوطات من أهم كتبه في الأخلاق هو «الجامع المصنف في شعب الإيمان» وهي بدار الكتب بالقاهرة، وفي مكتبة الأسكوريال بإسبانيا. وقد أورد السبكي في طبقاته رسائل البيهقي إلى عميد الملك، والجويني أبي إمام الحرمين، ومما طبع للبيهقي أيضًا كتاب «الأسماء والصفات» طبع بالهند عام ١٣١٣هـ وطبع أخيرًا بالقاهرة، وكتاب «القراءة خلف الإمام» طبع بالهند عام ١٩١٥م.

وتوفي البيهقي (أبو بكر أحمد) بنيسابور في ١٠ من جمادى الأولى سنة ٤٥٨هـ (٩ إبريل عام ١٠٦٦م) ونقلت رفاته إلى بيهق منطقة مسقط رأسه، ويقيني هو أن أبا بكر البيهقي هو المقصود بتسمية الشارع دون الثلاثة الآخرين، وكان عمره حوالي ٧٤ عامًا عند وفاته.

٣) أحمد بن علي بوجعفرك البيهقي: كان لغويًّا عربيًّا، ولد عام ٤٧٠هـ (١٠٧٧م)، ودرس على الميداني (انظر هذه

المادة)، وعاش ملازمًا بيته لا يبارحه إلا لتأدية الصلوات الخمس بمسجد مدينة نيسابور العتيق لأنه كان إمامه، وبقي من مؤلفاته كتاب «تاج المصادر» وعليه شرح باللغة الفارسية، وكانت وفاته في ٣٠ من شهر رمضان عام ٥٤٤هـ (٣١ يناير ١١٥٠م) بالغًا من العمر نحو ٧٤ عامًا.

٤) **أبو الحسن علي بن زيد البيهقي**: ويلقب بابن فندق، كان مؤرخًا، ولم يبق من مصنفاته سوى كتاب «تاريخ بيهق» الذي وضعه باللغة الفارسية، ويشتمل على تاريخ مسقط رأسه، وقد أتم تأليفه في ٤ شهر شوال عام ٥٦٣هـ (١١٦٨م) ويتضمن هذا الكتاب تاريخ بلده بيهق، ووصفًا مسهبًا لها ولجغرافية ناحيتها، ونظام الضرائب فيها، وأخبار أمرائها، وولاتها، ومشاهير رجالها الذين برزوا في الأدب أو الدين، ومازال عدة مخطوطات من هذا الكتاب بمكتبة برلين.

ولا يوجد أي مخطوط لكتابه في التاريخ العام المسمى «مشارب التجارب وغوارب الغرائب» الذي ألفه باللغة العربية، وذكره حاجي خليفة، ويوجد نقل منه في كتاب ابن الأثير (انظر هذه المادة) وفي كتاب الجويني (انظر هذه المادة) المسمى «جهان كشاي» وقد زعم الجويني أن كتاب البيهقي في التاريخ العام ما هو إلا ذيل لكتاب «تجارب الأمم» لابن مسكويه.

وسيرة حياة أبو الحسن البيهقي غير معروفة بالدقة الواجبة، غير أنه من المستطاع الإلمام ببعض مراحلها من مصنفاته أو مصنفات غيره من المؤرخين.

فقد ذكر هو أن السلطان محمود الغزنوي ووزيره أبا الحسن الميمندي قد دعيا جده أبا سليمان فندق من سيوار بالقرب من بست ليتولى القضاء والإفتاء فيها، وأن هذا الجد تخلى عن منصبه فيما بعد، واشترى ضيعة في ناحية بيهق، وأن أباه ولد في غرة شوال عام ٤٤٧هـ (١٠٥٥م)، وتوفي عام ٥١٧هـ (١١٢٣م) بعد أن قضى عشرين عامًا في بخارى. وأن البيهقي نفسه كان يعمل في بلاط السلطان سنجر في صفر عام ٥٤٣هـ (١١٤٨م) عندما تلقى هذا السلطان رسالة من الملك ديمتريوس الكرجي مكتوبة باللغتين العربية والسريانية يستفتيه فيها عن بعض الأمور الدينية. وقد عهد السلطان سنجر إلى البيهقي بالإفتاء في هذا الأمر بهاتين اللغتين، وكان توفيقه في ذلك كبيرًا.

ولم يعرف من ثنايا هذه الشذرات الخاصة بسيرة حياته تاريخ ومكان مولده.

٥) **أبو الفضل محمد بن حسن البيهقي**: كان مؤرخًا فارسيًّا ألف تاريخًا جامعًا لدولة الغزنويين في أكثر من ثلاثين مجلدًا، ولم يبق من هذا المؤلف الضخم سوى جزء صغير يشتمل على تاريخ السلطان مسعود الأول الذي حكم من عام ٤٢١ إلى عام ٤٣٢هـ (١٠٣٠ – ١٠٤١م)، ويعرف هذا الكتاب التاريخي باسم «تأريخ بيهقي».

أما عن سيرة حياته فقد قال عن نفسه إنه كان في السادسة عشرة من عمره في عام ٤٠٢هـ (١٠١١ – ١٠١٢م)، وأنه بلغ الخامسة والستين في ذي الحجة من عام ٤٥٠هـ ومن ثم يكون قد ولد عام ٣٨٦هـ (٩٩٦م)، وقد خدم ١٩ سنة في ديوان الإنشاء خلال عهد الغزنويين تحت إشراف أستاذه أبي ناصر مشكان، ولم يكن محبوبًا من رجال الديوان، فظل يرزح تحت وقع المصائب طوال العشرين عامًا التي قطعها في تأليف كتابه التاريخي.

ويقال إن أبا الفضل البيهقي ألف – علاوة على تاريخ دولة الغزنويين – رسالة لعمال الدولة بعنوان زينة الكتَّاب، وذكر فيها طرائف كثيرة.

وقد وجدْتُ من الملائم ذكر تاريخ البيهقيين الخمسة لأن الاسم الذي يحمله الشارع لا يتضمن أية ألقاب تعين أحد هؤلاء البيهقيين لاستطاعة الاكتفاء بتدوين سيرة حياته دون الآخرين، وهذا النقص في الأسماء يلاحظ في عدد كبير جدًّا من أسماء شوارع المدينة، فابن الفرات وابن زهر مثلاً لكل من اسميهما رجال لهم تاريخ مما اضطرني لتدوين تراجمهم جميعًا، تعميمًا للفائدة، ولكن على حساب الجهد المضني الذي أكابده من جراء ذلك النقص.



حرف التاء



٤٥٨- التاج - شارع - بقسم كرموز

كلمة التاج مشتقة من فعل «تاجَ – توجًا» أي لبس التاج فوق رأسه، والتاج هو الإكليل، وجمعه تيجان، وتاج الجبَّار مجموعة من النجوم، وتاج العمود: ما يكون في أعلاه، وتوَّجه أي ألبسه التاج فتتوج، والتائج هو صاحب التاج.

وفي اللغة الفرنسية هو أيضًا القلادة من الأزهار يحاط بها الرأس، وهو رمز للملوك أو كبار النبلاء، فكان الدوق يتوج بتاج الدوقية، كما أطلق اسم التاج على عدد من قطع النقود الفضية والذهبية في العصور الماضية، وكان القدماء يضعون التيجان المضفورة من ورق الزيتون وغصونه أو غصون الكروم المورقة فوق رؤوس تماثيل الآلهة ثم توجوا بهذه التيجان الخضراء القساوسة والضحايا، وفي روما كانت تيجان الغصون أو التيجان المصنوعة من المعادن تمنح بصفة مكافآت استحقاق وجدارة، ولم يعبر منح التيجان عن الاستحقاق والتقدير إلا منذ عهد الإمبراطور قسطنطين.

٤٥٩- التبر - حارة - بقسم كرموز

التبر هو الذهب غير المضروب، وغير المصنوع على أي شكل من الأشكال، وهو أيضًا تراب معدن الذهب المستخرج من مناجمه، وكلمة التبر مشتقة من الفعل «تَبَر» أي هلك، وتَبَرَه تَبْرًا: أي كسره وأهلكه، وتبَّرَه: أي دمَّره.

وتبر الذهب من المعادن الثمينة، لونه أصفر لامع، وهو عند الإفرنج ملك المعادن، ومنه تُصنع أنواع شتى من الحُلِيّ وتُسكّ النقود التي لا تفقد قيمتها مهما تقلبت أحوال المعيشة. والذهب الخالص الذي لا يخالطه النحاس أو الفضة أو أي معدن آخر تُكَوَّن منه السبائك، ومعدن الذهب أسهل المعادن تشكيلاً في التصنيع، فمن المستطاع جعله صفائح رقيقة جدًّا، أو جعله أسلاكًا رفيعة، وهو موصل جيد للحرارة والكهرباء، ولا يطرأ عليه الصدأ في الماء أو بتعرضه للهواء، ويوجد الذهب في باطن الأرض على هيئة كبريتور، وتوجد أهم مناجمه في الولايات المتحدة في مقاطعة كاليفورنيا وفي جمهوريات بيرو، وشيلي، والبرازيل بأمريكا الجنوبية، وفي آسيا بمقاطعة سبريا بالاتحاد السوفيتي، وبالهند والصين واليابان، وفي إفريقيا بالناتال، والترنسفال وفي أوروبا بجبال الأورال وبنسلفانيا، ببعض الأنهار التي تجرف الرمال المحتوية على جزيئاته بفرنسا مثل نهر الجارون، ونهر الأرديش، وغيرهما. ويقدر إنتاج الذهب العالمي في الوقت الراهن بحوالي ٧٠٠ طن في السنة، وعندما يخلط بالنحاس يصبح صلبًا قوي المقاومة.

وبإيطاليا نهر يسمى نهر «التبر» يأخذ منبعه عند فوماجولو، ويمر بمدينة روما العاصمة حيث يحيط جزيرة «تيرين» بمياهه المصفرة اللون، ولعل اسمه مشتق من كلمة «تبر» العربية التي تعني تراب الذهب الخالص الأصفر.

٤٦٠- التبريزي - شارع - بقسم العطارين

هو أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد بن الحسن بن محمد بن موسى بن بسطام الشيباني الخطيب الملقب بالتبريزي نسبة إلى مدينة تبريز عاصمة إقليم أذربيجان. وقد كان من العلماء ذائعي الصيت في فقه العربية، وكان مولده عام ٤٢١هـ (١٠٣٠م)، وأشهر من أخذ عنهم هو أبو العلاء المعري (انظر مادة المعري). وقد وقع إلى التبريزي نسخة من كتاب «التهذيب في اللغة» لأبي منصور الأزهري فاحتاج

إلى من يشرحه له، فأوصى به المعري خيرًا، فجعل مجلدات هذا الكتاب في مخلاه، وحملها بنفسه من تبريز – موطنه الأصيل– إلى معرة النعمان لأنه لم يكن لديه ما ينفقه على الركوب، وممن درس عليهم التبريزي وأخذ عنهم؛ أبو القاسم عبيد الله بن علي الرقي المتوفى عام ٤٥٠هـ (١٠٥٨م)، وأبو محمد الحسن بن رجاء بن الدهان (انظر مادة الدهان)، والفقيه الشافعي أبو الفتح سليم بن أيوب الرازي من أهل صور، وأبو القاسم عبد الكريم بن محمد السياري، والبغدادي، وابن برهان، والمفضل القصباني، وعبد القادر الجرجاني (انظر مادة الجرجاني) والقاضي أبو الطيب طاهر بن عبدالله الطبري (انظر مادة الطبري)، وأبو الحسن التنوخي (انظر مادة التنوخي).

وكانت بعض سنوات دراسته في معرة النعمان، وصور، ودمشق، ثم نزح إلى القاهرة في صباه، ودرس فيها، وبعد ذلك رحل إلى بغداد حيث تولى القضاء وزاول تدريس الأدب مع القيام على خزانة الكتب في النظامية إلى أن وافته المنية يوم الثلاثاء ٢٨ جمادى الآخرة عام ٥٠٢هـ (١١٠٩م) بالغًا من العمر حوالي ٨٠ سنة، وقبره عند باب أبرز، وجاء في كثير من المراجع التاريخية أن الخطيب البغدادي مؤرخ بغداد كان من تلاميذه، غير أن هذا القول لا يستقيم مع الواقع إذ إن البغدادي كان يكبر التبريزي بثلاثين عامًا (انظر مادة الخطيب البغدادي).

والمحقق هو أن التبريزي حضر إلى دمشق عام ٤٥٦هـ ودرس الأدب في هذه المدينة على الخطيب البغدادي، ومن ثم يتضح أن البغدادي كان أحد أساتذة التبريزي، وليس من تلاميذه، وفي تفصيل سيرة التبريزي وذكر فقره في كثير من نواحي هذه السيرة، أن البغدادي زاره في مسكنه وبعد أن تحدث معه ساعة من الزمن أعطاه شيئًا ملفوفًا في ورقة وطلب إليه أن يشتري بها أقلامًا، ولما فض التبريزي الورقة وجد بها خمسة دنانير مصرية، ثم زاره الخطيب مرة أخرى وأعطاه من المال قدر المرة الأولى أو يزيد وطلب إليه أن يشتري بهذا المال أوراقًا. وقد روى هذه القصة ياقوت (انظر هذه المادة) في كتابه إرشاد الأريب، ومن كل ما تقدم يتضح أن الخطيب كان شيخًا للتبريزي في غير شك.

ويقال: إن التبريزي لم يكن على شيء كثير من حسن الخلق فقد روي أنه كان يشرب الخمر، ويلبس الحرير، ويضع على رأسه عمامة مزخرفة بالذهب، وهذا ينبئ بأنه صار موسرًا فيما بعد، أما أنه كان حجة في العلم فأمر لا ينازع فيه أحد.

ومؤلفاته تشهد بصبغتها العلمية غير أن خلكان يروي له بيتين من الشعر وقصيدة وجهها إليه العماد الفياض ورد عليها شعرًا.

ومن مؤلفاته ثلاثة شروح لديوان الحماسة الذي ألفه أبو تمام (انظر هذه المادة)، أولها شرح قصير لكل بيت ثم شرح واف للقصيدة، وقد نشر الشرح الثاني «فريتاج» وكان عند ياقوت نسخة بخط التبريزي من شرحه للمعلقات، وشرح التبريزي ديوان المتنبي والمفضليات وقصيدة بانت سعادة لكعب بن زهير ومقصورة ابن دريد (انظر مادتي ابن زهير وابن دريد)، وقصيدة اللمع في النحو لابن جني، ويروي حاجي خليفة أنه شرح كتاب «نهاية الوصول إلى علم الأصول» لكاتب لا تعرف شخصيته أو سيرته، يدعى أحمد بن علي بن الساعاتي البغدادي، وفسر التبريزي القرآن الكريم، ويزعم

حاجي خليفة أنه نشر كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت بعد أن صححه وأطلق عليه «التهذيب»، وقد طبع «التهذيب» هنا بالقاهرة، ومن جهة أخرى شرح التبريزي كتاب «الألفاظ» لابن السكيت، وطبع هذا الشرح في بيروت، عام ١٨٩٥م، ثم طبع مرات أخرى بعد ذلك، وذكر المستشرق «ريشر» مخطوطًا لشرح التبريزي لديوان امرئ القياس، غير أن المراجع لا تذكر شيئًا عن هذا الشرح.

ومن الكتب التي نسبها ابن الأنباري وياقوت إلى التبريزي، كتاب الفرسان، وهو كتاب غير معروف، كما يذكر له ابن خلكان كتابًا بعنوان: «تهذيب غريب الحديث»، ويذكر له ياقوت مقدمة في علم النحو.

٤٦١ - التتويج - شارع - بقسم الجمرك (السيد محمد كريّم حاليًا)

٤٦٢ - التتويج - شارع - بقسم المنشية (السيد محمد كريّم حاليًا)

التتويج هو المصدر من فعل توَّج أي ألبس فلانًا التاج بوضعه فوق رأسه، وقد أطلق هذا الاسم على الشارع الممتد من ميدان القناصل الذي سمِّي فيما بعد بميدان إسماعيل الأول (نسبة إلى الخديوي إسماعيل)، ثم أطلق عليه اسم الثائر أحمد عرابي بقسم المنشية، إلى اللسان الذي يتجه شمالاً إلى حصن قايتباي (انظر مادة قايتباي) وغربًا إلى حلقة الأسماك، ثم إلى شارع قصر التين (انظر هذه المادة) الممتد على خليج الأنفوشي، وكان ذلك إثر اعتلاء الملك المخلوع فاروق الأول عرش مصر بعد موت أبيه فؤاد الأول في ٧ من شهر صفر عام ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م).

أما ترجمة صاحب اسم الشارع الجديد فاطلبها في (السيد محمد كُرَيّم).

٤٦٣ - التحرير - ميدان - بقسم المنشية (محمد علي سابقًا)

التحرير هو المصدر من الفعل «حرر»، فيقال: حرر فلان العبد: أعتقه فصار حرًّا لا يباع ولا يشترى، وحرر الولد أو الشيء: أي وقفه لطاعة الله وخدمته، وحرر الكتاب: أي حسّنه وأصلحه، وحرر الوزن: ضبطه بالتدقيق، وحرر المعنى: استخلصه.

وتحرر العبد: صار حرًّا، واستحرّ القتال: اشتد، والحر ضد البرد، والحرور: الريح الحارة، والحرية: الخلوص من الاستعباد، وحرية القوم: أشرافهم، يقال: هم من حرية قومهم، والحر خلاف العبد، أو الأسير، وهو الكريم أيضًا، والحر من كل شيء: خياره، وأعتقه، وأطيبه، فيقال: فرس حر: أي عتيق الأصل، وطين حر: أي لا رمل فيه، وحر الدار: وسطها، وحر الأرض أطيبها، وحر الوجه: ما بدا من الوجنة، فيقال: «لطمه على حر وجهه»، وأحرار البقول ما يؤكل منها غير مطبوخ، كالخس، والجرجير، والفجل، والكرات.

وقد أطلق اسم التحرير على هذا الميدان، عقب قيام الثورة في ٢٣ من يوليو ١٩٥٢ التي أطاحت بالحكم الملكي في مصر، وحررت البلاد من الاحتلال والطغيان والإقطاع.

أما ترجمة صاحب الاسم القديم للميدان، فاطلبها في «محمد علي».



ميدان التحرير (محمد علي سابقًا)

٤٦٤- التخطيط - شارع - بقسم أبي قير

التخطيط هو مصدر فعل «خَطّ» أي كتب بالقلم، وخطّ لنفسه الخطة: أي اتخذها وأعلم عليها، وخط الشيء: أي كتبه بقلمه أو بغيره، وخط على الشيء: رسم عليه خطًّا أو علامة، وخطَّ الغلام: نبت عذاره، وخط القبر: حفره، وخطت الرياح الرمال: جعلت فيه طرائق مستطيلة، وخط في الأرض: عمل فيها خطًّا، ويقال: «جاراه فما خطّ غباره»: أي لم يدركه، ويقال: فلان يخط في الأرض: أي يفكر في أمره، وخط في نومه: غطّ فيه، وخطط: أي سطّر، وخطط البلاد: جعل لها خطوطًا وحدودًا، والخطة: الأمر، يقال: «تلك خطة ليست من بالي»، ويقال: «في رأسه خطة»: أي أمر ما، والتخطيط: أي وضع الخطط للمستقبل، أو وضع الرسوم لتنظيم المدن والشوارع، ووضع الميزانيات المالية، وكل ما يسترشد به في المستقبل لتفادي الخطأ في التصميم.

ولعل هذه التسمية أطلقت على هذا الشارع للدلالة على هذا المعنى المطلق، ولاسيما أن ضاحية أبي قير ضمت إلى النطاق الإداري لمدينة الإسكندرية منذ وقت قريب، ولم تذكر لجنة تسمية الشوارع بمحافظة الإسكندرية أية تفصيلات تدل على أسباب هذه التسمية.

٤٦٥- تراجان - شارع - بقسم باب شرقي (لطفي السيد حاليًا)

هو «ماركوس أولبيوس تراجانوس ترينيتوس Marcus Ulpius Trajanus Trinitus» الإمبراطور الروماني الذي دام حكمه من عام ٩٨ إلى ١١٧م، وقد ولد بإطاليكا (أي إسبانيا) عام ٥٢م، ومات بمدينة «سيلنونت بسيلزيا Selinonte en Cilicie»، وقد حقق انتصارات على «الداس والبارث Des daces et des Parthes»، وكان ممتازًا في إدارة شؤون الإمبراطورية الرومانية، ويرجع له الفضل في

إنشاء ميناء «سيفيتافيكيا Civitavecchia»، وميناء «أنكونا Ancona»، وأقام العمود الشهير الذي يحمل اسمه، وقد قضى على الوشاية والسعاية، وأنشأ مؤسسة الأغذية لتقديم المعونة للأطفال الفقراء، ولكنه أغمض العين عن اضطهاد المسيحيين، ومات في أثناء عودته من حملة عسكرية انتصر فيها على البارث.

ومن الآثار التي ترجع إلى عهده تشييد حصن منيع في منوف كان أقوى حصن أقامه هذا الإمبراطور في مصر إبان الحكم الروماني، ويقول المؤرخان ياقوت والمقريزي (انظر هذين المادتين): إن قرية أم دنين على الضفة الغربية للنيل كانت مكان المقس للخليج (أي خليل تراجان)، مما يدل على أن هذا الخليج أنشئ في عهد هذ الإمبراطور إلى الشمال من حصن بابليون وموقع قرية أم دنين الحالي هو قلب القاهرة.

أما ترجمة صاحب الاسم الجديد للشارع فاطلبها في (لطفي السيد).

٤٦٦–الترجمان–حارة–بقسم ميناء البصل

٤٦٧– الترجمان – حارة – بقسم اللبان

الترجمان هو الاسم المشتق من فعل ترجم، أي فسر الكلام بلسان آخر، فهو ترجمان وترجمان جمعه تراجمة وتراجم، وترجم الرجل: ذكر سيرته، وترجم عنه أوضح أمره فيقال ترجمه بالتركية «أي نقله إلى لسان التركي، وترجم الكلام أي التبس، والترجمة هي التفسير ، ذكر سيرة الشخص وأخلاقه ونسبة وجمعها تراجم، ترجمة الكتاب هي فاتحته.

ولعل اسم هاتين الحارتين وضع للدلالة على رجلين كانا من سكان الحارتين أو ملاك عقاراتهما، وبالإسكندرية أكثر من أسرة تحمل لقب الترجمان ولابد أن أجدادهم كانوا يزاولون الترجمة بالمحاكم والمصالح الحكومية ولاسيما وقت أن كانت الجاليات الأجنبية كبيرة العدد بالمدينة، وكان سوق الترجمة رائجًا، وعلى الأخص بالمحكمة المختلطة، ومن هؤلاء التراجمة من كانوا يحسنون التكلم بلغة أو أكثر من اللغات الأجنبية الرئيسية، وهي الفرنسية والإنجليزية والإيطالية ولا يعرفون الكتابة بها، وكانوا يصحبون السائحين في جولاتهم بالمدينة، وبداخل الدائرة الجمركية لتسهيل الإجراءات المتعلقة بهم.

٤٦٨– الترمزي – شارع – بقسم كرموز

يسجل التاريخ المأثور تراجم أربعة من علماء الفقه، والمتصوفة يحملون لقب «الترمذي» نسبة إلى مدينة «ترمذ» الواقعة على الضفة الشمالية لنهر جيحون بالقرب من مصب نهر سرخان، ويروي السمعاني أن أهلها ينطقون باسمها «ترميذ» وسمع الضباط الروس الناس في عام ١٨٨٩م (١٣٠٧ هـ) ينطقون باسمها «ترمذ أو ترميذ» وكانت البوذية هي السائدة في ترمذ إبان الفتح الإسلامي، فقد كان بها ١٢ معبدًا ونحو ألف راهب بوذي، وفتح ترمذ موسى بن عبدالله بن خازم، أما العلماء الثلاثة الذين يحملون لقب «الترمذي» ففيما يلي ترجمة لكل منهم:

١) محمد بن عيسى بن سودة بن موسى بن الضحَّاك السُلمي الحافظ الضرير البوغي الترمذي: يقال إنه الشيخ محمد عابد السندي بخط يده على نسخة من كتاب الترمذي تدل على

مولده في ذلك التاريخ، وجاء في سيرته أنه كان راوية للحديث، وناقلاً لمعناه إلى كل الناطقين بالضاد، وأنه كان حجة في معرفة الرجال، وهبه الله نورًا من المعرفة، وعقلاً راجحًا، فظل طوال حياته ينير الطريق للسالكين فيهديهم سواء السبيل، ويقول بعض مؤرخي سيرته: إنه ولد كفيفًا، ويقول البعض الآخر: إنه فقد بصره في أواخر أيام حياته، ولا يعرف في أي مكان وُلد الترمذي، أفي قرية بوغ أم بلده ترمذ؟

وكان الترمذي أحد الأئمة الذين يقتدى بهم في علم الحديث، ويقال: إن أصله من جرو، وانتقل جده منها أيام الليث بن السيار (انظر ابن سيار)، واستوطن في مدينة ترمذ، فولد محمد الترمذي بهذه المدينة، ونشأ بها نشأته الصالحة، حتى كان مضرب الأمثال في الأخلاق، فريدًا في الحفظ وسرعة البديهة، واتسعت دائرة عمله، وشغف بالانتقال والتردد على الأمصار، فقام برحلة إلى خراسان والعراق والحجاز وطوف في البلاد، فسمع من أهل هذه الأقطار، وقد أخذ عن مشاهير المحدثين كالبخاري وأدرك كثيرًا من قدماء الشيوخ وسمع منهم، واشترك هو وجميع الأئمة أصحاب الكتب الستة في الرواية عن تسعة شيوخ فقط، ومن شيوخه المشهورين أبو داود السجستاني، وقال ابن سيد الناس (انظر هذه المادة) نقلاً عن ابن الأثير (انظر هذه المادة) أنه قال: «كتاب أبي عيسى الترمذي من أحسن الكتب ترتيبًا، وأكثرها فائدة، وأقلها تكرارًا، فيما ليس في غيره من ذكر المذاهب ووجوه الاستدلال، وتبيين أنواع الحديث من الصحيح والحسن والغريب، ولم يخلف البخاري مثل أبي عيسى في العلم والحفظ على البصر بوجوه الكلام، ولذا قيل هو كافٍ للمجتهد، ومغنٍ للمقلد»، وفي هذا الكتاب يقول الخالدي (انظر هذه المادة): «قال أبو عيسى صنفت هذا الكتاب فعرضته على علماء الحجاز، والعراق وخراسان فرضوا به، ومن كان في بيته هذا الكتاب «أي الجامع» فكأنما في بيته نبي يتكلم»، وقال اليوسفي (انظر هذه المادة) أن كتابه الجامع على أربعة أقسام، قسم مقطوع بصحته، وقسم على شرط أبي داود والنسائي، وقسم أخرجه أَبَانَ علته، وقسم رابع أبان عنه فقال: ما أخرجت في كتابي هذا إلا حديثًا قد عمل به بعض الفقهاء، وقد طبع للترمذي مجموعة الأحاديث في مجلدين، وذلك بالقاهرة عام ١٢٩٢هـ (١٨٧٥م)، ومن جهة أخرى طبع له بالقاهرة عام ١٣٠٦هـ (١٨٨٨م) كتاب «الشمائل»، وهو مجموعة من الأحاديث في ذات رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام، ويتضمن هذا الكتاب شرحًا لمحمد بن قاسم جسّوس ويطلق على هذا الكتاب اسم «الفوائد الجلية البهية على الشمائل المحمدية»، وتنسب المصادر العربية كتبًا أخرى للترمذي في موضوعات شتى، في الزهد، والأسماء، والكنيات، والفقه، والتاريخ، غير أن هذه الكتب قد فقدت على ما يظهر، وفي طبعة القاهرة تعرف مجموعة في الأحاديث باسم الصحيح أما في غيرها من الطبعات فتعرف بالجامع الصحيح، ويسمى هذا الكتاب بالسنن أيضًا.

وتتناول الأحاديث المدونة في الجامع الصحيح المسائل الكلامية مثل القدر، والقيامة، والجنة، والنار، والإيمان، والقرآن، والدعوات، والتربية، والأخلاق مثل؛ الاستئذان، والآداب.

ويشمل هذا المصنف على أحاديث تقل كثيرًا عن التي يتضمنها صحيحا البخاري ومسلم غير أن المكرر في كتاب الترمذي أقل مما في هذين الصحيحين، وعلاوة على ذلك

يتضمن الجامع الصحيح بابين هما: باب المناقب، وباب تفسير القرآن وليس في كتب السنن الأخرى الثلاثة مثلهما، ويطلق اسم كتب السنن أحيانًا على المجاميع الأربعة في الأحاديث النبوية لأبي داود، والترمذي والنسائي (انظر هذه المادة) وابن ماجه (انظر هذه المادة)، وتكثر في جامع الترمذي الأحاديث المشايعة لعلي بن أبي طالب، وفيه أيضًا أحاديث أخرى تشيد بمناقب أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان (انظر هذه المواد).

ويمتاز كتابه «الجامع الصحيح بشيئين: أولهما ملحوظاته النقدية على رجال الإسناد، والثاني توضيحه مواضع الاختلاف بين المذاهب عقب كل حديث، لذا يعتبر هذا الكتاب من هذه الناحية، أقدم مصنف عن أوجه الخلاف في المذاهب.

ولقد دب الحسد في صدور بعض علماء عصره وتصدوا لامتحانه، ولكنه تغلب عليهم، وأجبرهم على الاعتراف بعلمه الغزير، وفضله الذي لا ينكر.

وتوفي عام ٢٧٩ هـ (٨٩٢ م) بالغًا من العمر ٩٨ عامًا تقريبًا بمدينة ترمذ.

٢) أبو عبد الله محمد بن علي بن حسين الترمذي (المعروف بالحكيم): وهو متكلم سني من أهل خراسان، ومحدث، ومتصوف، وفقيه حنفي، وله مصنفات كثيرة فلم يبق منها إلا ثلاثون كتابًا، وأسلوبه يميل إلى الإطناب في هذه الكتب جميعًا غير أنها مفعمة بالأسانيد القوية، وحاول أبو عبد الله الترمذي في كتابيه: «نوادر الأصول»، و«ختم الولاية» شرح بعض مسائل الأدرية شرحًا صوفيًّا على مذهب أهل السنة، وقد تبسط أهل الشيعة في هذه المسائل بالذات ولاسيما غلاتهم، ومن بين أهل هذه المسائل سبق وجود النور المحمدي، والحقيقة الآدمية، وكان أبو عبد الله أول الباحثين في قيمة الحروف الهجائية الثمانية والعشرين، وفي علم الملائكة، ودرجات الولاية بحثًا علميًّا، وقد استعار لهذه المسائل اصطلاح الشيعة، وهو الولاية، ومن جهة أخرى ذهب الترمذي إلى التخريج العقلي للفرائض الشرعية في كتبه المسماة: «شرح الصلاة» و«الحج وأسراره» و«علل العبودية»، وقد كان هذا المؤلف الأخير مثارًا للذم، ويبين الترمذي في «كتاب الفروق» نفي وجود الفروق والترادف بمعناه الحقيقي، وهو يقرب في آرائه هذه من آراء المعتزلة في هذا الصدد، ويقول الترمذي بالكشف ويدعو إلى الأخلاق الشريفة، ويلعن في كتابه «الأقياس» النفاق بأنواعه، ويرفض الالتجاء إلى الحيل التي حاول من يتولون الإفتاء الالتجاء إليها في عصره، ويعد أبو عبد الله الترمذي أول من ألف في طبقات الصوفية، وإن كان كتابه في هذا المجال مفقودًا ولم يعرف إلا من النقول التي أخذت منه، ومن جهة أخرى يعتبر الترمذي الرائد الأول لابن العربي (انظر هذه المادة) الذي جاء بعده بثلاثة قرون فدرسه ابن العربي (أو ابن عربي كما يسمى عند أهل الشرق) واستوعب مؤلفاته وأعجب بآرائه.

٣) سيد برهان الدين (ويعرف أيضًا باسم سيد حسين الترمذي): صوفي من أهل مدينة ترمذ، ومن مريدي مولانا بهاء الدين، ولد في مدينة قونية عام ٦٢٨هـ (١٢٣٠م) وقد حضر فترة على أستاذه بهاء الدين، ثم عكف طويلاً على الزهد، والتنسك في ترمذ فالتفَّ حوله المريدون. وذهب بعد ذلك إلى مدينة قيصرية في الوقت الذي استولى فيه المغول عليها، وأحدثوا فيها مذبحة رهيبة، ويقول منجم باشي: إن

ذلك كان عام ٦٤١هـ (١٢٤٢م) وترجع شهرة سيد برهان الدين الترمذي بصفة خاصة إلى ما كان له من شأن رفيع في شعائر المولوية وهي الطريقة الصوفية التي أسسها جلال الدين الرومي (انظر مادة جلال الرومي) المتوفى عام ٦٧٣هـ (١٢٧٤م)، وذلك في مدينة قونية، وكان أتباع هذه الطريقة يقيمون حلقات الذكر بالأناشيد، والرقص على توقيع آلات الطرب، وقد ألغى أتاتورك هذه الطريقة في تركيا عقب إعلانه الجمهورية.

تقول بعض المصادر أن سيد برهان الدين الترمذي توفي بالشام، ولكن وجود ضريح في قونية ينسب دائمًا إلى هذا الصوفي التركي ينفي وفاته ودفنه بالشام، ولا يعرف تاريخ وفاته على وجه التحقيق.

٤) أبو جعفر محمد بن أحمد بن نصر الترمذي: وقد دون ابن خلكان ترجمة سيرته في كتابه: «وفيات الأعيان» فقال: إنه كان فقيهًا شافعيًّا، وكان إمام عصره في الفقه الشافعي وأنه كان ورعًا تقيًّا، ويسكن في بغداد وحدث بها عن يحيى بن بكر المصري، ويوسف بن عدي وغيرهما، وروى عنه أحمد ابن كامل القاضي، وعبد الباقي بن قانع، وأنه كان ثقة من أهل العلم والفضل والزهد في الدنيا، وكان يقول تفقهت على مذهب أبي حنيفة ولكنني كنت على مذهب الشافعي فيما بعد، وكتبت الحديث طوال ٢٩ عامًا.

وقد سافر إلى مصر، ونسخ جميع كتب الإمام الشافعي (انظر مادة الشافعي)، وكان فقيهًا مأمونًا ناسكًا.

وكانت ولادته في ذي الحجة عام ٢٠٩هـ (٨٢٤م) وتوفي في ١١ من شهر المحرم عام ٢٩٥هـ (٩٠٧م) بالغًا من العمر حوالي ٨٤ عامًا.

٤٦٩- تريستا - شارع - بقسم المنشية (الشيخ إسماعيل شلبي حاليًا)

تريستا هي ميناء إيطالي يقع على البحر الأدرياتيكي، وتكون في مكانها الخليج المسمي باسمها Le Golfe de Trieste، ويبلغ عدد سكانها في الوقت الراهن حوالي نصف مليون وهي مدينة تجارية من الدرجة الأولى لا سيما في تجارة المنسوجات والتبغ والسلع المختلفة الأخرى التي تصدر من شمال إيطاليا، ومن سويسرا ومن بلدان أوروبا الوسطى التي ليس لها منافذ على البحر الأدرياتيكي، وموقعها سياحي جميل، وتضم أحياؤها القديمة العديد من الآثار الهامة التي منها قصر يرجع تاريخ تشييده إلى القرن السابع عشر الميلادي، وكاتدرائية عظيمة هي كاتدرائية القديس «جيوستو Guisto»، وطالما تحولت أنظار الإيطاليين المكافحين إلى استعادة هذا الميناء الهام، وضمه إلى وطنهم، وقد تحققت هذا الرغبة عندما استعادتها إيطاليا وفقًا لنصوص معاهدة «سان جيرمان Saint Germain»، وكان ذلك تنفيذًا للاتفاق السري الذي أبرم في مدينة لندن بتاريخ ٢٨ إبريل عام ١٩١٥م، والذي دخلت بموجبه إيطاليا في الحرب العالمية الأولى مع الحلفاء الغربيين ضد ألمانيا، وتركيا وحلفائهما.

أما ترجمة صاحب الاسم الجديد للشارع فاطلبها في «الشيخ إسماعيل شلبي».

٤٧٠- تشودي - شارع - بقسم مينا البصل (يوسف المنيلاوي حاليًا)

يحمل اسم تشودي ثلاثة من مفكري سويسرا وهم:

١) «**جيل أو أجيديوس تشودي** Gilles ou Aegidius Tschudi»: وكان مؤرخًا سويسريًّا، ولد بمدينة «جلاريس Glaris» عام ١٥٠٥م، ومات خلال عام ١٥٧٢م بالغًا من العمر حوالي ٦٧ سنة، وهو مؤلف القصص السويسري الذي يضم أساطير «روتلي Rutli»، و«غليوم تلّ Guillaume Tell» الشهيرة الذائعة الصيت حتى الآن.

٢) «**جان جاك دي تشودي** Jean Jacques de Tschudi»: وكان عالمًا في الطبيعيات سويسريًّا، ولد هو أيضًا بمدينة جلاريس عام ١٨١٨م ومات بمدينة «سان جل Saint Gall» خلال عام ١٨٩٧م بالغًا من العمر ٧٩ عامًا، وقد قام باستكشافات علمية قيمة في أقطار أمريكا الجنوبية.

٣) «**هوجو دي تشودي** Hugo de Tschudi»: وهو ابن جان جاك دي تشودي، ولد عام ١٨٥١م بمدينة «جاكوبشوف Jakobshof»، ومات بمدينة «كانستات Cannstatt» عام ١٩١١م، وكان من نقاد الفنون ومدير لمتحف الفنون الأهلي بمدينة برلين ومتحف الرسم البافاري بمدينة ميونخ، وقد كان له أثر قوي في تعريف الشعب الألماني بالفنانين الفرنسيين أصحاب التأثير الشخصي في إنتاجهم الفني.

أما ترجمة صاحب اسم الشارع الجديد فاطلبها في «يوسف المنيلاوي».

٤٧١- التصنيع - شارع - بأبي قير

التصنيع هو مصدر صنع «أي زين الشيء وحسنه بالصناعة»، وتصنع أي تكلف التزين أو أظهر عن نفسه ما ليس فيه، والفعل الثلاثي أصل الاشتقاق هو صنع، فيقال صنع الشيء أي عمله، وصنع إليه معروفًا أي قدمه، وصنع به صنيعًا قبيحًا أي فعلاً، وأصنع الرجل: تعلم وأحكم العمل، أو أعان آخر، وصانعه مصانعة: داهنه وداراه، أو رشاه، ومنه المثل: «من صانع المال لم يحتشم من طلب الحاجة».

وصانعه عن الشيء: خادعه عنه، وصانع الرجل: رافقه، واصطنع شيئًا: أمر أن يصنع له، واصطنع عنده صنيعه: أحسن إليه، واصطنعه لنفسه: اختاره لنفسه، والصناعة: العلم الحاصل بمزاولة العمل كالخياطة، والحياكة، أو العلم المتعلق بكيفية العمل كالمنطق، وقيل: الصناعة تستعمل في المحسوسات والصناعة في المعنى، وجمعها صناعات، وصنائع، والصانع: من يعمل بيديه، وجمعه صناع، يقال: «امرأة صانعة اليدين» أي حاذقة ماهرة في عمل اليدين.

لم تذكر لجنة تسمية الشوارع بمدينة الإسكندرية أي تفسير لسبب إطلاق كلمة التصنيع على هذا الشارع، اللهم إلا إذا كان من المنظور إقامة بعض المصانع في هذه الجهة من ضاحية أبي قير التي ضمت أخيرًا إلى محافظة الإسكندرية، وصارت قسمًا من أقسام المدينة الإدارية.

٤٧٢- التعاون - شارع - بقسم الرمل

التعاون مصدر فعل تعاون فيقال تعاون القوم: أعان بعضهم بعضًا: وعاون معاونة وعونه تعوينًا، وأعانه إعانة على

الشيء: ساعده، وعونت المرأة: صارت عونًا أي في منتصف العمر، واستعان فلان بفلان: طلب منه المساعدة والعون، والعون هو المساعدة، والعَوَان: الأرض المطمورة، أو الحرب التي قوتل فيها مرة بعد أخرى، والحرب العوان: هي أشد الحروب، والعوانة: النخلة الطويلة، ودودة تكون في الرمل، ودابة دون القنفد في حجمها، والمعانة والمعونة والمعون: العون والمساعدة، والمعوان: الحسن المعاونة للناس وجمعه معاوين، والمتعاونة: المرأة الطاعنة في السن.

ولقد حث القرآن الكريم على التعاون بين الناس فقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾.

ولعل إطلاق اسم التعاون على هذا الشارع يرجع إلى وجود مركز من مراكز جمعيات التعاون في كنفه.

٤٧٣- التقدم - شارع - بقسم كرموز

التقدم مصدر فعل تقدم، وتقدم ضد تأخر، وتقدم القوم: سبقهم، وتقدم إليه بكذا: أمره به ويقال فلا يتقدم بين يدي أبيه: إذا عجل في الأمر والنهي دونه، واقتدم بمعنى تقدم، واستقدم الرجل أي طلب قدومه، واستقدم القوم تقدمهم، والقِدَم: الزمان القديم، فيقال: كان ذلك الأمر قدمًا «أي في الزمان القديم»، والقِدَم: ضد الحدوث، أو السابقة في الأمر، فيقال: له قدم في هذا الأمر أي له سابقة.

ويقصد بالتقدم أيضًا النجاح في التجارة والصناعة: الاختراع في الحضارة والسلوك الجماعي للأمة، ولعل إطلاق هذا الاسم على الشارع قصد به هذا المعنى تفاؤلاً بمستقبل القطر المصري، والأمل في تقدمه المطرد نحو العلاج في كافة المجالات.

٤٧٤- التقوى - شارع - بقسم كرموز

التقوى الاسم من اتقى: أي خاف الله وعمل بطاعته، والتقاة هي التقوى وجمعها تقًى، والمتقي هو صاحب التقوى، وأصل الفعل «وقى يقي وقاية ووقيًا»، ووقى فلانًا: أي صانه وستره من الأذى، تقول: وقاه الله السوء ومن السوء، تقي بمعنى اتقى.

وقد ساوى الإسلام بين البشر فجعلهم متساوين في الحقوق والواجبات مهما اختلف جنسهم أو لونهم، ولم يفضل أحدًا على الآخر إلا بمقدار تقواه وخوفه من الله وطاعته في كل ما أمر به من فضائل وتمسك بالأخلاق الكريمة.

٤٧٥- تكلا بك - شارع - بقسم الرمل

ما من شك أن المقصود بهذا الاسم هو سليم «تقلا» بالقاف، وليس بالكاف وهو من رجال الصحافة ومن الكتاب المعروفين، وهو لبناني الأصل، ولد في كفر شيما سنة ١٨٤٩م (١٢٦٦هـ) وتخرج في علوم اللغة العربية على الشيخ ناصيف اليازجي (انظر مادة اليازجي)، ثم رحل إلى مصر في عهد الخديوي إسماعيل، وأصدر جريدة الأهرام سنة ١٨٧٥م (١٢٩٢هـ) ولاقى في ذلك صعابًا جمة، وكان يساعده في إصدارها أخوه بشارة تقلا، واضطر أيام الثورة العرابية إلى أن يهاجر إلى سوريا، ثم عاد إلى القاهرة وأعاد إصدار الأهرام، ومرض بعد ذلك فسافر إلى لبنان حيث وافته المنية خلال عام ١٨٩٢م (١٣١٠هـ) ودفن بكفر شيما مسقط رأسه، وكان قد جاوز الثالثة والأربعين من عمره.

ويقول المستشرق «م. هارتمان M. Hartmann» في دائرة المعارف الإسلامية: إن سليم تقلا اللبناني أسس جريدة الأهرام، أول صحيفة عربية في الإسكندرية، وكانت تدافع عن مصالح الفرنسيين في مصر دفاعًا قويًّا لا يفتر. والواقع هو أن جريدة الأهرام كانت تتسم بالوصف الذي ذكره هذا المستشرق، فكانت لا تحنو على آمال المصريين في الاستقلال، والتخلص من ربقة الاحتلال البريطاني إلا بقدر ما يخدم هذا الحنو الظاهري السياسة الفرنسية في الشرق الأوسط كلما بدا لها أن تعارض السياسة البريطانية في المصالح التي تريد كسبها في هذا الجزء من العالم الذي نُكِب زمنًا طويلاً بالاستعمار الإنجليزي – الفرنسي، وكانت جريدة المقطم تنافس جريدة الأهرام في مجال الدفاع عن الكيان الأجنبي في مصر، فلا تدخر وسعًا في مناصرة المصالح الإنجليزية على حساب الشعب المصري، وكان مؤسسوها ومحرروها من اللبنانيين مع الأسف.

وقد اختفت جريدة المقطم إلى غير رجعة، وأصبحت جريدة الأهرام بعد الثورة المصرية التي قامت في يوليو عام ١٩٥٢م (١٣٧٢هـ) لا تجد مجالاً لسياستها المتحيزة لفرنسا، وانتهى بها الأمر إلى أن تكون مصرية خالصة بفضل سيطرة العناصر الوطنية الصادقة على تحريرها وإدارتها.

وأجد من الملائم تدوين نموذج من نثر سليم تقلا خطه قلمه سنة ١٨٨٣م (١٣٠١هـ) ونشر بالأهرام تحت عنوان: «القطر المصري» ويقيني هو أن هذا المقال كتب دفاعًا عن صندوق الدين الذي كان للإنجليز والفرنسيين اليد الطولى في إدارته، والذي أنشئ عقب خلع الخديوي إسماعيل الذي أثقل كاهل المالية المصرية بالديون نتيجة إسرافه المشهور:

«اختلقت الجرائد الأوروبية رأيًا في شأن أحوال المالية المصرية، فخاضت في هذا الموضوع تخبط فيه خبط عشواء، لا تميز صحيحه من فاسده، جلُّ ما بَنَت عليه بحثها مراسلات غير وافية، نقلتها إليها أقلام بعض الأجانب الذين لم تتوفر لهم الخبرة الكافية عن ماهية البلاد وحالتها، وأسباب زيادة وارداتها أو نقصانها وما شاكل ذلك»، ويسترسل الكاتب في مقاله موضحًا أن أقوال تلك الصحف الأوروبية قد عاد بالضرر الحسي والمعنوي على البلاد المصرية، ثم يذكر أن المقرر هو أن مصر من أحسن البلاد تربة، وأغناها أرضًا، فإن حياتها وخصبتها وغناها وثروتها متوقفة على ما خصها الله به من بركات بحر النيل الذي يروي أراضيها بميعاد مضروب فيقوي ما ضعف فيها، ويكسبها قوى جديدة عن التي اقتضتها منها المزروعات الشتوية، فهو لها إكسير إلا أمرًا وهميًّا ناتجًا عن الجهة الواحدة عن سوء حالة الفلاح، وعدم انتظام أعماله، ومن الجهة الثانية عن ازدياد النفقات السنوية من جراء الاحتلال والتعويضات وما ضارع ذلك، لأن الرجل إذا أصابه ألم في بعض أعضائه وهى جسمه إجمالاً وامتد الضعف إلى أعضائه السليمة لا عن خلل بها بل عن تأثير من العضو السقيم، وهذه هي حالنا.

وظاهر هذا القول أن سليم تقلا ينتقد أساليب الاحتلال البريطاني وما ذلك إلا أن فرنسا كانت تعارضه أشد المعارضة لتقوي نفوذها في مصر، وبالتالي في الشرق الأوسط.

وقد رثاه الشاعر إسماعيل صبري (انظر مادة إسماعيل باشا صبري) بقصيدة مطلعها فلسفة صوفية فقال:

إذا كان وِرْدُ الموتِ ضَرْبَةَ لازبِ
فطولُ سرورِ المرءِ موعدُ كاذبِ

فلا تَغْتَرِرْ بالعيش واحْذرْ فإنما
صفاءُ الليالي هُدنةٌ من مُحارِبِ

يبيتُ الفتى خِلْوَ الفؤادِ كأنَّهُ
رأى بينه سدًّا وبين النوائبِ

ثم يتطرق إلى الرثاء فيقول:

بِرَغْمِيَ أن يُدْعى ترابًا وأعظُمًا
فتًى كان يُدعَى قبلُ أَكْتَبَ كاتِبِ

فتى كانت الأقلام تشهد أنه
يُجِلُّ مقامَ الكتب فوق الكتائبِ

هَوَى كوكبًا ما البدرُ ليلة تَمِّه
بأفتكَ من لأْلائه بالغياهبِ

فتًى طبْعُهُ قد كان كالماءِ رِقَّةٍ
فلو صُبَّ في كأسٍ لساغ لشاربِ

فيا راحلاً قد غاب عنا ومَنْ تكنْ
كذكراكَ ذِكْراهُ فليس بغائبِ

سلبْتَ النُهَى حيًّا بباهرِ حكمةٍ
و عاطِرِ أخلاقٍ ورقّةَ جانبِ

٤٧٦ – التلمساني – شارع – بقسم مينا البصل

يطلق هذا اللقب على أربعة من شعراء وفقهاء ومؤرخي العرب وهم:

١) عفيف الدين سليمان بن علي بن عبدالله بن يس ابن العفيف التلمساني: من أسرة تنتمي في الأصل إلى مدينة الكوفة بالعراق، وقد ولد بمدينة تلمسان عام ٦١٦هـ (١٢١٩م)، وكان شاعرًا مجيدًا ألف علاوة على ديوانه كتبًا أخرى في علوم مختلفة لم يبق منها سوى «رسالة في علم العروض»، ومن المستطاع القول: إن ابن العفيف التلمساني كان معه تلاميذ ابن العربي (انظر هذه المادة) الأوفياء، ويقول الذهبي (انظر هذه المادة) أن التلمساني كان هدفًا للريبة على الرغم مما كان يبدو عليه من وقار وورع وكريم خلق، وتلك الريبة التي كانت تشوب مسلك حياته أدت إلى اتهامه بأنه من أتباع مذهب النصيرية، وكان شعره عذبًا يتسم بالبلاغة، والسهولة اللفظية، ولكن بعض كتاب سيرته يقولون: إن هذا الشعر كان يخفي السم في كيانه الباطني، وقد جمعت أشعاره في ديوانه.

وحينما كان ابن العفيف التلمساني بالقاهرة أنجب ولده سليمان، وسليمان هذا هو والد شمس الدين محمد بن سليمان الملقب بالشاب الظريف (انظر هذه المادة) الذي ولد بالقاهرة عام ٦٦١هـ (١٢٦٣م) وتوفي شابًّا لأنه كان منصرفًا للهو منغمسًا في الملذات.

وتوفي ابن عفيف التلمساني بدمشق عام ٦٩٠هـ (١٠٢١م)، وقد تنقل أثناء حياته فزار آسيا الصغرى (الأناضول) وباشر أعمالاً في الشام، والثابت من تاريخ سيرته

أنه اتبع مذهب ابن العربي (ابن عربي)، فقال بوحدة الوجود فاتهم بالزندقة، ومن مؤلفاته التي لم يبق لها أثر عدة كتب في التصوف منها «شرح أسماء الله الحسنى» و«شرح مواقف النفري» و«شرح منازل السائرين» للأنصاري الهروي، وشرح «النصوص» لابن عربي، وشرح القصيدة النفيسة للرئيس ابن سينا (انظر هذه المادة)، وديوانه يشتمل على قصائد من الشعر الجديد في الغزل الصوفي والوصف، وقد طبع هذه الديوان في بيروت عام ١٣٠٢هـ (١٨٨٥م).

٢) أبو إسحاق إبراهيم بن أبي بكر بن عبد الله الأنصاري التلمساني: ولد هو أيضًا بمدينة تلمسان عام ٦٠٩هـ (١٢١٢م)، وكان فقيهًا مالكيًّا ضليعًا تفوق ببراعته في تحرير العقود ونظم الشعر، وقد نظم أرجوزة ضمنها أحكام المواريث المختلفة، وعندما بلغ التاسعة من عمره اصطحبه أبوه إلى غرناطة بالأندلس، سافر إلى مالقة بعد ذلك بثلاثة أعوام، وتلقى هناك معظم دروسه، وانتهى به المطاف إلى ميناء سبتة، فتزوج من إحدى بناتها، ووافته المنية خلال سنة ٦٩٠هـ (١٢٩١م) بتلك المدينة نفسها عن واحد وثمانين عامًا من العمر، وقد ولد في عهد محمد بن يعقوب الناصر الموحدي، وتوفي في عهد يوسف بن يعقوب أحد أمراء بن مرين، وزار في رحلاته بلاد الترك، ومصر، والشام، والعراق، والحجاز، واليمن.

ومن مؤلفاته:

- قصيدته المتضمنة سيرة النبي صلوات الله عليه وسلامه وهي بعنوان «نتيجة الخيار في مُزِيلة الغبار».
- مقاله في العروض وبحوره وقواعده.
- منظومة المولد النبوي الشريف.
- العشرات.

وفي ما يلي أنموذج من نثره الفني، إذ يقول في الفراق: «الدهر ذو غير، ومن ذا يحكم على القدر؟ وما ضرَّهُ لو غفل قليلاً، وشفي بلقاء الأحبَّة غليلاً، وسمح لنا بساعة اجتماع ووصل ذلك الأمل القصير يباع وزوى مسافة أيام، كما طوى مراحل أعوام، يا مؤيسي، أفلا أشفقت من عذابي، وسمحت لي ولو بسلام أحبابي، أسلمتني إلى ذراع البيد، ومخالفة الزميل الوحيد، والتنقل في المشارق والمغارب، والتمطي في الصهوات الغوارب، يا سائق البين، دع مَحْمِلَه، فما بقي في الجسم لن يحمله، ويا بنات جديل، مالكني وللذميل؟ ثم ما للزاجر الكاذب وما للغراب الناعب؟ يجعله نذيرًا للجلاء، ورائد الخلاء، ما أبعدني زادر عن دار الزاجر، وإنما فعل ما ترى ذات الغارب والقرا، المختالة في الأزمة والبرى، والمترددة بين التأويب والسرى، طالما باكرت النوى، وصدعت صدع الهوى، وتركت الهائم بين ربع محيل، ورسمٍ مستحيل، يقفو الأثر بجده، ويسأل الطلل عن عهده».

وفي هذا النموذج من النثر الفني ما يدل على براعة أبي اسحاق التلمساني في الكتابة واللغة، مما استحق إضفاء صفات العلامة الأديب الكتاب الشاعر الرحالة عليه في كتب الأدب والسير.

٣) التلمساني أحمد الوانشريشي: من كبار فقهاء المذهب المالكي بالجزائر، ولد عام ٨٣٤هـ (١٤٣٠م) وتلقى العلم على يد شيوخ تلمسان، من مؤلفاته؛ «المعيار المعرب عن فتاوى

علماء الأندلس والمغرب»، وتوفي عام ٩١٤هـ (١٥٠٨م) بالغًا من العمر ٨٠ سنة، وقد عاصر نهاية حكم بني مرين، وأوائل حكم دويلة بني وطاس وهم أحد فروع بني مرين.

٤) **أبو مريم التلمساني**: من علماء الجزائر، وقد ألف كتابًا بعنوان: «البستان في علماء وملحاء تلمسان»، ويقول بعض المؤرخين إنه اقتبسه من كتاب «نيل الابتهاج» الذي ألفه المكني ومن كتب أخرى غيره، ويشتمل «كتاب البستان» على مائة واثنتين وخمسين ترجمة للعلماء والملحاء، وقد فرغ من تأليفه خلال عام ١٠٢٤هـ (١٦٠٥م) وقام بطبعه محمد بن أبي شنب العالم الجزائري عام ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م) وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الفرنسية.

٤٧٧- تمراز (سيدي) - ميدان - بقسم الجمرك

٤٧٨- تمراز (سيدي) - حارة - بقسم الجمرك

٤٧٩- تمراز (سيدي) - شارع - بقسم الجمرك

اطلب ترجمته في (سيدي تمراز).

٤٨٠- التمرازية - حارة- بقسم الجمرك

أطلق اسم التمرازية على هذه الحارة لأنها تجاور مسجد «سيدي تمراز» (انظر هذه المادة)، وذلك على سبيل التعميم، مثل جهة البلقطرية وغيرها من الجهات التي تحمل أسماء الأحياء التي تقع في حيزها.

٤٨١- التمساح - حارة - بقسم اللبان

التمساح حيوان في شكل الضب كبير الحجم طويل الناب قصير القوائم على رأسه وظهره وذنبه ترس متين كترس السلاحف من فلوس قرنية متصل ببعضها البعض، والتمساح من فصيلة الزواحف التي تعيش في الماء وعلى الأرض اليابسة، وتوجد التماسيح في أنهار القارتين الإفريقية والأمريكية ويبلغ طول الكبير منها ستة أمتار أو ثمانية أمتار ورؤوسها يزيد طولها على عرضها وعدد أسنان كل منها ٣٨ في الفك الأعلى، و٣٠ في الفك الأسفل، وذنب التمساح رقيق وصالح لمساعدته على العوم.

وتفوح من أغلب أنواع التماسيح رائحة مسكية وجميعها تجد صعوبة في التحرك على الأرض، أما في الماء فتصبح على جانب كبير من الجسارة والشراسة وتهاجم الإنسان للفتك به، وكان التمساح من الحيوانات المقدسة عند قدماء المصريين، وقد رسموه على آثارهم التي لا حصر لها وتحرك جميع الحيوانات فكها الأسفل إلى أعلى، أما التمساح فيحرك فكه الأعلى إلى أسفل، ويضرب المثل في الخداع والزيف بالدموع التي تتدفق من عيني التمساح، فيقال لمن يبكي ختالاً: «يذرف دموع التماسيح».

وبحيرة التمساح من البحيرات التي يخترقها قنال السويس وتقع بالقرب من مدينة الإسماعيلية (انظر هذه المادة).

وأعرف أسرة بالإسكندرية تدعى «أسرة التمساح» وكان أحد آبائها يسكن بحي رأس التين في نهاية شارع رأس التين، ولكي لا يخطئ الناس في لقبه كان يعلق تمساحًا صغيرًا محنطًا فوق باب منزله، وهكذا كنا نعرف أن ساكن المنزل وصاحبه

هو عميد أسرة التمساح ، ولعل أحد أفراد الأسرة نزح إلى قسم اللبان ، واتخذ مسكنه في هذا الشارع ، فأطلق اسمه عليه ككثير من شوارع المدينة .

٤٨٢- تميم - شارع - بقسم محرم بك

يستوجب الكلام عن اسم تميم تدوين تاريخ قبيلة من القبائل العربية القديم ، وأحد صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، واثنين من الأمراء الذين نظموا الشعر وأجادوا فيه ، وفيما يلي ما سطره التاريخ بالنسبة إلى القبيلة ، وبالنسبة إلى التميميين الثلاثة:

١) **تميم بن مُرّ بن أدين طابخة بن إلياس بن مُضَر:** قبيلة يمتد نسبها إلى مُضَر ، ولذا فإن لها في مضر المقام الأول ومن ثم يطلق اسمها في معظم الأحيان مساويًا لقبيلة مضر نفسها ، وفي مقابلة قيس وربيعة (انظر هاتين المادتين) ، ويذهب الناسبون إلى أن ربيعة أقرب من قيس إلى تميم ، ولا يتضح ذلك في شجرة النسب وإنما من الأعلام التي وردت في صيغة المثنى ، وهي تطلق عادة على تميم وبكر بن وائل جميعًا ، وبكر بن وائل أهم بطون ربيعة ، وعلى كل حال فإن قبيلة تميم أقرب في النسب إلى قبيلتي قيس وربيعة منها إلى قبيلة كنانة ، وذلك في شجرة الإنسان بشبه الجزيرة العربية .

ولم يذكر مؤرخو الروم واللاتينيون شيئًا عن تميم حين ترددهم على بلاد العرب ، ولذا فإن تاريخ قبيلة تميم متناقل عن روايات الناس وأخبارهم ، من ذلك قصة نشأتها التي يشوبها كثير من الأساطير مثل القول أن قبر تميم أصل القبيلة مجهول في مران ، مثل حكاية مولد أبناء تميم وهو زيد مناة وعامر والحارث وما قام به هؤلاء الثلاثة من أعمال أسطورية وفقًا لما جاء في مصنف ابن دريد (انظر هذه المادة) المسمى بـ«كتاب الاشتقاق» ، ومن ثم فليس من السهل التفريق بين الخرافات والأساطير التي تعزى إلى تميم ، وبين حوادث تاريخها الحقيقي .

ولم يتضح تاريخ هذه القبيلة على وجهه الصحيح إلا خلال القرن السادس الميلادي إذ عرف بصيغة قاطعة أنها قبيلة ذات شأن عظيم تشغل منازلها بلاد نجد بأسرها (انظر مادة نجد) ، وجزءًا من البحرين ، وجزءًا من اليمامة (انظر هذه المادة) ، وتمتد ديارها جنوبًا فتصل إلى فيافي الدهناء ، وتمتد شمالاً بشرق حتى ضفاف نهر الفرات ويجاورها في الشمال قبيلة أسد وفي الجنوب قبيلتا باهلة وغطفان .

وكان التميميون من البدو الخُلَّص لم تكن لهم مدن أو قرى ، وكانت صلتهم بمدن الأحساء وحجرا ، والجرعاء صلة البدو الرحل بالحواضر يقلقون راحة سكانها ويخطفون بعض أفرادها للحصول على الفدية ، ويحاربونهم حينًا ، ويسالمونهم حينًا .

وكان حظ تميم من العلم قليلاً ، وكانت آلهتهم اللات ، والعزّى ، ومناة التي كانت آلهة العرب جميعًا ، ويقال: إنهم كانوا يعبدون «الشمس» إلى جانب هذه الآلهة الثلاثة ، وبسبب قرب منازل تميم من منازل تغلب وبكر النصرانيتين انتشر الدين المسيحي بينهم غير أن هذا الانتشار كان مقصورًا بصفة خاصة على سكان الحيرة ، وأشهرهم عدي بن زيد (انظر هذه المادة) ، وقد غير هؤلاء النصارى من أسلوب معيشتهم وقطعوا صلتهم بالقبيلة .

وترتب على اتساع الرقعة التي تشغلها قبيلة تميم تشعبها إلى بطون وأحياء، ثم ارتفع شأن كل منها بمرور الزمن فصارت قبيلة قائمة بنفسها، وهذا يفسر السبب الذي جعل بني تميم على خلاف دائم بينهم لدرجة أن الشاعرين التميميين الفرزدق وجرير (انظر هاتين المادتين)، وهما من بطنين من بطون تميم هجا كل منهما قبيلة الآخر بأفحش الشتائم، وأقذع السباب، ولدرجة أن أفراد إحدى هذه البطون كانوا يشتركون في حرب، أو يعقدون حلفًا على حين يلزم أفراد القبيلة الأخرى الحياد، أو ينضمون إلى الطرف الآخر، غير أن الظروف كثيرًا ما حدت بهذه البطون المتنافرة إلى ضم صفوفها فتتحالف مع الاحتفاظ باستقلالها.

ويسجل التاريخ أحداثًا كثيرةً عن قبيلة تميم، وبطونها تفوق في كثرتها الأحداث التي سجلها عن القبائل الأخرى، ويرجع ذلك إلى كثرة الشعراء الذين ينتمون إليها وقد صارت أشعارهم النواة التي جمعت حولها الروايات التي جمعها علماء اللغة فيما بعد، وتناولوها بالشرح، ومن بينهم أبو عبيدة وابن الكلبي، وفي كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني (انظر مادة أبي فرج) وفي كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه (انظر هذه المادة)، وكتاب الكامل لابن الأثير (انظر هذه المادة) طائفة من أخبار تميم في عهدها المتقدم.

ولقبيلة تميم أيام تاريخية لم يستطع العلماء المؤرخون ترتيبها زمنيًّا، غير أن الروايات المأثورة حفظت ذكر حادثتين وقعتا أثناء اتصال التميميين بالساسانيين، وتفصل الأولى حملة سابور الثاني على حجر، والثانية تذكر ما وقع لتميم من أعمال البطش التي قام بها «أبرويز»، عامل كسرى ضدها لسبب سلبها قافلة فارسية كانت تخترق منازلها في طريقها إلى اليمن، وتعرف هذا المأساة بيوم المشقر، ولتميم أيام تاريخية أخرى أهمها: يوم إراب (بين يربوع وتغلب) ويوم أقرن (بين دارم وعبس) وأُوارة (بين دارم وعمرو بن المنذر ملك الحيرة)، وحوامل (بين يربوع وشيبان) بقيادة «بسطام ابن قيس» وغيرها.

وعند ظهور الإسلام لم يبادر بنو تميم إلى اعتناقه لبعد منازلهم عن مكة والمدينة ومن ثم لم يرسلوا وفدًا لعقد حلف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا في العام الثاني من الهجرة، ويظهر أنهم لم يعتنقوا الدين الجديد صادقين، ولذا بادروا إلى الارتداد عقب وفاة النبي وكان لهم شأن كبير في حروب الردة بقيادة «سجاح» التي ادعت النبوة، ولا يعرف عن شخصيتها شيء يتسم بالحقيقة لأن الروايات المختلفة شوهت معالم هذه الشخصية الكاذبة التي أوجدت الفتنة في صفوف المسلمين في صدر الإسلام، وقد أعادت حملة خالد بن الوليد الموفقة تميم إلى حظيرة الإسلام فاشترك أفرادها في الفتوحات الإسلامية التي أعقبت حروب الردة، ولاسيما في فتح بلاد الفرس حيث أظهروا ضروبًا باهرة في الشجاعة والبسالة.

ويدلنا التاريخ على أن أفراد أسرة تميم كان لهم نصيب كبير في جميع الفتن التي نشبت في عهد الأمويين، ويظهر ذلك بوضوح في مناصرتهم للخوارج وقد ظهر فيهم أشد غلاتهم، فكان منهم قطري بن الفجاءة زعيم الأزارقة، ومن جهة أخرى ظهر فيهم قواد عظماء منهم إبراهيم بن الأغلب (انظر مادة ابن الأغلب) رأس الدولة الأغلبية في إفريقية (تونس).

وعرفت قبيلة تميم بأنها ذخر اللغة العربية الفصحى في الشعر والبلاغة ونبغ من أفرادها في هذا الشأن: أوس بن حجر، وعدي بن زيد، وجرير، والفرزدق، وكثير، ورؤبة وغيرهم.

٢) **تميم الداري**: هو تميم بن أوس بن خارجة بن سواد ابن جذيمة بن دراع بن عدي بن الدار بن هانئ بن حبيب بن نمارة بن لخم، وكان أحد صحابة رسول الله صلي الله عليه وسلم ويقال: إن لقبه «الداري» يرجع إلى بني الدار أو إلى عبد الدار، وهم بطن من بطون قبيلة لخم، ويقول النووي في كتاب تهذيب الأسماء ونسبته هي الداري أي نسبة إلى الدير الذي كان هو أحد رهبانه قبل اعتناقه الدين الإسلامي.

وكان تميم يعيش في فلسطين ثم وفد منها على النبي في عشيرة من أهله بعد غزوة خيبر عام ٧هـ (٦٢٨م)، غير أن الأصح هو أن وفادته كان بعد غزوة تبوك عام ٩هـ (٦٣٠م) وهي الواقعة التي وصلت بالجيش الإسلامي إلى حدود الشام، وبعد أن أسلم تميم الداري سكن المدينة.

وقد أقطعه النبي هو وذريته أرضًا في فلسطين، ويزعم خدام حرم الخليل أنهم من سلالة تميم الداري وسلالة أخيه نعيم الذي كان أحد الصحابة مثل أخيه، وقد أيد النبي الكريم هذا الإقطاع بوثيقة من النبي نفسه ممهورة بتوقيع الخلفاء الثلاثة الأول وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان (رضي الله عنهم) (انظر هذه المواد)، وقد انمحت كتابة هذه الوثيقة التاريخية، أو كادت، ولم يبق منها سوى آثار حائلة، غير أن الخليفة المستضيء أيدها بشهادة تثبت صحتها، وذلك بنسخة من نصها الأصيل.

وكانت الوثيقة ملفوفة في قطعة من الحرير الثمين ومحفوظة في صندوق من خشب الأبانوس، وقد شاهدها ابن فضل الله العمري (انظر مادة العمري) عند زيارته معبد حبرون بفلسطين على هذه الصورة، وخلال العهد العثماني قدم تقي الدين الداري، ولعله أحد أحفاد تميم الداري المتأخرين، قدم إلى السلطان مراد هذه الوثيقة فحفظها في مكتبته، وكافأه عليها بتعيينه على قضاء القاهرة، ويظهر أن السلطان العثماني الذي قدمت إليه الوثيقة إما أن يكون مراد الثالث الذي حكم في المدة من ٩٨٢ إلى ١٠٠٣هـ (١٦٢٣ - ١٦٤٠م).

وممن ذكروا هذه الوثيقة التاريخية في مصنفاتهم ياقوت وابن عساكر في كتابه تاريخ دمشق وقد اعتمد القلقشندي على ما كتبه ابن عساكر بشأن هذه الوثيقة الهامة (انظر مادة ابن عساكر)، ويدل وعلى صحة الوثيقة ودحض تشكيك بعض المستشرقين ومنهم «ليفي ديلافيدا Levi Della Vida» أنها ذكرت في كتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام المتوفى عام ٢٢٤هـ (٨٣٨ م).

ولم يذكر الرواة شيئًا عن حياة تميم الداري بعد وفاة النبي صلي الله عليه وسلم إلا أنه غادر المدينة بعد مقتل عثمان بن عفان (انظر هذه المادة) عام ٥٣هـ (٦٥٥م)، وعاد إلى وطنه فلسطين حيث توفي في نهاية خلافة علي بن أبي طالب عام ٤٠هـ (٦٦٠م)، ويقول الشعراني في كتابه الطبقات أن تميم الداري كان كثير الصلاة، وقراءة القرآن، وكان له هيئة ولباس حسن، وكان أول من قص على الناس بإذن الخليفة عمر بن الخطاب، وكان له حلة اشتراها بألف درهم كان يلبسها بالليلة التي يرجى أنها ليلة القدر في رمضان.

٣) تميم بن المعز لدين الله الفاطمي: هو تميم بن معد بن أبي الطاهر إسماعيل بن أبي القاسم محمد بن عبد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب العربي، ولقب معد والد تميم هو المعز لدين الله وكنيته أبو تميم، وقد ولد تميم بالبلاد التونسية عام ٣٣٧هـ (٩٤٨ – ٩٤٩م)، أي قبل رحيل المعز لدين الله إلى مصر ليكون الدولة الفاطمية فيها بأربع وعشرين سنة، ومن ثم يتضح أن تميم كان في الرابعة والعشرين من عمره وقت رحيله إلى مصر مع والده وعشيرته، ويبدو أن إنتاج تميم الأدبي بالمغرب كان قليلاً إذ كانت شخصية ابن هانئ الشاعر الأندلسي الفحل (انظر هذه المادة)، كانت تطغى على الشاعر الناشئ وهو مايزال في ميعة الشباب يستقي من مناهل العلم وتعرف على الدنيا ممن حوله، وما من شك في أن مكتبة الفاطميين في تونس كانت له أغزر منهل يغترف منه ما يشاء من عذب المعارف والعلوم، وقد نشأ تميم في مدرسة أسرته يتلقى الفقه الفاطمي، وفنون اللغة العربية وفلسفة الإمامية الشيعية، وأسرارها وذلك عن أبيه، وعن دعاة أبيه من العلماء الشيعيين.

ولابد أن تميمًا قد قال شعرًا قبل رحيله إلى مصر إذ لا يعقل أنه قضى السنوات الأربع والعشرين من طفولته، وغض شبابه في التعلم دون أن تجود قريحته الفنانة ببعض القصائد، وما من شك في أن هذه القصائد قد فقدت، وجر عليها الضياع ستار النسيان ولاسيما أنه ظهر في مصر عقب رحيله إليها شاعرًا كامل النضوج من حيث الأسلوب والبلاغة في شعره وازدهار البيان في مدائحه مما حدا بالأدباء والنقاد أن يقولوا صادقين بأن تميمًا كان من أفضل الفاطميين.

ولقد حضر إلى مصر بعد أن شيد القائد جوهر (انظر هذه المادة) القاهرة رائعة في بنيتها، وجمالها فأكمل هذا الجمال المادي جمال شعر تميم الأدبي إذا جعل من قصره على النيل منتدى الأدباء والشعراء ولاسيما بعد موت ابن هانئ، وخلو الجو له فحمل الصولجان وانفرد بالمنبر، والواقع هو أن تميمًا أحب مصر، وأخلص لها الود، ويتجلى ذلك واضحًا في قصائده، ومن ثم يستطاع القول بأن هذا الأمير الفاطمي كان صاحب مدرسة أفاد منها الأدب المصري والأدباء المصريين أجلّ الفائدة.

وكانت ظروف تميم العائلية بالغة القسوة على نفسه وقد أظهر خلجاته اليائسة في جملة من قصائده، فقد منع من حقه في الخلافة مرتين، وذلك حين ولى أبوه المعز لدين الله أخاه العزيز ليتبوأ عرش الخلافة الفاطمية بعده وحرم تميمًا، وكان المعز قد كتب بولاية العهد إلى ابنه عبد الله الذي توفي قبل موت أبيه، ومن ثم حرم المعز ولده الأكبر تميم مرتين من أن يعتلي عرش الخلافة بحجة أنه لا يصلح لها، ويقول الدكتور حنفي شرف في كتابه، تميم بن المعز شاعر الفاطميين: «إن هذا الحرمان يرجع إلى جنوح شاعرنا إلى اللهو والمجون، ويستشهد على ذلك بقول تميم نفسه:

كم بدير القصر لي من بكورٍ
ورواحٍ على الصَبَا والعقارِ

حيث أخلو بما أحب من القصْف
قليلَ الوقار لستُ أداري

كم صبوح شددته بغبوق

وظلامٍ وَصَلْتُه . . . بنهارِ

إنما العيش أن تروح عشيًّا

قاصفًا عازفًا خليع العذارِ

كما يستشهد بقوله في عشقه للخمر والإسراف في شربها بالحانات:

ولم نَزل في بيت خمَّارِها

نُشْربها شهرًا . . . ومثناه

إذا أشاب الصبحُ رأس الدُّجى

وهزَّنا الساقي أجبناهُ

نَحْبو إذا نادَى إليه كما

يَحْبو إلى الوالد أبْناهُ

وإن بدا من صاحبٍ بعض ما

يأتي به السُكْرُ عذرناهُ

ويدلل الدكتور شرف على عبث تميم ومجونه الجامح وإسرافه في اللهو والعبث بقول تميم نفسه:

إن الشبابَ والفراغ والجِدَهْ

مَفْسدةٌ للمرءِ أيَّ مفسدهْ

غير أن أمر المجون والابتذال والعبث مما يرمى به تميم الشاعر الفاطمي قد ينفيه ويدعو إلى الشك في صحته أن ابن خلكان يصفه في تاريخه بأنه كان فاضلاً شاعرًا ماهرًا لطيفًا ظريفًا ولم يل المملكة، لأن ولاية العهد كانت للعزيز فوليها بعد أبيه، وأشعاره كلها حسنة، وكانت وفاته في ذي القعدة سنة أربع وسبعين وثلاثمائة بمصر – رحمه الله تعالى – وأن المستشرق «ج. وولكر J. Walker» يقول فيه نقلاً عن ابن خلكان، وابن دقماق، وأبو صالح، وابن تغري بردي، وابن سعيد، وياقوت، أنه عرف في حياته بالجود وحب الأدب وكان واسع المعرفة ظريفًا اشتهر بين معاصريه بالبراعة في الشعر والتجويد فيه، ولم يستخلفه المعز، وفضل عليه أخاه العزيز، وكان العزيز يحب أخاه حبًّا جمًّا نستدل عليه من حزنه العميق لوفاته، وقيل: إن تميم توفي بالقاهرة في ذي القعدة عام ٣٧٤هـ (إبريل ٩٨٥م)، ووضع جثمانه في قبو القصر بعد أن صلى عليه في القرافة، وتختلف الروايات في تاريخ وفاته، ويقول ابن تغري بردي: إن وفاته كانت في عام ٣٦٨هـ (٩٨٧م)، ومما يحمل على الشك في مجونه وعبثه إيمانه بأنه من أسرة مالكة وأنه أمير من نسل رسول الله عليه السلام فيقول في ورع:

إذا لم أصدِّق ظنَّ كلِّ مؤملٍ

و لم أحْمِ عِرْضي بالسماحة والبَذْلِ

و لم أطع المعروفَ والبرَّ والعلا

وأعصي ذواتِ الحُسْنِ والأعْين النجلِ

فلستُ ابن من عَزَّت به كل دولةٍ

ونجل النبي المصطفى خاتم الرسلِ

فهذا القول العميق الإيمان بالقيم الروحية، والخلقية النقية، لا يمكن أن يصدر عن رجل انغمس في الموبقات إلى أذنيه، ويقيني هو أن رميه بالدعارة والمجون ناتج عن شائعات صنفها خصومه ولا سيما بعد أن حرمه أبوه من حقه في الخلافة الفاطمية، وليس ببعيد أن يكون الشعر الداعر الذي نسب إليه من وضع أعدائه خصوصًا، وأن انتحال الشعر، وجعله على لسان الشعر الداعر الذي نسب إليه من وضع أعدائه خصوصًا وأن انتحال الشعر، وجعله على لسان الشعراء، ومن نظم أقلامهم أمر كان شائعًا في عصره، وفي العصور التي سبقت عصره، وجاءت بعده.

وقد جاء بكتاب المفصل الذي وضعه خمسة من أكابر عمداء اللغة العربية في مصر وهم الأساتذة: أحمد الإسكندري، وأحمد أمين، علي الجارم، عبد العزيز البشري، وأحمد ضيف أن تميمًا كان شاعرًا مجيدًا وقد قال فيه ابن فضل العمري (انظر مادة العمري): تشبه بابن المعتز وتشبث بذيله، وهو إن لم يزاحمه لم يقع دون مطاره ويقول أصحاب المفصل أن تميمًا كان كبير النفس بعيد غايات الآمال، ويظهر أنه كان يحن إلى الخلافة أحيانًا، فيجد لذلك في نفسه حسرات ينم عنها شعره كقوله:

يا دهرُ ما أقساكَ من مُتَلوِّن
في حالتيْكَ وما أقلك مُنْصفَا

أتروحُ للنكس الجهولِ مُمهَّدًا
وعلى اللبيبِ الحر سيفًا مرهفَا

ما قام خيرُكَ يا زمانُ بِشَرِّه
أوْلى بنا ما قلَّ منكَ وما كفَى

ويضيف أصحاب المفصل فيذكرون أن أخلاقه كانت كأخلاق الملوك، فهو جليد صبور مخاطر يستهين بالمصاعب، قوي العزيمة، لا يهاب الموت، كريم سامي الهمة.

وما أظن أن رجلاً هذه سجاياه الخليقة يندمج في العبث والمجون في غير تحفظ كما يصفه غير المنصفين لسيرته، ولو كان كذلك لما خشي واضعو المفصل أن يصفوه على حقيقته، ومن بدائع غزله قوله:

وما أم خِشفٍ ظلَّ يومًا وليلةً
ببلقعةٍ بيداءَ ظمآنَ صادِيا

تهيمُ فلا تدري إلى أين تنتهي
مُولَّهة حيْرى تجوبُ الفيافيَا

أضرَّ بها حَرَّ الهجيرِ فلم تجدْ
لغُلَّتها من بارد الماء شافيَا

إذا بَعُدت عن خِشفِها انعطفتْ له
فألفته ملهوفًا من الجوع ظاميا

بأوجع منِّي يوم شَدُّوا رِحالَهم
ونادَى منادِي الحيِّ أنْ لا تلاقِيَا

٤) تميم بن المعز بن باديس بن أبي مناد باديس بن المنصور أبي الفتح ابن بلكين بن زيري بن مناد: هو خامس حكام

بني زيري من أسرة صنهاجية جزائرية، ولي حكم بلاد البربر الشرقية من عام ٤٥٤ إلى ٥٠١هـ (١٠٦٢ – ١١٠٨م)، وقد ولد تميم في عام ٤٢٢هـ (١٠٣٠م) ببلدة صبرة (المنصورية فيما بعد) بالقرب من مدينة القيروان بالبلاد التونسية، وقال ابن عذاري أنه كان طويل القامة، حسن الطلعة، على حظ وافر من العلم، وهو من أشهر الشعراء الذين اعتلوا العروش، وكان في الثالثة والعشرين من عمره عندما نصبه أبوه المعز بن باديس واليًا على المهدية عام ٤٤٥هـ (١٠٥٣م)، وذلك عقب ظهور العرب الهلالية في تونس وإيقاعهم هزيمة منكرة بجند المعز وامتلاكهم جزءًا كبيرًا من إفريقية (تونس)، وخرج المعز من عاصمته القيروان بعد ذلك بأربع سنوات، وكان مركزه قد تحرج فيها، ولجأ إلى ولده بالمهدية فأكرم وفادته، ثم انفرد تميم بالسلطان منذ ذلك الحين، ونودي به ملكًا بعد وفاة أبيه عام ٤٥٤هـ (١٦٠٢م) فأظهر كفاءة ممتازة ومقدرة فائقة في الظروف الحرجة التي أحاطت بملكه عند توليه السلطة، فلم يدخر وسعًا ولا جهدًا في إعداد العدة بمدينة المهدية التي بقيت لبني زيري من كل أملاكهم لاستعادة مدن إفريقية (تونس) التي كان ولاتها السابقون من أمراء العرب، أو من المغامرين قد استقلوا بها عقب هزيمة والده على أيدي بني هلال، وقد بادر بصائب إدراكه للأمور إلى استغلال المنافسة بين القبائل العربية الغازية لتحقيق آماله في استرداد ملكه، وسلطانه، فتودد إلى قبيلة رياح أقوى القبائل المنتمية لبني هلال واتجهت همته عند ذلك إلى غزو المدن الساحلية فأفلح في استعادة سوسة، وإخضاع بني خراسان الذين استقلوا بمدينة تونس، وبني الورد أصحاب بنزرت، واستولى بعد قتال عنيف على قابس، وصفاقس عام ٤٤٧هـ (١٠٨٤م) كما أخضع أصحاب قفصة لحكمه.

ولما لم ينجح في إجلاء النورمانديين عن جزيرة صقلية عام ٤٦١هـ (١٠٦٨م) واصل الغارات عليها بواسطة قراصنته مما أدى إلى تحالف أهل جنوه وبيزا فاستطاع أسطولهما أن يحتل المهدية، وزويلة عام ٤٨٠هـ (١٠٨٧م) فاضطر تميم إلى دفع تعويض كبير ثمنًا لانسحاب القوات الأجنبية من بلاده، وفي عام ٤٩٨هـ (١١٠٤م) قام النورمانديون مرة أخرى بالهجوم على المهدية، ولكن جيش تميم ألحق بهم الهزيمة فارتدوا مدحورين، وساعد الأسطول الزيري في هذه الهزيمة، إذ تمكن من الخروج إلى عرض البحر، والانقضاض على السفن النورماندية، والإسهام بنصيب وافر في المعركة، وتحقيق النصر.

وتوفي تميم بن المعز بن باديس عام ٥٠١هـ (١١٠٧م) بالغًا من العمر ٨٧ عام، ودفن بقصر السيدة في بلدة مناستير بالبلاد التونسية، وله من الذرية مائة ولد وستون بنتًا، وعلاوة على مقدرته الفائقة في تدبير أمور مملكته، والدفاع عن حياضها بكل ما يملك من عتاد، وسفن، ورجال كان تميم بن المعز بن باديس (انظر مادة المعز) شاعرًا مجيدًا ومن قوله في الغزل:

وخمرٍ قد شَرِبْتُ على وجوهٍ
إذا وُصِفَتْ تَجِلُّ عن القياسِ

خدودٌ مثل وردٍ في ثغورٍ
كدُرٍّ في شعورٍ مثلُ آسِ

ومن أشعاره الدينية التي يستغفر فيها الله ويجزع من عذاب الجحيم قوله:

فَكَّرتُ في نار الجحيم وحَرِّها
يا وَيْلتاهُ ولاتَ حين مناصِ

فدعوْتُ ربي أنَّ خيرَ وسيلتي
يومُ المعادِ شهادة الإخلاصِ

وكان إلى جانب ذلك جوادًا يجزل العطاء للعلماء والأدباء وقد مدحه الشاعر ابن رشيق لكرمه وعظيم هباته فقال:

أصح وأعلى ما سمعناهُ في الندى
من الخبر المأثورِ مُنْذِ قديمِ

أحاديث ترويها السيول عن الحيا
عن البحر عن كفِّ الأميرِ تميمِ

٤٨٣- التميمي - حارة - بقسم كرموز

يحمل لقب التميمي من الشعراء المجيدين الذين دوّن التاريخ سيرهم – اثنان منهم من شعراء الجاهلية والثالث من شعراء صدر الإسلام، وفيما يلي ترجمة كل منهم:

١) **علقمة بن عبدة التميمي**: وهو علقمة الفحل بن عبدة ابن ناشرة التميمي شاعر جاهلي مجيد من أقران امرئ القيس، مات قبل الإسلام بزمن طويل، وإنما قيل له الفحل من أجل أن يتميز في الأخبار من شاعر آخر في قبيلته أيضًا يسمى علقمة الخصي بن سهل، وكان يكنى أبا الوضَّاح، وقد أدرك الإسلام واعتنق الدين الإسلامي.

ويقال إن علقمة الفحل سمي «الفحل» لأنه خلف امرأ القيس على زوجته بعد أن طلقها لأنها فضلت علقمة عليه حين حكّماها في شعرهما.

ومن عيون شعره:

طحا بك قلبٌ في الحسانِ طروبَ
بُعَيْد الشباب عصر حان مشيبُ

يكلِّفني ليلى، وقد شطّ وَلْيُها
وعادت عَوَادٍ بيننا وخطوبُ

مُنعَّمةٌ، ما يُستطاع كلامِها
على بابها مِنْ أن تُزارَ رقيب

إذا غاب عنها البعلُ لم تَفْشِ سِرَّهُ
وتُرضي إيابَ البَعْلَ حين يؤوبُ

إلى أن يقول:

فإن تسألوني بالنساء فإنني
بصيرٌ بأدواء النساءِ طبيبُ

إذا شابَ رأسُ المرء أو قلَّ ماله
فليس له من وُدِّهِنَّ نصيبُ

يُرِدْنَ ثراء المال حيث عَلِمْنَهُ
وشرخُ الشباب عندهنَّ عجيبُ

فدعها! وسلِّ الهَمَّ عنكَ بِجَسْرةٍ
كَهَمِّكَ فيها بالرِّدافِ خَبِيْبُ

٢) سلامة بن جندل السعدي التميمي: كان شاعرًا جاهليًّا مجيدًا من فرسان تميم (انظر هذه المادة)، وشعره متين سلس صحيح الرواية، وكان معاصرًا لعمر بن هند والنعمان ابن المنذر، ومن شعره المصقول الذي ينعى به الشباب وأيامه هذه الأبيات:

أودى الشبابُ حميدًا ذو التعاجيب
أودى، وذلك شأوٌ غيرُ مطلوبِ

ولَّى حثيثًا، وهذا الشيب يتبعه
لو كان يُدركهُ ركضُ اليعاقيبِ

أودى الشباب الذي مجدٌ عواقبُهُ
فيه نَلَذُّ، ولا لذّاتِ للشيبِ

يومان يومُ مقاماتٍ وأنديةٍ
ويومُ سيْرٍ إلى الأعداء تأويبِ

هَمَّتْ مَعَدٌ بنا همًّا فَنَهْنَهَنَا
عنَّا طعانٌ فضربٌ غير تذبيبِ

بالمشرفيِّ ومصقولٍ أسنَّتُها
صُمِّ العواملِ صَدْقاتِ الأنابيبِ

يجلو أسنَّتَها فتيانُ عاديةٍ
لا مُقْرَفين ولا سودٍ جعابيبِ

إلى أن يقول:

إلى تميم حُماةِ العِزِّ نِسْبَتُهُمْ
وكلِّ ذي حَسَبٍ في الناسِ منسوبِ

قومٌ إذا صَرَّحَت كَحْلٌ بيوتُهُمُ
عِزُّ الذليل، ومأوى كلِّ قُرضوبِ

يُنجيهُمُ مِنْ دواهي الشر إن أزِمَتْ
صبرٌ عليها، وقبْضٌ غيرُ محسوبِ

٣) مالك بن الريب المازني التميمي: كان شاعرًا ولصًّا فاتكًا، نشأ في بادية تميم عند البصرة، وكان يقول الشعر الجيد، وينال الناس بالشر فيطلبه الولاة لمعاقبته فيولي هاربًا. وظلّ على هذه الحال إلى أن اتخذه سعيد بن عثمان بن عفان حينما كان واليًا على خراسان ضمن بطانته. وقد ولي سعيد ابن عثمان خراسان من قبل معاوية بن أبي سفيان أول خلفاء بني أمية في الشام (انظر مادة معاوية)، وعندما كان مالك التميمي عائدًا من خراسان صحبة سعيد بن عثمان مرض، فقال يذكر مرضه وغربته بهذه القصيدة، وهي من الشعر الجيد المتين، حسن التعبير:

ألا ليتَ شِعري هل أبيتنَّ ليلةً
بجَنْبِ الغَضَا أُرجي القِلاصَ النواجِيَا

فليت الغَضَا لم يقطع الركبُ عرضه
وليت الغضا ماشي الركابَ لياليَا

لقد كان في أهل الغضا لو دنا الغضا
مزارٌ ولكنَّ الغضا ليس دانيَا

ألم ترني بعتُ الضلالةَ بالهُدَى
وأصبحتُ في جيشِ ابن عفَّان غازيَا

دعاني الهوى من أهل أود وصُحْبَتي
بذي الطبَسَييْن فالتفُّ ورائيَا

أجبتُ الهوى لما دعاني بِزفرةٍ
تَقَنَّعْتُ منها أن ألامَ ردائيَا

إلى أن يقول في حسرة:

تذكرتُ من يبكي عليَّ فلم أجدْ
سوى السيفِ والرمحِ الرُّدَيْنيِّ باكيَا

وأشقر خنذيذ يجرّ عنانه
إلى الماء لم يترك له الدهر ساقيا

وذكر الشعراني في كتابه «الطبقات» أن هناك رجلاً يدعى سليمان التميمي كان يمشي حافيًا وله هيبة على السوقة وغيرهم من الناس، وكان يدخل على الأمراء دون خوف أو رهبة فيأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ولم يذكر الشعراني أية معلومات تدل على موطن هذا الرجل المتصوف أو تاريخ ميلاده ومكان وتاريخ وفاته.

٤٨٤- التنُّوخي - شارع - بقسم مينا البصل

يذكر المؤرخون اثنين يحملان لقب التنوخي، وفيما يلي ترجمة كل منهما:

١) أبو القاسم علي بن محمد بن أبي الفهم التنوخي: كان عالمًا من علماء المعتزلة، وبارعًا في علم النجوم، وقال عنه الثعالبي (انظر هذه المادة): إنه من أعيان أهل العلم والأدب موصوفًا بالكرم وحسن الشيم، وقال الصاحب بن عبّاد (انظر هذه المادة): إنه كان يقول عن نفسه: إن أردتُ فإني سبحة ناسك، وإن أحببتُ فإني تفاحة فاتك، أو اقترحتُ فإني مدرعة راهب، أو آثرت فإني نخبة شارب.

وقد تقلد القضاء بمدينة البصرة والأهواز بضع سنين، وحين صرف عنه قصد سيف الدولة الحمداني (انظر مادة سيف الدولة) زائرًا ومادحًا فأكرم وفادته، وكتب إلى السلطات في بغداد راجيًا إعادته إلى منصبه، فأعيد إلى القضاء، وزيد في رزقه ورتبته، وكان الوزير المهلبي (انظر هذه المادة) وغيره من رؤساء العراق يميلون إليه، ويتعصبون له، ويعتبرونه ريحانة القدماء ومؤرخ الظرفاء.

ومن جهة أخرى كان من جملة الفقهاء والقضاة الذين ينادمون الوزير المهلبي ويجتمعون عنده، ويقول ابن خلِّكان في كتابه «وفيات الأعيان»: إن اجتماع هؤلاء الفقهاء والقضاة كان يحدث ليلتين في الأسبوع، فيخلع المهلبي ورفاقه ثوب الوقار والحشمة ويتبسطون في سمرهم، وكل منهم ذو لحية بيضاء طويلة، فإذا تكامل الأنس وطاب المجلس ولذّ السماع أخذ الطرب منهم كل مأخذ وتقلبوا في أعطاف العيش بين الخفة والطيش، ثم يوضع في يد كل منهم طاس ذهب

كبير مملوء شرابًا فيغمس لحيته فيه حتى تشرب أكثره ويرش بها بعضهم بعضًا، ثم يرقصون وعليهم المصبغات، ومخانق المنثور والمبرم، فإذا أصبحوا عادوا إلى وقارهم وتحفظهم بأبهة القضاة وحشمة المشايخ الكبراء.

وما من شك في أن القاضي التنوخي قال الأبيات التالية في وصف إحدى هذه الليالي الحمراء:

وَليلةِ مُشتاقٍ كأنَّ نجومَها
قد اغتصبتْ عَيْنَ الكرَى، وهي نُوَّمُ

كأنَّ عيونَ الساهرينَ لطولها
إذا شَخَصتْ للأنجمِ الزُّهْرِ أنْجُمُ

كأنَّ سوادَ الليل، والفجرُ ضاحكٌ
يَلوحُ ويخفَى، أسودٌ يتبسَّمُ

وقال فيها أيضًا:

وراح من الشمس مخلوقة
بَدَتْ لك في قدحٍ مِنْ نَهار

هواءٌ ولكنَّهُ جامدٌ
وماءُ ولكنَّه غير جار

كأنَّ المدير لها باليمين
إذا مال للسقْيِ أو باليَسَار

تدرَّع ثوبًا من الياسِمين
له فَرْدُ كُمٍّ من الجُلنار

وكان التنوخي مبدعًا في الوصف، فاستمع إليه يصف الليل والنجوم بهذه الأبيات العذبة الجرس الحلوة السياق والتشبيه:

رُبَّ ليلٍ قطعته كصدودٍ
وفراقٍ ما كان فيه وداعُ

مُوْحِشٍ كالثقيلِ تقْذَى به العَـ
يْنُ، وتأبَى حديثُه الأسماعُ

فكأنَّ النجوم بين دُجاهُ
سُنَنٌ لاحَ بينَهُنَّ ابتداعُ

وكأنَّ السماءَ خَيْمَةُ وَشْيٍ
وكأنّ الجَوْزاءَ فيها شِراعُ

كان ليْلاً فصيَّرْتُهُ نَهارًا
كتبٌ تكْبِتُ العِدا وَرِقاعُ

ولقب التنوخي يرجع في نسبته إلى قبيلة تنوخ القضاعية التي نزحت من وسط الجزيرة العربية إلى البحرين، وكان جدّ أبي القاسم التنوخي الأكبر أحد ملوك قبائل تنوخ الأقدمين.

وعندما وفد على مدينة بغداد تفقه بها على مذهب أبي حنيفة وسمع الحديث، ثم انضم إلى مذهب المعتزلة، وكانت ولادته بمدينة أنطاكية يوم الأحد ٢٦ من ذي الحجة

عام ٢٧٨هـ (٨٩١م) وتوفي بمدينة البصرة يوم الثلاثاء ٧ من ربيع الأول عام ٣٤٢هـ (٩٥٣م)، بالغًا من العمر حوالي ٦٣ عامًا، ودفن في تربة اشتريت له بشارع البريد.

٢) القاضي أبو علي المحسِّن بن أبي القاسم علي بن محمد بن أبي الفهم التنوخي: هو ابن صاحب الترجمة السابقة، ولد عام ٣٢٩هـ (٩٤٠م) بمدينة البصرة، كما جاء في معجم ياقوت (انظر مادة ياقوت الحموي)، وتلقى العلم أول الأمر بمسقط رأسه على يد أبي العباس الأثرم وأبي بكر الصولي وأبي الفرج الأصفهاني (انظر مادة الصولي ومادة أبي الفرج) وغيرهما، وآثر الاشتغال بالقضاء فوليه في بغداد ثم في الأهواز.

ولما تغيرت الوزارة في بغداد صرف عن منصبه عام ٣٥٩هـ (٩٦٩ - ٩٧٠م) وصودرت أمواله، ومنع من القضاء ثلاث سنوات، ويظهر أنه قضى هذه الفترة في بغداد، ثم رحل إلى مصر، وأعيد بعد ذلك إلى القضاء ولكن الجفوة دبَّت بينه وبين عضد الدولة البويهي عام ٣٧١هـ (٩٨١م) لدرجة أنه قيل في بعض المراجع إنه سجن بعض الوقت لتحقيره الإمام الشافعي وتلاميذه.

ولقد احتمل أبو علي التنوخي الكثير من الشدائد والاضطهاد قبل وفاته ببغداد عام ٣٨٤هـ (٩٩٤م) عن ٥٥ عامًا.

ومن الكتب التي صنفها ديوان يضم أشعاره لم تصل منه أية نسخة للقراء، وثلاثة كتب في القصص هي: كتاب «نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة»، و«المستجاد من فعلات الأجواد»، و«الفرج بعد الشدة»، وهو أشهر كتبه، وقد صنفه بعد عام ٣٧٤هـ (٩٨٤م) وهو عبارة عن مجموعة أمثال وقصص وأقوال في الفرج بعد الشدة، وقد استفاد التنوخي في تأليف هذا الكتاب من مصنفات ابن أبي الدنيا والقاضي أبي الحسين ومن كتب الأدب، كما اعتمد على روايات غير مدونة، وعلى ما كتبه أبوه وأساتذته، واستهل هذا الكتاب بمقدمة وجيزة في تاريخ الأدب نقد فيها مؤلفات من سبقوه وقسم كتابه أربعة عشر فصلاً بحسب موضوع القصة أو أسلوبها.

وصادف الكتاب قبولاً حسنًا، وذاع ذيوعًا كبيرًا، ونسخ مرات عدة، وكان له في الأزمنة المتقدمة والمتأخرة شأن في آداب الفرس والترك.

٤٨٥- توتونجي - شارع - بقسم اللبان

هو بشير بن جورج توتونجي، ولد بمدينة حلب بالشام عام ١٨٧٨م (١٢٩٦هـ)، ولقب توتونجي من الألقاب التركية التي كانت تطلق طوال عهد الدولة العثمانية بالبلاد العربية وطوال عهد المماليك في مصر والشام على من يزاول تجارة التبغ والتمباك أو من يتولى تحضير وتقدم الأرجيلة (الشيشة) أو المباسم الطويلة التي يدخن فيها التبغ في قصور وسرايات الملوك والسلاطين والأمراء، وكبار أعيان الدولة وكبار موظفيها، وما من شك في أن أحد أجداد بشير كان يزاول تجارة التبغ والتمباك أو كان توتونجيًّا لدى أحد العظماء فاكتسب هذا اللقب.

ورحل بشير توتونجي إلى الإسكندرية، وعمل موظفًا عند أحد تجار المواد الحديدية، ثم حصل من كدّه على رأسمال استطاع به أن يتخذ له متجرًا لبيع الحديد والصاج في الشارع

الذي يحمل اسمه بقسم اللبان، وكان يسمى قبلاً (شارع لوران).

وكان بشير يجيد اللغة العربية ويلم إلمامًا كافيًا باللغة الفرنسية، وكان على مذهب الروم الكاثوليك ويمد يد المساعدة لجمعيات هذه الطائفة ويساعد الكثير من الفقراء دون تمييز بين الأديان، وتوفي بالإسكندرية عام ١٩٤٣م (١٣٦٢هـ) بالغًا من العمر ٦٥ عامًا، وكان له أخ يدعى جوزيف توتونجي مازال متجره في المصوغات الذهبية والمجوهرات بشارع صلاح سالم (شريف باشا سابقًا) أمام مبنى بورصة الأوراق المالية الذي خصص الآن لإدارة ومكاتب الاتحاد الاشتراكي العربي.

وقد أمم محل جوزيف توتونجي ويعمل السيد ألبير توتونجي ابن بشير توتونجي موظفًا بالمحل تابعًا للقطاع العام.

٤٨٦- التهامي - حارة - بقسم المنشية

هو أبو الحسن علي بن محمد التهامي، كان شاعرًا مشهورًا، وأصله من تهامة التي تطلق على مدينة مكة ولذلك قيل لرسول الله محمد عليه الصلاة والسلام (التهامي) لأنه من مكة، كما تطلق على ما انخفض من الأرض عن الحجاز إلى البحر الأحمر، وقيل أيضًا أنها اسم لجبال تهامة وبلادها، وهي رقعة متسعة بين الحجاز وأطراف اليمن، ولا يعرف إذا كانت نسبة التهامي التي يلقب بها شاعرنا ترجع إلى مدينة مكة أو إلى منطقة تهامة الآنفة الذكر.

وقد وصف ابن بسّام (انظر هذه المادة) الأندلسي الشاعر التهامي في كتابه «الذخيرة» بأنه «كان مشتهر الإحسان، ذرب اللسان، يدل شعره على فوز القدح دلالة النسيم على الصبح، ويعرب عن مكانه من العلوم إعراب الدمع عن سر الهوى المكتوم».

وللتهامي ديوان صغير الحجم أكثره منتخبات من أحسن قصائده، وقد جاب الأقطار وطوَّف البلاد ومدح الرؤساء في العراق والشام وباديتها وأقام بينهم، ثم جاء جاسوسًا لأحد أمراء الشام على الفاطميين في القاهرة فوصلها متخفيًا ومعه كتب كثيرة من هذا الأمير ومن حسّان بن مفرج بن دغفل البدوي تدل على التجسس فقبضوا عليه فقال إنه من بني تميم ولكن أمره وضح بعد ذلك وعرف أنه التهامي الشاعر وسرعان ما ألقي في سجن خزانة البنود بالقاهرة في ٢٦ من ربيع الآخر عام ٤١٦هـ (١٠٢٥م) ثم قتل سرًّا في سجنه في اليوم التاسع من شهر جمادى الأولى من العام نفسه.

وشعره طريف مليح جزل العبارة، عذب الجرس يدوّي المعاني والأسلوب، وقد اشتهر بنوع خاص بمرثيته التي قالها في ولده الذي مات صغيرًا، والتي أولها الحكمة المشهورة في الأبيات التالية:

حُكْمُ المنيةِ في البريةِ جارِ
ما هذه الدنيا بدارِ قرارِ

بَيْنَا يُرَى الإنسانُ فيها مُخبِرًا
حتى يُرَوى خبرًا من الأخبارِ

طُبِعَتْ على كدرٍ، وأنتَ تُريدها
صفوًا من الأقذارِ والأكدارِ

ومكَلِّفُ الأيامَ ضدَّ طِباعِها
مُتطلِّبٌ في الماءِ جَذوةَ نارِ

فالعيشُ نومٌ والمنيةُ يقظةٌ
والمرءُ بينهما خيالٌ سارِ

والنفسُ إنْ رَضِيتْ بذلك أو أبتْ
مُنقادةٌ بأزِمَّةِ الأقدارِ

فاقْضوا مآربَكم عجالاً إنما
أعمارُكم سَفرٌ من الأسفارِ

وتراكضوا خيلَ الشباب وحاذِروا
أن تُسْترَدّ فإنَّهُنَّ عَوَارِ

فالدهرُ يخدع بالمنَى ويُغِصُّ إنْ
هَنَّى، ويهدمُ ما بنى ببوارِ

ليسَ الزمانُ وإن حَرِصْت مُسالِمًا
خُلُقُ الزمانُ عداوةُ الأحرارِ

ثم يتطرق إلى رثاء ولده الصغير فيناجيه قائلاً:

يا كوكبًا ما كان أقصرَ عمرَه
وكذاك عمرُ كواكبِ الأسْحارِ

ويفصح بعد ذلك حزنه المكبوت فيقول:

فكأنَّ قلبي قبرُهُ، وكأنَّه
في طيِّهِ سِرٌّ من الأسرارِ

ويعود بعد ذلك إلى فلسفته في الحياة فيقول: إن ولده كان موفقًا في ترك هذه الدنيا الخبيثة اللئيمة ويذم أعداءه في الوقت نفسه:

أبكيهِ، ثم أقولُ مُعْتَذِرًا له:
وُفِّقْتَ حِيْنَ تركتَ أَلْأَمَ دارِ

جاورْتُ أعدائي، وجاورَ ربَّهُ
شَتَّان بين جِوارِهِ وجِوارِي

وكان إذا مدح بالغ في مدحه، ومن نظمه في هذا الباب:

أعطى وأكثر فاستقل هباته
فاستحيت الأنواء وهي هوامل

وقال يمدح الوزير أبا القاسم ابن المغربي بقصيدة طويلة منها قوله:

قلتُ لخلِّي وثغور الرُّبا
مُبْتَسماتٌ وثغورُ المِلاحْ

أيهما أحْلى – تُرَى – مَنظرًا؟
فقال: لا أعلم ! كلٌّ أَقاحْ

ولم يتيسر لي معرفة تاريخ ميلاده ومكانه.

٤٨٧- تيبير - شارع - بقسم سيدي جابر (محمود أحمد يوسف حاليًا)

اسمه اللاتيني الكامل «تيبيريوس كلوديوس Tiberius Claudius»، وصار اسمه في التاريخ باللغة الفرنسية «تيبير Tibère»، وهو ابن «ليفي Livie» وتبناه الإمبراطور أغسطس (انظر مادة أوكتافيان - أغسطس)، وقد تولى الحكم بعده فصار الإمبراطور الثاني للدولة الرومانية، وذلك في عام ١٤م.

وتدل سيرة «تيبير» على أنه كان ماهرًا في سياسته، ذكيًّا مستنيرًا وحازمًا، وقد تمسك بهذه الصفات الحميدة في أوائل عهده بالحكم، ثم داخلته الشكوك والظنون الباطلة إلى أبعد حد، فعمد إلى القسوة المتناهية التي لا تقف عند رابط يوقف بشاعتها، هذا فيما يتعلق بسياسته المتعلقة بداخل بلاده، أما سياسته الخارجية فقد اتسم حكمه بالانتصارات الباهرة، فانتقمت بعثاته العسكرية من الفوضى التي أحدثتها الاضطرابات التي أشعل نارها «فاريوس Varus» في ألمانيا، ومن ثَمّ استطاع «تيبير» العمل على استقرار النظام والأمن في إمبراطوريته، ومن الناحية الاقتصادية تمكن من تكديس حوالي ستمائة مليون بخزانة الدولة.

وأدى طمع وزيره «سيجان Sejan» الذي تآمر دون علمه على قتل ولي العهد «دروزوس Drusus» إلى تحول الإمبراطور «تيبير» من الحكم المتزن الحصيف إلى الحكم القاسي المليء بالجرائم الشنيعة، وقد أمر «تيبير» بخنق وزيره «سيجان» عام ٣١م بسبب أطماعه ودسائسه الإجرامية بغية الوصول إلى السلطة المطلقة العليا.

ومات الإمبراطور «تيبير» عام ٣٧م بعد أن حكم حوالي ٢٤ سنة.

أما ترجمة صاحب اسم الشارع الجديد فاطلبها في (محمود أحمد يوسف).

٤٨٨- تيتو باشا - شارع - بقسم الرمل (مصطفى صادق الرافعي حاليًا)

تجد ترجمة تيتو باشا في الشارع الذي مازال باسمه في قسم محرم بك، وهو يأتي بعد الشارع الذي نحن بصدده مباشرة.

أما ترجمة صاحب الاسم الجديد فاطلبها في (مصطفى صادق الرافعي).

٤٨٩- تيتو باشا - شارع - بقسم محرم بك

هو ابن يوسف هككيان بك الأرمني الجنسية الذي تعلم في المدارس المصرية، ثم أرسل إلى إنجلترا لتعلم الفنون والأعمال الهندسية، وقبل أن يتم تعليمه استقدمه محمد علي بسبب فشل بعض الأعمال الهندسية بدار الصناعة (الترسانة) بالإسكندرية، فالتحق بخدمة الحكومة عام ١٨٣٥م (١٢٥١هـ)، ثم صار ناظرًا لمدرسة المهندسخانة، ولدى إنشاء مجلس ديوان المعارف في ١٨٣٦م (١٢٥١هـ)، ثم صار ناظرًا لمدرسة المهندسخانة، ولدى إنشاء مجلس ديوان المعارف في ١٨٣٦م (١٢٥٢هـ) برياسة مصطفى مختار بك (انظر هذه المادة)، كان هككيان أحد أعضائه ثم عين بعد ذلك ناظرًا لمدرسة العمليات، ومنح رتبة البكوية وتقلب في مناصب أخرى إلى أن أحيل على التقاعد، وأدركته الوفاة،



فيللا تيتو باشا

وقد تزوجت ابنة هككيان من لينان باشا (انظر هذه المادة) المهندس الفرنسي المشهور والد فون لينان بك الذي كان مستشارًا للحكومة المصرية.

وتيتو باشا كان أحد أعيان الجالية الأرمنية بالإسكندرية، ومات بعد نهاية الحرب العالمية الأولى ببضع سنين.

٤٩٠- التيجاني - شارع - بقسم مينا البصل

لقب التيجاني تحريف لقب التِّجاني الذي يحمله اثنان ممن دوَّن التاريخ سيرة حياتهم، وأولهما في ترتيب وجوده بقيد الحياة كاتب ورحَّالة تونسي، وثانيهما صاحب طريقة صوفية هي (التجانية - أو التيجانية)، كما هي مشهورة الآن، وفيما يلي ترجمة كل منهما:

١) **أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني**: ولد بمدينة تونس في تاريخ يقال إنه يقع في الفترة ما بين عامي ٦٧٠ و٦٧٥هـ (١٢٧٢ - ١٢٧٦م)، وكانت تونس في ذلك الحين عاصمة دولة الحفصيين التي أقيمت بالقطر التونسي (إفريقية) في شرق القطر الجزائري خلال عام ٦٢٤هـ

(١٢٢٧م) واستمر حكمها حتى عام ٩٨٢هـ (١٥٧٤م) أي أكثر من ثلاثة قرون ونصف القرن.

وتدل بعض المصادر التاريخية على أن التجاني من أصل جزائري إذ نزحت أسرته إلى مدينة تونس مع جيش الموحدين في أواسط القرن السادس الهجري، وكان والده وجده وأبناء عمومته من أهل العلم والأدب، ومن ثم نشأ هو في بيت عرف للعلم قيمته وتلقى معارفه الأولى على يد أبيه، وكانت للأسرة مكتبة حافلة بكتب الفقه والأدب والشعر والتاريخ، علاوة على أن مدينة تونس كانت مركزًا ثقافيًّا كبيرًا في ذلك الوقت، ومن ثمّ أتيحت الفرصة للتجاني لينهل من موارد المعرفة ما أراد.

وفي عهد الأمير الحفصي أبو زكريا بن أبي العباس أحمد اللحياني الذي استولى على حكم تونس عام ٧١١هـ (١٣١١م) اختير التجاني كاتبًا خاصًّا لهذا الأمير الذي كان قد أخذه معه وهو مازال أميرًا حينما خرج من تونس لتفقد شؤون الدولة، وكان ذلك في أواسط شهر جمادى الأولى سنة ٧٠٦هـ (١٣٠٧م)، وبعد أن وصل الركب إلى طرابلس، والإقامة فيها بعض الوقت اتجه اللحياني إلى الشرق لأداء فريضة الحج، وعاد التجاني إلى تونس، وكانت إقامته بطرابلس سنتين وثمانية أشهر.

وعندما عاد اللحياني من الحج لم يرجع إلى تونس بسبب الفوضى التي كانت تخيم على جوها فاستقر بطرابلس يرقبُ الأمور إلى أن انتهز الفرصة، وهاجم تونس في شهر رجب عام ٧١١هـ كما تقدم القول، ولما وجد أنه من العسير السير بالأمور إلى نهايتها ترك البلاد والسلطان، وارتحل إلى الإسكندرية حيث توفي عام ٧١٧هـ (١٣٢٦م).

وفي عهد ابن اللحياني تولى التجاني رياسة ديوان الرسائل، فباشر مهام هذا المنصب على خير، وأخذ يخدم البلاد بعمله وعلمه وقلمه ويؤلف التصانيف المفيدة إلى أن عقد مخدومه العزم على مغادرة تونس.

ويقال إن التجاني وأفراد أسرته لقوا حتفهم قتلاً عندما انتصر أبو يحيى أبو بكر على ابن اللحياني خلال عام ٨١٧هـ (١٣١٨م) وذلك بعد استيلائه على ميناء (بجاية) بالقطر الجزائري مما سهل عليه الزحف السريع على إفريقية (تونس) والاستيلاء عليها في يسر.

وكانت المدة التي قضاها التجاني في صحبة الأمير الحفصي أبو زكريا بن أبي العباس أحمد اللحياني في رحلته خيرًا وبركة على الأدب والتاريخ، فقد كان التجاني يدوِّن أخبارها وآثارها ويسجل مشاهداته ويعبر عن انطباعاته بلغة أنيقة وديباجة مشرقة وأسلوب واضح وبيان فصيح من الاهتمام بالتاريخ.

فهو إذا تحدث عن عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية في تونس استعرض تاريخ هذه الدولة وتاريخ مدينة المهدية، وكان – إلى جانب ذلك – مغرمًا بتراجم أهل الأدب فيدوّن سير حياتهم وآثارهم من نثر وشعر، ويذكر الرسائل التي كانت ترد إليه المنظوم منها والمنثور كما يذكر رده عليها نثرًا أو شعرًا.

وكان طريق رحلته على النحو التالي: خرج مع الجمع من تونس إلى سوسة، ثم اتخذ الركب طريقًا داخليًّا إلى الجم ثم إلى صفاقس فقابس، ثم زارت الجماعة توزر وعادت إلى قابس فنجفت حيث عرجت على جزيرة جربة ورجعت

إلى عمراسن في الداخل، وعند عودته اتخذ التجاني الطريق القريب من الساحل.

وتبدأ رحلته التي دوَّن مراحلها في كتابه المسمى «الرحلة» من مدينة تونس في أواسط شهر جمادى الأولى عام ٧٠٦هـ، كما تقدم القول، وفي شهر المحرم عام ٧٠٩هـ (يونية ١٣٠٩م) اضطر التجاني إلى التخلف عن ركب الأمير اللحياني لمرض ألزمه العودة إلى تونس، وكان الركب لم يتجاوز بعد طرابلس ومع ذلك فقد طال مقامه في كل موضع من مواضع هذا السفر، فواتاه ذلك كالمؤاتاة على كتابه «وصف الرحلة»، ولقد استطاع أن يفيض وصفًا وبيانًا لكل طريف يلفت النظر في بلاد تعد بالقياس إلى غيرها ضيقة الرقعة محدودة الأطراف، ومن ثَمّ كان كتاب «الرحلة» وصفًا يزخر بالمعلومات الجغرافية، ومباحث الأجناس البشرية والتاريخ الطبيعي وبخاصة الأخبار التاريخية عن البلاد التي اجتازها، وينطوي الكتاب أيضًا على نبذ منقولة عن مؤلفين عدة تعتبر مؤلفاتهم في حكم المفقودة، ويشتمل بصفة خاصة على صور أحكام ووثائق، ومن المؤسف أن التجاني لم يضمن كتابه وصفًا لمدينة تونس في ذلك العهد.

ولا وجود لكتاب (الرحلة) في طبعة كاملة حتى اليوم، وتوجد أجزاء هامة من الكتاب أوردها المستشرق «م. أماري M. Amari» في مجموعته المسماة بالمكتبة الصقلية، والكتاب الآخر للتجاني هو رسالة موجزة جامعة في الحب والزواج، والكتاب في خمسة وعشرين بابًا يسدي فيها النصح والرأي في شأن اختيار الزوجة مع وصف مفصل لمعالم الجمال وشاراته مرتبة وفاقًا لأجزاء الجسم، ثم يرشد إلى وجه الرأي في معاملة المرأة ويدلي بتفصيلات عن الحياة الزوجية، ويذهب إلى تعيين ما يزيد في متاعها، وهذا جميعه في سياق من الأحاديث المأثورة وشواهد من المؤلفين يوردها مرتبة على حسب زمانهم، وهو يكثر من الاستشهاد بأقوال المشايخ والفقهاء.

يُعَدُّ هذا الكتاب من الكتب التي تعالج علم الأخلاق أكثر من كونه كتابًا في الفقه، ومن كتبه الأخرى كتاب (تحفة العروس ونزهة النفوس).

ولقد قام الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب بطبع الأجزاء الموجودة من كتاب (الرحلة) خلال عام ١٩٥٨م، باسم (رحلة التجاني).

وتاريخ وفاة أبي محمد التجاني غير معروف، وكذلك تاريخ ميلاده.

٢) أبو العباس أحمد بن محمد بن المختار بن سالم التجاني (أو التجيني): وهو منشئ الطريقة الصوفية (التجانية) التي تحمل اسمه حتى الآن، وقد ولد في عين ماضي عام ١١٥٠هـ (١٧٢٧م) وهي قرية على مسيرة ٧٢ كيلو مترًا غربي الأعواط الواقعة عند مشارف الصحراء الكبرى في جنوب القطر الجزائري، وينتسب التجاني إلى أولاد سيدي شيخ محمد، وفي عام ١١٦٦هـ (١٧٥٣م) فقد أبويه إثر وباء الطاعون الذي انتشر في البلاد خلال تلك السنة، وكان قد بلغ السادسة عشرة من عمره، وتنتمي أسرته بالأصل إلى بني توجين أمراء تاهرت الواقعة في الجنوب الشرقي من ميناء مستغانم، وفي الجنوب الغربي من مدينة الجزائر، وقد سمّاها الفرنسيون «تيارت Tiaret» وتعرف بهذا الاسم حتى الآن.

وتلقى التجاني العلم في أول نشأته بعين ماضي مسقط رأسه وأكمل تعليمه في مدينة فاس بالمغرب الأقصى عام ١١٧١هـ (١٧٥٨م) ثم رحل إلى مدينة تلمسان، وذهب منها إلى «أبيض» حيث أقام خمس سنين، وفي عام ١١٨١هـ (١٧٦٨م) رجع إلى مدينة تلمسان، ثم رحل منها إلى مكة والمدينة المنورة عام ١١٨٦هـ (١٧٧٣م)، وفي ذلك العام نفسه سافر إلى القاهرة، وقد تلقى العلم في هذه البلاد على عدد من الشيوخ.

وفي القاهرة أنشأ – بمشورة رجل يدعى محمود الكردي – طريقته الصوفية بعد أن كان قد انخرط في الطريقة القادرية والطيبية والخلوتية، وتعتبر طريقته التجانية (أو التيجانية) فرعًا من الطريقة الخلوتية.

ولما عاد إلى عين ماضي التف حوله كثير من المريدين والأتباع، ولخوفه من غائلة الحكومة الجزائرية في ذلك الحين انتقل بأهله وأولاده إلى مدينة فاس بالمغرب الأقصى في عهد السلطان مولاي إسماعيل العلوي الملقب بأبي الربيع، ثم رجع إلى مدينة تلمسان بالجزائر وتوجه بعد ذلك إلى بوسمفون في الصحراء الكبرى عام ١١٩٦هـ (١٧٨٢م) وهي واحة جنوبي «جريفل Geryville» حيث زعم أنه مبعوث النبي عليه الصلاة والسلام ليذيع طريقته على الناس، وهذا الزعم نلاحظه على لسان معظم الأولياء الصوفيين ليحيطوا طريقتهم بهالة من القدسية خُدع بها كثير من عامة الشعوب، ولاسيما أولئك الذين لا ترقى عقولهم إلى تمحيص الأمور ورفض ما لا يتفق منها مع المنطق الصحيح والعقل الراجح.

وأشار عليه أحد تلاميذه المدعو (علي حرازم) بالعودة إلى مدينة فاس، فحلّ بها عام ١٢١٣هـ (١٧٩٨م) واستطاع الحصول على القصر المعروف (بحوش المرايات) فاتخذ منه مكانًا لإقامته الدائمة، وقضى الشطر الأكبر من حياته بعد ذلك في الرحلات لتنظيم شؤون طريقته، وظلت مدينة فاس مقره الرئيسي إلى أن وافته المنية عام ١٢٣٠هـ (١٨١٤ – ١٨١٥م)، ودفن بزاوية بتلك المدينة بالغًا من العمر حوالي ثمانين عامًا.

ويسمى أصحاب الطريقة التجّانية بالأحباب، وقد حُرِّم عليهم الانخراط في أية طريقة أخرى صوفية، ويقوم الذكر عندهم في العادة على ترديد عبارات محددة مائة مرة، وذلك في أوقات معينة من كل يوم، وأخص ما يدينون به الولاء لأية حكومة تقوم على الحكم، وتنفيذًا لهذا المبدأ القائم على الخنوع ظلَّ أتباع الطريقة التجّانية في الجزائر على صلات طيبة بالسلطات الفرنسية بعد الاحتلال الفرنسي الغاصب للقطر الجزائري عام ١٨٣٠م (١٢٤٦هـ)، وهكذا يكون التصوف على هذا المنوال تدمير الروح المعنوية.

وعقب موت أبي العباس التجاّني في فاس تولى الوصاية على ولديه: محمد الكبير ومحمد الصغير، محمود بن أحمد التونسي وخلفه في هذه الوصاية الحاج علي بن عيسى شيخ الزاوية التجانية في «تماسين» وكان أبو العباس التجاني قد رشحه لمشيخة الطريقة بعد وفاته.

ولما احتل الأمير يزيد بن إبراهيم قصر أبيهما المعروف بقصر المرايات في فاس رحل بهما الحاج علي بن عيسى إلى عين ماضي مسقط رأس والدهما وتركهما هناك ردحًا من

الزمن يشرفان على شؤون زاوية الطريقة وعاد هو إلى تماسين ، ويظهر أنه حدث خلاف في الرأي بين أتباع الطريقة التجّانية ، وأن هذا الخلاف قام في حياة صاحب الطريقة نفسه مما أدى إلى طرد الذين عرفوا «بالتجاجنة» من عين ماضي .

وفي عين ماضي نجح محمد الكبير ومحمد الصغير في جمع أتباع الطريقة حولهما فخشيت الحكومة التركية سطوتهما وتوقعت خروجهما على طاعتها ، وفي عام ١٢٣٥هـ (١٨٢٠م) طلب التجّانية العون والمساعدة المالية من «حسن باي» حاكم وهران في ذلك الحين ، فما كان منه إلا أن حاصر عين ماضي ، ولكنه فشل فيما حاول من هجوم فارتد عن القرية ، وبعد عامين من ذلك التاريخ هاجم «بايت تري» عين ماضي ، ولكنه لم يفلح ، فشجع فشل هذه المحاولات محمد الكبير ومحمد الصغير على مهاجمة الترك في مدينة «معسكر» الكائنة في الجنوب الشرقي من ميناء وهران ، ولكنهما فشلا في كل الهجمات التي شناها على هذه المدينة في عامي ١٢٤١ و ١٢٤٢هـ (١٨٢٦ – ١٨٢٧م) ، وقد قتل في المحاولة الأخيرة محمد الكبير الذي كان قد ذهب إلى الحج في عام ١٢٤٠هـ (١٨٢٤م) وعند عودته قبض عليه حاكم مدينة قسطنطينة بإيعاز من «الداي الحسين باشا» ، غير أنه أفلح في الإفلات من الاعتقال ، وعاد مسرعًا إلى عين ماضي حيث دعا الناس إلى طاعته والخروج على الحكومة التركية ، وبعد أن أعد جيشًا من مريدي الطريقة وأتباعها خلال عام ١٢٤١هـ (١٨٢٦م) ، قصد هو وأخوه محمد الصغير مدينة معسكر يعاونهما رجال من الدرقاويين وخلق كثير من الناس المتطوعين .

وخرج «حسين باي» والي مدينة وهران لملاقاة هذا الجيش الكبير ، والتحم الجيشان بجهة «غريس» عند المصاف وأسفرت المعركة عن تقهقر التجّانية والدرقاوية بسبب تخلي معظم الذين انضموا إلى جيشهما في نواحي مدينة معسكر عن القتال ، والدرقاوية طريقة صوفية جزائرية كان لرجالها بطولات فذة في محاربة الفرنسيين في صفوف جيوش الأمير عبد القادر ، فاستحقوا ثناء التاريخ على مر الأجيال .

ولم يركن محمد الكبير إلى الفرار من ميدان القتال وصمم على منازلة خصومه الأتراك وأعوانهم هو وثلثمائة من مريدي الطريقة المخلصين الذين ينتمون إلى قبيلة الأرباع ، ويذكر الأمير محمد بن الأمير عبد القادر بن محيي الدين البطل الجزائري في كتابه «تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر» أنهم عقلوا أنفسهم كما تعقل الإبل ، وقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم وبعث «الباي حسين» حاكم وهران برأس محمد الكبير إلى الجزائر فعلقت على بابها ، وأرسل الداي سيفه إلى السلطان محمود الثاني سلطان تركيا ، وكان ذلك في سنة ١٢٤٢هـ (١٨٢٧م) كما تقدم القول .

وتولى مشيخة الطريقة التجانية أخوه محمد الصغير فشرع في نشر الدعوة إليها من جديد في قرية عين ماضي ، ثم اتسع نطاق هذه الدعوة فشمل الصحراء الكبرى والسودان بإرشاد علي بن عيسى ، وكللت جهوده بالنجاح .

ولما كانت تعاليم الطريقة ومعتقداتها تحض على الولاء للحكومة القائمة فقد ظلّ أتباعها على صلات ودية مع السلطات الفرنسية بعد غزو الجزائر ، ولذا نراهم لا ينهضون لمعاونة المجاهدين الدرقاويين لمواصلة الجهاد ضد الفرنسيين

في أول مراحل الاحتلال، وذلك على الرغم من ثراء إدارة طريقتهم مما كان مشايخها يجمعونه من أرزاق المريدين والأتباع على غرار مشايخ الطرق الصوفية حتى الآن، كما أبوا أن يمدوا يد المساعدة للأمير البطل عبد القادر بن محيي الدين في حربه المقدسة البطولية ضد الغاصبين لبلاده، وذلك في عام ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م)، إذ حاول ضمهم إلى جيشه الباسل ولكن شيخهم آثر أن يحيا حياة وادعة زاعمًا أنها الحياة الدينية الحقة ناسيًا أن الجهاد في سبيل الله وفي سبيل العروبة والدين من أسس الشريعة الإسلامية.

واستمرت المراسلات بين الأمير عبد القادر وبين شيخ التجّانية زمنًا طويلاً في غير طائلة، فتقدم الأمير عام ١٢٥٤هـ (١٨٣٨م) على رأس جيش إلى أسوار عين ماضي وطلب من شيخ التجانية التسليم، فرفض وقاوم جيش الأمير ثمانية أشهر بدلاً من أن يعاونه على استرداد حقوق البلاد من الغزاة الفرنسيين.

ولما تبين لشيخ التجّانية أن عين ماضي لا تقوى على المقاومة طويلاً لجأ إلى الأغواط وحرض أفراد طريقته على استمرار القتال ضد جيش الأمير عبد القادر متجاهلاً أن مبادئ الدين الإسلامي تأمر بالجهاد ضد كل من يعتدي على أي جزء من البلاد الإسلامية.

ولا يمكن تفسير قتال محمد التجّاني الكبير هو والمخلصون من أتباعه حتى الموت في نواحي مدينة معسكر إلا أنه كان فورة شخصية ضد الترك أدت إلى مخالفة تعاليم الطريقة في هذه المعركة، ولو كانت غير ذلك لانضم شيخها محمد الصغير وأتباعه ومريدوه إلى جيش الأمير عبد القادر للقتال ضد الفرنسيين على غرار أتباع الطريقة الدرقاوية البواسل الذين رافقوا الأمير في كافة أطوار جهاده الوطني حتى اضطر إلى التسليم في ٢٢ من ديسمبر عام ١٨٤٧هـ (١٢٦٤م).

ولم يقتصر شر أتباع الطريقة التجّانية على محاربة جيش الأمير عبد القادر، فتعداها إلى تقديم المساعدة المالية في عام ١٢٥٦هـ (١٨٤٠م) إلى المرشال الفرنسي «فاليه» ضد مواطنهم الأمير البطل، وسكت علي بن عيسى، الذي ظل قابعًا في زاوية تماسين، عن إبداء أية مناهضة للاحتلال الفرنسي، وعند موته عام ١٢٦٠هـ (١٨٤٤م) تولى مقاليد الطريقة محمد الصغير ابن أبي العباس التجّاني، وعقب موته في عام ١٢٧٠هـ (١٨٥٤م) خلفه محمد العابد حفيد علي بن عيسى، ومات العابد عن ولدين صغيرين هما: أحمد والبشير، فكفلهما رجل من أتباع الطريقة يدعى «ريّان المشري» الذي سعى إلى فصل زاوية عين ماضي عن زاوية «تماسين»، فأدى ذلك إلى الشقاق بين أتباع الزاويتين.

وفي عام ١٢٨٦هـ (١٨٦٩م) اتهم الولدان بأنهما لا يضمران الولاء لفرنسا، فقبض عليهما وأرسلا إلى مدينة الجزائر، بيد أنهما أفلحا في مهادنة السلطات الفرنسية على غرار شيوخ الطريقة الآخرين، ومن ذلك الحين احتفظ شيوخ التجّانية بصداقتهم وإخلاصهم التام للسلطات الفرنسية.

ووجدت الطريقة التجّانية (أوالتيجانية) أتباعًا ومريدين في مصر وفي الجزيرة العربية وفي بعض بلدان آسيا، ولكن انتشارها على نطاق واسع كان في المستعمرات الفرنسية بالقارة الأفريقية بصفة خاصة، ويرجع السبب في ذلك الانتشار إلى الداعي محمد الحافظ بن مختار بن الحبيب الملقب بالبدّي الذي

تلقى الأمر بنشر الدعاية للطريقة من منشئها أبي العباس التجاني نفسه عام ١١٩٤هـ (١٧٨٠م)، وتوفي محمد الحافظ عام ١٢٤٦هـ (١٨٣٠م)، ثم اطرد عدد أتباعها في الزيادة أيام خلفه.

وانتشرت الطريقة في غينيا الفرنسية (جمهورية غينيا حاليًا) في عهد الحاج عمر بعد عودته من مكة إلى كوناكري ثم إلى دنكراي التي أصبحت من أهم المدن المقدسة عند التجّانية، وقد حلت عقائد هذه الطريقة محل عقائد الطريقة القادرية في كل البلاد التي انتشرت في أرجائها.

وأهم كتاب يجمع مذاهبهم ورياضتهم الدينية هو «جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض الشيخ التجّاني»، ويعرف هذا الكتاب «بالكناش»، وقد طبع بالقاهرة عام ١٣٤٥هـ (١٩٢٦م)، ويقال: إن ما ورد في هذا الكتاب من إملاء أبي العباس التجّاني منشئ الطريقة.

وللتجّانية معجم يضم أعيانها عنوانه «كشف الحجاب عن من تلقى مع التجّاني من الأصحاب» صنفه أبو العباس أحمد بن أحمد العياش.

وما من شك في أن أتباع الطريقة التجانية (أو التيجانية) الحاليين، ومنهم إخواننا في السودان، وفي غينيا وغيرهما من البلاد العربية والإسلامية لا يأخذون بمبدأ الموالاة لكل حاكم، ولو كان من المستعمرين الغاصبين وأنهم يعملون بأحكام القرآن الكريم وسنة رسول الله عليه الصلاة والسلام، وهي تقضي بالدفاع عن الأوطان العربية والإسلامية بالأموال والأرواح والتضحية في سبيل هذا الدفاع المقدس بكل الوسائل الممكنة.

وبقسم الجمرك بالإسكندرية مسجد أطلق عليه اسم «السادة التجّانية» شيده أتباع الطريقة التجانية بهذا الحي لإقامة الشعائر الدينية.

٤٩١- تيمور - حارة - بقسم الجمرك

تيمور كلمة تركية أصلها فارسي لأن التيموريين، وهم بنو تيمور تولوا الملك في بلاد فارس وفي آسيا الوسطى في القرن الخامس عشر الميلادي، وكانوا من الأمراء الذين اتسم حكمهم بالعظمة والقوة.

أما تيمور الذي تحمل هذه الحارة اسمه فكان يدعى «كامل تيمور بك» وكان منزله الكبير في هذه الحارة معروفًا حتى أواخر القرن التاسع عشر، وقد ولد بهذا المنزل عام ١٢٩٢هـ (١٨٧٥م)، وموطن أسرته الأصيل مدينة «كنديا» بجزيرة كريت المعروفة عند العرب بجزيرة «إقريطش»، وكانت من أملاك الدولة العثمانية، ثم صارت من أملاك اليونان، ويسمى أهلها من المسلمين «الكريدلية»، وكان لهذه الجزيرة حضارة انتشرت معالمها على سواحل البحر الأبيض المتوسط الشرقية (انظر مادة كريت).

وكان كامل تيمور بك من كبار تجار الإسكندرية، وكان يزاول – على غرار الكريدلية – الاتجار في البن والشهد (العسل الأبيض) والصابون والزيت، وكان «الصابون الكندية» ذا شهرة ذائعة الصيت هو والعسل، وكان تيمور يمارس إلى جانب الاتجار في المواد الغذائية بالجملة استيراد وتصدير أنواع مختلفة من البضائع وشراء وبيع الأراضي الزراعية والأراضي الفضاء لإقامة المباني.

واتسع نطاق تجارته لدرجة أن محله الذي كان بسوق الطباخين (انظر هذه المادة) بقسم الجمرك كان يطلق عليه اسم «بنك تيمور»، وقد تلقى دراسته بمدارس الإسكندرية ثم في باريس، ومن ثمّ كان يتقن معرفة اللغتين العربية والفرنسية إلى جانب اللغة التركية واليونانية.

وكان ذا ثراء مرموق إذ كانت له أملاك بحيّ الجمرك وبأحياء أخرى من المدينة تُدرّ عليه رِيْعًا كبيرًا إلى جانب أرباحه الجزيلة من التجارة، ولم يكن بخيلاً فكان كثير البرّ بالفقراء، ويجود بالتبرعات للأعمال الخيرية، ومما يدل على حبه للخير تلك اللوحة التي كانت تزين صدر حجرة مكتبه، وتضم أبياتًا من الشعر تشيد بعلو قدره، وقد نظمها أحد الشعراء ممن نالهم إحسانه، ومنها هذا البيت:

وليس يَتمُّ البدرُ إلا بِلَيْلةٍ
وأنتَ دَوامًا يا ابنَ تيْمورَ كاملُ

وعاش طوال حياته أعزب، وكان يسافر إلى فرنسا كل عام للاستشفاء والقيام ببعض المهام التجارية، ووافته المنية في باريس عام ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م)، بالغًا من العمر حوالي ٥٠ عامًا، ونقل جثمانه إلى الإسكندرية حيث دفن بالمنارة.

وأطلق اسمه على الحارة التي كان يقيم بها على غرار كثير من الحارات والشوارع بالمدينة التي تحمل أسماء أوائل البانين فيها أو أكثرهم شهرة.

٤٩٢- تيمور لنك - شارع - بقسم باب شرقي (أحمد علام حاليًا)

ولد تيمور لنك في ٢٥ من شعبان عام ٧٣٦هـ (٨ إبريل عام ١٣٣٦م) بالقرب من كِشّ من أعمال ما وراء النهر، وكان أبوه الأمير تاراغاي أو (تورغاي) واليًا على كِشّ ونواحيها قبل حاجي بَرْلاس وتكينه خاتون، وتزعم أسرته أنها انحدرت من صلب جنكيزخان، ويقول ابن عرب شاه (انظر هذه المادة) إنه ابن أحد الرعاة، وإنه عاش في مستهل حياته على السلب، وأنه لقّب «بلنك» أي الأعرج لجرح أصابه وهو يسرق الغنم، ويعرف تيمور لنك بالأمير الكبير، ولقّب بعد ذلك بالسلطان، وكان ذلك عام ٧٩٠هـ (١٣٨٨م)، وأطلقوا عليه بعد موته لقب «ساكن الجنة».

وكان هذا الطاغية الآسيوي متوسط القامة، كبير الرأس، نضر البشرة، وقد ابيضّ شعره في سن مبكرة، وأصابه جرحان في قدومه ويده شوهاه بعض الشيء، ورسم فنانون من الفرس والهنود صورًا له من وحي خيالهم، وماتزال هذه الصور باقية حتى الآن.

وعرف هذا الرجل في صغره بالذكاء والشجاعة، وقد انضم إلى خدمة الأمير تازغان والي البلاد، ثم صحب حاجي برلاس عند فراره من غزوة توغلاق تيمورخان، ثم بادر إلى العودة للدفاع عن بني وطنه المغلوبين على أمرهم، فأبدى من الفصاحة والشجاعة ما رغب الفاتحين في استمالته إليهم، فولوه على بلده، وقام توغلاق تيمور في العام التالي ٧٦٢هـ (١٣٦١م) بتدبير شؤون فتوحاته، فاستعمل ابنه على سمرقند

واستوزر تيمور لنك الذي برم بفظاظته ولحق بالأمير حسين أخي زوجه، وهو يتأهب لمقاومة الغزاة.

واستطاع تيمور لنك إيقاع الهزيمة بتوغلاق تيمور ثم بابنه إلياس، وقد لقيا حتفهما في القتال، ثم انقلب على حليفه الأمير حسين فحاربه وقتله، ومن ثمّ صار صاحب الكلمة في بلخ، واعتلى العرش في ١٢ من رمضان عام ٧٧١هـ (١٠ إبريل عام ١٣٧٠م)، وأضفى على نفسه لقب خليفة جغتاي وسليل جنكيزخان، وقام بعد ذلك بالاستيلاء على جتّة وخوارزم بعد حرب استمرت أكثر من عشر سنين، واستغرقت المدة من عام ٧٧١هـ إلى ٧٨٢هـ (١٣٦٩ – ١٣٨٠م)، وإثر ذلك اعترف به حاميًا للإسلام فقرب إليه رجال الدين وأصحاب الطريقة الصوفية النقشبندية، وكان يصطحب في غزواته حاشية كبيرة من رجال الدين والعلماء والأدباء والمتفننين.

وقسمت القفجاق عام ٧٧٧هـ (١٣٧٥م) فناصر تيمور لنك تقتمش خان في شبه جزيرة القريم في روسيا، ثم أنفذه لغزو الروس فاستولى على موسكو عام ٧٨٢هـ (١٣٨٠م) ونهبها، وفي عام ٧٨٢هـ نفسه غزا تيمور لنك بلاد فارس، فبدأ بخراسان فدانت له ثم فتح جرجان ومازندران وسجستان، وذلك خلال حملته على المغول الوثنيين عام ٧٨٤هـ (١٣٨٣م)، وقد دخل ولاة هذه البلاد في طاعته وقنعوا من سلطانهم بالاسم فقط، وفي العام التالي قضى تيمور لنك على الفتنة التي شبت في مدينة هراة، ثم انصرف في عامي ٧٨٨ و ٧٨٩هـ (١٣٨٦ – ١٣٨٧م) إلى غزو فارس والعراق وأذربيجان، فهزم السلطان أحمد جلاثر وأرغمه على الهرب، وفي شتاء ذلك العام نفسه، فرض غرامة باهظة على مدينة أصفهان التي انتقضت عهده، وقتل ٧٠ ألفًا من أهلها، وأقام من جماجمهم أبراجًا، وفي رمضان عام ٧٩٥هـ (يوليو عام ١٣٩٢م) شن حرب السنوات الخمس التي قضى في خلالها على الزنادقة في أقاليم الخزر.

وكان أحمد جلاثر الآنف الذكر قد لجأ إلى الشام وصار من عملاء الملك الظاهر برقوق (انظر مادة برقوق) (وانظر مادة الظاهر) سلطان مصر، وقد رفض برقوق تسليم أحمد جلاثر إلى تيمور لنك، فأغار تيمور على آسيا الصغرى (الأناضول)، واستولى على الرها وتكريت ونهبهما، وأقام بهما هرمًا من جماجم القتلى، كما استولى على ماردين وآمد ثم أغار على القفجاق عام ٧٩٧هـ (١٣٩٥م) واحتل مدينة موسكو أكثر من عام، وأنفذ حملة على بلاد الكرج، وقضى على كثير من الفتن التي شبت في فارس.

وفي رجب عام ٨٠٠هـ (١٣٩٨م) بدأ غزوته للهند وعبر نهر السند في ١٢ من رمضان عام ٨٠١هـ (٢٤ سبتمبر عام ١٣٩٨م)، واستولى على مدينة دلهي في ٧ من ربيع الثاني من العام نفسه، ونهبها على الرغم من إعجابه بما شاهده فيها ثم خرّبها وقتل ٨٠ ألفًا من أهلها.

ولما بلغه خبر قيام الثورة في الشام وزحف خصمه أحمد جلاثر على أذربيجان بعد أن أصبح سيد مدينة بغداد وقتْل والي دمشق الرسل الذين بعثهم للمفاوضة، لما علم بكل ذلك بادر إلى تخريب الكرج، وسار إلى آسيا الصغرى عام ٨٠٣هـ (١٤٠٠م)، ودفن هذا السفاح الوحشي أربعة آلاف جندي أحياء، واستولى على ملطية، ثم دخل بلاد الشام واستولى على حلب وأشعل فيها النيران وجمع أطفالها وذبحهم، وقتل الرجال والنساء وارتكب جنوده في أرجائها من القبائح

والمنكرات ما تقشعرّ لذكره الأبدان، وفعل في مدينة حماة أفظع مما فعله في حلب إذ سلط ابنه فسبى نساءها وأسر رجالها وفعل أصحابه بالنساء الأبكار أنكر الأفعال، وأشعل النار فيها، ثم مضى إلى دمشق وكانت حصينة وبها من الميرة ما يكفي أهلها عدة سنين وصمم أهلها على القتال حتى الموت، وعندما أشرف عليها أرسل أحد أعوانه لطلب الصلح، فأبى الدمشقيون ومعهم الأمراء المصريون، ورفض سلطان مصر الملك الناصر التسليم، وكان لاجئًا إليها.

وفي تلك الأثناء عزم بعض الأمراء في القاهرة على القيام بانقلاب بغية تنصيب سلطان جديد غير الناصر، ويقول ابن تغري بردي إنه لما بلغ ذلك أمراء دمشق، تركوا المدينة لقمة سائغة لتيمور لنك، وتخلوا عنها وأسرعوا إلى القاهرة مفضلين مناصبهم على الدفاع عن دمشق، وقد أغلق أهلها الأبواب واعتلوا أسوارها وصمموا على الجهاد واستطاعوا صد الجيش التيموري وردوه على أعقابه، وعندئذ لجأ تيمور السفاح إلى الحيلة وأرسل يقول لأهل المدينة إنه يؤمنهم ويريد من يتفاوض معه من أهلها.

وبالنسبة إلى هذه المرحلة الحرجة من مراحل غزو تيمور لنك لدمشق يذكر بعض المؤرخين دورًا قام به ابن خلدون (انظر هذه المادة) فيرون أنه خرج هو وتقي الدين الحنبلي قاضي القضاة، وأن ابن خلدون كان ماكرًا، إذ إنه لما اجتمع بتيمور لنك عرف ما يضمره لأهل دمشق من الشر فراوغه، وألّف له رسالة ذكر فيها مواقع الشام ومصر ودله فيها على البلاد وعاد إلى المدينة ليتدلى من أسوارها ليلاً ويفرّ إلى مصر دون أن يخبّر أهلها وعلماءها، أو يبين لهم نوايا الطاغية السفاح، ويقول هؤلاء المؤرخون: إن عمل ابن خلدون هذا يعد خيانة لدمشق في سبيل نجاته سالمًا، أما قاضي القضاة فكان ساذجًا حسن النية، فنمق له تيمور الكلام وتلطف معه في القول وأخبره أنه أعتق دمشق لأنها بلدة الأنبياء والصحابة، فصدّق القاضي كلامه وعاد يتحدث عن صفات تيمور ومزاياه، وأرسل تيمور أمرًا رسميًّا أمّن فيه أهل دمشق، فقرئ على منبر الجامع الأُموي وسرعان ما فُتح باب المدينة الصغير، فتدفق جنود تيمور على داخلها، وكان أول أعمال تيمور فرض ضريبة على الأهالي قدرها مليون دينار، ثم أضاف إليها غرامات أخرى باهظة وألزم الناس أن يسلموا أسلحتهم إلى جنوده، وما عتم أن أطلق هؤلاء الجنود القساة، فنكّلوا بالناس بأن انهالوا عليهم ضربًا وإحراقًا وقتلاً، وفعلوا بالنساء المنكرات في الطرق وفي المساجد وأمام الناس، وعمدوا بعد ذلك إلى أخذ العمال مكبلين بالحبال وأشعلوا النيران في أرجاء المدينة، فظلت مشتعلة ثلاثة أيام بلياليها، وقد دامت هذه المحنة القاتمة ثمانين يومًا بعد أن أرغم علماءها على إصدار فتوى تؤيد مظالمه ووحشيته، ثم باغت بغداد واستولى عليها في ٢٧ من ذي القعدة من عام ٨٠٣هـ نفسه وأحدث في أهلها مذبحة كبيرة، فهلك منهم عشرون ألفًا ويرفع عددهم ابن عرب شاه (انظر هذه المادة) إلى ٤٠ ألفًا.

وحارب تيمور بعد ذلك منافسه السلطان العثماني بايزيد الأول، وحدثت الموقعة الفاصلة بينهما عند مدينة أنقرة في ١٩ من ذي الحجة عام ٨٠٤هـ (٣١ يوليو عام ١٤٠٢م)، فأصابت الهزيمة جيش بايزيد وسقط عن جواده فأسره تيمورلنك وأكرمه وأسِف لموته «في آقْ شَهِرْ» في ١٤ من شعبان عام ٨٠٥هـ (١٤ من مارس عام ١٤٠٣م)، وتميز غزو مدينتي بروسه وأزمير بفظائع أخرى، وبعد أن استقبل

رسلاً من صاحب مصر الذي اعترف بسلطانه ورسلاً من يوحنا الثاني إمبراطور بيزنطة عاد تيمور إلى سمرقند عام ٨٠٧هـ (١٤٠٤م).

وفي ١٣ من جمادى الأولى عام ٨٠٧هـ، نفذ حملة لغزو الصين فعبرت نهر جيحون على الجليد الذي كان يغطيه، ثم مرض هذا العاتي السفاح وهلك في ١٧ من يناير عام ٨٠٧هـ (١٥ شعبان عام ٨٠٧م) بالغًا من العمر ٧١ سنة بعد أن حكم ٣٦ عامًا، ووضع جثمانه في تابوت من الأبنوس حمل بعد شهرين من هلاكه إلى سمرقند حيث دفن في ضريح فخم يُعد آية من آيات فن العمارة.

وتزوج تيمور لنك من أميرتين صينيتين ومن ابنة الأمير موسى والي نخشب، ومن امرأة نادرة الحسن قتلها لذنب توهمه، هذا علاوة على السراري العديدات اللاتي كن في كنفه، وكان هذا الرجل الوحشي قوي الذاكرة، قليل الحظ من العلم، وقد شجع أصحاب المواهب، ووصلهم وظهر في عهده الفن المعروف «بالتيموري»، وقد ملأ سمرقند بالعمائر الضخمة، وجعل منها سوقًا هائلة، كما نقل إليها الفنانين والصناع، وشجع التجارة والصناعة، وفتح الطرق التجارية بين الهند وشرق فارس، ونظم الإدارة والجيش.

أما ترجمة صاحب الاسم الجديد للشارع فاطلبها في (أحمد علاّم).

حرف الثاء



٤٩٣- ثابت باشا - شارع - بقسم اللبان

لعله صالح ثابت باشا أو لعله أبوه محمد ثابت باشا، وقد عثرت على ترجمة حياة الابن صالح ثابت باشا، فهو من أسرة تركية الأصل، وكان من قضاة مصر المشهود لهم بالعدل والنزاهة والخبرة الواسعة في العلوم القانونية، وقد تلقى مبادئ العلوم في مدرسة الأنجال بالقاهرة، ثم انتقل منها إلى إحدى المدارس الراقية، وسافر بعد ذلك إلى فرنسا حيث درس الحقوق، ونال إجازتها، وعاد إلى مصر فتولى عدة مناصب إدارية وقضائية، وكان آخر هذه المناصب توليه رياسة محكمة الاستئناف، وتوفي في سنة ١٩٧٨م (١٣٣٧هـ)، ولا يعرف تاريخ ومكان مولده.

ويتضح من مسيرته أنه كان عزوفًا عن الارتقاء إلى منصب الوزير، يدل على ذلك البيتان الآتيان وقد نظمهما الشاعر إسماعيل باشا صبري (انظر هذه المادة) مشيرًا إلى إحجامه عن السعي مع الساعين لتولي إحدى النظارات في نظارة بطرس غالي التي تألفت في ١٢ من نوفمبر عام ١٩٠٨م (١٣٢٦هـ)، وقد ضمت سعد زغلول باشا للمعارف، وحسين رشدي باشا للحقانية، ومحمد سعيد بك للداخلية، وإسماعيل سري باشا للأشغال العمومية والحربية والبحرية، وأحمد حشمت باشا للمالية، وقد قال إسماعيل باشا صبري في ذلك:

قلت يا صالح ارم دلوك

في جملة الدِّلا

قال: دعني كما أشا

أحلم اليوم في الملا

أما ترجمة محمد ثابت باشا فهي أيضًا مشرفة فقد استقال هذا الرجل الوطني من وزارة نوبار باشا الأرمني (انظر هذه المادة)، بمجرد أن شعر بتدخل الإنجليز للبلاد في جميع شؤون الدولة، وكان من هؤلاء الدخلاء الأجانب «بيكر باشا» (انظر هذه المادة) حاكم البوليس، وسردار الجيش المصري الإنجليزي، وكذلك مدير عام المواني والمنائر، ومدير الجمارك، ورئيس القضاة وكلهم كان من الإنجليز.

ولم يذكر محمد ثابت باشا في استقالته أنه قدمها بسبب المرض أو العوائق الصحية كما كانت العادة في ذلك الحين تنصلاً من إغضاب السراي، والمحتلين بل ذكر فيها السبب الحقيقي، وهو التدخل الأجنبي في شؤون البلاد، وكانت هذه الاستقالة المشرفة الثانية من هذا النوع الوطني إذ الأولى كانت استقالة محمد شريف باشا (انظر مادة شريف باشا).

٤٩٤- ثابت بن قرَّة - شارع - بقسم مينا البصل

هو أبو الحسن ثابت بن قرَّة بن زهرون بن ثابت بن كِرايَا ابن إبراهيم بن كِرايَا بن مارينوس بن مالاغريوس، ولد في حرَّان عام ٢٢١هـ (٨٣٥م)، وحرَّان موطن الصابئة القديم، وقد انحدر ثابت من بيت عريق في النسب أنجب طائفة كبيرة من العلماء، ويتضح من أسماء أجداده أنها ترجع إلى عهد ظهور الحياة اليونانية في حرَّان فطغت على أسماء أعلامها، وما من شك في أن ثابت من نسل اليونانيين الذين استقروا بهذه المدينة، ويقول مؤرخو سيرته إنه كان صيرفيًّا في أول أمره.

وقد اشتهر هذا العالم بالرياضة والطبيعة والفلسفة ويعتبر من أعظم من ارتفعوا بعلوم العرب في القرن الثالث الهجري الموافق التاسع الميلادي، وكان على شيء كثير من الثراء مما مكنه من التبحر في الفلسفة والرياضة عندما انتقل إلى بغداد، وقد برع إلى جانب ذلك في الطب ولكن الفلسفة غلبت على شهرته.

وأوقعته آراؤه الحرة الفلسفية في خصام مرير مع الوثنيين من أهل بلده فأحضر أمام القاضي وحمل على إنكار هذه الآراء المارقة في عرف مذهب الصابئة، ولما عاد إلى هذه الآراء الحرة اشتدت خصومة أهله فخشي إعنات قومه ففر إلى قرية «كَفْر توثا» بالقرب من دارا، وعندما رجع محمد بن موسى بن شاكر من بوزنطة (بلاد الروم) إلى بغداد عرف في ثابت سعة العلم بالرياضة واللغة والفلسفة والطب فاصطحبه إلى بغداد وقدمه إلى الخليفة المعتضد الذي ألحقه بمنجمي بلاطه.

وأنفق معظم حياته في بغداد ينقل مؤلفات علماء الرياضة ويتوفر على دراساته الفلسفية ويزاول صناعة الطب، وقد تناول كتاب إقليدس الذي عرَّبه حنين بن إسحق العبادي فهذبه ونقحه وأوضح ما كان مبهمًا فيه، وكان إلى جانب علمه من أعيان عصره في الفضائل.

وكان له مقام رفيع في بلاط المعتضد وقد ألف كتابًا باللغة السريانية قبل أن يغادر حرَّان، وظل بعضها معروفًا لدى ابن العبري المتوفى عام ٦٨٥هـ (١٢٨٦م)، ويظهر أنها ضاعت الآن، ولو بقيت لكان لها شأن كبير في دراسة التاريخ الديني لليونانيين المتأخرين، وذكر بعض المستشرقين مؤلفاته باللغة العربية، ومازال الكثير من هذه المؤلفات مخطوطًا.

وأنجب ثابت بن قرَّة ولدًا يُدعى إبراهيم بلغ مرتبة أبيه في الفضل وكان من حذاق الأطباء ومقدمي أهل زمانه في صناعة الطب، ومن حفدة ثابت بن قرة أبو الحسن ثابت بن سنان بن ثابت بن قرَّة (انظر مادة ابن سنان).

وتوفي ثابت في شهر صفر عام ٢٨٨هـ (٩٩٨م) بالغًا من العمر حوالي ٦٤ عامًا.

٤٩٥- ثروت باشا - شارع - بقسم الرمل

اطلب ترجمته في (عبد الخالق ثروت).

٤٩٦- الثعالبي - حارة - بقسم اللبان

عرف التاريخ سيرة حياة أربعة من مفكري العرب يحملون لقب «الثعالبي» وهو يطلق على خائطي جلود الثعالب أو بيعها، وفيما يلي ترجمة كلٍّ منهم وفاقًا لوجودهم في قيد الحياة:

١) أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي (وكنيته النيسابوري): ولد بمدينة نيسابور عام ٣٥٠هـ (٩٦١م)، وقال عنه «ابن بسَّام» في كتابه الذخيرة: «إنه كان في وقته راعي تلعات العلم وجامع شتات النثر والنظم، وإنه رأس المؤلفين في زمانه وإمام المصنفين يحكم أقرانه، وقد سار ذكره سير المثل وضربت إليه آباط الإبل، وطلعت دواوينه في المشارق والمغارب طلوع النجم في الغياهب، وتواليفه أشهر مواضع وأبهر مطالع».

والواقع هو أن الثعالبي النيسابوري كان من أوفر كتَّاب العرب في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) إنتاجًا، فله مصنفات كثيرة تناول فيها مؤلفات أسلافه

وانصرف إلى الكلام عن الشعر في عصره ولكنه عُني أيضًا بعلوم اللغة والبلاغة.

وكان إلى جانب غزارة علمه شاعرًا مجيدًا، ومن نظمه في المدح ما كتبه إلى الأمير أبي الفضل الميكالي يقول:

لَكَ في المفاخرِ معجزاتٌ جَمَّةٌ
أَبَدًا لِغَيْرِكَ في الوَرَى لم تُجْمَعِ

بَحْرانِ بَحْر في البلاغةِ شابَهُ
شِعْرُ الوليدِ وحُسْنُ لفظِ الأصمعي

وإذا تَفَتَّقَ نورُ شِعرِكَ نَاضِرًا
فالحُسْنُ بينَ مُرَصَّعٍ ومُصَرَّعِ

أرْجَلْتَ فرسانَ الكلامِ ورُضْتَ أفْرَ
اسَ البديع وأنتَ أمجدُ مُبْدِعِ

ونَقَشْتَ في فَصِّ الزمانِ بَدَائعًا
تُزْري بآثارِ الربيع المُمْرِعِ

وأشهر مؤلفاته وأهمها شأنًا كتاب «يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر» الذي تناول فيه شعراء عصره ومن سبقهم ورتبهم بحسب أوطانهم وهو في جوهره ديوان وتراجم مختصرة، وقد قال ابن قلاقس الإسكندري (انظر هذه المادة) في هذا الكتاب:

أبْياتُ أشْعارِ اليَتيمةْ
أبْكارُ أفْكارٍ قديمةْ

ماتوا وعَاشَتْ بَعْدَهُمْ
فَلِذاكَ سُمِّيَتِ اليَتيمَه

وقد تعددت نسخ هذا الكتاب على غرار الكتب التي من نوعه وتوجد مخطوطات منه في باريس وكمبردج والمتحف البريطاني، وقد صنف الثعالبي نفسه أول ذيل لكتابه وأطلق عليه اسم «تتمة اليتيمة» وهو مازال مخطوطًا في باريس وبرلين.

وللثعالبي ديوان رتبه بحسب الموضوعات سمَّاه «كتاب أحسن ما سمعت». وفي دار الكتب بالقاهرة مخطوط منه وقد ترجمه المستشرق «ريشير O. Rescher» ولهذا الديوان ذيل هو «كتاب من غاب عنه المطرب» وهو مخطوط بالآستانة، وله دواوين أخرى لم يذكر فيها أسماء الشعراء مثل «كتاب خاص الخاص» وكتاب «المنتحل» وكتاب «المنتحل في تراجم شعراء المنتحل»، وقد طبع بالإسكندرية عام ١٣٢١هـ (١٩٠٣م)، وكتاب «طرائف الطرف» وهو مخطوط في آيا صوفيا.

وقد صنف الثعالبي للكتَّاب «كنز الكتَّاب» ويضم ٢٥٠٠ قطعة من الشعر لمائتين وخمسين شاعرًا، ونثر أشعار الديوان المعروف بمؤنس الأدباء وهو لمؤلف غير معروف، وقد فعل ذلك تنفيذًا لرغبة أبي العباس خوارزمشاه وأطلق على هذا النثر اسم «نثر النظم وحل العقد من مختار الشعر الذي يشتمل عليه الكتاب المترجم بمؤنس الأدباء»، وقد طبع بدمشق وفي القاهرة.

والطائفة الثانية من مؤلفات الثعالبي كتب أدب فيها أخبار شتى مفيدة ومنها كتاب «لطائف المعارف»، وكتاب «الفرائد والقلائد»، ويسمى هذا الكتاب أيضًا «العقد النفيس ونزهة

الجليس» ، و«كتاب المُبهج» كما له مؤلَّفان في مدح الأشياء وذمها وعنوانهما «اللطائف والظرائف» و«يواقيت المواقيت» .

وصنف الثعالبي مجموعات من الكلم والأمثال منها كتاب «التمثل والمحاضرة» ، وكتاب «أحاسن كلم النبي والصحابة والتابعين وملوك الجاهلية وملوك الإسلام والوزراء والكتَّاب والبلغاء والحكماء والعلماء» ، وألف كتابًا في الأدب سماه «مؤنس الوحيد» ، وكتابًا آخر هو «مرآة المروات وأعمال الحسنات» ، وكتابًا ثالثًا هو «برد الأكباد في الأعداد» .

وله أيضًا طائفة من الكتب في فقه اللغة العربية وأشهرها كتاب في المترادفات باسم «شمس الأدب في استعمال العرب» ، ثم ألف في نيسابور عام ٤٠٠هـ (١٠٠٩م) كتابًا بعنوان «الكفاية في الكتابة» وقد ألفه لمأمون بن مأمون خوارزم شاه وهو رسالة في البلاغة مع الإشارة بصفة خاصة إلى الكتابة ، وله مجموعة من التعابير العربية الرشيقة عنوانها «كتاب سحر البلاغة وسرّ البراعة» ، هذا إلى جانب كتب عديدة أخرى في البلاغة وقواعد اللغة العربية . وفي يتيمة الدهر أوضح سرقات الشعراء من المتنبي وسرقات المتنبي من الشعراء .

وقد جمع في كل هذه الكتب أشعار الناس ورسائلهم وأخبارهم وأحوالهم مما يدل على سعة اطلاعه وغزارة علمه ، وكانت وفاته خلال عام ٤٢٩هـ (١٠٣٨م) بالغًا من العمر حوالي ٧٨ عامًا .

٢) أبو منصور الحسين بن محمد المرغني الثعالبي: وكنيته «المرغني» ترجع إلى مرغن من أعمال الغور في أفغانستان ، وهو مؤرخ عربي لا يعرف من ترجمة حياته إلاَّ أنه أهدى كتابه المسمى «غُررُ السِّيَر» إلى نصر شقيق محمود الغزنوي المتوفى عام ٤١٢هـ (١٠٢١م) ، ويتناول هذا الكتاب تاريخ العالم كما يتصوره الكتَّاب العرب من عهد آدم إلى محمود بن سبكتكين ، ويدل تاريخ إهداء هذا الكتاب على أن أبا منصور الحسين الثعالبي كان قد بلغ مرحلة النضوج الفكري في عام ٤١٢هـ (١٠٢١م) ، فإذا فرض أنه كان وقتذاك في الثلاثين من عمره يكون قد ولد فرضًا خلال عام ٣٨٢هـ (٩٩٢م) .

ومازال الجزء الأول من هذا الكتاب في استامبول بمكتبة إبراهيم باشا ، وتوجد نسخة منه بمكتبة باريس ، وقد نشر المستشرق «زوتنيرج» من هذا الكتاب الجزء الخاص بتاريخ فارس ، وهو جزء عظيم الشأن لأنه يذكر في عدة مواضع منه المصادر التي استقى منها الفردوسي في الشاهنامه ، وكان الثعالبي في هذا الصدد أدق من الطبري .

ويظهر أن الثعالبي قد نقل حرفيًّا أغلب ما جاء في تاريخه من كتاب الملوك الذي ألفه أربعة كتّاب لأبي منصور محمد ابن عبد الرزاق صاحب طوس كما نقل أيضًا عن الطبري والجوالقي (انظر مادة الطبري) وغيرهما من مؤلفي العرب وذلك دون تمحيص .

ولم يبق من مؤلفات الثعالبي الأربعة التي نسبها إليه حاجي خليفة سوى مصنف واحد في مكتبة يودلبان وهو يتناول الحوادث من عام ٧٤هـ إلى ١٥٨هـ ، ولا يعرف تاريخ وفاته ولا أين وافته المنية .

٣) أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري الثعالبي: كان من أكابر مفسري القرآن الكريم وقد صنف «التفسير الكبير» الذي فاق غيره من التفاسير ، وله كتاب العرائس في قصص الأنبياء ، وسمَّى كتاب التفسير «الكشف

والبيان في تفسير القرآن»، ومن بين مؤلفات أبي بكر الطرطوشي (انظر مادة سيدي الطرطوشي) مختصر لهذا التفسير كان يقوم بتدريسه في المسجد الأقصى قبل استقراره بالإسكندرية، وتوجد في دار الكتب المصرية بالقاهرة نسخة مخطوطة من الجزء الثاني من هذا المختصر.

وتوفي أبو إسحاق الثعالبي عام ٤٢٧هـ (١٠٣٦م).

٤) عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الجعفري الجزائري الثعالبي: كان فقيهًا مغربيًّا ولد بمدينة الجزائر عام ٧٨٨هـ (١٣٨٦م) وبدأ دراسته منذ عام ٨٠٢هـ (١٣٩٩م) في مدن بجاية وتونس والقاهرة ثم سافر من القاهرة إلى تأدية فريضة الحج ثم رجع إلى تونس بعد أن درس ردحًا من الزمن في مكة، وفي تونس ألّف كتابه المشهور بعنوان «الجواهر الحسان في تفسير القرآن»، وقد اشتهر بولايته وتفقهه في الدين، وأحيط من الناس بالتجلة والتعظيم لتقواه وورعه ثم صار الوليَّ لمدينة الجزائر وحاميها ومازال الجزائريون يعظمون ذكراه تعظيمًا كبيرًا، وقد أتم كتابه في التفسير في ٢٥ ربيع الأول عام ٨٣٣هـ (١٤٢٩م)، ووافته المنية خلال عام ٨٧٣هـ (١٤٦٨م) في تونس عن خمسة وثمانين عامًا هجريًّا، ومن كتبه المطبوعة كتاب في أمور الآخرة اسمه «العلوم الفاخرة في النظر في أمور الآخرة»، وجزء من كتابه في الأخلاق المسمى «جامع الأمهات في أحكام العبادات» وعنوان هذا الجزء «نبذة من الجامع الكبير»، ومن رسائله المعروفة رسالة في التعريفات ورسالة بعنوان «الأنوار المضيئة الجامعة بين الشريعة والحقيقة».



حرف الجيم



٤٩٧- جابر (سيدي) - شارع - بقسم باب شرقي

انظر ترجمته في «سيدي جابر».

٤٩٨- جابر بن أفلح - شارع - بقسم الرمل (العزيزي سابقًا)

اسمه الكامل أبو محمد بن أفلح كان من أعظم علماء الفلك، وقد اشتهر عند الفرنجة الغربيين باسم «جيبر Geber» وكثيرًا ما خلط بينه وبين صاحب الكيمياء أبي عبد الله جابر ابن حيان الصوفي (انظر مادة جابر بن حيان).

وجابر بن أفلح أندلسي من مدينة أشبيلية، ولا يمكن تحديد الفترة الزمنية التي عاش في خلالها غير أنه يستطاع أن نستخلص من اتصال ابنه المتوفى عام ٦٠١هـ (١٢٠٤م) بابن ميمون (انظر هذه المادة) أن جابر بن أفلح توفي في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي.

وقد ألف كتابًا في الفلك مازال باقيًا يحمل عنوانين مختلفين فالنسخة المخطوطة بمكتبة الأسكوريال بإسبانيا بعنوان «كتاب الهيئة»، أما النسخة المحفوظة بمكتبته برلين فهي بعنوان «إصلاح المجسطي»، وكان جابر شديد التجريح لبعض آراء بطليموس في كتابه هذا ولاسيما عندما قرر وهو على حق أن كوكب المريخ والزهرة ليس لهما اختلاف ظاهر في المنظر، ولكنه جعل للشمس اختلافًا في المنظر مقداره ٣ درجات وأثبت أن كوكب المريخ والزهرة أقرب إلى الأرض من الشمس وهذا ما أثبت أنه صحيح في علم الفلك الحديث.

وكتاب جابر بن أفلح كبير القيمة العلمية لأنه علاوة على ما تقدم يمهد للجزء الخاص بالهيئة يفصل في حساب المثلثات، وهو يجعل قاعدة الأقدار الأربعة في حسابه المتعلق بالمثلثات الكروية أساسًا لاستخلاص قوانينه ويوضح لأول مرة بالنسبة للهيئة القانون الأساسي للمثلث القائم الزاوية.

أما في حساب المثلثات المسطحة فهو يسير على نهج بطليموس لأنه يحل مسائله مستعينًا بالوتر الكامل بدلاً من العمليات الخاصة بحساب المثلثات وهي جيب الزاوية، وجيب تمامها.

وقد ترجم كتاب جابر بن أفلح إلى اللاتينية جيرار القرموني ونشر «بيتروس أبيانوس Petrus Apianus» هذه الترجمة في نورنبرج عام ١٥٣٤م، أما ترجمة صاحب اسم الشارع القديم فاطلبها في العزيزي.

٤٩٩- جابر بن حيان - شارع - بقسم محرم بك (ليجران سابقًا)

يختلف المؤرخون في اسم جابر بن حيان وألقابه فبعضهم يقول: إنه أبو عبد الله جابر بن حيان بينما يقول البعض الآخر إنه أبو موسى جابر بن حيان ويقال من جهة أخرى إنه سمي جابر لأنه هو الذي جبر العلم فأعاد تنظيمه وتنسيقه واختلف كاتبو سيرته في تحديد مكان مولده فمن قائل إنه صابئي من حران وقائل يؤكد أنه فارسي من خراسان، وثالث يقول: إنه من طرسوس. أما الحسن الزياتي فيروي أن جابرًا من أصل يوناني اعتنق الدين الإسلامي بعد مضي قرن من ظهور الإسلام، والحسن الزياتي عاش في الفترة ما بين عام ٨٨٨ وعام ٩٣٧هـ (١٤٨٣-١٥٣٠م)، وقد ولد في غرناطة بالأندلس، وسافر

إلى مكة، ولدى عودته إلى بلاده أسره قراصنة جزيرة صقلية فاعتنق النصرانية، وألف كتبًا منها كتاب وصف إفريقيا، والقاموس العربي العبري اللاتيني وقد صار اسمه بعد تنصره «ليو أفريكانو Leo Africano» أي الأسد الأفريقي، ويرد اسم جابر مرة واحدة عند ألبرت الكبير منسوبًا إلى إشبيلية الواقعة في الجنوب الغربي من الأندلس بإسبانيا، وما من شك في أن جابر المقصود هنا هو جابر بن الأفلح الذي عاش بإشبيلية أثناء القرن الحادي عشر الميلادي، وألّف في علم الفلك وعرف في القرون الوسطى عند الإفرنج باسم Geber وكثيرًا ما خلط بينه وبين جابر بن حيان.

وكما اختلف المؤرخون والرواة في اسمه ومكان مولده واختلفوا أيضًا في تاريخ ميلاده، والمذهب الذي كان يعتنقه فذهب أهل الشيعة إلى أنه من كبارهم وزعم الفلاسفة أنه منهم، وأن له مصنفات عدة في الفلسفة والمنطق. وقال المشتغلون بالكيمياء أن الرياسة في صناعة الذهب والفضة انتهت إليه في عصره، وأن أمره كان مكتومًا، ويتضح من الإجماع على أنه عاصر هارون الرشيد أن معظم سني حياته انصرمت خلال النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي والجزء الأول من القرن التاسع، وأنه كان من المستقرين في مدينة الكوفة، ومن ثم كان لقبه الكوفي الأزدي.

ويجمع مذهب ابن حيان في الحياة ثلاثة اتجاهات فكرية، فهو فيلسوف من حيث الجدل، وكيميائي من حيث العلم، وشيعي من حيث المذهب والسياسة، يضاف إلى ذلك ما كان عليه من صوفية قوية دعي من أجل تمسكه بها بأبي حيان الصوفي، وتدل الروايات على أن شيخيه هما خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى عام ٨٥هـ (٧٠٤م)، ومن ثم لقب بالأموي، وجعفر الصادق المتوفى عام ١٤٨هـ (٧٦٥م)، وكان خالد ابن يزيد من أوائل الباحثين في علم الكيمياء، وكان جعفر الصادق أحد أئمة الشيعة، وطبيعي أن يتصل به جابر بن حيان لأنه شيعي كما قيل عن شخصيته المبهمة.

وبلغ جابر منزلة رفيعة بين أهل زمانه فهو أول من اشتهر عنه علم الكيمياء، أو من استحق لقب الكيميائي من المسلمين، ولقد وصلت مكانته الذروة من حيث العلم والثراء والتقدير، فسمي ملك العرب، وملك الهند، وملك العجم، وقال عنه المستر رسل الذي ترجم بعض كتبه إلى الإنجليزية أنه أشهر علماء العرب وفلاسفتهم.

وتوجد بين المصنفات العربية رسائل جمة تنسب إلى جابر بن حيان إلا أنها منحولة عليه، وقد ذكرت شواهد قديمة كثيرة أن هذه الرسائل موجودة في مؤلفات ابن أميِّل صاحب الكيمياء المتوفى عام ٣٥٠هـ (٩٦١م)، وفي كتب ابن وحشية المزيف، المتوفى في حوالي هذا العام نفسه، وفي الفهرست لابن النديم (انظر هذه المادة) وفي الوسع جمع شتات مؤلفات ابن حيان من سرد أسمائها المدون في الفهرست ومما تبقى من كتبه ورسائله، ومما ورد ذكره في كتبه هو ومن جهة أخرى يستطاع تقسيم مصنفاته إلى عدة مجموعات هي: الكتب المائة والاثنا عشر، وهي مقالات في صناعة الكيمياء تشمل على إشارات كثيرة إلى الكيمياء القديمة عند الأولين من أمثال هرمس، وأغاثوديمون، وزوسيموس، وديموقريطوس، ثم كتاب السبعين، ويتضمن بسط مركز لمذهب جابر في الكيمياء، ثم كتب الموازين المائة، والأربعة والأربعين وهي تتناول الأسس النظرية للكيمياء، والعلوم الباطنة جميعًا،

وأسسها الفلسفية وأخيرًا كتب الخمسمائة، وهي رسائل متفرقة تستقصي بعض المسائل المتعلقة بكتب الموازين.

وتمثل هذه المجموعات الأربع المراحل المتعاقبة في تطور مذهب ابن حيان وفي تأليف كتبه يضاف إليها مجموعة خامسة صغيرة تتناول إلى جانب الكيمياء شروحًا لكتب أرسطو وأفلاطون، ثم رسائل في الفلسفة، وعلم الهيئة، والتنجيم، والرياضيات والموسيقى، والطب، والسحر إلى جانب رسائل دينية ومنوعة.

ويذهب برتلو في كتابه «الكيمياء في القرون الوسطى» كما يذهب غيره من المستشرقين والنقاد الأجانب، إلى أنه من غير المستطاع أن يكون مؤلف هذه المجموعة الضخمة من الكتب التي تشمل جميع علوم الأوائل التي نقلت إلى العالم الإسلامي لمؤلف واحد أو أن ترجع إلى النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، إذ إن الدلائل العديدة تؤكد أن مجموع هذه الكتب قد صنفت في آخر القرن الثالث، وفي مستهل القرن الرابع الهجريين.

وأبرز المسائل النقدية التي تثيرها المؤلفات التي تنسب إلى جابر بن حيان وهي المسائل المتصلة بتاريخ الدين هي مزجه تعاليم الكيمياء بمذاهب العرفان على غرار أصحاب علوم الكيمياء القدامى من اليونانيين الذين عرفت مؤلفاتهم فقد مزجوا هذه المذاهب أو الغنوسطية المنتشرة في مسيحية زمانهم بالمعلومات الكيميائية، وكذلك فعل جابر بن حيان غير أنه لم يأخذ بمذاهب العرفان الساذجة القديمة التي ظهرت في الأوساط الشيعية خلال القرنين الأولين للهجرة كما يصفها، ويسردها أصحاب كتب الملل والنحل، وإنما أخذ بهذه المذاهب مع ما أضيف إليها من التطورات التي كانت ذائعة بين غلاة الشيعة في أواخر القرن الثالث الهجري، ومع النزعات السياسية الثورية التي تبناها، وكان من شأنها أن تؤثر على دعائم الدين الإسلامي. وإذا لجأنا إلى التسليم بأن جميع المؤلفات التي نسبت إلى ابن حيان من وحيه، ومن إنتاج قلمه فإنه يكون قد ذهب في بعض هذه المؤلفات إلى التبشير بقرب ظهور إمام معصوم جديد يأتي بشريعة أخرى يشع فيها نور العلم اليوناني، والفلسفة اليونانية، ويجد القارئ هذه التعاليم المغايرة لمبادئ الإسلام منبثة في بعض الكتب التي يقال إنه مؤلفها، والتي تتناول في عرضها هذا الوحي الجديد الذي من شأنه أن يكون عقليًّا بحتًا وأن تكون مفاتيح إدراكه لدى الأئمة المعصومين من ذرية علي بن أبي طالب وحدهم.

وكان جابر بن حيان وثيق الصلة بالقرامطة، ولاسيما فيما يتعلق بمصطلحاتهم الدينية، وقد ورد اسمهم في مواضيع مختلفة من المؤلفات المنسوبة إليه، والمعروف هو أن القرامطة ظهروا بعد عام ٢٦٠هـ (٨٧٣م)، وكان من تأثير تلك الصلة أن ابن حيان يطلق على مراتب الحدود الأسماء عينها التي يطلقها القرامطة، والإسماعيلية الفاطميون على الباب، والحجة، والداعي المطلق والسابق والتالي واللاحق، وما إلى ذلك. ومن جهة أخرى يقول ابن حيان بمذهب الامتداد أي امتداد الإمام ويقسم تاريخ العالم بحسب مراحل الوحي المتعاقبة إلى سبعة أدوار آخرها دور وحي الإمام الذي دعا إليه هو، ولذا يوقن بأن عدد الأئمة الذين تعاقبوا منذ علي بن أبي طالب حتى زمانه سبعة هم؛ الحسن، والحسين، ومحمد ابن الحنفية، وجعفر الصادق، وإسماعيل بن جعفر، ومحمد ابن إسماعيل، وهو السابع أو القائم المنتظر، وقد خالف جابر

القرامطة في أنه لم يجعل عليًّا واحدًا من هؤلاء الأئمة السبعة، وخالف في ذلك الإسماعيلية أيضًا لأن عليًّا في نظره «صامت لاهوتي غيبي يسمو على الناطق، والأئمة السبعة أشخاص ناسوتيين حل هو فيهم»، وفي هذا الشأن وافق ابن حيان مذهب النصيرية إذ يرى رأيهم في «الأقانيم» الثلاثة التي يتجلى اللاهوت فيها، وهي «العين» أي علي بن أبي طالب، و«الميم» وهو محمد، و«السين» وهو سليمان.

ويظهر من المؤلفات التي تنسب إليه أنه يقول بمذهب التناسخ على غرار ما يعتقده غلاة الشيعة ويدل على ذلك المصطلحات المدونة في هذه المؤلفات مثل كلمة التناسخ، والأدوار، والأكوار، والنسخ والفسخ والرسخ والمسخ وما إليها.

ويأتي بعد المسائل المتعلقة بالدين ما تثيره رسائل جابر من مسائل تتصل بتاريخ العلوم في الإسلام فقد اشتمل مجموع هذه الرسائل على دراسة العلوم التالية: الكيمياء وهي عنده في المحل السامي الأول وعلى الطلسمات ويشمل الطب، والتنجيم والسحر وعلم الخواص، وهو الدال على القوى الباطنة في ذوات الأشياء الطبيعية، وعلم التكوين الذي يتناول تكوين الأحياء بطرق الصناعة، وبما أن إدراكنا لكل ما وصل إلينا من هذه العلوم والفنون عن اليونانيين قاصر، ومشوه في كثير من أصوله فإن لمؤلفات جابر بن حيان قيمة كبيرة كان لها أثر حميد في التعرف على نواحي هامة من العلوم اليونانية التي كان الناس يظنون أنهم فقدوا تتبع آثارها.

ويخالف ابن حيان كل المعارف والمعلومات التي تناقلها الناس عن الكيمائيين القدامى، فهو يستغني كلية عن استخدام الرموز، والتشبيهات الهرمسية التي ترجع إلى علوم المصريين القدماء والتي ذكرت في كتب زوسيموس، وغيره من مؤلفي الإغريق، وأحياها في الإسلام معظم المشتغلين بعلم الكيمياء أمثال ابن أميل، والطغرائي (انظر هذه المادة)، والجلوكي، وغيرهم، ذلك أن علم الكيمياء عند ابن حيان علم تجريبي يقوم على نظرية فلسفية مأخوذة في كيانها العام من طبيعيات أرسطو. ويلاحظ أن جابرًا كان على علم تام بكافة الكتب الأرسطية، وشروح الإسكندر الأفروديسي وثامسطيوس وفرفوريوس، وغيرهم، ومن ثم نراه يأخذ عن هذه الكتب لاجئًا في ذلك إلى ما نقله حنين بن إسحاق المتوفى عام ٢٦هـ (٦٤٦م) من هذه الكتب، وما نقله تلاميذ حنين أيضًا، ونجد في مؤلفات ابن حيان روايات عدة من كتب أفلاطون، وثاوقرسطس، وجالينوس، وأوقليدس، وبطليموس، وأرشميدس، وغيرهم (انظر مادتي أفلاطون وأرشميدس) غير أن هذه الكتب والكتب التي ألفها علماء المسلمين في الكيمياء لا تصل إلى مرتبة مصنفات ابن حيان في هذا الباب إذ إن مؤلفاته تكشف عن معرفة واسعة النطاق بما كتبه القدماء علاوة على منهجها الموسوعي ومن ثم فهي تشبه بوصفها هذا رسائل إخوان الصفا التي ترجع إلى مصادر واتجاهات تضارع المصادر، والاتجاهات التي استمد منها ابن حيان تكوين رسائله، أما المصطلحات العلمية التي لجأ ابن حيان إلى استعمالها فهي المصطلحات نفسها التي اصطنعها حنين بن إسحاق، وقد يقوم هذا التوافق دليلاً آخر على أن مجموع ما كتبه ابن حيان لا يمكن أن يكون قد كتب قبل نهاية القرن الثالث الهجري.

وأساس علم ابن حيان هو ما يطلق عليه اسم الميزان، ويشمل هذا المصطلح نواحي عديدة متباينة ويدل في وضوح على التوفيق بين المذاهب المختلفة، وهذا التوفيق من مميزات ابن حيان، والميزان عند ابن حيان معناه الوزن النوعي وقد أورد ابن حيان إشارات كثيرة إلى أرشميدس في هذا الصدد، وهو عنده أيضًا ميزان أصحاب الكيمياء القدامى أي مقدار وزن الأجسام الداخلة في خلط، أو مزج، وهو لديه مذهب في الحروف العربية المتصلة بأمهات الطبائع الأربع، وهي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ولا يطبق ميزان الحروف على الأشياء التي تحت الفلك فحسب بل يطبق أيضًا على الآنيات الميتافيزيقية كالعقل، والنفس، والمادة، والمكان، والزمان، وما من شك في أن ابن حيان قد أخذ مذهبه هذا من الفيثاغورية الجديدة، ومن النظريات في الجبر المنتشرة عند الشيعة العلوية، والميزان عند ابن حيان أيضًا المبدأ الميتافيزيقي في ذاته، وهو رمز لمذهب ابن حيان في التوحيد العلمي، وبهذا المعنى ابتغى ابن حيان توجيهه ضد ثنوية المانوية، ويظهر أن مذهبه في هذه الناحية لم يخل من التأثر بآراء المدرسة الأفلاطونية الجديدة في شأن الواحد والوحدة وأخيرًا يعبر الميزان في رأي ابن حيان عن تأويل ما ورد في القرآن من ذكر الميزان في يوم الحساب، وهذا الرأي يذهب إليه أصحاب العرفان من بين المسلمين، وقد توسل به ابن حيان في ربط عقائده العلمية بتعاليمه الدينية.

وقد يكون لرسائل جابر بن حيان صلات بما دونه علماء الوثنيين الذين عاشوا في الأوساط الحرانية فهو يشير بجلاء إلى الصابئة عندما يبسط جدلهم في بعض المسائل المتعلقة بما وراء الطبيعة، ويظهر أن المصدر الأساسي الذي استقى منه معلوماته هو مجموعة الكتب المنسوبة إلى «بالنياس الطواني»، ولا سيما كتاب سر الخليقة، وغيره. وهذه المصنفات مؤلفات منحولة كتبت في عهد الخليفة العباسي المأمون وفاقًا لما دونه محمد بن زكريا الرازي، وتعد هذه المؤلفات خير مصدر لمعرفة تفكير المدرسة الحرانية، ويقول جابر بن حيان إنه تلقى العلم عن سيده جعفر الصادق لتكون مرتبته في الحدود الدينية عند الشيعة بعد الإمام مباشرة، وهذا القول محض اختلاف إذا لم ترد أي إشارة في كتب الشيعة تدل على أن جابر بن حيان كان من تلامذة جعفر الصادق، ومن ثم قام الظن في أن شخصية جابر هذا شخصية وهمية ليس له وجود، وأيد هذا الظن أو عززه على الأقل قول ابن النديم صاحب الفهرست أنه كان في عهده أناس يشكون في صحة نسبة هذه الرسائل إلى جابر، وقد ذكر العالم الفيلسوف أبو سليمان المنطقي المتوفى في عام ٣٧٠هـ (٩٨٠م)، في كتابه المسمى التعليقات ما مؤداه أنه كان ذا صلة شخصية بمؤلف الرسائل التي تعزى لجابر بن حيان، وأن اسم هذا المؤلف هو الحسن بن الكند الموصلي وقد تكون هذه الشبهات من العوامل التي تثير الشك في وجود عالم باسم جابر بن حيان، وأن المؤلفات الهائلة العدد التي تنسب إليه ليست من وضع كتاب واحد، وأنها مرت بمراحل طويلة من التطور، ولم تختم إلا في حوالي عام ٣٣٠هـ (٩٤١م)، وأن الرسائل في الكيمياء استمر تأليفها إلى ما بعد هذا التاريخ بعديد من السنين.

ولقد أثرت هذه الرسائل العلمية القيمة في كيمياء العرب المتأخرة تأثيرًا عميقًا لدرجة أن كتاب العرب المتأخرين جميعًا ينقلون عنها، وقد ألف كثير منهم شروحًا عليها، أما الكتب المنسوبة إلى جابر بن حيان فقد ترجمت مجموعة منها إلى اللاتينية.

وفي المكتبات الأوروبية الآن اثنان وعشرون مؤلفًا باللغة العربية تحمل اسم جابر بن حيان طبعت خمسة منها، وهي كتاب «الملك»، وكتاب «الموازين الصغيرة»، وكتاب «الرحمة»، وكتاب «التجميع»، وكتاب «الزئبق الشرقي»، والمذهب الذي يستنبط من هذه الكتب، ولاسيما من كتاب الرحمة تشبيه يأخذ بالروحانية المتطرفة، ويعتبر ابن حيان المعدن كائنًا حيًّا ينمو في بطن الأرض في زمن طويل الأمد عبر آلاف السنين، وينقلب من معدن خسيس كالرصاص إلى معدن ثمين كالذهب، ويقول إن غاية علم الكيمياء الإسراع في هذا الانقلاب، ويطبق ابن حيان مذاهب التناسل، والزواج والحمل والتعليم على المعدن، وكذلك مذهب الحياة والموت، ويسمي المواد الأرضية الغليظة مواد ميتة. أما المواد المنيرة اللطيفة فيسميها مواد حية، ويؤكد أن لكل جسم كيميائي نفسًا وجسمًا ويشتمل على جزء مادي، وجزء روحي وأن عمل صاحب الكيمياء التوصل إلى فصل الجزأين عن بعضهما، ويلطفهما ثم يعطي لكل جسم الطبع الذي يلائمه.

وقد نسبت أساطير الفارسيين لجابر بن حيان اكتشافات كيمائية هامة، فقالوا إنه هو الذي اكتشف ماء الذهب، وحامض الكبريت، وحامض الأزوتيك، ونترات الفضة، غير أن هذه الاكتشافات المزعومة لم تذكر في أي كتاب من الكتب العربية التي تنسب إليه، وظلت مجهولة إلى أن ظهرت في المؤلفات اللاتينية التي ترجع إلى أواخر القرن الثالث عشر، وعلى هذا الأساس فتقدير نصارى القرون الوسطى لكيمياء المشرق لا يستند إلى وقائع مقررة يستطاع تمحيصها.

أما ترجمة صاحب الاسم السابق للشارع فاطلبها في كلمة «ليجران».

٥٠٠- جابر عبد الباسط بروي - حارة - بقسم كرموز (المقلب سابقًا)

نوتي بحري استشهد على السفينة السلوم في ٧ مارس عام (١٩٥٣م) ١٣٧٣هـ.

٥٠١- جاد الحق (الشيخ) - شارع - بقسم كرموز

اطلب ترجمته في «الشيخ جاد الحق».

٥٠٢- الجارحي (الشيخ) - شارع - بقسم كرموز

اطلب ترجمته في «الشيخ الجارحي».

٥٠٣- الجارم - حارة - بقسم كرموز

من شجرة النسب التي مازالت لدى المسنين من أسرة الجارم يتضح أنها مغربية الأصل، ومن هذه الشجرة يتضح أن أجدادها الأولين من أحفاد إدريس الأول مؤسس دولة الأدارسة في المغرب الأقصى وكانت أول دولة شيعية في المغرب العربي، إذ إن إدريس الأول حكم طوال الفترة الواقعة بين عامي ١٧٢ و١٧٧هـ (٧٨٨ - ٧٩٣م)، وهو ابن علي ابن الحسين بن الحسين بن علي بن أبي طالب زوج فاطمة الزهراء بنت النبي محمد عليه الصلاة والسلام.

وعلى غرار الكثيرين من أهالي المغرب نزح أحد هؤلاء الأجداد إلى الإسكندرية، واتخذ له مسكنًا بالحارة التي تحمل لقب الأسرة، وهو الجارم بقسم كرموز حيث كان معظم المغاربة الوافدين على المدينة يستقرون خارج سورها خلف باب السدرة (انظر مادة باب السدرة)، أو يدخلون من هذا الباب ويستقرون بأشهر أحيائها في ذلك الحين وهو حي الجمرك الذي كان يعرف باسم الجزيرة نسبة إلى جزيرة فاروس التي اشتق من اسمها الإغريقي كلمة الفنار، أي المنار أو المنارة.

ولقب الجارم باللغة العربية يعني العظيم الضخم الجسد لأن «الجرم» هو الجسم نفسه من الإنسان والحيوان، والجارم صيغة اسم الفاعل من جرم، ويعادل هذا اللفظ كلمة الجريم، وهو الكبير الجرم العظيم الجسد.

وبعد أن مكث الجد الأكبر لهذه الأسرة بالإسكندرية ردحًا من الزمن يزاول التجارة ويسهم بنصيب على غرار مواطنيه المغاربة في الحركة العلمية بالمدينة؛ نزح إلى مدينة رشيد، وأول من عرف من ذريته برشيد هو إبراهيم الجارم الذي يرجع تاريخ ميلاده إلى عام ١٢٠٦هـ (١٧٩١م)، وقد أخذ العلم عن أبيه، وعن أفاضل علماء الأزهر أمثال الشيخ عبد الله الشرقاوي (انظر مادة الشيخ الشرقاوي)، والشيخ حسن القدسي، وبعد أن أتم دراسته بالأزهر عاد إلى رشيد حيث تولى الإمامة، والخطابة بمسجد سيدي علي المحلِّي كما تولى الإفتاء على المذهب الشافعي وله حواش على شرح ابن عقيل، ومتن سيدي محمد السبعي في النحو، وعلى تفسير الخطيب الشربيني، ورسالة الدرديري في علم البيان، وتوفي الشيخ إبراهيم الجارم عام ١٢٦٥هـ (١٨٤٨م)، ودفن برشيد، وكان قد أنجب ولدين هما الشيخ محمود الجارم والشيخ عبد الفتاح الجارم اللذان تزوجا من كريمتي الشيخ محمد صديق البسيوني الشافعي حاكم رشيد الشرعي في ذلك الحين، وهو مؤلف كتاب مفتاح الإفادة لسبيل السعادة في الفقه الشافعي.

وقد ولد الشيخ محمود الجارم عام ١٢٣٩هـ (١٨٢٣م)، وتولى الإمامة، والخطابة، والإفتاء برشيد عقب وفاة أبيه، ووافته المنية في ١٠ من ذي الحجة عام ١٢٨٨هـ (١٨٧١م)، بالغًا من العمر ٤٩ عامًا، ودفن برشيد أما الشيخ عبد الفتاح الجارم، فكان مولده عام ١٢٤٢هـ (١٨٢٦م)، وجمع بين علوم الشريعة والسياسة والأدب، وتولى نقابة الأشراف برشيد بوصف كونه أحد أحفاد مولاي إدريس الأول الذي يرجع نسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب (انظر مادتي الإمام علي وفاطمة الزهراء) وبعد أن نقل إلى مدينة دمياط ثم إلى مدينة المنصورة للتدريس في معاهدهما الدينية عاد إلى رشيد، ولم يزل مفتيًا بها إلى أن توفي في ٢٥من جمادى الآخرة عام ١٣٠٠هـ (١٨٨٢م)، بالغًا من العمر حوالي ٦٥ عامًا.

ويقول الأستاذ عبد الرحمن الرافعي (انظر هذه المادة) في كتابه تاريخ الحركة الوطنية وتطورات نظام الحكم في مصر: إن الجنرال الفرنسي مينو الذي ادّعى الإسلام، وتسمى باسم عبد الله مينو خلال الحملة الفرنسية على مصر أراد أن يصاهر أحد أشراف رشيد فطلب يد إحدى بنتي الشيخ الجارم فبادر الشيخ إلى عقد قران البنتين على الفور على اثنين من أهالي رشيد، وسد بذلك الطريق على الجنرال الفرنسي مينو الذي تزوج السيدة زبيدة بنت محمد البواب من أعيان رشيد.

وأنجبت أسرة الجارم طائفة عديدة من العلماء والأدباء والشعراء من بينهم الشيخ عبد المحسن الجارم أحد علماء الدين، والفقه، وياسين الجارم فنان الرسم الذي تخرج على يديه عدد كبير من طلاب المدارس الثانوية بالإسكندرية، والشاعر الكبير المرحوم علي الجارم (انظر هذه المادة) صاحب القصائد العصماء، وديوان الشعر، والكتب الأدبية القيمة، وعميد اللغة العربية بوزارة التربية والتعليم سابقًا والدكتور عمر الجارم أستاذ الأمراض العصبية بكلية الطب بجامعة الإسكندرية، والشاعر المجيد الذي تفيض قصائده بالمعاني الجزلة العذبة الجرس، وقد أسهم بنصيب مرموق في الحركة الأدبية بالإسكندرية فكان من مؤسسي جماعة نشر الثقافة والهيئة المحلية لرعاية الفنون والأدب، والعلوم الاجتماعية.

٥٠٤- جاريبالدي - شارع - بقسم الرمل (محمود إسماعيل حاليًا)

هو «جوزيبي جاريبالدي Giuseppe Garibaldi» من رجال الوطنية الصادقة الإيطاليين، ولد بمدينة «نيس Nice» بفرنسا عام ١٨٠٧م ومات بجزيرة «كابريرا Caprera» بإيطاليا عام ١٨٨٢م بالغًا من العمر حوالي ٧٦سنة، وقد اشترك في الثورة التي أشعل الجمهوريون نارها بمدينة «ريو - جراندي Rio-Grandi» بالبرازيل ضد الحكومة البرازيلية عام ١٨٣٩م، ثم عاد إلى وطنه إيطاليا وشرع في الكفاح المستميت من أجل توحيد أراضي وطنه، وكان هذا الكفاح الوطني ضد النمسا في بادئ الأمر ثم امتد ليشمل المقاومة ضد مملكة نابولي، وفي عامي ١٨٧٠ و ١٨٧١م رحل إلى فرنسا وانخرط في سكك الجندية وحقق انتصارًا ضد القوات الألمانية في موقعة «ديجون Dijon» وذلك خلال الحرب السبعينية.

وجاريبالدي هو محقق الوحدة الإيطالية لبلاده وكان في الوقت نفسه كاتبًا مجيدًا فترك عدة قصص وعدة رسائل، وقد أقيمت له تماثيل بعد موته في إيطاليا وفي فرنسا.

وكان ولده الأكبر «مينوتي جاريبالدي Menotti Garibaldi» قائدًا في الجيش الإيطالي، وقد ولد بالبرازيل عام ١٨٤٠م ومات بمدينة روما عام ١٩٠٣م، وخدم في الجندية تحت إمرة والده ثم انتخب بعد ذلك نائبًا في البرلمان الإيطالي.

وأما ولده الثاني «ريكيوتي جاريبالدي»، فقد ولد بمونتفديو عام ١٨٤٧م، ومات بروما عام ١٩٢٤م، وحارب هو الآخر في صفوف الجنود الفرنسيين في حرب ١٨٧٠م ضد الألمان ثم انتخب نائبًا في البرلمان الإيطالي وحارب مع الجيوش اليونانية عام ١٨٩٧م، وفي عام ١٩١٤م، كون فرقة من الجنود الإيطاليين أطلق عليها اسم «الفرقة الجاريبالدية»، ودخل بها الحرب في فرنسا ضد الألمان طوال الحرب العالمية الأولى (من ١٩١٤ إلى ١٩١٨م) وقتل في هذه الحرب الطاحنة ولداه «برونو وقسطنطينو».

وقد صدرت كتب عديدة تدوِّن سيرة «جوزيبي جاريبالدي» أشهرها مؤلف المؤرخ الشهير «تريفليان G.M. Trevelyan» في ثلاثة أجزاء وكان صدوره في أعوام ١٩٠٧ و١٩٠٩ و١٩١١م على التوالي، ومؤلف «ج. ماريوت J. Marriott» بعنوان «صانعو إيطاليا الحديثة»، ولجاريبالدي نفسه المذكرات التي تحكي سيرته وتاريخ كفاحه، وآخر ما صدر عن هذا المواطن الإيطالي المكافح هو كتاب «أسد كبريرة» «لجون باريس John Parris» الذي

صحح كثيرًا من التفسيرات التي وردت في كتاب «تريفليان» والتي أثبت البحث التاريخي بطلانها كما أنه يكشف لأول مرة عن وثائق كانت مجهولة عند الدارسين .

ويقص هذا الكتاب مراحل حياة «جاريبالدي» فيذكر أنه ولد في نيس من أسرة فقيرة وكان أبوه يعمل بحارًا ، وكانت «نيس Nice» في ذلك الحين مدينة إيطالية ، ومن ثمَّ لم يتلق الطفل جوزيبي غير القليل من التعليم وزاول مهنة البحّار وهو في الثالثة عشرة من عمره وطوَّف بين موانئ البحر الأبيض المتوسط من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب .

وفي أحد الأيام رست السفينة في ميناء مرسليا فدخل الصبي إحدى الحانات ليجد على إحدى الموائد جماعة من الشبان الإيطاليين يتناقشون بصوت عالٍ فانضم إليهم وعلم لأول مرة بوجود منظمة تدعى «إيطاليا الفتاة» وعلى رأسها شاب يدعى «متزيني Mazzini» ، وقد كانت هذه المناقشة نقطة تحول في حياة الصبي جاريبالدي فتفتحت أمام عينيه آفاقًا جديدة واسعة المدى وأحس بالنشوة التي أحس بها كريستوف كولمب عندما بدت له الأرض بعد طول الضياع ، فلم يتمالك من أن ينهض ويشد في حرارة على يد الشاب متزيني الذي كان ينادي هو ورفقاؤه باتحاد إيطاليا وجمع شتات مقاطعاتها التي كانت مقسمة إلى أجزاء يحكم كلاًّ منها حاكم نمساوي إلا مملكة «بدمونت» في أقصى الشمال إذ كانت تحت حكم ملك إيطالي ، ومملكة نابولي ومملكة الفاتيكان ، وكان يسيطر عليها حكم استبدادي ، وكان الأمل الوحيد في تحرير إيطاليا يتركز في كسر شوكة الحكام المستبدين وجعل الإيطاليين أمة واحدة متحررة .

وانضم جاريبالدي إلى منظمة «إيطاليا الفتاة» التي كانت فكرتها تهدف إلى إقامة جمهورية في مملكة «بدمونت» للسعي منها إلى تحرير الأجزاء الأخرى من الوطن الإيطالي .

وفي فبراير عام ١٨٣٤م (١٢٥٠هـ) أعلنت المنظمة الثورة ولدى فشلها تفرق أعضاؤها وفرَّ جاريبالدي إلى فرنسا حيث علم من الصحف أنه قد حكم عليه بالإعدام ، ثم ترك أوروبا واتجه على ظهر إحدى السفن إلى البرازيل حيث شارك في الحركات التحررية وأهمها تكوين فرقة من الإيطاليين في «مونتفديو» عاصمة أرجواي بأمريكا الجنوبية لصد عدوان الأرجنتين عن هذه البلاد الصغيرة ، وعرفت تلك الفرقة باسم «القمصان الحمر» وقد كان لها فيما بعد دور هام في تحرير إيطاليا وتوحيدها .

وسبب تسمية الفرقة «بالقمصان الحمر» يرجع إلى أن جاريبالدي لم يجد – وقت تكوينها – إلا قمصانًا من الصوف الأحمر رخيصة الثمن وبكميات كبيرة في مخازن «مونتفديو» كانت معدة لبيعها لعمال مذابح الماشية في الأرجنتين ، وقد اشتهرت فرقة «القمصان الحمر» في أمريكا الجنوبية وفي أوروبا بأعمالها الحربية الباسلة وعلى رأسها «جاريبالدي» الذي كان على صلة مستمرة بمتزيني وأعضاء «إيطاليا الفتاة» التي أخذ نشاطها يتسع وأعضاؤها يتزايدون على مر الأيام ، وكان معظم أعضائها من المثقفين في المدن الكبيرة من بينهم عدد كبير من الأطباء والمحامين وأساتذة الجامعات والكُتاب والفنانين ، يناهضهم كبار الملاك وأصحاب المناصب الذين كانوا يبغون بقاء الأحوال على ما هي عليه لفائدتهم الشخصية .

وكان «متزيني» قد نزح إلى لندن وكان يزود أعضاء «إيطاليا الفتاة» بالمعلومات المشجعة عن «جاريبالدي» ورجاله ذوي القمصان الحمر في أمريكا الجنوبية فاتجهت قلوبهم نحوه فأحبوه وأكبروا جهاده وشجاعته.

وفي عام ١٨٤٧م (١٢٦٤هـ) بدأ أولئك الشبان في إشعال نار الثورة من أجل حرية بلادهم وطلبوا من «جاريبالدي» العودة إلى وطنه مع رجاله المجاهدين فبادر إلى تلبية ندائهم ورجع إلى إيطاليا ومعه ستون رجلاً من لابسي القمصان الحمر.

وفي معركة تحرير إيطاليا برز اسم «جاريبالدي» وأصبح رمزًا للحرية الوطنية عند كافة الإيطاليين ورمز إيطاليا الموحدة، وطغى اسمه على اسم «متزيني».

ولقد لقي «جاريبالدي» من الساسة كل العنت والاضطهاد وتعرض للتشرد والنفي مرات وأصيب خلال الحرب التي خاضها بجراح عديدة، وقد استطاع هذا الوطني الصادق العزم الشجاع احتلال جزيرة صقلية (انظر هذه المادة) وجنوب إيطاليا بقوة لا يزيد عدد جنودها على ألف رجل، وبهذه القوة الصغيرة تمكن في مهارة وبسالة من القضاء على مملكة نابولي، وقد عرفت هذه الحملة الجريئة بحملة «الألف جندي» وخلدت في الأغاني والقصائد الحماسية والقصص الوطنية.

وكان إبحار هذه الحملة التاريخية لغزو صقلية وجنوب إيطاليا في ليلة الخامس من شهر مايو عام ١٨٦٠م (١٢٧٧هـ) ودوَّن «جاريبالدي» ذكراها فيما سطر من مذكرات فقال: «يا ليلة الخامس من مايو!! إن جلالك يملأ القلوب، ففيك يتقدم رجالي لتحرير المستعبدين.. إن الألف من هؤلاء الشبان من جنودي هم أبطال حرب التحرير، وإني لفخور بهم واثق من أنني أستطيع أن أفعل أي شيء حتى المستحيل!!».

وكان بين هؤلاء المكافحين ابن جاريبالدي «مينوتي» وكان عمره تسعة عشر عامًا.

ومازال «جاريبالدي» يعيش حتى اليوم في قلوب الإيطاليين جميعًا بل وفي كل قلب يعشق الحرية والكرامة الإنسانية، فقد جاهد من أجل هذه الحرية وكان دائمًا على استعداد للتضحية بحياته في سبيل إنقاذ وطنه من الاستعباد والانقسام، وقد قال في هذا الصدد:

«إن من يذود عن بلاده ويدافع عن حريتها جندي يقوم بواجبه، أما الذي يقدم دمه لكل شعب يناضل من أجل حريته فإنه أكثر من جندي، إنه بطل»، والواقع هو أن هذا الرجل كان من أنصار الدفاع عن الحريات في كل مكان وليس في إيطاليا وحدها.

وكان من أنصار العدالة الاجتماعية فقد هاجم الاستغلال ونادى بأن واجب الحكومات الأول هو رفع مستوى الشعب خلقيًا وفكريًا وصحيًا، والناس عنده يمتازون بما لهم من الكفاءة التي تتوافر شروطها في القائد الذي يختاره الشعب ليحكم واضعًا نصب عينيه مصلحة الشعب، ومن حق الشعب أن يعزله متى شاء، ويشترط في القائد أن يحيا حياة بسيطة زاهدة، وقد طبق جاريبالدي هذا المبدأ على نفسه، فاشترى أرضًا في جزيرة كبريرة الصخرية الجرداء الواقعة في شمال جزيرة «سردنيا» (انظر هذه المادة) وبنى فيها كوخًا خشبيًا بيديه، وكان يقتلع الصخور ويحرث الأرض الصلدة ويتعهد

مواشيه، وفي المعارك كان يلبس مثل رجاله دون أي تمييز ويواسيهم كوالد ويبكي عندما يقتلون في المعارك.

وانهالت الهبات والألقاب عليه فرفضها في إباء، وعرض عليه الملك فكتور عمانويل الأول قلعة ملكية وسفينة وضياعًا وألقابًا لأبنائه وصداقًا كبيرًا لابنته، فرفض كل هذا وعاد بعد أن أدى واجبه نحو الوطن ليعيش زاهدًا في جزيرة كبريرة، كما رفض في عام ١٨٧٥م (١٢٩٢هـ) منحة قدرها مليون ليرة ومعاشًا قدره خمسون ألف ليرة، فرفض المنحة والمعاش قائلاً «لو أخذتهما فلن تعرف عيناي النوم ولن أستطيع أن أرفع رأسي خجلاً».

وكان «جاريبالدي» قائدًا جسورًا لا يتراجع مهما كان الموقع خطيرًا في المعركة، ففي إحدى معاركه في جزيرة صقلية عرض عليه أحد الضباط الانسحاب للتخلص من المأزق الحرج الذي كان فيه، فبادره قائلاً: «إننا أتينا إلى هنا لنصنع إيطاليا أو نموت»، وكان هذا القائد على حق إذ إن معظم المؤرخين يقولون إن انسحابه كان ضربة قاصمة لتوحيد إيطاليا لو حصل.

وكان يخاطب الجماهير المتخلفة في هدوء وصوت عذب قائلاً: «هلموا إليَّ، إن من يظل قابعًا في بيته جبانٌ، ولكن ليس عندي ما أعدكم به سوى التعب والمشقة والمعارك والانتصار أو الموت».

ومن أخلاقه الأبية كرهه الشديد للاغتيالات السياسية على النقيض من زميل جهاده «متزيني» الذي عرض عليه فكرة اغتيال نابليون الثالث ملك فرنسا من أجل وحدة إيطاليا فرفض الاقتراح بشدة وقال: «إن إيطاليا ستتحد لاشك في هذا . . . ولكن ليس عن طريق خنجر يستخدمه خائن في الظلام!».

وليس ينقص من قدر هذا الرجل ما كان له من غراميات وأخطاء فالإنسان ليس من الملائكة المعصومين، والإنسان يؤخذ بمجموعه الكياني وأثره الخالد في الحياة، وقد كان أثر «جاريبالدي» عميقًا في تاريخ القرن التاسع عشر في غير شك.

ولم يكن «جاريبالدي» من الحريصين على التقيد بالنظم الدينية وطقوسها فقد عاشر زوجاته قبل أن يكون قرانه قد تم بهن، ورزق جميع أولاده قبل إتمام مراسيم الزواج بأمهاتهم.

ومات «جاريبالدي» بجزيرة كبريرة في اليوم الثاني من شهر يونية عام ١٨٨٢م (١٣٠٠هـ) وليس على قبره سوى كلمة «جاريبالدي» ويقوم على حراسة هذا القبر حارس إيطالي لا يفارقه.

أما ترجمة صاحب اسم الشارع الجديد فاطلبه في «محمود إسماعيل».

٥٠٥- جاليتي - شارع - بقسم المنشية (محمد رفعت الجمال حاليًا)

كل ما أعرفه عن صاحب اسم هذا الشارع، أنه كان صاحب صيدلية بشارع فرنسا (انظر هذه المادة)، الشهيد مصطفى حافظ حاليًا، وكان لهذه الصيدلية شهرة واسعة النطاق بين أهالي الإسكندرية في أوائل القرن العشرين حتى آخره، وحتى أواخر الحلقة الثانية منه، وذلك لقلة عدد

الصيدليات بالمدينة في ذلك الحين، ولأن معظم صيدليات الإسكندرية كانت لأجانب حققوا من ورائها أرباحًا طائلة، وضعتهم في صف الأثرياء على حساب المواطنين الذين نكبوا بالاحتلال الإنجليزي، وشروره المستطيرة، وكان الشيخ إبراهيم باشا، وأخوه الشيخ سليمان باشا (انظر هاتين المادتين) يتخذان من هذه الصيدلية مكانًا مختارًا لجلوسهما في أثناء النهار لأن العقار الموجودة فيه الصيدلية من أملاكهما العديدة في المدينة، ولأن جامعهما جامع الشيخ في نهاية شارع الميدان محمود فهمي النقراشي حاليًّا قريب من موقع الصيدلية.

واسم جاليتي بالكامل «كليليو جاليتي» هو إيطالي الجنسية، ومكان يتخذ مسكنه بشارع «لافيزون» رقم ٤٢ بمحطة بولكلي بضاحية الرمل على غرار معظم الأجانب الذين كانت عمارات ضاحية الرمل وقصورها وطرازها (فيلاتها) وقفًا عليهم يتمتعون بما تضم من وسائل الراحة والرفاهية دون الوطنيين لقصر ذات أيديهم عن دفع أجورها، ولقد انقلبت الحال، والحمد لله فنزح معظم الأجانب عن المدينة، وحل المواطنين محلهم في التجارة والصناعة، وفي سكنى المنازل المتوسطة والفخمة بفضل مكاسب الثورة الوطنية في عام ١٩٥٢م، أما ترجمة صاحب الاسم الجديد للشارع فاطلبها في «محمد رفعت الحمال».

٥٠٦- جاليس بك - شارع - بقسم العطارين (مصطفى محمد حافظ حاليًّا)

انظر ترجمة جاليس بك في التالي، وانظر ترجمة الاسم الجديد في «مصطفى محمد حافظ».

٥٠٧- جاليس بك - شارع - بقسم العطارين (جيسي باشا سابقًا)

كان محمد علي قد كلفه بعمل تصميمات هندسية، لتحصين استحكامات، وحصون مدينة الإسكندرية فقام بعمل هذه التصميمات، ومات محمد علي قبل الشروع في تنفيذها، ولما تولى ابنه إبراهيم الأول ولاية مصر، وعاد من الأستانة بفرمان هذه الوظيفة عام ١٢٦٤هـ (١٨٤٧م)، كلف جاليس بك بالأخذ في العمل، وقد تمت التحصينات وفاقًا لتصميماتها، وشحنت بالأسلحة، والمدافع وترتب لها الجنود، وكان من زيادة التحصين، وتقويته إنشاء مائتي سفينة صغيرة تحمل كل منها مدفعين لحماية البوغازات، والملاحات من هجمات العدو المفاجئة فأمر إبراهيم الأول بصنع هذه السفن، ومن ثم زادت البحرية المصرية قوة ومتانة، واستعدادًا لتصدي أية هجمات بحرية على السواحل المصرية، وكان جاليس برتبة كولونيل، ورئيسًا لفرقة الأعمال الهندسية بفرنسا قبل انضمامه إلى جيش محمد علي.

أما ترجمة صاحب الاسم القديم للشارع فاطلبها في جيسي باشا.

٥٠٨- جاما - شارع - بقسم الرمل (محمد بدران حاليًّا)

هو «فاسكو دي جاما Vasco de Gama» الملاح البرتغالي الشهير، ولد بمدينة «سنيوس Sinus» عام ١٤٦٩م ومات بمدينة «كوشين Cochin» عام ١٥٢٤م، بالغًا من العمر حوالي ٥٦ سنة، ويعزى له خطأ اكتشاف الطريق

البحري الموصل إلى البلاد الهندية عبر المحيط الهندي خلال عام ١٤٩٨م.

بعد أن دار بسفنه حول رأس الرجاء الصالح بجنوب القارة الإفريقية وأقام مؤسسات موزنبيق وكوشين ثم عاد إلى بلاده البرتغال، عام ١٥٠٣م، وبعد مضيّ واحد وعشرين عامًا قضاها في عطل إجباري عن العمل عين نائبًا لملك البرتغال في الهند، غير أنه مات عقب وصوله إلى كوشين.

وليس فاسكو دي جاما هو المكتشف الحقيقي لطريق الهند وإنما يرجع الفضل في هذا الاكتشاف البحري العظيم إلى الملاح العربي ابن ماجد (انظر هذه المادة) الذي دلَّ فاسكو دي جاما على هذا الطريق بما كان له من خبرة ملاحية واسعة النطاق ولاسيما في المحيط الهندي والهادي، وقد أرشد ابن ماجد «جاما» البرتغالي إلى طريق الهند من ثغر «ماليندي» الواقع على الساحل الشرقي لإفريقيا عام ٩٠٤هـ (١٤٩٨م)، وقد اعترفت حكومة البرتغال بهذه الحقيقة التاريخية منذ وقت قريب فأقامت نصبًا تذكاريًّا في «ماليندي» يخلد هذه المناسبة الهامة في عالم الملاحة الدولية، وقد ترتب على معرفة شبه القارة الهندية أن توصل «جاما» إلى الوقوف على موانئ الشرق الأقصى ومجاهل بحاره ومحيطاته وكل ذلك بفضل إرشادات ابن ماجد وتوجيهاته الملاحية.

أما ترجمة صاحب الاسم الجديد للشارع فاطلبها في «محمد بدران».

٥٠٩ - جرترود نسيم (الدكتورة) - شارع - بقسم العطارين (بروكش باشا سابقًا)

اطلب ترجمتها في الدكتورة جرترود نسيم.

واطلب ترجمة صاحب الاسم القديم للشارع في «بروكش باشا».

٥١٠ - الجرجاني - حارة - بقسم محرم بك

يحمل لقب الجرجاني انتسابًا إلى مدينة جرجان ستة من علماء المسلمين وفلاسفتهم وأدبائهم، وقبل أن أسرد ترجمة كل منهم يحسن أن يلم القارئ بنبذة تاريخية عن هذه المدينة التي تدعى باللغة الفارسية «وركانة» وهي «هرقانية القديمة Hyrkania»، وتقع جرجان في الركن الجنوبي الشرقي لبحر الخزر ومن ثمَّ عرف هذا البحر ببحر جرجان، ويطلق اسم جرجان على الولاية التي تضم المدينة وهي عين الولاية الفارسية الحديثة (أستراباذ)، وكان لجرجان شأن هام في العهد الساساني فقد كانت ثغرًا يصد غارات البدو من الشمال، ويقال إن سعيد بن العاص جنى الجزية من ملك جرجان عام ٣٠هـ (٦٥٠م) غير أن الفتح الإسلامي الحقيقي تم على يد يزيد بن المهلب عام ٩٨هـ (٧١٦م)، وكان أمير جرجان في ذلك الحين مرزبانًا فارسيًّا إلا أن السلطة الفعلية كانت في يد رئيس تركي، وقد أدَّب يزيد سكان وادي أندرهاز الصالح للملاحة وكانوا من المشاغبين، ثم خط مدينة جرجان فأصبحت حاضرة الولاية، وكانت جرجان زاهرة خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين) فقد اشتهرت بالبساتين المحيطة بها التي ترويها مياه

النهر، وكان أهم منتجاتها الحرير كما كانت محطة في طريق القوافل الذاهبة إلى روسيا، وذكر المقدسي (انظر هذه المادة) أبوابها التسعة، والظاهر أن الفتن والشقاق كانا آفة جرجان يهددان بتقويض رخائها.

وقد وجدت الدعوة العلوية تربة خصبة في البلاد التي تحف ببحر الخزر، ففي جرجان نفسها كان قبر محمد بن جعفر الصادق موضع التبجيل العظيم، وأتى الغزو المغولي على معالم المدينة ويدل على ذلك أنها صارت كومة من الخرائب في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، وقد أعيد تشييدها بعد هذه النكبة فذكرها حاجي خليفة في تاريخه وقال إن أهلها من غلاة الشيعة، ثم وصفها ياقوت (انظر هذه المادة) «بأنها أكبر مدينة بتلك النواحي ووصف أهلها بأنهم أحسن من أهل طبرستان وقارًا وأكثر منهم مروءة ويسارًا وبأنهم أصحاب أناة وأخلاق محمودة، وقد خرج من بينهم كثير من العلماء والأدباء والفقهاء والمحدثين»، وفيما يلي ترجمة كل من الأعلام الستة الذين دوَّن التاريخ سيرهم:

١) **أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني**: ولد في جرجان سنة ٢٩٠هـ (٩٠٢م) وبدأ حياته العلمية بالرحيل إلى العراق والشام وغيرهما واقتبس من ألوان العلوم والآداب حتى أصبح من أعلام عصره في الأدب والعلوم والشعر، واستمر على التجوال في البلدان إلى أن وفد على الصاحب بن عبَّاد (انظر مادة ابن عبَّاد) فاختص به وقلده قضاء جرجان وبقي إلى أن صار قاضي القضاة في الرّي حيث توفي.

وأبو الحسن الجرجاني مَثَلٌ أعلى لعزة النفس وصون الكرامة، وكان عالمًا جليل القدر وأديبًا كبيرًا وشاعرًا مجيدًا وكاتبًا مترسلاً وناقدًا منصفًا، وكان الصاحب بن عبَّاد، وهو الأديب العظيم والوزير الخطير والشاعر الناقد، يجل القاضي الجرجاني ويمدحه نثرًا وشعرًا، ومن ذلك قوله له:

يَأَيُّها القَاضِي الذِّي نَفْسِي له
مَعَ قُرْبِ عَهْدِ لِقَائِهِ مُشْتاقَهْ

أَهْدَيْتُ عِطْرًا مِثْلَ طِيبِ ثَنَائِهِ
فَكَأَنَّمَا أُهْدِي لَهُ أَخْلاَقَهْ

وسيرة حياة القاضي الجرجاني مثال للنزاهة والفضل والأدب وعزة النفس والعلم الغزير والترفع عن كل ما يشين مع لسان عف مما جعله في الذروة بين قومه وأدباء عصره وكان كما يقول:

وَشَيَّدْتُ مَجْدِي بَيْنَ قَوْمِي فَلَمْ أَقُلْ
أَلاَ لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ صَنِيعِي

وكان شعره جزلاً منسجم المعاني نقي الألفاظ حسن الديباجة وقد قال في شتى الأغراض فبرع فيها جميعًا وله ديوان حافل عبر فيه عن خلجات نفسه وأحاسيس وجدانه أدق تعبير وأوضح فيه ترفعه عن الدنايا ومحافظته على الكرامة ويتمثل كل ذلك في قوله:

وَقَالُوا تَوَصَّلْ بِالخُضُوعِ إلى الغِنَى
وَمَا عَلِمُوا أَنَّ الخُضُوعَ هُوَ الفَقْرُ

وَبَيْنِي وَبَيْنَ المَالِ بَابَانِ حَرَّما
عَلَيّ الغِنَى: نَفْسِي الأَبِيَّةُ والدَّهْرُ

إذَا قِيْلَ هَذَا اليُسْرُ أبْصَرْتُ دُونَهُ
مواقِفَ خَيْرٌ مِن وُقُوفِي بِهَا العُسْرُ

إذا قُدِّمُوا بالوَفْرِ قُدِّمْتُ قَبْلَهُم
بِنَفْسِ فقيرٍ كلُّ أَخْلاَقِه وَفْرُ

وذكر له الثعالبي قصائد ومقطوعات في الغزل الرقيق العذب الجرس الحلو المعاني وذلك على الرغم من مكانته العلمية الرفيعة، فهو ينشد متشوقًا إلى أصدقاء الشباب وملاعب الصبا وديار الأنس فيقول:

يَا نَسِيمَ الجَنُوبِ بِاللهِ بَلِّغْ
مَا يَقُولُ المُتَيَّمُ المُسْتَهَامُ

قُلْ لأَحْبَابِهِ فَدَاكُمْ فُؤادٌ
لَيْسَ يَسْلو وَمُقْلَةٌ لاَ تَنَامُ

يَا دِيَارَ السُّرُورِ لاَزَالَ يَبْكِي
بِكِ فِي ضَاحِكِ الرِّيَاضِ غَمَامُ

رُبَّ عَيْشٍ صَحِبْتُه فيكِ غَضٍّ
وجُفونُ الخُطُوبِ عَنِّي نِيَامُ

في ليالٍ كأنهنَّ أمانٍ
من زَمَانٍ كأنه أحلامُ

وكأنَّ الأَوْقَاتَ فِيهَا كُئُوسٌ
دَائِراتٌ وأُنْسُهُنَّ مُدَامُ

زَمَنٌ مُسْعِدٌ وإلْفٌ وَصُولٌ
وَمُنىً تَسْتلِذُّهَا الأَوْهامْ

كلُّ أُنْسٍ وَلذَّةٍ وَسُرُورٍ
بَعْدَما بِنْتُمُ عَلَيَّ حَرَامُ

ومن غزله الرقيق قوله:

أفدي الذي قَالَ وَفِي كَفِّهِ
مِثْلُ الذي أشربُ من فِيْهِ

الوردُ قد أيْنَعَ في وَجْنتي
قلتُ: فَمَنْ باللَّثم يَجْنِيْهِ

وتظهر منزلة الجرجاني العالية في الأدب ومعرفة فنون الشعر وأغراضه وسعة اطلاعه وعميق بحثه ودقة نقده واضحة في كتابه «الوساطة بين المتنبي وخصومه»، فقد ملأ المتنبي الدنيا وشغل الناس بشعره فتعصب له فريق وحط من شأنه فريق آخر، وكان من الذين غضوا من شعره الصاحب بن عبادّ فألف فيه رسالة بعنوان «الكشف عن مساوئ المتنبي» ذكر فيها أبياتًا من شعره تدل على الركاكة وقبح الألفاظ والتعقيد والغموض، أما أبو الفتح ابن جني فكان ممن يرفعون شأنه ويشيدون بفضله، وصار لكل من الفريقين أشياع، فألف الجرجاني كتابه «الوساطة» فأصاب كل الصواب، ولم يأت كتابه عرضًا لشعر المتنبي فقط وإنما عرضًا للأصول الأدبية التي عرفت في عصره وتحليلاً لأشعار القدماء والمحدثين على السواء مع استعراض شيق لمحاسنهم وعيوبهم ثم عرضًا للبيئة وأثرها في الشعر والبداوة وما تحدثه من جفوة الطباع والحضارة

وما يتبعها من رقة وسهولة في الأسلوب والمعاني، ثم يعرض لخصوم المتنبي وأنصاره ومعانيه المأخوذة أو المخترعة وكل ذلك في أسلوب علمي دقيق وعرض واضح شامل.

وترك القاضي أبو الحسن الجرجاني من المصنفات غير كتاب الوساطة كتابًا في تفسير القرآن وكتابًا آخر بعنوان «تهذيب التاريخ»، وقد تتلمذ الفقيه الشافعي والنحوي اللغوي عبد القاهر الجرجاني - صاحب الترجمة المدونة بعد - على ما جاء في مؤلفاته، إذ كان أبو الحسن أقرب الناس إلى قلب عبد القاهر الجرجاني وأعزهم على نفسه.

ومن حب أبي الحسن الجرجاني للعلم والاطلاع أنه كان يجد فيهما جليسًا وأنيسًا ويدل على ذلك قوله:

ما تطعَّمْتُ لذةَ العَيْشِ حَتَّى
صِرْتُ للبَيْتِ وَالكِتَابِ جَلِيسا

لَيْسَ شَيْءٌ أَعَزَّ عندي من العِلْـ
مِ، فما أبتغي سِواهُ أنيسا

إنَّما الذُّلُّ في مَخَالَطَةِ النَّا
سِ فَدَعْهُمْ، وعِشْ عزيزًا رئيسا

وتوفي هذا العالم الجليل والشاعر المجيد بمدينة الري يوم الثلاثاء الموافق ٦ من ذي الحجة عام ٣٦٦هـ (٩٧٦م) وكان قاضي قضاتها وقت وفاته ثم حمل تابوته إلى جرجان ودفن بها، وكان عمره حوالي ٧٥ عامًا ميلاديًّا.

٢) عبد القاهر أبو بكر ابن عبد الرحمن الجرجاني: فقيه شافعي ومتكلم على أصول الأشعري (انظر هذه المادة)، وقد شغف عبد القاهر بالعلم ولاسيما النحو والأدب، ولعل السبب في شغفه أن الفترة التي عاشها كانت مليئة بالصراع السياسي والحروب بين الطامعين في الملك والحكم في ولاية جرجان، وكانت قد آلت إلى السلاجقة في عصره، فآثر كثير من العلماء والأدباء الانصراف إلى الثقافة والتزود من المناهل التي تفجرت من القرون الأربعة التي سبقته فجرت منها تيارات عربية مختلفة وتيارات إسلامية تمثلها المذاهب الأربعة وغيرها من المذاهب ويمثلها علماء الكلام من سنية ومعتزلة وأشاعرة ورافضة، وتسري بها تيارات أجنبية فارسية ويونانية وهندية.

وأعظم أساتذة عبد القاهر الجرجاني وأعمقهم أثرًا في نفسه أبو الحسين محمد بن الحسن الفارسي النحوي اللغوي نزيل جرجان، أما الذين تتلمذ لهم فكثيرو العدد وأقربهم إلى نفسه أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني مؤلف كتاب «الوساطة بين المتنبي وخصومه»، وقد كان عبد القاهر مزهوًّا به معتزًّا بالانتماء إليه، على أنه نقل في كتابين عن الجاحظ وأبي العباس ثعلب مؤلف كتاب الفصيح وأبي هلال العسكري مؤلف «الصناعتين» وسيبويه مؤلف «الكتاب» وابن قتيبة مؤلف «عيون الأخبار» وغيرهم، وقد قرأ عبد القاهر أشعار البحتري وأبي تمام والمتنبي واختار منها (انظر مواد: الجاحظ، وسيبويه، وابن قتيبة، والبحتري، وأبو تمام، والمتنبي)، غير أن عبد القاهر الجرجاني لم يكن كثير النقل عن الآخرين ومن ثمَّ كانت له شخصية متميزة مستقلة، فإذا نقل فإنما ينقل ما يؤيد فكرته فإذا كان النقل لا يؤيدها قام بتفنيده.

والطابع الغالب على ثقافته هو النحوي اللغوي الأدبي الديني، غير أن أبرز سماتها النحو الذي انفرد فيه بأن أسس عليه نظريته البلاغية في النظم، ولعبد القاهر مؤلفات كثيرة أهمها في النحو: «شرح المفصل» على كتاب الإيضاح لأبي علي الفارسي، وجعل لهذا الشرح عنوان هو «المُغْني»، وهو في أكثر من ثلاثين مجلدًا ثم اختصره في ثلاثة مجلدات بعنوان «المختصر»، و«التكملة في النحو»، و«الإيجاز»، وقد اختصر فيه «الإيضاح» و«العوامل المائة في النحو» وقد شرحه كثير من العلماء، و«العمدة في التصريف والعروض».

أما في الأدب فله: المختار من دواوين المتنبي والبحتري وأبي تمام والمعتضد وهو شرح لإعجاز القرآن الذي ألفه أبو عبد الله محمد بن زيد الواسطي، والرسالة الشافية في الإعجاز ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، وشرح سورة الفتح، وقد كان عبد القاهر إلى جانب علمه الغزير ينظم الشعر على قلة ولم يرق شعره إلى مرتبة الجودة.

وقد ذاع صيته فوفد عليه الطلاب بجرجان يتلقون عليه العلم، غير أنه لم يصادف حظًّا يكفل له رغد العيش على الرغم من مكانته العلمية، فسخط على حظه العاثر الذي قال فيه:

كبر على العلم لا تَرُمْهُ
وَمِلْ إلى الجهلِ مَيْلَ هَائِمْ

وَعِشْ حِمارًا تَعِشْ سَعِيدًا
فَالسَّعْدُ فِي طَالِعِ البَهَائِمْ

وكان الجرجاني متدينًا ورعًا راضيًا بحظه ساخطًا عليه حينًا وكان صريحًا لا يمالئ، ومن أشهر مؤلفاته ومن أحسن ما كتب دلائل الإعجاز، فهو يقول إن سبب إعجاز القرآن الكريم هو النظم البديع والبلاغة المتناهية والأسلوب الرائع.

وكان عبد القاهر الجرجاني أحد أئمة النحو وضابط علوم البلاغة حتى ليحق أن يكون هو الواضع له على النظام الذي نعرفه، ولم يزد عليه السكاكي إلا تطبيق المنطق على البلاغة مع بعد ما بينهما، وقد اطلع على مؤلفات أبي الحسن الجرجاني وأعجب بها وصار من تلاميذه.

وتوفي عبد القاهر أبو بكر الجرجاني عام ٤٧١هـ (١٠٧٨م) ولا يعرف تاريخ ميلاده.

٣) **إسماعيل بن الحسين أبو الفضل الجرجاني**: طبيب عربي توفي عام ٥٣٠هـ (١١٣٥م) ألف كتابين في أصول الطب وأهدى أحدهما إلى علاء الدين علي أرسلان وعنوانه «التذكرة الأشرفية في العناية الطبية»، وأهدى الآخر لخوارزم شاه وعنوانه «خوارزم شاه يكي جامع كتبخانه سنده محفوظ» وله أيضًا رسائل في الطب، ولا يعلم مكان وتاريخ مولده.

٤) **علي بن محمد الشريف الجرجاني**: متكلم عربي وفيلسوف، ولد عام ٧٤٠هـ (١٣٣٩م) في تاجو قرب أستراباذ بالبلاد الفارسية، وندبه للتدريس في شيراز الشاه شجاع بن محمد مظفر، وذلك خلال عام ٧٧٩هـ (١٣٧٧م)، وكان التفتازاني هو الذي قدمه إلى هذا الشاه، ولما استولى تيمور على شيراز عام ٧٨٩هـ (١٣٨٧م) أوفده إلى سمرقند، وعندما توفي تيمور عام ٨٠٧هـ (١٤٠٤م) استطاع الجرجاني العودة إلى شيراز.

وقد كتب الفيلسوف الجرجاني رسائل عدة في الفلسفة باللغة العربية كما كتب رسائل أخرى باللغة الفارسية، وله شروح ضافية على أهم الكتب التي تتناول أصول الفقه الإسلامي وعلم الهيئة والفلسفة، ومن أهم مؤلفاته كتاب «التعريفات» وقد طبع في ليبسك ببولاندا عام ١٢٦٢هـ (١٨٤٥م)، وفي استانبول عام ١٢٥٣هـ (١٨٣٧م)، وفي القاهرة عام ١٣٠٦هـ (١٨٨٨م)، وفي بطرسبورج (لبينجراد حاليًّا) عام ١٣١٥هـ (١٨٩٧م)، وشروح على الكشاف للزمخشري على هامش طبعات القاهرة، وشرح على الجزء الثالث من مفاتيح العلوم للسكاكي وهو الجزء الخاص بعلم المعاني والبيان، وشروح على شرح التفتازاني على تلخيص المفتاح للقزويني وهو المعروف بالشرح المطول، وشرح على الفرائض السراجية للسجاوندي، وشروح على شرح البخاري على كتاب العين، وشرح على كتاب المواقف في علم الكلام للإيجي، وله الأصول المنطقية وهي الرسالة الثالثة عشرة من مجموعة الرسائل التي كتبها.

وتوفي علي بن محمد الشريف الجرجاني بشيراز عام ٨١٦هـ (١٤١٣م) بالغًا من العمر حوالي ٧٤ سنة.

٥) **نور الدين محمد بن علي الجرجاني**: هو ابن علي بن محمد الشريف صاحب الترجمة السابقة، وقد ترجم رسالة في المنطق إلى اللغة العربية وكان أبوه قد كتبها باللغة الفارسية، ومن جهة أخرى قام بكتابة شرح لرسالة أخرى لأبيه في الأصول وشرح لرسالة التفتازاني في النحو وهي المعروفة بإرشاد الهادي، وألف نور الدين كتابًا عنوانه «الغرة في المنطق» شرحه الصفوي المتوفى عام ٩٥٣هـ (١٥٤٦م)، وتوفي نور الدين الجرجاني عام ٨٣٨هـ (١٤٣٤م) بمدينة شيراز ولا يعرف تاريخ ميلاده على وجه التحقيق.

٦) **فخر الدين أسعد الجرجاني**: شاعر فارسي وصاحب الملحمة البديعة «ويس ورامين» ولا يعرف من سير حياته إلا أنه ألف هذه الملحمة نزولاً على رغبة أبي الفتح المظفر، والظاهر أنه هو العميد عينه الذي ذكره ابن الأثير (انظر هذه المادة)، ومن ثمَّ لا شك في أنه عاش حوالي منتصف القرن الحادي عشر الميلادي.

٥١١– جركس بك – شارع – بقسم محرم بك (محمد عماد الدين كامل حاليًّا)

تذكر السير أن اسم إبراهيم جركس يحمله ثلاثة من رجال الحربية في عهد محمد علي وأبنائه وهم:

١) **إبراهيم جركس**: الذي كان موظفًا، ثم اختير في البعثة الرابعة التي أرسلت عام ١٨٤٤م (١٢٦١هـ) إلى فرنسا وإنجلترا، فدخل المدرسة الحربية المصرية التي أنشأها محمد علي بباريس، وأصيب أثناء الدراسة بخبل في عقله فعاد إلى مصر عام ١٨٤٦م (١٢٦٣هـ)، وقد عاد إلى الجيش المصري بعد شفائه، ورقي حتى بلغ رتبة الأميرالاي، ومنح لقب البكوية.

٢) **إبراهيم جركس**: وكان ناظر المصلحة الإنجليزية عام ١٨٦٧م ١٢٧٤هـ في عهد الخديوي إسماعيل وكان برتبة بك أيضًا.

٣) إبراهيم جركس: وقد اشترك في حرب القرم ضد روسيا عام ١٨٥٣م (١٢٧٠هـ)، وكان برتبة لواء وقائدًا لفرقة من المشاة، ومن ثم فلابد أنه كان برتبة باشا في تلك الحرب التي اشترك الجيش والأسطول المصري فيها اشتراكًا كبيرًا أدى إلى انتصار تركيا وحلفائها على الروس، وقد غرق أثناءها المرحوم حسن باشا الإسكندراني (انظر هذه المادة) في مدخل مضيق البسفور بتركيا.

٥١٢- جرير - شارع - بقسم الرمل

هو أبو حَزْرة جرير بن عطية الخطفي، والخطفي لقب غلب على جدّه حذيفة لوقوع هذا اللفظ في شعر له ومعناه السير السريع، وجرير من قبيلة كليب، وكليب حي من يربوع من بني تميم وكانوا ينزلون بقرية حَجْرٍ من قرى اليمامة بالجنوب الشرقي من نجد، وهي المسماة الآن بالرياض.

ويكنى جرير بأبي حَزْرة لأن ابنه البكر كان يدعى بهذا الاسم، وولد جرير باليمامة في خلافة عثمان بن عفان (انظر هذه المادة) ونشأ بين عشيرته بني الخطفي نشأة البدوي الفقير، وكان يرعى على أبيه غنيمات له من الضأن والمعزى، وكان أهل بيته - على فقرهم - يغلب عليهم الشعر ويتهاجون مع شعراء قومهم، فظهر عليهم الشاعر غَسَّان السليطي أحد بني عمومتهم وسمعه جرير يهجو قومه على مسمع من الناس فأخذته الحماسة ونطق بالشعر وهجا بالرجز السليطي بأفحش هجاء، فطرب له أهله واعتزوا به ثمَّ تمادى الهجاء بينه وبين غسَّان وكان جرير يتفوق عليه في هذا اللون من الشعر، ولقد استعان غسَّان برجل من بني مجاشع يدعى البَعِيث وكان من عشيرة الفرزدق (انظر هذه المادة) من بني تميم، فهجاهما جرير وتفوق عليهما معًا وأخذ يسب نساء مجاشع سبًّا شنيعًا.

وكان الفرزدق قد اشتهر في ذلك الحين بشعره وارتفع به إلى مكانة الفحول، غير أنه كان تائبًا عن الهجاء وقت أن اشتبك جرير مع البَعِيث وآل على نفسه ألاَّ يبرح منزله حتى يحفظ القرآن الكريم.

ولكن حين جاءته نساء مجاشع يلمنه على عزلته وترك جريرًا ينهش أعراضهن بادر إلى هجاء جرير فاحتدم بينهما الهجاء وتدخل بينهما في التهاجي حوالي ثمانين شاعرًا منهم الأخطل (انظر هذه المادة)، فأسقطهم جرير ولم يثبت لهجائه غير الفرزدق والأخطل، واستمر جرير على هجاء الفرزدق نحو عشرين عامًا وهو مستقر باليمامة والفرزدق مقيم بالبصرة حيث إقامة علماء اللغة والأدب والنحو والفقه وحيث يكثر الرواة والمتعلمون فيحفظون شعره ويشيدون به.

وعندها استقدم يربوع البصرة جريرًا من البادية ليهاجي الفرزدق وجهًا لوجه ويستمع له الرواة والأدباء، فسافر إلى البصرة وطالت إقامته بها واتصل بولاة العراق أمثال بشر ابن مروان أخي عبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف (انظر مادة الحجاج) الذي اختص به لدرجة أن الخليفة عبد الملك حسده عليه.

ولما أرسله الحجاج إلى الخليفة مدحه بقصيدة ثم مدح الوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز (انظر هذه المادة) ويزيد بن عبد الملك وهشام، ومن ثمَّ صار منافسًا للفرزدق في الدخول على الملوك ومدحهم والتكسب بالشعر بقية حياته.

ومات الأخطل وطالت حياة جرير والفرزدق فمازالا يتهاجيان حتى توفي الفرزدق عام ١١٠هـ (٧٢٨م) وتوفي جرير في السنة نفسها بعد ستة أشهر فقط من وفاة الفرزدق، وهكذا سكن ما كان بينهما من تراشق ومشاحنة طال أمدها وكثر ما قيل فيها من قصائد.

وليس من المستغرب إصرار جرير على الهجاء فهو وليد البادية يفيض وجدانه بالمغالبة للانتصاف لنفسه ولقومه بيديه أو بلسانه؛ ولذا درج على المهاجاة والمهاترة لا يسمح لأحد أن يعِّرض به أو بقومه. فإذا فعل صب عليه جام غضبه ومقذع هجائه ولهذا كان شاعرنا مسرفًا في عداوته وحقده وانتقامه إلى أبعد الحدود، وكان إلى جانب ميله للشر شديد الخوف من أعوان السلطان شحيحًا بخيلاً إلاَّ على أهله وولده وقد جرَّ عليه هذا البخل هجاء طائفة من شعراء عصره، وكان لا يتورع عن الافتراء على الأبرياء في هجائه ولا يجد أية غضاضة في رمي المحصنات العفيفات بالسوء، وكان لا يتورع عن الكذب حتى على نفسه فينسب إليها بعض المخازي إذا كان في ذلك نيل من عِرض خصمه، ومع كل هذه الخصال الذميمة كان ديِّنًا يكثر من الصلاة والدعاء والتسبيح عفيفًا لم يستطع خصومه – على كثرتهم – أن ينالوا من سمعته، وكان كثيرًا ما يستغفر الله من قذف المحصنات بالباطل ويقرّ أمام الناس ببراءتهن ويعتذر عن قذفهن بأن أولياءهن ظلموه فجازاهم بما ظلموا.

أما شعره فكان متدفقًا فياضًا يواتيه متى شاء ويُصرّفه كيف يشاء غير مشتمل على التكلف أو الحشو والتقيد أو اضطراب القافية، وأرق شعره ما كان في التشبيب أو العتاب، وعلى النقيض من ذلك كان شعر الفرزدق في تعمق معانيه وفخامة أسلوبه ومداخلة بعض ألفاظه ببعض، ومن ثمَّ أعجب الناس بشعر جرير وجرى على ألسنتهم في سهولة ويسر وبقي شعر الفرزدق يتردد على ألسنة العلماء والخاصة وهم قلة في كل عصر وكل أمة.

وقال جرير الشعر في أغراض كثيرة غير أن أغلب ما نظم كان في النسيب والهجاء والفخر والمدح والوصف بمختلف أشكاله.

وأما شعره في الغزل والنسيب فيمتاز بالرقة وحسن الوقع في السمع وعذوبة الجرس وقوة التأثير على النفس ولا يخرج عن مذهب الجاهلية والشعراء المخضرمين من حيث التجمل والتصون الذي لا يخرج به عن وصف شعراء البادية لأزواجهم وقسمات وجوههن وملاحة قدودهن وطيب الحديث معهن، كما يتناول شعره في هذا اللون من القريض أثر فراق الأحباب في النفوس، وكل ذلك في ألفاظ جزلة ومعان شريفة وعبارات حصيفة وفحولة واضحة في انتقاء العبارات، فلم يتأنث في غزله فيحاكي النساء في حديثهن وحوارهن وتدللهن ودعابتهن كما فعل بعض شعراء صدر الإسلام وعلى رأسهم عمر بن أبي ربيعة (انظر هذه المادة) والأحوص وغيرهما أو يركن إلى تهافت خلعاء الموالي والمغنين في نظمه للشعر، وقد كان نسيب جرير غير صادر عن عشق وهيام كما صدر عن الشعراء العشاق أمثال كثير عزة وجميل بثينة، ولو عشق مثلهم لصار إمام هذا اللون من القريض وقد قال عن نفسه: «ما عشقت قط، ولو عشقت لنسبت نسيبًا تسمعه العجوز فتبكي على شبابها»، ومن رقيق نسيبه قوله:

بنفسي مَنْ تجنُّبه عزيزٌ
علَيَّ ومَنْ زيارته لِمامُ

وَمَنْ أُمْسِي وأُصْبِحُ لاَ أَرَاهُ
وَيَطرُقُني إذا هَجَر النيَامُ

ومن أعذب وأملح ما نظم في هذا الباب هذان البيتان اللذان يرددهما الزمان على مر السنين والأجيال دون أن يمل الترديد على ألسنة أبناء العصور الماضية:

إنَّ العُيُونَ التِي في طَرْفِهَا حَوَرٌ
قَتَلْنَنَا ثمَّ لَمْ يُحْيِينَ قَتْلانَا

يَصْرَعْنَ ذَا اللُّبِّ حَتَّى لاَ حِرَاكَ بِهِ
وَهُنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ الله إِنْسَانَا

والإنسان في البيت الأخير هو إنسان العين، وفي بعض الروايات أن عجز هذا البيت ذكر كالآتي: «وهن أضعف خلق الله أركانا» ولكن لفظ إنسان أجمل في المعنى؛ لأن إنسان العين ضعيف فعلاً ويتأثر بأية صدمة في العين وإذا أصيب بغشاوة يفقد الإنسان جزءًا كبيرًا من إبصاره.

وهجاء جرير عنيف قوي المعاني وكان إذا انتقم لنفسه أو لقومه من شاعر بدأ بهجائه ويستمر على قول الهجاء فيه حتى يغلبه على أمره، وقد ظل الهجاء مستحكمًا بينه وبين الفرزدق أكثر من نصف قرن ولم يكفهما عنه إلا الموت.

وأكثر هجاء جرير يحمل الطابع التهكمي الاستهزائي مع التعجب من مكابرة خصمه له ومن تبذله بين الناس ثم يرمي هذا الخصم بما يضحك السامع بألفاظ يفهمها الخاصة والعامة، ومن أمثلة ذلك هجوه للراعي بقوله:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ
فَلاَ كَعْبًا بَلَغْتَ وَلاَ كِلابَا

فهو بهذا البيت الفرد يسب الراعي ويسب عشيرته كلها وهي نمير.

ومن تهكمه بالفرزدق قوله:

زَعَمَ الفَرَزْدَقُ أَنْ سَيَقْتُلُ مِرْبعًا
أَبْشِرْ بِطُولِ سَلاَمَةٍ يَا مِرْبَعُ

وقد صار هذا البيت مثلاً يقوله كل من يريد التهكم بخصم يعرف أنه جبان ويدعي أنه مغوار شديد البأس والانتقام.

وأغرى جريرًا بالفرزدق والأخطل فسق الفرزدق ونصرانية الأخطل وشربه الخمر مع عفته هو وتدينه، وكان كلما هجا أحدهما بقصيدة رد عليه بمثلها، وكان من ذلك تراث أدبي كبير حفظه تاريخ الأدب العربي عبر السنين.

ولم يستطع جرير أن يفخر بعشيرته من كليب لخمول ذكرهم وشأنهم في الجاهلية والإسلام إذ كانوا فقراء سيئي الحال بخلاء وخاصة أباه عطية، ولذلك عدل عن مفاخرة الفرزدق – وآباؤه من سادة تميم – وأخذ يفاخر ببني يربوع وهم قبيلته العليا وفيهم شرف ونباهة وشدة بأس في الجاهلية والإسلام، وكثيرًا ما عيره الشعراء بمفاخرته بغير أهل قبيلته من كليب وكان ذلك من أشد هجائهم عليه، غير أن براعته في صناعته غطت على ضعة أبيه وهوانه وبخله.

ومن تفاخره على الأخطل تحقير قبيلة تغلب ورفع شأن قبيلة مُضَر وفيهم النبوة والخلافة، ولم يستطع الأخطل أن ينقضه عليه وهو قوله:

إنَّ الَّذي حَرَمَ المَكَارِمَ تَغْلِبًا
جَعَلَ الخِلافَةَ وَالنُّبُوَّة فِيْنَا

مُضَرٌ أَبِي وَأَبُو المُلُوكِ فَهَلْ لَكُمْ
يا خُزْرَ تَغْلِبَ مِنْ أبٍ كَأَبِينَا؟

هَذا ابْنُ عَمِّي فِي دِمَشْقَ خَلِيفَة
لو شِئْتُ ساقكمو إليَّ قَطِينَا

فلما بلغ الخليفة هذا الشعر قال: «ما زاد ابن المراغة أن جعلني شرطيًّا؟ أما لو أنه قال لو شاء ساقكم إلي قطينا لسقتهم إليه كما قال»، والقطين هم العبيد.

ولقد نافس جرير الأخطل والفرزدق في استخراج أموال الخلفاء والأمراء والولاة بالمدح وتخطاهما في أنه لم يأنف عن مدح غير بني أمية كما أنف الأخطل الذي لم يمدح الحجاج إلاَّ مرة واحدة حينما أمره عبد الملك بن مروان، فجرير مدح بني أمية وولاتهم ولاسيما الحجاج، ومدح القيسية أعداء تميم في الجاهلية والإسلام، ومدح الموالي من العجم وغيرهم وجعلهم في مستوى العرب في الشرف، ومن ثمَّ كانت عطاياهم لا تنقطع عنه وكانوا يحفظون شعره ويروونه ويباهون به، وكان إذا مدح استقصى صفات الممدوح وأطال ولا يخلطه بفخر ولا هجو خصوم كما كان يفعل الفرزدق، فهو في باب المدح أعرق من الفرزدق ولا يفضله فيه غير الأخطل.

وقد أشاد جرير في شعره ببني أمية وعمل على الدعاية لهم وخصص لهذه الدعاية الكثير من شعره السياسي، ولما كانت نشأته في البادية فقد اشتمل أسلوب شعره على المعاني المستمدة من بيئة البدو مضافًا إليها ما جاء به الإسلام من الشعائر والآداب والعبادة والموعظة والحكمة، ومن ثمَّ جاء شعره معبرًا عن الحياة البدوية في الإسلام أصدق التعبير؛ ولذلك سُمِّي هو ونظراؤه من أهل عصره بالإسلاميين ولاسيما أنه لم يكن قد دخل على الشعر بعد شيء من علوم الأمم العريقة في الحضارة كالفرس واليونان والهنود التي امتزجت بأفكار الشعراء الذين جاءوا بعدهم من أمثال أبي تمام وابن الرومي والمتنبي والمعري (انظر هذه المواد).

وقد كانت معاني جرير فطرية غير بعيدة الغور ذات قوالب جزلة الألفاظ فحلة الأساليب حسنة الجرس خفيفة الوقع على سمع الخاصة والعامة شديدة التأثير على النفوس ومن ذلك كله يأتي إعجاب الناس بشعره، فقالوا إن أمدح بيت قاله العرب قول جرير في عبد الملك بن مروان:

أَلَسْتُمْ خيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا
وَأَنْدَى العَالَمِينَ بُطونَ راحِ؟

وإن أهجى بيت قوله للراعي النميري:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ
فَلاَ كَعْبًا بَلَغْتَ ولا كِلابَا

وإن أغزل بيت قوله:

إنَّ العيونَ الَّتي فِي طَرْفِها حَوَرٌ
قَتَلْنَنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيينَ قَتْلانَا

وأفخر بيت قوله:

إِذَا غَضِبَتْ عَلَيْكَ بَنُو تَميمٍ
وَجَدْتَ الناسَ كُلَّهُمُو غِضَابَا

وأصدق بيت قوله:

إنِّي لأَرْجُو مِنْكَ خيرًا عَاجِلاً
وَالنَّفسُ مُولَعَة بِحُبِّ العَاجِلِ

وأشد بيت في التهكم قوله للفرزدق:

زَعَمَ الفَرَزْدَقُ أَنْ سَيَقْتَلُ مِرْبَعًا
أَبْشِرْ بِطُولِ سَلاَمَةٍ يا مِرْبَعُ

وكل هذه الأبيات النادرة في المعاني والقصد الذي تهدف إليه على إيجازها وسهولة أسلوبها وطلاوة جرسها صارت ذات شهرة عامة تنطق بها ألسنة الناطقين بالضاد عبر القرون فتتمثل بها أو ترويها حكمة أو مثلاً.

وهكذا كانت حياة جرير الشاعر الفحل الذي يسري شعره في النفوس سريان سرِّ الحياة فيثير إعجابها ويلذ وجدانها فتطرب لسماعه وتأنس بسرده، وعلى الرغم من قصر جُلِّ همه على الهجاء كان جرير صادق الحزن يرعى الوفاء العائلي فقد رثا زوجته بقصيدة قال في مطلعها:

لَوْلاَ الحَيَاءُ لَهَاجَني اسْتِعْبارُ
وَلَزُرْتُ قَبْرَكِ والحَبِيبُ يُزَارُ

وَلَقَدْ نَظَرتُ، وَمَا تَمَتُّعُ نَظْرَةٍ
في اللَّحْدِ حَيْثُ تَمَكَّنَ المحفارُ

وَلَّهْتِ قَلْبِي إذْ عَلَتْني كَبْرَةٌ
وذُوو التَّمَائِم مِنْ بَنِيكِ صِغارُ

أَرْعَى النُّجْومَ، وقد مَضَتْ غَوْرِيَّةً
عُصَبُ النجومِ كَأَنَّهنَّ صُوارُ

٥١٣- الجزايرلي - شارع - بقسم الجمرك



منزل محمد توفيق بك الجزايرلي، ابن عم المؤلف

هو الشيخ محمد المفتي الجزايرلي، ولد بميناء عنابة الواقع في شرق القطر الجزائري، والذي يرجع اسمه إلى وجود كثير من شجر العناب حوله، وكان مولده في حوالي عام ١٧٩٠م ١٢٠٢هـ، وكان والده يتولى الإفتاء على المذهب المالكي الذي مازال سائدًا في أقطار المغرب العربي، وقد حل الشيخ محمد محل والده في الإفتاء بعد أن بلغ الأربعين من عمره.

وعندما بدأ الفرنسيون في غزو القطر الجزائري خلال عام ١٨٣٠م ١٢٤٦هـ، كان الشيخ محمد من أوائل المناهضين لهذا الغزو الاستعماري فأخذ يحرض على القتال في سبيل الله والوطن ثم انضم إلى الأمير البطل عبد القادر بن محيي الدين في جهاده الباسل الذي بدأ في غضون عام ١٨٣٢م ١٢٤٨هـ وظل منضمًّا إلى رجال المقاومة يحث المقاتلين على الاستشهاد لنصرة الدين الإسلامي والعروبة، وذلك في جميع المراحل التي قطعها دفاع الأمير عبد القادر البطولي الفذ التي استمرت حتى ٢٢ من ديسمبر عام ١٨٤٧م ١٢٦٤هـ، وهو اليوم المشؤوم الذي اضطر فيه الأمير إلى أن يسلم سيفه إلى القائد الفرنسي لامور سير بعد جهاد دام خمسة عشر عامًا.

وكان الشيخ محمد وقت هذا الاستسلام المحزن في شمال البلاد الجزائرية، ولم يطق الإقامة على الضيم تحت النير الفرنسي فرحل هو وأفراد أسرته إلى الإسكندرية في طريقه إلى الديار الحجازية حيث كان ينوي الإقامة حتى الوفاة.

وبالإسكندرية اتخذ لإقامته المؤقتة منزلاً بشارع «مدورة»، وفي أحد الأيام ذهب إلى مسجد سيدي تمراز لتأدية صلاة المغرب، وعقب الصلاة أخذ الإمام يلقي درسًا موضوعه الآية القرآنية الشريفة: ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾

وتمادى الإمام في تفسير هذه الآية بما يشعر بوجوب الطاعة الصاغرة المطلقة للحاكم دون اعتراض فقام الشيخ محمد وصرخ في وجه الإمام قائلاً: «هذا لا يتفق وروح الإسلام الذي يقضي أنه لا طاعة في معصية، وأنه إذا كان الحاكم مستبدًّا أو ظالمًا وجب تنحيه فإذا أصر على التمسك بالحكم، وجب قتاله»، فسعى أعوان محمد علي إلى الوشاية بالشيخ محمد، ولما مثل أمام الحاكم، وسأله عن شخصيته أوضحها وقال إنه ينوي الرحيل إلى الحجاز ليقضي بقية حياته فسأله محمد علي عن رأيه في الوقف فأفتى بأن أول قدر حبس (أي أوقف) كان عمر بن الخطاب، وقد حبس على الخير مباشرة، والوقف في هذه الحالة لا يجوز حله، أما ما حبس على الذرية أو ذرية الذرية ليؤول بعد ذلك إلى الخير، فيجوز حله، وقد كتب الشيخ محمد فتواه بذلك وهي الفتوى التي استند إليها في مراحل قانون حل الوقف الأهلي، وكانت هذه الفتوى سببًا في تولي الشيخ محمد الإفتاء بالقطر المصري، وفي تولي ابنه البكر الشيخ محمود الإفتاء في طنطا، وتوفي الشيخ محمد المفتي الجزايرلي بالإسكندرية عام ١٢٧٩هـ ١٨٦٢م بالغًا من العمر حوالي ٧٣ عامًا، ودفن بالمسجد الكائن بالشارع الذي يحمل اسمه المقاطع لشارع رأس التين بالقرب من مسجد سيدي عبد الرحمن بن هرمز.

وكان الشيخ محمد الجزايرلي يلقي دروسًا في الفقه وأصول الدين في جامع الشيخ (انظر مادة الشيخ إبراهيم باشا)، وكان له أبحاث فقهية مخطوطة بمكتبة هذا الجامع التي كانت أهم مكتبة علمية بالإسكندرية في القرن التاسع عشر، والنصف الأول من القرن العشرين الحالي إذ كانت تضم إلى جانب المخطوطات أمهات الكتب العربية الدينية والتاريخية

والعلمية، وقد أصابها الحريق في مستهل الحلقة الخامسة من القرن الحاضر، ثم استولت وزارة الأوقاف على ما تبقى منها في حوالي عام ١٣٨١هـ ١٩٦١م.

وقد بحثت عن هذه المخطوطات التي دونها جدي الأكبر فيما استولت عليه مديرية الأوقاف بالإسكندرية، فلم أعثر على شيء منها، ومن ثم يتضح أنها كانت ضمن الكتب والمخطوطات التي التهمها الحريق.

ومن ذرية الشيخ محمد المفتي الجزايرلي الأستاذ المرحوم محمد المفتي الجزايرلي رئيس محكمة النقض ووزير الأوقاف السابق، والدكتور منير الجزايرلي أستاذ الباثولوجيا بكلية الطب بجامعة الإسكندرية وكاتب هذه السطور يوسف فهمي أحمد الجزايرلي، ومحمد عبيد المفتي الجزايرلي ناظر كلية النصر، وعلي المفتي الجزايرلي رئيس إدارة مستشفى العظام، ومحمود المفتي الجزايرلي رئيس قسم الإيجارات ببلدية الإسكندرية سابقًا.

ولقد جاء في ترجمة عثمان بك جلال (انظر هذه المادة) أنه قام بتعليم اللغة الفرنسية لرجل يعمل في ديوان الوالي اسمه زايد أفندي، وذلك في سنة ١٢٦١هـ (١٨٤٤م)، وكان محمد علي قد استخدم زايد أفندي هذا لترجمة مجموعة الشيخ الجزايرلي في مذهب أبي حنيفة إلى اللغة التركية، وما من شك في أن الشيخ محمد الجزايرلي قد ألّف بعض الكتب الفقهية أيام توليه الإفتاء في مصر، وأن هذه المؤلفات كانت ما تزال مخطوطة، ومحفوظة بمكتبة جامع الشيخ الذي كان يلقي فيه دروسه على الطلبة، ثم أبادها الحريق فيما التهم من المؤلفات التي كانت تلك المكتبة القيمة تضمها.

٥١٤- الجزولي - شارع - بقسم محرم بك (المجزومي حاليًّا)

هو أبو موسى عيسى بن عبد العزيز بن يلليخت بن عيسى ابن يوماريلي الجزولي من قبيلة جزولة البربرية، وصحة اسمها كزولة ولقباه يلليخت ويوماريلي من الألقاب البربرية التي يختص بها قبائل البربر المنتشرة في شمال إفريقيا العربي، وأهم هذه القبائل زنانة، وصنهاجة، والشاوية، وجزولة أو كزولة يطن من اليزدكتن في مراكش الجنوبية في منطقة السوس.

وكان الجزولي إمامًا في علم النحو كثير الاطلاع على دقائقه وغريبه وشاذه، واستشهد في هذا الباب بمقدمة قصيرة لدراسة النحو العربي المعروفة باسم القانون، والتي أتى فيها بالعجائب على الرغم من إيجازها الشديد، إذ اشتملت على أبواب كثيرة من علم النحو لم يسبق إلى مثلها أحد، وقد اعتنى بها طائفة من الفضلاء فشرحوها، ومنهم من وضع لها أمثلة لأنه أبدع في وضعها، وله علاوة على ذلك أمالٍ في النحو.

وقد ذهب الجزولي إلى بلاد المشرق، وقصد مكة والمدينة لتأدية فريضة الحج وذلك بعد أن أتم دراسة الأولى في مراكش، وحضر في القاهرة على الفقيه اللغوي المشهور أبي محمد عبد الله ابن بري الذي يقال: إن رسالة القانون ما هي إلا صورة وفاقًا للأصل من محاضرات أستاذه في جمل الزجاجي، ومما يؤيد ذلك اعتراف الجزولي نفسه بأنه لم يؤلف هذه الرسالة.

وقد درس الجزولي في القاهرة صحيح البخاري على ابن محمد بن عبيد الله، وكان يعيش في فقر مدقع، وكثيرًا

ما كان يقوم بأعمال الإمام في أحد المساجد القريبة ليكسب بعض المال يستعين به على قضاء حوائجه، ويتمكن من إتمام دراسة إذ إنه لم يستطع الالتحاق بإحدى المدارس.

وعند عودته إلى المغرب أقام زمنًا بمدينة بجاية في شرق القطر الجزائري، حيث تولى تدريس النحو ولكن كان دائمًا في عوز شديد، ثم ذهب إلى مدينة الجزائر عام ٥٤٣هـ، (١١٤٨– ١١٤٩م)، وذهب بعد ذلك إلى مدينة المرية في الأندلس، ومارس تدريس النحو مدة من الزمن، وهناك تعهد نسخته من كتاب الأصول لابن السراج (انظر هذه المادة)، وكان قد درسها على ابن بري في القاهرة وعليها خطه.

وأخبر الرجل الذي أعد هذه النسخة من كتاب الأصول مع الجزولي، أخبرا بالعباس المغربي الذي كان في ذلك الوقت أشهر زاهد في تلك الناحية من العالم، برقة حال الجزولي وفقره المدقع، فتوسط له بنفوذه لدى سلطان دولة الموحدين فعينه خطيبًا للمسجد الجامع بمدينة مراكش.

وتوفي الجزولي في أزمُّور عام ٦٠٦هـ (١٢٠٩م)، في قول بعض المؤرخين أو في عام ٦١٠هـ (١٢١٣ – ١٢١٩م) في قول البعض الآخر، ومن بينهم ابن قنفذ في الوفيات.

وقد قام قبل وفاته بشرح رسالة القانون في مجلد كبير وقد قال في بعض الذين حضروا عنده، ولم يستطيعوا استيعاب هذه الرسالة لغموضها:

لستُ للنحوِ جُئْتُكُم

لا وَلا فيهِ أرغبْ

خَلِّ زيْدًا لِشأنهِ

أيْنما شاءَ يذهبْ

أنا مالي ولامرئٍ

أبَدَ الدهرَ يُضرَبْ

ومن تلاميذ الجزولي زين الدين أبو الحسين يحيى بن المعطي (انظر مادة ابن المعطي) ابن عبد الرحمن الزواوي، وهو أول نحوي نظم ألفية، وأبو علي عمر بن محمد بن عمر بن عبد الله الأزدي الشلوبيني الذي كتب شروحًا لرسالة أستاذه «القانون»، وهناك نسخ من هذه الشروح في مكتبة الأسكوريال بإسبانيا.

ومن مؤلفات الجزولي غير رسالة القانون وشرحها، «أمالي في النحو»، وشرح لقصيدة «بانت سعاد» لكعب ابن زهير بن أبي سلمى، وشرح على أصول ابن السراج.

أما ترجمة صاحب الاسم الجديد للشارع فاطلبها في المخزومي.

٥١٥– جعفر الصادق – شارع – بقسم باب شرقي

هو ابن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وأمه فاطمة الملقَّبة بأم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق (انظر مواد الحسين بن علي، وأبي بكر، ومادة الإمام علي)، وقد ولد بالمدينة المنورة عام ٨٠هـ (٦٩٩م) في قول بعض المؤرخين أو عام ٨٣هـ (٧٠٢م) في قول البعض الآخر، ووالدة أمه هي أسماء بنت عبد الرحمن

ابن أبي بكر، ولذا كان الصادق يقول: لقد ولدني أبو بكر مرتين.

ولم تكن ثقافته مقصورة على العلوم الدينية من تفسير للقرآن وحديث وفقه مما يتفق ولقب الإمام الذي كان يحمله إذ هو الإمام السادس من الأئمة الاثني عشر عند الطائفة الإمامية من الشيعة، ولم تكن ثقافته مقصورة على هذه العلوم بل تعدتها إلى معرفة شتى المعارف الخاصة بالعلوم المختلفة التي كانت قمة الثقافات العالمية في عصره، ولقد أخذ في تأسيس المدارس المستندة على هذه العلوم فتخرج منها الفقيه والمحدث والمفسر والفيلسوف والرياضي والكيميائي والطبيب والشاعر والكاتب والمثقف ثقافة عامة، وهذا ما جعل ابن حجر يقول في كتابه «الصواعق» إن الناس نقلوا عن جعفر بن محمد من العلوم ما سارت به الركبان وانتشر صيته في جميع البلدان، وجعل الدكتور يحيى الهاشمي يقول: «إن اسم جابر بن حيّان ينزل في تاريخ الكمياء منزلة أرسطو في تاريخ المنطق ولم يكن لجابر بن حيّان أستاذ غير الإمام الصادق»، ويقول العالم الغربي «هولميار» إن جابر بن حيّان هو تلميذ جعفر الصادق وصديقه وقد وجد في إمامه الفذ سندًا وموجهًا لا يستغني عنه وقد سعى جابر لتحرير الكمياء من أساطير الأولين بإرشاد جعفر، وقد علقت بها هذه الأساطير عن طريق مدرسة الإسكندرية القديمة ونجح ابن حيّان في هذا المجال إلى حد بعيد، وقال المؤرخ الهندي «أمير علي»: «إن انتشار العلم في عصر جعفر الصادق ساعد على فك الفكر من عقاله فأصبحت المناقشات الفلسفية عامة في كل حاضرة من حواضر العالم الإسلامي، ولابد هنا من الإشارة إلى أن الذي تَزَعم تلك الحركة كان جعفر الصادق، فقد كان رحب أفق التفكير بعيد أغوار العقل ملمًّا بعلوم عصره، ويعتبر أول من أسس المدارس الفلسفية المشهورة في الإسلام، وكان يحضر حلقاته العلمية مؤسسو المذاهب علاوة على طلاب الفلسفة والمتفلسفين من الأنحاء القاصية».

ومع كل هذه الأسانيد التي تقطع بغزارة علم جعفر الصادق واتساع أفق تفكيره العلمي والفلسفي فإن المستشرق «ك. زيترشتين K. V. Zettersteen» يدعي في دائرة المعارف الإسلامية «أن جعفر الصادق عرف بدرايته في الحديث ويقال إنه اشتغل بالتنجيم والكمياء وغيرهما من العلوم الخفية، أما المؤلفات التي تحمل اسمه فقد دست عليه فيما بعد.

وهذا القول المجحف بقدر الرجل لا يستقيم مع شهادة العلماء المدوَّنة قبل التي تقطع بسعة علم جعفر الصادق ونبوغه في العلوم الدينية والدنيوية على السواء.

ومن العوامل التي أدت إلى شهرته العلمية وجوده في فترة ضعفت فيها السلطة فكانت له الحرية النسبية لانطلاق مداركه العلمية.

فقد عاش في أواخر عهد الدولة الأموية إذ أخذت هذه الدولة في الانحلال فانشغلت بنفسها عن غيرها، ومن ثمَّ شهد العالم الإسلامي بروز طائفة كبيرة من علماء التفسير والفقه واللغة والفلك وقد شمل هذا العهد الحر في التفكير أوائل الدولة العباسية.

ومكنت هذه الحرية النسبية جعفر الصادق من الانطلاق في ميدان التفكير وأن يعكف على نشر العلم ويدلي بآرائه وآراء أهل البيت في التشريع والتوجيه، فكانت مدرسته الكبرى التي

تخرج منها التسعمائة أستاذ الذين تولوا إنشاء جامعة الكوفة العظيمة ومارسوا التدريس فيها ثم كانت تلك النهضة التي شملت العالم الإسلامي بأسره.

ويقول الأزهري الشيخ أبو زهرة: «ما أجمع علماء الإسلام على اختلاف طوائفهم في أمر كما أجمعوا على فضل الإمام الصادق وعلمه، فأئمة السُّنة الذين عاصروه تلقوا منه وأخذوا، أخذ عنه مالك وأخذ عنه طبقة مالك كسُفْيَان بن عيينة وسفيان الثوري وغيرهما كثير، وأخذ عنه أبو حنيفة مع تقاربهما في السن واعتبروه أعلم الناس لأنه أعلم الناس باختلاف الناس».

وكانت المدينة المنورة مكان مدرسة جعفر الصادق والمسجد النبوي مكان تدريسه، ويذكر الرواة أن عدد المنتمين إلى هذه المدرسة وصل إلى أربعة آلاف من أهل العراق والحجاز والشام وخرسان وغيرها، وفيهم من كبار العلماء والفقهاء والمحدثين الذين صاروا أئمة ومؤسسين لمذاهب إسلامية ـ وكان فيهم الشعراء والأدباء ـ وقد ألف بعضهم كتبًا مفيدة في الحديث والفقه والعلوم؛ لأنه كان يحضّهم على التأليف ويقول لهم: اكتبوا فإنكم لا تحفظون حتى تكتبوا، واحتفظوا بكتبكم فإنكم سوف تحتاجون إليها.

والمبادئ الأساسية التي اعتمدها جعفر الصادق تتركز في أن كل ما فيه خير للمجتمع فهو حلال، وكل من اضطر إلى شيء فهو له مباح، ولكل بالغ عاقل صفة ذاتية تؤهل للإلزام والالتزام بما له وما عليه، والشرط لصحة ذلك أن يكون العمل حقًّا للملتزم وسائغًا في نفسه لا يستدعي ضررًا على من ألزم أو التزم ولا على غيرهما، وكل اتفاق مجهول القيمة يجب إلقاؤه، وكل تجارة أو صناعة فيها شائبة الضرر فهي فاسدة وكل من نذر أو أقسم أو عاهد الله على فعل ما يضر به أو بغيره باطل، ويحضُّ الصادق على الثقة بالنفس، وشدَّد في مسألة الطلاق وضيَّق دائرته إلى أضيق الحدود، ولم يجز وقوع الطلاق ثلاثًا بلفظ واحد، واعتمد في الإرث على قاعدة الأقرب فالأقرب، فجعل الأولاد والآباء أولى بالإرث من الإخوة والأجداد، والإخوة أولى من الأعمام والأخوال، فالبنت عنده تحجب عمها كما يحجب الابن من غير فرق، وكذلك اعتمد هذه القاعدة نفسها في النفقات.

وكان جعفر الصادق من الرواد الاجتماعيين، فقد عني بالتربية الاجتماعية التي تهدف إلى خلق مجتمع كريم قوي الأخلاق فكان يقول لأصحابه: «كونوا زينًا لنا ولا تكونوا شينًا علينا ليقول الناس رحم الله جعفر بن محمد، لنعم ما أدب أصحابه».

ونهى جعفر في تعاليمه عن التعصب والعصبية فقال: «ليس من العصبية أن تحب أخاك ولكن العصبية أن ترى شرار قومك خيرًا من خيار غيرهم».

وحارب الروح الانهزامية التي بدأت تطغى على المجتمع في عصره بزعم الزهد والتعمق في التصوف فكان يحث على الجدية في الحياة والكفاح من أجل العيش الكريم، ومن أقواله في هذا الصدد: «إن الله يحب الجمال والتجمل ويبغض البؤس والتباؤس فإن الله إذا أنعم على عبده نعمة أحب أن يرى عليه أثرها»، فقيل له: «كيف ذلك؟»، قال: «ينظف ثوبه ويطيب ريحه ويخصص داره ويكنس أفنيته».

وكان إلى جانب ذلك ظريف الحديث تتخلل تعاليمه الطرائف، فقد مرَّ به رجل وهو يتغدى فلم يُسلم، فدعاه إلى الطعام فقيل له: السنَّة تحتم أن يسلم ثم يدعى إلى طعام، فقال هذا فقه فيه بخل.

ومدحه كثير من الشعراء ومن بينهم السيد الحميري، وقال فيه عبد الله بن المبارك:

أنتَ يا جعفرُ فوقَ الـ
مَدْحِ والمدحُ عَنَاء

إنّما الأشرافُ أرضٌ
ولهم أنتَ سماء

جاز حَدَّ المدحِ مَنْ قَدْ
وَلدَتْهُ الأنبياء

وكان هو شاعرًا مقلاًّ فيما نظم ومن شعره هذه الأبيات:

لا اليُسرُ يَطرقنا يومًا فَيُبْطِرنا
ولا لأَزْمَةِ دهرٍ نُظْهِرُ الجزعَا

إنْ سَرَّنا الدهرُ لم نَبْهَجْ لِصِحَّته
أو سَاءَنا الدهرُ لم نُظْهِرْ لَهُ الهَلَعَا

مثل النجومِ على مضمارِ أوَّلنا
إذا تَغَيَّبَ نجمٌ، آخر طَلَعَا

وتوفي جعفر الصادق بالمدينة المنورة عام ١٤٨هـ (٧٦٥م) بالغًا من العمر ٦٥ عامًا أو ٦٨ عامًا، وقد عاش فيها مع جده الحسين ١٢ سنة أو ١٥ سنة ومع أبيه الإمام محمد الباقر بعد جده ١٩ سنة، وعاش بعد موت أبيه ٣٤ سنة وعاصر خلافة هشام بن عبد الملك والوليد بن يزيد، ويزيد بن الوليد، وإبراهيم بن الوليد ومروان بن محمد الأمويين، كما عاصر السفاح العباسي وتوفي بعد مرور عشرة أعوام على خلافة المنصور العباسي.

أما فيما يتعلق بمذهب الاثنا عشرية، فاطلب البحث الخاص بكلمة «الشيعة»؛ إذ بقسم كرموز شارع يحمل هذه الكلمة.

٥١٦- جلال الدسوقي (الشهيد) - شارع - بقسم باب شرقي (السراي نمرة ٣ سابقًا)

اطلب ترجمته في الشهيد «جلال الدسوقي».

واطلب ترجمة الاسم القديم للشارع في (السراي نمرة ٣).

٥١٧- جمال الدين ياسين - شارع - بقسم العطارين (المرلي سابقًا)

هو جمال الدين ياسين أحمد عبد الفتاح ولد في ٢٤ من إبريل عام ١٩٣٠م (١٣٤٩هـ)، وتخرج من كلية البوليس في ٣٠ من مارس عام ١٩٥٤م (١٣٧٤هـ)، وألحق بمديرية أمن البحيرة، ثم نقل إلى شرطة القاهرة في ٥ من إبريل عام

١٩٥٦م (١٣٧٦هـ)، وكان برتبة ملازم أول، وعين بعد ذلك ضابطًا لمباحث قسم كرموز بالإسكندرية في أول مارس عام ١٩٥٧م (١٣٧٧هـ)، ثم عمل بقسم باب شرقي ورقي إلى رتبة النقيب في ٢٠ من يوليو عام ١٩٦٠م، وفي ٨ من يناير عام ١٩٦٣م (١٣٨٣هـ) أصيب من عوارض خشبية (فلنكات) بجهة مينا البصل أثناء قيامه بضبط بعض المتهمين في إحدى الجنايات، وتوفي إثر هذا الحادث في اليوم نفسه إذ كان يقوم بواجبه كضابط شرطة، بالغًا من العمر حوالي ٣٤ عامًا.

٥١٨- جميل الزهاوي - شارع - بقسم العطارين (ديوميدس سابقًا)

هو جميل صدقي الزهاوي ابن محمد فيضي الزهاوي مفتي العراق، ولد ببغداد في ١٨ من يونية عام ١٢٨٠هـ (١٨٦٣م) وفي الترجمة التي كتبها عن نفسه يقول إن نسبه يرجع إلى السليمانية الذين ينتمون بالنسب إلى القائد العربي العظيم خالد بن الوليد، وترجع تسميته بالزهاوي إلى أن جدَّه هاجر إلى «زهاو» وهي بلدة تتبع الآن إيران، ويقول في ترجمته إن أمه زهاوية عصبية المزاج، وقد ورث عنها نزعته الغاضبة، فكان يدعى المجنون في صباه، والطائش في شبابه، والجريء في كهولته، والزنديق في شيخوخته لمجاهرته بآرائه الحرة الفلسفية، وتعلم كثيرًا من علوم الأولين وكثيرًا من علوم الغربيين المترجمة إلى العربية أو التركية على أساتذة خصوصيين، وكان لا يعرف شيئًا من اللغات الأجنبية، وتوسع في الاطلاع والمطالعة ونظم الشعر بالفارسية ثم بالعربية، ونشرت له جرائد بيروت والشام ومصر وبغداد مقالات وقصائد كثيرة، وكان من أوائل من دافعوا عن حقوق المرأة العراقية، وممن قاوموا استبداد السلطان عبد الحميد، ومن أوائل من نظموا القصص الشعري وثاروا على القديم ودعوا إلى التجديد وقاوموا التعصب، وتزوج في سن الثلاثين من فتاة تركية عمرها ١٦عامًا ولم يرزق منها بذرية.

أما عن حياته العملية فقد شغل المناصب والوظائف الآتية: عضو في مجلس المعارف ببغداد، ثم مديرٌ لمطبعة الولاية ومحرر للقسم العربي من جريدتها الرسمية «الزوراء»، وعضو محكمة الاستئناف، وواعظ عام باليمن، ومن اليمن استدعي إلى الآستانة حيث اتصل بالأتراك الأحرار وجاهر بالسخط على نظام الحكم في ذلك الحين، ونظم القصائد في ذلك ونشرها بالجرائد المصرية تحت اسم مستعار، وترتب على ذلك إبعاده إلى بغداد بمرتب شهري قدره ١٥جنيهًا، وأغلب هذه القصائد الثائرة نشرها في ديوانه الأول «الكلم المنظوم»، ولما أعلن الدستور التركي عُين أستاذًا للفلسفة والآداب العربية بجامعة استامبول، وقد نشرت دروسه في الفلسفة الإسلامية بمجموعة دار الفنون باللغة التركية، وأجبره المرض على العودة إلى بغداد وعين أستاذًا للقانون المدني بكلية الحقوق، وبسبب المقالات التي نشرها بجريدة «المؤيد» المصرية قامت حوله ضجة من الرجعيين ودافع عنه المستنيرون ولكنه عزل من منصبه في عهد الوالي العثماني على العراق ناظم باشا وعاد إلى وظيفته في عهد الوالي الجديد جمال باشا، وانتخب عضوًا في البرلمان العثماني عن ولاية العراق، فألقى خطبًا يدافع فيها عن حقوق بلاده، وبعد مدة أعلنت الحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٣هـ (١٩١٤م) واحتلت بريطانيا العراق - في أثنائها ترجم ١٧ قانونًا من التركية إلى العربية - وفي عام ١٣٤٣هـ (١٩٢٤م) هاجر إلى سوريا ولبنان والعراق فأقيمت

له حفلات التكريم مشيدة بشاعريته وجهاده في سبيل رسالته العلمية الإصلاحية، وفي بيروت طبعت له رباعياته التي جعلها جزءًا ثالثًا من ديوانه العام، وفي هذه الرباعيات وفي أغلب قصائده يشكو ما لحقه من الأذى ويذرف الدموع شاكيًا بؤسه وشقاءه، وكثيرًا ما تغنى في شعره «بليلى» وما ليلى التي عشقها من كل وجدانه سوى وطنه العزيز، وقد تغنى أيضًا بأمجاد الأمة العربية، وقد حاول الملك فيصل ملك العراق تعيينه مؤرخًا وشاعرًا له، فرفض أن يكون شاعر الملك وناله من وراء ذلك الحرمان والعنت وفي ذلك يقول:

حَمَلتُ ثَقيلاتِ الهمومِ على ضَعْفي
ولمَّا أَقُلْ أوه، ولمَّا أَقُلْ أُفِّ

فللَّهِ دَرِّي كيف صَبْرِي على الأذَى
ولله دَرِّي كيف غَمْضِي عَلَى العَسْفِ

وود الزهاوي الهجرة إلى مصر ليستقر بها وهي حصن العروبة المنيع، ولكن كسر عظام قدمه ألزمه الفراش، وظل في العراق يسجل أعمال المستعمرين الإنجليز وأعوانهم الرجعيين في قصائده الثورية وقد نشرت في ديوانه «الأوشال».

ومن مصنفات الزهاوي «الكائنات» وهي رسالة فلسفية، و«الفجر الصادق» في الرد على الوهابية، و«ديوان الزهاوي» وطبع بالقاهرة عام ١٣٤٣هـ (١٩٢٤م)، و«ديوان الرباعيات»، و«المجمل مما أرى» وهي رسالة علمية وقد علل فيها الجاذبية العامة بالدفع العام، والملحمة الكبرى بعنوان «ثورة في الجحيم»، ويعد الزهاوي من كبار المجددين في الشعر العربي، ومن شعره الحكيم قوله:

لَقَدْ طَالَ لَيْلُ اليَأْسِ حَتَّى أَمَلَّني
وَلابُدَّ للَّيْلِ الذَّي طَالَ مِنْ فَجرِ

وهذا المعنى الجميل نقله عنه كثير من الشعراء ومن بينهم المرحوم أبو القاسم الشابي (انظر هذه المادة) وتوفي الشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي عام ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م).

٥١٩- الجواد - شارع - بقسم محرم بك

دون التاريخ سيرة اثنين يحملان لقب الجواد وهما:

١) أبو جعفر محمد علي الرضا بن موسى الكاظم ابن جعفر الصادق بن محمد الباقر (المعروف بالجواد): وكان أحد الأئمة الاثنا عشر الذين هم أئمة الشيعة الاثنا عشرية وقد تزوج أم الفضل بنت الخليفة العباسي المأمون (انظر هذه المادة) ابن هارون الرشيد (انظر هذه المادة)، ووفد على بغداد في عهد الخليفة المعتصم عم زوجته، وهو الخليفة الثامن لدولة بني العباس (انظر مادة المعتصم العباس)، وقد تولى الخلافة حتى عام ٢٢٨هـ ٨٤٢م، وكان الجواد يروي الأحاديث النبوية عن آبائه حتى تسند إلى علي بن أبي طالب (انظر مادة الإمام)، فكان يقول إن عليًا قال بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن، فقال لي وهو يوصيني يا علي ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار يا علي عليك بالدلجة فإن الأرض تطوى بالليل ما لا تطوى بالنهار يا علي اغد باسم الله فإن الله بارك لأمتي في بكورها، وكان يقول صلوات الله عليه: من استفاد أخًا في الله فقد استفاد بيتًا في الجنة.

وأجد من المفيد هنا أن أذكر شيئًا عن مذهب الشيعة الاثنا عشرية، فأتباع هذا المذهب يرتبون الأئمة الاثنا عشر على النحو التالي:

(١) علي المرتضى.

(٢) الحسن المجتبَى.

(٣) الحسين الشهيد.

(٤) علي زين العابدين السجاد.

(٥) محمد الباقر.

(٦) جعفر الصادق.

(٧) موسى الكاظم.

(٨) علي الرضا (وهو الجواد).

(٩) محمد التقي.

(١٠) علي التقي.

(١١) الحسن العسكري الزكي.

(١٢) محمد المهدي الحجة، وهو عندهم المهدي المنتظر الذي استتر ليظهر في آخر الزمان معلنًا قيام الساعة فيملأ الأرض عدلاً.

ومذهب الاثنا عشرية هام عند الفارسيين، وقد جعل الشاه إسماعيل الصفوي هذا المذهب المذهب الرسمي في فارس وأمر بعد اعتلائه العرش عام ٩٠٦هـ (١٥٠٠م) الخطباء في أذربيجان أن تكون خطبة الجمعة باسم الأئمة الاثنا عشر، كما أمر المؤذنين أن يضيفوا إلى الأذان الشرعي صيغة الشيعة، وهي: أشهد أن عليًّا ولي الله، وأمر الجند أن يقتلوا كل من يعارض ذلك.

وينظر الفارسيون إلى هؤلاء الأئمة الاثنا عشر، كما نظر النصارى إلى أقانيمهم، وقالوا إن في أيديهم مقادير العالم، وعليهم حفظه وهدايته، وإن الخلاص معهم والهلاك بدونهم وطاعتهم والتوسل إليهم أمران واجبان.

ولهم صلوات خاصة بهم، ويوم الأحد مقدس عندهم من أجل الإمام علي وفاطمة الزهراء، والساعة الثانية من كل يوم مقدسة من أجل الحسن، والثالثة من أجل الحسين، والرابعة من أجل زين العابدين، وهكذا إلى آخر الأئمة.

وقد ولد أبو جعفر محمد بن علي الرضا يوم الثلاثاء ٥ من رمضان عام ١٩٥هـ (٨١٠م) ووافته المنية يوم الثلاثاء ٥ من ذي الحجة عام ٢٢٠هـ (٨٣٥م) بالغًا من العمر ٢٥ عامًا، ودفن ببغداد عند جده موسى بن جعفر الصادق في مقابر قريش وصلى عليه الواثق بن المعتصم.

٢) أبو جعفر محمد بن علي جمال الدين الجواد الأصفهاني:
كان وزيرًا من وزراء بني زنكي (انظر مادة ابن زنكي)، تلقى العلم على يد أبيه في أول أمره، ثم أتم دراسته وشغل عقب ذلك منصبًا في ديوان العرض الخاص بالسلطان محمد السلجوقي ثم صار من أخلص أصدقاء زنكي نفسه فجعله واليًا على نصيبين والرقة ثم جعله المشرف على دولته بأسرها.

ولما قتل زنكي استطاع الجواد أن ينقذ نفسه من المصير الذي لاقاه سيده، وذلك بشق الأنفس وأفلح في الخروج على رأس الجند حتى بلغ الموصل ولذلك أيّده سيف الدين غازي ابن زنكي في منصبه.

وقد اشتهر جمال الدين الجواد في تلك الفترة من حياته بالجود والكرم، ومن ثم أصبح يعرف في كل مكان باسم الجواد، ومن جهة أخرى كان موضع ثناء أصدقائه وعارفي فضله لكثرة المنشآت الخيرية النافعة التي أقامها من ماله الخاص بالمدينة، ومكة. وعلى الرغم من كل هذه الصفات لم ينج الجواد من سخط قطب الدين مودود الذي خلف أخاه سيف الدين غازي بن زنكي على العرش، فألقى به في سجن الموصل عام ٥٥٨هـ (١١٦٣م) حيث توفي في هذا العام نفسه، وحمل جثمانه بعد ذلك إلى مكة وطوف به حول جميع الأماكن الإسلامية المقدسة، ثم حمل إلى المدينة حيث دفن.

ومن الشعراء الذين امتدحوه بقصائدهم حيص بيص وعماد الدين.

٥٢٠- جودة - شارع - بقسم الجمرك

اسمه الكامل عمر علي جودة وكان مشهورًا بعمر أفندي وورد بهذا الاسم في أحد مصنفات الأمير السابق عمر طوسون، ويقول علي باشا مبارك في كتاب «الخطط الجديدة» إن دار الصناعة بالإسكندرية أي الترسانة أو الترسخانة كما كنا ندعوها كانت مكونة من عدة مظلات خشبية عند ساحل البحر بالميناء الغربي مقربة من قصر رأس التين، وكانت إدارتها موكولة لعاملين من ذوي الخبرة في بناء السفن هما الحاج عمر شاكر الإسكندراني والحاج عمر هو عمر علي جودة الآنف الذكر، وقد ذكر في كتاب «من حقائق الأخيار عن دول البحار» لسرهنك ما يأتي: «وبعد الكارثة التي حلت بالأسطولين التركي والمصري في موقعة نافارين بشبه جزيرة «المورة» في جنوب اليونان؛ اهتم محمد علي بأمر دار الصناعة ولكي يشيدها على النمط الأوروبي الحديث أحضر الكراكات من أوروبا، فعمقت الميناء في زمن وجيز وجعل للدار ناظرًا خاصًا، وشرع في إقامتها عام ١٢٤٢هـ (١٨٢٨م)، وسخر الجنود في بنائها، واستقدم لهذا الغرض مهندسًا فرنسيًّا من طولون يدعى سيريزي، ومنحه رتبة البكوية، واستمر الحاج عمر علي جودة على معاونته بخبرته الواسعة النطاق في بناء السفن وأخذت دار الصناعة تؤدي عملها في عام ١٢٤٧هـ (١٨٣١م) (انظر مادة سيريزي)، وكان الأسطول الحربي يبنى من الخشب المصفح بصفائح الحديد من الخارج والداخل، ويقال: إن عمر علي جودة من أصل عراقي أو سوري وتزوج بالإسكندرية من أسرة كرموز المغربية (انظر مادة كرموز)، ولما أحيل على التقاعد بسبب كبر سنه أقام شادرًا للأخشاب لطول خبرته بأصنافها، وقد تولى إدارة هذه التجارة الرابحة ولداه بعد وفاته، وكان الحاج عمر جودة قد وضع أساس مسجد جودة قبل موته وبدأ في تشييده بجوار منزله بشارع جودة نفسه، فأتم ولداه محمد ومحمود إقامة المسجد بالجهة البحرية من منزل الأسرة، وكان لهذا المنزل حديقة أقيمت فوقها الآن مدرسة تحمل اسم السيد محمد كريم.

ويقول المؤرخ الفرنسي الكبير الأميرال دوران فييل في وصف الحاج عمر جودة: «إنه هذا الرجل الطيب العجوز المبتكر الذي يستحق كل ثناء وتقدير من جانبنا بصفة خاصة».

إننا مدينون لهذا الرجل الأميّ الذي وهبه الله ذكاءً خارقًا بكثير من الحراقات، وغيرها من وحدات الأسطول التي لم يختلف في متانتها اثنان، ولو أن الحاج عمر الذي أدهش بفنه الأخصائيين الأجانب في عصره أمثال سيريزي كان على قسط من التعليم يلائم عبقريته، وكانت لديه الوسائل الكافية الفنية لأصبح دون شك أمهر مهندس بحري في عصره، وإليه يرجع الفضل – على الرغم من أميته – في بناء الوحدات الأولى الحربية للأسطول المصري.

إن الحاج عمر العجوز السكندري ذا اللحية البيضاء يستحق كل فخر، وللبحرية المصرية ولمدينة الإسكندرية أن تزهو بجدارة خير ابن لها في مجال بناء السفن.

هذا ما قاله الأميرال دوران فييل في وصف الحاج عمر جودة الذي لم يترك العمل في دار الصناعة «الترسانة» – بسبب الشيخوخة – إلا بعد أن أصبح الأسطول المصري ثالث أساطيل العالم قوة وعظمة.

ومازال أحفاد الحاج عمر جودة وأحفاد أحفاده يقيمون بالإسكندرية، ويتخذون مساكنهم في شتى أنحاء المدينة، ومن أحفاده الأستاذ زكريا جودة الذي كان محاميًا بقسم قضايا البلدية إلى أن أحيل على المعاش، وقد زاملته في العمل سنوات طويلة.

٥٢١– جورج أبيض – شارع – بقسم باب شرقي (جوبا بك سابقًا)

ولد جورج أبيض بمدينة بيروت عاصمة لبنان بجوار مسجد الخضر في ٥ مايو عام ١٨٨٠م (١٢٩٨هـ) من أبوين مسيحيين متدينين، ويرجع لقب أبيض الذي يحمله هو وأفراد أسرته إلى أن جده كان رجلاً طيب القلب، فاشتهر بهذه الطيبة، وكان يسكن منزلاً يتميز باللون الأبيض.

والتحق جورج بمدرسة الفرير الفرنسية، وحصل منها على الشهادة الدراسية، وكان عمره ١٢ عامًا، ثم دخل مدرسة الحكمة القانونية ليتقن اللغة العربية، ونال منها الدبلوم وهو يعادل الشهادة الثانوية البكالوريا، وكان ذلك خلال عام ١٨٩٧م (١٣١٥هـ)، وقد هام بفن التمثيل وهو لايزال بمدرسة الحكمة فكان يجمع رفاقه ويؤدي معهم أدوارًا من التمثيل المرتجل، ثم اشترك في فريق التمثيل، وأخذ يؤدي ما يقوم به من أدوار باللغة الفرنسية، وقد قام هذا الفريق المدرسي بتمثيل معظم روايات الكاتب الفرنسي المشهور ألكسندر ديماس.

وتلقى بعد ذلك دروسًا في التلغراف ينقل الكلام بأجهزة الإرسال والاستقبال بطريقة مورس المعروفة ثم عمل تليغرافجيًّا بمحطة سكة حديد بيروت مدة عام واحد، نقل بعده إلى محطة حوران بجبل الدروز.

وكان قد فقد والده وهو مازال في الرابعة عشرة من عمره، فتحمل مسؤولية الأسرة منذ ذلك الحين، فكان ينفق مرتبه من السكة الحديد على متطلبات عائلته المعيشية، وضاق بالعيش في لبنان، ومل الحياة الرتيبة التي كان يعيشها، وكان له عم بالإسكندرية اسمه سمعان أبيض كان قد نزح إليها مكونًا له ثروة من التجارة، ففكر في السفر إلى الإسكندرية، والاستقرار بها، واكتساب الجنسية المصرية.

وتنفيذًا لهذه الفكرة استقال من عمله، ورحل على ظهر باخرة صيد صغيرة، ووصل إلى الإسكندرية عام ١٩٠٠م (١٣١٨هـ) وقد بلغ العشرين من العمر، وسرعان ما حصل على وظيفة في مصلحة السكك الحديدية المصرية، وعين ناظرًا لمحطة سيدي جابر، ولمتابعة هواية التمثيل اشترك في نادي خريجي مدرسة الفرير بالمنشية حيث كون فرقة من أعضائهم قامت بتمثيل عدة روايات بالفرنسية.

وفي عام ١٩٠٢م (١٣٢٠هـ) حضرت إلى الإسكندرية فرقة إيطالية على رأسها الممثل الإيطالي المشهور إيرمتي نوفيللي وقدمت عروضها بدار الأوبرا بالقاهرة بعد أن مثلت بمسرح زيزينيا بالإسكندرية روايات من روائع المسرح العالمي، وقد ترك جورج أبيض عمله بمحطة سيدي جابر، وسافر وراءها إلى القاهرة.

وكان يدرس حركات الممثل نوفيللي وطريقته في التمثيل، واكتشف أن له موهبة قد تصل إلى موهبة هذا الممثل العظيم إذا أصقلت بالتعليم الفني، وأيقن منذ ذلك الحين أن مستقبله على خشبة المسرح وليس على رصيف محطة سيدي جابر، ومن ثم بادر إلى تكوين فرقة من الهواة كلهم من معارفه بينهم الطبيب والمهندس والمحامي، وكان يلجأ إلى زوجاتهم وبناتهم للقيام بالأدوار النسائية، وقد قدمت الفرقة رواياتها على مسرح زيزينيا الذي يقع مكانه الحالي أمام سينما أمير بجوار النادي السوري بطريق الحرية طريق الزعيم جمال عبد الناصر حاليًّا ورأى جورج أبيض بعد ذلك أن هواية التمثيل لا تكفي لصقل المواهب والارتفاع بمستواها الفني فكتب مذكرة إضافية إلى الخديوي عباس الثاني أن المسرح المصري في حاجة إلى النهوض به إلى المكانة اللائقة بمصر، وأنه مستعد للقيام بهذه النهضة إذا وافق الخديوي على إرساله في بعثة على حسابه إلى فرنسا لدراسة التمثيل، وأصوله الفنية العالمية.

ولم يرد الخديوي عباس على مذكرته فأردفها بمذكرة أخرى، ورجاه الحضور لمشاهدة رواية «لاتور دي تلّ» الذي ستقوم فرقته بتمثيلها بمسرح زيزنيا يوم ٢٩ يوليو ١٩٠٤م (١٣٢٢هـ)، فحضر الخديوي المسرحية، واستدعى جورج أبيض إلى مقصورته وأمره بالاستعداد للسفر إلى باريس للدراسة على نفقته وفي ٤ أغسطس من ذلك العام أبحر إلى فرنسا، وتتلمذ في باريس على «سيلفان» أشهر ممثلي فرنسا في ذلك الحين ثم سافر مع فرقة هذا الأستاذ في رحلات بأنحاء فرنسا وبالجزائر ومراكش وفي عام ١٩١٠م (١٢٣٨هـ) عاد إلى مصر بعد دراسة استغرقت ٦ أعوام رفض في نهايتها البقاء في فرنسا كممثل محترف، وكان له بيت ورثه في بيروت فرهنه، وأحضر معه فرقة من فرنسا على حسابه فقدمت عدة مسرحيات بدار الأوبرا بالقاهرة منها أديب الملك للشاعر اليوناني سوفوكليس، وهوراس للشاعر العظيم الفرنسي كورنيي، وأندروماك للشاعر الفرنسي راسين، والشيخ متلوف للشاعر الفرنسي الساخر موليير.

وفي ذلك الوقت طلب منه سعد باشا زغلول (انظر هذه المادة) للتفرغ للتمثيل باللغة العربية فكون أول فرقة مصرية تحمل اسمه عام ١٩١٢م (١٣٣٠هـ) ضمت عزيز عيد، ونجيب الريحاني، وروزا ليوسف (انظر هذه المواد)، ودولت أبيض، ومحمد عبد القدوس، وعبد الرحمن رشدي، وأحمد فهيم، ومحمد بهجت، وبشارة واكيم، وفؤاد سليم، وعبد العزيز خليل.

وبدأت الفرقة بتمثيل الروايات المترجمة في دار الأوبرا، وكانت أول فرقة مصرية تمثل على مسرحها الذي كان وقفًا على الفرق الأجنبية التي تقدم من الخارج للترفيه عن أفراد الجاليات الأجنبية، وتمدها الحكومة بالإعانات المالية السخية، وقد ترجم الشاعر خليل مطران (انظر هذه المادة) للفرقة رواية عطيل لشكسبير، وترجم إلياس فياض رواية لويس الحادي عشر، وفرح أنطون أديب الملك.

وفي ذلك الحين انضمت إليه فرقة الشيخ سلامة حجازي (انظر هذه المادة)، واتجهت فرقته آنذاك إلى تمثيل الروايات المحلية مثل رواية صلاح الدين ومملكة أورشليم، ومصر الجديدة، وقلب امرأة، والحاكم بأمر الله.

في عام ١٩٢٣م (١٣٤٢هـ) تزوج السيدة دولت أبيض بعد قصة حب حارة، وكان لها ابن من زوج سابق، ورزق منها بابنته سعاد ثم ولد سماه جورج أبيض الصغير، وضعته السيدة دولت على ظهر الباخرة، وهي عائدة من أمريكا، ولم تطل حياته غير ثلاثة أيام.

وكانت السيدة دولت الدعامة الأولى في فرقته تتولى القيام بأدوار البطولة في المسرحيات فكان لها الفضل الأكبر في نجاح الفرقة وفي تغلبها على الصعاب والأزمات.

وظلت الفرقة تحيي الفن المسرحي طوال اثنين وعشرين عامًا، أقامت في أثنائها عروضًا ممتازة في مصر، وفي جميع بلدان الشرق الأوسط وفي ليبيا والجزائر ومراكش وتونس، حيث أسس جورج أبيض نواة المسرح التونسي، واستغرقت هذه الرحلة الفنية عامين عادت الفرقة بعدهما إلى مصر، وانضمت إليها فرقة رمسيس وعلى رأسها الأستاذ يوسف وهبي ومعه فاطمة رشدي.

وفي عام ١٩٢٩م (١٣٤٨هـ) أصيب جورج أبيض بشلل نصفي انفصل على أثره من فرقة رمسيس ولم يقم بعد ذلك إلا على تسجيل أهم أدواره في روايات عطيل، وماكبث، وأديب الملك، وذلك على أسطوانات، ولم يسبقه في ذلك إلا الشيخ سلامة حجازي.

وعلى الرغم من مرضه عين مشرفًا على النشاط التمثيلي الفني بالمدارس، والجامعات فطالب بإنشاء معهد للتمثيل فقام المعهد، وكان الأستاذ زكي طليمات أول عميد له عام ١٩٣٠م (١٣٤٩هـ)، وقد صار معهدًا عاليًا عام ١٩٤٤م (١٣٦٤هـ)، واشترك جورج أبيض في تأسيس هذا المعهد بجهوده الفنية منذ إنشائه عام ١٩٣٠م (١٣٤٩هـ)، وظل يشغل فيه وظيفة أستاذ فن الإلقاء والتمثيل.

ولم يوقفه المرض عن العمل في السينما فكان أول من أنتج فيلمًا غنائيًا ناطقًا في مصر عام ١٩٣٥م (١٣٥١هـ) وهو فيلم أنشودة الفؤاد ومثل فيه أمام المطربة نادرة، وكان آخر أفلامه فيلم أنا لا أشوف وفي عام ١٩٣٥م (١٣٥٤هـ) حلت الحكومة الفرق الأهلية فأدمجت فرقته في فرقتي عكاشة ومنيرة المهدية وتكونت منها الفرق الحكومية وعمل جورج أبيض في هذه الفرق بأكبر راتب وهو ٤٠ جنيهًا في الشهر، وكان راتب المرحوم حسن رياض ٣٥ جنيهًا.

ثم قررت اللجنة الفنية الحكومية إحالته على المعاش، وفرضت له معاشًا شهريًا قدره ١٥جنيهًا زيد بعد ذلك إلى ٢٥ جنيهًا مع نسبة قدرها ٢٠٪ من إيرادات الحفلات التي

يظهر فيها على المسرح ومع ذلك فقد انتخب في العام التالي لهذه الإحالة أول نقيب لممثلي المسرح والسينما.

وقامت ثورة عام ١٩٥٢م (١٣٧٢هـ) فاستدعاه وزير الشؤون الاجتماعية، وأسند إليه منصب مدير الفرقة المصرية بمرتب شهري قدره مائة جنيه، فكان عليه أن يواجه مشاكل كثيرة إدارية لم يتعود القيام بها ليتفرغ لعمله الفني البحت، ومن ثم استقال بعد عام واحد بالنظر إلى حاله الصحية، وقطعت الفرقة المصرية معاشه في أكتوبر عام ١٩٥٧م (١٣٧٧هـ) فرفع أمره إلى القضاء الذي أعاد إليه معاشه.

ولقد قام جورج أبيض بتمثيل ١٢٧ مسرحية عربية وأجنبية طوال حياته الفنية الخصبة من بينها مسرحية ألّفتها زوجته السيدة دولت أبيض بعنوان دولت، وذلك إلى جانب مسرحيات عديدة من تأليف خليل مطران، وإلياس فياض، وفرح أنطون، وعباس علام، وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وعزيز أباظة، وحبيب جماتي، وإبراهيم رمزي.

وقال توفيق الحكيم عنه: «وهبه الله صوتًا جليلاً في نبراته لا سبيل إلى محاكاته، ولذلك لم تقم للتراجيديا(المأساة) قائمة في بلادنا بعده».

وسجل الدكتور طه حسين اعترافه بفضله عليه في تذوقه لجمال التمثيل الصحيح، وعدَّد من مآثره في مناسبات مختلفة لفيف من رجال الفكر والفن، في طليعتهم لطفي السيد (انظر هذه المادة)، ومحمود تيمور، ومحمد مندور، ويوسف وهبي، وزكي طليمات، وبديع خيري (انظر هذه المادة).

واعتنق جورج أبيض الدين الإسلامي هو وزوجته دولت، وكريمته سعاد، التي قامت مشكورة بتأليف كتاب بعنوان «أيام لن يسدل عليها الستار» سردت فيه قصة حياة والدها الفنية الواسعة الأفق، وكان اعتناقهم الإسلام عن عقيدة راسخة في نفوسهم، وكان هو على المذهب المسيحي الكاثوليكي الماروني وكانت زوجته قبطية أرثوذكية.

ويقول عن نفسه إنه كان طوال حياته أميل إلى الدين المحمدي، ويحاول أن يقرأه ويفهمه، وصار له أحفاد مسلمون، وقد أبلغ في المحكمة الشرعية أن تغير الأسماء إجراءً شكليًّا، فاحتفظ هو وزوجته باسميهما وبنى لنفسه، ولأسرته مقبرة في مدافن المسلمين بالغفير بالقاهرة، وكان يصحو مع الفجر ليصلي، وكانت هوايته المفضلة الاستماع إلى الشيخ عبد الفتاح الشعشاعي يرتل القرآن الكريم، لأنه يذكره بحنجرته العريضة الصوت.

وتوفي جورج أبيض في ٢١ مارس ١٩٥٩م (١٣٧٩هـ) أي في الشهر نفسه الذي ولد فيه بالغًا من العمر ٧٩ عامًا، وكرمته الدولة بوضع تمثال نصفي له في صدر حديقة المعهد العالي للفنون المسرحية. وكرمته محافظة الإسكندرية بإطلاق اسمه على أحد شوارعها بباب شرقي.

أما ترجمة صاحب الاسم القديم فاطلبها في كلمة «جوبا بك».

٥٢٢- جورج زيدان - شارع - بقسم محرم بك (بتريدس سابقًا)

ولد جورج زيدان بمدينة بيروت في لبنان عام ١٨٦١م (١٢٧٨هـ)، وتعرضت مصادر عديدة لتدوين تاريخ حياته، ولكن الترجمة التي يستطاع الاعتماد على صحتها هي تلك التي خطها بقلمه في نهاية الجزء الرابع من كتابه «تاريخ آداب اللغة العربية» الذي ما كاد يتمه حتى وافته المنية فجأة، وتطابق هذه الترجمة ما كتبه الدكتور يعقوب صروف عن حياته إلا في أمرين أولهما أن كتَّاب سيرته يجمعون على أنه تولى التحرير في مجلة المقتطف، ولكن الدكتور صروف يؤكد أنه تولى إدارة المجلة ١٨ شهرًا فقط ولم يكتب فيها إلا نصف صفحة في مرة واحدة (انظر مادة الدكتور صروف). ويذكر كثير ممن كتبوا عنه أنه توفي بالقاهرة في ٢١ من سبتمبر عام ١٩١٤م وذكر بعضهم أن الوفاة كانت في شهر أغسطس من ذلك العام، بيد أن أفراد أسرته – وهم أعلم الناس بتاريخ وفاته – أكدوا أن المنية فاجأته في ٢٢ من يوليو عام ١٩١٤م (١٣٣٤هـ)، ووالده يدعى حبيب زيدان.

وفي المذكرات الخاصة التي كتبها عن حياته ما يدل في وضوح على عصاميته والابتعاد عن التهرب من ماضيه البائس، كما يركن لذلك كثير ممن سجل التاريخ سلوكهم في الحياة، فتناول في تلك المذكرات حياته الخاصة في صراحة صادقة فقال إن أباه كان صاحب مطعم متواضع في بيروت وكان أميًّا يجهل الكتابة والقراءة، وكان يخرج من البيت مع الفجر ولا يعود إليه إلا عند منتصف الليل، وكانت والدته لا تنفك لحظة عن تدبير شئونها المنزلية، ولفقر والده اضطر لترك الدراسة وهو في الحادية عشرة إذ اصطحبه والده إلى المطعم ليقوم بمساعدته فاستمر على هذه الحال عامًا كاملاً، غير أن والدته كانت تلح على والده لإعادته إلى المدرسة فكان يعدها بذلك ولا يفعل، وفي نهاية الأمر صارحها بأنه تعلم الكفاية ولذا لا يوافق على مواصلة تعليمه ليكون كاتبًا أنيقًا يأكل بالشوكة والسكين ويرتدي الملابس الإفرنجية، وقد استفاد جورج من المطعم فكان يلتقي في كنفه باليازجي وعبد الله البستاني اللغوي وغيرهما ويصغي إلى أحاديثهم ومناقشاتهم الأدبية والعلمية ويفيد من كل ذلك، وكان يلتقي أيضًا بطلبة كلية الطب الأمريكية التي أنشئت في بيروت عام ١٨٦٦م (١٢٨٣هـ) فأثاروا حماسته لطلب العلم ودلوه على طريق الالتحاق بكليتهم فأتم دراسة العلوم الإعدادية التي تؤهله للدخول في شهرين ونصف الشهر وذلك يدل على النبوغ والعزيمة الصلبة التي تستهين بالصعاب وتقتحم العقبات، وأفاد جورج من المطعم باطلاعه على عدة لغات أجنبية ولاسيما من المعلم مسعود الذي كان يدير مدرسة خاصة لتعليم اللغة الإنجليزية فانضم جورج إليها في المساء وكان أول كتاب قرأه بالإنجليزية هو رحلة «كوك» وكان قد قرأ قبل ذلك عدة كتب عربية اشتراها من مصروفه الخاص، ولقد اشترى مرة كتاب «مجمع البحرين» للشيخ نصيف اليازجي بنصف ثمنه من أحد الباعة فأنَّبه أبوه على ذلك ولكن صديق والده أمين فياض جعله يحمد الله على أن ابنه يصرف نقوده في اقتناء الكتب عوضًا عن إنفاقها في السكر والملاذ، وفي عام ١٨٨٠م ظهرت الطبعة الثانية من كتاب «سر النجاح» «لصمويل سميلز» ترجمة الدكتور صروف وأصدرته مطبعة مجلة المقتطف وهو يضم سير حياة رجال نجحوا في الحياة بالتغلب على الصعاب بالعزيمة والكد والكفاح، وقد دفعه الاطلاع على هذا الكتاب إلى الالتحاق بكلية الطب الأمريكية عام ١٨٨١م (١٢٩٩هـ)

فأقبل على الدراسة في شغف على الرغم من انشغاله بأمور معاشه، وتقول المصادر إنه اضطر إلى ترك المدرسة في العام الثاني للاختلافات التي قامت فيها بسبب النزاع بين الأساتذة، وكان لجورج زيدان نصيب وافر في هذا النزاع فاتجه بعد ذلك لدراسة الصيدلة مع لفيف من رفاقه المبعدين عن مدرسة الطب، ونال شهادة الصيدلة بعد اجتياز الامتحان بنجاح، وحضر إثر ذلك إلى مصر ورغب في دخول مدرسة الطب المصرية ولكنه عدل عن ذلك لطول مدة الدراسة، وكان قد تجاوز العشرين من عمره، ومن ثمَّ فضل العمل في الصحافة والتحق محررًا بجريدة الزمان ثم رافق الحملة المصرية إلى السودان عام ١٨٨٤م (١٣٠٢هـ) بصفة مترجم فاكتسب الكثير من التجارب العملية والعلمية.

وخلال عام ١٨٨٥م (١٣٠٣هـ) عاد إلى بيروت وكانت قد سبقته إليها شهرته العلمية واللغوية التي اكتسبها بقراءاته الواسعة النطاق فانتخب عضوًا بالمجمع العلمي الشرقي حيث تعلم اللغات العبرية والسريانية وبعض اللغات السامية الأخرى، وقد ألّف – ولمَّا يتجاوز الخامسة والعشرين من العمر – كتاب «الفلسفة اللغوية» الذي ظهر عام ١٨٨٥م (١٣٠٣هـ) وظفر عن طريقه بعضوية «المجمع الآسوي المدني» في إيطاليا وقد قدم هذا الكتاب إلى الهيئات والمجامع العلمية الدولية.

وبعد جولة في إنجلترا عاد إلى مصر وتولى إدارة مجلة المقتطف فنهض بالعبء على خير وجه ولكن استقال عام ١٨٨٨م (١٣٠٦هـ) وتفرغ للتأليف، وفي هذه الفترة أتم كتاب «تاريخ مصر الحديث»، وأول رواياته هي رواية «المملوك الشارد» التي أتمها عام ١٨٩٠م (١٣٠٨هـ) وهي تصور محمد علي أدق تصوير، وآخر كتاب علمي قام بتصنيفه هو كتاب «تاريخ آداب اللغة العربية» الذي أتمه عام ١٩١٤م (١٣٣٣هـ) سنة وفاته وقد قطع في تأليفه ثلاث سنوات.

ودخل جورج زيدان مجال الصحافة الأدبية بإنشائه مجلة الهلال الشهرية عام ١٨٩٢م (١٣١٠هـ) وصدر أول عدد منها في أكتوبر من ذلك العام، وقد لازم اسم جورج زيدان مجلة الهلال حتى وفاته، ولقد كان جورج متعدد النواحي الثقافية، فلم يقف بالمعرفة عند حد، فهيأته ثقافته الطبية والصيدلية ليكون مؤرخًا وأديبًا ولغويًّا علمي المنهج، فهو مؤرخ لم يسلِّم زمامه للعاطفة فكان صاحب عقلية منهجية ظهرت واضحة في أكثر مؤلفاته، ففي تاريخ مصر الحديث زار جميع الأماكن التي استطاع أن يحصل منها على وثائق تاريخية ومعالمها الحقيقية وذلك من آثار وأحياء ومدن، وفي أسلوبه نجد حسن العرض وإحكام التنسيق وتنظيم الأفكار وإشراق العبارة، وتنقسم مؤلفاته إلى تاريخية ولغوية وأدبية واجتماعية وروايات، فالتاريخية هي: «تاريخ مصر الحديث»، و«تاريخ التمدن الإسلامي»، و«تاريخ العرب قبل الإسلام»، و«تاريخ الماسونية العام»، و«التاريخ العام»، و«تاريخ إنجلترا»، و«اليونان والرومان وأنساب العرب القدماء»، ومؤلفاته اللغوية: «الفلسفة اللغوية»، و«تاريخ اللغة العربية»، ومؤلفاته الاجتماعية: «علم الفراسة الحديث»، و«طبقات الأمم»، و«عجائب الخلق»، وأخيرًا «تاريخ آداب اللغة العربية» في أربعة أجزاء، وألّف من الروايات ٢٢رواية تدور حول تاريخ العرب من الجاهلية، وحول تاريخ الإسلام منذ الفتوح إلى العصر الحديث، وقد تُرْجِم الكثير من مؤلفاته ورواياته إلى اللغات الأجنبية والشرقية، ويعد كتاب «تاريخ الأدب العربي» رائدًا بالنسبة إلى النهج الذي سار عليه في تأليفه، ولم يكن على

حق عندما قال إنه أول من كتب في تاريخ الأدب العربي على النحو الذي سلكه، وإنه أول من أطلق على هذا العلم «تاريخ آداب اللغة العربية» ولكن الفرنسيين قد سبقوه في هذه التسمية منذ زمن بعيد ولم يكن غير مترجم حرفي للعبارة التي تسمى بها الكتب الفرنسية التي تتعرض «لتاريخ الآداب الفرنسية Histoire de la Littérature Française»، ويتسم كتابه هذا بأنه أول من أوضح منزلة العرب بين سائر الأمم الراقية من حيث الرقي الاجتماعي والعقلي ويفصل ما وصلت إليه عقول العرب وقرائحهم من إنتاج عظيم عبر العصور وما كان لهذه العصور وأحداثها من أثر في تاريخ تطورهم العقلي والحضاري، وقد تناول الموضوعات في كل عصر من عصور الأمة العربية فألقى عليه من الأضواء ما يكشف عن حقيقته ونموه، ولا يستمد معلوماته من المصادر العربية فحسب بل يلجأ إلى المصادر الأجنبية الأوروبية والأمريكية، ولجورج زيدان كتاب هام هو «تراجم مشاهير الشرق».

وإن كانت روايات جورج زيدان تقوم في سياقها الروائي على بعض الحوادث التاريخية المعروفة إلا أنها لا تعتبر مرجعًا تاريخيًّا يوثق به أو يعتمد عليه؛ لأن مؤلفها لم يكن في هذه القصص حريصًا على تحري الحقائق التاريخية قدر حرصه على الحبكة القصصية وخلق الحوادث المثيرة خلقًا، فكان ينسج من خياله عشرات الصحائف حول حادث لا يتطلب سرده غير بضعة أسطر وقد يكون هذا السرد نفسه من خياله، وقد تعقب بعض الكتاب العرب والمسلمين أكثر هذه الروايات وطعنوا فيما أورده فيها من مزاعم اعتبرها بعضهم افتراءً على التاريخ الإسلامي.

ويلاحظ أن كثيرًا من الأسماء التي وردت في هذه الروايات أسماء خيالية اقتضتها الحبكة القصصية أو هي أسماء شخصيات مجهولة من غير ذوي الشخصيات التاريخية التي كان لها وجود حقيقي في حوادث تلك الروايات.

ولقد عهدت «دار الهلال» في الماضي إلى بعض أساتذة التاريخ الإسلامي بالجامعات المصرية بأمر تهذيب معظم روايات جورج زيدان قبل إعادة طبعها وتنقيتها مما كان يؤخذ عليها.

وفيما يلي أنموذج من نثره الذي خطه في الجزء الرابع من كتابه «تاريخ آداب اللغة العربية» تحت عنوان «الأسلوب العصري الإنشائي»:

«إن كلامنا عن الشعر فيما تقدم ينطبق على الإنشاء؛ لأنهما من باب واحد، فكان تأثير هذه النهضة عليهما على شكل واحد، ولعل هذا التأثير ظهر في الإنشاء أكثر من ظهوره في الشعر، تعني أن الكتَّاب أخذوا يعوِّلون فيما يكتبونه على المعاني أكثر مما فعل الشعراء، وكان الإنشاء في أواخر العصر العثماني قد أصبح المعول فيه على الألفاظ بين سجع واستعارة وتورية وجناس؛ بحيث يتعذر عليك الوصول إلى المعنى، لما يتلبد حوله من الصور المبهمة».

٥٢٣- جول جمال - شارع - بقسم سيدي جابر (أنفيلر سابقًا)

ولد جول جمال بميناء اللاذقية بالجمهورية العربية السورية في أول إبريل عام ١٩٣٣م (١٣٥٢هـ) وقضى أيام طفولته رفيقًا للبحر، وسفنه فأحبه، وعندما أتم دراسته الابتدائية،

والثانوية بمسقط رأسه التحق بالجامعة السورية بدمشق، وبعد عام من الدراسة الجامعية التحق بالكلية العسكرية، ومنها أوفد في بعثة إلى مصر للحصول على الدراسات البحرية بكلية الإسكندرية برأس التين وطوال دراسته كان موضوع رعاية أساتذته لتفوقه في التحصيل، وحسن أخلاقه وكريم سلوكه، وكان صادق الوطنية محبًّا لعروبته يفيض وجدانه بالحماس لها ولنصرة القومية العربية.

ولدى تخرجه من الكلية البحرية حدث العدوان الثلاثي الغاشم على مصر من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل وذلك في سنة ١٩٥٦م، وكان من المقرر أن يعود جول جمال إلى وطنه سوريا، ولكنه رفض وأصر على الاشتراك في صد العدوان قائلاً إن معركة مصر هي معركة سوريا ومعركة كل دول العالم العربي دون استثناء.

وفي يوم ٤ من نوفمبر عام ١٩٥٦م كان جول جمال أحد ضباط زوارق الطربيد الثلاثة، وهي الزورق رقم ٢٢٧ بقيادة النقيب صبحي إبراهيم نصر، والزورق رقم ٢٢٨ بقيادة النقيب إسماعيل عبد الرحمن فهمي، والزورق رقم ٢٢٠ بقيادة الملازم أول علي صالح علي (انظر هذه المواد الثلاثة)، وكانت الزوارق الثلاثة بقيادة المقدم جلال الدسوقي (انظر هذه المادة).

وكان هجوم الأعداء قد اشتد على مدينة بورسعيد الباسلة طوال يوم ٣ من نوفمبر كما اشتد على السويس، وعلى جميع مدن القناة في ذلك اليوم، ولذا اختمرت فكرة القضاء على نشاط حاملة الطائرات في البحر الأبيض، وتنفيذ الخطة البحرية في المنطقة بين الإسكندرية ودمياط، وذلك بمجموعة زوارق الطربيد السالفة الذكر.

وبعد أن طافت منطقة بورسعيد، ولم تجد وحدات العدو استدارت عائدة بسرعة ٢٥ عقدة في الساعة، وعلى بعد عشرة أميال من منار البرلس أصدر جلال الدسوقي أمره بالهجوم على قطع أسطول العدو فأطلقت الزوارق طربيداتها، فأغرقت طرادًا فرنسيًّا، وأعطبت مدمرة بريطانية، غير أن أسطول الأعداء أرسل ١٢ طائرة لمطاردة الزوارق الثلاثة، ولم تستمر المعركة مع هذه الطائرات سوى فترة قصيرة إذ أخذت الزوارق في الاحتراق ثم ابتلعها البحر بمن فيها من الأبطال، وبينهم الشهيد جول جمال، وقد حضر والده، وتسلم الشهادة التي تنطق ببطولته، وتضحيته السخية في سبيل الوطن العربي الكبير الذي لن ينسى ذكراه العاطرة، وقال الوالد على الرغم من حزنه الصامت: إنه فخور ببطولة ابنه، ووطنيته الصادقة.

وكان عمر جول جمال وقت استشهاده ٢٤ عامًا.

أما ترجمة صاحب اسم الشارع القديم فاطلبها في «أنفيلد».

٥٢٤- جونة الأنفوشي - شارع - بقسم الجمرك

أطلق اسم «جونة الأنفوشي» على هذا الشارع دلالة على الخليج الذي يمتد على شكل نصف دائرة من الثكنات العسكرية المجاورة لقصر رأس التين (انظر هذه المادة) إلى حلقة الأسماك الحديثة الواقعة عند بداية اللسان الموصل إلى حصن قايتباي واسم «جونة الأنفوشي» يتركب من كلمتين هما الجونة وتعني الخليج الصغير الضحل، والواقع أن هذا الخليج لا غور له فالمستحمون يستطيعون قطعه طولاً وعرضًا دون أن يغطي

الماء أكثر من ثلثي طول قامتهم، ومازال به بعض أجزاء من شاطئه ذات رمال بيضاء خالية من أعشاب البحر، وأكبر هذه الأجزاء اتساعًا الرملة البيضة الصغيرة كما يسميها أولاد بحري وهي من الجهة الغربية من الخليج بجهة رأس التين التي سميت بهذا الاسم لأنها في الواقع رأس من الأرض داخله في البحر وكانت حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي غيطًا به عدد كبير من شجر التين البرشومي وقد وصفها علي باشا مبارك بذلك في كتابه الخطط التوفيقية.

وأما الجزء الثاني من الاسم، وهو «الأنفوشي» فيرجع إلى أسرة إيطالية كانت تملك عددًا من قوارب الصيد البخارية وهي أسرة «أونفوشي»، وكانت هذه القوارب تسمى «البلانس» عند أهل رأس التين والسيالة وأكثر سكان الإسكندرية، وكانت تأتي دائمًا بصيد وافر جدًّا من أنواع السمك المختلفة مما كان سببًا في رخص أسعاره إلى حد كبير، وكان ينافس أسرة «أونفوشي» في صيد الأسماك أسرة إيطالية أخرى تدعى «أونجليتّو Ungletto»، وكانت تستأجر بحيرة الملاحة، وهي جزء من بحيرة مريوط ينتهي عند غيط العنب، وكانت تشتري دقاقة الأرز، وتبذره في البحيرة فيغزر صيد البلطي والبوري المُدهِنَين بسبب التغذية بدقاقة الأرز ولذلك نجد أن بائعي البوري المملح «الفسيخ» مازالوا يقولون في مناداتهم عليه «فسيخ أونجلطو زبدة».

ومن الغريب أن اسم «أونفوشي» حُرِّف إلى «الأنفوشي» والأغرب من ذلك أن كثيرًا من أهل قسم الجمرك مازالوا يعتقدون أن هناك أحد أولياء الله يدعى «سيدي الأنفوشي»، وهكذا تقلب الأسطورة أحد الإيطاليين إلى ولي من أولياء الله الصالحين.

ولم تكن «جونة الأنفوشي» باتساعها الحالي حتى قبل تشييد رصيف الميناء الشرقي الذي يبدأ من رأس التين، وينتهي عند لسان السلسلة هو «رأس لوخياس»، ولقد دلت الأبحاث الأثرية القيمة التي قام بها «البروفسور بريشيا» أمين المتحف اليوناني الروماني الأسبق على أن مستوى مدينة الإسكندرية القديمة ينخفض عن مستوى سطحها الحالي ببضعة أمتار.

ومن العوامل الطبيعية التي تدل على هذا الانخفاض في سطح المدينة الكلي بعد الزلزال أن المهندس «جونديه Jondet» كشف عن اختفاء أرصفة الميناء الغربي القديمة في الشمال الغربي من جزيرة فاروس أي قسم الجمرك على عمق يتراوح بين ١٣٠ و٨٣٠ سنتيمترًا تحت سطح البحر، وذلك حسب أجزاء هذه الأرصفة المختلفة.

وكان من نتائج هذا الانخفاض الزلزالي أن انفصلت عن جزيرة فاروس جزيرتان صغيرتان إحداهما هي التي يقوم فوقها الآن «حصن الأطة» المخصص حاليًّا لثكنات جنود خفر السواحل، والأخرى هي التي شيدت فوقها طابية قايتباي، وكان يفصل حصن الأطة عن خليج الأنفوشي حتى بداية القرن العشرين الجاري قنطرة ينفذ من تحتها ماء الخليج إلى «البحر الصُغَيَّر»، وتقوم مكانه في الوقت الحالي حلقة الأسماك ومبنى حي غرب الإسكندرية، ومدرسة ونقطة الأنفوشي كما كان يفصل حصن قايتباي عن اللسان الموصل إليه فاصل مائي ضحل يقطعه زوار الحصن غائصة سيقانهم في ماء البحر إلى قرب الركب.

وتقوم الآن في مكان القنطرة الحجرية التي كانت تفصل جزيرة حصن الأطة عن خليج الأنفوشي مستشفى رأس التين

العام، ونقطة حربية لخفر السواحل، وقصر الثقافة، وترتب على انخفاض سواحل الإسكندرية بفعل الزلازل اتساع رقعة خليج الأنفوشي فكانت أمواجه الرقيقة الهينة تزحف في الشتاء على معظم أجزائه، وذلك قبل إنشاء الرصيف، وردم المساحة العريضة التي يسير الترام وسطها في حرم مخصوص على يمينه ويساره طريقان عريضان لوسائل النقل المختلفة وطوران يسمح عرض كل منهما بوضع معروضات الباعة وتنزه آلاف من الوافدين على شاطئ الأنفوشي الشعبي بعد الاستحمام في أجزائه الصالحة لذلك لاسيما في «الرملة البيضة الصغيرة».

وقبل البدء في إنشاء الرصيف خلال عام ١٩٠٩م وهو الرصيف الذي قامت بتنفيذ مشروعه شركة «ألماجا» الإيطالية المتخصصة في الأعمال البحرية الكبرى، والذي انتهى العمل فيه عام ١٩١٢م من رأس التين إلى لسان السلسلة في نهاية الميناء الشرقي (انظر مادة الميناء الشرقي)، قبل ذلك الإنشاء كان شاطئ خليج الأنفوشي مساحة رملية فسيحة قوسية الشكل متفاوتة الاتساع فتقترب مياهه من مجموعة الأكواخ العشش المشيدة من الصفيح القديم على مقربة من قصر رأس التين ثم تحف بالمنازل القديمة القائمة بين تلك الأكواخ وبين نهاية شارع الحجاري أو تترك أمامها مسطحًا رمليًّا تارة منبسطا وتارة قليل الارتفاع، ويستمر البحر في الخليج على هذا النحو ملاصقًا للأبنية، أو منحسرًا عنها في ساحل صافي الرمال رحب حتى القنطرة التي تصل حي السيالة بحصن الأطة.

وإلى جوار «عشش الصفيح» برأس التين كان جنود الجيش يتمرنون على قرع الطبول في دقات منتظمة، والنفخ في القرب على الطريقة الإنجليزية الإسكوتلاندية، وكان أطفال وغلمان حي الجمرك يسرون بسماع هذه الموسيقى النفخية، ويتابعون الجنود في مرانهم ثم يتجهون وراءهم بخطوات عسكرية منسقة وهم يرددون الأنشودة الذائعة في ذلك الحين التي تتواءم أنفاسها مع أقدم مقطوعة رددتها موسيقى الغرب وهي:

كَرَوَنْتْ العَدْسْ بِرِدِتْ

وامُّه العجوزة وِلِدِتْ

وِلِدِتْ ولد طلياني

يِتْكَلِّمْ باليوناني

وكانت لعشش رأس التين ورِقّة حال مساكنها واحتراف الرجال من سكانها بعض المهن الحقيرة ومزاولة النساء تربية الماعز مكانة غير محترمة عند السكندريين الخلص، إذ كانوا جميعًا من فقراء الريف سيئي الأخلاق، ومن ثم كان الأطفال والغلمان إذا مروا بهم صاحوا مترنمين في ازدراء واضح: «رأس التين وِلِدِت ولد، عَلِّموه لَمّ السبارِسْ» (أي أعقاب السجاير)، فيخرج بعض سكان العشش أو نساؤها لتأديب الصائحين على هذه الإهانة، فيفروا هاربين ضاحكين.

وعلى حافة خليج الأنفوشي كانت تقوم – في فجر القرن العشرين وأوائله – منازل بعض الأسر العريقة في الحي السكندري، ففي طرفه الشمالي وعلى مقربة من العشش الصفيحية مازالت ترتفع هامة بيت عائلة الجزيري، وقد اشتهر رجالها بالثقافة الدينية، وفي وسطه يعلو منزل شيمي بك ومطحنه، وشهرة عميدها ذائعة الصيت في القانون واللغة الفرنسية، ومن رجالات الحزب الوطني الأول، ومنزل الشيخ عبد الرحمن الرافعي مفتي الإسكندرية، وقد حل بهذا المنزل الشيخ عبد اللطيف الرافعي والد أمين الرافعي وعبد الرحمن

الرافعي (انظر هاتين المادتين) المحاميين الشهيرين، وقد قضيا طفولتهما في هذا المنزل.

وفي جنوب الخليج يطل بيتا المسيري والمحتسب (انظر هاتين المادتين) على مساكن السيالة (انظر هذه المادة) المتواضعة، وعلى طول شاطئه المتعرج تتعدد ترسانات إنشاء القوارب والزوارق والمواعين والبراطيم، يتزعم أصحابها المعلم محمد طلبة في رأس التين، والمعلم حسين الدُجيشي بالسيالة.

وكان الهدوء يسود الخليج في فصل الشتاء فلا يسمع فوق مسطحاته الرملية العريضة سوى نقرات قواديم القلافطية الخشبية، وهم يحشون الفواصل الضيقة بين ألواح القوارب «بالأسْطُبة» من القطن المشبع بالقطران، أو حفيف المناشير يشدها إلى الأعلى، ويجذبها إلى الأسفل النشارون المهرة يركب بعضهم فوق اللوحات الضخمة، ويقف البعض الآخر تحتها فإذا هي بعد ساعات ألواح رقاق صالحة لصنع السفن الشراعية والعائمات الكبيرة التي تستخدم في نقل البضائع الثقيلة من البواخر إلى البر في الدائرة الجمركية.

وما إن تقرب الشمس حتى يبدو الخليج موحشًا خاليًا من مظاهر الحياة حتى صباح اليوم التالي فيعود إليه دبيبها الخافت الوئيد مع نقرات القواديم، وحفيف المناشير.

ويمر الشتاء، ويستيقظ الربيع لينشر عبقه الفيّاح في أرجاء الخليج فيأخذ المعلم محمد طلبة، والمعلم حسين الدجيشي في إنشاء زورقي السباق استعدادًا ليوم شم النسيم، فيتفنن كل منهما في جعل زورقه غاية في الحسن والإتقان، ويدهن المعلم طلبة زورقه باللون الأحمر، ويطلق عليه الحمراء.

ويقترب يوم شم النسيم وهو بالنسبة إلى سكان الإسكندرية عيد البحر والربيع والأزهار والمرح جميعًا فمتعته الوارفة وفرحته الباسمة كانت تدخل البهجة على جميع أهل المدينة على اختلاف جنسيتهم.

وعندما كانت تلوح بشائره يحفل خليج الأنفوشي بمئات الزوارق الحديثة الدهان لتشترك في مسابقات العيد التمهيدية طوال الخمسة عشر يومًا السابقة لمقدمه السعيد حاملة الرجال والنساء والأطفال في عرض الخليج وطوله.

وفي الصباح الباكر من يوم عيد الربيع كانت تعد على خليج الأنفوشي جموع كبيرة العدد فترصع رماله بألوان حللها الزاهية، وتبرقشها بقشور البيض الملون وفضلات الترمس، والحلبة المنبتة والخس.

وقبيل العصر تنعقد على حافة الخليج من طرفه إلى نهايته قلادة من النظارة ينتظرون بدء السباق السنوي بين الخضراء الطلبية والحمراء الدجوشية وتلمح الجموع الحاشدة شراعيّ الزورقين الهائلين فتكبر وتهلل وتنطلق زغاريد النساء في رأس التين وفي السيالة، وتعلو صيحات جميع النظّارة بالجملة المألوفة التي تبعد الحسد عن الزورقين: «صلاة النبي، ترضي النبي، ملحة في عينك ياللي ما تصلي على النبي»، ويقلع الزورقان متجهين نحو عرض البحر، وبكل منهما أكبر عدد من فتوات كل من الحيَّيْن، وبعد فترة من الزمن يقبل الزورقان في ميل شديد تحت ضغط شراعيهما العاليين المليئين بالهواء وهما يسيران بأقصى سرعة، ويلمس أحد الزورقين رمل الشاطئ قبل الآخر فيصبح الفائز في السباق، وإذا بالرايات تنتشر وإذا بالمعلم محمد طلبة صاحب الخضراء، أو بالمعلم حسين

الدجيشي صاحب الحمراء يحمل على الأعناق تكريمًا وتجليلاً ثم يوضع الزورق الفائز فوق عربه كارو تسير به نحو حي الزورق المغلوب رأس التين أو السيالة يتقدمه الفتوات، وعلى رأسهم حميدو الفارس، وعلي التّتة عن السيالة، أو محمد الجلوّ ومحمد النجرو عن رأس التين، ثم موسيقى حسب الله والنقرزان والمشاعلي، ويردد الجميع رجالاً وأطفالاً عبارات تدل على تحقير أحد الحيين، وكان الموكب لا ينتهي إلا بمشاجرة عنيفة دموية تستخدم فيها الهراوات والزجاجات المليئة بالرمل يساق بعدها الفتوات ومناصروهم إلى قسم شرطة الجمرك لينالوا جزاءهم على ما أحدثوا من شغب، وأذى وعندها تنتهي تقاليد شم النسيم في خليج الأنفوشي.

هذه كانت الصورة الواضحة لخليج الأنفوشي قبل بناء الرصيف في عام ١٩٠٩م فالمسافة بين هذا الرصيف العريض وبين المنازل القديمة القليلة الباقية حتى الآن يغطيها في الوقت الحاضر مساحة الطريق الواسع الذي يمتد وسطه خطا الترام في حيز مخصوص، وعلى جانبيهما شارعان عريضان وطواران كبيران لوسائل النقل والمارة ويلاحظ أن المنازل القديمة الباقية ذات الطبقات العلوية البارزة فوق حاملات خشبية ينخفض مستواها حاليًّا عن مستوى الطريق على حين كانت قبل إنشاء الرصيف يصعد إلى أبوابها بدرجتين، وذلك يبين مدى ارتفاع مستوى الطريق بسبب الردم والتجديد في الرصيف كل فترة من الزمن كان ارتفاع مستواها بدرجتين يرجع إلى حذر سكانها من طغيان مياه الخليج في فصل الشتاء على داخل مساكنهم.

وقد أطلقت البلدية اسم السلطان سليم العثماني على الطريق الجديد بعد إتمامه خلال عام ١٩١٢م ثم استبدل بهذا الاسم اسم قصر رأس التين حاليًّا.

ويدل على أن خليج الأنفوشي تولَّد عن انخفاض في سطح الأرض أدى إلى وجود الصخور الكثيرة جدًّا المنتشرة في قاعه الضحل، وعلى مدى مساحته حتى الحاجز الصخري الطبيعي الذي يكون وتر القوس الذي يشكل هيئته الكلية.

وما من شك في أن هذا الخليج تكون بسبب الزلزالين العنيفين اللذين اجتاحا الإسكندرية مرتين الأولى عام ٤٩٤هـ (١١٠٠م)، والثانية عام ٧٢٤هـ (١٣٢٤م) وقد أطاح الزلزال الأول بطبقات المنارة العجيبة التي كانت في مكان حصن قايتباي فلم يبق منها غير الطبقة السفلى، وحطم الزلزال الثاني ما تبقى منها فسواها بالأرض، وتولد عن الزلزالين خليج الأنفوشي والبحر الصغير.

٥٢٥ – الجويني – حارة – بقسم مينا البصل

اسمه الكامل أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد ابن حيويه الجويني الفقيه الشافعي، وهو والد إمام الحرمين الجويني (انظر مادة إمام الحرمين)، وكان إمامًا في تفسير القرآن الكريم والفقه والأصول واللغة العربية والأدب، وقد قرأ الأدب في أول الأمر على أبيه أبي يعقوب يوسف بمدينة جوين التي ينسب إليها، ثم انتقل إلى مدينة نيسابور، واشتغل بالفقه على أبي الطيب سهل بن محمد الصعلوك ثم على أبي بكر القفال (انظر مادة القفال) في مدينة مرو ولازمه واستفاد منه، وانتفع بدروسه، وأتقن على يديه فقه المذهب الشافعي، وقرأ عليه طريقته في الخلاف، وأحكم كل ذلك ولما أتم تعليمه

عاد إلى نيسابور عام ٤٠٧هـ (١٠١٦م)، وتصدر للتدريس، والفتوى وتخرج على يديه عدد كبير من الطلاب من بينهم ولده إمام الحرمين.

وكان الجويني مهيبًا لا يقال في حضرته إلا الكلام الجد، وقد ألف التفسير الكبير المشتمل على أنواع العلوم، وألف في الفقه: التبصرة والتذكرة ومختصر المختصر والفرق والجمع والسلسلة وموقف الإمام والمأموم وغير ذلك من التعاليق.

وبعد مرضه الذي استمر سبعة عشر يومًا توفي في شهر ذي القعدة عام ٤٣٨هـ (١٠٤٦م)، ودفن بنيسابور وكان مايزال في سن الكهولة، وجُوَيْن التي ينسب إليها بلدة كبيرة من نواحي نيسابور.

٥٢٦- جياكومو لمبروزو - شارع - بقسم باب شرقي (ابن شجاع حاليًا)

اطلب ترجمته في لمبروزو (جياكومو).

حرف الحاء



٥٢٧- الحاتمي - شارع - بقسم مينا البصل (فرانسوا كوست سابقًا)

هو أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر الكاتب اللغوي البغدادي المعروف بالحاتمي، وكان أحد أكابر الأعلام المشهورين بسعة الاطلاع، وقد أخذ الأدب عن أبي عمر الزهد غلام ثعلب وروى عنه الكثير من الأخبار الأدبية، كما روى عن غيره من العلماء والأدباء، وأخذ عنه جماعة من الأفاضل من بينهم القاضي أبو القاسم التنوخي (انظر مادة التنوخي).

وقد ألف الحاتمي الرسالة الحاتمية التي شرح فيها ما جرى بينه وبين أبي الطيب المتنبي (انظر مادة المتنبي) من إظهار سرقاته، وتوضيح عيوب شعره، ودلت هذه الرسالة النقدية الحصيفة على غزارة علمه واتساع أفق اطلاعه، وقد ذكر في مقدمة رسالته السبب الذي حمله على انتقاد المتنبي، وإظهار سرقاته فقال: «لما ورد أحمد بن الحسين المتنبي مدينة السلام منصرفًا عن مصر، ومتعرضًا للوزير أبي محمد المهلبي بالتخييم عليه والمقام لديه التحف رداء الكبر، وأذال ذيول التيه، ونأى بجانبه استكبارًا، وثنى عطفيه جبرية وازورارًا، فكان لا يلاقي أحدًا إلا أعرض عنه تيهًا وزخرف القول عليه تمويهًا، تخيل عجبًا إليه أن الأدب مقصور عليه وأن الشعر بحر لم يرد ماءه غيره، وروض لم يجن نواره سواه».

ثم يستطرد الحاتمي قائلاً «بأنه ركب بغلته تحفه العبيد والغلمان، وذهب إلى حيث ينزل المتنبي فلما رآه أراد الاختفاء فعاجله الحاتمي، وفوت عليه الهرب فأخذ يعرض عنه في مجلسه، ويهتم بمن حضروا مجلسه من الجهلاء، فصمد الحاتمي لإعراض المتنبي عنه إلى أن التفت إليه، وسأله ما خبره؟ فأجاب أنه يلوم نفسه على زيارة رجل لا يحسن الأدب، ولا إكرام الضيف، ثم سأله فيما يجبره على التعاظم والتيه والكبرياء الجوفاء وقال له: «أبِن لي مم تيهك وخيلاؤك وعجبك وكبرياؤك، وما الذي يوجب ما أنت فيه وما أنت عليه من الذهاب بنفسك، والرمي بهمتك إلى حيث يقصر عنه باعك، ولا تطول إليه ذراعك، هل ههنا نسب انتسبت إلى المجد به، أو شرف علقت بأذياله، أو سلطان تسلطت بعزّه، أو علم تقع الإشارة إليك به، إنك لو قدرت نفسك بقدرها، أو وزنتها بميزانها، ولم تذهب بك التيه مذهبًا، لما عدوت أن تكون شاعرًا مكتسبًا»، فأخذ المتنبي يعتذر له، وقد اصفرَّ وجهه ولكن الحاتمي تمادى في تقريعه دون هوادة».

ومما تقدم يتضح أن الحاتمي كان متحاملاً على المتنبي كل التحامل، ومن ثم يكون من غير الإنصاف الأخذ بالرسالة الحاتمية على أنها نقد بريء لشعر المتنبي وعبقريته التي لا تنكر، ومما يؤكد هذا التحامل ويشكك في جدية الرسالة أن الحاتمي يذكر أنه أبان للمتنبي سرقاته وعيوبه في هذا المجلس الذي جمعهما وهو أمر لا يسهل تصديقه.

وللحاتمي كتاب بعنوان «حلية المحاضرة» في مجلدين وهو يعالج صنوف الأدب، وتوفي في ربيع الأول عام ٣٨٨هـ (٩٩٨م) ونسبة الحاتمي يرجع إلى أن أحد أجداده كان يدعى حاتمًا.

٥٢٨- الحاجري - حارة- بقسم الجمرك

اسمه أبو يحيى وأبو الفضل عيسى بن سنجر بن بهرام بن جبريل الأربلي المعروف بالحاجري، وكنيته حسام الدين، ولد بمدينة أربل، في حوالي عام ٥٨٢هـ (١١٨٦م)، وكان

جنديًّا من أولاد الأجناد، وكان شاعرًا مجيدًا له ديوان شعر تغلب عليه الرقة وجزالة المعاني ويشتمل على ألوان من صناعة القريض منها الدوبيت والموالي، والشعر المقفى على الأبحر المعروفة، وقد أجاد في كل هذه الألوان متفوقًا في ذلك على كثير من الشعراء الذين لا يجيدون كل هذه الأنواع في وقت واحد ومنها «الكان كان» وقول ابن خلكان في كتابه «وفيات الأعيان»: إنه كان صديقه وقد أنشده الكثير من أشعاره، ومن قوله في الغزل الرقيق الحاشية:

وَمُهَفْهَفٍ مِنْ شَعْرِهِ وجَبِيْنِهِ
أَمْسَى الوَرَى في ظلمةٍ وضياءِ

لا تنكروا الخالَ الذي في خَدِّهِ
كل الشقيق بنقطةٍ سوداءِ

وقد ذاع صيت ديوانه في كل الأمصار لما يتضمنه من قصائد عذبة الجرس والسياق وفي شهر رمضان عام ٦٢٦هـ (١٢٢٨م) كان معتقلاً بقلعة «أربل» بعد إطلاق سراحه من السجن في قلعة خفقيد، وله في ذلك شعر يشكو فيه ما يكابد من ضيق، وألف فيقول:

قَيْدٌ أكابِدُهُ وسجنٌ ضيِّقٌ
ياربُّ شابَ من الهمومِ المفرَقُ

إلى أن يقول:

يا برقُ إن جئتَ الديار بأربلٍ
وعَلا عليكَ من التداني رَوْنَقُ

بلّغْ تحيةَ نازحٍ حَسَراتُهُ
أبدًا بأذيالِ الصَبَا تتعلقُ

واللّهِ ما سَرِتِ الصَبَا نجديَّةً
إلا وكِدْتُ بدمعِ عيني أغرقُ

كيف السبيل إلى اللقاءِ ودونَهُ
شمَّاءُ شاهقةٌ وبابٌ مُغْلَقُ

وقال وهو في سجنه أيضًا:

أحِبَّانا أيُّ داعٍ بالبِعادِ دَعَا
وأيُّ خَطْبٍ دهانا منه تفريقُ

لا كان دهرٌ رمانا بالفراقِ فقدْ
أضحَى له في صميمِ القلبِ تمزيقُ

كانت تضيقُ بي الدنيا بِغَيْبَتِكُمْ
فكيف سجنٌ ومن عاداتهِ الضيقُ؟

وبعد خروج الحاجري من السجن، وفك أسره من الاعتقال بقلعة أربل اتصل بخدمة أميرها الملك المعظم مظفر الدين، وتقدم عنده وغير ملابسه، وتزين بزي الصوفية، وعقب وفاة مظفر الدين رحل عن أربل ثم عاد إليها عندما صارت من أملاك المستنصر بالله الفاطمي أحد خلفاء الدولة الفاطمية في مصر (انظر ترجمته في مادة الفواطم)، وكان نائب الخليفة على أربل الأمير شمس الدين أبو الفضائل باكتين، فأقام الحاجري فيها مدة طويلة، وذات يوم وثب

عليه شخص قبل الظهر وطعنه بسكين فأخرج أمعاءه، وتوفي في الحال، وكان ذلك في شوال عام ٦٣٢هـ (١٢٣٤م) بالغًا من العمر حوالي ٥٠ عامًا، ولم يكن الحاجري من حاجر بالحجاز، وإنما نسب إليها لاستعمالها في شعره لأنه من أربل حيث ولد وتوفي.

٥٢٩- الحافظ - شارع - بقسم محرم بك

يحمل لقب الحافظ خمسة من مفكري العرب الذين ذكرت تراجم حياتهم في كتب التاريخ وفيما يلي سيرة كل منهم وفاقًا لتاريخ وجود كل منهم في قيد الحياة.

١) أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح الحميدي الأندلسي الحافظ المشهور: ولد بجزيرة مايورقة إحدى جزر أرخبيل البليار الواقع في شرق إسبانيا بالبحر الأبيض المتوسط عام ٤٢٠هـ (١٠٢٩م)، وتوفي ببغداد عام ٤٩١هـ (١٠٩٦م) بالغًا من العمر ٦٨ عامًا.

أما تفصيل سيرة حياته فاطلبه في «الحميدي»؛ إذ إن له حارة بقسم كرموز.

٢) أبو الفضل محمد بن ناصر بن محمد بن علي البغدادي (المعروف بالحافظ السلامي): وكان حافظ في بغداد في وقته، وكان له حظ وافر من الأدب الذي أخذه عن الخطيب أبي زكريا التبريزي، وكان في غاية الحسن والإتقان، وكان كثير البحث عن الفوائد وإثباتها، وقد روى عنه الأئمة، وأخذ عنه علماء عصره ومنهم الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي (انظر هذه المادة) الذي أكثر روايته عنه، وذكره الحافظ أبو سعيد ابن السمعاني في كتبه، وترجع كنيته بالسلامي إلى مدينة السلام وهي ببغداد.

وكانت ولادته في ١٥ من شهر شعبان عام ٤٦٧هـ (١٠٧٤م)، وتوفي ببغداد في ١٨ شعبان عام ٥٥٠هـ (١١٥٥م) بالغًا من العمر حوالي ٨٢ عامًا، ودفن بباب حرب تحت السدرة بجوار أبي منصور ابن الأنباري الواعظ.

٣) الحافظ لدين الله (الخليفة الفاطمي الحادي عشر): واسمه بالكامل أبو الميمون عبد المجيد الملقب بالحافظ لدين الله، وقد ولد بمدينة عسقلان عام ٤٦٧هـ (١٠٧٤م)، وهو ابن أبي القاسم محمد بن الخليفة المستنصر بالله، وقد استقر في الحكم عقب اغتيال «الآمر بأحكام الله» عام ٥٢٤هـ (١١٣٠م).

أما تفصيل سيرة حياته فاطلبه في البحث الخاص «بالفواطم».

٤) صدر الدين أبو الطاهر أحمد بن محمد الحافظ السلفي: ولد عام ٤٧٥هـ (١٠٨٢م)، وتوفي بالإسكندرية عام ٥٧٦هـ (١١٨٠م).

أما تفصيل سيرته فاطلبه في «السلفي».

٥) أبو موسى محمد بن أبي بكر عمر بن أبي عيسى الأصبهاني المديني الحافظ المشهور: كان إمام عصره في الحفظ والمعرفة، وله في الحديث وعلومه مصنفات كثيرة مفيدة، وهو صاحب كتاب «المغيث» في مجلد واحد، وقد أكمل به كتاب «الغريبين» الذي ألفه الهروي واستدرك عليه، وهو كتاب مفيد نافع، وللحافظ أيضًا كتاب «الزيادات» في جزء واحد جعله ذيلاً على كتاب شيخه أبي الفضل محمد بن طاهر المقدسي وعنوانه «كتاب الأنساب»، وقد ذكر الحافظ في هذا الذيل كل من أهملهم المقدسي في كتابه.

وقد رحل الحافظ عن أصبهان في طلب العلم والحديث ثم عاد إليها، وأقام بها حتى وفاته.

وقد ولد أبو موسى الحافظ في شهر ذي القعدة عام ٥٠١هـ (١١٠٧م)، وتوفي في ٩ جمادى الأولى عام ٥٨١هـ (١١٨٥م)، بالغًا من العمر حوالي ٧٩ عامًا، وكانت ولادته ووفاته بمدينة أصبهان.

٥٣٠- حافظ باشا خليل - شارع - بقسم مينا البصل

تولى حافظ باشا خليل نظارة البحرية في عهد سعيد الأول (انظر هذه المادة) خديوي مصر الذي اعتلى العرش في المدة من ١٨٥٤ إلى ١٨٦٣م والذي منح فرديناند دي ليسيبس الترخيص في شق قناة السويس.

وكان سعيد باشا في أثناء حكمه قد أمر بتشييد حوض حجري جاف بالإسكندرية بجانب الحوض الصغير الذي أقيم في عهد محمد علي، وذلك لاستطاعة إصلاح السفن المصرية والأجنبية التي صارت في ذلك الحين من كبر الحجم والحمولة بحث لا يستطاع إصلاحها، وإعادة طلائها بالدهان في الحوض الصغير، وأمر كذلك بإنشاء قَزاقٍ من الحجر على شكل مزلقان لتسحب فوقه السفن إلى الحوض الكبير المزمع إنشاؤه لإصلاحها ودهانها.

وقد تم بناء القزاق وجعلوا في نهايته على الشاطئ آلة بخارية لسحب السفن إلى داخله وعهد بتنفيذ هذه الأعمال البحرية إلى بعض المهندسين الأوروبيين، وفجأة تعطل العمل، ووقف إتمامه لأن حافظ باشا خليل ألح في السعي لدى الخديوي سعيد للحصول على ترخيص منه للاستيلاء على الأخشاب والكتل الخشبية التي كانت قد غرزت حول الحوض، وعلى الشاطئ لهذه الأعمال، وقد نجح حافظ خليل في مسعاه غير المشروع، واستطاع شراء كل الأخشاب والكتل بثمن زهيد ثم استخدمها في إقامة الفرضة الكائنة أمام شوادر الحطب بالإسكندرية، وكان سعيد قد منحه حق الحصول على رسوم الرسو أمام هذه الفرضة ليتمتع بما تدر من إيراد، وهكذا يتضح كيف كانت أموال الدولة نهبًا للطامعين، والوصوليين من محاسيب حكام مصر من ذرية محمد علي.

ومما تقدم يتبين أن حافظ باشا خليل لم يكن ممن يستحقون التخليد بوضع أسمائهم على الشوارع ويكفي لتأييد هذا الرأي استيلاؤه الجشع على الأخشاب بثمن بخس وتمتعه بإيراد فرضه الرسو بغير وجه حق مشروع نزيه، ولا يعرف تاريخ ميلاد هذا الرجل، ولا تاريخ ومكان وفاته.

٥٣١- حافظ حسنين - شارع - بقسم مينا البصل

هو حافظ حسنين البقلي (انظر مادة البقلي) نجل حسنين علي البقلي ناظر الضربخانة (دار سك النقود) وشقيق محمد علي البقلي باشا الطبيب الذائع الصيت، وقد ولد حافظ حسنين البقلي عام ١٨٤٦م (١٢٦٣هـ)، وقد رزق به والده من زوجته الثانية السيدة فطومة بنت عمه عفيفي أفندي الكبير مهندس الري في عهد محمد علي، وتعلم حافظ بمدرسة الفرير بالقاهرة وسافر إلى فرنسا في عهد سعيد الأول وكان عمره وقتئذ ثلاثة عشر عامًا، وقد ذكر بين طلبة البعثات في عهد سعيد مرتين، الأولى في أوراق القسم الإفرنجي في

سنة ١٨٦٠م (١٢٧٧هـ) باسم حافظ فقط والثانية في دفاتر المحفوظات العربية الخاصة بتلاميذ البعثات باسم حافظ حسنين حكيم ملازم ثان بباريس في أكتوبر عام ١٨٦٢م (١٢٧٩هـ)، وكان مرتبه الشهري وهو يتلقى العلم بفرنسا ٥٠٠ قرش، وعاد إلى مصر في أكتوبر عام ١٨٧٠م (١٢٨٧هـ) والتحق تلميذًا بمدرسة الطب بقسم الصيدلة، ثم رجع إلى باريس وواصل دراسته إلى أن حصل على دبلوم العلوم الطبيعية والكميائية عام ١٨٧٦م (١٢٩٣هـ) من المعهد الطبيعي للعلوم (أي كلية العلوم)، وعقب ذلك رجع إلى الوطن وعين مدرسًا للتاريخ الطبيعي بمدرسة الطب، ومنح رتبة الصاغ (الرائد)، ثم صار مدرسًا بالمدرسة التجهيزية بدرب الجماميز للتاريخ الطبيعي أيضًا، ونقل إلى المدرسة التوفيقية في نظارة بِلْتيه بك الذي ألف كتاب الأجرومية الفرنسية للمدارس المصرية والمدارس التونسية، وبقي كتابه يدرس مدة طويلة وكنت أدرسه وأحفظ قواعده المبسطة وأحل تمريناته الطريفة مما قوى معرفتي باللغة الفرنسية إلى حد بعيد، وقد وقع خلاف بين حافظ حسنين وبلتيه بك إذ طرده هذا الفرنسي من مكتبه فلم يسكت على الإهانة وشكاه رسميًّا لنظارة المعارف في عهد يعقوب أرتين بك وكيل النظارة، غير أن أرتين ناصر بلتيه بك عليه بسبب العداء الذي كان بين أرتين وبين والد حافظ حسنين البقلي (حسنين علي البقلي الكميائي) بسبب ما أظهره حسنين البقلي من غش في كثير من الأشياء التي كان أرتين يزود بها الحكومة المصرية ليحصل على أكبر قسط من الفائدة المادية، وانتهز أرتين هذه الفرصة وانتقم من ولده حافظ بفصله من وظيفته، فظل في منزله مكبًّا على المطالعة والدرس إلى أن أدركته الوفاة في ٢١من يوليو عام ١٨٨٨م (١٣٠٦هـ) ودفن بقرافة المجاورين بجانب والده في مدفن واحد، وكان هذا العالم قد أقام مدة طويلة بالإسكندرية بعد فصله التعسفي.

وقد رزق حافظ حسنين ولدًا واحدًا هو حسنين بك حافظ من زوجته البلجيكية التي تزوجها بفرنسا وجاءت معه إلى مصر وأسلمت إسلامًا صحيحًا، وكانت مثرية محترمة لم تنفك عن الحزن على زوجها وولدها الذي توفي في ٧ من مارس عام ١٩٢٦م (١٣٤٥هـ) وقد أوقفت ثروتها من بعدها على الأعمال الخيرية النافعة، ووافتها المنية بالإسكندرية عام ١٩٢٧م (١٣٤٦هـ) ونقل جثمانها إلى القاهرة حيث دفنت بمقبرة زوجها الذي بكته وبكت ابنه طويلاً في حزن عميق.

وأسرة «البقلي» من الأسر العريقة بالإسكندرية، وبقسم الجمرك عطفة باسمها إذ كان فرع منها يسكن بهذه العطفة وكان فرع آخر يسكن بشارع باسمها بقسم باب شرقي.

٥٣٢- حامد بك - شارع - بقسم الرمل

١) حامد أمين (المصري الجنسية): تعلم في مدارس مصر ثم اختير للسفر إلى برلين (وكانت عاصمة إمارة ألمانيا في ذلك الحين) لتعلم الصيدلة ضمن طلبة البعثة السادسة في عهد عباس الأول، وكان عمره عند سفره خمسة عشرة عامًا، وبما أن هذه البعثة أرسلت في أوائل عام ١٨٥٤م (١٢٧٤هـ) وقد تحول حامد أمين في عهد سعيد الأول إلى تعلم الفنون الحربية فأتم تعليمه، وعاد إلى مصر والتحق بالجيش المصري، وأخذ يترقى في رتبه إلى أن صار في عام ١٨٧٦م (١٢٩٣هـ) قائمقامًا (عقيدًا) في إحدى فرق المشاة وقد اشترك في جميع الحروب التي خاضتها مصر. ولدى قيام الثورة العرابية المجيدة انضم إلى أحمد عرابي باشا بطلها المصري الفلاح وحارب ضد

الجيش الإنجليزي الغاصب وكان في ذلك الحين برتبة أميرالاي (عميد) وعند انتهاء الثورة قبض عليه وظل مسجونًا ستين يومًا ثم عوقب وصدر العفو عنه مع إحالته على التقاعد، فاستبدل بمعاشه أطيانًا من الحكومة بجهة أبي كبير مقدارها ٨٠ فدانًا بقي يشرف على أرضه إلى أن أدركته الوفاة في أوائل عام ١٩١٦م (١٣٣٥هـ) في ضيعته بأبي كبير ودفن هناك وقد بلغ من العمر ٧٧ عامًا.

وكان يجيد إلى جانب اللغة العربية اللغات التركية والفرنسية والألمانية وقليلاً من اليونانية والحبشية والجركسية، ويصفه من عرفوه بأنه كان من أهل التقوى والصلاح وأنه كان شجاعًا حسن السيرة فعاش محترمًا ومحبوبًا بين الناس.

٢) حامد نيازي بك: كان أول ناظر لدار العلوم، وتولى هذه النظارة من ٦ سبتمبر ١٨٧٢م إلى ٢٥ إبريل ١٨٧٤م، وكان معاونًا بالكتبخانة الخديوية وأحيلت عليه ملاحظة المدرسة ثم عين ناظرًا لها في ٢٦ إبريل ١٨٧٤، وتولى نظارتها مرة أخرى في الفترة من ٢٣ يوليو عام ١٨٧٩ إلى ٢٥ سبتمبر عام ١٨٨٢م.

ولعل حامد بك صاحب تسمية هذا الشارع غير هذين الحامدين وذلك لاختصار الاسم دون ذكر ألقاب صاحبه للتعرف على شخصيته الحقيقية، وقد رأيت أن أذكر تاريخ هذين الحامدين لأهميتهما.

٥٣٣- الحجَّاج - زقاق - بقسم الرمل

٥٣٤- الحجَّاج - حارة - بقسم الجمرك

هو الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي، كان من أمهر ساسة بني أميَّة، وكان مولده في حوالي عام ٤١هـ (٦٦١م) وهو حفيد الصحابي الثقفي عروة بن مسعود، وكان أبوه يوسف قد تزوج من أمه بعد أن طلقت من المغيرة بن شعبة.

ويستخلص من الأشعار التي نظمت في هجائه أنه أساء في أول أمره اختيار المهنة التي تليق به فاستهل حياته بالاشتغال بالتعليم، ولا يذكر التاريخ إلا القليل عن مطلع شبابه وعن تاريخ ظهوره على مسرح الحياة العامة ويرجع ذلك إلى أن شانئيه من المؤرخين قد طمسوا معالم هذه الحقبة من تاريخ حياته.

وقد ترك الحجاج جزيرة العرب وهو مايزال فتى يافعًا ليجرب حظه مع المروانيين من بني أمية، وعندما خرج الخليفة عبد الملك بن مروان (انظر هذه المادة) بجيشه لقتال مصعب ابن الزبير انتبه إلى بسالة الحجاج فألحقه بخدمته ورحل معه إلى العراق، ثم أوفده على رأس جيشه إلى الحجاز لانتزاعه من يد عدوه عبد الله بن الزبير، فعسكر في بلدة الطائف ثم اتجه صوب مكة ورماها بالمنجنيق من جبل أبي قبيس وسرعان ما استطاع الاستيلاء عليها، وبعد أن ظل ابن الزبير سجينًا بالكعبة حوالي سبعة أشهر لقي حتفه وصلبت جثته في جمادى من عام ٧٣هـ (أكتوبر عام ٦٩٢م).

واستطاع الحجاج بفضل ما جبل عليه من حزم وعزم أن يعيد إلى الدولة الإسلامية وحدتها السياسية وكافأه الخليفة

على ذلك فولاه على البلاد التي فتحها ثم استعمله على المدينة واليمامة واليمن.

وكان أول ما عني به تعمير الكعبة وكانت قد دمرت خلال حصار عبد الله بن الزبير فيها وحرص على إعادتها إلى ما كانت عليه حتى قبل أن يرممها ابن الزبير، ولم تمضِ سنتان حتى تمكن من توطيد السلام والأمن في الجزء الغربي من بلاد العرب.

وفي شهر ديسمبر عام ٦٩٤م ولاَّه الخليفة عبد الملك على العراق عقب وفاة أخيه بشر بن مروان، وكانت فتن الخوارج المتتالية قد مزقت أوصال البلاد العراقية وصارت قصة دخوله الكوفة وإعلانه سياسته في مسجدها من مأثورات الأدب العربي، فقد خطب الناس في ذلك اليوم، وبعد أن رمى أهل العراق بالغدر والهرب من المعارك والنفاق البَيِّن قال لهم:

«يا أهل العراق! الكَفَرات بعد الفَجَرات، والغَدَرات بعد الخَتَرات (أي أقبح العذر) والنَّزَوات بعد النَّزَوات (أي الهرب بعد الهرب)، إن بعثتكم إلى ثغوركم غَلَلْتُم وخُنْتُم، وإن أمِنْتم أرْجَفْتُم، وإن خِفْتُم نَافَقْتُم، لا تذكرون حسنة ولا تشكرون نعمة، هل استخفَّكُم ناكث أو استغواكم غاوٍ، أو استنصركم ظالم، أو استعضدكم خالع إلا اتبعتموه وآويتموه ونصرتموه ورحَّبْتُموه؟.

يا أهل العراق: هل شَغَبَ شاغب، أو نَعَب ناعب، أو زَفَر زافر، إلا كنتم أتباعه وأنصاره؟ يا أهل العراق: ألم تنهكم المواعظ؟ ألم تزجركم المواقع؟».

وفي مدينة البصرة لجأ إلى التهديد من جديد فقال إنه سيضرب عنق كل من يتخلف عن القتال وسرعان ما تزاحم الناس صفوفًا على معسكر قائده المهلب، ومن ثم نجح المهلب في أن يلحق بالخوارج الهزيمة تلو الأخرى وهلك في القتال كبار زعمائهم.

وأراد الحجاج التخلص من شبيب الخارجي القبيح السيرة فاستنجد بعسكر الشام لأن جند العراق أبَوْا قتال شبيب، وانتهز شبيب الفرصة بخروج الحجاج إلى البصرة وزحف إلى الكوفة فقفل إليها الحجاج ووصلها قبل وصول شبيب ببضع ساعات وأخذ يشق طريقه إلى العاصمة ويخوض قتالاً مريرًا دام عدة أيام اضطر شبيب بعدها إلى إخلاء الميدان ولحقت به فرسان العراق وهو يعبر بجيشه نهر دجيل، وفي هذا العام نفسه (عام ٧٧ – ٧٨هـ) (٦٩٦– ٦٩٧م) نجح الحجاج أيضًا في إخماد فتنة أثارها أنصار ابن المغيرة المتطرفين وهو أحد ولاة الأقاليم.

وعندما عاد الحجاج إلى الكوفة بعد القضاء على شبيب وأنصار ابن المغيرة اعتلى المنبر في مسجد الكوفة وقال لأهلها مهددًا:

أَنَا ابْنُ جَلاَ وطَلاَّع الثَّنايَا

مَتىَ أَضَعِ العِمَامَة تَعْرِفُوني

«يا أهل الكوفة! إني لأرى رءوسًا أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها، وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحَى».

وقوله «أنا ابن جلا» أي ابن رجل جلا الأمور وكشف الصعاب، والثنايا جمع ثنية وهي الطريق في الجبل أو الجبل نفسه، والمراد من البيت هو أنه القادر الشجاع.

وما كاد الحجاج يخلد إلى الراحة بعد القيام بهذه المهام الجسيمة حتى اندلعت فتنة شعواء يؤجج سعيرها أشراف العراق الذين طغى الحقد والغيرة على قلوبهم، ولم تكن هذه الفتنة موجهة إلى الحجاج فحسب بل إلى الدولة الأموية بأسرها، فقد كانت حركة انفصالية تنفس على الشام ما كان له من مكانة مفضلة في الدولة الإسلامية.

ولقد بقي الجنود الشاميون في العراق بعد هزيمة شبيب وموته وغمرهم الحجاج بعطفه ورعايته، وسرعان ما انضم القراء إلى الساخطين الناقمين بزعامة عبد الرحمن حفيد الأشعث بن قيس الذي أنفذه الحجاج إلى سجستان في أربعين ألف مقاتل، فانتفض عليه وعاد وتحت إمرته مائة ألف جندي، استطاع بهم أن يدفع قوات الحجاج وأن يستولي على الكوفة والبصرة، فلم يجد الحجاج بدًّا من الاستنجاد مرة أخرى بالشاميين، وقد حاصره عبد الرحمن في أرباض البصرة ولكنه ثبت لهجماتهم العنيفة شهرًا كاملاً ثم استطاع في أوائل مارس من عام ٧٠١م (٨٢هـ) أن ينزل بهم الهزيمة الدامية التي توجت بانتصاره في واقعتي دير الجماجم ومسكن، وعندها خضع العراق للحجاج خضوعًا تامًّا إذ قضى بقوة شكيمته على روح التمرد والعصيان.

وشرع بعد ذلك في بناء مدينة واسط في أوائل عام ٨٤هـ (٧٠٣م) وفرغ من بنائها خلال عام ٨٦هـ (٧٠٥م) وأطلق عليها اسم واسط لتوسطها بين موقعي البصرة والكوفة، وجعلها معسكرًا للجند الشاميين الذين يرابطون في العراق.

وفي عام ٨٧هـ (٧٠٥م) ضم الحجاج إلى رقعة ولايته غير العراق خراسان وشرق بلاد العرب بأكمله وذلك بفضل فتوح قائده المخلص النابه المهلب بن أبي صفرة، ثم ضم إلى الدولة الأموية ولاية عمان في شبه الجزيرة العربية، وكانت إلى ذلك الحين مستقلة، ومن جهة أخرى أوغل قواده في الفتوح فبلغوا وادي نهر السند في شمال شبه الجزيرة الهندية، ومن ثمَّ استطاع الحجاج بهذه الانتصارات التي زادت في رقعة الدولة وأعادت السلام إلى العراق أن يمهد الطريق إلى قيام دولة الوليد الأول الزاهرة.

وكان الحجاج حاكمًا مستبدًّا ولكنه لم يدخر وسعًا في تأييد قواده العظام أمثال المهلب ومسلم بن قتيبة، ولم يقتصر عمل الحجاج السياسي على الإصلاح بل كان له فضل الابتكار أيضًا إذ تعد النظم الإدارية التي سنها في مسائل النقد والمقاييس والضرائب وتحسين الزراعة فاتحة عهد جديد.

وقد اتهم بتحريف القرآن، غير أن الثابت تاريخًا هو أنه أعاد كتابته بالنقط والشكل ليحول دون اللحن في قراءته، هذا علاوة على أنه بذل الجهد سخيًّا في إحلال اللغة العربية محل لغات النواحي التي كانت تستخدم حتى ذلك الوقت في ديوان العراق.

وعندما تم له إخماد الفتن التي واجهته وَجَّهَ همه الأول إلى تضميد الجراح التي أصابت رخاء البلاد بسبب حروب دامت عشرين عامًا، وقد حفر قنوات جديدة وأصلح القنوات القديمة.

وقد أخلص لبني أمية كل الإخلاص فكافأه الخلفاء على ذلك بالعطف الحادب عليه، وعظم شأنه في عهد الوليد الأول

لأنه آزره ونصره على عمه عبد العزيز بن مروان (انظر هذه المادة ومادة الوليد بن عبد الملك) وأيد بيعته مع أن عبد الملك بن مروان (انظر هذه المادة) كان قد أوصى لعبد العزيز بالخلافة، وكان الوليد يأخذ بمشورته فلما مات تلقى الوليد العزاء رسميًّا فيه كأحد أفراد بيته.

وكان الحجاج فصيحًا وذاعت شهرته في هذه الناحية، وقد حفظت المراجع الأدبية وكتب التاريخ ودواوين الشعر شواهد عديدة على مبلغ هذه الفصاحة التي كان من خصائصها الحرص على سلامة اللغة العربية في أسلوب سلس جزل.

أما عن عقيدته فالشواهد كثيرة على أنه كان مسلمًا غيورًا على دينه مع استنكار لمبالغات الغلاة ورفع شأن الحديث النبوي إلى أعلى المراتب، ويذكر التاريخ أنه كان نقي السيرة نزيه الكف.

والدليل على سلامة عقيدته أنه كان ينشد – وهو في مرض الموت – بيتين لعبيد بن سفيان العلكي وهما:

يَارَبِّ قَدْ حَلفَ الأعداء وَاجْتَهَدُوا
أيْمَانَهُم أنَّني مِنْ سَاكِنِي النَّارِ

أَيَحْلِفُونَ على عمياءَ وَيْحهُمُو
ما ظنهم بعظيم العفو غَفَّارِ

ومما يدعو إلى الشك في أقوال المؤرخين من شانئيه قولهم إنه أمر بقتل ١٣٠ ألفًا وإن عدد من ألقوا في السجون إبان عهده بلغ ٥٠,٠٠٠ عند وفاته، فهذه الأعداد الهائلة لا تدعو إلى الثقة المطلقة في صحتها لضخامة أرقامها.

وفي ذلك العهد الذي سادت فيه الفوضى السياسية وشاعت فيه الفتن لا يحق لمؤرخ منصف أن يقول إن التدابير الحاسمة التي اتخذها الحجاج تعدت حدود القسوة والشدة العنيفة.

ولقد ذكر الذهبي (انظر هذه المادة) أنه كان من أرحم الناس بأهل البلاد الوادعين ولكنه كان يأخذ العصاة الثائرين بالعنف دون هوادة.

ومع ذلك فقد كان إقرار هؤلاء العصاة بالذنب أو حضور البديهة كافيًا لأن يهدئ من ثورة غضبه لأنه كان واسع الإدراك، وذكر المبرد (انظر هذه المادة) أن شدته البالغة كثيرًا ما كانت جديرة بأن تخرجه عن حلمه حتى مع أصدق أصدقائه وكان سبب ذلك استئثاره بالسلطة وجمعها بين يديه القويتين، وقد أدى به ذلك إلى إظهار الفظاظة حينًا والخشونة أحيانًا. ويقول المستشرق (ولهوزن) إنه لم يبلغ في ذلك حد القسوة أو يسف أو يبدو ضيق الأفق.

ويقارن كثير من المؤرخين الحجاج بزياد بن أبيه أحد وزراء الدولة الأموية وهو ثقفي مثله وأشهر من كانت له الولاية على العراق من أسلافه غير أن نشاط الحجاج الكبير وطباعه الحادة وفصاحته القوية المثيرة كانت حربًا عليه، إذ كانت تنقصه البشاشة ويعوزه الحلم المشوب بالشك وهما الخلقان المأثوران عن الساسة الذين ساروا في حكمهم على نهج معاوية ابن أبي سفيان (انظر مادة معاوية)، ومن ثمَّ نشأت الصعاب التي كان من المستطاع تلافيها لو أن الحجاج قد عكف في أواخر أيام حكمه على إصلاح الحالة المادية في ولايته الواسعة الأنحاء، فإن خلقه قد خالطته مرارة الحزن على فقد بعض أهله

وغُصَّ عيشه بما لحق به من جور وحيف على أيدي معارضيه الجهال فلم يسع إلى تنقية النفوس مما علق بها من الأحقاد، ومن جهة أخرى العمل جاهدًا على إدخال السكينة في نفوس الناس.

ولم يقف به صالح الدولة الأموية عند حد فلم يحجم عن أخذ يزيد بن المهلب الذائع الصيت بالشدة مما أغضب سليمان الوصي على يزيد وصاحب العهد وصاحب الخلافة بعد الوليد ابن عبد الملك.

ووُجِّه اللوم إلى الحجاج لأنه هو الذي حرض الوليد بن عبد الملك على حرمان أخيه سليمان بن عبد الملك من الخلافة بعده وحصرها في أولاده، ويعتبر هذا التحريض وصمة في تاريخ الحجاج السياسي، ومن ثمَّ نذر الحجاج ألاَّ يعيش بعد الوليد، فما كاد يشرف على الثانية والخمسين من عمره حتى أضنته الشيخوخة المبكرة وعنف الجهد والتعب وأثر في نفسه ما لقيه في حياته الصاخبة من خيبة وإخفاق.

وتدل الكراهية التي دونتها الروايات المتأخرة التي تحدثت عن أعماله على علو شأنه في الحياة، ويؤخذ عليه أنه كان أكبر مؤيدي بني مروان؛ ولذلك تضعه الروايات التي كتبها الشانئون بأنه كان هو ويزيد بن معاوية ممن حقت عليهم اللعنة من المسلمين إلى يوم القيامة.

على أن التاريخ المنزه عن الهوى يضعه في صف زياد بن أَبيه ويعتبره من كبار ساسة بني أمية الذين استحقوا تقدير وطنهم عن جدارة.

وتوفي الحجاج بداء السرطان في المعدة خلال شهر رمضان عام ٩٥هـ (يونية عام ٧١٤م)، بالغًا من العمر ٥٣ عامًا، ودفن في مدينة واسط التي شيدها، وقد أخفيت معالم قبره إخفاء حتى يحال بينه وبين من يريدون الانتقام من رفاته بعد مماته، وكان هذا الوالي مرهوبًا في حياته لا تأخذه في الحق لومة لائم، ومما يدل على حصافة رأيه في الحكم قوله للوليد بن عبد الملك في كتاب أرسله إليه «إني أدنيت المطاع في قومه، ووليت الحرب الحازم في أمره، وقلدت الخراج الموفر لأمانته، وصرفت السيف إلى المتهم المسيء والثواب إلى المحسن البريء، فخاف المريب صولة العقاب وتمسك المحسن بحظه من الثواب».

٥٣٥- حَدِّيني بك - شارع - بقسم الجمرك

هو عمر بك الحديني، وكلمة الحديني نسبة إلى بلدة الحدين التابعة لمركز كوم حمادة بمحافظة البحرية ومن ثم فإن صحة اللقب هي الحديني (بفتح الحاء) وليس بكسرها كما شائع على الألسن، ولقد نزح عمر الحديني إلى الإسكندرية في الربع الأخير من القرن الثامن عشر أي حوالي عام ١٧٨٠م (١٢٠٥هـ) وزاول الاتجار في الأرز والسمن الحديدي الذي كان يستورده من سوريا، واستقر بقسم الجمرك بالمنزل الذي كان يعرف قبل إزالته في امتداد شارع صفر باشا حتى خليج الأنفوشي، وكان يعرف هذا المنزل بسراي الحديني وكان موقعه خلف سراي شيمي بك التي صارت سينما رأس التين في الوقت الحاضر.

وهو ولد صالح بك الحديني (انظر هذه المادة)، الذي له شارع باسمه بقسم محرم بك.

٥٣٦ – حسام الدين – شارع – بقسم محرم بك

اسم حسام الدين اسم شائع يحمله كثير من الناس، والحسام من أسماء السيف المتعددة، ويقول أحد الشعراء القدامى في الحث على التدرع بالصبر عند الشدائد:

واصْبِرْ عَلَى كُلِّ مَا يَأْتِي الزَّمَانُ به
صَبْرَ الحُسَامِ بِكَفِّ الدَّارِعِ البَطَلِ

ولعل اسم الشارع كان لأحد سكانه أو ملاك عقاراته، غير أن تاريخ المماليك في مصر يسجل تاريخ أحدهم من الذين اعتلوا عرش السلطنة اغتصابًا وهو «حسام الدين لاجين»، وكلمة «لاجين» تنطق «لاشين» وهو اللفظ الذي اشتهر به هذا السلطان ومثلت قصته في شريط سينمائي منذ حوالي عشرين سنة، وقد وجدت من الملائم سرد ملخص تاريخه فيما يلي:

كان «حسام الدين لاجين – أو لاشين» من مماليك أحد الأمراء في عهد السلطان «قلاوون» ثم اشتراه هذا السلطان بستمائة وخمسين درهمًا وربَّاه ثم أعتقه ورقاه إلى مرتبة الأمراء وزوَّجه بإحدى بناته (أخت الناصر محمد بن قلاوون) (انظر مادة ابن قلاوون) وعينه نائبًا له بقلعة دمشق ثم نائبًا لدمشق بأسرها، وتدل سيرته في تلك الفترة من حياته على انصرافه إلى شرب الخمر ومخالطة أرباب الملاهي والإسراف في اللذات والمجون – ولكنه كان في الوقت نفسه على شيء من الأخلاق يحب الخير بطبيعته.

وعندما مات السلطان «قلاوون» عزله ابنه السلطان الأشرف خليل (انظر الملك الأشرف، والأشرف) عن نيابة دمشق ومن هنا تولَّد حقده عليه مما دفعه إلى الاشتراك في قتله خلال عام ٦٩٣هـ (١٢٩٣م)، وقد تمكن بعد القتل من الهرب والاختفاء عن الأعين، إلى أن تشفع له صديقه وابن جلدته المغولي «كتبغا» لدى الملك الناصر محمد ابن قلاوون، ولم يركن «لاجين» إلى السكينة بعد ذلك فبعد أن زيَّن لصديقه «كتبغا» الخروج على الناصر محمد بن قلاوون وتولي السلطنة مكانه، وبعد أن ارتقى «كتبغا» إلى العرش عمل «لاجين» على قتله ناسيًا عطفه عليه وتعيينه نائبًا له، غير أن «كتبغا» استطاع الهرب إلى الشام وعندها نودي «بلاجين» سلطانًا على مصر في شهر المحرم عام ٦٩٦هـ (١٢٩٧م) ولقب «بالملك المنصور لاجين».

ولقد ساعدت الظروف على ارتقاء «لاجين – أو لاشين» إلى السلطنة، فحكم الملك الأشرف خليل لم يدم سوى ثلاث سنوات إذ كان بينه وبين أمراء المماليك حب مفقود لغطرسته وعنفه وترفعه، ومن ثمَّ حقد عليه الأمراء وقتلوه عندما خرج للصيد متهمين إياه بشرب الخمر في رمضان وترك الصلاة والفسوق بالمردان.

وكذلك لم يكن «كتبغا» محبوبًا من الشعب إذ جلب إلى مصر ١١٣ مغوليًّا من بني جنسه خلال عام ٦٩٥هـ (١٢٩٦م) وغالى في إكرامهم ورقى بعضهم إلى مرتبة الأمراء فأغضب ذلك المماليك والشعب لكرههم هؤلاء المغول الوثنيين الذين لا يصومون رمضان ويأكلون لحم الخيل من غير ذبحها، وفي زمن «كتبغا» اشتد الغلاء لدرجة أن الناس أكلوا الدواب وأكلوا أبناءهم فكانت المرأة تضبط وقد خبأت ذراعي طفلها أو قطع من جسمه لأكلها، وتناقص النيل لدرجة شديدة فارتفعت الأسعار إلى أقصى معدل وضاقت الأرزاق ووقفت

الأحوال وعظم ضجيج الناس في الأسواق من فداحة الغلاء – وعظم خطب الوباء فصار الناس لا يجدون من يكفن موتاهم أو يدفنهم، وكانت جثث الموتى تترك بجانب أبواب المدينة لتجد من يواريها التراب، وإزاء هذه الكوارث والنكبات بغض الناس حكم «كتبغا» وطلبوا من الله أن يولي عليهم سلطانًا آخر تتبدل على يديه الحال ويعود الرخاء.

وتغير سلوك حسام الدين لاجين تغيرًا تامًّا عقب توليه الحكم، فأعرض عن اللهو وشرب الخمر وأمر بمعاقبة مقترفيهما في شدة، واستبدل بمجلس العبث والمجون مجلس العلماء والفقهاء ولم يقصر في تقدير مكانتهم فرفعهم إلى منزلته، وأحسن السيرة في الرعية وحرص على نشر العدل بين طبقات الشعب وأصدر أمره بمسامحة أهل مصر والشام من بواقي الخراج التي عليهم ومنع أخذ المواريث بغير حق وبالإفراج عن المسجونين، وحمى صغار الجند المماليك من عسف الأمراء الذين كانوا يستولون على معظم أرزاقهم، وقام بمسح الأراضي الزراعية من جديد وفرض عليها الضرائب المناسبة ثم قسمها إلى إقطاعات مختلفة، وعمل على إيصال الحقوق إلى أصحابها الحقيقيين دون طغيان طبقة على الأخرى ودون الإضرار بالفلاحين الذين يقومون بزراعة هذه الإقطاعات، وعمل على منع الإسراف في الملابس التي كان المماليك وأمراؤهم شديدي العناية باقتنائها فاخرة باهظة التكاليف، ولم ينس عامة الشعب في الإصلاحات التي قام بها فكان شديد الحب لهم يجالسهم ويشاركهم طعامهم ويحرص على حماية الأيتام فأنشأ لهم صندوقًا يشرف عليه قاضي القضاة، فكان هذا الصندوق بمثابة المجلس الحسبي في الوقت الراهن. ومن حسن حظه أن انحطت أسعار القمح والشعير واللحم في عهده إلى نصف ما كانت عليه في عهد سلفه «كتبغا» فأحبه الشعب لكل هذه الأمور.

واستقر في القلعة وحده فأنزل الخليفة العباسي إلى المدينة وأبعد «الناصر محمد بن قلاوون» الذي خلعه «كتبغا» بإرشاد صديقه «لاجين»، ونودي به سلطانًا على مصر والشام في ١١ من المحرم سنة ٦٩٤هـ (١٢٩٤م)، وانتهت عند ذلك التاريخ سلطنة «الناصر محمد» الأولى، وأبعد «لاجين» هذا السلطان المخلوع إلى الكرك بحجة المحافظة على حياته وحماية ملكه من الضياع حتى يبلغ أشده ويتولى ملكه.

وأخذ «لاجين» في ترقية بعض مماليكه إلى مرتبة الأمراء ومن بينهم مملوكه المفضل «منكوتمر» وجعل له مكانة ممتازة لديه ووثق فيه كل الثقة مما أدى إلى إفساد العلاقات بين «لاجين» والأمراء فدفعهم ذلك إلى التآمر على قتله كما هي عادتهم وشريعتهم في معظم عهودهم.

وكان الأمير «منكوتمر» رجلاً جادًّا عبوسًا لا يعرف المواربة أو المداهنة يتجه إلى هدفه رأسًا في حزم وقوة وعنف لا يعرف اللين، ومثل هذا الصنف من الناس لا يتمتع عادة برضا المحكومين، وحسده الأمراء الآخرون على تفضيل السلطان «لاجين» له في كل الأمور، ومن ثمَّ أخذوا في الدس له عند السلطان ولكن دون جدوى، فما كان منه إلا أن عزم على إبعادهم والاستعاضة عنهم بأمراء من الشام، وقد بلغهم هذا العزم فجمعوا أمرهم وقرروا التخلص من السلطان ليؤدي ذلك إلى تخلصهم من مملوكه «منكوتمر»، وكان «لاجين» لا ينفك عن ذكر الجريمة التي اشترك في اقترافها باغتيال السلطان الأشرف خليل فكان يردد دائمًا قوله «كل قاتل مقتول».

وذات يوم رأى «منكوتمر» نقل أحد الأمراء إلى طرابلس الشام فاعتذر هذا الأمير عن تنفيذ هذا النقل وقبل السلطان اعتذاره فثار «منكوتمر» وقاطع السلطان فما كان من «لاجين» إلا أن أخذ يسترضيه فقبل العودة إلى العمل بشرط نقل الأمير إلى خارج القطر المصري، وقبل هذا الشرط لاجين راضخًا.

وفي يوم الخميس الموافق ١٠ من ربيع الثاني عام ٦٩٨هـ (١٢٩٩م) كان السلطان «لاجين» صائمًا وبعد الإفطار جلس يلعب الشطرنج مع أحد العلماء، ودخل عليه أحد المتآمرين من الأمراء وذكرَّه بصلاة العشاء فقام واستقبل القبلة وهمَّ بالركوع ولكن هذا الأمير عاجله بضربة سيف ثم انقض عليه باقي المتآمرين ومزقوا جسده فصار كومة من اللحم المُضَرَّج في الدماء كما يقول المقريزي المؤرخ، وهكذا انتهت حياته بعد أن حكم سنتين وشهرين وثلاثة عشر يومًا وكان يشرف يوم اغتياله على الخمسين عامًا، ثم اتجه المتآمرون إلى «منكوتمر» فقضوا عليه وأصبح عرش البلاد خاليًا ليجلس عليه الملك الناصر محمد بن قلاوون للمرة الثانية (انظر مادة ابن قلاوون).

٥٣٧ – حسن باشا محمود – شارع – بقسم الرمل

ولد حسن محمود بإحدى ضواحي القاهرة خلال عام ١٨٤٧م (١٢٧٤هـ)، وهي ضاحية تقع على طريق الأهرام وتدعى قرية الطالبية، وتعلم أثناء مراحل ثقافته الأولى بمدارس مصر ثم اختير وهو برتبة «الأسبيران» أي تلميذ ضابط للسفر إلى مدينة ميونخ بمقاطعة بافاريا وكانت في ذلك الحين إحدى إمارات الإمبراطورية النمساوية، فبدأ دراسته في تلك المدينة خلال شهر إبريل عام ١٨٦٢م (١٢٧٩هـ) لتلقي العلوم الصحية، وكان مرتبه الشهري ٧٠ قرشًا، ومرتب والدته بمصر ٤٠ قرشًا تتقاضاها بتوكيل من ابنها لمحمود أفندي إبراهيم الطبيب بقصر العيني، وبقي يتعلم في ميونخ إلى أواخر أغسطس عام ١٨٦٣م (١٢٨٠هـ) ثم نقل هو وأفراد بعثته إلى فرنسا حيث أتم علومه بباريس، وقد انضم وهو بفرنسا إلى جمعيتين طبيتين استمر على الاتصال بهما بعد عودته إلى مصر بغية بقاء صلته بأطباء أوروبا، ولدى رجوعه إلى الوطن في أوائل عام ١٨٦٨م (١٢٨٥هـ) عين مساعد أستاذ للتشريح بمدرسة الطب ثم عين أستاذًا لهذا الفرع من العلوم الطبية ولغيره من الفروع وتقلد بعد ذلك وظائف أخرى وكان في أثناء ذلك طبيبًا لبعض دوائر الأمراء وبالمعية، وفي ١٩ من أكتوبر عام ١٨٧٩م (١٢٩٧هـ) عين مفتشًا لصحة القاهرة، ورقي إلى رتبة المتمايز في ٧ من ديسمبر عام ١٨٧٩م نفسه، وتولى بعد ذلك إدارة مجلس الصحة ثم عين رئيسًا لمدرسة الطب، وظلَّ يشغل هذا المنصب من عام ١٨٨٩ إلى عام ١٨٩١م (١٣٠٧ – ١٣٠٩هـ) ونال رتبة الباشاوية.

ومن الأعمال التي تذكر له بالثناء إنشاؤه في مصر مجمعًا طبيًّا للنظر في الأمور الصحية ولكن هذا المجمع لم يطل قيامه، واشتغل حسن باشا محمود بعد ذلك بالشئون العامة وندبه مجمع البرازيل الطبي لعضويته كما نُدب عضوًا بعدة مؤتمرات طبية.

وكان محبًّا لوطنه مكبًّا على البحث والتأليف ويُعدّ من كبار العصاميين الذين نالوا الشهرة عن استحقاق وجدارة، وقد ترك من المؤلفات: «رسالة في داء الفقاع» ألفها قبل رجوعه من فرنسا ونال بها شهادته، و«الاستكشاف المصري في الدُمَّل المصري» وقد طبع هذا الكتاب عام ١٨٧٣م (١٢٩٠هـ)، و«الفوائد

الطبية في الأمراض الجلدية» طبع عام ١٨٧٥م (١٢٩٢هـ)، و«ينبوع شفاء الأبدان في حمامات حلوان» طبع عام ١٨٧٧م (١٢٩٤هـ)، و«الرمد الصديدي للدكتور دوتريد الكحال» وهو مترجم وطبع عام ١٨٧٨م (١٢٩٥هـ)، و«البواسير ومعالجتها» طبع عام ١٨٧٨م (١٢٩٥هـ)، و«رسالة في حمى الدنج» طبعت عام ١٨٨٢م (١٣٠٠هـ)، و«رسالة في الهيضة (الكوليرا)» طبعت عام ١٨٨٣م (١٣٠١هـ)، و«تحفة السامع والقاري في مرض الطاعون الساري» طبع عام ١٨٨٣م (١٣٠١هـ)، و«الخلاصة الطبية في الأمراض الباطنية»، طبع عام ١٨٩٢م (١٣١٠هـ)، وله علاوة على هذه المؤلفات مقالات طبية نشرت بمجلة المقتطف وغيرها من المجلات.

وكانت وفاته خلال عام ١٩٠٦م (١٣٢٤هـ) بالغًا من العمر ٥٩ عامًا.

٥٣٨ - حسن البصري - شارع - بقسم اللبان

هو الحسن ابن أبي الحسن يسار الملقب «بالحسن البصري»، كان شخصية بارزة من الشخصيات العلمية العربية في القرن الأول الهجري، وكان من أكابر التابعين وسادتهم، فقد جمع كل فن من علم وزهد وورع وعبادة، ومن ثمَّ لقب عن جدارة بسيد البصرة، سُبي أبوه يسار إبَّان الفتوحات الإسلامية وحمل من ميسان بفارس إلى المدينة المنورة وغدا فيها مولى لزيد بن ثابت وتزوج من أَمَة للسيدة أم سلمة زوجة النبي عليه الصلاة والسلام، واسمها خَيْرَة كانت هي الأخرى من السبايا، وقد ولد الحسن البصري في أحضان أم سلمة عام ٢١هـ (٦٤٢م) فتربى في رعاية النبوة وأضفت عليه زوجة النبي عطفها وحنانها الرحيمين حتى أنه يروى أنها غذته من لبنها، فكانت كلما غابت أمه لقضاء حاجة وبكى أعطته أم سلمة ثديها تعلله به إلى أن ترجع أمه تدرّ عليه ثديها لبنًا.

ولقد أعتقته أم سلمة إذ كان من مواليها تبعًا لأمه ولكن العتق لم يقطعه عنها فأمدته بغذاء روحي مما علمته عن رسول الله وكانت معروفة بين نساء النبي بالحكمة في القول والعمل، فهي التي أشارت على النبي الكريم في صلح الحُدَيبية بأن يبدأ هو بالتحلل من إحرامه بالنحر عندما طلبَ إلى المُحرمين معه أن يتحللوا فتلكَّأوا فلما نحر النبي بإرشادها اتبعه جميع المحرمين.

وكان مولد الحسن البصري في السنة الأخيرة من خلافة عمر بن الخطاب (انظر مادة ابن الخطاب) والتقى بصحابة رسول الله في عهد عثمان بن عفان (انظر هذه المادة) وتلقى دروسًا عليهم وأخذ منهم واختص فيما أخذ بمواعظ الرسول وسير السابقين - وفي خلافة الإمام علي بن أبي طالب (انظر مادة الإمام علي) كان قد بلغ الرابعة عشرة من العمر وكان حفيًّا بمعرفة سير السابقين من الرسل وأخبارهم كما رواها النبي وكما تلقاها من أهل الديانات الأخرى منتقيًا ما صح منها بعد الفحص والاختيار دون أن يركن إلى الخرافات والأساطير على غرار الكثيرين من القصاصين في عصره.

وتضافرت الأسباب فجعلت من الحسن البصري عالمًا نقي الاعتقاد، فشيوخه كان معظمهم من الصحابة الذين نقلوا عن رسول الله نفسه وقد التقى بصفوتهم في المدينة والكوفة والبصرة وقبس من علم الإمام علي بن أبي طالب ومن هديه وحكمته، وقد اشتهر بالبصرة بعد أن شب في وادي القرى بمتانة الخلق والتقوى والعلم الغزير والفصاحة الفياضة.

وفي زمنه بدأ التفرق ونشأت النحل المختلفة بين المسلمين وظهر التشيع لآل علي معتدلاً ومنحرفًا وظهر الخوارج بعنفهم ولجاجتهم وتشددهم وأخذهم بظواهر الألفاظ واندفاعهم فيما يحسبون أنه الاعتقاد السليم كما أخذت المناهج الفقهية تتميز، فكان على رأس فقه المدينة عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب وابن شهاب الزهري ومن هؤلاء أخذ الإمام مالك، وفي العراق كان على رأس الفقهاء عبد الله بن مسعود (انظر ابن مسعود)، وعلقمة، والنخعي وحماد بن أبي سليمان ومنهم أخذ أبو حنيفة (انظر هذه المادة)، ومن ثمَّ يتضح أن الفقه في زمن الحسن البصري بدأت مناهجه تتبين ظاهرة المعالم.

وكان البصري شجاعًا في إبداء رأيه لا يخاف الطغيان ولا يخشى العواقب في سبيل قول الحق والنطق بالصدق، فقد سأله الحجاج وهو في عنفوان جبروته: ما هو رأيك في عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب؟ وكان يريد النيل من الإمام علي، فأجاب البصري بقوله المشهور: أقول قول من هو خير مني عند من هو شر منك: قال فرعون لموسى «ما بال القرون الأولى ؟ قال علمها عند ربي».

ولم يخش بطش الحجاج (انظر هذه المادة) فكان يعرِّض به في مواعظه في صراحة ولا يخشى في الله لومة لائم: فيقول عندما كان الحجاج يشيد مدينة واسط: «يعمد أحدهم إلى قصر فيشيده، وإلى فرش فينجّده، وإلى ملابس ومراكب فيحسّنها ثم يحف به ذباب طمع، وفراش نار، وأصحاب سوء فيقول انظروا ما صنعت!! فقد رأينا أيها المغرور، فكان ماذا يا أفسق الفاسقين، أما أهل السماوات فقد لعنوك، وأما أهل الأرض فقد مقتوك . . .».

وكان البصري ذا ذكاء مدرك عميق لا يكتفي بالنظرة الأولى بل يرددها مرتين، وبلغ في هذا المضمار الذروة لدرجة أن بعض شيوخه من الصحابة كان يحيل عليه ما يجيئه من أسئلة في الدين، وكان مع ذاكرته الواعية غير جامد على فكره، فكان يجتهد فيما يعرض عليه من مسائل ويبدي فيها برأيه الشخصي المستقل، ومن ثمَّ استطاع أن يحتفظ باستقلاله العلمي مع اتباع علوم السلف في وسط الفتن التي حدثت في عصره وفي غمرة النحل التي ظهرت في الإسلام والانقسام في الآراء.

وكان هذا العالم الجليل زاهدًا في متاع الدنيا وزخرفها طالبًا للآخرة وثوابها الأبدي، وكان ذا وجدان قوي يغلِّب الخوف على الرجاء ويستصغر ما يعمل من حسنات ويستنكر ما يكون من هفوات ويتعرف على عيوب نفسه ولا يغضي عنها ولا يتباهى بحسناته بل يستقلها ويصغّر من شأنها.

ومع هذا الزهد التقي لم يعزف عن الحلال ولم يرفض المباح من اللذات فلا يحرم ما أحل الله تعالى، وكان يستنكر أعمال المتقشفين الذين لا يتناولون الحلال تزهدًا، فقد حضر ذات يوم وليمة قدمت فيها الحلواء فامتنع بعض الحاضرين عن تناولها زهدًا فقال الحسن لأحدهم: «كل يا لكع، فلنعمة الله عليك في الماء البارد أعظم من نعمته عليك في الحلواء». ويتضح من سيرته العَطِرَة أن الزهد عنده ليس هو الامتناع عن طيبات الحياة لأنه يرى الاعتدال خيرًا من التزمت والجمود حتى في العبادة.

ولم يكن معتزلاً للناس فكان يخالطهم فيسألونه عن شئونهم وعما يحدث في جموعهم فيجيبهم، ولا يحرِّم شيئًا

إلا إذا ثبت لديه بالدليل القاطع أنه من المحرمات، ولذلك كان لا يحرِّم الغناء الذي لا يختلط بالإثم بل كان يستحسنه طالما كان من اللون الذي لا يثير الفتنة في النفوس.

ولم يكن متعصبًا يمقت أهل الديانات الأخرى بل كان يفتح صدره لكل شخص مهما كانت ديانته، واستوحى من حقائق الإسلام الدعوة إلى السلام والمحبة، ولذا كان بعض اليهود والنصارى يحضرون دروسه ويواسيهم ويعزيهم إذا أصابهم مكروه.

وكان يحب مجالس الأدب والشعر والعلم، فكان يقول: «الدنيا كلها ظلمة إلاَّ مجالس الأدباء ومساجلات العلماء ومطارحات الشعراء».

ويعتبر الحسن البصري أقوى أنداد الحجاج بن يوسف (انظر مادة الحجاج) في فصاحة اللسان، فكان خطيبًا مفوَّهًا وراوية ثبتًا للحديث، وقد عرف عنه أنه كان متصلاً بسبعين صحابيًّا ممن شهدوا واقعة بدر، وإن كان عمدته في رواية الحديث هو أنس بن مالك، وللحسن فضل عظيم في نمو التصوف وذلك بسبب ورعه وتقواه وأخلاقه الحميدة التي كانت تتجلى في شخصيته إذا قورنت بغيره من أهل عصره، ذلك أن الحرص على متاع الدنيا كان قد بدأ يغزو جميع طبقات المجتمع الإسلامي، ومن ثم نقلت عنه أقوال قيمة في الورع ولذا فهو عند الصوفية من السابقين الذين يستشهد بهم في كثير من الأمور وكان عند أهل السنة حجة ومرجعًا.

وكان في خطبه ومواعظه سهل التعبير عذب الإلقاء يُحَمِّل خطبه ومواعظه بالمعاني الدينية وعبارات الورع والتقوى، وقد سمعته أم المؤمنين السيدة عائشة فقالت عنه «ومن هذا الذي يتكلم بكلام الصديقين».

وبهذه الصفات الجليلة يعد الحسن البصري من أقوى رجال الفكر الإسلامي شخصية وأشدهم نفوذًا وأجلهم عند العامة والخاصة وكان مهابًا عند الحكام، وكان حسن المظهر قوي الجسم جميل الطلعة، وبهذه الشخصية القوية كان له أثر في كل الفرق الإسلامية التي ظهرت في عصره وكانت كل فرقة تدعي أنه منها، فالمعتزلة يدَّعون أنه كبيرهم وأهل السنة يدعون أنه منهم وهو بين الفقهاء والمحدثين، والوعاظ في الرعيل الأول.

ويقول المعتزلة إنه كبيرهم لسببين: الأول أن عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وهما أول القائلين بالاعتزال كانا من تلاميذه، والثاني أن الحسن البصري نفسه كان يميل إلى مذهب الاختيار، ولم يغير من رأيهم انفصال واصل بن عطاء عنه فيما بعد، وهكذا يستطاع القول بأن معظم الحركات الدينية في الإسلام ترجع إلى الحسن البصري الذي يعتبر من أعلم السلف بسيرة النبي الكريم وصحابته وأخبار السابقين، وقد نقل الحديث عن الصحابة واتسع أفق فقهه فصار سيد الوعاظ دون منازع كما خاض بعض الخوض في علم العقائد الذي كان الفقهاء والمحدثون يبتعدون عن التعرض له.

ولم يؤلف مجموعة فقهية كغيره من علماء عصره ولا مجموعة من الأحاديث التي رواها عن الصحابة ولكنه ترك إلى جانب مواعظه البليغة مجموعة قيمة من الآراء في أصول الدين الإسلامي.

ومن آرائه أن الإيمان الصادق يدفع إلى العمل، وأن المعرفة هي مقياس الأخلاق المستقيمة، ومادام الإيمان يستلزم حتمية العمل فإن مرتكب الكبيرة من الذنوب المصر عليها لا يمكن أن يكون مؤمنًا إلاَّ إذا تاب توبة نصوحًا وأخلص من بعدها في العمل لله تعالى.

ومسألة مرتكب الكبيرة شغلت العصر الذي عاش فيه الحسن البصري فالخوارج الذين خرجوا على الإمام علي ابن أبي طالب جعلوه من مرتكبي الكبائر وكفَّروه لأنه قبل التحكيم بينه وبين معاوية بن أبي سفيان، أما المعتزلة فقالوا إنه ليس بمؤمن ولا بكافر بل هو في منزلة بين الإيمان والكفر، ويصح أن يقال عنه إنه مسلم وهو مخلد في النار إلاَّ إذا تاب توبة نصوحًا، وصرفوا هذا القول على كل مرتكب الكبيرة، وقال المرجئة إن مرتكب الكبيرة يقبل الله توبته النصوح وإذا لم يتب فهو في أمر الله ومشيئته إن شاء عذبه بما ارتكب وإن شاء غفر له لأن الله يغفر الذنوب جميعًا إن شاء.

وكان رأي الحسن البصري غير هذه الآراء جميعًا فهو يرى أن المذنب الذي لا يتوب توبة نصوحًا لا يوجد عنده أصل الإيمان ومن ثمَّ يعده منافقًا في إعلانه الإيمان، وهو غير مؤمن، وهو يقول في ذلك «الناس ثلاثة مؤمن وكافر ومنافق، فأما المؤمن فقد ألجمه الخوف وقوَّمه ذكر العرض (أي يوم القيامة)، وأما الكافر فقد قمعه السيف وسرده الخوف، وأما المنافق ففي الحجرات والطرقات يُسرُّون غير ما يعلنون، ويُضمرون غير ما يظهرون فاعتبروا إنكارهم ربهم بأعمالهم الخبيثة».

ومسألة الجبر شغلت الناس في زمن الحسن البصري، فالجهم بن صفوان وأتباعه ادعوا أن الإنسان مجبر غير مخير ولا إرادة له فيما يفعل بل ينسب العقل له وهو من الله، وقال المعتزلة إن العبد يخلق أفعال نفسه وهو محاسب بها وذلك بقوة أودعها الله إياه، وبها كان الحساب والثواب والعقاب.

أما الحسن البصري فقال إن الحسنات بتوفيق الله، والمعاصي بعمل العبد ولذا يقول: «كل شيء بقضائه وقدره إلا المعاصي»، ويريد بهذا القول أن المعاصي لا يريدها الله، وكان يرى أن الخلافة انتهت بالخلفاء الراشدين الأربعة: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وأن معاوية اغتصبها وأنه ليس في بني أمية عادل إلاَّ عمر بن عبد العزيز (انظر هذه المادة)، ومع ذلك كان لا يدعو إلى الخروج عليهم اتقاء الفتن التي تؤدي إلى المظالم الوحشية، وكان يرى في الحاكم لونًا من ألوان الشعب نفسه فإن استقام استقاموا.

وكان فيه محبة لآل البيت فقد بكى بكاءً مرًّا عندما بلغه مقتل الحسين (انظر مادة الحسين بن علي).

ومن شجاعته في الحق أنه عندما سئل بعض المشهود لهم بالفضل أمثال ابن سيرين والشعبي عن استخلاف يزيد بن معاوية لم يجرؤ واحد منهم على الإدلاء برأيه أما الحسن فقد جهر بمخالفته لذلك.

وقد أظهر هذه الشجاعة في الرأي في الكتب التي بعث بها إلى عبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف موضحةً آراءه الحرة النزيهة التي لا تخشى في الحق أية لائمة.

وقد استمر على الوعظ والإرشاد إلى الطريق المستقيم أكثر من سبعين عامًا وتوفي في مستهل شهر رجب عام ١١٠هـ (١٠ أكتوبر ٧٢٨م) مرضيًّا عنه من جميع الناس ولذلك شيعه أهل البصرة جميعًا وذكره المسلمون كافة بالخير، وكان قد بلغ التسعين من العمر.

٥٣٩- حسن بك السعران - شارع - بقسم الجمرك

تعلم فن بناء السفن الحربية والتجارية بطولوز بفرنسا، حيث أرسله محمد علي في بعثة تعليمية لهذا الغرض عام ١٨٢٨م (١٢٤٤هـ)، ولدى عودته إلى مصر في أواخر عام ١٨٣٠م (١٢٤٦هـ) عمل هو وزميله محمد بك الإستانبولي في دار الصناعة (الترسانة) بالإسكندرية، وكان يديرها المهندس الفرنسي «سيريزي بك» (انظر هذه المادة) الذي استقدمه محمد علي لإنشاء دار الصناعة على النمط الأوروبي الحديث بعد كارثة «نافارين» بجنوب اليونان التي دمرت خلالها معظم وحدات الأسطولين المصري والتركي بواسطة أساطيل فرنسا وروسيا وإنجلترا، وقد قام هذا المهندس بعمله على الوجه الأكمل فصارت الترسانة تنتج السفن الحربية الكبيرة، وكان أكثرها مزودًا بمائة مدفع.

وعقب استقالة سيريزي بسبب ضغط الدول الأوروبية عليه، ولاسيما ضغط تجار السفن الأجانب الذين كانوا يحصلون على أرباح هائلة من بيع السفن لمصر، خلف في إدارة الترسانة حسن بك السعران ومحمد بك الإستانبولي، فسارت الترسانة في عهدهما نحو التقدم المطرد بخطوات واسعة واستطاعت بناء السفن من جميع الأحجام والأنواع ومن ثم استغنت مصر استغناءً تامًّا عن شراء حاجاتها من السفن بواسطة التجار الأجانب بأثمان باهظة.

ومازال أحفاد حسن بك السعران يقطنون الإسكندرية بين الأسر العريقة في النسب السكندري القح، ولعل من أفراد هذه الأسرة بعض الأفراد الذين يحملون هذه الكنية ومنهم المرحوم الشيخ محمد السعران الذي كان إمامًا لمسجد سيدي عبد الرزاق الوفائي، والمهندس عبد العزيز أحمد السعران، والمرحوم الدكتور محمود حسن عطية الأستاذ السابق بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية، وقد جمعتني بالشيخ محمد والدكتور السعران صلة المعرفة والصداقة أدخلهما الله فسيح جناته هما وجدهما الذي قدم للبحرية المصرية خدمات نافعة.

٥٤٠- حسن بك نور الدين - حارة - بقسم محرم بك

هو حسن نور الدين بن محمد نور الدين ولد في بلدة «سنهور المدينة» من أعمال مديرية الغربية (محافظة الغربية حاليًّا) عام ١٨٢٢م (١٢٣٨هـ)، وتلقى دراسته الأولية بمكتب كفر مجر، ثم التحق بمكتب طنتدا (طنطا) وانتقل منها إلى مدرسة القصر العيني فمدرسة أبي زعبل، فمدرسة المهندسخانة ببولاق عام ١٨٣٩م (١٢٥٥هـ)؛ حيث ظل يتعلم في كنفها خمس سنوات أتم خلالها علوم الرياضة العلمية والعملية، ومن هذه المدرسة اختير للسفر إلى فرنسا ضمن أعضاء البعثة الرابعة عام ١٨٤٤م (١٢٦٠هـ) وألحق بالمدرسة الحربية المصرية بباريس التي جعلت تحت رياسة وزير الحربية الفرنسية وبدأ دراسته بالفصل الثاني منها في ١٦من

أكتوبر من العام نفسه وبقي بهذه المدرسة إلى أن ألغيت فدخل مدرسة الهندسة الفرنسية، ودرس بها عامين التحق بعدهما بمدرسة القناطر والجسور فلبث بها أربعة أعوام كان يسافر خلال إجازتها الصيفية إلى الريف الفرنسي لمشاهدة أعمال السكك الحديدية والقناطر المقامة على الأنهار ولا سيما القنطرة التي كانت في طريق الإقامة عبر نهر الرون لمد خط حديدي بين باريس ومارسليا وهي قنطرة عظيمة طولها ألف متر تقريبًا ويمر عليها ثلاثة خطوط حديدية، وعاد إلى مصر في أوائل عهد سعيد الأول عام ١٨٥٤م (١٢٧١هـ) وعين في فرع سكة حديد السويس وهو الذي تولى إنشاء خطي دسوق والصالحية، وفي عهد الخديوي إسماعيل كلف عام ١٨٦٣م (١٢٨٠هـ) بالسفر إلى قولة لعمل خريطة الأرمان فأدى المهمة وانتهز الفرصة فأمر بقطع ٦٠,٠٠٠ قائمة من خشب طاشيوز وأرسلها إلى مصر لمد الخطوط التليغرافية المصرية، وعند عودته عين كبيرًا لمهندسي سكة حديد قسم القاهرة ومأمورًا عامًّا لسكك الحديد الزراعية بالوجه القبلي وأنعم عليه برتبة الأميرألاي وقام كذلك برسم سكك حديد الفيوم، وظلَّ بهندسة السكك الحديدية إلى عام ١٨٧٣م (١٢٩٠هـ) إذ فصل من وظيفته في تلك السنة، وفي العام التالي أعيد إلى الخدمة بديوان المالية مع مباشرة أعمال سراي الجزيرة ثم عين بعد ذلك بديوان الأشغال حيث ظل يعمل به حتى عام ١٨٨٧م (١٣٠٥هـ) في عهد توفيق الأول، ويستدل من سيرته أنه كان نابهة في العلوم الهندسية وكان حسن السير والسيرة ديِّنًا صالحًا محبًّا للصلحاء والعلماء، ولا يعرف تاريخ ومكان وفاته.

٥٤١ – حسن بك هاشم – شارع – بقسم الرمل

هو حسن بن السيد هاشم بن السيد علي هاشم، ولد بالقاهرة في ٥ من فبراير عام ١٨٢٥م (١٢٤١هـ) وتعلم بمكاتبها ثم التحق بمدرسة الطب بقصر العيني في قسم الصيدلة وتخرج منه برتبة الملازم الأول واختير للسفر إلى فرنسا عام ١٨٤٧م (١٢٦٥هـ) فدخل قسم الصيدلة بمدرسة الطب بباريس، ولما أتم دراسته في علوم الصيدلة التحق بقسم الطب البشري وتخصص في أمراض النساء ونال عدة شهادات ووسامين، وخلال دراسته ألَّف رسالة في الولادة ونال عليها إجازة الدكتوراة في الطب عام ١٨٦٢م (١٢٧٩هـ)، وبعد أن أتم دراسته العلمية والعملية عاد إلى مصر في تلك السنة نفسها وعين بالمستشفيات وكان يدّرس بمدرسة الطب علم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) وعلم أمراض النساء ثم عين ناظرًا لقسم الولادة ووكيلاً للمدرسة الطبية برياسة محمد علي البقلي باشا (انظر البقلي) ثم ناب عنه في رياستها وندب بعد ذلك للسفر إلى السودان في معية أحد الجنرالات الأجانب لاستكشاف مجاهل السودان.

وكان ذلك في عهد حكمدارية موسى باشا، وانتدبه الخديوي إسماعيل للسفر إلى الحجاز لمكافحة وباء الكوليرا بين الحجاج فقام بهذا العمل الإنساني الخيّر، وأنعم عليه بالوسام المجيدي الرابع في الجراحة لقيامه بعلاج إسماعيل صادق باشا قائد حامية جزيرة إقريطش (كريت)، وكان قد أصيب بجرح أثناء الدفاع عن الجزيرة، وبعد ذلك اختاره الخديوي إسماعيل كبيرًا لأطباء أسرته فترك نظارة مدرسة الطب وتولاها بعده جلياردو بك، وظل حسن بك هاشم في وظيفته الأخيرة إلى أن توفي في ١٣ من مارس عام ١٨٧٩م (١٢٩٧هـ) بالغًا من

العمر ٥٤ عامًا، وكان طوال حياته من المشهود لهم بالتقوى والمهارة في الطب والاحترام والتقدير من جميع عارفي فضله على العلم والمتعلمين.

٥٤٢- حسن جلال - شارع - بقسم الرمل

هو حسن جلال المصري ولد عام ١٨٥٥م (١٢٧٢هـ) وتخرج من دار العلوم عام ١٨٧٥م (١٢٩٢هـ) فعين مدرسًا للحساب بمدرسة المبتديان بالقاهرة في ١٧ ديسمبر من العام نفسه وفي سنة ١٨٨٧م (١٢٩٦هـ) اختير لتدريس اللغة العربية لأبناء أحد الأمراء ورافقهم إلى سويسرا حيث أتقن اللغة الفرنسية، وحصل على شهادة البكالوريا في التعليم، ثم واصل دراسته العالية وحصل على إجازة الحقوق، وقد عين في ١٥ من فبراير عام ١٨٨٨م (١٣٠٦هـ) مساعدًا للنيابة ثم رقي إلى وظيفة قاضي بمحكمة بني سويف في يونية عام ١٨٨٩م (١٣٠٩هـ)، وواصل الترقي في سلك القضاء فصار في ١٥ من سبتمبر عام ١٨٩١م (١٣٠٩هـ) وكيلاً لمحكمة بني سويف خلال عام ١٨٩٥م (١٣١٣هـ) ثم رقي إلى رئيس محكمة طنطا فرئيس محكمة الإسكندرية في ٣ مارس عام ١٨٩٦م (١٣١٤هـ) وترقى إلى درجة مستشار في ٢٩ من نوفمبر عام ١٩٠٢م (١٣٢٠هـ) بمحكمة الاستئناف الأهلية بالقاهرة ووصل راتبه الشهري بعد ذلك إلى مائة جنيه، وبعد أن أحيل إلى التقاعد في مايو عام ١٩١٥م (١٣٣٤هـ) لبلوغه سن الستين، أعيد إلى الخدمة مستشار لرفع سن التقاعد إلى ٦٥ سنة، ولاعتلال صحته أحيل إلى التقاعد نهائيًّا في ١٤ نوفمبر عام ١٩١٧م (١٣٣٦هـ)، ومنح أثناء خدمته الرتبة الثانية فرتبة التمايز، ونال الوسام المجيدي ثم رتبة الباشاوية في يوليو عام ١٩١٥م (١٣٣٤هـ)، ولقد عمل مدة طويلة عضوًا بالمجلس الأعلى للأزهر، وكان عضوًا بلجنة إدارة مدرسة القضاء الشرعي، وتوفي في عام ١٩١٨م (١٣٣٧هـ) عن ٦٣ سنة.

٥٤٣- حسن ذو الفقار - شارع - بقسم الرمل

كان حسن ذو الفقار أحد الطلاب الذين أرسلهم محمد علي في بعثته العلمية إلى إنجلترا عام ١٨٤٧م (١٢٦٤هـ) وتضم خمسة عشرة طالبًا تخرجوا من مدرسة المهندسخانة في اليوم الثاني من شهر شعبان ١٢٦٣هـ (١٨٤٦م) وكانت هذه البعثة السادسة التي أرسلت إلى أوروبا لتحصيل العلوم المختلفة.

وقد تعلم حسن ذو الفقار بمكاتب مصر والتحق بمدرسة المهندسخانة ببولاق، ثم وضع عليها لاختيار ليكون بين طلاب البعثة السادسة الآنفة الذكر، فسافر إلى إنجلترا في شهر مايو عام ١٨٤٧م (١٢٦٤هـ) وهو برتبة الملازم الأول وذلك للتخصص في علم الآلية (الميكانيكا) وكان مرتبه الشهري ٣٠٠ قرش، وظل يدرس هناك حتى أتم تعليمه العالي وعاد إلى مصر في شهر يونية عام ١٨٥٠م (١٢٦٧هـ) فتكون مدة بعثته قد استغرقت ثلاث سنوات، وعين عقب عودته بالسكة الحديدية المصرية، وكان منزله بجهة الشفخانة بالقاهرة وظل يتقلب في وظائف هذه المصلحة إلى أن أدركته الوفاة في تاريخ غير معروف.

٥٤٤- حسن الرشيدي - حارة - بقسم الرمل

هو حسن غانم محمد الرشيدي، كان مجاورًا بالأزهر، ثم ألحق بمدرسة الطب في أبي زعبل التي أسسها محمد علي

عام ١٨٢٦م (١٢٤٢هـ)، وكان كلوت بك (انظر هذه المادة) أول ناظر لها، وبعد أن أتم حسن الرشيدي علومه بهذه المدرسة عين مصححًا بمطبعتها لتفوقه في اللغة العربية فكان زميلاً للسيد أحمد الرشيدي (انظر هذه المادة)، ثم وقع عليه الاختيار ليكون أحد أعضاء البعثة التي أرسلت إلى فرنسا لإتقان العلوم الطبية، والتخصص في فن الأقرباذين، فبدأ دراسته في شهر نوفمبر عام ١٨٣٢م (١٢٤٨هـ)، وكان مرتبه الشهري ٢٥٠ قرشًا، وتلقى علومه الكيميائية بمعمل مسيو بوره الكيميائي الفرنسي، وعقب إتمامه دراسته العالية عاد إلى مصر عام ١٨٣٨م (١٢٥٤هـ)، وعين بمدرسة قصر العيني مدرسًا للأقرباذين، والمادة الطبية، واشتغل بالتأليف، والترجمة، واستمر على القيام بالتدريس بمدرسة الطب إلى أن ألغيت في عهد سعيد الأول، وفي فترة الإلغاء عمل طبيبًا لمعالجة الأهالي إلى أن أعيد فتح المدرسة خلال عام ١٨٦٥م (١٢٨٢هـ) في عهد سعيد الأول نفسه، ولم يظهر لصاحب الترجمة أثر بعد ذلك التاريخ، ويعتقد أنه توفي في تلك الأثناء.

وأهم مؤلفاته: كتاب «الدر اللامع في النبات وما فيه من المنافع» وهو ترجمة للدكتور فيجري بك أحد أساتذة مدرسة الطب، وقد طبع هذا الكتاب باللغة العربية عام ١٨٤١م (١٢٥٧هـ)، وله كتاب من تأليفه أسماه: «الدر الثمين في الأقرباذين» طبع سنة ١٨٤٩م (١٢٦٦هـ)، ومن جهة أخرى ساعد حسن غانم الرشيدي في ترجمة وتصحيح بعض الكتب الطبية الأخرى.

ولم يعرف تاريخ ومكان وفاته، وما من شك في أن لقب الرشيدي يدل على أن أسرة الدكتور حسن غانم الرشيدي تنتسب في الأصل إلى مدينة رشيد.

٥٤٥- حسن سرور - شارع - بقسم سيدي جابر (أبو بكر سابقًا)

ولد حسن سرور بالإسكندرية في ٥ من شهر يوليو عام ١٨٩٣م (١٣١١هـ) وأتم دراسته الابتدائية والثانوية بمدارسها، ثم التحق بمدرسة الحقوق بالقاهرة وحصل على إجازتها عام ١٩١٧م (١٣٣٦هـ)، وزاول مهنة المحاماة مفضلاً عملها الحر على التوظف في الحكومة، ولإدراكه السليم للشؤون القانونية، ولاسيما فيما يتعلق بالقانون المدني لم يلبث أن نال شهرة قوية في هذا الميدان، وصار مكتبه مقصد المتقاضين من كافة أنحاء القطر المصري، ومقصد خريجي الحقوق الجدد للمران.

ولدى قيام الحركة الوطنية المصرية سارع إلى الانضمام للمطالبين باستقلال مصر التام وجلاء الاحتلال الإنجليزي البغيض عن ربوعها، وكان من الرعيل الأول الذي ناضل، وكافح في سبيل حرية بلاده، فاشترك في كل مراحل ثورة عام ١٩١٩م (١٣٣٨هـ) بالإسكندرية، وسرعان ما انضم إلى لجنة الوفد المصري بزعامة سعد زغلول، وبقي على مبدأه الوفدي حتى وفاته دون أن تغيره عروض الأحزاب الأخرى وعلى رأسها حزب الأحرار الدستوريين بزعامة محمد محمود صاحب اليد الحديدية، وهو اللقب الذي اشتهر به لاتخاذه الأساليب العنيفة ضد الحركات الوطنية الداعية للاستقلال التام والحد من سلطان القصر الملكي ورجاله ومهادنة الجالسين على عرش محمد علي للإنجليز المحتلين، وكذلك حزب الشعب بزعامة إسماعيل صدقي الذي نال الشعب في أثناء فترات حكمه ألوانًا من التنكيل والاضطهاد مازالت عالقة بأذهان الناس يذكرونها في اشمئزاز كلما ذكر اسم إسماعيل

صدقي في تجمعاتهم، وحزب السعديين بزعامة أحمد ماهر الذي انشق على حزب الوفد هو وبعض الوفديين دون أسباب تبرر هذا الانشقاق اللهم إلا للتربع على كراسي الحكم في ظل عرش الملك المخلوع فاروق.

وفي عام ١٩٢٧م (١٣٤٦هـ) عين عضوًا بالمجلس البلدي فلم يقصر في الدفاع عن حقوق الوطنيين ضد السيطرة الظالمة التي كانت للأعضاء الأجانب لأنهم كانوا يكونون الأغلبية الساحقة في المجلس إذ كان يمثلهم فيه ١٦ عضوًا من أعضائه الخمسة والعشرين، أربعة أعضاء لكل جالية من جالياتهم الكبرى، وهي اليونانية، والإيطالية، والفرنسية، والإنجليزية، وذلك بسبب قصر حق الانتخاب لهذا المجلس على من يدفع كل منهم ٧٢ جنيهًا سنويًّا بصفة إجارة لسكناه، وما كان لمعظم المصريين أن يدفعوا مثل هذه الإجارة السنوية لوجود رؤوس الأموال الكبيرة في أيدي هؤلاء الأجانب يجمعونها من أرزاق الشعب تحت رعاية وحماية الاحتلال الإنجليزي الممقوت.

لم يقصر المرحوم حسن سرور في الدفاع عن حقوق مواطنيه المهضومة فكان يندد بانفراد الأحياء الآهلة بالأجانب بكل أسباب الراحة، وإهمال الأحياء الوطنية، وكان لدفاعه هو وزملائه المصريين أثر واضح في حصول الأحياء الفقيرة في المدينة على الكثير من العمار والتنظيم ولاسيما المساكن الشعبية التي بدأ في تشييدها بحي كوم الشقافة لتأجيرها لمحدودي الدخل ولاسيما العمال.

وفي عام ١٩٢٩م (١٣٤٨هـ) أي بعد عامين من عضويته بالمجلس البلدي انتخب عضوًا في مجلس النواب عن دائرة قسم كرموز؛ لأنه كان هو وأخوه المرحوم أحمد سرور أحد كبار موظفي الجمارك السابقين من أوائل البانين في غيط العنب التابع لهذا القسم، وظل نائبًا عن تلك الدائرة إلى أن حل مجلس النواب في أوائل عام ١٩٣٠م (١٣٤٩هـ) في عهد إحدى الوزارات المناوئة لحزب الوفد بزعامة المرحوم مصطفى النحاس، فظل حسن سرور يشغل وظيفة سكرتير لجنة الوفد بالإسكندرية.

وعين بعد ذلك سكرتيرًا لمجلس الوزراء عندما تولي حزب الوفد الوزارة ثم استقال بمجرد أن نحيت هذه الوزارة عن الحكم، وتفرغ لمزاولة عمله في المحاماة مواصلاً نجاحه المطرد فيها، وانتخبه زملاؤه نقيبًا لهم سنين طويلة، ووافته المنية في شهر يونية عام ١٩٧٢م (١٣٤٩هـ) بالإسكندرية بالغًا من العمر ٧٩ عامًا.

ولن أنسى النكتة الفكهة التي قالها عندما عين ولدي فريد فهمي الجزايرلي وكيلاً للنائب العام، وكان قد حصل على إجازة الحقوق وعمره تسعة عشر عامًا ونصف العام أي أصغر دفعته سنًّا، وأولهم في ترتيب التخرج، ولصغر شكله بالنسبة لنواب النيابة الأحداث، فلما رأته إحدى السيدات على المنصة بجانب القاضي ضربت بكفها على صدرها فرحًا وقالت: «ربنا يخلي الحكومة جابت للأولاد وكيل نيابة على قد عقلهم» فذاعت هذه النكتة الظريفة بين رجال القضاء والمحامين.

٥٤٦- حسن عامر - حارة - بقسم الرمل

تلقى حسن عامر مراحل تعليمه الأولى في المدارس المصرية، ثم التحق بمدرسة الطب بقصر العيني وتخرج منها برتبة «الاسبيران» أي تلميذ ضابط، واختير بعد ذلك ليكون

من طلاب البعثة التي أرسلها عباس الأول إلى بلاد النمسا لإتمام علومهم الطبية، وبدأ دراسته هناك في ٣١ من أكتوبر عام ١٨٥٠م (١٢٦٧هـ)، وكان مرتبه طوال مدة البعثة ٥٠ قرشًا فقط، يتناولها بالإنابة عنه في مصر عامر أفندي المليجي، ولعله أحد أقاربه أو على الأرجح عمه بدليل أن اسمه الأول هو «عامر»، وذلك للصرف من هذا المبلغ الزهيد على عياله، وبعد أن أتم حسن دراسته الطبية بالنمسا عاد إلى مصر في ٢٢ يناير عام ١٨٥٥م (١٢٧٢هـ) وعين طبيبًا بالجيش المصري، وكان في عهد الخديوي إسماعيل طبيبًا لقسم بولاق بالقاهرة.

ولا يعرف تاريخ أو مكان وفاته.

٥٤٧- حسن منصور - حارة - بقسم كرموز

قد يكون هذا الاسم لأحد ممن أقام بهذه الحارة، وقت تسميتها أو أحد ملاك عقاراتها، لأن اسم حسن منصور يدعى به الكثير من الناس، ومن جهة أخرى لم أستطع التعرف على أصل التسمية من سكان هذه الحارة، فتأكد عندي أن المقصود بها هو الشيخ حسن منصور بك وفيما يلي ترجمة حياته:

ولد بالإسكندرية عام ١٨٧٠م (١٢٨٧هـ)، وحفظ القرآن الكريم بأحد مكاتبها، وتلقى مبادئ علوم اللغة العربية والدينية بمسجد الشيخ إبراهيم باشا (انظر هذه المادة)، ثم انتقل إلى الجامع الأزهر بالقاهرة ومكث به مدة طويلة، التحق بعدها بدار العلوم، وتخرج فيها عام ١٨٩٧م (١٣١٥هـ)، وعين عقب تخرجه مدرسًا بمدرسة خليل أغا بالقاهرة، وشغل بعد ذلك وظيفة رئيس قلم النسخ بمحكمة الاستئناف وعند إنشاء مدرسة القضاء الشرعي كان من بين الذين اختيروا للتدريس بها، وفي أول فبراير عام ١٩٢٥م (١٣٤٤هـ) عين وكيلاً لهذه المدرسة، ثم ناظرًا لتجهيزية دار العلوم فوكيلاً للدار من أول سبتمبر عام ١٩٢٩م (١٣٤٨هـ)، وفي أول يونية عام ١٩٣٠م (١٣٤٩هـ)، أحيل على التقاعد وهو في الدرجة الثالثة، وكان حائزًا لوسام النيل من الدرجة الخامسة، وله مذكرات قيمة في تفسير القرآن الكريم وفي تاريخ الأدب العربي أملاها على طلبته بمدرسة القضاء الشرعي، ولكنه لم يطبعها، واشترك في تأليف كتاب للدين قرر للتدريس بالمدارس الثانوية بالاشتراك مع زميليه الشيخين مصطفى العنان بك، وعبد الوهاب النجار، وفسر جزء تبارك ولكنه لم يطبعه.

ومن الأعمال التي قام بها في حياته الفكرية تحريره قسم التفسير والحديث في مجلة الأزهر منذ بدأ إنشاءها، وكان اسمها «نور الإسلام» وظل يحرر بها إلى أن وافته المنية عام ١٩٣٢م (١٣٥١هـ) بالغًا من العمر ٦٢ سنة.

٥٤٨- حسونة (الشيخ) - شارع - بقسم مينا البصل

اطلب ترجمته في «الشيخ حسونة».

٥٤٩- حسين باشا فهمي - شارع - بقسم اللبان

يحمل اسم «حسين باشا فهمي» اثنان ممن ذكر التاريخ سيرتهم، وفيما يلي ترجمة كل منهما:

١) **حسين فهمي المعمار ابن عبد الكريم بك**: وهو شقيق محرم بك (انظر هذه المادة) محافظ الإسكندرية الأسبق، وصهر محمد علي، وكان حسين يعرف طوال أيام الدراسة

بكوجيك حسين بك، وقد تعلم في مكاتب مصر ودخل مدرسة السواري بالقاهرة، ثم اختير للسفر في البعثة العلمية الرابعة إلى فرنسا عام ١٨٤٤م (١٢٦٠هـ)، وألحق بالمدرسة الحربية المصرية بباريس التي أنشأها محمد علي لتعليم المصريين وجعل رياستها لوزير الحربية الفرنسية الذي خوله حق تعيين ناظرها وأساتذتها، وقد بدأ حسين دراسته في ١٦ من أكتوبر بتلك السنة، وهي سنة افتتاحها، وكان راتبه الشهري طول سنتي البعثة ٢٥٠ قرشًا، وبعد عامين من الدراسة الحربية اختار التعليم المدني فألحق عام ١٨٤٦م (١٢٦٢هـ) بمدرسة الهندسة العليا بباريس، وعاد إلى مصر بعد أن أتم دراسته في عهد عباس الأول، وكان عمره ٢٦ عامًا، فأنعم عليه برتبة الأميرالاي.

ومن أعماله المعمارية قيامه بتصميم وتشييد جامع الرفاعي (انظر هذه المادة)، وبناء أقسام الشرطة بالقاهرة والمدرسة المعروفة باسم «مدرسة والدة محمد علي» بالباب الحديد تجاه مسجد أولاد عنان أيام أن كان وكيلاً لديوان الأوقاف، وكان قبل أن يعين في هذه الوظيفة مديرًا لجمرك الإسكندرية، ثم محافظًا للسويس، وكان تشييد مسجد الرفاعي، الذي كان زاوية صغيرة، خلال عام ١٢٨٦هـ (١٨٦٩م) بأمر من خوشيار هانم والدة الخديوي إسماعيل، التي أنفقت على شراء أرض الجامع وتشييده.

وكانت هوايته جمع الرسوم القديمة وحيازتها حتى أدى ذلك إلى شرائه جلود الكتب عندما أسست دار الكتب المصرية ورأى تغير جلود مجلداتها وكتبها بجلود أخرى حديثة، وذلك لرغبته في اقتناء النقوش المرسومة عليها، وكان منزله باللبودية آية من آيات الهندسة الغربية والرسوم الرائعة الرونق، وكانت بالمنزل فسقية من وضعه تعد تحفة من تحف الفن المعماري الأصيل ولذا كانت محط أنظار المتفرجين، وقد ترك لديوان الأوقاف آثارًا غاية في الحسن والجمال من وضع يديه ظلت موضع إعجاب كبار المهندسين.

ولقد كفل جد حسين فهمي محمد علي إبان طفولته في قوله بعد وفاة والده، ومن ثم عرف محمد علي كيف يقابل جد حسين فهمي محمد علي إبان طفولته في قوله بعد وفاة والده، ومن ثم عرف محمد علي كيف يقابل هذا الجميل بمثله؛ فأغدق رعايته على والد حسين وعمه محرم بك الذي زوجه ابنته هانم، وأرسل والده عبد الكريم (انظر هذه المادة) في بعثة إلى أوروبا لتلقي العلوم الحربية.

وعلى الرغم من الشهرة الواسعة التي نالها حسين فهمي في فن الهندسة المعمارية فإنه كان منطويًا على نفسه منعزلاً عن الناس مع أنه كان يتقن اللغة الفرنسية إلى جانب تجديده في فن العمارة، وكان علاوة على ذلك كريم الخلق فاضل السجايا، وأنجب ولدًا واحدًا اسمه إسكندر بك عزيز كان مهندسًا بديوان الأوقاف، وله من ابنته حفيد اسمه أصلان بك فهمي احتفظ في حياته بمجموعة كبيرة من الرسومات العربية التي خطها حسين فهمي بالألوان المختلفة، وتدل هذه المجموعة على نبوغه في هذا النوع من الرسوم الهندسية البديعة. وكانت وفاته خلال عام ١٨٩١م (١٣٠٩هـ).

٢) حسين فهمي باشا ابن محمد صدقي بك القبرصلي: ولد بمدينة الفيوم عام ١٢٥٩هـ (١٨٤٣م) وكان والده محمد صدقي بك من رجال العسكرية المصرية، فألحقه بالمدارس الأميرية فتلقى فيها دراسته الابتدائية، وعندما أنشأ سعيد

الأول المدرسة الحربية بالقلعة، وجعلها تحت رياسة رفاعة بك (انظر هذه المادة، ومادة الطهطاوي)، ألحقه والده بها عام ١٢٧٢هـ (١٨٥٥م)، ثم انتقل إلى المدرسة البحرية على أحمد مطوش قبودان أحد أبناء مصطفى موطش باشا (انظر مادة موطش باشا) وسافر بالسفينة الحربية «شير جهاد» للتعلم إلى إنجلترا مع عدد من التلاميذ بقيادة فدريجو بك (انظر مادة فدريجو باشا)، ورقي بعد ذلك إلى رتبة الملازم أول، ثم إلى رتبة اليوزباشي (النقيب) عام ١٢٨٦هـ (١٨٦٩م) بعد اختياره بين الضباط الذين عينوا بالسفينة المحروسة المخصصة لأسفار الخديوي وذلك عقب عودتها من إنجلترا تامة الإصلاح والأثاث الفاخر، وفي عام ١٢٨٩هـ (١٨٧٢م) رقي إلى رتبة الصاغ الرائد، وعين بأمر الخديوي ربانًا ثانيًا للمحروسة، وفي شهر سفر عام ١٢٩٣هـ (١٨٧٦م) منح رتبة البكباشي (المقدم)، ثم رقي إلى رتبة القائمقام (العقيد) في ١٦ شعبان عام ١٢٩٧هـ (١٨٧٩م).

وفي أوائل ظهور الحركة العرابية الوطنية عين محمد كامل باشا ربان الباخرة المحروسة وكيلاً للبحرية، وحل حسين فهمي محله في قيادة هذه الباخرة، ونال رتبة الأميرالاي (العميد) خلال عام ١٣٠١هـ (١٨٨٥م).

وبعد انقضاء ثورة أحمد عرابي المجيدة وإحالة مصطفى باشا العرب (انظر هذه المادة) على المعاش؛ أحيل على حسين فهمي إدارة توكيل البحرية، فظل يمارس أعباءها إلى أن صدرت الأوامر بإلغائها، فاستقل بقيادة الباخرة المحروسة التي أحيلت ميزانية نفقاتها السنوية على الدائرة السينية، وفي ذلك الوقت نفسه جعله الخديوي توفيق ياورًا له مع بقائه ربانًا للمحروسة، ومنحه رتبة اللواء في ١٧ من ذي القعدة عام ١٣٠١هـ (١٨٨٥م) أي العام نفسه الذي رقي فيه إلى رتبة العميد.

وفي ٢٤ شعبان عام ١٣١٤هـ (١٨٩٦م) حصل على رتبة الفريق، وأحيل على المعاش، وخلال المدة الطويلة التي ظل فيها قائدًا للباخرة المحروسة المخصصة لأسفار الخديوي زار جميع موانى البحر الأبيض المتوسط، وإنجلترا وموانئ البحر الأحمر ولاسيما بعد فتح قناة السويس، ونال في أثناء هذه المدة وسام الحرب الروسية، والنجمة المصرية ووسامي الامتياز الفضي والذهبي والنيشان المجيدي الثالث، والنيشان العثماني الثالث، والمجيدي الثاني.

ولم يعرف تاريخ وفاته التي حدثت بالإسكندرية.

٥٥٠- حسين رمضان (المهندس) - شارع - بقسم باب شرقي (المطاعنة سابقًا)

انظر ترجمة حسين رمضان في (المهندس حسين رمضان يوسف)، وترجمة «المطاعنة» في حرف (م).

٥٥١- حسين سليمان (الشيخ) - شارع - بقسم المنتزه

اطلب ترجمته في «الشيخ حسين سليمان».

٥٥٢- حسين طه صلاح - شارع - بقسم محرم بك (ابن سعود سابقًا)

رائد استشهد أثناء العدوان الثلاثي الغادر على بورسعيد وذلك في إحدى معارك شبه جزيرة سيناء، وكان استشهاده

في سبيل الله والوطن في اليوم الأول من شهر نوفمبر عام ١٩٥٦ (١٣٧٦هـ).

٥٥٣- الحسيني - شارع - بقسم العطارين

يحمل لقب الحسيني اثنان استطعت الحصول على معلومات عن سيرة حياتهما، أحدهما كان يسكن بهذا الشارع، والثاني من علماء الأزهر ومن أساتذة دار العلوم، وفيما يلي ترجمة كل منهما وفاقًا لقدم تاريخ وجودهما في قيد الحياة:

١) **محمد بن سيد الدهري الحسيني**: ولقب الدهري بالنسبة إلى بلدة الدهرة مركز فارسكور، وقد ولد محمد الحسيني بهذه البلدة في حوالي عام ١٧٨٦م (١٢٠١هـ)، ونزح هو وأفراد أسرته إلى الإسكندرية خلال عام ١٨٦٢م (١٢٧٩هـ)، واستقر بالشارع الذي يحمل اسمه حتى الآن وهو يبدأ من شارع ابن الخطاب وينتهي في شارع الحضري مقاطعًا الشارعين، وقد اشترى منزلاً في هذا الشارع، وكان من طبقة واحدة ثم أضاف إليها طبقتين بعد ذلك، وكان يعيش من ريع أطيانه ببلدة الدهرة مسقط رأسه ومن أرباحه من تجارة القطن التي كان يزاولها حتى وفاته عام ١٨٧١م (١٢٨٨هـ) بالإسكندرية، ووفد ابنه على الإسكندرية وهو محمد محمد الحسيني خلال عام ١٩٠١م (١٣١٩هـ)، وكان يشغل وظيفة بمصلحة السكة الحديد وتوفي عام ١٩٥٠م (١٣٧٠هـ). ونجل المرحوم محمد محمد الحسيني هو السيد حسن محمد الحسيني المفتش السابق بهيئة البريد.

٢) **الشيخ محمد الحسيني**: ولد في بني حسين إحدى قرى أسيوط، ونشأ في الأزهر، وتخرج في دار العلوم عام ١٨٩٠م (١٣٠٨هـ)، واشتغل بالتدريس في مدارس الناصرية والخديوية والسعيدية وانتقل إلى دار العلوم عام ١٩٠٧ (١٣٢٥ هـ) وظل يمارس التدريس بها ١٣ عامًا نقل بعدها إلى مدرسة ثانوية فترك العمل لأنه كان يحب دار العلوم ولا يرضى بها بديلاً، وقد عمل في التفتيش فترة من حياته قبل التدريس بدار العلوم، وفي أواخر أيامه استغنى عن كل شيء إلا ما يقيم أوده ويستر جسده، وأبين ما كان فيه تواضعه وظرفه وحسن لقائه، وقد نيف على الثمانين وهو معافى في بدنه وقلبه وروحه وضميره، وقد تخرج على يديه كثير من كبار رجال التعليم، وتوفي في ١٠ من ديسمبر عام ١٩٤٣م (١٣٦٢هـ).

٥٥٤- حفني ناصف - شارع - بقسم باب شرقي

هو محمد حفني ابن الشيخ إسماعيل بن خليل بن ناصف، ولد في قرية «بركة الحج» المجاورة لضاحية المرج بمديرية القليوبية في ٥ من محرم عام ١٢٧٢هـ (١٨٥٥م)، وتبلور هذا الاسم على الألسنة فصار «حفني ناصف»، ويتصل نسبه بالأمير ناصف الذي كان يسكن هذه المنطقة من قديم، ولم ير أباه لأنه توفي قبل أن يرى حفني نور الحياة فكفله خاله وجدته لأبيه وأنفقا عليه من الحديقة التي آلت إليه ميراثًا عن أبيه، وقد فرَّ حفني من مكتب قريته لغلظة فقيه هذا المكتب ولجأ إلى الأزهر حيث أتم حفظ القرآن الكريم وبدأ في دراسة العلوم الأزهرية وكان عمره إذ ذاك ١٤ عامًا. وكان الأزهر في تلك الفترة قد أخذ في التطور عن طريق الاتصال الأوروبي وقيام جمال الدين الأفغاني بالتدريس فيه، وكانت تلك الفترة هي تلك التي قضاها الإمام محمد عبده فيه طالبًا ومدرسًا وكان يتولى مشيخة الأزهر الشيخ المهدي العباسي (انظر هذه المادة)

الذي ظلَّ في هذا المنصب الديني الخطير من عام ١٢٨٧هـ (١٨٧٠هـ) إلى عام ١٣٠٠هـ (١٨٨٢م)، وقد أدخل الشيخ المهدي عدة إصلاحات على مناهج التعليم والنظم الإدارية، ومن أهم هذه الإصلاحات وجوب تأدية الامتحان النهائي أمام لجنة من ستة من كبار العلماء، وفي كنف الأزهر قضى حفني ناصف عشر سنين، سنة ١٢٨٦هـ (١٨٦٩م) إلى سنة ١٢٩٧هـ (١٨٧٩م) ، وكان في هذه المدة قد تضلع في الفقه الإسلامي والنحو والصرف وعلوم البلاغة وعلم العروض والمنطق والتوحيد والتفسير والحديث، ولقد ظهرت مواهبه الأدبية فكان يدرس بعض كتب النحو للطلاب وكانوا يعرضون عليه إنتاجهم الأدبي فينقد ويوجه ويشجع، وكان يلقي القصائد المتينة في المناسبات، وفي ١٣ من فبراير عام ١٨٧٩م (١٢٩٧هـ) التحق حفني ناصف بدار العلوم ووجد بهذه الدار ما يشبع نهمه العلمي فاستطاع أن يتعلم في كنفها إلى جانب علوم اللغة العربية، الكمياء والطبيعة، وفي هذه الدار استوى قلمه وبلغ أشده يدل على ذلك اختيار الشيخ محمد عبده له لمشاركته في تحرير الوقائع المصرية، وتلقى حفني العلم بدار العلوم على الشيخ حسين المرصفي والشيخ حسونة النواوي والشيخ محمد عبده الذي درَّس له في الأزهر أيضًا، وبقي حفني يواصل دراسته بدار العلوم حتى ١٢ من ديسمبر عام ١٨٨٢م (١٣٠٠هـ)، وفي تلك السنة نفسها اندلعت الثورة العرابية فانتظم في سلك المتطوعين وبقي شهرًا في معسكر عابدين يتدرب على الرماية وبعض المعلومات الحربية مع من كان يعلمهم الشيخ حسن الطويل حين ذاك.

وعلى الرغم من تخرجه الأول من دار العلوم كان من سوء حظه أن دفع به إلى مدرسة الخرس والعميان ليعلم ذوي العاهات فمارس وظيفته الشاقة من ١٣ ديسمبر من عام ١٨٨٢م نفسه إلى شهر فبراير عام ١٨٨٥م (١٣٠٣هـ) فكان معلم نحو للعميان ومعلم طريقة الفهم والتفاهم للخرس فاستطاع في غضون ثلاث سنوات أن يجعل الخرس يكتبون ما يريدون ويفهمون ما يُكتب لهم، وبذلك قامت الكتابة عندهم مقام اللسان والآذان، كما تيسر له تعليم المكفوفين ألفية ابن مالك ورسالة الفضالي في التوحيد وغير ذلك من فروع المعرفة، وبلغ من مقدرته إجادة لغة الصم والبكم أن ندبته إحدى محاكم الجنح وهو بالمعارف ليترجم عن رجل أبكم فترجم لها قصته، وقد قضت المحكمة وفاقًا للإشارات التي ترجمها إلى عبارات.

وفي أول مارس عام ١٨٨٥م (١٣٠٣هـ) اختاره شفيق بك منصور يكن (انظر مادة يكن) سكرتيرًا له، وكان يَكُنْ عالمًا منتجًا أكب على ترجمة القوانين من اللغة الفرنسية وغيرها من اللغات إلى العربية غير أنه – على غزارة علمه – لم يكن متمكنًا منه فوجد في حفني ناصف خير عون على إخراج إنتاجه الفكري في المؤلفات التي صنفها والتراجم التي كتبها نقية من الشوائب والأخطاء اللغوية والنحوية، وليس من المقطوع به أن حفني كان يتقن اللغات الأجنبية اللهم إلا بعض الإلمام بالفرنسية التي كان تعلمها اختياريًّا في أول عهدها، ومن ثَمَّ يستطاع التأكيد أن التراجم التي قام بها حفني ناصف للقوانين، مع شفيق بك يكن، أو بعده، كانت تراجم من العربية المشوبة بالعامية إلى تراجم فصيحة المعنى والمبنى، وكانت الفترة التي قضاها حفني سكرتيرًا لشفيق يكن أولى درجات سلم ارتقائه ليصل إلى كرسي القضاء.

وفي عام ١٨٨٦م (١٣٠٤هـ) ندب لحضور مؤتمر المستشرقين في مدينة «فيينا» صحبة الشيخ حمزة فتح الله (انظر هذه المادة) ومحمود رشاد بك (انظر مادة محمود رشاد) برياسة يعقوب أرتين باشا، فقدم بحثًا في «مميزات لغات العرب» وتخريج ما يمكن من اللغات العامة عليها، وفائدة علم التاريخ من ذلك. وقد طبع هذا البحث بالمطبعة الأميرية وغيرها.

ومن أول ديسمبر سنة ١٨٨٧م (١٣٠٥هـ) نقل إلى مدرسة الحقوق الخديوية، فقام بتدريس مادة الإنشاء القضائي والبلاغة والمنطق وآداب المناظرة، وبقي بهذه المدرسة خمس سنوات، وكان من تلاميذه الذين لمعت أسماؤهم في القانون والأدب مصطفى كامل وعبد العزيز فهمي وأحمد زكي شيخ العروبة وعزيز خانكي وتوفيق نسيم ولطفي السيد وأحمد شوقي، وما من شك في أن دروس الإنشاء القضائي التي ألقاها حفني ناصف على هؤلاء الأدباء اللامعين في حياة مصر الأدبية كان لها أثر عميق في ثقافتهم الأدبية الفصيحة إلى جانب ثقافتهم القانونية، وفي هذه الفترة نفسها اشترك في تأليف كتب سهلة لتلاميذ المدارس في النحو والصرف والبلاغة منها كتاب «قواعد اللغة العربية» التي تعلمت منه قواعد النحو وفصولاً مركزة من علوم البلاغة والبيان والبديع.

وفي عام ١٨٩١م (١٣٠٩هـ) سافر لحضور مؤتمر اللغات الشرقية في لندن صحبة محمود عمر والشيخ حمزة فتح الله، وفي عام ١٨٩١م (١٣٠٩هـ) شرعت الحكومة في تعميم المحاكم الجزئية بالمراكز بعد أن كانت مقصورة على الحواضر، ولم يكن العدد الذي تخرجه مدرسة الحقوق كافيًا لشغل المناصب القضائية اللازمة لهذه المحاكم، فأعلنت عن امتحان يعقد بعد عام من تاريخ الإعلان في القوانين على أن يعين من يجتازه بنجاح في سلك القضاء.

فوجد حفني ناصف الفرصة سانحة لإنقاذه من عناء التدريس فاستغل ثقافته القانونية واستغل التجاء حسين رشدي إليه ليستنبط له من الفقه الإسلامي ألفاظًا يمكن إحلالها محل المصطلحات الفرنسية وكان قد عاد من فرنسا، فاشترط حفني أن يبادله علمًا بعلم وهكذا تلقى على حسين رشدي دروسًا في القانون في مقابلة استنباطه الألفاظ الفقهية لتحل محل المصطلحات الفرنسية، وعندما عقد الامتحان في الموعد المضروب كان حفني المجلي فيه، ومن عام ١٨٩٢م (١٣١٠هـ) بدأ حفني عهدًا جديدًا من حياته بالانخراط في سلك القضاء، وقد سلخ في هذا السلك من حياته العملية عشرين عامًا (من ١٨٩٢ إلى ١٩١٢م) تقلب أثناءها في عدة مناصب قضائية كان آخرها منصب وكيل محكمة طنطا الكلية ونال في هذه الفترة مرتبة البكوية من الدرجة الثالثة سنة ١٨٩٧م (١٣١٥هـ) ونال البكوية من الدرجة الأولى بعد إحالته على التقاعد.

وطوال هذه المدة كان يعمل مع غيره في إنشاء الجامعة المصرية، فكان رئيس مجلس إدراتها الأول إذ عين في هذا المنصب الخطير بجلسة مجلس الجامعة المنعقدة يوم السبت ٧من مارس عام ١٩٠٨م (١٣٢٦هـ)، وكان حفني في القضاء مضرب المثل في النزاهة وتوخي العدالة في أحكامه.

وعلى الرغم من إرهاقه في وظائف القضاء كان حفني يدرس مادة تاريخ الأدب العربي بالجامعة المصرية منذ إنشائها وكان يلقي محاضراته في هذه المادة على طلبة كلية الآداب،

وكان من بين تلاميذه فيها الدكتور طه حسين، ومما يدل على أن تدريسه هذه المادة بالجامعة المصرية لم يكن قصير المدة هو أن محاضراته فيها طبعت منها جامعة القاهرة أخيرًا ما يكوِّن ثلاثة أجزاء بعنوان «الأدب العربي»، أو «حياة اللغة العربية»، وكانت هذه المحاضرات معينًا عذبًا يغترف منه كل من خلفه في دراسة هذه المادة، وقد خدم هذا الرجل الفذ الجامعة المصرية بجهوده وماله وذلك على الرغم من رقة حاله وكثرة عياله، فقد بلغت تبرعاته لها ما يقرب من ٨٧٠ جنيهًا وكان يتنازل عما يستحقه على عمله فيها من مرتبات ليضاف إلى رصيدها من الاكتتابات.

وفي شهر يوليو عام ١٩١٢م (١٣٣١هـ) عين مفتشًا أول للغة العربية ولعلَّ هذا التعيين كان يهدف إلى تعويضه عما أصابه من التخلف في القضاء، كما يحتمل أن المقصود منه كان إبعاده عن السلك القضائي ولاسيما بعد أن أصدر حكمه بتبرئة المتظاهرين ضد العرش والمستعمرين الإنجليز من طلبة المعهد الأحمدي بطنطا خصوصًا وأن ترقيته إلى منصب كبير المفتشين لم يكن لها أثر مادي في درجته أو راتبه. وعلى كل حال فقد ظل يمارس أعباء هذه الوظيفة الجديدة في نشاط إلى أن أحيل على التقاعد في سبتمبر عام ١٩١٥م (١٣٣٤هـ) ثم منح رتبة البكوية من الدرجة الأولى في نوفمبر من ذلك العام نفسه، وما من شك في أن حفني ناصف قد اصطدم أثناء قيامه بالتفتيش في وزارة المعارف بدكتاتورها المعروف «دوجلاس دنلّوب» مستشارها الإنجليزي المعروف بمعارضته لكل إصلاح أو تقدم في التعليم، ومن ثمَّ فإن هذا المستبد الأجنبي لم يوافق على مد خدمة حفني ناصف بعد بلوغه السن القانونية على الرغم من رجاء عدلي يكن وزير المعارف في ذلك الحين وحسين رشدي رئيس الوزارة، وعلى كل حال فإن حفني ناصف لم يتوان في إدخال ما استطاع من إصلاحات على النظم التعليمية فوضع دستورًا جديدًا لتنظيم سير العمل واستبدل كثيرًا من المصطلحات العربية بنظائرها من الألفاظ الأجنبية لتستعمل في التدريس ولاسيما في العلوم الحديثة مما كان له أثر حميد في تعريب هذه العلوم، ولقد صعب عليه أن يفارق نشاطه العملي العلمي وأن يركن إلى الراحة وهو النشط الدؤوب على العمل فقال قبل إحالته على المعاش بعشرين يومًا:

بَرَّزْتُ في سحرِ البَيَا ... ن وشابَ فيه مَفرِقي

وقَضَيْتُ عُمْري في البَلاَ ... غةِ سَابِقًا لَمْ أُلْحَقِ

والآنَ أَذَّنَ للرحيـ ... ـلِ مُؤَذِّنٌ لَمْ يُشْفِقِ

عِشْرُونَ يَوْمًا قد بَقِيـ ... ـنَ وبَعْدَها لا نَلْتقي

فَتَبَلَّغي يا نفسُ بالـ ... مَفْرُوضِ للمُسْتَرْزِقِ

فَاتَ الكَثِيرُ مِنَ الحَيا ... ةِ وقَلَّ مِنْهَا مَا بقي

وقد ختم حفني ناصف حياته الفكرية بكتابة المصحف العثماني بالاشتراك مع المرحومين أحمد الإسكندري ومصطفى العناني وهو المصحف الذي طبعته الحكومة ونشرته في جميع الأقطار الإسلامية، وكان حفني مولعًا بالأدب والعلم والصحافة منذ صباه، وكان يختلف إلى الأندية الأدبية كلما سمحت ظروف عمله بذلك، فكان وكيلاً «لجمعية الاعتدال» التي أنشأها أصحاب مجلة «المقتطف» أول وفودهم على مصر، واشترك في إنشاء (نادي دار العلوم) وألقى فيه محاضرات قيمة وكان يكتب في كثير من الصحف والمجلات، أما شعره فيعد نبراسًا لطبقة الشعراء التي ظهرت بعد طبقة البارودي وعبد الله باشا فكري (انظر هاتين المادتين)، والواقع هو أن حفني تأثر بالبارودي إلى حد بعيد وكان مولعًا بتقليده، وفي القصيدة التالية ما يدل على تقليد البارودي في الفخر ومنها هذه الأبيات:

وَلي يَرَاعٌ كَصَدرِ الرُّمْحِ هِزَّتُهُ
تُبَشِّرُ الكَوْنَ أحْيَانًا وتُنْذِرُهُ

له مواقعُ تَنْدَكُّ العُقُولُ لها
كَأنَّمَا نفثاتُ السِّحْرِ أسْطُرُهُ

والأمرُ طوعُ يدي هذا أُقدمُهُ
إلى المعالي وذا حِينًا أُؤَخِّرُهُ

حتى كأنِّي سُلَيْمَانُ الزَّمَانِ فلا
يُرَدُّ أمْرٌ إلى مَنْ شئتُ أُصْدِرُهُ

ومن خصائص شعره السهولة الممتنعة على الكثير، وهو في تلك الناحية كثير الشبه بالبهاء زهير من حيث السلاسة وخفة الروح وشيوع الدعابة والتلاعب بالألفاظ وتوشية الشعر بألوان المحسنات البديعية والجناس والتورية، ويمتاز شعر حفني إلى جانب ذلك بالمقابلة وتضمين الآيات القرآنية والأمثال مثل قوله:

إذَا هَالَكَ الأَمْرُ مِنْ بَأْسِهِ
وَضِقْتَ ولَمْ تَسْتَطِعْ حَلَّهُ

فَلُذْ بالتُّقَى فَهْوَ بَابُ الخَلاَصِ
«وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ. . . »

ويمتاز بالتشبيهات المبتكرة أو الشبيهة بالمبتكرة، ويظهر ذلك في قوله:

جَنِّبوني ذكر العُيُونِ فَقَلْبي
في ارتِعَاشٍ مِنْ فِعْلِها وارْتِعَادِ

فهي كالكهرباءِ تُومِي بِلَحْظٍ
فَتَدقُّ الأجراسُ في الأكبادِ

كما يمتاز بالدعابة المرحة، فهو يقول في تقريظ كتاب جغرافيا:

هَيْهاتَ يُوجدُ في الوجود نظيرُهُ
أوْ أنْ يضاهيهِ سِوَاه ولوْ نَطَقْ

أَوْ أَنْ يَجِيءَ فتىً بِمِثْلِ صِفاتِهِ
لو كان بحرًا في البلاغةِ وانْفَلَقْ

هَذَا هُوَ القَوْلُ الحَقِيقِيُّ الَّذي
يُعْنَى بِهِ وَسِوَاهُ حِبْرٌ في وَرَقْ

واشتهر حفني ناصف في ميدان الظرف وخفة الروح – حتى في شكواه – بقصيدتين لا تذكر أبيات أو حتى بيت واحد منهما إلا وتقفز إلى الذهن صورة هذا العبقري الضاحك الباكي، فعندما اقترب وقت إحالته على التقاعد كتب إلى صديقه حسين رشدي رئيس الوزراء يقول:

صَاحِبَ الدَّوْلَةِ يَا شَيْخَ الوَزارَهْ
حَاجَتي إنْ شِئْتَ تُقضى بإشارهْ

نَالَهَا قَبْلِي أُلُوفٌ لَمْ أَكُنْ
دُونَهُم علمًا ولا أدْنَى مهاره

إلى أن يقول:

إنَّ تَرْكِي خِدْمَةَ الأَوْطَانِ مع
طولِ ما مارَسْتُ في الدنيا خَسارهْ

وَحَيَاتِي كُلُّهَا قَضَّيْتُها
تارةً في العدلِ والتعليم تارهْ

لَيْسَ عِنْدِي ضَيْعَةٌ تَكْفُلُ لي
رِزْقَ أَوْلاَدِي وَلاَ عِنْدِي تِجَارَه

إنَّ أَوْلاَدِي عَلَى كَثْرَتِهِمْ
لَيْسَ فِيهِمْ بَعْدُ مَنْ يَكْسِبُ «بَارَهْ»

أَبْقِني بِضْعَ سِنِينٍ رَيْثَمَا
يَقْدِرُ الأكبرُ أن يُؤْدِي صِغَارَهْ

أَوْ إِلَى أَنْ يَنْتَهِي مَا فِي يَدِي
وَهْوَ ـ إنْ ثمَّ ـ فَخَارٌ للنِّظَارَهْ

ويقصد بكلمة «باره» العملة التركية التي كانت سائدة في العشرين الأولى من القرن العشرين وكان القرش الصاغ «أي المليمات العشرة» تساوي ٤٠ باره تركية، أما قوله: «إلى أن ينتهي ما في يدي» يريد به إلى أن ينتهي من وضع المصحف العثماني الذي ذكر من قبل، غير أن عنت «دنلوب» الإنجليزي حال دون مدّ خدمته بعد بلوغه الستين عامًا.

أما القصيدة الثانية التي اشتهر بها فهي التي يشكو فيها حاله عندما نقل قاضيًا بقنا ولكن في قالب يخاله القارئ مدحًا في بلد الحرارة الشديدة وشكرًا لمن نقله إليها فيقول لمن كان السبب في هذا النقل:

أَسْكَنْتَنِي فِي بُقْعَةٍ
فِيهَا غَدَوْتُ أَعَزَّ شأْنَا

أَرِدُ المَشَارِعَ سَابِقًا
وَالسَّبْقُ عِنْدَ الوِرْدِ أهْنَا

وَأَزُورُ آثَارَ الملو ... كِ وَكُنْتُ قَبْلُ بِهَا مُعَنَّى

بَلَدٌ إِذَا حَلَّت بِهِ ... قَدَمَاكَ قُلْتَ حَلَلْتُ حِصْنَا

جَبَلُ المُقَطَّمِ حَوْلَهُ ... مُنعطِفٌ كَالنُّونِ حُسْنَا

إلى أن يقول:

قَالُوا شخصتَ إِلَى قِنَا ... يَا مَرْحَبًا بِقِنَا وَإِسْنَا

قَالُوا سَكَنْتَ السَّفْحَ قُلـ ... تُ وحَبَّذا بالسَّفحِ سُكْنى

هَا قَدْ أَمِنْتُ البَرْدَ وَالـ ... بَرْدَاءَ والقلبُ اطْمَأَنَّا

وَوُقِيْتُ أَمْرَاضَ الرُّطُو ... بَةِ واسْتراقَ الريح وَهْنَا

أَلْقَى الهَوَاءَ فَلاَ أَهَا ... بُ لِقَاءَهُ ظَهْرًا وَبَطْنَا

وَأَنَامُ غيرَ مُدَثَّرٍ ... شَيْئًا إِذَا مَا اللَّيْلُ جَنَّا

قَدْ خَفَّتِ النَّفَقَاتِ إِذْ ... لاَ أَشْتَرِي صُوفًا وَقُطْنَا

وَفَّرْتُ مِنْ ثَمَنِ الوَقُو ... دِ النِصْفَ أَوْ نِصْفًا وثمنَا

فَإِذَا بَدَتْ لِي حَاجَةٌ ... فِي الغُسْلِ أَلْقَى الماءَ سُخْنَا

أَوْ رُمْتُ طَبْخًا أَوْ عِلاَ ... جَ الخَيْرِ أَلْقَى الجَوَّ فُرنَا

أيُّ الملاهي فيه يَصْـ ... ـرِفَ مَالَهُ وَمَتَى وأنَّى؟

كُلُّ امْرِئٍ تَلْقَاهُ مِنْ ... بَعْدِ الظَهيرة مُسْتَكِنَّا

أما نثره فكان من آيات النثر العربي العذب الجرس المتين التركيب القوي النسق، وأصدق دليل على ذلك رسالته إلى السيد توفيق البكري الذي كانت تربطه به صلات وثيقة، وقد زاره ذات يوم فلم يلق منه ما يستحق من حفاوة وتكريم فأرسل إليه هذا الكتاب الذي يعتبر بحق من روائع ما دبجته أقلام الأدباء، وقد حفظته في السنة الرابعة الابتدائية بمدرسة إبراهيم الأول التابعة لجمعية العروة الوثقى وكان مقررًا علينا من بين المحفوظات فيقول: «كتابي إلى السيد السند، ولا أجشمه الجواب عنه، فذلك ما لا أنتظره منه، وإنما أسأله أن ينشط إلى

قراءته، ويتنزل إلى مطالعته وله الرأي بعد ذلك أن يحاسب نفسه أو يزكِّيها، ويحكم عليها أوْ لَهَا.

فَقَدْ تَنْفَعُ الذِّكْرَى إِذَا جَاءَ هَجْرُهُمْ
دَلالاً فأمَّا إن مَلالاً فَلاَ نَفْعَا

زرت السيد ويعلم الله أن شوقي إلى لقائه كحرصي على بقائه، وكلفي بشهوده كشغفي بوجوده، فقد بعد والله عهد هذا التلاق وطال أمد الفراق، وتقدم الزمان وأنا من رؤيته في حرمان، فسألت عنه فقيل لي: إنه خرج لتشييع زائر وهو عما قليل حاضر، فانتظرت رجوعه وترقبت طلوعه، ولم أزل أعد اللحظات وأستطيل الأويقات حتى بزغت الأنوار وارتج صحن الدار وظهر الاستبشار على وجوه الزوار، وجاء السيد في موكبه وجلالة محتده ومنصبه، فقمنا لاستقباله، فمر يتعرف وجوه القوم حتى حاذاني وكبر على عينيه أن يراني فغادرني وَمَنْ على يساري، وأخذ في السلام على جاري»، ويستطرد حفني في وصف ما وقع فيروي أن السيد البكري استخلص أربعة ودعاهم إلى حجرته ومن ثمَّ لم يبق إلا أن يغادر المكان وهو ينشد:

تَمرُّونَ الدِّيَارَ وَلَنْ تَعُوجُوا
كَلاَمُكُمُو عَلَيَّ إِذَنْ حَرَامُ

ثم يُعْلِم السيد البكري أنه لم يكن صاحب حاجة عنده، وإنما حضر للسلام عليه، ويلقي عليه درسًا قاسيًا في احترام الناس، ثم يقول: وإنما أصون نفسي عن المهانة والضعة ولا أعرضها للضيق وفي الدنيا سعة:

وَأَكْرِمُ نَفْسِي إِنَّنِي إِنْ أَهَنْتُهَا
وَحَقِّكَ لَمْ تُكْرَمْ عَلَى أَحَدٍ بعدي

«فلا يُصعِّرْ السيد من خده فقد رضيت بما ألزمني من بعده، ولا يغض من عينه، فهذا فراق بيني وبينه، وليتخذني صاحبًا من بعيد ولا يكلمني إلى يوم الوعيد:

كِلاَنَا غَنِي عَنْ أَخِيهِ حَيَاتَهُ
وَنَحْنُ إِذَا مِتْنَا أَشَدُّ تَغَانِيَا

ولا تعجب أيها القارئ من أنني حفظت هذا الكتاب القيم ولمَّا أزل في طور الطفولة، فالمحفوظات في فجر القرن العشرين كانت تدرس في المدارس الابتدائية ويحفظ منها التلاميذ الكثير ومن بينها العويص الذي يحتاج إلى الشرح والتفسير، فقد حفظت إلى جانب كتاب حفني ناصف في تلك المرحلة أجزاء من مقامات الحريري، وقصيدة المتنبي في رثاء أبي شجاع فاتك، ومعلقة عمرو بن كلثوم وجزءًا من معلقة امرئ القيس وغير ذلك من المحفوظات التي أفادت ذلك الجيل من التلاميذ في اللغة العربية إلى أبعد حد، وهي وإن كانت صعبة بالنسبة إلى تلاميذ في سن مبكرة إلا أنها رسخت في عقولهم وجعلت منهم كتَّابًا وشعراء مبرزين لأنها حببت إليهم الحفظ والاطلاع على مر الأعوام.

وألّف حفني ناصف ٢٥ مصنفًا في اللغة العربية والأدب العربي والفقه والنحو والبلاغة والبديع والمنطق والعروض والقضاء والتوحيد وعلم الأصول، ففي اللغة ألف: مميزات أمة العرب، والأسماء العربية لمحدثات الحضارة والمدنية، وقواعد رسم المصحف العثماني، وفي الأدب صنف: الأدب العربي أو حياة اللغة العربية، ومجموعة شعره، وكتاب الإنشاء

القضائي، إلى جانب كتب في النحو وعلم البديع وعلمي العروض والقوافي، وله رسالات في البحث والمناظرة وبعض رجالات مصر، ورحلة إلى الآستانة.

وعندما عين حفني ناصف مفتشًا عامًّا للغة العربية أقام له أصدقاؤه حفل تكريم بنادي طنطا، وقال في هذا الحفل صديقه الحميم حافظ إبراهيم قصيدة فيها من الدعابة المرحة الشيء الكثير وذكر ما بينهما من دالة ومزاح، وذكَّره بيوم أن كانوا على قبر الشيخ محمد عبده ثم اختيرا هما وأربعة آخرون لتأبين الفقيد يوم الأربعين، وكانوا على الترتيب الآتي: الشيخ حسن أبو خطوة، وحسن باشا عاصم، وحسن باشا عبد الرازق، وقاسم أمين، وحفني ناصف، وحافظ إبراهيم، فقال حافظ في قصيدته يوم الاحتفاء بحفني ناصف بنادي طنطا:

أَخْشَى عَلَيْكَ المَنَايَا
حَتَّى كَأَنَّكَ مِنِّي

إِذَا شَكَوْتَ صُداعًا
أَطَلْتَ تَسْهِيدَ جَفْنِي

وَإِنْ عَرَاكَ هُزالٌ
هَيَّأْتُ لَحْدِي وقطني

وإِنْ دَعَوْتُ لِحَيٍّ
يَوْمًا فَإِيَّاكَ أَعْني

عُمْرِي بِعُمْرِكَ رَهْنٌ
فَعِشْ أَعِشْ أَلْفَ قَرْنِ

نَبْقَى وَإِبْلِيسُ فِيهَا
نَبْكِي اللَّيَالِي ونُفْنِي

وكان حافظ يعني أن حفني كان قبله في رثاء الإمام الشيخ محمد عبده وتوفي كل من كانوا قبل حفني في إلقاء كلماتهم، وقد رد عليه حفني بالقصيدة التالية:

أَتَذْكُرُ إِذْ كُنَّا عَلَى القَبْرِ سِتَّةً
نُعَدِّدُ آثَارَ الإِمَامِ ونَندُبُ؟

وَقَفْنَا بِتَرْتِيبٍ وَقَدْ دَبَّ بَيْنَنَا
مَمَاتٌ عَلَى وِفْقِ الرِّثَاءِ مُرَتَّبُ

أَبُو خُطْوَةٍ وَلىَّ وَقَفَّاهُ عَاصِمٌ
وَجَاءَ لِعَبْدِ الرَّازِقِ المَوْتُ يَطْلُبُ

فَلَبَّى وَغَابَتْ بَعْدَهُ شَمْسُ قَاسِمٍ
وَعَمَّا قَلِيلٍ نَجْمُ مَحْيَايَ يَغْرُبُ

فَلاَ تَخْشَ هَلْكًا مَا حُيِيتُ فإِنْ أَمُتْ
فَمَا أَنْتَ إِلاَّ خَائِفٌ تَتَرَقَّبُ

فَخَاطِرْ وَقَعْ تَحْتَ القِطَارِ وَلاَ تَخَفْ
وَنَمْ تَحْتَ بَيْتِ الوَقْفِ وَهْوَ مُخَرَّبُ

وَخُضْ لُجَجَ الهَيْجَاءِ أَعْزَلَ آمِنًا
فَإِنَّ المَنَايَا مِنْكَ تَجْرِي وَتَهْرَبُ

وتوفي حفني ناصف في ٢٥ من فبراير عام ١٩١٩م (١٣٣٨هـ) بالغًا من العمر ٦٤ عامًا وكأنما القدر أراد أن يلاحق رفاته كما لاحقه طوال سني حياته فلم يقم له تمثال ولم يطلق اسمه على معهد من معاهد التعليم، بل إن حفلة التأبين التي كان مقررًا أن تقام له بعد وفاته عفى عليها اندلاع نيران الثورة الوطنية في ذلك العام ضد الاحتلال الإنجليزي البغيض، وبذا ينطبق عليه قول أحمد شوقي في رثاء المرحوم مصطفى لطفي المنفلوطي:

اخْتَرْتَ يَوْمَ الهَوْلِ يَوْمَ وَدَاعِ
وَنَعَاكَ فِي عَصْفِ الرِّيَاحِ النَّاعِي

مَنْ مَاتَ فِي فَزَعِ القِيَامَةِ لَمْ يَجِدْ
قَدَمًا تُشَيِّعُ أَوْ حَفَاوَةَ سَاعِ

وعلى الرغم من الروح المرحة التي كانت من سمات حياته فإن حفني ناصف كان شاعرًا حكيمًا في تفكيره متزنًا في تعقله، فقد صقلته التجارب وعلمته صروف الزمن، فشاعت الحكمة في أقواله وتمثلت الروية في معانيه، فاسمعه يقول:

أَتَقْضِي مَعِي إِنْ حَانَ حَيْنِي تَجَارِبِي
وَمَا نِلْتُهَا إِلاَّ بِطُولِ عَنَاءِ

وَيُحْزِنُنِي أَلاَّ أَرَى لِيَ حِيْلَةً
لإِعْطَائِهَا مَنْ يَسْتَحِقُّ عَطَائِي

إِذَا وَرَّثَ الجُهَلاَءُ أَبْنَاءَهُم غِنىً
وَجَاهًا فَمَا أَشْقَى بَنِي الحُكَمَاءِ

ومن أشعاره التي تمثل هذه النزعة الحكيمة والجنوح إلى تصوير تجارب الحياة ورأيه في الصداقة والأصدقاء تلك الأبيات التي تذكرنا بحكمة المتنبي أو ابن الرومي في هذا المعنى:

أَحْيَيْتُ آمَالِي وَكُنْتُ أَمَتُّهَا
مِنْ طُولِ مَا لاَقَيْتُ مِنْ إِخْوَاني

أُدْلِي بِإِخْلاَصٍ لَهُم وَأَذُودُ عَنْ
أَعْرَاضِهِمْ بِجَوَانِحِي وَلِسَاني

وَمَحَضْتُهُم وُدِّي فَلَمَّا أَيْسَرُوا
كَانَتْ بِدَايَةُ أَمْرِهِمْ نِسْيَاني

حَسْبي مِنَ الدُّنْيَا صَدِيقٌ ثَابِتٌ
فَرْدٌ فَكُنْهُ وَلاَ احْتِيَاجَ لِثَاني

ومن مآثر حفني ناصف النثرية القيمة البحث الذي قدمه إلى مؤتمر المستشرقين في فيينا عام ١٨٨٦م (١٣٠٤هـ) ونشره بعنوان «مميزات لغات العرب»، وقد دوَّن في هذا البحث الأشياء التي انفردت بالتكلم بها شعوب مخصوصة من العرب وامتازت بذلك عن اللغة الشائعة في أحيائهم، فلغة هذيل غير لغة عقيل، ولغة قيس غير لغة أسد، ولغة تميم تخالف لغة الحجاز... إلخ.

وذكر حفني ناصف في هذا البحث الفروق التي توجد في اللغة العربية ويحصل بها امتياز قوم على قوم، فلهجة أهل مصر تخالف لهجة أهل الشام بحيث يُعرف المصري في الشام ولو ارتدى الزي الشامي، ويعرف الشامي في مصر ولو

ارتدى الزي المصري وكلتا اللهجتين تخالف لهجة أهل المغرب ولهجة أهل السودان، وضرب حفني ناصف الأمثلة للتدليل على صحة رأيه، فقال إن المفسرين ذكروا في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ أن الفتح في لغة اليمن هو القاضي، وروى ابن جني أن أعرابيًّا دخل على ملك من ملوك حمير وأطال الوقف بين يديه فقال له الملك: «ثب» أي اجلس بلغة حمير، فوثب الأعرابي وكان على مكان مرتفع فتكسر، فسأل الملك عن ذلك فأخبر بلغة العرب فقال: «من دخل علينا فليتكلم بلغة حمير»، وقد خرج حفني ناصف من بحثه إلى ضرورة التمسك بلغة العرب لغة القرآن الكريم حتى يكون ذلك من عوامل الائتلاف والاتفاق بين الشعوب العربية وكذلك بين العرب وبين جميع من يستطيعون النطق بلغة القرآن الفصحى.

وكان شاعرنا يميل في نثره إلى الزخرف والتنميق والنزعة إلى الزينة، من ذلك الرسالة التي بعث بها إلى السيد الليثي يشكره على هديته وكانت قفص عنب، فقال: «وصل يا مولاي إلى هذا الطرف، ما خصصت به العبد من الطرف، قفص من عنب كاللؤلؤ في الصدف، تتألق عناقيده كأنه من صناعة النجف، ولعمر الحق إنها تحفة من التحف، فقابلناه لثمًا بالأفواه، ورشفًا بالشفاه، واحتفينا بقدومه كل الاحتفاء، ولم نفرط في حبه عند اللقاء، بل حللنا له الحبى، وقلنا له أهلاً وسهلاً ومرحبا».

وحفني ناصف هو والد ملك حفني ناصف «باحثة البادية» (انظر مادة ملك حفني ناصف) الشاعرة التي أسهمت بنصيب وافر في نهضة المرأة العربية في مطلع القرن العشرين وعالجت فيما كتبت مشاكل السفور والحجاب والتبرج والزينة والبيت والعمل وكان لها أثر كبير في الحركة النسائية.

٥٥٥- الحكمة - شارع - بقسم الرمل (الفريق أول عبد المنعم رياض حاليًا)

كلمة الحكمة معناها في منطوق علماء اللغة العربية معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، أو هي العدل في القضاء، أو العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه، والعمل بمقتضاها، أو هي علم يبحث فيه عن الكلمة مرادفة لكلمة فلسفة، وأطلقت في الأصل للدلالة على الفلسفة اليونانية التي انتقلت إلى اللغة العربية.

أما حكمة الإشراق، وهي نوع من تصوف الأفلاطونية الحديثة، فهي الفلسفة الإشراقية التي ظهرت في أيام ابن سينا (انظر هذه المادة). وقد صنف فيها رسالة وكان لها في ذلك الحين طابع الإبهام الذي تحررت منه فيما بعد، ويطلق علماء الكيمياء اسم الحكمة على العلم نفسه.

ويقابل كلمة حكمة في اللغة العبرية لفظ «حُخْما» وفي اللغة السريانية لفظ «حخِمتا»، وأطلقت كلمة «حكمة» في السور المكية من القرآن الكريم على تعاليم رسول الله عليه الصلاة والسلام، فيقول الله في كتابه العزيز في سورة النحل مخاطبًا رسوله الكريم: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾، ويقول جل شأنه في سورة القمر: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ ﴾، ثم جاءت في سورة آل عمران

مرادفة للكتاب المنزّل، فقال سبحانه وتعالى مخاطبًا السيدة مريم العذراء عندما قالت أنّى يكون لها غلام ولم يمسسها بشر، فيقول جل جلاله: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ ﴾، وجاءت في سورة البقرة بمعناها الأصيل، وذلك في قوله تعالى: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾.

ووصف لقمان بالحكمة في الآية الشريفة رقم ١٣ من سورة لقمان، فقال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾، وقد فسر الطبري (انظر هذه المادة) الحكمة في الآية الكريمة بالفقه والدين والعقل والإصابة في القول، وفسرها البيضاوي (انظر هذه المادة) بقوله: «إن الحكمة في عرف العلماء استكمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها».

أما ترجمة صاحب الاسم الجديد للشارع فاطلبها في (الفريق أول عبد المنعم رياض).

٥٥٦- الحلاج - شارع - بقسم العطارين

اسمه أبو مغيث الحسن بن منصور الحلاج، وكان من أهل البيضاء، وهي بلدة في فارس ونشأ بمدينة واسط بالعراق، وصحب أبا القاسم الجنيد وغيره.

ويختلف الناس في أمره، فمنهم من يبالغ في تعظيمه، ومنهم من يقول بكفره وزندقته، وجاء في كتاب الأنوار لأبي حامد الغزالي (انظر مادة الغزالي) فصل طويل يفصل أحوال الحلاج، وقد اعتذر الغزالي عن الألفاظ التي كانت تصدر عن الحلاج مثل قوله: «أنا الحق»، وقوله مشيرًا إلى جبته: «ما في الجبة إلا الله» وأقوال أخرى تخرج بألفاظها ومعانيها عن الدين الإسلامي وشريعته، وقد حمل الغزالي هذه الألفاظ التي تنم عن الكفر الصريح على محمل حسن، وقال في تأويلها إنها صدرت من فرط المحبة وشدة الوجد، وإنها مثل قول أحد الشعراء فيمن يهوى:

أنا مَنْ أَهْوَى ومَنْ أهوَى أنا
نحن روحانِ حللْنا بَدَنَا

فإذا أبصرْتني أبْصَرْتَهُ
وإذا أبْصَرْتَهُ أبْصَرْتَنَا

ومن الشعر المنسوب للحلاج على اصطلاحاتهم وإشاراتهم قوله:

لا كنتَ إن كُنتُ أدري كيف كنتُ ولا
لا كنتَ إن كنتُ أدري كيف لم أكُنِ

وفي هذا البيت من الغموض والزيغ ما يدل على عقلية هؤلاء المارقين المتفلسفين الذين يتخذون من الأحاجي وسيلة لتضليل المؤمنين بالله وبقدرته ووحدانيته السرمدية ليحيدوا عن طريق الإيمان الصادق بخالق الكون الواحد الصمد. ومن شعر الحلاج الذي لا يعترف بالنظام الذي وضعه الله سبحانه وتعالى لخلقه ولا بأزلية قدره الذي لا راد لقضائه قوله:

ألقاهُ في اليمَّ مكتوفًا وقال له

إيَّاكَ إيَّاكَ أن تبتلَّ بالماءِ

ويوصف الحلاج أنه كان متصوفًا، ومتكلمًا من أصل فارسي، ولكنه كتب مؤلفاته باللغة العربية، وكان مولده في حوالي عام ٢٤٤هـ (٨٥٨م) وهو حفيد مجوسي من عبدة النار، ومن ثم لا يستغرب أن يكون على تلك الدرجة من الكفر والإلحاد ولاسيما في ذلك العصر الذي بدأ فيه الفرس تغلغلهم في الدولة العربية الإسلامية بما يكنون في نفوسهم من حنين للمجوسية ديانة آبائهم وأجدادهم، وليس من المعقول المسلم به أن يكون من أحفاد الصحابي أبي أيوب (انظر هذه المادة) كما يقول بعض مؤرخي سيرته.

وقد قضى الحلاج الفترة الواقعة بين عامي ٢٦٠ و٢٨٤هـ (٨٧٣ – ٨٩٧م) في خلوة مع شيوخ الصوفية في ذلك ومن بينهم: (التستري، وعمرو المكي، والجُنيد).

ثم تركهم وأخذ يدعو إلى التصوف، ثم سار داعية للقرامطة في خراسان والأهواز وفارس والهند والبكستان، وسرعان ما اجتمع حوله طائفة كبيرة من التلاميذ، وذلك عند عودته من مكة إلى بغداد عام ٢٩٦هـ (٩٠٨م)، وقد اتهمه المعتزلة بالشعوذة وطرد من طريقهم ومن طريقة الأمامية الشيعية بمقتضى «توقيع» من رؤساء هذه الطريقة، وبتوقيع من الطائفة المذهبية الظاهرية.

وقد قبض عليه رجال الشرطة العباسيون مرتين، وحمل أمام الوزير ابن عيسى، ثم حكم عليه بالتعذيب عام ٣٠١هـ (٩١٣م)، وقضى ثمانية أعوام في سجن بغداد.

وكانت رعاية «شغب» أم الخليفة العباسي المقتدر (انظر هذه المادة)، ورعاية الحاجب نصر للحلاج سببًا في معاداة الوزير حامد له، ومن ثم أمر بقتله، بعد محاكمة دامت سبعة أشهر، وذلك بناءً على فتوى أقرها القاضي المالكي أبو عمر.

وفي الثلاثاء الرابع والعشرين من شهر ذي القعدة عام ٣٠٩هـ (٢٦ مارس عام ٩٢٢م) جلد الحلاج، وقطعت أوصاله، وشوه، وصلب، ثم حز رأسه، وأحرق جسده في ساحة السجن الجديد ببغداد على الضفة اليمنى لنهر دجلة أمام باب (الطاق).

وقد نتج عن صلب هذا الملحد نشوء أساطير تذهب إلى أنه لم يصلب، وإنما الذي صلب شخص آخر غيره، وذلك ليجعلوا منه مسيحًا آخر ينطبق عليه قول القرآن الكريم، وكان عمره وقت قتله حوالي ٦٥ عامًا.

وبعد موت الحلاج تجمع تلاميذه المضطهدون حول أبي عمارة الهاشمي في الأهواز، وحول فارس الدينوري في خراسان، وبفضل جماعة الدينوري انتعش الشعر الصوفي الفارسي على يد أبي سعيد (انظر هذه المادة)، والشعر الصوفي التركي على يد أحمد يسوي ونسيمي.

وتفصيل قصة الفتوى بقتله ترجع إلى أنه تلفظ بكلام لا يستقيم مع العقيدة الإسلامية في مجلس حامد بن العباس وزير المقتدر بحضرة القاضي أبي عمر فأفتى بحل دمه، وكتب قرارًا بذلك وقع عليه كل من حضر المجلس من الفقهاء، وعندها قال لهم الحلاج: «ظهري حمي ودمي حرام وما يحل لكم أن تتقاولوا علي بما يبيحه، وأنا اعتقادي الإسلام ومذهبي السنة، وتفضيل الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، وبقية العشرة من

الصحابة ولي كتب في السنة موجودة عند الوراقين، فالله الله في دمي»، ولم يزل يردد هذا القول وهم يكتبون توقيعاتهم ثم نهضوا من المجلس، وحمل الحلاج إلى السجن.

وكتب الوزير حامد بن العباس إلى الخليفة المقتدر يخبره بالأمر فبادر الخليفة إلى تسليمه إلى صاحب الشرطة فأمر بضربه بالسياط، ثم قطع عنقه، بعد قطع رجليه ويديه ولما مات مصلوبًا أحرق جسمه، ولما صار رمادًا ألقي في نهر دجلة، وتصادف أن زاد فيضان النهر في ذلك العام بعد أربعين يومًا من موت الحلاج فقال أتباعه الضالون الزنادقة إن ذلك بسبب رماده.

ويقال إن تسمية الحلاج ترجع إلى ذهابه إلى حانوت رجل يحلج القطن فطلب منه أن يعمل عنده فقبل الرجل، وتركه يعمل، ولما عاد وجد أنه حلج جميع ما لديه من القطن فأطلق عليه لقب الحلاج.

وجاء في كتاب «وفيات الأعيان» لابن خلكان أن سبب قتل الحلاج يرجع إلى تآمره مع الجنابي وابن المقفع (انظر هذه المادة) على قلب الحكم في الدولة العباسية، فذهب الجنابي إلى الإحساء في بلاد العرب، وذهب ابن المقفع إلى بلاد الترك، ولم يخدع أهل العراق بتآمر الحلاج مما أدى إلى قتله، وقد ذكر ابن خلكان هذه الرواية نقلاً عن إمام الحرمين الجويني (انظر مادة الجويني)، واستبعد صحتها لأنه إذا صح أن الحلاج التقى بأبي الطاهر سليمان بن بهرام الجنابي «القرمطي» لأنهما من عصر واحد فالمستحيل هو التقاء الحلاج بابن المقفع الذي لم يكن من معاصري الحلاج، ولاسيما أنه لم يترك العراق ولم يذهب إلى تركيا أبدًا.

والجنابي هو رئيس القرامطة الذين اشتهروا لخروجهم على الخلفاء والملوك ومحاربتهم، وينسبون إلى حمدان قرمط من دعاة الإسماعيلية غلاة الشيعة، وكانت له دار في الكوفة دعاها «دار الهجرة»، كان يجتمع فيها بأتباعه.

وللحلاج مذهب اتخذ اسم «مذهب الحلاَّجية»، وفيما يلي تفصيل هذا المذهب: في الفقه، وعلم الكلام، والتصوف:

في الفقه

يقول المذهب بإمكان الاستعاضة عن الفرائض الخمسة التي بني عليها الإسلام بشعائر أخرى بما في ذلك الحج (بإسقاط الوسائط)، وهذا هو الكفر المبين.

في علم الكلام

وينزه المذهب الله عن حدود الخلق (الطول والعرض) ويقول بأن هناك روح ناطقة غير مخلوقة تتحد مع روح الزاهد المخلوقة (وذلك هو عين حلول اللاهوت في الناسوت) كما يصبح الوليُّ الدليل الذاتي على الله (هو هو) ومن ثم القول: «أنا الحق» الذي نطق به الحلاج تعمقًا في كفره.

في التصوف

يدعي المذهب إمكان الاتحاد التام مع الإرادة الإلهية (عين الجمع)، وذلك عن طريق الشوق والاستسلام للألم والمعاناة، أما الذكر الذي ينسبه الشيخ السنوسي (انظر هذه المادة) فمن الأمور المستحدثة.

وقل بين المسلمين من ثار حوله الجدل كما ثار حول الحلاج، ذلك أن الرأي العام وضعه موضع التقديس والولاية على الرغم من إجماع القضاة على تكفيره، وليس ذلك بمستغرب على جموع العامة عبر الأجيال، فحتى الآن يكثر في الأمة الإسلامية وجود جماعات ضالة تؤمن بالأولياء والأدعياء وتقدسهم وتضعهم أحيانًا في صفوف الأنبياء ذلك لأن الجهل الذي انتشر في الأمم الإسلامية بعد انكماش الدولة العربية وبعد دخول الفرس والشيع الدينية المتزندقة في صفوف المسلمين، هذا الجهل أدى إلى سيطرة الشعوذة الصوفية على الأذهان في معظم البيئات الإسلامية، وماتزال هذه الشعوذة تسيطر عليها حتى الآن، ومن أمثلتها أنماط كثيرة نراها في المجتمع المصري بين كثير من طوائف الشعب التي لا تريد تحكيم العقل على العواطف الخاطئة.

وقد حكم بكفره وزندقته من أكابر الفقهاء: ابن حزم، وابن بابويه، والطوسي، والحلي، والطرطوشي، والقاضي عياض، وابن خلدون، وابن تيمية، والجويني الذهبي، والمقدسي، والشعراوي.

ومن علماء المتكلمين: أبو علي القالي، ونصر الدين الطوسي، ومن الصوفية: عمرو المكي، وأغلب الكتاب المتقدمين.

وتوقف كثير من المفكرين عن الحكم عليه وأشهرهم: النابلسي وابن سريح وابن حجر العسقلاني والسيوطي والحصري وعبد القادر الجيلاني وابن العربي وأحمد الرفاعي.

وقال بعضهم أنه ولي الله ومنهم: ابن عقيل، والغزالي، وفخر الدين الرازي، ويرى بعض المستشرقين أنه كان نصرانيًّا في سريرة نفسه، ويتهمه بعضهم بالكفر والإلحاد، ويرى البعض الآخر أنه متناقض في أقواله، ويعده البعض الآخر من الدساسين المهرة الخطرين، وقد حاول الحلاج التوفيق بين الدين والفلسفة اليونانية على أساس التجربة الصوفية، وهو في هذا يعد رائدًا للغزالي، وقد جعل الصوفيين منه أعظم شهدائهم، ولم يبق من مؤلفاته إلا كتاب الطواسين.

٥٥٧- حلاوة - حارة - بقسم الجمرك

يحمل لقب «حلاوة» أفراد أسرة من أعرق أسر الإسكندرية القديمة، وما من شك في أن اسم حلاوة الذي أطلق على هذه الحارة كان تخليدًا لذكرى سليمان قبودان حلاوة الذي يحتمل أن يكون اتخذ مسكنه بالإسكندرية في أحد منازل هذه الحارة بالذات، وتضم أسرة حلاوة – غير سليمان قبودان – عددًا من كبار رجال القوات المسلحة المصرية.

وقد ولد سليمان حلاوة ببلدة قصر بغداد بمديرية المنوفية (محافظة المنوفية حاليًّا) عام ١٢٣٢هـ (١٨١٩م) ولما بلغ العاشرة من العمر ألحق بمدرسة الإسكندرية الأميرية، وبعد أن تعلم بهذه المدرسة القراءة والكتابة والمعلومات العامة الابتدائية دخل مدرسة المدفعية (الطوبجية) عام ١٢٤٧هـ (١٨٣١م)، فدرس بها العلوم الرياضية، وفي أثناء هذه الدراسة رقي إلى رتبة جاويش ثم إلى رتبة باش جاويش، ولنبوغه المبكر في الرياضيات عين مدرسًا لفريق التلاميذ مع استمراره على تلقي العلوم، وكان من أساتذته في ذلك الحين مظهر باشا – مشيد منار الإسكندرية الحالي – وبهجت باشا محرمجي الذين كان

أحد المبعوثين في أوروبا حيث تخصص في الهندسة المائية (انظر مادتي مظهر باشا وبهجت باشا) وفي عام ١٢٥٠هـ (١٨٣٤م) نال رتبة الملازم، وعين خلال عام ١٢٥٣هـ (١٨٣٧م) مدرسًا لمادتي الهندسة والحساب بمدرسة البحرية بالإسكندرية، وكان في ذلك الوقت نفسه تلقى دروسًا في العلوم البحرية على أيدي مدرسين أجنبيين أحدهما مالطي، والآخر إيطالي، وقد أظهر في هذه المرحلة التعليمية مهارة فائقة واستعدادًا قويًّا لاستيعاب ما يتلقاه من دروس ومعارف علمية.

وعندما تبين له أن علم البحار والملاحة يقوم أساسًا على تطبيق قوانين المثلثات المستقيمة الأضلاع والمثلثات الكروية أخذ يطبق علم الملاحة على هذه القوانين الرياضية فبرع في فنون الملاحة إلى أبعد حد وقطع في دراستها، واستيعاب أصولها شوطًا بعيدًا.

وعقب موت المدرسين الأجنبيين تولى هو تدريس فنون الملاحة وعلم الحساب، ولما جبل عليه من حصافة ومهارة ممتازة كان يلقي على تلاميذه القضايا النظرية والعلمية بأسلوب مبسط ويبرهن عليها بكيفية سهلة الفهم، فأفاد الطلاب من دروسه أعظم فائدة، وبرعوا في العلوم التي تلقوها على يديه.

وبعد ذلك اختارته الحكومة المصرية مع غيره من المهندسين لاكتشاف حدود مصر من الجهة الغربية وتحديد الأبعاد التي يمكن للسفن الأجنبية الدنو منها، فأسهم بقسط وافر في توضيح خريطة متقنة، ثم عين مرة أخرى لاكتشاف المرافئ الواقعة على السواحل الغربية فقام بهذا العمل على خير وجه، ووضع خريطة أخرى في عام ١٢٧١هـ (١٨٥٤م).

ولما ألغيت المدرسة البحرية ضُمّ سليمان حلاوة إلى ضباط اليخت «فيض جهاد»، وكلف عقب ذلك بتصحيح ساعات الكرونومتر وتقدير حساب الأسفار، وفي تلك المدة رقي إلى رتبة اليوزباشي (النقيب)، وفي عام ١٢٨٢هـ (١٨١٥م) نال رتبة الصاغ (الرائد)، وعين قبودانًا للباخرة «سمنود» ثم رقي إلى رتبة البكباشي (المقدم)، وكلفته الحكومة بالذهاب إلى بلاد الإنجليز لإصلاح بعض آلات باخرته على أن يأخذ على ظهرها حجاجًا من الفقراء المغاربة الذين تخلفوا بمصر، وتوصيلهم إلى بلادهم، وقد صادفته في الرحلة صعاب كثيرة بسبب انتشار الوباء بين هؤلاء الحجاج، ورفض جميع الموانى إنزالهم بها، ولما أخرجهم إلى بلادهم وصل إلى إنجلترا، وعندما تم إصلاح الباخرة «سمنود» صدرت إليه الأوامر بالدوران حول القارة الإفريقية مارًّا برأس الرجاء الصالح «عشم الخير» ثم الدخول إلى البحر الأحمر إلى أن يرسو بمدينة السويس، فقطعت سفينته هذه الرحلة الشاقة من مدينة لندن إلى مدينة السويس في حوالي ثلاثة أشهر وستة أيام بما في ذلك الأيام التي رسا فيها بجزيرة «ماديرا» وجزيرة «سانت هيلانة» التي نفي فيها نابليون بونابرت بعد هزيمته في معركة «واترلو»، ومدينة الكاب بجنوب إفريقيا، ومدينة عدن عند مدخل البحر الأحمر للتزود بالفحم والتموين اللازم للباخرة، وقد قام بهذا العمل الجريء على خير وجه.

ولم يكن سليمان قبودان حلاوة الأول بالنسبة لهذه الرحلة الطويلة فقد سبقه إليها، في عهد الخديوي إسماعيل، مصطفى بك العرب (انظر مادة مصطفى باشا العرب) الذي صدر إليه الأمر من الخديوي إسماعيل بالإبحار من الإسكندرية على ظهر الطرادة «الإبراهيمية» خلال عام ١٢٨٠هـ (١٨٦٤م)

وذلك للقيام برحلة طويلة قطع فيها البحر الأبيض المتوسط وعبر مضيق جبل طارق ودار حول رأس الرجاء الصالح ثم وصل إلى السويس وعندها رقي إلى رتبة اللواء، وعين وكيلاً للحربية، وغير اسم الطرادة إلى «شيرجهاد».

ولما كانت الأسفار بالسفن القديمة بالمحيط الأطلنطي والمحيط الهندي محفوفة بكثير من الأخطار أمرت نظارة البحرية ضباط سفينتي «الإبراهيمية» و«سمنود» بمراقبة درجات البارومتر لتحديد قياس ضغط الهواء والوقوف على التغيرات الجوية وحركاتها، مع تسجيل ما يلاحظونه من تغيرات في سجلات خاصة تعرف عند الملاحين «بالجرنال» وذلك لاستطاعة اتقاء أخطار التقلبات الجوية والالتجاء إلى أقرب المواني عند الضرورة.

وفي عام ١٢٨٧هـ (١٨٧٠م) نقل سليمان حلاوة إلى المدرسة البحرية التي أعيد فتحها، وكان مديرها «مكيلوب بك» الذي نقل فيما بعد إلى إدارة الفنارات، أما سليمان حلاوة فأحيل عليه تدريس الفنون البحرية والفلكية بالمدرسة فأفاد تلاميذه إلى أبعد حد، وفي عام ١٢٨٨هـ (١٨٧١م) ألف كتابه القيم المسمى «الكوكب الزاهر في فن البحر الزاخر»، وقد طبع الكتاب بالإسكندرية عام ١٢٩١هـ (١٨٧٤م).

وتقلب هذا الملاح الماهر في عدة وظائف بعد ذلك إلى أن أحيل على التقاعد عام ١٣٠٠هـ (١٨٨٢م)، وأدركته المنية عام ١٣٠٣هـ (١٨٨٥م) بالغًا من العمر ٦٧ عامًا بعد حياة حافلة بجليل الأعمال.

٥٥٨- حلب - شارع - بقسم العطارين

تعد حلب من أقدم مدن العالم، وتدل بعض النصوص التاريخية على أنها شيدت في عهد الحيثيين وقد ذكر اسمها خلال الألف الثانية للسنوات السابقة على مولد المسيح بكلمة «حلب» أو «حلو» أو «حلفن»، ثم ذكرت في النصوص البابلية عام ٧٥٠ق.م.، ويظهر أنها هي «أرم صوبه» المذكورة في العهد القديم، أما في العهد السلوقي فقد أطلق عليها اسم «برويا»، وجاء في بعض كتب التاريخ أن لفظة آرامية أو سريانية معربة عن «آلب» منقولة عن اسم مجددها «لبيوس» الشهير من وزراء يوليانوس الروماني وأن اسمها القديم «بيريا».

ومن الأساطير المتناقلة في شأنها أن سيدنا إبراهيم الخليل كان ينتقل من المقدس إليها بصحبة رعاته من البقر والماعز والأغنام، وكان له بقرة تلفت النظر بخوارها وبلونها المرقش، فكان الناس يقولون: ها هو إبراهيم قد «حلب الشهباء» ومن ذلك التاريخ سميت «حلب الشهباء».

وقاست هذه المدينة التاريخية الكثير من الأهوال عند غزو كسرى الأول للبلاد عام ٥٤٠م، ولأن معظم أهلها كان من الشاميين، ومن المهاجرين العرب وقت الفتح الإسلامي؛ فإن العرب الفاتحين لم يلاقوا مقاومة شديدة للاستيلاء عليها عام ١٦هـ (٦٣٧م) بقيادة خالد بن الوليد (انظر هذه المادة)، واستسلمت نهائيًا إلى أبي عبيدة دون أية مقاومة، وقد نفذ العرب إلى المدينة من باب أنطاكية، حيث أقاموا المسجد الأول الذي سمي فيما بعد بالمسجد الفضائري والمدرسة الشعيبية، ويعرف في الوقت الحاضر باسم «التوتي» وأسلم

معظم سكانها على الفور ودخل الباقون في الدين الحنيف في خلافة عبد الملك .

وعقب وفاة أبي عبيدة عام ١٨هـ (٦٣٩م) أصبح معاوية ابن أبي سفيان (انظر مادة معاوية) واليًا على الشام بأسره ، وأقام ولاة الدولة الأموية زمنًا في حلب ، ومازال ذكراهم باقية فيما أطلق من الأسماء على الأماكن في تلك الجهات ، وحينما كان هارون الرشيد أميرًا على الشام وهو ولي العهد عمل على فصل ثغور حلب عنها ، وأقام في عام ١٧٠هـ (٧٨٦م) منطقة إدارية جديدة حاضرتها أنطاكية أطلق عليها اسم العواصم ، وفي عام ٢٥٨هـ (٨٧١م) وأقطع القائد أحمد بن طولون (انظر مادة ابن طولون) الثغور مكافأة له على إخماد فتنة شبت في الشام ، ثم أعلن الحرب على والي الشام أحمد الموفق أخي الخليفة العباسي المعتمد على الله بغية استخلاص الشام لنفسه؛ فاحتل دمشق ، ثم حلب دون مقاومة جدية .

وفي عام ٣٢٥هـ (٩٣٦م) صارت الشام في أعمال والي مصر محمد الإخشيد (انظر مادة الإخشيد) فأقام أحمد بن سعيد الكلابي واليًا على حلب ، وبعد أن هزم ابن رائق محمد الإخشيد الذي هرب إلى مصر أوفد قائده كافورًا على رأس جيش كبير فهزم ابن رائق ، وفتح حلب بعد دمشق ، وحمص وفي ذلك العام نفسه قتل ناصر الدولة الحمداني (انظر مادة ناصر الدولة) ابن رائق وأصبح أميرًا للأمراء ، ومُنح أخوه علي الذائع الصيت لقب سيف الدولة (انظر هذه المادة) وهو من ألقاب الشريف ، وقد ارتبط تاريخ مدينة حلب في الفترة التي تلت ذلك التاريخ ارتباطًا وثيقًا بسيرة سيف الدولة الذي وافته المنية عام ٣٥٦هـ (٩٦٧م) وظل أحفاده يحكمون حلب حتى عام ٤٠٦هـ (١٠١٥م) وخلال هذه الفترة غدت حلب والأراضي المحيطة بها إمارة قائمة بذاتها ، ومن ثم صارت أهم مدينة في الجزء الشمالي من الشام ، وترجع أهمية حلب في التاريخ العالمي إلى صراعها الموفق مع الدولة البيزنطية ، وقد استطاع سيف الدولة الحمداني بفضل مواهبه العالية أن يحفظ على الشام ثقافتها الإسلامية .

ثم دخلت حلب بعد ذلك تحت حكم الدولة الفاطمية في مصر وفي عام ٤٠٧هـ (١٠١٦م) نصب الحاكم بأمر الله الفاطمي عزيز الدولة فاتك واليًا على المدينة ، وقلعتها فاستطاع هذا الوالي عقد الصلح مع البيزنطيين وظهر بمظهر المستقل عن الدولة الفاطمية فثار الحاكم بأمر الله على هذا المظهر ، وأخذ يعد العدة للقتال ولكنه قُتل عام ٤١١هـ (١٠٢٠م) ، فعقد عزيز الدولة الصلح مع الخليفة الفاطمي الظاهر ، وأخت الحاكم بأمر الله التي كانت تدير دفة الحكم في ذلك الحين ، واتهم الفاطميون بقتل عزيز الدولة ، وبعد قتال مرير استعاد القطر الشامي استقلاله عن الخلافة الفاطمية في مصر عام ٤١٦هـ (١٠٢٥م) غير أن الحكم الفاطمي عاد خلال عام ٤٢٠هـ (١٠٢٩م) ونصّب أنشتكين واليًا على حلب إلى أن مات عام ٤٣٣هـ (١٠٤١م) فنصّب «ثمال» على حكمها عام ٤٧٩هـ (١٠٨٦م) إلى آقسنقر مؤسس دولة بني زنكي والذي ازدهرت تجارة حلب في أيامه ، واستتب فيها الأمن والرخاء .

وخلال السنوات التي أعقبت ذلك التاريخ نشبت الحروب بين أمراء الشام فعجزوا عن رد غزوة الإفرنج على البلاد في مستهل الحروب الصليبية عام ٤٩٠هـ (١٠٩٦م) ، غير أن حلب ظلت تناضل ، ولم يستطع الصليبيون الاستيلاء عليها إلا

عام ٥١٦هـ (١١٢٢م) فانتهكوا حرمة الأضرحة، وأخرجوا رفات الموتى من القبور، ثم ارتدوا عنها.

وفي أوائل عام ٥٧٩هـ (١١٨٣م) زحف عليها صلاح الدين الأيوبي (انظر مادة صلاح الدين) وصارت من نصيبه، وبقيت تحت حكم الأمراء الأوروبيين إلى أن اجتاحها هولاكو عام ٦٥٨هـ (١١٥٩م) وأعمل فيها النهب والسلب، ونصب عليها واليًا من قبله، وعندما توالت الهزائم على التتر وجلوا عن الشام انتقلت حلب إلى حكم السلاطين المماليك، ثم قاست الأهوال عام ٨٠٠هـ (١٣٩٧م) عندما غزا تيمور لنك (انظر هذه المادة) الشام، ثم سلمت غدرًا للعثمانيين، وبقيت في عهدهم مركزًا مزدهرًا للتجارة، وفي عام ١٢٤٧هـ (١٨٣١م)، استولى عليها المصريون وفرض إبراهيم باشا ابن محمد علي ضرائب باهظة على أهلها، وازدادت أمورها سوءًا بعد عودة الحاكم التركي، إلا أنها خطت منذ عام ١٢٩٨هـ (١٨٨٠م) خطوات واسعة في سبيل الرقي بوصف كونها مركزًا هامًّا من المراكز التجارية في سوريا.

وحلب غنية بالآثار ذات الصبغة الحربية والدينية والمدنية، ومازال معظمها في حالة جيدة، وأكثرها يحمل نقوشًا تحدد تاريخها ومصدرها، وهذا علاوة على الأوصاف المعمارية العديدة التي دونتها كتب التاريخ ومن ثم فإن عمائر هذه المدينة العريقة في القدم الزمني توضح في جلاء التطور المعماري توضيحًا كاملاً مما يعد مصدرًا تاريخيًّا لمراحل العمارة في حلب وفي شمال الشام بأسره.

وتدل المعالم الباقية من أسوار حلب على أنها كانت منيعة التحصين حتى في العهدين السلوقي والبيزنطي ويبدو أن هذه الأسوار كانت على شكل مستطيل يتوسط كل ضلع منه باب، ولقد هدم كسرى الأول أسوار حلب إبان غزوه للشام عام ٥٤٠م.

وعندما استولى أبو عبيدة على المدينة دخلها من باب أنطاكية عام ١٦هـ (٦٣٧م) ويعد هذا الباب أقى أبواب المدينة من حيث الفن المعماري، وفي عام ٨٩٣هـ (١٤٨٧م) بنى السلطان قايتباي (انظر مادة قايتباي) باب الفرج في الجهة الجنوبية من المدينة، وعلى الشرفة المتعلقة بباب النصر، وهو الباب الذي شيده السلطان غازي بن صلاح الدين عام ٦٠٩هـ (١٢١٢م)، وكان يسمى باب اليهود، على هذه الشرفة نقش عربي يصور مرجًا تجري فيه الأرانب وعلى بعض أبراج الباب رسوم ساذجة بارزة لأسد وفهد.

أما القلعة فشكلها بيضي ومساحتها ٣٠٠ × ١٥٠ ياردة وحولها خندق عميق ويبلغ ارتفاعها حوالي ١٠٠ قدم، ويقع مدخلها الوحيد في الجهة الجنوبية من المدينة، ويرجع تاريخ إنشاء القلعة إلى عهد بعيد إذ نجد لها ذكرًا في الآثار الأشورية والحيثية ويرجع إلى ذلك التاريخ تمثالان حيثيان لأسدين نحتا من حجر البازلت، وتغطيه تسعة أقبية متقاطعة تقوم على أربعة أعمدة.

وفي مدخل القلعة جدد غازي بن صلاح الدين عام ٦١٠هـ (١٢١٣م) مقام سيدنا إبراهيم الخليل وأعاد بناء المسجد الجامع ومئذنته، وقد كان هذا المسجد كنيسة وبقي كذلك إلى عهد بني مرداس، وفي عام ٦٥٩هـ (١٢٦٠م) استولى هولاكو على القلعة، وأمر بتدميرها، ثم جددت بأكملها في عهد السلطان الأشرف خليل، ثم أتلفها تيمور لنك عام ٨٠٣هـ

(١٤٠٠م)، وفي عام ٩١٠هـ (١٥٠٤م) وأصلحها السلطان الغوري وعمق خندقها، وبنى جوانبها بالملاط من جديد، وأصلح الجسر، وبنى البرج العالي القائم عند رأس الجسر.

ويقوم المسجد الجامع بالجهة الغربية من القلعة، وكان يسمى زكريا، وقد بني في عهد سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموي، وأقام محرابه السلطان قلاوون عام ٦٨٤هـ (١٢٨٥م) وبنى منبره السلطان الناصر محمد.

والمدرسة الحلاوية تقع غربي المسجد الجامع، وكانت قبل الفتح العربي الكنيسة الكاتدرائية في حلب، ولم يقدم القاضي ابن الخشاب على تحويلها إلى جامع إلا عام ٥٤٣هـ (١١٤٨م)، وذلك انتقامًا من الصليبيين لهدمهم قبور المسلمين، وجعلها نور الدين مدرسة سنة ٥٤٣هـ (١١٤٨م).

ومن العمائر التي تخلفت عن العهد الأيوبي في حلب مشهد علي في غرب المدينة، ومسجد الظاهر غازي وضريحه، ومسجد وضريح فردوس، ومسجد وضريح الشيخ فارس في الشمال. ومن عمائر المماليك والعثمانيين جامع أطروش، وطواشي وآلتون بوغا بمآذنها المختلفة الأشكال التي تسبغ على حلب منظرًا يشبه منظر القاهرة، ثم مورستان أرغون الجميل، وطائفة كبيرة من الحمامات والآبار العامة، والمساكن وهي مازالت باقية تدل على آثارها.

وسوق المدينة من أعجب الآثار في البلاد العربية، فهو سلسلة من الأسواق المتصلة يتخصص كل منها في صنع أو بيع نوع من السلع لا يتعداه، ويغطي هذه السوق سقوف مقنطرة متواصلة، وللسوق أبواب حديدية تغلق ليلاً، وقد شيدت في عهد العثمانيين والبيوت الحلبية القديمة يتوسطها صحون فسيحة فيها أحواض بالأزهار والأشجار المثمرة وقلما تخلو هذه البيوت من شجرة كروم وشجر الرمان والليمون والنارنج.

وفي وسط صحن الدار «فسقية» ذات نافورة، يجلس حولها أفراد الأسرة عند الأصيل مستنشقين عبير الأزهار، وماتزال بحلب البساتين الناضرة والحدائق العامة الغناء، وتشتهر المدينة العتيدة بشجر الصنوبر الحلبي، وهي منبت أشجار الكرز والفستق والزيتون، وتضم حلب وضواحيها حوالي نصف مليون شجرة تنبت الفستق ونحو ربع مليون شجرة تنبت الكرز، وأكثر من ستة ملايين شجرة زيتون.

وتشتهر حلب بغزل القطن والنسيج، ولاسيما أصناف الحرائر الفاخرة التي تصدر إلى مختلف البلدان العربية.

وفي ربوع حلب نبغ أبو الطيب المتنبي وأبو فراس (انظر هاتين المادتين)، ومنها طلع الفارابي (انظر هذه المادة) بفلسفته على العالم، فكان المعلم الثاني بعد أرسطاطاليس، وبرز من أبناء حلب في العهد الحديث بطل الشهباء وسوريا جميعًا إبراهيم هنانو الذي أرق الفرنسيين وأقض مضاجعهم، وقد وافته المنية عام ١٣٦٥هـ (١٩٤٥م) قبل أن يمتع عينيه بشمس الاستقلال والحرية تشرق على سوريا، وكان زميله في الجهاد سعد الله الجابري الذي تولى رياسة مجلس الوزراء إبان ثورة الشعب في ذلك العام نفسه وهي الثورة التي انتهت باستقلال البلاد، ومن حلب برز سليمان الحلبي الذي اغتال القائد الفرنسي كليبر (انظر مادة الحلبي)، وكان طالبًا بالأزهر، وقد ملأ الحقد وجدانه ضد الغاصبين فقتل قائدهم انتقامًا لما كان يقترفون من مظالم فأعدموه بعد أن عذبوه أشنع تعذيب.

ورقصة السماح الحلبية المعروفة رقصة حلبية أصلية وقد انتشرت في كثير من المدن السورية، واللبنانية وتوقع أنغامها العذبة الشجية على كلمات الموشحات الأندلسية الرقيقة الجرس الجزلة المعاني.

ويبلغ عدد سكانها في الوقت الراهن حوالي مائتي ألف.

٥٥٩- حلمي بهجت بدوي - شارع - بقسم باب شرقي

هو حلمي بن محمد بهجت بن محمد بدوي عميد أسرة بدوي بالإسكندرية، وقد ولد حلمي بالإسكندرية عام ١٣٢٢هـ (١٩٠٤م) وتلقى تعليمه الابتدائي بمدرسة الحقوق بالقاهرة، وحصل على إجازة الحقوق عام ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م)، وسافر في ذلك العام نفسه إلى باريس في بعثة تعليمية، وعاد إلى الوطن خلال عام ١٣٤٨هـ (١٩٢٩م) بعد أن حصل على الدكتوراة، وعين عقب عودته مدرسًا بكلية الحقوق بجامعة القاهرة بقسم القانون المدني، وفي تلك الفترة كتب أبحاثًا قانونية بمجلة القانون والاقتصاد، ثم نقل من الجامعة إلى إدارة قضايا الحكومة، وعين بعد ذلك مديرًا لقسم قضايا بنك التسليف العقاري، وتولى منصب القاضي بالمحاكم المختلطة، وأثناء عمله بهذه المحاكم ألف الجزء الأول من كتابه القانوني «أصول الالتزامات» وهو خير ما أخرج في القانون المدني، وقد أهدى هذا الكتاب «إلى كل من أحب العلم لوجه الله» وحصل على الجائزة الأولى من أجل هذا المؤلف القانوني القيم عام ١٣٦٨هـ (١٩٤٨م)، وكان قد أتم تأليفه.

وعقب إلغاء المحاكم المختلطة عين مستشارًا بالمحاكم الوطنية، ثم مستشارًا لمجلس الدولة فوكيلاً للبنك العقاري، وظل يشغل هذا المنصب إلى أن اختير وزيرًا للتجارة والصناعة عام ١٣٧٢هـ (١٩٥٢م)، وكان قد أصيب بجلطة قلبية في ٥ من ديسمبر عام ١٩٥١م (١٣٧١هـ) لكنه لم يعتزل العمل على الرغم من نصح وتوصيات الأطباء، وعلى الرغم من مرض السكر الذي كان يهد قواه ويؤثر على صحته العامة، ويقلق راحته الجسمانية منذ عام ١٣٦٨هـ (١٩٤٨م)، وخلال عمله بهذه المناصب مثل مصر في مؤتمرات عديدة منها مؤتمر لندن الاقتصادي الذي عقد عام ١٩٣٣م (١٣٥٢هـ) واشترك مرات عديدة في وفود مصر إلى هيئة الأمم المتحدة وترأس وفدها مرة، ومن أعماله السياسية أيضًا اشتراكه عام ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م) في مؤتمر مونترو الخاص بإلغاء الامتيازات الأجنبية في مصر، وقد أسهم بجهود مشكورة في معاونة عمه المرحوم الدكتور عبد الحميد بدوي (انظر هذه المادة) في كل ما يتعلق بالشؤون القانونية المتعلقة بهذا المؤتمر، وأسهم أيضًا بأعماله القانونية في مؤتمر وضع ميثاق الأمم المتحدة الذي عقد عام ١٣٦٦هـ (١٩٤٦م) وذلك إلى جانب عمه الدكتور عبد الحميد بدوي، وقد تولى رياسة وفد مصر في هيئة الأمم المتحدة خلال عام ١٣٧٣هـ (١٩٥٣م).

وعقب تأميم قناة السويس وإعادتها إلى أصحابها الشرعيين في ٢٦ من يوليو عام ١٩٥٦م (١٣٧٦هـ) أسندت إليه رئاسة هيئة القناة للإفادة من خبراته وكفاءته فظل يبذل قصارى الجهد في إدارتها مضحيًا بما تبقى له من قوة صحية كانت تذوب كشمعة في نهاية اشتعالها، وكان ذا قلم سيال بليغ الأسلوب والعبارة، وتناول فيما كتب ألوانًا شتى من فنون

المعرفة القانونية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والشؤون الإدارية العامة، وكان متمكنًا من الترجمة ينقل في أمانة وحذق كل ما تعرض له من موضوعات فرنسية أو إنجليزية إلى اللغة العربية الفصحى، فقد كان يجيد الفرنسية كأحد أبنائها، وتعلم الإنجليزية، وأتم إتقانها وإجادة أسلوبها عام ١٣٦٥هـ (١٩٤٥م) ونظم الشعر في السابعة عشرة من عمره، وبسبب تفرغه للشؤون القانونية والإدارية لم يستطع الإكثار من نظم القصائد وفي الأبيات الآتية نموذج لشاعريته وهي أبيات من قصيدة عنوانها: «إن جنتي الماضي»:

ابْعَثِ الماضي أعِشْهُ من جديدْ
ابْعَثِ الماضي أعشْ في جنتي

هاتِ ما كان فما كان أُريدْ
ما الغدُ المجهولُ بالأمنيةِ

لا تمنّني بأشتاتِ الوعود
لا تحوِّلْ وِجْهَتي عن قِبْلتي

قِبْلَتي الماضي وأيامٌ تعودْ
أنتشي منها كماضي نشوتي

ما غَدِي عَهْدي ولا أَمْسي يعود
سوفَ أقْضي ومعي أمنيَّتي

وفي صباح يوم ٤ مارس عام ١٩٥٧م (١٣٧٧ هـ) توفي حلمي بهجت بدوي بالسكتة القلبية في سيارته بالغًا من العمر ٥٣ عامًا، وأقيم حفل تأبينه في ١٤ من إبريل من العام نفسه فرثاه رجال القانون والشعراء وقد جاء في هذا الرثاء أنه كان من الرعيل الأول من بناة الجامعة المصرية، ومن أوائل الذين بنوا ميثاق الأمم المتحدة ومن أوائل من دونوا فكرًا قانونيًّا في مصر وفي مقدمة الذين خاضوا ميدان الاقتصاد المصري، كما كان من واضعي القانون المدني بعد انتقال التقنين من أيدي الأجانب إلى المصريين، وكان أستاذًا يحبه الطلاب، وكان أديبًا يحول القانون إلى ما يشبه الشعر وكان من وزراء الثورة، وعلى رأس الهيئة المصرية لإدارة قناة السويس حين أممت.

٥٦٠- حمزة - شارع - بقسم الجمرك

٥٦١- حمزة - شارع - بقسم اللبان

لقد اتصلت بالقدامى من سكان الشارع بقسم الجمرك فدلوني على أحد أفراد أسرة الشيخ حمزة، وقالوا إن الشارع سمِّي باسمه، ولكن اسم حمزة مجردًا من الألقاب الأخرى يدعو إلى الاعتقاد بأن الشارع يحمل اسم حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله عليه الصلاة والسلام، ومن ثمَّ وجدت من الملائم ذكر سيرة عم الرسول وسيرة الشيخ حمزة تعميمًا للفائدة، ومحاولة الدلالة على أن شارع الجمرك للشيخ حمزة وشارع اللبان لحمزة عم النبي.

١) **حمزة بن عبد المطلب:** هو عم النبي الكريم محمد بن عبد الله، وهو أخوه في الرضاعة وقد ذكر النبي ذلك عندما عرض علي بن أبي طالب على الرسول أن يتزوج بنت حمزة، فأجابه: «إنها ابنة أخي من الرضاعة، وإنه يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب»، وحمزة من الأبطال الذين يعتز الإسلام بهم وببطولتهم الفذة في نصرة دين الله القيم، ولو قدرت له الحياة المديدة لكان له شأن يرقى به إلى أرفع درجات الكفاح

الإسلامي الطويل، ولكن شاء الله أن يفارق الحياة في مطلع الدعوة الإسلامية بعد أن جاهد في نصرتها جهادًا لم يبلغ مقامه أحد.

وتقول بعض المصادر التاريخية إنه اعتنق الإسلام بعد نزول الوحي على رسول الله بعامين ثم هاجر معه إلى المدينة وعاش فيها، وكان أقرب الناس إلى النبي وأحبهم إلى قلبه وذلك لتفانيه في الإخلاص إلى الدعوة الإسلامية بكل ما في وجدانه من إيمان صادق، وقد نشأ مع الرسول وهما في سن واحدة أومتقاربة وقد اختلف الرواة في تحديد الفارق بينهما، فقال البعض إن هذا الفارق كان عامين وقيل أربعة وقيل إنهما في سن واحدة، والثابت تاريخًا هو أن «ثويبة» مولاة أبي لهب أرضعتهما بلبن ابنها مسروح، ومن ثمَّ كانا أخوين من الرضاعة كما تقدم القول، واستدل بعض الرواة بذلك على تساويهما في العمر، غير أن آخرين ردوا على ذلك الاستنتاج بأن الرضاعة لا تؤدي حتمًا إلى التساوي في السن إذ قد يرضع النبي من «ثويبة» ويكون أكبر من حمزة، وعلى كل حال لا يستقيم الوضع بالنسبة إلى القائلين بأن الفرق بينهما أربعة أعوام.

وكانت بين حمزة والنبي قربى أخرى، فأم حمزة هي هالة بنت أُهيب بن عبد مناف بن زهرة وأم رسول الله هي آمنة بنت وهب بن عبد مناف فهما ابنتا عم.

ولم يشذ عن الدخول في الإسلام من إخوة حمزة الذين يقال إنهم أحد عشر إلا أبو لهب وكان حمزة واحدًا من الأربعة الذين أدركوا الإسلام.

ويعدُّ اعتناقه الدين الإسلامي فتحًا عظيمًا إذ قوي به المسلمون لَمَا كان عليه من بسالة وحمية وإقدام ورأي صائب وإخلاص، وكان يوصف بأنه «أعز فتى في قريش وأشدهم شكيمة»، أما السبب في إسلامه الذي يقول بعض الرواة إنه حدث في السنة السادسة بعد دخول النبي دار الأرقم، فيرجع إلى أن أبا جهل مر بالنبي عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره، ولم يرد عليه النبي فانصرف إلى ناد من قريش عند الكعبة، وكانت إحدى موالي عبد الله بن جدعان تسمع من مسكنها ما حدث وتراه، فلما عاد من الصيد وسلم كعادته على المجتمعين في النادي بعد الطواف بالكعبة أخبرته المولاة بما حدث للنبي من شتم وإهانة دون أن يرد، فأسرع حمزة إلى أبي لهب وضربه بقوسه فشجه شجة منكرة وقال لأبي جهل: أتشتمه وأنا على دينه، فقام رجال من بني مخزوم لنصرة أبي جهل فقال لهم أبو جهل: دعوه فإني سببت ابن أخيه سبًّا قبيحًا. وهكذا أعلن حمزة إسلامه وعزَّ بإسلامه النبي وكف أبو جهل وأمثاله من الكفار عن أذاه، وكان حمزة شاعرًا فقال حين أسلم:

حَمَدْتُ الله حِينَ هَدَى فُؤَادِي
إِلَى الإِسْلاَمِ وَالدِّينِ الحَنِيفِ

إِذَا تُلِيَتْ رَسَائِلُهُ عَلَيْنَا
تَحَدَّرَ دَمْعُ ذِي اللُّبِ الحَصِيفِ

فَلاَ وَاللهِ نُسْلِمُهُ لِقَوْمٍ
وَلَمَّا نَقْضِ مِنْهُمْ بِالسِيُوفِ

ومنذ إسلامه وهب حمزة نفسه لنصرة الإسلام والمسلمين، وعندما استقر المقام لرسول الله في المدينة وبدأ النظام الإسلامي يستقر في النفوس تربع حمزة على مكانة الرفعة ثم أصبح القائد الأول في الإسلام إذ عقد له النبي لواءً أبيض وأمَّرهُ على سرية من المسلمين ليتقدم بهم إلى سيف البحر على طريق قوافل قريش وهكذا كانت هذه السرية أول سرية محاربة في الإسلام.

وفي موقعة بدر حين طلب المشركون مبارزة الأكفاء من أنصار النبي، قدم إليهم: عبيدة بن الحارث بن المطلب، وحمزة ابن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، فقضى حمزة وعليٌّ على خصميهما، وقتل عبيدة خصمه بعد أن بُترت ساقه ثمَّ مات شهيدًا وهو محمول على كتفي حمزة وعليّ عند العودة به إلى المدينة، وقد لقِّب حمزة عقب هذه الموقعة «بأسد الله وأسد رسوله»، وكان خصم حمزة في الموقعة عتبة بن ربيعة، وخصم علي بن أبي طالب الوليد بن عتبة، وخصم عبيدة شيبة أخا عتبة، فأخذت نار الثأر تغلي في صدر هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان (انظر هذه المادة) إذ عز عليها مقتل أبيها وعمها وأخيها علاوة على قتل ولدها حنظلة في أثناء المعركة بيد علي بن أبي طالب، فدبرت مع «وحشي» قتل النبي أو حمزة أو علي في مقابلة جُعل كبير يمنحه، ويظهر أن الإغراء بالمكافأة كان من أكثر من واحد، وتربص وحشي لحمزة خلف صخرة ولما رآه سدد حربته إلى خاصرته فخرجت من مثانته فاستشهد في الحال.

وأقبل وحشي على هند يخبرها بما فعل فأسرعت إلى جثة الشهيد حمزة فجدعت أنفه وقطعت أذنيه وأخذت قطعة من كبده فمضغتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها، وحين رأى النبي الجثة وقد مُثِّل بها بكى في حرارة وقال: «لن أصاب بمثلك، ما وقفت موقفًا قط أغيظ عليَّ من هذا الموقف»، وقد بكته فاطمة الزهراء وناحت عليه وكانت تزور قبره بين الفينة والفينة.

وكانت فاجعة المسلمين في حمزة مبعث شعر كثير وقد رثته شقيقته صفية بنت عبد المطلب بهذه الأبيات:

وَقَالَ الخَبِيرَانِ: حَمْزَةُ قَدْ ثَوَى
وَزِيرُ رَسُولِ الله خَيْرُ وَزِيرِ

فَيَا لَيْتَ شِلْوِي عِنْدَ ذَاكَ وَأَعْظمي
لَدَى أَضْبُعٍ تَعْتَادُنِي وَنُسُور

أَقُولُ وَقَدْ أَعْلَى النَّعِيُّ عَشِيرَتِي
جَزَى الله خيرًا مِنْ أَخٍ وَنَصِيرِ

فَوَ الله مَا أَنْسَاكَ ما هَبَّت الصَبَا
بُكاءً وحزنًا محضري ومسيري

عَلَى أَسَدِ اللهِ الَّذِي كَانَ مِدْرَعًا
يَذُودُ عَنِ الإِسْلاَمِ كُلَّ كَفُورِ

وعندما قتل الشهيد حمزة كان عمره بين السابعة والخمسين والتاسعة والخمسين.

ويقول الأب «إتش لامنس H. Lammens» المستشرق الحاقد دائمًا على الإسلام يقول هذا الكذَّاب الحقود في ترجمته لحياة «حمزة بن عبد المطلب» بدائرة المعارف الإسلامية، يقول

افتئاتًا وبهتانًا: «إن حمزة هاجر مع النبي إلى المدينة، وعاش فيها أول الأمر عيشة المغمور البائس حتى لقد بلغ من أمره أن خرج عن وعيه في يوم من الأيام تحت تأثير الإفراط في الشراب وحمل بسيفه على جمال لعلي بن أبي طالب، وأن حمزة وصف فيما عدا ذلك بأنه جندي باسل وأكسبته هذه الصفة لقب أسد الله ورسوله وانتقل هذا اللقب إلى الشعر.

واستعان به النبي فأنفذه على رأس سرية ليقف في سبيل قافلة قرشية وقد لازمته صفة الشجاعة في غزوة بدر بصفة خاصة، فكان هو وعلي بن أبي طالب من أصحاب القدح المعلى فيها، كما اشترك حمزة في حصار عشيرة بني قينقاع اليهودية في المدينة، ولقي مصرعه في غزوة أُحد بعد أن أبدى فيها كثيرًا من ضروب الشجاعة الخارقة، ذلك أن العبد «وحشي» طعنه بحربة بقرت صدره ثم انتزع قلبه ولمَّا يزل ينبض وسلمه إلى هند أم معاوية فلاكته بأسنانها»، وهذه الرواية هي الرواية الوحيدة الضعيفة السند لمناهضة الأُمويين.

وفي هذا المقال المعيب في أخلاق حمزة الذي أجمع المؤرخون على نبل أخلاقه وكرمها وعلو نفسه، فلم يذكر أحد من المؤرخين الموثوق في صحة رواياتهم أنه عاش خاملاً لدى هجرته مع النبي إلى المدينة ولم يتهمه واحد منهم بالرعونة وإدمان الخمر كما يصفه هذا المستشرق الحقود الذي يدعي أن مقتل حمزة كان في موقعة أُحد على حين أن أشهر المؤرخين يؤكدون أن مقتله كان في موقعة بدر وأن «وحشي» رماه بحربته في خاصرته فخرجت من مثانته على حين يقول «لامنس»: إن الحربة بقرت صدره وأن «وحشي» هو الذي انتزع قلبه وسلمه إلى هند مع أن هند نفسها هي التي جدعت أنفه وقطعت أذنيه وأخذت قطعة من كبده ومضغتها وليس قطعة من قلبه،

وأما عن صدق رواية التمثيل بجثة حمزة فإن إجماع المصادر التاريخية يؤكد صحتها ويدل على وقوعها بالفعل.

وما من شك في أن الشارع بقسم اللبان هو الذي يحمل اسم حمزة بن عبد المطلب المدونة ترجمته قبل، أما الشارع بقسم الجمرك فيحمل اسم حمزة آخر وفيما يلي ترجمة حياته.

٢) **الشيخ حسن كريم شمس الدين حمزة:** ولد بالإسكندرية وتلقى دراسته الأولية بأحد كتاتيب المدينة، ثم جاور بالأزهر إلى أن حصل على شهادة العالمية، ثم عين قاضيًا وارتقى بعد ذلك فشغل منصب رئيس المحكمة الشرعية بالإسكندرية، وعلاوة على العلوم الدينية التي تلقاها أكب على تعلم اللغة الفرنسية حتى أتقنها، وأصل أسرته من تونس، وكان منزله خلف مسجد سيدي ياقوت (انظر هذه المادة)، وقد ظلَّ زمنًا طويلاً يتقاضى مرتبًا شهريًّا كبيرًا من دائرة راتب باشا (انظر هذه المادة) كمستشار شرعي للأسرة وأوقافها، وهو الذي اختار أحمد يحيى لشغل وظيفة وكيل دائرة راتب باشا وكان ذلك منشأ ثروته وثروة أولاده من بعده، وقد طُلب منه ذات يوم الحكم لصالح أحد أفراد الأسرة المالكة السابقة فأصدر الحكم في غير صالحه وكان جزاؤه النقل إلى محكمة إسنا، ولكن سرعان ما أعيد إلى وظيفته بالإسكندرية وكان ميلاده خلال عام ١٢٢٠هـ (١٨٠٥م). ومن أعماله الثقافية كتاب بعنوان «قضايا وفتاوى وأحكام شرعية» وكتاب بعنوان «سماحة الإسلام» هذا علاوة على بحث في توحيد المذاهب الأربعة. وكان برًّا بجيرانه مشهودًا له بفعل الخير، ووافته المنية عام ١٣١٧هـ (١٨٩٩م) بالغًا من العمر حوالي ٩٤ عامًا.

٥٦٢- حَمّاد - شارع - بقسم محرم بك

قد يكون اسم حماد الذي أطلق على هذا الشارع لأحد سكانه، وأحد ملاك عقاراته، ومن ثم فليس من السهل الاستدلال على أسرته، أو معرفة سيرة حياته لخلو الاسم من الألقاب التي تميزه عن أي حماد آخر بالمدينة غير أنه من المفيد للباحث والقارئ أن يقف على سير من سجل التاريخ تراجم حياتهم، وكانوا يحملون اسم حماد، وفيما يلي المعلومات التي تدل على كل منهم حسب ترتيب وجودهم في الحياة:

١) **أبو القاسم حماد بن أبي ليلى سابور، وقيل ميسرة ابن المبارك (المعروف بالراوية)**: وهو لقب أطلق عليه لأنه كان راوية الشعر ولاسيما شعر القدماء، وكان من أعلم الناس بأيام العرب وأشعارهم وأخبارهم وأنسابهم ولغاتهم ولهجاتهم، وذاع صيته لعلمه الواسع النطاق بأشعار العرب في الجاهلية والإسلام وبأيام العرب المشهورة.

وتقول بعض الروايات إنه ولد بمدينة الكوفة عام ٧٥هـ (٦٩٤م)، وتقول بعض الروايات الأخرى إنه ولد عام ٩٥هـ (٧١٣م) ولاسيما فيما رواه ابن خلكان.

ويختلف الرواة في اسم أبيه فمنهم من يقول: إنه هرمز ومنهم من يقول، إنه ميسرة أو سابور، وكنيته المتفق عليها هي (أبو ليلى) وكان حماد من سبي الديلم وقد كشف هو نفسه عن أصله في حديث من أحاديثه.

واشتهر بأنه يستطيع أن يميز من فوره بين القديم والحديث من الشعر، وكان الحكم على قيمة الشعر ومقدرة الشعراء تقديرًا كبيرًا، وكان في وسعه الكشف عن السرقات الاستعارات والاقتباسات الشعرية في سرعة ويسر، ولكنه لم يكن على جانب عظيم من الأمانة في كل ما كان يرويه من شعر، ولاسيما أنه استغل سعة اطلاعه ومواهبه وذاكرته الواعية الوافدة في نسب بعض ما نظم من شعر إلى الشعراء القدامى وقد أخذ عليه هذا العيب المفضل الضبي (انظر مادة الضبي)، ولم يخف عيبه هذا على المهدي الخليفة العباسي (انظر مادة المهدي العباسي).

وأهم مآثره الفكرية جمعه المعلقات السبع الطوال، وكان أحد ثلاثة يقال لهم الحمادون، وهو حماد الراوية، حماد عجرد (وستأتي ترجمته بعد) وحماد بن الزبرقان، وكان يتعاشرون ويتنادمون واتهم كل منهم بالزندقة، وكان خلفاء بني أمية يقدمونه ويؤثرونه ويستضيفونه فيقعد عليهم وينال منهم جزيل العطاء ويسألونه عن أيام العرب وعلومهم.

وسأله الوليد بن يزيد الخليفة الأموي عن سبب تسميته بالراوية فقال إنه يروي لكل شاعر يعرفه الوليد ولكل شعر لم يسمع به، وإنه يميز بين الشعر القديم والشعر الحديث فلما سأله عن مقدار ما يحفظ من الشعر قال الكثير.

ويغالي أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني فيذكر أن حمادًا أخذ ينشد شعرًا للوليد حتى ضجر، ثم وكل به من استمر في امتحانه فأنشده ألفين وتسعمائة قصيدة من الشعر الجاهلي، وذكر الحريري صاحب المقامات (انظر مادة الحريري) في كتابه «درة الغواص» مثل هذا القول وذكر أن حمادًا قال عن نفسه إنه انقطع إلى يزيد بن عبد الملك بن مراون في خلافته.

وبعد وفاته خاف على نفسه من الخليفة الأموي هشام فلزم بيته عامًا كاملاً، ثم خرج لصلاة الجمعة فقبض عليه شرطيان، وعند والي العراق الأمير يوسف بن عمر الثقفي أبلغ أن الخليفة هشام يطلب سفره إلى دمشق، فسافر ودخل على الخليفة في داره المفروشة بالرخام وبين كل رخامتين قضيب من الذهب وقد جلس هشام على طنفة (سجادة) حمراء وعليه ثياب من الخز الأحمر، وقد تضمخ بالمسك والعنبر، ووقفت أمامه جاريتان غاية في الجمال، فقال له الخليفة أنه طلبه بسبب بيت من الشعر خطر بباله ولا يعرف قائله وهو:

وَدَعُوا بالصَبوحِ يومًا فجاءتْ
قَيْنَةً في يمينها إبريقُ

فقال حماد إن هذا البيت لعدي بن زيد (انظر هذه المادة) وهو من قصيدته التي يقول فيها:

بَكَّرَ العاذِلونَ في وضيح الصُبْحِ
يقولونَ لي أمَا تَسْتفيقُ

ويلومونَ فيكِ يا ابنةَ عبد الله
والقلبُ عندكمْ مَوْهوقُ

لستُ أدري إذْ أكثَروا العَذْلَ فيها
أعَدُوٌّ يلومَني أم صديقُ

ودَعَوا بالصَبوح يومًا فجاءت
قَيْنةٌ في يمينها إبريقُ

قَدَّمَتْهُ على عُقارٍ كَعَيْنِ الدِّ
يكِ صفَّى سُلافَها الراووقُ

مُرَّةٌ قبلَ مَزْجها فإذا ما
مُزِجَتْ لذَّ طعمُها مَنْ يَذوقُ

وطفا فوْقها فقاقيعُ كالْيا
قوتِ حُمْرٍ يزينُها التصفيقُ

ثم كان المِزاجُ ماء سحابٍ
لا صرى آجنٌ ولا مَطْروقِ

غير أن هذه الرواية لم تثبت صحتها لدى الثقات من المؤرخين، وإن كانت منقولة عن حماد نفسه، ويقول المؤرخون: إنها موضع شك بالنظر إلى الخطأ في تسلسل التواريخ، ولأنها قيلت من ناحية أخرى من ترجمة حياة حماد الراوية على أنها حدثت في عهد الوليد الثاني الذي كان يستمتع بإنشاد حماد للشعر، والذي وهبه الجاريتين بما عليهما من ثياب وحلي ثمينة ثم أعد له منزلاً لسكناه فوجد الجاريتين فيه ومعهما صلة سخية قدرها مائة ألف درهم، وهو مبلغ فيه من المبالغة ما يلفت الإدراك.

ويقول ابن خلكان أن حكاية حماد مع هشام لا يمكن أن تكون قد حدثت بالفعل، فيوسف بن عمر الثقفي لم يكن واليًا على العراق في خلافة هشام كما ذكر الحريري في كتابه «درة الغواص».

ولم يصب حماد كثيرًا من الخير في عهد العباسيين فقد كان أحد الذين رحلوا عن بغداد في عهد الخليفة المنصور (انظر مادة المنصور) طلبًا للرزق، ويقال: إن جعفرًا خليفة المنصور أساء معاملته عندما أنشده شعرًا لم يرقه.

وقد اختلف الرواة في تاريخ وفاته فقال ابن خلكان في كتابه (وفيات الأعيان) أنها حدثت في عام ١٥٥هـ (٧٧١م) أو في عهد الخليفة المهدي العباسي الذي تولى الخلافة عام ١٥٨هـ (٧٧٤م) وتوفي عام ١٦٩هـ (٧٨٥م)، بينما يذكر أبو الفرج الأصفهاني في كتابه «الأغاني» إن حمادًا أدرك عهد الخليفة هارون الرشيد الذي ظل خليفة حتى عام ١٩٤هـ (٨٠٩م)، وقد رثا حمادًا الراوية أبو يحيى محمد بن كناسة فقال:

لو كان يُنْجي من الرَدَى حَذَرُ
نَجَّاكَ مما أصابَكَ الحذرُ

يرْحَمَكَ الله من أخي ثقةٍ
لم يَكُ في صَفْوِ وِدِّهِ كَدَرُ

فهكذا يفسِدُ الزمان ويفنَى
العلم فيه ويدرسُ الأثرُ

ويقول رواة حياته إنه كان قليل العلم بقواعد اللغة العربية، وأنه حفظ القرآن الكريم من المصحف فصحف في نيف وثلاثين حرفًا.

٢) أبو عمرو، وقيل أبو يحيي حماد بن عمر بن يونس ابن كليب الكوفي: وكان شاعرًا مشهورًا وهو من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، ولكنه اشتهر في عهد العباسيين، وقد نادم قبل ذلك الوليد بن يزيد الخليفة الأموي، ثم رحل إلى بغداد في عهد الخليفة المهدي العباسي.

وذكر علي بن الجعد أنه قدم على بغداد ثلاثة هم: حماد عجرد، ومطيع بن إياس الكناني، ويحيى بن زياد فكانوا لا يطاقون خبثًا ومجانة.

وكان حماد عجرد راوية فحلاً، وشاعرًا مجيدًا وبينه وبين بشار بن برد (انظر مادة بشار) أهاج فاحشة، وكان بشار بان برد يضج منه فقال فيه:

إذا جئته في الحيِّ أغلقَ بابَهُ
فلم تَلْقَهُ إلا وأنتَ كمينُ

فقلْ لأبي يحيى متى تَبْلُغَ العُلا
وفي كلِّ معروفٍ عليك يمينُ

ويقال إنه كان يبري النبال ويقال إن أباه هو الذي كان يبري النبال، أما هو فلم تكن له حرفة أو شيء من الصناعة، وكان ماجنًا خليعًا متهمًا في دينه بالزندقة، وحدثت بينه وبين أحد كبار العلماء مودة ثم تقاطعا فبلغ حمادًا أنه ينتقده فكتب إليه هذه الأبيات:

إنْ كان نسْكِكَ لا يتمُ
بغير شَتْمي وانتقاصي

فاقعُدْ وقُمْ بي كيفَ شِئتَ
مع الأداني والأقاصي

فلطالما زكَّيْتني

وأنا المصرُّ على المعاصي

أيام نأخُذُها ونعطي

في أباريقَ الرَّصاصِ

ومن شعره الجزل العذب الجرس قوله:

فأقْسَمْتُ لو أصبحتَ في قبضةِ الهوى

لأقصرتَ عن لَوْمي وأطْنَبْتَ في عُذْري

ولكنْ بلائي مِنكَ أنك ناصِحي

وأنكَ لا تدري بأنكَ لا تدري

ويرجع السبب في تلقيبه بعجرد إلى أن أعرابيًّا مرَّ به وهو غلام يلعب مع الصبية عريانًا في يوم شديد البرد فقال له: لقد تعجردت يا غلام والمتعجرد هو المتعري.

وتوفي في سنة ١٦١هـ (٧٧٧م)، وأصله في مدينة واسط، ويقال إن محمد بن سليمان بن علي عامل البصرة قتله بظاهر مدينة الكوفة بعد أن أثبت عليه الزندقة، ويقول رواة آخرون إنه خرج من الأهواز يريد البصرة فمات في طريقه، فدفن على تل هناك، ولما قتل الخليفة المهدي العباسي بشار ابن برد بالبطيحة حمل جثمانه، ودفن إلى جانب قبر حماد فمر على قبرهما أبو هشام الباهلي فكتب عليهما:

قد تَبَع الأعمى قَفَا عَجْرَدٍ

فأصبحا جارَيْنِ في الدارِ

صارا جميعًا في يديْ مالكٍ

في النارِ والكافرُ في النارِ

قالت بقاعُ الأرضِ لا مَرْحبًا

بقربِ حمَّادٍ وبشَّارِ

٣) حماد بن بلكين بن الأمير زيري بن مناد: وهو زعيم صنهاجي، جزائري حكم المغرب العربي في ظل الخليفة الفاطمي المعز لدين الله (انظر مادة المعز)، وكان أخوه المنصور قد استعمله في الحكم عقب رحيل الفاطميين إلى مصر، وتأسيس دولتهم فيها، فعينه عاملاً له على أشير عام ٣٧٧هـ (٩٨٧م)، وقد أبدى حماد بسالة وشجاعة في تأييد دعوة قبيلة صنهاجة العظيمة عدة سنوات واستمروا على قتال قبيلة زناتة، وكانوا قد غزو المغرب الأوسط (الجزائر واستعان في حروبه بأخيه «يطوفت».

وفي عام ٣٩١هـ (١٠٠٠م) أخمد فتنة قام بها أعمامه فحاصرهم، وأجبرهم على الخضوع، ثم هزم الزناتية فتم له بسط السيادة على المغرب الأوسط بأثره وفي عام ٣٩٧هـ (١٠٠٧م) شيد لنفسه حصنًا جبليًّا منيعًا وقويًّا، أطلق عليه المؤرخون اسم قلعة بني حماد وقد اتخذه حماد حصنًا، ومعقلاً يلجأ إليه إذا داهمه العدو على غرة.

ولكن حدث بعد ذلك بقليل أن الأمير باديس أبا مناد خليفة المنصور الزيري أراد أن يبطل ولاية حماد على ناحيتي «تجيس وقسطنطينة» ليقيم ابنه المعز بن باديس (انظر مادة المعز) واليًا عليهما، فخرج حماد عن طاعة ابن أخيه باديس، وأبطل حلفه مع الفاطميين وهذا الحلف الذي كان قد عقده

معهم قبل رحيله من المغرب إلى مصر، ثم أعلن أنه تابع للعباسيين، وعندها خرج باديس من تونس عمه، وحاصره في القلعة، ولكن باديس بن المنصور مات في أثناء الحصار عام ٤٠٦هـ (١٠١٦م)، واستمرت الحرب بين حماد والمعز بن باديس، وانتهت بعقد صلح يقضي بانقسام مملكة بني زيري الصنهاجيين خلفاء الفاطميين في المغرب العربي، فخص حمادًا الجزء الغربي من الدولة الزيرية، وكان ذلك خلال عام ٤٠٨هـ (١٠١٧م) ومن ثم بادر هذا الأمير الصنهاجي إلى تأسيس دولة بني حماد في ذلك العام نفسه في ظل الخليفة المعز لدين الفاطمي في مصر وسرعان ما شمل سلطان هذه الدولة الناشئة جزء القطر الجزائري الممتد من البحر الأبيض المتوسط في الشمال إلى الزيبان في جنوب مدينة بسكرة ومن جبال الحضنة شرقًا إلى مدينة تاهرت (تيارث حاليًّا) غربًا، ولم تكن أيدي التخريب والتدمير الهلالية قد امتدت إلى مملكة بني حماد الذين كانوا على شيء من الحصانة السياسية وقلعة بن حماد المنيعة، وكانت تقع بجهة برج بوعريج في جنوب ميناء بجاية (بوجي)، وكانت حاضرة ملكهم، وقد قدر لهذه القلعة أن تغدو من أكثر مدن شمال إفريقيا العريق ازدهارًا وعمرانًا، وظلت كذلك ردحًا من الزمن.

وأمراء بني حماد هم القائد بن حماد، وبلكين بن محمد ابن حماد، والناصر بن علناس الحمادي، والمنصور بن الناصر، والعزيز بن المنصور، ويحيى بن العزيز، وقد دام حكمهم من عام ٤٠٥ إلى ٥٧٤هـ (١٠١٤ – ١١٥٢م) أي قرابة قرن ونصف قرن من الزمن.

وكان انقسام الدولة الزيرية على يد مؤسس دولة بني حماد ابن بلكين نكبة على الكيان المغربي العربي في شمال إفريقيا، فلو أن الدولة الزيرية الصنهاجية ظلت متماسكة الأطراف موحدة الأهداف؛ لتغير وجه التاريخ في هذا الجزء الكبير من الوطن العربي، إذ كان من المستحيل على الطامعين في البلاد المغربية أن يفكروا في غزوها لتكون نهبة للدولة العثمانية، ثم لفرنسا في آخر الأمر، وللبثت دول المغرب العربي الحالية قوية الجانب ذات كيان سياسي متين عزيزة بمواردها الحالية الهائلة من زراعية وحيوانية ومعدنية، يخشى بأسها المستعمرون والطامعون، ولا يحاولون الاستيلاء عليها لإشباع جشعهم الرأسمالي الممقوت.

٥٦٣– الحمراء – شارع – بقسم محرم بك

هو القصر ذو الشهرة العالمية التي تنم عن أصالة الفن الإسلامي وجمال تنسيقه، وروعة بهائه، وينسب أول تشييده في «غرناطة Granada» عاصمة المملكة العربية في الأندلس، والتي تقع جنوب إسبانيا الغربي، وينسب مبدأ تشييده إلى أبي الحجاج يوسف الأول، الذي حكم في الفترة المنتهية في عام ٧٥٥هـ (١٣٥٤م)، وقد أقام فيه أول ما أقام: البرج المعروف بقمارش، وقصر متشوكة، والحمام الملكي، وباب التشريفة، وبرج الأسيرة، ومصلى البرطل، ولما قتل الحجاج أكمل ابنه محمد الخامس الغني بالله تشييد القصر بما فيه القصور السلطانية التي تحيط ببهوي الرياح والسباع، وينسب إلى الحجاج يوسف الأول بناء السور الحصين الذي يحيط بمرتفع الحمراء بأبراجه، وبوابته العظيمة المعروفة بباب الشريفة، وقد تم بناء هذه الباب سنة ٧٤٩هـ (١٣٤٨م)، وذلك وفاقًا للمدون في النقش الكتابي وقد أطلق عليه اسم باب العدل نسبة إلى صورة كف مفتوحة ومفتاح، وترمز الكف إلى العدالة والمفتاح إلى مدخل الحمراء، ومصلى

البرطل عبارة عن مظلة فوق خمسة عقود، ويطل البرطل على بركة تزودها نافورة بأسفل العقد الأوسط بالمياه. ووراء البرطل (المظلة) قاعة مربعة تشبه البرج يرتقى منها إلى طابق علوي، ويغطي الجدران التي تعلو عقود بائكة المظلة شبكات زخرفية بهيجة، ويحيط بالجدران إزار من الزليخ كثير الرسوم الهندسية الملونة، وتقوم عقود البائكة على أربعة دعائم من الآجر، وينسب إلى أبي الحجاج يوسف كذلك بناء برج الأسيرة ويضم قصرًا صغيرًا يتألف من قاعة تكتنفها شرفات ومخادع جانبية، ويتوسط البرج بهو داخلي صغير يحيط به من جهاته الأربعة مجنبات، وزخرفة قاعات هذا البرج من أجمل ما شيده أبو الحجاج يوسف الأول، وبرج الشرفات يقع بين مصلى البرطل (المظلة) وبرج الأسيرة، وإلى يسار برج السيدات مخدع الملكة، ويضم البرج قصرًا صغيرًا يتصل بقصر الريحان، وبرج قمارش، أما قصر السلطان نفسه فهو رائع، ويتوسط بهو الريحان، وفي شماله برج قمارش، بداخله قاعة السفراء. وزخارف هذه القصر تجل عن الوصف.

أما محمد الخامس الغني بالله فقد توج أعمال القصر المعمارية بأروع مجموعة من قصور الحمراء، وهي مجموعة قصر السباع الذي يعد معجزة الفن المعماري في القرن الرابع عشر الميلادي، فقد أحيط البهو المركزي المعروف ببهو السباع بأربع بوائك، وتتوسطه نافورة تقوم على حوض استداري تحته اثنا عشر أسدًا تضخ المياه من أفواهها، وتقوم البوائك الأربعة على عمد رشيقة بعقود نصف دائرية يعلوها جدران مكسوة بالشيلات الزخرفية، وكتبت على جدران هذا القصر الفخم نقوش عربية منها «عز لمولانا السلطان أبي عبد الله الغني بالله»، كما كتب عليها أشعار لابن زمرك في مدح السلطان.

هذا هو وصف مقتضب لقصر الحمراء الذي مازال يقوم رمزًا للسؤدد والعز الذي تمتع به ملوك وأمراء الأندلس في العهد الإسلامي، كما يدل على أن الملك لا يمكن أن يدون إذا لم يحط بسياج من القوة والبأس تدفع عنه غائلة الأيام، وطمع الطامعين في امتلاكه وسبحان من بيده الملك، يعز من يشاء، ويذل من يشاء وهو على كل شيء قدير.

ولعل أصدق ما يوصف به هذه القصر المنيف هو أنه يمثل الذروة في المجد، والسؤدد والحضيض في حظ الدولة العربية بالأندلس، وإذا أخذ بقول بعض المؤرخين يكون أول مشيد لقصر الحمراء هو محمد الأول الغالب ابن الأحمر المتوفى عام ١٢٧٣م، والذي أكمله هو محمد الخامس الغني بالله أحد أحفاده الذي لجأ إليه عبد الرحمن بن خلدون عام ١٣٦١م (انظر مادة ابن خلدون) بعد تجريده من مناصبه في فاس، ولم يذكر ابن خلدون أي شيء عن قصر الحمراء في كتابه على الرغم من أنه اتخذ له مكتبًا في هذا القصر الخالد.

ويشهد قصر الحمراء بكثرة ما يضم من رسوم وتماثيل غاية في جمال الفن وروعته.

٥٦٤ – حمودة – عطفة – بقسم الجمرك

قد يكون هذا الاسم لأحد ملاك هذه العطفة أو أحد من كانوا يسكنون بها وقت أن شرعت بلدية الإسكندرية في تسمية الشوارع على غرار ما فعلت بالنسبة إلى كثير من شوارع المدينة وحاراتها وأزقتها، واسم حمودة هو تصغير «حمد» وهو اسم

شائع في الأوساط الريفية، وفي المدن على السواء بل وفي البلاد المغربية والعربية المختلفة.

غير أن التاريخ يسجل سيرة أحد علماء القطر التونسي هو:

الحاج حمودة بن عبد العزيز الذي كان مؤرخًا لامعًا في زمانه، وقد تبع علي بن الحسين إلى منفاه في الجزائر خلال عهد محمد علي بن محمد، وذلك في عام ١١٥٣هـ (١٧٤٠م)، وعندما عاد الأمير علي بن الحسين إلى تونس، وارتقى إلى الحكم أصبح الحاج حمودة كبير كتابه، وظل يمارس مهام وظيفته في عهد حمودة بك بن علي بن الحسين الذي تولى الحكم خلال المدة الواقعة بين عامي ١١٩٧ - ١٢٣٠هـ (١٧٨٢ - ١٨١٤م)، وكان حمودة بك تلميذًا للحاج حمودة.

وألف الحاج حمودة كتابًا أسماه: «كتاب الباشا» تناول فيه تاريخ الحفصيين بالإيجاز، ثم تناول بعد ذلك الحكم التركي في تونس وفضل الكلام عن عهد علي بك والحسين ابن علي.

وفي المسجد الجامع بتونس كانت ماتزال عدة نسخ من أصل هذا الكتاب الذي لم ينشر بعد، ولعل هذه النسخ ما تزال موجودة، أو طبعت لتفيد القراء.

ويتضمن الكتاب أيضًا فصلاً يتناول الحرب بين خير الدين برباروس الملقب «بعرُّوج» وأمراء تونس، وقد نشر هذا الفصل المستشرق «هوداس»، وترجم المستشرق «روسُّو Rousseau» قسمًا آخر يدور حول الحملة الفرنسية على تونس عام ١١٨٤هـ (١٧٧٠م)، ثم ترجم المستشرق «شربونو» قسمًا ثالثًا منه يدور حول الحملة التي جردها مراد بك على مدينة «قسنطينة» الواقعة في شرق القطر الجزائري.

ولا يعرف تاريخ ولا مكان مولده أو وفاته.

٥٦٥- الحميدي - حارة - بقسم كرموز

هو أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح الحميدي الأندلسي الحافظ المشهور (انظر مادة الحافظ)، أصله من مدينة قرطبة (انظر هذه المادة) من ربض الرصافة، وهو من أهل جزيرة مايورقة إحدى جزر أرخابيل البليار الواقع في شرق إسبانيا بالبحر الأبيض المتوسط، وقد ولد بهذه الجزيرة عام ٤٢٠هـ (١٠٢٩م) وروي عن أبي محمد علي بن حزم (انظر مادة ابن حزم) واختص به، وأخذ عنه العلم، واشتهر بصحبته، كما أخذ عن أبي عمر يوسف بن عبد البر صاحب كتاب الاستيعاب وعن غيرهم من الأئمة.

وفي عام ٤٤٨هـ (١٠٥٦م) رحل إلى المشرق فحج، وسمع الحديث من علماء مكة، ثم ذهب إلى العراق، وأخذ العلم عن مشايخها، ثم عن مشايخ الشام، ومن هناك رحل إلى مصر، وكان قد حضر دروسًا في تونس بعد دراسته بالأندلس، وأخيرًا استقر ببغداد في آخر المطاف، وكان موصوفًا بالذكاء واتساع أفق المعرفة، إلى جانب الورع والتمسك بالدين، وجاء في كتاب المؤرخين أنه حضر العلم على مشايخ بالإسكندرية مدة من الزمن.

وكان عذب النغمة في قراءة الحديث، وقد ذكره ابن ماكولا (انظر هذه المادة) صاحب كتاب الإكمال فقال:

إنه لم ير مثله في العفة والنزاهة والورع والفضل والانشغال بالعلم، وهو صاحب كتاب «الجمع بين الصحيحين البخاري، ومسلم» المشهور وقد أخذه الناس عنه. وله أيضًا تاريخ علماء الأندلس سماه «جذوة المقتبس» وهو مجلد واحد، وكان قد كتبه من حفظه عندما طلب منه تأليفه في بغداد.

وعلاوةً على غزارة علمه بالحديث، والفقه كان الحميدي شاعرًا مجيدًا، ومن أشعاره في الوعظ والحكمة قوله:

لقاءُ الناسِ ليسَ يفيد شيئًا

سِوَى الهَذَيان من قيلٍ وقالِ

فأقْلِلْ من لقاءِ الناسِ إلا

لأخْذِ العِلمِ أو إصلاحِ حالِ

وتوفي الحافظ أبو عبد الله الحميدي في شهر صفر من عام ٤٩١هـ (١٠٩٦م) بالغًا من العمر حوالي ٦٩ عامًا، ودفن في مقبرة باب أبرز بالقرب من قبة الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، وترجع نسبة لقبه «الحميدي» إلى أن جده كان يدعى حميد، وفي قول بعض المؤرخين إن هذا اللقب يرجع إلى أن الحميدي أزدي النسب، وأنه قد يكون عن نسل حميد بن عبد الرحمن ابن عوف.

٥٦٦- حوش الغزالات - حارة - بقسم الجمرك (رفيعة الشال حاليًّا)

ينتسب هذا الحوش إلى الشيخ خليل الغزالات، وهو تونسي الأصل وتولى الإفتاء في تونس قبل نزوحه إلى الإسكندرية حيث أكرمت وفادته وقدرت علمه وفقهه فصار قاضيًا بمحكمة المدينة الشرعية إلى أن وافته المنية في ٢ من محرم عام ١٢٧٧هـ (١٨٦٠م).

والحوش هو ما يشبه الحظيرة، أو ما حول الدار، ويظهر أن الشيخ الغزالات كان يحيط داره بجدار ليكون مستقلاً عن منزله.

والحوش من فعل «حاش» أي جمع الإبل وساقها فيقال حَوَّشه أي جمعه، وحاوشه على الأمر أي حرضه، وأحاش الصيد جاء من حواليه ليدفعه إلى الحبالة فيسهل صيده.

أما ترجمة صاحبة الاسم الجديد للشارع فاطلبها في «رفيعة الشال».

٥٦٧- الحوفي - حارة - بقسم محرم بك

اسمه الكامل أبو الحسن علي بن إبراهيم بن سعيد بن يوسف الحوفي، ويرجع لقبه الحوفي إلى قرية «حوف» بالوجه البحري المصري، وأصله من شبرا النخلة من أعمال محافظة الشرقية، وقد قرأ على أبي بكر الإدفوي، واتصل بجماعة من علماء المغرب وأخذ عنهم، وكان عالمًا باللغة العربية، وتفسير القرآن الكريم، وله تفسير متين جيد، وتلقى عليه العلم والتفسير ولاسيما النحو خلق كثير، وانتفعوا بعلمه الغزير.

وقد تصدر لإفادة اللغة العربية وصنف في النحو مصنفًا كبيرًا كما صنف في إعراب القرآن كتابًا في عشرة أجزاء وله غير ذلك مؤلفات كثيرة يتداولها الناس.

وكانت وفاته في مستهل شهر ذي الحجة عام ٤٣٠هـ (١٠٣٨م) ولا يعرف تاريخ ميلاده.

حرف الخاء



٥٦٨- خالد باشا - شارع - بقسم الرمل

هو خالد باشا لطفي ولد بمدينة الفيوم في حوالي عام ١٨٥٧م (١٢٧٤هـ)، وكان يمارس الزراعة واختير عضوًا بمجلس شورى القوانين، وتوفي عام ١٩٢٧م (١٣٤٦هـ) وكان لديه ولد يدعى عمر لطفي توفي في زمن غير قليل.

٥٦٩- خالد بن يزيد - شارع - بقسم سيدي جابر

هو أبو هاشم خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأُموي، وكان من أعلم قريش بفنون العلم وله أبحاث وأقوال في صنعة الكمياء وله علم واسع النطاق في الطب، وكان بصيرًا بهذين العلمين مثقفًا فيهما وقد ألف رسائل تدل على معرفته التامة بهما وبراعته في أصولهما، وقد أخذ علمهما وأصولهما عن راهب يدعى «ماريانوس» الرومي، ومن جهة أخرى استطاع تأليف ثلاثة كتب تضمن أحدهما ما جرى له مع أستاذه «ماريانوس» وكيف تعلم منه الرموز الخاصة بالكمياء وتضمن الآخران معلوماته المفيدة في الكمياء والطب، وتعتبر هذه الكتب من أوائل الكتب التي ألفها العرب في هذين العلمين، وخالد من أمراء بني أمية المقدمين.

وكان خالد بن يزيد – إلى جانب علمه – شاعرًا مجيدًا وله ديوان مخطوط بمكتبة استامبول يحتوي على قصائد طويلة ومقطوعات تدل على حسن تصرفه وسعة علمه إذ بيَّن بها دقائق علمي الكمياء والطب، وله قصائد أخرى في شتى ألوان القريض ولاسيما في اللون الغزلي ومن قوله في الغزل الرقيق الحاشية:

تَحُولُ خَلاَخِيلُ النِّسَاءِ ولا أَرَى
لِرَمْلَةَ خُلْخالاً يَحُولُ ولا قَلْبَا

أحِبُّ بني العوَّام مِنْ أَجْلِ حُبِّها
وَمِنْ أَجْلِهَا أَحْبَبْت أخوالها كَلْبَا

وهذان البيتان من قصيدة طويلة تدور أبياتها حول الحب العذري وما يلقاه المحب من صدود وهجر ووصال، ولهذه القصيدة قصة مع الخليفة عبد الملك بن مروان.

وكان لخالد بن يزيد أخ يدعى عبد الله فجاءه قائلاً إن الوليد بن عبد الملك أهانه وحقَّره، فذهب خالد إلى عبد الملك ابن مروان وكان ابنه الوليد عنده، فقال خالد: «يا أمير المؤمنين إن ابنك قد احتقر ابن عمه عبد الله واستصغره»، فرفع عبد الملك رأسه وقال: ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾، فرد خالد ابن يزيد قائلاً: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾.

ولما قال له عبد الملك: «اسكت يا خالد، والله ما تعد في العير ولا في النفير»، أجاب خالد وقد اتجه نحو الوليد بن عبد الملك: «ويحك ومن للعير والنفير غيري، إن جدي أبو سفيان صاحب العير، وجدي عتبة بن ربيعة صاحب النفير».

وتوفي خالد بن يزيد عام ٨٥هـ (٧٠٤م).

٥٧٠- الخالدي - شارع - بقسم الرمل (أجاتون سابقًا)

١) خالد بن يزيد الكاتب (ولقبه الخالدي): شاعر عاش ببغداد على أيام إبراهيم بن الخليفة العباسي المهدي عم المأمون، وشقيق الخليفة هارون الرشيد الذي ولد عام ١٦٣هـ (٧٧٩م)، وتوفي عام ٢٢٤هـ (٨٣٨م) وهي الفترة التي عاش خلالها أو بعدها بقليل الخالدي الكبير، وكان الخالدي يزور دير سمالو شرقي مدينة بغداد فجاءه رسول إبراهيم المهدي فطلب منه أن ينشده شيئًا من شعره فقال يصف ذلك الدير:

رَأَتْ منه عيني منظرين كما رأت
من البدر والشمس المضيئة بالأرضِ

عشيَّةَ حيَّاني بوردٍ كأنَّهُ
خدودٌ أضيفَتْ بعضَهُنَّ إلى بَعْضِ

وناولني كأسًا كأنَّ رضابُها
دموعيَ لما صدَّ عن مُقْلَتي غَمضِي

وولَّى وفِعْلَ السكرِ في حركاتهِ
من الراحِ فُعْلُ الريحِ بالغُصْنِ الغضِّ

فاستزاده إبراهيم المهدي فأنشد:

عش فحبيك سريعًا قاتلي
والهوى إن لم يَصِلْني واصلي

ظَفَرَ الحبُّ بقلبٍ دَنِفٍ
بك والسقم بجسمٍ ناحلِ

وبكي العادِلُ لي من رحمتي
فبكائي من بكاءِ العاذِلِ

فصاح إبراهيم المهدي وقال أعطه يا غلام ما عندك من دنانير فأعطاه ما كان لديه منها، وليس في رواية هذا الشاعر ما يدعو إلى الغرابة فإبراهيم بن المهدي خير من يتذوق الشعر الجيد الرقيق، ويطرب له، فهو أديب ومغنٍّ ذائع الصيت، ومطرب من كبار مطربي عصره.

والخالدي أيضًا لقب يطلق على شقيقين من قرية الخالدية من أعمال مقاطعة الموصل بالعراق وهما:

٢) أبو بكر الخالدي: المتوفى عام ٣٨٠هـ (٩٩٠م).

٣) أبو عثمان سعيد الخالدي: المتوفى عام ٣٩١هـ (١٠٠٠م).

ووالدهما هو هشام بن وعلة، وينتهي نسبهما إلى بني عبد قيس، وقد نسبا إلى قرية الخالدية مسقط رأسيهما، ويقول الثعلبي: إنه كان يجمعهما من أخوة الأدب مثل ما ينظمهما من أخوة النسب فهما في الموافقة والمساعدة يحييان بروح واحدة، ويشتركان في قرض الشعر وينفردان ولا يكاد في الحضر والسفر يفترقان»، ومن بين آثارهما كتاب: «الأشباه والنظائر من أشعار الجاهلية ومن يتبعهم من المخضرمين».

وهما يقولان في تقديم كتابهما: «تضمن رسالتنا هذه مختار ما وقع إلينا من أشعار المشاهير لكثرتها في أيدي الناس،

فلا تذكر منها إلا الشيء اليسير ، ولا نخليها من غير ما رويناه للمحدثين ، ونذكر أشياء من النظائر إذا وردت ، والإجازات إذا عنَّت ، ونتكلم على المعاني المخترعة والمتبعة ، ولا نجمع نظائر البيت في مكان واحد ولا المعنى المسروق في موضع ، بل نجعل ذلك في موضع ذكره» .

وقد عني السيد محمد يوسف مدرس اللغة الأردية بمعهد اللغات الشرقية بجامعة القاهرة سابقًا ، وأستاذ اللغة العربية بجامعة كراتشي بالباكستان بتحقيق هذا الكتاب تحقيقًا علميًّا دقيقًا ثم قامت لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة بنشر الجزء الأول منه عام ١٣٧٨هـ (١٩٥٨م) ، وطبع الجزء الثاني منه أخيرًا ، وقد ضم التذييلات والفهارس المختلفة .

٥٧١- الخزرجي - حارة - بقسم الرمل

من بين الذين يحملون لقب الخزرجي اثنان دون المؤرخون سيرتهما وهما:

١) **محمد بن مسلمة الخزرجي:** وكان واحدًا من أشجع جنود المسلمين في معركة بدر (انظر مادة بدر) التي انتصر فيها المسلمون في السنة الثانية من الهجرة .

ويرجع لقب الخزرجي إلى قبيلة خزرج التي كانت تنزل هي وقبيلة الأوس التي تنحدر معها من أصل واحد ، إقليم المدينة المنورة ، ثم اتسعت رقعة منازلها نحو الشمال في صدر الإسلام فبلغت خيبر وتيماء ، وتعرف قبيلتا الخزرج والأوس بالأنصار تشريفًا وتكريمًا لما كان لهما من شأن هام في ازدهار الإسلام وإعلاء كلمته .

ولقد استأذن محمد بن مسلمة الخزرجي رسول الله عليه الصلاة والسلام بعد معركة بدر في الذهاب هو وجماعة من المسلمين إلى اليهودي كعب بن الأشرف البلقي على أيديهم جزاء تحريضه قريشًا على محاربة المسلمين واستهزائه بالإسلام ، وقوله قصائد الغزل في نسائهم وبناتهم ، وكان له ما أراد .

وفي معركة أحد (انظر مادة أحد) التي أشرف المسلمون فيها على الهزيمة في السنة الثالثة من الهجرة كان الخزرجي بين القلة من الرجال الذين أحاطوا بالنبي عليه السلام يفدونه بأنفسهم متعرضين بذلك للموت ، وقد أصيب الخزرجي بجراح في تلك المعركة .

وفي السنة السادسة من الهجرة أرسله الرسول على رأس سرية من عشرة محاربين إلى بني ثعلبة ، وبني غزال ، ومن ثم كان الخزرجي أحد القادة الذين اعتمد عليهم النبي في تأمين دار الهجرة ، وتشديد الحصار الاقتصادي على قريش وحلفائهم .

وفي شهر محرم من السنة السابعة للهجرة كان الخزرجي واحدًا من أشجع المحاربين في موقعة خيبر آخر معارك الرسول مع اليهود ، وقد استمرت المعركة أيامًا ثم كان النصر المبين للمسلمين ، وكان يهود خيبر من أقوى أعداء الإسلام في شمال شبه الجزيرة العربية ، وهكذا قضت معركة خيبر على المشاكل التي كان المسلمون يواجهونها بسبب إثارة يهود خيبر لها ضد المسلمين .

٢) ضياء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يوسف ابن عفيف الخزرجي الساعدي: وينتسب إلى قبيلة أصلها من مدينة غرناطة بالأندلس (انظر مادة غرناطة)، ويرجع لقبه إلى قبيلة الخزرج التي تقدم ذكرها، وقد ولد الخزرجي في بيغة بالأندلس عام ٥٩٠هـ (١١٩٤م)، واستقر بمدينة الإسكندرية حيث كان يلتقي كثيرًا بابن رشيد (انظر هذه المادة) الذي ذكره في كتاب رحلته، وألف الخزرجي كتابًا بعنوان: «الرامزة الشافية في العروض والقافية»، وهو منظومة من البحر الطويل في ٩٦ بيتًا يناقش فيها الأوزان والتفاعيل وأسبابها وأوتادها، ثم يذكر وصفًا يعالج فيه المصاريع وما يدخل عليها من تغيير في بداياتها ونهاياتها وما يجوز فيها وما لا يجوز.

ثم يسرد بعد ذلك مختلف الأعاريض حتى ينتهي من القافية وحروفها وما يتورط فيها الشعراء من الخطأ في هذا الباب.

وهذا الكتاب كغيره من الرسائل التي تعالج العروض لا يستطاع الإفادة منه إلا إذا اقترن بشرح مفصل ولاسيما في الأبيات الكثيرة المصطلحات.

وقد شرح هذه الأرجوزة أبو القاسم الزموري وطبع شرحه على الحجر في فاس بالمغرب الأقصى، كما شرحها بدر الدين الدماميني (انظر مادة الدماميني)، وطبع شرحه بالقاهرة عام ٧٠٣هـ (١٣٠٣م) ونشرت طبعة لها مع ترجمتها إلى الفرنسية مصحوبة بمقدمة تاريخية وشرح بعنوان «الخزرجية» وذلك بمدينة الجزائر عام ١٣٢٠هـ (١٩٠٢م).

وتوفي ضياء الدين الخزرجي بالإسكندرية عام ٦٥٠هـ (١٢٥٢م) بالغًا من العمر حوالي ٥٩ عامًا.

٥٧٢- الخضري - حارة - بقسم الجمرك

هو العالم المؤرخ الأديب الشيخ محمد بك الخُضَري ابن الشيخ عفيفي الباجوري نسبة إلى بلدة الباجور من أعمال مديرية الشرقية (محافظة الشرقية حاليًّا) وكان والده الشيخ عفيفي عالمًا من علماء الأزهر وخطيبًا في جامع ألماس بشارع الحلمية بالقاهرة، وقد ولد الخُضَري بك بالقاهرة ونشأ بها ولقِّب بالخضري نسبة إلى شيخ أبيه الروحي الذي كان يجله ويقدسه، وتلقى الخضري دروسه الأولية بأحد مكاتب القاهرة وظل يدرس القرآن الكريم بهذا المكتب من السابعة إلى الثانية عشرة من عمره، فغادره إلى الأزهر حيث أقام فيه سبع سنوات حضر خلالها دروسًا في الفقه والنحو والتفسير والحديث والبلاغة والمنطق والتوحيد على أجلاء الشيوخ وخيرتهم، وكان وافر الذكاء جيد الحفظ، ثم التحق بدار العلوم عام ١٣٠٩هـ (١٨٩١م) في القسم الأولي أو الإعدادي، الذي ألغي قبل انتهاء السنة الدراسية، غير أنه عاد والتحق بالمدرسة ثانية في أكتوبر من العام نفسه بالقسم العالي، وفي عام ١٣١٣هـ (١٨٩٥م) طلب إلى المدرسة اختيار طالب بالسنة الرابعة للتدريس بمدرسة الصناعات بالمنصورة على أن يعود لأداء الامتحان آخر العام، فاختير هو لذلك وسافر في ١٩ من مارس عام ١٨٩٥م (١٣١٣هـ) وعاد بعد شهرين وأدى الامتحان، ثم مرت الإجازة الصيفية فاستقر بعدها في المنصورة مدرسًا بعد أن تخرج من دار العلوم حيث تلقى ثقافته على كبار أساتذتها، وكان معروفًا لديهم كما كان معروفًا بين أقرانه بالجد في طلب العلم والحمل على النفس في سبيل

تحصيله، وقد قطع في التدريس ثلاثة وعشرين عامًا تخللها في القضاء سنتان بالسودان ثم عاد إلى التدريس في كلية غردون بالخرطوم حتى إذا أنشئت مدرسة القضاء الشرعي دعي للتدريس فيها وذلك في أول سبتمبر عام ١٩٠٧م (١٣٢٥هـ) وظلَّ بها إلى عام ١٩٢٠م (١٣٣٩هـ) وقد صار وكيلاً لها خلال هذه المدة، وفوق عمله الأصيل في مدرسة القضاء نُدب لتدريس التاريخ الإسلامي في الجامعة المصرية القديمة، وكان فيه ميل شديد إلى التاريخ الإسلامي يعالج مباحثه ما تهيأ له ذلك بالمحاضرة والكتابة والتأليف، وهو مرسل القلم سلس العبارة لا يتجمَّل ولا يتكلف بديعًا، على أنه كان على حظ من الأدب غير يسير، وكان كتلة من النشاط الفكري والعقلي فاتصل بكثير من الجمعيات والجماعات وكان خطيبها المصقع في وقت كان المتكلمون فيه قليلي العدد.

وفي أواخر أيام حياته عين مفتشًا بوزارة المعارف واستمر على التفتيش إلى أن توفاه الله عام ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م)، ومن مؤلفاته: «نور اليقين في سيرة سيد المرسلين»، و«إتمام الوفاء بسيرة الخلفاء»، و«تاريخ التشريع الإسلامي»، و«كتاب الأصول» (في أصول الفقه)، و«مهذَّب الأغاني» (لأبي الفرج الأصفهاني)، و«دروس تاريخية»، فضلاً عن محاضراته في الجامعة في التاريخ الإسلامي وقد جمعها بعد ذلك، وقد طبعت جميع مؤلفاته بالقاهرة، وله مقالات كان يبعثها في الصحف السيارة في المسائل الدينية والأخلاقية والاجتماعية والأدبية، وفي أكثرها لا يظهر اسمه للقارئين، ومما كتبه عن الدولة العباسية في كتابه تاريخ الأمم الإسلامية قوله:

«قامت الدولة العباسية وليس لها عصبيةٌ عنصريةٌ تشد أزرها وتحمي بَيْضتها وإنما عصبيتها هؤلاء الموالي المصطَنَعون، وعصبية الولاء أو الحلف قد تقوم مقام عصبية القرابة لولا ما يكدرها من ميل هؤلاء الموالي في بدء الدولة جماعةٌ لهم قدمٌ ثابتةٌ في الفارسية، وفي الإسلام جعلهم العباسيون في مقدمة من يعتمدون عليه، لم يترك العباسيون في مبدأ أمرهم عصبية العرب ولم يهملوا شأنها بل استعانوا بها لتكون لهم ملجأً إذا رأوا من الموالي نكوبًا عن جادَّةِ نُصرتهم وميلاً إلى الاستئثار بالسلطان دونهم، فاصطنعوا كثيرًا من رجال العرب وحُماتهم من ربيعة واليمن ومُضرَ، إلا أنهم لم يلتفتوا إلى إزالة ما بين هذه القبائل من أسباب العداء والنُّفرة بل بالعكس وُجِدَ منهم ما يدل على الميل إلى إنماء هذه الحميَّة ليستعينوا بفريق على الآخر».

لذلك كله يمكننا أن نقول: إنه لم يكن للدولة العباسية في بدء حياتها عصبية قومية متحدة الأوصال وثيقة العُرَى وإنما كان الإسلام هو الذي يجمع بين تلك القوى والدين، وإن كان جامعًا قويًّا لكنه إن لم يكن مُدَعَّمًا بعصبيةٍ قوميةٍ متحدةٍ يَضْعُف عمله.

وقد أصاب الشيخ الخضري في قوله هذا فاعتماد الدولة العباسية على الموالي من الفرس أضعف كيانها وفكك أوصال عروبتها، وكان أحد المعاول التي هدمت هذا الكيان وهدمت القومية العربية، ومازال العالم العربي يعاني من هذا التفكك إذ كان من أقوى الوسائل الذي أطمع فيه المستعمرين الأجانب من مغامرين وجشعين ونَهَّابين لثرواته وأرزاقه.

٥٧٣- خطاب - شارع - بقسم الجمرك
٥٧٤- خطاب - زقاق - بقسم الرمل
٥٧٥- خطاب - زقاق - بقسم العطارين

أسرة خطاب من الأسر المعروفة بالإسكندرية، ويذهب أفرادها إلى أن لقب خطاب الذي يحملونه يرجع في أصله القديم إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأن أصلهم من المغرب الأقصى (مراكش) ونزح بعض أجدادهم إلى مصر، واستقروا بالإسكندرية من ٣٠٠ عام بالشارع الذي يحمل لقبهم بقسم الجمرك بحي السيالة (انظر هذه المادة)، واسم جدهم الذي يحمل الشارع لقبه كريم بن خطاب، وكان عمره وقت استقراره بالإسكندرية ٤٠ عامًا، أي أنه ولد بالمغرب الأقصى في حوالي عام ١٦٢٦م (١٠٣٦هـ) ويروي أفراد الأسرة الذين مازالوا في قيد الحياة أنهم يعرفون عن آبائهم وأجدادهم أن جدهم الأكبر كريم خطاب توفي عن ٨٠ سنة، ومن ثم تكون المنية قد أدركته في حوالي عام ١٧٠٦م (١١١٨هـ)، وشب أفراد الأسرة متوارثين تجارة الفواكه الجافة (الياميش) والعسل الكندية، والسمن الحديدي، وأنواع الجبن والأقمشة الحريرية، من الشام ويصدرون الحبوب ولا سيما القمح بمراكب شراعية كان يتملكونها، ولذلك كان بعض أجدادهم يحملون لقب «القبودان» أي ربان السفن، وكان جدهم الأكبر يعرف الكتابة والقراءة ويحفظ القرآن الكريم، ويدرك بعض الأمور الفقهية ولذا كان عضوًا في محكمة الحصيرة بالأنفوشي التي كانت تجتمع في أغلب الليالي في أحد بيوت أعضائها، ويجلسون فوق الحصيرة للنظر في خصومات أهل الحي ويسعون لعقد الصلح بينهم بالمعروف، وكانت الحصيرة تؤخذ عادة من جملة الحصيرات التي كانت أصحابها يبسطونها في الطريق أمام محلاتهم لتجف قبل بيعها، وقد لقبت بعض العائلات الإسكندرانية الخالصة بالحصرية، وكان لهم إلى وقت قريب سوق خاص وسط شارع الميدان في الشارع المؤدي إلى سوق الخيط، وسوق المغاربة، وسوق الترك، ويدعى سوق الحصر (انظر هذه المادة)، وكان الجد الأكبر للأسرة وأولاده من بعده من أهل البر بالفقراء، والمحتاجين على غرار معظم أسر السكندرية الميسورة الحال في ذلك الحين.

ومن ذرية كريم خطاب الحاج سليمان خطاب، وكان له منزلة اجتماعية ملحوظة في حي السيالة وزادت هذه المنزلة تقديرًا حين أسهم بنصيب وافر في مكافحة الفرنسيين عند غزوهم الإسكندرية فسجنوه في «البرج الزفر»، وكان معتقلاً بجانب مسجد البوصيري أعده الفرنسيون تمهيدًا لمحاكمة من يخرجون عن طاعتهم، ولقد استطاع أخوه بكر خطاب من تهريبه، فسافر إلى تركيا في مركبه الخاص وظل هناك إلى نهاية الحملة الفرنسية، وللحاج سليمان خطاب رشيد زاوية خطاب بالأنفوشي، ومن ذريته السيدة فطومة كريمة الحاج إبراهيم خطاب، وهي مشيدة زاوية خطابية بشارع المسافر خانة (انظر هذه المادة)، وكانت من السيدات المحسنات وأوقفت على الزاوية ما يكفي للإنفاق عليها، وكان لبعض ذرية خطاب قطع واسعة من الأراضي يزرعونها بثمر «القاوون» وهو نوع من الشمام بجهة العجمي وكانت مراكبهم تحمل محصوله ويباع بشارع البحرية بين باب ٦ وباب البوستة الخديوية بالقرب من شارع بطشي باشا ولقد شاهدت ذلك بنفسي وأكلت الكثير من القاوون العجمي الحلو.

ومن ذرية بني خطاب الموجودين على قيد الحياة اللواء صالح حسن خطاب مدير المباحث الجنائية بوزارة الخارجية سابقًا، والأستاذ عبد الحميد خطاب مدير قضايا الجمارك السابق، والأستاذ عبد الرزاق خطاب مدير جمرك المحمودية السابق، والسيد محمد عبد القادر خطاب المشرف على مسجد سليمان الشيخ بمحرم بك.

٥٧٦- الخطاط محمد إبراهيم - شارع - بقسم المنشية

٥٧٧- الخطاط محمد إبراهيم - شارع - بقسم العطارين (لمبار سابقًا)

ولد الخطاط الفنان محمد إبراهيم علي محمد بالإسكندرية في ٢ من شهر سبتمبر عام ١٩٠٩م (١٣٢٧هـ) وتلقى تعليمه الابتدائي، والثانوي بمدارسها ثم تفرغ لإتقان فن الخط الجميل.

وشغل في أول مراحل حياته العملية وظيفة خطاط بمصلحة الري ثم ببلدية الإسكندرية فقام بكتابة كل ما يتطلب الخط الجميل من الرقعة والنسخ والثلث والفارسي من لافتات وأعمال مختلفة ولاسيما لوحات الشوارع بأنحاء مدينة الإسكندرية، ثم صار أستاذًا غير متفرغ لتدريس مادة تاريخ الفن بكلية الفنون الجميلة بالإسكندرية منذ إنشائها، وقد أسهم في إنشاء هذه الكلية هو والمرحوم الفنان الكبير أحمد عثمان (انظر هذه المادة) علاوة على إسهامه الفعال المثمر في كثير من الهيئات الأدبية والفنية بالمدينة من بينها جماعة نشر الثقافة والهيئة المحلية لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ومعهد الموسيقى العربية، وقد تكونت جماعة نشر الثقافة عام ١٩٣١ والهيئة المحلية عام ١٩٦٥.

ويرجع إليه الفضل في إنشاء مدرسة تحسين الخطوط بجهوده الذاتية، وماله الخاص، وكانت مدينة الإسكندرية في أمسّ الحاجة إليها، وقد تخرج فيها على يده مئات من الطلاب الذين حملوا مشعل هذا الفن الجميل الراقي في مختلف أنحاء البلاد العربية والبلاد الإسلامية في مشارق الدنيا ومغاربها.

ولقد حظي الخط العربي بمكانة مرموقة في مجموعة الفنون الجميلة منذ فجر الإسلام إذا كان الرمز البارز في الحضارة الإسلامية الوليدة يوضح خطاها الأساسية في سلم الارتقاء الإنساني ويظهر آيات دستورها السماوي ألا وهو القرآن المجيد، في شكل محبب إلى العيون والأفئدة علاوة على أنه كان ومايزال فنًّا رحَّالاً يزين به أماكن العبادة عوضًا عن الصور التشكيلية والزخارف المختلفة الأنماط، وبانفراده التعبيري البسيط التكوين البهي المنظر والرونق صار جزءًا متممًا للهندسة المعمارية التي بقيت خالدة على مر العصور علاوة على ما قدم كُتابه من لوحات ومخطوطات بقيت عالية المقدار الأثري عبر القرون الخالية.

وساير الخط العربي تقدم الحضارة العربية الإسلامية فتابع خطواتها في سبيل الرقي والازدهار فتعددت أشكاله وأنواعه وأسماؤه، وتميز كل منها بسمات خاصة فنية تعبر عن العصر الذي أنتجت فيها لإمكانات المادية التي استخدمت في كتابته.

وما من شك في أن العصر الذهبي للخط العربي كان في عهد الدولة العثمانية إذ بذل في تحسينه وتطويره أعلام لم يضنوا في سبيل ذلك بجهودهم المثمرة فكان منهم العلماء والوزراء والخلفاء، ومازالت مخطوطات كل منهم تدخل في زمرة التحف العالمية النادرة وتحتفظ بذخائرها مكتبات الدول العامة ككنوز أثرية لا تقدر بثمن، وقد أرسى هؤلاء الفنانون العظام قواعد الخط الفنية التي رفعت من مستواه إلى أعلى الدرجات.

ثم مرت عليه عصور اضمحل خلالها، شأنه في ذلك شأن الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي أصابها الفتور والركود. غير أن أصالته العميقة الجذور استطاعت أن تجعل الحياة تدب في أوصاله من جديد، وذلك بفضل جهود المخلصين المعتزين بفضله العارفين لأسسه والمشفقين لما أصابه من ضعف، فنهضوا ينفضون عن كنوزه التراب ويضيفون إلى روائعه روائع من أعمالهم الجادة والمتقنة، وكان من رعيلهم الأول الفنان محمد إبراهيم الذي انقطع لدراسته، وتدريسه وطفق يجوب الكثير من البلدان للاطلاع على آثاره القديمة التي خطتها أقلام أعلامه، ونقلها إلى تلاميذه ليستزيدوا من فنونه وروائعه علمًا وخبرة.

ولم تقف طاقته وجهده عند هذه الحدود بل تعدتها إلى آفاق أخرى بعيدة من بينها هذه الأعمال الفنية المفيدة التي تعد قلادات فخر قمينة بتخليد ذكراه على مر السنين وهي:

إنشاء مدرسة تحسين الخطوط بالإسكندرية من ماله الخاص وجهوده المتواصلة النافعة، وإقامة ٢٠ معرضًا منذ بدأ يعمل للنهضة بفن الخط الذي كرس حياته لرفع مستواها، وقد عرض في هذه المعارض روائع فنه التي توضح الجوانب الجمالية، والتطور المستمر للخط العربي، وقد تميز كل معرض من هذه المعارض العشرين بأعمال جديدة وعرض جديد، وأقام بتكليف من الهيئات الرسمية أربعة متاحف دائمة تبين تطور الكتابة العربية على مدى ألف عام، وذلك بمحافظات الإسكندرية والبحيرة والشرقية والقاهرة، وكتابة القرآن الكريم لأول مرة في التاريخ في صفحة واحدة وقام بهذا العمل المضني الدقيق ثلاث مرات فكان من الأعمال الخالدة التي لم يسبقه إليها أحد وكانت موضع إكبار العالم وتقديره المقرون بالدهشة لما في هذا العمل من دقة بالغة تتطلب الصبر والإتقان، وزين بكتاباته الخطية البديعة الجمال مبنى الجامعة العربية ومسجدها بالقاهرة، ومتاحف مصر القومية وعددًا كبيرًا من مساجد القاهرة، وتونس، والجزائر بلوحات من خطه فصارت مزارات يؤمها طوائف المشاهدين والمصلين ليعرفوا مقدار ما وصل إليه فن الخط الجميل من رقي على يد الخطاط محمد إبراهيم، وخط قلمه مجموعة كبيرة من الديواني والرقعة والثلث والفارسي صارت دروسًا لطلاب هذا الفن، وكان أول خطاط عربي زين قبر رسول الله صلي الله عليه وسلم بالمدينة المنورة بمجموعة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية علقت حول القبر الطاهر، وقام بإهداء عدد كبير من المخطوطات واللوحات الفنية الرائعة باسم فنه ودولته ومدرسته إلى كل ملوك ورؤساء وعظماء الدول العربية والأجنبية وجامعاتها وذلك مشاركة بفنه في الأحداث التي تمر بها دولته مصر.

هذا وقد اختارته الدولة عضوًا بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالقاهرة فأسهم بجهوده في

هذا المجلس بكثير من الأعمال لنهضة الخط العربي، وقد وضع كتابًا ضمنه نتائج خبراته وأبحاثه ورحلاته الفنية والثقافية، ويعتبر هذا الكتاب موسوعة لتاريخ فن الخط العربي، وقد شارك كخبير رسمي في كثير من القضايا الجنائية.

ولربط فن الخط العربي الذي كرس حياته لخدمته، لربط هذا الفن بالفنون الأخرى ترك المرحوم محمد إبراهيم مجموعة تعتبر أكبر مجموعة نادرة في مصر من اسطوانات أئمة المطربين والمطربات توضح تطور فن الموسيقى والغناء منذ مئات السنين وذلك إلى جانب أكبر مجموعة خطية أصيلة لأئمة فن الخط العربي منذ آلاف السنين.

ومن مؤلفاته كتاب عن الشيخ سيد درويش يتضمن دراسة واقعية عن هذا الموسيقار العظيم، وكتاب عن المطرب الذائع الصيت الشيخ سلامة حجازي مازال تحت الطبع.

ولم يضن بجهوده الطبية للإسهام في أعمال الجمعيات الخيرية مثل جمعية الشبان المسلمين، وغيرها وذلك بعضويته فيها.

وفي ١٣ من شهر مايو ١٩٧٠م (١٣٩٠هـ) فاضت روحه الخيرة الحسنة إلى بارئها راضية بما أدت من أعمال نافعة مثمرة وعمره ٦١ عامًا.

وتقديرًا لجهوده طوال حياته العملية، وتكريمًا لذكراه أطلقت الدولة اسمه على مدرسة تحسين الخطوط التي أنشأها بماله الخاص بالإسكندرية، وقامت كلية الفنون الجميلة بالإسكندرية بعمل تمثال له سيوضع بمدرسته ومتحفها.

وترك ذرية من ثلاثة أولاد وثلاث بنات أتمت إحداهن دراستها الألمانية وتعمل سكرتيرة بمعهد جوته الألماني بالإسكندرية، وأولاده الآخرون مازالوا يتلقون دروسهم بالمدارس.

أما ترجمة صاحب اسم الشارع القديم فاطلبها في كلمة «لمبار»

٥٧٨- الخطيب البغدادي - زقاق - بقسم الجمرك

هو أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي، ولد في الرابع والعشرين من جمادى الأخرى عام ٣٩٢هـ (١٠٠٢م) في دردجان وهي قرية كبيرة على الضفة الغربية لدجلة أسفل بغداد، وبدأ دراسته مبكرًا جدًّا لأنه كان ابن أحد الخطباء، وقضى شبابه في الرحلة طلبًا للحديث فزار البصرة ونيسابور وأصفهان وهمذان ودمشق، واستقر به النوى في بغداد، وشغل فيها منصب الخطيب، ومن ثم لقب بالخطيب البغدادي، وهو اللقب الذي عرف به من بعده، وقد أكسبته درايته الواسعة بالحديث شهرة فائقة ومكانة علمية كبيرة في مستقره الجديد، ويقول أحد كتاب سيرته: إن خطباء وفقهاء الحديث جروا على أن يعرضوا عليه ما جمعوه من أحاديث ليحكم عليها بثاقب رأيه قبل أن يضمنوها في خطبهم ودروسهم، على أن الخطيب البغدادي كان فيما يظهر يعاني من عداء الحنابلة له، وكان عددهم كثيرًا إذ ذاك في بغداد وكان نفوذهم قويًّا، وقد اعتنق الخطيب مذهب الشافعية بعد أن كان في أول أمره من الحنابلة، ودان بآراء في الدين متشددة في أشعريتها فجر عليه ذلك سخط أتباع الإمام أحمد الذين

كانوا يناهضون جميع الآراء الفقهية الجريئة، ونجح الخطيب بالرغم من معارضة الحنابلة في إملاء دروس الحديث بجامع المنصور بفضل الحماية التي أظله بها الخليفة القائم (انظر مادة القائم بأمر الله)، والوزير ابن المسلمة، والظاهر أن الخطيب قد انطوت نفسه على الحقد المرير مما لاقاه من عداوة الحنابلة فكان لا يدع فرصة تمر دون أن يعرض بأحمد بن حنبل، وأتباعه في دروسه وكتاباته تعريضًا لاذعًا، بل كان يهاجمهم صراحة، ومن ثم اتهمته الأجيال المتأخرة بالتعصب، ووجدت طائفة من الكتب الجدلية أن تنال منه، وفرّ الخطيب إلى دمشق عندما أدت فتنة البساسيري الناجحة إلى القضاء على ابن المسلمة، وهناك قبض عليه الوالي الفاطمي ولم ينج من الموت إلا بشق الأنفس، ذلك أنه فر إلى صور ثم إلى حلب، وعاد إلى بغداد بعد أن أعاد السلاجقة النظام إلى هذه المدينة، وتوفي الخطيب (حافظ الشرق) فيها بعد ذلك بعام، أي في يوم الاثنين السابع من ذي الحجة عام ٤٦٣هـ (١٠٧١م) في السنة التي مات فيها عبد البر (حافظ الغرب)، ودفن الخطيب في حضرة جمع كبير من القوم إلى جانب مقبرة (بشر الحافي) الطيب الذكر.

وللخطيب البغدادي مؤلفات كثيرة يقول كتاب سيرته أنها بلغت نحو مائة رسالة، وأشهرها كتاب «تاريخ بغداد»، وهو سجل للمحدثين الذين عاشوا في بغداد ولهذا الكتاب مقدمة في الجغرافيا تسبق ترجمته لهؤلاء المحدثين، وقد اختصرها «سالمون Salmon» وترجم جزءًا منها إلى الفرنسية، ونشرها، ويذكر أيضًا أن تواليفه «الكفاية في معرفة أصول علم الرواية» و«تقييد العلم»، وهناك ثبت بمؤلفات الخطيب الأخرى ذكره «سالمون» نقلاً عن كتاب «مرآة الزمان» لابن الجوزي، ومن مؤلفاته: «الجامع لأخلاق الراوي والسامع»، و«المتفق والمفترق»، و«الفقيه والمتفقه»، و«التفصيل لمهم المراسيم»، و«الإجازة للمعدوم والمجهول»، وهو كتاب في إجازة الشخص غير المسمى أو الذي لم يولد بعد و«الأسماء المتواطئة»، وهي نقيض الأسماء المشكلة في المنطق الموضح و«القنوت»، وهما كتابان منفصلان.

٥٧٩- الخِلَعي - حارة - بقسم اللبان

يطلق لقب الخلعي على اثنين ممن ذكروا في التاريخ لشهرتهم، أحدهما فقيه عالم، والثاني من أهل فن الموسيقى والغناء وفيما يلي ترجمة كل منهما:

١) **أبو الحسن علي بن الحسن بن الحسين بن محمد**: وكان قاضيًا مشهورًا، ولقب بالخلعي لأنه كان يبيع الخلع (جمع خلعة) لملوك مصر فاشتهر بذلك، وهو موصلي الأصل، مصري الدار، شافعي المذهب، وتنسب إليه الخلعيات.

وقد سمع أبا الحسن الحوفي (انظر هذه المادة)، وأبا محمد ابن النحاس (انظر مادة ابن النحاس)، وأبا الفتح العداس، وأبا سعد الماليني، وأبا القاسم الأهوازي، وغيرهم، وقال عنه أبو علي الصدفي (انظر مادة الصدفي) الذي لقبه بعد رحيله إلى مصر وقال عنه إنه فقيه له تواليف حسنة، وقد وَلِيَ القضاء ولم يبق في هذه الوظيفة إلا يومًا واحدًا ثم اعتزلَ الناس، وانزوى بالقرافة الصغرى بالقاهرة.

وكان مسند أهل الحديث بعد الحبَّال وذكره أبو بكر ابن العربي (انظر مادة ابن العربي)، فقال عنه: إنه شيخ معتزل في القرافة له علو في رواية الحديث، وله فوائد كثيرة، ومن جهة أخرى حدث عنه الحميدي (انظر هذه المادة)، ولقبه

بالقرافي، وقال بعض مؤرخيه أنه تولى القضاء بغامية وهي قلعة من أعمال حلب وذلك قبل نزوحه إلى مصر، وقد جمع له أبو نصر أحمد بن حسين الشيرازي مجلدات مما سمع عنه من آراء فقهية، وكان آخر من روى هذه الآراء أبو رفاعة.

وذكر أبو الطاهر السلفي (انظر مادة السلفي) أن أبا الحسن الخلعي كان يختم بمجالسه إذا سمع عليه الحديث بهذا الدعاء: «اللهم ما مننت به فتممه، وما أنعمت به فلا تسلبه، وما سترته فلا تهتكه، وما علمته فاغفره»، وقد ولد أبو الحسن علي ابن الحسن الخلعي في شهر محرم عام ٤٠٥هـ (١٠١٤م) بمصر ووافته المنية بمصر أيضًا في ١٢ من شهر ذي الحجة عام ٤٩٢هـ (١٠٩٨م)، بالغًا من العمر حوالي ٨٨ عامًا ودفن بالقرافة الصغرى حيث كان يعتزل الناس، ويفرغ للعبادة، وكانت القرافة الصغرى خارج القاهرة وبها قبر الإمام الشافعي الذي كان الخلعي على مذهبه.

وقد يرجع إطلاق كلمة الخلعي على هذه الحارة بقسم اللبان إلى تخليد ذكرى هذا الفقيه الشافعي، أو يرجع إلى الموسيقار السكندري المولد «محمد كامل الخلعي» الذي يلفظ لقبه بضم الخاء وليس بكسرها وفيما يلي ترجمة حياته.

٢) **محمد كامل الخلعي**: ولد بالإسكندرية بحي كوم الشقافة عام ١٨٨١م (١٢٩٩هـ)، ولعل لقبه الخلعي يرجع في أصله إلى فعل الخلع، أي نزع الشيء، أو أزاله عن مكانه، ومنه خلع الميت أي نزع الكفن ويأتي من هذا الفعل المبني للمجهول. وكلمة الخلعي أي الذي ينزع الأكفان عن الموتى، ولا يستبعد أن يكون أحد أجداد محمد كامل الخلعي كان لهم صلة بدفن الموتى، ولا سيما أن موطن أسرته هو حي كوم الشقافة المجاور لجبانة الموتى الإسلامية الكبرى بالقرب من عمود السواري، ولعل اللقب من الخِلَع وهي الثياب التي تهدى من الملوك والأمراء ومفردها «الخِلْعة».

ويقول التاريخ إن أباه كان من ضباط الجيش، وحاول أن يحظى ولده بقسط من التعليم، ثم غادر هذا الأب الإسكندرية، وتزوج بالقاهرة تاركًا أسرته الصغيرة بالإسكندرية تقاسي مرارة الفقر لحرمان.

وقضى محمد كامل الخلعي طفولته وصباه في كنف الإسكندرية، ثم رحل إلى القاهرة وزاول مهنة كتابة اللافتات إذ يظهر أن خطه كان جميلاً بسبب تعلمه في مرحلة الدراسة الابتدائية التي كان الخط بين موادها الأساسية، وكان مستوى التعليم خلالها يضارع مستوى التعليم الثانوي في الوقت الراهن ويتخطاه بمسافة واضحة.

ولممارسته كتابة اللافتات بشارع محمد علي «مقر الموسيقيين» والمغنين وأرباب الحرف الفنية من موسيقى ورقص، ولميله الغريزي لفن الموسيقى، وحبه الغامر لفنونها، وتذوقه الراقي لما كان يسمع من ألحان وأناشيد؛ دفعه إلى إشباع هذه الهواية المفضلة، فأخذ يتقن العزف على العود وسرعان ما ظهرت مواهبه، ومن ثم بادر إلى تعلم أصول الموسيقى، على أيدي مشاهير الملحنين والمطربين في عصره حتى نال بعض الشهرة في المحيط الفني الذي كان يعيشه.

ومما شجعه على مواصلة التحصيل التقاؤه بالسيد محمد توفيق البكري العلام الدين والمحب، في الوقت نفسه، لفن الموسيقى والغناء، فأتاح له فرصة إظهار مواهبه الفنية في مجتمع الرقي بقصره الكبير بحي الخرنفش.

وعندما أتقن الضروب والإيقاعات أخذ في تلحين طائفة من الموشحات والأغاني، وفي ذلك الحين حضر إلى مصر أبو خليل القباني أحد رواد المسرح العربي بالشرق الأوسط، ووجد في محمد كامل الخلعي خامة جيدة في فن الموسيقى والطرب، فاصطحبه عند عودته إلى الشام فزار، علاوة على عدد من المدن السورية، العراق وتركيا، وفي هذه البلاد تعلم أصول الموسيقى العربية القديمة والتركية التي تستمد جذورها الفنية من الموسيقى الفارسية، وفي تونس أكب على دراسة الموشحات الأندلسية من منابعها الأصيلة ثم عاد إلى القاهرة، واستوعب الكثير من القواعد الموسيقية وأصولها الصحيحة.

وقد خلد التاريخ المعاصر اسمه فجاء بدائرة المعارف الإسلامية التي توفر على تأليفها كبار المستشرقين أن محمد كامل الخلعي كان موسيقارًا مصريًّا، وقد ألف خلال عام ١٩٠٤م (١٣٢٢هـ) كتابًا بعنوان «الموسيقى الشرقية» وقد ساعده في تأليف هذا الكتاب إدريس راغب، وأوضح فيه السلم الموسيقى العربي والإفرنجي والنسبة بينهما، ثم ألف كتابًا آخر أسماه: «نيل الأماني في ضروب الأغاني»، وهو من نوادر ما كتب باللغة العربية في هذا الفن وفي هذين الكتابين سجل الخلعي طائفة كبيرة من ألحانه وألحان غيره من معاصريه وعلى رأسهم عبده الحامولي، ومحمد عثمان (انظر مادة عبده بك الحامولي)، وذلك بالنوتة الموسيقية الدقيقة.

ويدل هذا القول في دائرة المعارف الإسلامية على معرفته التامة بدقائق الموسيقتين العربية والغربية والفروق بينهما، كما يدل على علمه الواسع الأفق بالنوتة الموسيقية.

وعلى الرغم من تذوقه الموسيقى الغربية فإنه كان شديد الحرص على تراث الموسيقى العربية ممثلة في ذلك مثل داود حسني (انظر هذه المادة)، والكثير جدًّا من رواد الموسيقى الشرقية في عصره، إذ كان ينصح الناشئين بحفظ وتجويد أكبر عدد ممكن من الأدوار والموشحات من كافة الضروب والإيقاعات ليستطيعوا إنتاج الألحان الجيدة التي تجلب الطرب وتهز المشاعر بعذوبة ترنيمها، ومع ذلك فقد كان يوصي بالاستماع إلى الألحان الأجنبية لكي تتعود آذان الناشئين على التمييز بين الإيقاعات في كل من الموسيقتين.

وما من شك أن الخلعي تأثر بألحان عبده الحامولي ومحمد عثمان، وذلك في أداء الغناء وتكوين الألحان، ومن ثم يعد هذان الملحنان من أساتذته غير المباشرين، ولاسيما فيما يتعلق بالموسيقى المتطورة والتلحين غير المقيد بالموشحات الأندلسية والأدوار والقصائد التي كانت شائعة في مصر والتي كانت تختلف في أسلوبها وبعض عناصرها الفنية عن الموسيقى الشعبية في بلاد الريف المصري والصعيد.

وكان من أبرز خصائص عصر عبده الحامولي ومحمد عثمان في الغناء والتلحين: العناية بأداء الحركة الصوتية، والأداء البطيء للألحان بصفة عامة والأخذ في الاهتمام بتنويع المقامات الموسيقية والإيقاعات في تلحين الدور الغنائي، وبذل الجهد في إظهار مواهب المغني الموسيقية الأصلية في ارتجال الألحان من قريحته كتكوين مضاف نابع من ألحان الدور الغنائي نفسه.

وليس من المغالاة القول بأن محمد عثمان كان رائد التجديد في تلحين الدور الغنائي لأن الدور قبله كان مؤلفًا

من مذهب وغصن من بحر عروضي واحد، ثم من لحن ومقام موسيقي واحد، وكان اللحن يتكرر دون أي تغيير في سياقه الإيقاعي ونوع مقامه الموسيقي، وكانت آلات التخت تصاحب أداء المغني دون أن يكون لها وظيفة مستقلة في الدور.

فابتدع محمد عثمان بقوة إدراكه الموسيقي الحاد تنويع الألحان في الدور الواحد، وذلك في الإيقاع والمقام الموسيقي، كما حدد ملامح الحوار اللحني وأخذ في تلحين الأدوار الطويلة مما أضفى عليه بجدارة لقب الملحن ذي النفس الطويل.

وقبل محمد عثمان كانت مقامات النغم وأوزان الإيقاع الشائعة الاستخدام في الألحان المصرية ألحان البلدان العربية هي أهم العناصر الموسيقية التي كان الملحنون الناشئون يتلقون دروسًا في قواعدها على أيدي كبار الموسيقيين المشايخ الذين في كنفهم كان الغناء مرتبطًا بالإنشاد الديني ومتأثرًا بتلحين القصيدة أو الموشح الديني والدنيوي بأسلوب القرآن وتجويده.

وبديهي أن يكون محمد كامل الخلعي قد فطن لكل ذلك، وأدرك بثاقب ألمعيته الموسيقية أن عليه أن ينحِّي جانبًا هذه الأنماط البالية في التلحين، وأن يتابع التطور التلحيني الذي أدخله عبده الحامولي، ومحمد عثمان على الأغاني، وأن يجدد في هذا التطوير بما أوتي من براعة في التلحين وسعة في الثقافة الموسيقية المكتسبة من المران والتذوق الأصيل النابع من الوجدان والعاطفة الصادقة التعبير.

وقد أوضح كل ذلك في كتابيه الآنفي الذكر، ومن ثم يستطاع القول بأنه كان أول واضع لدعامات الغناء الحديث في مصر، بل وفي الوطن العربي بأسره.

وعلى الرغم من قصر فترة دراسته الابتدائية استطاع محمد كامل الخلعي أن يخطو خطوات منفرجة في المجال الثقافي العام، فتوصل بدراسته الشخصية إلى أن يكون أديبًا من أدباء زمانه، فكتب المقالات الأدبية والموسيقية في الجرائد والمجلات، ونظم بعض القصائد مما يدل على أنه أتقن العروض إلى حد يسمح بتأليف الشعر العمودي الصحيح الوزن والقافية.

وكان الخلعي من أوائل الذين انضموا إلى فرقة الشيخ سلامة حجازي (انظر هذه المادة) التمثيلية الغنائية، وجادت قريحته الوقادة بالعديد من الألحان المسرحية والأغاني والموشحات والأناشيد والطقطوقات وألف طائفة من المسرحيات الغنائية التي اشتهر بها النصف الأول من القرن العشرين، ولاسيما في الربع الأول منه، وقد مثلتها فرق أولاد عكاشة، وعلي الكسار، ومحمد بهجت، ومنيرة المهدية وأهمها: أوبريت: كارمن، كارفينا، وكان زمان، والتالتة تابتة، وآه يا حرامي، ومبروك عليك، والشرف الياباني، والإيمان، وقيصر كليوباترا، وقد مثلت هذه الأوبريتات الثلاثة الأخيرة فرقة جورج أبيض (انظر هذه المادة).

وتتلمذ على يد الخلعي طائفة من مشاهير الملحنين وغنت بألحانه وأدواره مغنيات على رأسهم السيدة أم كلثوم، ومنيرة المهدية، ويقول الدكتور حسين فوزي الضليع في فن الموسيقى العربية والغربية كناقد حصيف بارع، يقول في وصف كتاب

الخلعي «الموسيقى الشرقية»: إنه من الكتب الأساسية في فهم الموسيقى العربية، ومعرفة تاريخها، ويتضح منه أن الخلعي كان على معرفة تامة بقواعد الموسيقى الغربية وعلى وعي لما يقوم بين الموسيقتين من موانع وحواجز هي نتيجة قرون التطور التي مرت بالموسيقى الغربية فنقلتها من البسيط إلى المركب فاتسعت مجالات التعبير فيها على حين وقفت الموسيقى العربية عند حدود تقاليدها ورفضت لغير الموسيقى التركية بإجراء أي تطوير فيها.

وأصيب محمد كامل الخلعي بالشلل في أواخر أيام حياته، ولم يبادر إلى علاجه من هذا الداء العضال هؤلاء الذين ملأ نفوسهم بهجة وآذانهم طربًا بسماع ألحانه الشجية، إذ لم يستطع معالجة نفسه لأنه لم يدخر شيئًا من مكاسبه، وفي شهر يونية عام ١٩٣٨م (١٣٥٧هـ) وافته المنية بالقاهرة بالغًا من العمر حوالي ٥٩ عامًا، ولم يشيعه إلى دار البقاء إلا قلة من أقاربه ومريديه، وكان يسكن بمنزل متواضع بإحدى الحارات المتفرعة من شارع محمد علي.

وكما يقال في الأمثال «عندما كان حيًّا كان يشتهي بلحة، فلما مات علقوا سباطة على قبره» ففي عام ١٩٦٦م أي بعد وفاته بثمانية وعشرين عامًا احتفل معهد الموسيقى العربية بذكراه، واحتفلت الإذاعة المصرية بهذه الذكرى، وأذيع في الحفلين بعض من ألحانه وأدواره، وقرر المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية جمع تراث الموسيقي المسرحي. وهكذا الدنيا لا تحول وجهها نحو المحسنين صنعًا إلا بعد أن يطويهم الموت في غياهب القبور فتنظر أرواحهم إلى العالم الدنيوي والابتسامة الساخرة على وجهها النورية ووصفه الدكتور حسين فوزي بأنه كان ذا موهبة أصيلة في التأليف الموسيقي بل وعبقريته، وأنه كان عالمًا من علماء الموسيقى، مطلعًا على تاريخها العربي، متابعًا لأثر الموسيقى التركية فيها، عارفًا ببعض ما كتب علماء الغرب عنها، وأنه درس أعلامها من سابقيه ومعاصريه أمثال: أبو خليل القباني، والشيخ المسلوب، وعبده الحامولي، وإبراهيم القباني، ومحمد عثمان، وسلامة حجازي، وداود حسني، وسيد درويش (انظر مادتي داود حسني، والشيخ سيد درويش).

وقال الأستاذ توفيق الحكيم إن فن الموسيقى كما عرفه هو ومعاصروه كان يلمع منذ ثلاثين عامًا في ثلاثة هم: داود حسني، وسيد درويش، وكامل الخلعي.

ولقد استمتعت الإسكندرية، واستمتع أهلها بسماع صوت محمد كامل الخلعي، وتذوقوا ألحانه المتطورة التجديد فيما كان يحييه من حفلات الأفراح والمناسبات السارة، وكان أهل الإسكندرية ينتظرون إقامتها بما تستحق من شوق وتقدير ويهرعون إلى سرادقها يقضون لياليها العذبة في الترنيم بين تصفيق واستحسان حتى مطلع الفجر.

ومن أشهر الأغاني التي لحنها وغناها هذه الأغنية:

يا وُلاَةَ العشقِ قلُّوا

مِنْ ملامي في غزالْ

لا مُقامُ العشقِ سهلٌ

لا ولا حُبُّ الجِمالْ

مُهجَتي كم حَلَّ فيها

من تباريح السِقامْ

مَسْمَعي ليس يملّْ

فاتركو قِيلاً وقالْ

رحم الله محمد كامل الخلعي، وأكرم مثواه في أبدية الخلود.

٥٨٠- خليل إبراهيم - شارع - بقسم الرمل

كان من كبار العصاميين المصريين، اشتغل بالمحاماة وأسس جمعية التوفيق القبطية، وتوفي عام ١٩٢٤م (١٣٤٣هـ).

٥٨١- خليل إبراهيم - شارع - بقسم الرمل

تلقى خليل إبراهيم التعليم في مراحله الأولى بالمكاتب المصرية ثم التحق بمدرسة الطب، واختير بعد ذلك للسفر ضمن أعضاء البعثة الأولى إلى النمسا في عهد عباس الأول فسافر إليها في ١٢ من يونية عام ١٨٤٩م (١٢٦٦هـ)، وكانت النمسا في ذلك الحين زعيمة الممالك الجرمانية وكان لها بعض النفوذ على هذه الممالك، وكان اسمها يطلق على الرقعة التي تضم النمسا وألمانيا معًا، وكان خليل إبراهيم أفندي يتقاضى مرتبًا شهريًّا قدره ٢٥٠ قرشًا، لأنه تخرج من مدرسة الطب بالقاهرة برتبة الملازم الثاني، وكانت أسرته تقبض هذا المرتب في مصر بتوكيل منها إلى منشاوي أفندي الطبيب بترسانة بولاق، وظل خليل إبراهيم يدرس في تلك البلاد، وعاد إلى الوطن في ٢٢ من نوفمبر عام ١٨٥٢م (١٢٦٩هـ)، وعين إثر رجوعه طبيبًا في جبل قيسان لعلاج رجال وعمال التعدين الذين كلفوا باستخراج الذهب والكشف عن مناجمه في ذلك الجبل، وجاء في الأمر الصادر من الخديوي في ١٤ من رمضان عام ١٢٨٣هـ (٢٠ يناير عام ١٨٦٧م) بترقية بعض ضباط البحرية وغيرهم من الذين امتازوا بخدماتهم الجليلة بالبواخر أن اليوزباشي (النقيب) خليل إبراهيم أفندي طبيب الباخرة «البحيرة» قد رقي إلى رتبة صاغقول أغاسي (الرائد)، ويفهم من الأمر الآنف الذكر أنه التحق بالبحرية المصرية في عهد الخديوي إسماعيل حتى إحالته على التقاعد ولا يعرف تاريخ ومكان وفاته.

٥٨٢- خليل بك - حارة - بقسم الجمرك

هو خليل محمود أحد طلاب البعثة العلمية الثالثة التي أرسلها محمد علي إلى فرنسا عام ١٢٤٢هـ (١٨٢٦م)، وكان عمره في ذلك التاريخ ٢٣ عامًا، ومن ثم يكون قد ولد بالقاهرة عام ١٢١٨هـ (١٨٠٣م) وكان مرتبه الشهري أثناء البعثة ١٠٠ قرش، وقد درس علم الفلاحة بمدينة «روفل» وكان يزامله في هذه الدراسة طالب آخر يدعى يوسف أفندي الأزمع الذي عاد معه لي مصر عام ١٢٤٨هـ (١٨٣٢م)، ووصل في ترقياته إلى منصب ناظر مدرسة الزراعة بنبروه، ثم عين ناظرًا لبساتين محمد علي وبساتين أولاده من بعده، وسميت باسمه الفاكهة المعروفة «بيوسف أفندي» لأنه هو الرجل الذي أوجدها بمصر، وقد حصل خليل محمود على رتبة البكوية.

ولا يعرف عن خليل محمود هذا شيء بعد عودته من البعثة التي استغرقت ست سنوات، ولا يعرف تاريخ وفاته، والحارة التي تحمل اسمه بقسم الجمرك مازالت تعرف حتى الآن «بحارة حاصل النحوش» كما يدعوها أهل حي أبي وردة، ومازالت تضم في منتصفها خرابة غير مسقوفة تحتوي

على أربعة نعوش كتب على كل منها اسم المرحوم الذي تبرع بها ليحمل فيها الموتى إلى مقرهم الأبدي، ثم تعود إلى خرابتها بعد الدفن فتوضع قائمة مسنودة على الحائط في انتظار أموات آخرين، وفي حرب القرم عام ١٨٥٣م، كان خليل بك آخر رتبة قائمقام (عقيد) قائدًا للسفينة «جهاد أباد» وهي إحدى السفن الاثنتي عشرة التي سافرت من الإسكندرية لمعاونة تركيا في تلك الحرب، وكانت الحملة بقيادة حسن باشا الإسكندراني.

وفي هذه الحارة وعند مطلع الفجر من اليوم الخامس من شهر أكتوبر عام ١٨٩١م (١٣٠٩هـ) رأيت نور الحياة في كنف منزل رحب كان معروفًا باسم «السرايا أم عواميد» أي القصر ذو الأعمدة، لأن حجرة كبيرة منه كانت قائمة على عمودين مستديرين من الحجر الأبيض، وتخرج بأكملها في عرض الحارة، وقد هدمت هذه السرايا بأكملها عند شق شارع إسماعيل صبري باشا (انظر هذه المادة).

٥٨٣- الخليل بن أحمد - شارع - بقسم مينا البصل

هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي (أو الفرهودي) الأزدي اليحمدي، كان إمامًا في علم النحو، وكان فقيهًا لغويًّا من أهل عمان، وقد درس الحديث وفقه اللغة على أيوب السختياني، وعاصم الأحول، والعوام بن حوشب وغيرهم.

وعملاً بنصيحة أستاذه «أيوب السختياني» تخلى الخليل عن المذهب الإباضي الذي هو مذهب من مذاهب الخوارج الذين خرجوا على الإمام علي بن أبي طالب لقبوله التحكيم (انظر مادة الإمام علي)، واعتنق مذهب أهل السنة القويم.

ويشهد جميع مؤرخيه بشدته وورعه وتقواه وعزوفه عن الدنيا ومباهجها فقضى حياته فقيرًا، ومن تلاميذه المشهورين: سيبويه، والأصمعي، والنصر بن شميل، والليث بن المظفر ابن نصر (انظر مواد: سيبويه، والأصمعي، وابن شميل، وابن نصر).

ويتفق جميع كتاب السير على أن الخليل بن أحمد واضع علم العروض وقواعده للشعر العربي، ومازالت طريقته هي السائدة حتى اليوم على الرغم من المحاولات الكثيرة التي بذلت لوضع طرق أخرى تحل محلها.

ويقول ابن خلكان في كتابه «وفيات الأعيان» إن الخليل استنبط علم العروض وأخرجه إلى الوجود وحصر أقسامه في خمس دوائر يستخرج منها خمسة عشر بحرًا، ثم زاد عليها الأخفش (انظر هذه المادة) بحرًا واحدًا وسماه «الخبب»، وقد قيل: إن الخليل دعا ربه في مكة أن يرزقه علمًا لم يسبقه إليه أحد ولا يؤخذ إلا عنه، فلما عاد من الحج فتح الله عليه بعلم العروض، وإن كان في هذه الرواية ما يدل على سذاجة التصور والتواكل إلا أن الواقع قد حقق ما كان الخليل يصبو إليه، ويضيف ابن خلكان أن معرفة الخليل بالإيقاع والنغم مكنتْه من استنباط علم العروض إذ إنهما متقاربان من هذا العلم فيما يتعلق بالمأخذ.

ويقول حمزة بن الحسن الأصبهاني في كتابه «التنبيه على حدوث التصحيف»: «إن دولة الإسلام لم تُخرج أبدع للعلوم التي لم يكن لها عند علماء العرب أصول من الخليل بن أحمد،

والبرهان على ذلك هو علم العروض الذي لم يأخذه عن أحد غيره ممن تقدموه، فقد اخترعه من ممر له بالصفارين من وقع مطرقة على طست ليس فيهما حجة ولا بيان يؤديان إلى غير حليتهما أو يفسران غير جوهرهما، فلو كان أيامه قديمة ورسومه بعيدة لشك فيه بعض الأمم لصنعته ما لم يصنعه أحد منذ خلق الله الدنيا من اختراعه العلم الذي قدمت ذكره، ومن تأسيسه بناء كتاب العين الذي يحصر لغة أمة من الأمم قاطبة، ثم من إمداده سيبويه من علم النحو بما صنف منه كتابه الذي هو زينة لدولة الإسلام».

وواضح من قول ابن خلكان وقول حمزة بن الحسن وثنائه أن للخليل بن أحمد مكانة عالية عند القدامى من علماء العرب بما أنتج من مصنفات في النحو والعروض وغيرهما من ألوان المعرفة النافعة.

وكان الخليل رجلاً صالحًا، عاقلاً، حليمًا، وقورًا، كريم الأخلاق، عطر السيرة، ومن كلامه: «لا يعلم الإنسان خطأ معلمه حتى يجالس غيره»، ويقول النضر بن شميّل تلميذه الأثير عنده إن الخليل أقام في خص من أخصاص مدينة البصرة (انظر هذه المادة) لا يقدر على اكتساب فلسين، على حين أن أصحابه كانوا يكسبون بعلمه الأموال الطائلة، وكان يقول: «إني لأغلق عليّ بابي فما يجاوزه همي»، وكان يردد قوله: «أكمل ما يكون الإنسان عقلاً وذهنًا إذا بلغ أربعين سنة، وهي السن التي بعث الله تعالى فيها محمدًا صلى الله عليه وسلم، ثم يتغير وينقص إذا بلغ ثلاثًا وستين سنة، وهي السن التي قبض الله فيها رسول الله، وأصفى ما يكون ذهن الإنسان وقت السمر»، وليس من السهل الموافقة على ما ذهب إليه الخليل بن أحمد في هذا الصدد، فقد أثبت علم النفس الحديث أن عقلية الإنسان تستمر في النمو والنضوج حتى الهرم طالما بقي جسم الإنسان سليمًا والمخ يقظًا، وكم من عالم تجاوز الثمانين أو التسعين من العمر، وظل إنتاجه الفكري في المستوى الرفيع لم تقلل الأعوام من نشاطه وحيويته.

وكان سليمان بن حبيب بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي والي فارس والأهواز يمد الخليل براتب من المال وفي ذات يوم كتب إليه يستدعيه ليحضر عنده فكتب إليه الخليل هذه الأبيات التي تدل على كبريائه وإبائه وعرفانه بعلمه وفضله:

أَبْلغْ سليمانَ أنِّي عنه في سِعَةٍ
وفي غنى غيرَ أنِّي لَسْتُ ذا مالِ

شحا بنفسيَ أنِّي لا أرى أحدًا
يموتُ هزْلاً ولا يبقَى على حالِ

الرزقُ عن قدرٍ لا الضَعْفُ يُنْقِصُهُ
ولا يَزيدُكَ فيه حَوْلُ محتالِ

والفقرُ في النفسِ لا في المالِ تَعْرِفُهُ
ومثلُ ذاكَ الغِنَى في النفسِ لا المالِ

فقطع سليمان بن حبيب الراتب فقال الخليل:

إنَّ الذي شقَّ فمي ضامنٌ
للرزقِ حتى يَتوفَّاني

حَرَمْتَني مالاً قليلاً فما
زادكَ في مالِكَ حِرْماني؟

فبلغت سليمان فأقامته وأقعدته، وكتب إلى الخليل يعتذر إليه، وضاعف راتبه فقال الخليل:

وزلةٍ يكثر الشيطانُ إن ذُكِرَتْ
مِنْها التعجبُ جاءت من سُلَيْمانَا

لا تعجبنَّ لخيرٍ زل عن يَدِهِ
فالكوكبُ النحسُ يَسْقي الأرضَ أحيانَا

واجتمع الخليل ذات ليلة بابن المقفع (انظر هذه المادة)، وامتد السمر بينهما طوال الليل، ولما تفرقا قيل للخليل: كيف رأيت ابن المقفع؟ قال: رأيت رجلاً علمه أكثر من عقله، وقيل لابن المقفع: كيف رأيت الخليل؟ قال: رأيت رجلاً عقله أكثر من علمه.

ومن مؤلفات الخليل كتاب «العين في اللغة» وهو مشهور، و«كتاب العروض»، و«كتاب الشواهد» و«كتاب النقط والشكل»، وفي هذا الكتاب كان الخليل أول من ابتدع وضع النقط على الحروف العربية وتشكيلها للنطق بها صحيحة، وبعيدة عن اللحن، ويلاحظ أن المغاربة ولاسيما الجزائريين مازالوا يضعون هذه النقط على الحروف كما وضعها الخليل فهم يضعون نقطة واحدة فوق حرف القاف ويضعون نقطة تحت حرف الفاء بدلاً من نقطتين فوق القاف، ونقطة واحدة فوق الفاء على غرار المتبع في الشرق العربي، وللخليل كتاب في «النغم» مما يدل على أنه كان على علم واسع النطاق بالأغاني في عصره، وله كتاب آخر في «العوامل».

وكان الخليل أول من صنف معجمًا عربيًّا هو كتاب «العين» والظاهر أنه رتبه على حروف الهجاء عند نحاة السنسكريتية وهي التي تبدأ بحروف الحلق حتي تصل إلى حروف الشفة، وقد روى ابن منظور (انظر هذه المادة) في لسان العرب أن الخليل رتب معجمه على ترتيب الحروف الآتي: العين، الحاء، الهاء، الخاء، الغين، القاف، الكاف، الجيم، الشين، الضاد، الصاد، السين، الزين، الطاء، الدال، الثاء، الظاء، الذال، الثاء، الراء، اللام، النون، الفاء، الباء، الميم، الياء، الواو، الألف.

وأكثر العلماء العارفين باللغة يقولون إن كتاب «العين في اللغة»، المنسوب إلى الخليل ليس تصنيفه وإنما كان قد شرع فيه ورتب أوائله، وسماه «بالعين» ثم توفي فأكمله تلامذته النضر بن شميل، ومن في طبقته كمؤرج السدوسي، ونصر ابن علي الجهضعي وغيرهم، فما جاء علمهم مناسبًا لما وضعه الخليل في الأول فأخرجوا الذي وضعه الخليل منه ومن ثم وقع في الكتاب خلل كثير يبعد وقوع مثله من الخليل، وقد صنف ابن درستويه في ذلك كتابًا استوفى الكلام فيه، وهو كتاب مفيد في هذا الصدد.

ويقول المستشرق «محمد بن شنب» الجزائري في دائرة المعارف الإسلامية أن الذي ألف كتاب العين هو تلميذ الخليل ابن أحمد الليث بن المظفر بن نصر، ويذهب قول آخر إلى أن النضر بين شميل صنف هذا المعجم على الأساس الذي وضعه أستاذه، أو أنه هو الذي أتمه، ويضيف الأستاذ محمد بن شنب أنه يحق لنا أن نعتقد أن هذين القولين ماهما إلا محاولة للتقليل من شهرة الخليل، وهذا ما أعتقده وأوافق الأستاذ ابن شنب عليه إذ لا يعقل أن هذا الرجل الزاهد الذي قضى حياته في نشر العلم يترك هذا المعجم دون أن يتمه قبل موته.

ومهما يكن من شيء فإنه لم يصل إلى القراء من هذا المعجم سوى المختصر الذي ألفه أبو بكر الزبيدي (انظر مادة الزبيدي) الفقيه اللغوي الأندلسي، وثمة مصنفات أخرى تنسب إلى الخليل، ولكن الشك ليس قليلاً في صحتها، وصحة الصور التي وصلت إلى القراء بها، وهذه الكتب هي: كتاب في معنى الحروف، وماتزال نسخة منه بمكتبة برلين، وكتاب شرح صرف الخليل، وتوجد نسخة منه بمكتبة برلين، وكتاب يحتوي على جملة من أساليب الإعراب وتوجد نسخة منه بمكتبة «آيا صوفيا» بإستانبول، وفقرة عن تصريف الفعل بمكتبة بودليان.

وكان للخليل ولد متعجرف قليل الإدراك فدخل عليه يومًا وهو يقطع بيتًا من الشعر ويزنه عروضيًّا، فخرج إلى الناس يقول: إن أبي قد جن، فدخل الناس على الخليل وأخبروه بما قال ولده فأنشد مخاطبه:

لو كنت تعلمُ ما أقولُ عَذَرْتني
أو كنتَ تعلمُ ما تقولُ عَذَلْتُكا

لكن جَهِلْتَ مقالتي فَعَذَلتني
وعلمتُ أنكَ جاهلٌ فَعَذَرْتُكا

ومن شعره في الغزل قوله:

يقولونَ لي دارُ الأحِبَّةِ قدْ دَنَتْ
وأنتَ كئيبٌ إنَّ ذا لَعجيبُ

فقلتُ وما تُغْني الديارُ وقربُها
إذا لم يكنْ بينَ القلوبِ قريبُ

وكان يتردد عليه رجل يتعلم العروض، وكان قليل الفهم، فمكث يتعلم عليه مدة من الزمن دون أن يفقه شيئًا من علم العروض، فقال له الخليل يومًا: قطع هذا البيت:

إذا لم تستطع شيئًا فدعه
وجاوزه إلى ما تستطيع

فأخذ في تقطيعه قدر معرفته، ثم نهض ولم يعد إلى الدرس فعجب الخليل من فطنته لما قصده في البيت مع قصر فهمه.

وقد أخذ سيبويه عنه علوم الأدب، ويقال: إن أباه أحمد كان أول من سمي بهذا الاسم بعد رسول الله صلي الله عليه وسلم، وقد ولد العالم الجليل الخليل بن أحمد عام ١٠٠هـ (٧١٨م) ووافته المنية عام ١٧٠هـ أو ١٧٥هـ (٧٨٦ - ٧٩١م) بالغًا من العمر ٧٠ أو ٧٥ عامًا، ودفن بمدينة البصرة، وكان موته بسبب صدمة من سارية أمام المسجد الذي قصده للصلاة، وكان منهمكًا في التفكير في مسألة حسابية دقيقة فانقلب على ظهره، ومات بعد ذلك بأيام قليلة.

٥٨٤- خُمارَويه - شارع - بقسم الرمل

هو خُمارَويه بن أحمد بن طولون (انظر مادة ابن طولون) ولد بالقاهرة عام ٢٥٠هـ (٨٦٤م)، وكان والده قد أقامه نائبًا له في مصر عام ٢٦٩هـ (٨٨٢م) أي وهو في حوالي العشرين من عمره، ثم جعله ولي عهده، وذلك نزولاً على رغبة قواده عندما كان يحارب في حملة له على شمال الشام، وقد اتخذ هذا القرار قبيل وفاته في ذي القعدة عام ٢٧٠هـ (٨٨٤م)، ويلقب خمارويه بـ«أبو الجيش».

وسبب اتخاذ أحمد بن طولون هذا القرار متخطيًا ابنه الأكبر عباس يرجع إلى أن عباسًا خرج عن طاعته لسوء سلوكه إذ كان فظًّا أرعن لا يعول عليه في إدارة الحكم وتصريف الأمور بالحكمة الواجبة.

ولقد أظهر أحمد بن طولون وهو على فراش الموت ميلاً إلى مصالحة الموفق بالله أخي الخليفة العباسي المعتمد على الله (انظر هذه المادة) الذي كان على جانب عظيم من القوة والنفوذ، وكان المعتمد قد أخذ ينظر إلى هذا الميل السلمي بعين الرضا، ولكن المفاوضات في هذا السبيل لم تتم بسبب وفاة أحمد بن طولون الذي كان يطمح من وراء هذه المفاوضات إلى تنصيبه حاكمًا على مصر والشام من قبل الخليفة المعتمد.

وتولى خمارويه الحكم عقب وفاة أبيه، وكان عمره عشرين عامًا، وبعد ذلك بستة أعوام أي في سنة ٢٧٦هـ (٩٨٦م) تحرك اثنان من أتباع الموفق أخي الخليفة المعتمد، وهم ابن كنداد والي دمشق والأفشين محمد بن أبي السارح والي أرمينية والجبال في شمال الجزيرة، تحركا على رأس جيشهما إلى الشام لمعاونة الموفق الذي تنازل لابن كنداج عن أنطاكية وحلب وحمص في مقابل معاونته وقصد الجيشان مصر فلقيهما خماوريه في دمشق ونجح في إخماد الفتنة في المدينة، ثم تقدم بجيشه حتي بلغ شيراز على نهر العاصي متعقبًا جنود ابن كنداج وابن أبي الساج المنهزمين.

وحل الشتاء فاضطر الفريقان المتحاربان إلى الالتجاء إلى مشتيهما، ولكن في ذلك الحين نفسه كان الأمير أحمد بن الموفق قد بلغ الشام على رأس جيش الخليفة العباسي المعتمد على الله، وسرعان ما اقتحم جيشه وجيش ابن كنداج معاقل الجيش المصري، وألحقا به الهزيمة ففرت فلوله إلى دمشق ثم إلى الرملة عقب طردها من دمشق.

غير أن أحمد بن الموفق تشاحن مع قائدي جيش الخليفة فتخليا عنه، وكان خمارويه قد وصل في ذلك الوقت نفسه إلى الرملة على رأس جيش كبير يقال إن عدده كان سبعين ألف مقاتل.

وفي ١٦ شوال عام ٢٧١هـ (١٦ إبريل ٨٨٥م) تقابل الجيشان، ودارت بينهما معركة الطواحين المشهورة في شمال مدينة يافا غير أن خمارويه لم يكن قد اشترك في القتال قبل ذلك، ومن ثم لم تدم مقاومته وفر راجعًا إلى مصر، ومعه معظم رجال جيشه.

وعندئذ انقض جيش أحمد بن الموفق على معسكر المصريين ولما شرع جنوده في أعمال النهب تصدت لهم كتيبة من الجنود المصريين كانت قد بقيت هناك للاستعانة بها عند الحاجة فظن أحمد بن الموفق أن خمارويه قد عاد هو وجنوده فلاذ بأذيال الفرار، والتجأ إلى دمشق، ولكن والي المدينة أوصد الأبواب في وجه جنده فذهبوا إلى طرطوس في جنوب شرق آسيا الصغرى (الأناضول) وقد وقع عدد كبير من هذا الجيش في الأسر، ثم نقلوا إلى مصر وتدل هذه المعركة غير المتكافئة على بسالة الجنود المصريين وشجاعتهم الفائقة، فكتيبة واحدة منها استطاعت بصمودها البطولي صد جيش كبير، والتغلب عليه وإجباره على الفرار تاركًا جزءًا كبيرًا من جنوده رهن الأسر.

ولقد أظهر خمارويه عطفًا خيرًا إزاء هؤلاء الأسرى فجعل لهم حرية الاختيار بين العودة إلى العراق دون دفع أي

فدية، أو البقاء في دولته. أما أحمد بن الموفق فعاد إلى الجزيرة في شمال العراق.

وفي ذلك الحين أخذ في مفاوضة الموفق بالله، وانتهى الأمر في عام ٢٧٣هـ (٨٨٦م) إلى الاعتراف بخمارويه واليًا على مصر والشام وتخوم آسيا الصغرى (الأناضول) وأرمينية مدة ثلاثين عامًا في مقابلة جزية ضئيلة القدر يؤديها سنويًّا إلى الخليفة العباسي.

وخاض خمارويه المعارك في عامي ٢٧٣ و٢٧٧هـ (٨٨٦ – ٨٩٠م) ضد الولاة الخارجين عن طاعته، وانتهت هذه المعارك الطويلة الأمد بالاعتراف بسيادته على الجزيرة أيضًا.

وفي شهر رجب عام ٢٧٩هـ (أكتوبر عام ٨٩٣م) توفي الخليفة العباسي المعتمد على الله، وتولى الخلافة بعده أحمد بن الموفق، وتلقب بالمعتضد فثبت خمارويه في ملكه، فرأى خمارويه توثيق الصلات بالخليفة فعرض عليه ابنته (قطر الندى) لتكون زوجة لابنه، غير أن الخليفة المعتضد اختارها لنفسه وتزوجها، واسم قطر الندى أسماء، وكان زواجها عام ٢٨١هـ (٨٩٤م) في قول بعض المؤرخين أو عام ٢٨٢هـ (٨٩٥م) في قول البعض الآخر، وتقول الروايات إن مهرها بلغ ما يوازي خمسين ألفًا من الجنيهات، وأنها كانت باهرة الجمال عظيمة الذكاء.

وقد ضحى خمارويه بأموال وفيرة في سبيل جهازها ويقول بعض المؤرخين إن الخليفة المعتضد أراد بزواجه من قطر الندى إفقار الدولة الطولونية في مصر، وقد تحقق له ما أراد، فجهاز قطر الندي تجاوز كل وصف وحسبان، ولم يسمع بمثله حتى قيل: إن الجهاز كان يضم مئات الهواوين من الذهب الخالص وأواني كثيرة من الذهب والفضة، وجواهر وحليًّا هائلة القيمة.

وإن كان في روايات المؤرخين بعض المغالاة في وصف هذا الجهاز فإن مما لا شك فيه أن خمارويه أسرف إلى حد بعيد في الإنفاق على هذا الجهاز الخيالي من الخزانة المصرية العامة، يؤيد ذلك قول المستشرق «سوبرنهيم M . Sobernheim» في دائرة المعارف الإسلامية بأن التباين بين ثراء خمارويه – وهو مجرد والٍ من ولاة الخليفة المعتضد – كان واضحًا وعجيبًا في هذه المناسبة (أي مناسبة الزواج)، ذلك أن الخليفة كان لا يستطيع جباية الأموال من الأقاليم لأن ولاتها المستقلين قد احتفظوا لأنفسهم بكل الدخل، ولم يقدموا إليه إلا جزية متواضعة، ويروى أن الأميرة قطر الندى عندما جاءت إلى بغداد بحث الخليفة ورئيس خدمته عن شمعدانات لاستقبالها الاستقبال اللائق بها، ولكن الرواة يقولون أن الخليفة لم يستطع أن يجمع أكثر من خمسة شمعدانات مموهة بالذهب والفضة، ثم سمع أن الأميرة جاءت وفي صحبتها مائة وخمسون خادمًا يحمل كل منهم شمعدانًا مموهًا بالذهب والفضة وعندها قال الخليفة لكبير خدمه: هلم ودعنا نختفي من الأعين حتى لا يرانا الناس في هذا الفقر.

فإن صحت هذه الرواية ثبت البذخ والإسراف اللذان اكتنفا النفقات الباهظة التي بذلت في أبهة هذا العرس السفيه.

ولابد أن قطر الندى قد سيطرت بجمالها وذكائها على الخليفة المعتضد، ويتضح ذلك من الروايات والقصص التي كتبها الرواة في هذا الصدد، فقد قالوا أن الخليفة دخل غرفتها

ذات مرة فبادرته بقولها: «وا حسرتاه لقد مات أبي!!»، فلما سألها كيف عرفت ذلك؟ أجابته: «إنك كنت تقدم علي وتجثو على ركبتيك وتعفر جبينك في تراب الأرض تحية لي، أما الآن فلا تقول إلا طاب يومك»، وتوضح هذه الرواية ما كان لهذه الأميرة الجميلة من سيطرة قوية على زوجها الخليفة المتيم بهواها الضعيف أمام ذكائها.

وكان من الطبيعي – إزاء إسراف خمارويه في حياته الخاصة وفي البذخ الذي بذله في زواج ابنته – أن يصيب الضرر الفادح مالية مصر والبلاد التي كانت خاضعة لحكمه، ومن الشواهد على هذا السفه في الإسراف ما كان ينفقه على أبهة بلاطه وعلى تشييد العمائر الغالية التكاليف من ذلك أنه أنشأ بركة من الزئبق في فناء قصره ترتكز على عمد لتخفف عنه ما يلاقي من سهاد، فكان يرقد على سطح الزئبق على وسائد مملوءة بالهواء، مشدودة إلى عمد، وكانت هذه الوسائد تُرَجَّحُ برفق قيام على هزَّاتها الوئيدة، يضاف إلى ذلك أن الاتفاق بينه وبين الخليفة المعتضد – زوج ابنته – كان يلزمه بدفع مائتي ألف دينار سنويًّا إليه، وقد قام بدفع هذا المبلغ حتى وفاته.

ووقع خمارويه فريسة مؤامرة دبرت له، وكان مايزال في عهد الشباب، فقد بلغه أن زوجته المحبوبة تخونه مع أحد خدمه، وأراد هذا الخادم أن ينجو من العقاب فصمم على قتل مولاه فانقض عليه هو ونفر من المتآمرين وقتلوه، وكان قتله بدمشق في فراشه ليلة الأحد ٢٧ من ذي القعدة عام ٢٨٢هـ (٨٩٥م) وكان عمره ٣٢ عامًا، وحمل تابوته إلى القاهرة ودفن بجوار قبر أبيه أحمد بن طولون بسفح المقطم، وكان من أحسن الناس خطًّا، وكان وزيره أبوبكر محمد علي المارداني.

وتوفيت قطر الندى في ٩ رجب عام ٢٨٧هـ (٩٠٠م) وهي ماتزال في ميعة الشباب الغض ودفنت داخل قصر الرصافة ببغداد.

وعندما حملت قطر الندى إلى زوجها المعتضد خرجت معها عمتها العابسة بنت أحمد بن طولون مشيعة لها إلى آخر حدود مصر من جهة الشام ونزلت هناك وضربت فساطيطها وأمرت ببناء قرية في هذا المكان فسميت باسمها قيل لها العابسة، ويقول ابن خلكان في كتابه «وفيات الأعيان» عندما تعرض لترجمة «خمارويه» إن هذه القرية كانت عامرة إلى وقت رؤيته لها وإن بها جامعًا حسن البناء وسوقًا كبيرة حافلة بالمشترين.

ويجمع المؤرخون على أن خمارويه قد أفاء على بلاده عهد الأمن والسلام فنجت مصر من شرور الحروب طوال عهده إلا أنه كان السبب في إصابتها بشيء كثير من الضرر نتيجة إسرافه وبذخه حتى أن أولاده الذين خلفوه فقدوا سلطانهم وسيطرتهم بحالة مطردة، ومن ثم سقطت الدولة الطولونية عام ٢٩٢هـ (٩٠٥م) بعد موته بعشر سنوات فقط.

ومن أعمال خمارويه العمرانية إعادته الزيادات التي عدمت إثر حريق شب في جامع عمرو بن العاص بالفسطاط وأدخل على هذا الجامع بعض التحسينات، وكان والده أحمد ابن طولون أقام على قمة المنارة الشهيرة بالإسكندرية قبة من الخشب تهدمت إحدى قوائمها من الجهة الغربية بعد وفاة أحمد بن طولون، فلما تولى خمارويه الحكم بادر إلى بنائها مما يلي

البحر فبقيت القبة قائمة إلى أن تهدم نحو ٣٠ ذراعًا من قمة المنارة بسبب الزلزال الذي حدث يوم العاشر من شهر رمضان عام ٣٤٤هـ (٢٨ ديسمبر عام ٩٥٥م).

وخلدت اسم قطر الندى الأغنية الشعبية التي مازالت تتردد على الألسنة في مصر وفي بعض الأقطار العربية كلما أقيمت أفراح الزفاف، وهي (الحنة الحنة، يا قطر الندى، يا شباك حبيبي يا عيني، جلاب الهوى).

٥٨٥ – خير الله بك – حارة – بقسم الجمرك

هو أحمد خير الله، ولد بمدينة دمنهور بمديرية البحيرة (محافظة البحيرة حاليًّا)، ويرجع نسبة إلى أسرة الحوفي إحدى الأسر الشهيرة بدمنهور، وقد تعلم أحمد خير الله في مدارس مصر، ثم اختير للسفر إلى فرنسا بين طلبة البعثة الثانية التي أرسلت إلى فرنسا في عهد محمد علي عام ١٨٤٤م (١٢٦٠هـ) فدخل المدرسة الحربية المصرية التي أنشأها محمد علي بباريس، وألحق بالفصل الثاني منها، وكان مرتبه الشهري ٢٥٠ قرشًا، وظل يواصل دراسته بهذه المدرسة إلى أن أتم تعليمه الحربي وعاد إلى الوطن في عهد عباس الأول وتقلب عقب عودته في عدد من الوظائف الحكومية، وشغل وظيفة ناظر القلم الإفرنجي بمحافظة الإسكندرية، ثم اختير عضوًا لمجلس مديرية البحيرة، وعين بعد ذلك رئيسًا لعلم البسابورتات (الجوازات) بجمرك الإسكندرية وظل يشغل هذه الوظيفة إلى أن توفي فجأة في ٥ من جمادى الأخرى عام ١٣٠٨هـ (٦ من يناير عام ١٨٩١م)، ودفن بالإسكندرية، وقد رثاه مصطفى باشا صبحي مدير الغربية في ذلك الحين بقصيدة عدد فيها مناقبه.

وخلف خير الله بك ولدين هما محمد كمال خير الله وعاش كفيفًا يتقاضى معاشًا عن والده، وهو والد محمد أفندي منجي خير الله الذي كان مدرسًا للحساب بمدرسة إبراهيم الأول التابعة لجمعية العروة الوثقى، وكانت في ذلك الحين بالقرب من جامع طاهر بك في نهاية شارع الحجاري، ويشرفني أني كنت أحد تلاميذ المرحوم منجي أفندي خير الله الذي كان شاعرًا وخطيبًا مفوهًا، فكان يدرس لنا بعض الحساب المتعلقة بالكسور الاعتيادية والكسور العشرية بالشعر فيقول مثلاً:

يا نعمة الله سيري

نحو بيت المسيري

ويتابع هذا البيت بأبيات أخرى تقول «لنعمة الله» أن تتحف المسيري – وكان أحد تلاميذ الفصل – بـ ٣/٤ المتر ونصف المتر من الحرير، ثم خمسة أسداس المتر من الصوف، وهكذا كان علينا أن نحفظ هذا الشعر الحسابي المرح ونجد نحو الحلول للمسائل.

وعند ظهر أيام الخميس كان يجمعنا في حوش المدرسة، وكان ناظرها الأستاذ حسين غاربو، أطال الله بقاءه، ويترك الفصحاء منا يعبرون عن خلجات أنفسهم باللغة العربية الفصحى، ويفرض غرامة قدرها مليم واحد على كل خمس غلطات نحوية أو لفظية ومن هذه الغرامات كان يشتري هدية من الكتب النافعة ويقدمها للثلاثة المتفوقين في الخطابة، وحسن الإلقاء، وكان يختتم هذا الاجتماع الثقافي الأسبوعي بكلمة واعظة في الأخلاق الكريمة، أو بقصيدة تحض على التمسك

بالفضائل وترك الرذائل، وأذكر من هذه القصائد بيتًا من قصيدة ينهى فيها عن التدخين فيقول:

«شريك» الدخان داء

وتركك له دواء

وقد صار منجي أفندي خير الله في آخر أيام خدمته بجمعية العروة الوثقي أمينًا لمخازنها بمدرسة محمد علي الصناعية بالشاطبي، وكان له نجل توفي أخيرًا هو المستشار حسني خير الله الذي صار مستشارًا قضائيًّا بالسعودية، ونجل ثان هو مفيد خير الله من موظفي المحاكم الوطنية وتوفي بعد أخيه بقليل، أما نجل أحمد خير الله بك الثاني فكان مترجمًا بقلم محضري محكمة الإسكندرية المختلطة، وتوفي منذ زمن بعيد رحم الله الجميع.

حرف الدال



٥٨٦- دار الولادة - شارع - بقسم باب شرقي (معهد الولادة حاليًّا)

اطلب التعريف به في «معهد الولادة».

٥٨٧- داود (سيدي) - شارع - بقسم الجمرك

اطلب ترجمته في «سيدي داود».

٥٨٨- داود حسني - شارع - بقسم باب شرقي (باب جعا سابقًا)

ولد داود حسني من أبوين يهوديين في شهر أغسطس عام ١٨٧٠م (١٢٨٧هـ) بحي وكالة الصناديقية بالسكة الجديدة بالقاهرة، وكان والده صائغًا ماهرًا مبتكرًا وإليه ينسب ابتكار «حب الصفا» من الذهب البندقي الصافي الذي تتزين به الريفيات، وقد حصل من هذا الابتكار على مال وفير، أما أمه فكانت أعرابية جميلة، وقد شجعت ابنها على ممارسة هوايته الفنية عندما وجدت فيه الميل والذوق الفني وحب الغناء، فقد كان يصحو عند الفجر لينصت إلى أصوات المؤذنين على الرغم من عقيدته اليهودية ويصغي إلى دقات أجراس الكنائس في انتباه شديد، وفطنت والدته إلى هذه النزعة الفنية في وجدان ولدها الصغير فشجعته على احتضان العود وعلى الاختلاط بأهل التلحين والغناء.

وفي عام ١٨٧٦م (١٢٩٣هـ) أدخل داود حسني مدرسة الفرير بالخرنفش فأظهر تفوقًا في الغناء -وليس في العلوم- مما جعل المشرف على الفرقة الغنائية بالمدرسة يعينه رئيسًا لأعضائها.

ولاحظ والده أن ابنه لا يستفيد كثيرًا من التعليم في المدرسة فألحقه في عام ١٨٨٠م (١٢٩٨هـ) بمطبعة الشيخ علي سكر ليتعلم حرفة تجليد الكتب، وكان هذا الشيخ من كبار مؤلفي الأناشيد الدينية ومن ثم كان يترك الطفل داود حسني على سجيته فيغني في أثناء العمل، وكان الشيخ سكر لا يخفي إعجابه وطربه لهذا الصوت الرخيم الرنان.

وكان الإمام الشيخ محمد عبده يعهد بتجليد كتبه إلى العامل داود حسني، ويطرب هو الآخر لغنائه، وذات يوم اقترب منه ليقول له بعد أن استمع إلى ترنيمه «إن الذكاء الذي ألمحه على محياك ينبئ أنك ستكون ذا شأن في عالم الغناء العربي» وكانت هذه العبارة دفعة قوية للفتى وجهته إلى طريق صقل موهبته الموسيقية وجعلته يصمم على أن يحترف الغناء.

غير أن والده لم ير في هذا الاحتراف نفعًا لولده فعمل على مقاومة هذه النزعة في نفسه بكل ما أوتي من قوة وتصميم إذ كانت أمنيته أن يجعل من ابنه إنسانًا محترمًا وعضوًا نافعًا في المجتمع - موظفًا أو صائغًا أو تاجرًا، وليس مغنيًا كما يريد.

ولم تكن الدولة - في ذلك الحين - مهتمة بإنشاء معهد لتعليم الموسيقى، ولم يكن في مصر سوى مدارس لتعليم بعض الجنود الموسيقى العسكرية اللازمة لفرق الجيش، وكان المشايخ هم أساتذة الموسيقى والإنشاد في مصر وحفظة التراث الموسيقي العربي الذي أساسه الموشحات والأناشيد الدينية، وفي كنف المشايخ كان الغناء يرتبط بالإنشاد الديني وتأثر تلحين القصائد، أو الموشحات الدنيوية بأسلوب القرآن وتجويده.

وكانت مقامات النغم وأوزان الإيقاع التي شاع استخدامها في الألحان المصرية، وألحان البلدان العربية الأخرى أهم العناصر التي كان الملحنون الناشئون يتلقون دروسًا فيها على أيدي كبار المشايخ الموسيقيين، ومن ثم لم يجد داود حسني أمامه غير هذا المجال لتعلم الموسيقى، وإشباع هوايته الفنية المفضلة.

وتحقيقًا لغرضه الذي اجتاح كل مشاعره ترك العمل في بمطبعة الشيخ علي سكر عام ١٨٨٥م (١٣٠٣هـ)، وسافر إلى المنصورة على ظهر مركب شراعي في النيل هاربًا من والده الذي كان قد منعه من الغناء وإتقان العزف على العود.

وتذكر أن عبده الحامولي (انظر مادة عبده بك الحامولي) تلقى الفن على يد رجل يدعى «محمود شعبان» بالمنصورة فأخذ يسأل عن مكانه حتى اهتدى إليه، وتعلم على يديه إتقان العزف على العود وأصول الموسيقى العربية، وحفظ عددًا كبيرًا من ألحان الموشحات وتعلم أوزانها الإيقاعية، وأنواع مقاماتها الموسيقية المختلفة، وعلى ضوء الشموع في غرفته قضى الليالي الطوال منقبًا وباحثًا عن أسرار الموسيقى في كتب الأتراك والفرس لأنه لم يجد ما يشبع رغبته في الكتب العربية.

وكان والده مايزال في قيد الحياة حين عاد إلى القاهرة عام ١٨٨٨م (١٣٠٦هـ) بعد دراسة مستمرة استغرقت ثلاث سنوات من صباه، وعندما شهد هذا التطور الفني في حياة ولده تأكد من جدية هوايته وأيقن أن لا فائدة من الوقوف في سبيل نزعته الفنية فتركه وشأنه، ثم لم يقاوم إعجابه به لدى سماع عزفه المتقن الشجي على العود، وقد كان هو نفسه من مشاهير عازفيه.

ومنذ عودته إلى القاهرة شرع في تلحين الأدوار الغنائية وكان باكورة هذه الألحان الدور الغنائي الذي يقول: «الحق عندي لك – ياللي غرامك زايد».

وكان ذلك العهد عهد موسيقى عبده الحامولي ومحمد عثمان، فتأثر داود حسني بما أنتجاه من ألحان وكان يغني هذه الألحان دون تعرف ويعجب بما تضمنت من تجديد يبعد بها عن الإطار الضيق الذي عاشت في حيزه زمنًا طويلاً، وهو إطار الأذكار والأناشيد التي تقال في المساجد والموالد.

وإن كانت بعض الموشحات الأندلسية والموروثة من العصر العباسي قد تسللت إلى دنيا الفن المصري في ذلك الحين فإن هذه الموشحات وتلك البشارف التركية والسماعيات المتناقلة عن المغنين لم ترق بالمستوى الغنائي إلى أبعد من مستوى الأنغام البسيطة التي كانت وماتزال تسمع من مرتلي القرآن الكريم ومن الشمامسة في الكنائس القبطية.

وما من شك في أن عبده الحامولي كان الرائد الأول في تجديد الأنغام الموسيقية المصرية، فقد استطاع بمقدرته الفنية أن يؤلف ألحانًا تتميز بالطرافة والطرب والتعبير عن كلمات الأغنية، وزاد من جهة أخرى على المذهب الغنائي «غصونًا» وكان من نتائج هذا التجديد نشأة الأدوار التي أدخل عليها الكثير من المحسنات النغمية المصطنعة التي أطلق عليها اسم «الهنك» أو «الردود» أو «الآهات» التي تشترك في ترديدها المجموعة على هيئة «كوراس».

ولقد أعجب داود حسني بعبده الحامولي، وبما أدخله من تجديد على الغناء العربي المصري، غير أن إعجابه كان أكبر بمحمد عثمان الذي كان يقدم بموسيقاه اللون القومي

دون مزجه بالأنغام التركية الدخيلة أو غيرها من الأنغام، ومن ثم نجده يقدم أغاني محمد عثمان في الحفلات الأولى التي أحياها، وكان من نتائج ذلك أن اتخذه محمد عثمان تلميذًا له، وأهداه فرقة موسيقية لمصاحبته في الحفلات التي يحييها، وقد عاش عبده الحامولي من ١٨٤٥ إلى١٩٠١م ومحمد عثمان من ١٨٥٥ إلى ١٩٠٠م.

وبدأ داود حسني ممارسة التلحين عام ١٨٩٠م (١٣٠٨هـ)، وكان قد بلغ العشرين من عمره، وكان أول دور تلحينه هو «الحق عندي لك» كما تقدم القول، وقد أفرغ في قالبه الطبيعة السمحة المتواضعة التي تنطق بها الموسيقى في وضوح وجلاء.

وأخذ اسمه يلمع في الأوساط الفنية، ويضارع في الصيت يوسف المنيلاوي (انظر هذه المادة)، وعبد الحي حلمي وغيرهما، ومضى في وضع الألحان فألف «بافتكارك إيه يفيك في الغرام والمرام – مش بإيدك حكم سيدك»، ودور «هوى الحبيب يوافقني – وجه على وفقه هوايا» وقد غنى الأدوار الجديدة التي جادت بها قريحة معاصريه من المطربين أمثال يوسف المنيلاوي، وعبد الحي حلمي وحمد السبع وغيرهم، وأثرت هذه الأدوار في كبار الغنائيين لدرجة أن عبده الحامولي لم يجد غضاضة في أن يغني من ألحانه: «أنا الغرام وأنت الجمال – وعزيز حبك».

وكان داود حسني الملحن الأول الذي حمل أمانة التجديد الذي ابتدعه في الأغنية المصرية عبده الحامولي، ومحمد عثمان إذ كان فنه مزيجًا من أسلوب عبده وتركيباته، ومحمد عثمان وتلحينه القوي النبرات علاوة على تفوقه عليهما في الناحية العلمية بالموسيقى مما مكنه من تقديم ألحان أكثر تعقيدًا وأدق تركيبًا، وابتكار أنغام جديدة فنمّى بذلك التراث الموسيقى المصري، وأدخل عليه مقامات لم تكن مطروقة من قبل مثل نغمة «الحجاز فاركرد» و«البستنكار» و«العجم عشيران» و«الزنكلاه».

وسرعان ما أقبل عليه المطربون يتلقون عليه ضبط إيقاع أدواره، وكان منهم الشيخ سيد الصفتي وزكي مراد، والشيخ محمد أبوالعلا وعبد اللطيف البنا وغيرهم، ولاسيما أن موسيقاه تمتاز بطابع خاص تتجلى فيه العاطفة، ومطابقة النغم للمعاني، وحياة الحركة التلحينية.

وإن كان داود حسني قد عمد إلى إدخال وزن «الفالس» في آهات الدور الذي لحنه وهو «الصباح لاح ونور» إلا أنه كان شديد الحرص على أن تكون أغانيه ذات طابع مصري، وروح شرقية خلابة.

فلم يشوه ألحانه بالاقتباس من الألحان الغربية مثل ما يفعل الملحنون الآن، فكان يقول وهو الموسوي العقيدة، إني لا أخشى على الموسيقى العربية الضياع ما دام القرآن كتاب الله المنزل الذي أحكمت آياته، يتلى بأنغام شرقية فيها ربع المقام، ويتجلى فيها سحر النغم الشرقي البديع.

وامتد العمر بالملحن القوي الغزير الإنتاج فأبدع في تلحين المئات من الأغاني التي رددتها المطربات المشهورات أمثال منيرة المهدية، وتوحيدة المغربية، وفتحية أحمد، وليلى مراد، ونجاة علي، ورجاء عبده وغيرهن، وأخيرًا أقبلت عليه أم كلثوم وغنت له عشرة أدوار بلغت أبعد حد من العذوبة والتطريب والتعبير الصادق.

ولم يكتسب داود حسني شهرته الموسيقية إلا بعد عناء شاق من ذلك الامتحان العسير الذي نجح فيه بعد صراع عتيق بينه وبين أهالي بلدة «أبو النمرس» التابعة لمديرية الجيزة، فهذه البلدة كانت وقته تماثل «الإسكالا دي ميلانو» بإيطاليا حيث لا يستطيع أي مغنٍ أن يظهر أمام الجماهير ليظهر محاسن صوته إلا إذا مر بنجاح في امتحان «الإسكالا Escala» أمام كبار الملحنين ومتذوقي الأغاني ونقادها.

ففي بلدة «أبو النمرس» ذهب داود حسني وهو مصمم على النجاح، وما إن أخذ في الغناء حتى قوبل بالضجيج من كل مكان لكنه لم يستسلم ومضى في شدوه وغنائه يتلاعب بالكلمات والأنغام ليعرف النواحي التي تستهوي السامعين، وعندما تعرف على هذه النواحي اندفع في غناه، وسيطر على سامعيه فساد السكون، ثم تحول إلى إعجاب وطرب إلى الصباح، وعندها حمل الأهالي داود ونثروا عليه، وعلى فرقته الورود والرياحين.

وكان هدفه الأول تحقيق رغبته في أن يشتهر بوفرة العلم والقدرة على ابتكار الألحان المعقدة من الناحية الفنية، ولهذا اشتق من نغمة «الجركاه» نغمة جديدة هي «الزنجران» في دور «أسير العشق» وقد غنى هذا الدور كامل الخلعي (انظر مادة الخلعي) في مؤتمر باريس الموسيقي فنال إحدى الجوائز.

والواقع هو أن داود حسني أدخل على الموسيقى المصرية كثيرًا من المقامات التي كانت مهجورة ومنها: «العجم عشيران» في دور «الحب سلطانه قاسي»، و«الحجاز طاركرد» في دور «القلب من حب الهوى، و«الباستنكار» في دور «قلبي يحبك ولكن»، و«لنشين» في دور «يا قلب حبك من سنين، ياما سقاك كاس الأنين»، و«الزنجران» في دور «أسير العشق ياما يشوف هوان»، و«النكريز» في طقطوقة «راح فين تليفونك».

وفي عام ١٩٠٣م (١٣٢١هـ) بدأ يتحول نحو الأغنيات الشعبية التي يفهمها الشعب ويحس بتوقيعها ويتذوقها في متعة وطرب ويرددها دون عناء أو تكلف في البيوت وفي الطرقات، غير أن نشأته المترفة لم ترق به إلى طبقة الشيخ سيد درويش الذي عاش حياة الشعب بكل ما فيها من ظروف اجتماعية فنفس خلجات قلبه وأحاسيس نفسه في أغانيه الشعبية، ومن ثم نرى أن داود حسني يقتصر في شعبيته على تلحين بعض الأغاني الخفيفة التي تحمل شيئًا من آثار الأرستقراطية التي كان يعيش فيها متمتعًا بكل ما يرغب من رغد العيش وظله الوارف، ومع ذلك فقد جادت قريحته بالأغنيات التي مازالت معروفة حتى الآن وهي: «قمر له ليالي، يطلع لا يبالي، على البستان ينور فيهم لي ليلة»، و«جننتيني يا بنت يا بيضة»، و«عصفوري يامَّة عصفوري لا أدلع ووريله أموري والنبي يامَّة». نعم إن هذه الأغاني كانت ترددت على ألسنة الناس في الطرقات إذ تحمل في كلماتها روح الوطنية، وحنان الوصف للطبيعة المصرية، وجريان النيل وصفاء السماء وخضرة الوادي، ولكنها كانت وطنية متأنقة أرستقراطية لا تدخل في صميم النفوس وأغوارها.

وفي عام ١٩١٩ م في أثناء الثورة لحن داود حسني النشيد الذي ألفه أحمد شوقي (انظر هذه المادة) والذي مطلعه «بني مصر مكانكمو فهيا»، وركب عربة وطفق يردده هو وبعض المنشدين كما فعل سيد درويش، ولكن أحدًا لم يلتفت إليه، ومن ثم لم يعاود هذه التجربة.

ولحن بعد ذلك على أنه لم يكن موهوبًا لمثل هذا اللون من التلحين الوطني، وقد يكون مرجع ذلك إلى عقيدته الموسوية التي لا يمكن أن تضمر الوطنية الصادقة إلا إلى أرض الميعاد، وقد ظهرت هذه النزعة التعصبية العنصرية الجامحة في قيام دولة إسرائيل خلال عام ١٩٤٨م أي بعد وفاة داود حسني بحوالي ١٣ عامًا، ومن جهة أخرى فإن الوطنية المتأججة ما كانت لتغمر وجدانه وهو ربيب الرغد ومنادمة الأثرياء والوجهاء والإقطاعيين، فقد كان يجالسهم ويغشى مجتمعاتهم ومنتدياتهم بحالة مستمرة، مما يبعده عن مشاعر عامة الشعب وخلجات أنفسهم ليعبر عنها بما يصنف عن ألحان وأغنيات تلهب المشاعر، وتؤجج الحماسة الوطنية خصوصًا في الفترة الزمنية التي عاشها داود حسني وهي فترة الاحتلال البريطاني البغيض، وما كان يجره الشعب المصري من ويلات ونكبات سياسية واقتصادية واجتماعية، ومن ثم ترى أن أغاني الشيخ سيد درويش، ابن الطبقة الشعبية الكادحة، قد أدت رسالتها الوطنية على خير ما يطلب من وطني صادق وهب المقدرة على ترجمة آلام الجماهير بالألحان الموسيقية.

وظل داود حسني يلحن القصائد والموشحات والأدوار والطقطوقات التي ترسم الأغنيات القصيرة الخفيفة حتى عام ١٩٢٠م (١٣٣٩هـ) أي عند بلوغه الأربعين من العمر، ثم بدأ في تلحين الأوبريت (وهي القصة الغنائية المرحة التي يتخلل ألحانها الحوار الكلامي) وكان قد استوعب أسلوب رائد المسرح الغنائي المصري الشيخ سلامة حجازي (انظر هذه المادة) الذي عاش في الفترة من عام ١٨٥٢إلى ١٩١٧م (١٢٦٩ – ١٣٣٦هـ) والذي اتجه نحو التلحين للمسرح في فرقة إسكندر فرح للتمثيل والغناء، وكان ذلك عام ١٨٨٩م (١٣٠٧هـ).

وكانت أول أوبريت تصدى داود حسني لتلحينها هي «أوبريت صباح» التي لحنها لفرقة أولاد عكاشة، وهي مقتبسة من أوبريت عالمية معروفة، فلاقت ألحانه نجاحًا كبيرًا، واستمر عرض «صباح» أربعة أشهر، وتمتاز ألحانها بالحركة ولاسيما في أناشيد الفلاحات ورقصات الغجر، وأغاني النور وأغاني الطبيعة ومن بين هذه الألحان لحن «بنات النيل» الذي يصور الفلاحات أصدق تصوير.

ثم لحن داود حسني بعد ذلك الأوبريت الثانية «معروف الإسكافي» فأبدع في تصويرها لدرجة أن رئيس أوركسترا باريس هنأ ملحنها على نجاحها، ثم اتبعها «بأوبريت ناهدشاه» وهي ذات قصة خيالية أبرز فيها ألحان العرافين والمجوس.

واتصل به المرحوم نجيب الريحاني (انظر هذه المادة) فلحن له أوبريتات «الليالي الملاح»، و«الشاطر حسن»، و«أيام العز»، و«البرنسيس»، وقد تناقلت الألسن شهرة هذه الأوبريتات التي أظهرت مواهب بديعة مصابني على المسرح، ثم وضع لفرقة منيرة المهدية أوبريتي: «الغندورة»، و«قمر الزمان»، ولفرقة علي الكسار أوبريت «سفينة نوح»، وإن كان نجاح داود حسني قد ظهر في تلحين الأوبريتات إلا أن هذا النجاح لم يصل إلى مستوى ما وصلت إليه أوبريتات الشيخ سيد درويش من حيث الشعبية والبساطة وجزالة الجرس.

وتوج داود حسني أعماله المسرحية بتلحين أوبرا كاملة هي «شمشون ودليلة» التي ضمنها عصارة فنه وتجاربه الطويلة، وهي تمتاز بالألحان القوية المعبرة ومنها ألحان الصلوات والعبادة وألحان القوة والجبروت وألحان الغيرة والانتقام، وقد صور كل هذه الأحاسيس تصويرًا رائعًا، وقد لحن هذه الأوبرا

لفرقة أولاد عكاشة، ثم قدم بعد ذلك للمسرح الغنائي الأوبرا الثانية وهي «ليلة كيلوباترا» الشعرية التي ألفها الدكتور حسين فوزي، ثم أوبريت «هدى» للشيخ سيد درويش فأتمها، وجعلها أوبرا كاملة، وقد نالت إعجابًا كبيرًا.

وقد دوَّن داود حسني أكثر من مائة أغنية في نوتة موسيقية عهد الموسيقى العربية لتعليم طلابه الموسيقى المدونة، وقال في المؤتمر الموسيقي الذي عقد في مصر وحضره أساتذة الموسيقى من جميع أنحاء العالم العربي، قال بوجوب الاحتفاظ بالقومية العربية في موسيقاتنا وقد أخذ برأيه الدكتور زاكي الخبير الألماني في المؤتمر.

ويقال عن أخلاقه إنه كان إنسانًا رقيق العاطفة معتزًّا بنفسه، يرعى الفنانين الناشئين، ذا قلب كبير فكان يطوف بعد السهرات وجيبه عامر بالنقود فيقصد بيوت الفنانين المعزومين من معارفه، ويترك لكل منهم مبلغًا من تحت عقب الباب، وكان محبًّا لأسرته مخلصًا لزوجته التي حزن على فقدها أشد الحزن، وهي التي لحن في حبها أغنية «وجننتيني يا بنت يا بيضة» التي كانت ذائعة في كل مكان من القطر المصري في صدر القرن العشرين، ولحن لوفاتها أغنيته الحزينة «ودعت روحي وحبي لم يودعني».

وكان شديد التمسك بدينه يؤدي فرائضه دون انقطاع، وقد تصوف في آخر أيامه فلحن لأم كلثوم أغنيته الصوفية «روحي وروحك في امتزاج».

ومن الأغاني التي ذاع صيتها وبقيت تتردد على ألسنة الجماهير زمنًا طويلاً الأغنية الآتية التي ألفها محمد درويش ولحنها داود حسني فأجاد تلحينها مما كان السبب في شيوعها على مر السنين، ومازالت تردد حتى الآن كلما تطرق المطربون إلى الأغاني القديمة العذبة الجرس:

أنا الغرام وانتَ الجمالْ
مالْناسْ غِنَى عن بَعْضِنا

مافيش طربْ ولا دلالْ
يِسْبي العقول مِنْ بَعْدِنا

الفكر فيكْ والقلب عندك
يا مليكْ الحسن وَحْدَكْ

جعلت لك قلبي مكانْ
هوَّ السما وانت القمرْ

والميل إليك طول الزمان
إن غابْ جمالَك أو حضر

ويظهر من صورته الفوتوغرافية التي اطلعت عليها ما يؤكد الشكل الذي حفظته ذاكرتي الواعية عنه إذ رأيته مرارًا يحيي الحفلات الساهرة البهيجة بالإسكندرية، ولاسيما في الأفراح التي كانت في نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، تقام في سرادقات رحبة تضم المئات من المستمعين، وتستمر إلى مطلع الفجر على ضوء الشموع في الثريات البللورية.

فقد كان متوسط القامة بدين الجسم بعض الشيء قمحي البشرة غزير الشاربين أنيق الهندام يضع الطربوش فوق رأسه

في ميل خفيف إلى اليمين فتقترب حافته من حاجبه الأيمن، وكان يبدو وجيهًا في بذلته الإفرنجية.

ولم يكن صوته من القوة والعذوبة ما يجعله ندًّا للشيخ سلامة حجازي، أو يوسف المنيلاوي (انظر هاتين المادتين)، أو محمد عثمان، غير أن طريقة تأديته للأغاني التي يلحنها تشد الآذان إلى شَدْوه وتطرب السمع والفؤاد معًا، فهو من هذه الناحية يشبه إبراهيم القباني والشيخ سيد درويش وزكريا أحمد (انظر مادتي سيد درويش وزكريا أحمد) وقد نال هؤلاء الشهرة والصيت العريق عن طريق إتقان ألحانهم وجزالتها، وليس عن طريق عذوبة أصواتهم.

ويقول إبراهيم داود حسني نجل داود حسني الفنان الراحل: إن والده لحن ٣٥ «أوبريت» وأوبرا في المدة من عام ١٩٢٠ إلى عام ١٩٣٠م (١٣٣٩ – ١٣٤٩هـ) ثم عاد بعد ذلك إلى تلحين الأدوار الغنائية للمطربين والمطربات بعد انهيار المسرح الغنائي تمامًا، وظل يلحن هذه الأدوار حتى عام ١٩٣٧م (١٣٥٦هـ) إذ وافته المنية في ٨ ديسمبر من ذلك العام نفسه بالغًا من العمر ٦٨ عامًا ودفن بالقاهرة.

أما ترجمة الاسم القديم للشارع فاطلبها في «باب جحا».

٥٨٩– داود حلمي (الدكتور) – شارع – بقسم باب شرقي (شارب سابقًا)

اطلب ترجمته في «الدكتور داود حلمي».

٥٩٠– داود عمون – شارع – بقسم الرمل

هو داود عمون الشاعر اللبناني والمحامي القدير الذي أظهر براعة فائقة في مهنة المحاماة ومقدرة مرموقة في مجال العلم والأدب وشاعرية ممتازة في مختلف ألوان الشعر العربي الجيد، وقد تولى منصب مدير المعارف في القطر اللبناني الشقيق، وتوفي خلال عام ١٩٢٢م (١٣٤١هـ) ببيروت، وكان صديقًا حميمًا لشاعر النيل حافظ إبراهيم الذي بعث إليه في ٢٦ من مارس عام ١٩٠٢م (١٣٢٠هـ) بقصيدة من عيون قصائده استهلها بقوله:

شجتنا مطالعُ أقمارِها

فسالَتْ نفوسٌ لِتَذْكارِهَا

وبِتْنَا نَحِنُّ لتلكَ القصورِ

وأهْلِ القصور وزُوَّارِها

قصورٌ كأنَّ بروجَ السماءِ

خُدورُ الغَوانيَ بأدوارِها

وبعد أن يصف أرض لبنان وأنهارها وأزهارها يتطرق إلى مدح صديقه فيقول:

وخِلٌّ أقامَ بأرضِ الشآمِ

فباتتْ تُدل على جارِها

وأضْحَتْ تتيهُ بربِّ القريضِ

كَتِيْهِ البوادي بأشعارِها

وللنيل أولى بذاكَ الدلال
ومِصْرُ أحقُّ (ببشَّارها)

فَشَمِّرْ وعجل إليها المآب
وخَلِّ الشآم لأقدارِها

فكيف لَعَمْري أطقْتَ المُقامَ
بأرضٍ تضيقُ بأحْرارِها ؟

وأنت المشمِّر إثر المظالـ
ـم تسعى إلى مَحْوِ آثارِها

ولكن داود عمون لا يذعن لقول حافظ ولا يترك وطنه الذي يحبه على الرغم من إساءته إليه، وبعد أن يحلي جيد قصيدته بديباجة عذبة الجرس حلوة المعاني يرد على صديقه شاكيًا ما يحل بالشرق من نكبات وتخلف فيقول:

أطوِّفُ في الشرقِ علِّي أرى
بلادًا تطيبُ لأحْرارِها

فلمْ أرَ إلا أمورًا تَسوء
وتَصْدَعُ أكبادَ نُظَّارِها

فظلمٌ بتلكَ وذلٌّ بهذِي
وجهلٌ مُغَشٍّ لأبصارِها

تَعُقُّ مراحِمَ رُعْيانِها
وترعَى الولاءَ لجزَّارِها

إذا شاءَ (قاسِمُ) رفع الحِجابِ
تُسَمِّيه هاتِكَ أسْتارِها

فلا قوْلَ إلا لجُهَّالِها
ولا رأْيَ إلا لأغْرارِها

يدِبُّ التراخي على تُرْبِها
ويجْري الخُمولُ بأنْهارِها

مَنالُ الترقي بإرْغامِها
ومَرْجَى الفَلاحُ بإجْبارِها

أهذا الذي أورثتْ أهْلَها
بلادُ العلومِ وأنوارِها ؟

عَدِمْتُ حياتي إذا لم أقِفْ
حياتي على نَفْعِ أمصارِها

ثم يختم قصيدته بهذين البيتين اللذين تتأجج الوطنية فيهما فيقول:

أحِبُّ بلادي على رَغْمِها
وإنْ لم يَنَلْني سِوَى عارِها

ولستُ بأوَّلِ ذي هِمَّةٍ
تصدَّى الزمانُ لإنكارِها

وفي هذه الأبيات التي تفيض بالحكمة والوطنية والألم للبلاد العربية، وما كانت تعانيه من ظلم وجهل ما يدل على نفسية داود عمون المتعطشة إلى الحرية والرقي، والتي تذخر بحب العرب والعروبة وتبغى للدول العربية التقدم والفلاح.

٥٩١- الدخاخني - حارة - بقسم الجمرك

هو أحمد سليمان عبد العال الدخاخني ولد بالإسكندرية في حوالي عام ١٧٩٦م (١١٩٠هـ)، وأسرة الدخاخني «إسكندرانية» في أصولها وفروعها، وتحمل لقب الدخاخني لأن آباءها وأجدادها كانوا يزاولون الاتجار في التبغ (الدخان) والتمباك، وكانت ثقافة أحمد سليمان الدخاخني دينية على غرار معظم أهل عصره، ويتضح مما جاء بكتاب الخطط الجديدة بالصحيفة رقم ٦٩ من الجزء السابع الخاص بالإسكندرية، أن أحمد بك الدخاخني الذي كان - إلى جانب إتجاره في التبغ - شيخ مقاولي المعمار بالإسكندرية، والذي يظهر أنه كان على علم بالفنون الهندسية واسع النطاق، جاء بكتاب «الخطط الجديدة» لعلي باشا مبارك بالصحيفة الآنفة الذكر: كان مسجد سيدي ياقوت العرش تهدم وهجر، فجدده أحمد بك الدخاخني شيخ طائفة البنائين عام ١٢٨٠هـ (١٨٦٣م) وأقام شعائره وأوقف عليه أوقافًا، وهذا يدل في وضوح على تدينه وتقواه وحبه للأعمال الخيرية والاجتماعية وأعمال البر والإحسان، وتوفي عام ١٨٧١م (١٢٨٨هـ) عن ٧٥ عامًا، ولم يخلف إلا ولدًا واحدًا هو مرسي أحمد سليمان الدخاخني، وقد ترك له والده ثروة كبيرة فاستمر على مزاولة تجارة التبغ والتمباك، وكان يستوردهما من تركيا واليونان بمراكبه الخاصة، ومن معالم تلك الثروة الكبيرة أنه كان ينزل للنزهة في المدينة مستقلاً عربة مقفلة «لاندو» يجرها أربعة من الخيل المطهمة ويجري أمامها سائسان بملابسهما ذات السراويل الفضفاضة، والصدرات الحمراء المطرزة بالصرمة «خيوط الفضة المذهبة» والقمصان ذات الأكمام الواسعة ويضرب كل منهما الأرض بعصا طويلة في فترات متقاربة ويصيحان معًا بكلمة «وسع».

ولقد دعا عثمان عرفي باشا محافظ الإسكندرية من ١٨٨٣ إلى ١٨٩٢ السيد مرسي أحمد الدخاخني ووجه نظره إلى أن موكبه لا يصح إلا للخديوي فأبدى أنه حر فيما يريد أن يركب مادام قادرًا على نفقات موكبه، وكان له ما أراد.

ومن ذرية السيد مرسي أحمد الدخاخني الأساتذة نجيب وكان موظفًا مصلحة المواني والمنائر وبديع من رجال القضاء ويزاول المحاماة الآن هو وشقيقه خالد وقد ولد السيد مرسي أحمد سليمان الدخاخني عام ١٨٤٢م (١٢٥٨هـ)، وتوفي ١٢ من أكتوبر عام ١٩١٢م (١٣٣٠هـ).

٥٩٢- درويش بك - شارع - بقسم الرمل

اسمه الكامل عبد الرازق درويش، تلقى العلم في مراحله الأول بالمدارس المصرية، ثم اختير بعد التحاقه بمدرسة الطب ليكون أحد أعضاء البعثة الثانية التي أرسلها عباس الأول إلى إنجلترا، وكان تخرجه من مدرسة الطب في القاهرة برتبة «الأسبيران» أي تلميذ ضابط، وبدأ دراسته في ٣١ من أكتوبر عام ١٨٥٠م (١٢٦٧هـ) لإتقان العلوم الطبية بمدينة «إيد بنورج» وكان مرتبه الشهري ٥٠ قرشًا فقط يتقاضاها بالإنابة عنه في مصر مصطفى أفندي رضوان معلم اللغة الفرنسية بمدرسة الطب لإنفاقها على عياله، وظل درويش بإنجلترا إلى أن أتم تعلمه، وعاد إلى مصر في ٨ إبريل عام ١٨٥٦م (١٢٧٣هـ)

فتكون مدة بعثته ست سنوات، وعقب رجوعه عين بعلائق الجهادية (الحربية) في ٩ من الشهر نفسه ثم نقل إلى قصر العيني وبعد ذلك صار معلمًا للغة الإنجليزية بالمدارس المصرية، ورقي إلى الرتبة الرابعة عام ١٨٦٤م (١٢٨١هـ)، ولبراعته الفائقة في هذه اللغة تولى تدريسها لأولاد الخديوي إسماعيل، وفي عام ١٨٦٥م (١٢٨٢هـ) عين مدرسًا للغة الإنجليزية بمدرسة التجهيزية (الثانوية)، وارتقى إلى رتبة الأميرالاي عام ١٨٦٦م (١٢٨٣هـ)، ثم عين وكيلاً للمدرسة البحرية الحربية بالإسكندرية عند إعادة فتحها في عهد إسماعيل عام ١٨٧١م (١٢٨٨هـ)، وكان يتولى تدريس الإنجليزية وعلمي التاريخ، والطبيعة بهذه المدرسة وصار ناظرًا لها في مايو عام ١٨٧٥م (١٢٩٢هـ)، وفي إبريل عام ١٨٧٩م (١٢٩٧هـ) أحيل على التقاعد، وكان عبد الرازق درويش بك مشهورًا بوطنيته المتأججة، ولذا كان الحكام يرتابون في أمره، ولاسيما أثناء الثروة العرابية الوطنية وبعد انتهائها، وقد اتهم في يونية عام ١٨٨٣م (١٣٠١هـ) بأنه كون طائفة سرية من الفدائيين ضد الحكومة، وضد الإنجليز الغاصبين، وكانت هذه الجماعة تعقد جلساتها بمنزله، وقد ألف كتابًا في الجغرافية العامة، وتوفي عام ١٩٠٥م (١٣٢٣هـ).

٥٩٣- دروفيتي - شارع - بقسم العطارين (الأحرار حاليًا)

هو «برناردينو دروفيتي Bernardino Drovetti» من مواليد سفح جبال الألب الإيطالية، وكان إيطالي الجنسية، ثم التحق بخدمة فرنسا في شبابه فصار ضابطًا بالجيش الفرنسي، وتولى مهمة القضاء بالقوات المسلحة.

ووفد على مصر بصفة نائب للقنصل الفرنسي، وكان ذلك في حوالي عام ١٨٠٣م (١٢١٨هـ) صحبة عضو «قومسيون الجمهورية» «ماتييه دي ليسيبس» والد فرديناند دي ليسيبس الذي يعزى إليه شق قناة السويس (انظر مادة قناة السويس)، وكان «دروفيتي» من المشهود لهم بالذكاء، ورجاحة العقل، وسرعة البديهة، وكان في الوقت نفسه مثّالاً موهوبًا يتحلى بمواهب قيمة في هذا الفن كما كان من محبي الآثار القديمة، والمغرمين بجمعها.

وقد قابله الكاتب الفرنسي الشهير «شاتوبريان» بالإسكندرية في ٢٠ من شهر أكتوبر عام ١٨٠٦م، وكان يتولى أعمال القنصلية الفرنسية في ذلك الحين.

وكانت بينه وبين زميله الإنجليزي الماجور «ميست Missett» منافسة سياسية حادة، وزادت حدتها إلى أبعد حد مع «هنري سالت H. Salt» الذي خلف «ميست» ولاسيما فيما يتعلق بالآثار المصرية التي جمع «دروفيتي» مجموعة كبيرة قيمته منها بطريق السلب بعد قيامه بحفريات عدة، وكان منافسه في ذلك الإيطالي «بلزوني Belzone» (انظر هذه المادة).

ولم تقدر فرنسا مجموعة « دروفيتي» الأثرية حق قدرها، فبيعت عام ١٨٢٤م (١٢٤٠هـ) بمبلغ ٤٠٠ ألف فرنك أي بما تعادل ١٦,٠٠٠ جنيه، ويضمها الآن متحف مدينة «ثورين Surin» بإيطاليا، ويقول المؤرخون أن دروفيتي هو الذي باعها لذلك المتحف.

وسكن «دروفيتي» عندما صار قنصلاً لفرنسا بمنزل بالإسكندرية يطل على البحر (وما من شك في أنه كان يقع

بميدان القناصل وهو ميدان عرابي الآن)، وكان ذلك المنزل مخصصًا لإقامة القائد «كليبر» (انظر هذه المادة) في أثناء الحملة الفرنسية على مصر، وكان مواظبًا على إرسال تقاريره إلى وزارة الخارجية الفرنسية طوال مدة الحرب بين محمد علي، والألفي بك الذي كان – في ذلك الوقت – يجتاح الدلتا بهجماته المتوالية التي يشنها جنوده المرتزقة من الألبانيين والعرب.

وكانت الإسكندرية في وقته قد أصابها الانحطاط والتأخر فصارت صغيرة الحيز ضئيلة العمران لما أصابها من كوارث قضت على حضارتها النضرة في الأزمان السالفة، وفي عام ١٨١١م (١٢٢٦هـ) حضر إلى الإسكندرية مبعوث من الإمبراطور نابوليون فتلقاه «دروفيتي» وذهب معه إلى الوجه القبلي، فأثار ذلك شكوك قنصل إنجلترا الذي ذكر في تقرير له إنه يعجب لهذه الزيارة التي لم تخطر «لدروفيتي» على بال وقد قطع تسع سنوات وهو قنصل لفرنسا في مصر ولكن «دروفيتي» قام في تلك السنة بمسح شامل للآثار بالصعيد، وطلب من محمد علي الأذن بإجراء حفريات فأصدر له فرمانًا بذلك فبادر إلى عمل جسّات بوادي الملوك حيث كان مقتنعًا بأن هذه المنطقة تضم كنوزًا من الآثار الثمينة ذلك نراه يعود إلى القاهرة عام١٨١٢م (١٢٢٧هـ) يحمل لفافات عديدة من المخطوطات القديمة القيمة.

وعقب سقوط إمبراطورية نابليون وعودة أسرة «البربوت» إلى الحكم لم يترك «دروفيتي» أبحاثه فكان يتلقى من مبعوثيه بمكتبه الخاص بالإسكندرية كميات من أوراق البردي والمدليات والتماثيل الصغيرة الأثرية التي كان هؤلاء المبعوثون يحصلون عليها عن طريق الشراء أو النهب.

وعلى الرغم من إقصائه عن وظيفة القنصل الرسمية بقي «دروفيتي» ذا خطوة خاصة لدى محمد علي يتمتع بالنفوذ القوي، ولذا نراه صاحب الاقتراح الخاص بإرسال حسن الإسكندراني وحمود ناجي، ومحمد شتى (انظر هذه المواد) في بعثة علمية إلى فرنسا تحت إشرافه المباشر، وقد نجح هؤلاء الثلاثة في بعثتهم وصاروا من رجال البحرية المصرية المبرزين وتولوا أعلى المناصب فيها.

وكانت بعثة شمبليون (انظر هذه المادة) الأثرية قد وصلت إلى الإسكندرية في ١٨ أغسطس عام ١٨٢٨م (١٢٤٤هـ) صحبة البعثة الإيطالية وعلى رأسها «روزيليني Roselline» (انظر هذه المادة) بعد أن وافقت حكومة الملك شارل العاشر ملك فرنسا عليها، ولكن «دروفيتي» بذل قصار جهده لإحباط أعمال البعثتين، ولا سيما أن منافسه «سالت» قنصل إنجلترا كان قد مات عام ١٨٢٦م (١٢٤٢هـ)، وكان يأمل أن يظل سيد الموقف في كل ماله شأن بالحفريات والآثار يتصرف في أمورها كما يشاء دون منازع أو رقيب، ولا سيما من قبل أعضاء هاتين البعثتين مما يحد من سلطانه المطلق في هذا السبيل؛ ومن ثم أخذ يكتب إلى شمبليون بأن الظروف ليست ملائمة خصوصًا وأن فرنسا كانت قد انحازت إلى جانب اليونان مما أدى إلى تحطيم أكثر قطع الأسطول المصري في موقعة «نافارين» بشبه جزيرة «المورا»، ولم يستسلم «شامبليون» لعوامل اليأس فألَحَّ في طلب مقابلة محمد علي فقدمه «دروفيتي» إليه، وكان أن رفض إصدار الفرمانات اللازمة للسماح بالبحث والتنقيب، ولكن بعد أن اتصل شامبليون بالوزراء، وطلب وساطتهم لدى الباشا وافق محمد علي أخيرًا وكلف «شامبليون» بترجمة النقوش المحفورة على مسلتي كليوباترا بالإسكندرية، ثم

سافر شامبليون عقب ذلك إلى القاهرة لإتمام أعمال البعثتين التحضيرية، ولم يكف «دروفيتي» عن ملاحقة «شامبليون» بالدسائس المسمومة، وعن السعي لدى معارفه بفرنسا ليمنعوا النفقات اللازمة لاستمرار التنقيب، والحفريات ولكنه لم يفلح في ذلك.

وفي عام ١٨٢٩م (١٢٤٥هـ) رحل «دروفيتي» إلى فرنسا نهائيًّا ويقول «شامبليون» في كتاب أرسله من طولون في أول يناير عام ١٨٣٠م (١٢٤٦هـ) إلى صديقه وراعيه «م. داسييه M. Dacier» أنه يعرف أن القدماء يمثلون مصر بالبقرة، وقد استغلها محمد علي وسخرها للعمل ليلاً ونهارًا، وهكذا ترون ماذا أنتجت نصائح «دروفيتي» وأمثاله من أدعياء رعاية الشعوب، فمصر الحالية تثير الرعب والرحمة والشفقة وإني أقولها صريحة مدوية على الرغم من السيف المحلى بالذهب الذي قدمه إلى الباشا «محمد علي» للتعبير عن رضاه وتقديره.

٥٩٤- درِّي بك - شارع - بقسم محرم بك

هو محمد دري باشا نفسه، وترجمته مدونة في «محمد دري باشا» لأن له شارعًا بقسم الرمل، ويظهر أن اسمه وضع على هذا الشارع بقسم محرم بك حينما كان برتبة بك، وحينما كان طبيب قسم العطارين وطبيبًا بقسم الجراحة بالمستشفى الأميري بالإسكندرية عام ١٨٧٢م (١٢٨٩هـ)، وذلك قبل أن ينقل إلى القاهرة ويشغل مناصبه الأخرى الكبيرة. (كما تجده مفصلاً في ترجمته).

٥٩٥- الدريني- شارع - بقسم الرمل

لقب الدريني نسبته إلى بلدة ديرين الواقعة بجهة «نَبْرَوَه» بمركز طلخا محافظة الدقهلية، وقد وصفها علي باشا في كتابه «الخطط التوفيقية» فقال إن بها ثلاثة مساجد أحدها لسيدي عبد العزيز الدريني له منارة، وبداخله مقام ظاهر يزار، ويقام له مولد كل سنة وصاحب اسم الشارع، هو الشيخ عبد العزيز الدريني الذي ذكره علي باشا مبارك، ووصف مسجده ببلدة «درين»، وكان عابدًا زاهدًا، وجاءت ترجمة حياته في كتاب المنهل الصافي وفي كتاب طبقات الصوفية للشعراني الذي يقول: إن لهذا الشيخ «حالات من الوله الصوفي فاخرة، وكرامات شريفة مشهورة، وله مصنفات في التفسير والفقه واللغة والتصوف وغير ذلك.

ويقول أبو المحاسن ابن تغري بردي في كتابه «النجوم الزاهرة» (انظر مادة أبي المحاسن) يقول إن للشيخ الدريني أشعارًا كثيرة منها المنظومة التي ذكر فيها مشايخه الذين أخذ عنهم العلم ومنها:

وأذْكُرُ الآنَ رجالاً
كأنجمٍ يَزْهو بها الزمانُ

مشايخي الأئمة الأبرار
وإخوتي الأحبة الأخيار

وكل شيخٍ نلتُ منه عِلْمًا
أو أدَبًا فهو إمامي حَتْمَا

وكان عبد العزيز الدريني موئل العلم والفضل وصحبه جماعة من العلماء انتفعوا بعلمه وفضله وتقواه، وقضى معظم حياته متنقلاً في مدن وقرى وسط الدلتا أي في المناطق الواقعة بين فرعي دمياط ورشيد، وكانت تعرف عند مؤرخي العرب القدامى ببلاد الريف.

وقضى الشيخ الدريني سنين عديدة بالإسكندرية حيث تتلمذ على يد أبي الفتح الواسطي (انظر مادة الواسطي) الذي وفد على الإسكندرية لنشر تعاليم أحمد الرفاعي الصوفية، وتوفي بها ودفن في مكان مسجده الحالي بالقرب من الضريح المنسوب لأبي الدرداء الصاحبي الجليل المتوفى عام ٣١هـ بدمشق، ودفن بها.

وبما أن أبا الفتح الواسطي جاء إلى الإسكندرية عام ٦٣٠هـ (١٢٣٢م) وتوفي بها عام ٦٣٢هـ (١٢٣٤م)، فيكون الشيخ عبد العزيز الدريني قد حضر دروسه إبان العامين اللذين قضاهما الواسطي بالمدينة وتلقى دروسه، ومواعظه الصوفية بمسجد العطارين، ويصف الدريني المساجلات التي قامت بين أبي الفتح الواسطي وبين علماء الإسكندرية الذين كانوا على شيء من جلاء البصيرة التي ترفض الادعاءات الصوفية التي تنسب الكرامات بل المعجزات إلى كبار الصوفيين أمثال أحمد الرفاعي، وأحمد البدوي، وإبراهيم الدسوقي.

وكان أشد هؤلاء العلماء تمسكًا بالسنة المحمدية النقية من كل ما لا يتفق مع سماحة الإسلام الذي هو دين الفطرة، كان خطيب مسجد العطارين الذي لم يهادن في خصومته لأبي الفتح الواسطي والشيخ عبد العزيز الدريني الذي يظهر أنه تولى نشر الصوفية الرفاعية بالإسكندرية خلال عدة سنوات بعد وفاة الواسطي عام ٦٣٢هـ (١٢٣٤م)، فارتفع شأنه بين أفراد الطائفة، واستمر على التدريس، ونشر الدعوة إلى أن غادر الإسكندرية عائدًا إلى مسقط رأسه «ديرين» بعد أن عزا إلى شيخه الواسطي معجزة من المعجزات التي يرويها أقطاب الصوفية عن أنفسهم، وعن زملائهم في القطبية الروحية.

وكان الشيخ الدريني من معاصري الشيخ أحمد البدوي، ومن مريديه كما كان صديقًا حميمًا للشيخ علي المليجي صديق أحمد البدوي، وفي كتاب الشعراني «طبقات الصوفية» عدد كبير من الكرامات والمعجزات التي نسبها لأقطاب الصوفيين قد تتعدى حد المعقول والمألوف، وتدخل في عداد الأساطير الخيالية، وقد نسب عددًا منها إلى الشيخ عبد العزيز الدريني.

وقد عاصر الدريني الملك المنصور الذي كان ديِّنًا متقشفًا، كثير الصوم، جم الورع والتقوى، يحترم رجال الدين وخاصة المتصوفين منهم وكان يسعى إليهم ويطلب مودتهم وبركاتهم، ومن بينهم الشيخ الدريني الذي كان إذا حلَّ بالقاهرة يكثر من الذهاب إلى جزيرة الروضة ويؤدي الصلاة في مساجدها، مما دعا السلطان المنصور إلى تشييد مسجد بها ليقيم الدريني به عند مجيئه لزيارته، فلما توفي عبد العزيز الدريني عرف المسجد باسمه، وبقي كذلك إلى الآن.

ويصف السخاوي، وعلي باشا مبارك هذا المسجد فيقول: إنه مسجد قديم بجوار منزل أحمد باشا المنكلي بالروضة، وقد عمرته (أي في القرن ١٣ الهجري) زوجة إبراهيم إلهامي باشا ابن عباس باشا والي مصر.

وتوفي الشيخ عبدالعزيز الدريني عام ٦٩٧هـ (١٢٩٧م)، ودفن ببلدة ديرين، وكان له مسجد وضريح يزار حتى عصر الشعراني الذي وصف المسجد والضريح.

وبالإسكندرية أسرة من أسرها العريقة تحمل اسم الدريني، وقد يكون الشيخ عبد العزيز الدريني جدها الأكبر، أو يكون دريني آخر نزح إلى الإسكندرية من بلدة درين واستقر بالإسكندرية وأنجب هذه الذرية التي تحمل هذا اللقب، والتي من بين أفرادها المرحومين علي بهجت الدريني، وصادق الدريني (انظر هاتين المادتين)، وكان علي بهجت الدريني مدير مكتب جريدة المصري، وعضو المجلس البلدي، وكان صادق مدير المخازن البلدية العمومية، ولكل منهما شارع يحمل اسمه بقسم الرمل.

٥٩٦- الدسوقي - حارة - بقسم العطارين

يطلق لقب الدسوقي على أربعة من مفكري العرب، ومثقفيهم ممن جاء ذكرهم في كتب السير وهم:

١) **إبراهيم بن أبي المجد عبد العزيز الدسوقي**: أحد أولياء الله الصالحين، ولد بمدينة دسوق من أعمال مديرية الغربية عام ٦٣٣هـ (١٢٣٥م)، وهو مؤسس الطريقة الدسوقية، ويذكر حسن شمة صاحب كتاب «مسرة العينين يشرح حزب أبي العينين» أن أباه جاء من قرية مرقس على الضفة الأخرى للنيل، وكان هو أيضًا من أولياء الله الصالحين كما كانت أم إبراهيم الدسوقي بنت ولي آخر هو أبو الفتح الواسطي (انظر مادة الواسطي).

وقد درس إبراهيم الفقه الشافعي قبل أن يسلك طريق الصوفية، وتفصيل سيرته جاء في كتب «الحقائق» وفي «طبقات الشيخ أحمد الشرنوبي» لمحمود البلقيني، يذكر سيدي إبراهيم الدسوقي في قصيدة له محفوظة بالمتحف البريطاني برقم ٧٩٦ أن سلطان مصر عدا عليه هو وجيوشه فأتى لنجدته أولياء كثيرون، وأنه صار بعد ذلك سلطانًا روحيًّا على مصر والعراق، وقد ذكر عبد الوهاب الشعراني في كتابه «الطبقات الكبرى» كرامات الشيخ الدسوقي، ووصف أخلاقه الحميدة وسجاياه النبيلة، وما يتصف به من علم وبلاغة في الوعظ والإرشاد، وما كان يلقيه من دروس على مريديه في التصوف والغناء في حب الله، ومن أشعاره الصوفية قوله:

تجلى لِيَ المحبوبُ في كلِّ وجهةٍ
فقالَ أتدري من أنا قلتُ مُنْيَتي

فقالَ كذاك الأمرُ لكنَّه إذا
بغير حلولٍ بل بتحقيق نسبتي

وغيَّبني عني فأصبحتُ سائلاً
لذاتي بذاتي وهي غايةُ بُغْيَتي

خبأتُ له في جَنَّةِ القلبِ منزلاً
فإنَّ مدارَ الكلِّ من حول ذروتي

يَروني في المرآةِ وهي صَدِّيَةٌ
بمختلف الآراءِ والكلُّ أمَّتي

وما شَهِدَتْ عيني سِوَى عين ذاتِها
أَجَدِّدُ فيها حُلَّةً بعد حُلَّةِ

وذاعت شهرة الدسوقي في جميع أنحاء القطر المصري، وقد وصفه صاحب كتاب تاج العروس بأنه أحد الأقطاب الأربعة أي في مقام عبد القادر الجيلاني والرفاعي وأحمد البدوي.

ويعرف الدسوقي في المخطوط الموجود بمدينة ليدن، والذي يشتمل على بعض مواعظه الصوفية باسم «برهان الملة والدين»، ويذكر حسن شمة كاتب سيرة الدسوقي أنه كان في عصره مولدان يقامان لذكراه، أما علي باشا مبارك (انظر هذه المادة) فيذكر ثلاثة موالد تقام في الأشهر القبطية: برمودة وطوبة ومسرى على التعاقب، وكان آخر هذه الموالد يستمر ثمانية أيام، ويقام بمناسبته سوق كبيرة يفد عليها خلق كثير لبيع السلع من جميع الأصناف، وكانت مواعظ الدسوقي تحث على الاستمساك الشديد بقواعد الأخلاق والأخذ بمذهب أهل السنة، وكانت وفاته خلال عام ٦٧٦هـ (١٢٧٨م) بالغًا من العمر ٤٣ سنة، ومازال قبره بمدينة «دسوق» قبلة الزوار من جميع مدن وقرى مصر ومن البلدان الأخرى للتبرك بضريحه وتأدية النذور والتوسل بولايته في قضاء الحاجات، وتيسير العسير من الأمور.

٢) **إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن الدسوقي**: صوفي عربي ولد بدمشق عام ٨٣٣هـ (١٤٢٩م)، وقد جمع إبراهيم طائفة من الدعوات المستعملة في الصلاة وهي محفوظة بمخطوط بمكتبة برلين تحت رقم ٣٧٧٨، وتوفي في التاسع من شعبان ٩١٩هـ (١١أكتوبر عام١٥١٣م) بالغًا من العمر ٨٤ سنة.

٣) **السيد إبراهيم بن إبراهيم عبد الغفار الدسوقي**: من سلالة موسى أخي الصوفي سيدي إبراهيم الدسوقي صاحب الترجمة الأولى المدونة قبل، وقد ولد بمدينة دسوق عام ١٢٢٦هـ (١٨١١م) في أسرة رقيقة الحال تدين بالمذهب المالكي، وأتم دراسته الأولى بمسقط رأسه ثم حضر على مشاهير الشيوخ بالأزهر ومن بينهم الشيخ محمد عليش (انظر الشيخ عليش) المالكي الشهير، وقام بعد ذلك بالتدريس في الأزهر مدة من الزمن ثم التحق عام ١٢٤٨هـ (١٨٣٢م) بوظيفة مصحح للكتب التي تدرس بالمعاهد الحكومية لدقة معرفته بفقه اللغة العربية، واختير بعد ذلك رئيسًا للمصححين بالمطبعة الأميرية ببولاق، ثم عمل مساعدًا لرئيس تحرير «الوقائع المصرية» جريدة الحكومة الرسمية، وفي هذه الأثناء كان يعمل مع المستشرق الإنجليزي «وليم لين» المشهور «بمنصور أفندي» في إعداد وجمع المواد اللازمة لمعجمه «العربي – الإنجليزي»، ووليم لين هذا هو مؤلف كتاب «المصريون المعاصرون»، واستمر الدسوقي على معاونته بتقديم مختارات من المصنفات العربية بعد عودته إلى إنجلترا. وتوفي الدسوقي عام ١٣٠٠هـ (١٨٨٣م) بالغًا من العمر ٧٢ سنة.

وقد كتب الدسوقي مذكرة مستفيضة مجموعة أعدها للمصنف الجامع الذي ألفه علي باشا مبارك وصف فيها مقابلته وحديثه مع «وليم لين» والأثر الذي تركته شخصية لين في نفسه كما أوضح فيها شؤون «لين» المنزلية، وطريقة حياته في القاهرة، ومقابلته للمسلمين بها ومن بينهم الشيخ أحمد الذي خلد «لين» اسمه في مقدمة كتابه «المصريون المعاصرون» وقوته في اللغة العربية وتعاونهما في دراسة كتب فقه اللغة العربية وعملهما في استغلال هذه المواد في المعجم وسخاء «لين» في معاملته ومعاملة معاونيه العرب.

٤) إبراهيم الدسوقي: وكان أحد الطلاب الذين أرسلهم محمد علي في بعثه علمية لفرنسا لتعليم صناعة الساعات، وقد بدأ دراسته في يناير عام ١٢٤٦هـ (١٨٣٠م) وتلقى دروس بمصنع الساعات بمدينة «ليون» وإلى جانب هذه الدروس العملية كان يدرس علم البيان باللغة الفرنسية على أستاذ فرنسي خاص، وقد عاد إلى مصر في أوائل عام ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م) بعد أن استغرقت بعثته ست سنوات ولم يذكر تاريخ ومكان مولده أو وفاته ولا يعرف العمل الذي زاوله بعد رجوعه إلى الوطن.

٥) إبراهيم الدسوقي: تعلم بمكاتب القاهرة ودخل مدرسة الطب وأتم بها دراسته، وأتقن الجراحة، ونال رتبة اليوزباشي (النقيب)، ثم وقع عليه الاختيار للسفر إلى بلاد النمسا في ١٠يناير عام١٨٤٥م (١٢٦١هـ) فتعلم طب العيون بمدينة «بج» وبعد أن أتم دراسة هذا الفرع من العلوم الطبية، وأتقنه علمًا وعملاً عاد إلى مصر في أوائل عام ١٨٤٦م (١٢٦٣هـ) وقد اشترك هو وزميله في هذه البعثة في علاج أهالي القاهرة، وتعليم بعض طلاب مدرسة الطب علم الكحالة (الرمد)، وارتقى إلى رتبة الصاغقول أغاسي (الرائد) في أكتوبر عام ١٨٤٨م (١٢٦٢هـ)، ثم عين أستاذًا بمدرسة الطب وظل بها إلى أن أحيل على التقاعد، ثم أدركته الوفاة في تاريخ غير معروف، وكان أستاذ هذين الطبيبين المصريين في بلاد النمسا، الأستاذ «يغر» الذي كان من أشهر أطباء الرمد في ذلك العصر، وقد سافر كل منهما إلى رشيد، ودمياط وغيرهما من المدن والقرى المصرية لعلاج المصابين بالأمراض الرمدية. وقاما بمهمتهما الإنسانية على خير وجه.

٥٩٧- الدكتور إبراهيم سلامة - شارع - بقسم الرمل (الانكريت سابقًا)

تخرج الدكتور إبراهيم سلامة من دار العلوم عام ١٣٣٧هـ (١٩١٨م) وعين في شهر مارس عام ١٣٣٨هـ (١٩١٩م) مدرسًا بمدرسة دمنهور الابتدائية ، ولكنه لم يعمل بها، بل استقبل الثورة المصرية خطيبًا عرفته المساجد والكنائس والمجتمعات المختلفة، ثم ألحق بمدارس محرم بك بالإسكندرية في عام ١٣٣٨هـ (١٩١٩م)، أي في العام نفسه الذي اشتعلت فيه ثورة الشعب الغاضبة ضد الاحتلال البريطاني البغيض، ونقل بعد ذلك إلى مدرسة المعلمين فظل يدرس بها إلى سنة ١٣٥٤هـ (١٩٢٥م)، ثم اختير سكرتيرًا لمكتب البعثات العلمية المصرية في باريس فوكيلاً لمديرها في ذلك الحين، وهو الأستاذ محمد شرارة بك الذي منح رتبة الباشاوية فيما بعد، وفي تلك الأثناء كلف إبراهيم سلامة بدراسة علم النفس، وأصول التربية.

ولاتهامه بالاشتغال بالسياسة أرجع إلى مصر دون أن يتم دراسته، وعين مفتشًا بوزارة المعارف بالإسكندرية فظل يمارس أعباء هذه الوظيفة خلال الفترة الواقعة بين عامين ١٣٤٥ و١٣٤٧هـ (١٩٢٦- ١٩٢٨م).

وفي أثناء مزاولته التدريس بمدرسة محرم بك الابتدائية عام ١٣٣٨هـ (١٩١٩م)، وممارسته التفتيش طوال عامي ١٣٤٥ و١٣٤٧هـ (١٩٢٦ - ١٩٢٨م) توثقت أواصر الصداقة بيني وبينه، فكان يلقي خطبه الوطنية الحماسية في معظم الاجتماعات السياسية وكنت ألقي في بعضها قصائد من الشعر الوطني الحار إذ كنا في ذلك الوقت من المتحمسين

لمبادئ حزب الوفد بقيادة المرحوم سعد باشا زغلول، وندافع عن هذه المبادئ بجهودنا الثقافية منادين بجلاء الاحتلال البريطاني الملعون، وكان التقائي به لأول مرة في سرادق انتخابي أقيم بجهة الحجاري بقسم الجمرك تأييدًا لانتخاب المرحوم محمد باشا سعيد (انظر هذه المادة)، الذي كان يناصر حزب الوفد، وآخر مرة اشتركت فيها مع الأستاذ إبراهيم سلامة بقصيدة كانت في يوم ٥ من شهر أكتوبر عام ١٩٢٧م (١٣٤٦هـ) في حفل تأبين سعد باشا بمسرح محمد علي (مسرح سيد درويش حاليًّا) بطريق الحرية بالإسكندرية.

وسافر الأستاذ إبراهيم خلال عام ١٣٥٧هـ (١٩٢٨م) في بعثة علمية استغرقت سبع سنوات، حصل فيها على الليسانس في الآداب من جامعة السربون بباريس، ثم دبلوم معهد «جان جاك روسو» بجنيف بسويسرا، بعد أن تقدم برسالة في علم النفس المتعلق بالطفولة، وبعد ذلك حصل على أربع شهادات في علم النفس التجريبي من سويسرا أيضًا، وواصل دراسته الأولى إثر تقديم رسالتين بالفرنسية طبعتا بالمطبعة الأميرية بالقاهرة خلال عامي ١٣٥٧ و١٣٥٨هـ (١٩٣٨ – ١٩٣٩م).

وعقب عودته من بعثته عام ١٣٥٦هـ (١٩٣٧م) عمل أستاذًا للتربية، وعلم النفس، والفلسفة بدار العلوم التي تخرج منها في أول مراحل تعليمه العالي ثم اختير في عام ١٣٦٥هـ (١٩٤٥م) أستاذًا للأدب العربي بدار العلوم العليا ببغداد فظل يدرس بها إلى أن ندب مديرًا فنيًّا لمشروع مكافحة الأمية في وزارة الشؤون الاجتماعية.

وعندما ضمت دار العلوم إلى جامعة القاهرة عاد إليها أستاذًا للبلاغة والنقد الأدبي، ثم صار عميدًا لهذه الدار إلى أن أحيل على التقاعد.

ولم يخلد الدكتور إبراهيم سلامة إلى الراحة في ظل المعاش، فكان صوته يجلجل في معظم الأيام ليلقي على سامعي إذاعة القاهرة عقب القرآن الكريم في الفترة الصباحية أبلغ المواعظ الدينية التي تحض على الكرامة، والشهامة، والأخلاق السامية، والخصال الحميدة، وظلت تسجيلات هذه المواعظ الثمينة تذاع على الناس بعد موته مدة طويلة.

والدكتور إبراهيم سلامة من مواليد الإسكندرية وقد رأى النور في أحضانها في يوم ٧ من شهر ديسمبر عام ١٨٩٥م (١٣١٣هـ) وضمه ثراها بعد أن أنطفأ سراج حياته اللامع في يوم ٢٧ من شهر فبراير عام ١٩٥٧ (١٣٧٧م) بالغًا من العمر حوالي ٦٣ عامًا بعد أن أدى فريضة الحج متوليًا إمامة البعثة المصرية، وكان رحمه الله وأدخله فسيح جناته سمح السجايا، حلو الحديث، طيب القلب فصيح اللسان، قوي التعبير دامغ الحجة فيما يبدي من آراء، وقد نعم أدباء الإسكندرية وشعراؤها بمجالسه التي كان العلم الأصيل يشع في أرجائها ويملؤها حيوية وذكاء، وكان يسكن بشارع المدارس (إبراهيم سيد أحمد حاليًّا).

وللدكتور إبراهيم سلامة مؤلفات أهمها ترجمة كتاب «الخطابة» للفيلسوف اليوناني العظيم «أرسطو» (أرسطا طاليس)، وكتابه «بلاغة أرسطو بين العرب واليونان»، ويتضمن هذا الكتاب نقدًا جديدًا في البلاغة وأصول النقد الأدبي، وكتاب «تيارات أدبية بين الشرق والغرب».

وخلف الدكتور إبراهيم سلامة ذرية صالحة بارك الله له فيها، فأبناؤه مصطفى جلال رئيس مجلس إدارة شركة الإسكندرية للمنتجات المعدنية، وحسن عصمت مستشار بوزارة الخارجية، ومحمد سعيد رئيس السكرتارية والمشتريات بوزارة المواصلات، وجمال الدين مدير الشؤون القانونية لشركة المقاولات العربية وكان عضوًا بمجلس الأمة عن دائرة شبرا الخيمة، وسمير محقق بشركة النصر لصناعة الأخشاب بالإسكندرية.

وهذه الوظائف التي يشغلونها وقت كتابة هذه الترجمة رئيسية تدل على مبلغ ثقافتهم العالية التي تعهدها المرحوم والدهم حتى ترعرعت وآتت ثمارها الطيبة.

٥٩٨- الدكتور إبراهيم شوقي - شارع - بقسم باب شرقي (بابيلون سابقًا)

كان مديرًا لجامعة القاهرة، ومن رجال الطب المشهورين ولاسيما في طب الأطفال، (انظر ترجمة الاسم الجديد في بابيلون).

٥٩٩- الدكتور إبراهيم عبد السيد - شارع - بقسم محرم بك (نيروتسوس بك سابقًا)

ولد الدكتور إبراهيم عبد السيد بحي باب الشعرية بالقاهرة خلال عام ١٢٨٧هـ (١٨٧٠م) وتلقى تعليمه الابتدائي بإحدى مدارس مسقط رأسه، ثم أرسل إلى بريطانيا، فقضى مرحلة دراسته الثانوية بمدينة لندره، وأتم دراسة الطب بجامعة إدنبرة بمقاطعة سكوتلاندا، وتخرج من هذه الجامعة خلال عام ١٣١٣هـ (١٨٩٥م)، وفي بداية حياته العملية التحق بالبلدية في وظيفة مفتش صحة واتخذ له عيادة بشارع الميدان (شارع محمود فهمي النقراشي الآن) فوق متجر الجمال الذي كان مشهورًا في تجارة الأقمشة في ذلك الحين، ولم يرض عن الاستمرار على العمل بالبلدية فترك العمل فيها دون أن يقدم استقالة كتابية، وفي سنة ١٣٢٥هـ (١٩٠٧م) نقل عيادته إلى شارع محرم بك حيث مارس مهنته الإنسانية حتى وافته المنية في ٦ من إبريل عام ١٩٦٥م (١٣٨٥هـ)، بالغًا من العمر ٩٥ عامًا قضى معظمها في معالجة المرضى وتخفيف آلامهم في إنكار للذات، وإقبال على تقصي مواطن الأدواء في غير النظر إلى المادية، فكم من مريض عالجه ابتغاء مرضاة الله، وكم من محتاج أمده بالدواء على حسابه، وكانت هذه الخصلة الحميدة تتوج سمعته بالذكر العاطر، علاوة على تمكنه من التطبيب إلى أبعد الحدود، فذاعت شهرته عن جدارة وتقدير.

وعلى الرغم من قضاء معظم مراحل دارسته في بلاد الإنجليز، فقد كان يتقن اللغة العربية والفرنسية إلى جانب الإنجليزية أيما إتقان، ولقد عاصرته عضوًا بالمجلس البلدي، فكان يبدي آراءه باللغة الفرنسية، ويرد على الأعضاء المصريين باللغة العربية الفصحى في طلاقة مدهشة، ولقد تعلم الفرنسية بمواظبته على قضاء أشهر إجازة الصيف الثلاثة -أثناء الدراسة- بباريس حيث كان يحضر معظم محاضرات الأساتذة الكبار في الطب ومن الغريب أن مكتبته الحافلة بالمصنفات الطبية وغيرها لا تضم كتبًا بالإنجليزية.

والواقع أن الدكتور إبراهيم عبد السيد كان أحد جهابذة الطب بالإسكندرية، واستمر على تلك الحال منذ فجر القرن العشرين حتى لاقى ربه.



شارع الدكتور إبراهيم عبد السيد (نيروتسوس بك سابقًا)

وكان دائم الاطلاع على تطورات علم الطب، يسافر إلى فرنسا كل عام ليستوعب باقي محاضرات الأساتذة الفرنسيين من جديد، وظل يقضي شهرين كل عام في رحلته الصيفية إلى عام ١٣٣٢هـ (١٩١٣م) وبعد الحرب العالمية الأولى التي نشبت عام ١٣٣٣هـ (١٩١٤م) وانتهت عام ١٣٣٧هـ (١٩١٨م) واصل رحلاته العلمية الاستطلاعية في أعوام ١٣٤٠ و١٣٤٥ و١٣٥٠هـ (١٩٢١ و١٩٢٦ و١٩٣١م) ثم تردد على فرنسا مرات أخرى كمصطاف.

وفي عام ١٣٥١هـ (١٩٣٢م) حضر المؤتمر الطبي في جزيرة رودس، وكان أول مؤسسي المستشفى القبطي بمحرم بك، وقد أنشئ تحت إشرافه واختير رئيسًا لمجلس إدارته حتى وفاته.

ولقد اعتذر مرتين عن تعيينه عضوًا في مجلس الشيوخ إذ كان يؤمن بأن الطبيب المخلص يجب أن يتفرغ لمهنته الإنسانية لا يشغله عنها المناصب أو السياسة.

ومما يذكر له في الاعتزاز بكبريائه الوطنية أن الملك السابق فؤاد طلب ترشيح أربعة أطباء لمنحهم أوسمة من بينهم اثنان من الأجانب، ولاحظ الدكتور إبراهيم عبد السيد أن مرتبة الوسامين اللذين منحا للطبيبين الأجنبيين أرفع من وسامه ووسام زميله المصري، ومن ثم لم يذهب إلى السراي ليتسلم الوسام أو يتقلده، وكان ذلك منه احتجاجًا صامتًا قويًّا على التفرقة بين الأجانب والمصريين في ذلك العهد البائد.

أما ترجمة اسم صاحب الشارع القديم فاطلبها في «نيروتسوس بك».

٦٠٠- الدكتور أحمد السيد - شارع - بقسم باب شرقي (هتسو سابقًا)

هو أحمد بن محمد السيد، من أسرة استقرت بالإسكندرية منذ زمن قديم، وقد ولد أحمد السيد بهذه المدينة عام ١٨٨٣م (١٣٠١هـ) وتلقى دراسته الابتدائية والثانوية بمدارس الآباء اليسوعيين (الجزويت) وكانت تشغل مبنى المحافظة قبل انتقالها إلى مبنى البلدية بطريق الحرية، وتشغلها الآن مديرية الأمن بشارع أبي الدرداء، وعقب حصوله على شهادة البكالوريا عمل فترة من الزمن موظفًا بمصلحة التليفونات، ثم سافر إلى فرنسا والتحق بكلية الطب بباريس ودرس طب وجراحة الأسنان، ثم واصل دراسته بمدينة بروكسيل عاصمة بلجيكا، وحصل على دبلومتين من الجامعتين وميدالية مرتبة الشرف منهما معًا، ولدى عودته إلى الوطن عمل طبيبًا بمستشفى المواساة، وطبيبًا لمصلحة الجمارك، وكان يزاول مهنته الطبية علاوة على ذلك بعيادتين خاصتين إحداهما بشارع سعد زغلول، رقم ١٩ والأخرى برشيد حيث كان يذهب إليها مرتين في الأسبوع، ومما يدل على تقواه وتمسكه بدينه قيامه بفريضة الحج، وهو في عنفوان الشباب قبل سفره إلى أوروبا للدراسة، ومن أعماله الخيرية اشتراكه في عضوية جمعية المواساة الإسلامية وجمعية حمالي الجمارك، وكان عضوًا مؤسسًا من أعضاء جماعة نشر الثقافة بالإسكندرية التي تكونت عام ١٩٣٢م (١٣٥١هـ) وعضو مجلس المراجعة لتقدير الأملاك بالبلدية، وكان تغمده الله برحمته أحد أصدقائي الأوفياء، وكنا نقضي يوم الخميس بعد الظهر، ويوم الجمعة بكنج مريوط ونستمتع بجوها الدافئ ومناظرها البدوية استمتاعًا وارف الهناءة والرغد، وتوفي الدكتور أحمد السيد في ٢١ من أكتوبر عام ١٩٤٦م (١٣٦٦هـ) عن ٦٣ عامًا، وخلف من الذرية الأساتذة محمد أحمد السيد وكان رئيس قلم العقود بالتليفونات، والآن بالمعاش، وعبد المنعم أحمد السيد مدير جمرك الإسكندرية، ومحمود أحمد السيد مدير منقطة بريد الإسكندرية، والدكتور داود حلمي السيد أستاذ اللغة الإنجليزية بجامعة القاهرة، وكريمته السيدة دولت تعلمت بالمدارس الإيطالية، وأرسلت في بعثة إلى إيطاليا، وحصلت على دبلوم الفنون الجميلة ولها لوحات تصور بعض شخصيات الإسكندرية بالألوان الزيتية.

والدكتور أحمد السيد أول من سكن المنطقة التي بها الشارع الذي يحمل اسمه الآن، وهما بجهة سيدي جابر من ناحية البحر، ولم يكن يقطن بهذه المنطقة سوى أسرته بجانب معسكر مصطفى باشا الذي كان مقر جنود الاحتلال الإنجليزي البغيض، وكانت المواصلات إلى هذه المنقطة هي السكة الحديد لغاية محطة سيدي جابر، ولم يكن الكورنيش قد عمل.

٦٠١- الدكتور بوتي - شارع - بقسم العطارين (محمد موسى حاليًا)

الدكتور جوزيبي بوتي كان أول أمين للمتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية الذي ترجع فكرة إقامته إلى عام ١٨٩١ أي بعد إنشاء المجلس البلدي بعام واحد، وكان في ذلك الحين مكونًا من خمس حجرات بأحد الأبنية الكائنة بشارع رشيد (طريق الحرية الآن)، وفي عام ١٨٩٥م (١٣١٣هـ) افتتح المتحف في مبناه الحالي بالشارع المسمى باسمه بجانب مبنى البلدية (المحافظة حاليًّا)، وكان للدكتور بوتي جهود

مثمرة في لم شعث كثير من الآثار اليونانية والرومانية التي يضمها المتحف في الوقت الراهن، ولقد دون هذا الباحث الأثري معلوماته العلمية، وإسهامه العملي في الكشف عن بعض الآثار الهامة ومشاهداته الخاصة بالآثار الأخرى الثابتة الأماكن في مجلدات عديدة باللغة الفرنسية وبلغته الإيطالية، ومازالت هذه المجلدات التاريخية المفيدة تأخذ مكانها في أرفف مكتبة المتحف كمراجع للباحثين في تاريخ مدينة الإسكندر الأكبر القديم، ومن هذه المراجع: «مذكرات عن الآثار المعروضة بالمتحف» ودليل عن هذه الآثار، و«قائمة بالولاة الذين حكموا مصر»، وقد صدر في هذا عام ١٣٠٨هـ (١٨٩٠م)، وبحث عن «أكريبول الإسكندرية، ومعبد سيرابيس (السيرابيوم)، وكوم الشقافة»، وبحث عن حي راقودة في العهد الروماني، وبحث عن «خريطة الإسكندرية في العهد البطلمي»، و«مدونة الحفريات التي تمت والتي في طريق الإتمام بالإسكندرية»، وأبحاث أخرى جميعها عن الإسكندرية.

وقد مات الدكتور جوزيبي بوتي في العشر السنوات الأولى من القرن العشرين ولم يترك لزوجته وأولاده الثلاثة ما يعينهم على أعباء الحياة فعمل ابنه أوجست بوتي كاتبًا بقسم الإيرادات دون أن يتم دراسته، وعملت ابنته كاتبة على الآلة بقسم السكرتارية بالبلدية، وكان أوجست بوتي زميلي بالعمل عند تعييني بالبلدية، وحبذا لو أعادت المحافظة وضع اسم الدكتور بوتي على أحد الشوارع تخليدًا لذكراه وتقديرًا لجهوده العلمية بالنسبة إلى آثار الإسكندرية في العهد الإغريقي والروماني.

٦٠٢- الدكتور زكي شافعي - شارع - بقسم الرمل (جيمل سابقًا)

اسمه الكامل الدكتور محمد زكي شافعي، ولد بالقاهرة في ٦ من مارس عام ١٨٨٧م (١٣٠٥هـ)، وقطع مرحلة التعليم الابتدائي بالمدرسة المحمدية والمرحلة الثانوية بالمدرسة الخديوية بالقاهرة، ثم التحق بكلية الطب بالقاهرة وتخرج في أول يناير عام ١٩١٠م (١٣٢٨هـ) وكان ترتيبه الأول على الخريجين، وعين طبيبًا بوزارة المعارف العمومية ثم انتقل إلى وزارة الصحة العمومية واختاره الدكتور محمود ماهر وكيلاً للطب الشرعي بالقاهرة، وعين بعد ذلك سكرتيرًا فنيًّا لوزارة الصحة ثم وكيلاً لمصلحة الوقاية من الغارات الجوية خلال الحرب العالمية الثانية التي بدأت عام ١٩٣٩م (١٣٥٨هـ) وتولى بعد ذلك وظيفة المدير العالم للمشروعات بوزارة الصحة، وندب بعد ذلك من وزارة الداخلية للقيام بأعباء مدير عام الأقسام الصحية ببلدية الإسكندرية، وكان يشترك سنويًّا في المؤتمرات الطبية في مختلف البلدان الأوروبية لسعة معرفته باللغة الإنجليزية التي كان متفوقًا في إتقانها، وقد كتب بها مقالات وأبحاثًا شتى نشرت في المجلات الطبية العالمية.

وأسهم رحمه الله في الحركة الفكرية بالإسكندرية طوال مدة ندبه مديرًا عامًا للأقسام الصحية بالبلدية، فكان عضوًا بارزًا في جماعة نشر الثقافة، وألقى باسمها عدة محاضرات طبية قيمة، وبعد إحالته على التقاعد عام ١٩٤٨م (١٣٦٨هـ) تبرع بعلاج المرضى بجمعية الإسعاف بالإسكندرية، فضرب المثل النبيل والقدوة الحسنة للطبيب الإنساني الذي يرى أن واجبه الأول في الحياة هو العمل ما وسعت جهوده على تخفيف آلام المرضى وشفائهم دون أي اعتبار للناحية المادية،

وكنت له صديقًا ورأيته يجود بالحسنات الخفية على مستحقيها من المرضى ولاسيما في حصولهم على الدواء الشافي.

ولبى الدكتور محمد زكي شافعي نداء ربه في ٩ من شهر فبراير عام ١٩٦١م (١٣٨١هـ) بعد حياة حافلة بالأعمال الخيرية والثقافية.

٦٠٣- الدكتور زكي مبارك - شارع - بقسم الرمل

ولد الدكتور زكي مبارك عام ١٣١٠هـ (١٨٩٢م) ببلدة «سنتريس» بالريف المصري، وقضى طفولته وجزءًا من شبابه بين الكتّاب والغيط والسامر، ثم حفظ القرآن وجوّده عندما بلغ السابعة عشرة من عمره وانتقل بعد ذلك إلى القاهرة، وجاور بالأزهر إلى أن نال شهادة العالمية، وكان في تلك الفترة يثابر على تعلم اللغة الفرنسية حتى أتقنها والتحق بالجامعة المصرية الأهلية عام ١٣٣٦هـ (١٩١٧م)، وفي عام ١٣٣٨هـ (١٩١٩م) انضم إلى الثورة وسُجن لما كان يلقيه من خطب ثورية، ومكث في السجن تسعة أشهر، عقب خروجه استأنف الدراسة بالجامعة، وحصل عام ١٣٤٠هـ (١٩٢١م) على إجازة الليسانس في الفلسفة.

وأسهم زكي مبارك في الصحافة المصرية بما نشره من أبحاث ومقالات كانت لها أثرها البارز في رفع المستوى الثقافي في الصحف اليومية والأسبوعية، ومن الصحف التي كانت تنشر مقالاته جرائد «الوادي، والبلاغ، والأفكار»، كما اشترك في تحرير مجلة الرسالة التي كان يصدرها الأستاذ أحمد حسن الزيات.

وفي عام ١٣٤٣هـ (١٩٢٤م) نال الدكتوراه من الجامعة المصرية عن رسالته «الأخلاق عند الغزالي» وفي عام ١٣٥٠هـ (١٩٣١م) حصل على دكتوراة ثانية من جامعة السربون في فرنسا عن كتابه «النثر الفني في القرن الرابع الهجري»، وفي ١٣٥٦هـ (١٩٣٧م) نال دكتوراة ثالثة من الجامعة المصرية عن كتابه «التصوف في الإسلام»، ولذا عرف بين الناس بلقب «الدكتور علي مبارك»، وعلى الرغم من العلم الغزير فارق زكي مبارك الحياة وهو لا يملك من متاع الدنيا إلا الذكر الحسن، إذ ظل طوال حياته يخدم الأدب ويؤلف الكتب، وينظم الشعر دون أن يصيب من كل ذلك المال الوفير.

وقد عين عام ١٣٥٨هـ (١٩٣٦م) مفتشًا بوزارة المعارف العمومية، ثم انتدبته جامعة بغداد لشغل وظيفة «أستاذ بمدرسة المعلمين العليا بالعراق»، وهناك ألّف كتابه القيم «ليل المريضة في العراق»، الذي أثار ضجة أدبية في الأوساط العربية، وفي هذا الكتاب يقص زكي مبارك حكاية غرامه في العراق، وقال عن كتابه أنه تقرير يغاير التقارير التي تقدم إلى مكتب تفتيش اللغة العربية من أسبوع إلى أسبوع، ويخاطب وزير المعارف في ذلك الحين «الدكتور محمد حسين هيكل» فيقول له: «قد تغضب علي وأنت وزير، لأن الوزراء في الأغلب يتوقرون، ولكنك لا تلبث أن تعود إلى فردوس الأدب... إنك لن تبقى وزيرًا طول دهرك، ويومئذ تقرأ هذا التقرير بروح الأديب الفيلسوف فتعرف أني لم أكن من المسرفين»، أما كتاب النثر الفني فقد جاء فيه على النثر الجاهلي والنثر الإسلامي، وأطوار السجع والازدواج، ثم درس خصائص النثر في القرن الرابع ويتكلم بعد ذلك عن كتاب الأخبار، والقصص ويتحدث عن النقد الأدبي، ويشرح بعض الجوانب من كتاب الآراء

والمذاهب ثم يتحدث عن كتاب الرسائل والعهود، ومن مؤلفاته «ذكريات باريس»، و«الموازنة بين الشعراء» ويضم هذا الكتاب آراء لها قيمتها من حيث النقد الأدبي للشعر، و«حب ابن أبي ربيعة وشعره» وهو كتاب ينكر فيه على ابن أبي ربيعة صدقه في الحب لأنه من الحضر، و«مدامع العشاق» و«زهر الأدب»، و«ألحان خالدة» وهو ديوانه الذي يشهد له برقة الحس والحكمة وعذوبة الجرس، وفيما يلي أنموذج من الشعر الجزل:

ربَّاهُ صُغْتَ فؤادي

مِنَ الأسى والحنينْ

ولم تشأ لِضُلوعي

غيرَ الجَوَى والشُجونْ

فكيفَ تصفُو حياتي

مِنَ الهَوَى والفُتونْ

أم كيفَ تُرْجَى نجاتي

مِنْ ساجياتِ الجفونْ!

وتوفي الدكتور زكي مبارك في ٢٢ من يناير عام ١٩٥٢م (١٣٧٢هـ) بالغًا من العمر ستين عامًا.

٦٠٤- الدكتور سالم باشا - شارع - بقسم محرم بك

هو ابن الشيخ سالم من بلدة القنيات القريبة من مدينة الزقازيق بمديرية الشرقية (محافظة الشرقية حاليًا)، وقد حضر والده الشيخ سالم إلى القاهرة عام ١٨٢١م (١٢٣٧هـ) لطلب العلم بالأزهر، وتلقى علومه على كبار العلماء أمثال الشيخ حسن القويني والشيخ إبراهيم البيجوري والشيخ حسن العطار (انظر مادة العطار)، ثم التحق بالحكومة في وظيفة واعظ لفرق الجيش المصري التي سافرت للحرب في الشام عام ١٨٣٢م (١٢٤٨هـ) وفي غيبة والده بالبلاد الشامية ولد سالم على اسم والده وصار اسمه الكامل سالم سالم، ولدى عودة الشيخ سالم من الشام اجتهد في تعليم ابنه سالم فأرسله إلى المكاتب الأهلية عندما كان عمره ستة أعوام فتعلم القرآن الكريم وجوده على أحد علماء الأزهر، ثم التحق بالمدارس على غير رغبة والده الذي كان يبغي أن يتم تعليمه الديني بالأزهر، ويذكر سالم سالم أن رغبته في دخول المدارس كانت بسبب عملية جراحية أجراها الدكتور إبراهيم بك البزاوي (انظر هذه المادة) لأحد أقاربه وشفي من داء الحصاة التي كادت تقضي على حياته، ومنذ ذلك الحين شغف سالم بتعلم مهنة الطب، والتحق بالمدارس الأميرية ودخل مدرسة الألسن من عام ١٨٤٢م إلى عام ١٨٤٤ (١٢٥٩ - ١٢٦٠هـ) وكانت بحي الأزبكية ويتولى نظارتها رفاعة بك (انظر هذه المادة)، ثم التحق بعد ذلك بمدرسة الطب البشري، وكان ناظرها أدهم باشا، وواظب على الدراسة بها إلى عام ١٨٤٩م (١٢١٦هـ)، وكان في تلك الفترة نفسها يحضر دروسًا بالأزهر بعد المغرب في الفقه الشافعي على يد الشيخ علي المخللاتي، وعندما تولى إبراهيم أمور الحكم في أواخر عام ١٨٤٨م (١٢٦٥هـ) اختاره أدهم باشا مدير مدرسة الطب، وكلوت بك رئيس الأطباء بمصر في ذلك الحين للسفر إلى فرنسا لإتمام تعليمه الطبي، غير أن وفاة إبراهيم الأول غير الوضع إذ أمر عباس الأول بإلغاء جميع المدارس وضمها إلى مدرسة واحدة سماها بالأورطة

المفروزة، وجعلها بالخانقاة على النظام العسكري، ومن ثم صار سالم سالم تلميذًا عسكريًّا، وهكذا وجد أن الجهود التي بذلها في تحصيل علوم الطب ذهبت هباءً، ولاسيما أنه كان على وشك أن يصير طبيبًا إذا استمر في دراسته ثلاثة أشهر فقط ويتخرج برتبة الملازم الثاني.

وإذا هو على هذا الحال من الضيق إذ صدر أمر باختيار بعض تلاميذ مدرسة الطب للسفر إلى ألمانيا وكان سالم من بين الذين اختيروا لهذه البعثة فسافروا إلى «ميونخ» ووضعوا تحت رعاية «البارون دوبريل» فأحسن تربيتهم، وتعلموا اللغة الألمانية، ثم واصلوا الدراسة فتعلموا إلى جانب علوم الطب اللغات الفرنسية والإنجليزية، والإلمام باليونانية واللاتينية، وبعد أن أتم دراسته اجتاز الامتحان وحصل على شهادة الدكتوراة، وذلك أمام عشرين أستاذًا بملابسهم التقليدية وهي التاج والفروجية الواسعة الأكمام، والشعور الطويلة المستعارة، وفي عام ١٨٥٤م (١٢٧١هـ) سافر إلى «فيينا» ليزود بالمعلومات الطبية العملية، وبعد وفاة عباس الأول استمر طلاب هذه البعثة على المران الطبي العملي في عهد سعيد الأول فذهبوا إلى برلين واسترشدوا بآراء مشاهير الأطباء بها، وعاد هو وزملاؤه في أواخر عام ١٨٥٥م (١٢٧١هـ) وعين طبيبًا بالأورطة السعيدية وفي ذلك الحين شيد مستشفًى خاصًّا برجال الجيش، ورقي بعد ذلك إلى رتبة اليوزباشي (النقيب)، ولما أعيد فتح مدرسة الطب عام ١٨٥٧م (١٢٧٣هـ) عين مدرسًا بها، وكانت بقصر العيني، وكان أول أستاذ في فرعي الفسيولوجي والرمد، وكان يترجم دروس الجراحة من الفرنسية إلى العربية، وفي عام ١٨٥٨م (١٢٧٤هـ) صار أستاذًا في قسم الأمراض الباطنية، وبعد أن أدى فريضة الحج صحبة سعيد الأول نقل كبير أطباء فرق الجيش المصري جميعها، وفي عام ١٨٦٧م (١٢٧٤هـ) ذهب إلى الجزيرة إقريطي (كريت) لإنشاء مستشفى بها، وواصل الترقي في الوظائف إلى أن وصل إلى رتبة الميرميران، وعين رئيسًا لمدرسة الطب، وطبيبًا خاصًّا للخديوي توفيق، وفي عام ١٨٨٠م (١٢٩٨هـ)، عين رئيسًا للجنة تنظيم مصلحة الصحة، ثم رئيسًا لمجلس الصحة العمومية، وتوفي عام ١٨٩٣م (١٣١١هـ)، وقد عرب كتاب الدكتور «كنز» وسماه «دليل المحتاج».

٦٠٥- الدكتور سامي جنينة - شارع - بقسم باب شرقي (أبولون سابقًا)

ولد الدكتور محمود سامي جنينة بجهة الأنفوشي بالإسكندرية عام ١٣١٢هـ (١٨٩٤م)، وهو أحد أفراد أسرة جنينة المغربية الأصل التي نزح جدها الأكبر علي بك جنينة إلى الإسكندرية واستقر بها وشيد بأحد شوارع قسم الجمرك مسجدًا يحمل اسمه ولقبه حتى الآن (انظر مسجد علي بك جنينة).

وتلقى الدكتور سامي جنينة تعليمه الأولي بأحد كُتَّابي قسم الجمرك، ثم التحق بالمدرسة الابتدائية ونال شهادة البكالوريا من مدرسة رأس التين الثانوية القديمة وكانت بالقرب من قصر رأس التين قبل انتقالها إلى شارع الخديوي الأول (شريف حاليًّا)، وكان حصوله على البكالوريا عام ١٣٣١هـ (١٩١٢م) أي في سن الثامنة عشرة من عمره.

وانتقل بعد ذلك إلى القاهرة حيث التحق بمدرسة الحقوق الخديوية وحصل منها على إجازة الحقوق عام ١٣٣٥هـ

(١٩١٦م)، وعمل بعد التخرج مباشرةً وكيلاً للنائب العام، ثم التحق بوظيفة قضائية بوزارة الأوقاف.

وأُرسل بعد ذلك في بعثة دراسية إلى مدينة لندن ببريطانيا فتخصص في القانون الدولي، وحصل على دكتوراة من جامعتها، ولدى عودته إلى الوطن عين أستاذًا للقانون الدولي في مدرسة الحقوق الخديوية، وظل يمارس مهنته التعليمية عدة سنين زاهدًا في الوظائف الإدارية لحبه الشديد لمهنته.

واختير في السنوات الأخيرة من حياته العلمية، وكيلاً لجامعة القاهرة فوكيلاً لجامعة الإسكندرية، ثم مديرًا لهذه الجامعة، وأحيل بعد ذلك على المعاش لبلوغه السن القانونية.

وأصابه المرض، وألح عليه فبقي عليه عدة أشهر يعالج بالمستشفى الجامعي بالإسكندرية إلى أن وافاه الأجل المحتوم، فتوفي خلال شهر مارس عام ١٩٦٣م، بالغًا من العمر ٦٩ عامًا.

ومن مؤلفاته القانونية كتاب القانون الدولي الذي مازال مرجعًا هامًّا من مراجع هذا القانون، وكتاب عصبة الأمم من الوجهة القانونية، وكتاب في القانون الدولي يتناول السلم والحياد.

وأنجب الدكتور سامي جنينة ولدين يعمل أحدهما ضابطًا في القوات المسلحة برتبة عقيد، ويعمل الآخر مستشارًا لوزارة الخارجية بعد تخرجه في كلية الحقوق.

٦٠٦- الدكتور صرّوف - شارع - بقسم محرم بك

هو الدكتور يعقوب صروف بن نيقولا، ولد في بلدة الحدث القريبة من مدينة بيروت عاصمة لبنان، وعام ١٢٦٩هـ (١٨٥٢م) وتلقى علومه الابتدائية في مدرستي سوق الغرب وعُبَيَّة. وكان يدير هاتين المدرستين المبعوثون الأمريكان.

ولما بلغ من التعليم الابتدائي غايته ألحق بالكلية الأمريكية في بيروت، وظل بها طالبًا مجدًّا يدرس العلوم اللغوية، والكونية، والطبيعية، والفلسفية حتى نال الإجازة العالمية عام ١٨٧٠م (١٢٨٧هـ)، وكان بارعًا في اللغة الإنجليزية، ومتقنًا للغة الفرنسية، ويعرف طرفًا من اليونانية.

وعقب تخرجه عمل أستاذًا بالكلية التي تخرج منها، وفي عام ١٨٧٦م (١٢٩٣هـ) أصدر مع زميله في الدراسة الدكتور فارس نمر محلة المقتطف لمعالجة البحوث العلمية والأدبية والزراعية الصناعية، وبعد عامين انضم إليهما شاهين مكاريوس الذي تولى إدارة المجلة.

وفي عام ١٨٨٦م (١٣٠٤هـ) تحول بمجلة المقتطف ثلاثتهم إلى القاهرة، وفي عام ١٨٨٨م (١٣٠٦هـ) أصدر الدكتور صروف مع زميله الدكتور نمر فارس جريدة المقطم اليومية السياسية كانت ترعى مصالح الإنجليز المحتلين كما كانت جريدة الأهرام ترعي مصالح الفرنسيين (انظر مادة الصحافة).

وكان الدكتور صروف راجح العقل، ذكي اللب، غزير العلم، واسع الاطلاع، شديد الصبر على معاناة القضايا

العلمية، وتحقيقها وقد قطع من عمره حوالي ٥٢ عامًا يعالج في مجلة المقتطف التي انقطع إلى تحريرها بعد إصدار جريدة المقطم بقليل، أجل البحوث العلمية والفنية والأدبية ويجيب بعد البحث والاستقصاء العلمي الدقيق عن كل ما يطرح عليه من أسئلة تتصل بأسباب الحياة.

ويقول كتاب سيرته إنه كان وديعًا، طيب النفس، حلو الحديث، عذب اللسان، وعلى الجملة كان متخلقًا بما ينبغي لمثله من العلماء المشهورين.

وقد ألف ثلاث روايات؛ اثنتين عن مصر، والثالثة عن لبنان وترجم إلى اللغة العربية كتاب «سر النجاح»، أما أسلوبه البياني فسهل رصين، لا تكلف فيه ولا زخرف، إذ تغلب عليه الصيغة العلمية، ومن ثم فهو يعتبر من بناة الثقافة في مصر، وفي سائر الأقطار العربية.

ومن نماذج أسلوبه قوله في رسالة أنشأها لتلقي في أساتذة فلسطين: «إن تهذيب الأخلاق أهم جدًّا من تثقيف العقول، وهذا التهذيب يقتضي أن يكون المعلم على خلق عال، لا يكذب، ولا يرائي، ولا يداهن، مترفعًا عن الدنايا، يستعمل الشدة في محلها، واللين في محله، فإذا كان كذلك سهل عليه أن يهذب أخلاق تلاميذه لأنهم يقتدون به ويهابونه ويحبونه.

وكانت وفاته بالقاهرة عام ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م) بالغًا من العمر ٧٦ عامًا.

٦٠٧- الدكتور عبد الحميد بدوي - شارع - بقسم العطارين

٦٠٨- الدكتور عبد الحميد بدوي - شارع - بقسم باب شرقي (السلطان عبد العزيز سابقًا)

هو عبد الحميد بدوي ابن محمد بدوي عميد أسرة بدوي بالإسكندرية (انظر مادة بدوي بك)، وولد بمدينة المنصورة في ١٣ من مارس عام ١٨٨٧م (١٣٠٥هـ)، وتلقى دراسته الابتدائية بمدرسة الشيخ طه محمد (انظر هذه المادة) بشارع رأس التين، والثانوية بمدرسة رأس التين، وحصل على إجازة الحقوق من مدرسة الحقوق بالقاهرة، وكان أول دفعته، ثم أرسل في بعثة حكومية - مع بعض زملائه الأوائل في التخرج - إلى فرنسا حيث حصل على الدكتوراة من جامعة «شيرنوبل»، ولدى عودته مارس التدريس بمدرسة الحقوق بالقاهرة، ثم نقل إلى القضاء، واختير سكرتيرًا عامًّا لمجلس الوزراء بعد أن اشترك في الحركة الوطنية عام ١٩١٩م (١٣٣٨هـ)، وكان له فيها مواقف قومية مشرفة.

وفي عام ١٩٢١م (١٣٤٠هـ) اشترك في مفاوضات المطالبة بالاستقلال، وعين عام ١٩٢٢م (١٣٤١هـ) مستشارًا بإدارة قضايا الحكومة، وقد رحب به رئيس هذه الإدارة الأجنبي على الرغم من حداثة سنه، وقصر مثل هذا المنصب الهام على الأجانب في ذلك الحين.

وما لبث أن تولى رياسة هذه الإدارة خلال عام ١٩٢٦م (١٣٤٥هـ)، لما أظهر من كفاءة نادرة وقدرة ممتازة في

التشريع، وبهذا صار أول مصري يتولى هذا المنصب الذي قضى فيه ١٥ سنة شرع خلالها عددًا من قوانين الدولة.

وفي عام ١٩٤٠م (١٣٥٩هـ) عين وزيرًا للمالية واستقال بسبب معارضته للملك المخلوع فاروق في ضم إحدى جزر النيل الحكومية بأسوان إلى أملاكه الخاصة، وفي عام ١٩٤٥م (١٣٦٥هـ) عين وزيرًا للخارجية، وترأس عام ١٩٤٦م (١٣٦٦هـ) وفد مصر في مؤتمر سان فرانسيسكو بأمريكا لوضع ميثاق هيئة الأمم المتحدة، ورشح إثر ذلك لتولي منصب القاضي بمحكمة العدل الدولية بمدينة «لاهاي»، ثم انتخب لهذا المنصب في العام نفسه.

وكان من الأسباب التي دعت لانتخابه ما أظهره من إدراك قانوني ممتاز في مؤتمر سان فرانسيسكو الآنف الذكر، ومعونته القيمة في وضع ميثاق الأمم المتحدة.

وقد أعيد انتخابه مرتين تقديرًا لجهوده الصادقة المثمرة في العدالة الدولية، وقد واصل خلال هاتين المرتين إلى شغل منصب نائب رئيس المحكمة.

وكان قد عين عضوًا بمجمع اللغة العربية عام ١٩٤٥م (١٣٦٥هـ)، وكان وكيلاً، ثم رئيسًا للجمعية الخيرية الإسلامية، ورئيسًا لجمعية الحرية لرعاية الطفولة بالإسكندرية، ورئيس جمعية الاقتصاد والتشريع والإحصاء والتشريع.

وقد اشترك في مؤتمر «منترو» ووقع على كاهله عبء الناحية القانونية فيما يتعلق بمعاهدة إلغاء الامتيازات الأجنبية في مصر.

وظل يشغل منصب نائب رئيس محكمة العدل الدولية إلى أن وافته المنية في ٤ من أغسطس عام ١٩٦٥م (١٣٨٥هـ) بالغًا من العمر ٧٨ عامًا.

وقد أَبَّنه الدكتور عبد الرازق السنهوري (انظر هذه المادة) في حفل مجمع اللغة العربية قال: «إن مصر لم تر مثل عبد العزيز فهمي، وعبد الحميد بدوي في القرن العشرين سمو مكانة في القاهرة، وعلو قدر في القضاء والتشريع، وإنهما يطبعان بطابعهما أجيالاً متعاقبة من رجال القانون، وأن لا يتعلق ند بأذيالهما، ولا يلحق بغبارهما».

ويقول الوزير السابق «صليب سامي» في بحثه الخاص بإدارة قضايا الحكومة، وذلك عند التعرض لتاريخ عبد الحميد بدوي القانوني: «وعبد الحميد بدوي أول رئيس وطني للجنة قضايا الحكومة، وقد كان قبل ذلك أول مستشار ملكي وطني عين عضوًا بها، كانت لجنة قضايا الحكومة للأجانب من كبار المشرعين، يستعصي فتحه على رجال القانون من الوطنيين، وظلت اللجنة كذلك ثمانية وأربعين عامًا، حتى قيَّض الله لها عبد الحميد بدوي باشا بكفاءته الممتازة فلم يكد يطرق بابها في سنة ١٩٢٢ حتى فتحت له الباب مرحبة».

ومن المهام القانونية الرئيسية التي أسهم فيها اللجنة التي عقدت خلال عام ١٩٢٢ لوضع المبادئ العامة للدستور، وكان يرأسها حسين رشدي (انظر مادة رشدي باشا) وكان عبد العزيز فهمي، ومحمد علي علوبة، وتجلى نبوغه في تلك اللجنة، وكان جميع أعضائها يقدرون آراءه، وينصتون إليه كلما أدلى برأيه ثم يأخذون به.

وفي عام ١٩٣٣م (١٣٥٢هـ) كتب بحثًا عن الامتيازات الأجنبية في مصر قال فيه: «إنه لن يتم لمصر الشعور بما يجب لكل أمة من العزة والكرامة، ولن يتحقق لها العدة التي ينبغي أن تمتد بها في نضال الحياة العنيف، ولن يتهيأ لها الإسهام في النشاط الدولي والإنساني على الوجه الذي يؤهلها له ماضيها المجيد وحاضرها العتيد، وكل ما حباها الله من خيرها ووهبه أهلها من صفات إلا أن تحط عن عاتقها تلك الامتيازات التي تقيد خطاها إلى الكمال.

وكان إلى جانب قيامه بهذه المناصب الخطيرة يندب كل سنة للامتحان الشفوي الذي يعقده لطلبة الليسانس بمدرسة الحقوق مشتركًا مع أحد الأساتذة الفرنسيين.

ومن أعماله القانونية اشتراكه في وضع ميثاق جامعة الدول العربية، وكان أول من دعا لإنشاء مجلس الدولة، وقد منحته جامعة القاهرة «الدكتوراة» الفخرية في القانون تقديرًا لأعماله المجيدة، وكانت له صله قانونية وثقافية بكثير من الهيئات القانونية والعلمية بمصر والخارج.

أما ترجمة صاحب الاسم القديم للشارع فاطلبها في «السلطان عبد العزيز».

٦٠٩- الدكتور عبدالله يوسف - شارع - بقسم العطارين (فيرنية سابقًا)

يعتبر المرحوم الدكتور عبد الله يوسف من أوائل المصريين الذين نافسوا الأجانب من الأوروبيين وغيرهم في فتح الصيدليات بالإسكندرية بعد أن كانت هذه المهنة الطبية، واستغلالها المربح وقفًا على النازحين إلى القطر المصري من كل فج ومن كل جنس، وذلك حتى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ففي السنين الأولى من القرن الحالي أنشأ الدكتور عبد الله يوسف صيدليته الأولى بشارع راغب باشا بالقرب من مسجد سلطان، وكان محسنًا وعلى جانب عظيم من كرم الأخلاق والوطنية الخالصة الصادقة.

ففي مجال الإحسان كان لا يضن على الفقراء من مواطنيه بالدواء دون مقابلة مالية، وكان يشترك في الجمعيات الخيرية ليخفف الويلات على المحتاجين والمرضى والمساكين وأبناء السبيل، وكان يسارع بعلاج المصابين في المظاهرات ضد الاحتلال الإنجليزي برصاص الجنود البريطانيين الغادرين في صيدليته التي اشتهرت بأنها ملاذ كل فدائي يناضل في سبيل الاستقلال، ولاسيما في حي باب عمر باشا وراغب باشا وباب سدرة.

وقد كانت للدكتور عبد الله يوسف مواقف وطنية مشرفة خصوصًا في الفترة الواقعة بين عام ١٩١٤ و١٩١٩م، وما بعد هذا التاريخ فاشترك فعليًّا في أعمال المقاومة ضد الاحتلال الإنجليزي الغاشم، ومن هذه الأعمال الفدائية النبيلة اشتراكه في مطعم افتتحه المناضلون عند شارع البوستة (عباس محمود العقاد حاليًّا) وشارع سعد زغلول لا ليكون مطعمًا بالمعنى المقصود من هذه التسمية، ولكن ليكون ملتقى الفدائيين بكيفية سرية تخفي خططهم عن أنظار رجال البوليس السياسي، ورجال المخابرات الإنجليز، وكان يشترك معه في نفقات المطعم، وفي التنظيمات السرية المناضلون: عبد الرحمن شرف (انظر هذه المادة) صاحب جريدة السفير، وحامد المليجي (انظر هذه المادة)، ومحمد عوض جبريل، ونبيه قبطان، والشيخ

عبد الحميد النحاس، وكان حامد المليجي أمين صندوق هذه المنظمة السرية، وأمين خزانة المطعم.

وكان يدير المطعم مجموعة من المنظمات السرية تقوم بطبخ الأطعمة وتقديمها إلى رواد المحل من الفدائيين، وغيرهم وتباشر غسل الصحون، وتنظيم الموائد وترتيب أدواتها وتنظيف المطعم نفسه، وكل ذلك إبعادًا للشبهات التي قد تتجمع حول أفراد المنظمة الذين كانوا يلتقون بالمطعم في أغلب الأحيان لتلقي التعليمات من رؤسائها، ثم يقومون بالتنفيذ على الفور في تصميم وشجاعة نادرين، ومن ثم نجوا من شر رجال البوليس السري، ورجال القسم المخصوص ورؤسائه الإنجليز، وكان المنفذون للأعمال الفدائية يتلقون الأسلحة والقنابل اليدوية في أثناء تناولهم الطعام بطرق خفية غاية في الإحكام، ويتسلمون المنشورات الثورية لحض أفراد الشعب على القيام بالمظاهرات والإضراب وكان كل ذلك إرهاصًا لثورة عام ١٩١٩م العارمة.

وكانت مهمة محمد عوض جبريل أحد أعضاء التنظيم الثوري البارزين، وأحد العاملين بالمطعم حمل السلاح لتوزيعه على أعضاء التنفيذ فكان يضع ما يحمله من أسلحة، وقنابل يدوية تحت الخضراوات التي يشتريها للمطعم ويحملها في سلة كبيرة، وكانت هذه الوسيلة حيلة بارعة بعيدة عن الشك والشبهات، وكان محمود فهمي النقراشي من المترددين على المطعم ومن المشجعين للمنظمة السرية في الإسكندرية.

والدكتور عبد الله يوسف كان المركب الكيميائي لدواء مسهل أطلق عليه اسم «حبوب عبد الله» وقد ذاع صيت هذه الحبوب في جميع أنحاء القطر المصري علاوة على أنها كانت من وسائل اتصاله بجميع أفراد المنظمة السرية في صيدليته بشارع راغب باشا، وكانت بمثابة كلمة السر بينهم وبين الدكتور عبد الله.

ومن بين مآثر هذا الصيدلي الوطني أنه ضحى بجزء كبير من ثروته في سبيل القضاء على دودة القطن بالوسائل الكيمائية، فحاول جهد طاقته استنباط مبيد كيميائي لهذه الحشرة الضارة، وكان يستأجر كل عام خمسين فدانًا من الأراضي الزراعية ويرشها بالمبيد الذي ركبه، ولكن محاولته لم تكلل بالنجاح على الرغم من النفقات التي صرفها لهذه الغاية.

وعندما أنشأ صيدليته الكبرى بميدان التحرير (ميدان محمد علي سابقًا) كان يتردد على مكتبه كبار رجال السياسة والأدب وكان من أعز أصدقائه المرحوم الدكتور محجوب ثابت.

وكانت أغلى أمنية تراود وجدانه أن يفتح المصريين صيدليات في كافة أرجاء مصر ليقضوا نهائيًّا على احتكار الأجانب لهذا النوع من التجارة الطبية المربحة، وقد تحققت أمنيته الآن.

وتوفي الدكتور عبد الله يوسف بالإسكندرية، وكان عمره حوالي ٦٠ عامًا بعد أن أدى واجبه نحو الطب، ونحو الحركة الثورية المصرية خير أداء متمتعًا برضاء المواطنين ورضا الله.

٦١٠- الدكتور عبد الرحمن عودة - شارع - بقسم باب شرقي

ولد الدكتور الشهيد عبد الرحمن توفيق عودة في أول مايو عام ١٩٤٣م (١٣٦٢هـ) بكفر الحاج شربيني التابع لمركز شربين بمحافظة الدقهلية، وينتمي إلى جده «علي محمد عودة» الذي كان عمدة كفر الحاج شربين في عهد السلطان حسين كامل، وبقي في منصب العمودية إلى وفاته، ينتمي هذا الجد إلى أسرة عريقة في الجهاد، وخوض المعارك في سبيل الله، وفي سبيل الدفاع عن الوطن العربي، ويرجع منبت أرومتها إلى مدينة مكة حيث كان الجد الأكبر «عودة» يزاول التجارة هو وأولاده بين مكة والشام ومصر والمغرب. وفي تلك الأثناء القديمة العهد أغار المغول على البلاد العربية وانقطعت سبل التجارة بين الحجاز والشام، مما اضطر «عودة وأولاده» إلى الرحيل من مكة والالتحاق بجيش الناصر محمد بن قلاوون (انظر مادة ابن قلاوون)، وقد استشهد «عودة» في موقعة غزة حيث دفن، وعاد أولاده وهم: علي، وسعد، والباز، ومحمد إلى مصر مع بقية الجيش، ثم اشتركوا في الحروب الصليبية وخاضوا جميع معاركها، واستقر كل منهم بمحافظة الدقهلية حيث ولد جد الشهيد، ووالده توفيق الذي أنجب: رفعت الصحفي بجريدة الجمهورية والدكتور محمد مفتش بيطري مركز شربين، وفيصل المهندس بالجيش، والدكتور عبد الرحمن الذي روت دماؤه الطاهرة أرض فلسطين المجاهدة، ومن تاريخ أسرته يتضح أن الجهاد في سبيل الله والوطن العربي من ألزم خصائصها، وأن الشهيد الفدائي واصل تأدية هذه الرسالة الوطنية السامية.

وقد حفظ الشهيد الدكتور عبد الرحمن عودة بعض سور القرآن الكريم بكتاب القرية، وكان يرافق والده في صلاة الفجر على صغر سنه، ثم بدأ حياته الثقافية بمدرسة كفر الحاج شربيني الابتدائية الإلزامية، وأتم دراسته الإعدادية بمدرسة شربين عام ١٩٥٦م (١٣٧٦هـ)، وكان ترتيبه الأول وعمره ١٣ عامًا، ثم انتقل إلى مدرسة شربين الثانوية، وحصل على الثانوية العامة من مدرسة السعيدية الثانوية عام ١٩٥٩م (١٣٧٩هـ) بمجموع قدره ٥٠,٨٠ ٪ وكان عمره ١٦ عامًا، وقد أطلق اسمه الكريم على مدرسة شربين الثانوية تخليدًا لذكرى استشهاده ولاسيما أن ترتيبه كان الأول طوال المدة التي قضاها بهذه المدرسة.

والتحق بعد ذلك بكلية الطب بجامعة القاهرة وكان ينجح بتقدير «جيد جدًّا» إلى أن حصل على البكالوريوس عام ١٩٦٥م (١٣٨٥هـ)، وكان ترتيبه السادس على الكلية وعمره ٢٢ عامًا، وقد حاز على مرتبة الشرف في تقدير التخرج.

وقد عين طبيب امتياز بالمستشفى الجامعي (قصر العيني) ولكنه ترك العمل بهذا المستشفى بعد ثلاثة أيام وعمل نائب جراحة بالمؤسسة العلاجية بمحافظة القاهرة، ونقل بعد ذلك إلى المستشفى القبطي في ديسمبر عام ١٩٦٧م (١٣٨٦هـ)، وفي مارس عام ١٩٦٨م (١٣٨٧هـ) حصل على دبلوم الجراحة بتقدير جيد جدًّا، وكان أصغر المتقدمين لهذا الدبلوم سنًّا، وعمل بعد ذلك بمستشفى حلوان العام ثم مستشفى بولاق العام وأدى واجبات وظيفته الإنسانية بكل كفاءة في العمل الجاد المخلص.

وفي عام ١٩٦٩م (١٣٨٩هـ) كان قد أعد نفسه وقرر نهائيًّا التطوع في صفوف الفدائيين الفلسطينيين، ومن ثم رفض مواصلة دراسة الطب للحصول على درجة الزمالة من كلية الجراحين بلندن، وقال إن أسعد أيام حياته هو يوم قبول تطوعه بمنظمة «فتح الفدائية»، وعندما علم والده بهذا التطوع قال له: «يا بني إذا كان سفرك من أجل الحصول على المال فإني مستعد منحك ما تطلب منه، وإن كان السبب حبك في الجهاد في سبيل الله والوطن فلينصرك الله ويرعاك أنت وإخوانك المجاهدين».

وكان آخر قول لإخوته، وأصدقائه الذين ودعوه بالمطار: «إني ذاهب وقد أعود وقد لا أعود، ولكن أرضنا الطاهرة لابد أن تعود إلينا، وأنا ذاهب لأدافع مع إخواني الفدائيين عن هذه الأرض مهبط الأنبياء التي دنستها الصهيونية، وسنريهم من كفاحنا عجبًا».

ولدى وصوله إلى مناطق الثوار الفلسطينيين انضم إلى فرقة الخدمات الطبية بكتائب العاصمة، واشترك في عدة هجمات بطولية على الأعداء منها معركة دير ياسين، وعملية عبد القادر الحسيني وغيرها من معارك البطولة المشرفة.

وفي ٢٣ من شهر سبتمبر عام ١٩٦٩م (١٣٨٩هـ) سقط شهيدًا في ميدان الكرامة والشرف فسطر بدمائه الطاهرة فوق الأرض العربية المغتصبة سطرًا في سجل البطولة الذي دون الكثير لأبناء الشعب المصري الأصيل من الأعمال المجيدة التي تدل على تصميمه وإصراره على تحقيق النصر. وكان استشهاده في أثناء معركة عبد القادر الحسيني عند سد «نهر أيم» بالأراضي المحتلة، وبذلك التقى بأحد أجداده الذي استشهد في المكان نفسه إبان الغزو المغولي.

وكان الفقيد الشهيد خيرًا تهزه المروءة وعمل الخير والإحسان ومن فضائله علاجه للمرضى الفقراء بالمجان، ومواساتهم ورعايتهم بكل ما أوتي من جهد، وكان عمره عند استشهاده ٢٦ عامًا.

وجاء في البيان الذي أصدرته حركة التحرير الوطني الفلسطيني «فتح» بمناسبة رفع الستار عن التمثال النصفي البرنزي الذي وضع بأكبر ميدان بمدينة شربين إن الفقيد كان تواقًا إلى الاشتراك في كل الأعمال الفدائية، وأصيب في مقتل إثر هجوم فدائي لعرقلة أعمال العدو الصهيوني الرامية إلى إصلاح سد «نهر أيم» الذي كان الثوار الفلسطينيون قد نسفوه قبل ذلك بأيام.

وكان الدكتور الشهيد عبد الرحمن عودة وسيم الطلعة، مستدير الوجه، عريض الجبهة يضع على عينيه منظارين، أسود الشعر غزيره.

ولم تقصر الدولة في تخليد اسمه الكريم بما يستحق من تقدير وتمجيد، فشيعت جنازته رسميًّا وعسكريًّا وشعبيًّا من مسجد عمر مكرم إلى مسجد شركس بالقاهرة، ثم شيعت جنازته رسميًّا وعسكريًّا وشعبيًّا بالمنصورة، ثم ببلقاس وشربين، ودفن بمقابر أسرته بكفر الحاج شربيني.

وكرمت الدولة ذكراه بأن أطلقت اسمه على مدرج طب «قصر العيني» وعلى مدرسة شربين الثانوية حيث قضى مرحلة تعليمه الثانوي وعلى الشارع الممتد من هذه المدرسة إلى القرية التي ولد بها، وعلى مركز شباب القرية، هذا علاوة على التمثال النصفي من البرونز الذي أقيم له بأكبر ميدان بمدينة شربين.

وقد قالت مجلة نقابة الأطباء في تأبينه بعددها الصادر في نوفمبر عام ١٩٦٩م: «إن الفقيد عبد الرحمن عودة قدم نفسه قربانًا على مذبح التضحيات، وكانت تضحيته أغلى ما يعرفه البشر إذ جاد بروحه ودمائه الطاهرة الذكية في أشرف معركة».

وكان رحمه الله تواقًا إلى البذل والفداء فكان يتقدم الصفوف أداءً لواجبه، ومن ثم قدم لنا أروع الأمثلة.

واختارت الأجهزة الشعبية، والتنفيذية، ومجلس الوزراء والدته سنية محمد عودة «الأم المثالية الأولى بالجمهورية العربية المصرية عن عام ١٩٧٠» وقد قالت هذه الأم المؤمنة بالله وبالعروبة حين ودعها: «إن كنت بين أحضاني وقدر لك الله شيئًا ستراه، فلينصركم الله ويعزز خطاكم».

وخلدت محافظة الإسكندرية ذكراه بإطلاق اسمه على أحد شوارع قسم باب شرقي.

٦١١- الدكتور مصطفى رمضان - شارع - بقسم سيدي جابر

هو الدكتور مصطفى رمضان بن رمضان يوسف (انظر هذه المادة) الذي كان عضوًا بالمجلس البلدي وكان مقاولاً للأعمال الصحية المشهورين بالإسكندرية، وقد أتم الدكتور مصطفى دراسته الهندسية العليا بإنجلترا حيث تخصص في هندسة بناء السفن ولدى عودته إلى مصر عين أستاذًا بكلية الهندسة بجامعة الإسكندرية، ثم صار عميدًا لهذه الكلية، وعمل بعد ذلك مديرًا لقسم الميكانيكا بشركة مصر للملاحة (شركة يحيى باشا)، وكان خبيرًا في بناء السفن (الهندسة البحرية)، وهو شقيق المهندس شعبان يوسف (انظر هذه المادة) الذي كان مديرًا لقسم التنظيم ببلدية الإسكندرية.

٦١٢- الدكتور مصطفى فهمي خميس - شارع - بقسم مينا البصل (الدخيلة)

كان الدكتور مصطفى فهمي خميس من أنشط الأدباء الذين أسهموا بنصيب وافر في رفع المستوى الثقافي بمدينة الإسكندرية، فكان رحمه الله شعلة من الذكاء تضيء الطريق أمام الناشئين، ومحبي الأدب لا يبخل عليهم بفائدة علمية، أو اجتماعية ترقي مداركهم وتغذي أذهانهم بالمعارف النافعة.

وقد ولد مصطفى فهمي بالإسكندرية في ٢٧ من شهر أكتوبر عام ١٩٠٨م (١٣٢٦هـ) بحي الجمرك، وتلقى تعليمه الابتدائي والثانوي بمدارسها، ثم التحق بمدرسة المعلمين العليا بالقاهرة، وحصل على دبلومها عام ١٩٣٠م (١٣٤٩هـ)، وهو في سن الثانية والعشرين، وكان في الوقت نفسه يدرس مناهج كلية الآداب بجامعة القاهرة، فنال إجازة الليسانس منها متخصصًا في علم الاجتماع عام ١٩٣١م (١٣٥٠هـ)، أي بعد عام واحد من حصوله على دبلوم المعلمين العالي.

وفي عام ١٩٣١ نفسه عين ببلدية الإسكندرية بقلم القضايا، وكنت في ذلك الحين أشغل وظيفة رئيس قلم الإدارة بقسم الإيرادات، فسمع أني أميل إلى الأدب فاقترح أن تكون بالإسكندرية جمعية تضم أدباءها وشعراءها، وكان ما أراد إذ قامت «جماعة نشر الثقافة» في أوائل عام ١٩٣٢م (١٣٥١هـ) لتؤدي رسالتها الثقافية النشطة بفضل جهوده الجبارة إذ كان يتولى سكرتاريتها، ويقوم على رياستها المرحوم الشاعر خليل شيبوب (انظر هذه المادة)، وفي أثناء قيام مصطفى فهمي

بالسكرتارية مدة خمس سنوات أنتجت الجماعة ٣٦ كتابًا لأعضائها وأنشأت معهدًا ثقافيًا كان مقره بالمدارس المرقسية، وتدرس فيه مناهج الجامعة ليلاً بالمجان، وكان لمصطفى فهمي والمربي الكبير إسكندر إبراهيم (انظر هذه المادة) الفضل الأكبر في قيام المعهد النافع، وكان مصطفى فهمي يدرس فيه علم الاجتماع لطائفة كبيرة من الطلاب ويقوم بتصحيح رسالتهم في آخر كل سنة ويقدر الدرجات التي يستحقونها. وكانت المواد الدراسية تشمل علاوة على علم الاجتماع علوم: النفس والمنطق والأخلاق والتاريخ وتاريخ الآداب العربية والفرنسية والإنجليزية وتاريخ العلوم الطبيعية والطب والفلسفة والاقتصاد السياسي ومبادئ القانون المدني والجنائي وقانون المرافعات.

فكان عضو الجماعة الطبيب يترك عيادته ليلقي محاضرته في المعهد، وكذلك المحامي والموظف والمحاسب، وكان مصطفى فهمي يرتب كل مناهج المعهد ويرعى مواعيد المحاضرات، ويباشر طبع المحاضرات التي تلقى خلال أسبوعين في مجموعات تباع للطلاب بثمن طبعها وهو ٢٥ مليمًا، وكانت المجموعة تحتوي على ١٤٠ صفحة، ومن جهة أخرى كان مصطفى فهمي يحدد مع الأستاذ فريد قطري مواعيد إلقاء المحاضرات نفسها «براديو فريد الخاص» الذي غذّى الإسكندرية بشتى المعلومات المادية والعلمية قبل قيام إذاعة الدولة الرسمية، فكان مصطفى فهمي وأعضاء «جماعة نشر الثقافة» القائمون بالتدريس في المعهد المجاني يذهبون إلى قصر الأستاذ فريد قطري بمحطة شدس الذي لم يبخل باستقبالهم مرحبًا، ويضع محطة إذاعته تحت تصرفهم لإلقاء محاضرات المعهد لتثقيف المستمعين في جميع المجالات التي كانت في الإذاعة تصل قوتها الإذاعية إليها، واستمرت إذاعة فريد على الإسهام القيم في هذه الحركة الثقافية حتى قيام إذاعة الدولة وتعطيل ما عداها من الإذاعات الخاصة وذلك دون أي مقابل مادي.

وواصل مصطفى فهمي دراسته العالية فحصل على الدكتوراة بدرجة الشرف من جامعة السربون بباريس عام ١٩٥٢م (١٣٧٢هـ)، ودبلوم طرق التدريس الحديثة والمناهج من جامعة وسكنسون بأمريكا عام ١٩٥٥م (١٣٧٥هـ).

وفي أثناء هذه الدراسات العليا انتقل من بلدية الإسكندرية إلى مصلحة السجل التجاري، ثم عين مدرسًا بوزارة التربية والتعليم ورقي إلى مدرس أول فمفتش للمواد الاجتماعية بالمدارس الأجنبية بالقطر المصري ثم مديرًا لمعهد ليسيه الحرية بالإسكندرية حيث بذل غاية الجهد في تمصيره، وجعل طلابه يتذوقون فضائل العروبة عن طريق مناهج التعليم المعدلة وعن طريق الإذاعة المدرسية وجعل مسرح هذا المعهد الفرنسي الأصل مكانًا لطائفة كبيرة من الأدباء لإلقاء المحاضرات الثقافية والاجتماعية باللغة العربية، ثم كون فرقة تمثيلية وموسيقية تقدم عروضًا عربية هادفة.

وانتقل بعد ذلك إلى وظيفة مدير التعليم الثانوي والأجنبي بالإسكندرية ثم صار مديرًا عامًّا للتعليم في محافظة سيناء فمديرًا عامًّا للتعليم الثانوي بالقطر المصري، وتولى أيضًا تدريس علم الاجتماع بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية.

وعلاوة على تأسيسه «جماعة نشر الثقافة» كان عضوًا بنادي الموظفين، وأحد مؤسسي الهيئة المحلية لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالإسكندرية، ومؤسس فرع

الإسكندرية لرابطة الإصلاح الاجتماعي وأحد أعضاء جمعية الشبان المسلمين.

ولتوسيع مداركه الثقافية والاجتماعية البعيدة الأفق زار: ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وسوريا ولبنان والسودان والسعودية من البلاد العربية، ومن البلاد الأوروبية زار: اليونان وإيطاليا وسويسرا وفرنسا والنمسا والدنمارك وهولندا وبلجيكا وإنجلترا وألمانيا وإسبانيا، كما زار كندا والولايات المتحدة ومَثَّل مصر في مؤتمر حقوق الإنسان الذي عقد في هولندا عام ١٩٥٢م (١٣٧٢هـ).

وكان الفقيد الدكتور مصطفى فهمي غزير الإنتاج الفكري وظهر هذا الإنتاج مطبوعًا ابتداء من عام ١٩٣٨م (١٣٥٧هـ)، إذ ظهر له كتاب علم الاجتماع وفي عام ١٩٤٧م (١٣٦٧هـ) ألف كتاب بعنوان «رسائل اجتماعية بين مصري ومصرية» وفي مجال التعليم أصدر عام ١٩٥٤م كتاب «مبادئ علم الاجتماع» للسنة الثانية الثانوية، ومعاهد التربية والخدمة الاجتماعية والمثقفين في مصر والبلاد العربية، وفي عام ١٩٦٢م (١٣٨٢هـ) ألف كتاب «المجتمع الريفي» للمعهد العالي لشؤون القطن بالإسكندرية كما ألف لهذا المعهد مذكرات في علم الاجتماع طبقت عام ١٩٦٠م (١٣٨٠هـ)، وأعيد طبعها عام ١٩٦١م (١٣٨١هـ).

ولم يكن الدكتور مصطفى فهمي من أدباء اللغة العربية البارزين فحسب فقد كان ممن يتقنون اللغة الفرنسية إلى حد بعيد يدل على ذلك أنه ألف عام ١٩٥٤م (١٣٧٤هـ) كتابًا بالفرنسية عنوانه «الثورة الصناعية في مصر ونتائجها الاجتماعية في القرن التاسع عشر» وفي مجال التاريخ المصري ألف عام ١٩٥٨م (١٣٧٨هـ) كتابًا عن صلاح الدين الأيوبي (انظر مادة صلاح الدين).

هذا إلى جانب كتابه عن نهضة سيناء الثقافية الذي طبع عام ١٩٦٥م (١٣٨٥هـ)، وأعيد طبعه في السنة التالية، وتقرير بعثة ليسيه الحرية بالإسكندرية إلى مديرية سوهاج لدراسة مؤلفات رفاعة الطهطاوي وقد قدمه عام ١٩٥٧م (١٣٧٧هـ).

ومن هذا الإنتاج الفكري الغزير يتضح أن ما كان للفقيد مصطفى فهمي من مكانة أدبية هي إحدى مفاخر الإسكندرية مسقط رأسه وموطن أسرته.

ولقد كان هذا الأديب البارز، كريم الخلق، جمّ التواضع، دائم الابتسام، حلو الحديث، شيقه، وكان رحمه الله متوسط القامة، أبيض البشرة، لطيف المحيا، يفرض مهابته على كل من يلقاه ويتحدث إليه.

٦١٣- دكروري - شارع - بقسم محرم بك

اسمه الكامل عثمان دكروري، وقد تلقى دراسته الأولى بمكاتب مصر ثم دخل مدرسة المهندس خانة ببولاق، ولما أتم دراسته بها اختير بين طلاب البعثة السادسة التي أرسلت إلى إنجلترا عام ١٨٤٧م (١٢٦٤هـ) في عهد محمد علي للتخصص في علم الآلية (الميكانيكا)، وبدأ دراسته هناك في أواخر ذلك العام نفسه برتبة الملازم الثاني، وظل يواصل دراسته العالية حتى فرغ منها، وعاد إلى مصر في شهر مايو عام ١٨٥٢م (١٢٦٩هـ)، ومن ثم تكون مدة بعثته خمس سنوات، وعقب رجوعه إلى الوطن عين مدرسًا

بمدرسة العمليات بالقاهرة، واستمر على الترقي في المناصب ومنح رتبة البكوية، وكانت آخر وظيفة شغلها هي وظيفة كبير مهندسي مصانع تكرير السكر بمدينة أرمنت بالوجه القبلي بمحافظة قنا.

ولا يعرف تاريخ وفاته ولا مكانها.

٦١٤ – دمنهور – شارع – بقسم سيدي جابر

أصبحت مدينة دمنهور من كبريات مدن القطر المصري لما لموقعها الجغرافي من أهمية كبيرة وسط محافظة البحيرة الكبيرة المساحة، وتقع دمنهور على الخط الحديدي الرئيسي الممتد من القاهرة إلى الإسكندرية مارًّا بمدينة طنطا عاصمة الغربية.

واسم دمنهور باللغة القبطية هو «تمنهور» أي «مدينة حُورَسْ» ويطلق ليس فقط على مدينة دمنهور عاصمة محافظة البحيرة ولكن على عدة أماكن بالقطر المصري معظمها في الدلتا، فهناك دمنهور الشهيد أو دمنهور شبرا، وقد ذكرها ياقوت الحموي في كتابه «معجم البلدان»، وقال عنها ابن جيعان في كتابه «التحفة السنية» إنها تدخل ضمن أرباض مدينة القاهرة، وسميت دمنهور الشهيد بسبب عيد الشهداء المسيحي الذي كان يقام فيها في العصور الخالية، وكان هذا العيد يقام في اليوم الثامن من شهر بشنس فكان المسيحيون يلقون في أثناء هذا العيد بصندوق في النيل يضم أصابع قديس من القديسين ليقبض النهر بمائه، والظاهر أن هذا العيد كان صورة محرفة لأحد الأعياد المصرية القديمة الذي كان يقام للإلهين «أوزوريس وحورس» وقد أبطل عيد الشهداء عام ٧٠٢هـ (١٣٠٢م).

ويذكر المقدسي (انظر هذه المادة) موضعًا آخر في الريف يسمى دمنهور، والثابت هو أن هذا الموضع هو عين دمنهور وحشي (أو دمنهور الوحش) كما ذكر في كتاب «بوانيه بك Boinet Bey» التي قال عنها جغرافيو العرب المتأخرون إنها بمديرية الغربية، وليس من المستطاع تحقيق صحة ذلك إذ يوجد بمديرية الغربية حتى الآن موضعان باسم دمنهور.

ومدينة دمنهور عاصمة محافظة البحيرة الحالية كانت تعرف قديمًا باسم «هرموبوليس بارفا Hermopolis Parva» وكانت وماتزال أشهر الأماكن المعروفة باسم دمنهور في مصر، وصارت مدينة دمنهور (أو دمنهور الوحش) عاصمة مديرية البحيرة طبقًا لتقسيم مصر إلى مديريات وهو التقسيم الذي تم في عصر محمد علي، وفي العصر المملوكي حصنها السلطان برقوق (انظر هذه المادة) عام ٧٩٢هـ (١٣٩٢م) وكانت تقع في ذلك الحين على الطريق الغربي المسمى طريق الحاجر، أما الآن فهي على طريق السكة الحديد الموصل القاهرة بالإسكندرية.

وهذه المدينة الجميلة التي تلتقي عندها شبكة من الخطوط الحديدية أصبحت ذات شهرة واسعة النطاق من الوجهة العمرانية والاقتصادية ولا سيما في تجارة القطن وإنتاج عدد غير قليل من الصناعات، ويتعدى عدد سكانها الآن ١٥٠,٠٠٠ نسمة، وتقوم في جوانبها العمارات الحديثة البناء والميادين المنسقة والحدائق الرحبة، ويرجع الفضل في اطراد عمرانها السريع إلى مديرها الأسبق «الشاذلي» فقد خطا بتجميلها وتنسيق تخطيطها الحسن الرونق في سرعة منفرجة المسافات فأصبحت من أهم مدن القطر المصري حضاريًّا وعمرانيًّا واقتصاديًّا، ويشطرها خط السكة الحديد المتجه إلى الإسكندرية شطرين يصلهما

كبري فولاذي كبير، ولم يؤثر هذا الانفصال على حركتها التقدمية السريعة فامتدت إلى الشطرين على السواء. وتضم المدينة المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية للبنين والبنات ومستشفى هامًّا ودورًا كثيرة للمؤسسات الرسمية والاقتصادية وبها نادٍ كبير وكافة أسباب الراحة السكانية من مكاتب بريد وتليفون وتلغراف وغيرها. وتمر بدمنهور ترعتان هما: ترعة الخندق الشرقي وترعة الخندق الغربي وتمر بالقرب منها في الجهة الشمالية ترعة المحمودية، ويلتقي فيها – علاوة على خط القاهرة الإسكندرية عن طريق طنطا – الخط الحديدي الآتي من طنطا إليها عن طريق قلّين ودسوق، والخط الذاهب منها إلى المحمودية والخط الذاهب منها إلى حوش عيسى فأبي المطامير إلى كفر الدوار في الجهة الغربية.

ومديرية البحرية التي هي عاصمتها تضم مدنًا هامة عديدة منها: كوم حمادة وإيتاي البارود في الجنوب، وشبراخيت والرحمانية في الشرق، ورشيد ذات التاريخ الوطني المجيد والآثار القديمة الهامة في الشمال، وأبو حمص وكفر الدوار التي تضم أكبر مصانع الغزل والنسيج في البلاد في الشرق، ويتخلل رقعة المحافظة بحيرتان هما: بحيرة إدكو وبحيرة مريوط.

٦١٥– الدمنهوري (الشيخ) – ميدان – بقسم مينا البصل

اطلب ترجمته في «الشيخ الدمنهوري».

٦١٦– دمياط – شارع – بقسم الرمل (ڤالنسين باشا سابقًا)

دمياط مدينة تقع على مسافة ١٢ ميلاً إلى الجنوب من مصب الفرع الشرقي للنيل الذي أطلق عليه اسمها، ويبلغ عدد سكانها في الوقت الحاضر أكثر من ٦٠,٠٠٠ نسمة وهي عاصمة محافظة دمياط التي تضم حوالي ٨٠ ألفًا من السكان، وينطق اسمها في التاريخ «دِمْيَاط» بكسر الدال، غير أن الناس اعتادوا على نطقه «دُمياط» بضم الدال، وكانت مركزًا تابعًا لمديرية الدقهلية قبل رفع مركزها الإداري إلى محافظة، ويصلها بمدينة طنطا (انظر هذه المادة) – وهي نقطة تجمع خطوط السكة الحديد في الدلتا – الخط الذي يبدأ من طنطا ويمر بطلخا المواجهة لمدينة المنصورة (انظر هذه المادة) ثم شربين (انظر هذه المادة)، ومن ضواحيها السياحية المشهورة رأس البر الواقعة في شمالها عند مصب النيل، والتي أصبحت مصيفًا هامًّا يضفي على دمياط فترة من الرواج الاقتصادي طوال فصل الصيف من كل عام، وبالنسبة لوقوع مكانها بالقرب من الضفة الغربية لبحيرة المنزلة الكبيرة الاتساع فإن أهلها يتمتعون بالغذاء السمكي الذي يجعلون منه مادة تصدير إلى المدن المجاورة بعد تمليحه، وهم يتقنون طهوه ويتخذون من أنواعه غذاء رئيسيًّا ولاسيما عند خلطه بالأرز ويتقنون إعداد أصنافه اللذيذة الطعم.

وقد كانت دِمياط مركزًا صناعيًّا مزدهرًا وميناءً هامًّا طوال العصور الوسطى ويدل على ذلك ما كان لها من شأن في ذلك الحين إذ عندما حاصرتها الجيوش الصليبية خلال عام ٦١٦هـ (١٢١٩م) أبدى الملك الكامل (انظر هذه المادة) استعداده لإعادة مملكة القدس إلى ما كانت عليه قبل عهد صلاح الدين

(انظر هذه المادة) لإنقاذ دمياط من هذا الحصار وسقوطها في أيدي الصليبيين الذين لم يقبلوا هذا العرض واستمروا على حصارها .

وليس من المستطاع تحديد الزمن الذي بدأت فيه مدينة دمياط في الازدهار ، ولكنها اليوم تخطو بخطوات منفرجة في طريق الرقي الصناعي والعمراني ، فهي من أشهر مدن القطر المصري في إنتاج الأحذية والمواد الجلدية وفي صناعة كافة أنواع الأثاث (الموبليات) الفاخر الصنع والطراز الذي تصدر منها وحدات كثيرة جدًّا لمدن القطر الداخلية والبلدان الأجنبية ولاسيما الأقطار العربية ، ويقوم في أرجائها في الوقت الراهن مصانع هامة للنسيج وصنع شباك الصيد ومصانع أخرى تنتج مجموعة كبيرة من السلع الرائجة في الأسواق .

ومنذ أن أصبحت محافظة من محافظات الوجه البحري قامت في أنحائها المباني الرسمية والمدنية والمدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية للبنين والبنات ومكاتب البريد والتليفون والتلغراف إلى جانب المنشآت الخاصة بالمؤسسات المختلفة ، وبهذا التقدم العمراني السريع صارت من كبريات المدن المصرية ذات الأهمية المرموقة .

وتعرف دمياط في المصادر القبطية القديمة باسم «تمیات» أو «تمياتي» ويقال إن هذه التسمية ترجع إلى ابن شخص أسطوري يكنى بأشمون بن مصرايم وهذا كل ما يعرف عن دمياط في العصر الجاهلي ، ومن جهة أخرى فإن فتح هذه المدينة في صدر الإسلام – وكان لأحد أقرباء المقوقس دور هام فيه – يدعو إلى الاعتقاد في أن تاريخ هذا الفتح أقرب إلى الأساطير منه إلى الحقيقة التاريخية ، من ذلك ما يقال بأن المقداد بن الأسود هو فاتحها (انظر مادة المقداد) .

ومكان دمياط المكشوف كان السبب المباشر في أنها كانت هدفًا للهجمات المعادية المتكررة بعد أن تم للعرب فتح مصر ، ومن ثم قاست دمياط الشيء الكثير من عدوان البوزنطيين ثم من الصليبيين ، فقد هوجمت فجأة في عام ١٢١هـ (٧٣٩م) ثم في بداية القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ، ثم في عام ٢٣٨هـ (٨٥٢م) وقد كان هذا الهجوم الأخير سببًا في حث حكومة الخليفة المتوكل على تحصينها .

واستقر السلام في ربوعها بعد تلك الهجمات مدة قرن من الزمن ، ولكن البوزنطيين عادوا إلى الهجوم عليها عام ٣٥٧هـ (٩٦٨م) وجاء بعدهم نورمانديو جزيرة صقلية (انظر هذه المادة) وخربوها خلال عام ٥٥٠هـ (١١٥٥م) ، وأكبر وأشرس المعارك التي اجتاحت دمياط بغية الاستيلاء عليها كانت من أحداث الحروب الصليبية؛ لأن الصليبيين كانوا يدركون أن الاستيلاء على الأراضي المقدسة بصفة نهائية لا يتم إلا بالقضاء على مصر معقل الإسلام الأكبر ، وقد وضع الصليبيون هذا الفرض نصب أعينهم وهم يوالون الحملات العنيفة على دمياط ، وكانت أولى هذه الحملات ذلك الهجوم الذي شنه البوزنطيون بالاشتراك مع مملكة بيت المقدس على صلاح الدين سلطان مصر عام ٥٦٥هـ (١١٦٩م) ، وقاد الحملة الثانية على دمياط «جان دي برايان Jean de Brienne» ملك القدس ضد الملك العادل (انظر هذه المادة) في عامي ٦١٥ و٦١٨هـ (١٢١٨ – ١٢٢١م) وضد الملك الكامل (انظر هذه المادة) بعد وفاة الملك العادل ، ولكن سرعان ما استرد الملك الكامل المدينة بعد قتال شاق بطولي .

وفي عام ٦٤٧هـ (١٢٤٩م) قام الملك لويس التاسع ملك فرنسا بحملة صليبية فاشلة على هذه المدينة الباسلة ، وقد

حدثت كل هذه الحملات في وقت انتقال مصر من حكم الأيوبيين (انظر هذه المادة) إلى حكم المماليك (انظر هذه المادة) الذين عمدوا إلى تدمير دمياط خلال عام ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) ليحولوا دون وقوع هذه الهجمات الحربية في المستقبل، فهدموا جميع مبانيها باستثناء مسجدها الذي ظل قائمًا وحده في أرجائها.

وكان من جراء ذلك أن شيدت مدينة جديدة في جنوب مكان دمياط لا تشتمل على تحصينات لحمايتها، وفي عام ٦٢٩هـ (١٢٦٠م) عمد بيبرس البندقداري (انظر مادة بيبرس) إلى سد مصب النيل عند دمياط منعًا لدخول السفن من خلاله وكان هذا المصب يقفل بالسلاسل الحديدية طوال مدة ازدهار المدينة.

وسرعان ما اتصلت دمياط الجديدة بدمياط القديمة وبقي مسجدها العتيد الأكبر قائمًا، ويرجع عهده إلى إنشاء المدينة نفسها ويسمى هذا الجامع مسجد أبي المعاطي أو مسجد الفتح، ومكانه الحالي في ضاحية تقع في شمال دمياط الحديثة.

وهزم كليبر (انظر هذه المادة) بعد عودة نابوليون بونابرت إلى فرنسا جيشًا تركيًّا نزل في دمياط في أول نوفمبر عام ١٧٩٩ ثم احتل الإنجليز المدينة عقب ذلك وأعادوها إلى الحكم التركي، واشتهرت هذه المدينة المجاهدة بصناعة المنسوجات منذ القرون الوسطى وكانت تصدر إنتاجها إلى الخارج ومازالت صناعة النسيج قائمة فيها مع نسج الكتان الغليظ وتمليح الأسماك وصناعة السلع الفخارية، ونسج الكتان كان مشهورًا منذ زمن بعيد ويسمى بالكتان الدمياطي ويعرف باسم الشرب والمقصب وله شهرة ذائعة في العالم الإسلامي، ويذكر المؤرخون أن دمياط كانت مشهورة بالنسيج الأبيض وكان يصنع في الجهات المجاورة لها النسيج المصبوغ وكانت مشهورة بنوع خاص من النسيج الخليط من خيوط الذهب والحرير المستورد من الخارج.

وبلغت صناعات دمياط أرفع مستواها في العهد الفاطمي (انظر مادة الفواطم) ولكنها لم تصمد إزاء الحروب العديدة التي توالت على المدينة وكان شق قناة المحمودية من المؤثرات القوية التي حولت التجارة إلى الإسكندرية، ولكن نهضة دمياط الصناعية استردت مكانتها الاقتصادية بفضل نشاط أهلها التجاري الذي تغلب على جميع الصعاب وذلل كافة العوائق التي تحول دون اطراد نموه واستمرار تقدمه بخطوات وثابة موفقة، يدل على ذلك ويؤيده جعلها محافظة بعد أن كانت مركزًا من مراكز المديرية المجاورة لها الدقهلية.

٦١٧- الدميري - شارع - بقسم الرمل

هو محمد بن موسى بن عيسى كمال الدين، وكان عالمًا من أعلام القرن الثامن الهجري، وقد ولد بالقاهرة عام ١٣٤٩م (٧٥٠هـ) على وجه التقريب إذ إن هذا التاريخ مشكوك في صحته، وكان مولده بقرية دَميرة (بفتح الدال وكسر الميم) البحرية، وليس بقرية دميرة القبلية وهما بلدتان تابعتان لمركز طلخا بمحافظة الدقهلية ودميرة اسم فرعوني قديم وليس اسمًا عربيًّا، معناه الأرض الخصبة، وإلى إحدى هاتين البلدتين ينتسب كثير من العلماء والفقهاء والأشراف والسادة، ومن ثم فهما يرفعان الرأس في تيه وكبرياء، لأنهما استطاعتا أن تهديا إلى القاهرة نخبة من رجال الفكر والعلم والحكمة، فقد أهدت أحدهما إلى مصر والعلم الإسلامي

بأسره «الصاحب صفي الدين الدميري» الملقب بابن شكر (انظر هذه المادة)، وأهدت الأخرى إلى الإنسانية قاطبة محمد بن عيسى كمال الدين صاحب هذه الترجمة.

ويؤخذ من تدوين ما كتبه الدميري بخط يده أنه ولد بالقاهرة في أوائل عام ٧٤٢هـ (١٣٤١م) ومن هنا قام الشك في تحديد سنة ميلاده بالضبط، ويبدو أن أسرته هاجرت إلى القاهرة طلبًا للرزق بعد أن أشرفت مصانع النشادر التي اشتهرت بها قرية دميرة في ذلك الحين على إغلاق أبوابها، وكانت هذه المصانع مصدر رزق وفير لأهل القرية كما يدل على ذلك ما سطره علي باشا مبارك (انظر هذه المادة) في كتابه «الخطط الجديدة»، وربما كان سبب هذه الهجرة سوء حالة الفلاح آنذاك إذ إن الغلال التي كان يزرعها بعرق الجبين كان معظمها يذهب إلى مخازن الدولة، وأولي الجاه، وأصحاب السلطان، وقد أدى ذلك إلى تشريد الكثير من الفلاحين، ونزوحهم إلى المدن الكبيرة سعيًا وراء الرزق.

وكان الدميري شافعي المذهب فتتلمذ على يد بهاء الدين السبكي المتوفى عام ٧٧٣هـ (١٣٧١م)، والملقب بأبي البقاء محمد (انظر مادة السبكي)، وكان تابعه وأحد مريديه المخلصين، كما تتلمذ على جمال الدين الإسناوي المتوفى عام ٧٧٢هـ (١٣٧٠م) (انظر مادة الإسناوي).

ويظهر أن أسرة الدميري زاولت التجارة لدى استقرارها بالقاهرة، ولا يذكر مؤرخو سيرة الدميري نوع التجارة الذي مارسته الأسرة، ويقول الرواة: إن الدميري اشتغل خياطًا عند بلوغه سن النضوج، وكانت مهنة الخياطة رائجة الربح في ذلك الزمان، غير أن ميله الفطري للعلم دفعه إلى الإسراع بحفظ القرآن الكريم عقب انتسابه للجامع الأزهر، ثم لازم الشيخ بهاء الدين السبكي يأخذ عنه الفقه الشافعي، وكان يتردد في الوقت نفسه على حلقات الكمال أبي الفضل النويري (انظر مادة النويري)، وبرهان الدين القيراطي (انظر هذه المادة) ليأخذ عنه الأدب، ويحضر حلقات البهاء ابن عقيل (انظر هذه المادة) ليأخذ عنه العربية، وهكذا صار يتنقل من حلقة إلى حلقة حتى امتلأت طويته علمًا وفقهًا وأدبًا وأدرك بثاقب فكره أن في الرحلات أجزل الفائدة لطلاب العلم والمعرفة فرحل إلى مكة للحج وطلب العلم خلال عام ٧٦٢هـ (١٣٦٠م) فتردد على جهابذة العلماء وهناك لدى عودته إلى الأزهر بدأ في تأليف مصنفاته فأخرج كتاب «الديباجة في شرح سنن ابن ماجه» (انظر مادة ابن ماجه)، وهو شرح في خمسة مجلدات مات قبل أن يبيضه، وألف بعد ذلك «الجوهر الفريد في علم التوحيد» وهو كتاب يتناول أصول التوحيد والعقائد، ثم صنف كتاب «النجم الوهاج في شرح المنهاج» للنوري وهو في الفقه الشافعي، و«شرح غاية الأدب في معرفة كلام العرب» في الأدب والشعر، كما شرح المعلقات السبع في الشعر، وكتب مختصرًا لشرح لامية العجم للصفدي (انظر هذه المادة)، وألف تذكرة «تذكرة الدميري» قياسًا على تذكرة داود، وأخيرًا ألف موسوعته القيمة المسماة بكتاب «حياة الحيوان» في جزأين.

ولقد نال الدميري شهرة ذائعة في تدريس تفسير القرآن الكريم والحديث والفقه والفلسفة والأدب بالقاهرة وفي حي الأزهر وفي جامع الظاهر وفي الحسينية وغيرها، وكان يعقد حلقة لتدريس الدين أطلق عليها اسم «الميعاد» وذلك في مدرسة ابن البقري داخل باب النصر، وقد اختاره مؤسس

هذه المدرسة للتدريس فيها، وعهد إليه أيضًا بإلقاء الدروس في الحديث في قبة خانقاه بيبرس الجاشنكير.

وقد أدى الدميري فريضة الحج عدة مرات، وقام بالتدريس في مكة، وذكر أحد تلاميذه أنه استمع إليه داخل الكعبة.

واشتهر الدميري بزهده ومواعظه بوصف كونه أحد صوفية الخانقاة بدار سعيد السعدا، ويذكر المقريزي أحد معاصريه في كتابه «العقود» أنه ظل يتردد على حلقات دروسه عدة سنوات وأنه كان معجبًا بعلمه الواسع الأفق، وينسب إليه بعض رواة سيرته طائفة من الكرامات، ويروون أنه كان نهمًا في سني شبابه ثم صار مقيمًا على الصيام لا يكاد ينقطع عنه.

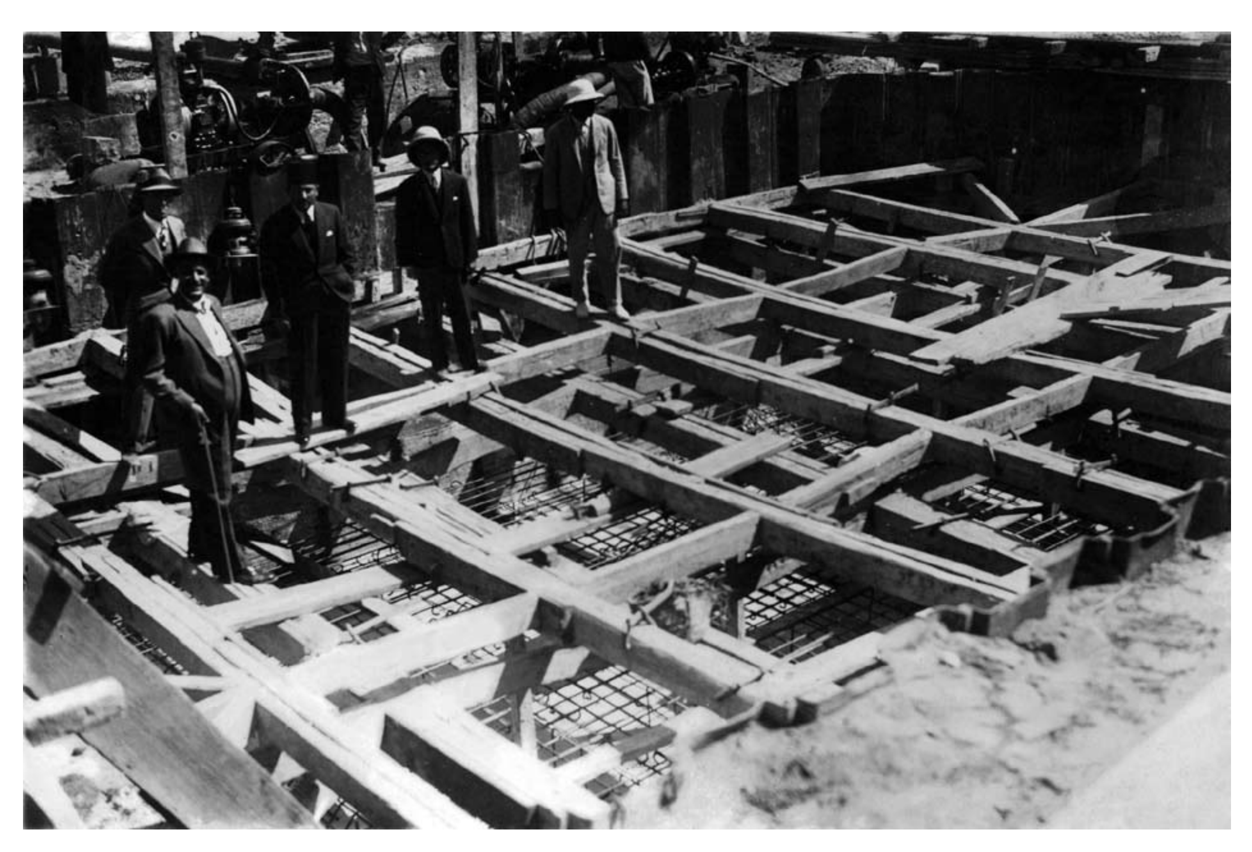
وكما يتضح مما دون من قبل أن معظم مؤلفاته شروح جرت على النهج المألوف في عصره وملخصات، وأبحاث مختلفة، وقد فقد معظمها، ومن جهة أخرى خلف خطابًا ورسائل في الفقه كتبها بالرجز، وكل هذه المصنفات تتصل بوظيفته كمدرس. أما كتابه الكبير «حياة الحيوان» الذي عرف به في الشرق والغرب فمن الواضح أنه كتبه بدافع من نفسه على الرغم من أنه أنكر في مقدمته أن تكون له قريحة لمثل هذا العمل، وهذا الكتاب عبارة عن معجم في الحيوان إلا أن مادته في هذه الناحية مختصرة، وقد وردت فيه أسماء الحيوانات مرتبة على أحرف الهجاء كما أن جميع مواده المطولة موزعة على سبعة أقسام: الأول يتناول المواد اللغوية المستمدة من ابن سيده والجوهري ومن الجاحظ الذي سبقه إلى تصنيف كتاب عن حياة الحيوان، والثاني يتناول وصف الحيوان وطباعه، والثالث يذكر الحوادث التي جاء فيها شيء عن الحيوان، والرابع يوضح الحلال والحرام بالنسبة للحيوان وفقًا لمذاهب الفقه المختلفة، والخامس يذكر أمثالاً تدور حول الحيوان، وقد اعتمد في سردها على كتاب الميداني إلى أقصى حد، والسادس يتناول الخصائص الطبية لأجزاء الحيوان المتنوعة، والسابع يفسر رؤية الحيوان في المنام.

وقد كانت ثمرة كل ذلك مصنفًا جامعًا حافلاً بالاستطرادات مما يكاد يتعذر على القارئ استيعابها بكيفية متصلة السياق، ومع ذلك فالكتاب ذخيرة قيمة من الأدب الشعبي والحديث وطب العوام ومرآة لنفسية الشعوب.

وكثيرًا ما يظهر الدميري في هذا المؤلف، وكأنه جاهل بأنواع الحيوان التي يكتب عنها غير أنه يبدو من خلال ما دونه أنه كان على علم واسع الدائرة بكل ما قيل عن هذه الأنواع، ومن ثم تظهر براعته في جمع هذه المعلومات وصياغاتها في عناية ودقة، ولهذا الكتاب ثلاث نسخ إحداها مطولة والثانية متوسطة والثالثة موجزة، ومن حسن الحظ أن النسخة التي طبعت ببولاق هي النسخة المطولة التي توجد فيها مختصرات مترجمة بالفارسية والتركية.

وقد يسَّر الكولونيل «أ. س. ج. جاياكار A. S. G. Jayaker» هذا الكتاب فجعله في متناول الأوروبيين، وذلك بترجمته إلى اللغة الإنجليزية، وتعادل هذه الترجمة المبسطة ثلاثة أرباع الكتاب نفسه.

وكانت وفاة الدميري خلال عام ٨٠٨هـ (١٤٠٥م) عن ٥٧ عامًا.



المهندس الإيطالي دنتمارو أثناء تشييد الجزء الثالث من رصيف الكورنيش

٦١٨- دنتمارو - شارع - بقسم سيدي جابر (أحمد صديق حاليًّا)

كان دنتمارو مهندسًا إيطاليًّا ومن أكابر أصحاب الأعمال، وقد عهدت إليه بلدية الإسكندرية - هو وشريكه المهندس (كارتاريجيا) (انظر هذه المادة) - بتشييد الجزء الثالث من رصيف الكورنيش الذي يمتد من لسان السلسلة (رأس لوخياس) إلى قصر المنتزه الكائن بعد ضاحية المندرة، وقد أتم المهندسان العمل في نهاية العام الثلاثين من القرن العشرين الحالي.

وقامت حول التشييد ضجة ضخمة في أوساط المدينة تردد صداها المزعج في جلسات المجلس البلدي وذلك عقب انهيار بعض أجزاء صغيرة من الرصيف في جهات مختلفة منه وعزي ذلك العيب في التشييد إلى أن المقاولين استعملا ماء البحر في خلط الخرسانة مما جعلها تتفكك ثم تنهار، واتهم بعض كبار موظفي البلدية بالتواطؤ معهما وجر ذلك إلى تحقيقات شتى انتهت باستقالة أحمد صديق المدير العام (انظر مادة أحمد صديق)، ولكن رصيف الكورنيش كان أجلّ عمل إنشائي ضخم قامت به البلدية منذ إنشائها عام ١٨٩٠م إذ عاد بالفائدة العظيمة على المدينة وكان السبب الجوهري في مضاعفة

إيرادات البلدية عدة مرات مما مكنها من الإنفاق على كثير من المشروعات الهامة في أحياء المدينة، ومدها بالمرافق المفيدة التي أسهمت في رفاهية السكان، وازدهار مدينة الإسكندرية حضاريًّا وعمرانيًّا واجتماعيًّا.

أما ترجمة صاحب الاسم الجديد فاطلبها في «أحمد صديق».

٦١٩- دنشواي - شارع - بقسم محرم بك (كرومر سابقًا)

بلدة دنشواي واقعة في محافظة المنوفية وهي تابعة لمركز تلا، وكلما ذكر اسمها استولت الكآبة والحزن العميق على نفوس المصريين جميعًا للحادث الشنيع الذي كان أهلوها هدفًا لكارثته المروعة على أيدي الإنجليز الذين كانوا يحتلون مصر غصبًا ويذيقون الشعب المصري ألوانًا من الهوان والعسف والعنت في غير ورع أو رحمة، وقد كافح المصريون طوال ما يقرب من خمسة وسبعين عامًا لإزالة كابوس الاحتلال البغيض عن صدر الأمة المصرية، وتحقق لهم النصر في يونية عام ١٩٥٦م (١٣٧٦هـ) بعد أن جثم على صدورهم منذ عام ١٨٨٢م (١٣٠٠هـ) فأبحر آخر جندي بريطاني إلى غير رجعة.

ووقع حادث دنشواي المشئوم في يوم الأربعاء ١٣ من يونية سنة ١٩٠٦م (١٣٢٤هـ)، إذ خرج خمسة ضباط إنجليز من معسكرهم بالقرب من هذه القرية بغية صيد الحمام فأصابوا ببنادقهم الغادرة بعض الأهلين الذين لم يسعهم إلا الاصطدام بهم دفاعًا عن أنفسهم، فأصيب بعض هؤلاء الضباط ومات أحدهم من ضربة الشمس الحارة في ذلك الحين من السنة كما قرر ذلك الطبيب الإنجليزي نفسه.

فما كان من اللورد كرومر عميد الدولة البريطانية إلا أن ثار كالبركان وأمر بتكوين محكمة عسكرية لمحاكمة سكان القرية المنكوبة، فتكونت المحكمة المخصوصة وكان المدعي العمومي فيها إبراهيم الهلباوي بك المحامي المعروف، وبعد المحاكمة الصورية الظالمة قضت المحكمة بإعدام أربعة من الأهلين وجلد وحبس عدد كبير منهم، ونفذ الإعدام والجلد في القرية نفسها وعلى مرأى ومسمع من سكانها وأهل المحكوم عليهم، وكان في هذه الأحكام الجائرة وما انطوت عليه من القسوة والجبروت ما أثار الأنفس وأطلق الألسنة وحرك شعور البغضاء والكراهية في وجدان زعماء النهضة والكتاب والشعراء لأعمال الإنجليز وعسفهم ونذالة انتقامهم الغاشم، وكانت المحكمة برياسة المستشار الإنجليزي المستر «بوند».

وترتب على هذه الثورة النفسية العارمة استقالة اللورد كرومر خلال عام ١٩٠٧م (١٣٢٥م) وتعيين السير غورست عميدًا لبريطانيا في مصر مكانه، وقد صدر عفو بالإفراج عن المسجونين الثمانية خلال عام ١٩٠٨م (١٣٢٦هـ).

وقد خلد شاعر النيل حافظ إبراهيم كارثة دنشواي بقصيدة من عيون قصائده قال في مطلعها:

أَيُّهَا القَائِمُونَ بِالأَمْرِ فِينَا

هَلْ نَسِيتُمْ وَلاءَنَا والوِدَادَا

خَفِّضُوا جَيْشَكُم ونَامُوا هَنِيئًا
وَابْتَغُوا صَيْدَكُمْ وَجُوبُوا البِلاَدَا

وإذا أعْوَزَتْكُمُ ذَاتُ طَوْقٍ
بَيْنَ تِلْكَ الرُّبَا فَصِيدُوا العِبَادا

إنّما نَحْنَ وَالحَمَامُ سَوَاءٌ
لَمْ تُغادِرْ أَطْوَاقُنَا الأَجْيَادا

ثم يقول للإنجليز في مرارة وحسرة تفيضان بالأسى القاتم:

أَحْسِنُوا القَتْلَ إنْ ضَنَنْتُمْ بِعفْوٍ
أَنفُوسًا أَصَبْتُمُ أَمْ جَمَادَا؟

لَيْتَ شِعْرِي أَتِلْكَ مَحْكَمةُ التَفْـ
تيشِ عَادَتْ أمْ عَهْدُ (نِيرُونَ) عَادَا؟

كَيْفَ يَحْلُو مِنَ القَوِيِّ التَّشَفِّي
مِنْ ضَعِيفٍ أَلْقَى إلَيْهِ القِيَادا

إنَّها مُثْلَةٌ تَشُفُّ عَنِ الغَيْـ
ـظِ وَلَسْنَا لِغَيْظِكمْ أَنْدَادَا

ثم يتوجه باللوم القاسي إلى إبراهيم الهلباوي المدعي العمومي في هذه المحاكمة البشعة التي صارت وصمة في جبين تاريخ بريطانيا تدفعها بالعار على مر القرون فيقول له:

أَيُّهَا المُدَّعِي العُمُومِيُّ مَهْلاً
بَعْضَ هذا فَقَدْ بَلَغْتَ المُرَادا

قَدْ ضَمِنَّا لَكَ القَضَاءَ بِمِصر
وَضَمِنَّا لِنَجْلِكَ الإِسْعَادا

فَإِذَا مَا جَلَسْتَ لِلْحُكْمِ فَاذْكُرْ
عَهْدَ (مِصْرٍ) فَقَدْ شَفَيْتَ الفُؤَادَا

لاَ جَرَى النِّيلُ فِي نَوَاحِيكِ يَا مِصْـ
ـرُ وَلاَ جَادَكِ الحَيَا حَيْثُ جَادا

أَنْتِ أَنْبَتِّ ذَلِكَ النَّبْتَ يا مِصْـ
ـرُ فَأَضْحَى عليكِ شَوْكًا قَتَادا

أَنْتِ أَنْبَتِّ نَاعِقًا قَامَ بِالأَمْـ
ـسِ فأَدْمَى القُلُوبَ والأَكبَادا

إِيهِ يَا مِدْرَهَ القَضَاءِ وَيَا مَنْ
سَادَ فِي غَفْلَةِ الزَّمَانِ وَشَادَا

أَنْتَ جَلاَّدُنَا فَلا تَنْسَ أنَّا
قَدْ لَبِسْنا عَلَى يَدَيْكَ الحِدَادا

ولقد رأيت إبراهيم الهلباوي يترافع في إحدى القضايا بعد حادث دنشواي بأعوام كثيرة فكان طويل القامة جوهري الصوت أسمر اللون، وكنا نعرف من سيرته أنه احترف

المحاماة عن غير دراسة للقانون في معاهده الرسمية وإنما بالسليقة وفصاحة اللسان وسعة التجارب القضائية، ولم يكن الوحيد بين المحامين في هذا الباب إذ كان بينهم عدد غير قليل ممن زاولوا المحاماة عن خبرة وليس عن تعليم منظم ودراسة علمية، وقد برع منهم أكثر من واحد فذاع صيتهم وحصلوا على ثروات كبيرة من عملهم.

وما من مصري يذكر قول حافظ إبراهيم:

أَنْتَ جَلاَّدُنَا فَلاَ تَنْسَ أَنَّا

قَدْ لَبِسْنَا عَلَى يَدَيْكَ الحِدَادَا

إلا ويتمثل في مخيلته الواعية حادث دنشواي المروع وشبح إبراهيم الهلباوي المدعي العمومي في تلك القضية الجائرة.

ومحكمة التفتيش التي قارنها شاعر النيل بمحكمة دنشواي اشتهرت بالقسوة والظلم والاضطهاد للناس ومصادرة أملاكهم ثم إحراقهم دون أن تترك لهم فرصة الدفاع عن أنفسهم، وقد استغلت تلك المحاكم في اضطهاد العرب في إسبانيا في أواخر أيام حكمهم في الأندلس حتى تم إقصاؤهم عنوة عام ١٦٠٩م (١٠١٨هـ).

وكان بين الأربعة الذين أعدموا شنقًا في حادث دنشواي شيخ في الخامسة والستين من العمر، وحكم بالسجن المؤبد على اثنين وبالسجن خمسة عشر عامًا على متهم آخر وبالجلد على عدد كبير من الأهالي، كان يجلد اثنان أو أكثر منهم عقب شنق أحد الشهداء الأربعة.

وقد حدثت المحاكمة الصورية الغاشمة في يوم ٢٦ يونية عام ١٩٠٦ (١٣٢٤هـ) في محكمة شبين الكوم، وقد وقف إبراهيم الهلباوي يترافع أمام هذه المحكمة التي كانت تضم ثلاثة من القضاة المصريين الذين باعوا ضمائرهم لإرضاء الغاصبين الإنجليز وجلسوا على منصة القضاء فلوثوها بما اقترفوا من ذنب محرم ضد أبناء وطنهم وهم: بطرس غالي رئيس المحكمة، وفتحي زغلول والمدعي العام الهلباوي ومعه اثنان من القضاة الإنجليز.

وسرعان ما نصبت المشنقة بساحة قرية دنشواي نفسها في يوم ٢٨ يونية عام ١٩٠٦م أي بعد يومين فقط من صدور الحكم الجائر، وأحضر المحكوم عليهم من شبين الكوم للتنفيذ وسط بكاء النساء والأطفال وغيظ الرجال المكبوت.

وسيق الشيخ المسكين حسن محفوظ إلى المشنقة يجر وراءه ٦٥عامًا قضاها في الكد والكفاح من أجل الحياة التي قضى عليها الهلباوي بلسانه السليط وحججه الكاذبة المزيفة ضد المتهمين الأبرياء، وكان ينظر المسكين إلى قريته وعيناه مغرورقتان بالدموع، وعندما اعتلى هذا الشهيد الطاعن في السن سلم المشنقة صاح قائلاً: إنا لله وإنا إليه راجعون، الله يخرب بيتك يا محمد يا شاذلي، الله يخرب بيتك يا محمد يا شاذلي، ومحمد الشاذلي هذا كان عمدة دنشواي وكان له ضلع في شهادة الزور ضد مواطنيه إرضاء للإنجليز ولحكومة ذلك العهد البغيض المشئوم.

ثم سيق إلى المشنقة يوسف سليم الشهيد الثاني وأصغر الشهداء سنًا فصاح قبل أن يلفظ آخر أنفاسه تحت حبل المشنقة: اللهم انتقم من الظالمين، اللهم انتقم من الظالمين.

ولم يقل الشهيد الثالث محمد درويش زهران شيئًا ولكن عندما استبطأ التنفيذ صاح في جلاده: شَهِّلْ يا أخي، شَهِّلْ،

ثم هوى فهوت معه قلوب نساء القرية ولطمن الخدود جزعًا وهلعًا.

ولقد لاحقت اللعنة إبراهيم الهلباوي فمات وقد بدد كل ما كسب من مال ورؤي وهو يترافع في آخر أيام حياته لينقذ المنزل الذي بقي له من الضياع وبما كان عليه من ديون، أما بطرس غالي فقد كان جزاؤه الاغتيال من رصاص إبراهيم الورداني الذي حقد عليه لاشتراكه في محكمة دنشواي الظالمة وسعيه الحثيث في تجديد عقد قناة السويس لتنعم الشركة الأجنبية بمواردها المالية الهائلة على حساب مصر.

وكان إبراهيم الهلباوي قاسيًا في مرافعته ضد الشهداء فلم يتورع عن وصفهم بأنهم عصابة وعبَّر عن حزنه العميق لما ارتكبوه وطالب بتطبيق أقسى العقوبة عليهم وقال في صفاقة إنه يطالب بذلك ليس فقط لمصلحة الروح التي ذهبت وأصابها من الألم قبل إزهاقها ما أصابها، ولا لمصلحة الضباط الآخرين الذين جرحوا، ولكن لمصلحة الشعب المصري!! بهذا المنطق السافل تلفظ الهلباوي بهذه العبارات في غير حياء أو خشية من الله.

ولم يقتصر في دفاعه على ما تقدم بل ذهب إلى مدح الإنجليز والثناء على احتلالهم لوطنه المكلوم المنكوب بأمثاله، فأشاد بما قدمه الاحتلال لمصر مدعيًا أنه حرر المصري فارتقى وتعلم مبادئ الواجبات الاجتماعية والحقوق المدنية ثم طفق يكيل الثناء على مسلك الضباط الإنجليز وزعم أنهم أبلغوا الجهات الإدارية بأنهم ذاهبون للصيد ودلهم أهالي الناحية على دنشواي وأخذوا الإذن لهم بالصيد من الأهالي، وتمادى الهلباوي في اتهاماته الباطلة المضللة فقال إن الفلاحين اعتدوا على الضباط بقصد السلب والنهب وقد سلبوا ساعة الماجور «كوفين» الذي جرح ثم اتهمهم بتدبير حريق القمح ليبرروا جرائمهم وقال إن هذا الحريق لم يشب بسبب رصاص الضباط.

ولقد لاحقت اللعنة الهلباوي جَلاَّد دنشواي طوال حياته فلم يغفر له الشعب المصري جريمته الشنعاء على الرغم من التوسل الذي كان يطلب به العفو في ذلته، ولم يفلح في تبرير فعلته الغادرة بما كان يقدم من أسانيد واهية على حسن نيته وأنه كان مضطرًّا لهذا الدفاع بحكم وظيفته كمدعٍ عام في القضية، وكان جواب الرأي العام على هذه الشبهات الواهية أنه كان في استطاعته التنحي عن هذه المهمة التي كلفه بها مصطفى باشا فهمي رئيس النظار في ذلك الحين.

وصدق قول الأستاذ يحيى حقي فيه إذ ذكر: «أن إبراهيم الهلباوي مسكين حقًّا. هذا الرجل الذي كانت شهرته مضرب الأمثال، لا أعرف أحدًا من ساسة مصر تجرع مثله العذاب، وشربه صابًّا كأسًا بعد كأس سنين طويلة تكاد تكون هي عمره كله».

ومن الملائم أن يلم القارئ ببعض نواحي حياة هذا الرجل بغية إرجاع سبب عقوقه للوطن ولأهله عندما أصبح يملك الحول والقوة.

فقد ولد ببلدة العطف في أسرة فقيرة وعند بلوغه الثامنة عشرة رحل إلى القاهرة والتحق بالأزهر، وفي بداية السبعينيات حضر إلى مصر جمال الدين الأفغاني فبادر الهلباوي إلى حضور دروسه ومقابلته بقهوة ماتاتيا، ولم يستمر على

الدراسة في الأزهر بعد أن كان يؤجل دخول الامتحانات في نهاية كل سنة.

وعندما اختار مصطفى رياض ناظر النظار الشيخ محمد عبده (انظر هذه المادة) لرياسة تحرير الوقائع المصرية، عقب عودته من المنفى استعان في تحريرها بعبد الكريم سليمان وسعد زغلول وإبراهيم الهلباوي الذي لم يلبث أن أثار المتاعب بسبب مرتبه الشهري، ومن ثمَّ ترك الوظيفة ورجع إلى بلدته «العطف» ليزاول تجارة القطن بالقليل من المال، ولكن اليونانيين كانوا السباقين إلى شراء الأقطان من الفلاحين فلم يجد الهلباوي مجالاً لمنافستهم وكاد الكساد يقضي على ما لديه من مال شحيح.

وكان لمصطفى رياض ضيعة ببلدة «صا الحجر» طغى عليها الفيضان فسخر الفلاحين بوساطة وكيل المديرية لمقاومة المياه، فكتب الهلباوي مقالاً شديد اللهجة ندد فيه بصاحب الأرض الذي أمر بإرساله إليه في القاهرة مكبلاً بالحديد، ولكن نظارة رياض تسقط عقب مظاهرات سبتمبر عام ١٨٨١م وقامت بعد ذلك الثورة العرابية فوقف الهلباوي منها متفرجًا، ثم تنتهي الثورة نهايتها المؤلمة فنجد الهلباوي سكرتيرًا لمحمد سلطان باشا رئيس مجلس الشورى الخائن الذي باع الثورة بمبلغ عشرة آلاف من الجنيهات وقُلد لقب «سير» من الملكة فكتوريا ملكة بريطانيا، وهكذا ينضم الهلباوي إلى صفوف الخونة وبائعي أوطانهم في سبيل الجاه والحصول على المرتبات الضخمة، وسرعان ما تدرج في المناصب فصار سكرتيرًا ورئيسًا لكتاب في المجلس عام ١٨٨٥م، ثم سكرتيرًا للأمير حسين كامل بمرتب شهري قدره أربعون جنيهًا.

وفي يناير عام ١٨٨٦م (١٣٠٤هـ) كان البرنس حسين كامل قد فصله فوكل محاميًا لطلب التعويض عن هذا الفصل، وفي قاعة جلسة المحكمة أتيحت له الفرصة أن يتكلم فكان محط أنظار المتفرجين بسبب صوته المجلجل ودفاعه المركز، وبعد أيام تنازل عن دعواه وبدأ يستعد للعمل في المحاماة.

وفي مدينة طنطا استأجر غرفة صغيرة وضع فيها مكتبًا قديمًا وبدأ نضاله الشرس المتسم بالوصولية المتطرفة التي أغرته بأن يتزوج من تركية كانت من الجواري البيض (الكلفوات) بقصر الأميرتين نعمت مختار وفاطمة إسماعيل وذلك ليكون مقربًا من الأسرة المالكة بطريق غير مباشر.

ولقد تحقق ما كان يصبو إليه من هذا التقرب، فبعد مدة من الزمن نجده نديمًا للخديوي عباس حلمي الثاني ومالكًا لقطع شاسعة من الأراضي الزراعية ومقيمًا بقصر منيف، وهكذا وصل الوصولي إلى الجاه العريض والثراء المغدق بعد أن تولى منصب المستشار للأوقاف الخصوصية ثم المستشار لعموم ديوان الأوقاف.

ومن هذه السيرة التي يكتنفها الكثير من الانتهازية في ذلك العهد البائد يتضح أنه لم يكن من المستغرب على هذا الرجل أن يقوم مدافعًا عن أسياده الإنجليز وأن يطعن مواطنيه بخنجر الغدر المسموم ويؤدي بشهداء دنشواي إلى حبل المشنقة لا لشيء سوى الوصول إلى الجاه والثراء وممالأة الحكام وأسيادهم طغاة الاحتلال وأعوان اللورد كرومر.

ولم يُجْدِه دفاعه عن إبراهيم الورداني قاتل بطرس غالي ولم يفده دفاعه في القضايا السياسية لكسب عطف المواطنين فكان دائمًا الرجل المنبوذ البغيض «جلاد دنشواي» وقد سقط

في جميع الانتخابات النيابية التي خاضها إذ كانت أصوات المجتمعين تصيح في غضب عند رؤيته يتكلم «ليتكلم جلاد دنشواي» .

وتموت زوجته فيتزوج بثانية وثالثة وقد تجاوز السبعين وكلهن تركيات ، وفي عام ١٩٣٠م (١٣٤٩هـ) كان مفلسًا تتناول الحجوزات أراضيه وأملاكه فلا يجد مسكنًا يأويه ، وهكذا تكون عاقبة الظالمين .

٦٢٠- الدواخلي (الشيخ) - شارع - بقسم مينا البصل

اطلب الترجمة في «الشيخ الدواخلي» .

٦٢١- دومْريْكَرْ - شارع - بقسم الرمل (اللواء يسري قمحة حاليًا)

يرجع الاسم الذي يحمله الشارع الكائن بقسم الرمل وهو «دومْرَيْكَر Dumreicher» إلى رجل دانمركي يدعى «دانيل فون دومريكر Daniel Von Dumreicher» كان أول قنصل للدانمرك في مصر بعد اعتماد أوراقه لدى بلاط محمد علي خلال عام ١٨١٠م (١٢٢٥هـ) .

وكان أفراد أسرة «دومْرَيْكَر» قد استقروا بالإسكندرية قبل ذلك التاريخ إذ نجد في سيرة الحملة الفرنسية على مصر أن «نابليون بونابرت» طلب وكالة دومْرَيْكَر التي كانت عند بداية شارع السبع بنات (انظر هذه المادة) مطلة على ميدان المنشية ، فأقام بها «بونابرت» طول مدة بقائه بالمدينة ، وكان ذلك في نهاية القرن الثامن عشر .

وتجنّس ابن قنصل الدانمارك «دانيل دومْرَيْكَر» ويدعى «ألفريد فون دومْرَيْكَر» بالجنسية الألمانية ، وعاش بالإسكندرية بمحطة سابا باشا (انظر هذه المادة) في قصره الفخم الذي أطلق عليه اسم «البستان» وقد صار فيما بعد مسكنًا للسلطان فؤاد قبل أن يعتلي عرش مصر ، ومن ثم أطلق اسم «دومريكر» على الشارع المجاور لهذا القصر .

ولا ترجع شهرة أسرة «دومْرَيْكَر» إلى «دانيل» قنصل الدانمارك ، أو إلى ابنه ألفريد الذي كان موظفًا بأحد بنوك الإسكندرية ، وإنما إلى ابن ألفريد وهو «أندريه فون دومريكر» الذي حصل على رتبة البكوية وهو في خدمة الحكومة المصرية .

وقد ولد «أندريه فون دومْرَيْكَر» بمدينة شتوتجار «في أول ديسمبر عام ١٨٦٥م ، وتلقى تعليمه في مدينة «ورتانبرج» وبعد أن أدى الخدمة العسكرية في الجيش الروسي ، جاء إلى مصر حيث كان أبوه مقيمًا وكان عمره ٢٥ عامًا ، ثم رجع إلى ألمانيا ، ونزح مرة ثانية إلى مصر ليعمل في الوظائف الحكومية حيث أشرف على إنشاء مصلحة خفر السواحل وكانت إقامته بالقاهرة في منطقة مصر الجديدة ، وفي عام ١٩٠٧م تزوج بالآنسة «راسل» الإنجليزية ابنة شقيق رئيسه «هانتر باشا Hunter Pasha» .

وقد توطدت أواصر الصداقة بينه وبين الخديوي عباس الثاني في أول الأمر ثم فترت الصلات بسبب رفض «أندريه دومْرَيْكَر» الاستجابة إلى طلب غير مشروع كان عباس حلمي يريد أن يحققه عن طريقه ، ويقال إن ذلك الطلب كان يرمي إلى تهريب بعض الأشياء الممنوعة قانونًا ، وترتب على

هذا الرفض إرجاء ترقية «دومْرَيْكَر» إلى رتبة الباشاوية التي كان يستحقها من أكثر من عام بمنحه رتبة اللواء.

وفي تلك الأثناء قامت الحرب العالمية الأولى في أواخر عام ١٩١٤م فخير «أندريه فون دومْرَيْكَر» بين الإقامة في جزيرة مالطة أو في بريطانيا، فاختار بريطانيا حيث أقام إلى عام ١٩١٩م.

وفي عامي ١٩٢٢ و١٩٢٣م، كان أندريه فون دومريكر سيعود إلى مصر بصفته أول سفير لألمانيا بعد الحرب الكبرى، ولكن تعيينه في هذا المنصب الدبلوماسي لم يتم، وهكذا لم يرجع إلى الإسكندرية إلا في عام ١٩٥٢م ليقضي أعوام تقاعده في كنف الفيلا الصغيرة التي اشتراها بجهة لوران بضاحية الرمل.

ولقد ترك هذا الألماني للباحثين كتابين دون فيهما مشاهداته ومعلوماته وآراءه في كل ما له علاقة بالصحراء الغربية، والصحراء الشرقية، وقد نشر هذين الكتابين خلال عام ١٩٣١م، وقد ألف الأول باللغة الإنجليزية، والثاني باللغة الفرنسية، وطبع الأول بمدينة لندن والثاني بمدينة باريس، كما ترك تقارير ضافية عن المتاهات الصحراوية ذات قيمة علمية هامة.

وتناول الكتابان الوصف التفصيلي للصحراء الغربية يمتد حتى الحدود المصرية الليبية، فلم يترك مكانًا أو بئرًا في الصحراء إلا وكتب عنه شيئًا، وقد قام ببحث طبيعة الأرض، وتضاريسها، وأحوال السكان البدو وأفكارهم وأخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم، وبالجملة لم يترك أي شيء إلا وقدم للمطلع معلومات مفيدة واضحة عنه، كما بين شريعة هؤلاء البدو الخاصة التي تنطوي على العدالة النابعة في الوجدان الطبيعي وليس من القوانين الوضعية المعقدة، وأبدى طائفة من الآراء بالنسبة لاستغلال السواحل الواقعة شرق الإسكندرية حتى السلوم للأغراض السياحية، وفي الكتاب الذي صنفه بعنوان «السياحة في صحراوات مصر» – الذي طبع في باريس – مقترحات قيمة مفيدة جديرة بأن تأخذ بها هيئة السياحة.

وكان الكولونيل أندريه دومْرَيْكَر بك من رجال التعمير المخططين للمدن، العاملين على إدخال العمار في أرجائها، فعندما كان من رؤساء مصلحة خفر السواحل كان إليه وإلى زميل ألماني آخر يرجع الفضل في إنشاء مدينة مرسى مطروح الحديثة، وقد ذكر في تقاريره كيف عمل وهو وزميله أن تكون هذه البلدة السياحية عريضة الشوارع حسنة التهوية ذات فيلات من طبقة واحدة، ويذكر لنا كيف بذل الجهد في سبيل بناء مسجد مرسى مطروح الذي هدم فيما بعد، وأقيم مكانه مسجد آخر أكبر منه يتناسب مع اتساع المدينة الحالي.

وعمل من جهة أخرى على تشييد كنيسة أرثوذكسية لصائدي الإسفنج هناك، وقد أزيلت هذه الكنيسة الآن، وشيدت البطريركية اليونانية بالإسكندرية كنيسة أخرى بالقرب من مكتب البريد.

ويقص علينا الكولونيل أندريه دومريكر بك كيف استطاع بناء الميناء الذي كان المرور إليه ليس يسيرًا.

وإذا كانت هذه الأعمال الكشفية والعمرانية توجب الثناء على هذا الألماني الذي كان يجهر بحب مصر، والذي فضل الموت في أحضان الإسكندرية على أن يقضي بقية حياته في ألمانيا

فإن يقيني لا يجعلني أطرح الشك في أن استكشاف الصحراء الغربية، وبناء ميناء مرسى مطروح لم تكن من الأعمال الخالصة لوجه الله، ولنفع مصر، ففي الحرب العالمية الثانية التي أُشعل أوارها في نهاية عام ١٩٣٩م، استفاد القائد روميل الألماني من كل المعلومات عن الصحراء الغربية التي دونها دومريكر وغيره من الألمان اللذين سبقوه أو جاؤوا بعده، يدل على ذلك أن روميل اتخذ مخبأه الحصين قبيل موقعة العلمين الفاصلة في الصخرة المعروفة باسمه في مرسى مطروح، وهي تطل على الميناء مباشرة، فكل الأجانب الذين عملوا في الحكومات المصرية قبل ثورة ١٩٥٢م، لم يكونوا إلا سياسيين يسعون جهد الطاقة للوقوف على المعلومات الجغرافية والعلمية التي تفيد بلادهم عند الحاجة ولا سيما عند نشوب الحروب التي تتصل بمصر، أو بالشرق الأوسط ولا سيما بقناة السويس.

ولم يكتف الكولونيل «أندريه دومريكر بك» بإلقاء الأضواء على مجاهل الصحراء الغربية، وتفقد طرقها، ومفاوزها، ومعرفة معيشة سكانها وسكان الواحات الداخلة والخارجة وواحة سيوة وسلوكهم الاجتماعي والأخلاقي، وما يتبعونه من عادات وتقاليد، ولم يكتف باكتشاف كل ذلك وتدوينه فيما صنف من كتاب، وإنما مد استكشافه إلى الصحراء الشرقية فدون معلومات واضحة مفصلة عن سواحل البحر الأحمر وجبل الدخان ووادي قنا وعن سكان هذه المناطق النائية ولا سيما قبائل البشاري المقيمة على الحدود بين مصر والسودان.

وقد سمحت له وظيفته كأحد رؤساء مصلحة خفر السواحل أن يجوب أنحاء هذه المناطق جميعًا دون عائق أو اعتراض.

وفي ١٧ من شهر سبتمبر عام ١٩٥٣م مات الكولونيل «أندريه فون دومريكر» بالغًا من العمر ٨٨ عامًا بفيلته الصغيرة بمحطة لوران بالرمل.

أما ترجمة صاحب الاسم الجديد للشارع فاطلبها في «اللواء يسري قمحة».

٦٢٢- دياب - شارع - بقسم الرمل

قد يكون هذا الاسم لأحد أفراد أسرة سورية استقرت بالإسكندرية منذ عهد غير قريب وزاولت التجارة في المصنوعات الحديدية والمعدنية، وكان مركزها التجاري الهام بشارع صلاح الدين رقم ٢٢ ومن بين رجال هذه الأسرة جورج دياب الذي انتخب بالمجلس البلدي «القومسيون البلدي» عضوًا منذ عشرات السنين، وكان عميد هذه الأسرة، وقد كون شركة منه، ومن أولاده باسم «نقولا دياب وأولاده»، أقول قد يكون هذه الاسم الذي أطلق على هذا الشارع هو نسبة لهذه العائلة السورية، غير أني أرجح - بسبب قدم التسمية - أن يكون صاحبها هو العالم الكبير محمد دياب بك، وفيما يلي ترجمة حياته.

ولد عام ١٨٥٢م (١٢٧٠هـ)، والتحق بدار العلوم سنة ١٨٧٤م (١٢٩١هـ) فكان طليعة نابغيها المعدودين، وكتب موضوعات إنشائية عملية تناسب ذلك العصر الذي نشرت في مجلة «روضة المدارس»، وفي ١٦ من يوليو عام ١٨٧٦م (١٢٩٣هـ) اختير معلمًا للنحو في مدرسة «أطفال الخير» بالقلعة، وكانت تعرف بالمدرسة الخيرية، فألف كتابه المشهور بـ«التحفة السنية في الأصول الحسابية»، وهو في جزأين طبعتهما نظارة المعارف مرتين في عامي ١٢٩٨ - ١٣٠٠هـ

(١٨٨٠ – ١٨٨٢م)، ثم عرب عن الفرنسية مسائل تطبيقية على مقالات الهندسة، وطبع منها مسائل المقالة الأولى عام ١٣١٢هـ (١٨٩٤م) كما عرب ألف مسألة رياضية طبعت عام ١٣٣٢هـ (١٩١٣م) وكتابًا في الجبر لم يطبع، وفي يناير عام ١٣٠٠هـ (١٨٨٢م) عهد إليه تعليم الحساب والهندسة وتقويم البلدان (الجغرافيا) في مدرسة الآثار علاوة على عمله في مدرسة المبتديان، وقد ألف في هذه الفترة كتابًا في دروس الأشياء من ثلاثة أجزاء لتلاميذ السنوات الثانية والثالثة والرابعة، طبع بمطبعة بولاق، ثم صنف كتابًا في الإنشاء النظري عندما نقل في نوفمبر عام ١٣٠٥هـ (١٨٨٧م) أستاذًا لتعليم الإنشاء بالقسم العالي للمدرسة التوفيقية للمعلمين، وقد أقرت المعارف هذا الكتاب، وطبعته عام ١٣٠٦هـ (١٨٨٨م) هذا علاوة على معجم سماه «قلائد الذهب في فصيح لغة العرب» طبع الجزء الأول منه عام ١٣١١هـ (١٨٩٣م).

وكان من أعضاء اللجنة التي عهدت إليها نظارة المعارف تأليف كتب أربعة في النحو، وكتاب خاص في البلاغة، واشترك في وضع كتب الدروس النحوية للمدارس الابتدائية والمدارس الثانوية ودروس البلاغة مع الأساتذة محمد صالح، وحنفي ناصر (انظر هذه المادة)، ومصطفى طاموم (انظر مادة الشيخ طاموم)، ومحمود عمر، وسلطان محمد، كما اشترك في تأليف كتاب قواعد اللغة العربية للمدارس الثانوية مع الأساتذة محمود عمر، وحنفي ناصر، ومصطفى طموم، وقد تعلمت اللغة العربية في الدراسة الثانية من هذا الكتاب القيم المركز الذي يفيض بالتمرينات العملية والحكم والأشعار والأمثال العربية التي تدل على كل قاعدة من قواعد النحو الصرف والبلاغة والبديع وفي عام ١٣١١هـ (١٨٩٢م) عهد إلى محمد دياب تعليم التاريخ في مدرسة «دار العلوم» التي تخرج منها فألف كتاب «خلاصة تاريخ مصر القديم والحديث» وقد أقرته نظارة المعارف، وطبع بمطبعة بولاق وعرب عن الفرنسية «تخطيط أوروبا» ولم يطبع.

وفي فبراير عام ١٨٩٣م (١٣١١هـ) رقي مفتشًا ثانيًا للغة العربية في جميع المدارس، وخلال أيامه في التفتيش ألف كتاب «تاريخ اللغة العربية» في جزأين طبع الثاني منهما عام ١٣١٨هـ (١٩٠٠م)، وطبع الجزء الأول قبل ذلك التاريخ وقد ساح محمد دياب في أوروبا أثناء العطلات المدرسية ثلاث مرات في أعوام ١٣٠٦ – ١٣١٠ – ١٣١٤هـ (١٨٨٨ – ١٨٩٢ – ١٨٩٦م) ابتغاء التزود من اللغة الفرنسية فاستفاد وأفاد، وكان يحرص على حضور الاجتماعات التي كان السيد جمال الدين الأفغاني يعقدها للعامة والخاصة ويصغي في انتباه وشغف لمحاضراته وفلسفته. وفي نوفمبر عام ١٣٤٠هـ (١٩٠٢م) اعتزل منصب التفتيش بسبب اعتلال صحته ثم اختاره الإمام محمد عبده رئيسًا للجمعية الخيرية الإسلامية وحسن عاصم باشا مدير مدارسها للتفتيش على هذه المدارس والنظر فيما يصلح من شأنها وتنظيمها على نسق مدارس الحكومة فقطع في ذلك خمس سنوات، ثم لزم مكتبته بداره عام ١٣٢٧هـ (١٩٠٩م) وكانت تضم آلاف الكتب العربية والفرنسية وقد ألف في هذه الفترة كتاب «تاريخ العرب في إسبانيا» طبع الجزء الأول منه عام ١٣٣٢هـ (١٩١٣م)، ورسالة في اللوغاريتمات، وكتاب «معجم الألفاظ الحديثة» وقد طبع عام ١٣٣٨هـ (١٩١٩م)، وظل الأستاذ محمد دياب نشيطًا مع اعتلال صحته إلى أن وافته المنية عام ١٣٣٩هـ (١٩٢٠م) عن ٦٨ عامًا، وله قصائد كثيرة نشرت في

الصحف والمجلات وله كتاب «البيع والإيجار»، وكتاب «نخبة دياب في علم الحساب».

٦٢٣ – الديار بكرلي – شارع – بقسم محرم بك

هو عبد الحميد الديار بكرلي أحد الطلاب الأربعة البحريين الذين أرسلهم محمد علي في بعثة إلى إنجلترا لإتمام تعليمهم في الفنون البحرية، وقد بدأ تعليمه مثلهم بالمدرسة البحرية بالإسكندرية، وزملاؤه الثلاثة هم: عبد الكريم أفندي (انظر مادة عبد الكريم)، ويوسف آكاه أفندي، ويوسف عبادي أفندي، وقد استغرقت بعثتهم ست سنوات.

وقد بقي الديار بكرلي بإنجلترا إلى أن أتم علومه وعاد إلى مصر فوظف قائدًا لإحدى سفن الأسطول المصري، وترجم وحده مؤلفًا في مقياس السفن واشترك مع غيره في ترجمة كثير من القوانين واللوائح والنظم البحرية المستخدمة في سفن إنجلترا، ونشرت هذه القوانين واللوائح على ضباط البحرية، واتبعت نصوصها في الأسطول.

وفي عام ١٨٥٣م (١٢٧٠هـ) وكان الديار بكرلي ربانًا للباخرة المصرية (النيل) في حرب القريم وكانت هذه الباخرة والباخرة (أسيوط) تستخدمان في هذه الحرب لنقل المهمات والذخائر والبريد من الإسكندرية إلى ميدان القتال.

وتقلب الديار بكرلي بعد ذلك في وظائف البحرية المصرية، وقيادة السفن وفي عام ١٨٦٧م (١٢٨٤هـ) عين رئيسًا للمجلس العسكري الذي شكلته نظارة البحرية في عهد الخديوي إسماعيل للنظر في الحوادث التي تصيب السفن بسبب الزوابع أو المصادمات وما إليها ومحاكمة من تقع عليهم التبعات من جنود البحر وضباطه، وجاء ذكره أيضًا في عدة مواضع من كتاب «حقائق الأخبار عن دول البحار» لإسماعيل سرهنك باشا (انظر مادة سرهنك باشا).

٦٢٤– ديزكس – شارع – بقسم سيدي جابر (عبد القادر رجب باشا حاليًا)

اسمه الكامل «لويس تشارلز أنطوان ديزكس دي فيجو «Louis Charles Antoine Desaix de Veygoux» قائد فرنسي ولد عام ١٧٦٨م (١١٨٢هـ) بمدينة «شاتوديات Château d'Ayat» بالقرب من مدينة «ريون Rion» وصار له أثر بارز في جيش الرين الفرنسي بعد أن أحيل القائد «مورو Moreau» على التقاعد، وتولى هو القيادة ودافع عن مدينة «كييل Kehl» مدة شهرين.

واصطحبه بونابرت في حملته على القطر المصري فغزا الوجه القبلي، وقاد المعارك هناك، وانتصر فيها على مراد بك (انظر هذه المادة) بالقرب من مدينة بني سويف، وذلك في ١٦ من ديسمبر عام ١٧٩٨م (١٢١٣هـ)، ومن بني سويف واصل معاركه نحو الجنوب فوصل إلى ملوي ثم إلى منفلوط وأسيوط وسوهاج وجرجا دون أن يلتحم بجيش مراد بك، أو جيش المماليك، وكان لابد من الانتظار بعض الوقت في مدينة جرجا حتى ترد المؤن المحملة على المراكب في النيل ولاسيما الأحذية التي كان جنوده في أشد الحاجة إليها حتى يستطيعوا مواصلة الزحف إلى الجنوب، وبعد ثلاثة أسابيع وصلت المؤن والمعدات فسار بجيشه ثلاثة أيام حتى وصل إلى طيبة ومنها إلى أرمنت ثم إلى إدفو وأسوان في إثر جيش مراد بك الذي يواصل الفرار.

وفي ٢١ من فبراير عام ١٧٩٩م (١٢١٤هـ) بدأ جيش «ديزكس» في العودة على حين كان مراد بك يمعن في فراره نحو الجنوب، وفي شهر مايو عام ١٧٩٩ ظهر الإنجليز في البحر الأحمر بالقرب من ميناء القصير، فأرسل ديزكس فرقة من مدينة قنا لملاقاة الجيش الإنجليزي، ولكنها عادت سريعًا بعد وصولها بيومين.

ولما كان ديزكس يتصف به من الكرم والعدل كان المصريون يدعونه بالسلطان العادل.

وبعد عودته إلى فرنسا اشترك على الفور في موقعة «مارانجو» الشهيرة إذ زحف لإغاثة نابليون بونابرت على رأس الجيش الاحتياطي الذي كان يتولى قيادته، وفي أثناء الهجوم الذي حقق النصر لنابليون لقي ديزكس مصرعه عام ١٨٠٠م (١٢١٥هـ) بالغًا من العمر ٣٣ عامًا.

أما ترجمة صاحب الاسم الجديد للشارع فاطلبها في «عبد القادر رجب باشا».

٦٢٥- دينون - شارع - بقسم سيدي جابر (محمد صفوت حاليًا)

هو البارون «دومينيك فيفان دينون Dominique Vivant Denon» رسام فرنسي ولد بمدينة «شالون Chalon» عام ١٧٤٧م (١١٦٠هـ) ورحل مبكرًا إلى باريس حيث أحرز تقدمًا سريعًا في الأدب والفنون بفضل براعته في الرسم وحدة ذكائه وحسن معاملته للناس، وكان محبوبًا لخفة دمه وميله إلى المرح والمزاح اللطيف الذي يدخل البهجة على نفوس سامعيه، ولاسيما أنه كان جميل الطلعة، بهي الملامح، مكتمل الرجولة، شجاعًا، نبيلاً، ومن ثم كان أحد نبلاء البلاط الفرنسي في عهد لويس الخامس عشر، ثم صار ملحقًا بالسفارات الفرنسية في عهد لويس السادس عشر وعين مديرًا للفنون الجميلة في عهد نابليون بونابرت ثم مديرًا عامًّا لمتاحف فرنسا في ذلك العهد نفسه.

وكان يحسن القصص فصار قصاص لويس الخامس عشر المفضل، وبعد موت مدام «دي بويادور الشهيرة» عين سكرتيرًا في سفارة فرنسا بمدينة «سان بطرس بورج»، ثم في ستوكهولم ثم في نابولي واختير عضوًا بأكاديمية الفنون الجميلة عام ١٧٨٧م (١٢٠٢هـ) وقام بعدة رحلات في ألمانيا وإيطاليا وسويسرا وإسبانيا.

وانضم إلى جيش نابليون كأحد أعضاء البعثة العلمية في مصر فجاب أرجاءها كجندي وفنان يسجل بريشته كل ما يراه ولاسيما آثار الوجه القبلي وسط المخاطر والصعاب، وعند وفادته على مصر كان قد تخطى الخمسين من عمره، وقد بدأ رحلته من حلوان في ١٤ من مايو ١٧٩٨م (١٢١٣هـ)، وكان يسير في سرعة على ظهر حصانه يرسم كل المناظر التي يشاهدها والمعارك التي خاضها في الجيش الفرنسي، وكان يرسم على ركبتيه أو وهو على ظهر الحصان دون كلل أو ملل ثم قدم كل ما رسم في الوجهين القبلي والبحري إلى البعثة الفرنسية العلمية وقد استغرقت رسوماته عامًا كاملاً لم يجد خلاله أي منضدة واحدة يرسم عليها.

وكان يضع عن كل رسم تصوره ريشته وصفًا مفصلاً بلغة أدبية أنيقة السياق عذبة المعاني والصيغ، وقد نشر هو كل هذه المشاهدات مع شرحها المفصل في كتاب بعنوان «رحلة في

الوجهين البحري والقبلي بمصر في أثناء حروب القائد بونابرت» ووضع مع هذا الكتاب أطلسًا وصورًا كثيرة وكان صدوره خلال عام ١٨٠٢م (١٢١٧هـ)، ومن هذا الكتاب يستبين وجه مصر التاريخي والتصويري في نهاية القرن الثامن عشر، فكان مقدمة صادقة المعالم للكتاب الشامل الذي وصفته البعثة العلمية بعنوان «وصف مصر Description de l'Egypte» وهو المجلد الضخم الجدير بالترجمة إلى اللغة العربية ليعرف المصريون ما قاله عنهم أعضاء بعثة بونابرت من خير وشر وما ذكروه من حقائق وما اتخذوه من أكاذيب فيؤيدون الحقائق بما ظهر من وثائق وحجج ويفندون الأكاذيب بالأدلة التاريخية التي لم يتيسر لهؤلاء الأعضاء الاطلاع عليها أو الاقتناع بصدقها.

وفي الصور التي رسمها «دينون» أوضح وجه مصر في العصور القديمة الوثنية والمسيحية والإسلامية الحديثة، فرسم الآثار والأديرة على ضفاف النيل أو في منطقة النوبة كما رسم الأهرام وقبور الخلفاء والمساجد والأحداث اليومية في شوارع القاهرة والأعياد المختلفة والاجتماعات المنوعة والمشايخ والمعارك ومناظر الفلاحين والريف المصري والجمال والمراكب الشراعية والنيلية وقلاعها الكبيرة العالية والمماليك بملابسهم الحربية والملابس التي يرتديها عامة الأهالي وغطاء الرؤوس بأنواعه وصور القساوسة اليونانيين والأقباط والتجار، وبهذه الصور الكثيرة المنوعة قدم إلى أوروبا أكبر مجموعة من الرسومات عن مصر في القرن الثامن عشر.

ولم يكن عادلاً في وصف الإسكندرية فلم يجد في عامود السواري شهرة تستحق الذكر، ولكنه أطنب في وصف كنيسة القديس أثناثيوس التي صارت مسجدًا فيما بعد يعرف حتى الآن باسم مسجد العطارين (انظر هذه المادة، وانظر مادة بدر الجمالي) الذي جدد بناء هذا المسجد.

وفي اليوم الثاني من شهر أغسطس عام ١٧٩٨م (١٢١٣هـ) انتصر نابليون بونابرت على سلطان المماليك «مراد بك» (انظر هذه المادة)، ودخل القاهرة عقب موقعة الأهرام، وكون إثر ذلك «المعهد المصري L'Institut d'Egypte» وكان دينون أحد أعضائه، فحضر من توّه إلى القاهرة، ووصلها في ٢٢ سبتمبر من العام نفسه، وبعد أن دخل أهرام «خوفو كيوبس Cheops» (انظر مادة خوفو) طفق يجوب شوارع المدينة فرسم حي الأزبكية حيث كان بونابرت يقيم، ووضع تخطيطًا لحي مصر القديمة بالقرب من البرج الذي يحمل اسم السلطان الغوري حتى الآن، ثم تبع القائد ديزكس (انظر هذه المادة) في حملته العسكرية على الوجه القبلي (الصعيد) وحضر معه معركة بني سويف وانتصاره على مراد بك وأخذ يرسم الآثار الفرعونية على ضفتي النيل ومنها «أنتينوبوليس Antinoupolis» على الضفة اليمنى، و«هرموبوليس Hermopolis» (انظر هذه المادة) على الضفة اليسرى، ولم يغفل رسم باب هذه المدينة الأثرية الهائل ووصف آثارها العظيمة، ثم واصل رحلته مع جيش ديزكس فرسم الأديرة وصور آثار دندرة (انظر هذه المادة) وآثار طيبة (انظر هذه المادة).

كما رسم آثار إسنا (انظر هذه المادة)، ولاسيما آثار «هيراكومبوليس Heracompolis» أمام «الكاب El Kab» (انظر هذه المادة)، ثم رسم آثار مدينة إدفو (انظر هذه المادة)، وواصل رحلته إلى أسوان (انظر هذه المادة) حيث رسم الشلالات.

وفي ٢١ من فبراير عام ١٧٩٩م (١٢١٤هـ) بدأ جيش ديزكس في العودة إلى القاهرة فأخذ دينون في رسم وصف مدينة «بتوليمايس» الإغريقية القديمة (المنشية حاليًّا)، وأطلال بانوبوليس بالقرب من أخميم، ودير الأقباط فوق المنحدر هناك حيث يهبط القساوسة ويلقون بأنفسهم في النيل ليطلبوا الإحسان لديرهم من ركاب القوارب النيلية وهم يسبحون، ولم ينس «دينون» رسم معبد «كوم أمبو» ومعبد إدفو رسمًا دقيقًا يكاد يكون فوتوغرافيًّا، فبين أعمدته ورؤوسها وأوضح الصور المحفورة فوق أحجاره العالية، واستغرقت رحلة «دينون» إلى الصعيد المدة من ديسمبر عام ١٧٩٨م إلى يوليو ١٧٩٩م، وفي القاهرة أطلع رجال البعثة الفرنسية على رسوماته فضموها إلى وثائقهم لنشرها في الكتاب الشامل لرحلتهم في مصر.

وكان «بونابرت» قد عاد وقتئذ من حملته على الشام، فأمر «دينون» بأن يتبعه في معاركه عبر الدلتا وطلب منه رسم انتصاره الجديد في أبوقير (انظر مادة أبوقير)، وقد حضر «دينون» المعركة البحرية وهزيمة الأسطول الفرنسي في خليج أبو قير.

وبعد ذلك كلف نابليون لجنتين خاصتين من العلماء والفنانين لقياس جميع آثار الصعيد، ورسمها بكيفية إيجابية علمية مضبوطة، فسافرتا من القاهرة في ٢٠ أغسطس عام ١٧٩٩م (١٢١٤هـ) أي قبل عودة بونابرت إلى فرنسا بثلاثة أيام، إذ أبحر من الإسكندرية بصحبة برتوليه ودينون (انظر مادة برتوليه) في ٢٣ أغسطس عام ١٧٩٩م.

وكان الطريق إلى الوجه القبلي قد فتح بعد ذلك التاريخ بقليل، ومن ثم استطاع العلماء والفنانون الفرنسيون الذين استمروا على العمل في مصر عامين آخرين إتمام رسومات «دينون» ووصفه وإضافة ما ينقصها من معلومات وشرح.

ومن جهة أخرى ألف دينون كتابًا عن البعثة الفرنسية في مصر وزينه بالصور التي رسمها ثم ذهب مع نابليون بونابرت، وحضر معاركه بإسبانيا وألمانيا وكان يسجل خلال هذه الرحلات ثروة فنية لفرنسا دون أن يلاقي كوارث أو يجرح في هذه المعارك جميعًا ومن ثم كان سعيدًا طوال حياته.

ولعودته إلى فرنسا قبل زملائه أعضاء البعثة العلمية في مصر استطاع أن ينشر كتابه «رحلة في الوجهين البحري والقبلي بمصر» قبل كتاب البعثة الشامل «وصف مصر Description de l'Egypte» بحوالي سبع سنوات إذ ظهر الجزء الأول من كتاب البعثة عام ١٨٠٩م (١٢٢٤هـ) وظهر الجزء الأخير منه عام ١٨٢٦م (١٢٤٢هـ)، ويدل وصف دينون لمشاهداته في مصر وتدل الصور التي رسمتها ريشته خلال رحلته على أنه لم يقصر في وصف مصر في دقة تخبر عن المجهودات الصادقة التي بذلها في هذا السبيل.

ووافته المنية عام ١٨٢٥م (١٢٤١هـ)، بالغًا من العمر ٧٩ عامًا.

أما ترجمة صاحب الاسم الجديد للشارع فاطلبها في «محمد صفوت».

حرف الذال



٦٢٦- ذو الفقار - زقاق - بقسم الرمل

٦٢٧- ذو الفقار - شارع - بقسم الرمل

لعله عثمان بك ذو الفقار الذي كان حاكمًا على مصر من المماليك، واشترك في الحكم معه محمد بك قطامش، وكان حكمهما للبلاد مضطربًا ممزق الكيان كثير الانقلابات والتغيير، وقد قتل محمد قطامش بتدبير من الباشا مندوب تركيا، وكاد عثمان ذو الفقار يذهب ضحية لمؤامرة أخرى دبرها منافسوه على الحكم بعد أن قضى في هذا الحكم حوالي سبع سنوات، غير أنه استطاع الفرار من المؤامرة، وذهب إلى تركيا خلال عام ١١٥٦هـ (١٧٤٣م)، وظل هناك إلى أن وافته المنية في تاريخ مجهول، وكان لفراره أثر عميق في نفوس الناس لدرجة أنهم كانوا يؤرخون الحوادث بتاريخ هجرته إلى تركيا، فيقولون حدث ذلك الأمر بعد كذا أو كذا من السنين بعد هجرة ذي الفقار.



حرف الراء



٦٢٨- راتب باشا - شارع - بقسم المنشية

هو محمد راتب الجركسي الأصل من مماليك سعيد الأول، وقد تعلم في مصر، وكان من تلاميذ مدرسة المفروزة الحربية وسافر إلى فرنسا لإتقان الفنون الحربية، ومن المرجح أنه ذهب إليها في أواخر عام ١٨٥٤م (١٢٧١هـ) فكان أحد طلبة البعثة الأولى التي أرسلت إلى البلاد الفرنسية في عهد سعيد الأول، فأتم تعليمه هناك وعاد إلى مصر بعد عامين فقط، وألحق بالفرقة السعيدية بالجيش المصري، وحدث أن غضب عليه سعيد الأول مرة فلم يجد مخرجًا من هذه الإهانة إلا الانتحار فأطلق على نفسه الرصاص، ولكنه عولج على الفور وقدر له النجاة من الموت، وقد تركت الرصاصة أثرًا ظاهرًا في أنفه لازمه طول حياته، وكان هذا الحادث سببًا في فراره إلى الآستانة، وانخراطه مدة من الزمن في الجيش العثماني، وفي أوائل عهد الخديوي إسماعيل عاد إلى مصر، وأخذ يترقى في الرتب العسكرية بسرعة إلى أن نال رتبة اللواء عام ١٨٦٤م (١٢٨١هـ)، ثم صار سردارًا للجيش المصري عام ١٨٦٧م (١٢٨٤هـ).

وأهم أحداث تاريخ حياته في مصر حرب الحبشة التي كان خلالها قائدًا عامًّا للجيش المصري وقد نشبت هذه الحرب بين مصر والحبشة إثر واقعة «أوسا» التي باغت فيها الأحباش «منتنجر باشا» (انظر هذه المادة) حكمدار شرقي السودان فقتلوه هو وزوجته، وفتكوا بعدد كبير من الجنود المصريين وكان ذلك في أواخر عام ١٨٧٥م (١٢٩٢هـ)، ومن ثم عزم الخديوي إسماعيل على الانتقام للعدوان وأمر ابنه الأمير حسين ناظر الجهادية في ذلك الحين بإعداد حملة كبيرة لهذا الغرض، فأعدت الحملة بقيادة محمد راتب باشا وجعل «لورنج باشا الأمريكي Loring» أركان حربه، وكان الجيش خليطًا من المصريين والأمريكان، وسافر مع الحملة الدكتور محمد علي البقلي باشا (انظر مادة البقلي) بصفة رئيس مستشفيات الميدان، وكان جيش الحملة كامل العتاد ولكن النصر لم يكن حليفه فهزمه الأحباش، وقتل عدد كبير من جنوده، وقد تنصل محمد راتب باشا من هذه الهزيمة بمواجهة الخديوي إسماعيل بأنه أخذ عليه المواثيق بأن يستشير الجنرال الأمريكي «لورنج» في جميع الحركات الحربية، وأنه قام بتنفيذ ذلك فكانت النتيجة على غير ما كان منتظرًا لها، ولعل في هذه الهزيمة عبرة للعرب الذين يعتمدون على أعداء العروبة الأجانب ولا سيما في الأمور الحربية، وما موضوع جلوب باشا الذي كان قائدًا أعلى للجيش الأردني ببعيد عن أذهان العرب، فكان السبب في مصائب جمة لحقت بالأمة العربية في كيانها الحربي الدفاعي العام، وكان من نتائجها القوية تشريد الشعب الفلسطيني وقيام دولة إسرائيل الداعرة، وعلى الرغم مما حدث بقي راتب باشا سردارًا للجيش المصري، وفي ٢٨ من أغسطس عام ١٨٧٨م (١٢٩٦هـ) شكلت نظارة نوبار باشا الأولى، وكانت أول وزارة مسؤولة، وكانت مع الأسف خليطًا من المصريين والأجانب فكان مسيو دوبليير الفرنسي ناظرًا للأشغال، ومستر ريفرس ولسون الإنجليزي ناظرًا للمالية، وكان مرتب كل منهما ٦٠٠٠ جنيه سنويًّا على حين أن مرتب كل مصري في الوزارة ومن بينهم راتب باشا ونوبار باشا نفسه ٣٠٠٠ جنيه، وتولى راتب باشا نظارة الجهادية والبحرية وظل في هذا المنصب إلى ١٠ من مارس عام ١٨٧٩م (١٢٩٧هـ)، إذ شكلت وزارة أخرى برياسة الأمير محمد توفيق ولي العهد، وخلف راتب باشا في نظارة الجهادية والبحرية حسن أفلاطون باشا (انظر مادة أفلاطون).

وقد عاش محمد راتب باشا بعد ذلك طويلاً ونال من الرتب العسكرية أرفعها فوصل إلى رتبة المشير (انظر مادة المشير)، وكان شجاعًا كريم الأخلاق، ولم يصادفه الحظ في حرب الحبشة وتوفي في ٧ من مارس عام ١٩٢٠م (١٣٣٩هـ) وبما أنه لم ينجب أطفالاً فقد أوقف ثروته على زوجته على أن تؤول بعد وفاتها إلى ذرية الخديوي إسماعيل، وكان قد استقر هو زوجته بالإسكندرية، وجعلت زوجته من يحيى وكيلاً، فجمع ثروته.

هذا وبقسم المنشية نفسه شارع آخر يحمل اسم «سوق راتب باشا».

٦٢٩- راجي عز العرب - شارع - بقسم محرم بك (ابن حلكموت سابقًا)

كان راجي عز العرب رائدًا طيارًا في السلاح الجوي المصري واستشهد في حرب اليمن في ١١ من نوفمبر عام ١٩٦٢م (١٣٨٢هـ).

٦٣٠- رابعة العدوية - شارع - بقسم الرمل

هي أم الخير رابعة بنت إسماعيل، وتقول الروايات التي اكتنفت سيرتها - وهي كثيرة - إن لقب رابعة التي عرفت به يرجع إلى أنها كانت البنت الرابعة التي رزق بها أبوها إسماعيل، وإنها كانت طفلة تسير في صحبة أخت تكبرها وراء والدهما وهو في طريقه إلى السوق ليبيع بعض السلع، فضلت الطريق فأخذها رجل يمارس مهنة بيع الرقيق فتعهدها بالرباية والتثقيف إلى أن شبت عن طوقها وأصبحت شابة ذات حسن وبهاء فباعها بثمن مربح لآل عتيك، وتقول رواية أخرى إن أباها هو الذي باعها لتاجر الرقيق لحاجته الشديدة إلى المال للإنفاق منه على أسرته، ولكن الرواية الأولى هي الأصدق عند معظم الرواة.

وتذهب بعض الروايات إلى أنها أسرت، وهي بعد طفلة، ثم بيعت وقد نشأت في بيت فقير، ولما كبرت وتبادلها المشترون صارت من المغنيات الراقصات، ولكنها سرعان ما نبذت حياة العبث فأكسبها صلاحها وتقواها حريتها بعد أن عذبت على أيدي أسيادها عذابًا صعدًا لم يفقدها إيمانها بالحياة الورعة.

وأما سيرتها عند المؤرخين الثقات، فهي ولية متصوفة بصرية المولد اشتهرت بتصوفها العميق الجذور في وجدانها وأعماق نفسها، وأنها ولدت عام ٩٥هـ (٧١٣ - ٧١٤م) في بعض الروايات أو عام ٩٩هـ في بعض الروايات الأخرى، وصارت بعد ذلك مولاة لآل عتيك، وهم قبيلة من قيس ابن عدي تعرف أيضًا بالقيسية.

وقد سجل لها المؤرخون أبياتًا من الشعر الصوفي القليلة، وذكرها معظم كتاب الصوفية وأصحاب طبقات الأولياء، وبعد أن فك أسرها انصرفت إلى العبادة والزهد والانقطاع عن الدنيا وصدفت عن الزواج، وأقامت أول أمرها في البادية ثم انتقلت إلى مدينة البصرة مسقط رأسها حيث جمعت حولها عددًا كبيرًا من المريدين، والأصحاب الذين كانوا يترددون على مجالسها، وحلقات الذكر التي كانت تقيمها، والاستماع إلى أقوالها في الورع والتقوى.

وكان من بين هؤلاء المريدين: ابن دينار (انظر هذه المادة)، والمحدث سفيان الثوري، والزاهد رباح القيسي، والمتصوف

شفيق البلخي، وكان سلوك حياتها الصوفية هو العكوف على الزهد والانقطاع عن أسباب الحياة الدنيا، وروي أنها لما سئلت: لماذا لا تطلب العون من أصدقائها ومريديها قالت: «إني لأستحيي أن أسأل الدنيا ممن يملكها، فكيف أسألها ممن لا يملكها» وقالت لصديق آخر: «إن الله تعالى هو الذي يرزقني ويرزق الأغنياء أفمن يرزق الأغنياء لا يرزق الفقراء؟ فإذا كانت مشيئته فنحن من جانبنا نرضى عنها كل الرضا»، وفي هذه العبارات ما يدل على زهدها المتقشف، وصوفيتها التي جعلت منها عضوًا غير نافع للهيئة الاجتماعية التي تبغي من جميع الناس العمل المثمر دون الانقطاع إلى العبادة وحدها، وهو سلوك لا يرضى عنه الإسلام بدليل أن النبي عليه الصلاة والسلام: سأل رجلاً لا يبرح المسجد يتعبد طوال يومه، من الذي يتولى الإنفاق عليك وأنت لا تعمل؟ قال أخي! فقال النبي الكريم إن أخاك أتقى منك عند الله.

وكما هي الحال بالنسبة لكافة أولياء الله الصالحين عند الرواة، وكتاب السير المشوبة بالخرافات والأساطير نسب هؤلاء الرواة إلى رابعة العدوية الكثير من الكرامات الخارقة، فقالوا: إن الطعام كان يأتيها بوسائل معجزة في كيفيتها، فتقدمه لضيوفها ومريديها وتصيب منه كفايتها!!! فهل مما يصدقه العقل أن الله ينزل الطعام من السماء على الأولياء، وهم قعود عن السعي إلى كسب الرزق بالعمل والكد والعرق؟ وإذن فالطعام كان يأتيها من المحسنين.

وتقول رواية خرافية أخرى أن بعيرها نفق، وهي تؤدي فريضة الحج فردت له الحياة ليقوم على خدمتها!!! وهكذا جعلها الرواة تحيي الموتى، ومن ثم تأتي بالمعجزات بعد الكرامات.

ويزعم الرواة أنها لم تكن بحاجة إلى مصباح يضيء مقرها إذ كان النور يشع من حولها وهكذا صارت رابعة العدوية عند هؤلاء الأفاكين منجمًا من الفسفور المشع يبدد الظلام أينما حلت!!!.

ويذهبون إلى إحاطة احتضارها بهالة من القديسية الباهرة فيذكرون أنها قالت لأصحابها وهي على حافة الموت انهضوا واخرجوا، ودعوا الطرق مفتوحة لرسل الله تعالى، فنهضوا جميعا وخرجوا، فلما أغلقوا الباب سمعوا صوتها وهي تذكر الشهادتين فأجابها صوت: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾، وبأسطورة هذا الصوت تصير رابعة العدوية في عقولهم ممن كلمهم الوحي الإلهي على غرار الأنبياء المرسلين.

وهذا هو شأن المؤرخين الذي كتبوا سير حياة الصوفيين العرب، فلم يتورعوا عن خلط الأحداث التاريخية الواجبة الاحترام والصدق بالخرافات التي لا يقبلها العقل ولا تتفق والمنطق الصحيح، ومن ثم شوهوا تراجم هؤلاء الصالحين الذين لم يكونوا في حاجة إلى مزج سلوك حياتهم بالترهات والأحاجي.

فرابعة العدوية لم تكن إلا سيدة زاهدة تفرغت للعبادة والتقوى، ومن ثم لم تكن في حاجة إلى إحاطة سيرتها بسياج من الأباطيل السخيفة المضللة ليجعلوا منها أسطورة خرافية تعترض على الملكين «منكر ونكير»، وهي تحاسب في قبرها وتعترض على الله ذاته لسؤال هذين الملكين لها: من ربك؟ فتجيب في كبرياء قائلة لهما: «اذهبا وقولا لحضرة الله تعالى أنت تأمر بسؤالي، وأنا المرأة العجوز، بين هذا العدد من

عبيدك، أنا التي لم أعرف غيرك! أفنسيتك مرة حتى تبعث إليَّ بمنكر ونكير يسألانني؟».

أو ليس في هذه الخرافة حط من قدر الله تقترفه رابعة على لسان هؤلاء المؤرخين؟ هذا بعض ما يؤخذ على الرواة والمؤرخين الذين يعرضون لسيرة هذه الصوفية، ولأمثالها من الزهاد عبر التاريخ الإسلامي، أما عن ثقافتها فهناك إجماع على أنها كانت على قسط وافر من المعرفة التي يظهر أنها حصلت عليها خلال السنوات الطويلة التي قضتها أسيرة لدى آل عتيك، ولدى من اشتروها بعدهم من الموسرين الذين كانوا لا يُؤلون جهدًا في تعليم الجواري والقيان ليرفهن عنهم في مجالس لهوهم وأنسهم على مدار السنة، ولا سيما في المناسبات المفرحة وفي اجتماعات الشراب.

وتظهر ثقافة رابعة واضحة في دعائها الله وفي أشعارها التي تظهر بها المحبة لله والأنس به، فمن بين دعواتها دعاء اعتادت أن ترددها بالليل من فوق سقف مقرها فتقول فيه مبتهلة ضارعة: «إلهي، أنارت النجوم، ونامت العيون، وغلقت الملوك أبوابها، وخلا كل حبيب بحبيبه، وهذا مقامي بين يديك» ومن دعواتها أيضًا: «إلهي إذا كنت أعبدك خوفًا من نارك، فأحرقني بنار جهنم، وإذا كنت أعبدك طمعًا في جنتك فاحرمنيها، أما إذا كنت أعبدك من أجل محبتك فلا تحرمني من مشاهدة وجهك».

وقالت في التوبة، وهي أول مقامات الصوفية، قالت تجيب من سألها: هل إذا تبت يتوب الله علي؟ قالت له: لا بل لو تاب عليك لتبت. وفي ردها هذا دليل على رجاحة العقل، وحصافة الإدراك، وقوة المنطق، وكان رأيها في شكر الله أن يكون على رؤية المنان لا على منته، ولما طلب إليها أن تخرج في يوم من أيام الربيع لتتأمل قدرة الله في بديع الخلق قالت لخادمتها: «بل ادخلي أنت وتعالي تأملي القدرة في نفسها» ثم أضافت: «إن مهمتي أنا هي أن أتأمل القدرة».

ولما قيل لها: ما تقولين في الجنة؟ قالت: الجار ثم الدار، وقد علق الغزالي (انظر هذه المادة) على ذلك بقوله: «كل من لم يعرف الله في الدنيا فلا يراه في الآخرة، وكل من لم يجد لذة المعرفة في الدنيا فلا يجد لذة النظر في الآخرة، إذ ليس يستأنف لأحد في الآخرة ما لم يصحبه في الدنيا، ولا يحصد أحد إلا ما زرع».

ويتضح انقطاع رابعة العدوية عن الدنيا قولها لمن سألها: من أين أتيت؟ من العالم الآخر، وإلى أين تذهبين؟ إلى العالم الآخر، وماذا تفعلين في هذه الدنيا؟ أعبث بها وكيف تعبثين بها؟ آكل خيرها وأعمل للآخرة».

وإذا دلت هذه الإجابات منها على شيء فإنها تدل على القعود عن السعي في الحياة لطلب العيش بالعمل، وما من شك في أن موجه الأسئلة إليها قد أحرجها، وأظهر أن العبادة والانقطاع إليها ليس كل شيء في الحياة الصالحة المفيدة.

وقال لها أحدهم ساخرًا: إنك بارعة في الكلام، أفلا تصلحين لحراسة رباط؟ فقالت: إني حارسة رباط فعلاً، لأني لا أدع شيئًا يخرج مما في داخلي، ولا أدع شيئًا مما هو خارج، وأنا لا أحفل ممن يدخل أو يخرج فأنا مشغولة بقلبي لا مجرد الطين!!

ولما سئلت كيف بلغت هذا المقام من الولاية؟ أجابت بلغته بقولي: «اللهم أعوذ بك من كل ما يشغلني عنك، ومن كل حائل يحول بيني وبينك».

ومن الأسئلة التي طرحت عليها ومن إجابتها عنها يتضح أنه كان في زمنها من ينتقدونها لتفرغها دون القيام بأي عمل، ويرون أن التصوف الحقيقي يتركز في العمل، ثم العبادة بعد الفراغ منه، وفي أبي ذر الغفاري (انظر هذه المادة) المثل الصالح للصوفي الذي لا يهمل دنياه ليتفرغ كلية لأخراه.

وأكبر شهرتها تكمن في قولها في المحبة والأنس بالله: إن محبته هو شغل محبه الشاغل، وإن كل محب صادق يبحث عن القرب من محبوبه، ومما أنشدته في ذلك هذين البيتين:

إني جعلتكَ في الفؤادِ مُحَدِّثي
وأَبَحْتُ جسمي مَنْ أرادَ جُلوسي

فالجسمُ مِنّي للجليسِ مؤانسٌ
وحَبِيْبُ قلبي في الفؤادِ أنيسي

ولكي تثبت هذا الحب الذي شغلها عن كل شيء سواه أنها وضعت – ذات يوم – النار في إحدى يديها، والماء في اليد الأخرى، ثم قالت: سأشعل النار في الجنة وأسكب الماء على النار، حتى ينجاب الغشاء أي عن طريق السالكين إلى الله، ويتبين مقصودهم، ويشاهدون الله لا يحدوهم أمل، ولا يفزعهم خوف، أفئن لم يكن جنة ولا نار لم يعبد الله أحد، ولم يطعه أحد؟

ولما سئلت كيف حبك لرسول الله؟ قالت إني والله أحبه حبًّا شديدًا، ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوقين، وقالت في حبها لله: «إن حبي لله لم يترك في قلبي مكانًا لمحبة ما سوى الله»، وقالت عن عبادتها العاكفة لله، والباعث عليها: «ما عبدته خوفًا من ناره، ولا حبًّا لجنته، فأكون كأجير السوء، بل عبدته حبًّا له، وشوقًا إليه».

وأبياتها التي تذكر فيها الحبيْن لله مشهورة، ومازال ذكرها يتردد على ألسنة الناس، ولاسيما على ألسنة المتصوفين، فالحب الأول يبحث عن هوى الله فحسب، وأما الثاني فيبحث عن ذات الله وجلاله وذلك عندما تقول:

أحبكَ حُبَّيْنِ، حُبُّ الهَوَى
وحُبًّا لأنكَ أهْلٌ لذاكَا

فأمَّا الذي هو حُبُّ الهَوَى
فشُغلي بذكرِكَ عمَّنْ سواكَا

وأما الذي أنتَ أهلٌ لهُ
فكَشْفِكَ للحُجْبِ حتى أراكَا

فلا الحمدُ في ذا، ولا ذاكَ لي
ولكنْ لكَ الحمدُ في ذا وذاكَا

وقد يستشف القارئ من هذه الأبيات مبلغ الحرمان الذي كانت رابعة العدوية تعانيه من الحب الدنيوي، فانطوى عقلها الباطن على لواعج هذا الحرمان المضني فنفثته في حب آخر مستحيل المنال طالبة أن يكشف الله عن وجهه لها، وهو ما

لم يحدث ولن يحدث إذا ما حكمنا العقل البشري والمنطق الصحيح .

ومن ثم يستطاع القول بأن هذه العابدة العاكفة المسكينة ، قد أضاعت شبابها وهواها وشيخوختها في طلب ما لا يتحقق وما لا يفيد في شيء .

وقد علق الإمام الغزالي على هذه الأبيات الصوفية المستغرقة في الغرابة بقوله في كتابه المشهور «الإحياء»: «لعل رابعة العدوية قد أرادت بحب الهوى حب الله لإحسانه إليها ، وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة ، وبحبه لما هو له الحب لجماله وجلاله الذي انكشف لها ، وهو أعلى الحبين وأقواهما» ، وليس من السهل تفسير ما ذهب إليه الغزالي إلا إذا أسلمنا بأن الله القوي القدير خالق السماوات والأرض وما بينهما قد تنازل عن ملكوته وكشف عن وجهه السرمدي لهذه المخلوقة الضعيفة من أجل عبادتها العاكفة المستمرة ، وهذا أمر يستحيل تصديقه من أي عاقل حصيف الإدراك قوي الملاحظة ، فكيف يصدقه عالم كبير مثل الغزالي!!! .

ومن الغريب أن هذه المتصوفة كانت تنشد الوصل بالله على غرار الصوفيين جميعًا ولكن في كثير من الإصرار العنيد ، وقد أوضحت ذلك في بعض أشعارها إذ أبدت أملها في الوصول المستحيل المنال وقالت إنه غاية منيتها .

واشتطت في هذه الأمنية عندما قالت إنها انقطعت عن الوجود وانسلخت من نفسها!!! واتصلت بالله ، وأصبحت كلها له ، وفي هذا القول ما يشبه المذهب الحلولي الذي يجعل الخالق يحل في كيان المخلوق روحانيًّا .

ومن كل ما تقدم يستبين أن رابعة العدوية تختلف في تصوفها عن الصوفيين الذين تقدموها والذين كانوا مجرد زهاد ونساك أمثال أبي ذر الغفاري ، وغيره من متصوفة صدر الإسلام الذين عكفوا على عبادة الله ، وعملوا لدنياهم فكانوا أصدق من طبق الحكمة الشريفة القائلة: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا .

ومن الإنصاف أن نرى في هذه العابدة صوفية يدفعها الوجدان الصوفي القوي المتدفق ، وكانت تؤمن بأن حياتها قد اتصلت بالله عن طريق عبادته المستمرة ومن ثم كانت من أوائل الصوفيين الذين قالوا بالحب الإلهي الخالص ، الحب الذي لا يقيده رغبة سوى حب ذات الله وحده ، وكانت من أوائلهم أيضًا في الجمع بين الحب والزعم بالكشف الرباني .

ويقول ابن خلكان في كتابه «وفيات الأعيان» نقلاً عن ابن الجوزي (انظر هذه المادة) الذي ذكر ترجمته رابعة في كتابه المسمى «صفوة الصفوة» بإسناد له متصل إلى «عبدة بنت أبي شوال» التي كانت من خيرة إماء الله ، وكانت تقوم على خدمة رابعة ، ذكر ابن الجوزي أن عبدة قالت: «إن رابعة كانت تصلي الليل كله فإذا طلع الفجر هجعت في مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر ، فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها وهي فزعة «يا نفس كم تنامين وإلى كم تنامين ، يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور ، وكان هذا دأبها دهرها حتى ماتت ، ولما حضرتها الوفاة دعتني وقالت: يا عبدة لا تؤذّني بموتي أحدًا ، وكفّنيني في جبتي هذه ، وهي جبة من شعر كانت تقوم فيها إذا هدأت العيون ، فكفنتها في تلك الجبة ، وهي خمار صوف كانت تلبسه» .

وما من شك في أن قول خادمتها عبدة بنت أبي شوال ينطوي على كثير من المغالاة فيما يتعلق بقيام رابعة للصلاة طوال الليالي التي عاشتها في التصوف، إذ لو كانت تفعل ذلك حقًّا لما عمرت حتى أدركتها الشيخوخة، فالمؤرخون يجمعون على أنها ولدت بالبصرة عام ٩٥هـ (٧١٣ – ٧١٤م)، وأنها توفيت عام ١٨٥هـ (٨٠١م)، ومن هذين التاريخين يتضح أنها عمرت حوالي ٨٩ عامًا، وما كانت لتبلغ هذه السن المتقدمة في الشيخوخة لو أنها كانت تقوم الليل طوله في صلاة بين ركوع وسجود.

غير أن هذه المغالاة لا تستغرب من كتاب سير المتصوفين وأولياء الله الصالحين فهم لا يتورعون عن إسناد الكرامات بل المعجزات إليهم في غير تحفظ، ومن ثم انطوت تراجم هؤلاء المتصوفين والأولياء على الأساطير والخرافات فشوهتها وذهبت بكثير من حقائقها، فأضروا بهم من حيث أرادوا نفعهم وجنوا على التاريخ الإسلامي جناية لا تغتفر صارت حجة في أيدي أعداء الإسلام ولاسيما المستشرقين يبدونها للحط من مجد المسلمين الباذخ الذي كان ملء السمع والبصر عبر الأجيال الخالية.

وعلى حين تقول المستشرقة «مرغريت سميث Margaret Smith»: إن رابعة توفيت بالبصرة ودفنت بها، يذكر ابن خلكان أن وفاتها كانت بظاهر القدس من شرقيه على رأس جبل يسمى الطور وقبرها يزار، وقد يكون في قول ابن خلكان لبسٍ، إذ قد يكون في البصرة موضع يسمى القدس لأن معظم من تعرضوا لترجمة حياتها يذكرون أنها توفيت بالبصرة.

٦٣١- الراحة – شارع – بقسم محرم بك (كوفوت سابقًا)

الراحة مصدر لفعل «راح – يراح – رواحًا – وراحة – رياحة وروحًا – وأريحية» أي فرح وأقبل على الأمر، والراحة نقيض التعب والعناء، والراحة هي باطن اليد، يقال «تركته على أنقى من الراحة، أي تركته وهو لا يملك شيئًا، والراحة طي الثوب، يقال اطو الثوب على راحته».

والعقل «راح ويروح» يعني جاء أو ذهب في الرواح أي العشي، وعمل فيه، ويستعمل هذا الفعل الثلاثي للدلالة على مطلق الذهاب والمضي.

و«راح، يراح، راحة» للمعروف: أسرع فعله وهو فرح، وراحت يده للأمر: خفت إليه، وراح الشجر: اكتسى ورقًا بعد انقضاء الصيف.

و«أراح، إراحة»: القوم أي دخلوا في الريح، وأراحه: أدخله في الراحة، وأراح على فلان حقه أي رده عليه، وأراح الإبل: ردها إلى المراح، وأراح الماء أو اللحم أي صار نتنًا، وأراح الرجل أي تنفس ودخل في الرواح أو مات فيقال: أراح فأراح، أي مات فاستريح منه.

«واستراح، استراحة» أي وجد الراحة، واستراح إليه: أي سكن إليه، والراح من الخمر والارتياح والنشاط، والروح ما به حياة الأنفس، يذكر ويؤنث، والروح هي النفس، والروح الانفراج بين الرجلين أو السعة، والروح العشي أو من الزوال إلى الليل ويقابله الصباح، والريح: الهواء أو نسيم كل شيء.

أما ترجمة صاحب الاسم القديم للشارع فاطلبها في «كوفوت» .

٦٣٢- الرازي - شارع - بقسم محرم بك

لقب الرازي يحمله طائفة عديدة من المفكرين والعلماء الذين ينتمون بالمولد أو النسب إلى مدينة «الري» ببلاد الفرس ، وقد وقفت على بعض ما ذكره التاريخ عن سيرة كل منهم ، وفيما يلي تراجمهم:

١) محمد بن موسى بن بشير بن جنَّاد بن لقيط الكتاني الرازي: وقد نسب إلى مسقط رأسه مدينة الري ، ولا أعرف شيئًا عن تاريخ مولده ، ومراحل تعليمه قبل أن يرحل من بلاد المشرق إلى قرطبة بالأندلس في منتصف القرن الثالث الهجري أي في حوالي عام ٨٦٤م وذلك ليمارس التجارة هناك .

وقد قابلته الطوائف العلمية بمدينة قرطبة بالترحاب لما وجدوا فيه من علم غزير ، وتبحر في الثقافة العربية ، وعهد إليه الأمير محمد بن عبد الرحمن الأموي بمهام سياسية في المشرق ، وفي الأندلس نفسها في مناسبات عديدة ، وقد وثق به أيضًا ابنه وخليفته المنذر .

وتوفي محمود بن موسى الرازي في أثناء عودته من سفارة إلى البيرة كلفه بها الأمير المنذر ، وكان ذلك في شهر ربيع الثاني عام ٢٧٣هـ (٨٨٦ م) .

وما كان لنا التعرف على شيء يدل على أن محمد بن موسى الرازي ، وكان أحد مؤرخي الأندلس لولا خير ذكره محمد بن مزين ونقله عنه الكاتب الراكشي محمد الوزير الغساني في مؤلفه سفارة إلى الأندلس فقام بها خلال عام ١٦٩١م (١١٠٣هـ) وهذا المؤلف بعنوان «رحلة الوزير في افتكاك الأسير» .

ويقول ابن مزين في مؤلفه هذا أنه رئي بإحدى مكتبات أشبيلية يتحدث عن فتح المسلمين للأندلس ، ويفصل الكلام عن الفرق العربية المحاربة التي دخلت شبه الجزيرة الإسبانية مع موسى بن نصير (انظر مادة ابن نصير) ، وكانت كل فرقة منها تتميز برايتها الخاصة ، وقد وردت عبارة ابن مزين في طبعة مدريد لكتاب ابن قتيبة (انظر هذه المادة) المعروف باسم «فتح الأندلس» ومما يؤسف له أن كتاب محمد بن موسى الرازي قد فقد ، ومن ثم لا يعرف عما جاء به إلا القليل الذي تواتر على الألسن عبر السنين .

٢) أحمد بن محمد بن موسى بن بشير الكتاني الرازي: وهو ابن صاحب الترجمة السابقة ، ويلقب بالتاريخي ، وهو أقدم مؤرخي الأندلس الأكابر ، ولد بالأندلس في العاشر من ذي الحجة عام ٢٧٤هـ (٢٦ إبريل عام ٨٨٨م) ، وقد درس في قرطبة (انظر هذه المادة) على أشهر علمائها أمثال أحمد ابن خالد ، وقاسم بن أصبغ ، وكتب عدة رسائل في تاريخ الأندلس منها «تاريخ ملوك الأندلس» وكتاب في وصف قرطبة ، وقد ألفه على غرار كتاب «صفة بغداد» لأبي الفضل ابن أبي طاهر ، وكتاب «موالي الأندلس» ، ثم كتابه الضخم في أنساب عرب الأندلس وهو يعرف «بكتاب الاستيعاب» ويعتبر هذا المؤلف من الكتب الكبيرة التي اعتمد عليها ابن حزم (انظر هذه المادة) في تأليف كتابه «جهرة الأنساب» .

ومما يؤسف له أن مؤلفات أحمد بن محمد الرازي لم يبق منها شيء وكل ما يعرف عنها عبارة عن شواهد قليلة

جاءت في مؤلفات الكتاب المتأخرين، وقد عثر أخيرًا على مخطوط غير كامل لتاريخ الأندلس في القرن التاسع اشتمل على مقتطفات مطولة من مؤلفات أحمد الرازي ومؤلفات ابنه عيسى الذي ستأتي ترجمة حياته فيما بعد، وقد جمعت هذه المقتطفات وطبعت تحت عنوان «وثائق متعلقة بتاريخ إسبانيا في عهد الأمويين».

ولم ينسب معظم الكتاب الذين ترجموا لأحمد الرازي أي مصنف له في علم الجغرافيا، غير أن بعضهم ومن بينهم الضبِّي وياقوت (انظر هاتين المادتين) يشيرون إلى جغرافي أندلسي يدعى أحمد بن محمد التاريخي، وما من شك في أن هذا الجغرافي هو أحمد الرازي نفسه، وقد كتب هذا العالم مؤلفًا مطولاً في مسالك الأندلس ومراسيها وكبريات مدنها، وفرق الأجناد العربية الستة التي استقرت بالأندلس بعد الفتح العربي، وقد بقي هذا الوصف الجغرافي لبلاد الأندلس في الترجمة التي عملت له باللغة القشتالية نشرها أحد المستشرقين عام ١٨٥٠م، وقد أخذ هذا الوصف عن ترجمة برتغالية أعدها في بداية القرن الرابع عشر رجل من رجال الدين يدعى «بيريز Perez».

ويعد وصف الرازي للأندلس وثيقة كبيرة الشأن من الناحية الجغرافية والسياسية والاجتماعية على الرغم من وصوله إلينا عن طريق ترجمتين فيهما كثير من الاضطراب بالنسبة إلى ضبط أسماء الأماكن، وذلك بالنسبة للقسم الإسلامي من إسبانيا في عهد عبد الرحمن الثالث.

ويضم هذا الكتاب، من جهة أخرى، نظرات عامة في الأندلس من حيث موقعه بالنسبة إلى باقي العالم المعمور، ومناخه، ويليها وصف شاهد عيان لكل إقليم من أقاليم الأندلس الكبرى، وقد أفاد من هذا الوصف ياقوت بصفة خاصة، ولاسيما فيما دونه من إشارات عن الأندلس في كتابه معجم البلدان.

٣) **عيسى بن أحمد بن محمد بن موسى بشير الكناني الرازي:** هو ابن أحمد الرازي وحفيد محمد بن موسى الرازي، قام بإتمام كتاب أبيه عن تاريخ الأمويين حتى عهده وتوسع في الأجزاء التي تتناول تاريخ العهود المتقدمة مستعينًا في ذلك بمصادر لم تكن في متناول أبيه، ومن الغريب أن كتاب السير الأندلسيين الذي نشرت مؤلفاتهم لم يشيروا إليه، غير أن المؤرخين المتأخرين استشهدوا بأقواله في كثير من مؤلفاتهم ولاسيما ابن حيان، وابن سعيد، وابن الأبار الذي يذكر أن عيسى الرازي كتب رسالة فيها حجاب بلاط الأمويين بقرطبة، وقد عنونها باسم «كتاب الحجاب للخلفاء بالأندلس».

٤) **أبو بكر محمد زكريا الرازي:** أحد مشاهير العلماء العرب في الطب والكيمياء والفلسفة، ولد عام ٢٥٠هـ (٨٦٤م) بمدينة الري.

واطلب ترجمة حياته في «أبو بكر الرازي»، إذ له شارع باسمه بقسم العطارين.

٥) **أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازي:** كان شيخ مدينة الري والجبال، وكان عالمًا أديبًا، ويقول الشعراني في كتابه «طبقات الصوفية» إنه صحب ذا النون المصري، ومات عام ٣٣٤هـ (٩٤٥م)، وكان من أكابر الصوفيين، ويروى عنه أنه كان يقول: «للدنيا طغيان، وللعلم طغيان، فمن أراد النجاة

من العلم فعليه بالعبادة، ومن أراد النجاة من طغيان المال فعليه بالزهد».

٦) أبو عبد الله بن محمد عمر بن الحسين (الملقب بالفخر الرازي): ولد بمدينة الري عام ٥٤٤هـ (١١٤٩م)، واطلب ترجمة حياته في «الفخر الرازي»، إذ بقسم الجمرك له زقاق يحمل اسمه.

٧) الشيخ عبد الله الرازي: كان أحد تلاميذ أبي إسحاق الشيرازي، ويقول الشعراني في كتابه «طبقات الصوفية» أنه كان صوفيًا صاحب كرامات وذكر من هذه الكرامات التي يغدقها دون حساب ودون تمحيص على الصوفيين مما يفوق المعجزات في بعض الأحيان، ذكر الشعراني هذا أن الشيخ عبد الله الرازي كان يؤدي فريضة الحج فحصل قحط وعطش الناس، فقال الشيخ ذو البركات السابغات: يارب أنت تعلم أن هذا الجسم لم يعصك، فما إن أتم هذه العبارة حتى هطل المطر كأفواه القرب!!! وهذه شطحة من شطحات الشعراني التي لا حصر لها والتي أساءت للتاريخ العربي أكبر إساءة، إذ خلطت التاريخ النقي الصحيح بالأساطير التي لا يقبلها العقل.

٨) الشيخ الإمام محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي: هو واضع قاموس «مختار الصحاح» وهو مختصر في علم اللغة، جمعه من كتاب الصحاح للعالم أبي نصر ليكون موضع كتابه «مختار الصحاح» لأنه رأى أن قاموس الصحاح أحسن أصول اللغة العربية ترتيبًا وأوفرها تهذيبًا وأسهلها تناولاً، وأكثرها تداولاً وسماه «مختار الصحاح»، فاقتصر فيه على ما لابد لكل عالم فقيه أو حافظ أو محدث أو أديب من معرفته وحفظه، وذلك لكثرة استعماله وجريانه على الألسن مما هو الأهم فالأهم خصوصًا ألفاظ القرآن العزيز والأحاديث النبوية، واجتنب فيه عويص اللغة، وغريبها طلبًا للاختصار وتسهيلاً للحفظ، وضم إليه فوائد كثيرة من تهذيب الأزهري وغيره (انظر مادتي الجوهري والأزهري).

وقد جرى الرازي في وضع كتابه «مختار الصحاح» على أسلوب الجوهري في إيراد الكلم باعتبار أواخرها وهو ما لا يخلو من الصعوبة في بلوغ المراد منه.

وقد أتى على «مختار الصحاح» من تحريف النسخ والطبع ما تنكرت معه صورته، فاهتم بطبعه وضبطه حسين فخري باشا (انظر مادة فخري باشا)، ناظر المعارف ويعقوب أرتين باشا وكيلها فاستقر رأيهما على إعادة طبعه بنفقة المعارف، وعَهِداه في تصحيحه وضبطه للشيخ حمزة فتح الله (انظر هذه المادة) فقام بضبطه، ثم قررت وزارة المعارف العمومية في ٢٥ شعبان عام ١٣٢٢هـ (٣ من نوفمبر عام ١٩٠٤) طبع القاموس على نفقتها، واستعماله بالمدارس الأميرية، وفي عام ١٣٣٥هـ (١٩١٦م) قام الأستاذ أحمد بك العوامري مفتش اللغة العربية الأول بتصحيح وضبط الطبعة الرابعة من هذا القاموس المفيد، كما قام بترتيبها الأستاذ محمود خاطر.

٦٣٣- رأس العرقوب - شارع - بأبي قير

موقع في بلاد اليمن حدثت فيه إحدى المعارك التي خاضها الجيش المصري في القطر اليمني دفاعًا عن حرية الشعب هناك، وتخليصه من الاستعباد والحكم الدكتاتوري الذي كان يفرضه مما أدى إلى بقاء الشعب اليمني يعمه في

ظلمات الجهل والتخلف، وكأنه يعيش في القرون الوسطى، وليس في القرن العشرين.

٦٣٤- راشد بك - حارة - بقسم المنشية

هو راشد أباظة، ولعله ينتمي بالنسب إلى الأسرة الأباظية المعروفة بالقطر المصري، والتي استقر أجدادها بمديرية الشرقية (انظر مادة عثمان أباظة)، وقد كان راشد أباظة من بين طلاب البعثة الرابعة التي أرسلت إلى فرنسا عام ١٨٤٤م (١٢٦٠هـ) ألحق المدرسة الحربية المصرية التي أنشأها محمد علي بباريس لتعليم المصريين العلوم الحربية، وبدأ دراسته في هذه المدرسة في ١٠ يونية عام ١٨٤٥م (١٢٦١هـ)، وكان مرتبه الشهري طوال مدة دراسته ٢٩٠ قرشًا، وقد لبث يتعلم بفرنسا حتى أتم دراسته، وعاد إلى مصر، وجاء ذكر راشد بك في بعض سجلات موظفي الحكومة، وقيل بشأنه: إنه عين مديرًا لمديرية البحيرة عام ١٨٦١م (١٢٧٨هـ)، ثم عين عام ١٨٦٢م (١٢٧٩هـ) في وظيفة معاون مجلس الأحكام، ونال رتبة المتمايز عام ١٨٧٣م (١٢٩٠هـ).

ولا يعرف تاريخ ومكان وفاته.

وفي الوقت الذي وجد فيه راشد بك أباظة، كان يوجد بالجيش المصري من رجال الحرب آخرون يحملون ألقابًا مختلفة، ومنهم كمال باشا، وكان حكمدار السودان الشرفي، وراشد راقم باشا، وراشد راقب باشا من لواءات الآليات.

٦٣٥ - الراشدين - شارع - بقسم العطارين

«الراشدين» المقصود بهم الخلفاء الأربعة الذين تولوا الخلافة عقب موت النبي الكريم محمد بن عبد الله، وهم على التوالي: أبو بكر الصديق، عمر بن الخطاب، عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، وقد دونت ترجمة كل منهم في هذه الموسوعة، فاطلبها في مواد: (أبو بكر الصديق، وابن الخطاب، وعثمان بن عفان، والإمام علي).

٦٣٦- راغب باشا - شارع - بقسم كرموز

يذكر تاريخ مصر الحديث اثنين باسم راغب، أحدهما من رجال السياسة في عصر الخديوي توفيق (انظر مادة توفيق الأول)، والثاني من رجال الهندسة الذين أرسلوا في بعثات علمية إلى الخارج في عهد محمد علي، وفيما يلي ترجمة كل منهما حسب تاريخ وجوده في الحياة:

١) **محمد راغب الإستانبولي**: وقد قال عنه سرهنك باشا (انظر هذه المادة) في كتابه «من حقائق الأخبار عن دول البحار» (الجزء الثاني) أنه تعلم في المدرسة البحرية بالإسكندرية، ثم أرسل إلى إنجلترا لتعلم الصناعة الهندسية، وفن بناء السفن، وأتم علومه وعاد إلى مصر، وعين بدار الصناعة (الترسانة) بالإسكندرية رئيسًا لقسم إدارة الصناعة الهندسية وإنشاء السفن ونال رتبة البكوية عندما حل هو وحسن السعران محل (سيريزي) (انظر هذه المادة) الفرنسي الذي استخدمه محمد علي في إنشاء السفن الحربية، فارتفعت في عهد هذين المهندسين المصريين مقدرة دار الصناعة على الإنتاج عما كانت عليه، وأخرجت عددًا من السفن الحربية أعظم مما أنشئ في

عهد سيريزي واستعاضت به مصر عما فقدت من السفن الحربية في موقعة نافارين المشؤومة في جنوب اليونان .

وسافر محمد راغب مرة أخرى إلى إنجلترا – وهو موظف – على ظهر الفرقاطة «الشرقية» التي أنشئت بالإسكندرية عام ١٨٤٧م (١٢٦٤هـ) للإشراف على تصفيحها هناك ، وتركيب آلاتها البخارية ، وكان منزله الكبير على ضفة المحمودية في نهاية الشارع الذي يحمل اسمه على يمين الكوبري .

وقد ورد ذكر محمد راغب في أمر بالتركية صدر من محمد علي إلى رئيس البحرية في ١٦ جمادى الآخرة عام ١٢٥٢هـ (٢٨ سبتمبر عام ١٨٣٦م) جاء فيه ما يأتي:

يقيد محمد أفندي راغب الذي حضر من أوروبا بعد تعلمه فن إنشاء السفن بإنجلترا من تاريخ وصوله إلى الإسكندرية برتبة «البكباشي» ومرتباتها مع إعطائه نيشان هذه الرتبة ، وصرف مرتبه لدى الاستحقاق .

٢) **إسماعيل راغب باشا**: الذي ألف الوزارة برياسته بأمر صدر إليه من الخديوي توفيق وقت هروبه إلى الإسكندرية عقب الثورة العرابية الوطنية ، وقد ألفت هذه الوزارة بعد استقالة محمود سامي البارودي مباشرة ، وكان تأليفها في ٢١ يونية عام ١٨٨٢م (١٣٠٠هـ) وكان إسماعيل راغب أحد الوطنيين الأربعة الذي ألفوا الحزب الوطني (وكان يدعى جمعية حلوان) وهو راغب ، وعمر لطفي ، وشريف ، سلطان ، وكانت هذه الجمعية تجتمع سرًّا في دار سلطانها وهدفها إسقاط وزارة رياض باشا (انظر هذه المادة) في عهد الخديوي توفيق ، وانضم إليهم الضباط الأحرار ، ومن بينهم الزعيم أحمد عرابي ، وعبد العال حلمي ، وعلي فهمي .

٦٣٧– الرافعي – حارة – بقسم العطارين

أسرة الرافعي أسرة عتيدة من أسر الإسكندرية ، وهي مشهورة بمن أنجبت من علماء ومفكرين كان لهم أثر ملحوظ في الحركة الأدبية ، والدينية بالقطر المصري ، والاسم الكامل لجدها الأكبر «الرافعي الفاروق» نسبة إلى عمر الفاروق أحد الخلفاء الراشدين ، إذ إن العائلة تنتمي إليه بنسبها المستغرق في القدم ، وكان موطنها الأصيل في البلاد الحجازية ، ثم نزح أحد أجدادها إلى الشام ، واستقر هناك وخلف فرعًا من الأسرة مازال بعض أفراده يقيمون في القطر السوري ، ونزح جد آخر إلى مصر ، واستقر بمدينة الإسكندرية ، وذلك من حوالي مائة عام ، ويدعى الشيخ عبد الرحمن الرافعي الذي تولى منصب مفتي الإسكندرية حتى عام ١٩٠٣م (١٣٢١هـ) ، إذ وافته المنية في تلك السنة بالغًا من العمر ٦٥ عامًا ، وكان تعليمه تعليمًا دينيًّا حصل عند إتمامه على العالمية وله مؤلفات في الفقه كانت بمكتبة جامع الشيخ ، وفقدت أثناء الحريق الذي أصاب هذه المكتبة الثمينة من حوالي ٢٥ عامًا أي في أوائل الأربعينات من القرن العشرين الحالي ، ولم يدفن الشيخ عبد الرحمن بالإسكندرية ، لأنه توفي بالقاهرة عقب سفره إليها لأنه كان من المرشحين لمنصب مفتي الديار المصرية ، ودفن في مقابر الخفير .

وخلف الشيخ عبد الرحمن: الشيخ سالم الرافعي ، وكان من علماء الأزهر ، وكذلك الشيخين عبد الرازق وسعيد ،

وأنجب الشيخ سالم الدكتور عبد الرحمن الرافعي الطبيب المعروف بالإسكندرية، ومازال على قيد الحياة، وتربطني به صلات صداقة، ومودة حتى وقت كتابة هذه الترجمة عام ١٩٦٧، وأنجب الشيخ عبد الرازق المرحوم الشاعر الكاتب الشهير مصطفى صادق الرافعي (انظر هذه المادة).

وشقيق الشيخ عبد الرحمن هو الشيخ عبد اللطيف الرافعي الذي استقر بالإسكندرية بعد أخيه وتولى الإفتاء فيها، وهو والد المؤرخ الكبير الأستاذ عبد الرحمن الرافعي، والكاتب الصحفي الشهير المرحوم أمين الرافعي (انظر هذه المادة، ومادة عبد الرحمن الرافعي).

ويذكر المؤرخون سيرة «رافعي» آخر هو عبد القادر ابن مصطفى الرافعي، ولد عام ١٢٤٨هـ (١٨٣٢م) وتولى منصب مفتي الديار المصرية، ومشيخة السادة الحنفية، ومن مؤلفاته كتاب «التحرير المختار لرد المحتار»، وكانت وفاته خلال عام ١٣٢٣هـ (١٩٠٥م) بالغًا من العمر حوالي ٧٤ عامًا، ولم يذكر مكان وفاته، ولعله بالقاهرة.

ويذكر التاريخ أيضًا «عبد الكريم الرافعي القزويني» وكان متبحرًا في الفقه والعلوم الإسلامية، وكان زاهدًا ورعًا، وتوفي في مدينة قزوين عام ٦٢٥هـ (١٢٢٧م)، ومن مؤلفاته: «شرح مسند الشافعي»، ولم يوضح التاريخ مكان وتاريخ ميلاده، ولا مراحل تعليمه.

٦٣٨- الرأفة - حارة - بقسم مينا البصل

الرأفة مصدر فعل «رأف أو رَؤُف» أي رحم أشد رحمة فهو رؤوف، ورائف، ورأفة، واسْترأفَه: أي استعطفه أو حمله على الرأفة.

والرأْفُ هو الخمر، وتراءفوا أي تراحموا.

٦٣٩- الراكشي - شارع - بقسم المنشية

٦٤٠- الراكشي - زقاق - بقسم المنشية (تراب سابقًا)

٦٤١- الراكشي - شارع - بقسم الجمرك

٦٤٢- الراكشي - شارع - بقسم محرم بك (المستكفي سابقًا)

وتنسب هذه الشوارع الثلاثة، وكذلك الزقاق إلى جد أسرة الراكشي الأكبر، وهي أسرة عريقة النسب من الأسر المغربية التي استقرت بالإسكندرية، واتخذت منها موطنًا بعد رحيلها من المغرب الأقصى، وقد وفد عميدها الحاج محمد ابن الحاج عمر المغربي الشهير نسبه بالراكشي على مدينة الإسكندرية عام ١٠٥٨هـ (١٦٤٨م)، وزاول التجارة في السلع المغربية على غرار معظم المغاربة الذين نزحوا إلى المدينة على مر الأعوام الماضية.

وقد جاء ذكر أسرة الراكشي في الكتاب الذي أصدرته محافظة الإسكندرية عام ١٣٨٢هـ (١٩٦٢م) وذلك عند التحدث عن تاريخ الإسكندرية في إيجاز فدون بين صفحاته

ما يلي: «وكانت عناية المماليك بعد الأيوبيين بالإسكندرية مدفوعة بالتقدير لهذه المدينة التي كان لها شأن في صد الحملات الصليبية، ومدفوعة أيضًا بالطمع في غناها الوفير بحكم الازدهار التجاري في البحر الأبيض المتوسط، وكثرة ورود السفن، والتجار الفرنجة والعرب وغيرهم، وأَمَّ المدينة كثير من علماء الأندلس والمغرب وتجار المغرب الذين بقيت أسماء كثيرة تدل عليهم بين السكان كالجزايرلي، والتونسي، والراكشي والعبادي وغيرهم، ومن ثم نجد أن اسم أسرة الراكشي ذكر بين الأسر القديمة بالإسكندرية في مجال التجارة، وورث ابن الحاج محمد بن عمر الراكشي ممارسة التجارة عن أبيه، وتعين علاوة على ذلك نقيبًا للأشراف بالإسكندرية بفرمان من الدولة العثمانية جاء به: «عين الأستاذ المعظم والملاذ المفخم سلالة آل مناف نقيبًا للأشراف بمصر المحروسة وهو السيد محمد الراكشي في قائمقامية السادات الأشراف بالثغر، وعين علاوة على ذلك ساعي باشا بالثغر أيضًا (أي مديرًا للبريد)»، وفي أول شعبان عام ١١٣٢هـ (١٧١٩م) أبرم وقفية بأملاكه عرفت بوقف الحاج محمد الراكشي، ويتضح من هذه الوقفية أن اسم المراكشي اختصر إلى الراكشي منذ ذلك التاريخ، ومن جهة أخرى، أوقف عددًا من أملاكه على الخيرات للإنفاق من ريعها على مساجد عدة وشيد زاوية سيدي محمد بن يحيى الكائنة بسوق راتب باشا وتسمى زاوية الراكشي (انظر مادة راتب باشا)، وتوفي عام ١١٣٥هـ (١٧٢٢م) ودفن بهذه الزاوية، وعقب حل الأوقاف الأهلية حلّ جزءًا من أوقافه للاستمرار على الصرف من ريعها على الزاوية، وعلى الخيرات، ومن ذرية محمد الراكشي إبراهيم الذي كان يزاول التجارة وخلف عمرو ومحمد وخليل، وخلف عمر الأستاذ إبراهيم مفتش الري والدكتور أحمد الأستاذ بكلية الهندسة، والأستاذ منجي المحامي العام لشركة شيل، واللواء علي الراكشي (رئيس قسم الإدارة بالمحافظة سابقًا) سليمان الموظف السابق بالجمارك، وطاهر رئيس قسم الإدارة بالمحافظة سابقًا، والدكتور عبد الحميد المفتش بوزارة الصحة، وبدر الدين المزارع، وتزوجت كريمته المهندس محمد صبري شهيب وكيل وزارة الأوقاف سابقًا، وتزوجت كريمته الثانية الدكتور زهير الصيدلي، أما ابن إبراهيم الثالث محمد فتزوجت بناته الثلاثة من المرحوم أحمد الكلزة، والشيخ صادق البنا، ومحمد عبد العزيز الشيخ أحد أفراد أسرة الشيخ إبراهيم باشا (انظر هذه المادة).

أما ترجمة اسم الشارع والزقاق بقسم المنشية القديمين انظرهما في «تراب»، وانظر الترجمة الأخرى في «المستكفي».

٦٤٣- الرَّاوَنْدي - شارع - بقسم مينا البصل

٦٤٤- الرَّاوَنْدي - حارة - بقسم مينا البصل

هو أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي، كان من الفقهاء المبرزين في عصره وله من المصنفات والكتب نحو مائة وأربعة عشر كتابًا، منها فضيحة المعتزلة، والتاج والزمرد، والقصب، وله مقالة قيمة في علم الكلام، وكان من الفضلاء في زمانه وله مجالس ومناظرات كثيرة مع جماعة من علماء الكلام وقد انفرد ببعض النظريات العلمية نقلها أهل الكلام عنه ودونوها فيما ألفوا من كتب في هذا الباب.

وتوفي الراوندي عام ٢٤٥هـ (٨٥٩م) برحبة مالك بن طوق الثعلبي في قول بعض الرواة، أو في بغداد في قول البعض

الآخر، ويقدر مؤرخو سيرته عمره بأربعين سنة عند وفاته، ومن ثم يكون قد ولد خلال عام ٢٠٥هـ (على التقريب).

ويرجع تلقيبه بالراوندي إلى قرية «راوند» الواقعة على ناحية أصفهان بفارس، ويذكر مؤرخوه أنه كان في مبدأ الأمر على مذهب المعتزلة ثم نبذ تعاليمهم، ويقولون أنه كتب ضد الإسلام، وضد الأديان السماوية المنزلة، فإذا صح قول هؤلاء المؤرخين يكون الراوندي من الزنادقة الكافرين الملحدين، ولكن ما رواه ابن خلكان في كتابه «وفيات الأعيان» لا يدل على زندقة ابن الراوندي وكفره بل يدل على أنه كان من الفضلاء في عصره، ولعل من قالوا بزندقته، وكفره من مؤرخي المعتزلة الذين شهر الراوندي بمذهبهم في كتابة «فضيحة المعتزلة» الآنف الذكر.

٦٤٥- الرائد سامح الرفاعي - شارع - بقسم العطارين (شكور باشا سابقًا)

استشهد في معارك اليمن وكان من ضباط الجيش المصري الذي هب لنجدة الشعب اليمني عندما قام بالثورة ضد الحكم الاستبدادي الذي جعل منه شعبًا متخلفًا يدلج في ظلمات الجهل والفقر كأنه من شعوب القرون الوسطى.

أما ترجمة صاحب الاسم القديم للشارع فاطلبها في «شكور باشا»

٦٤٦- الرائد مهندس منير بادير - شارع - بقسم محرم بك (جعفر سابقًا)

ولد الشهيد الرائد مهندس منير بادير في ٣ من شهر نوفمبر عام ١٩٤٢م (١٣٦١هـ) شارع جعفر الذي يحمل اسمه الآن ويقع مقاطعًا لشارعي زين العابدين والرصافة (نبيل الوقاد حاليًّا) بقسم محرم بك، وهو أحد ثمانية إخوة عكف والدهم بادير بشارة على تربيتهم مواطنين صالحين فألحقهم جميعًا بالجامعة وصار أصغرهم ضابطًا مهندسًا بالجيش الاحتياطي، وبدأ والده حياته العلمية في المحاماة ثم اشتغل بالتدريس الثانوي بمعهد الليسيه بالإسكندرية، ولم يبخل على تعليم أولاده بمال.

والتحق الشهيد منير بكلية الهندسة بجامعة الإسكندرية، بعد أن أتم دراسته الابتدائية بمدرسة الرصافة والإعدادية والثانوية بمدرسة محرم بك، وتخرج يحمل بكالوريوس الهندسة في قسم الكهرباء شعبة الفيزياء عام ١٩٦٥م (١٣٨٥هـ) وكلف في السنة نفسها بالعمل بمؤسسة الطاقة الذرية فظل بها عامًا كاملاً.

وفي ذلك الحين أعلنت الكلية الفنية العسكرية عن حاجاتها لمهندسين يعملون بالقوات المسلحة فبادر منير إلى التقدم إلى هذه الكلية، والتحق بها ثم عين بمطار بني سويف للإشراف على صيانة العقول الإلكترونية في فرقته لتخصصه في هذا الفن.

وفي أول إبريل عام ١٩٧٠م (١٣٩٠هـ) لبى نداء الواجب بروح عالية راضية وفي ٥ من شهر يونية عام ١٩٧٠م، كان يؤدي عمله الهندسي الفني في ورشته خلف خط النار، وكان أحد الأجهزة الإلكترونية قد تعطل في إحدى غارات العدو الإسرائيلي الغاشمة ففضل أن يتوجه إلى خط النار بنفسه لإصلاح الجهاز في قلب المعركة ليؤدي عمله الفني ويشترك مع الأجهزة الأخرى في ضرب طائرات العدو، ولم ينتظر الشهيد منير انتهاء الغارة ليقوم بإصلاح الجهاز، وهكذا خاطر

بحياته في سبيل الوطن دون تردد أو وجل، وما هي إلا دقائق حتى أصيب في مقتل، وفاضت روحه الطاهرة إلى عالم الأبدية راضية بما أدت من واجب مقدس نبيل.

وعقب استشهاده في ميدان الشرف منحته الدولة وسام نجمة الشرف تقديرًا لما قام به من تضحية باسلة وشجاعة وإقدام طوال مدة وجوده بجبهة القتال في القناة، وكان عمره وقت استشهاده ٢٧ عامًا وثمانية أشهر، وكان قد تزوج ولكنه لم يعش ليحتفل بعيد زواجه الأول من مهندسة زاملته في الدراسة.

وكان الفقيد موضع احترام جميع زملائه في كلية الهندسة طوال مدة الدراسة فانتخبوه عضوًا بلجنة العشرين بالاتحاد الاشتراكي العربي، وكان له نشاط ثقافي واجتماعي ملحوظ فكان عضوًا في أسرة تحرير جريدة ومجلة المهندس اللتين يصدرهما اتحاد طلاب كلية الهندسة، علاوة على نشاطه المرموق في كافة أوجه النشاط الاجتماعي والرحلات وإقامة المعسكرات.

وكان رحمه الله من هواة الشعر وكتابة الأبحاث فظهر له مقالات كثيرة وعدة قصائد وطنية تفيض حبًّا وحنانًا لمصر ولفلسطين السليبة، وتمنيات صادقة بأن يسترد العرب حقوقهم وأن يحرروا أراضيهم المحتلة من الأعداء الصهاينة.

٦٤٧- ربيعة - حارة - بقسم الرمل

اسم ربيعة يطلق على واحدة من أشهر وأكبر قبائل العرب، كما يطلق على ثلاثة من مفكري العرب في الجاهلية والإسلام، وفيما يلي ترجمة القبيلة تليها ترجمة المفكرين الثلاثة وفاقًا لتاريخ وجودهم في الحياة:

١) **ربيعة**: أعظم القبيلتين العربيتين في الزمن القديم، وكانت هي وقبيلة مضر أوسع القبائل العربية سلطانًا وقوة، وهما من الجمرات في شمال بلاد العرب، ومازال المثل يضرب بعددها الكبير فيقال في كثرة أفرادها: أكثر عددًا من ربيعة مضر.

واسم ربيعة شائع جدًّا بين القبائل، وثمة قبائل تحمل هذه الاسم من قبيلة مضر نفسها، ولها شأن أكبر من غيرها وهي: ربيعة بن عامر بن صعصعة التي تنتمي إلى قبائل كعب وكلاب وكليب، وربيعة بن عبدالله بن كعب، وربيعة بن كلاب، وربيعة بن الأضبط، وربيعة بن مالك بن جعفر، وربيعة بن عقيل، وربيعة بن جعدة، وهناك ثلاثة فروع من عبد شمس تسمى ربيعة. ومن القبائل اليمنية الكبرى: ربيعة بن الخيار، وربيعة بن جرول، وربيعة بن الحارث بن كعب.

أما ربيعة الكبرى أو الوسطى أو الصغرى فاسم يطلق على ثلاثة بطون من تميم وهي: ربيعة بن مالك بن زيد مناة، وتعرف أيضًا باسم «ربيعة الجوع»، وربيعة بن حنظلة بن مالك ابن زيد مناة، وربيعة بن مالك بن حنظلة.

وجمع هذه القبائل يسمى الربائع، أما اسم مُضر فعلى خلاف ربيعة يكاد لا يذكر في غير ذلك من المواضع.

ويقول علماء الأنساب إن الجد المشترك لمعظم القبائل في شمال جزيرة العرب هو نزار بن مُعَدّ بن عدنان، وقد أعقب نزار من زوجه «سودة» بنت عك بن عدنان ولديه: مضر، وإياد، ومن زوجته «جدالة» بنت علان، ومن عشيرة جرهم البائدة ولديه: ربيعة، وأنمار، ويزيد القضاعي عليهما قضاعة.

وتقول بعض الروايات إن نزار قسم ميراثه بين ولديه، وتلقب مضر منذ ذلك الحين «بربيعة الحمراء»، وربيعة «بربيعة الفرس»، ويقول برواية أخرى أن ربيعة دفن إلى جانب نزار، أما مضر الذي نزل مكة فقد دفن في الروحاء على مسيرة يومين من المدينة، ويقال أن قبره غدا مزارًا يحج إليه الناس.

وقد قسمت جزيرة العرب بين ربيعة ومضر، فخصَّ ربيعة سفوح تلال غمر ذي كندة والجزء الأوسط من ذات عرق، وما يليه من النجد حتى الغور الذي في تهامة، وخصَّ مُضر تخوم الأرض المقدسة حتى السروات، وكان من نصيبها أيضًا البقعة التي على هذا الجانب من الغور وما يليه.

وانشعبت عشائر ربيعة المختلفة بسبب الحروب فشقوا طريقهم إلى الأمام وبلغ معظم أرض الجزيرة حيث احتلوا الجهة التي حملت أسماءهم فيما بعد، وهي ديار ربيعة وديار بكر.

وظلت قبائل ربيعة ومضر خاضعة لليمن إلى أن أطاح الأحباش بمملكة حمير، واستطاع بنو ربيعة ومضر أن يرفعوا عن كاهلهم نير اليمن عدة مرات عندما كانوا يدينون بالطاعة لأمير منهم، وقد سجل التاريخ أخبار أيام من هذه الحروب وهي أيام: البيداء والسلان وخزاز، وكانت الغلبة فيها لقبائل معد.

وبقيت ربيعة ومضر مدة من الزمن تابعتين لمملكة كندة التي كان حكامها يحملون لقب ملوك معد (أو مُضَر وربيعة) واعترفت القبيلتان شأنهما في ذلك شأن بكر وتغلب بإمارة الحارث بن عمرو المقصور الكندي الذي قادهم إلى النصر في حروبهم مع الملوك الغسانيين واللخميين، غير أنه فقد الأراضي التي فتحها فيما بعد، وعقب موته دالت مملكة ذي نواس على يد الأحباش، وأصبح الكنديون لا يدينون بالولاء لليمن، وعندئذ نشبت حرب البسوس بين بكر وتغلب وهي الحرب التي اشتهرت في التاريخ وكان بطلها كليب وأخوه المهلهل (الزير سالم) وانتهت هذه الحرب لصالح تغلب فولت ربيعة وجهها شطر المنذر الثالث ملك الحيرة الذي بسط سلطانه على ربيعة ومضر وغيرهما من قبائل جزيرة العرب الوسطى.

ولم تخمد نار العداوة بين تغلب وبكر ووقفت كل منهما في طرف يوم ذي قار، ثم كانت غلبة بكر التي عدت نصرًا كبيرًا على الفرس سببًا في تحرير قبائل جزيرة العرب الوسطى في النير الأجنبي، ومهدت الطريق لظهور الإسلام.

وكان الدين المسيحي منتشرًا في قبائل ربيعة في أيام الرسول عليه السلام، أما مضر فبقيت متمسكة بشعائرها الوثنية القديمة، وكان الشهر المفضل عند ربيعة في ذلك الحين هو شهر رمضان، وعند مضر شهر رجب.

ويذكر الدمشقي في كتابه «نخبة الدهر» أن أقباط مصر سلالة من قبائل ربيعة أو تغلب الذين هاجروا إلى مصر طلبًا للقوت، ولكن هذا الرأي لا تؤيده المراجع التاريخية الموثوق في صحتها.

وفي عام ٩هـ (٦٣٠م) وهو عام الوفود دخلت إلى الإسلام عدة عشائر كبرى من ربيعة ومضر منها: تميم، وثقيف، وعبد قيس، وبكر بن وائل، ويرد ذكر قبائل ربيعة ومضر منذ ذلك الحين بوصف كونهما من الكتائب ذات الشأن العظيم في الجيوش الإسلامية الفاتحة.

وليس من اليسير تتبع تاريخ ربيعة ومضر بعد ذلك لأن هذين الاسمين لا يعرف بهما إلا عشائر قليلة والأغلب هو أن اسم ربيعة يقصد به بكر وتغلب فحسب أو واحدة منهما فقط، ونجد في بعض الأحيان جميع قبائل ربيعة داخلة في قبائل مضر، ومن ثم صار امتزاجهما، ثم اندثارهما في الأزمنة الحديثة.

٢) **ربيعة بن محاسن التميمي**: كان من حكام قبائل تميم في الجاهلية، وكان إليه المرجع في عصره، إذ كان عالم قومه يعرف أنساب القبائل العربية حق المعرفة ويقدّر مراتبهم حسب هذه الأنساب، ويقول التاريخ إنه كان من أفصح الخطباء في زمنه، كما كان على قدر كبير من الشجاعة والإقدام، كريمًا مضيافًا ومشهورًا بين العرب بهذه الضيافة الكريمة.

٣) **أبو عثمان ربيعة بن أبي عبد الرحمن فرُّوخ (المعروف بربيعة الرأي)**: كان فقيه أهل المدينة، وقد أدرك جماعة من الصحابة وقد أخذ عنه مالك بن أنس (انظر الإمام مالك)، وتقول الروايات أن أباه عبد الرحمن فرُّوخ خرج في البعوث إلى خراسان أيام بني أميَّة، وكان ربيعة مايزال في بطن أمه، وترك عند زوجته أم ربيعة ثلاثين ألف دينار، وبعد غياب دام سبعة وعشرين عامًا عاد إلى المدينة يمتطي فرسه وفي يده رمح، ثم نزل ودفع باب منزله برمحه فخرج إليه ابنه ربيعة وقال: يا عدو الله أتهجم على منزلي؟؟ فقال فرُّوخ: يا عدو الله أنت الذي دخلت على حرمي، ثم تواثبا حتى اجتمع الجيران، فبلغ مالك بن أنس الخبر فجاء هو والجيران لإعانة ربيعة، وكثر الضجيج وسأل مالك فروخ قائلاً أيها الشيخ اطلب دارًا غير هذه الدار، فصاح فرُّوخ: إنها داري، وأنا فرُّوخ فسمعت زوجته كلامه فخرجت وقالت هذا زوجي، وهذا ابني الذي خلفه، وأنا حامل به فتعانقا وبكى كل منهما فرحًا، ولما سأل فروخ زوجته عن المال قالت: إني دفنته للتحفظ عليه، ثم حثته على الصلاة في المسجد النبوي، فلما دخله، وجد حلقة تضم جمعًا كبيرًا من الناس، ووجد ابنه ربيعة يلقي عليهم أحد دروسه في الفقه والحديث فحمد الله، وقال لقد رفع الله من قدر ولدي، وعندما عاد إلى منزله وأخبر زوجته بما شاهد وأنبأها بأنه لم ير أحدًا من أهل العلم والفقه قد بلغ من الرفعة ما بلغه ولدها، فقالت أيهما أحب إليك ثلاثون ألف دينار أو هذه الذي هو عليه، فقال لا والله بل هذا، فقالت لقد أنفقت المال كله على تعليمه، فقال والله ما ضيعته.

وكان سوار بن عبد الله يقول ما رأيت أحدًا أعلم من ربيعة الرأي ولما سئل: حتى ولا الحسن وابن سيرين قال: ولا الحسن وابن سيرين، وكان ربيعة من أسخى أهل المدينة جودًا وكرمًا على أصدقائه، وعلى كل من كان يطلب صلته حتى ذهب ماله، وقال مالك بن أنس بعد وفاة ربيعة الرأي: ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة الرأي.

وكانت وفاته عام ١٣٦هـ (٧٥٣م).

٤) **ربيعة المعافري الإسكندري**: كان من أجلاء رواة الحديث، وقد روى عنه فضالة بن عبيد وعن غيره، وروى عنه الليث بن سعد (انظر مادة ابن سعد)، ويقول رواة سيرته: إنه كان رجلاً صالحًا تقيًّا من خيرة أهل مصر، وتوفي عام ١٢١هـ (٧٣٨م).

٦٤٨- الرجاء - حارة - بقسم مينا البصل

الرجاء مصدر فعل «رجا، يرجو، رجاءً، ورجْوًا ورجاوة، ورجاءةً» ضد يئس، ورجا الشيء: أمل به، أو جافه، ورجا الرجل: أمَّل فيه.

ورجي، رجًا: انقطع عن الكلام، ورجى عليه: أي انقطع عن الكلام، وأرجى الأمر أخره، والرجا - والرجاء: الناحية، وجمعها أرجاء، والرجاء: الحبل الكاذب، والرجية، كل ما يرجى فيقال: «ليس لي في فلان رجية» أي ليس لي فيه ما أرجوه.

٦٤٩- الرحمة - شارع - بقسم مينا البصل

٦٥٠- الرحمة - شارع - بقسم كرموز

الرحمة من فعل «رَحِم» يرحم، رحمةً ومرحمةً، ورُحْمًا، ورُحُمًا: أي رقَّ له وشفق عليه، وتعطف وغفر له، ورحمت، ورحمت المرأة، رُحمًا، ورَحَمًا، ورحامة أي شكت رَحِمَها بعد الولادة فهي رَحومٌ، ورحماءُ، رَحَّم، وترحَّم عليه: قال « رحمه الله»، وتراحم القوم: رحم بعضهم بعضًا، واسترحمه: أي استعطفه.

والرحمة، والرحم، مؤنثة: مستودع الجنين في أحشاء الحبلى، وهو أيضًا القرابة يقال: «ذو الرحم» أي ذو القرابة، وجمعه أرحام.

والرحمة، والرُحمى، والرُحْمُ: رقة القلب، وانعطاف يقتضي المغفرة والإحسان، والرحموت: الرحمة العظيمة، والراحم والرحوم: هو من يرحم، والرحيم: الراحم والمرحوم كناية عن المتوفى عند المولّدين.

وقد اشتد القتال بين عمرو بن العاص والبيزنطيين (الروم) عند باب السدرة عقب فتح الإسكندرية عام ٢١هـ (٦٤١م) فقتل منهم الكثير، ثم أمر عمرو برفع السيف وأسس هذا المكان أسماه مسجد الرحمة، ويقع مكانه الآن مسجد العمري (انظر مادة العمري)، وكان أكبر مما هو عليه الآن إذ جدده الشيخ إبراهيم باشا (انظر هذه المادة).

٦٥١- رحمي بك - شارع - بقسم العطارين

كان رحمي بك ضابطًا بحريًّا قدم إلى مصر في عهد الخديوي سعيد الأول، وهو من أصل ألباني وعمل بالبحرية المصرية المدنية بوظيفة ربان (قومندان) بخطوط الشركة الخديوية التي تكونت فيما بعد وقام بسفريات عديدة إلى تركيا واليونان والقرم بالبحر الأسود، ونقل الحجاج بالبحر الأحمر، والرحلات التجارية إلى السودان، وكان حازمًا في إدارته قوي الشكيمة، وملاحًا من الدرجة الأولى.

وبعد بلوغه الخامسة والستين من العمل أحيل على المعاش، وكان قد تزوج بفتاة من أسرة الطرابزويلي القوقازية، وأنجب ولدًا وبنتين، أما الولد فحصل على بكالوريوس الطب واسمه الدكتور شريف رحمي، وقد درس الطب بفرنسا، ثم أنشأ عيادة بحي محرم بك بجهة الباب الحديد، وكان مشهورًا بحبه للخير، ومعالجة الفقراء من جميع الأديان بالمجان، وكان له صيدلية ملحقة بالعيادة تصرف الدواء للفقراء دون مقابلة مالية.

وبعد أن أحيل رحمي بك على المعاش اعتزل الحياة العامة، وسافر إلى الحجاز حيث عاش زهاء ست سنوات مجاورًا بالحرم المكي الشريف يدرس العلوم الدينية وهناك دفن، وكانت وفاته في أثناء العقد الثاني من القرن العشرين الحالي.

وتزوجت ابنتاه في تركيا، إحداهما من قبطان في البحرية التركية يدعى صقر قبطان، والأخرى من الجنرال رؤوف راغب بك أحد كبار ورجال السلك السياسي التركي وضباط الجيش السابقين، وبوفاة ولده الدكتور شريف رحمي الذي لم يتزوج وإقامة أختيه في تركيا انقطعت صلة أسرة رحمي بك بمصر.

٦٥٢- رستم بك العلايلي - شارع - بقسم العطارين

هو أحمد رستم شريف علي زادة الملقب بالعلايلي نسبة إلى بلدة علاتية بتركيا التي نزحت منها أسرته إلى الإسكندرية، وهي أسرة شريفة النسب تنتمي إلى «الشريف علي» الذي تحمل الأسرة اسمه، ولقب «زادة» لقب تركي معناه آل ومارس رسم بك تجارة الأخشاب على غرار والده، وكان يستورد أنواع الأخشاب من تركيا إلى الإسكندرية، وكانت مراكبه الخاصة تنقل هذه الأخشاب إلى مستودعاته بجهة الورديان، ويلاحظ أن تجارة الأخشاب كانت وقفًا على الأتراك في ذلك الحين، أي في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وذلك قبل انتقالها إلى أيدي اللبنانيين أمثال أسعد باسيلي وكرم وغيرهم، وكان رستم العلايلي من كبار تجار الإسكندرية، وانتخب عضوًا في مجلسها البلدي (القومسيون)، واختير عضوًا عنها في الجمعية العمومية، وهي الهيئة النيابية على المستوى القومي في ذلك الوقت، وتوفي رستم بك العلايلي عام ١٣١٥هـ (١٨٩٧م)، ومن ذريته محمود نظمي العلايلي، وكيل مصلحة الأملاك السابق، والمهندس مصطفى لطفي العلايلي وأحمد رستم العلايلي أحد أحفاده، والدكتور توفيق نظمي العلايلي نجل حفيده، وتزوجت كريمته الأستاذ المرحوم أحمد مرسي بدر(انظر مادة مرسي بدر) والد الدكتور جمال مرسي بدر المعار مستشارًا بالقضاء الأعلى بالجمهورية الجزائرية.

وكانت تجارة الأخشاب لها باب خاص من أبواب الدائرة الجمركية هو الباب رقم ١٤ الذي يطلق عليه الآن باب الكراستة (انظر هذه المادة)، والكراستة كلمة تركية تعني الخشب بأنواعه، وكانت جميع وارداته من الخارج يفرج عنها بعد دفع الرسوم الجمركية المستحقة عليها من هذا الباب، وكان كثير من شوادر الخشب بالقرب من هذه الجهة ومازالت أبنيتها القديمة قائمة، وتستخدم كمخازن لشتى السلع في الوقت الحاضر.

٦٥٣- الرشاد - شارع - بقسم العطارين

الرشاد مصدر فعل «رَشَدَ» أي اهتدى واستقام، ورشد أمره: أي رشد فيه ورشَّده، وأرشده إلى كذا، وعليه وله أي هداه، واسترشد لأمره: اهتدى له، واسترشده: طلب منه الرشد، والرشد ضد الغي وهو الاستقامة على طريق الحق، والرشيد هو ذو الرشد أي الهادي والمهتدي.

والرشاد أيضًا: نبات حرِّيف الطعم مقرَّض الورق، والرشاد الصخرة أو الحجر بملء الكف وجمعها رشادٌ،

والمراشدُ: مقاصد الطريق، وما استقام منها، وليس لها واحد فهي جمع كمحاسن وملامح، وبلغ سن الرشد أي بلغ السن التي تسمح له أن يتولى أمره بنفسه دون وصي أو قيم.

٦٥٤- الرشاقة - حارة - بقسم كرموز

الرشاقة من فعل رشق «فيقال رشق الغلام أي حسن قده، وصار لطيفًا، أو خف في عمله فهو رشيق، وجمعه رشق، وراشقه: سايره، أو رشق كل منهما صاحبه، وتراشق القوم أي تناضلوا، ورشق كل منهم صاحبه ويقال: تراشقوا بألسنتهم، وتراشقوا بأعينهم، وترشق في الأمر أي احتد، وأرشق النظر إليه أي أحدَّه، وأرشق القوم ببصره: أي طمح ببصره فنظرهم، وأرشقت الظبية: أي مدَّت عنقها وأحدَّت النظر، وأرشق الرامي أي رمى سهمه إلى المكان الموجه له، فيقال «أرشقني مقصدي» أي باراني في المسير إليه، ويقال: «ما أرشق هذا القوس» أي ما أخفها وأسرع سهمها، والرشق: القوس السريع السهم جمعها الرشق، والرَشْقَ صوت القلم تقول: «سمعت رَشْقَ قلمه»، والأرشق: المنتصب يقال «جيد أرشق»، والرشيق: الخفيف اللطيف، والرشيق من اللفظ أو الخط: هو الظريف.

٦٥٥- رشوان حسن (الدكتور) - شارع - بقسم الرمل (حسن فؤاد سابقًا)

اطلب ترجمته في «الدكتور رشوان حسن».

٦٥٦- الرشيدي - شارع - بقسم الرمل

هو أحمد الرشيدي المغربي الذي جاور بالأزهر، وأخذ عن الكثير من شيوخه في الفقه والحديث والعلوم الدينية، ثم صار شيخ الشافعية بمدينة رشيد، وله كتاب «الحاشية» على شرح المناهج للرملي، وتوفي بمدينة رشيد عام ١٠٦٩هـ (١٦٨٤م).

٦٥٧- الرشيدي بك - شارع - بقسم محرم بك

هو السيد أحمد حسن الرشيدي كان من طلبة الأزهر، ثم ألحق بمدرسة الطب التي أنشأها محمد علي عام ١٨٢٦م (١٢٤٢هـ) بأبي زعبل، وكان كلوت بك (انظر هذه المادة) أول ناظر لها، وبعد أن أتم الرشيدي علومه بهذه المدرسة عين مصححًا بمطبعتها لتفوقه في اللغة العربية، ثم وقع عليه الاختيار ليكون بين أعضاء البعثة التي أرسلت إلى فرنسا لتعلم الطب فبدأ دراسته في شهر نوفمبر عام ١٨٣٢م (١٢٤٨هـ) وكان مرتبه الشهري طوال فترة البعثة خمسة جنيهات، وعقب إتمامه دراسته العالية عاد إلى مصر عام ١٨٣٨م (١٢٥٤هـ) وعين في مدرسة الطب لتدريس العلوم الطبيعية فأظهر نبوغًا ممتازًا بين أساتذتها المصريين والإفرنج جميعًا، وتخرج على يديه كثيرون من الأطباء، وظل يمارس التدريس إلى أن ألغيت مدرسة الطب في عهد سعيد الأول، ولما أعيدت بعد ذلك لم يقبل العودة إليها واستمر على علاج الأهالي في عيادته الخاصة غير أنه رجع إلى مدرسة الطب في عهد الخديوي إسماعيل، ومارس التدريس بها إلى أن أدركته المنية عام ١٨٦٥م (١٢٨٢هـ)، وقد ألف الرشيدي بك ثمانية كتب قيمة في العلوم الطبية هي: الدراسة الأولية في الجغرافيا الطبيعية، بهجة الرؤساء في أمراض النساء، نزهة الإقبال في مداواة الأطفال، الروضة البهية في مداواة الأمراض الجلدية (في مجلدين)، نخبة الأماثل في علاج تشوهات المفاصل (وهو ذيل للكتاب الروضة البهية)، عمدة المحتاج في علمي الأدوية والعلاج (في

أربعة مجلدات كبيرة)، وطبع عام ١٨٦٦م (١٢٨٣هـ)، ترجمة رسالة تطعيم الجدري لكلوت بك، ضياء النيرين في مداواة العينين (معرب)، دائرة معارف للعلوم الطبيعية، وهي آخر مؤلفات الدكتور الرشيدي وقد وضع الدكتور حسين عودة الدمشقي فهرسًا أبجديًّا للمواد التي دونت بها، وكل هذه الكتب المفيدة تم طبعها في الفترة الواقعة بين عامي ١٨٣٦ – ١٨٦٧م (١٢٥٢ – ١٢٨٥هـ).

وما من شك في أن لقب الرشيدي دلالة على أسرة الدكتور أحمد الرشيدي تنتسب في الأصل إلى مدينة رشيد.

٦٥٨– الرفَّاء – حارة – بقسم مينا البصل

هو أبو الحسن السري ابن أحمد السري الكندي الرفاء الموصلي، وقد عرف بالرفاء لأنه كان وهو صبي يرفو الملابس ويطرز في دكان بالموصل، وهو مع ذلك يولع بالأدب، وينظم الشعر، ويختلط بالشعراء وأهل الأدب، حتى عالج نظم الشعر الجيد وذاع أمره بين الشعراء، وصار من شعراء الموصل المشهورين، ثم قصد بلاط سيف الدولة الحمداني (انظر مادة سيف الدولة) بحلب ومدحه بعدة قصائد من شعره. وظل مقيمًا بحلب إلى أن مات سيف الدولة عام ٣٥٣هـ (٩٦٤م) فرحل إلى بغداد ومدح الوزير المهلبي (انظر مادة المهلبي وغيره من كبار رجال الدولة فراج شعره في جميع الأوساط)، وكان بينه وبين الشاعرين الموصليين المشهورين أبي بكر محمد بن هاشم وأخيه أبي عثمان سعيد عداوة، فزعم أنهما سرقا شعره وشعر غيره.

وكان السري الرفاء مغرمًا بنسخ ديوان أبي الفتح كشاجم الذي كان في ذلك الحين أشعر أهل العراق، وكان الرفاء ينسج على منواله، ويسير في شعره على أسلوبه، فأخذ يدس فيما كتب من ديوان كشاجم أحسن ما نظم الشاعران أبو بكر محمد بن هاشم وأخوه عثمان سعيد وأخذ في ذلك مادة تشنيع عليهما، ومصداقًا لقوله في سرقتهما، وكان من نتيجة ذلك الدسّ المضلل، وقوع زيادات في بعض النسخ عن ديوان كشاجم ليست في الأصول المشهورة من ديوانه.

وأصاب الرفاء من قصائد مديحه الرزق الوفير، وأصبح من المتكسبين بالشعر في المشرق يعيش من مدائحه، فأيسر بعد أن كان فقيرًا معدمًا، وهو في الموصل، ولما رجع إلى بغداد صار شعره مسير الأمثال في الشام والعراق وفي إيران فبز غيره من شعراء عصره.

وترجع خصائص شعره إلى مخالطته، في أول أمره، بعامة الناس في الأسواق والمحال العامة وعندما صار من الشعراء المجيدين المشهورين خالط الخاصة فجمع في وجدانه بين الفكاهة الحلوة وخفة الروح، وحسن الأدب، ورقة التعبير، وسعة الخيال.

وقد كان منذ صباه الغض دقيق الإدراك، قوي الملاحظة فلما عالج نظم الشعر جاء شعره معبرًا عن رقة الخاطر، وسلامة الأسلوب، وجزالة المعنى، وكان يستمد كل ذلك مما يحيط به وما يراه في المجالس والاجتماعات ومعاشرة مختلف طوائف الناس.

غير أنه لم يأت في شعره بجديد يدل على أصالة الرأي، ومتانة التفكير، وسعة الاطلاع، أو الركون إلى الفلسفة كما نلاحظ في شعر الشريف الرضي (انظر هذه المادة) لأنه لم يتلق العلم عن أحد ولم يعن بالاطلاع على غير الشعر الذي كان

ينظمه عن هواية جامحة في نفسه، وميل بطبعه إلى جمال القول، أو إدراك فطري لأسرار بلاغة الكلام، فلما قرأ الشعر البليغ، وعمر وجدانه بجرسه وعذوبته شرع في محاكاة كبار الشعراء ومجاراتهم في أساليبهم حتى امتاز عن غيره من شعراء عصره.

ويقول ابن خلكان في كتابه «وفيات الأعيان»: إنه لم يكن له رواء ولا منظر ولا يحسن من العلوم غير قول الشعر، ولقد نظم قصيدة أوضح في بيتين منها صناعته قبل نظم الشعر إذ يقول:

وكانتْ الإبرةُ فيما مضى
صائنةً وجهي وأشعاري

فأصبح الرزقُ بها ضيِّقًا
كأنَّهُ من ثُقبِها جاري

وقد طرق الرفاء أكثر أنواع القريض، ومختلف ألوانه فنظم الشعر في المديح والهجاء والوصف والملح والدعابات وامتلأت كلها برقيق المعاني، والواضح أن معظم شعره يكتنفه الرقة، وهذا يميزه عن سواه كما يمتاز قريضه بالموضوعات التي كانت تحيط به في معاشرة الناس، وكان لا يكثر من الموضوعات الخيالية، أو الرمزية، ويرجع ذلك إلى ضيق نطاق تعلمه.

وأسلوبه الشعري سلس مشوق لا يشوبه التكلف أو التصنع، بيد أنه كان يلجأ في بعض الأحيان إلى الصنعة ولكنها صنعة خفيفة تدعو إلى الإعجاب.

ومن قوله في الغزل الرقيق:

بنفسي مَنْ أجودُ له بنفسي
ويبخلُ بالتحيةِ والسلامِ

وحتفي كامنٌ في مُقْلتيْهِ
كمُون الموتِ في حدِّ الحُسامِ

ويقول في المدح الذي يجعل نعمة الممدوح عليه ظلاًّ من الرغد وارفًا:

ألبسْتَني نِعَمًا رأيتُ بها الدُجَى
صُبْحًا وكنتُ أرى الصباحَ بَهيمَا

وغدوْتُ يحسدُني الصديقُ وقبلها
قد كانَ يلقاني العدوُّ رحيمَا

وقال يهجو ويتهكم على شاعر قيل: إنه كان جزارًا بالمدينة وسرق منه شعره:

أرى الجزَّارَ هيَّجني وولَّى
فكاشَفَني وأسرعَ في انكشافي

ورقَّع شِعْرَهُ بعيونِ شعري
فشاب الشُهْدَ بالسُّمِ الزُّعافِ

لقد شقِيَتْ بمدْيتكَ الأضاحي
كما شَقِيَتْ بغارتكَ القوافي

وقال في الوصف العذب الجرس الحلو السياق:

لو رحَّبَتْ كأسٌ بذي زَوْرَة
لرحَّبَتْ بالوردِ إذ زارها

جاء فخلناهُ خُدودًا بَدَتْ
مُضْرِمةً من خجلٍ نارَها

وعطَّرَ الدنيا فطابَتْ به
لا عَدِمَتْ دُنياهُ عطَّارَها

وللسري الرفاء ديوان شعر يضم أجود ما نظم من قصائد وله كتاب بعنوان «المحب والمحبوب والمشموم والمشروب» وكتاب آخر أسماه «الديرة».

وكانت وفاته عام ٣٦٢هـ (٩٧٢م) على أرجح الروايات، ودفن بمدينة بغداد.

٦٥٩- الرفاعي - حارة - بقسم العطارين

هو أحمد بن محيي الدين بن العباس، وتقول رواية أخرى أنه أحمد بن علي أبو العباس، وهو صاحب الطريقة الرفاعية التي كان لها أتباع كثيرون ولا سيما في العراق ومصر، ويذكر بعض الكتاب أنه ولد بجزيرة أم عبيدة بالقرب من واصل بالعراق ومصر، ويذكر البعض الآخر أنه ولد في قرية حسن إحدى قرى ناحية البصرة، وقرية أم عبيدة وقرية حسن تقعان في إقليم البطائح، ومن ثم يلقب الرفاعي بالبطائحي، وهناك خلاف في تاريخ مولده فمن قائل: إنه ولد في شهر المحرم عام ٥٠٠هـ (سبتمبر عام ١١٠٦م) ومن قائل: إنه ولد في رجب عام ٥١٢هـ (أكتوبر - نوفمبر عام ١١١٨م).

وتفسر كلمة الرفاعي عادة بأنها إشارة إلى أحد أسلافه يدعى رفاعة، غير أن البعض يرون أن هذه الاسم علم على قبيلة من القبائل، ويقال: إن هذه السلف هو «رفاعة» هاجر من مكة إلى إشبيلية بالأندلس عام ٣١٨هـ (٩٢٩م)، ومن إشبيلية نزح جد أحمد الرفاعي إلى البصرة عام ٤٥٠هـ (١٠٨٥م) ومن هنا لقبه الآخر (المغربي).

وقد وردت تفصيلات عن الرفاعي في كتاب تاريخ الإسلام للذهبي (انظر هذه المادة)، وقد أخذت هذه التفصيلات من مجموعة مناقبه التي وضعها محيي الدين أحمد بن سليمان الحمامي ولقنها أحد تلاميذه عام ٦٨٠هـ (١٢٨١م).

وتدل سيرته على أن جده الذي نزح من الأندلس هو يحيى حفيد رفاعة الذي يقال: إن نسبه يذهب إلى العلويين، وإنه هاجر هربًا من اضطهاد العباسيين للعلويين في المشرق. وقد أدى جده يحيى فريضة الحج قبل أن يستقر بالبصرة ويتزوج وينجب ذرية منها أحمد الرفاعي.

وجاء في بعض الروايات أن أحمد ولد بعد وفاة أبيه في حين أن معظم الروايات تجعل وفاة أبيه في بغداد عام ٥١٩هـ (١١٢٥م) عندما كان الرفاعي في السابعة من عمره، ثم كفله عندئذ خاله منصور البطائحي، وكان يقيم عند نهر دقلا من أرباض البصرة، ويذكر منصور البطائحي على أنه شيخ طائفة دينية يطلق عليها أحمد نفسه اسم الرفاعية.

وبعد أن حفظ أحمد القرآن، وهو مايزال صغيرًا أرسله خاله منصور إلى واسط ليتفقه على أبي الفضل علي الواسطي (انظر مادة الواسطي)، من شيوخ الشافعية، وعلى خال الواسطي أبو بكر الواسطي، وظل الرفاعي يطلب العلم حتى

السابعة والعشرين من عمره، ثم نال إجازته على أبي الفضل الواسطي، ونال خرقة الولاية من خاله منصور البطائحي الذي طلب إليه أن يستقر في أم عبيدة، وكان فيها على ما يظهر مال لأسرة أمه، وبها دفن يحيى البخاري الأنصاري والد أمه، وفي عام ٥٤٠هـ (١١٤٥م) توفي منصور تاركًا مشيخة الطائفة إلى أحمد الرفاعي حارمًا منها ولده.

وكان الرفاعي كثير التردد على الإمام الخرنوبي ويقيم عنده فترة زمنية في كل عام يتتلمذ فيها على يديه، وينهل من علمه وورعه واستمر يواصل هذه الزيارة السنوية حتى وفاة الخرنوبي.

ولم يشغل الرفاعي عن كسب قوته بعرق جبينه ذلك التردد الذي كان يقوم به على أئمة الصوفية، فقد زاول كل الحرف حتى لا يكون عالة على الغير، وكان يقول بالنسبة إلى مبادئ طريقته: لا ينضم إلى صفوفنا عاطل، وقد عبر عن هذه الطريقة بقوله: «طريقي دين لا دعة، وهمة بلا كسل، وعمل بلا رياء، وقلب بلا شغل، ونفس بلا شهرة».

ولم يذكر كتاب سيرته أن نشاطه تعدى قرية أم عبيدة، والقرى المجاورة لها التي لم تكن أسماؤها معروفة للجغرافيين، بل إن أم عبيدة ذاتها لم يذكرها ياقوت، وإن كانت قد ذكرت في نسخة من كتاب «مراصد الاطلاع»، ويذكر بعض الرواة أنه تولى التدريس في المسجد الكبير بالبصرة، ولكن هذا لا يقوم دليلاً على صدق ما أداه أبو الهدى من أن جمهرة مريديه كانت هائلة، وأنه كان يجتمع بهم في عدد كثير من العمائر الضخمة الفاخرة البناء، وذكر أحد ذرية ابن الجوزي عن ابن الجوزي نفسه أن شيخًا من شيوخ الرفاعية أخبره أنه شاهد نحو مائة ألف شخص مع الرفاعي في ليلة من ليالي شعبان!!.

ويؤكد المغالاة في هذا القول أن ابن الجوزي ولد عام ٥٨١هـ (١١٨٥م) أي بعد ثلاث سنوات من وفاة الرفاعي بقرية أم عبيدة في ٢٢ جمادى الأولى عام ٥٧٨هـ (٢٣ سبتمبر عام ١١٨٣م).

ولم يذكر مريدوه أنه ألف أية رسالة، غير أن أبا الهدى يذكر له المؤلفات الآتية: ديوان من القصائد الطويلة، ومجموعة من الأدعية والأحزاب، وعدد كبير من أقوال شتى تطول أحيانًا حتى تبلغ المواعظ، وعدد كبير من الرسائل.

ولقد ذكر في هذه المؤلفات أن الرفاعي قال: إنه من سلالة علي بن أبي طالب، وفاطمة الزهراء وإنه نائب عن النبي الكريم في الأرض، وهذا لا يتفق مع ما جاء في سيرة حياته من أنه كان متواضعًا يركن إلى الزهد، ويلوذ بالورع، والتقوى.

ويؤكد صاحب كتاب «شذرات الذهب» أن الأعمال العجيبة التي تنسب إلى الرفاعية، كجلوسهم في الأفران المتأججة، وركوبهم الأسود، وأكلهم الحيات وهي حية، لم تكن معروفة عند منشئ هذه الطريقة الصوفية، وأنها استحدثت بعد الغزو المغولي للعراق.

ومبادئ طريقته التي كان ينادي بها، والتي دونت قبل وسلوك حياته البسيطة التي قضاها في مزاولة الأعمال والحرف الشاقة لكسب قوته تؤكد أقوال صاحب كتاب «شذرات الذهب» وتبتعد بالطريقة الرفاعية عن الأعمال التي تنسب الآن لأتباع الرفاعي من كرامة نداء الثعابين فتأتي إليهم خاضعة، ومن اختراق أجسادهم بمواد صلبة دون إحداث جروح وإراقة دماء، وهي أعمال تشبه تلك التي يأتي بها معتنقو عقيدة «الأهنسا» الهندية.

وما من شك في أن ما ذكره ابن خلكان من أن لأتباع الرفاعي أحوالاً عجيبة من أكل الحيات وهي حية، والنزول في التنانير وهي تضطرم بالنار فيطفئونها، وما من شك في أن قوله هذا ينطوي بعضه على المغالاة، ويدل البعض الآخر على أن هذه الأعمال استحدثت بعد وفاة الرفاعي بوقت غير قصير ونسبت إليه ظلمًا.

ويعلق فريد وجدي على ذلك بقوله: «أما ما يروى عن أتباع الرفاعي من أكل النار، والجلوس عليها وغير ذلك فيظهر أنه صحيح، وهو حين يدخل الإنسان في حالة غير اعتيادية سواء أكانت بالذكر أو بالتنويم المغناطيسي فإن ذلك يحدث، على أننا إذا رجعنا إلى الديانات الهندية القديمة نجد أن ديانة الجينية التي تجعل الجسد في خدمة الروح، وما يفسر بعض ما يأتيه الرفاعية من أعمال غريبة.

وإذا سلمنا جدلاً بأن بعض الديانات الهندية تؤدي بمعتنقيها إلى استطاعة الإتيان بمثل هذه الأعمال العنيفة فإنه من غير المقبول القول بأن التنويم المغناطيسي يؤدي إلى هذه النتائج أيضًا، لأن هذا التنويم لم يثبت صحته علميًّا حتى الآن.

وهناك روايات متناقضة عن علاقة أحمد الرفاعي بعبد القادر الجيلاني (انظر مادة سيدي عبد القادر الكيلاني) الذي كان من معاصريه فقد جاء في كتاب «بهجة الأبرار» رواية عن اثنين من أبناء أخت الرفاعي، وعن شخص زاره في قرية أم عبيدة عام ٥٧٦هـ (١١٨١م) أن عبد القادر لما أذاع وهو في بغداد أن قدمه على عنق كل ولي، قال الرفاعي وهو في أم عبيدة: «وعلى عنقي كذلك»، ومن ثم فإن البعض يجعلونه تلميذًا لعبد القادر.

ومن جهة أخرى فإن الرفاعي قد ذكر أسماء أسلافه في الثبت الذي ألقاه في مجلسه عام ٥٧٨هـ (١١٨٣م)، ومن بينهم خاله منصور البطائحي، ولم يذكر عبد القادر الجيلاني، وهذا يرجح الاعتقاد بأن كل واحد من هذين الشيخين كان له مجال من النشاط الصوفي مستقل عن الآخر.

وجاء في كتاب «النفحة المسكية» لعز الدين الفاروثي تفاصيل عن أسرة الرفاعي ليتبين منها أن أولى زوجاته كانت خديجة ابنة أخي منصور، ثم تزوج بعد وفاتها نفيسة ابنة محمد ابن القاسمية، وقد أنجب الرفاعي كثيرًا من الأبناء. ثلاثة أبناء توفوا قبل وفاته، وخلفه على مشيخة الطريقة الرفاعية علي بن عثمان أحد أبناء أخته.

وليست الأعمال الغريبة التي يأتيها أتباع الرفاعية تحير أبناء الجيل الحاضر، فأكل الثعابين والحيات حية يتقنه رجال فرق الصاعقة وفرق الفدائيين في معظم جيوش الدول ذات الدفاع القوي، ونداء الثعابين واستجابتها للرفاعية أمر يزاوله الكثير جدًّا من فقراء الهند فيجعلون ثعابين «الكوبرا» الشريرة ترقص على أنغام مزاميرهم، ويرى الناس في كافة بقاع الأرض أولائك العباد في عدة بلاد آسيوية يمشون على النار الموقدة عدة أمتار دون أن يبدو عليهم التألم، وذلك على شاشة التليفزيون، ويرى الناس في معظم بلدان العالم أولئك المتسولين الذين يلعبون بالنار، ويدخلون جذوتها في أفواههم ويلفظون النفط «البترول» الملتهب فيخرج خرطومًا ناريًّا، وأولئك المتسولين الذين يلقون بأجسامهم على المسامير ويأكلون الزجاج المجروش بل والمسامير والقطع الحديدية، وليس في كل ذلك كرامات أو معجزات وإنما هي محض تمرينات على هذه الأعمال فتصبح سهلة.

حرف الزاي



٦٦٠ – زاوية الأعرج – شارع – بقسم الجمرك

تُنسَب هذه الزاوية – التي لا تضم ضريحًا – إلى رجل صالح من العبَّاد الورعين اسمه الشيخ برهان الدين الأعرج، عاش بالإسكندرية في القرن الثامن الهجري، وقد جاء ذكره في رحلة ابن بطوطة (انظر هذه المادة) بأن الشيخ الأعرج شجَّعه على التوغل خلال رحلته في الشرق الأقصى، ليزور الهند والصين، وذلك عندما زار ابن بطوطة الإسكندرية، وأقام في ضيافة الشيخ ثلاثة أيام.

وقال ابن بطوطة في هذا الصدد عند التحدث عن العلماء الذين قابلهم بالإسكندرية قال: «ومنهم (أي من هؤلاء العلماء) الإمام العالم الزاهد الورع الخاشع برهان الدين الأعرج، من كبار الزهاد وأفراد العبَّاد، لقيته أيام مقامي بالإسكندرية، وأقمت في ضيافته ثلاثًا».

«دخلت عليه يومًا فقال لي: أراك تحب السياحة والجولات في البلاد «قلت» نعم إني أحب ذلك، ولم يكن حينئذ خطر بخاطري التوغل في البلاد القاصية من الهند والصين، فقال: «لابد لك إن شاء الله من زيارة أخي فريد الدين بالهند، وأخي ركن الدين زكريا بالسند، وأخي رهان الدين بالصين، فإذا بلغتهم فأبلغهم مني السلام»، فعجبت من قوله، وألقي في روعي التوجه إلى تلك البلاد، ولم أزل أجول حتي لقيت الثلاثة الذين ذكرهم، وأبلغتهم سلامه، ولما ودعته زودني دراهم لم تزل عندي محوطة، ولم أحتج بعد إلى إنفاقها إلى أن سلبها مني كفار الهند فيما سلبوه لي في البحر».

وبما أن ابن بطوطة قد حل بالإسكندرية في أول جمادى الأولى عام ٧٢٦هـ (١٣٢٥م)، فتكون مقابلته بالشيخ برهان الدين الأعرج قد حدثت في أحد أيام هذا الشهر من تلك السنة، وليس في رحلة ابن بطوطة ما يدل على معرفة تاريخ الشيخ الأعرج المفصَّل، ومن ثم ليس من المستطاع تحديد تاريخ ميلاده، وتاريخ وفاته، ومعرفة الأعمال العلمية، والاجتماعية التي مارسها، أو قام بها طوال حياته بالإسكندرية، ولا سيما أن الزاوية التي تنسب إليه بشارع الميدان (محمود فهمي النقراشي حاليًّا) لا تضم ضريحًا يوضح بعض ملامح تاريخ هذا الشيخ الورع الزاهد.

والذي يستطاع استنتاجه من قول ابن بطوطة هو أن الشيخ برهان كان مُسِنًّا وقت حلول الرحالة المغربي بالإسكندرية وأنه لابد قد سافر إلى الهند والسند والصين في شبابه أو في كهولته وأنه استقر أخيرًا بالإسكندرية إذا لم يكن من أهلها أصلاً، ومن مواليدها، وأن عمره وقت التقائه بابن بطوطة لا يقل عن خمسين عامًا، ومن ثم يمكن افتراض أنه من مواليد عام ٦٧٥هـ (١٢٧٦م)، على أقل تقدير.

٦٦١– زاوية حسن القمَّاح – حارة – بقسم مينا البصل

منشئ هذه الزاوية الذي أطلق اسمه على الحارة التي نحن بصددها هو حسن علي القماح، وقد ولد عام ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م) وكان يزاول في حياته الاتجار في الحبوب وأخصها القمح ومن ثم اشتق لقبه «القماح»، وكان منزله بهذه الحارة التي شيد بها الزاوية وجعلها ملاصقة لمنزله وتتصل به عن طريق قنطرة ليستطيع تأدية فرائض الصلاة بعبور القنطرة إلى الزاوية دون أن يتجشم أي عناء، وقد شيد الزاوية خلال عام ١٣١١هـ (١٨٩٣م)، وتوفي عام ١٣١٥هـ (١٨٩٧م)،

وخلف ثلاثة ذكور هم محمد وسليمان وحافظ القماح وثلاث بنات، كان من ذرية إحداهن الأستاذ مصطفى الليك الشاعر والكاتب الأديب، ومن كبار رجال التعليم سابقًا.

٦٦٢- زاوية عبد الغني - حارة - بقسم الجمرك

صاحب الزاوية هو الشيخ عبد الغني علي الشهير بناصر الدين، وقد تولى الإفتاء بالإسكندرية على المذهب المالكي، وكان مولده في حوالي عام ١٠٣٤هـ (١٦٢٤م)، وأصل أسرته من مسلمي الأندلس الذين هاجروا من بلادهم بعد سقوط دول الطوائف وأقاموا بعض الوقت في شمال إفريقيا العربي ثم رحل بعض أفرادهم إلى الإسكندرية.

وفي عام ١١٠٤هـ (١٦٩٢م) أوقف أملاكه على ذريته وخصص جزءًا منها للصرف على شؤون الزاوية الكائنة بتلك الحارة بالقرب من سوق السمك القديم، وكان بالحارة نفسها منزله الذي كان يضم حديقة بها ساقية لري أرض الحديقة وكانت تزرع بالخضروات، ومن وظيفة المفتي التي كان يشغلها حتى وفاته يتضح أن ثقافته كانت دينية فقهية وعلى أساس هذه الثقافة شب أولاده وأحفاده ومنهم الشيخ محمد عبد الغني والشيخ علي عبد الغني والشيخ خليل عبد الغني وكلهم علماء، ومن أحفاد الشيخ خليل خرج جيل زاول تجارة الأقمشة ومن بينهم والد السيد أحمد أنور عبد الغني علي أحد موظفي شركة المياه بالإسكندرية.

وتوفي الشيخ عبد الغني علي الشهير بناصر الدين صاحب الزاوية عام ١١١٢هـ (١٧٠١م) عن ٧٨ سنة هجرية.

٦٦٣- زاوية النقلي - حارة - بقسم مينا البصل

يقع هذا المسجد في حي كفر عشري الشعبي ويحفه من الغرب شارع الرحماني، ومن الشمال شارع الشيخ إبراهيم أبو قرطام (أزوالد فني سابقًا) المطل على ترعة المحمودية ومن الشرق شارع النقلي بقسم مينا البصل.

ومُشيِّد هذا المسجد هو الشيخ إبراهيم بن الحاج مصطفى علي بن الشيخ محمد القاضي السنهوري الذي ينتمي في الأصل إلى بلدة سنهور، وقد اشتهر الحاج مصطفى علي بالنقلي لأنه كان يزاول الاتجار في الفواكه الجافة «اليميش».

وكان الشيخ إبراهيم مشيد هذا المسجد من العلماء، ومارس التدريس بجامع الشيخ إبراهيم باشا في نهاية شارع الميدان وهو الجامع الذي كان معهدًا دينيًّا كبيرًا ينافس الجامع الأزهر وتخرج منه عدد كبير من علماء الإسكندرية وغيرها.

وكان مسجد النقلي يدعى في الماضي باسم «زاوية حبيب» فهدمه الشيخ إبراهيم النقلي وأقام مكانه المسجد الحالي، وقد كتب في أعلى بابيه الشرقي والغربي هذه الآية القرآنية الكريمة بالخط الثلث: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وكتب تحت هذه الآية: «أنشأ هذا المسجد الشيخ إبراهيم مصطفى النقلي سنة ١٣٥١هـ أي عام ١٩٣٢م».

وهذا المسجد عجيب التكوين فهو من طابقين مخصصين للصلاة وألحقت بجهته الجنوبية مدرسة صغيرة لتحفيظ القرآن

للأطفال وغيرهم وتعليم القراءة والكتابة والحساب وبعض مبادئ مواد التعليم الأخرى وتراقبها وزارة التربية والتعليم .

ومَنْ ينظر إلى المسجد من الجهة الغربية يراه شاهق العلو فيظن أنه سامق السقف ولكن عندما يدخل من بابه الكبير الخشبي المحلى بالأضلاع الزخرفية البسيطة يجد مُصلاّة قِبْلتها على اليمين وسقفها قائم على أربعة أعمدة من البناء وعمودين رفيعين على يمين ويسار المحراب الذي كتب بأعلاه الآية الشريفة: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ ﴾ ، وفي مواجهة باب الدخول باب آخر مثله يُفْضِي إلى الشارع الشرقي ، وعلى يمين الداخل المَيْضأة ، ومدخل يؤدي إلى دورة المياه وهي نحو الجهة الشرقية ، وبعد الميضأة في الجهة الغربية من المسجد سُلَّم تحته باب يؤدي إلى ممر ثم إلى حجرة كبيرة للإمام وخدمة المسجد ، والسلم من الموزيكو وبعد ١١ درجة منه ينحني نحو يسار الطالع مرتين في ١٣ درجة وينتهي عند صحن المسجد العلوي الفسيح يقوم إيوانه الأوسط على ثمانية أعمدة من البناء في صفين ، وفي وسط الإيوان قبة مستديرة حوافها مزخرفة ولها ١٢ نافذة كبيرة للضوء والتهوية وتتدلى من القبة ثريا من الحديد المطروق كبيرة الدائرة ، يزينها حليات على هيئة أوراق الزهر من الحديد وهي مثمنة الشكل ، ويأتي بعد الإيوان رواق في الجهة الجنوبية وبه القبلة الرئيسية تعلوها الآية الكريمة: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ ﴾ ، وبجانبها المنبر من الخشب الثمين على الطراز العربي (الأرابيسك) .

أما الرواق الشمالي المواجه للقبلة فتعلوه شرفة (صندرة للسيدات) تستوعب ثلث مساحة صحن المسجد يصعد إليها بسلم وفي جانبها الغربي سلم المئذنة المثمنة الشكل ذات الطبقة الواحدة من الحديد المشبك فوقها عمود ينتهي بكرة يخرج منها الهلال النحاسي .

وللمسجد ١٦ نافذة كبيرة على الطراز العربي و٢٣ كوَّة (طاقة) مستديرة من الزجاج ، وتجعل هذه النوافذ وهذه الكوات المسجد غامرًا بالنور في النهار كثير التهوية في الصيف .

وولد الشيخ إبراهيم النقلي هو الحاج مصطفى علي النقلي بن الشيخ محمد القاضي السنهوري ويظهر من هذا اللقب أن أصل الأسرة من سنهور ، وقد ولد الحاج مصطفى النقلي بالإسكندرية عام ١٨٠١م (١٢١٦هـ) ووافته المنية عام ١٨٨١م (١٢٩٩هـ) بالغًا من العمر حوالي ٨٠ عامًا وكان من علماء الأزهر قبل مزاولته الاتجار في الفواكه الجافة .

وأنجب الحاج مصطفى ولدين هما: الشيخ درويش وكان من أهل العلم ، والشيخ إبراهيم مشيد المسجد الآنف الذكر وكان هذا المسجد زاوية صغيرة قبل تجديد بنائه ، وقد تولى الشيخ درويش والشيخ إبراهيم التدريس بجامع الشيخ ، ومن ذرية الشيخ إبراهيم: الحاج ياقوت النقلي الذي شيد من ماله الخاص مسجدين بضاحية أبي قير أحدهما بشارع يسمى شارع مسجد النقلي والآخر بشارع التصنيع ، وكان تشييد المسجدين خلال عامي ١٣٧٢هـ (١٩٥٢م) وعام ١٣٧٥هـ (١٩٥٥م) .

٦٦٤- الزبيدي - حارة - بقسم الرمل

٦٦٥- الزبيدي - شارع - بقسم العطارين

يحمل لقب الزبيدي اثنان من مفكري العرب الذين جاء ذكرهم في كتب التاريخ بسبب ما كانوا عليه من علم وما

قدموه من إنتاج ثقافي مفيد، وفيما يلي ترجمة كل منهما وفاقًا لتاريخ وجوده في قيد الحياة:

١) أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد الله الإشبيلي الزبيدي: أصله من مدينة حِمْص بالشام، وقد ولد عام ٣١٠هـ (٩٢٢م) وأخذ علم اللغة والأدب على يد أبي علي القالي البغدادي، وسمع عندما وفد على الأندلس من قاسم بن أصبغ وسعيد بن قحلون وأحمد بن سعيد بن حزم، وكان أوحد عصره في علم النحو وحفظ اللغة، وكان أعرف أهل زمانه بقواعد الإعراب وأعلمهم بالمعاني والنوادر وعلم السير والأخبار، وقد فاق أهل زمانه بالأندلس في كل هذه المعارف، وتدل الكتب التي ألفها على علمه الغزير واتساع أفق مداركه، ومن هذه الكتب المفيدة كتاب «الاستدراكات» على سيبويه، وكتاب «طبقات النحويين واللغويين بالمشرق والأندلس» من عهد أبي الأسود الدؤلي (انظر مادة أبي الأسود، ومادة سيبويه) إلى عهد شيخه أبي عبد الله النحوي الرياحي، وكتاب «لحن العادة» وكتاب «الواضح في العربية» وهو كتاب ذو فائدة جليلة، وكتاب «الأبنية في النحو» وهو كتاب عظيم النفع.

وقد ولي القضاء في مدينة إشبيلية واختاره المستنصر بالله صاحب الأندلس مؤدبًا لولده وولي عهده هشام المؤيد بالله فأحسن تأديبه وعلمه كل ما ينفعه في حياته الثقافية، وقد نال الزبيدي من المستنصر بالله مالاً كثيرًا وجاهًا عريضًا وجعله رئيسًا لخطة الشرطة، فحصلت له نعمة ضخمة تمتع بها أبناؤه من بعده.

وإلى جانب علمه الواسع الأفق بالنحو واللغة كان الزبيدي شاعرًا غزير الإنتاج فقد كتب إلى أبي مسلم بن فهد يقول:

أبا مسلمٍ إن الفتى بجنانه
ومَقولِهِ لا بالمراكب واللِّبسِ

وليس ثيابُ المرءِ تغني قلامةً
إذا كان مقصورًا على قِصَر النفسِ

وليس يُفيدُ العلمَ والحلمَ والحجا
أبا مُسلمٍ طول القعود على الكرسي

وكان ذات يوم صحبة المستنصر بالله وترك جاريته بأشبيلية فاشتاق إليها ولما لم يأذن له المستنصر بالعودة إليها كتب إليها يقول:

ويْحَكَ يا سلمُ لا تراعي
لابُدَّ للبين من زِماعِ

لا تحسبيني صَبرْتُ إلا
كصبر مَيْتٍ على النزاعِ

ما خَلَقَ الله من عذابٍ
أشدَّ من وقفةِ الوداعِ

ما بينها والفراق فَرْقٌ
لولا المناجاة والنواعي

إن يفترقْ شملُنا وشيكًا
من بعدما كان ذا اجتماعِ

فكلٌّ شملٍ إلى فراقٍ
وكلٌّ شعبٍ إلى انصداعِ

وكلَّ قُربٍ إلى بِعادٍ
وكلٌّ وَصْلٍ إلى انقطاعِ

ومن قوله في الحكم وكان يردده كثيرًا:

الفقرُ في أوطاننا غربةٌ
والمالُ في الغربة أوطانُ

والأرضُ شيءٌ كلها واحدٌ
والناسُ إخوانٌ وجيرانُ

وكانت وفاته في مستهل شهر جمادى الآخرة عام ٣٧٩هـ (٩٨٩م) في إشبيلية بالغًا من العمر حوالي ٦٨ عامًا.

٢) محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق (الشهير بالمرتضى الحسيني الزبيدي): ولد عام ١١٤٥هـ (١٧٣٢م) ونشأ باليمن، وترجع نسبته «الزبيدي» إلى مدينة زبيد بمقاطعة تهامة باليمن على الطريق الممتد من الشمال إلى الجنوب من مكة إلى عدن في منتصف المسافة بين مرتفعات اليمن والبحر الأحمر على مسيرة ١٦ ميلاً من الشاطئ.

وقد رحل الزبيدي إلى مصر في طلب العلم عام ١١٦٧هـ (١٧٥٣م) أي عندما بلغ الثانية والعشرين من عمره، ويقول مؤرخو سيرته أنه زاول الزراعة عند مجيئه إلى مصر فكان غيطانيًّا بالقباري فحصل من زراعته على مكاسب مجزية فبنى منها زاوية بالقرب من عطفة النبراوي، وبما أن بقسم الجمرك حارة باسم «النبراوي» تعزى إلى يوسف باشا النبراوي (انظر مادة النبراوي) الذي تولى رياسة المحاكم المختلطة بالإسكندرية وهو ابن إبراهيم بك النبراوي الطبيب المشهور (انظر هذه المادة) فإن الزبيدي يكون قد استقر بالإسكندرية بعض الوقت قبل رحيله إلى القاهرة فمارس الزراعة بجهة القباري وسكن بالقرب من حارة النبراوي بقسم الجمرك وهو الجد الأكبر لعائلة النبراوي. وكان المرتضى الزبيدي عالمًا متفننًا واسع الثقافة، وقد شوَّقه للرحيل إلى مصر الشيخ عبد الرحمن العيدروسي بما وصف له من علمائها وأدبائها وأمرائها وما فيها من بديع المشاهد، فلما استقر بها حسنت حالة وتردد الأمراء والعظماء على داره وحضروا مجالس دروسه وأتحفوه بالهدايا وكاتبه الملوك من الترك والهنود واليمنيين والعراقيين والمغاربة والسودانيين والسوريين.

وتزوج سيدة قاهرية اسمها زبيدة وكان موفقًا في هذا الزواج، وقد ألَّف الله بينهما، وربطهما بالمحبة والمودة والتراحم مما كان مضرب الأمثال.

فلما وافتها المنية عام ١١٩٦هـ (١٧٨١م) حزن عليها حزنًا شديدًا ودفنها قرب مشهد السيدة رقية وأقام فوق قبرها مقصورة لها ستر، وفرش، وقناديل، ولازم قبرها أيامًا كثيرة وجمع لها القراء والمنشدين، وكان يستمع لمراثي الشعراء فيها ببيت صغير بناه بجانب قبرها، ورثاها هو بقصائد كثيرة ذكرها الجبرتي (انظر هذه المادة) في تاريخه ومن بينها قوله:

خليليَّ هل ذكرُ الأحبةِ نافع
فقدْ خانني الصبرُ الجميلُ العواقبِ

وهل لي عَوْدٌ في الحِمَى أم تراجعٌ
لِوَصْلٍ بتلكَ الآنساتِ الكواعِبِ

لقد رَحَلَتْ عني الحبيبةُ غَدْوَةً
وسارَتْ إلى بيتٍ بأعلى السباسِبِ

أقولُ وما يُدرِي أُناسٌ غَدَوْا بها
إلى اللحْدِ: ماذا أدْرجوا في السبائبِ

تأخَّرْتُ عنها في المسيرِ وليْتني
تقدمتُ لا ألْوِي على حِزنِ نادِبِ

وفي القاهرة اشتهر أمره وعلا ذكره بين العلماء والأمراء وكبار الوجهاء، فأخذ في تأليف كتب ذكر فيها رحلاته ثم تفرغ لشرح القاموس المحيط فأتمه في سنين عدة وأطلق عليه اسم «تاج العروس».

وعندما أنشأ محمد بك أبو الدهب (انظر هذه المادة) مكتبته في الجامع الذي بناه أشار عليه العلماء باقتناء «تاج العروس» فاشتراه من الزبيدي بمائة ألف درهم.

وكان السيد الزبيدي المرتضى يعرف اللغات الفارسية والتركية والكردية وقد عول في شرح القاموس المحيط على لسان العرب، واستدرك على صاحب القاموس – بعد كل مادة – ما غفل عن ذكره من المفردات اللغوية.

ومن مؤلفاته الأخرى «إتحاف السادة المتقين» وهو شرح لإحياء العلوم للغزالي (انظر هذه المادة)، وكانت وفاة الزبيدي خلال عام ١٢٠٥هـ (١٧٩٠م)، بالغًا من العمر حوالي ٥٩ عامًا، ودفن بالقاهرة في قبر أعده لنفسه بالمشهد المعروف بالسيدة رقية، أي بجانب قبر زوجته.

وقد كتمت زوجته الثانية خبر وفاته إلى اليوم الثاني حتى نقلت هي وأقاربها الأشياء النفيسة والمال والذخائر والأمتعة والكتب التي خلفها.

وقد أخذ في مصر من علمائها وشيوخها ومنهم الشيخ الحنفي الملوي والصعيدي والجوهري، ولم ينجب أولادًا من زوجتيه، وقد جمع ثراءه من الهدايا والتحف والطرائف التي انهالت عليه من جميع الأنحاء وراسله العظماء والكبراء والملوك والأمراء.

ويقول الزبيدي نفسه إن شرحه للقاموس استغرق أربع عشرة سنة وبضعة أيام، وقد اعتمد في هذا الشرح على لسان العرب الذي ألفه ابن منظور (انظر هذه المادة) المتوفى عام ٧١١هـ (١٣١١م)، وصاحب القاموس المحيط الذي وضع الزبيدي شرحًا له هو مجد الدين محمد بن يعقوب المشهور بالفيروز ابادي المتوفى عام ٨١٦هـ (١٤١٣م)، وقد جمع في قاموسه خلاصة «المحكم» لابن سيدة، و«العباب» للصاغاني.

والقاموس المحيط دقيق في نظامه موجز في عباراته لا يستشهد على ألفاظه إلا فيما ندر، وقد لقي هذا المؤلف الضخم الكثير من عناية العلماء ومن مدح المادحين ونقد النقاد، ثم عكف الزبيدي على شرحه فجاء الشرح غاية في البراعة وحسن الصناعة، فاستطاع أن يمزج كلامه بكلام صاحب القاموس باسطًا ما أوجز مفصلاً، ما أجمل مستشهدًا على ما أغفل مكملاً ما نقصه، مستدركًا عليه ما فاته، يعينه

على ذلك سعة اطلاعه وقوة ذاكرته، مستعينًا في ذلك بما وجده في مصر من موسوعات وكتب ومخطوطات زاد عددها على المائة، والاسم الكامل لشرح الزبيدي هو «تاج العروس في جواهر القاموس».

وبلغ عدد مؤلفات الزبيدي ٧٩ مؤلفًا لم يطبع منها إلا القليل، وأهم ما طبع هو كتابه «إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين»، وهو في عشرة أجزاء طبع بالقاهرة عام هـ (١٧١٨م) و«بلغة الأرب»، طبع بالقاهرة عام ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م)، و«تنبيه العارف البصير»، طبع بالقاهرة عام ١٣٣٣هـ (١٩١٤م)، ثم «حكمة الإشراق» و«عقد الجواهر» و«نشوة الارتياح».

ويقع «تاج العروس» في عشرة أجزاء وقد طبع أخيرًا دون ضبط للكلمات مما يؤسف له.

ولا يفوتني أن أذكر في هذا البحث «عمرو بن معد يكرب» الشهير بالزبيدي، وهو الفارس المشهور من بني زبيد، وقد أدرك الجاهلية والإسلام، وله بلاء حسن في المعارك التي خاضها مع رسول الله عليه الصلاة والسلام وفي غيرها من المواقع الحربية.

٦٦٦- زكي بك رجب - شارع - بقسم باب شرقي

اسمه الكامل زكي محمد رجب بن محمد رجب بدوي، تزوج جده الأكبر من مدينة فاس بالمغرب الأقصى إلى تونس ثم قصد أحد أجداده الإسكندرية واستقر بها، وقد ولد زكي بالإسكندرية عام ١٣٠٠هـ (١٨٨٢م)، وتلقى تعليمه الابتدائي والثانوي بمدارسها ثم أتم دراسة الحقوق بفرنسا، ولدى عودته اشتغل بالمحاماة بالمحاكم المختلطة وكان مستشارًا للجالية الفرنسية ويتولى الدفاع عن أبناء المغرب العربي أمام المحاكم القنصلية، وظل مدة طويلة عضوًا بالمجلس البلدي وكان ينتخب عادة ممثلاً لأصحاب الأملاك، وإلى جانب هذه المهام ظل سنين طويلة عضوًا في لجنة الامتحانات بكلية سان مارك الفرنسية، وكان عضوًا في مجلس إدارة العروة الوثقى وجمعية المواساة وهو مؤسس جمعية إعانات فقراء قسم الجمرك، ومارس عضوية جمعية الإسعاف فكان أحد أعضاء مجلس إدارتها زمنًا طويلاً.

وتوفي في ٣٠ من سبتمبر عام ١٩٣٥م (١٣٥٤هـ) عن ٥٣ عامًا.

٦٦٧- زكي شافعي (الدكتور) - شارع - بقسم الرمل (جيهل سابقًا)

انظر ترجمته في «الدكتور زكي شافعي».

٦٦٨- زكي مبارك (الدكتور) - شارع - بقسم الرمل

انظر ترجمته في «الدكتور زكي مبارك».

٦٦٩- زنانيري باشا - شارع - بقسم محرم بك (عزيز فهمي حاليًا)

هو جورج زنانيري من أصل لبناني وقد نزحت أسرته إلى الإسكندرية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ولا يعرف تاريخ ميلاده أو مكانه، وقد تعلم بمدارس الفرير

الفرنسية فأتقن اللغة الفرنسية إلى حد كبير، وبدأ حياته العملية في وظيفة صغيرة بمصلحة البريد التي كانت تقبل حتى أوائل القرن العشرين الحالي الموظفين المصريين والأجانب، وكان مديرها العام أجنبيًّا يعين بحكم وظيفته عضوًا في القومسيون البلدي.

وبعد عامين من توظفه بمصلحة البريد اجتاز امتحان الترجمة وعين موظفًا بمجلس الصحة البحرية والكورانتينات (الحجر الصحي) ورقي بعد ذلك إلى وظيفة رئيس قلم الترجمة بذلك المجلس، وظل يتدرج في الوظائف إلى أن رقي إلى وظيفة «سكرتير المجلس العام» وقضى ثلاثين عامًا في هذه الوظيفة بعد عشر سنوات قضاها في الوظائف الأخرى.

ويعرف عنه أنه كان يؤدي خدمات كثيرة لحجاج بيت الله الحرام من حيث التسهيلات والرعاية الصحية لهم ولا سيما خلال إقامتهم في الحجر الصحي بجهة الطور بسيناء.

وكانت مهامه الوظيفية بالمجلس محفوفة بالصعاب، إذ كان عليه أن يوفق بين المصالح المصرية ومطالب مندوبي الدول الأجنبية، وقد نجح في هذا الميدان فكان محل الرضا من الجانبين ومن ثم نال من أوسمة التشريف عددًا كبيرًا وحصل على رتبة الباشاوية.

وأحيل إلى التقاعد بعد أربعين عامًا من الخدمة، ورشح نفسه لعضوية المجلس البلدي فنجح، وقد عاصرْتُ مدة عضويته عندما كنتُ مختزلاً باللغة الفرنسية لمناقشات هذا المجلس، فكانت له مواقف بارزة في مناهضة شركات الاحتكارات وعلى رأسها شركتا المياه والكهرباء والغاز وشركة ترام البلدة والرمل.

وإزاء السيطرة التي كانت لأعضاء الجاليات الأجنبية الأربع الكبرى وهي: اليونانية والإيطالية والفرنسية والإنجليزية وكان لكل منها أربعة أعضاء في القومسيون، وجد جورج زنانيري أن مناهضته لتلك الشركات الاحتكارية ليس لها أثر فعال، فلم يسعه إلا التنحي عن العضوية والكف عن ترشيح نفسه من جديد، وقد أبدى هذه الأسباب في مقالات نشرها بالجرائد كان لها دويّ في الأوساط الاجتماعية بالإسكندرية، وهكذا حرمت المدينة من مدافع عن مصالحها في وجه شركات الاحتكار ومساهميها الجشعين، ومن بينهم أغلب أعضاء المجلس البلدي الأجانب الذين كانوا يتألبون ليسكتوا أي صوت يرتفع للدفاع عن هذه المصالح الحيوية توصلاً لتمتع الشعب المصري ولو بجزء مجزٍ من أرباح شركات الاحتكار النهمة.

وفي عهد حكومة إسماعيل صدقي الذي كتم أنفاس الشعب بالقمع والوسائل الإرهابية في كل وزارة تقلدها، في عهد هذا الراحل انضم زنانيري باشا إلى حزب الشعب الذي كونه صدقي من بعض الإقطاعيين الذين يخافون اشتداد الزحف الشعبي للقضاء على إقطاعهم الفظيع ومن بعض الذين لا همّ لهم إلا الإشادة بالجالس على عرش مصر ورجال حاشيته والنفعيين من أفراد الشعب المصري.

وليس بغريب أن ينضم زنانيري إلى حزب الشعب فهو في قرارة نفسه لا يكن الحب الصادق والوطنية الخالصة لمصر وذلك على غرار طائفة كبيرة من اللبنانيين في ذلك الحين، فقد كان أفراد هذه الطائفة يعدون أنفسهم فرنسيين ويأنفون التخاطب باللغة العربية إلا عند الضرورة ويعتبرون أنفسهم أعلى مقامًا وثقافة من مضيفيهم المصريين، ومن ثم كان معظمهم من

خريجي المدارس الأجنبية يتباهون بتخرجهم منها ويحصلون في سهولة على الوظائف في الشركات الأجنبية التي قلما تسمح بتعيين مصري في مكاتبها، ولقد قضت ثورة ١٩٥٢ على هذه النُعرة البجحة، فاندمج اللبنانيون في الشعب المصري كإخوة تجمعهم العروبة في ظل لوائها الخفاق.

ولقد عانى أهل الإسكندرية بصفة خاصة من هذه النعرة الوقحة فكنا نسمع في الترام والحفلات وفي دور السينما شعارات التعالي من هؤلاء اللبنانيين مما يجرح شعورنا ويؤذي كرامتنا، ولمعرفتي باللغة الفرنسية كنت دائم التصادم بهؤلاء المغرورين لا أسمع جمل تعاليهم حتى أرد بالردع القاسي والازدراء المهين إلى أن انتهى هذا العهد البائد إلى غير رجعة.

وبانضمام جورج زنانيري إلى حزب الشعب المناوئ لحركة التحرر المصرية عمل إسماعيل صدقي على اختياره عضوًا معينًا بمجلس الشيوخ الذي لعب صدقي أخبث الألعاب في مراحل انتخابه فجاء مؤيدًا لسياسة الجالس على العرش دون النظر إلى مصالح الشعب المصري وأمانيه الغالية في الحرية والاستقلال.

وتوفي زنانيري بالإسكندرية في الخمسينات من القرن العشرين الحالي ويقال إن لقب «زنانيري» الذي كان يحمله يرجع إلى أن أحد أجداده كان يبيع الزنانير (مفردها زُنَّار) وهو ما يشد على الوسط، والكلمة من فعل تَزَنَّرَ أي شد الزنار على وسطه.

أما ترجمة صاحب الاسم الحالي للشارع فاطلبها في (عزيز فهمي).

٦٧٠- زنكرولة - شارع - بقسم العطارين

هو الدكتور «زنكروله Zancarola» اليوناني، وكان كبير أطباء المستشفى اليوناني الذي كان وسط الشارع الذي يحمل الآن اسم «شارع إسطنبول».

وكان قبل ذلك يحمل اسم المستشفى نفسه إلى أن انتقل إلى مستشفى «كوتسكا» بطريق الحرية بجهة الحضرة وصار بعد ذلك مستشفى التأمين الصحي العام.

وقد بذل الدكتور «زنكروله» في أثناء وباء الكوليرا الذي اجتاح مدينة الإسكندرية عام ١٨٦٥م جهودًا فوق طاقة البشر في مكافحة هذا الوباء بالمستشفى اليوناني القديم، ويتضح من الإحصاءات الرسمية أن عدد المصابين بالكوليرا في شهر يونية وحده من ذلك العام بلغ ٢٠٧ عولِجوا جميعًا بجهود الدكتور «زنكروله» وتحت إشرافه فاستحق التقدير والثناء على هذا الكفاح الإنساني النبيل؛ ومن ثَمَّ رأت بلدية الإسكندرية تخليد اسمه فأطلقته على الشارع الواقع خلف المستشفى اليوناني الذي مارس فيه الدكتور «زنكروله» جهوده المشكورة الجبارة.

٦٧١- الزهراء - شارع - بقسم مينا البصل

اطلب ترجمتها في «فاطمة الزهراء».

٦٧٢- زهران - زقاق - بقسم الرمل

ذكر في بعض مصادر دار المحفوظات باسم زهران محمد وفي بعضها الآخر باسم محمد زهران، ولعل اسمه الكامل محمد زهران محمد ومن ثَمَّ وأمام هذا اللبس في الاسم سميت الحارة باسم شهرته وهو زهران فقط، وزهران من

بلدة ساقية أبي شعرة من أعمال مديرية المنوفية (محافظة المنوفية حاليًّا)، وتعلم في مدارس القاهرة ثم التحق بمدرسة الطب بقصر العيني، وبعد إتمام دراسته اختير – وهو برتبة اليوزباشي (المقدم) – للسفر إلى فرنسا بين طلاب البعثة الثالثة التي أرسلت إليها في عهد سعيد الأول فوصل في أكتوبر عام ١٨٦٢م (١٢٧٩هـ) لإتمام علومه الطبية، وكان مرتبه الشهري ٧٥٠ قرشًا، وفي ١٥ من فبراير عام ١٨٦٣م (١٢٨٠هـ) عاد إلى مصر بسبب مرض أصابه ولذلك كانت عودته قبل عودة زملائه التسعة الذين عادوا في يونية عام ١٨٦٣م بأمر من الخديوي إسماعيل، وتقلب بعد شفائه في عدة مناصب، ثم عين طبيبًا بمستشفى المدارس الملكية والجهادية (الحربية) بالعباسية وللشؤون الصحية في مدرسة المبتديان في ٩ من فبراير عام ١٨٦٥م (١٢٨٢هـ) وفي ٢٦ من سبتمبر عام ١٨٦٧م (١٣٨٤هـ) رقي إلى رتبة البكوية ونال الوسام المجيدي من الرتبة الثالثة.

وفي عام ١٨٨٨م (١٣٠٦هـ) كان مايزال طبيبًا بالمدارس الملكية، ولا يُعرف شيء من حياته بعد ذلك التاريخ ولا عن تاريخ وفاته، وكان منزله بشارع زين العابدين بقسم السيدة بالقاهرة.

وقد ذكر علي باشا مبارك ترجمة زهران في كتابة الخطط التوفيقية:

فقال – وهو يتكلم عن بلدة ساقية أبي شعرة – أن منها محمد أفندي زهران الصاغ (الرائد) الحكيم بالمدارس الملكية، وهذا يؤيد أن اسمه محمد زهران ويدعو إلى الاحتمال أن والده يدعى محمدًا أيضًا.

٦٧٣– الزَهرة – حارة – بقسم اللبان

٦٧٤– الزُهرة – شارع – بقسم العطارين

٦٧٥– الزُهرة – شارع – بقسم الرمل

قد يكون هذا الاسم تعريفًا لمفرد الزهر الذي هو نوّار النبات، وقد يكون تعريفًا للفظة الزُّهَرة بضم الزين وهي تدل على الحسن والبياض الجميل، أو للزُّهَرَة بضم الزين أيضًا وهى تدل على كوكب من السيارات الشمسية، وكانت تعرف عند الأقدمين بإلهة الجمال.

أما وقد عرَّفنا المعنيين الأولين فلنتعرض الآن للتعرف بالكوكب السيّار وهو «الزُّهَرَة» – بضم الزين، ويلي هذا الكوكب «عطارد» في الترتيب بالنسبة إلى القرب من الشمس، ويقدر بعد «الزهرة» عن سطح الشمس بضعف بُعْد عطارد عنها، غير أن بعدها يعد قربًا من قرص الشمس بحيث لا تستطاع رؤيتها في السماء بالليل إلا نادرًا، وهى مثل «عطارد» تُرى عادة عند الغروب بين نجوم المساء أو في ضوء الفجر بين الصباح، وهي بلا شك ألمع أجرام السماء بعد الشمس والقمر ولذا تشتهر بضوئها الباهر الجميل وتسمى عادة «نجمة السماء» أو «نجمة الصباح».

وللزُّهَرَة أوجه مثل أوجه «عطارد» وأوجه «القمر»، وهذا نتيجة كوننا لا نرى عادة كل نصفها المضاء، ومن جهة أخرى فإن بعدها عن الأرض يتغير بحيث تبدو وكأنها تتغير في الحجم والشكل، وتظهر في حجم أكبر عندما تكون في أقرب أوضاعها من الأرض، وعندئذ تكاد تكون بيننا وبين الشمس تمامًا، ويكون شكلها الظاهري في هذا الوضع كهلال ظريف

كأنه هلال جديد للقمر، أما بقية الوجه فتكون في ظلام مخيم، وعندما تكون في أبعد أوضاعها أي عندما تكون وراء الشمس بالضبط يعادل بُعدها عن الأرض ست مرات بالنسبة إلى بعدها حينما تكون في أقرب أوضاعها منًّا، وفي تلك الأوقات يسقط ضوء الشمس على جميع الوجه المتجه نحونا فيبدو دائري الشكل كالبدر التمام.

ويتغير لمعانها الظاهر بتغير شكلها، فتبدو قوية اللمعان عندما تكون على شكل هلال عمره خمسة أيام، وحينئذ تظهر أكبر لمعانًا من الشعرى اليمانية بما يعادل اثنتي عشرة مرة، ولولا أن قربها من الشمس يحول دون رؤيتها على أتم وجه، لكان تلألؤها في تلك الحالة عظيمًا، ومع ذلك فإن إضعاف نور الشمس للمعانها يقل بكثير عن إضعافه للمعان الكواكب الأخرى، ولذا نجد الزُّهَرَة أول ما يظهر من الكواكب بعد أن يخيم الظلام على الأرض وذلك في سماء الغرب.

وعند الصباح تبدو الزُّهَرَة شديدة السطوع ولذا عرف أنها آخر كوكب يضمحل نوره في ضوء النهار، وكان الاعتقاد السائد يظنها «كوكب بيت لحم» الذي رآه المجوس في الشرق، وفي بعض الأحيان لا يقوى ضوء الشمس على طمس لمعانها كلية، فكثيرًا ما تُرَى بالعين المجردة في رابعة النهار وأحيانًا عند الظهيرة، ومن المستطاع – عن طريق مراقب متوسط القوة – أن نتتبع حركتها وهي تعبر السماء بجانب الشمس وذلك في ضوء النهار الساطع ومن الصباح إلى المساء.

وقد كان العالم «جاليليو» الفلكي الإيطالي الشهير في القرن السادس عشر أول من اكتشف الأوجه المختلفة التي تبدو بها الزُّهَرَة في السماء من أهلة وترابيع وبدور، ولانعدام العلامات المميزة في سطح هذا الكوكب يصعب التأكد من طول اليوم عليها أي من المدة التي تتم فيها دورة كاملة حول نفسها، يظهر أنها محاطة بهالة كاملة من السحب تغلف جوًّا معظم تركيبه من ثاني أكسيد الكربون، تدل قياسات الحرارة على سطحها أن درجاتها تصل إلى ٥٥ درجة مئوية.

واسم الزُّهَرَة مشتق من لفظة الزاهر التي تعني لغويًّا المُشرِق الصافي، وأُنِّث اللفظ جريًا على ربط الإنسان الجمال بالأنوثة دائمًا فسماها الزهراء ثم اختصها باسم الزُّهَرَة ليكون علمًا عليها لا يشركها فيه سواها إلا إلهة الجمال عند الإغريق فهي الزُّهَرَة أيضًا.

ويراها الإنسان بالعين المجردة جميلة ويراها أجمل بالتلسكوب، إذ يتغير شكلها من هلال إلى قمر نصفي إلى بدر تام، ولما كان مدار الأرض حول الشمس أوسع من مدار الزُّهَرَة، فإن مدار الزُّهَرَة حول الشمس يجري داخل مدار الأرض كطوقين صغير وكبير، وضعًا في مستوى واحد تقريبًا والمركز واحد ذلك الشمس.

وهي حينما تكون في الجانب الآخر من الشمس تضيء الشمس منها نصفًا هو الذي نراه فننظر إليها فتكون بدرًا، وهي إذ تكون بيننا وبين الشمس تضيء الشمس منها نصفها الذي نراه ويظهر لنا هذا النصف مظلمًا فتكون كما يكون القمر في المحاق.

وعندما تقترب الزهرة من الأرض تكون على مسافة ٢٥ مليون ميل، وعندما تبتعد عنها تكون على مسافة ١٦٠ مليون ميل، ومع ذلك فإن بعدها عن الأرض وهي

في أقرب موضع منها يساوي بعد القمر عن الأرض بما يعادل مائة مرة على وجه التقريب، ويبلغ قطرها ٧٧٠٠ ميل وهو ما يقرب من قطر الأرض الذي يساوي ٧٩٠٠ ميل، وتعادل كتلتها جزءًا من ٤٠٨,٠٠٠ جزء من كتلة الشمس كما تعادل ٨٣٪ من كتلة الأرض، وتعادل كثافتها ٨٥٪ من كثافة مادة الأرض وتساوي جاذبيتها السطحية ٨٤٪ من جاذبية سطح الأرض.

والصور الشمسية (الفوتوغرافية) التي أخذت للزُّهَرة بالضوء البنفسجي أظهرت علامات تختلف في سطحها عن بقية رقعته مما يدل على أن الذي نراه من هذا الكوكب اللامع ليس إلا جوها أو لعله يمثل الطبقات العليا من هذا الجو، وأوضح تحليل العلماء للضوء المنبعث من هذه الطبقات العليا أنها خالية من الماء والأكسجين وأنها غنية بثاني أكسيد الكربون.

وفي عام ١٩٥٦م (١٣٧٦هـ) اكتشف الدكتور «كروس J. D. Kraus» موجات لاسلكية تأتي من الزُّهَرَة إلى الأرض في موجات طولها أحد عشر مترًا وهي على نوعين منتظم وغير منتظم، ويستمر كل نوع ثانية أو ثانيتين من الزمن في المرة الواحدة، وقال «الدكتور كروس» إن هذه الموجات تأتينا من سطح الزهرة الجامد الموجود تحت طبقات جوها، وإن في هذا الجو طبقة متكهربة ترد الموجات التي تأتيها من سطح الكوكب الجامد إلى هذا السطح، وعلى هذا الأساس قدَّر كروس أن الزهرة تدور حول محورها دورة كاملة في ٢٢ ساعة و١٧ دقيقة وهو الوقت الذي يجب أن يقدر ليوم كوكب الزُّهَرَة الزمني وهو قريب من يوم الأرض، ويقول معظم علماء الفلك أن كوكب الزهرة قاحل تهب فيه الزوابع الترابية في جو من غاز لا يمكن أن تقوم الحياة فيه، وقال الفلكي «باتريك مور Patrick Moore» إنه إذا كان سطحها يغطيه الماء وفوقه ثاني أكسيد الكربون، فإن جوها مثل الجو الذي كانت عليه الأرض قبل بليونين من سنين الزمن.

ومما يدل على جمال كوكب الزُّهَرَة عند كافة الشعوب أن اسمها اليوناني «Venus» وهذا الاسم كان يطلق عند الإغريق القدماء على إلهة الجمال والحسن الرائع، ومازال يطلق على ربات الجمال وعلى كل جميلة عند الناطقين بكافة اللغات الأجنبية المشتقة من اللغة اللاتينية، فإذا أريد التعبير عن ملاحة فتاة أو سيدة ذات حسن باهر رائع قيل أنها تشبه «فينوس» ربة الجمال، ويذكر التاريخ القديم أن اسم «Venus» أطلق على ميناء البندقية في إيطاليا لروعة جمالها وتكوينها الجغرافي، إذ تقوم على عدة جزر؛ مما جعل أهم طرقها الداخلية قنوات تسري على صفحات مياهها مراكب اللهو الشهيرة «الجندول» كما يطلق عليها اسم «عروس البحر الأدرياتيكي».

وأعجب ما في الزُّهَرَة بالنسبة إلى علم الفلك أنها تدور من الشرق إلى الغرب في دوراتها حول نفسها، وذلك بعكس الشمس وجميع الكواكب التي تدور في فلكها وترتبط بجاذبيتها، وكلها تتم دوراتها حول نفسها من الغرب إلى الشرق، وهذه الظاهرة الفلكية مازالت لغزًا يحير عقول علماء الفلك.

وحقق العلماء السوفيت المتخصصون في علم الفضاء نصرًا باهرًا إذ استطاعوا إرسال سفينة فضاء إلى كوكب الزُّهَرَة هبطت برفق على سطحها يوم ١٨ من أكتوبر عام ١٩٦٧م (١٤ رجب عام ١٣٨٧هـ) واسمها (فينوس ٤)، وهي مزودة بمعمل علمي كامل، وأخذت ترسل معلوماتها العلمية

إلى الأرض بالشفرة التي لا يحل رموزها إلا العلماء السوفيت أنفسهم.

وفي يوم ١٩ أكتوبر قال العالم السوفيتي (فلادمير سيفوروف) أخصائي الاتصالات البعيدة في الفضاء إن العلماء السوفيت استنتجوا من المعلومات التي أرسلتها السفينة أن سطح كوكب الزُّهَرَة مكون من صخور تشبه في تركيبها مادة السليكات (أي الأحجار الرملية) الموجودة على سطح الأرض، وقال كبير المهندسين السوفيت الذي صمموا محطة الفضاء إن الإنسان سيصل إلى كوكب الزهرة خلال عام ١٩٨٠م، وقال علماء سوفيت آخرون إن على سطح هذا الكوكب نوعًا من الحياة قد يكون في أشكال مختلفة عما يألفها الإنسان على الأرض، وقد تكون هذه الحياة بدائية أو مكونة من العضويات وحيدة الخلية، ثم أعلن العالم السوفيتي «نيقولاي كراسيلينكوف» أنه يعتقد في إمكان وجود حياة فوق سطح الزهرة على شكل كائنات دقيقة وذلك اعتمادًا على المعلومات العلمية التي أرسلتها سفينة الفضاء (فينوس ٤)، واستطرد قائلاً: إن على الأرض كائنات دقيقة تستطيع الحياة في درجة حرارة تبلغ ١٣٠ درجة مئوية أو ما يزيد على ذلك والضغط العالي فوق سطح الزهرة لا يمكن أن يكون عائقًا لحياة هذه الكائنات.

٦٧٦- الزُّهْري (سيدي) - حارة - بقسم اللبّان

اطلب ترجمته في «سيدي الزُهْري».

٦٧٧- الزيدية - حارة - بقسم اللبّان

الزيدية طائفة من الشيعة تؤمن بإمامة زيد بن علي الصغير المعروف بزين العابدين (انظر هذه المادة) ابن الحسين بن علي ابن أبي طالب.

وقبل تناول مذهب الزيدية بالبحث أجد من الملائم التعرف على ترجمة حياة صاحب هذا المذهب «زيد بن علي» (زين العابدين) الذي يقدسه المنتمون إلى الزيدية في كافة الأقطار ويعتبرونه شهيدًا سياسيًّا ودينيًّا، وعندما حلت النكبة بجده الحسين في كربلاء (انظر مادة الحسين بن علي) كان زيد أول علوي سعى إلى حرمان بني أمية من الخلافة عن طريق الفتنة المسلحة، فوضع نفسه تحت إمرة الكوفيين متخذًا صفة الإمامة ثم شرع في الاستعداد الذي قضى في استكمال وسائله عامًا كاملاً في مدينة الكوفة حيث كان يبحث عن أتباع يناصرونه، وكان يختفي في مخابئ دأب على تغييرها كما أخذ يبحث عن أتباع آخرين في مدينة البصرة.

ولكن يوسف بن عمر الثقفي كان قد اتخذ العدة لمجابهة فتنة زيد بن علي ومن ثم لم ينضم إلى زيد إلا بضع مئات من الرجال على الرغم من أن آلافًا منهم كانوا قد بايعوه بالإمامة، وهكذا كانت طبيعة أهل العراق في ذلك الحين إذ غدروا بجده الحسين في كربلاء وتركوه لأعدائه يغتالونه في غير رحمة.

ونشب القتال بين أنصار زيد ورجال يوسف بن عمر الثقفي والي الأمويين على العراق واستمرت المعركة بضعة أيام أصيب في نهايتها زيد بسهم في جبهته.

ويقول علي باشا مبارك في كتابه «الخطط التوفيقية» إن سبب قتل زيد بن علي زين العابدين أنه قام لقتال هشام بن عبد الملك لفتنة وقعت بينهما، وبايعه أهل الكوفة ثم نقضوا عهده كما نقضوا عهد أبيه وجده، فقاتل قتالاً شديدًا، وهزم الجيش مرارًا، ثم رمي بسهم في جبهته اليسرى ثبت في دماغه فأنزلوه في أحد البيوت، وأتوا بطبيب فانتزع النصل فضج زيد ومات في ٢ من شهر صفر سنة ١٢٢هـ (٧٣٩م) بالغًا من العمر ٤٢ عامًا، ومن ثم يكون قد ولد – وفاقًا لهذه الرواية – خلال عام ٨٠هـ (٦٩٩م)، فدفنوه في الحفرة التي يؤخذ منها الطين وأجروا عليه الماء وتفرق أصحابه، ثم إن يوسف بن عمر الثقفي رئيس جيش هشام بن عبد الملك تتبع الجرحى في الدور حتى دُلَّ على جثة زيد في يوم جمعة، فأخرجها من الحفرة وقطع رأسه وبعث بها إلى هشام، فدفع لمن وصل بها عشرين ألف درهم، ثم نصب الرأس على باب مدينة دمشق وأرسله بعد ذلك إلى المدينة وسار منها إلى مصر، أما الجسد فصلبه يوسف بن عمر بالكناسة وأقام عليه الحرس فمكث مصلوبًا سنتين، وفي رواية أخرى أنه أحرقه بعد ذلك.

وسبب فشل زيد في حملته هو أن المتآمرين معه على خلافة بني أُمية لم يكونوا على شيء من التجانس وإنما كانوا نفرًا من الساخطين على الحكومة وكان بينهم بعض الخوارج، ومن جهة أخرى لم يناصر زيدًا أحد ممن أجمعوا على أن يلي الخلافة الإسلامية رجل من العلويين.

ولم يكن زيد زعيم الحركة المضادة لبني أمية الحقيقي، ذلك أنه لم يذهب إلى الكوفة بمحض رغبته بل كان في الرصافة مع الخليفة هشام بن عبد الملك، وكان قد لجأ إليه في أثناء حاجته وعوزه، وإذا بالوالي يستدعيه إلى الكوفة ليسأله في قضية تتصل بدين عليه، يضاف إلى ذلك أن زيدًا نفسه كان قليل الإيمان بنجاح المؤامرة، يؤكد ذلك أنه أراد الانسحاب من تنفيذ الخطة بعد أربعة أشهر من الشروع في إعدادها.

ولقد غادر الكوفة راجعًا إلى المدينة مسقط رأسه، وبلغ في سفره القادسية عندما استماله إلى العودة بعض الشيعة وكانوا قد هُرِعوا وراءه وأقنعوه بالبقاء ومحاربة بني أمية قائلين له: نعطيك من الإيمان والعهود والمواثيق ما تثق به، فإنا نرجو أن تكون المنصور وأن يكون هذا الزمان يهلك فيه بنو أمية، ومازالوا به حتى أعادوه إلى الكوفة.

وبعد أن خذله أهل الكوفة بقي في فئة قليلة من أهله يقاتل حتى سقط شهيدًا.

وقد اختلف المؤرخون والرواة على مكان دفنه – كما اختلف من قبل على رأس جده الإمام الحسين – فقيل إنه حُمل إلى الكوفة ثم حُرق وذُري رماده في الفرات، وقيل بعث برأسه إلى هشام بن عبد الملك فنصبه على باب دمشق ثم أرسله إلى المدينة، ولكن الكندي يؤكد قدوم الرأس إلى مصر، وقد جاء في رواية دفن الرأس بمصر «في الجوهر المكنون»، إنه بعد قدوم رأس زيد إلى مصر طيف به ثم نصب على المنبر بجامع عمرو في سنة ١٢٢هـ فسرق ودفن في هذا الموضع إلى أن ظهر وبُنِيَ عليه مشهد في الدولة الفاطمية.

وقال المقريزي في ذكر المشاهد التي يتبرك الناس بزيارتها أن هذا المشهد تسميه العامة «مشهد زين العابدين» وهو خطأ، وإنما هو مشهد رأس زيد بن علي الصغير (زين العابدين) ابن الحسين، وكان يعرف في القديم بمسجد محروس

الخصي، وقد قال القضاعي أن مسجد محروس الخصي بُني على رأس زيد بن علي بن الحسين حين أنفذه هشام بن عبد الملك إلى مصر ونصب على المنبر بالجامع فسرقه أهل مصر ودفنوه في هذا الموضع.

أما الكندي فقال: «قدم إلى مصر عام ١٢٢هـ أبو الحكم ابن أبي الأبيض القيسي، حاملاً رأس زيد بن علي يوم الأحد ٢٠ جمادى الآخر، واجتمع الناس إليه في المسجد».

فهل يصدق العقل أن الرأس يبقى معروفًا بأنه رأس زيد بن علي بعد مضي قرابة خمسة أشهر على استشهاد صاحبه؟ فقد مات زيد في ٢ صفر، ووصل رأسه إلى القاهرة في ٢٠ جمادى الآخر، حسب رواية المؤرخين والرواة، فكيف يبقى الرأس سليمًا يعرفه من رأوا صاحبه بعد هذه المدة الطويلة التي انصرمت منذ موته؟ وهل أهل مصر رأوا زيدًا قبل أن يروا رأسه في القاهرة؟ وهل أبو الحكم بن الأبيض كان صادقًا حينما جاء إلى القاهرة حاملاً الرأس وقال إنها رأس زيد بن علي؟ هذا ما يشك في صحته من الوجهة التاريخية الصحيحة كما يشك إلى الآن في نقل رأس جده الحسين إلى مصر بعد مضي زمن طويل على وفاته... وما أكثر الأقاويل عند مؤرخي العرب في مثل هذه المناسبات الدينية التي تهدف كلها إلى إرغام الناس ولا سيما العامة على تصديق ما يدعون من أساطير وخرافات، مما شوه بساطة الدين الإسلامي وسماحته إلى حد بعيد.

ومن الروايات الأخرى في شأن هذا الرأس أن الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي أمير الجيوش (انظر مادتي الأفضل وبدر الجمالي) أمر بكشف مسجد الخضى وكان وسط الأكوام، ولم يبق منه إلا محرابه فوجد، هذا العضو الشريف

وادعى محمد بن منجب الصيرفي عن الشريف فخر الدين أبي الفتح ناصر الزيدي خطيب مصر أنه قال: «لما خرج هذا العضو رأيته وهو هامة وافرة، وفي جبهته أثر في وسعة الدرهم، فضمخ وعُطِّر وحُمِل إلى دار حتى عُمِّر المسجد»، وكان الكشف عن هذا الرأس في يوم الأحد ٢٩ من ربيع الأول عام ٥٢٥هـ، أي بعد حوالي ٤٠٤ من الأعوام، فهل مثل هذا الزعم يقوم حجة على أن الرأس هو رأس زيد بن علي ولا سيما بعد هذه المدة الطويلة؟ إن الأمر كله عبارة عن دعاية فاطمية أرادت أحد أئمة الشيعة من أولياء مصر.

ولقد اختلط على الناس فظنوا أن المشهد الذي يزعم أنه يضم رأس زيد هو لأبيه علي بن الحسين (زين العابدين) بن علي بن أبي طالب وأطلقوا عليه اسم «مشهد زين العابدين» ومازال يعرف بهذه التسمية خطأً إلى اليوم.

ومن مصادفات القدر أن أمر يوسف بن عمر الثقفي الذي مثّل بجثة زيد بن علي آل إلى التقطيع وصلب كل جزء من جسده على أحد أبواب دمشق، وهكذا يضحك القدر ممن ظنوا أنهم بعيدين عن العقاب الرباني الذي يُمهِل ولا يُهمِل.

وقد روى زيد الحديث عن أبيه زين العابدين وتفقه على يديه، ورأى جماعة من الصحابة، وقد قيل لجعفر الصادق (انظر هذه المادة) إن الرافضة يتبرؤون من عمك زيد، فقال: «برئ الله ممن يبرأ من عمي، كان والله أقرأنا لكتاب الله وأفقهنا في دين الله وأوصانا للرحم... والله ما ترك فينا لدنيا ولا لآخرة مثله، وكان نقش خاتمه، اصبر تؤجر، اصدق تنج».

وقد بقيت بعض المقتطفات التي نسبت إلى زيد، وهي تتناول تفسيرًا لبعض الآيات القرآنية وتبحث في مسألتي الإمامة والحج، وتشمل بصفة خاصة مجملاً كاملاً للفقه الإسلامي، ولكنها في كيانها العام تتعرض لمسائل دينية وشرعية وسياسية تنطوي على تناقضات كثيرة، وهي بعد تناقض المبادئ التي تقول بها كتب الزيدية الحديثة، غير أنها تعتبر شواهد على أن زيدًا كان على حظ لا بأس به من العلم.

وليس من الصواب الأخذ بلقب التشريف الذي أضفي عليه وهو «حليف القرآن»، ولا بالرواية الزيدية التي تزعم أن أبا حنيفة (انظر هذه المادة) درس عليه ثم أيد الفتنة التي قام بها ضد هشام بن عبد الملك وأمدها بالمال وأفتى بشرعيتها.

وذاع صيت زيد في أغاني المغنين، وقد ذكره السيد الحميري في شعره، كما ذكرته كتب «المقاتل» القديمة، وقد حاولت القصص أن تكفر عن المعاملة المشينة التي عومِل بها جثمانه وذلك بنسبة بعض الكرامات إليه.

ويدل وصفه الذي دوّنه المؤرخون على أنه كان أمْيَل إلى البدانة على غرار آل عليّ بن أبي طالب في مجموعهم، وكانت أمه فتاة (أي جارية) وقد تزوج هو نفسه «ريطة» حفيدة محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب، فرزق منها بيحيى الذي اشترك معه في الفتنة، ثم استطاع أن ينجو من القتل والهرب إلى خراسان حيث كان أنصار أبيه يعملون، غير أنه لقي المصير نفسه الذي لقيه والده وذلك خلال عام ١٢٥ أو ١٢٦هـ (٧٤٣ أو ٧٤٤م).

وتزوج زيد وهو بالكوفة من امرأة من بني فرقد ومن امرأة أخرى من قبيلة أزد وذلك لاكتساب أنصار له.

هذا هو مجمل تاريخ زيد بن علي (زين العابدين) بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ولنتعرض الآن لمذهب الزيدية الذي ينسب إلى زيد.

فطائفة الزيدية هي فرقة تحققت لها الأطماع السياسية بين طوائف الشيعة الأخرى، وهم يختلفون عن الشيعة الاثنى عشرية وعن الشيعة السبعية في أنهم يؤمنون بإمامة زيد.

وبعد موت زيد اشترك أتباع الزيدية في عدة فتن قام بها العلويون ولكنهم لم يكوّنوا فرقة واحدة، إذ تفرقوا فرقًا عدة بلغت ثمانية، أولها فرقة الجارود التى جمعت بين الأعمال الحربية وبين القول بتأليه الأئمة، وآخرها فرقة مسلمة بن كُهيل الذي اقتصر في تمسكه بمذهب الزيدية على مجرد الميل إلى الشيعية.

ولم يصبح الزيدية جماعة متحدة إلا حينما تولى قيادتهم الروحية رجال من العلويين الذين كانوا يدعون الإمامة، مع أن من يستحق من هؤلاء الرجال هذا الوصف هما اثنان: الحسن بن زيد الذي أسس عام ٢٥٠هـ (٨٦٤م) دولة زيدية جنوب بحر الخزر، والقاسم الرسِّي وهو ابن إبراهيم طباطبا ابن إسماعيل الديباج بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي ابن أبي طالب، وكانت وفاته عام ٢٤٦هـ (٨٦٠م).

وإذا كان الباقي من مؤلفات الحسن بن زيد مؤسس المذهب الزيدي ما هو إلا شواهد غير مباشرة فإن مؤلفات القاسم الرسِّي بن إبراهيم طباطبا قد بقيت ولاسيما تلك التي يرد بها على النصارى.

ومذهب الزيدية الذي وضع أصوله القاسم الرسِّي الذي لم يوفق في الميدان السياسي والذي وسعه وفصله من جاؤوا بعده وهو المذهب الوحيد الذي بقي إلى اليوم، هذا المذهب ينحو – فيما يتعلق بالقول في ذات الله – منحى الاعتدال، والسبب في ذلك يرجع إلى أن زيد بن علي تتلمذ على يد واصل بن عطاء مؤسس فرقة المعتزلة.

أما فيما يتعلق بالمسائل الأخلاقية فالمذهب الزيدي يخالف مذهب طائفة المرجئة، وهو يحمل طابعًا من التشدد في الدين يرفض التصوف ومن ثم فإن الطرق الصوفية ممنوعة في الدولة الزيدية.

وأما فيما يتعلق بمسائل العبادة فإن المذهب الزيدي يشترك مع بقية فرق الشيعة في مميزات معينة ينفرد أتباعه بها، من ذلك قولهم في الأذان «حيَّ على خير العمل» والتكبير خمس مرات في صلاة الجنازة، ورفض المسح على الخُفَّيْن في الوضوء، ورفض الصلاة خلف الفاجر، والامتناع عن أكل ذبائح غير المسلمين، وفيما يتعلق بأحكام الزواج فهم يحرمون الزواج من غير الزيدي ولا يجيزون زواج المتعة، وهذه أحكام لا تعارض فيها للدين الإسلامي السنِّي بل هي من صميم كيانه الأساسي.

وكان أتباع الزيدية يعتقدون بانفراد أبناء علي بن أبي طالب بعلم فطري ضروري من غير تعلم وهو شبيه بالعلم النبوي، كما كانوا يعولون على علم مكتوم يأخذه بعضهم عن بعض ومنه ما هو يتنبأ بمصيرهم.

ولما كان خصوم الزيدية جميعًا من المسلمين السنيين فإن الزيديين يقولون بوجوب محاربة الباغين الذين يخرجون على الإمام، ومن ثم أطلقوا على أنفسهم اسم «المؤمنين» تميزًا لهم عن مخالفيهم، ومن ثم أصبح مذهب الزيدية مذهبًا خامسًا إلى جانب المذاهب الأربعة.

وأصبح كتاب «الأزهار في فقه الأئمة الأطهار» تأليف أحمد بن يحيى المرتضى وكتاب «الروض النضير» أساسًا للتعليم الرسمي للدولة الزيدية.

وأهم الشروط الواجب توافرها في الإمام هي:

- أن يكون من أهل البيت في غير تمييز بين أبناء الحسن وأبناء الحسين، ومعنى ذلك أنه لا يخلف إمام إمامًا بالوراثة.
- أن يكون قادرًا على الخروج بنفسه للقتال بسيفه، وقادرًا على الدفاع بحيث لا يلي الإمامة صبيٌّ ولا مهديٌّ غائب.
- أن يكون على ما يقتضيه منصب الإمامة من العلم.

وقد طبق الزيديون هذه الشروط بدقة ويدل على ذلك العدد الهائل من الكتب التي ألفها أئمة الزيدية في جميع القرون.

وكان النجاح الشخصي للإمام هو العامل الحاسم في توليه هذا المنصب القيادي الهام، ولم تقم عَبْر العصور سلسلة متصلة من الأئمة الزيدية إذ يمكن أن يكون «زمان بلا إمام»، ومن جهة أخرى يُسَلِّم الزيدية بإمكان وجود أئمة كثيرين في زمان واحد، ومعنى هذا من الجهة العلمية أنه كثيرًا ما يظهر إمام معارض لإمام آخر، فإذا استطاع هذا الإمام الجديد أن

يقصي سلفه عن الإمامة، فإن خلع الإمام المقلوب أو نزوله عن الإمامة يعتبر حينئذ أمرًا مشروعًا، وهذا يتفق مع الأمر الواقع في غير عنت أو تزمت، غير أنه إذا انقلب الوضع استطاع الإمام المقلوب العودة إلى الإمامة، وإذا لم تتوافر جميع شروط الإمامة في الإمام فالأمر الواقع في غير عنت أو تزمت، غير أنه إذا انقلب الوضع استطاع الإمام المقلوب العودة إلى الإمامة، وإذا لم تتوافر جميع شروط الإمامة في الإمام فإن ذلك يحول دون الاعتراف بإمامته الكاملة، وعند ذلك لا يكون هناك سوى أئمة في الحرب أو في العلم.

أما الرؤساء الذين لا تتخطى مقدرتهم المحافظة على كيان الدعوة الزيدية فإن كلاً منهم يسمى «داعيًا» أو «محتسبًا» أو «مقتصدًا».

ووفاقًا لما اختاره الزيديون من الأئمة بعد أن صارت لهم دولة وذلك بغية المحافظة على الصلة بأهل الشيعة الأولين، وفاقًا لهذا الاختيار تذكر القائمة الأولى التي وضعها مؤسس الدولة الزيدية في اليمن أن هؤلاء الأئمة هم على الترتيب الآتي: علي بن أبي طالب، ثم ابنه الحسن، ثم ابنه الحسين، ويأتي بعد ذلك زيد بن علي (زين العابدين)، ثم يحيى، ثم الإخوة الثلاثة: محمد بن عبد الله، وإبراهيم ويحيى الذي ظهر في بلاد الديلم بعد أن اشترك في الحرب من أجل الحسين بن علي بن الحسن، وأخيرًا محمد بن إبراهيم طباطبا الذي خرج مع أبي السرايا ويليه أخوه القاسم الرسِّي.

أما القائمة الأحدث من الأولى فتضم عشرة أئمة آخرين وأهمهم إدريس الذي استوفى شروط الإمامة ولكنه أسس دولة استقرت في بلاد المغرب الأقصى على مذهب أهل السنة.

ومؤسس الدولة الزيدية في اليمن هو الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين من ذرية القاسم الرسِّي، وقد عاشت هذه الدولة أكثر من أية دولة أخرى زيدية وإن كانت قد اضطرت في بعض الأحيان إلى الارتداد إلى مدينة صعدة التي بدأت منها دعوتها.

وتوالى تنصيب الأئمة الزيديين الواحد تلو الآخر، وبلغ عددهم من الكثرة بحيث لا يفيد في هذا البحث شيئًا، غير أن المعروف تاريخًا هو أن أئمة الزيدية دافعوا عن كيان دولتهم في اليمن ضد مماليك مصر ثم ضد الترك وضد الوهابيين، ومن أواخر أئمة الزيدية الإمام يحيى الذي اغتيل عام ١٩٤٨ وهو في الثمانين من العمر، وتولى بعده الإمام أحمد الذي لقّب بالإمام الناصر لدين الله، وظل في الحكم إلى أن قامت الثورة اليمنية وأيدتها مصر بالجنود والعتاد الحربي فأزالت حكم الأئمة الزيديين وأقامت بدله الحكم الجمهوري الذي مازال قائمًا.

ولنعد الآن إلى المشهد الذي يزعم الكثيرون أنه أقيم فوق رأس زيد بن علي (زين العابدين) والذي أطلق عليه حتى الآن اسم «مشهد زين العابدين» خطأ، فهذا المشهد يقع في الحي الذي يعرف الآن بحي زين العابدين بالقاهرة، وكان يعرف في أوائل العصر الإسلامي باسم «الحمراء القصوى»، وتوجد هذه المنطقة في الشمال الشرقي من مدينة الفسطاط (انظر هذه المادة) «مصر القديمة حاليًّا»، وعليها أسس العباسيون مدينة العسكر ثاني عواصم مصر الإسلامية، والمسجد الموجود حاليًّا يرجع إلى أوائل القرن التاسع عشر، فقد جدده وأعاد معظم مبانيه عثمان أغا المعروف بأغا مستحفظان، أما عمارة الدولة الفاطمية فلم يبق منها سوى عقد واحد بالطرقة الداخلية على يمين رواق القبلة.

وتوجد لوحة تذكارية فوق مدخل المسجد القديم بالواجهة الغربية كتب عليها العبارة الآتية: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا مشهد إمام عليّ زين العابدين ابن إمام حسين بن إمام ابن عمران بن عبد المطلب صلوات الله عليهم أجمعين في سنة ٥٤٩هـ».

ويرجع بناء القبة التي تعلو الضريح إلى العصر المملوكي في القرن الثامن الهجري، وفي أواخر القرن الثالث عشر الهجري عملت مقصورة حديد للضريح تعتبر نموذجًا ممتازًا لصناعة الحديد المطروق الزخرفي بمصر، وقد كتب عليها: «أنشأ هذه المقصورة سعادة محمد قفطان باشا سنة ١٢٨٠هـ»، وقد كسي عتب باب القبة ببلاطات من القيشاني الأزرق العثماني الجميل.

ومن ثَمَّ يتضح أنه اختلط على الناس فنسبوا الضريح إلى علي بن الحسين الصغير المعروف بزين العابدين الذي دفن بالبقيع وهو والد زيد الذي زعموا أن رأسه حملت إلى القاهرة ودفنت في هذا المشهد.

٦٧٨ - زين العابدين - شارع - بقسم الجمرك

٦٧٩ - زين العابدين - شارع - بقسم محرم بك

٦٨٠ - زين العابدين - زقاق - بقسم الرمل

هو أبو الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب المعروف بزين العابدين، ويقال له: علي الأصغر، وليس للشهيد الحسين عقب إلا من أولاد زين العابدين الذي هو أحد الأئمة الاثنى عشر عند أهل الشيعة، وقد ولد يوم الجمعة في بعض شهور السنة الثامنة والثلاثين من الهجرة في أخريات خلافة جده علي بن أبي طالب، وولد جميل الطلعة، ضعيف الجسم نحيله، وعقب ولادته أصيبت أمه بحمى النفاس، وأسلمت الروح.

وكانت أمه فارسية من سبايا الحرب التي أدت إلى فرار يزدجرد بن كسرى من المدائن في غرب فارس إلى طريق «كابول» وتحصن في قلعة منيعة ومعه أهل بيته وحراسه، ولكن الجيش العربي لحق به، وأنزل بحرسه هزيمة ساحقة فهرب تاركًا خلفه بناته الثلاث في أسر قائد المسلمين عبد الله بن عامر بن كريز الذي أرسلهن إلى عمر بن الخطاب في بعض الروايات، أو إلى عثمان بن عفان في بعض الروايات الأخرى، ولما بلغ السبي المدينة أقبل الناس على الشراء، وما لبث علي بن أبي طالب أن رق لبنات يزدجرد وقال للخليفة: إن بنات الملوك لا يعاملن كغيرهن من بنات السوقة، وأشار على الخليفة بأن يقوّمن، ويغالي في أثمانهن، ثم يكون لهن الخيار فيخترن من الرجال من يشأن، فرضي الخليفة، واستحسن هذا الرأي، وبدأ التقويم فأمسك الناس لغلو الثمن، فقال علي بن أبي طالب: أنا أقومهن، فقومهن بمال كثير ثم رد الثمن على بيت المال، وترك لهن الخيار فاخترن ثلاثة من فتيان قريش هم: عبد الله بن عمر بن الخطاب، ومحمد بن أبي بكر، وغضت الثالثة من بصرها استحياء، ومشت خطوة خطوة، ومدت يدها ترسلها للحظ والقدر، ثم وضعتها على رأس الحسين بن علي، وكانت هذه الفتاة هي «شاه زنان» ومعنى هذا الاسم (ملكة النساء)، وكانت جميلة الوجه، رشيقة القوام، ذات حشمة ووقار.

وبعد قليل اعتنقت الإسلام، وأعتقت من الرق حين صارت زوجة، وأضفيت عليها أسماء ثلاثة هي: غزالة، وسلافة، وخَوَلة، ولكن اسم غزالة هو الذي غلب عليها.

وكان للحسين ولد آخر اسمه (علي) رُزِقَه من زوجته ليلى بنت أبي مُرَّة، فرأت غزالة إطلاق اسم (علي) أيضًا على طفلها تمجيدًا لعلي بن أبي طالب الذي أكرم وفادتها، وميزها هي وأختيها على النساء الأخريات فقوَّمهن بثمن كبير على أساس أنهن من بنات الملوك، ومن ثَمَّ كان (علي) زين العابدين يعرف بعليٍّ الصغير تميزًا له عن أخيه من أبيه.

وكفلت زين العابدين مولاة له كانت هي إحدى أمهات ولد أبيه، فحضنته، وأرضعته، وخصته برعايتها الحادبة، فدرج على ندائها بلفظة: يا أمي إذ كتموا عنه موت أمه غزالة.

وأحس زين العابدين برعاية حاضنته الفائقة التي كانت لا تمد يدها إلى الطعام إلا بعد أن يأخذ هو ما يشاء منه، فلما كثر تكرار ذلك منها امتنع عن تناول الطعام معها، ولما سئل عن سبب ذلك قال: إني أخاف أن تسير يدي إلى ما قد سبقت عينها إليه فأكون قد عققتها.

وما من شك في أن حنان حاضنته الفائق، وعلمه بعد ذلك أنها لم تكن أمه، وإنما مولاة له، ما من شك في أن ذلك من أقوى العوامل التي دفعته إلى الثورة من أجل الرقيق.

وعندما بلغ العاشرة من العمر بدأ في الذهاب صحبة إخوته، وأبناء أعمامه إلى مسجد المدينة لسماع القرآن والحديث والفقه والرأي، فيقف على مجلس أبيه الحسين، وعلى مجالس غيره من الصحابة، والتابعين ينقل عنهم ويتعلم منهم، وأخذ يأخذ عن عمه الحسن، وعن جابر بن عبد الله الأنصاري، وابن عباس وأبي الحسين الهاشمي المدني وعن ابن عمه، وكان إذا زار أمهات المؤمنين: صفية وعائشة وأم سلمة صحبة حاضنته أخذ عنهن وروى لهن.

ولفطانته وسعة إدراكه أخذ يصعد مسرعًا في رفعة الأئمة، فصار الناس يرجعون إليه في الرأي والاجتهاد، وفي التوثيق والتضعيف، وفي التصحيح والتزييف، وذلك لكثرة ما سمع وحفظ وأدرك وميَّز وفكر واستنبط.

وكان شغفه الزائد بآيات القرآن الكريم يطغى على ما استوعب من علوم أخرى، فكانت معرفته الدقيقة بكتاب الله تشبه لوحة مكتوبة، وصحيفة مقروءة، فما تغيب عنه كلمة منه ولا حرف، فإذا تلاه رجف به قلبه من الخشية والخوف، وإذا أدّاه أو أرسله حجة في أمر أو مشكلة خشع له سمعه وأذعن.

ولما تخطى مرحلة الطفولة والصبا، وعرف أن أمه قد ماتت، وأن التي احتضنته، وأحاطته بعطفها لم تكن إلا أمةً من الرقيق رق لحالها، ثم شعر في قرارة نفسه أنه أصبح مدينًا لهؤلاء الجواري، وأن عليه أن يفي لهن متى أمكنه الوفاء، وازداد حبه لهن عندما علم أن أمه (شاه زنان) كانت مسبية من حصون فارس، وأنها بنت ملك.

ومن هذا المنطلق تغيرت نظرته إلى الموالي، والجواري، وفطن وجدانه إلى وجوب المساواة بين العبيد والأحرار، ولاسيما أن الإسلام دين المساواة، فاعتزم أن يناصر هذا المبدأ القويم، وأن يعمل على نيل الرقيق الحرية التامة. وفي

هذا الحين حدث أن دست (جعدة) السم لعمه الحسن فمات عام ٥٠هـ عن ٤٧ سنة، ثم هاجت المدينة عندما تولى يزيد ابن معاوية الخلافة على الرغم من أهلها، وعلى الرغم من كافة المسلمين، وكان الحسين أشد الناس إنكارًا لتولية يزيد فانضم إليه أهل المدينة أحرارها وعبيدها، وخرجوا معه للقتال.

وفي مستهل الرحلة ثقل المرض على زين العابدين فنام على فراشه في غياب وذهول، وأخذت عمته زينب في تمريضه وهي ترى في معركة «الطف» أن الهلاك يدنو من الخيام، وانتهت هذه المعركة المشؤومة بقتل الحسين أبي الشهداء، ووضع رأسه بين يدي عبيد الله بن زياد، وهو يتناول طعامه مع أخصائه، فكان يأكل وينظر إلى رأس الشهيد وهو شامت مسرور.

ولما أمر يزيد بن معاوية بأن يعود أهل بيت رسول الله إلى المدينة وحانت صلاة الجمعة اجتمع الناس، وكان يزيد حاضرًا، فطلب منه أن يأذن لزين العابدين بالخطبة فأذن مغرورًا، وعندها شرع زين العابدين في تعديد مناقب أهل البيت واحدًا واحدًا مما أغضب يزيد، فأمر المؤذن أن يقيم الصلاة، فلما قال: أشهد أن محمدًا رسول الله التفت علي إلى يزيد وقال له: أهذا جدي أم جدك يا يزيد؟ فإن زعمت أنه جدك فقد كذبت، وإن زعمت أنه جدي فَلِمَ قتلت عترته؟.

ورجع زين العابدين إلى المدينة وحده من أبناء الحسين الذكران، وقد امتدت إليه يد الله فحمته من ابن زياد الذي اعتزم قتله في كربلاء، وحمته من يزيد بن معاوية فنجا من شره وغدره (انظر مادة معاوية).

وتحول منذ ذلك الحين إلى ناسك، وأمسك عن الضحكة والابتسامة، يعاني من سقامه وضعف جسمه، غير أنه لم ينس حكمة الله الذي نجاه من الهلاك، ومن ثَمَّ استسلم للقدر المحتوم، وتزوج من فاطمة بنت عمه الحسن لتبقى سلالة الدوحة النبوية المحمدية على مر العصور المقبلة في نسل زين العابدين بعد أن مات الحسن مسمومًا، وقتل الحسين شهيدًا.

وعقب عودته إلى المدينة استرد ما كان لدى أم المؤمنين (أم سلمة) من وديعة أبيه الحسين، وذلك من الصحف، والوصايا، والسلاح، ثم أخذ على عاتقه الوفاء بديون أبيه، وقد بلغت – في قول الرواة – نحو سبعين ألف دينار كان الحسين قد أخذها من الناس لينفقها في أوجه البرِّ والصدقة، وإغاثة اليتامى والأرامل والمساكين.

ولقد كان للحسين ضياع، وأرض يغلها، وفريضة من بيت المال، فباع زين العابدين إحدى هذه الضياع وقضى بثمنها دين أبيه، وانقطع للعبادة والزهد، ثم عاد إلى مجالسة الصحابة والتابعين ليسمع الحديث والفقه والرأي.

وكان يكثر من الجلوس في حلقة زيد بن أسلم بمسجد رسول الله يسمع له ويعجب به ويثني عليه، وكان زيد بن أسلم عبدًا، فأعتق، وتعلم، وتفقه، حتى صار خليقًا أن يعلم الناس.

ومازال زين العابدين يدرس، ويتفقه إلى أن صار واحد زمانه علمًا، وفقهًا، وقضاءً، ورأيًا، وصار سيد أهل الفتيا من التابعين في المدينة، ويقال: إنه كان لا ينفك عن الصلاة كلما وجد وقتًا من الفراغ، ولما صار المثل الأعلى في العبادة،

والتقى، والزهد، والصلاة سماه الناس (زين العابدين) كما سمّوه (السجَّاد) لكثرة صلاته، ولكن تلقيبه بزين العابدين هو الذي غلب عليه.

ولم يقصر في مخالفة الناس فيما كانوا يجدونه في الأرقاء من ضعة في المكانة حتى ولو أُعتقوا، وصاروا من أهل العلم والصلاح، فثابر على حضور مجالس أهل العلم، والفقهاء، والمحدثين من العبدان والموالي يشجعهم ويطمئنهم إلى رضا الله عنهم، وفوزهم بين يديه بالجنة، وحسن المآب.

وكان أهل المدينة يأنفون من اتخاذ أمهات الأولاد من السراري حتى نشأ فيهم سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وعلي بن الحسين (زين العابدين)، وهم أولاد بنات السراري بنات يزدجرد بن كسرى الثلاث، وقد فاقوا أهل المدينة فقهًا، وورعًا فرغب أهل المدينة في التزوج من السراري علّهم يرزقون بمثل واحد من هؤلاء الثلاثة الذين انفردوا بالزهد، ومكارم الأخلاق، والعلم الغزير.

وتمكن زين العابدين من العلم حتى صار أفقه أهل المدينة، يرجع إليه الفقهاء، ويستفتونه، ويعرضون عليه القضايا حين لا يجدون وجهًا للرأي فيها.

ومع التوسع في الفتح الإسلامي ازدادت وفادة الأسرى بالآلاف على المدينة فصار فيها سوق لشرائهم تقام في أغلب الأحيان، وكان زين العابدين قد دفع دين أبيه الحسين واستغل أرض ضياعه، وعيون مائه، ونَمَّى ثروته من كل ذلك، ومن حقه في الغنائم ونصيبه في بيت المال، ومن ثَمَّ كان يقبل على سوق بيع الأسرى، ويشتري الكثير منهم، وما يلبثون يدخلون منزله، ويشهرون إسلامهم، حتى يخرجوا وهم أحرار يستخدمهم في فلاحة أراضيه، وفي مباشرة تجارته مع سوريا والأقطار الأخرى.

وكان لا يستخدم الأسرى عنده أكثر من عام واحد، ثم يطلق سراحه حرًّا وله ولاؤه، وكان يحصي على عبيده ومواليه غلطاتهم يدونها في دفتر لديه حتى إذا انتهى شهر رمضان جمعهم وذكر كلاًّ منهم بأخطائه فإذا اعترف بها أمره بأن يتوجه إلى القبلة ورفع كفيه ضارعًا ويقول: «اللهم اغفر لعلي بن الحسين» ثم يعتقه ويعطيه ما يطلبه العبد وما يعينه بعد ذلك على الحياة.

وعرف الموالي ذلك منه فباعوا أنفسهم له تخلصًا من ربقة العبودية التي تقيدهم لدى السادة، واستمر هو على خطته فكان يَشتري ثم يُعتِق في كل الأوقات، ولأي هفوة تقع من عبيده وغلمانه، حتى تكوَّن في المدينة جيش كبير من الموالي الأحرار والجواري الحرائر، وكلهم يدينون بالولاء لزين العابدين، ويقول المؤرخون إن عددهم وصل إلى خمسين ألفًا، وفي هذا العدد الضخم الكثير من المبالغة مما لا يتفق مع تعداد المدينة الكلي في ذلك الوقت.

وبهذه الأريحية النبيلة صار زين العابدين المثل الأعلى في حب الإنسانية، وإعلاء شأن الإنسان تمشيًا مع أصول الدين الإسلامي الذي لا يفضل عربيًّا على أعجمي، والذي من أقوم حسناته عتق الرقاب من ربقة الرق والاستعباد.

وأوحت هذه الأريحية، وهذه السجايا النبيلة إلى الشاعر الفرزدق بأن يمدح زين العابدين بقصيدته المشهورة التي يشير فيها إليه بقوله:

هذا الذي تَعرِفُ البَطْحاءُ وَطْأتُهُ
والبَيْتُ يَعْرِفُهُ والحِلُّ والحَرَمُ

هذا ابْنُ خَيْرِ عبادِ اللهِ كُلِّهِمو
هذا التقيُّ النقيُّ الطاهرُ العَلَمُ

ويقال إن الفرزدق ارتجل هذه القصيدة فجاءت معبرة عن مشاعره وأحاسيسه أصدق تعبير.

ويذكر لزين العابدين أنه كان من السماحة بحيث يغفر حتى لمن يسيء إليه في غير تردد، ويعفو عن من يحقد عليه مهما أخطأ في حقه، فصار حديث الناس في كرم الأخلاق، وحب الخير والبعد عن الشر، وقصص عفوه عن جواريه، ومواليه، وعتقهم إذا غضب منهم كثيرة تتعدى الحصر، ولعل الكثير منها وضعه الرواة تأييدًا لحسن أخلاقه وكرمه، وعفوه عن المسيء.

وكان يزيد بن معاوية سادرًا في شهواته لاهيًا عن صواب الحكم، وكانت موقعة كربلاء ماتزال تحزُّ في النفوس من أهل المدينة، وتواترت الأنباء تؤكد استرسال يزيد في غلوائه، فاتخذت المدينة موقف المعارضة منه، ثم أجمع أهلها على خلعه، وطرد عامله، وكل أفراد بني أمية، فوجه يزيد إليهم مسلم بن عقبة ليحاربهم وينـزلهم على الطاعة، فحمل عليهم بجيش من اثني عشر ألف مقاتل، وبعد قتال عنيف ظهر الجيش على المدافعين فأسرف مسلم بن عقبة في القتل دون رحمة، وأباح للجند أن يعتدوا على الأهالي ثلاثة أيام، وكان الموالي أشد الناس دفاعًا عن المدينة، وأكثرهم تعرضًا للسهام الفاتكة فقتل منهم ما يقرب من أربعة آلاف، وقتل من الأنصار، والقرشيين ما يزيد على ثلاثمائة، ونهبت الأموال، وسبيت الذرية، واستبيحت المحارم. وتسمى هذه الموقعة الوحشية بوقعة (الحرة).

وأعقب مسلم بن عقبة انتصاره بطلب مبايعة يزيد بن معاوية قائلاً إن أهل المدينة صاروا عبيدًا ليزيد إن شاء أعتق، وإن شاء باع، فكان الرجل من قريش يؤتى به ويقال له: «بايع على أنك عبد» فإذا قال: لا . . . قُتل في الحال.

ولما جاء دور زين العابدين طلب منه مسلم بن عقبة المبايعة فقال: «وعلام يريد يزيد أن أبايعه؟»، فقال مسلم: «بايع على أنك أخ له وابن عم»، ثم أقعده مسلم إلى جانبه وقال له: سلني حاجتك . . . فلم يسأله إلا أن يضع السيف عن الناس.

وهكذا بايع أهل المدينة يزيد بن معاوية كرهًا إلا زين العابدين فقد أُعفِي، وقد لجأ نساء المدينة إلى داره في أثناء المعركة، وبلغ عددهن حوالي أربعمائة أكثرهن من نساء عبد مناف، وبينهن كل أهل البيت.

ولإسراف مسلم بن عقبة في القتل، والتنكيل في وقعة الحرة، أطلق عليه اسم «مسرف»، وصار مشهورًا بهذه التسمية التي تصفه بالعار والوحشية.

وانتقلت الخلافة الإسلامية من بيت أبي سفيان إلى بيت مروان، وتولاها عبد الملك بن مروان (انظر هذه المادة) فوضع الأرصاد على أهل المدينة، وكبر خوفه من زين العابدين، وأخذ يبادره بالشر حينًا بعد آخر.

واشتد عبد الملك على أهل المدينة فعزل (أبان بن عثمان بن عفان) عنها، وولى مكانه هشام بن إسماعيل المخزومي الذي

أخذ يكيد لأهل المدينة وفقهائها وعبّادها ولاسيما زين العابدين وأهل بيته، وجعل يسبه ويسب أهله علانية حتى في مسجد رسول الله.

وجاء هشام بن عبد الملك حاجًّا في عدد هائل من الحراس لترهب أبهته الناس في مكة، ولكن الحجاج لم يلتفتوا إليه، وأخذوا يكبرون صائحين خلف زين العابدين وهم يحيطونه بالتجلة، والاحترام، والعطف، والرعاية.

وعندما تجاهل هشام معرفته بزين العابدين قال الفرزدق للناس بيته المشهور:

هذا ابنُ خير عبادِ اللهِ كُلِّهمو
هذا التقيُّ النقيُّ الطاهرُ العَلَمُ

فلما طلب الناس من الفرزدق أن يصف لهم زين العابدين أتم قصيدته بقوله:

إذا رَأَتْهُ قريشٌ قال قائلُها
إلى مكارِمِ هذا يَنْتهي الكَرَمُ

يكاد يُمْسِكُهُ عِرْفانُ راحَتِهِ
ركن الحطيم إذا ما جاءَ يَسْتَلِمُ

وكان الفرزدق قد بلغ السبعين من العمر في ذلك الحين، ولما التف حوله الناس استمر ينشد شعره بصوت عال فيقول:

هذا ابنُ فاطمةٍ إنْ كُنْتَ جاهِلَهُ
بِجَدِّهِ أنبياءُ اللَّهِ قَدْ خُتِموا

اللَّه فضلهُ قِدْمًا وشرَّفَهُ
جَرَى بذاكَ لَهُ في لوحِهِ القَلَمُ

عَمّ البريةَ بالإحسانِ فانْقَشَعَتْ
عَنْها الغَيابَةُ والإملاقُ والظُلمُ

كِلتا يَدَيْهِ غِياثٌ عَمَّ نَفعُهُما
تَسْتوكِفانِ ولا يَعْروهما العَدَمُ

ثم يستطرد فيقول:

ما قال «لا» قطٌّ إلا في تَشَهُّدِهِ
لولا التَشَهُّدُ كانتْ لاءَهُ نَعَمُ

مِنْ معشرٍ حُبُّهمْ دِيْنٌ وبُغضُهُمو
كُفْرٌ وقُرْبُهُمو مَنْجَى ومُعتَصمُ

إنْ قيل أهْلُ التقى كانوا أئمتَهُمْ
أو قيل مَنْ خَيْرُ أهلِ الأرضِ قُيْلَ هُمُ

وكان جزاء الفرزدق على هذه القصيدة في مدح زين العابدين السجن بأمر هشام بن عبد الملك، وذلك حينما كان الفرزدق يقطع الطريق بين مكة والمدينة.

وقص هشام على أبيه ما رأى من احترام الناس لزين العابدين، وحذرته حاشيته من التفاف الناس حول هذا التقيّ العابد، فأحضره عبد الملك إلى دمشق مكبلاً بالحديد، واستشار عبد الملك خلصاءه فيما يفعله بزين العابدين، وكان الزهري محمد بن مسلم بينهم، وهو الذي أفتاه زين العابدين

في توبته حين قتل غلامه على المال الذي ظنه قد أخفاه، فقال الزهري لعبد الملك: «ليس علي بن الحسين حيث نظن، وإنما هو مشغول عن نفسه بعبادة ربه»، فَسُرَّ عبد الملك لقول الزهري، وأعاد زين العابدين إلى المدينة تحفه المهابة والجلال.

وأطلق هشام سراح الفرزدق من سجنه، وكانت قصيدته قد سارت سير الريح في كل الأقطار، في مشارق الأرض ومغاربها، وتناقلتها العصور عبر الزمان.

ومات عبد الملك بن مروان بالطاعون، وتولى الوليد بن عبد الملك الخلافة (انظر هذه المادة)، فرغب في أن يخفف الوطأة على أهل بيت الرسول فعزل هشام المخزومي، وولى مكانه عمر بن عبد العزيز (انظر هذه المادة)، وكان إذ ذاك في الخامسة والعشرين من عمره.

وأمر الوليد بن عبد الملك أن يوقف هشام المخزومي للناس لينالوا منه، وكل يقتص منه بقدر ما ناله من أذاه، فمرّ الناس وهم يسبّونه ويلطمونه، إلى أن جاء زين العابدين بين أهل بيته ومواليه، فقال: «السلام عليك يا هشام»، ومد يده إليه يصافحه، فمد هشام يده وخفض رأسه وبكى، ثم قال زين العابدين: «إن كانت لك حاجة فإني أقضيها لك، وإن كان عليك دين من ولايتك فإني أسد دينك»، فأجهش هشام بالبكاء، وجعل يقول: «الله أعلم حيث يجعل رسالته».

ولما سئل زين العابدين عن هذا الصفح الكريم قال: «إن هشامًا قد عزل فليست له قوة، ونحن نستكبر ونعلو عن إيذاء الضعفاء».

وكما كفّ زين العابدين عن إهانة هشام المخزومي وإيذائه، كفّ جميع أهل البيت عن التعرض إليه بالسب أو الأذى.

ومنذ ذلك التاريخ استحدث زين العابدين نوعًا من الكرم فريدًا في إحسانه الخيِّر، فجعل طعامه للناس كافة وسمَّى موائد طعامه بموائد المعروف، فكان لا يحرم من أصنافها أي فقير أو محتاج أو عابر سبيل أو غريب، كل هؤلاء كان لهم نصيب في موائد المعروف، كلما مُدَّت ووضعت فوقها أصناف الطعام، وحين علم أن بعض المحتاجين يأبون حضور هذه الموائد حتى لا يهرق ماء وجوههم، شرع يرسل إليهم نصيبهم منها إلى منازلهم ثم سار في هذا السبيل الخيِّر إلى أبعد من ذلك، فكان يحمل الطعام إلى المحتاجين في بيوتهم، وهو ملثَّم حتى لا يخدش حياءهم.

وذات يوم فتحت الأبواب للطعام، وبينما الناس يأكلون سمعوا مناديًا يقول بأعلى صوته: «يا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومهبط الملائكة ومنزل الوحي!! أنا رسول المختار الثقفي إليكم ومعي رأس عبيد الله بن زياد»، ثم وضع الرأس تحت قدمي زين العابدين الذي قال: «أبعدوه أبعدوه...»، ولكنه تبسم بعد ذلك، وكانت هذه أول ابتسامة أبداها بعد مقتل أبيه الحسين في كربلاء، إذ انتقم الله من قاتل أبيه، وقطع رأسه ظلمًا وعدوانًا في كربلاء.

ومن سماحة أخلاقه أن بعض المنافقين – وكانوا قد كثر عددهم يقدحون في الأمويين لينالوا خيرًا – ويقدحون في الهاشميين لينالوا العطاء، من سماحته أن بعض هؤلاء المنافقين جاؤوا ليقدحوا في صحابة الرسول، فلم يستمع إليهم، ونهرهم وأخرجهم أذلاء من مجلسه.

واستقر في نفسه أن المجتمع الإنساني لا يركن إلى مكارم الأخلاق، ولا يتحلى بالفضائل عن طريق القهر والإرغام، وإنما عن طريق المحبة والرضا، فأخذ يضع المبادئ التي يُبنى عليها المجتمع الفاضل الحر ليكون الكيان الإسلامي قويًّا كريمًا، ومن ثَمَّ أخذ يملي على كتابه، وغلمانه ما رآه حقوقًا جاء بها الإسلام، وهانت بعد ذلك على نفوس المسلمين حتى كادت تضيع، ولم تكن الحرية في عقيدته حرية شهوة وانطلاق بلا رابط، وإنما كانت حرية فاضلة تسمو بها الحقوق، وتسعدها الواجبات وتقويها الروابط بين الناس وخالقهم، وبين الراعي والرعية، والمعلم وتلميذه، والزوج وزوجته، والأب وأبنائه، وبين السادة والموالي، والإنسان وأخيه الإنسان، والإنسان ونفسه، وهذه المبادئ هي أسس الأخلاق القويمة، وتطرق في نظرته الأخلاقية إلى أن هذه الروابط يجب أن تكون أيضًا بين العاطفة والعقل، وبين أعضاء الجسد وبين كل أولئك جميعًا لتكون قوية صلبة حين يفرض فيها الواجب، ويؤدى فيها الحق.

وقال بأن شهوة النفس، وشهوة البدن لها حقوق وعليها واجبات، وتنطبق جميعًا على الجليس، والمسافر والرفيق، وبين الجيران والشركاء في الأموال، والغريم والمدين، والمدعي والمتهم، والناصح والمستمع، والكبير والصغير، والسائل والمسؤول.

وتنسحب روابط الحقوق والواجبات على أهل الملة، وأهل الذمة، وهي حقوق وواجبات تؤدى وتفرض، ولا يجب أن تكون كلامًا، وإنما هي أعمال، فإذا وقفت عند حد الكلام فإن ذلك لن ينفع الناس شيئًا.

وأما عبادته فلم تكن عن رهبة، وخيفة، ولا عن رغبة وطمع، وإنما عن شكر وحمد لله، وبذلك دخل في طور التصوف لا ينقطع عن عبادة الخالق بالصلاة والصوم والذكر والشكر والحمد، وهذا هو التصوف النقي البعيد عن الشعوذة.

وأخذ المرض يلحُّ عليه، وأخذ جسمه النحيل يذبل يومًا بعد يوم، ويضعف تحت وطأة المرض، ورأى ابنه محمد الباقر أن أباه في مرحلة الحياة الأخيرة فدخل عليه وقال: أوصني يا أبي، فأوصاه قائلاً: «لا تصحبن خمسة، ولا تحادثهم، ولا ترافقهم في طريق. . . فلا تصحب الفاسق فإنه يبيعك بأكلة فما دونها، ولا تصحب الكذاب فإنه بمنزلة السراب يُبَعِّد منك القريب، ويقرب منك البعيد، ولا تصحب البخيل فإنه يقطع بك في ماله وأنت أحوج ما تكون إليه، ولا تصحب الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيسيء إليك، ولا تصحب قاطع رحم فهو ملعون في كتاب الله في ثلاثة مواضع».

وكان زين العابدين – مع كل ما تقدم من خصاله السامية – ضليعًا في البيان والبلاغة، فمن أقواله المأثورة هذه العبارات:

«لو كان الناس يعرفون جملة الحال في فضل الاستبانة، وجملة الحال في فضل التبيين لأعربوا عن كل ما يتلجلج في صدورهم ولوجدوا من برد اليقين ما يُغنيهم عن المنازعة إلى كل حال سوى حالهم، على أن إدراك ذلك كان لا يعدمهم في الأيام القليلة العدة، والفكرة القصيرة المدة، ولكنهم من بين مغمور بالجهل، ومفتون بالعجب، ومعدول بالهوى عن باب التثبت، ومصروف بسوء العادة عن فضل التعلم».

وتوالت انتصارات الجيوش العربية في الشرق والغرب، ففي الشرق جاوزت حدود الهند والسند ودقت أبواب الصين المغلقة الحصينة، وكان زين العابدين لا ينفك عن الدعاء لجيوش المسلمين بالنصر المبين.

وبلغ زين العابدين الثامنة والخمسين من عمره، وحل العام الرابع والتسعين من الهجرة، وجاءت البشائر بانتصار الإسلام في الشرق والغرب، وأن آخر حصن في كابول قد استسلم فافتر ثغره بابتسامة حزينة، وأسلم الروح مطمئنًا أن الرباط الأزلي بين العرب والفرس قد تحقق.

وقد دفن ببقيع الفرقد في قبر عمه الحسن بالقبة التي تضم رفات العباس بن عبد المطلب.

هذه هي سيرة أبي الحسن عليّ الصغير بن الحسين بن علي ابن أبي طالب، وفي القاهرة حتى الآن مشهد باسم مشهد زين العابدين، ولكن الصحيح هو أن هذا المشهد بني فوق رأس ابنه زيد رأس الطائفة الزيدية الشيعية (انظر تاريخه في مادة الزيدية)، ومذهب الزيدية منتشر في اليمن.



حرف السين



٦٨١ – السادات – شارع – بقسم الرمل

كلمة السادات لقب تكنى به أسره تنتمي إلى بيت عريق في النسب يرجع في تسلسل نسبه إلى السيد محمد وفاء الشاذلي الملقب بأبي المفضل وأبي الفتح، وهو إذا كان من مواليد الإسكندرية عام٧٠٢هـ (١٣٠٢م) فهو مغربي الأصل سلك طريق أبي الحسن الشاذلي (انظر مادة أبي الحسن) ونظم الشعر الصوفي على طريقة ابن الفارض في التغزل بالذات الإلهية، وتزوج من بلدة إخميم بمديرية جرجا بصعيد مصر، وكان له فيها أتباع ومريدون كثيرون، ثم نزح إلى القاهرة واستقر بحي الروضة على شاطئ النيل، وأقبلت عليه الدنيا بسعادتها وهنائها، كما أقبل عليه الأعيان والأمراء واشتهر بخطبه التي تشتمل على الوعظ والإرشاد، وقد روى له الشعراني في الطبقات الكبرى (انظر مادة الشعراني) كثيرًا من المناقب والكرامات، ويلقب شيوخ هذه الأسرة على تعاقب السنين بألقاب الشرف، فمنهم أبو الفتوح السيد عبد الخالق السادات، وقد تولى خلافة السجادة الوفائية في عصر الخديوي إسماعيل، وأبو الإقبال، وأبو التسهيل، وأبو الإسعاد، وأبو المكارم، وأبو الأشراف، وأبو الإمداد، و أبو الفضل، وأبو المراحم، وأبو العباس، وأبو الفتح، وهو رأسهم وجدّهم الأكبر، وقد وافته المنية عام ٧٦٥هـ (١٣٦٣م).

وفي عهد خليفة السجادة الوفائية السيد أبي الإسعاد يوسف المتوفى عام ١٠٥١هـ (١٦٤١م) تزوج العالم النابغة أحمد المقرّي (انظر ماده المقرّي) صاحب كتاب «نفح الطيب» سيدة من بيت السادات، ولم يكن موفقًا في هذا الزواج الذي انتهى بالطلاق بعد أن خَلَّف منها طفلة ماتت قبل حادث الطلاق بوقت قصير، وقبل وفاة المقري عام ١٠٤١هـ (١٦٣١م).

وفي عهد السيد عبد الخالق (أبي الفتوح) أيام الخديوي إسماعيل تزوج الشيخ علي يوسف (انظر هذه المادة) صاحب جريدة المؤيد من ابنته، وكان لهذا الزواج دويّ شديد في جميع الأوساط، وذلك لأن الشيخ علي لم يكن – في ذلك الحين – من طبقة بيت السادات من حيث النسب والحسب، وقد استغل خصوم الشيخ علي هذا الحادث وشَنُّوا عليه هجومًا عنيفًا انتهى بالسكوت والنسيان، ولم يؤثر على نجاح جريدة المؤيد على الرغم من تدخل السلطات الإنجليز المحتلة في الأمر بسبب الهجمات التي كان الشيخ علي يشنها عليهم في أوائل عهد الاحتلال البريطاني لمصر بعد الثورة العرابية الوطنية عام١٨٨٢م (١٣٠٠هـ).

وفي زمن محمد علي – وفي عام ١٨٠٧م (١٢٢٢هـ) على وجه التحديد – حدثت (حملة فريزر) الإنجليزية التي هزمها دفاع أهل رشيد البطولي، وطلب عمر مكرم (انظر هذه المادة)، من محمد علي أن يقوم الشعب بدوره في الجهاد ضد الغزاة، فلم يستجب محمد علي لطلبه، ففضل عمر مكرم العزلة، وكان من منافسيه في الجاه والمكانة الشيخ السادات، الذي كان قد اشترك في عهد الطاغيتين مراد بك وإبراهيم بك الكبير، في وضع الوثيقة المشهورة التي اعترف بمقتضاها هذان الآمران المستبدان بحقوق شعب مصر، والكف عن الظلم، وفرض الضرائب الباهظة على أفراده بوسائل العسف والجبروت، وكان السيد عمر مكرم قد تولى نقابة الأشراف عوضًا عن أسرة السادات، ولكن عندما نفى محمد علي (انظر هذه المادة) عمر مكرم إلى طنطا بسبب رفضه التوقيع على قائمة حساب أعدها محمد علي يرسلها إلى تركيا، وذكر بها مبالغَ رغم أنه جباها وفقًا لأوامر قديمة أصدرها يوسف باشا الصدر

الأعظم حينما كان بمصر إبان الحملة الفرنسية عندما حدث نفي عمر مكرم، عادت نقابة الأشراف إلى الشيخ السادات الذي وافته المنية في القاهرة ١٢٢٨هـ (١٨١٣م).

٦٨٢- سالم باشا (الدكتور) - شارع - بقسم محرم بك

اطلب ترجمته في «الدكتور سالم باشا».

٦٨٣- سامح الرفاعي (الرائد) - شارع - بقسم العطارين (شكور باشا سابقًا)

اطلب ترجمته في «الرائد سامح الرفاعي».

واطلب ترجمة صاحب الاسم القديم للشارع في (شكور باشا).

٦٨٤- سامي البارودي - شارع - بقسم كرموز

هو محمود سامي البارودي باشا، ولد في يوم الأحد ٢٧ من رجب عام ١٢٥٥هـ (٦من أكتوبر عام ١٨٣٩م)، وقد ورث لقب البارودي عن جده الأكبر لوالدته هو مراد يوسف جلبي جاويش الذي كان ملتزمًا بجمع الضرائب بمدينة إيتاي البارود بمديرية البحيرة، فلقّب بالبارودي نسبة إلى هذه المدينة، كما هي العادة عند المماليك في ذلك الحين.

أما نسبه عن والده فيبدأ عند جده «عبد الله الجركسي» الذي جلبه الأمير محمد الألفي من بلاد الجركس (القوقاز) الواقعة على البحر الأسود، وهي الآن جمهورية من جمهوريات الاتحاد السوفيتي، وقد ولد والده حسن حسني الألفي عام ١٢٢٥هـ (١٨١٠م)، وقتل جده عبد الله في مذبحة القلعة التي قضى بها محمد علي قضاء مبرمًا على سلطان المماليك في مصر، وذلك في عام ١٢٢٦هـ (١٨١١م)، وفي هذه المذبحة لقي جد محمود البارودي لأمه حتفه أيضًا، وهو علي أغا البارودي.

ومن ثم يتضح أن شاعرنا من أسرة جركسية من دولة المماليك الذي حكموا مصر طول مده الواقعة بين عامي ٧٨٥ و٩٢٣هـ (١٣٨٢ - ١٥١٧م)، وكان قصر والده قرب باب الخلق بالقاهرة، وفي هذا القصر تزوج الوالد حسن حسني بفاطمة هانم البارودي، وانتسب إليها فصار اسمه حسن حسني البارودي، وقد اشترك في الحرب ضد تركيا بقيادة إبراهيم باشا (انظر ماده إبراهيم الأول)، ثم أرسل على كره منه إلى بربر، ودنقلة، بوظيفة مدير، وكان عمْر محمود في ذلك الوقت سبع سنوات، وما إن وصل والده إلى مقر وظيفته حتى أصيب بالحمّى فتوفي ودفن في دنقلة، ولم يتجاوز السادسة والثلاثين من العمر، وكان أميرًا من أمراء المدفعية.

ولم تستسلم والدته فاطمة - التي ينتهي نسبها إلى نور الدين شاهنشاه أخي السلطان يوسف صلاح الدين - إلى الحزن فأكبّت على تعليم ولدها محمود بأن أحضرت له المدرسين في المنزل، فدرس التعليم الابتدائي في أربعة أعوام من ١٢٦٣ إلى١٢٦٧هـ (١٨٤٧ - ١٨٥١م)، وأتقن خلالها النحو والصرف والتوحيد، والأخلاق، وحفظ القرآن الكريم، وكانت أمه تقص عليه أمجاد أبيه وجديه في الحروب، وكان خاله إبراهيم شاعرًا ولما توفي عن ٢٥ عامًا فقط نقشت فاطمة أجود أشعاره بالذهب على لوحات من الرخام وعلقتها على حوائط القصر، فكان محمود لا يمل من قراءتها لتفتح ذهنه إلى الشعر، وكان يعكف في الوقت نفسه على قراءة الدواوين

من الشعر العربي والتركي، وكان عمره ١٢سنة عندما أتم مرحلة تعليمه الابتدائية وذلك عام ١٢٦٧هـ (١٨٥١م)، وفي ذلك العام نفسه التحق بالمدرسة الحربية ليتلقى فنون الحرب، وكان علي باشا مبارك (انظر هذه المادة) قد وضع لها برنامجًا تعليميًّا قويًّا إلى جانب الفنون الحربية، يشتمل على الصرف والكفراوي وإنشاء العطار، وكتب الهندسة والحساب والرسم والجبر، واللغتين التركية والفارسية.

وفي أواخر العام ١٢٧١هـ (أي في يوليو ١٨٥٥م) عندما تخرج محمود من مدرسة الحربية التجهيزية ليلتحق بقسمها العالي ويتخرج ضابطًا، أمر سعيد الأول بغلق المدرسة، وإلغاء ديوان المدرس، وهكذا حُرِم محمود من إتمام دراسته العالية.

ولم يتطرق اليأس إلى وجدانه، فعكف في شغف على قراءة الدواوين وكتب التاريخ والموسوعات، واقتنى منها نفائس الثقافة العربية، وداوم على حفظ الكثير من شعر الفروسية، وأخذ ينهل من معين هذا اللون من القريض، واتخذه سبيلاً يسير في ضوئه طارحًا وراء ظهره شعر المحدثين الذي يمثل فترة الركود، والتدهور في تاريخ الأدب العربي سواء في الأغراض أو في المعاني والأساليب.

وكان الخديوي إسماعيل قد أثقل كاهل الشعب المصري بالديون، وسهل للأجانب من كل جنس التغلغل في اقتصاديات البلاد، فضاق البارودي بتلك الحالة القائمة التي سادت وطنه ووجد من الأصوب أن يبتعد عن ذلك الجو المكفهر، فرحل إلى الأستانة عام ١٢٧٤هـ (١٨٥٧م)، واستطاع – بفضل إجادته اللغتين التركية والفارسية – أن يلتحق بقلم كتاب السرّ بنظارة الخارجية التركية حيث تبحّر في اللغة التركية واللغة الفارسية، واطلع على آدابهما، ونظم القصائد بالفارسية.

وفي مكتبة الآستانة العامرة بالذخائر العربية أكبّ على قراءة ما أنتجه فحول الشعر العربي في الجاهلية والعصرين الأموي والعباسي، واستمر على هذا التثقف المفيد طوال سبع سنوات، استغرقت المدة الواقعة بين عامي ١٢٧٤ و١٢٨٠هـ (١٨٥٧ – ١٨٦٣م)، وهو ما بين الثامن عشر والرابع والعشرين من عمره.

وعندما ذهب الخديوي إسماعيل إلى تركيا مدحه البارودي بإحدى قصائده، فأعجب به، ووجد فيه كسبًا أدبيًّا لديوانه فرجع به إلى مصر في فبرايرعام ١٢٨٠هـ (١٨٦٣م)، وعينه مساعدًا لأحمد خيري باشا في إدارة المكتبات بين مصر والأستانة، وفي شهر يولية من تلك السنة نفسها ألحق بالجيش المصري برتبة البكباشي (المقدم)، ونقل إلى الحرس الخديوي، ثم أرسل في بعثة تفقدية لمشاهدة نظام الجيشين الفرنسي والإنجليزي، وتفقد الحضارة في البلدين، ومن ثمَّ اتسع نطاق مداركه الحربية استعدادًا لتولي منصب القيادة العسكرية.

ولدى عودته رقّي إلى رتبة القائمقام (العقيد) وذلك في شهر نوفمبر عام ١٨٦٤م (١٢٨١)، وفي إبريل عام ١٨٦٥م (١٢٨٢هـ) نال رتبة الأميرالاي (العميد) وعُيِّن قائدًا للفيلق الرابع من الحرس الخديوي.

وفي أواخر عام ١٨٦٥م (١٢٨٢هـ) ثار أهل جزيرة كريت (إقريطش) على تركيا التي عجزت عن إخمادها واستنجدت بمصر التي أمدتها بحملة لفرقة من الفرسان بقيادة

البارودي، وقد سافرت هذه الحملة من الإسكندرية في ذلك العام نفسه.

ومن أعمال البارودي البطولية في هذه الحملة استدراج حوالي ٣٠ ألفًا من ثوار كريت (انظر ماده كريت) إلى مضيق بين جبلين، وقطع خط الرجعة فطلبوا الاستسلام، وألقوا أسلحتهم، فساقهم أسرى إلى مقر القيادة العامة.

وفي غمرة الحرب وويلاتها أطلق لخياله العنان، وطفق يصف المعارك بشعر رصين، ويصف ما صادفه من لهو في أوقات الفراغ، ومن وصفه في هذا اللون العابث الذي يدل على تذوقه بنت الراح وهو مايزال في ميعة الشباب قوله:

وذي نخوةٍ نازعتُهُ الكأسَ مَوْهِنًا
على غِرَّةِ الأحراسِ والليلُ دامسُ

فمازلتُ أسقيهِ وأشربُ مثلهُ
إلى أنْ هفا سكرًا وإني لجالسُ

فبِتُّ أقيهِ السوءَ إذ كان صاحبي
وأحرُسُهُ إنِّي لدى الخوفِ حارسُ

لدى موطنٍ لا يصحبُ المرءَ قلبُهُ
حَذَارًا ولا يَسْري إليه الهواجسُ

عَدُوٌّ وليلٌ مظلمٌ وصواهلٌ
تجاذَبُ في أرسانِها وتمارسُ

فلما استهل النور وانحسر الدُّجى
قليلاً وحنت للصباح النواقسُ

دنوت أفدّيه وأغمز كفّه
برفقٍ وأدعو باسمه وهو ناعسُ

فجاوبني والسكرُ في لحظاتهِ
يسائلُ ماذا تبتغي وهو عابسُ

فقلتُ أفقْ هذا هو الصبحُ مقبلٌ
علينا وهذي في الذهابِ الحنادسُ

وناولته كأسًا فمدّ بنانَهُ
إليها على كرهٍ به وهو يائسُ

فما ذاقها حتى تهلل ضاحكًا
وأقبلَ مسرورًا بما هو آنسُ

ومن شيمي بذل الوداد لأهلهِ
كذلك إنِّي في الودادِ أنافسُ

وتستغرق الحرب على جزيرة كريت عامين يحن في أثنائها إلى وطنه مصر، وينشد الأشعار تفيض بهذا الحنين الصادق.

ويعود البارودي في أول أكتوبر عام ١٨٦٧م (١٢٨٤هـ) فيقلد الوسام العثماني من الدرجة الرابعة، ويتربع منذ ذلك الحين على عرش زعامة الشعر في القطر المصري دون منازع.

وكان الحكم العثماني قد جعل الجهل، وجمود الفكر، وخمود الروح القومية، ويُخيّم على الأمة العربية، ومن ثمَّ أخذ الأدب العربي يتردّى في وهدة الضعف، والركود القاتم، فكان الشعراء أمثال الخشاب، وحسن العطار، وشهاب الدين، والشيخ الدرويش (انظر هذه المواد) ينظمون القصائد المستغرقة في التكلف والإلغاز، وجاء بعدهم جيل آخر يتزعمه محمود الساعاتي الذي أخذ عن الشيخ الدرويش (انظر مادة محمود الساعاتي) ويضم علي أبا النصر، وصالح مجدي، وعلي الليثي، ومحمد النجار، وعبد الله النديم (انظر مواد هؤلاء الثلاثة)، وكان همّ هؤلاء الشعراء إدخال النكات على أشعارهم ليُضحِكوا جلساءهم في المنتديات، ولذلك كان شعر البارودي كالفجر الجديد، إذ ارتفع بالقريض عن عبارات الابتذال، ووثب بالأسلوب الشعري وثبة منفرجة نأت به عن الركاكة والضعف ورجعت به إلى الرصانة القديمة وخلصته من تكلف البديع وأثقاله ونفخت فيه من روح الأصالة الحقة، وكان ذلك حصيلة ما قرأ من الشعر القديم لشعراء الجاهلية، والشعراء المخضرمين، وفحول الشعراء من المحدثين، وأفاد من صياغاتهم، وتعبيراتهم أكبر الفائدة.

ولم يقلد شعراء عصره فكان شعره يصدر عن إحساس عميق في وجدانه النفسي وعن مظهر فني أصيل، فشعره يعبر في صدق عن أحاسيس نفسه، وعما يجول في أفكاره من الأخيلة والصور.

ولم يسخر شعره لمدح العظماء على غرار معاصريه فصعد به إلى أعلى مكانة، وفي ذلك يقول: «إنني أنظم الشعر لا تذرعًا إلى وجه أنتويه، ولا تطلعًا إلى غنم أحتويه، وإنما هي أغراض حركتني، وإباء جمح بي وغرام سال على قلبي، فلم أتمالك أن أهبت فحركت به جرسي، أو هتفت فسرَّيت به عن نفسي».

ومن خصائص شعره، أنه كان يستخدم عينيه لالتقاط الصور وتصوير الواقع في بساطة، وسلاسة وقوة تحس معها بإرسال النفس على سجيتها، لأنه لا يتكلف، ولا يعمد إلى التعقيد.

والواقع هو أن البارودي كان مرهف الحس يصدر شعره عن وعي يدرك في دقة تامة كيف يتطلع إلى الأشياء فيحسن وصفها، ويجيد الإمعان في الروحانيات، فيسطّر عنها ما يجعل قارئيه يشعرون بالانفعالات النفسية التي تعتمل في فؤاده نابعة من قرارة إحساسه.

وموهبة الوصف الرائع لا نجدها في جميع الكتاب والشعراء لأن شرائطها الذهنية والوجدانية لا تتوفر لكل فكر أو مخيلة، فهي تتطلب قوة الحافظة، والقدرة على ترتيب المرئيات والحوادث والانفعالات النفسية التي يراها أو يشعر بها الإنسان في الماضي لينفثها منظومة في قالب بديع السياق، كلما عرضت أمثالها على بصيرته الواعية، أو حان الوقت الملائم لعرضها في المستقبل.

وكل هذه الشرائط تهيأت لشاعرنا البارودي، فحياته المليئة بالأسفار، وشعوره المرهف، وحبه الخلال الكريمة، ووطنيته الصادقة، وثقافته التي اتسعت دائرتها بالمطالعة والحفظ، كل هذه الاعتبارات مجتمعة كانت من أولى العوامل التي أقامت من البارودي وصّافًا مبدعًا في عرض الصور التي يضعها نصب أعين القراء في قريضه السلس، الجزل العبارة.

ويدل في وضوح على دقة وضعه للمرئيات وهو مايزال في السابعة والعشرين من العمر قصيدته التي نظمها في جزيرة كريت (إقريطش) ويقول في مطلعها:

أخذَ الكرى بمعاقدِ الأجفانِ
وهَفَا السَّرَى بأعنّةِ الفرسانِ

والليلُ منشورُ الذوائبِ ضاربٌ
فوقَ المتالعِ والرُّبى بجِرانِ

لا تستبينُ العينُ في ظلماتِه
إلا اشتعالَ أسنةِ المرانِ

تسْري به ما بين لَجَّةِ فتنةٍ
تسمو غوارِبها على الطوفانِ

في كلِّ مُرْبأةٍ وكلِّ ثنيّةٍ
تهْدَارُ سامِرةٍ وعزفُ قِيانِ

تسْتَنُّ عاديَةٌ ويصهلُ أجردٌ
وتصيحُ أجراسٌ ويهتفُ عانِ

ففي القصيدتين المدوّنتين قبل، نرى لوحتين واضحتي المعالم لما كانت عليه حياته في أثناء حرب كريت من عبث، وخمر، ورفيق مخمور، وأجراس تدق عند الفجر من أبراج الكنائس وتهلل هذا الرفيق بعد الاستزادة من كؤوس الراح، وطائفة الحراس في بلاد الغربة، والأعداء على مقربة من الصديقين. وكل هذا الوصف يجعل المصور لا يجد أي عناء في رسم لوحة تضم جميع هذه المشاهد لتوحي ألوانها بكافة ما أراد البارودي عرضه على قارئ أبياته من صور واضحة. وفي القصيدة الثانية عرض لحالات شاعرنا النفسية ودقة متقنة في وصف المشاهد التي خبرها في ساحة القتال، وحنين صادق إلى وطنه في الأبيات المتممة للقصيدة ولم تذكر وإبراز خبايا نفسه إزاء الحوادث ونكايات خصومه، ومن ذلك الحين ظهرت عبقريته الفذة في الشعر الوصفي التصويري الذي امتاز به جميع أطوار حياته الشعرية.

وعقب عودته من حرب كريت جعل قصره بالقاهرة منتدى الأدباء والشعراء يؤمه صفوة القوم وتقرأ فيه أمهات الكتب العربية والدواوين، واستمر شاعرنا ينعم بهذه الحياة الأدبية الرتيبة ثمانية أعوام يقطع أيامها بين ندوات قصيرة بباب الخلق وبين قصور الخديوي إسماعيل الغامرة بألوان الترف والبذخ والإسراف في الصرف على الغواني والجواري والقيان، وفي هذه الفترة المترفة نظم البارودي أعذب شعره الغزلي في الحسان فيقول في إحدى قصائده الغزلية:

إنْ كانَ يُرْضيكِ ما ألقاهُ من كمدٍ
في الحبِّ مُذْ غِبْتِ عَنِّي فهو يُرْضيني

لم ألقَ بَعْدَكِ يومًا أستبينُ به
وَجْهَ المسرَّةِ إلا ظلَّ يُبْكيني

قد كنتُ لا أكتفي بالشملِ مجتمعًا
فاليوم نظرةُ عينٍ منكِ تكْفيني

ولم تكن هذه الحسناء التي ناجاها بهذه الأبيات العذبة الجرس، إلا إحدى الحسناوات التي تغنى البارودي بجمالهن وعشقهن طوال المدة التي قضاها في قصور الخديوي إسماعيل يمرح في الترف والبذخ المسرف، فقد نسج الشعر الغزلي الرقيق في محبوبات أخريات، فيصف بهذا الشعر الجزل ليلة قضاها مع ليلاه في حلوان فيقول:

في نشوةِ الخمرِ سرٌّ من مَراشِفها
وفي الأراكَةِ شكلٌ من تَهادِيَها

يا ليلةً بتُّ أُسقَى من بنانَتِها
ومِنْ لواحظِها خمرًا ومن فِيهَا

حتى إذا رفَّ خيْطُ الفجرِ وابتدَرَتْ
حمائمُ الأيكِ تشْدُوا في أغانيها

قامت تمايلُ سَكْرَى في مآذِرِها
والروعُ يَبْعثُها طورًا ويُثْنيها

فعدتُ والعينُ غَرْقَى في مَدامِعِها
والقلبُ في لوعةٍ تنزو نوازيها

ولعل في هذا الغزل الوصفي التصويري ما يدل في وضوح على براعة البارودي في فنون الوصف الشعري إلى أبعد الآفاق. ومن غزله العذب نستشف صدوره عن فؤاد لا يتكلف الحب بل يفيض به، أما في خمرياته فهو صادق التعبير يصدر شعره في هذا اللون عن خبير مارس شرب الراح، وتذوق نشوتها.

وظل شاعرنا منطلقًا في رياض لهوه يتغنى بالحسن، ويعشق الجمال، ويقول بعض القصائد في الفخر حتى أواخر عام ١٢٨٤هـ (١٨٦٧م) إذ تزوج بالسيدة عديلة يكن.

ويعد عام ١٢٨٥هـ (١٨٦٨م) فاصلاً بين مرحلة اللهو التي كان يعيشها، ومرحلة الجد، وتحمل التبعات، والرجوع بوجداناته الروحية إلى الهداية، والشعور بالفيض المتأجج للوطنية الصادقة والعمل المثمر من أجل المجتمع، والاشتراك الفعال في النضال الوطني، وكان قد بلغ التاسعة والعشرين من العمر.

وفي هذا العام نفسه استشرى ظلم الخديوي إسماعيل، وأفراد حاشيته، وعلى رأسهم نوبار باشا، وإسماعيل صدقي المفتش (انظر مادتي نوبار باشا والمفتش)، وكان البارودي يرى هذا الظلم الجائر ولا يقوى على دفعه، فسخر شعره، وطفق يحث مواطنيه على إشعال لهيب الثورة ويقوله:

فيا قومُ هُبُّوا إنما العمرُ فرصةٌ
وفي الدهرِ طُرْقٌ جمةٌ ومنافعُ

أصِبْرًا على مسِّ الهوانِ وأنتمو
عديدُ الحَصَى؟ إنِّي إلى اللَّهِ راجعُ

وكيف تَرَوْنَ الذلَّ دارَ إقامةٍ
وذلك فضلُ اللهِ في الأرضِ واسعُ

فكونوا حَصِيْدًا خامدينَ أو افزعوا
إلى الحربِ حتى يدفع الضيمَ دافعُ

وعندما صدر الفرمان العثماني في ٨ من شهر يوليو عام ١٨٧٣م (١٢٩٠هـ) بجعل وراثة العرش في مصر للابن الأكبر للخديوي نُصِّب محمد توفيق (انظر مادة توفيق باشا) وليًّا للعهد، واتخذ البارودي كبيرًا ليورانه (أي حاشيته)، وبعد عامين أي في سنة ١٨٧٥م (١٢٩٢هـ) عُيِّن سكرتيرًا خاصًّا للخديوي إسماعيل الذي غرق في الديون حتى باع أسهم قناة السويس في نوفمبر من ذلك العام لبريطانيا فمهد بذلك الطريق لهذه الدول الاستعمارية لاحتلال البلاد، وفرض جبروتها الغاشم على المصريين.

ويثور البارودي على هذه الأوضاع التي تتعارض مع مصلحة وطنه، وحقوق أهل مصر، ويدعو إلى الثورة ضد كل ذلك، مع أنه المنعم الثري الذي يعيش في أحضان النعم السابغة والعز المقيم، ولعل في هذه الثورة النفسية أقوى العناصر التي تدحض قول من اتهموه وشهّروا بوطنيته قائلين إنه دعا إلى الثورة لأغراض شخصية.

وفي إبريل عام ١٨٧٧م (١٢٤٩هـ) سافر البارودي ضمن الحملة المصرية لمساعدة تركيا في حربها ضد روسيا، وبعد أربعة أشهر وصل الجيش المصري إلى أوكرانيا، ولكن تركيا اضطرت إلى الموافقة على معاهدة (سان ستيفانو) في مارس عام ١٨٧٨م (١٢٩٥هـ) وعاد البارودي ورُقِّي إلى رتبة اللواء، ومنح الوسام المجيدي من الدرجة الثالثة، ونيشان الشرف لما بذله من الشجاعة والبسالة في تلك الحرب.

وعُيِّن في إبريل عام ١٨٧٨م (١٢٩٥هـ) مديرًا للشرقية فمكث في هذه الوظيفة أربعة أشهر شاهد خلالها ما يلقاه الفلاحون من المظالم، والعسف على أيدي أعوان الخديوي إسماعيل.

ثم عُيِّن وزيرًا للأوقاف في مستهل عهد الخديوي توفيق، ويؤخذ عليه أنه لم يحرك ساكنًا في ذلك الحين عندما صدر أمر الخديوي بنفي المصلح الاجتماعي جمال الدين الأفغاني في ٦ من رمضان عام ١٢٩٦هـ (١٨٧٩م)، على حين أن البارودي كان من أصدق مريديه، ومن أحلف أنصاره، وقد عومل الأفغاني (انظر هذه المادة) بغاية القسوة إذ قبض عليه، وهو في طريقه إلى بيته، ونقل على الفور إلى السويس حيث استقل باخرة رست به في بمباي بالهند، ولم تتورع الوزارة – وفيها البارودي – عن اتهامه كذبًا بأنه سعى في الأرض بالفساد، وأنه يرأس جمعية سرية من الشبان الطائشين مجمعة على إفساد الدين والدنيا.

كما يؤخذ على البارودي خروجه على الاتفاق الذي عقده شريف باشا مع الوزراء بألا يشتركوا في وزارة جديدة إلا إذا وافق الخديوي على البرنامج الدستوري، فقد بادر إلى الانضمام إلى وزارة مصطفى رياض باشا (انظر مادة رياض باشا)، وهو يعلم مدى استبداده، وبغضه للشورى، وخضوعه للنفوذ الأجنبي الأوروبي.

وفي وزارة الأوقاف أنشأ المساجد، والمساكن، وجمع الكتب، والمخطوطات التي كانت النواة لدار الكتب التي أشرف على إنشائها علي باشا مبارك (انظر هذه المادة).

ويقال إن البارودي قَبِلَ الدخول في وزارة رياض باشا ليظل أمر الضباط الأحرار سرًّا إذ كان مرشدهم، وقد تأثر هؤلاء الضباط بما حدث في حرب الحبشة حيث قتل أكثر من ٨٥٠٠ ضابط وجندي من المصريين بسبب المستشار الأمريكي، وخضوع رئيس الحملة لآرائه بعد أن عزل

عبد القادر باشا حلمي (انظر هذه المادة) وكان النصر قريبًا على يديه.

ومازال تفسير هذا السلوك المتناقض في حياة البارودي في حاجة إلى الإيضاح لثبوت حقيقته أو بطلانه.

ولما حصرت الترقيات بين الضباط في الجركس والأرناؤوط، وافق البارودي على طلب الضباط المصريين الإنصاف، ويقول عبد الله النديم (انظر هذه المادة) في مذكراته إن البارودي هو الذي أخبر الضباط الأحرار وعلى رأسهم أحمد عرابي (انظر هذه المادة) بأن وزارة رياض باشا برياسة الخديوي توفيق نفسه، قررت في ٣١ يناير عام ١٨٨١م (١٢٩٩هـ) اعتقالهم ومن ثم استطاعوا أن يجمعوا فرقة الحرس، وفرقة طرة وأن يذهبوا إلى ساحة قصر عابدين مطالبين بالإنصاف، ومساواة الضباط المصريين بالجركس والأرناؤوط، فأشار البارودي على توفيق بالاستجابة إلى مطالبهم فخضع لرأيه على مضض.

وإثر ذلك تولى البارودي وزارة الحرب ثم استقال من الوزارة في ٢٢ أغسطس عام ١٨٨١م (١٢٩٩هـ) فحدد رياض باشا إقامته في ضيعته بمركز أجا بمديرية الدقهلية، وفي هذه الأثناء كان يتردد على القاهرة، ويجتمع بالضباط في منـزله.

وفي ١٤ سبتمبر من ذلك العام نفسه، تولى وزارة الحرب في وزارة شريف باشا، عقب استجابة الخديوي توفيق لمطالب رجال الجيش.

ولما استقال شريف باشا بسبب منع المجلس من الإشراف على الميزانية، كما كان الإنجليز والفرنسيون يطلبون، عُيِّن البارودي رئيسًا للوزارة في فبراير عام ١٨٨٢م (١٣٠٠هـ) وأطلق عليها وزارة الثورة، وكانت هذه الوزارة تضم أحمد عرابي وزيرًا للحربية، والبحرية، ومحمود فهمي للأشغال، ومصطفى فهمي للخارجية والحقانية، وعبد الله فكري للمعارف، وحسن الشريعي للأوقاف.

وأسرع البارودي في التقدم بالدستور الكامل إلى مجلس الشورى، ونص في صلبه على حق النواب في نظر الميزانية، وكان ذلك في ٨ فبراير عام ١٨٨٢م.

وثار الرجعيون ضد البارودي عندما ندد بالخديوي توفيق الذي لم يرد التصديق على معاقبة الذين حاولوا اغتيال الزعماء الأحرار، وعندما أظهر توفيق موافقته على زيارة الأسطول الأجنبي لمصر شد ساعد الرجعية وعلى رأس أفرادها سلطان، ومن ثم طلب الخديوي من البارودي وأحمد عرابي الاستقالة، فجمع البارودي الضباط في ثكنات عابدين، وأقسموا يمين الوفاء للثورة على المصحف والسيف.

وفي ٢٥ مايو عام ١٨٨٢م (١٣٠٠هـ) طلبت فرنسا وبريطانيا من الخديوي توفيق إقالة وزارة البارودي، ونفي الزعيم أحمد عرابي خارج القطر المصري، وتحديد إقامة علي فهمي، وعبد العال حلمي (انظر هاتين المادتين) في الريف، فرفض البارودي مذكرة الدولتين التي كانت تهدف إلى إرغام المجلس على قبول اللائحة التي أعداها، وقبلها الخديوي في ٢٦ مايو من العام نفسه.

واضطر البارودي بعد ذلك إلى الاستقالة فشعر الناس بالأسى، وتقلُّب الجو السياسي، وتلبده بالغيوم وأجمعوا على مناصرة البارودي، والزعيم أحمد عرابي، واعتبروا الخديوي خائنًا للوطن، وأصدر علماء الأزهر فتوى بخيانته.

وكان البارودي يدعو إلى قيام جمهورية مصرية مستقلة عن تركيا – بعد خلع الخديوي توفيق – تمثل الوحدة العربية بانضمام سوريا والحجاز إليها.

وعقب ضرب الإسكندرية بالقنابل من الأسطول الإنجليزي في ١١ يوليو عام ١٨٨٢م (١٣٠٠هـ) تولى البارودي مع يعقوب سامي، وكيل الجهادية تهيئة الأمة للقتال، وتنظيم الخطوط الخلفية وتوفير الإمدادات للجيش.

وعندما احتل البريطانيون بورسعيد والإسماعيلية (انظر هاتين المادتين) وتوغلوا في منطقة القناة عُيِّن البارودي قائدًا لموقع «الصالحية» فأطاع الأوامر على مضض لأنه كان يعرف أن المعركة خاسرة بسبب تفوق الإنجليز في العدد والعتاد الحربي الحديث، وكان قد نصح هو ومحمود فهمي رئيس أركان الحرب في ذلك الحين بسد قناة السويس، ولكن أحمد عرابي عارض هذا الرأي معتمدًا على وعد «فردنان دي ليسبس» ببقاء القناة على الحياد بضمان فرنسا.

وفي منطقة الصالحية أخذ البارودي في إقامة الاستحكامات والاستعداد لمواجهة الأعداء، ثم أسهم بعد ذلك في معركة القصاصين، وكانت الخيانة قد أخبرت الإنجليز بخطط هذه المعركة، ولكن على الرغم من ذلك ظلّ البارودي يحارب إلى أن فني معظم جنوده.

وبعد موقعة التل الكبير (انظر هذه المادة) انسحب بما بقي من جيشه إلى أبي كبير (انظر هذه المادة) وأبلغ أحمد عرابي بمكانه، غير أن المجلس العرفي كان يبحث في التسليم، فذهب البارودي إلى القاهرة، وأوضح أنه يرى الاستمرار على القتال والانسحاب إلى الصعيد، وتكوين جيش جديد إذ هناك يستطيع الحصول على مساعدات الدول الإسلامية مثل ليبيا والسودان.

ولكن القاهرة استسلمت في ١٥ يولية عام ١٨٨٢م (١٣٠٠هـ) وزُجّ بالبارودي في السجن، ولم يخن رفاقه في القتال، ولم يطعن ثورتهم من الخلف.

وبعد المحاكمة الصورية التي كانت تهدف إلى تغطية خيانة الخديوي توفيق، وحكم الشعب عليه، حُكِم على البارودي، وأحمد عرابي، ورجال الثورة الآخرين بالنفي المؤبد إلى جزيرة سيلان، وكان البارودي أفجعهم مصابًا لأنه كان يملك القصور، وقد صُودرت جميعها تبعًا للحكم عليه بالنفي.

وفي ٢٨ ديسمبر عام ١٨٨٢م (١٣٠٠هـ) أبحرت بالزعماء الباخرة الإنجليزية «مريوتس» من السويس، ووصلت إلى المنفى في ٩ يناير عام ١٨٨٣م (١٣٠١هـ)، فاستقبلوا بحفاوة بالغة، وأعدت الحكومة أربعة منازل لإقامتهم.

وقد أنشد البارودي مبديًا حزنه الأليم لما أصابه من ضيم واغتراب بسبب دفاعه عن الوطن، ومظهرًا أسفه لما كذب عليه بعض الحاقدين فقال:

فهل دفاعيَ عن ديني وعن وطني
ذنبٌ أُدانُ به ظلمًا وأغْتربُ

أثريتُ مجدًا، فلم أعبأ بما سَلبتْ
أيدي الحوادثِ مني، فهو مكتسبُ

وما أبالي ونفسي غير خاطئةٍ
إذا تخرَّصَ أقوامٌ وأن كَذِبوا

وفي عام ١٨٨٥م (١٣٠٣هـ) علم بموت زوجته بعد مرض اليرقان، والكبد، والمرارة التي عانت منه ما عانت فحزن أشد الحزن لفقدها، ونفث حزنه في حرارة كادت تودي بما أبقت أيام الشؤم في جنانه من ثبات في أبيات تفيض بالحزن العميق الصادر عن قلب عامر بالشمم وعلو النفس فيقول:

أيَدَ المنونِ قدَحْتِ أيَّ زنادِ
وأَطَرْتِ أيةَ شعلةٍ بفؤادي

أوْهَنْتِ عَزْمي وهو حملةُ فيلقٍ
وَحَطَمْتِ عودي وهو رُمْحُ طِرادِ

لم أدْرِ هل خطْبٌ ألَمَّ بساحتي
فأناخَ، أمْ سَهْمٌ أصاب سوادي

ثم يناجي هذه الزوجة فيقول لها:

أسليلةَ القمرين، أيُّ فجيعةٍ
حَلَّتْ لفقدك بين هذا النادي

أعزز عليَّ بأنْ أراكِ رهينةً
في جوفِ أغبَر قاتم الأسدادِ

لو كانَ هذا الدهرُ يقبلُ فديةً
بالنفسِ عنكِ، لكنتُ أوَّلَ فادي

ثم يخاطب الدهر بقلب كسير لهذه الفاجعة فيقول:

يا دهرُ فيم فجعتني بحليلةٍ؟
كانت خُلاصةَ عُدَّتي وعَتادي

إنْ كنتَ لم ترحم ضناي لبعدها
أفلا رَحِمتَ منَ الأسى أولادي

ولكن حزن البارودي على هذه الخليلة لم يطل ففي عام ١٨٨٥م، نفسه تزوج أمينة ابنة زميله في المنفى يعقوب سامي، ولعل له العذر في ذلك، فالزواج بعد موت الزوجة له ما يبرره، ولا ينقص من ألم النفس الصادق على الزوجة الفقيدة.

والواقع هو أن البارودي كان بارعًا في الرثاء، فأبياته في هذا اللون من القريض تحمل القارئ على مشاركته الحزن والتوجع، فاسمع إليه يرثي ولده بهذه الأبيات:

كيفَ طوتكَ المنونُ يا ولدي
وكيفَ أَودعتُكَ الثرى بيدي

واكبدي «يا عليُّ» بعدَكَ لو
كانت تَبِّلُ الغليلَ واكبدي

فقدُكَ سَلَّ العظامَ منِّي ور
دَّ الصبر عنِّي وفَتَّ في عضدي!

كمْ ليلة فيكَ لا صَباحَ لها
سهرتُها باكيًا بلا مَدَدِ

دمْعٌ وسهدٌ وأي ناظرةٍ
تُبْقي على المدمعينِ والسُّهدِ

وذاق البارودي مرارة المنفى طويلاً، ولم ترض حكومة الخديوي توفيق برياسة رياض باشا (انظر هذه المادة) نقله هو ورفاقه إلى جزيرة قبرص لملاءمة جوها، وفي جزيرة سيلان رُزِق من زوجته الثانية «أمينة» بأولاده: قمرية وفاطمة وزينب ومشيرة وأشرف وإبراهيم كمال، وكان قد أتقن اللغة الإنجليزية، ولم يسجل أولاده هناك لكيلا يعتبرهم الإنجليز من الرعايا البريطانيين.

وكان يؤم الناس للصلاة في «كندى» التي نقل إليها ويعتلي المنابر لإلقاء خطبة الجمعة، ويقرأ للناس الكتب الدينية زاهدًا في الدنيا، وينظم القصائد ومن بينها الملحمة النبوية التي سماها «كشف الغمة في مدح سيد الأمة» وهي نهج قصيدة البردة للبوصيري (انظر مادة سيدي البوصيري).

وفي هذا المنفى السحيق يصف أهل سيلان الذين أجْبَرَه الحظ العاثر، ونكد الطالع على معاشرتهم، فيقول في رسائله إلى بعض أخصائه في مصر:

ولكنني أصبحتُ في دارِ غُربةٍ
مقيمًا لدى قومٍ على البدِّ عُكَّفِ

زعانفُ هدَّاجُونَ في عُرَصاتِهم
كخيطِ نَعَامٍ بين جَرْداءَ صفْصَفِ

حُفاةٌ عُراةٌ غيرَ أخلاقِ صُدْرَةٍ
تطيرُ كنسْجِ العنكبوتِ المُسَدَّفِ

يمُجُّونَ من أفواهِم رشحَ مُضغةٍ
كَنَضْحِ دَمٍ يُنْهَل من أنفِ مُرْعَفِ

إذا رَطَنوا بعضًا سَمِعتَ لصوتهم
عزيفًا كجنٍّ في المفاوز هُتَّفِ

ورسم بشعره الوصفي التصويري صورة لشخصه في جحيم المنفى، وما وصلت إليه حالته الصحية من الضعف والشيخوخة وقصر الإبصار، فيقول من القصيدة التي رثى بها صديقه الشيخ حسن المرصفي، وعبد الله باشا فكري (انظر هاتين المادتين):

كيفَ لا أَندُبُ الشبابَ وقد أصـ
ـبحتُ كهلاً في محنةٍ واغترابِ

أخلَقَ الشيبُ جِدَّتي وكساني
خلعةً منهُ رثَّة الجلبابِ

وَلَوَى شَعْرَ حاجِبيَّ على عيـ
ـنيَّ حتى أطلَّ كالهُدَّابِ

لا أرى الشيء حين يسْنحُ إلا

كخيالٍ كأنني في ضِبابِ

وإذا ما دُعيتُ حِرْتُ كأني

أسمعُ الصوتَ من وراء حجابِ

كلما رُمتُ نهضةَ أَقْعَدَتني

ونْيَةٌ لا تقِلُّها أعصابي

لم تدعْ صوْلَةَ الحوادثِ منِّي

غيرَ أشلاءَ همةٍ في ثيابِ

وليس من المغالاة في شيء إذا أكدت أن البارودي كان من أحسن مبدعي الصور فيما نظم من قصائد، وإذا تطرقنا في هذه الناحية إلى الأدب المقارن نجد أنه يشبه في شعره التصويري الشاعر الفرنسي «ألفريد دي فيني Alfred de Vigny» الذي يقول في بيت واحد من أشعاره ما ترجمته:

أحبُّ صوتَ البوقِ

في المساءِ في عمقِ الغابةِ

إذ في هذا البيت الفرد وصف دقيق كامل التصوير لرنين صوت بوق الصيد عند مستهل الليل الساكن، في غابة نائية يتذوق الشاعر في عمقها أنغام موسيقى الصيد، والبيت الذي نظمه «دي فيني» بالفرنسية هو:

J′ aime le son du cor, le soir au fond du bois

وإذا ألقينا نظرة فاحصة على قصيدتي البارودي المدونتين قبل، والتي قالها وهو يذوق مرارة الاغتراب والمرض والعجز؛ لوجدنا أن كلاًّ منهما تصلح أن يتناولها الرسام بريشته ليجعل منهما لوحتين تمثل الأولى أهل جزيرة سيلان في ذلك العهد، وتمثل الأخرى شاعرنا البارودي وقد تدلى شعر حاجبيه وهو يُصْغي في عناء إلى متحدث، وقد حنت الشيخوخة ظهره فأقعدته عن النهوض النشط، كما كانت حالته في عهد الشباب والرجولة.

ولقد أبدع البارودي في الوصف التصويري في كثير من مراحل حياته، ففي عهد الشباب ومرحه يقول هذه الأبيات الرقيقة التي تمثل لوحة يتسم لها كل من يلمحها ببصيرته:

سَرَتْ على التهادِي

مثل المَهَاةِ بِشُبْرَهْ

فقلتُ هَلْ من وِصالٍ

يكونُ للحب أجْرَهْ؟

فاستضحكتْ ثم قالتْ

على الخديعةِ بُكْرَهْ!

ففي هذه الأبيات صورة كاملة تستحق أن تعبر عنها ريشة المصور برسم يوضع في إطار مذهب ويحلى به أحد جدران منازل عشاق الأدب، والفن التشكيلي البديع، ويقول مصورًا إحدى ليالي عبثه في مرحلة الشباب:

أدر الكأسَ يا نديم وهاتِ

واسقِنيها على جَبين الغَدَاةِ

شاقَ سمعي الغِناءَ في رَوْنَقِ الفجـ
ـر وسجَع الطيور في العَذباتِ

أيُّ شيء أشْهَى إلى النفس من كأ
سٍ مُدارٍ على بساطِ نباتِ

باسِمِ الزهرِ عاطر النشر هامي الـ
تعطرِ واني الصَّبَا عليلَ المَهَاةِ

إلى أن يقول عن زملائه في هذه الليلة الحمراء:

يتساقونَ بالكؤوسِ مُدامًا
هي كالشمسِ في قميصِ إيَاةِ

في أباريقَ كالطيورِ اشرأبَّتْ
حذرَ الفَتكِ من صياحِ البُزاةِ

حانيات على الكؤوسِ من الرأ
فةِ يُرْضِعْنَهُنَّ كالأمهاتِ

فالتصوير الحسي في هذه القصيدة لا يبارى، فهو يضع أمام بصيرة القارئ صورة واضحة تفصِّل جوانب تلك الليلة المرحة التي قضاها البارودي بين الكأس، والطاس، والخلان في سُكْر، وفرح، حتى ليخالها القارئ من ليالي أبي نواس الخمرية الماجنة.

وفي ليلة عابثة أخرى يشدو البارودي بهذه الأبيات العذبة الجرس:

ويارُبَّ ليلٍ لفَّنَا بردائه
عِناقًا كما لفَّ الصَّبَا البانَ والرَنْدا

ولثم توالى إثر لثمٍ بثغرَها
كما شافه البازي على ظمإٍ وردا

فتاة كأنَّ اللَّهَ صوَّرَ لحظَها
ليهتكَ أسرارَ القلوبِ به عَمْدَا

لها عبثاتٌ عند كلِّ تحيةٍ
تسوقُ إليها عن فرائسها الأُسدَا

إذا انفتلت بالكأسِ خلت بنانها
يدير علينا من جَنَى خَدِّها وَرْدَا

حرامٌ على العينين إن لم تسلْ دمًا
على بينها والقلب إن لم يُذِبْ وقْدَا

فالعبارات الجزلة التي تضمها هذه الأبيات الغزلية الرقيقة تعبر عن هذه الحسناء التي جالسها البارودي أصدق تعبير فتجعل القارئ يتحسس جمالها بيدي الخيال كأنه يراها ويدنو منها في حلم لذيذ.

ولم يثن البارودي الاغتراب، والوحدة، وذل المنفى عن عزة نفسه القوية، ولا عن السمو في الأخلاق الذي كان يقوده دائمًا في طريق الفضيلة، فإذا خلا لنفسه في منفاه دفعته عظمته الثائرة إلى القول:

إذا المرءُ لم يدفع يد الجَورِ إن سَطَتْ
عليه فلا يأسَفْ إذا ضاع مَجْدُهُ

ومَنْ ذَلَّ خوفَ الموتِ كانت حياتُهُ
أضرَّ عليه من جمامٍ يَؤُدُّهُ

وأقتلُ داءٍ رؤية العين ظالمًا
يُسيءُ ويتلى في المحافل حمدُهُ

علامَ يعيشُ المرءُ في الدهرِ خاملاً
أيفرحُ في الدنيا بيوم يَعُدُّهُ

يرى الضيمَ يغْشاهُ فيلْتَذ وقْعَهُ
كذِي جَرَبٍ يلتذُّ بالحك جِلدُهُ

إذا المرءُ لاقى السيلَ ثُمتَ لم يَعُجْ
إلى وَزَرٍ يحميهِ أرداهُ مَدُّهُ

عفاء على الدنيا إذا المرء لم يعشْ
بها بطلاً يحمي الحقيقة شَدُّهُ

فالحض على الإقدام، والمطالبة بالحقوق في غير هوادة، وملاقاة الموت عند الضيم، والحث على الابتعاد عن التملق، ومدح المسيء، كل هذا نراه ماثلاً في الأبيات المدونة قبل التي تزيدها الحكمة الرصينة تأثيرًا على النفس.

والبارودي كان شاعر السيف والقلم بين شعراء العهد الحديث، علاوة على تربعه فوق أريكة السيادة بين شعراء عصره، فهو إذا تركت له همومه متنفسًا، وتذكر مغامراته الحربية أخذ يفخر بثبات عزيمته، ويحدثك في صدق عن شتى الشيم التي تتجاذب نفسه، وهو يخوض غمار المعارك في غير وجل فتأتي الأحداث مصدقة لما قاله في هذا الصدد؛ إذ تسجل له في سفر التاريخ العام صفحة خالدة من صفحات البطولة النادرة، وإليك الشاهد على ذلك في الأبيات التالية:

سِوايَ بِتَحْنانِ الأغاريد يَطْرَبُ
وغيريَ باللذات يلهو ويعجبُ

وما أنا ممن تأسرُ الخمرُ لبَّهُ
ويملك سمعيهِ اليَرَاعُ المثقبُ

ولكن أخو همٍّ إذا ما ترجَّحتْ
به سورةٌ نحو العُلى راح يدْأبُ

ففي النومَ عن عينيه نفسٌ أبية
لها بين أطرافِ الأسِنَّة مطلبُ

بعيدُ مناطِ الهَمِّ فالغربُ مشرقٌ
إذا ما رَمَى عيْنَيْهِ والشرقُ مَغْرِبُ

له غَدَواتٌ يتبع الوحشُ ظِلَّها
وتغدو على آثارها الطير تنْعَبُ

همامةُ نفسٍ أصغرتْ كلَّ مأربٍ
فكلَّفَتْ الأيامَ ما ليس يُوهَبُ

ومن تكن العلياءُ هِمَّةَ نفسهِ
فكلُّ الذي يلقاهُ فيها مُحَبَّبُ

إذا أنا لم أعْطِ المكارمَ حقَّها
فلا عزَّني خالٌ ولا ضمَّني أبُ

إلى أن يقول:

خلقتُ عَيوفًا لا أرى لابن حرة
لديَّ يدًا أُغْضي لها حينَ يَغْضَبُ

فلست لأمرٍ لم يَحِنْ متوقعًا
ولست على شيء مضى أتَعَتّبُ

هذه هي بعض جوانب شعر البارودي الوصاف المصور، الذي يزين وصفه الصدق فيما يقول عن المرئيات المادية التي تعرض له، والذي يجمِّل وصفه وتصويره للأحاسيس التي تخالج نفسه التعبيرات ذات المعاني المنتقاة، فهو إذا وصف الحرب فلأنه خاض غمارها، وأسهم في انتصارات الجيوش المصرية بنصيب مرموق، وهو إذا فاخر فلأنه جدير بالفخر لمعرفته الحقة لقدر نفسه، وهو إذا رثى فلأنه فقد الأعزة وتوجع وتألم لفقدهم، وهو إذا تغزل فلأنه أحب فعبّر عما اعتمل بقلبه من هوى وصبابة وهيام.

ولم يتعد جادة الصواب أولئك النقاد الذين أكدوا أن البارودي كان نجمًا طارقًا جديدًا له هالة من الضياء المشرق، أرسلها فبددت ظلمات التخلف والجمود التي رانت على الشعر العربي، فكادت تخمد أنفاسه، ومن ثَمَّ كان البارودي أبًا للشعر العربي الحديث، لأنه يتمتع بخصائص هذه الأبوة الحادبة دون مدافع، فقد كان في عصره جديدًا في شعره، وشخصيته، وصفاته الذاتية، والاجتماعية، والسياسية، والفنية حتى حينما يكون متأثرًا بالأقدمين في الفروسية، والشهامة، والإقدام، والكرم، والنزعات العربية الأصيلة، أو في السير على عمود الشعر والوقوف على الأطلال، ومفاجأة الرسوم والآثار، فكانت شاعريته متدفقة في غزارة.

وقد تأجج لهيب الحب في قلبه إبّان النفي في سيلان، ففاضت أشعاره بالحب الكبير: حب ذكرياته وأهله، وولده، ووطنه، وتراب هذا الوطن... وحبه للناس، والخير، والجمال، ومباهج الطبيعة... وقد وصف وصور جميع هذه الأحاسيس الوجدانية أبرع وأدق وصف وتصوير.

ودبَّ المرض في جسمه بعد طول الغياب عن الأهل والوطن وضعف بصره حتى كاد يفقد نوره، فكتب إلى الخديوي عباس الثاني ليعود إلى مصر للاستشفاء وتوسط الإمام محمد عبده (انظر مادة الشيخ محمد عبده) في ذلك فسمح له بالعودة، ووصل إلى القاهرة في ١٢ من سبتمبر عام ١٨٩٩م (١٣١٧هـ) ونظم أنشودة العودة التي مطلعها:

أبابل رأي العين أمْ هي مصرُ
فإنّي أرى فيها عيونًا هي السِحْرُ

رَضيتُ من الدنيا بحبكِ عالِمًا
بأن جنوني في هواكِ هو الفخرُ

وفي ١٧ من مايو عام ١٩٠٠م (١٣١٨هـ) أعاد الخديوي عباس إليه ألقابه وأملاكه الموقوفة فأقبلت الدنيا عليه وانتقل إلى

حلوان منزل أمير الشعراء أحمد شوقي (انظر هذه المادة) فانضم القديم في الشاعرية إلى الحديث من عبقريتها المشرقة.

ويؤخذ على البارودي المبادرة إلى مدح الخديوي عباس بمجرد عودته إلى مصر، وكان في وسعه السكوت معتصمًا بما كان يعانيه من المرض، ولاسيما أنه يدرك أن الذي يمدحه هو ابن الذي حكم عليه بالنفي، وخان الوطن، واستنجد بالإنجليز ليحتلوا بلاده عدوانًا وغدرًا.

ولما عاد إلى داره بباب الخلق في صيف عام ١٩٠٠م (١٣١٨هـ) صارت هذه الدار منتدى الأدباء والشعراء ومنهم إسماعيل صبري، وخليل مطران، وحفني ناصف، وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، ومصطفى صادق الرافعي، ومحمد عبده، ومحمد رشيد رضا (انظر هذه المواد) ومن ثمَّ تكونت مدرسة الشعر الحديث في أحضان دار البارودي.

وعندما فقد شاعرنا البصر كلية أخذ يملي شعره على كاتبين هما الشيخان عطية حسنين وياقوت المرسي، ثم ينقحه ويرتب ديوانه في أيامه الأخيرة وفاقًا لقوافيه، ويقع هذا الديوان في ٥٣١٣ بيتًا علاوة على قصيدة «كشف الغمة في مدح سيد الأمة» التي نظمها على نهج بردة البوصيري، وعلاوة على عدد من المقطوعات التي دوّنها في ثناها كتابه «قيد الأوابد» الذي التزم فيه السجع، والبديع، والمحسنات اللفظية، وضمنه بعض الخواطر والرسائل، ومع الأسف فإن هذا الكتاب لم يُنشر حتى الآن ليطلع القراء على أسلوب البارودي في النثر.

وقد طبعت زوجته الثانية أمينة يعقوب سامي مختاراته بعد وفاته في أربعة أجزاء طبعت في الفترة الواقعة بين عامي ١٣٢٧ و١٣٣٠هـ (١٩٠٩ - ١٩١١م).

وتوفي محمود سامي البارودي في يوم الاثنين الموافق ١٢ من ديسمبر عام ١٩٠٤م (١٣٢٢هـ) بالغًا من العمر حوالي ٦٦ عامًا، وقد رثاه الشعراء بأقصى ما جادت به قرائحهم من رثاء صادق.

وقد صدق شاعر النيل حافظ إبراهيم (انظر هذه المادة) في رثائه إذ قال في قصيدته التي نشرت في ٢٢ من يناير عام ١٩٠٥م (١٣٢٣هـ):

لبَّيكَ يا مؤنس الموتى وموحشنا
يا فارس الشعر والهيجاء والجود

مُلكُ القلوبِ، وأنت المستقل به
أبقى على الدهر من ملك ابن داود

لبَّيك يا شاعرًا ضنَّ الزمانُ به
على النُّهى والقوافي والأناشيدِ

تجرى السلاسةُ في أثناءِ منطقِهِ
تحت الفصاحة جَرْيَ الماءِ في العودِ

لو حنَّطوكَ بشعرٍ أنتَ قائله
غَنيتَ عن نفحات المِسْكِ والعودِ

لبَّيك يا خيرَ من هَزَّ اليراعَ ومن
هَزَّ الحسامَ ومن لبَّى ومن نُودي

إن هُدَّ رُكْنُكَ منكوبًا فقد رفَعَتْ
لك الفضيلةُ ركنًا غير مهدودِ

٦٨٥- سامي جنينة (الدكتور) - شارع - بقسم باب شرقي (أبولون سابقًا)

اطلب ترجمة «الدكتور سامي جنينة» .

٦٨٦- سامي رؤوف (الدكتور) - شارع - بقسم المنتزه

اطلب ترجمته في «الدكتور سامي رؤوف» .

٦٨٧- سان سابا - شارع - بقسم العطارين

«سان سابا» هو القديس الفلسطيني «Saint Sabas» الذي ولد عام ٤٤١م، وتوفي عام ٥٣١م، وقد عاش في عهد الإمبراطور البيزنطي «جوستينيان Justinian» الأول الذي استغرق حكمه الفترة الواقعة بين عامي ٥٢٧ و٥٦٥م .

وقد تخطى القديس «سابا» التسعين من العمر ، وهو مشيد الدير الشهير الذي يحمل اسمه والذي مازال قائمًا حتى الآن بفلسطين .

واستُقبل هذا الراهب الورع بحفاوة بالغة عندما سافر إلى القسطنطينية ، وكان استقباله رائعًا لدى زيارته لمدينة الإسكندرية . واحتفاء بإدراج اسمه بين القديسين أطلق أهل الإسكندرية اسمه على الكنيسة العتيقة جدًّا الكائنة بشارع البطريركية اليونانية (انظر هذه المادة) الذي يقع بين طريق الحرية وشارع إسطنبول (انظر هذه المادة) ، ثم أطلقت بلدية الإسكندرية اسم القديس سابا على الشارع الموازي لشارع البطريركية بقسم العطارين .

وكنيسة «سان سابا» – وهو اسمه باللغة اليونانية – كانت تحمل اسم الحواريين القديسين ، وكان تشييدها خلال عام ٣١٨م ، والراجح جدًّا أنها أقيمت على بقايا معبد قديم يظن أنه كان مخصصًا لعبادة الإله «أبولون Apollon» إله المعجزات ، والطب والشعر عند قدماء الإغريق ، وهدمت في سنة ٦١٣م ، عندما أصاب الإسكندرية الزلزال الشديد في تلك السنة ثم أعيد بناؤها ولكنها حرقت خلال عام ٦٤٠م ، وأعيد بناؤها للمرة الثانية عام ٨٨٩م ، تحت رعاية الإمبراطور البيزنطي ليون السادس الملقب بالفيلسوف ، وتناولها الترميم في أعوام ١٣٢٨ و ١٥٦٨ و ١٦٢٥ و ١٦٨٧ .

وفي القرون الوسطى حولت الحجر الصغيرة التي تدخل في حيزها إلى مستشفى لعلاج رجال البحرية الذين يمرون بمدينة الإسكندرية ، وسميت هذه المستشفى «بالمستشفى اليوناني» ، وكان اسمه يطلق على شارع إسطنبول الحالي ، وكانت شهادات الوفيات التي تصدر عنه معترفًا بها من جميع موانئ العالم في ذلك الحين .

أما الآن فهي كتدرائية اليونانيين الأرثوذكس بالإسكندرية ، ولذلك تجري في أرجائها مراسم تقليد القساوسة لقب البطريق لمدينة الإسكندرية .

وانخفض مستواها عن سطح الشارع فأصبح الهبوط إلى بابها بدرجات من الرخام وهذا يدل على أن مستواها وقت

إنشائها كان في مستوى الملهى (التياترو) الروماني الذي اكتشف حديثًا عندما أزيل الكوم خلف سنيما «ريو» فظهر الملهى المكشوف بجانب مبنى التشهيلات العسكري المطل على شارع النبي دانيال والذي سيستخدم قريبًا لتمثيل الروايات اليونانية، والرومانية القديمة.

٦٨٨- سان فرانسوا داسيز - شارع - بقسم الرمل (معروف الرُّصافي حاليًّا)

اطلب ترجمة «سان فرانسوا داسيز» في «فرانسوا داسيز».

واطلب ترجمة صاحب اسم الشارع الجديد في (معروف الرُّصافي).

٦٨٩- سان مارك - شارع - بقسم المنشية

هو القديس يوحنا الملقَّب مرقص وهو ليبي الأصل، ويرجح أنه ولد بالقدس، وقد بشر بالمسيحية في مصر وكان الثاني بين الإنجيليين الأربعة، ومؤسس كنيسة الإسكندرية وكنيسة الإسكندرية الكنسية المرقصية الكائنة بشارع «كنيسة الأقباط»، وقد افتتحت للصلاة في يوم ٢٩ برمودة من سنة ٦٨م (السنة الرابعة عشرة من حكم نيرون)، وكان على رأس المصلين في ذلك اليوم مؤسسها القديس مرقص وكان قد عاد إلى مصر في ذلك الحين.

وفي هذا اليوم نفسه اقتحم الوثنيون الكنيسة، وهاجموا المصلين في وحشية قاسية، وانتزعوا القديس مرقص من هيكل الصلاة، وربطوه بالحبال وجرّوه، فخضّب دمه البريء أرض هذه البقعة من مدينة الإسكندرية، وفي اليوم التالي ٣٠ برمودة عام ٦٨م جرّ الوثنيون الطغاة القديس المسكين من سجنه وطافوا به في شوارع المدينة، ومازالوا مستمرين على تعذيبه حتى فاضت روحه الشهيدة، وعندها حمل المسيحيون جثمانه، ودفنوه بالكنيسة التي تعرف حتى الآن باسم الكنيسة المرقصية بشارع كنيسة الأقباط (انظر هذه المادة).

وقد اتخذ أهل البندقية «فينيسيا» القديس مرقص أو «سان مارك» راعيًا لهم وسيدهم الأعظم، ونقلوا رفاته ودفنوها في الكاتدرائية الفخمة التي شيدوها لهذا الغرض بمدينة البندقية، وهي ماتزال إلى الآن إحدى العمارات الشهيرة لجمال فنها وروعة شكلها وزخارفها البديعة، وتقوم في الميدان الرحب الذي أطلق عليه اسم القديس مارك الشهيد، وهي ذات أربع قباب على الطراز البيزنطي، ترتفع وسطها قبة عالية كبيرة، وزينتها الداخلية غنية جدًّا بالرسومات الفنية الثمينة ويحلِّي الجزء الأعلى من بابها الكبير العام تماثيل لأربعة خيول من البرونز المطلي بقشرة من الذهب، وكانت هذه التماثيل الأربعة تزين قوس النصر الذي نصِّب في مدينة روما للإمبراطور الروماني تراجان (انظر هذه المادة) والكاتدرائية تحفة من تحف الفن المعماري.

وقد بدأ إنشاء هذه الكاتدرائية - التي تعتبر من الآثار المعمارية الذائعة الصيت - في عام ٨٣٠م وأُدخِلَت عليها تعديلات كثيرة خلال القرنين التاسع والخامس عشر، وشكلها الكلي يمثل صليبًا أرثوذكسيًّا، مما يدل على أن البنادقة قد راعوا في بنائها المذهب الأرثوذكسي احترامًا لشعور أقباط مصر الذين استشهد القديس مرقص في كنف ديارهم.

والعبارات المدونة في الإنجيل الذي يحمل اسمه فيها من حيوية التعبير، وطلاوة الأسلوب ما يدل على دقته البالغة في الإفصاح مما جعلها سهلة الإدراك في غير عسر، وشعار القديس مرقص هو الأسد ذو الأجنحة وتحتفل الطوائف المسيحية بعيده في ٢٥ إبريل من كل عام.

واستمرت المفاوضات الخاصة بإعادة رفات القديس مرقص إلى مصر، زمنًا طويلاً بين الحكومات المصرية المتعاقبة، ومعها البطريرقية القبطية من جهة وبين الحكومات الإيطالية والفاتيكان من جهة أخرى، وانتهت بنقل رفات القديس الشهيد إلى الكاتدرائية القبطية الكبرى بالقاهرة خلال عام ١٩٦٨م.

ومن معالم التكريم التي أقيمت للقديس مرقص بالإسكندرية «كلية سان مارك» التي شيدها الرهبان «الفرير» (أي الإخوة) في نهاية حيّ الشاطبي وبداية حي كامب شيزار (المعسكر حاليًّا) وذلك في المكان الذي كان يمر به الشارع العرضي الثاني في شرق الإسكندرية البطلمية، فهذا الشارع – وفاقًا للخريطة التي رسمها محمود باشا الفلكي وألحقها بكتابه «الإسكندرية القديمة» – كان يبدأ من البحر ويسير في شارع أرشميدس (محمد شفيق غربال حاليًّا) خلف هذه الكلية، ثم يقاطع شارع عمر لطفي (الأمير إبراهيم سابقًا) عند كبري تراجان، ويسير في شارع تراجان (لطفي السيد حاليًّا) الذي يمتد خلف كلية الهندسة، ثم يقاطع طريق الحرية ويستمر في الشارع الواقع أمام مستشفى المواساة، ويقاطع خطة السكة الحديد بالقرب من محطة البضائع بالحضرة، وينتهي عند ترعة شيديا بعد أن يقاطع ترعة المحمودية في مكانها الحالي.

وقد حصل رهبان «الفرير» على أرض كلية «سان مارك» من بلدية الإسكندرية، بثمن اسمي وذلك خلال العقد الثالث من القرن العشرين الحالي، وقام بتصميمها وبنائها مهندس يهودي يحمل الجنسية الإيطالية يدعى «هوجو دسيرج» وكان عضوًا من أعضاء القومسيون البلدي في ذلك الحين، والحق يقال إن هذه الكلية جاءت تحفة من تحف الفن المعماري، ويقال إن ذلك المهندس المقاول تكبّد خسارة كبيرة في إتمام تشييدها أدى إلى إفلاسه، ثم موته كمدًا وحسرة، وقد عاصرت هذه الأحداث عندما كنت مختزلاً لأقوال أعضاء القومسيون باللغة الفرنسية، وقد أبَّنه القومسيون وذكر موضوع خسارته بعض الأعضاء في تأبينهم له وذلك يدل على خسارته الفعلية مع وفائه بما تعهد به من تصميمات، وزخارف، ولاسيما تزيين واجهات الكلية الأربعة وسور فنائها الأمامي الفسيح بالأحجار الحمراء الصغيرة البهيجة المنظر والطلاء.

والقديس مرقص هو أول دعاة المسيحية بالإسكندرية في العهد الروماني الوثني وأول أساقفتها أي البابا الأول لها، وقد ظلّ الكرسي المرقصي الذي له الإشراف الفعلي على الكنائس القبطية بمصر، وكنائس أثيوبيا وليبيا وبلاد إفريقيا، ظل مركز هذا الكرسي بالإسكندرية ما يزيد على ألف عام، ولم ينقل إلى القاهرة إلا في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي خلال أيام البابا «خريستودولوس» الذي عاش في الفترة الواقعة بين عامي ١٠٤٤ و ١٠٧٥م ليكون كرسي البابوية قريبًا من مقر الحكومة.

وإنجيل القديس مرقص أحد الأناجيل الأربعة في «العهد الجديد»، وقد أوضح فيه قصة السيد المسيح عليه السلام كما عاصرها هو وذلك في ستة عشر إصحاحًا، ويقال إنه أول من

كتب لفظ «إنجيل»، وكان يجيد اللغتين العربية واليونانية، التي يظهر أنه تعلمها في صباه، وكان من تلامذة المسيح السبعين الذين حضَّهم على ارتياد الأمم المختلفة من بعده ليبشروا بالدين المسيحي، فانتشروا في أنحاء الدولة الرومانية في حوض البحر المتوسط وفي البلدان الأخرى، ولهذا دعاهم الناس بالرسل، ومن ثم لقب القديس مرقص «بمرقص الرسول».

واسم مرقص الذي يحمله أطلق عليه عند عماده في القدس، وعندما أغار اللصوص على بيت أسرته استقر بالجليل، وكان السيد المسيح يجتمع بتلاميذه في بيته بعد أن صار من أتباعه المخلصين.

وبدأ القديس مرقص رحلته التبشيرية بالسفر إلى مدينة أنطاكية، ثم إلى قبرص، وعاد بعد ذلك إلى القدس ثم رحل إلى روما، وبقي هناك إلى أن ذهب إلى برقة حيث أقام كنيسة، وظل ببرقة حتى عام ٦١ ليتابع رسالته التي كان قد بدأ التبشير بها خلال عام ٤٣م.

ويقول مؤرخو سيرته إنه كتب إنجيله في بابليون، على حين أن بعض المؤرخين الآخرين يؤكدون أنه كتبه في روما، وحمله معه عند وفادته على مصر.

وعندما اتخذ القديس مرقص الإسكندرية مركزًا لتبشيره بالدين المسيحي كانت ماتزال عامرة بأهل العلم والفن والأدب، وكانت مدرستها الشهيرة ماتزال دارًا للعلماء والفلاسفة وطلاب العلم، وكانت معابدها الوثنية ماتزال على فخامتها وضخامتها ولاسيما معبد «السرابيوم» العظيم الذي كان يشغل الربوة التي ينتصب في وسطها الآن عمود السواري بجهة كوم الشقافة مطلاًّ على شارع كرموز (انظر وصفه وعظمته في مادة سوتير).

وكانت الديانات الوثنية في طور الانحلال، والتناحر، والبغضاء، كانت تسود المجتمع السكندري ولاسيما بين المصريين والرومان الغاصبين للحكم في البلاد، ومن ثَمَّ لم يجد القديس مرقص صعوبة في التأثير على الإسكافي «إنيانوس» وأصحابه لاعتناق الدين المسيحي الجديد وجعل منزل هذا الإسكافي أول مركز للتبشير المسيحي بالإسكندرية، وقد صار «إنيانوس» الإسكافي أول أسقف لمدينة الإسكندرية في العهد المسيحي.

وسافر القديس مرقص إلى روما، ولدى عودته وجد المسيحيين قد أنشؤوا كنيسة في المكان الذي كان يسمى «مرعى البقر – بركوليا» وهو المكان الذي ثبت بالأدلة القاطعة أنه موضع الكنيسة المرقصية الحالي (انظر مادة كنيسة الأقباط).

وكان لغضب الحكام الرومانيين لنجاح القديس مرقص وأتباعه في نشر الدين المسيحي بين طائفة كبيرة من وثنيّي الإسكندرية أثره العميق في نفوسهم ونفوس المتمسكين بوثنيتهم، فعقدوا العزم على التخلص منه بالاغتيال، ومن ثَمَّ وقعت حادثة الهجوم عليه في هيكل الكنيسة وجرِّه في يوم ٢٩ برمودة (أي ٧ مايو) عام ٦٨م، ثم سحله حتى فاضت روحه في اليوم التالي (٣٠ برمودة – ٨ مايو)، وقد تركت جثته على قارعة الطريق حتى حملها المسيحيون، ودفنوها في الكنسية المرقصية.

ولم تقم الأدلة التاريخية الموثوق في صحتها على أن عملية السَّحْل الوحشي قد أدت إلى فصل رأسه عن جسده ولا على صحة أن الوثنيين كانوا يبغون حرق جثته فحال دون ذلك هطول المطر في تلك الساعة، فالرأس لا تنفصل عن الجسد بالسحل إلا بالقطع بآلة حادة وحرق الجثة كان ميسورًا إذا حملت هذه الجثة إلى مكان آخر غير المكان الذي زُعم أن المطر قد هطل عليه، وليس من السهل تصديق أن المطر انهمر في تلك الساعة بالذات، ولاسيما في اليوم الثامن من شهر مايو بالإسكندرية وهو في نهاية فصل الربيع، وقد يكون هذا الزعم تمهيدًا لإضفاء إحدى الكرامات الكبيرة على قداسة الشهيد مرقص وهو في غير حاجة إليها، إذ في سياق تاريخ حياته ما يضفي عليه هالة لامعة من الاحترام والتقدير والبذل والتضحية في سبيل عقيدته الراسخة.

وما كان للبنادقة أن يسرقوا جسد القديس مرقص في غفلة من حراس الكنيسة في حوالي عام ٨٢٩م، وهو خالٍ من الرأس كما يدعي بعض المؤرخين، لأنهم كانوا حريصين على أن تضم الكنيسة الرائعة التي بدؤوا في تشييدها بمدينة البندقية جثمان القديس مرقص بأكمله ليكون راعيهم وسيدهم الأعظم وحامي مدينتهم العائمة.

ولم يقل أحد بأن رفات القديس مرقص التي وافق بابا روما على نقلها إلى الكاتدرائية المرقصية الجديدة بالقاهرة في عام ١٩٦٨م، لم يقل أحد إن هذه الرفات لا تضم رأس القديس، وهذا يدل على بطلان الزعم بوجود الرأس بالكنيسة المرقصية بالإسكندرية.

وقد يكون الخطأ الذي وقع فيه بعض المؤرخين الذين قالوا بأن القديس مرقص ولد بالقيروان يرجع إلى أن كلمة القيروان تدل على المنطقة من القطر الليبي القريبة من الحدود المصرية، وعلى المدينة التي شيدها عقبة بن نافع بالقطر التونسي خلال عام ٥٠هـ (٦٧٠م) في أثناء غزوته الأولى لبلاد المغرب (انظر مادة عقبة بن نافع)، ولما كان القديس مرقص قد أقام ردحًا من الزمن بمنطقة القيروان الليبية وهي الإقليم الذي كان الإغريق والرومان يطلقون عليه اسم « بنتابوليس» أي «المدن الخمس» فقد ظن هؤلاء المؤرخون أن مولده حدث «بمدينة القيروان» على حين أن «القيروان المدينة» لم تكن قد حلت في الوجود وقت ميلاد هذا القديس، إذ أنشئت بعد ذلك بحوالي ٦٠٠ عام، ولذا رجَّح المؤرخون المدققون في الاستقصاء أن مولده كان بالقدس، ولاسيما أنه اتصل بالسيد المسيح في معظم أطوار حياته على الأرض.

٦٩٠- السبكي - حارة - بقسم العطارين

٦٩١ - السبكي - شارع - بقسم مينا البصل

لقب السبكي يرجع إلى بلدة سُبك من أعمال مديرية المنوفية (محافظة المنوفية حاليًّا) ويحمل هذا اللقب أفراد أسرة من علماء الشافعية ومن الفقهاء والمفكرين والأطباء المشهورين، وقد دوّن التاريخ سير عدد كبير منهم وفيما يلي ترجمة بعضهم:

١) **صدر الدين أبو زكريا يحيى السبكي**: كان قاضي مدينة المحلة، ثم اشتغل بالتدريس في القاهرة وتوفي عام ٧٢٥هـ (١٣٢٤م).

٢) تقي الدين أبو الفتح محمد السبكي: ولد عام ٧٠٤هـ (١٣٠٤م)، واشتغل بالتدريس في القاهرة ودمشق، وتوفي عام ٧٤٤هـ (١٣٤٣م)، وله مؤلف في التاريخ وله رسائل ذكرها المستشرق آلوارت.

٣) بهاء الدين أبو البقاء محمد السبكي: ولد عام ٧٠٨هـ (١٣٠٨م)، واشتغل بالتدريس في مستهل حياته العملية ثم عُيِّن قاضيًا وحاكمًا لمدينة دمشق، ووكيلاً للسلطان، وخطيبًا للمسجد الأموي فيها، وكانت وفاته خلال عام ٧٧٧هـ (١٣٧٥م)، وله ثلاثة مصنفات لم يتمها.

٤) ولي الدين أبو ضَر عبد الله السبكي: ولد عام ٧٣٥هـ (١٣٣٤م)، واشتغل بالتدريس في مستهل حياته العملية، ثم تولى القضاء والخطابة والقوامة على الشؤون المالية بدمشق، وتوفي عام ٧٨٥هـ (١٣٨٣م) .

٥) بدر الدين أبو عبد الله محمد السبكي: ولد عام ٧٤١هـ (١٣٤٠م) واشتغل بالتدريس ثم تولى الإفتاء بالقاهرة، ودمشق، وتولى الخطابة بالمسجد الأموي، ولم يكن محبوبًا من الشعب بسبب سيطرة ولده جلال الدين على شؤونه، وتوفي عام ٨٠٢هـ (١٣٩٩م).

٦) شيخ الإسلام تقي الدين أبو الحسن علي السبكي: ولد عام ٦٨٣هـ (١٢٨٤م) وتلقى العلم بالقاهرة، واشتغل بالتدريس، ثم ولي القضاء والإفتاء بالقاهرة، ودمشق كما تولى منصب الحاكم فيها والخطبة بالمسجد الأموي، وله أكثر من ١٥٠ مصنفًا منها: «إجابات على بعض الفتاوى»، و«الدر العظيم في تفسير القرآن العظيم»، و«الابتهاج في شرح المنهاج»، و«الرقم الإبريزي في شرح مختصر التبريزي»، و«رفع الشقاق في مسألة الطلاق»، و«منية الباحث عن حكم دين الوارث»، و«السهم الصائب في قضاء دين الغائب»، و«الاعتبار ببقاء الجنة والنار»، و«الدرة المضيئة في الرد على ابن تيمية». . . الخ، وتوفي تقي الدين عام ٧٥٦هـ (١٣٥٥م).

٧) بهاء الدين أبو حامد أحمد السبكي: ولد عام ٧١٩هـ (١٣١٩م)، واشتغل بالتدريس، وتولى الإفتاء والقضاء في القاهرة ودمشق، وألف كتبًا عديدة منها: «شرح على الحاوي» للقزويني، و«جمع التناقض أو المناقضات»، و«عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح»، وبعض القصائد.

٨) تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب السبكي: ولد عام ٧٢٧هـ (١٣٢٦م)، وقام بالتدريس ثم صار أستاذًا وقاضيًا وحاكمًا في دمشق والقاهرة، وخطيبًا للمسجد الأموي بدمشق وقد حبس عام ٧٧١هـ (١٣٦٩م) ثمانين يومًا، ولكنه استطاع رد اعتباره، وألف كتبًا كثيرة وشروحًا عديدة منها: «رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب»، و«منظومة في الألفاظ الأعجمية في القرآن»، وله قصائد كثيرة.

٩) الشيخ محمود بن محمد بن أحمد خطاب السبكي: مصلح ديني، وصاحب طريقة السبكية، ولد عام ١٢٧٤هـ (١٨٥٨م) ببلدة سبك العويضات بالمنوفية، وقد تأثر بالتصوف منذ شبابه إذ كان من أتباع الطريقة الخلوتية وغيرها من الطرق، والتحق بالأزهر في سن متأخرة مدفوعًا بغيرته الدينية على الرغم من أنه كان قد أعد إعدادًا مدنيًّا، وجادل محمود أساتذته في القرآن الكريم والسنة المحمدية وكان مايزال طالبًا وألّف رسالة في محاربة البدع ثم سافر إلى الريف مبشرًا بالإصلاح الديني، ثم نال شهادة العالمية «فاستطاع طوال حياته أن يذيع

على الناس، وعلى مريديه المحاضرات التي كان قد بدأ في إلقائها بالأزهر على طلابه، ونفذ بعد ذلك ما كان يدور في خلده فأنشأ عام ١٣٣١هـ (١٩١٩م) الجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالسنة المحمدية»، وقد قطع أعضاء هذه الجمعية على أنفسهم العهد بأن يتجنبوا البدع، وأن يؤدوا اشتراكًا شهريًّا معلومًا، وألا يتاجر أحدهم إلا مع أخيه ما وسعه ذلك، وأن يتبادلوا النصيحة في الأمور الشخصية وأن تشيد الجمعية المساجد، وأن تعول الوعاظ وتوزع الصدقات، وأن يكون مصدر دخلها المالي الرئيسي صناعة المنسوجات المصرية، علاوة على تبرعات الأعضاء.

وسكن الشيخ محمود خلال عام ١٣٤٤هـ (١٩٢٦م) منزلاً في حارة الجوخدار بباب زويلة صار الآن مركزًا للطريقة السبكية ويشتمل المنزل – الذي أصبح وقفًا خيريًّا – على مسجد وغرف لجلوس أقارب الشيخ وأتباعه، وحانوت لبيع الأقمشة ومكتبة.

وكان الشيخ مالكي المذهب وقد حارب البدع في كل ناحية، وخاصة في العبادة، ومن ثَمَّ دعا الناس إلى التمهل في الصلاة، ولم يكن له محراب واكتفى من المنبر بمقعد له درجتان واعتبر تجويد الأذان وتلاوة سورة الكهف في أيام الجمع دون غيرها وطائفة أخرى من شعائر الدراويش مخالفة للسنة، وحرَّم التدخين وحف اللحى وارتداء الطربوش وحده، وقد نفذ أتباعه وصاياه فحبذوا ارتداء الملابس البيضاء وجعلوا للعمامة عذبة، وعقيدته تطابق السنة كل المطابقة فهو يؤمن بالقرآن وسنة الرسول وإجماع الأئمة أهل الاجتهاد ويطلق أتباعه على أنفسهم لقب «السنيَّة» وأهم أهداف حركتهم الجمع بين الإصلاح الديني وبرنامج اجتماعي واقتصادي،

ومن كتبه في الإصلاح: «إصابة السهام فؤاد من حاد عن سنَّة خير الأنام»، و«تعجيل القضاء المبرم لمحق من سعى ضد سنة الرسول الأعظم»، و«إتحاف الكائنات ببيان مذهب السلف والخلف في المتشبهات»، وتوفي الشيخ محمود السبكي بالقاهرة عام ١٣٢٥هـ (١٩٣٣م) فخلفه ابنه أمين السبكي في رياسة الجمعية وإدارة الوقف.

١٠) مصطفى السبكي: كان طالبًا بالأزهر ثم اختير لتعلم الطب بمدرسة أبي زعبل التي أسسها محمد علي عام ١٢٤٢هـ (١٨٢٦م) وكان كلوت بك أول ناظر لها، وبعد أن أتم علومه بهذه المدرسة انتخب للسفر إلى فرنسا للتخصص في علم طب العيون، فبدأ دراسته في شهر نوفمبر عام ١٨٣٢م (١٢٤٨هـ) وكان مرتبه الشهري طوال مدة البعثة ٣٢٥ قرشًا، ولما أتمّ تعليمه عاد إلى مصر عام ١٨٣٨م (١٢٥٤هـ) عُيِّن بمدرسة الطب بقصر العيني لتدريس أمراض العيون، وبقي يشغل هذه الوظيفة إلى عام ١٨٤٩م (١٢٦٦هـ)، وفي ذلك الحين كان عباس الأول قد أنشأ مدرسة بالخرطوم تحت رياسة رفاعة بك الطهطاوي (انظر هذه المادة) فعين مصطفى السبكي مدرسًا بها.

وفي أوائل حكم سعيد الأول ألغيت المدرسة عام ١٨٥٤م (١٢٧١هـ)، فعاد السبكي إلى مصر وكانت مدرسة الطب قد ألغيت أيضًا فعمل طبيبًا يعالج المرضى من الأهالي إلى أن عادت مدرسة الطب عام ١٨٥٦م (١٢٧٣هـ) فرجع مدرسًا بها.

وقد اشترك السبكي في ترجمة الكتاب الفرنسي في المصطلحات العلمية الطبية الذي أوصى كلوت بك بتعريبه، ولم يزل الدكتور السبكي يدرس بمدرسة الطب حتى وفاته عام ١٨٦٠م (١٢٧٧هـ) بعد أن نال رتبة البكوية.

١١) أحمد عجيلة السبكي: هو أحمد بن سليمان عجيلة من أسرة تسمى العجالية أصلهم من بني عجيل من أعمال مديرية الشرقية، وقد نشأ في بلدة (سُبك الضحاك) بالمنوفية والتحق بمكتب منوف عام ١٨٣٣م (١٢٤٩هـ) ثم نقل إلى مكتب قصر العيني، فمدرسة أبو زعبل، فمدرسة المهندسخانة، ثم اختير عضوًا في البعثة الرابعة التي أرسلها محمد علي إلى فرنسا وإنجلترا وبدأ دراسته بالمدرسة الحربية بباريس في ١٦ من أكتوبر عام ١٨٤٤م (١٢٦٠هـ) أي عند افتتاح هذه المدرسة التي أنشأها محمد علي، وجعل رياستها لوزير حربية فرنسا، وخوّله حق تعيين ناظرها وأساتذتها، وكان مرتبه أثناء البعثة ٢٥٠ قرشًا في الشهر، وفي ديسمبر عام ١٨٤٦م (١٢٦٢هـ) أدى الامتحان، وكان ترتيبه التاسع في التخرج فألحق بمدرسة «سومور Saumur» للفرسان، ومنح رتبة الملازم الثاني، ثم دخل في سلك الجيش الفرنسي للمران، وعاد إلى مصر في ولاية إبراهيم الأول فعينه ضابطًا في الخيالة برتبة ملازم أول بالفرقة الأولى للفرسان، وفي أوائل عهد عباس الأول ألحق بفرقة المهندسين الذين ندبوا لرسم قناة السويس ثم عُيِّن مع محمود الفلكي (انظر مادة محمود باشا الفلكي) لرسم خريطة الإقليم البحرية، فأتم هذه المهمة ورُقِّي إلى رتبة صاغقول أغاسي (الرائد) ومن ثَمَّ سافر إلى دنقلة بالسودان لرصد كسوف الشمس الكلي الذي حدث عام ١٨٦٠م (١٢٧٧هـ)، وكان علماء فرنسا قد طلبوا ذلك من سعيد الأول. وفي أوائل عهد الخديوي إسماعيل عُيِّن مهندسًا بديوان الأشغال العمومية برتبة قائمقام (عقيد)، وقام بعدة مهام منها سفره إلى سواكن لاستكشاف طريق صالح لمد خط حديدي من سواكن إلى شندي، فعمل الرسوم اللازمة لذلك، وكان بصحبته إسماعيل الفلكي (انظر هذه المادة)، وقد اتضح لهما استحالة مد هذا الخط بسبب الصخور والأودية الكثيرة التي تعترض طريقه، وقام بعد ذلك بعمل خريطة للصعيد من أسيوط إلى القاهرة فوضعها وأعد لها ميزانية، كما وضع خريطة لترعة تخرج من القناطر الخيرية وتصب في بحيرة مريوط عند ضاحية المكس الغربية من الإسكندرية، ولكن المشروع لم ينفذ في ذلك الحين.

ولم يعرف تاريخ مولده ولا تاريخ ومكان وفاته.

١٢) محمد علي السبكي: تلقى علومه بمدارس القاهرة ثم ألحق بمدرسة الطب واختير بعد ذلك وهو برتبة «الأسبيران» أي تلميذ ضابط للسفر إلى إنجلترا بين أعضاء البعثة الثانية التي أرسلت في عهد عباس الأول، وبدأ دراسته بمدينة إيدنبورج، وكان مرتبه الشهري ٥٠ قرشًا فقط يتناولها بالإنابة عنه في مصر مصطفى أفندي السبكي (انظر ترجمته في البند١٠) وكان طبيبًا بمدرسة الطب البشري في ذلك الحين، وظل محمد السبكي يواصل تعلمه إلى أن أَتَمّه وعاد إلى الوطن في ٨ من إبريل عام ١٨٥٦م (١٢٧٣هـ)، وبما أنه بدأ الدراسة في ٣١ من أكتوبر عام ١٨٥٠م (١٢٦٧هـ) فتكون بعثته قد استغرقت ست سنوات، وكانت عودته في عهد سعيد الأول فعينه بعلائف الجهادية (أي الحربية) برتبة الملازم الثاني، وفي عام ١٨٦٦م (١٢٨٣هـ) رقِّي إلى رتبة اليوزباشي (النقيب)، ثم ترقى في الوظائف إلى أن صار مفتش الصحة العمومية بالوجه البحري، ونال رتبة البكوية.

ولا يُعرَف تاريخ وفاته.



شاطئ ستانلي

٦٩٢- ستانلي باي - شارع - بقسم سيدي جابر (الخليج حاليًّا)

كلمة «باي Baie» بالفرنسية تعني الجون، أو الخليج الصغير، وشارع «ستانلي باي» يقع بالقرب من هذا الخليج الذي يضم صفوفًا مدرجة من أعلى إلى أسفل من طارمات الاستحمام (الكابينات)، ويعد هذا الشاطئ من أشهر وأرقى شواطئ الاستحمام بالإسكندرية لنقاء مياه البحر فيه وبعده نسبيًّا عن الأمواج الثائرة، ولاسيما في أيام هياج البحر.

أما نسبة هذا الخليج الصغير إلى «ستانلي» فترجع إلى أن أعضاء «القومسيون البلدي» كانوا في أغلبيتهم من أجانب الجاليات الأربع الكبرى، وهي: اليونانية، والإيطالية، والفرنسية، والإنجليزية، فكان لكل منها أربعة أعضاء في هذا القومسيون يكونون أغلبية أعضائه الخمسة والعشرين، ومن ثم استطاعت هذه الجاليات الأجنبية إطلاق عدد كبير من الأسماء الأجنبية على شوارع الإسكندرية منذ إنشاء المجلس البلدي عام ١٨٩٠م (١٣٠٨هـ)، ومن بينها اسم المغامر الأفاق «ستانلي»، وستانلي هذا هو «هنري مورتون ستانلي Henry Morton Stanley»، وكان اسمه الحقيقي قبل أن يتخذ هذا الاسم واللقب «جون رولند John Rowlands»، وكان مولده في عام ١٨٤١م (١٢٥٧هـ) بمدينة «دانبج Denbigh»

بمقاطعة الغال «Pays de Galles»، ومات بمدينة لندن عام ١٩٠٤م (١٣٢٢هـ) بالغًا من العمر ٦٤ سنة.

وهو من أصل إنجليزي، واشتهر بمعلوماته الجغرافية، ولما لم يكن له سند من أهل بلاده هاجر إلى أمريكا، وهو حديث السن وشغل بعد ذلك وظيفة بإدارة جريدة «النيويورك هرالد» بأجر زهيد ثم أخذ يترقى حتى صار مراسلاً جوالاً لهذه الجريدة الأمريكية، وفي أثناء الخمس عشرة سنة التي أقامها بأمريكا نال شهرة في الصحافة وتزوج بفتاة تهوى السياحة.

وفي عام ١٨٧٤م (١٢٩١هـ) اتفق أصحاب جريدتي «النيويورك هرالد» و«التلجراف» على إرسال حملة استطلاعية إلى بلاد إفريقيا الداخلية، وذلك على نفقاتها بغية التعرف على أحوال البلاد السودانية الواقعة بين شرق القارة وغربها، وعهدت الجريدتان إلى «ستانلي» بهذه المهمة فقبلها مسرورًا لميله إلى السياحة.

وبدأ رحلته إلى أن وصل إلى جزيرة «زنجبار» على الساحل الشرقي الأوسط لقارة إفريقيا، ثم رحل منها إلى داخل البلاد في ٢١ سبتمبر عام ١٨٧٤م (١٢٩١هـ)، وفي ٦ من إبريل عام ١٨٧٥ م (١٢٩٢هـ) أتم جولته حول بحيرة فيكتوريا نيانزا عند منابع النيل وهي البحيرة التي يرجع الفضل في اكتشافها إلى الكابتن «سبيك Speke» سنة ١٨٦٤م (١٢٨١هـ).

وتابع ستانلي رحلته إلى أن وصل إلى مملكة أوغندا، وكان ملكها «امتيزا» على صلات وثيقة بالكولونيل غردون (انظر مادة غردون باشا) الذي كان الملك «امتيزا» يعترف بأنه الوكيل الشرعي لخديوي مصر في المقاطعات الاستوائية، وقد استطاع «ستانلي» التأثير على الملك «امتيزا» وإدخاله في الدين المسيحي، وكانت أمنيته الكبرى أن يكون أول مكتشف لتلك البلاد وبحيراتها العديدة، ولكن حال دون هذه الأمنية الاستعمارية وجود من سبقوه، واشتهروا قبله بالاكتشافات الإفريقية المختلفة.

وقد عمل «ستانلي» على حث الجمعيات الدينية لإيفاد بعثات وإرساليات من رجال الدين المسيحي إلى البلاد التي جابها لتنصير أهلها، وقد نجح في ذلك إلى أبعد حد بفضل كتبه العديدة إلى تلك الجمعيات وكان من أثر ذلك وفادة جمعيات عديدة على البلاد الإفريقية لهذا الغرض، وللتمهيد الفعال لاستعمارها على فترات متقاربة حتى صارت جميعها في أيدي الاستعماريين الرأسمالية ينهبون أرزاقها المغدقة، ويحرمون أهلها من التمتع بخيرات هذه الأرزاق والسير في سبيل التقدم الحضاري والتخلص من الجهل والفقر والمرض.

وفي هذه الأثناء ارتد الملك «امتيزا» إلى ديانته الوثنية وطرد الكثيرين من الأجانب من أوغندا، وقتل عددًا من القساوسة، وعاد إلى الاعتراف بسيادة مصر على بلاده، ولو كانت مصر حرة مستقلة في ذلك الحين لاستطاعت إرسال بعثات لتعريب هذه البلاد.

ويقول «شاليه لونج بك Chaillé-Long Bey» في كتابه «حياتي في أربع قارات»: إن ستانلي سعى إلى رفع العلم البريطاني على البلاد التي جابها، ولكنه لم ينجح إلا بعد عودته إلى إنجلترا وعرض اقتراحاته في هذا الشأن على الحكومة فقبلتها في غير اعتراض، واستطاعت فرض استعمارها البغيض على تلك البلاد، فاستولت على الساحل الذي كان من أملاك

حكومة زنجبار، وتمكنت بعد ذلك من الاستيلاء على أوغندا عملاً بالاتفاقات التي أبرمتها مع ألمانيا في عامي ١٨٨٦ و١٨٩٠م (١٣٠٤ – ١٣٠٨هـ)، وفي مقابلة ذلك تنازلت بريطانيا لألمانيا عن جزيرة «هلجولند Hélgoland» وعندها أمرت ألمانيا الماجور «وسمان Wissmann» بتحويل أنظاره إلى طريق بحيرة تنجانيقا، وهكذا أخذ الاستعمار الأوروبي يتغلغل في القارة السوداء ويقسم الحكام الأوروبيون بلدانها البكر غنيمة سهلة المنال، وفيرة الخيرات الطبيعية، دون أن يهتم العرب بمنافستهم، وتوطيد أقدامهم في هذه الأقطار الغنية بمواردها الثمينة، وقد كانوا أول المكتشفين لها، وكان في مقدورهم تعريبها في سهولة ويسر.

ويدل على أن العرب كانوا أول مكتشفيها ما قام به شاب من بلاد عُمان بالجزيرة العربية يدعى حامدني محمد المرجبي، ففي حوالي عام ١٨٥٠م (١٢٦٧هـ) أي قبل أن يبدأ «ستانلي» رحلته بنحو ١٤ سنة ظهر المرجبي في ميدان الاكتشاف وقُدِّر له في مدى الأربعين سنة التالية أن ينشئ دولة شاسعة الأرجاء تمتد من أقصى الكونجو جنوبًا إلى السودان الجنوبي شمالاً، ومن بحيرة تنجانيقا شرقًا إلى ما وراء نهر «لومامي» غربًا، وتقدر مساحة هذه الدولة بمائتي ألف ميل مربع.

وكان حامد بن محمد المرجبي تاجرًا ماهرًا، وفي إحدى رحلاته التقى بدافيد ليفينجستون، وكان ذلك في شهر يوليو عام ١٨٦٨م (١٢٨٥هـ) فأعطاه مددًا، وتوغل هو في الداخل مرة أخرى – في العام نفسه، وفي سنة ١٨٧٤م (١٢٩١هـ) التقى «بالمستر كاميرون» الإنجليزي الرحالة وساعده ورافقه في رحلته مسافة طويلة، ولاسم هذه الرحالة تنسب بلاد الكاميرون الحالية.

وفي شهر أكتوبر عام ١٨٧٦م (١٢٩٣هـ)، وصل حامد المرجبي إلى مدينة «كانسوجو» والتقى فيها بالأفاق «ستانلي» الذي كان يعتمد على الدعاية لتهويل أمره وتغطية عيوبه، وقد ادعى هذا المغامر أنه استأجر حامد المرجبي ليسير معه ستين مرحلة على نهر «لوالابا» وهو اسم نهر الكونجو في ذلك المكان، وذلك في مقابلة أجر قدره ٥٠٠٠ دولار، هذا ما يدعيه «ستانلي» غير أن حامدًا يقول في كتاب رحلاته الذي ترجم إلى اللغة الألمانية عن اللغة الساحلية إن ستانلي أتى إليه لاجئًا مستغيثًا، ورجاه أن يسير معه إلى مكان يقع على مسيرة ٨٠ يومًا إلى الشمال الشرقي في مقابلة أجر قدره ٧٠٠٠ دولار، دون أن يذكر له ستانلي أمر السفر في النهر، فقال له حامد إنه لا يقبل ذلك طمعًا في المال لأنه غني، ولا حاجة به إلى هذا المبلغ، وقد رضي السير معه منَّةً وكرمًا منه.

وقد صدق الدكتور «بردوه» قول حامد المرجبي ونفى قول «ستانلي» وانتهى الأمر بدفع ستانلي ٢٥٠٠ دولار بحوالة بالإنجليزية على تاجر في جزيرة زنجبار لم يفهم حامد مضمونها.

وقد عنف العرب حامدًا على مرافقته «لستانلي» فردّ عليهم قائلاً إنه كان يعلم أن الأوروبيين جاؤوا عن طريق زنجبار للاستعمار، وللتمهيد للمصالح الأوروبية ومن ثَمَّ كان يرافقهم لمراقبة حركاتهم، والسير معهم ليكتشف في صحبتهم ما لم يكن قد وصل للكشف عنه من الجهات.

وقد خرج حامد المرجبي صحبة «ستانلي» في جمع لجب من الرجال تتبعهم النساء والخدم، وسار معه في النهر والبر

حتى بلغت القافلة نهر «كاسوكو» وعندها عاد حامد واستمر «ستانلي» في رحلته حتى بلغ المحيط الأطلنطي عن طريق نهر الكونجو، وأثبت بذلك أن نهر «لوالابا» لم يكن من منابع النيل وإنما جزء من نهر الكونجو، كما أوضح أن نهر الكونجو صالح للملاحة النهرية في مسافة طولها ألفا ميل، وأن منابع النيل تأخذ مجراها من بحيرة فكتوريا نيانزا وليس من بحيرة تنجانيقا.

وباكتشاف «ستانلي» بدأ الصراع العنيف على استعمار بلاد الكونجو، وكانت ثروتها في ذلك الحين تنحصر في العاج والمطاط والنحاس، وللأسف الشديد كانت كل هذه الثروات الطبيعية في أيدي العرب؛ إذ إن القسم الذي كان خاضعًا لحكمهم كان أغنى مناطق الكونغو، كما كان القسم الوحيد الذي أَمّنَت مسالكه وطرقه، وتقوم فيه مراكز عمران وتجارة، ومن ثَمَّ عملت بلجيكا جاهدة على بسط سيادتها على هذه البلاد التي مازالت تضم حوالي مائتي ألف من المسلمين.

واستطاع الاستعمار البلجيكي الكشف عن مناجم اليورانيوم، ومناجم الماس بالبلاد الكنجولية، وصارت مقاطعة كاتنجا من أشهر بلاد العالم في إنتاج الماس العظيم القيمة.

ويذكر «شاليه لونج Chaillé-Long» في كتابه الآنف الذكر أن غوردون (انظر مادة غوردون باشا) اقترح على الخديوي إسماعيل تعيين ضابط ليكون رئيسًا لأركان حربه في حملته لإخضاع أوغندا وضمها إلى الممتلكات المصرية، واستجابةً لهذا الطلب دعا الخديوي إسماعيل «شاليه لونج»، واستقبله في قاعة العرش وقال أنه اختاره لشغل رتبة أركان حرب الحملة المصرية على أوغندا لأسباب منها ضمان حرية مصالح حكومته الأمريكية، ثم أضاف قائلاً: إن القوم في لندن يشرفون على إرسال حملة برياسة رجل متستّر بالجنسية الأمريكية يدعى «ستانلي» وقالوا إن غاية هذه الحملة هي مد يد المعونة إلى الدكتور «ليفينجستون Livingstone» المكتشف الإنجليزي، ولكن الحقيقة هي أن هذه الحملة تهدف إلى رفع العلم الإنجليزي على أوغندا وأن على «شاليه لونج» أن يصل إلى «غندوكورو» قبل حملة «ستانلي» وأضاف الخديوي إسماعيل أن غوردون يجهل خيوط هذه المؤامرة.

وكان الشعب البريطاني يمجد «ليفينجستون» ويضعه في مصاف القديسين، ومن ثَمَّ عزَّ على أهل بريطانيا أن يكون «ستانلي» هو الذي حاز قصب السبق باكتشاف منابع النيل وإعادة «ليفينجستون» إلى وطنه.

وشاليه لونج يجد في ستانلي رجلاً متقلبًا متهمًا في أخلاقه، وقد بلغت حماسة السيدة «فلورانس نايتنجيل» وهي صاحبة فكرة الصليب الأحمر، بلغت حماستها من الشدة إلى حد التعليق على كتاب «ستانلي» بعنوان «كيف عثرت على ليفينجستون؟» بأنه: «أسوأ كتاب عن أحسن موضوع».

ولدى عودة «ستانلي» إلى جزيرة زنجبار عام ١٨٧٧م (١٢٩٤هـ) كانت مشكلة اكتشاف منابع النيل قد حلت ومن ثَمَّ فتحت منافذ القارة الإفريقية المغلقة أمام الغزاة لتبدأ عقبها الألاعيب السياسية للسيطرة عليها واقتسامها، وكانت القوة الوحيدة التي استطاعت الوقوف في وجه المطامع الأوروبية هي قوة المهدي وأنصاره في السودان، ولكنها قوة لم تستطع

الصمود أمام آلات الحرب الفتاكة فانهارت على الرغم من قوة إيمانها واستبسال أفرادها.

وعقدت إثر ذلك عدة اتفاقات بين الدول الأوروبية لاقتسام القارة البكر، وبموجبها أصبحت بريطانيا تسيطر على حوض النيل من منبعه إلى مصبه، بينما ترك لفرنسا حرية التصرف في المنطقة الغربية للنيل، أما ألمانيا فاستولت على تنجانيقا وبدت شراسة بلجيكا في استعمار الكونجو تستفحل.

ويقول «ستانلي» في كتابه الخاص باكتشافاته: «في يوم ٢٥ يونية عام ١٨٥٧م كنا في طريقنا من جزيرة زنجبار إلى النيل للبحث عن منابعه، وكان معي زميلي «ريتشارد فرنسيس بيرتون» ولما وصلنا إلى بحيرة تنجانيقا اعتقد زميلي أنها منبع النيل، ولكني تابعت سيري بمفردي حتى وصلت عام ١٨٥٩م إلى جنوب بحيرة فكتوريا نيانزا، وفي عام ١٨٦١م قمت برحلة ثانية من زنجبار مع «جيمس أوجست جرانت» قاصدين بحيرة فكتور، ولكني انفصلت عنه، وتابعت سيري شمالاً حتى اكتشفت لأول مرة منبع النيل عند خروجه من بحيرة فيكتوريا».

هذا هو مجمل ترجمة المغامر «ستانلي» الذي تركه العرب يفتح أبواب إفريقيا للاستعمار دون أن يحركوا ساكنًا، «ولا حول ولا قوة إلا بالله».

أما ترجمة الاسم الجديد للشارع فاطلبها في كلمة «الخليج».

٦٩٣- ست الملك - شارع - بقسم مينا البصل

هي «ست الملك» أو «سيدة الملك» أو «ست الملوك» أو «ست النصر» كما يدعوها المؤرخون، وهي أخت الحاكم بأمر الله، سادس خلفاء الدولة الفاطمية.

أما ترجمة حياتها فاطلبها في البحث الخاص «بالفواطم».

٦٩٤- ست النعم - شارع - بقسم محرم بك

اسمها بالكامل «أم علي تقية بنت أبي الفرج الأرمنازي الصوري» الشهيرة «بست النعم»، وهي أم تاج الدين أبي الحسن علي بن فاضل الصوري الأصل، كانت من فضليات السيدات ولها شعر جيد وقصائد ومقاطيع حلوة الأسلوب والخيال، وقد صحبت الحافظ أبا الطاهر السلفي (انظر مادة السلفي) حين استقر بالإسكندرية، وذكرها السلفي في بعض تعليقاته وأثنى عليها، وكتب بخطه أنه عثر في أثناء سيره بالمنزل الذي يسكنه، فانجرح إخمصه فشقت فتاة في الدار شريطة من خمارها، وعصبت إخمصه الجريح، وعندها أنشدت تقية على الفور تقول:

لو وَجَدْتُ السبيلَ جُدْتُ بِخَدِّي
عِوْضًا عن خِمارِ تلك الوليدهْ

كيفَ لي أنْ أقبِّلَ اليومَ رِجْلاً
سلكتْ دَهْرَها الطريقَ الحميدهْ

ولها غير هذين البيتين أشعار حسنة الأسلوب والمعاني، وقد نظمت تقية قصيدة تمدح بها الملك المظفر تقي الدين عمر وهو ابن أخي السلطان صلاح الدين الأيوبي (انظر مادة صلاح

الدين)، وكانت القصيدة خمرية تصف مجالس الخمر وما يتعلق بها، فلما اطلع الملك المظفر عليها قال: إن الشيخة تعرف هذه الأحوال من زمن صباها، فبلغها ذلك فنظمت قصيدة أخرى حربية، وصفت فيها الحرب وما يجري في مراحلها القتالية أحسن وصف ثم أرسلتها إلى المظفر قائلة: إن علمي بالحرب كعلمي بالخمر، في قصدها براءتها مما نسبه إليها من أنها كانت تعرف أحوال مجالس الخمر في صباها وهي التقية الورعة التي نالت ثناء وتقدير العالم الورع أبي الطاهر السلفي.

وقد ولدت تقية الشهيرة «بست النعم» في شهر صفر عام ٥٠٥هـ (١١١١م) بمدينة دمشق ووافتها المنية بالإسكندرية عام ٥٧٩هـ (١١٨٣م) بالغة من العمر حوالي ٧٣ عامًا، وتوفي ولدها أبو الحسن علي الصوري بالإسكندرية عن سن عالية، وكنيتها بالأرمنازي ترجع إلى قرية من أعمال مدينة دمشق، وهي مسقط رأس والدها أبي الفرج الأرمنازي، وما من شك في أن ابنها أبا الحسن هو سيدي الصوري بعينه (انظر سيدي الصوري).

وليس في البيتين المدوّنين قبل ما يدعو إلى العجب لما يتضمنان من خنوع وعبودية تؤكدهما ست النعم لأستاذها أبي الطاهر السلفي في هذين البيتين، لدرجة أنها تحتار في كيفية ركوعها وتقبيل رجله، بعد أن عصبت الفتاة إخمصه بشريطة من خمارها، وهي الرِّجل الشريفة التي سلكت طول حياتها طريق الاستقامة والصوفية الخالصة، ليس في ذلك ما يدعو إلى العجب، فإلى وقت غير مستغرق في القدم كانت الزوجة لا تتردد في تقبيل رجل زوجها ولا تتردد البنت أو الولد في تقبيل رجل أبيهما في كثير من المناسبات ولاسيما الدينية منها.

وقد عاصرت ذلك ورأيته في عهد الطفولة عندما كان القرن التاسع عشر يلفظ أنفاسه الأخيرة، وقرأته في التاريخ الذي يذكر أن السلطان المملوكي الظاهر بيبرس قبَّل قدم السيد أحمد البدوي عندما زاره في طنطا وإلى الآن يقول صاحب الحاجة لمن يستعطفه «أبوس رجلك» إنك تصفح عني وتقضي لي الحاجة الفلانية.

ويدل وصفها لروضة من رياض الإسكندرية الغنّاء التي كثيرًا ما جرت أقلام الشعراء السكندريين بالإطناب في جمال أزهارها، على براعتها في الوصف فتقول:

والروْضُ مُبتسِمٌ بنورِ أقاحِهِ
لَمَّا بَكَى فرحًا عليه غَمامُها

والنرْجَسُ الغَضُّ الذي أحداقُهُ
ترْنو لتفْهَمَ ما يقولُ خُزامُها

والورْدُ يحكي وَجْنةً مُحْمَرَّةً
انحلَّ من فَرطِ الحياءِ لثامُها

ففي هذه الصورة الوصفية ما يجعل القارئ يتخيل أن أزهار هذه الحديقة تتناجى بلغتها الفياحة، فالنرجس ينظر في إمعان إلى الخزام ليفهم ما يريد أن يقول، والورد يلقي بلثامه عن وجنته الحمراء من الخجل، وكل ذلك الوصف الشيق في إطار مرح بديع يوضح ما كان لهذه الشاعرة من خيال خصب وشاعرية متقدمة الخطى.

ويظهر أن تقية الأرمنازي الشهيرة بست النعم كانت على جانب من الجمال والبهاء، ويبدو ذلك من البيتين الآتيين اللذين بعث بهما إليها شاعر من معاصريها كانت قد بعثت إليه بهدية من التوت القرمزي:

وتوتٌ أتانا ماؤُهُ في احْمرارِه
كدَمْعي على الأحبابِ حين ترحَّلوا

هديَّة من فاقَتْ جمالاً وفتنةً
وأبْهَى من البَدْر المنير وأجْمَلُ

وقد يكون في هذين البيتين مغالاة هي من خصائص الشعراء في ذلك الحين ولكن في هذه المغالاة نفسها ما يدل على أن شاعرتنا كانت على قسط من الجمال النسائي وفاقًا لمقاييسه في ذلك العصر.

ولعل جمالها وثقافتها العالية التي أشاد بها العالم السلفي، وفضلها الذي نَوَّه به، لعل كل هذا كان حافزًا لها على التمادي في الفخر وامتداح نفسها، مما دعا أحد شعراء الإسكندرية إلى نقدها بقوله:

وما شرفٌ أن يمدحُ المرءُ نفسَهُ
ولكنَّ أفعالاً تُذَمُّ وتُمْدَحُ

وما كل حسن يصدق المرء قلبه
ولا كل أصحاب التجارة تربح

فردت عليه في شموخ وعظمة وإمعان في مدح نفسها قائلة:

تَعيبُ على الإنسانِ إظهارَ عِلْمه
أَبالجد هذا منك، أم أنتَ تَمْزَحُ؟

فَدَتْكَ حياتي قد تقدم قبلنا
إلى مدْحِهِم قومٌ وقالوا فأفصحوا

وللمتنبّي أحرفٌ في مديحهِ
على نفسه بالحقِّ، والحقُّ أوضحُ

أروني فتاةً في زماني تفوقُني
وتعْلُوَ على عِلمي وتهجو وتمدحُ!

وكان لست النعم (تقية الأرمنازي) مراسلات ومساجلات شعرية مع أدباء وشعراء عصرها من السكندريين وغيرهم، وما من شك في أنها كانت على علم متين بفنون الأدب واللغة، ولم يبق الزمن على ديوان شعرها للتعرف عليها كشاعرة وأديبة تعرفًا قائمًا على الحقيقة والواقع.

٦٩٥- ﺳﺘﺮاﺑﻮن - ﺷﺎرع - ﺑﻘﺴﻢ ﻣﺤﺮم ﺑﻚ (سليم حسن حاليًا)

وسترابون «Strabon» جغرافي يوناني ولد في أماسيا في حوالي عام ٥٨ق.م.، ومات في عام ٢٥م، وقد صنف كتابًا قيمًا في علم الجغرافيا تناول فيه أحداثًا تاريخية ذات أهمية فائقة حاول فيها ربط حياة الإنسان والشعوب والدول بعالم الطبيعة الأرضية.

وقد فصل في كتابه كثيرًا من مراحل تاريخ الإسكندرية في العصر البطلمي، وسرد تفصيلات دقيقة لمعالم المدينة

في ذلك العصر، وفي القرون التالية حتى زمن وجوده، ويعتمد المؤرخون على هذه التفصيلات في تناولهم لتاريخ مدينة الإسكندر الأكبر بالشرح، وذلك لما لتدويناته من ثقة وتقدير.

أما ترجمة العالم الأثري «سليم حسن» فسنأتي في مكانها من شوارع «حرف س».

٦٩٦- ستروس - شارع - بقسم سيدي جابر (ألفريد ليان حاليًا)

هو الدكتور «ستروس Strauss» الفرنسي أحد أساتذة معهد «باستير Pasteur» بباريس، وأسباب حضوره إلى الإسكندرية أن وباء الكوليرا حدث بالإسكندرية ثلاث مرات خلال القرن التاسع عشر وكان آخرها في عام ١٨٨٣م، وبدأ الوباء في الانتشار بمدينة دمياط ثم زحف على القاهرة فالإسكندرية، وفي يوليو من تلك السنة ارتفع عدد الضحايا بهذا الوباء إلى ٥٠٠ في القاهرة وحدها، فاتجهت السلطات الإنجليزية إلى فرنسا طالبة مساعدة علماء معهد «باستير»، فبادرت فرنسا إلى إرسال بعثة طبية برياسة الأستاذ الدكتور «ستروس»، ووصلت البعثة إلى الإسكندرية في ١٣ أغسطس عام ١٨٨٣م، وبدأت مكافحتها للوباء بالمستشفى الفرنسي الذي سمِّي فيما بعد بالمستشفى الأوروبي، وصار الآن مستشفى القوات المسلحة، عند ناصية شارعي المتولي وسيدي أبي الدرداء، ولم تتوان هذه البعثة في المكافحة فبذلت كل ما وسعت طاقتها في تخفيف وطأة المرض دون جدوى، فقد قلت الإصابات في مدن القطر المصري وأخذت تزداد في الإسكندرية، وفي أغسطس من تلك السنة وصلت إلى الإسكندرية البعثة الألمانية برياسة «الدكتور روبير كوخ» (انظر مادة كوخ) وتنافست البعثتان في البحث عن مكروب الكوليرا حتى توصل الدكتور كوخ إلى اكتشافه وأتم بحثه في الهند.

وتقديرًا لجهود الدكتور «ستروس» أطلقت البلدية اسمه على هذا الشارع.

أما ترجمة صاحب الاسم الجديد للشارع فاطلبها في «ألفريد ليان».

٦٩٧- سحنون - زقاق - بقسم محرم بك

هو عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنّوخي المعروف بسحنون وكنيته هي أبو سعيد، وقد أطلق عليها لفظ «سحنون» نسبة إلى طائر حديد الذهن بالمغرب يسمونه سحنون لقوة ذكائه، وقد ولد في أول شهر رمضان عام ١٦٠هـ (٧٧٦م) ونشأ بمدينة القيروان بالقطر التونسي، وهي المدينة التي شيدها عقبة بن نافع (انظر مادة ابن نافع) عند الفتح العربي للأقطار المغربية، وكان خفيف الظل، سريع النكتة، وكان مولده بمدينة حمص، ولم يكن غنيًّا، وكان شيخ مدينة القيروان في ذلك الحين هو البهلول بن راشد المتوفى عام ١٨٣هـ (٧٩٩م) الذي كان ذائع الصيت، لورعه، وعلمه، وقوة شخصيته، فأقبل عليه سحنون يأخذ عنه العلم والفقه إلى جانب أخذه من العلماء الآخرين، ولكن صلته بالشيخ بهلول كانت وثيقة بسبب ما توسم في تلميذه من الذكاء وسعة الإدراك والنجابة المبكرة، فصار المعلم المثل الأعلى لتلميذه وصار التلميذ موضع الإكبار من معلمه الذي أثر في تكوين شخصيته العلمية والاجتماعية لدرجة أنه كان أقرب الناس إليه وأشبههم به، غير أن تعلق سحنون بأستاذه البهلول وإعجابه به لم يحولا دون

طلب سحنون العلم من غيره جريًا على تقاليد العلم الإسلامي الذي كان يلتمس في كل مكان، ويسعى إليه طالبه في كل موطن ليأخذه عن كل من يتاح له الأخذ عنه من أهل الفضل والثقة، وهذا كان يتفق مع طموح سحنون وهدف غايته.

ولم يتقاعس سحنون عن طلب المزيد من التعليم فذهب إلى مدينة تونس ليحضر حلقات عليّ بن زياد المتوفى عام ١٨٣هـ (٧٩٩م) العلمية، وقد شجعه على الرحيل شيخه البهلول الذي كتب إلى ابن زياد يقول: «إني إنما كتبت إليك في رجل يطلب العلم لله عز وجل»، وما كان أجلها من تقدمه، فقد كانت هذه الصفة غاية الغايات في طلب العلم.

ولم يمضِ وقت طويل حتى توثقت الصلة الروحية بين سحنون وأستاذه الجديد عليّ بن زياد ولاسيما بعد أن توسّم الشيخ في تلميذه، توقد الذهن، ووجد التلميذ في شيخه صورة من المثل الأعلى الذي وجده في أستاذه البهلول.

وكما لم يقتصر في القيروان على أخذ العلم عن البهلول، لم يتوان في أخذه بمدينة تونس على غير عليّ بن زياد، فدرس على يد العباس بن الأشرس، وهو أحد المغاربة الذين رحلوا إلى المشرق، وأخذوا عن الإمام مالك نفسه.

ولم يقف به الطموح إلى هذا الحد من التثقيف العلمي فعزم على الرحيل إلى المشرق على غرار غيره من طلاب العلم في ذلك الوقت، ويقول بعض المؤرخين إن سحنون قام برحلتين إلى البلاد الشرقية، كانت أولاهما خلال عام ١٧٨هـ (٧٩٤م) وكان مايزال في مرحلة الشباب لا يتجاوز الثامنة عشرة من العمر، وقد انتهى في هذه الرحلة إلى مصر، ولم يبلغ بها غايته إذ كان يبغي الوصول إلى الحجاز، ولكن ضيق ذات اليد حال دون بلوغه هذه الغاية.

غير أنه استطاع في أثناء مقامه بمصر أن يتصل بابن القاسم، وأن يحضر مجالس علمه، ويأخذ عنه، وكانت رسائل الإمام مالك ترد على ابن القاسم متضمنة أجوبة الإمام على أسئلة ابن القاسم، فكان سحنون شديد الحسرة لأنه لم يستطع السفر إلى الحجاز ليلتقي بمالك ويحضر دروسه، وقد توفي مالك في السنة التالية أي خلال عام ١٧٩هـ (٧٩٥م).

وظل يتوق إلى زيارة الحجاز مترقبًا سنوح الفرصة، وامتد أجل هذه الرغبة العزيزة على نفسه عشرة أعوام إلى أن واتته الفرصة المنشودة سنة ١٨٨هـ (٨٠٣ م) بعد وفاة شيخه البهلول بخمسة أعوام.

وفي أثناء هذه الرحلة الثانية جدد صلاته بعلماء مصر وعلى رأسهم ابن القاسم وعبد الله بن وهب (انظر مادة ابن وهب) وأشهب بن عبد العزيز وابن عبد الحكم (انظر هذه المادة) وغيرهم من الأئمة، غير أن أوثق هذه الصلات، وأقواها كانت صلته بابن القاسم فقرأ عليه «الأسَدِيَّة» التي كان أسد ابن الفرات (انظر مادة ابن الفرات) قد تلقاها عن ابن القاسم، وسمعها سحنون من أسد بن الفرات في إفريقية (تونس)، وقد بدا لابن القاسم – وهو يقرؤها عليه – بعض التعديل، فغير ما بدا له منها ومن ثَمَّ صارت نسخة سحنون هي النسخة المعتبرة دون نسخة أسد بن الفرات.

ولكي يؤيد ابن القاسم تلميذه سحنون فيما أدخل على نسخة ابن الفرات من تعديل كتب إلى أسد بذلك، وطالبه بأن يرد مدونته إلى مدونة سحنون.

وكان ابن القاسم شيخ الفقهاء المصريين في ذلك الحين فقد صحب الإمام مالك (انظر هذه المادة) طوال عشرين عامًا، وكان إلى جانب قوته الفكرية والعلمية قوي الشخصية فنزل من تقدير سحنون منزلة شيخه البهلول في تونس، وهكذا التصق بدروسه وأخذ عنه ووجد فيه مثله الأعلى في متانة الخلق، وشدة الورع، وأصالة الرأي، ونفاذ الشخصية.

وبدأ الركب سيره إلى الحجاز يضم سحنون، وأستاذه ابن القاسم، وابنه موسى، وابن وهب، ولم ينفك سحنون عن تلقي الدروس على أستاذه طوال مدة الرحلة فكانت فائدته عظيمة.

وبعد مناسك الحج شرع سحنون في تلقي العلم على علماء الحجاز أمثال: أبي محمد وشعبان بن عيينة محدث الحرم المكي، وشيخ محدثي زمانه، وأنس بن عياض محدث المدينة، وأتاحت له فرصة الحج الاتصال بعلماء الأمصار الأخرى فتعرف إليهم وأخذ عنهم.

ثم مضى بعد ذلك إلى الشام وأخذ عن علمائها وعاد إلى مصر في طريقه إلى تونس، وقد مضى سحنون في هذه الرحلة العلمية المفيدة ثلاث سنوات نضجت في خلالها ملكاته واكتملت شخصيته واتسعت آفاق إدراكه العلمي، وصار جديرًا بالمكانة العلمية التي تبوأها في مرحلة حياته التالية.

وكانت عودته إلى تونس خلال عام ١٩١هـ (٨٠٦م)، وكانت زعامة الحركة العلمية في هذا القطر العربي قد انعقد لواؤها لأسد بن الفرات، وكان كتابه «الأَسَدِيَّة» هو العمدة لدى الفقهاء، فلما أطلعه سحنون على مدونته التي صححها أستاذه ابن القاسم وعلى كتاب هذا الأستاذ، وقع الأمر من نفس ابن الفرات موقع الحيرة والقلق والاضطراب، فكان بين الإذعان لكتاب أستاذه ابن القاسم الذي يحمل له أجل التقدير، وبين الخضوع لكبريائه، وسرعان ما أخذ بعض تلاميذه يثيرون كامن هذه الكبرياء، وينفخون في أواره، ومازالوا به حتى رفض ما جاء بكتاب ابن القاسم إليه، وتمسك بمدونته «الأسدية» كما تمسك سحنون بمدونته التي جاء بها من مصر، ونشرها فسمعها عليه أهل المغرب، وذاع ذكرها في الآفاق، وعوَّل الناس عليها وأعرضوا عن مدونة ابن الفرات، ومن ثَمَّ غلب عليها اسم سحنون، وجاءت مدونة سحنون سهلة التناول واضحة اللغة.

وانقسم الناس إلى فريقين: فريق يؤيد ابن الفرات وآخر يؤيد سحنون، ولما كان مذهب سحنون أقوم الرجلين بمذهب الإمام مالك، إذ كان هو ممثله ومرجعه الأصيل، وكان مذهب ابن الفرات مزاجًا بين مذهب أهل المدينة ومذهب أهل العراق فقد قربه هذا المزج من السلطان بقدر ما باعد بينه وبين سحنون.

ولم يكن سحنون يهدف إلى نيل المجد أو الشهرة من هذه المشادة، وهذا الخلاف في الرأي، إذ إنه كان يسعى إلى أن يؤدي العلم الذي اؤتمن عليه، وأن يملك القدرة على ذلك الأداء خالصًا لوجه الله، ولذلك كان يحصل على أسباب عيشه بكدّه، وجهد يديه، فكان يخرج إلى البادية في وقت الحرث وإبان الحصاد ويحرث بنفسه، ويستخرج من الأرض ما يقيم به أوده، وكان تلاميذه يتصلون به وهو على هذه الحال مصرًّا على أن يكون بعيدًا عن السلطان، ومكافحًا حتى لا تجبره الحاجة على الاتجار بالعلم.

وظل سحنون على ما وطد النفس عليه مخلصًا للتعليم ، والتهذيب ، والدعوة للمثل الدينية العليا ، فصار مقصد طلاب العلم في المغرب العربي بأسره يرحلون إليه طوال المدة التي قضاها في تعليمهم وهي ما يقرب من أربعين سنة .

وفي أثناء هذه المدة ظهرت بالعراق محنة خلق القرآن التي بدأ شرها عام ٢١٨هـ (٨٣٣م) ، وأخذت تسري حتى بلغت الأقطار المغربية ، وانتدب أمير أفريقية (تونس) محمد ابن الأغلب (انظر مادة ابن الأغلب) للأخذ بنصيبه منها وأخذ قاضيها ابن أبي الجواد يتعقب العلماء من أهل السنة ويغري السلطان بهم – وعلى رأسهم سحنون – فينجح ابن أبي الجواد في إهدار دم سحنون الذي لم ينج من القتل إلا بشفاعة علي ابن حميدو وزير الأغلب الذي رأى أن قتل سحنون سيكون كارثة يجب منعها ، وتجنب عواقبها الوخيمة .

وقد زادت محنة خلق القرآن في البعد بين سحنون وبين السلطان وزادت في إفساد ما بينه وبين ابن أبي الجواد ولاسيما أن سحنون ظل يندد به ويرفض أن يصلي خلفه ، واشتد غضب الناس وسخطهم على ابن أبي الجواد فرأى السلطان أنه من الحكمة إبعاده عن الحكم وعن القضاء .

وأراد السلطان أن يمحو الآثار السيئة التي تركها ابن أبي الجواد في نفوس الرعية طيلة ثمانية عشر عامًا ففاتح سحنون في أن يتولى القضاء لإزالة هذه الآثار ، ومازال به يراجعه في امتناعه عامًا كاملاً حتى رجح عنده أخيرًا أن لا بأس في أن يلي القضاء ، إذا أطلقت يده في كل ما يقتضيه ذلك المنصب ليرد له اعتباره ويؤدي له حقه من إقرار الحقوق ، ورفع المظالم أيًّا كان مجترموها ، وكان قبوله القضاء في رمضان عام ٢٣٤هـ (٨٤٨م) .

وهكذا وُلِّي سحنون القضاء بعد أن أخذ لنفسه المواثيق بذلك ، حتى لقد قال للأمير الأغلبي: «أبدأ بأهل بيتك ، وقرابتك ، وأعوانهم فإن قِبَلَهم ظلامات للناس ، وأموالاً لهم منذ زمن طويل ، إذ لم يجترئ عليهم من كان قبلي» ، فقال له الأمير: «نعم لا تبدأ إلا بهم واجر الحق على مفرق رأسي» .

وكره كثير من الناس ولاية سحنون للقضاء لأنهم كانوا يرون في الأمير الأغلبي حاكمًا جائرًا لا يجوز التعاون معه ، ولكن سحنون كان يرى أن بتوليه القضاء يستطيع منع المظالم عن الناس قدر المستطاع ، ولقد كانت ولايته للقضاء من الأحداث البارزة في تاريخ دولة الأغالبة في إفريقية (تونس) ولاسيما أنه استحدث الحسبة فاتخذ إلى جانب القضاء صفة المحتسب ، وكان صارمًا لا تأخذه في الحق لائمة ، ولا يعبأ بما يتعرض له في سبيل ذلك من غضب الأمير وظل في سبيل إحقاق الحق ، ورفع المظالم عن الناس حتى وافاه الأجل المحتوم في يوم الثلاثاء ٩ رجب عام ٢٤٠هـ (٨٥٤م) بالغًا من العمر حوالي ٧٩ عامًا .

وقد وصف أبو العرب محمد بن أحمد تميم الإفريقي سحنون بقوله: «اجتمعت فيه خلال قلّما اجتمعت في غيره: الفقه البارع ، والورع الصادق ، والصرامة في الحق ، والزهادة في الدنيا ، والتخشن في الملبس والمطعم والسماحة ، فكان ربما وصل إخوانه بالثلاثين دينارًا ، وكان لا يقبل من أحد شيئًا سلطان أو غيره ، ولم يكن يهاب سلطانًا في حق يقوله ، سليم الصدر للمؤمنين ، شديدًا على أهل البدع ، انتشرت إمامته بالمشرق والمغرب ، وسلّم له الإمامة أهل عصره ، وأجمعوا كلهم على فضله وتقدمه» .

ويدل على زهده في المناصب وعزفه عن منصب القضاء قوله لابنته خديجة عندما قبل هذا المنصب بعد التمنع الطويل، «اليوم ذبح أبوكِ بغير سكين»، ولم يقبل سحنون أي عطاء أو مرتب من الأمير محمد الأغلب، وإنما كاد يوفي نفقاته ونفقات موظفيه من جزية الرؤوس التي كانت مفروضة على الكفار، ولكي يتسنّى له أن يقضي بين الناس في هدوء لا يزعجه شيء أمر بأن تشيد له غرفة بجانب المسجد، ولم يكن يسمح بدخولها إلا للمتقاضين وشهودهم.

وكان من أول أعماله الأخرى تحريم دخول المسجد على الفرق الضالة جميعًا، ذلك أنه كان ثمة عدد كبير من الصفرية والإباضية والمعتزلة في القيروان، وكان سحنون أيضًا أول من نُصِّب إمامًا ثابتًا للمسجد، وأول من عهد بالأموال المرهونة إلى من يوثق بهم من أهل المدينة، في حين أن هذه الأموال كانت تحفظ في بيت القاضي حتى ولي سحنون القضاء، وأبطل هذا النظام.

وكان في قضائه يعامل الخصوم جميعًا أطيب معاملة، وكان يبذل غاية الجهد للتهدئة من روع المتقاضين والشهود بأن يقول لهم أن يصارحوه بما يعلمون، وكان حذرًا جدًّا في الإجابة عن المسائل الشرعية ذلك أنه كان يعتقد أن الإجابات الصادرة عن تعجل تزيد الأمور اضطرابًا، وقد ذكر مؤرخو سيرته كثيرًا من كريم خصاله مما يدل على احترام الناس له، وما كانوا يكنون له من تجلة ومن ثَمَّ كان حزن الناس عليه عند وفاته عميقًا.

ويقول المستشرق «بروكلمان Brockelmann» إن الفضل في نشر المذهب المالكي يرجع إلى أسد بن الفرات وابن القاسم، ولكن يجب ألا ننسى فضل ما بذله سحنون من جهد في ترتيب المدوّنة ونشرها، مما كان له أكبر الأثر في انتشار هذا المذهب في المغرب العربي حتى الآن، ومدوَّنة سحنون مصنف جامع شامل يزيد كثيرًا عن موطأ مالك ولو أنه يعتمد عليه، ومخطوطات المدوَّنة نادرة، غير أنها طبعت مرتين بالقاهرة، وإحداهما في أربعة مجلدات وطبعت عام ١٣٢٥هـ (١٩٠٧م)، والثانية في ١٦ جزءًا وطبعت عام (١٣٢٣هـ) (١٩٠٥م)، ويوجد لدى بعض الناس في القيروان سبعة أجزاء كتبت على الورق حوالي عام ٤٠٠هـ (١٠٠٩م).

واختصر أبو محمد عبد الله بن أبي زيد، المتوفى عام ٣٨٦هـ (٩٩٦م) من مدونة سحنون لأن الأصل مطول، ولا يستطاع الاطلاع عليه في مدة وجيزة، وعنوان هذا المختصر هو «مختصر المدوّنة» وللمدونة السحنونية شروح كثيرة لكبار علماء الفقه المالكي.

٦٩٨- السخاوي - حارة - بقسم اللبان

يذكر المؤرخون اثنين يحمل كل منهما لقب السخاوي نسبة إلى بدلة سخا بمحافظة الغربية وهي بلدة قديمة كان فيها أسقفية مسيحية في العصور القديمة، وفيما يلي ترجمة كل من الاثنين وفاقًا لتاريخ وجودهما في قيد الحياة:

١) أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد بن عبد الأحد السخاوي (وكنيته علم الدين): وقد ولد عام ٥٥٨هـ (١١٦٢م) ببلدة سخا، وتلقى العلم في شبابه على يد الشيخ أبي محمد الشاطبي المتوفى عام ٥٩١هـ (١١٩٤م) وهو صاحب الشاطبية في القراءات، فأتقن السخاوي - على

يد شيخه الشاطبي – علم القراءات والنحو واللغة، ثم أتقن هذه العلوم بعد ذلك على يد أبي الجود غياث بن فارس بن مكي، وسافر إلى الإسكندرية، وسمع الحديث والفقه الشافعي على أبي الطاهر السلفي، وابن عوف بن مكي (انظر مواد الشاطبي والسلفي وابن مكي) وعاد إلى القاهرة، وأخذ عن شهاب الدين البوصيري (انظر مادة البوصيري) وابن ياسين.

وسافر بعد ذلك إلى دمشق حيث تقدم فيها بعلمه الغزير على علمائها فذاع صيته، والتف الطلاب من حوله يتلقون العلم، ويجودون القرآن الكريم، ومن مؤلفاته شرحه المفصل للزمخشري (انظر مادة الزمخشري) في أربعة مجلدات، وشرح القصيدة الشاطبية في القراءات وكان قرأها على ناظمها في القاهرة.

وللسخاوي خطب كثيرة وشعر جيد، وكان مقدمًا على غيره في دمشق فكان الناس يتسابقون إلى حلقات دروسه يزدحمون حوله في الجامع الأُموي الكبير للوقوف منه على صحيح القراءات، ومن كثرة طلابه كان لكل واحد منهم ميعاد لا يحل إلا بعد وقت من الزمن، وكان يركب بهيمته ويصعد إلى جبل الصالحية، وحوله اثنان وثلاثون طالبًا فيرد عليهم جميعًا في كل الأسئلة التي يطرحونها عليه.

وظل مواظبًا على دروسه، وممارسة وظيفته التعليمية إلى أن توفي بدمشق ليلة الأحد ١٢ جمادى الآخرة عام ٦٤٣هـ (١٢٤٥م) بالغًا من العمر حوالي ٨٤ عامًا، وعندما حضرته الوفاة أنشد لنفسه:

قالوا غدًا تأتي ديارَ الحِمَى
وينزلُ الركبُ بِمغْناهم

وكلٌّ من كان مطيعًا لهم
أصبح مسرورًا بلُقْياهم

قلتُ فلي ذنبٌ فما حِيْلتي
بأيِّ وجهٍ أتلقاهم

قالوا أليسَ العفوُ من شأنهم
لا سيما عَمَّنْ ترجَّاهم

٢) محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن عثمان (ولقبه الحافظ شمس الدين السخاوي): ولد عام ٨٣١هـ (١٤٢٧م) وحفظ القرآن، وجوّده، وبرع في الفقه، واللغة العربية، والحساب، والميقات، وكان كثير الأسفار، وسمع الحديث على العسقلاني (انظر هذه المادة)، واشتهر بكتابه التاريخي الهام «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع»، وله كتاب آخر هو «التبر المسبوك» وهو ذيل لكتاب السلوك في دول الملوك للمقريزي (انظر هذه المادة).

وكتاب «الضوء اللامع» أحد المراجع القيمة في فن التراجم في الأدب العربي التي شغلت فراغًا كبيرًا وتناولت معظم العصور والطوائف، وأولها كتاب «وفيات الأعيان» لابن خلِّكان الذي يقدم للباحثين أروع النماذج لتراجم الأشخاص في الأدب العربي قاطبة، ومنذ عصر ابن خلِّكان تتوالى معاجم الترجمة، وتميل إلى التخصص أحيانًا بعصر

بذاته وأحيانًا بطائفة معينة من الناس، وأحيانًا بقطر معين من الأقطار.

ومن أهم هذه المعاجم «الضوء اللامع» للسخاوي و«الإحاطة في أخبار غرناطة» لابن الخطيب (انظر هذه المادة)، وكلاهما موسوعة ضخمة تضم المئات من التراجم.

وقد كتب السخاوي موسوعته «الضوء اللامع» بين سنتي ٨٩٠ و٨٩٨هـ (١٤٨٥-١٤٩٢م)، أي أن تأليفها استغرق حوالي ثمانية أعوام، وكان ابن الخطيب يركز تراجمه حول المكان، فيذكر طائفة كبيرة من الأعلام الذين عاشوا في غرناطة أو نزلوا بها، أما السخاوي فكان يركز تراجمه حول الزمان الذي حدثت فيه مراحل هذه التراجم، وهو يبسط موضوع كتابه في ديباجته فيقول: «ففي هذا الكتاب جمعت ما علمته من هذا القرن الذي أوله إحدى وثمانين، ختم بالحسنى من سائر العلماء والقضاة والصلحاء والرواة والأدباء والشعراء والخلفاء والملوك والأمراء والمباشرين والوزراء، مصريًّا كان أو شاميًّا، حجازيًّا أو يمنيًّا، روميًّا أو هنديًّا أو مغربيًّا، بل وذكرت فيه بعض المذكورين بفضلٍ ونحوه من أهل الذمة».

وأبدى السخاوي فيما كتب كثيرًا من الدقة والشمول والاستيعاب، ويرجع ذلك إلى ظروف الحياة التي عاشها، فقد أتيحت هذه الظروف الحسنة الفرصة لإعداد مادة كتابه، وهيأت حياته الخاصة واتصالاته بالعظماء، وأكابر الناس ورجال الدولة، وتجواله في مصر، والشام، والحجاز، ولقاؤه لمئات العلماء والأدباء في عواصم هذه الأقطار وما دوّنه عنهم في رحلاته المختلفة، مادة غزيرة لكتابه، وقد قطع ثمانية أعوام في إعداد مواده، وتنظيمها، وتحقيقها واستكمالها، فصارت سجلاً حافلاً يعكس تاريخ القرن التاسع الهجري بأكمله.

ويمتاز كتاب «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» بقوة الأصالة والتصوير، مما ليس له نظير في كتب التراجم العربية، هذا علاوة على ما ينطوي عليه من روح النقد اللاذع الذي يجعل من السخاوي نقادة لا يجارى.

غير أن هذه النزعة النقدية الجامحة تحمله في مواطن كثيرة إلى شطحات بعيدة، فيركن عندئذ إلى التجريح والهدم في قسوة لا تعرف الرحمة مما يُلبس نقده ثوب التحامل الظاهر.

وقد دوّن في كتابه طائفة كبيرة من التراجم المتعلقة بأقطاب عصره ولم يسلم أحد منهم من تجريحه، اللّهم إلا شيخه الحافظ ابن حجر العسقلاني (انظر مادة العسقلاني)، وفي التراجم التي كتبها عن المقريزي وابن خلدون وابن تغري بردي والسيوطي أمثلة واضحة لنزعته الهدامة التي توضح شغفه بالتجريح والانتقاص، فهو يكاد لا يطيق أحد عباقرة قرنه، ومن ثَمَّ يبادر إلى مهاجمته في غير هوادة، وفي هذا الصدد يخالف ابن الخطيب في تراجمه التي دونها في كتابه «الإحاطة في أخبار غرناطة»، فالنزعة الهدامة ليست قاعدة عند ابن الخطيب كما هي قاعدة عند السخاوي، والتجريح العنيف الذي يسيطر على قلم السخاوي في صورة مستمرة ليس إلا نزعة عابرة عند ابن الخطيب.

وعلى الرغم مما تقدم فإن السخاوي أستاذ من أعظم أساتذة النقد في الأدب العربي، بل ربما كان أعظمهم جميعًا، فهو محدث بارع، ومؤرخ يستمد علم الحديث في تمحيص الرواية، وبراعته النقدية في التاريخ ترجع في كثير من الوجوه إلى براعته في النقد والسرد، وهذه الصيغة النقدية البارزة هي التي تضفي على آثاره التاريخية، وعلى تراجمه النقدية، قوتها وطرافتها.

وفيما يلي أنموذج من قوله في معاصره وزميله أبي المحاسن ابن تغري بردي، فأقصى ما استطاع أن يذكره من فضائله قوله: «وبالجملة، فقد كان حسن العشرة، تام العقل، إلا في دعواه فهو حَمِق، لطيف المذاكرة، حافظًا لأشياء من النظم ونحوه، بارعًا حسبما كنت أتوهمه في أحوال الترك ومناصبهم، وغالب أحوالهم منفردًا بذلك، لا عهد له بمن عداهم، ولذلك تكثر فيهم وتختلط ألفاظه وأقلامه، مع سلوك إعراضه وتماشيه عن مجاهرة من أدبر عنه بإعراضه وما عسى أن يصل إليه تركي».

وتوفي شمس الدين السخاوي بالمدينة المنورة عام ٩٠٢هـ (١٤٩٦م) بالغًا من العمر حوالي ٧٠ عامًا.

٦٩٩ – السَّرْخَسي – شارع – بقسم محرم بك

لقب السرخسي يرجع إلى مدينة سرخس القديمة الواقعة بين مشهد ومَرْو، حيث تنعطف التخوم بين فارس والاتحاد السوفييتي من الشرق إلى الجنوب، وهي على مجرى نهر «هري رود» الأسفل.

ويحمل لقب السرخسي من المفكرين العرب ثلاثة دوَّن المؤرخون سير حياتهم، وفيما يلي ترجمة كل منهم حسب وجودهم في الحياة:

١) أبو محمد الحسن بن سهل بن عبد الله السَّرْخسي: تولى وزارة الخليفة العباسي المأمون (انظر مادة المأمون) عقب وفاه أخيه «ذي الرياستين الفضل»، وحظي أبو محمد الحسن السرخسي عند المأمون بأكرم مقام، ولاسيما بعد أن تزوج هذا الخليفة ابنته «بوران»، وقد كلفه جهازها أموالاً طائلةً بقيت حديث الإسراف والأبهة على مر الأجيال.

وكان المأمون قد ولاَّه جميع البلاد التي فتحها طاهر بن الحسين قائده المشهور، ويذكر عن السرخسي أنه كان عالي الهمّة، كثير العطاء للشعراء والأدباء وغيرهم، وقصده بعض الشعراء، وفيما يلي مدح بعضهم له وقد أجزل عطاءه:

تقولُ خليلتي لما رأتني
أشدُّ مطيَّتي من بعد حِلِّ

أَبَعْدَ الفضلِ ترتحلُ المطايا
فقلتُ نعم إلى الحسنِ بن سهلِ

وخرج مع المأمون يومًا يشيعه، فلما عزم على مفارقته قال له المأمون: يا أبا محمد ألك حاجة؟ قال: «نعم يا أمير المؤمنين تحفظ عليَّ من قلبك ما لا أستطيع حفظه إلا بك».

وكتب لرجل شفاعة، فأخذ الرجل يشكره فقال السرخسي: «يا هذا، علام تشكرنا، وإنا نرى الشفاعة زكاة مروءاتنا»، وقال لبنيه يومًا: «يا بنيّ تعلموا النطق فإن فضل الإنسان على سائر البهائم به، وكلما كنتم بالنطق أحذق كنتم بالإنسانية أحق».

ولم يزل على وزارة المأمون حتى استولت عليه السويداء بسبب شدة جزعه على موت أخيه الفضل عندما قتل، ومازال هذا المرض به حتى حُبِس في بيته، ومُنِع من التصرف للوثة طرأت على عقله شد من أجلها في الحديد.

وكانت وفاته في مستهل شهر ذي الحجة عام ٢٣٥هـ (٨٤٩م) ودفن بمدينة سرخس.

٢) أحمد بن محمد بن الطيب السرخسي: كان تلميذًا للكندي فيلسوف العرب (انظر مادة أبي يوسف الكندي)، وقد ألّف رسالة في «البحار والمياه والجبال»، يشير إليها المسعودي (انظر هذه المادة) في كتابه «مروج الذهب»، ويقتبس منها رأيًا للكندي، وتلميذه السرخسي في المد والجزر فيقول: «وذلك أن مدّ الجنوب جزر الشمال، ومدّ الشمال جزر الجنوب، فإن وافق القمر بعض الكواكب السيَّارة في أحد الميلين تزايد الفعلان وقوي الْحَمْيُ (والْحَمْيُ هو قوة الجذب)، واشتد لذلك سيلان الهواء، فاشتد لذلك انقلاب ماء البحر إلى الجهة المخالفة للجبهة التي ليس فيها الشمس».

وقال المسعودي في هنا الصدد: «إن هذا الرأي هو رأي يعقوب بن إسحاق الكندي، وأحمد بن الطيب السرخسي فيما حكاه عنه: «إن البحر يزك بالرياح».

وقد فقدت رسالة السرخسي وكتاب الجاحظ المسمى «كتاب الأمطار»، فيما يتعلق بالمد والجزر وإلا أن المؤلفين المتأخرين قد أشاروا إليها في كتبهم.

ومن هذه النبذة يتضح أن محمد بن الطيب السرخسي كان من العلماء العرب الجغرافيين الذي كان لهم فضل الأولوية في الاستفادة من قوى المد والجزر في إدارة الطواحين والسواقي منذ أكثر من عشرة قرون، أي منذ القرن العاشر الميلادي، والقرن الثالث الهجري.

وكانت وفاة السرخسي العالم الجغرافي عام ٢٨٦هـ (٩٨٩م).

٣) شمس الأئمة أبو بكر محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي: وكان أشهر فقهاء المذهب الحنفي فيما وراء النهر في القرن الخامس الهجري، ولا يعرف غير القليل عن حياته، والمرجح أنه ولد في سرخس ثم تلقى العلم على يد عبد العزيز الحلواني المتوفى عام ٤٤٨هـ (١٠٥٦م) في بخارى، وسافر بعد ذلك إلى بلاط القره خانيه في أوزجند حيث زجَّ الخاقان حسن في السجن، ولعل السبب في ذلك أن السرخسي كان الفقيه الوحيد الذي أفتى بأن زواج الخاقان بعتيقته «أم الولد» دون أن تقضي عدتها حرام.

وظل السرخسي في سجنه أكثر من عشر سنوات، كان يملي في أثنائها على مريديه – وهم جلوس أمام سجنه – دروسه في الفقه على المذهب الحنفي.

وأهم مصنفاته: «المبسوط» وهو في ١٤ مجلدًا، و«أصول الفقه» في مجلدين، و«شرح السير الكبير» في أربعة مجلدات، وقد طبع في حيدر آباد بالهند عام ١٣٣٥ – ١٣٣٦، ويؤكد مؤرخو سيرته أنه أملى على مريديه كل هذه المصنفات الضخمة من الذاكرة دون الرجوع إلى أي كتاب، وقد ألف أجزاء من كتابه المبسوط في مدة سجنه أي خلال عامي ٤٦٦ و٤٧٧هـ (١٠٧٣– ١٠٨٤م).

وأطلق سراحه عندما بلغ الجزء الرابع من كتابه «شرح السير الكبير» الذي أتمه في بلاط الأمير حسن في مرغينان في جمادى الأولى عام ٤٨٣هـ (١٠٩٠م).

ومصنفه «المبسوط» من أوسع كتب الفقه القديمة، وهو يمتاز بالطريقة التي يعالج السرخسي بها أصول الفقه العامة.

وعلاوة على ما تقدم، كتب السرخسي شروحًا على المختصر للطحاوي (انظر هذه المادة)، وكتب الحيل للخطّاف، وكتاب الكسب للشيباني (انظر هذه المادة)، وشروحًا أخرى على مصنفات كثيرة للشيباني أيضًا.

ولاتزال كتب السرخسي شائعة التداول جدًّا في الشرق منها كتاب «السير» الذي تكاد لا تخلو منه مكتبة من المكتبات العامة.

٧٠٠ – سرهنك باشا – شارع – بقسم الرمل

هو إسماعيل سِرْهَنْك بن سِرْهَنك بك ابن عبد الله أفندي الكريدي ابن علي أغا، وقد ولد والده بجهة «ريثمو» من أعمال جزيرة كريت (إقريطش عند العرب) (انظر مادة كريت).

وفي عهد إبراهيم الأول (انظر هذه المادة) ابن محمد علي، أُحضر سِرْهَنْك بن عبد الله مع كثير من شباب الجزيرة إلى مصر، وذلك خلال المدة التي كانت جزيرة إقريطش تابعة للحكومة المصرية عقب الثورة التي قامت فيها آن ذلك، وكان عمر سِرْهَنْك بن عبد الله لا يتجاوز السادسة، ثم ألحقه محمد علي بمدرسة الجهادية بقصر العيني عام ١٢٤١هـ (١٨٢٥م)، وفي عام ١٢٤٦هـ (١٨٣٠م) تحول إلى المدرسة البحرية فظل فيها حتى تخرج ضابطًا وعُيِّن بالغليون رقم ٤ عام ١٢٥٠هـ (١٨٣٤م)، وفي تلك السنة – وكان برتبة اليوزباشي (أي النقيب) – تزوج بابنة القائد عمر قائد بني سليمان الجزائري الذي اتخذ من الإسكندرية وطنًا ثانيًا له، ومن المحتمل جدًّا أن يكون مولد إسماعيل سرهنك قد حدث في عام ١٢٥٢ أو ١٢٥٣هـ (١٨٣٦– ١٨٣٧م) أي بعد زواج أبيه بعامين أو ثلاثة أعوام، وهذا الاحتمال رأيت إبداءه لأن تاريخ ميلاد إسماعيل سرهنك لم يعرف على وجه التحديد، وإن كان مكان مولده ووفاته بالإسكندرية.

وبعد أن تقلب سرهنك بن عبد الله والد إسماعيل في مناصب البحرية حتى أحرز رتبة الأميرالاي (العميد)، وأحيل على المعاش عام ١٣٠٥هـ (١٨٨٧م)، ثم وافته المنية في ١٦ من ذي القعدة عام ١٣١٤هـ (١٨٩٦م).

ولما ترعرع ولده إسماعيل وأصاب حظًّا وافرًا من العلوم العامة، ألحق هو الآخر بالمدرسة البحرية حتى أتم تعليمه بها، ولنبوغه في المدرسة وعلوم البحار، أُرسل في بعثة علمية إلى إنجلترا، وألحق بالبحرية البريطانية، فتزود منها ما شاء له ذكاؤه أن يتزود من علم ومران، ثم عاد إلى مصر وأخذ يترقى في الرتب العسكرية، إلى أن صار ناظرًا للمدرسة الحربية، وفي هذه الفترة من حياته العملية عُني إلى أقصى حد بدراسة التاريخ، فحذقه وألّف فيه كتابًا قَيِّمًا دعاه: «حقائق الأخبار عن دول البحار»، طبع الجزء الأول والجزء الثاني منه عام ١٣١٤هـ (١٨٩٦م) بالمطبعة الأميرية ببولاق، وطبع صَدْرٌ من الجزء الثالث بتلك المطبعة عام ١٣١٦هـ (١٨٩٨م)، وكان برتبة الأميرالاي (العميد)، وخصّ الجزء الثاني بتاريخ مصر من أول علم التاريخ بها إلى مطلع القرن العشرين الميلادي.

وصار بعد ذلك مديرًا للقرعة العسكرية، وينسب إليه وضع قانون القرعة الساري المفعول حتى الآن، ورقِّي بعد ذلك إلى منصب وكيل وزارة الحربية، ولبث في هذا المنصب إلى أن أحيل على المعاش بحكم السن القانونية، ونال رتبة



شارع سعد زغلول (شارع محطة الرمل سابقًا)

الفريق وهي أعلى الرتب العسكرية في مصر، واشتهر في حياته بالتواضع والحياء الجم.

وتوفي عام ١٣٤٣هـ (١٩٢٤م) بالغًا من العمر حوالي ٨٨ عامًا، ويتضح من سيرته أن والدته كانت جزائرية المولد والنشأة، إذ نزح والدها بصحبة أسرته إلى الإسكندرية عقب غزو الفرنسيين للقطر الجزائري عام ١٢٤٦هـ (١٨٣٠م).

وأسلوبه في كتابة التاريخ واضح السياق، متين العبارة، يدل على غزارة علم واضعه وتبحره في اللغة العربية.

٧٠١- سعد زغلول - شارع - بقسم العطارين

٧٠٢- سعد زغلول - ميدان - بقسم العطارين

هو سعد بن إبراهيم زغلول، ولد بقرية «إبيانة» بمديرية الغربية في يوليو عام ١٨٥٧م (١٢٧٤هـ) وقيل في يونية عام ١٨٦٠م (١٢٧٧هـ)، ونشأ في جيل بدأ المصريون في خلاله التطلع الواعي إلى شق طريقهم إلى النور والحرية بعد النوم طويلاً على الظلم الفادح الذي قوّض همتهم إزاء عسف الحكم التركي الغاشم.



ميدان سعد زغلول

وكان سعد فلاحًا غير معدم، إذ كان لوالده إبراهيم زغلول مقامًا مرموقًا في قريته «إبيانة» بوصف كونه اليد العاملة، والرأس المفكر فيها، وقضى سعد السنين الأولى من حداثته في تلك البيئة الريفية التي كان الظلم يخيم عليها بسبب عسف الموظفين الأتراك وجبروتهم، فكانت بيئة يسودها الاضطراب النفسي ويشدها النـزوع إلى الحرية بالتخلص من ربقة الاستغلال، والاستعباد المهين.

وتوفي إبراهيم زغلول وابنه سعد في السادسة من عمره، فعاش هو ووالدته في كنف أخيه، وكان هذا المصاب من العوامل التي أهلته للكفاح العنيد لأنه صهره في بوتقة الألم الحافز للقوة واليأس وجعله يعتمد على نفسه في معترك الحياة.

ولم يكن في مديرية الغربية مدرسة نظامية في ذلك الحين، فأدخله أخوه في أحد الكتاتيب ليتعلم مبادئ القراءة، والكتابة، والنحو، والتجويد، وبعد قضاء بضعة أعوام في هذا الكتّاب ألحقه أخوه بجامع الأزهر عام ١٨٧١م (١٢٨٨هـ)، ومن هذا التاريخ يرجح القول بأن مولده كان خلال عام ١٨٥٧م (١٢٧٤هـ) وليس خلال عام ١٨٦٠م (١٢٧٧هـ)، إذ إن التحاقه بالأزهر يستبعد حصوله وهو في سن الحادية عشرة من عمره، ويصح جدًّا أن يكون في حوالي الخامسة عشرة، مما يجعله صلب العود يتحمل وحدة الاغتراب عن أهله في القاهرة.

وفي سنة ١٨٧١م (١٢٨٨هـ) نفسها قدم إلى مصر جمال الدين الأفغاني (انظر مادة الأفغاني) ليبث دعوته الجريئة إلى التحرر والتجديد، وفي ذلك الوقت انتشرت الجمعيات السرية في مصر للعمل على إنقاذها من المظالم، وإرهاق الناس بالضرائب، وكانت بوادر الثورة العرابية آخذة في الظهور لإحلال العناصر المصرية الوطنية محل الأتراك في الحكم.

وقد اتخذ سعد زغلول مسكنه في غرفة بدرب الأتراك بحيّ الأزهر مع أربعة آخرين من الطلبة وكانوا يضيؤون الغرفة بقنديل وقوده الزيت يكلفهم عشرة مليمات طوال الشهر، وكان من بين زملائه الطلبة إبراهيم الهلباوي الذي صار من كبار المحامين، والذي تولى اتهام الفلاحين في حادثة دنشواي المشؤومة ممالأة للإنجليز، وقد قال شاعر النيل في حقه البيت الآتي الذي لازمه كعنوان على جحوده لوطنه:

أنتَ جلاَّدُنا فلا تَنْسَ أنَّا

قَدْ لَبِسْنا على يديْكَ الحِدادَا

وانتقل سعد زغلول، وإبراهيم الهلباوي، وشيخ آخر يدعى البسطاويسي إلى غرفة أخرى في حارة «القرد» المتفرعة من شارع المقريزي خلف الأزهر، وكانت إجارتها الشهرية ستة قروش، وعجزوا في أحد الشهور عن دفع هذا المبلغ الزهيد، فهددتهم صاحبة المنزل بالطرد، ولكن سعد زغلول استغل عطفها الحادب على المرضى لفقدها ولدًا كان مريضًا، وجعل البسطاويسي يتصنع المرض ففعل، وأخذت صاحبة المنزل تواسيه وتباشر علاجه، وهكذا نجا الطلاب الثلاثة من الطرد وفكت الأزمة ودفعوا القروش الستة، وكان البسطاويسي قد أصيب بالمرض فعلاً نتيجة لتصنعه الإعياء بضعة أيام.

ومن تصرفات القدر العجيبة أن سعد أحب فتاة من درب سعادة، ووسَّط من يعرفهم عند والدها ليوافق على زواجها منه، ولكن هذا الوالد فضل تاجرًا على المجاور سعد زغلول، وقبل التاجر، ورفض سعد زغلول.

وفي ذلك الحين نفسه تولى رياسة الأزهر الشيخ محمد المهدي العبَّاسي الذي كان من أوائل المصلحين (انظر المهدي العباسي) وكانت رياسة هذا الشيخ المصلح طوال المدة من ١٨٧٠ إلى ١٨٨٢م (١٢٨٧ - ١٢٩٧هـ)، ومن أهم الإصلاحات التي أدخلها تغيير مناهج التعليم، والنظم الإدارية، ووجوب تأدية الامتحانات النهائية أمام لجنة مكونة من ستة أعضاء من كبار العلماء بالأزهر.

وإزاء هذا التطور الجذري انقسم الرأي إلى طائفتين إحداهما تنادي بوجوب الإصلاح، والأخرى تحبذ الوقوف عند القديم دون تغيير، وكان سعد زغلول من مناصري الطائفة الأولى فكان عليه أن يختار أساتذته من المجددين وعلى رأسهم جمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد عبده (انظر مادتي الأفغاني والشيخ محمد عبده)، كما كان عليه أن يصطفي من زملائه، وأترابه في الأزهر، وخارجه المجددين من الشبان أمثال: إبراهيم اللقاني، وأبي خطوة، وعبد الكريم سليمان، وأديب إسحق، واستمر سعد على تأييد الحركة الإصلاحية إلى أن كُلِّف بلصق المنشورات السرية بأعمدة الجامع الأزهر التي تدعو إلي إصلاح الخلل في المعهد، وتحديد وسائل العلاج، فكانت هذه المنشورات أول صيحة أرسلها في سبيل الحرية.

وعندما منع الناس من حضور دروس الأفغاني في الأزهر استمر سعد زغلول على زيارته في منـزله يتلقى عليه مبادئ الثورة، وكان يبادر إلى إذاعة هذه المبادئ على زملائه الطلبة، ويكتب عنها المقالات في الصحف في جرأة وحماسة.

ولما تولى الشيخ محمد عبده تحرير «الوقائع المصرية» اختار سعد زغلول سنة ١٨٨٠ لمساعدته في التحرير، وقد انتفع سعد بهذه الزمالة وقبس الكثير من أدب الشيخ وخلقه.

وفي مدرستي الأفغاني ومحمد عبده نضج إدراك سعد، واستطاع بعد ذلك تكوين مدرسة جديدة كملت مبادئ الرجلين، وأقامت دعائم الكفاح الوطني في مصر، وفي الشرق العربي على أساس قوي متين.

وعلى الرغم من الصبغة الحكومية «للوقائع المصرية» فإن سعد زغلول أطلق لقلمه العنان في صحائفها فأخذ ينقد نظام الحكم الفردي بالأقوال الصريحة المحكمة، ويبرهن على أن الشورى، والحكم النيابي وإصدار الدستور، أمور من صميم التشريع الإسلامي، فقال عن الشورى: «المستبد عرفًا من يفعل ما يشاء غير مسؤول، ويحكم بما يرسم به هواه وافق الشرع أو خالفه ناسب السنّة أو نابذها، ومن أجل هذا ترى الناس كلما سمعوا هذا اللفظ أو ما يضارعه صرفوه إلى هذا المعنى، ونفروا من ذكره لعظم مصابهم به وكثرة ما جلب على الأمم والشعوب من الأضرار».

وكان حكام مصر يرهقون الناس بالضرائب للإنفاق على بذخهم وترفههم، وتغريهم بريطانيا بذلك وتمدهم بالمال فيتمادون في نزفهم ويتورطون في الديون الفادحة، ويقومون بالمشاريع التي لا يستفيد الشعب منها، فكان الرأسماليون الأجانب – وعلى رأسهم الإنجليز – يقدمون المال بالربا الفاحش ثم يقبضونه من جديد بصفة مقاولين، وهم فوق ذلك يغالون في المظالم والاستبداد وينكلون بالناس في غير رحمة، ومن ثَمَّ لم يعد للشعب صبر، فانفجرت الثورة العارمة على السياسة المالية الخرقاء.

وأخفقت الثورة العرابية بسبب دسائس الإنجليز ومطامعهم في مصر، وحدثت النكسة عقب هذا الإخفاق، ولاذ ضعاف النفوس والانتهازيون بالحكام، والمستعمرين، وتعرض الوطنيون الأحرار للاضطهاد المرير، وشاعت في نفوس الشعب عوامل القنوط والاستسلام.

وكان سعد زغلول من رجال الثورة العرابية، ولما تداعت، لم يفقد إيمانه بمستقبل الحركة الوطنية فصمم على مواصلة الكفاح الوطني حتى بلوغ الغاية وظلّ وفيًّا لأساتذته، وإخوانه من المجاهدين، ممن نالهم التشريد والنفي.

وكان سعد قد ترك العمامة وارتدى الملابس الإفرنجية فعُيِّن عام ١٨٨٢م (١٣٠٠هـ) معاونًا بوزارة الداخلية ثم ناظرًا لقلم قضايا الجيزة، فلما قامت الثورة العرابية فصل عن وظيفته وبعد إخفاقها حاربه خصومه ثم اتهم عام ١٨٨٤م (١٣٠٢هـ) وصديق له يدعى حسين صقر بتكوين جماعة سرية باسم «جماعة الانتقام» لاغتيال الذين خانوا العرابيين أو كانوا سببًا في أذاهم، ولم يقم في المحاكمة أي دليل على التهمة ولكنهما ظلا معتقليْن على الرغم من براءتهما لعزم الحكومة على نفيهما إلى السودان.

ولما كان النفي يعتبر تحديًا لحكم البراءة الذي أصدره القضاة الأجانب، فإن الحكومة اضطرت إلى الإفراج

عنهما بعد ٩٨ يومًا من الاعتقال، وفي تلك السنة نفسها سنة ١٨٨٤م، بدأ سعد في مزاولة مهنة المحاماة فمارسها في شرف وأمانة، وعزة نفس فضرب بذلك أحسن مثل لزملائه في المحاماة فاشتهر بأنه لا يدافع عن باطل ولا يقبل إلا القضايا العادلة التي تستحق دفاعه، وما من شك في أن اشتغاله بالمحاماة أفاده إلى حد بعيد، فقد زاده خبرة ومعرفة وجعله يلمس ما كان وطنه يلاقي من مظالم، وما كان به من علل اجتماعية، وما يعانيه من قسوة الاحتلال ومصائبه، وإلى جانب ذلك نمّى فيه ملكته الخطابية وحجته المنطقية وتصرفه في أساليب البيان وضرب المثل في النبوغ القانوني.

وأخذ العهد يبعد بالثورة العرابية وذكرياتها وأخذت الأمور تركن إلى الاستقرار النسبي المشوب بالألم والتربص والانتظار، وقد بدأ المجاهدون الذين ظلوا في قيد الحياة يعودون من المنفى أو يخرجون من السجون ومن بينهم الشيخ محمد عبده الذي تولى بعد عودته عدة مناصب ثم صار مستشارًا في محكمة الاستئناف، فاقترح على زملائه القضاة الانتفاع بمواهب سعد في القضاء فعُيِّن عام ١٨٩٢م (١٣١٠هـ) نائب قاضٍ بمحكمة الاستئناف، فكان أول محام في مصر يُعَيَّن قاضيًا، وقد بقي في السلك القضائي أربعة عشر عامًا، وصل خلالها إلى أعلى مناصبه.

وفي عهد تقلبه في وظائف القضاء تزوج صفية ابنة مصطفى باشا فهمي (انظر هذه المادة) في شهر فبراير عام ١٨٩٦م (١٣١٤هـ) وهي في الثامنة عشرة من عمرها، وهو في حوالي الثامنة والثلاثين فكانت له خير معينة على مواصلة الكفاح في سبيل حرية الوطن، واستقلاله، فكان بيتها مصدر راحة وسعادة لزوجها ومركز نشاط روحي لنساء جيلها ورجال مصر السياسيين.

وقد قال لها سعد زغلول في فجر الثورة عام ١٩١٩م: «يا صفية إنني وضعت رأسي على يدي اليمني هذه»، فأجابته: «وضعْ رأسي على يسراك».

وكانت لا تتضجر من مثابرته على القراءة والمداومة على الاطلاع في كنف مكتبته الحافلة بأمهات الكتب، ولم يرزق منها بنسل، وكان يعزيها بقوله: «لقد فاتنا النسل فأصبحت هذه الأمة كلها من أبنائك وأبنائي ونعم العوض الذي عوضنا الله»، ومن هنا أطلق عليها الشعب المصري لقب «أم المصريين».

ولقد كانت سيرة سعد زغلول في القضاء سيرة القاضي الذي يطبق العدل فيما يقضي به من أحكام، ولو خالف ذلك زملاءه فيما يطمئنون إليه من فهم ظاهر القانون ونصوصه، فقد كان يتمسك بجوهر القانون والغرض الإنساني الذي وضع من أجله، وكانت الميزة البارزة التي تميزه في وظيفته القضائية جمعه بين العدالة والمصلحة الاجتماعية العامة، فكان بهذه الصفة القاضي الجريء المجتهد الذي لا يتمسك بحرفية القانون، ومن ثم كان لا يجد حرجًا في تفسير نصوصه بما يتفق مع الصالح العام، وكثيرًا ما كان يذكر في حيثيات الأحكام التي يصدرها هذه العبارات التي تدل على تمسكه بالعدل قبل كل شيء، فقد كان يذكر في هذه الحيثيات قوله: «وحيث إن قواعد العدل والإنصاف تقضي بكذا وكذا...»، أو قوله: «وحيث إن هذا من العدالة الإنسانية التي وُضع القانون لاحترامها...»، إلى غير ذلك من الجمل التي تدل على

أن المواد القانونية لم تكن لتصرفه عن تحقيق مبادئ العدل والإنصاف لإرضاء ذمته.

وليس في هذه الجمل مخالفة لمبادئه التي جرى على اتباعها، فهو القائل في الجمعية التشريعية بعد ذلك بسنوات عدة: «في أي شرع يمنع القاضي من إبداء رأيه بحسب ذمته؟ أمن أجل أن نوافق في الظاهر المبادئ القانونية نخالف مكارم الأخلاق؟»، وفي أثناء المدة الطويلة التي قطعها من عمره في السلك القضائي كانت له مواقف كثيرة حكَّم فيها العقل والمنطق والإنسانية والعدل على النصوص القانونية بحرفيتها.

وكان سعد القاضي يأخذ في أحكامه بمبدأين أساسيين يلخصهما قول مجلة الأحكام العدلية المأخوذة عن المذهب الحنفي وهما: «درء المفاسد مقدم على جلب المنافع»، وقولها: «يُزال الضرر الأشد بالضرر الأخف».

ولكن هذه الرأفة الخيرة في نفسه لم تكن لتحول دون إصداره الحكم بالإعدام على متعودي الإجرام ومرتكبي الجرائم مع سبق التربص والإصرار.

وكان نضاله من أجل استقلال القضاء رائعًا وفعالاً، فدافع عن كرامة القاضي بكل ما وسعت طاقته من قوة، وقد رفض مرارًا قرارات مجلس الوزراء مؤكدًا أن هذه القرارات ليست قوانين ملزمة صادرة من السلطة التشريعية، كما سعى جاهدًا إلى توسيع اختصاصات المحاكم الأهلية، والحد من صلاحية المحاكم المختلطة، ومعارضة الرأي الذي كان سائدًا بأن قانون هذه المحاكم عام واجب التطبيق على جميع الدعاوى، كما ثار على نظرية «الصالح المختلط» الذي كانت المحاكم المختلطة تتذرع به للقول باختصاصاتها كلما مست القضايا ما تسميه «بالصالح العام»، فكانت مواقفه الصلبة في هذا الشأن بدء جهاد في مكافحة الامتيازات الأجنبية، وتمصير القضاء في البلاد.

وكان القضاء مصدرًا آخر لسعد زغلول من مصادر معرفته وحجته وخبرته بالحياة، وقد اختلف ذات يوم – في أثناء العمل – وأحد القضاة الإنجليز، فأخذ هذا المتعجرف – وكان رئيسًا للجلسة – يحط من شأن سعد ومن كفاءته، واستطال عليه قائلاً إنه لا يحمل شيئًا من الشهادات التي يحملها ذلك الإنجليزي، فما كان من سعد القاضي المتزوج الذي تجاوز الأربعين من العمر إلا أن يكب على تعلم اللغة الفرنسية والعلوم التشريعية حتى نال إجازة الحقوق.

وكان الإنجليز آخذين في توطيد أقدامهم في مصر على الرغم من الوعود التي قطعوها على أنفسهم بأنهم إنما جاؤوا لحماية عرش الخديوي، ثم أبدوا أنهم سيغادرون البلاد بعد أن يتعلم المصريون كيف يحسنون إدارة بلادهم وكذلك حفاظًا على ديون الأجانب، ولكن كل وعودهم ذهبت مع الريح، ولكي يثبتوا احتلالهم البغيض اتخذوا من حادثة «دنشواي» المشؤومة ذريعة لنواياهم الاستعمارية الجشعة، وكان سعد زغلول يبذل جهوده في الناحية الاجتماعية للارتقاء بمدارك الشعب ليهب قويًّا مدافعًا عن حريته، واستقلاله بالعلم والإيمان القوي القائم على المعرفة الصحيحة بالأمور.

وفي عام ١٩٠٦م (١٣٢٤هـ) وقعت فاجعة دنشواي في شهر يونية من ذلك العام، إذ خرج بعض الضباط الإنجليز في يوم من أيام عطلتهم للصيد حول هذه القرية المنكوبة، وقد وجه نظرهم إلى تحريم الصيد في هذا المكان فلم يكترثوا

بتحذيره وانطلقوا في إرسال رصاصهم على أبراج الحمام، وأجران الحصيد فاشتعلت فيها النيران، مما أدى إلى اشتباك بينهم وبين الفلاحين الذين جرح عدد منهم، وقتلت أم محمد زوجة مأذون القرية، ولشدة مقاومة أهل القرية فرّ الضباط الإنجليز الجبناء وهلك أحدهم إثر ضربة شمس.

وكان الإنجليز الغادرون ينتظرون مثل هذه الفرصة لتوطيد أقدام الاحتلال، ولإخماد جذوة الروح الوطنية الصاعدة في مصر، فأخذت صحفهم تصور الحادث على أنه عدوان على الجيش الإنجليزي منشؤه التعصب الديني الشرقي، ثم بادر اللورد كرومر إلى إرسال المشانق بعد اعتقال عدد كبير من الأهالي وألفوا محكمة عسكرية لمحاكمة هؤلاء المساكين، فقضت بإعدام أربعة بينهم شيخ في الخامسة والسبعين، وبالسجن المؤبد على اثنين، وبالسجن خمسة عشر عامًا على متهم آخر، وبالجَلْد على عدد كبير من الأهالي، وأمر المستر «متشل» مستشار وزارة الداخلية بأن يجري الشنق والجلد علنًا، فنفذ الظلم الفادح في ٢٨ يونية عام ١٩٠٦م أمام أهلهم، وعلى مرأى من آلاف الفلاحين.

ولقد أثارت هذه الفاجعة النكراء سخط جميع المصريين، فرثاها الشعراء، وقام الزعيم مصطفى كامل بالكتابة عن شناعتها في صحف باريس ولندن متهمًا اللورد كرومر بأفظع الأعمال الوحشية، فسجنته بريطانيا وعينت مكانه السير ألدون غورست لتنفيذ سياسة حزب الأحرار البريطاني الحاكم بترضية الشعور الوطني أملاً في تدعيم مركز بريطانيا بالقطر المصري.

وكان من الإجراءات التي لجأت إليها السلطات الإنجليزية لتهدئة الخواطر تعديل الوزارة المصرية تعديلاً يرضي الرأي العام، فاختير سعد زغلول وزيرًا للمعارف لدعوته الذاتية إلى نشر العلم وإنشاء الجامعة.

ولكن السلطة الإنجليزية لم تترك نهجها المألوف فبدأت تحيك حوله خيوط الدسائس، وتضع العراقيل في طريقه ليخفق في مهمته فتتخذ من هذا الإخفاق دليلاً على ضعف كفاءة المصريين في حكم أنفسهم، ولم يمض غير وقت قصير حتى نشب الصراع بينه وبين المستشار «دانلوب» الذي كان ينفرد بتعريف أمور نظارة المعارف دون معارضة، كما نشب الصراع بينه وبين أنصار القديم والراضين بكل العيوب التي كانت تشوب سير التعليم في البلاد والمقيمين على القيم دون الدفاع عن كرامتهم المصرية.

وقد جابه في هذا الصراع عددًا كبيرًا من الشخصيات الإنجليزية حتى سمي «الوزير المجازف»، فكان يرفض اقتراحاتهم العقيمة التي تهدف إلى القعود بالمصريين دون التقدم العلمي، وبلوغ ما يرفع مستواهم الثقافي، وقد بقي في الوزارة أربعة أعوام قضاها في كفاح عنيف هدفه هدم النفوذ البريطاني الذي كان يفرض سيطرته البغيضة على جميع نواحي التعليم، ووضع الأسس القوية «لنهضة الثقافة القومية وجعل اللغة العربية لغة التدريس لتحل محل اللغة الإنجليزية، هذا إلى جانب إعادة كبار رجال التعليم إلى الوزارة، وإحياء دار العلوم وكانت في سبيل الاحتضار، وإعانة الجامعة المصرية بالمال والرجال، وإرسال البعثات المتتالية من الطلاب، ووضع المصريين في المناصب التي كانت وقفًا على الإنجليز، وإنشاء مدرسة القضاء الشرعي على الرغم من غضب الخديوي، وبعض شيوخ الأزهر لأن إنشاءها يفقد هؤلاء الشيوخ وظائف القضاة بعد أن فقدوا وظائف التعليم بسبب قيام دار العلوم.

وفي عام ١٩١٠م (١٣٢٨هـ) أصبح سعد زغلول وزيرًا للعدل في وزارة محمد سعيد (انظر مادة محمد باشا سعيد)، وقد حرص «السير غورست» على نقله من وزارة المعارف للحد من نشاطه، وتقييد عمله، إلا أنه لم يهن ولم يسكت عن العمل الدائب للإصلاح، فعزز كرامة القضاء، وناضل من أجل استقلاله وانتصف للمغبونين، والمغمورين من رجاله، وسعى لإنشاء نقابة المحامين لتنظم شؤونهم، ولتدافع عن حقوقهم.

ومازال يكافح في سبيل إعلاء كلمة الحق والإنصاف إلى أن حل اللورد كتشنر (انظر مادة كتشنر) محل السير غورست، فاصطدم به وعندها انتهز اللورد الفرصة وطلب من سعد الرجوع عن قرار اتخذه بحق صديق له، وأحرجه في ذلك حتى اضطره إلى الاستقالة، فغادر الوزارة عام ١٩١٣م (١٣٣٢هـ) موفور الكرامة، عزيز النفس، وقد نوَّه أحمد لطفي السيد بهذه الاستقالة المشرفة في مذكراته التي طبعت في كتاب بعنوان «قصة حياتي» فقال إنها كانت بسبب حادث يهم الخديوي والمعتمد البريطاني، وكان الطرفان متبرمين بسعد لصراحته التي كان يبديها في مجلس الوزراء وصلابته في الحق والعدل وحرصه على أداء واجبه، وهذه شهادة لها تقديرها، إذ إن لطفي السيد كان من خصوم سعد زغلول السياسيين، ثم يضيف لطفي السيد قائلاً: «ولما تولى سعد وزارة الحقانية لم يفرط في حقه بصفته وزيرًا، ولم يكن فيها بأقل غيرة على إقامة العدل منه في نظارة المعارف على نشر التعليم، حتى كان دفاعه عن اعتقاده مجلبة لمخالفة السلطة وتبرم الخديوي والإنجليز به».

وكانت الحركة الدستورية آخذة في النمو، ولم يفلح الإنجليز في إخماد جذوتها على الرغم مما صنعوه بالنسبة إلى التفرقة بين عناصر الأمة اجتماعيًّا ودينيًّا، ولما عجزوا وفشلت خططهم الخبيثة اضطروا إلى الموافقة على إصدار القانون النظامي بإنشاء المجلس التشريعي في أول يوليو عام ١٩١٣م (١٣٣٢هـ) ومنح هذا المجلس سلطات أوسع من سلطات المجلسين السابقين، وكان الإنجليز يظنون أن قيام هذا المجلس ما هو إلا خدعة لتهدئة النفوس، ولكنهم فوجئوا بفوز سعد زغلول بالنيابة في المجلس عن دائرتين من دوائر القاهرة، لا عن دائرة واحدة، وذلك على الرغم من القيود التي فرضوها للترشيح والانتخاب لحصر النيابة في أصحاب الثراء والجاه، وبالرغم من المساعي التي بذلها في هذا السبيل اللورد كتشنر والخديوي عباس الثاني وأعضاء الحكومة والأموال التي صرفت لشراء أصوات الناخبين، ومن الغريب أن الحزب الوطني عَضَّد سعد زغلول في انتخابه ونجاحه في دائرتين من الدوائر الأربع بالقاهرة.

وكانت أحزاب ذلك الحين: الحزب الوطني المحارب للإنجليز، والداعي إلى السيادة التركية، وحزب الأمة المنادي للخديوي والمقاوم للسيادة العثمانية، والمطالب بالاستقلال، ولكنه لا يتورع عن التقرب إلى الإنجليز أحيانًا، وحزب الإصلاح الداعي لمعالجة العلل الاجتماعية بالأنظمة الدستورية، ولكنه لا يجرؤ على مخاصمة الإنجليز لولائه الشديد للخديوي عباس الثاني لأنه يخشى أن تجر هذه المخاصمة للانتقام من الخديوي نفسه.

أما سعد وإخوانه الوطنيون غير المنضمين إلى هذه الأحزاب فكانوا يؤيدون كلاً منها بقدر عمله من أجل الاستقلال،

وإقامة الدستور والحكم النيابي، وينكرون عليها انحرافاتها، وتأرجحها بين القصر الخديوي وبين قصر الدبارة مقر المعتمد البريطاني، والأتراك عوضًا عن الاعتماد على الشعب المصري لمكافحة التدخل الأجنبي، وتثبيت دعائم الاستقلال، والحريات الدستورية والمطالبة بجلاء الإنجليز المحتلين.

وفي الجمعية التشريعية انقسم الأعضاء إلى طائفتين: طائفة تناصر الحكومة وقوات الاحتلال ومن بينهم خمسة عشر عضوًا معينين من قبل الحكومة، وطائفة تضم أعضاء الأحزاب الثلاثة الآنفة الذكر، وعددًا من المثقفين الأحرار، وسار أعضاء هذه الطائفة وراء سعد وانضموا تحت لوائه، وهكذا استطاع هذا الوطني الصادق الوطنية، القوي البأس، المتين الخلق، أن يلُمَّ شعث الأحزاب، وأن يؤلف من أفرادها قوة كبيرة منظمة هدفها الأول خدمة الأمة المصرية وقضيتها الشرعية.

واصطدم سعد بالحكومة حين أوعزت إلى أحد أعضائها المعينين بأن يسأل من الذي يرأس الجلسة في حالة غياب رئيس مجلس الشورى، وأجابت الحكومة بأنه الوكيل المعين من قبلها، ولكن سعدًا وقف يعارض الحكومة ويقول: إن الوكيل المنتخب من الشعب هو صاحب الحق في رئاسة الجلسات التي يتغيب الرئيس فيها.

غير أن المجلس التشريعي «الجمعية التشريعية» لم يدم انعقادها غير خمسة أشهر، إذ صدر قرار الحكومة بالحل في نوفمبر عام ١٩١٤م (١٣٣٣هـ)، غير أن هذه المدة القصيرة هيأت لسعد زغلول الفرصة لأن ينتقل من زعامة المعارضة في هذه الجمعية إلى زعامة الحركة الوطنية في الأمة بأسرها، وذلك بما أبداه من كفاح مستمر ضد الاحتلال، والاستعمار الإنجليزي، وضد الحكام الموالين لسلطة المستعمرين.

ولقد خلَّد معارضته للحكومة في الجمعية التشريعية بهذه الجملة التي صاح بها في وجه الخاضعين الأذلاء: «إذا كانت الحكومة تريد أن تكون الجمعية التشريعية مكتب تسجيل لقوانين الحكومة وأوامرها فإنني بصفتي مصريًّا محبًّا لبلادي أفضِّل ألا يكون لمثل هذه الجمعية أثر في الوجود». ومن أقواله الحكيمة في تلك الفترة من حياته السياسية قوله: «إن كل تقييد للحرية لابد أن يكون له مبرر من قواعد الحرية نفسها وإلا كان ظلمًا».

وقامت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م (١٣٣٣هـ) فأعلنت بريطانيا الحماية على مصر، وخلعت الخديوي عباس الثاني، وتسمية عمه حسين كامل سلطانًا على مصر، وأصدرت بيانًا تعهدت فيه بالدفاع عن البلاد وتعديل الامتيازات الأجنبية بعد انتهاء الحرب، وضمان الحريات الشخصية، وترقية التعليم، وإنماء مصادر الثروة الطبيعية، وإشراك المصريين في الحكم تدريجًا في سبيل الحكم الذاتي.

ولم ينخدع القسم الأكبر من المواطنين بهذه العهود وأيقنوا أن كسب الحرية والاستقلال لا يحقق إلا بنضال المصريين وكفاحهم، وحدث ما توقعوا، وبعد زمن قليل نقضت بريطانيا كل ما وعدت به وبسطت سلطانها على شؤون البلاد وصادرت أرزاقها، وخيراتها لمصلحة جيوشها المحاربة، ثم أرغمت الحكومة المصرية على الإسهام في نفقات هذه الحرب بمبلغ ٣,٥٠٠,٠٠٠ جنيه وفرضت على الأهالي تبرعًا للصليب الأحمر قدره ٦٠٠ ألف جنيه، وأخذ رجال الاحتلال في تعبئة المصريين للعمل تحت الحماية العسكرية، وبلغ عدد من أجبرتهم على التطوع أكثر من مليون عامل كانوا يجمعون من المدن والقرى بالقوة القهرية.

وعندما انتهت الحرب كان المصريون وعلى رأسهم سعد زغلول قد نادوا بتأليف هيئة تطالب بحقوق مصر في مؤتمر الصلح، وتطالب بريطانيا بإنجاز وعودها، وتناشد الدول المتحالفة المنتصرة تأييدها في مطالبها المشروعة وهي الحرية والاستقلال.

وكان السلطان حسين قد توفي وخلفه على عرش مصر أحمد فؤاد في ٩ أكتوبر عام ١٩١٧، ولم يرض الشعب أن يكون الوفد المطالب بحقوق البلاد برياسة الأمير عمر طوسون فتألف الوفد برياسة سعد زغلول، وعضوية علي شعراوي، وعبد العزيز فهمي، ومحمد علي علّوبة، وعبد اللطيف المكباتي، ومحمد محمود، ومصطفى النحاس، وأحمد لطفي السيد، وإسماعيل صدقي، وسينوت حنا، وحمد الباسل، وجورج خياط، ومحمود أبو النصر، والدكتور حافظ عفيفي، وكان دستور هذا الوفد هو العمل على استقلال مصر استقلالاً تامًّا، ووقع أعضاء الجمعية التشريعية المعطلة على وثيقة أنابوا فيها أعضاء الوفد في السعي لتحقيق الاستقلال تطبيقًا لمبادئ الحرية والعدل، ثم عُرِض التوكيل على هيئات الأمة الأخرى فوقّعته وبلغ عدد الموقعين عليه عدة ملايين، إلا أن السلطة الإنجليزية بادرت إلى منع ذلك، وصادرت الأوراق الموقعة بالقوة، واعتقلت الأفراد الذين نظموا جمع التوقيعات بحجة أنها منشورات مخلة بالأمن.

ولقد كان سعد زغلول رجل زعامة بكل ما في كلمة الزعامة من المعاني، فهو السياسي الماهر الذي لا يماري في الحق، ولا يهادن في مطالب وطنه، وقد قال فيه غاندي الزعيم الهندي: «إن سعد زغلول أستاذي وأستاذ جميع الحركات الوطنية الجديدة في الشرق»، ولقد سرَّ سعد من هذه التحية فقال في تواضع: «إن هذا القول وسام ممن يملك منح الوسام»، وكان إنسانًا ذا قلب كبير مطبوع على الخير، وخلق كريم تفيض نفسه رقة ووداعة، وتتدفق حنانًا ورحمة، وكان مفكرًا يقدس القيم الفكرية، ويرفع رجال الفكر إلى أسمى مقام وكان متواضعًا، لا يأخذه الغرور ولا يطغى عليه الكبرياء الجوفاء والعنجهية الزائفة.

وكان سعد زغلول أول من قاد الحركة الوطنية الواعية التي تجمع بين الاستقلال التام البعيد عن الدين والتيارات الدينية، وبين الدعوة إلى الديمقراطية البرلمانية التي تكفل للمواطن المصري حقوقه وحرياته.

ولقد عرفت مصر قبل هذه الحركة الوطنية الخالصة حركتين أخريين هما: حركة الحزب الوطني، وحركة حزب الأمة، فالحزب الوطني بزعامة مصطفى كامل (انظر هذه المادة) كان ينادي بالحرية والاستقلال ولكن في نطاق الخلافة العثمانية، وكان يطالب باستقلال مصر عن بريطانيا لتوكيد تبعيتها لتركيا، وكان من أنصاره البارزين عدد من الأتراك، والجراكسة، أو ممن ينتمون إلى أصل تركي أو جركسي، وحزب الأمة، وكان ينظر إلى الشعب المصري كشعب له مقوماته، وتاريخه، ولكن كان اهتمامه موجهًا إلى مقاومة الاستبداد الداخلي، مع الانتفاع بقوة المحتلين لمقاومة هذا الاستبداد.

ومن ثم يتضح أن الدعوة إلى الوطنية الخالصة نبعت من الحزب الذي تزعمه سعد زغلول الذي كان خطيبًا بليغًا قوي الارتجال، تنحدر الكلمات من فمه كالسيل العرم في قوة حجة، وبراعة إقناع، وجزالة أسلوب، وجلال صوت، وحماسة مؤثرة.

ولقد سارت المرأة المصرية في موكب التحرير الذي يتقدمه وذلك لأول مرة في تاريخ الكفاح الوطني، ذلك لأنه كان من أنصار المرأة ومن مؤيدي العاملين على تحريرها، وأحبه الطلاب لأنه أحبهم ووثق في إخلاصهم الوطني، وكان يدعوهم دائمًا إلى الجهاد في سبيل الوطن، ولقد عبر عن نفسه، وعن زعامته لمصر بقوله: «لا فضل لي إلا كوني ترجمانًا أُحسن التعبير عن شعور الأمة، فإذا انحرفت قيد شعرة أهبطتني من منـزلة اعتبارها إلى مكان سحيق من احتقارها، وأكون مستحقًّا لهذا الاحتقار»، ولقد فهم سعد مشاعر أفراد الشعب أكثر من رفاقه الذين كونوا الوفد المصري فانقلب في معاملة الإنجليز المحتلين من اللين إلى العنف والتشدد في مطالب مصر، وجعل همه الأول التعبير عن مشاعر الأمة، وأمانيها فأولته ثقتها، وحبها، وحملته إلى مرتبة الزعامة، وبايعته فصار نداء الشعب كله «تحيا مصر – يحيا سعد».

ومن صفات زعامته أنه كان يعتقد بأنه ابن الحركة وثمرتها وليس خالقها، وصانعها ويشعر بأن واجبه يقضي بالقيام بواجبه الوطني، وأن يتحمل كل الصعاب في سبيل تحقيق أماني الشعب المصري، فكان يقول: «أي شرف أكبر من الشرف الذي يحرزه من عرض نفسه لنداء وطنه بل أية لذة للنفس أحلى من اللذة التي يجدها الوطني في تعذيبه لمصلحة وطنه!!» وكان يوقن بأن جماهير الشعب هي العنصر الفعال في الحركة الوطنية، ولذا كان دائمًا يحتكم إليه، وكان واثقًا في أن الأمة المصرية ستظفر بحقها في الحرية والاستقلال، وأن قضيتها الوطنية ناجحة مهما قام في طريقها من عقبات.

وانتهت الحرب العالمية الأولى في ١١ نوفمبر عام ١٩١٨م (١٣٣٧هـ)، وفي يوم ١٣ من ذلك الشهر ذهب سعد زغلول، وعبد العزيز فهمي، وعلي شعراوي (انظر مادتي عبد العزيز فهمي وشعراوي باشا) إلى السير ريجنالد ونجت (انظر مادة ونجت) نائب ملك بريطانيا في مصر، وطلبوا منه إلغاء الأحكام، والتدابير التي اتخذت في أثناء الحرب، كما طلبوا معرفة الخير الذي سيعود على مصر في مؤتمر الصلح، وقالوا إن مصر تريد أن تكون صديقة لبريطانيا، ولكن صداقة الحر للحر لا العبد للسيد، فردّ ونجت قائلاً: «إذن أنتم تطلبون الاستقلال»، فردوا بالإيجاب، فوعد ونجت بالاتصال بحكومته في هذا الشأن.

وسرعان ما وضع السير ويليام برونيات مستشار وزارة العدل دستورًا يقضي بإنشاء مجلسين يضم أحدهما الإنجليز والأجانب بمعدل النصف ويسمى مجلس الأعيان، صاحب السلطة في كل أمر، ويؤلف المصريون المجلس الثاني ويسمى مجلس النواب وله سلطة اسمية، وتلغى الامتيازات الأجنبية وتكون اللغة الإنجليزية اللغة الرسمية، والقوانين الإنجليزية هي قوانين البلاد، ويجلس بجانب كل قاض مصري قاض إنجليزي للفصل في القضايا الأهلية، ولقد عارض سعد هذا المشروع الإنجليزي بشدة، وأثار الجماهير ضده.

وحاول هو وإخوانه أعضاء الوفد السفر إلى أوروبا فمُنِعوا، وفي ١٨ ديسمبر عام ١٩١٨ – وهو يوم ذكرى إعلان الحماية على مصر – أوصى سعد بغلق المحال وترك الشوارع التي يمر فيها الاستعراض العسكري الذي يقام بهذه المناسبة المؤلمة، ثم أرسل إلى ويلسون رئيس الولايات المتحدة حين وصوله إلى باريس احتجاجه على منع مصر من سماع صوتها في مؤتمر الصلح، وأوضح في احتجاجه أن مصر لم

تقبل الحماية في أي يوم من الأيام، وأرسل احتجاجين مماثلين إلى كليمانسو ولويد جورج.

وكانت الحركة الوطنية تنمو في اطراد مستمر، وقد اضطرت وزارة حسين رشدي باشا إلى الاستقالة عندما منع الإنجليز أعضاء الوفد المصري من الانضمام إلى أعضاء الحكومة لشرح قضية مصر في مفاوضات الحكومة الإنجليزية، ولم يقبل أي صاحب ضمير حر تشكيل الوزارة.

وقدم سعد إلى السلطان فؤاد مذكرة شديدة القوة حمَّله فيها مسؤولية السعي لتحقيق استقلال البلاد وإلغاء الحماية الإنجليزية غير الشرعية التي لم تقبلها مصر، فكانت هذه المذكرة مثل الإنذار الذي قدمه أحمد عرابي (انظر هذه المادة) إلى الخديوي توفيق في قصر عابدين.

ووجد الإنجليز في المذكرة معارضة قاسية لأساليب الاحتلال البغيضة، وفي ٨ مارس عام ١٩١٩م (١٣٣٨هـ) بادرت السلطة الإنجليزية إلى القبض على سعد وحمد الباسل ومحمد محمود وإسماعيل صدقي ونفيهم إلى جزيرة مالطة.

وكان أول عمل لسعد في المنفى هو إرسال كتاب إلى رئيس الحكومة البريطانية ذكر فيه أن بلاده قد ضمنت استقلال مصر في معاهدة لندن عام ١٨٧٤م، وأقسمت الملكة فيكتوريا، والبرلمان بالتاج والشرف عام ١٨٨٢م بأن الاحتلال مؤقت، وطالبه برفع الحماية غير المشروعة، ووجه نظره إلى أن العنف لن يزيد الشعب المصري إلا إصرارًا، على حقوقه، واستقلاله، وخير لبريطانيا أن تستجيب لمطالبه العادلة لتكون صديقة لمصر مصونة الحقوق في أرجائها، وقال بالنسبة إلى ملك مصر إنه يكنّ الولاء للعرش مهما كان الجالس عليه.

وترجع الأسباب الأساسية لثورة عام ١٩١٩م (١٣٣٨هـ) إلى الآثار الأليمة التي تركها الاحتلال الإنجليزي في نفوس الشعب المصري منذ عام ١٨٨٢م (١٣٠٠هـ)، ومن هذه الآثار إعلان الأحكام العرفية طوال مدة الحرب العالمية الأولى، من ١٩١٤ إلى نوفمبر عام ١٩١٨م وتقييد الحريات السياسية وإرهاق الفلاحين بالسياسة القطنية القاضية بتخفيض أثمان القطن، ومصادرة محصولاتهم، ومواشيهم لتموين الجيش البريطاني، وتجنيد مليون ومائتي ألف مواطن في الجيش الإنجليزي بأساليب عنيفة جائرة للعمل في حملة فلسطين ضد الأتراك، ومشروع الدستور الاستعماري الذي عرض على الشعب فلم يقبله، يضاف إلى ذلك إعلان مبادئ ويلسون رئيس الولايات المتحدة وهي أربعة عشر وفي مقدمتها حق الشعوب في تقرير مصيرها، وأخيرًا نفي سعد باشا إلى جزيرة مالطة.

وما إن علم الناس خبر نفي سعد زغلول حتى انفجرت الثورة، وقد بدأت بالمظاهرات والإضرابات نظمها الطلاب والعمال في المدن ثم انتقلت إلى الاصطدامات الدامية بينهم وبين رجال الجيش البريطاني، وتجلت في القرى باحتلال مراكز الشرطة ومهاجمة القطارات التي تقل جنود الاحتلال وتحطيم السكك الحديدية، وقطع أسلاك التليفون في أكثر أنحاء البلاد وانتزاع الأسلحة من جنود الاحتلال للدفاع بها عن الحق.

وبادرت السلطة الإنجليزية إلى تعيين اللورد اللنبي مكان السير ونجت، والجنرال بولفن مكان الجنرال وطسن، ولم تكن في البلاد وزارة فاستبدت السلطات الإنجليزية بالحكم، وأخذت في قمع الثورة بأبشع الأساليب الوحشية فكانت تطلق النار في المدن على كل من يتجمعون، ولو كانوا من المصلين، وتُفرَض الغرامات الباهظة على الفلاحين الثائرين، وتُلقى القنابل على بعض القرى في مديرية البحيرة، غير أن أعمال البطش لم تزد نار الثورة إلا اشتعالاً، والأمة إلا اتحادًا وتماسكًا.

وتكونت في أثناء الثورة عدة جمعيات سرية منها: الشعلة، والمصري الحر، والتضامن الوطني، وجماعة الانتقام، وكانت هذه الجمعيات تصدر المنشورات لإذكاء حماسة الشعب، وكانت تعمل وفاقًا لنظام الخلايا السرية فلا يعرف العضو زميله الآخر، وكانت توزع القنابل بوساطة أعضائها، وكان معظمهم من الموظفين، وكثير منهم كانوا يغشون الملاهي الليلية لإبعاد الشبهات عنهم، وبدأت عقب ذلك حوادث الاغتيال فاغتيل الجنود الإنجليز في شبرا، وكانت القنابل تصنع بوساطة بعض مدرسي الكيمياء، وبعض الضباط المتقاعدين.

ومن طرائف الثورة أن يوسف الجندي أقام حكومة ذاتية في مدينتي زفتى وميت غمر، واستولى هو والأهالي على مركز البوليس، وأسلحته وانضم إليه مأمور المركز نفسه، واستولى الثوار على شحنات القمح المرسلة إلى الجيش البريطاني، وهكذا كوّن يوسف الجندي حكومة صغيرة في دولة تضم مدينتين فقط.

وتجلت وحدة الأمة في ثورة عام ١٩١٩، إذ اشترك فيها الفلاحون، وجميع الطبقات، والطوائف، فكانت ثورة قومية بكل معنى الكلمة، وكان نداؤها الموحد هو «مصر للمصريين»، وكان التضامن قويًّا وعامًّا بين المسلمين والمسيحيين في جميع أنحاء القطر المصري، وشاركت السيدات فيها مشاركة جادة مشرفة فخرجن متظاهرات بعد أن حطمن الحجاب، وسقين الثورة بدمائهن إلى جانب دماء الرجال، وكانت مظاهرتهن في ١٦ مارس عام ١٩١٩م احتجاجًا على عسف الإنجليز، أروع شاهد على التضامن الوثيق بين عنصري الأمة بأسرها.

وكانت المظاهرات تخرج من الأزهر، وتطوف بالسفارات، والمفوضيات الأجنبية لتعلن احتجاجها على نفي سعد زغلول ورفاقه وعلى مظالم رجال الاحتلال، وقد قُتِل من أفراد الشعب عدد كبير واغتيل من الإنجليز عدد من الجنود، وقد سقط في ميدان الشرف من أجل مصر، وحريتها، واستقلالها الكثير من الطلاب والعمال، كانوا يتساقطون في أثناء المظاهرات في شوارع القاهرة والإسكندرية تحت رصاص الجنود الإنجليز فلا ينثنون عن هدفهم ولا يرتدون عن غايتهم والراية المصرية مرفوعة بينهم تنتقل من يد إلى أخرى، وكلما صرع حاملها سارع رفيقه لرفعها رمزًا للعزة القومية والكرامة الوطنية.

ولم تقتصر ضحايا ثورة ١٩١٩ على آلاف القتلى والجرحى الذين استشهدوا في ميادين الكفاح، إذ كانت المحاكم البريطانية تزجّ بعشرات الضحايا إلى المشانق، أو إلى السجون بعد محاكمات صورية جائرة تعقد علنًا وتشكل في كل مكان.

وهكذا شنقت العدالة البريطانية خلال عامين ١٤٦ مواطنًا من شباب مصر، وزجّت في السجون ١٢١٣ مصريًّا من المناضلين الأحرار.

وأراد اللورد اللنبي – الذي عينته بريطانيا لإرهاب المصريين – أن يستميل الأعيان والوجهاء، لتولي مناصب الوزارة وإخماد الثورة ولكن أحدًا لم يستجب لرأيه، وهكذا اضطر في آخر الأمر إلى إعلان حرية سفر المصريين إلى حيث يشاؤون، وإعلان أن سعد زغلول ورفاقه قد أطلق سراحهم، وكان هذا الإعلان في إبريل عام ١٩١٩م (١٣٣٨هـ)، وقد بادر أعضاء الوفد الآخرون إلى اللحاق بسعد في مالطة وتوجهوا جميعًا إلى أوروبا لعرض قضية البلاد.

وكان سعد زغلول يؤمن بالديمقراطية، ويعتقد أن تطبيق مذهبها هو الطريق السليم لرقي الأمم، وكان يرى في المبادئ الإنسانية التي أعلنها ويلسون ووافقت عليها الدول بالإجماع خير ضمان لحرية الشعوب والأخذ بيدها في طريق الرقي الحضاري، ولكن ويلسون نفسه وجد أنه أصبح ألعوبة في أيدي الشركات والرأسماليين المحتكرين في أمريكا وبلدان أوروبا التي انتصرت شعوبها على ألمانيا.

فلما وصل الوفد المصري إلى مرسيليا طلب سعد من ويلسون تحديد موعد لمقابلته، غير أن ويلسون لم يرد على هذا الطلب، وأصدرت السفارة الأمريكية بالقاهرة بلاغًا باعتراف الولايات المتحدة بالحماية على مصر، وكان هذا الاعتراف الغريب صدمة كبرى للوفد المصري، ولم ييأس سعد إزاء هذه الصدمة لقوة إيمانه بحق مصر، وبأن الشعب البريطاني، والفرنسي، والأمريكي يناصر حرية الشعوب ومبدأ تقرير مصيرها.

وكان زملاء سعد في الوفد المصري: عبد العزيز فهمي، وحمد الباسل، وعلي ماهر، ومحمد علي علوبة وأحمد لطفي السيد، وواصف غالي، وعبد اللطيف المكباتي.

ولم تُوجد المذكرات التي قدمها الوفد إلى أعضاء مؤتمر الصلح في باريس طوال الأشهر العديدة التي مكثها الوفد هناك، فلم تجد هذه المذكرات أي صدى لدى أعضاء المؤتمر، فوجه سعد اهتمامه بالرأي العالمي عن طريق الخطابة والنشر، وقد استجاب بعض المفكرين في بريطانيا وأمريكا لمطالب مصر المشروعة، ومن ثم أصبحت القضية المصرية ذات طابع دولي.

وكانت الحركة الوطنية في مصر تزداد اشتعالاً دون أن تستطيع السلطة الإنجليزية القضاء عليها، وقد نجحت هذه السلطة في تأليف وزارة برياسة حسين رشدي باشا عقب سفر الوفد إلى أوروبا، ولكنه استقال بعد أسبوعين، وخلفه محمد سعيد الذي سمى وزارته: وزارة إدارية ليس لها شأن بالسياسة، فألقى عليه أحد الوطنيين الفدائيين قنبلة أخطأته ثم استقال معارضًا في تعجيل قدوم لجنة اللورد ملنر إلى مصر للبحث في مطالب المصريين، فألف الوزارة يوسف وهبة باشا، وحضرت لجنة ملنر في عهده فقاطعها المصريون لأنهم فوضوا الوفد المصري ببيان مطالبهم.

وكان غرض هذه اللجنة تمزيق الوحدة القومية التي هي العصب القوي في إزالة كابوس الحماية عن الصدور، وقد أرسل سعد زغلول تحذيرًا إلى الأمة بألا تنخدع بهذه اللجنة وأن تتمسك بحقها في الاستقلال والحرية، وقال في ندائه هذا: «لا تذلوا وإن قُهِرتم، ولا تخشوا وإن ظُلِمتم، ولابد

من يوم يعلو فيه حقكم على باطل غيركم، وينتصر فيه عدل الله على ظلم خصومكم، وتتحقق بإذن الله القدير آمالكم في الاستقلال التام».

وكانت مقاطعة لجنة ملنر من الشعب المصري جماعية لدرجة أن رشدي باشا قال للورد ملنر: «ليس في مصر ثلاث قطط يمكن للجنة أن تتفاهم معها».

وهكذا وجدت لجنة ملنر من المستحيل التفاوض مع المصريين، فرحلت إلى لندن مرغمة على مفاوضة الوفد المصري في أوروبا بوصف كونه المفوض الوحيد عن الشعب، ولاسيما بعد أن أُعلن أن المجلس الأمريكي قد رفض معاهدة فرساي، وكان رحيل لجنة ملنر المضللة في ٦ مارس عام ١٩٢٠م (١٣٣٩هـ).

وذهب سعد ومعظم أعضاء الوفد المصري إلى لندن، ودارت المباحثات بينهم وبين لجنة ملنر التي قدمت مشروعًا يهدف إلى فرض الحماية الإنجليزية على مصر في شكل مقنع، فرفض الوفد المشروع وقدم عدلي يكن اقتراحًا بإدخال بعض التعديلات على المشروع الإنجليزي، ولما قبلت اللجنة هذه التعديلات انقسم أعضاء الوفد المصري بين مؤيدين للمشروع ورافضين، وأرسل سعد إلى مصطفى النحاس وويصا واصف وحافظ عفيفي كتابًا، وصف فيه المشروع الملنري بأن ظاهره الاستقلال، وباطنه الحماية إذ فيه من خصائصها ومميزاتها الشيء الكثير.

وكان سعد قد اقترح على أعضاء الوفد استشارة الأمة في مشروع اللجنة فوافق الأعضاء، وكان ذلك تأييدًا لأن الأمة مصدر السلطات، ولما عرض المشروع على أعضاء الجمعية التشريعية والمحامين والقضاة وأعضاء مجالس الأقاليم والمجالس المحلية ورجال الدين، رأى معظمهم وجوب تعديل المذكرة الإنجليزية بحيث تقرر جليًّا إلغاء الحماية، وامتياز المندوب البريطاني، وإعلان السيادة المصرية دون لبس أو إبهام، ورأى بعض أعضاء الوفد وعلى رأسهم عدلي يكن قبول المذكرة البريطانية مع التعديلات التي أدخلت عليها، ولكن البعض الآخر كان يرى قبول المذكرة كما هي، وأصر سعد على ذكر إلغاء الحماية صراحة، وهكذا جاء رفض ملنر لنظرية سعد ثم استقال من وزارة المستعمرات البريطانية، وحل محله وستون تشرشل الذي ألقى خطابًا أدخل فيه مصر في نطاق الإمبراطورية، وهنا وجد اللورد اللنبي الفرصة سانحة للتعاون مع المعتدلين من المصريين أمثال عدلي يكن، وأبدى أن حكومته ترغب في تبادل الآراء على أساس المشروع الملنري مع وفد يعينه السلطان فؤاد وذلك للوصول إلى إبدال الحماية بعلاقة تضمن المصالح البريطانية، وتمكنها من تقديم الضمانات الكافية للدول الأجنبية وتطابق الأماني المشروعة لمصر وللشعب المصري، فاستقبلت الأوساط المناهضة لسعد ورفاقه الوطنيين المخلصين هذا الوعد الغامض بالابتهاج والتهليل.

وسرعان ما سقطت وزارة توفيق نسيم باشا وحافظ وهبة باشا من الحكم الاستبدادي، ودعي عدلي يكن إلى تأليف الوزارة، فألفها في ١٧ مارس عام ١٩٢١م (١٣٤٠هـ) وجاء في بيانه أن وزارته ستجعل نصب عينها في تجديد العلاقات بين بريطانيا ومصر الوصول إلى اتفاق لا يجعل محلاً للشك في استقلال مصر، وما تتوق له البلاد، وستدعو الوفد الذي يرأسه سعد زغلول إلى الاشتراك في العمل لتحقيق هذا الغرض، ولكن سعد فوّت عليه هذه الفرصة وأعلن عزمه على

العودة إلى مصر للنضال في سبيل الوصول بالبرنامج الوطني، والتحفظات التي أيدها المصريون تجاه مشروع ملنر إلى نتيجة مقرونة بالنجاح، وكان هذا التصريح إثر فطنته إلى ما يدبره له عدلي في الخفاء هو وبعض الأعضاء الضعفاء الذين يرون قبول العرض البريطاني في ذلة وخور.

وفي ٤ إبريل عام ١٩٢١م (١٣٤٠هـ) خرج شعب الإسكندرية بأسره لاستقبال سعد زغلول، فكان حماس الشعب بمثابة مبايعة له، وكان إجماعًا شعبيًّا على زعامته، ورمزًا للإيمان بنضاله القويم، وكان استقباله الرائع بالإسكندرية، والقاهرة بداية صراع عنيف بين رجل يبغي تحقيق ما تريده أمته، وبين رجال يريدون تحقيق مطامعهم في الحكم، وبادر سعد إلى التصريح بأن الوفد لم يتفق بعد مع الوزارة على شروط العمل المشترك وهي: الوصول إلى إلغاء الحماية، والاعتراف باستقلال مصر دوليًّا مع مراعاة إرادة الأمة التي أبدتها بالتحفظات المدخلة على مشروع ملنر، وإلغاء الأحكام العرفية والمراقبة الصحفية وأن تكون أكثرية المفاوضين مع الإنجليز من الوفديين، وأن تكون رياسة المفاوضات للوفد المصري، وأن يرد نص هذه المشروع في المرسوم السلطاني بتأليف وفد المفاوضات.

واشتد الخلاف على هذه الشروط فخطب سعد وقال جملته المشهورة: «إن المفاوضة على يد وفد تعينه الوزارة وحدها في بلد خاضع للحماية والأحكام العرفية معناها أن جورج الخامس يفاوض جورج الخامس».

ومضى عدلي يكن في تأليف هيئة المفاوضات، فقامت المظاهرات ضده، ووقع التصادم بين أفراد الشعب وبين الجنود وراح ضحيته عشرات القتلى، ومئات الجرحى، وحكم من جرائه بالموت أو بالسجن على عدد كبير من المصريين، واتخذ الإنجليز من غضبة الشعب ذريعة لتأجيل إلغاء الأحكام العرفية العسكرية، وبقاء الاحتلال والامتيازات والمحاكم المختلطة لحماية المصالح الأجنبية.

وفي ظل هذا الجو القاتم المخيف قام عدلي يكن بتأليف وفده الرسمي للسفر إلى لندن، وكون الوفد من حسين رشدي، وإسماعيل صدقي، ومحمد شفيق، وأحمد طلعت، ويوسف سليمان (انظر مادة رشدي باشا) وسافر هذا الوفد الحكومي في حماية الحراب البريطانية، وعبثًا حاولت الوزارة تزييف التوكيلات إليها من أفراد الشعب على غرار التوكيلات الصادقة التي أعطيت للوفد المصري، وعبثًا حاولت صرف الجماهير عن الالتفاف حول سعد زغلول، فلم تجد أعمال القمع التي زاولتها، ولا المال الذي أنفقته لشراء الضمائر ولا الدسائس التي حاكت خيوطها، وما أثارت من فتن داخلية، وإزاء كل هذه الأعمال التعسفية أصر الشعب على تأكيد مبايعته لزعيمه سعد، فأخذ شأن الوفد المصري يكبر وأخذ شأن عدلي وأنصاره يتضاءل، فرأت الحكومة البريطانية أن مفاوضتها مع الوفد الحكومي لا تحقق أغراضها الاستعمارية.

ومن ثم عمد اللورد «كيرزون» رئيس المفاوضين الإنجليز في إنقاص مشروع ملنر نفسه، وعامل المصريين بالغلظة والصلف، فلم يجد عدلي يكن بُدًّا من قطع المفاوضات في ١٩ نوفمبر، لئلا يعطي سعدًا حجة جديدة عليه تفقده تأييد الأقلية التي كانت تشايعه.

وهكذا أخفقت وزارة عدلي يكن في مهمتها، وضاعت آمال الإنجليز في تسوية القضية المصرية على النحو الذي يرغبونه ولتخدير الأعصاب أرسل اللورد اللنبي إلى السلطان فؤاد كتابًا يعلن فيه أن حكومته توافق على زيادة عدد الموظفين المصريين في فروع الإدارة والحكم، وأنها مستعدة لمواصلة المفاوضات مع الدول الأجنبية لإلغاء الامتيازات، وكذلك ترجو بريطانيا أن السلطة التي يباشرها القائد الإنجليزي العام تحت ظل القانون العسكري تباشرها الحكومة المصرية وحدها بمقتضى القوانين المدنية المصرية، ويسر بريطانيا رفع الأحكام العسكرية حالما يصدر قانون التضمينات ويعمل به في كل المحاكم المدنية والجنائية في مصر.

وهدد هذا الكتاب الوطنيين بالويل والثبور إذا هم استمروا على إثارة القلاقل وتهييج الشعب، مما يؤدي إلى تمسك الدول الأجنبية بالامتيازات، ويعرقل تقدم الشعب المصري في سبيل الرقي السياسي، وقد رد سعد زغلول على هذا التهديد بقوله: «أيهددوننا بنصب المشانق؟ فليكن، نحن مستعدون».

ثم أذاع نداء إلى الشعب بوجوب الثبات، والاتحاد، وجمع الصفوف، لدفع الخطر والتنزه عن الشهوات الشخصية، والابتعاد عن الأحقاد، والتجرد عن الهوى وجمع الكلمة لتخليص الوطن، وتحقيق استقلاله التام، وختم هذا النداء بقوله إلى أفراد الشعب: «إنكم أنبل الوارثين لأقدم مدينة في العالم، وقد خلقتم أن تعيشوا أحرارًا وتموتوا كرامًا، فلا تدعوا التاريخ يقول يومًا فيكم: أقسَموا ولم يبروا بالقسم، فلنثق إذًا بقلوب كلها اطمئنان، ونفوس ملؤها استبشار بالمستقبل، والاستقلال التام أو الموت الزؤام».

ورأت السلطة الإنجليزية أنها لن تستطيع تنفيذ خطتها الإرهابية الجديدة مادام سعد يثير النفوس ويوقظ الشعور الوطني، فأراد اللورد اللنبي أن يجد حجة لنفيه، فأرسل بلسان مستشار الداخلية الإنجليزي كتابًا جاء فيه: «يحظر على سعد زغلول باشا بموجب الحكم العرفي أن يخطب في الناس أو أن يشهد اجتماعًا عامًّا، أو يستقبل الوفود، أو يكتب إلى الصحف، أو يقوم بعمل من الأعمال السياسية، وعليه أن يغادر القاهرة بلا إبطاء، ويقيم في منـزله بالريف تحت مراقبة المدير»، فبادر سعد إلى الإجابة عن هذا الكتاب بكتابه التاريخي الآتي نصه:

«جناب الجنرال كلايتون مستشار وزارة الداخلية.

أتشرف بإخباركم أني استلمت خطابكم بتاريخ اليوم الذي تبلغونني فيه أمر جناب الفيلد مارشال اللنبي بمنعي من الاشتغال بالسياسة وإلزامي بالسفر إلى عزبتي بلا تأخير للقيام بها تحت مراقبة المدير، وهو أمر ظالم أحتج عليه بكل قوتي، إذ ليس هناك ما يبرره.

وبما أني موكل من قبل الأمة للسعي في استقلالها، فليس لغيرها سلطة تخليني من القيام بهذا الواجب المقدس، لهذا سأبقى في مركزي مخلصًا لواجبي، وللقوة أن تفعل بنا ما تشاء أفرادًا وجماعات، فإنا جميعًا مستعدون للقاء ما تأتي به بجنان ثابت وضمير هادئ، علمًا بأن كل عنف تستعمله ضد مساعينا المشروعة إنما يساعد البلاد على تحقيق أمانيها في الاستقلال التام».

وسمع الشعب بالخطر الذي يتهدد سعد زغلول فذهبت الجماهير إلى بيت الأمة لإعلان التفافها حول زعيمها، ولكن

الإنجليز وأعوانهم دفعوا رجال الشرطة إلى إطلاق الرصاص على المجتمعين حول البيت فاستشهد الكثيرون منهم، وهكذا أفلحت السياسة البريطانية في ضرب الشعب بأفراد الشعب نفسه، وقال سعد في ذلك: «إن هذه الكارثة نتيجة أعمال حكومة عدلي يكن لرفضها شروط الوفد في المفاوضات، وهكذا بعد أن كان المصريون إزاء عدو واحد هو بريطانيا، صاروا يواجهون عدوين الإنجليز ورجال الشرطة وهي محنة دامية تبكي القلوب».

وفي صباح يوم ٢٤ من ديسمبر عام ١٩٢١م (١٣٤٠هـ) اقتحم الجند الإنجليز منـزله فأيقظته زوجته الوفية صفية (انظر مادة صفية زغلول) وقالت: «قد حضر الذين تنتظرهم»، فقام سعد وأخذ في ارتداء ملابسه فأراد الجنود منعه، فنهرهم في احتقار، ثم سار وسطهم في وقار الشيوخ، وقد بلغ الرابعة والستين من العمر، ثابت الجنان رافع الرأس عظيم المنظر.

وقد أرادت زوجته السير معه فرفض الجنود طلبها، ولما تشبثت به تريد أن تحول بينهم وبينه قال لها سعد: «لا تكوني سببًا في إهانتي يا صفية»، فعاودها ثباتها وقالت: «لا عاش من يهينك يا سعد».

وخرج سعد من بيته، ونظر حوله، فإذا الجموع حاشدة تبكي وتصيح: «إلى أين يا سعد... إلى أين... إلى أين...؟» فاغرورقت عينا الشيخ الجليل بالدموع، وتابع سيره بين حراب الجنود إلى مصيره المجهول رابط الجأش وئيد الخطى في ثبات وعظمة وجلال.

وفي سيارة إسعاف حُمِل سعد إلى السويس في طريق غير ممهد، واستمر سفره الشاق من الساعة التاسعة صباحًا إلى الخامسة مساءً، ثم أنزل في خيمة يهب عليها الريح، ووصل إلى مكانه زملاؤه الذين حكم الإنجليز عليهم بالنفي دون محاكمة، وفي ١١ ديسمبر أُركبوا سفينة تحمل فرقة من جنود الهند، ووصلت السفينة إلى ميناء عدن ٤ يناير عام ١٩٢٢م (١٣٤١هـ) وفي عدن جاءه رجل سوري يعمل مع البريطانيين وأسرّ إليه أنه سيكون ملكًا على مصر، فرد سعد بأنه يفضل أن يكون فردًا في أمة مستقلة حرة على أن يكون ملكًا لبلاد مستعبدة في ظل حماية أجنبية.

وظل سعد في منفاه بعدن حتى ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢م مع زملائه أعضاء الوفد الآخرين وهم: مصطفى النحاس، ومكرم عبيد، وسينوت حنا، وعاطف بركات، وفتح الله بركات، بينما كانت المظاهرات والاضطرابات العنيفة تسود القطر المصري بأسره، والسلطات العسكرية الغاشمة تقمعها بالإرهاب، وإطلاق الرصاص على المتظاهرين وزجّ الآلاف من المواطنين في السجون.

وإزاء هذه المظالم تحرك ضمير عدلي يكن بعد كل هذه النكبات التي كان هو من أقوى أسبابها فقدم استقالته ولم يرض أحد غيره أن يؤلف الوزارة، مما اضطر اللورد اللنبي إلى اقتراح اعتراف حكومته بإنهاء الحماية، وبأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة مع استبقاء بعض التحفظات حتى يتم توقيع المعاهدة، وقال: «إن رفض الأخذ باقتراحه يؤدي إما إلى حكم بلاد معادية إلى أبعد حد وإما فقد كل شيء في مصر، وقال إن عبد الخالق ثروت باشا مستعد لقبول الوزارة على أساس

التصريح المقترح مما يؤدي إلى كسب عضو أو اثنين من أعضاء الوفد وسيضعف ذلك سلطان سعد زغلول».

وعلى إثر ذلك أذاعت بريطانيا تصريحها المعروف بتصريح ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢م معلنة فيها استقلال مصر، وإلغاء الحماية محتفظة بأربعة أمور حتى تعقد المعاهدة وهي: تأمين مواصلات الإمبراطورية في مصر والدفاع عن مصر ضد أي اعتداء أو تدخل أجنبي وحماية مصالح الأجانب، وحماية الأقليات ومسألة السودان، وأبقت مع ذلك قوات عسكرية بثكناتها وأحكامها وفوقها جميعًا اللورد اللينبي صاحب السلطان الأكبر في البلاد.

وكان أول من أفاد من هذا التصريح السلطان فؤاد الذي نادى بنفسه ملكًا، واتخذ لقب صاحب الجلالة، وكان ذلك بدء نظام جديد في حياة مصر السياسية.

وفي اليوم نفسه الذي أذيع فيه التصريح تعمدت بريطانيا نقل سعد وزملائه إلى جزيرة سيشل ليقترن الاستقلال الزائف بإبعاد سعد وهو المدافع الأول عنه.

وحدث أن أصيب سعد باختناق لكثرة الرطوبة في الجزيرة فنقله الإنجليز – دون رفاقه – إلى جبل طارق، وسمح لزوجته بأن توافيه إلى هناك، وعلى ظهر السفينة التي حملته إلى جبل طارق ذاق سعد مرارة الوحدة، والحجر على حريته في الكلام مع الركاب أو التريض فوق سطح السفينة وقد تألم أشد الألم والضيق طوال مدة السفر التي استغرقت ستة عشر يومًا.

وكان في تصريح ٢٨ فبراير متنفس للحرية وخطوة إلى الاستقلال مشوبة بالحذر والريبة في نوايا الإنجليز المحتلين، ولذلك قوبل من هيئة الوفد المصري بالاحتجاج الشديد، إذ إن غاية هيئة الوفد التي تنوب عن الشعب المصري في المطالبة بنيل أمانيه الوطنية العادلة كاملة هي الاستقلال التام، وجلاء الجيوش البريطانية عن أرض مصر بعد إزالة آثار الاحتلال البغيض كاملة وإنهاء الامتيازات الأجنبية الظالمة، واضطربت إثر هذا الاحتجاج الأمور وتتابعت الإضرابات، والمظاهرات العنيفة، ومقابلة السلطات البريطانية هذه الانتفاضات الوطنية بأساليب القمع والبطش حتى هبت الصحف الإنجليزية نفسها تحمل على سياسة اللورد اللنبي، وقام الدكتور حامد محمود بدعوة نشيطة بين نواب حزبي العمال والأحرار في لندن فكثرت أسئلتهم في مجلس العموم عن القضية المصرية وعن اعتقال سعد، ثم قدم ٩٩ نائبًا في ٢٩ مارس عام ١٩٢٣م (١٣٤٢هـ) عريضة هاجموا فيها سياسة السلطة الإنجليزية في مصر.

وكان استئثار رشدي وعدلي وثروت بالحكم قد دفع فريقًا آخر من طلاب الوزارة في أثناء غياب سعد إلى تأليف كتلة تقاوم هؤلاء المتحكمين في الحكم، وتحاول الاستعانة على ذلك بالوفد، وكان على رأس هذا الفريق توفيق نسيم، وأحمد مظلوم، ويوسف وهبة، وكان جماعة رشدي، وعدلي، وثروت، وأنصارهم توالي الإنجليز، أما الفريق الثاني فأخذ يتقرب إلى القصر الملكي، وكان بديهيًّا أن تنادي فئة رشدي وعدلي وثروت باحترام مبادئ الدستور للحد من سلطة الملك، ومن ثم أطلق عدلي يكن الحزب الذي أسسه في ذلك الحين «حزب الأحرار الدستوريين»، ولم يُجْدِ تقرب الفريق النسيمي المظلومي إلى الوفد في أن تنادي الهيئة الوفدية بديمقراطية الدستور في أساسه لجعل الأمة المصدر الوحيد للسلطات.

وقد رأى الملك فؤاد أنه لابد – بعد تصريح ٢٨ فبراير – من أن يكون لمصر التي أصبحت ذات سيادة، أن يكون لها دستور يحقق – إلى حد ما – مطالب الشعب في الحكم الديمقراطي، وكان رئيس الوزراء آنذاك عبد الخالق ثروت باشا، فأصدر إليه الملك أمره بالشروع في تأليف لجنة لوضع الدستور وعرض أسماء أعضائها عليه، فأعلن الوفد المصري والحزب الوطني مقاطعتهما لهذه اللجنة لأنهما يؤمنان بأن الدستور يجب أن يوضع بوساطة جمعية تشريعية ينتخبها الشعب.

غير أن الوزارة عمدت إلى اختيار اللجنة من حزب الأحرار الدستوريين الذي يرأسه عبد الخالق ثروت نفسه، ومن بعض المستقلين من الأعيان، وأهل الفكر، ورجال الدين، ورجال المحاماة والقضاء، والوزراء السابقين، وكان من بين هؤلاء: محمد توفيق رفعت، وعبد الفتاح يحيى، وإبراهيم الهلباوي، وعبد العزيز فهمي ومحمد علي علوبة، وإلياس عوض، وعلي ماهر، وحافظ حسن، وتوفيق دوس، وعبد الحميد بدوي، وحسين رشدي، وعبد الحميد البكري، وعبد اللطيف المكباتي، وعبد الحميد مصطفى، والشيخ بخيت وغيرهم، وتولى سكرتارية هذه اللجنة الشيخ عبد العزيز البشري، وعقدت معظم جلساتها بقاعة المجلس البلدي بالإسكندرية.

ولقد دافع بعض الأعضاء عن حقوق الشعب، وكان أكبر المدافعين عبد اللطيف المكباتي، مما أدى إلى أن تقرر اللجنة أن الأمة مصدر السلطات، وأن تضيق من سلطات الملك الدستورية.

واستقال عبد الخالق ثروت، وحل محله في رياسة الوزارة توفيق نسيم بقصد تعديل مشروع الدستور وتوسيع السلطات الملكية، وحق تعيين مجلس الشيوخ.

غير أن توفيق نسيم اصطدم مرة أخرى بإجماع الشعب على تمسكه بحقوقه في السيادة الكاملة، ومن ثم كان التعديل الوحيد الذي أدخل على الدستور، هو أن يكون لقب الملك «ملك مصر والسودان»، وكان غرض لجنة الدستور من هذه الإضافة إرضاء الملك فؤاد حتى لا يعارض في النصوص التي تقرر سيادة الشعب وأنه هو مصدر السلطات، ولكن الإنجليز عارضوا في إضافة كلمة السودان فسقطت وزارة نسيم باشا، وألف الوزارة يحيى إبراهيم باشا، وكان سعد قد عاد من المنفى في ٧ سبتمبر عام ١٩٢٢، فاستقبلته الأمة بمظاهرات وطنية لم تعرف مصر لها مثيلاً وقد اشترك فيها خصومه، وعدد كبير من الأجانب، وبعض أفراد الأسرة المالكة، وقد استقبلته الإسكندرية استقبالاً وطنيًّا رائعًا يفوق الوصف.

وبادر سعد إلى تزعم المعارضة في طريقة وضع الدستور، فعززت هذه المعارضة تمسك اللجنة بالمبادئ الديمقراطية الأساسية التي أقرتها، وقامت المظاهرات، والاضطرابات، وتعددت الأعمال الإرهابية التي قام بها الشبان المصريون ضد الإنجليز، وضد الخونة فأصدر الملك الدستور في ١٩ إبريل عام ١٩٢٣ بعد أن تردد طويلاً في التوقيع عليه.

وكان هذا الدستور – على ما فيه من قصور – خطوة في سبيل ضمان حقوق الشعب وحرياته، وهذا ما جعل سعد زغلول لا يتردد في الاشتراك في الانتخابات النيابية على أساسه على الرغم من معارضته لبعض مواده التي تحد من حريات الشعب.

وجرت الانتخابات الأولى في يناير عام ١٩٢٤م (١٣٤٣هـ)، وكانت انتخابات حرة نزيهة فاكتسح أعضاء الوفد غيرهم من أن هذه الانتخابات جرت على درجتين، ولم تحصل الأحزاب الأخرى إلا على عدد محدود من المقاعد لا يتجاوز العشرين من ٢١٦ دائرة، وكان البرلمان الأول الذي اجتمع في عام ١٩٢٤ أول مظهر لبروز سلطة الشعب كقوة مؤثرة في الحكم.

وبعد أن انقسم الرأي بالنسبة إلى قبول سعد تأليف الوزارة استقر في النهاية على أن يقبلها ليكون الضمان القوي لإبراز سلطة الأمة، والوقوف في وجه النفوذ الإنجليزي في أساليب الحكم، فلما دعاه الملك ألف الوزارة منه ومن مصطفى النحاس، ومحمد سعيد، وأحمد مظلوم، ومحمد فتح الله بركات، ومحمد نجيب الغرابلي ومحمد توفيق نسيم، وحسين حسيب، ومرقص وحنا وواصف غالي، وسميت وزارته «وزارة الشعب» لأنها كانت أول وزارة مصرية دستورية تستمد قوتها من إرادة الأمة.

ومن أقواله في صدد تأليف الوزارة أنه لابد من السعي إلى: أن تكون أهم النتائج بمصير الاقتصاد ونزع المرأة حجابها، واشتراكها في الحركة الوطنية، والقضاء على طبقة الباشاوات وتولي الفلاحين الحكم، وإزالة العنصر التركي من السياسة المصرية. . . وبعد هذا كله الاستقلال لأنه لا قيمة للاستقلال الخارجي بغير التحرير الداخلي.

وافتتح البرلمان في ٢٨ فبراير عام ١٩٢٤، وكان سعد زغلول قد اجتاز أول أزمة بينه وبين الملك فؤاد الذي أراد تعيين خمسة من أعضاء مجلس الشيوخ تنفيذًا لأحكام المادة ٧٤ من الدستور دون استشارة الوزارة، فتمسك سعد بنص المادة ٤٨ التي تقول إن الملك يتولى سلطته بوساطة وزرائه.

وكان لابد من الفصل في الموضوع في أقرب وقت، لأن سعدًا صمم على الاستقالة إذا لم يطبق نص المادة ٤٨، ثم قبل التحكيم عن طريق البارون «فان دن بوش» الذي كان النائب العام لدى المحاكم المختلطة، وهو بلجيكي الجنسية، والمادة ٤٨ مستمدة من الدستور البلجيكي، فحضر «فان دن بوش» من الإسكندرية على عجل، وأفتى بأن سعد زغلول على حق فرضي الملك فؤاد بتحكيمه، واستشار الوزارة في تعيين أعضاء مجلس الشيوخ الخمسة.

وعند ذاك ألف سعد «الهيئة الوفدية» في ٢٦ إبريل عام ١٩٢٤م (١٣٤٣هـ) فوضعت هذه الهيئة النظام التي تسير عليه، وخطب سعد في هذا الشأن مبينًا أن الحرية في النظام، ولا حرية بغيره.

وفي ٢٨ فبراير افتتح البرلمان رسميًّا بحضور الملك فؤاد، وإلغاء خطبة العرش، وقد حدد سعد هذا اليوم بالذات لأنه لا يعترف بتصريح ٢٨ فبراير، فجعل هذا اليوم عيدًا وطنيًّا بافتتاح البرلمان فيه بالذات لأنه صرح بأن حكومته غير مرتبطة بهذا التصريح، وكان هذا اصطدام بينه وبين الإنجليز.

واصطدم بهم عندما أفرج عن المعتقلين السياسيين، وعند إلغاء نفقات الاحتلال من ميزانية الدولة وعند تحديد صلاحية المستشارين الأجانب، وحصر عملهم في الاستشارة الفنية مع إحالة بعضهم على مجالس التأديب لظهور الخلل في أعمالهم، وذلك على الرغم من احتجاج الوكالة البريطانية، واتهام

وزارته بكراهية الأجانب، والعمل على إفساد الإدارة في البلاد.

واصطدم بالأزهر عندما عزم على إعادة مدرسة القضاء الشرعي، وكانت قد عاشت في رعايته عندما كان وزيرًا للمعارف، ثم أغلقت لامتناع الحكومة عن تعيين خريجيها في الوظائف، واصطدم بالموظفين حينما أراد إصلاح نظام الدرجات والترقيات والتعيينات، وكان أكثر الموظفين يفضلون بقاء الفوضى لأنها أقرب إلى نفوسهم وأكثر تحقيقًا لأطماعهم، واصطدم أخيرًا بالوطنيين المتطرفين الذين أخذوا عليه قبول مبدأ المفاوضة مع الحكومة الإنجليزية، فأطلق عليه أحدهم رصاصة نفذت إلى صدره، وكادت تقضي على حياته، وقد ظن أن الرصاصة خرجت من صدره مع أنها بقيت فيه إلى وفاته، ولم يخبره الأطباء بأنها ماتزال في مكانها إلا بعد عام من تاريخ الإصابة.

والواقع هو أنه لم يقبل المفاوضة مع ماكدونالد إلا بعد أن وثق في أنها مطلقة من كل قيد، وبعد أن صرح مرارًا بأن دخوله فيها لا يعني أي تنازل أو تخلٍّ عن حقوق مصر، أو يفسر على أنه قبول لأي امتياز لبريطانيا في مصر، ومن جهة أخرى فإن ماكدونالد كان زعيم حزب العمال، وقد صرح قبل توليه الوزارة حين زار مصر، وتناول القهوة في بيت الأمة، صرح في ذلك اليوم أمام سعد بأن القضية المصرية لن تستغرق معه أكثر من الوقت الذي يتناول فيه فنجان القهوة.

ولكن سرعان ما تبدلت الأحوال، وتحرج مركز وزارة ماكدونالد العمالية، فقطعت المفاوضات، وكانت وشيكة على الوصول إلى حل يرضاه الطرفان.

وعاد سعد إلى مصر بعد قطع المفاوضات، ورفض تجديد عقد المستشار القضائي الإنجليزي، لأن ذلك يتعارض مع إلغاء الحماية على مصر، وكان عازمًا على اتخاذ إجراءات وطنية أخرى تعزز سيادة البلاد واستقلالها، ولكن لم يمض شهر واحد على عودته من لندن حتى حدث الاعتداء على «لي ستاك» سردار الجيش المصري، وحاكم السودان في نوفمبر عام ١٩٢٤م (١٣٤٣هـ) في ظروف غامضة لقي حتفه على إثرها.

وقد انتهزت السلطات الإنجليزية فرصة هذا الحادث، وقدمت إلى الحكومة المصرية مذكرة بها عدة مطالب منها الاعتذار وتعويض قدره نصف مليون جنيه، ومنع المظاهرات، والمحافظة على مركز المستشار المالي والمستشار القضائي، وإيفاء المكتب الأوروبي في وزارة الداخلية واعتزام حكومة السودان زيادة مساحة الأطيان التي تزرعها في الجزيرة، فقبل سعد المطالب التي لها علاقة بالجريمة ورفض المطالب الأخرى.

فأسرعت السلطات الإنجليزية إلى احتلال جمارك الإسكندرية، ونفذت بعض تهديداتها بالقوة، وتمادى اللورد اللنبي في تشفيه وانتقامه البغيض فذهب إلى بيت الأمة تحيط به كوكبة من الفرسان الإنجليز شاكي السلاح، ومن ثَمَّ لم يجد سعد بُدًّا من الاستقالة محتجًّا على هذه التصرفات التعسفية الفاجرة، والتعدي على استقلال البلاد، وكانت مدة توليه الحكم الشعبي الرشيد تسعة أشهر كان خلالها مثلاً للوطنية الخالصة والقيادة الحصيفة.

واتهم في قضية قتل السردار عدد من الشبان بينهم أحمد ماهر، وكان في ذلك الحين وزيرًا للمعارف ومحمود

فهمي النقراشي (انظر هذه المادة) والدكتور شفيق المصري، ومحمود إسماعيل راشد المهندس وبعض العمال، وعلى الرغم من الشك الذي حام حول ظروف القضية ونسبتها إلى المصريين فإن المحكمة أصدرت حكمها بشنق سبعة من المتهمين، وإبدال حكم الإعدام بالنسبة إلى عبد الفتاح عنايت بالأشغال الشاقة المؤبدة لصغر سنه، فقضى في السجن ٢٥ عامًا حصل خلالها على إجازة الحقوق، وقد أفرج عنه سنة ١٩٥٠م (١٣٧٠هـ).

وفي ٢٣ أغسطس عام ١٩٢٥م (١٣٤٤هـ) نفذ حكم الإعدام في المتهمين السبعة وهم: الدكتور شفيق منصور المحامي، وإبراهيم موسي الخراط بالسكة الحديد وعبد الحميد عنايت، وكان عمره ٢٠ عامًا، وعلي إبراهيم محمد العامل بالسكة الحديد، وراغب حسن النجار بالتليفونات، ومحمود راشد المهندس بمصلحة التنظيم، ومحمود إسماعيل الموظف بالأوقاف، وقد قال عند شنقه جملته التاريخية الرنانة: «أنا وعائلتي فداء لمصر».

ويقول بعض المؤرخين وبينهم أنور العمروسي إن الجريمة كانت مدبرة من الإنجليز أنفسهم لأن السردار «لي ستاك» كان محبوبًا من المصريين، والسودانيين، وكانت له آراء حرة في صالح القضية المصرية، ويرجح هؤلاء المؤرخون أن بريطانيا ضحت بهذا الرجل لتنفيذ مظالمها الجائرة في مصر، والحد من تقدمها نحو الاستقلال والحرية.

واتخذت بريطانيا حادثة السردار ذريعة لابتلاع السودان، والقضاء على الانتصارات التي حققتها مصر في سبيل الحرية والاستقلال، وأذعنت حكومة زيور باشا، وحسن نشأت باشا، وإسماعيل صدقي باشا التي خلفت حكومة سعد زغلول لجميع مطالب اللورد اللنبي فأطلقت يد السلطات الإنجليزية في البلاد، فانتهكت الدستور وداست القوانين، وعطلت البرلمان وأغلقت الصحف، وألفت وزارة زيور حزبًا أسمته «حزب الاتحاد» يعمل بأموال الأجانب وحرابهم، لتوطيد دعائم الاستعمار ومكافحة الحركة الوطنية في مصر، وأطلقت السلطات الإنجليزية يد السراي الملكية في مقدرات الشعب لتأديبه وإذلاله، ومن هنا جاء اختيار أحمد زيور باشا رئيسًا للوزارة وهو رجل مسالم للاحتلال وللسراي، إذ هو مجرد موظف ارتقى حتى بلغ منصب الوزارة فلا شأن له بالشعب، ولا شأن للشعب به.

وعمدت وزارة زيور باشا إلى إجراء انتخابات جديدة استخدمت فيها كافة أنواع الزيف والتزوير واستعملت فيها كل قوتها وإرهابها، ولكنها أسفرت عن فوز الوفد بأكثرية المقاعد في البرلمان الجديد، فألف زيور وزارة من الاتحاديين، والأحرار الدستوريين، والمستقلين قبل أن ينعقد المجلس على خلاف التقاليد الدستورية وفي يوم انعقاد المجلس نفسه أصدر الملك فؤاد مرسومًا بحله للسبب الذي حل المجلس السابق من أجله «أي لإصراره على السياسة التي كانت سببًا لتلك النكبات التي لم تنته البلاد من معالجتها»، وفي حل البرلمان على هذه الصورة مخالفة صارخة لأحكام الدستور.

وأعقب ذلك قيام كتلة زيور باشا بمناورات أرغمت الأحرار الدستوريين على الاستقالة من الوزارة فانفردت هذه الكتلة بالحكم، وبادرت إلى إصدار قانون الانتخابات المباشرة لتمزيق وحدة الأحزاب والاستعداد لانتخابات جديدة يتنافس فيها خصومها منافسة عنيفة.

وكان زيور باشا يبغي تمثيل الدور الذي مثله رياض باشا عقب القبض على أحمد عرابي عام ١٨٨٢م (١٣٠٠هـ)، ولكن الشعب أفاق من ذهوله إثر حادثة مقتل السردار وما أعقب ذلك من أعمال الإرهاب وهب لمقاومة الدكتاتورية الزيورية، ورأى سعد – لمحو الخصومات ولإزالة الفرقة وتوحيد صفوف الأمة – أن ينادي النواب إلى الاتحاد فعقدوا اجتماعًا طالبوا فيه بإعادة الحياة النيابية، وبدأت هذه الأحزاب تتقارب وترى ضرورة التعاون لصد عدوان الحكومة، فاجتمع قادتها ودعوا إلى عقد مؤتمر وطني تقرر فيه مقاطعة الانتخابات إذا لم يعدل قانونها الجديد، وإن كان في صالح الديمقراطية الحقة فإن مجابهة الحكومة كانت ألزم في رأي سعد من التمسك بالانتخاب المباشر الذي نص عليه القانون الجديد.

وجرت الانتخابات الجديدة وانتصر فيها الوفد على منافسيه ففاز فيها ١٦٥ وفديًا، و٢٩ من الأحرار الدستوريين، و٥ من الحزب الوطني، و٦ من المستقلين، و٥ من الاتحاديين، إلا أن سعدًا تنحى عن تأليف الوزارة لعدلي يكن على الرغم من أنه زعيم الأغلبية البرلمانية، وذلك لأن الإنجليز عزموا على إحراجه، إذا هو قبل الوزارة بإثارة مسألة الأعضاء الوفديين المتهمين بقتل السردار والذين كانت المحكمة قد برأتهم من هذه التهمة على الرغم من اعتراض القاضي الإنجليزي على البراءة فصار في وسع السلطة الإنجليزية طلب إعادة نظر القضية، ثم تلجأ إلى اعتقال المتهمين، وإن خالفت بذلك أحكام القضاء.

وانتخب سعد رئيسًا لمجلس النواب فانصرف إلى المحافظة على الدستور، وتوطيده إزاء استعداد السلطة لانتهاكه في كل آن.

وفي أوائل عام ١٩٢٧م (١٣٤٦هـ) ساءت صحته فاقتصر عمله على مراقبة الخلاف بين دار المندوب البريطاني وممثلي الأمة، وكان لا يقابل أحدًا في بيته إلا الذي يدعوهم هو وغير الفلاحين الذين يشكون من ظلم أو استعباد.

وألح عليه المرض ففاضت روحه الطاهرة إلى بارئها في أغسطس عام ١٩٢٧م (١٣٤٦هـ) بالغًا من العمر حوالي ٧٠ عامًا، فكانت الفاجعة به فاجعة بزعيم أمة نذر نفسه لتحقيق أمانيها دون أن يفتر عن الكفاح من أجل هذه الأماني المقدسة لحظة واحدة.

وكانت آخر جملة لفظها لسانه وهو يحتضر ببلدته مسجد وصيف هي: «أنا انتهيت»، قالها عندما وضعت أم المصريين «صفية زغلول» يدها على كتفه سائلة «كيف حالك»، وكرر جملته «أنا انتهيت» مرة أخرى ولفظ آخر أنفاسه.

ولما طلب المشرفون على تشييع جنازته ما حصل عليه من أوسمة ونياشين قالت زوجته: «ضعوا فوق نعشه العلم المصري فهو الوسام الذي فضله طوال حياته».

وحزن الشعب المصري بأسره لفقده، وعم الأسى جميع النفوس في جميع أنحاء القطر، ولبس الناس الأربات (الكرفتات) السوداء حدادًا عليه، وغلّفت فوانيس العربات والسيارات بالقماش الأسود، وأخذ الناس يبكون بكاءً مُرًّا كلما جاء ذكره على الألسن، فقد كان زعيمًا لا تشوب زعامته أية شائبة على الرغم من افتراء بعض خصومه عليه حيًّا وميتًا، ولقد قال في ذلك الإفك عليه: «إنه لمن العار ومن الفضيحة أن يُظلم الناس في سيرتهم ولهم على حسنها شهود من الحق والواقع، وإذا لم يستحِ خصومنا من باطلهم فكيف

يصح لنا أن نستحي من حقنا؟ وإذا ساغ لهم أن يقولوا فينا الباطل، فكيف لا يسوغ لنا أن نقول الحق، ومن أَوْلَى مِنَّا بأن ينصر الحق إذا كنا نجاري المبطلين في خذلانه».

ومن أقوله المأثورة التي تردد حتى الآن: «يعجبني الصدق في القول والإخلاص في العمل، وأن تقوم المحبة بين الناس مقام القانون»، وقوله: «الحق فوق القوة، والأمة فوق الحكومة».

وكان سعد زغلول أول من قرر دراسة العلوم الرياضية باللغة العربية عندما كان وزيرًا للمعارف.

وكانت إصابته بالرصاصة في يوم ١٢ من يوليو عام ١٩٢٤م في محطة القاهرة عندما كان يستعد للسفر هو والوزراء إلى الإسكندرية لتهنئة الملك فؤاد بعيد الأضحى، ومن الإسكندرية يسافر إلى إنجلترا للتفاوض، والذي أصابه يدعى سعد عبد الخالق عبد اللطيف الدلبشاني فمرت الرصاصة من الذراع اليمنى فيما يلي الإبط واستقرت بالقرب من الثدي الأيمن.

وقال حافظ إبراهيم (انظر هذه المادة) يصفه في كتاب «في المرآة»: «رزقه الله بسطة في الجسم والجاه، فهو ملء العيون، ملء الصدور، بلغ في دنياه ما دون التحية، وأدرك ما وراء الأمنية، إذا غشي مجلسًا وفيه قوم جلوس رأى القوم أنفسهم وقوفًا ولم يريدوا، وتنحوا عن الصدر ولم يقصدوا، وخاطبوه بالرياسة ولم يتعمدوا»، ثم يستطرد في هذا الوصف فيقول: «إذا وقف سعد يخطب الناس وثبت الألفاظ من مكامنها وأسفرت المعاني عن وجوهها، وتغايرت في السبق إلى ذهنه ولسانه، فلو أن كاتبًا كتب ما يرتجله ذلك الخطيب لوقعت منه على أسلوب سَرِيّ رائع ينقطع دونه تنميق الأقلام».

وقال الشيخ عبد العزيز البشري صاحب كتاب «في المرآة» في وصفه:

«ملء السمع، ملء القلب، ملء البصر، لو حاول بكل جهده ألا يكون رجلاً عظيمًا ما استطاع، وهيهات لامرئٍ أن يملك عن نفسه ما شاء لها الله! وقد سوَّى الله له هذه العظمة من يوم مدرجه: فكان طالبًا عظيمًا، وكان مِدْرَهًا عظيمًا، وكان قاضيًا عظيمًا، ثم تناهت إليه زعامة أمة فهو فيها ملء السهل والجبل».

ثم يقول مستطردًا: «بسطة في العلم والجسم، بسطة في العقل والحلم، وعزم تتزلزل الجبال دون أن يتزلزل، ويقين تتحول الأرض عن مدارها ولا يتحول، ومنطق يصول في الجلى حتى لتحسبها الجحافل قد تداكت بسيوفها وعَواليها، ويلطُف في السمر حتى لتتمثل أسراب الكواعب وصوت حُلّيها وتضوعت منها غواليها.

وفي اليوم الخامس من شهر أكتوبر عام ١٩٢٧م (١٣٤٦هـ) أقيم حفل تأبين للزعيم الفقيد سعد زغلول بمسرح محمد علي (مسرح سيد درويش حاليًّا) بالإسكندرية، فألقيت في هذا الحفل قصيدة قلت في مطلعها:

عَظمَ الخطبُ مُذْ نُعيتَ وخابَا

أَمَلُ الشعبِ إذْ تلقَّى المُصَابَا

فَقَدَ النيلُ فيكَ خيرَ زعيمٍ

في جلالِ الوقارِ عن مِصْرَ نابَا

فمشيبٌ وراءَ نعشكِ يبكي
وشبابٌ من روْعةِ الرُزْءِ شابَا

إلى أن قلت في آخرها:

عَلِمَ اللَّهُ لو ظهرتَ بِعصرٍ
كان فيه النبوغُ أمرًا عُجابَا

لدعاكَ العبادُ جمعًا نبيًّا
تخرقُ الأرضُ أو تنالُ السحابَا

ارتقى الفكرُ فاصطفيتَ زعيمًا
تحكمُ الناسَ تأسرُ الألبابَا

كَمْ حملْتَ العناءَ من أجل مصرٍ
وأراكَ الدفاعُ عنها اغترابَا

نَمْ بخيرٍ جزاك ربكَ عنها
جنةَ الخُلْدِ منزلاً وثوابَا

ومن تواتر الخواطر أن شاعر النيل حافظ إبراهيم ألقى قصيدة في تأبين سعد زغلول بعد حفل التأبين الذي ألقيت فيه قصيدتي، ففي ٧ من شهر أكتوبر عام ١٩٢٧ قال شاعر النيل في مطلع قصيدته من البحر والقافية نفسها:

إيه يا ليلُ هلْ شَهدتَ المصابَا
كيفَ يَنْصَبُّ في النفوسِ انصبابَا؟

بلِّغ المشرقين قبلَ انبلاجِ الصُّـ
ـبحِ أنَّ الرئيسَ ولَّى وغابَا

٧٠٣- سعيد - ميدان - بقسم محرم بك

اسم «سعيد» اسم شائع ومن ثمّ لا يستطاع تحديد من هو سعيد الذي أطلق اسمه على هذا الميدان، غير أن الواجب التاريخي يقتضيني أن أوضح للقراء فيما يلي تراجم الرجال السبعة الذين يحملون اسم سعيد ودون المؤرخون سير حياتهم وسأتناول هذه التراجم حسب ترتيب وجود كل منهم في قيد الحياة:

١) سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن كعب بن لؤي: كان من أقدم صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام، وأمه فاطمة بنت بعجة بنت أمية من بني خزاعة، ويكنى بأبي الأعور أو أبي ثور، وكان في الوقت نفسه من أبناء عمومة عمر بن الخطاب (انظر مادة ابن الخطاب)، وكان صهره إذ كان عمر متزوجًا من أخت سعيد.

وقد اعتنق سعيد الدين الإسلامي قبل أن يدخل النبي بيت زيد بن الأرقم (انظر مادة ابن الأرقم)، وكان أبوه زيد ابن عمرو من الحنفية ومن المتعلقين بالتوحيد، وقد طرح عبادة الأوثان وحذر معاصريه من الوثنية، ويقال إنه توفي في العام الذي بنيت فيه الكعبة التي شارك النبي في إقامتها.

وهاجر سعيد بن زيد إلى المدينة مع المسلمين، وهناك آخى النبي بينه وبين رافع بن مالك الزُّرقي في رواية، أو بينه وبين أُبيٍّ بن كعب في رواية أخرى.



ميدان سعيد (الخرطوم حاليًّا)

وعندما عرف في المدينة أن قافلة قريش في طريقها للعودة إلى مكة أنفذ النبي سعيد بن زيد، وطلحة بن عبيد الله ليتقصيا الأخبار، فقابلا القافلة عند الحوراء وأسرعا بالعودة إلى المدينة ليقصا الخبر، غير أن النبي كان آنذاك في طريقه إلى موقعة بدر، ومن ثَمَّ حدثت المعركة دون أن يشتركا فيها، ولكنهما حصلا على نصيبهما من الغنائم.

ثم شهد سعيد جميع الوقائع الأخرى وبرزت شجاعته في وقعة أجنادين عام ١٣هـ (٦٣٤م) إذ كان على رأس الفرسان، وفي العام نفسه كان يقود فرق المشاة، ثم اشترك في وقعة اليرموك عام ١٥هـ (٦٣٦م).

وكان سعيد عند وفاة عمر بن الخطاب أحد الذين اختاروا عثمان بن عفان (انظر هذه المادة) للخلافة ومع ذلك لم يكن راضيًا عن خلافته، وحكومته، ولكنه لم ينحز إلى جانب العلويين أنصار علي بن أبي طالب (انظر مادة الإمام علي)، وتوفي عام ٥٠هـ (٦٧٠م) في العقيق بالقرب من المدينة حيث دفن، وكان سعيد موضع التبجيل في الجماعة الإسلامية لأنه كان أحد الصحابة العشرة الذين بشرهم رسول الله بالجنة، وكان من أوائل الذي آمنوا بالله ورسوله ونجد مسنده في رواية الحديث في مسند أحمد بن حنبل (انظر هذه المادة).

٢) سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أُمَيَّة ابن عبد شمس بن مناف بن قُصيّ: وكان واليًا على الكوفة

والمدينة، وكان في التاسعة من عمره عند وفاة النبي عليه السلام، وقتل والده في وقعة بدر (انظر مادة بدر)، وكان من المشركين، وكان سعيد أحد أفراد أسرة من أشهر أسر قريش، وقد اشتهر بجوده وفصاحته، وكان عثمان بن عفان يحترمه ويبجله ومن ثم اختاره ليكون بين الذي عهد إليهم بجمع القرآن.

وفي عام ٢٩هـ (٦٤٩ - ٦٥٠م) أقامه عثمان واليًا على الكوفة على الرغم من حداثة سنه، وقلة خبرته بالأمور، وذلك مكان الوليد بن عقبة الذي كان قد أثبت أنه صعب المراس يتعذر التفاهم معه.

وقام سعيد في أثناء ولايته بحملات على طبرستان وجرجان، وقضى على الفتنة فيهما، ولكنه أثار عليه أهل الكوفة لنزوعه إلى العدوان، ونتج عن ذلك عزله وتولية أبي موسى الأشعري مكانه (انظر مادة الأشعري).

وظل سعيد بعد ذلك بالمدينة، وعندما هاجم الثوار الخليفة عثمان بن عفان في بيته دافع عنه سعيد حتى أثخنته الجراح، ثم ذهب صحبة السيدة عائشة زوج النبي وطلحة والزبير بعد مقتل عثمان من مكة إلى البصرة لحشد الجنود إلى جانبهم، ولكن سعيدًا لم يستمر على مناصرة السيدة عائشة وطلحة والزبير فعاد إلى مكة واستقر بها، ولم يشترك في وقعة الجمل، ولا في وقعة صفين.

وتناوب هو ومروان بن الحكم الولاية على المدينة إبان حكم معاوية بن أبي سفيان (انظر مادة معاوية).

وتوفي سعيد في ضيعته بالعقيق عام ٥٩هـ (٦٧٨ - ٦٧٩م).

٣) سعيد بن أوس الأنصاري (المعروف بأبي زيد): نحوي عربي من قبيلة الخزرج بالمدينة، درس على يد أبي عمرو بن العلاء البصري، وإن كان قد حضر أيضًا دروس المفضل الضبّي في الكوفة (انظر مادة الضبِّي)، ثم رحل إلى مكة عندما تولى الخليفة العباسي المهدي (انظر هذه المادة) الخلافة عام ١٥٨هـ (٧٧٤م) (وانظر مادة أبي زيد).

ولم يبق من مؤلفاته في اللغة والنحو إلا: كتاب «النوادر في اللغة»، وكتاب «المطر»، ويشتمل الكتاب الأول على مجموعة من نوادر الشعر درسها على المفضل الضبِّي ومجموعة من الرجز باللغة الفصحى استقاها من البدو مباشرة، وقد علَّق على هذا الكتاب أبو حاتم وأبو الحسن الأخفش (انظر مادة الأخفش) بتعليقات وهوامش لغوية وشروح، وكتب علي بن حمزة البصري نقدًا لهذا الكتاب بعنوان «كتاب التنبيه على أغلاط أبي زيد الكلابي في نوادره»، وقد نشر كتاب «النوادر في اللغة» سعيد الخوري الشرطوني في بيروت عام ١٨٩٤م (١٣١٢هـ).

أما كتاب «المطر» فهو مجموعة من الأقوال العربية في المطر نشره الأب لويس شيخو ببيروت أيضًا.

وتوفي سعيد بن أوس المعروف بأبي زيد عام ٢١٤هـ (٨٣٠م).

٤) سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب (وكنيته أبو محمد): كان أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، وكان سيد التابعين من الطراز الأول، فقد جمع بين الحديث والفقه وبين الزهد والعبادة والورع، وتلقى العلم على يد سعد بن أبي وقاص الزهري وعلى يد أبي هريرة (انظر هذه المادة)، وقد

لقي جماعة من الصحابة وسمع منهم، ودخل على أزواج النبي عليه الصلاة والسلام وأخذ عنهن، وأكثر الروايات صحة هي المسندة عن أبي هريرة إذ كان زوج ابنته، وحج أربعين حجة، وكان يحافظ على الصلاة فيدخل المساجد أول الداخلين ليجلس في الصف الأول دائمًا.

وقد زوَّج ابنته إلى رجل من الشعب وأبى أن يزوجها من الوليد بن عبد الملك بن مروان عندما جعله وليًّا للعهد في الخلافة الأموية، ومازال يحتال إلى أن ضربه ولم يشأ أن يبايع الوليد بولاية العهد على الرغم من جلده وتعذيبه، ورفض أن ينقطع عن الصلاة في المسجد، وأن يكف عن الاجتماع بالناس.

وقد عاصر خلافة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، وتوفي بالمدينة المنورة عام ٩٥هـ (٧١٣م).

٥) سعيد بن البطريق (ويعرف عند الإفرنج باسم «إيوتخيوس Eutychius»): وقد دوِّنت سيرة حياته في مادة «سعيد بن البطريق» فاطلبها في هذه المادة.

٦) سعيد الأول ابن محمد علي: اطلب ترجمته في مادة «سعيد الأول».

٧) سعيد باشا (ويعرف بكوجوك أي الصغير): كان أعظم رجال الدولة التركية، هو والمصلح أحمد مدحت باشا صاحب التنظيمات المفيدة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وقد ولد سعيد كوجوك عام ١٢٥٤هـ (١٨٣٨م) في مدينة أرضروم وهو ينحدر من أسرة تركية خالصة هي أسرة سبعه زاده، وتلقى سعيد تعليمه الأول في أرضروم، ولما بلغ السادسة عشرة من عمره شغل وظيفة من وظائف الدولة في مسقط رأسه، ثم تدرج في مناصب الحكومة حتى بلغ أرقاها، وقد شغل منصب السكرتير العام لمقاطعة «يانينا» ثم مقاطعة سلانيك، ثم مناصب مدير المطبعة السلطانية بالآستانة، ومدير الجريدة الرسمية «تقويم وقائع»، وسكرتير عام مجلس الدولة حتى وصل إلى وظيفة الصدر الأعظم، وبعد ذلك تولى منصب السكرتير الأول للسلطان عبد الحميد، وقد شغل منصب الصدر الأعظم تسع مرات.

ومن الغريب أن هذا الرجل الذي لم يحصل على التعليم العالي ألّف كتابًا يشتمل على مجموعة المقالات التي نشرها في صحيفتي «طنين» و«صباح».

وكان يسعى قدر استطاعته للحد من النفوذ الأجنبي في تركيا، ومع ذلك فقد احتمى بالسفارة البريطانية في الآستانة حينما أصدر السلطان عبد الحميد أمرًا بالقبض عليه في ديسمبر عام ١٨٩٥م (١٣١٣هـ)، وظل بهذه السفارة إلى أن أمَّنه السلطان على حياته كتابة، وقد اشترك بعد ذلك في حزب تركية الفتاة، وساعد على خلع السلطان عبد الحميد عن العرش في ٢٧ إبريل عام ١٩٠٩م (١٣٢٧هـ)، ولعله أول رجال الدولة الذين تركوا مذكرات هامة تاريخية في ثلاثة مجلدات بعنوان «سعيد باشا خاطرات»، وتوفي في أول مارس عام ١٩١٤م (١٣٣٣هـ) عن ٧٦ عامًا.

٧٠٤- سعيد بن البطريق - شارع - بقسم مينا البصل (بريجس سابقًا)

سعيد بن البطريق يدعى عند علماء الإفرنج باسم «إيوتخيوس Eutychius»، وقد ظل يتولى منصب بطريق

الإسكندرية من عام ٣٢١ إلى ٣٢٨هـ (٩٣٢ - ٩٣٩م) أي مدة سبع سنوات.

وقد ولد سعيد في مدينة الفسطاط (القاهرة قديمًا) خلال عام ٢٦٣هـ (٨٧٦م)، وكان متبحرًا في علوم الطب والتاريخ، وألف في هذه العلوم كتبًا عديدة أشهرها؛ «التاريخ الإخباري العربي» الذي أطلق عليه اسم (نظم الجَوْهر)، وقد نشر المستشرق «بوكوك Pococke» (انظر هذه المادة) هذا الكتاب في أكسفورد بإنجلترا عام ١٦٥٨ - ١٦٥٩م (١٠٦٨- ١٠٦٩هـ) ثم أتمّ هذا التاريخ الإخباري يحيى بن سعيد الأنطاكي.

ولسعيد بن البطريق جزء من تاريخ صقلية مازال مخطوطًا بمكتبة كمبردج بإنجلترا، ويقول بعض الباحثين في المخطوطات إنه قد يكون من تأليف مؤرخ آخر غير سعيد بن البطريق، ولكن الشائع المشهور هو أن هذا المخطوط من تأليف ابن البطريق الذي كتب معظم مؤلفاته عندما كان بطريق الإسكندرية، حيث أتيحت له الفرصة ليطلع على مصادر مؤلفاته في يسر وسهولة.

وبمكتبة كمبردج رسالة في الكلام كتبها ساويرس بن المقفع ردَّ فيها على سعيد بن البطريق فيما يتعلق بمؤلفاته، وقد عاصر ساويرس بن المقفع الذي يدعوه العرب بأبي البشر بن المقفع (انظر مادة ابن المقفع)، عاصر سعيد بن البطريق، وكذلك البطريق فيلوتيوس الذي جاء بعد سعيد بن البطريق.

وقد ألف ساويرس بن المقفع تاريخًا عن أعلام الكنيسة القبطية الذي جلسوا على كرسي البطريركية بالإسكندرية، ويوجد أقدم مخطوط لهذا الكتاب بمكتبة مدينة هامبورج بألمانيا ويشتمل على الجزء الأول من التاريخ الذي يبدأ بالقديس مرقص وينتهي بميخائيل الأول أي من عام ٦١ إلى عام ٧٦٧م، ودون في الأجزاء الأخرى تاريخ سعيد بن البطريق بالتفصيل.

ولا يعرف تاريخ وفاة سعيد بن البطريق أو أين كانت هذه الوفاة.

٧٠٥- سعيد الجندي - شارع - بقسم باب شرقي (الغازي مختار سابقًا)

هو محمد سعيد عبد الله الجندي الشهير بسعيد الجندي، ولد بالإسكندرية في الشارع نفسه الذي يحمل الآن اسمه وذلك في ٢٩ من شهر فبراير عام ١٩٤٠م (١٣٥٩هـ)، وتلقى دروسه الابتدائية والثانوية بمدارسها، وكان رياضيًّا ممتازًا ولاسيما في لعبة تنس الطاولة التي نال بطولتها على المستوى المحلي ومستوى القوات المسلحة.

وفي أثناء الحرب التي اشتركت فيها القوات المسلحة المصرية باليمن لتخليص هذا القطر العربي الشقيق من نير الحكم الدكتاتوري الغاشم الذي كان الأئمة الحاكمون يفرضونه على الشعب اليمني ليبقى في ربقة الجهل والفقر والمرض والتخلف الشنيع الذي يشبه في كل أوضاعه ما كان يجري في القرون الوسطى، في أثناء تلك الحرب الأخوية النضالية، استشهد سعيد الجندي في شهر فبراير عام ١٩٦٤، ولم يبلغ من العمر غير ٢٥ عامًا، فأكد باستشهاده الأخوة والشرف والنضال المشترك، مثبتًا أن قضية الأمة العربية واحدة في أهدافها التحررية، ومراميها الاجتماعية التي تسعى إلى رفع مستوى الفرد ليرتفع مستوى الشعوب الناطقة بالضاد في كل أجزاء الوطن العربي الكبير، وقد نال اسم الشهيد وسام لجنة

الشرف العسكرية وهو أعلى وسام عسكري بالجمهورية العربية المتحدة.

وفي هذا الشارع الذي يحمل الآن اسمه مارس سعيد لعبته المفضلة مع إخوانه بالجمهورية، وهي كرة القدم.

وبعد تخرجه من الكلية الحربية أظهر خلال الفترة القصيرة التي قضاها بالقوات المسلحة - قبل استشهاده - أظهر تفوقًا ملحوظًا استحق عليه جائزة ضابط مدفعية هاون بالمنطقة الشرقية التي مركزها الرئيسي بالإسكندرية، وذلك لما أظهره مع أفراد كتيبته من كفاءة قتالية عالية.

وقد عرفته منطقة الحضرة بقسم باب شرقي ابنًا مخلصًا لها، ولوطنه، إذ كان من أنبل أبنائها مشاعر، ومن أكرمهم خلقًا، وتمسكًا بالمبادئ السامية والمثل والقيم الدينية العالية.

وكانت أمنيته في آخر الكتب التي بعث بها إلى أهله من اليمن قبيل استشهاده أن يحارب في فلسطين بعد اليمن لاسترداد الوطن العربي الفلسطيني من أيدي الغاصبين الصهاينة.

٧٠٦ - سعيد نصر - شارع - بقسم محرم بك

هو ابن إمام البعثة العلمية التي أرسلت إلى فرنسا عام ١٨٤٤م (١٢٦٠هـ) الشيخ نصر أبو الوفا الهوريني (انظر مادة نصر أبو الوفا)، وكان اسمه في الأصل سعدًا، وورد اسمه كذلك في دفاتر دار المحفوظات ثم غير والده اسمه فجعله «سعيدًا» تفاديًا من إطلاق العامة في ذلك الحين اسم «سعد» على ذكر الماعز «الجدي».

وقد سافر سعيد إلى فرنسا، عام ١٨٤٧م (١٢٦٤هـ)، وعمره ثمانية أعوام، وألحق بمدرسة سان لويس، ثم دخل مدرسة سانسير الحربية الفرنسية التي كانت وماتزال تعد من أقوى المدارس الحربية في العالم ولاسيما في ذلك الحين، واستمر سعيد على الدراسة إلى أن تخرج من هذه المدرسة ضابطًا برتبة اليوزباشي (النقيب) ثم عاد إلى مصر في نوفمبر عام ١٨٦١م (١٢٧٨هـ) في أواخر عهد سعيد الأول، ومن ثَمَّ تكون بعثته قد استغرقت ١٤ عامًا، وعقب عودته عُيِّن معاونًا أول بالمدرسة الحربية بنظارة الجهادية في ٢٢ من فبراير عام ١٨٦٢م (١٢٧٩هـ)، ثم معاونًا بمصلحة السكة الحديد في ١٥ من فبراير عام ١٨٦٤م (١٢٨١هـ)، ونقل بعد ذلك إلى ديوان الأشغال ثم عُيِّن مدرسًا بالمدارس الحربية عام ١٨٦٦م (١٢٨٣هـ)، فناظرًا لقلم الترجمة بنظارة المالية برتبة قائمقام عام ١٨٧٩م (١٢٩٧هـ)، فسكرتيرًا لمحافظة سواحل البحر الأحمر عام ١٨٨٠م (١٢٩٨هـ)، ثُمَّ معلمًا للغة الفرنسية بالمدارس الحربية، ثم قاضيًا بمحكمة مصر الابتدائية المختلطة عام ١٨٨١م (١٢٩٩هـ)، فرئيسًا شرفيًّا للمحاكم المختلطة بالإسكندرية في ١٩٠٣م (١٣٢١هـ)، ونال رتبة الباشاوية، وظل يشغل هذا المنصب إلى أن توفي عام ١٩٠٥م (١٣٢٣هـ) بمنزله بالعباسية بالقاهرة ودفن بقرافة المجاورين، وكان سعيد نصر - وهو يتولى القضاء - مضرب المثل في النزاهة والصدق والتمسك بدينه، والتعصب لمصريته منذ الصغر، وقد رفعته أخلاقه السامية بين رجال القضاء المختلط بالإسكندرية إلى منزلة عالية التقدير محفوفة بالتجلة والاحترام، وأحرز بتنوع معارفه واتساع نطاقها مكانة عالية بين جميع عارفيه، وكان عمره عند الوفاة ٦٦ عامًا.

٧٠٧- السكّري - شارع - بقسم مينا البصل

هو محمد السكري، كان مجاورًا بالأزهر، ثم ألحق بمدرسة الطب بأبي زعبل التي أنشأها محمد علي عام ١٨٢٦م (١٢٤٢هـ)، وكان «كلوت بك» (انظر هذه المادة) أول ناظر لها، ولما أتمَّ دراسته بهذه المدرسة أُرسل في بعثة علمية إلى فرنسا للاستزادة من علوم الطب، فبدأ دراسته في نوفمبر عام ١٨٣٢م (١٢٤٨هـ)، وكان مرتبه الشهري طوال مدة البعثة جنيهين، وبعد أن نال شهادته في العلوم الطبية عاد إلى مصر عام ١٨٣٨م (١٢٥٤هـ)، ومن ثم تكون بعثته العلمية قد استغرقت ستة أعوام، وعقب رجوعه عُيِّن مدرسًا بمدرسة الطب، وكان من المشهورين في التعليم، ولم يعرف سير حياته العملية والوظائف التي شغلها ولا تاريخ ومكان وفاته.

٧٠٨- سلامة حجازي - شارع - بقسم العطارين

اطلب ترجمته في «الشيخ سلامة حجازي».

٧٠٩- السلطان عبد العزيز - شارع - بقسم العطارين (الدكتور عبد الحميد بدوي حاليًا)

٧١٠- السلطان عبد العزيز - شارع - بقسم باب شرقي

هو أحد سلاطين آل عثمان، وهو الخليفة الثاني والثلاثين من الخلفاء العثمانيين الذين حكموا تركيا والبلاد العربية، ووالده هو السلطان محمود الثاني، وقد ولد عبد العزيز عام ١٢٤٥هـ (١٨٢٩م)، وتولى الخلافة عام ١٢٧٧هـ (١٨٦٠-١٨٦١م)، وخلع خلال عام ١٢٩٣هـ (١٨٧٦م)، ووافته المنية في ذلك العام نفسه، وأثناء خلافته التي استغرقت حوالي ستة عشر عامًا، في عهد الخديوي إسماعيل، وأطلق اسمه على أحد شوارع القاهرة.

وفي عهد هذا السلطان كان تدخل الدول الأوروبية في شؤون الدولة العثمانية قد تفاقم أمره فلم يصبح مقصورًا على المسائل السياسية، وإنما تطور إلى درجة التدخل المسلح كما حدث في الفتن التي وقعت في الشام عام ١٨٤٥ وعام ١٨٦٠م (١٢٦٠ - ١٢٧٧هـ)، والفتن التي نشبت في مدينة عبده بشبه الجزيرة العربية خلال عام ١٨٥٨م (١٢٧٥هـ)، وكما حدث في التسوية الدولية لمركز جزيرة إقريطش (كريت) عام ١٨٦٦م (١٢٨٣هـ)، ذلك أن سلطان الدول الأجنبية كان قد امتد واتسعت دائرته فشملت عدة مسائل تتصل بشؤون الحكم في داخل البلاد، ويسرت الامتيازات التي كانت في الأصل صادرة من طرف واحد (أي من الأجانب) إبرام معاهدات بين الطرفين، على أن مضمون هذه الامتيازات كان قد أصبح لا يتفق وفكرة الدولة الجديدة التي سعى العثمانيون إلى تحقيقها بالسير على التنظيمات الحديثة، وقد حاول الباب العالي عبثًا منذ عام ١٨٥٦م (١٢٧٣هـ) الخلاص من الاستعباد الدولي الذي اتخذ في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي صفة الوصاية على تركيا، ولم تضع تركيا حدًّا لهذه الامتيازات المجحفة، إلا عندما دب النزاع بين الدول الأوروبية عام ١٩١٤م (١٣٣٣هـ)، وهي السنة التي شبت فيها نيران الحرب العالمية الأولى.

ولابد من التنويه هنا بأن تركيا استطاعت عام ١٨٦٢م (١٢٧٩هـ) – أي بعد عام واحد من بداية خلافة السلطان عبد العزيز – استعادة سلطانها على منطقة الجبل الأسود والهرسك، واسترداد الصرب، واستقلت إمارتا الدانوب استقلالهما التام تقريبًا خلال عام ١٨٦٥م (١٢٨٢هـ)، وكانت هاتان الإمارتان قد اندمجتا في دولة واحدة عام ١٨٦١م (١٢٧٧هـ) أي في السنة نفسها التي تولى عبد العزيز فيها الحكم، وبعد اثنتي عشرة سنة، أي في سنة ١٨٧٤م (١٢٩١هـ) أدت الفتن التي شبت في بلغاريا إلى قيام الحرب مرة أخرى بين الترك والروس الذين كانوا قد خرقوا خلال عام ١٨٧٠م (١٢٨٧هـ) الاتفاقات المتعلقة بالملاحة في البحر الأسود، وما يتصل بهذا البحر من سواحل وأمور سياسية وهي الاتفاقات التي أبرمت عام ١٨٥٦م (١٢٧٣هـ)، ويعاب على عبد العزيز أنه منح الدول الأجنبية مزيدًا من الامتيازات.

وبعد خلع السلطان عبد العزيز بسنة واحدة – أي عام ١٨٧٨م (١٢٩٥هـ) – حصل صلح سان ستفانو الذي لطفت أحكامه بعض الشيء معاهدة برلين عام ١٨٧٩م (١٢٩٧هـ) بانسلاخ الصرب والجبل الأسود ورومانيا من الدولة العثمانية وجعل بلغاريا إمارة شبه مستقلة، وخسرت تركيا في ذلك الحين قارص وباطوم على تخوم القوقاز ووليت بريطانيا حكم جزيرة قبرص.

ولم يمت السلطان عبد العزيز ميتة طبيعية، وإنما مات منتحرًا بأن قطع وريد يده بالمقراض (المقص)، وفي رواية أخرى أنه قتل بتحريض من مراد الخامس ابن السلطان عبد المجيد الذي تولى الخلافة بعده مباشرة.

ولقد سجل مأساة موت السلطان عبد العزيز شاعر النيل حافظ إبراهيم في القصيدة التي نظمها في ثورة الأتراك التي انتهت بخلع السلطان عبد الحميد، وقال فيها: إن موته كان انتحارًا، وفي أبيات هذه القصيدة عبر السلطان عبد الحميد بأنه بكى يوم خلعه على خلاف عبد العزيز الذي فضل الانتحار على الذل، فقال حافظ:

ما عَهِدْنا الملوكَ تبكي ولكنْ
عَلَّها نزوةُ الفؤادِ الجليدِ

عَلَّها دمعةُ الوداع لذلكَ الـ
ـمُلكِ أو ذِكْرةٌ لتلك العُهُودِ

غَسَلَ الدمعُ عنكَ حَوْبَةَ ماضِيـ
ـكَ ووقَّاكَ شرَّ يوم الوَعيدِ

شَفَعَ الدَّمعُ فيكَ عند البَرايا
وليس ذاكَ الشَّفيعُ بالمردودِ

دَمعُك اليوم مِثْلُ أمرِكَ بالأمـ
ـسِ مُطاعٌ في سيدٍ ومَسُودِ

كانَ (عَبْدَ العزيزِ) أجْمَلَ أمرًا
مِنكَ في يوم خَلْعِهِ المشهودِ

خافَ مأثورَ قوله فتعالى
عن صغارٍ وماتَ مَوْتَ الأُسُودِ

ضَمَّ مقراضَهُ إليهِ ونادَى

دونَ ذُلِّ الحياةِ قطعُ الوريدِ

أما ترجمة صاحب اسم الشارع الجديد فاطلبها في (الدكتور عبد الحميد البدوي).

٧١١- السِّلَفي - شارع - بقسم مينا البصل

اسمه الكامل «الحافظ صدر الدين أبو طاهر أحمد بن محمد ابن أحمد بن محمد بن إبرهيم سِلَفَة الأصبهاني، وينسب إلى جده الأخير إبراهيم سِلَفة، وكلمة سِلَفة فارسية معناها (ثلاث شفاه) ذلك لأن إحدى شفتيه كانت مشقوقة فصارت الشفة المشقوقة غير الشفة الأخرى، وفي اللغة المصرية الدارجة يطلق على صاحب الشفة المشقوقة «الأشرم»، والمرجح أنه ولد عام ٤٧٥هـ (١٠٨٢م) في مدينة أصبهان (أو أصفهان) بإيران، وكانت عاصمة الصفويين، وقد قتل تيمور لنك من أهلها عددًا هائلاً وكون من جماجمهم - التي يقال إن عددها بلغ سبعمائة ألف - هرمًا ليكون عنوانًا على إرهابه البشع (انظر مادة تيمور لنك).

وتلقى السِّلَفي علومه الأولى في مسقط رأسه أصفهان، واتجه في دراسته إلى علم الحديث فسمع على كبار العلماء في ذلك الحين، وقد بدأ في الأخذ عنهم، وهو في الثالثة عشرة من عمره، أي في حوالي عام ٤٨٨هـ (١٠٩٥م)، وبعد أربع سنوات من دراسة الحديث استطاع أن يحدث، واتخذ له مجلسًا في مساجد أصفهان، ويؤيد ذلك ما قاله هو عن نفسه فقد حكي أنه حدث سنة ٤٩٢هـ (١٠٩٨ - ١٠٩٩م).

وكان من التقاليد المرعية في عصره وجوب رحيل من يطمحون إلى بلوغ مرتبة العلماء إلى عواصم الدول الإسلامية الكبرى وإلى مراكز العلم الشهيرة بها، ليتلقوا العلم على أيدي علمائها الكبار، وليستكملوا دراساتهم ويبلغوا مبلغ العلماء بعد أن يحصلوا على إجازاتهم ممن أخذوا عنهم وتتلمذوا على أيديهم، وللوصول إلى هذه الغاية لم يتردد «الحافظ السِّلَفي» في العزم على الرحيل، وهو مايزال في تلك السن المبكرة، فشد الرحال إلى بغداد بعد أن ألف معجمًا لشيوخه بأصفهان ومنهم: سعيد بن محمد الجوهري، والفضل بن علي الحنفي، ومكي بن منصور الكوخي، والقاسم بن الفضل السمسار، وكان تأليف هذا المعجم تقليدًا متبعًا من علماء الحديث في تلك العصور.

ووفد على بغداد عام ٤٩٣هـ (١٠٩٩ - ١١٠٠م)، وكان في نحو الثامنة عشرة من العمر، وكان وقت وصوله إليها في شوال من ذلك العام يشكو من ألم بعض الدماميل التي انتشرت في جسده، ولكنه لم يعبأ بالمرض وقصد من توه العالم الكبير نصر بن البطر ليستمع إليه، وبسبب المرض جلس السلفي يقرأ الحديث على يد شيخه وهو متكئ، مخالفًا بذلك الآداب الخاصة بالطلاب عندما يجلسون لدروس الحديث، وهي تقضي بالتزام الطهارة، والتأدب التام، والوقار الكامل، فلم يكد الشيخ نصر يلحظ جلسة السلفي المتكئة، وهو يقرأ عليه ما حفظ من الأحاديث حتى بادر إلى لومه في عنف وسبه في غير هوادة إلى أن بكى، ولم يعف الشيخ عنه إلا بعد أن اعتذر له ووصف له مرضه وذكر له الدماميل التي تمنعه من الجلسة العادية وتضطره إلى هذه الجلسة المتكئة، وقد واصل الأخذ عن شيخه «نصر بن البطر» فقرأ عليه نحوًا من خمسة وعشرين جزءًا.

ولم يقتصر السِّلَفي على حضور دروس ابن البطر فتردد على عدد كبير من علماء بغداد لدراسة العلوم الأخرى التي لا يستطيع دارس الحديث الاستغناء عن التعمق في معرفتها، فدرس الفقه الشافعي، إذ كان شافعي المذهب، وذلك على يد كبير فقهاء بغداد «ألكيا أبي الحسن علي الهرَّاس»، ودرس علم اللغة على يد الخطيب أبي زكريا التبريزي اللغوي، وسمع الحديث ورواه عن أبي بكر الطريثي، وثابت بن بندار، وأبي عبد الله بن اليسرى وغيرهم من الأئمة المبرزين.

وبعد أربع سنوات من الدراسة الجادة في بغداد سافر إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج ثم عرَّج على الكوفي حيث سمع من أبي البقاء محمد الحبال، وكان قد سمع في مكة من الحسين ابن علي الطبري، وفي المدينة من أبي الفرج القزويني ثم عاد بعد هذه الرحلة الدينية العلمية المرفقة إلى بغداد ليواصل دراسته ولاسيما في الفقه واللغة، وفي عام ٥٠٠هـ (١١٠٦م) قام برحلة قصيرة إلى البصرة فاستمع فيها من بعض علمائها، وخاصة من محمد بن جعفر العسكري.

ومما تقدم يتضح أن السِّلَفي لم يترك عالِمًا من العلماء المشهورين في العراق وفي الحجاز إلا واستمع منه وأخذ عنه، وقد ألَّف معجمًا آخر لشيوخه في هذه المرحلة الثانية من حياته العلمية.

ومن بغداد اتجه ثانية إلى المشرق، ولم يترك مدينة من مدنه الكبرى إلا زارها، وأخذ عمن بها من كبار العلماء، فزار همذان، واتصل بعدد كبير من علمائها مثل: عبد الله الملامتي والشيخ أبي الفتوح الغزالي وهو شقيق أبي حامد الغزالي (انظر مادة الغزالي)، وقد أقام السِّلَفي مع الشيخ أبي الفتوح الغزالي طوال إقامته في همذان برباط من من رباطات الصوفية، وكان مثابرًا على حضور مجالس وعظه، ثم زار السِّلفي بعد ذلك مدن: الريّ وقزوين ونهاوند، وطاف ببلاد أذربيجان ثم انحدر منها إلى الجزيرة فزار مدن: آمد وخلاط ونصيبين والرحبة، واستغرقت رحلته إلى مدن فارس والمشرق والجزيرة تسع سنوات.

وفي عام ٥٠٩هـ (١١١٥م) أخذ طريقه إلى بلاد الشام، وحط رحاله بدمشق، وكان قد حَصَّل علمًا غزيرًا، واسع الأفق، ومن ثم استطاع أن يمارس تدريس الحديث بالعاصمة السورية، ولم يعقه التدريس عن مواصلة تحصيل العلم فسمع من كبار محدثي دمشق، ولاسيما من أبي الحسن الموازيني وأبي طاهر الجنائي.

ولم تكن بلاد الشام في ذلك الحين المكان الصالح لإقامته المستقرة، وقد بلغ السادسة والثلاثين من عمره واكتملت مراحل تعليمه ونضوجه العلمي وتزود من العلم ما شاء له أن يتزود، و اكتسب من التجارب الشيء الكثير.

وتدل مراجع سيرته على أنه لم يكن موسرًا عندما وفد على الإسكندرية، وظل كذلك فترة من الزمن إلى أن قيض الله له سيدة ثرية من سيدات الإسكندرية، فتزوجها على غرار ما فعل ابن أبي رندقة الطُّرطوشي (انظر مادة سيدي الطُّرطوشي) فتحسنت حالته المالية وصار من أهل الوجاهة في المدينة.

وذكر السِّلَفي نفسه أن هذه الزوجة كانت تدعى: «ست الأهل» وأنها كانت من بيت علم، إذ كان أبوها رجلاً فاضلاً هو الشيخ عبد الله محمد بن أبي موسى الخولاني، وأنها كانت صالحة دينة تقية، ثم يقول في كتابه «معجم السفر»

الذي سرد فيه تاريخ شيوخه وتاريخ من التقى بهم من العلماء بالإسكندرية: إن والدة زوجته تسمى عائشة، واشتهرت باسم «تُرْفَة» أي النعمة ورغد العيش، وإنها كانت دينة ومن بيت علم وكانت غزيرة المعرفة، وقد قرأ عليها.

ومن هذا القول يتضح أن السِّلَفي ناسب بيتًا يقوم على التقوى والصلاح والعلم، فوالد زوجته رجل فاضل ووالدتها «ترفة» دينة كثيرة المعرفة، وعالمة محدثة أخذ عنها السِّلَفي، وقرأ عليها قبل وفاته، وهكذا كانت زوجته أيضًا، وهذا أقصى ما كان ليصبو إليه لينعم بالحياة المستقرة المخضرة الجوانب.

ومارس السِّلَفي مهنة التدريس منذ أن حل بالإسكندرية، وكانت حلقات دروسه في المساجد، فأقبل عليه الطلاب وقصده طلاب الحديث بوجه خاص من مصر ومن خارج مصر، وفي حوالي عام ٥٤٠هـ (١١٤٥م) وَلِيَ حكم الإسكندرية أبو الحسن علي بن السلار السني الشافعي المذهب فقرب إليه السِّلَفي، وبالغ في إكرامه، ثم أنشأ له في سنة ٥٤٤هـ (١١٤٩م) مدرسة خاصة سميت بالمدرسة «السِّلَفيَّة»، فكانت ثالثة مدارس الإسكندرية، بل وفي القطر المصري كله، إذ كانت المدرسة الأولى هي التي أنشأها «ابن أبي رندقة الطُّرطوشي»، والثانية المدرسة التي أقامها الوزير رضوان بن وزير «الحافظ لدين الله الفاطمي» لأبي الطاهر ابن عوف ن إسماعيل بن مكي (انظر مادة ابن مكي)، وقد صار « أبو الحسن علي بن السلار» وزيرًا للخليفة الفاطمي «الظافر» (انظر مادتي الحافظ والظافر) في البحث الخاص بالفواطم.

وكان ابن السلار متأثرًا بنور الدين محمود بن زنكي (انظر مادة ابن زنكي)، فقد كان سنيًّا شافعيًّا مثله وكان متصلاً به سياسيًّا، وكان الغرض المهم من إنشاء المدارس – التي بدأها السلاجقة وتبعهم فيها الأتابكة ثم الأيوبيون – محاربة المذهب الشيعي، والدعوة للمذهب السُّنِّي، وقد كانت المدرسة السلفية الوحيدة الشافعية في الإسكندرية وظلت كعبة لطلاب العلم عدة قرون.

والحافظ السِّلَفي عَلَمٌ من أعلام الفكر الإسلامي، فقد اكتسب هذا العالم الجليل مجدًا علميًّا دوَّى ذكره في الآفاق، ونالت الإسكندرية قسطًا وافرًا من هذا المجد، فكان العلماء من المشرق والمغرب يقصدونه ليأخذوا عنه، ويستمعوا إليه، ويتتلمذوا عليه، فصارت الإسكندرية طوال مدة إقامته بها كعبة الطلاب ولاسيما طلاب علم الحديث، ولطول مدة إقامته بالإسكندرية اعتبر عند مؤرخيه مصريًّا سكندريًّا فقد قضى في كنفها معظم سنوات حياته، وفي أحضانها نضج فكره، وذاع صيته، وألف معظم كتبه.

وفي هذه الحقبة من الزمن صارت الإسكندرية قبلة العلماء، وموئل الفقهاء المغاربة والمشارقة، فقد وفد عليها قبل السِّلَفي العالم الزاهد الطُّرطوشي من أقصى المغرب – من الأندلس – ووفد عليها في الوقت نفسه الحافظ السِّلَفي من أقصى المشرق من أصفهان ببلاد فارس، وأدرك السِّلَفي أبا بكر الطُّرطوشي، وعاصره بالإسكندرية تسعة أعوام، فقد كانت وفادة السِّلَفي على الإسكندرية عام ٥١١هـ (١١١٧م)، وكانت وفاة الطُّرطوشي عام ٥٢٠هـ (١١٢٦م)، وبعد وفاة الطُّرطوشي عاصر السِّلَفي عددًا من تلاميذه وبخاصة ابن عوف إسماعيل بن مكي، وسند بن عنان (انظر مادة القاضي سند)،

فكانوا جميعًا قادة الفكر والحركة العلمية بالمدينة طوال القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)، وما من شك في أن السِّلَفي تلقى بعض الدروس على يد الطُّرطوشي مما مكنه من أن يستزيد علمًا ومعرفة.

ويلقب أبو الطاهر السِّلَفي «بالحافظ» وهو لقب لا يطلق إلا على العلماء المبرَّزين في الحديث، وكان هذا العلم من العلوم التي تحتل المكانة المرموقة في ذلك العصر، ويعنى بها المسلمون عناية خاصة، وهي العلوم الدينية بكافة فروعها من تفسير للقرآن الكريم، وفقه، وقراءات، وتصوف، وغيرها.

وترجع أسباب العناية الفائقة بالعلوم الدينية – ولاسيما الحديث – إلى التهديد الذي كان يهدف إلى هدم الكيان الإسلامي، والذي كان يبرز بصفة خاصة في الحروب الصليبية التي تدفقت جيوشها على الشرق الأوسط، وأخذت تقتطع من الدول الإسلامية خير أراضيها، وتحاول القضاء على استقلالها، ثم استعباد سكانها، وكان الوقوف في وجه هذه الحركة الاستعمارية المتسترة وراء الدين يقضي بتعبئة الروح المعنوية بالرجوع إلى العصر الإسلامي الأول وإظهار أمجاده، وإبراز هذه الأمجاد في سيرة رسول الله عليه الصلاة والسلام وسير الصالحين من الصحابة والتابعين والرجوع إلى دعائم الدين الإسلامي الأولى، وهي القرآن والسنة والحديث.

ومن جهة أخرى كانت الدولة الفاطمية تعمل جاهدة على نشر مذهبها الشيعي في المغرب وفي مصر، وكانت القاهرة المركز الرئيسي لهذه الدعوة المضادة للمذهب السني الذي كانت الإسكندرية ركيزته القوية بفضل العلماء المغاربة والشرقيين الذين وفدوا عليها، واتخذوا منها موطنًا ثانيًا لهم، وكانوا كلهم سنيين على المذهب المالكي في الغالب.

وكان الضعف والوهن قد أصاب الدولة العباسية في الشرق خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين، وطغت عوامل التفكك على الدول الأندلسية الإسلامية، ومن ثم أخذ الأوروبيون في السطو على هاتين الدولتين يقطعون من كيانها طرفًا بعد طرف، ولذا اتجهت أنظار العلماء المسلمين إلى الإسكندرية بوجه خاص لأن القاهرة كانت على غير مذهبهم السني، وصارت الإسكندرية مركزًا قويًّا للنشاط العلمي الديني في أواخر القرن الخامس الهجري وطوال القرن السادس، وكان مجيء الحافظ السلفي واستقراره في كنفها عاملاً قويًّا من العوامل التي أدت إلى نمو هذا النشاط بكيفية مطردة فعقد للإسكندرية لواء الزعامة في علم الحديث بين مدن العالم الإسلامي في ذلك العصر.

وقد وصل الحافظ السِّلفي إلى الإسكندرية عام ٥١١هـ (١١١٧م)، واستقر بها إلى أن وافته المنية عام ٥٧٦هـ (١١٨٠م) أي أنه قطع من عمره فيها ٦٥ عامًا، توفَّر في أثنائها على البحث والدراسة والقراءة وطلب العلم والتدريس للطلاب من أهل الإسكندرية، ومصر، ومن الوافدين على المدينة في طلب العلم من بلدان العالم الإسلامي المختلفة، وكان يلقي دروسه في داره أول الأمر ثم في المدرسة التي شيدها له ابن السلار، ويقال: إنه كان ملازمًا لداره أو مدرسته لا يغادرهما لنزهة أو لفرجة إلا نادرًا، ولم يغادر الإسكندرية طوال هذه المدة الطويلة إلا مرة واحدة حين ذهب إلى القاهرة ليتصل بعلمائها، ويأخذ عنهم، وكان سفره إليها خلال عام ٥١٧هـ (١١٢٣م) أي بعد حلوله بالإسكندرية بستة أعوام، وفي شهر ذي الحجة من ذلك العام رجع إلى الإسكندرية بعد أن توثقت الصلات بينه وبين عدد كبير من علماء الفسطاط

(انظر هذه المادة) ومدرسيها ورجال الفكر فيها وأدبائها المبرزين يأخذ عنهم، وأخذوا عنه، وتردد مرارًا على جامع عمرو بن العاص، وعقد فيه حلقات لدروسه في الحديث.

وكان لإنشاء المدرسة السلفية فرحة غامرة في قلوب أهل الإسكندرية أوحت إلى الشعراء بمدحها في كثير من قصائدهم، من هؤلاء الشعراء ابن توهيب الذي قال فيها:

لله دَرُّ العادلِ المرتجى
ذي العزِّ والتأييد والنصرِ

أنشأها لنا مدرسةً، مثلها
لم يُنْشَ في دهرٍ ولا عصرِ

بغدادُ دارُ العلمِ لم تفخرْ
بمثلها قطُ على مصرِ

وكان عدد من العلماء يعاونون السِّلفي في التدريس بصفة معيدين، وقد اشتهر من بينهم «أبو المعالي ابن رافع» وقد وصفه السلفي بأنه كان من أهل العلم والتقى، وقد لازمه منذ إنشاء المدرسة السلفية عام ٥٤٤هـ (١١٤٩م) إلى أن توفي عام ٥٥١هـ (١١٥٦م)، وكان يعاونه في أمور أخرى، فكان يعيد الدروس على أربعين من الصبيان ويؤم الناس في المدرسة في الصلوات الخمس، وقد بدأ ابن رافع (انظر هذه المادة) حياته خياطًا، ثم اشتغل بالعلم وتفرغ له.

وكان للمدرسة مؤذن، ويذكر السِّلفي واحدًا منهم كان شديد الصمم، وقد بدأ حياته مؤذنًا في مدرسة الطرطوشي التي أنشأها في بيته، واسم هذا المؤذن «أبو القاسم نجا ابن الحسن الرملي» وكان جهوري الصوت.

وكان التدريس في المدرسة السِّلفية يسير على المنهاج الديني وجميع الدروس التي تلقى فيها كانت تتناول تفسير القرآن والحديث والفقه، وحول العلوم التي تتصل بها كالتاريخ ولاسيما سيرة ابن هشام، وكان السِّلفي يتبع في تدريسه إحدى الطريقتين، فإما أن يقرأ نصًّا أو كتابًا من الكتب المعتمدة ويقوم بشرحه، وإما أن يملِي على الطلاب محاضرات من إنشائه في علم الحديث، وعندما يجلس السِّلفي للتدريس كان يلتزم الأدب والوقار، ويلزم الحاضرين من طلابه بهذه الآداب مهما بلغ مقامهم من الكبر أو العظمة.

وكان هؤلاء الطلاب من نوعين: أحدهما نظامي ويضم الصبيان في مراحل تعليمهم الأولى، والثاني حر يشمل الرجال والشبان من هواة العلم غير المتفرغين، وكانوا نخبة ممتازة من العلماء والأدباء والشعراء ورجال الفكر من سكان الإسكندرية ومن الوافدين عليها من الشرق والغرب، وكان بين هؤلاء السكان عدد من الحكام والقضاة والجنود والزهاد وأصحاب المهن المختلفة والتجار بصفة خاصة، كانت الإسكندرية في ذلك الوقت أكبر ميناء تجاري مصري في حوض البحر الأبيض المتوسط، فكان يؤمها التجار من الهند والصين وفارس والعراق واليمن وبلاد العرب وجزر البحر الأبيض وبلاد المغرب والأندلس، وكان عدد كبير من هؤلاء التجار علماء أو مشتغلين بالعلم يزورون الحافظ السلفي ويترددون على مدرسته مدة إقامتهم بالمدينة ليتزودوا من علمه الديني الغزير، وكان بعضهم وسيلة لنشر هذا العلم في بلادهم.

ولم تكن لتلاميذه الكبار مواعيد محددة فكانوا يترددون على مدرسته في أي وقت من النهار، أما محاضراته في الحديث، فكانت تلقى يوم الجمعة من كل أسبوع.

وصنف السِّلفي كتبًا كثيرة منها في الحديث: كتاب «السداسيات في الحديث»، و«أجزاء السِّلَفيات»، وهي مجموعة الأحاديث التي رواها عن غيره من الحفاظ، و«الأربعين البلدانية» وهي مجموعة تضم أربعين حديثًا، وقد ألف هذا الكتاب اتباعًا للتقليد الذي كان متبعًا في عصره، وهو أن يؤلف عالم الحديث كتابًا يضم أربعين حديثًا، وذلك رجوعًا إلى ما روي عن النبي الكريم أنه قال: «من حفظ على أمتي أربعين حديثًا في أمر دينها بعثه الله تعالى يوم القيامة في زمرة الفقهاء والعلماء»، وهذا الحديث يقول الكثيرون بأنه موضوع.

وكان وضع الأربعين حديثًا يختلف عند العلماء؛ فمنهم من جعلها تتناول التوحيد، ومنهم من ضمنها الأحكام أو المواعظ، غير أن السِّلفي جدد في اختيار الأربعين حديثًا فجعلها منتقاة من الأحاديث التي رواها عن أربعين شيخًا التقى بهم في أربعين مدينة، وقد اقتدى بالسِّلفي في هذا الاختيار معاصره «ابن عساكر» الدمشقي (انظر ماده ابن عساكر).

وقد وضع السِّلفي ثلاثة معاجم ترجم فيها سير الشيوخ الذين تتلمذ عليهم، وأخذ عنهم، فتناول في الأول شيوخه في أصفهان، وفي الثاني شيوخه في بغداد، وترجم في الثالث وهو «معجم السفر» سير علماء الإسكندرية، والعلماء الذين التقى بهم وأخذ عنهم في أثناء رحلاته الكثيرة.

وكان هذا العالم الجليل دائب الاطلاع دائب البحث مغرمًا بجمع الكتب، وكتب بخطه أجزاء لا حصر لها، وكان لا يأنف من أن يأخذ عن بعض تلاميذه، وأن يقرأ عليهم ما ألَّفوا من كتب ويرجوهم إهداءه نسخًا منها لضمها إلى مكتبته الضخمة.

واتصل السِّلفي اتصالاً وثيقًا بعدد غير قليل من علماء عصره منهم: عبد الرحمن بن عتيق (انظر مادة ابن عتيق)، الصقلي المعروف بابن الفحَّام، وكان من كبار علماء القراءات، وله كتاب سمَّاه «التجديد في بغية المريد»، يقول السلفي إنه كتب من هذا المؤلف أسانيد كل قراءة، ومنهم أبو الحسن علي بن عبد الجبار الهذلي الذي كان أحد أئمة اللغة الحافظين لقواعدها، ومنهم ظافر الحداد (انظر هذه المادة) وكان كبير شعراء الإسكندرية في ذلك الحين، وقد كاتبه السِّلفي، فرد عليه بقصائد بخطه، ومنهم ابن الصيرفي (انظر مادة الصيرفي) الذي يقول السلفي عنه إنه أديب مصر، وكبير كتّابها في الإنشاء، ومن أجلاء أعيان أهل الأدب، وكتاب «معجم السفر» الذي ألفه السِّلفي يضم تراجم عدد كبير من شعراء الإسكندرية في القرن إبان ذلك القرن، ومعظم هؤلاء الشعراء مدحوا السِّلفي بقصائدهم مشيدين بعلمه وفضله، ولم يكن هذا النشاط الثقافي السكندري مقصورًا على الرجال بل أسهمت فيه المرأة بنصيب مرموق دوَّن السِّلفي عناصره في معجمه الآنف الذكر، فترجم لعدد من السيدات المشتغلات بالعلم أو الأدب أو الشعر ممن أخذوه عنهن أو أخذن عنه، وفي مقدمتهن حماته «تُرفة» واسمها الحقيقي عائشة بنت أحمد ابن إبراهيم الرازي، وكانت محدثة متبحرة في علم الحديث أخذ السِّلفي عنها، وقال إنها محدثة، وبنت محدث، وأخت

محدث، وإنها صالحة، وإنه قرأ عليها عام ٥٣٤هـ (١١٣٩م) وهي أم زوجته «ست الأهل».

وذكر السِّلفي أن أخت «تُرفة» كانت محدثة مثلها واسمها خديجة، وكانت تدعى «مليحة»، وقد روى عنها السلفي هي الأخرى، وقال في ترجمتها إن من شيوخها ابن عبد الوليّ، وهذا إلى جانب أبيها أحمد بن إبراهيم الرازي، وقد أجازها شيخها أبو الوليد أبو محمد، ويقول السلفي إنه قرأ عليها عن هؤلاء كلهم، وتوفيت عام ٥٢٦هـ (١١٣١م)، وهي بكر لم تتزوج، وكانت تصلي طول الليل، ولا تنام إلا عن غلبة.

وذكر من شاعرات الإسكندرية المجيدات «تقية بنت غيث بن علي الأرمنازي الصوري» وتدعى «ست النعم»، ولها شعر جيد، ومعانٍ حسنة، وقد مدحته بقصائد كثيرة (انظر مادة ست النعم).

وكان السِّلفي على صلة متينة برجال الحكم، إذ كانوا يحترمونه ويجلّونه، وكان معظمهم على المذهب الشيعي، ولذلك كان يتحاشى الخوض معهم في مذهبهم، أو يتخلص من أسئلتهم الفقهية في هذه الناحية بلباقة وحذر، وقد عاصر خلفاء الدولة الفاطمية؛ الحافظ والظافر والفائز والعاضد (انظر مادة الفواطم)، وشهد انهيار هذه الدولة، وقيام دولة صلاح الدين الأيوبي (انظر مادة صلاح الدين) الذي قضى بالإسكندرية شهر رمضان عام ٥٧٢هـ (١١٧٦م) وفي صحبته ولداه الأفضل علي، والعزيز عثمان، وكبار رجال الدولة، وسمعوا فيه الحديث على السِّلفي كما سمع منه الحديث الملك العادل أبو بكر أخو صلاح الدين.

وكان هذا العالم الورع يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر ويحارب البدع والضلال، وقد تاب عن المعاصي – بفضل وعظه وإرشاده – كثير من أهل الإسكندرية.

وفي يوم الجمعة الخامس من شهر ربيع الثاني عام ٥٧٦هـ (١١٨٠م) وافته المنية، وقد جاوز المائة من عمره، وقد ظل حتى آخر لحظة من حياته حافظًا لقواه العقلية على الرغم من ضعف الكبر، وجفاف العظام، وقد قال يصف حالته في أيامه الأخيرة:

أنا إنْ بانَ شبابي ومَضَى
فَلِرَبِّيَ الحمدُ ذِهْنِيَ حاضِرُ

وَلَئِنْ خَفَّتْ وجَفَّتْ أَعْظُمِي
كِبَرًا، غُصْنُ عُلومِيَ ناضِرُ

وظل هذا العالم الجليل يدرّس حتى آخر أيام حياته، ودفن في مقبرة «وَعْلَة» قريبًا من الدار التي كان يسكنها، وقال ابن خلّكان إن مقبرة وَعْلَة داخل السور عند الباب الأخضر فيها جماعة من الصالحين كالطُّرطوشي وغيره، ولم يبق لمدرسته أثر، ولا أشك في أنه مدفون داخل مسجد القاضي سند بن عنان أمام القبلة، وقد وصف بالتقى والورع والشجاعة وقد حدَّث نيفًا وثمانين سنة.

٧١٢– سليم البشري (الشيخ) – شارع – بقسم الجمرك

اطلب ترجمته في «الشيخ سليم البشري»، وفي «البشري»، و«الشيخ البشري».

٧١٣ – سليم قبطان – شارع – بقسم العطارين

كان من بين ضباط البحرية الذين أرسلهم محمد علي لاكتشاف سبل الملاحة في أعالي نهر النيل، وقد ترأس سليم قبطان – وكان برتبة بكباشي بحري (أي مقدم في ذلك الحين)– الإرسالية الأولى وعند عودته كتب تقريرًا ذكر فيه تفاصيل السياحة بالنيل الأعلى، وهذه الرحلة النيلية عادت على علم الجغرافيا – المتعلقة بالنيل العظيم – بالفائدة الكبيرة، ثم ترأس رحلة ثانية بدأت في ٢٣ من نوفمبر عام ١٨٤٠م (١٢٥٦هـ) وكان يرافقه فيها المسيو «درنوبك»، و«ساباتي» الفرنسي، و«فرنه» الألماني، فسارت الإرسالية في النيل الأبيض من الخرطوم، وقطعت مسافة قدرها خمسمائة فرسخ، ولم تجد من الأنهار الهامة التي تصب في النيل إلا اثنين يجتمعان في شماله ويمتزجان به، أحدهما نهر سوباط، ويقال له نهر «جوجب» ويخرج من الجهة الشرقية لبلاد «سافا»، ويرسم حول بلاد «كفا» الغطافات شبيهة بالغطافات النهر الأزرق، وثانيهما بحر الغزال الذي يصب في بحيرة «نو» التي تدعى «كوبر» أيضًا.

ولما وصلت هذه البعثة العلمية الاستكشافية إلى جزيرة «جانكير» وجدت بالقرب منها كثبانًا من الرمال، والصخور بالنيل تمنع سير السفن منعًا باتًّا، فلم يسعها إلا العودة، وقدم أعضاؤها تقريرًا، وخريطة تبين اكتشافهم المفيد، واستكمل المسيو «درنوبك» معلومات الرحلة بعد ذلك، وقام برسم خريطة تفصيلية إلى محمد علي توضح مجرى النيل من المكان الذي وصلت إليه البعثة حتى مدينة الخرطوم، ومن الخرطوم إلى أبي حمد.

٧١٤ – السمَّان – حارة – بقسم سيدي جابر

أعلم فيما أعلم من أخبار الإسكندرية في أوائل القرن العشرين أن من بين أسرها المعروفة أسرة تدعى أسرة «السمان» مما يدل على أن عميدها أو أحد أجدادها الأولين كان يمارس تجارة السمن وهي تجارة كانت رابحة في ذلك الحين ويزاولها كثيرون من تجار المدينة.

غير أن مؤرخي السير يذكرون محدثًا من أهل العراق:

١) **أبو بكر أزهر بن سعد السمَّان:** ويقول ابن خلّكان في كتابه «وفيات الأعيان» إنه روى الحديث عن حميد الطويل وروى عنه أهل العراق، وكان يصحب أبا جعفر المنصور (الخليفة العباسي) قبل أن يلي الخلافة فلما وليها كان السمَّان يأتي إليه كل عام ليحييه أو ليسأل عن صحته، أو يسأله في دعاء كان أبو جعفر يردده، وكان يمنح كل مرة ألف دينار، ولكن أبا جعفر فطن لحيله فمنعه من حضور مجلسه السنوي حتى لا يتمادى في طلب المنح السخية.

وقد ولد أبو بكر السمَّان عام ١٢١هـ (٧٣٨م)، ووافته المنية خلال عام ٢٠٧هـ (٨٢٢م)، بالغًا من العمر حوالي ٨٤ عامًا، وكانت وفاته بمدينة بغداد ولعله ولد بها أيضًا.

٧١٥– السمرقندي – شارع – بقسم الرمل

يحمل لقب السمرقندي من ذكر التاريخ تراجم حياتهم وهم:

١) **نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم أبو الليث السمرقندي (الملقب بإمام الهدى):** كان متكلمًا وفقيهًا حنفيًّا من أعيان

القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، وتتراوح الروايات التي تحدد تاريخ وفاته بين عامي ٣٧٣ و٣٩٣هـ (٩٨٣ – ١٠٠٢م)، ويجب ألاّ نخلط بين أبي الليث السمرقندي، وبين معاصره (أبو الليث السمرقندي أيضًا) الذي يكبره قليلاً في السن، وهو الحافظ أبو الليث السمرقندي نصر، الذي ترجم له عبد القادر المتوفى عام ٧٧٥هـ (١٣٧٣م)، ونسب إليه بعض المصنفات التي تندرج عادة في مؤلفات إمام الهدى السمرقندي صاحب الترجمة التي نحن بصددها، والذي كان موفقًا كل التوفيق في عدة ميادين من العلوم الإسلامية، وقد صارت كتبه ذائعة الصيت من مراكش إلى إندونيسيا، ومن أشهر مؤلفاته: «تفسير»، وقد طبع بالقاهرة عام ١٣١٠هـ (١٨٩٢م)، وترجم إلى التركية، و«خزانة الفقه»، وهو الفقه الحنفي، و«المقدمة في الصلاة»، وهو في فروض الصلاة مع كثير من الشرح، و«تنبيه الغافلين»، و«بستان العارفين»، وهما في الأخلاق والتقوى، وغيرها من المؤلفات الدينية القيمة، ولا يعرف تاريخ ميلاده على وجه التحديد.

ومدينة سمرقند الذي ينسب إليها أبو الليث وغيره من العلماء والفقهاء المشهورين مدينة من مدن الاتحاد السوفييتي تشتمل على آثار إسلامية لا تقل جلالاً وروعة عن آثار مصر والهند وإيران واليونان، وتحتفل هذه الأيام (عام١٩٧٠م) بمرور ٢٥٠٠م سنة على تأسيسها، ويبلغ عدد سكانها في الوقت الراهن حوالي ٢٥٠٠٠ نسمة، وكانت تدعى في الأزمان العابرة «بروما الشرق»، وهي الآن مركز مهم للصناعات المعدنية والكيمائية وبها ستة معاهد عملية وسبع مؤسسات للتعليم العالي، خربها جنكز خان، واستولى عليها تيمور وجعلها عاصمة ملكه، وفيها قبره.

٢) جهم بن صفوان أبو محرز (الملقب بالسمرقندي): كان من علماء الكلام المسلمين، وانضم إلى الحارث بن سريج إبان الفتن التي نشبت في خراسان في أواخر حكم بني أُمية، ثم قتل على يد سالم بن أحوز عام ١٢٨هـ (٧٤٥م)، ولهذا العالم ميزة خاصة تميزه عن غيره من العلماء الكلام، وذلك أنه يتفق مع المرجئة في القول بأن الاعتقاد يكون بالقلب ويتفق مع المعتزلة في نفي الصفات إلى الله، ولكنه كان من أشد القائلين بالجبر يسلِّم بأن الله قادر فاعل خالق لأنه لا يوصف شيء من خلقه بالقدرة والفعل والخلق، ويقول بأن الجنة والنار تفنيان.

ويعرف أتباعه بالجهمية نسبة إليه وظلوا حول ترمذ إلى القرن الحادي عشر الميلادي ثم اعتنقوا مذهب الأشاعرة.

٣) علاء الدين السمرقندي: كان فقيهًا مشهورًا، وتثقفت على يديه ابنته فاطمة، فكانت الفتاوى تخرج من أبيها بخطها، وخط ولدها، وقد ألف كتابًا بعنوان «تحفة الفقهاء»، وتوفي عام ٥٤٠هـ (١١٤٥م)، وقد بلغ مرتبة عالية في التصوف بعد استقراره في مدينة لارنده ببلاد الروم، وله تفسير للقرآن الكريم لم يتمه، ويقال: إنه بلغ المائة عام عند وفاته.

٤) نجيب الدين السمرقندي: كان طبيبًا حاذقًا من معاصري فخر الدين الرازي (انظر مادة الفخر الرازي)، وقد قتل بمدينة هراة لما دخلها التتر عام ٦١٩هـ (١٢٢٢م)، وله كتاب «الأسباب والعلامات في الطب»، جمع فيه العلل المختلفة وأنواع علاجها.

٥) السمرقندي: لم أعثر على ألقابه، وكان فقيهًا حنفيًّا من المشهورين، وتوفي عام ٦٥٠هـ (١٢٥٢م) ولا يعرف تاريخ مولده، أو مكانه، ومكان وفاته.

٦) **شمس الدين السمرقندي**: فيلسوف وأديب، ألف كتابًا بعنوان: «رسالة في آداب البحث» المشهورة «بآداب السمرقندي» وذلك في نحو عام ٦٩٠هـ (١٢٩١م)، وهذه الرسالة من أشهر الكتب في هذا الفن وله كتاب آخر في المنطق بعنوان « قسطاس الميزان».

٧) **ابن الحاجبي السمرقندي**: فقيه حنفي ألف في عهد السلطان فيروز شاه – الذي حكم من عام ٧٥٢هـ إلى عام ٨٠٠هـ (١٣٥١ – ١٣٩٧م) – كتاب «الفتاوى الكافورية» وذلك للحاكم كافور، ومازال هذا الكتاب محفوظًا بمكتبة لندن.

٧١٦– السمعاني – شارع – بقسم العطارين

اسمه ولقبه بالكامل «أبو سعيد عبد الكريم بن أبي بكر بن أبي المظفر المنصور بن محمد بن عبد الجبار التميمي السمعاني» (الملقب بتاج الإسلام الحافظ)، وهو من أئمة فقهاء الشافعية، وذكره ابن الأثير (انظر هذه المادة) فقال: «كان أبو سعيد واسطة عقد البيت السمعاني وعينهم الباصرة، ويدهم الناصرة، وإليه انتهى عقد رياستهم، وبه كملت سيادتهم»، وقد رحل في طلب العلم والحديث إلى شرق الأرض وغربها وشمالها وجنوبها، وسافر إلى ما وراء النهر، وسائر بلاد خراسان عدة مرات، وإلى قومس والري وأصبهان وهمذان وبلاد الجبال والعراق والحجاز والموصل والجزيرة والشام وغيرها من البلاد، ولقي العلماء وأخذ عنهم وجالسهم وروى عنهم، واقتدى بفعالهم الجميلة، وآثارهم الحميدة، وكان عدد شيوخه يزيد على أربعة آلاف شيخ.

وقد ولد هذا الفقيه الجليل بمدينة مرو في ٢١ من شعبان عام ٥٠٦هـ (١١١٢م)، ومن مختصراته الحسنة العظيمة الفائدة «تذييل تاريخ بغداد» الذي ألّفه الحافظ أبو بكر الخطيب (انظر مادة الخطيب)، و«تاريخ مرو» وهو في عشرين مجلدًا، وكتاب «الأنساب» وهو ثمانية أجزاء وقد اختصره عز الدين في ثلاثة مجلدات وهي التي يتداولها الناس لأن النسخة الأصلية قليلة الوجود، وكان والده من العلماء وكان يعظ الناس في المدرسة النظامية ويقرؤون عليه الحديث، والفقه الشافعي.

وتوفي أبو سعيد السمعاني بمدينة مرو مسقط رأسه في أول ربيع الأول عام ٥٦٢هـ (١١٦٦م)، بالغًا من العمر حوالي ٥٥ سنة، وكان قد سافر هو وأبوه وأخوه إلى نيسابور حيث سمع الحديث من أبي بكر عبد الغفار بن محمد الشيرازي وغيره من المشايخ.

وقد صنف والده كتاب «الإملاء» الذي لم يسبق إلى مثله أحد، وتكلم على المتون والأسانيد، وأوضح مشكلاتها، وله عدة تصانيف، وكان له شعر نقحه قبل موته.

وكان جد أبي سعيد السمعاني المنصور بن محمد بن عبد الجبار إمام عصر بلاده، أقر له بذلك مريدوه وغيرهم، وكان حنفي المذهب، ولما حج انتقل إلى المذهب الشافعي، ولقي بسبب ذلك محنًا وتعصبًا شديدًا عند عودته إلى مرو، فصبر على ما أصابه ثم صار إمام الشافعية بعد ذلك يدرس ويفتي، وقد صنف في مذهب الإمام الشافعي وفي غيره من العلوم تصانيف كثيرة منها: مناهج أهل السنة والانتصار والرد على القدرية، وله تفسير للقرآن الكريم.

٧١٧- سمير صادق بن عبد الجليل - شارع - بقسم الرمل (أبسخرون بك سابقًا)

ملازم طيار استشهد باليمن في ٢٧ من يناير عام ١٩٦٣م (١٣٨٣هـ).

٧١٨- سمية أم عمار - شارع - بقسم الرمل

هي سُمَيَّة الشهيدة الصابرة التي لم يُثنها عن التمسك بإسلامها التعذيب والتنكيل في أقسى ضروب الوحشية، فقد كانت جارية حبشية من جواري حُذَيْفَة المخزومي أحد سادة قريش في الجاهلية.

وكان ياسر بن عامر من تجار اليمن، وكان له أخ ذهب في قافلة تجارية، ولم يعد إلى اليمن فحزن عليه ياسر غاية الحزن لأنه كان يحبه حبًّا شديدًا، ولكي يعثر عليه في بلاد العرب سافر إلى مكة واستقر عند حذيفة المخزومي الذي أخذه في حمايته، ولما طلب منه ياسر أن يزوجه سُمَيَّة قبل، وفي غمرة الفرح لم تشهد سُمَيَّة الناس على أن حذيفة أعتقها وأصبحت حرة هي وزوجها ياسر بن عامر، ومات حذيفة المخزومي بعد ذلك.

وأنجبت سُمَيَّة ولدها عمَّار بن ياسر، ثم كانت ثاني امرأة آمنت برسول الله، واعتنقت الدين الإسلامي بعد السيدة خديجة زوجة النبي الكريم.

واختلف سادة قريش في أمرها وأمر زوجها وولدها، فقال بعضهم إنهم أصبحوا أحرارًا، وليس لأحد عليهم سلطان، وقال البعض الآخر: إن حذيفة المخزومي لم يُشهد الناس على عتق جاريته سُمَيَّة وزوجها وابنها، ومن ثَمَّ فهم عبيد، وتشدد أبو جهل في ذلك وتولى تعذيب هذه الأسرة المسكينة بنفسه، فرماهم على الصخر الحار من أشعة الشمس، وأمر بضربهم بالسياط ثم وضع الأحجار الثقيلة على صدورهم، فكانوا كلما اشتد العذاب صرخوا: «أحَدٌ. . . أَحَد. . . الله أكبر»، واستشهد ياسر بن عامر وهو يعذَّب إذ لم يقبل أبو جهل عَرْض أبي بكر الصديق في شراء المعذبين الثلاثة على غرار ما فعل بالنسبة إلى بلال مؤذن الرسول وغيره، واستمرت سُمَيَّة تتحمل التعذيب عدة أيام ولم يثنها عن إسلامها تهديد أبي جهل بقتل ابنها عمار الشاب، فكانت تردد الشهادتين، وتقول لأبي جهل كلما استفزها وشدد في عذابها: «خسئت يا مشركًا بالله يا عبد الأصنام»، ثم تسبُّه وتسبُّ آلهته، فلما أعياه صبرها وجلدها الخارق للعادة طعنها بحربته، فكانت أول شهيدة في الإسلام.

ونجا ابنها عمار بن ياسر من الموت بعد أن مدح آلهة قريش تحت ضغط التعذيب، وبادر إلى النبي يستسمحه فقال له إذا أُجْبِرْتَ مرةً أخرى فكرر ما قلت، ثم صار عمار بن ياسر من كبار الصحابة ومن أقوى مناصري النبوة، وله سيرة عاطرة لما أدّاه من شجاعة في المعارك وأعمال مجيدة في نشر الدعوة المحمدية، وكان النبي الكريم يمسح على رأسه ويناديه بقوله: «يا ابن سُمَيَّة الشهيدة».

٧١٩- سنان باشا - شارع - بقسم المنشية

يحمل اسم سنان من مشاهير الدولة العثمانية أربعة أدون فيما يلي تراجمهم مرتبة وفاقًا لتواريخ وفاة كل منهم:

١) خوجه سنان باشا: وقد تولى الوزارة في عهد محمد الثاني الفاتح، وكان مولده بمدينة بروسة في حوالي عام ٨٤٢هـ (١٤٣٨م)، وهو ابن مُلاّ سنان الدين يوسف باشا ابن جلال الدين قاضي سوري حصار، وقد ردَّ نسبه إلى خوجه نصر الدين . . . وتوفي أبو سنان باشا سنة ٨٦٣هـ (١٤٥٨ - ١٤٥٩م)، وكان أول من ولي القضاء في إسطنبول.

وقد تلقى خوجه سنان باشا العلم على والده في حداثة سنه، ثم التحق بحاشية السلطان محمد الثاني وأصبح أستاذه ومستشاره، ويقال إن سنان باشا خلف محمود باشا الصدر الأعظم الذائع الصيت بعد عزله للمرة الثانية، إلا أنه فقد الحظوة عند السلطان حوالي عام ٨٨١هـ (١٤٧٦ - ١٤٧٧م) وعين فيما بعد مدرسًا في سوري حصار، ثم أدرنه، بعد أن شفي بدواء عجيب حمله السلطان على تناوله، ونال خوجه سنان باشا رضاء السلطان بايزيد فمنحه معاشًا كبير القيمة، وفي عام ٨٨٧هـ (١٤٨٢م) تقاعد عن العمل ولكنه عاد إلى العمل بعد سنة وتولى منصب متصرف غاليبولي، حيث توفي في ٢٤ من صفر سنة ٨٩١هـ (أول مارس عام ١٤٨٦م) ودفن في ضريح جده السلطان محمود الثاني، وكان أبوه مُلاًّ سنان باشا، الذي عرفه معاصروه باسم «خوجه باشا» عالمًا جليلاً وصاحب مؤلفات في الرياضيات وعلم النفس وعلم الفلك وعلم الأخلاق وقصص الأولياء بعنوان «تذكرة الأولياء»، وله بحث في الصلاة باسم «مناجاة» ولقب خوجه التركي معناه الأستاذ.

٢) خادم سنان باشا: الذي تولى منصب «الصدر الأعظم» في عهد السلطان سليم الأول (انظر مادة السلطان سليم)، واسمه الكامل سنان الدين يوسف باشا، ويرجح المؤرخون أنه كان من أصل مسيحي، وقبل تعيينه صدرًا أعظم ولي حكم الرومللي ثم الأناضول، وقاد بنجاح الجناح الأيمن للجيش العثماني في وقعة جالديران المظفرة في ٢٣ من أغسطس عام ١٥١٤م (٩٢٠هـ) وتولى منصب الصدر الأعظم إثر عزل هرسك أوغلي أحمد باشا، ونصب خادم «سنان باشا» قائدًا عامًّا على الجيش في الحملة على الشام ومصر، وفي ٢٩ من شهر ذي الحجة سنة ٩٢٣هـ (٢٣ من يناير سنة ١٥١٧م) فقده الجيش الأناضولي في وقعة الريدانية، حيث قتل في مبارزة جرت بينه وبين السلطان «طومان باي» أحد سلاطين المماليك في مصر (انظر مادة طومان باي) فخلفه على الصدارة العظمى يونس باشا.

٣) قوجه سنان باشا (ويعرف عادة باسم قوجه معمار سنان): وقد كان أعظم مهندسي العمارة العثمانيين وكان مولده بقيصرية من أعمال الأناضول في ٩ من رجب عام ٨٩٥هـ (١٥ من إبريل سنة ١٥٨٩م) من أبوين مسيحيين، وقد لقب أبوه بعد اعتناقه الإسلام بعبد المنَّان، وقدم سنان إلى السراي السلطانية في إسطنبول وهو مايزال حدثًا مع زمرة من الشبان المجندين ثم صار انكشاريًّا، وأبدى شجاعة ملحوظة في الحملات التي شنت على بلغراد ورودس خلال عامي ٩٢٨ و٩٢٩هـ (١٥٢١ و١٥٢٢م) فرقي إلى رتبة زنبركجي باشي (أي كبير العمال الذي يطلقون الألعاب النارية)، ثم أظهر براعة مرموقة في الحرب الفارسية عام ٩٤١هـ (١٥٣٤م) عندما ابتكر زوارق لعبور بحيرة «وان» ثبت صلاحها من كل الوجوه، وظل يرقى في سلم الوظائف حتى عين في وظيفة مأمور قضائي، وكان في حاشية السلطان سليم الأول (انظر مادة السلطان سليم) عندما تقدم صوب إقليم الأفلاق فأفلح

سنان في إقامة جسر على نهر الدانوب زاد من الإعجاب بمهارته وكان هذا الجسر الدعامة التي قامت عليها شهرته الذائعة الصيت، ومنذ ذلك التاريخ خُصِّص لبناء المساجد، والجوامع والقصور والأبنية العامة، والقناطر، والجسور، والحمامات والأضرحة.

وتتالت منشآت هذا المهندس العظيم في جميع أرجاء الإمبراطورية العثمانية متعاقبة تعاقبًا سريعًا يحير الألباب منذ أواخر العقد الرابع من القرن السادس عشر الميلادي، وكان تشييد معظمها بتكليف من السلطان سليمان القانوني.

وقد أحصى الشاعر مصطفى ساعي الذي دوَّن سيرة سنان كل ما قام به هذا المهندس من عمائر فقال إنها كالآتي: ٨١ مسجدًا جامعًا، و٥٠ مسجدًا، و٥٥ مدرسة، و٧ مدارس لتحفيظ القرآن، و١٦ مطعمًا للفقراء، و٣ ملاجئ للعجزة، و٧ قناطر معلقة، و٨ جسور، و٣٤ قصرًا، و١٣ استراحة، و٣ مخازن، و٣٣ حمامًا، و١٩ ضريحًا ذات قباب، ومجموع هذه المنشآت ٣٤٣ عمارة.

وظل سنان يشيد العمائر في كل مكان من البوسنة (يوغوسلافيا حاليًّا) إلى مكة في مدة تقدر بحوالي ٧٥ عامًا، ويقول «جرليت Gurlitt» إن سنان أظهر براعة لا نظير لها في استخدام القباب، فقد كان يشيد قاعدة مربعة أو مسدسة أو مثمنة يقيم عليها مبانيه الداخلية محاولاً دائمًا أن يكون هدفه رواقًا رسميًّا عظيمًا أو على الأصح بناءً متناسقًا يضم المتعبدين من أولي الأمر وأتباعهم. وكان يهتم قبل كل شيء بداخل البناء ويضحي في سبيل ذلك بالمظهر الخارجي، على أن خصائص الطابع التركي كانت تتجلى في كل عمارة، ذلك أنه كان يستحدث في كل منها نماذج فيها من الطراز البيزنطي وفيها من الطراز الفارسي وفيها من الطراز الشامي وفيها من الطراز السلجوقي، ولكن يغلب عليها الطابع التركي.

وتوفي هذا المهندس التركي العظيم الذي يلقبه المؤرخون بأنه «ميخائيل أنجلو» التركي، وقد أشرف على التسعين من عمره في ١٢ من جمادى الأولى عام ٩٨٦هـ (١٧ يوليو سنة ١٥٧٨م) ودفن خلف مسجد السلطان سليمان بجوار ديوان شيخ الإسلام وبجوار زاوية ومدرسة وسبيل كان قد شيدها، وأوقفها على الخيرات.

ولقب « قوجه» باللغة التركية معناه «العظيم».

٤) **قوجه سنان باشا:** أي سنان باشا العظيم، ابن عليّ بن عبد الرحمن وهو من أصل ألباني، وكان والده فلاحًا من دبره في قول بعض المؤرخين أو من دلفينو في قول البعض الآخر، وقدم سنان السراي السلطانية في زمرة شبان من المجندين، وأصبح في عهد السلطان سليمان جاشنكير باشي أي كبير حملة الكأس، ثم رقي فيما بعد إلى مير لواء ملطية وقسطموني وغزة وطرابلس الشام وأرضروم وحلب ثم عين واليًا على مصر في ربيع سنة ٩٧٦هـ (١٥٦٨م)، ومن مصر أعد حملة عسكرية غزا بها اليمن وفتحها باسم الدولة العثمانية، وقد أشاد الشاعر التركي «تهالي» بهذا الفتح في قصيدة له بعنوان «فتحنامه يمن»، ويصف المؤرخ العربي محمود قطب الدين المكي أخبار هذه الحملة والحملات التالية لها في إسهاب في المصنف الذي أهداه إلى سنان باشا وعنوانه «البرق اليماني في الفتح العثماني» وفي عام ٩٧٩هـ (١٥٧١م) أعيد تنصيبه وليًا على مصر، وما من شك في أن الشارع الذي يحمل اسم «سنان باشا»

بالإسكندرية أريد به تخليد ذكرى هذا الوالي العثماني الذي يعتبر من أشهر ولاة مصر في عهد الدولة العثمانية.

وفي ربيع سنة ٩٨٢هـ (١٥٧٤م) عين سنان قائدًا للحملة على تونس ولهذه الحملة تاريخ جديد بالتفصيل لأنها أحدثت تغييرًا جوهريًّا في سيطرة تركيا على المغرب العربي بأسره.

فقد كان من النتائج المؤلمة التي تمخضت عنها هزيمة حسن باشا ابن خير الدين بارباروس على أيدي الإسبان في مينائي المرسي الكبير ووهران بالقطر الجزائري أن بدأت تركيا تفكر جديًّا في جعل الجزائر جزءًا من الدولة العلية لتضمن لسلطانها الدوام والاستقرار، فأخذت تطبق القوانين التركية على السكان وعينت لذلك حاكمًا من قبلها هو «محمد باشا كرداغلي» الذي نجح في هذا السبيل إلى حد بعيد فأصبحت السيادة التركية الكاملة تفرض فعلاً على مدينة قسطنطينية ومنطقتها في شرق القطر الجزائري، ولم تتح الفرصة لكرداغلي لتحقيق مشروعاته الرامية لبسط تلك السيادة على الأجزاء الأخرى من الجزائر إذ عزل خلال عام ٩٧٦هـ (١٥٦٨م).

وفي ذلك العام نفسه حكم الجزائر «علج علي باشا» وكان أهل تونس قد سئموا حكم أبي العباس أحمد الحفصي لما نزل بهم في عهده من الظلم والعدوان، فاتصل وزيره أبو الطيب الخضَّار «بعلج علي باشا» بطريقة سرية ووعده بتمهيد السبيل لاستيلائه على تونس في سهولة ويسر إذا هو أقدم على غزوها، فجهز «علج علي» جيشًا قويًّا وخرج من الجزائر في مستهل عام ٩٧٧هـ (١٥٦٩م) واستولى على تونس في العام نفسه ورحل أبو العباس أحمد الحفصي إلى القيروان.

غير أن أبا العباس الحفصي استعان بملك إسبانيا الذي اشترط أن يقاسمه الملك فأبي وعبر البحر إلى جزيرة صقلية صحبة أسرته حيث مات معزولاً، وولي حكم تونس بعده أخوه محمد بن الحسن فأثار الفتنة على حيدر باشا الذي عينه «علج علي باشا» حاكمًا على تونس لدى عودته إلى الجزائر منتصرًا، وقد قبل «محمد بن الحسن» شرائط ملك إسبانيا التي رفضها أخوه فزوده الملك بجنوده ولدى وصول الأسطول الإسباني إلى حلق الواد بتونس، فر حيدر باشا وحاميته من الأتراك إلى القيروان وانضم محمد بن الحسن إلى الحملة الإسبانية وأدخل في حمايتها مدينة تونس عام ٩٨١هـ (١٥٧٣م).

وعاث الجنود الإسبان فسادًا بمدينة تونس بقيادة «دون جوان» النمساوي أخو فيليب الثاني ملك إسبانيا، وقنع محمد ابن الحسن بمقاسمة الغزاة حكم البلاد وجباية الأموال.

وكان السلطان سليم الثاني قد استدعى «علج علي باشا» على الآستانة وعينه قائدًا عامًّا للأسطول فانهزم في ٩ أكتوبر عام ١٥٧١م (٩٧٩هـ) أمام أساطيل الإسبان والبنادقة يؤازرها أسطول البابا وذلك في موقعة «لبانتي».

وشق على سلطان تركيا أن تحل بالدولة العليا هزيمتان: هزيمة جيوشها في تونس وهزيمة أسطولها في «لبانتي»، فأعد أسطولاً ضخمًا وعهد بقيادة الحملة إلى وزيره قوجه سنان باشا للقضاء على الاستعمار الإسباني في تونس وأصدر أوامره على صقر باشا (انظر هذه المادة) «سنجق الإسكندرية»، وإبراهيم باشا «سنجق القاهرة»، ومصطفى باشا والي طرابلس، ورمضان باشا والي الجزائر، لإعداد العدة اللازمة لمعاونة سنان باشا في هذه الحملة الحربية.

فأعد كل منهم ما استطاع جمعه من الإمدادات وخرج حيدر باشا من القيروان بجنوده وبمن انضموا إليهم من العرب والبربر والتأم شمل هذه الجيوش حول تونس في ربيع عام ٩٨٢هـ (١٥٧٤م) فطوقتها وحاصرتها شهرًا كاملاً ثم تمكنت من الاستيلاء عليها عنوة عن طريق حلق الباب.

وقضى جنود سنان باشا على الإسبان وأثخنوا فيهم التقتيل وأسروا محمد بن الحسن الحفصي آخر أمراء بني حفص فأرسله سنان باشا إلى الآستانة فاعتقل في أحد سجونها إلى أن مات، ومنذ ذلك التاريخ تم استيلاء الدولة العثمانية على الجزائر باستثناء ميناء وهران في شرقها وعلى إفريقية (تونس) وانقرضت دولة الحفصيين.

واستقر الأمر لسنان باشا في تونس فأتم استتباب النظام التركي في الإدارة والحكم وقضي على الثورة قضاء مبرمًا، وفي عام ٩٨٦هـ (١٥٧٨م) صارت الولايات على تونس والجزائر تتم عن طريق صدور فرمانات من الباب العالي وعندما عزم سنان باشا على العودة إلى تركيا خلفه على البلاد التونسية عساكره المعروفون بالينشرية، وهم الذين دعموا قواعد الحكم التركي في إفريقية (تونس) بعد أن ضمت إلى أملاك بني عثمان.

ورقي سنان باشا الذي كان قد أصبح الوزير السادس عام ٩٨٠هـ (١٥٧٢م) إلى منصب وزير القبة (قبة وزيري) بعد ذلك بسنتين، وفي ربيع سنة ٩٨٨هـ (١٥٨٠م) قاد الجيش التركي في زحفه على الكرج، وفي ١٤ من رجب عام ٩٨٨هـ (٢٥ من أغسطس سنة ١٥٨١م) عُيِّن صدرًا أعظم خلفًا لأحمد باشا عقب وفاته، وفتحت بلاد الكرج إلا أنه لم يتم إخضاعها تماما، ذلك أنه ما إن انتهت الحملة قامت صعوبات وأسباب أدت إلى عزل سنان باشا في ٢٠ من ذي القعدة عام ٩٩٠هـ (٥ ديسمبر سنة ١٥٨٢م) ونفي إلى ديموتيقية ثم إلى ملغره ولكن سرعان ما أفلح في استرداد حريته وفي الحصول على تعيينه واليًا على دمشق بفضل نفوذ الحريم السلطاني وما بذله في هذا السبيل من هدايا قدرت بحوالي مائة ألف من الدوقات، وعاد سنان إلى الآستانة في جمادى الآخرة عام ٩٩٧هـ (إبريل عام ١٥٨٩م)، وتولي منصب الصدارة العظمى للمرة الثانية.

ومكنته الثروة الطائلة التي جمعها ونَمّاها بسرعة مذهلة من تقديم العطايا الجزيلة ومنها البارجة التي عقد لواءها لأمير من أمراء البحر والغلايين السبعة الكبيرة، كما مكنته من إقامة العمائر البديعة ومن تغيير الجوسق الفاخر الرياش الذي يحمل اسمه والذي أقيم على ضفاف القرن الذهبي في السراي ولم يدمر إلا في سنة ١٢٤٣هـ (١٨٢٧م).

ومن جهة أخرى أحيا سنان باشا المشروع القديم الذي كان يهدف إلى ربط البحر الأسود بخليج نيقو ميدية بحفر قناة من بحر صينجة إلى ذلك الخليج مستعينًا في تنفيذ هذا المشروع الحيوي المفيد بمهارة سنان المعماري غير أن هذا المشروع لم يتم بسبب الحروب.

وعاد سنان باشا فجلب على نفسه سخط السلطان في ١١ من شوال عام ٩٩٩هـ (٢ أغسطس سنة ١٥٩١م) فعزل من منصبه ولكنه استرده في ٢٥ من ربيع الثاني عام ١٠٠١هـ (٢٩ يناير سنة ١٥٩٣م) عقب استدعاء أولي الأمر له إثر وقوع فتنة أثارها الجنود الانكشارية، وانصرف منذ ذلك التاريخ إلى

السعي في الفوز بانتصارات حربية في الغرب وخاصة في هنغاريا حيث تولى بنفسه القيادة في ربيع عام ١٠٠٢ هـ (١٥٩٣م) فاستولى على كثير من الحصون والمعاقل.

وعقب وفاة السلطان مراد الثالث في ٦ من جمادى الآخرة عام ١٠٠٣هـ (١٦ فبراير سنة ١٥٩٥م)، اضطر إلى أن يسلم الخاتم السلطاني مرة أخرى ويذهب منفيًّا إلى ملغره، وبعد بضعة أشهر عاد إلى الصدارة العظمى للمرة الرابعة، وشرع في إعداد حملة عسكرية على الأفلاق بسبب الفتنة التي دبت فيها، بيد أن الأخطاء التي وقعت في هذه الحملة وضياع كران بسبب تقاعس ابنه محمد باشا بكلربك الروماللي أدى إلى عزله ونفيه إلى ملغره في ١٦ من ربيع الأول عام ١٠٠٤هـ (١٩ نوفمبر سنة ١٥٩٥م)، ولكن بعد ثلاثة أيام توفي خلفه محمد باشا، فعهد بالخاتم السلطاني إلى سنان باشا للمرة الخامسة.

وبينما كان منهمكًا في وضع الخطط الحربية لغزو «إرلو» في هنغاريا فاجأته المنية في الرابع من شعبان عام ١٠٠٤هـ (٣ من إبريل سنة ١٥٩٦م) ودفن في ضريحه الخاص بحي صفيلر بإسطنبول.

ويجمع الإخباريون العثمانيون والغربيون على أنه كان قاسيًا عنيدًا ويصفونه بالأنانية الجامحة، وكان المبعوثون الأوروبيون يخشونه ولا يستطيعون الرد على عباراته الجافة بمثل تلك الردود الحادة الشديدة التي كان المبعوث النمساوي «الدكتور بارتولد بيزن Dr. Barthold Pezzen» يواجهه بها.

ولكن هذا الوصف غير المنصف يخالفه ما جاء بالجزء الخامس من الخطط الجديدة لعلي باشا مبارك عند حديثه عن (جامع سنان باشا) فهو يقول: «إنه جاء في نزهة الناظرين أن سنان باشا الوزير تولى على مصر مرتين الأولى في ٢٤ من شعبان عام ٩٧٥هـ (١٥٦٧م)، وعزل في ١٣ من جمادى الآخرة عام ٩٧٦هـ (١٥٦٨م)، ثم عُيِّن لفتح اليمن فأرسل عسكرًا في البحر في نحو ٢٠ غرابًا (أي مركبًا)، وذهب هو برًّا في نحو عشرة آلاف مقاتل وعدة من الأمراء وفتح اليمن على أحسن تدبير، وعاد إلى مصر مؤيدًا منصورًا، وكان تولى بدله بمصر إسكندر باشا فعزل وتولى عليها سنان باشا ثانيًا في أول صفر عام ٩٧٩هـ (١٥٧١م) وعزل في آخر ذي الحجة عام ٩٨١هـ (١٥٧٣م).

ومن محاسن آثاره أنه حفر الخليج الذهبي إلى الإسكندرية وعمَّر في ثغر بولاق مسجدًا وقيصارية وحمامًا، وبالثغر السكندري مسجدًا وسوقًا وحمامًا، وشرط نظارة ذلك لمن يكون مفتي الديار الرومية، وعمَّر تكية في طريق الروم وخيراته كثيرة، ومن القصائد التي قيلت في تمجيده عقب فتحه اليمن هذه الأبيات:

سِنانُ عزيز القدرِ يوسف عصرِه
ألَمْ تَرَهُ في مصر أحكامُهُ تجري

تَدَلَّى إلى أقصى البلاد بجيشِهِ
ومَهَّدَ ملكًا قد تمزَّقَ بالشرِّ

وشتَّتَ شملَ الملحدينَ وردَّهُمْ
مثال قرودٍ في الجبالِ من الذُّعْرِ

وفي تاريخ الإسحاقي (انظر هذه المادة) ذكر سنان باشا على أنه صاحب مآثر جميلة وآثار حميدة وخيرات لا تنقطع وعدة مساجد ورُبُط وتكايا في الديار المصرية والشامية والرومية، ولم يكن أحد من خدمة آل عثمان أنشأ مثلها من الخيرات ثم توجه إلى الأعتاب العالية وولي الوزارة العظمى وفرح الناس بولايته، وتقول الدكتورة سعاد ماهر في وصف مسجد سنان: «ومسجد سنان باشا بالقاهرة يقع بشارع جامع السنانية ببولاق (وكالة البلح) ويعتبر ثاني مسجد أنشئ بالقاهرة على الأسلوب العثماني، ويختلف الطراز العثماني في بناء المساجد عن الطراز السابقة اختلافًا بينًا، فبينما كان المسجد في القرون الستة الأولى للإسلام يتكون من صحن تحيط به الأروقة التي تعتمد عقودها على العمد أو الدعائم من جهاته الأربع، أو كما كان في العصر الأيوبي والمملوكي يتكون من أربعة إيوانات متعامدة، نجده في الطراز العثماني يتكون من جزأين هامين، إيوان القبلة وتغطيه قبة كبيرة، ثم تحيط بهذا الإيوان أو تنفصل عنه باقي الإيوانات وهي مغطاة بقباب صغيرة ضحلة».

ويتكون مسجد سنان باشا الذي يرجع تاريخه إلى عام ٩٧٩هـ (١٥٧١م) من قبة حجرية كبيرة تغطي إيوان القبلة، وبكل ركن من أركان القبة الأربعة يوجد مقرنص كتب عليه لفظ الجلالة بالحجر الأصفر على أرضية من الحجر الأبيض، ويحيط بالقبة من ثلاث جهات الإيوانات المكونة من عقود يعلوها قباب ضحلة نصف كروية، وتعلو العقود دوائر جصّية مفرغة بأشكال زخرفية من الداخل والخارج ومكتوب على بعضها «الله ربي»، وفي النهاية الجنوبية للضلع الشرقي توجد المئذنة وهي أسطوانية ذات قاعدة مربعة وتنتهي بشكل مخروط وهي تماثل المآذن العثمانية التي تسمى المسلة أو القلم الرصاص، وفي وقفية سنان باشا المتعلقة بهذا الجامع أنه أوقف للإنفاق عليه خانًا كبيرًا بجواره وقصرًا برأس الرصيف المطل على البحر، وخانين آخرين في مقابلة المسجد، وبيتًا وحمامًا وحوانيت، كما أوقف على الخيرات وأعمال البر حمامًا بقرية بني سويف، وخانًا بالسويس، وحمامًا بالإسكندرية، ودارًا بقرية الأحرار القليوبية، وأراضي الأحراز، وأطيانًا بالمنوفية.

ومن أوقافه الخيرية بالإسكندرية عمارة السنانية الكائنة بشارع فرنسا (الشهيد مصطفى حافظ حاليًّا)، وقد جدد بناؤها وصارت قيصرية، وتقع بوابتها الرئيسية أمام بداية الشارع الذي يحمل اسم «سنان باشا»، وهو ينتهي إلى شارع السيد محمد كريم، وتشغل مديرية أوقاف الإسكندرية في الوقت الراهن جزءًا كبيرًا من عمارة السنانية.

ومن الوصف الذي خلعه المؤرخون العرب على سنان باشا يتضح أن أخلاقه وحبه للخير يخالف الوصف الذي دونه المؤرخون العثمانيون والأوروبيون على النحو المبين قبل، ويقيني هو أن حسد المؤرخين الأتراك وبغض المؤرخين الأوروبيين لسنان باشا هو الذي جعلهم يفترون عليه وينعتونه بالصفات الذميمة، ولا سيما أنه كان يعامل السفراء الأوروبيين بالخشونة مما جعلهم يخشونه ولا يستطيعون الرد عليه.

٧٢٠ – السنوسي – شارع – بقسم محرم بك

يحمل لقب السنوسي اثنان ممن ذكر التاريخ سيرة حياتهم لما كان لكل منهما من مكانة علمية وهما:

١) أبو عبد الله محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي: كان فقيهًا أشعريًّا من أكابر متكلمي مدينة تلمسان، وقد ولد بهذه المدينة الجزائرية الشهيرة ببساتينها، وغدرانها العديدة عام ٨٣٣هـ (١٤٢٩م)، ودرس العلوم الإسلامية والحساب، وعلم الهيئة بمسقط رأسه على أبيه وعلى مشاهير شيوخ عصره مثل أبي يعقوب يوسف، وشقيقه التلّوتي، وأبي عبد الله الحبّاك، ثم رحل إلى مدينة الجزائر وتلقى العلم على يد سيدي عبد الرحمن الثعالبي (انظر مادة الثعالبي) المرابطي وليّ المدينة وحاميها.

ويُجمِع العلماء على تقدير السنوسي حق قدره، ويثنون عليه جميل الثناء، فهو عندهم محيي الدين الإسلامي في مستهل القرن التاسع الهجري، ويشيدون بسعة علمه، وتفقهه في علم الكلام، ويمجدون ورعه وتقواه وخشيته من الله.

وتوفي بمدينة تلمسان في ١٨ من جمادى الآخرة عام ٨٩٥هـ (٩ من مايو عام ١٤٩٠م) بالغًا من العمر ثلاثة وستين عامًا، وقد عاش هذا العالم الجليل في أواخر حكم بني مرين وفي أثناء حكم أبي العباس أحمد أحد أمراء بني وطّاس بالجزائر.

ومن مؤلفاته الباقية حتى الآن: «عقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلمة الجهل وربقة التقليد»، ويسمى هذا الكتاب أيضًا «بالعقيدة الكبرى»، «وعمدة أهل التوفيق والتسديد»، وهو شرح على كتاب العقيدة الكبرى، وقد طبع هذا الكتاب بالقاهرة عام ١٣١٧هـ (١٨٩٩م)، و«أم البراهين» ويعرف باسم السنوسية، وطبع بالقاهرة عدة مرات، وترجم إلى اللغتين الفرنسية والألمانية، و«شرح على أم البراهين»، و«المنهج السديد في شرح كفاية المريد».

ولعبد الله محمد بن يوسف السنوسي مؤلفات أخرى بلغ عددها سبعة وعشرين كتابًا، كان آخرها «شرح صحيح البخاري»، وهو مازال مخطوطًا لدى العالم الجزائري محمد ابن شنب.

٢) محمد بن علي المجاهري الحسني الإدريسي السنوسي: ويقال إنه من نسل الحسن المثنى، ابن الإمام الحسن بن علي ابن أبي طالب، وفاطمة الزهراء بنت رسول الله عليه الصلاة والسلام، وقد ولد السنوسي عام ١٢٠٦هـ (١٧٩١م) في تُرش بصحراء مدينة ميتغانم الواقعة في غرب القطر الجزائري على البحر الأبيض المتوسط، وكانت ولادته في دوار للخطاطبة أولاد سيدي يوسف الذين ينتسبون إلى الزيّانية وهي فرع من الطريقة الشاذلية (انظر مادة أبو الحسن).

وسيدي محمد بن علي السنوسي هو منشئ رباط السنوسية العسكري الذائع الصيت، وقد تلقى العلم في حداثته على يد أبي رأس المتوفى عام ١٢٣٩هـ (١٨٢٣م)، وبولكندوز المتوفى عام ١٢٤٥هـ (١٨٢٩م) وذلك في مسقط رأسه، ثم رحل إلى مدينة فاس بالمغرب الأقصى، وأقام بها طوال الواقعة بين عامي ١٢٣٧ و ١٢٤٥هـ (١٨٢١ – ١٨٢٩م) ويفترض الدكتور طه الحاجري في كتابه «الحياة الأدبية في ليبيا»، وذلك نقلاً عن المخطوط الذي حصل عليه الأستاذ الأشهب أن رحلة السنوسي إلى فاس كانت خلال عام ١٢٢٥هـ (١٨١٠م)، وهذا قد لا يستقيم مع تلقيه العلم في مسقط رأسه حتى عام ١٢٣٧هـ (١٨٢١ – ١٨٢٢م) فهي السنة التي بدأت إقامته في فاس خلالها.

وفي مدينة فاس التحق بجامعة القمرويين حيث درس تفسير القرآن الكريم، والحديث، وأصول الفقه الإسلامي، واللغة، وفي هذه الفترة انضم إلى الطريقة الصوفية الدرقاوية التي يشتق اسمها من كلمة «الدرقة» كرسي من الجلد وليس فيه خشب ولا عقب، وتنسب هذه الطريقة - التي هي فرع من الشاذلية - إلى مولاي العربي الدرقاوي المولود عام ١١٥٠هـ (١٧٢٧م)، والمتوفى عام ١٢٣٩هـ (١٨٢٣م) بمراكش، وقد قام أتباع هذه الطريقة بأعمال بطولية ضد الحكم التركي، وضد الاستعمار الفرنسي، وكانوا عضد الأمير المجاهد البطل عبد القادر الجزائري (انظر هذه المادة) طوال دفاعه المجيد عن وطنه.

وأدى السنوسي بعد ذلك فريضة الحج سالكًا الطريق من جنوب تونس إلى القاهرة، ثم شخص إلى مكة، فأقام فيها من سنة ١٢٤٦هـ (١٨٣٠م) إلى ١٢٥٩هـ (١٨٤٣م)، ويتضح من تاريخ ابتداء إقامته بمكة، ومن تاريخ تلقيه العلم بجامعة القرويين بفاس حتى عام ١٢٤٥هـ (١٨٢٩م) أن سفره من مراكش إلى مكة استغرق سنة واحدة، وهذا التحديد في التاريخ ينفي قول الطيب الأشهب - عن المخطوط الذي لديه - أن السيد السنوسي توجه إلى الحج سنة ١٢٣٢هـ (١٨١٧م)، ووصل إلى الحرمين الشريفين سنة ١٢٤١هـ (١٨٢٥م) أي أنه قطع في طريقه ثماني سنوات قضاها بالصحراء الكبرى في جنوب الجزائر، وفي تونس وليبيا ومصر، ومن ثم يكون من الصواب الأخذ بما جاء بالمصادر التاريخية من أن رحلته لم تقطع إلا عامًا واحدًا.

وفي مكة شيد السنوسي عام ١٢٥٣هـ (١٨٣٧م) أول زاوية من زوايا طريقته «السنوسية» فوق جبل أبي قبيس، والتقى فيها بأحمد بن إدريس، وأخذ عنه الكثير من أصول التصرف والاسترسال في العبادة كما أخذ عنه علماء مكة الآخرون العلم والإرشاد إلى التقوى والصلاح.

خلال عام ١٢٥٩هـ (١٨٤٣م) عاد إلى الجبل الأخضر بليبيا، وأقام بتلك الجهة مجموعة من الزوايا السنوسية، ورزق في عام ١٢٦١هـ (١٨٤٥م) بولده محمد المهدي، ثم رزق بولده الثاني محمد الشريف عام ١٢٦٣هـ (١٨٤٧م).

وأهم الزوايا التي شيدها في تلك الفترة: زاوية رفاعة، فزاوية البيضاء بالقرب من مدينة درة على مقربة من ضريح سيدي رافع بن ثابت الأنصاري، فزاوية تمّسّى، ثم زاوية جغبوب عام ١٢٧٣هـ (١٨٥٥م) التي جعلها مركزًا رئيسيًّا لطريقته، فأنشأ حولها المزارع، وجلب لها طائفة من العلماء لتلقين الطلاب العلوم الدينية والثقافية.

وكان السنوسي قد عاد إلى مكة عقب ولادة ولده الثاني محمد الشريف عام ١٢٦٣هـ (١٨٤٧م)، وأقام بزاويته بجبل أبي قبيس حوالي سبع سنين قضاها في تدريس الحديث، والفقه فشاع صيته، وهرع إليه الناس للأخذ عنه، ثم قفل راجعًا إلى الجبل الأخضر، وعندما سمع عباس الأول والي مصر إذ ذاك خبر عودته بنى له زاوية بخارج القاهرة عند الشيخ القللي بجهة باب الحديد، غير أن السنوسي لم ينـزل بهذه الزاوية، ونزل بناحية كرداسة بالجيزة فهرع إليه الناس طالبين بركته.

ولدى وصوله إلى الجبل الأخضر نزل بجهة تدعى «العزيّات» وكان بها قصر قديم فأصلحه، وسماه «العزيّات» وأقام به عامين أرسل في أثنائها بعض تلاميذه إلى جغبوب الواقعة على مسافة عشرة أيام من «العزيات» وثلاثة أيام من

واحة سيوة فبنوا له زاوية انتقل إليها عام ١٢٧٣هـ (١٨٥٥م) فاستقر بها لنشر طريقته الصوفية، وجمع فيها العبيد المعتقين.

وأشهر مؤلفاته كتاب في الأصول هو: «بغية المقاصد وخلاصة المراصد»، وكتاب في التوفيق بين القرآن والحديث بعنوان «إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن»، وقد نحا في هذا الكتاب إلى الابتعاد عن التقليد لأي مذهب من المذاهب الفقهية الأربعة، إذ ينادي فيه بالاجتهاد على الرغم من أنه كان مالكيّ المذهب.

وله مصنفات في التصوف منها؛ «الفهرسة»، ويذكر في هذه الناحية أسانيده الشرعيين وعددهم مائة وخمسون، منهم أربعة وستون من الصوفيين الذين يدلل بهم على صحة طريقته، كما له مؤلف بعنوان «السلسبيل المعني في الطرائق الأربعين» ويشتمل هذا المؤلف على طرائق الذكر في الأربعين طريقة المدوَّنة في ذلك الكتاب، ويخلص السنوسي في مؤلفه إلى أن طريقته هي خلاصة تلك الطرائق جميعها، وما من شك في أن السنوسي تأثر بالدعوة الوهابية التي تقرب في كيانها الأصيل من طريقته، ولو أنها تختلف عنها في تجنب العنف إذ تقوم السنوسية على المحبة والإقناع والفروق عن استخدام العنف ما أمكن.

ومن مؤلفاته الأخرى «المنهل الرائق في الأسانيد والطرائق»، و«الشموس الشارقة في أسماء شيوخه المغاربة والمشارقة».

ولقد نضجت أفكار السنوسي الصوفية في مكة ولاسيما بفضل تعاليم أحد مشايخه في الطريقة هو «أحمد بن إدريس الفاسي» المتوفى عام ١١٥٠هـ (١٧٣٧م) وهو منشئ الطريقة الخضرية الإدريسية وجدّ الأسرة البارزة في عسير، وتأثره بمنشئ طريقتين أخريين هما الرشيدية والأميرغنية.

وأول ما عرفت الطريقة السنوسية في الجزائر عرفت ببلدة مِزْوَنة التي يبلغ عدد سكانها في الوقت الراهن حوالي ٦٥٠٠ نسمة، ونساؤها شهيرات بصنع البرانس.

والسنوسية حركة من حركات الإصلاح الديني التي سادت العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وهي تدعو إلى تخليص الدين من الزوائد التي علقت به، والعمل على جمع المسلمين حول راية واحدة بحيث تتكون منهم جامعة إسلامية كبرى في كافة البلدان مع نشر الدين الإسلامي في البلاد التي لم ينشر فيها، ولاسيما في إفريقيا مع توحيد المذاهب وفتح باب الاجتهاد، والتساند أمام القوى الأجنبية التي تهدف إلى إيجاد التصدع في الكيان الإسلامي العام.

وتطورت السنوسية على مر السنين فأصبحت «دنيا ودين»، وكان سيدي محمد علي السنوسي في بداية حياته دائم التفكير في أحوال المسلمين ويبغي لهم مرشدًا، ويلوم المشايخ والعلماء على قعودهم عن الدعوة للدين الإسلامي ونشره.

وعند عودته إلى مصر حضر بعض الدروس على يد علماء الأزهر، وألقى دروسًا في هذا الجامع العتيد جاهر فيها بآراء تعتبر ثورة عند علماء ذلك العصر، فوصفه بعضهم بالتطرف والابتداع، وفي مكة حدد معالم دعوته وقال: إنها تقوم على السلام والصفاء النفسي، وإن الهدف منها يرمي

إلى إقامة عدد كبير من الزوايا يلف العالم الإسلامي، ويربط بين جميع أجزائه.

ولقد عملت السنوسية الخضراء على رفع مستوى المعيشة بين الناس، وعلى انتشار الزراعة حول كل زاوية وبيع فائض الإنتاج الزراعي، واستثمار ثمنه في توسيع الرقعة المزروعة، وغرس الأشجار في أرجائها، ومن ثم صارت الزوايا السنوسية مراكز اقتصادية إلى جانب قيامها بالرسالة الروحية.

وقد انتشرت الزوايا السنوسية الخضراء على حدود اليمن وفي الحجاز ومصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى، ثم تسللت إلى تركيا والهند.

ولو أن الطريقة السنوسية لم تركن إلى الحياد في بعض المواقف لتألف من أتباعها نواة لثورة عارمة تفيد العرب والمسلمين فائدة كبيرة، وتحقق لهم مكاسب عظيمة ولاسيما في صد الغزو الأوروبي عن القارة الإفريقية، فقد حرص أتباع السنوسية مع الأسف على الوقوف بمعزل عن الأحداث وعن التيارات السياسية الخارجية.

غير أنهم كانوا أقوى عامل في الثورة ضد إيطاليا خلال عام ١٣٣٠هـ (١٩١١م) حينما وجدوا أن تركيا تسلم بحق إيطاليا في البلاد الليبية، ففي تلك الحرب غير المتكافئة من حيث عدد الجنود، وكميات العتاد الحربي، وقوة فتكه بالأرواح، أظهر أتباع السنوسية هم وإخوانهم من الليبيين الأحرار من ضروب الشجاعة والاستبسال في المواقع الدامية التي خاضوها، ما سجل لهم صفحات خالدات على مرّ القرون في التاريخ، وفي شجاعة وبطولة الشيخ الوقور المحترم «عمر المختار» (انظر هذه المادة)، ما يؤيد ذلك ويؤكده.

وليس من الإنصاف الاعتقاد الجازم – ودون تحفظ – في صحة أقوال بعض المؤرخين ولاسيما المستشرقين منهم بأن أتباع الطريقة السنوسية وقفوا مواقف سلبية من الأحداث السياسية التي كانت تمس الأمة العربية والشعوب الإسلامية، فلم يقوموا بأي صراع ضد التدخل الأجنبي، ومناصرة المجاهدين في أثناء الغزو الفرنسي للجزائر واستنجاد الأمير البطل عبد القادر الجزائري بهم إذ قالوا: إن موطنهم موطن سلام وما على الجزائريين إلا أن يرحلوا من بلادهم إلى هذا الموطن الأمين المسالم!!! ومثل هذا التفكير إن صح حدوثه يجعل من أتباع السنوسية متواكلين منغمسين إلى آذانهم في الغفلة، وبلادة الإحساس.

وقد يكون من دعائم في هذه الأقوال أن معظم الطرق الصوفية الجزائرية، وفي مقدمتها الطريقة الدرقاوية التي كان السيد محمد علي السنوسي أحد أتباعها في مستهل حياته الصوفية، كانت العون الصادق للأمير عبد القادر في حربه ضد الغزاة الفرنسيين، كما كانت السند القوي للمجاهدين في الحرب الجزائرية التي استمرت من عام ١٢٤٦هـ (١٨٣٠م) إلى عام ١٢٨٧هـ (١٨٧٠م) وكان بين أتباع هذه الطرق الصوفية أتباع السنوسية.

أما زعم هؤلاء المؤرخين بأن السنوسيين لم يستجيبوا لطلب السلطان العثماني النجدة منهم في حربه ضد روسيا، ولا لطلب الزعيم الثائر أحمد عرابي مناصرتهم لثورته ضد حكم الخديوي محمد توفيق الذي استنجد بالإنجليز للقضاء على تلك الثورة الوطنية، نقول: إن هذا الزعم يفتقر إلى إثبات تاريخي لا يتطرق إلى وثائقه الرسمية أي شك ليصح الاعتماد عليه كمصدر من مصادر التاريخ الحقيقية.

وتوفي سيدي محمد بن علي السنوسي في ٩ صفر عام ١٢٧٦هـ (١٨٥٩م) بالغًا من العمر حوالي ٦٩ عامًا، ودفن في جغبوب من أعمال برقة بليبيا، وكان إلى جانب علمه شاعرًا صوفيًّا هذا، وقد ذكر الدكتور محمد طه الحاجري في كتابه «الحياة الأدبية في ليبيا» قطعتين من شعره، أَقْتصِر هنا على تدوين إحداهما وهي:

إلا إنَّما الدُنْيا غُضارَةُ أيْكَةٍ
إذا اخضرَّ منها جانبٌ جَفَّ جانبُ

في الدّارِ: ما الآمالُ إلا فجائعٌ
علينا ولا اللّذاتُ إلا العَطائَبُ

وما لذّةُ الأولادِ والمالِ والمُنَى
لدَيْنا ولا الآمالُ إلا المصائِبُ

فلا تكتحِلْ عيْناك يومًا بِعَبرةٍ
على ذاهبٍ منها فإنَّكَ ذاهِبُ

وقام بنشر العلم ومبادئ الطريقة بعده ولده وخليفته محمد المهدي السنوسي يعاونه أخوه محمد الشريف في تربية المريدين وإرشادهم، ومعهما جماعة من الطلبة والمشايخ بزاوية جغبوب، ثم انتقل مركز السنوسية عام ١٣١٣هـ (١٨٩٥م) إلى واحة الكفرة الواقعة على مسافة ٢٠ يومًا إلى الجنوب من واحة سيوة لأسباب سياسية، وابتعادًا عما نُسِب إلى محمد المهدي من أنه يحث القبائل على الخروج عن طاعة الدولة العثمانية. وفي واحة الكفرة شيد محمد المهدي زاوية اتخذها مستقرًّا له، وتوفي أخوه محمد الشريف ١٣١٤هـ (١٨٩٦م) بواحة الكفرة وتوفي محمد المهدي عام ١٣١٩هـ (١٩٠١م) «بكورو»، حيث انتقل مركز الطريقة وخلَّف محمد المهدي ولدين هما إدريس المولود عام ١٣٠١هـ (١٨٨٣م)، وقد منح أرضًا في الغرب عام ١٣٢٧هـ (١٩٠٩م)، ونُصِّب أميرًا تحت الحماية الإيطالية من سنة ١٣٣٥هـ (١٩١٦م) إلى سنة ١٣٤٢هـ (١٩٢٣م)، والرضا الذي خلَّف ستة أولاد هم أحمد شريف المولود عام ١٢٩٨هـ (١٨٨٠م)، وقد تولى مشيخة الطريقة من عام ١٣١٩هـ (١٩٠١م) إلى عام ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م)، وانضم إلى ألمانيا ورحل بعد ذلك إلى تركيا، وأخذ منذ عام ١٣٤٠هـ (١٩٢١م) يوجه حملة إسلامية جامعة من أنقرة، وكان قد عاد بمركز الطريقة إلى الكفرة خلال عام ١٣٢٠هـ (١٩٠٢م).

ومن أولاد سيدي الرضا محمد العابد الذي منح أرضًا في مقاطعة فزان الجنوبية منذ عام ١٣٢٧هـ (١٩٠٩م)، ومن هذه البقعة أشعل نار الجهاد ضد فرنسا في الصحراء الكبرى الجزائرية، واستمر على الجهاد هو وأتباعه، وجميع الأحرار الجزائريين من عام ١٣٣٥هـ (١٩١٦م) إلى عام ١٣٣٧هـ (١٩١٨م) أي على مدى الثلاث السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الأولى.

وما من شك في أن هذا الجهاد يدل على خطأ القائلين بأن السنوسية لم تستجب لطلب النجدة من الأمير عبد القادر الجزائري، ومن الزعيم الثائر أحمد عرابي، ومن سلطان تركيا في حربه ضد الروس، ولو فُرِض وكان هذا الادعاء صحيحًا فإن جهاد الثلاث السنوات الآنف الذكر يكفِّر عما سلف من أوائل السنوسيين.

وكان عدد زوايا السنوسية ٢٢ خلال سنة ١٢٧٦هـ (١٨٥٩م)، فارتفع إلى ١٠٠ زاوية في سنة ١٣٠٢هـ (١٨٨٤م)، وصار أضعاف هذا العدد في الوقت الراهن.

٧٢١- سوتير - شارع - بقسم محرم بك (الدكتور علي مصطفى مشرفة حاليًّا)

موت الإسكندر وتقسيم إمبراطوريته

عندما مات الإسكندر الأكبر (انظر هذه المادة) في ١٣ من شهر يونية عام ٣٢٣ ق.م. بمدينة بابل (ومكانها الحالي بمدينة بغداد) عقد قواده اجتماعًا، وبعد أن اختلفوا بالنسبة إلى وراثة عرش مقدونيا والإمبراطورية التي فتحها الإسكندر، اتفقوا على أن الذي يعتلي العرش أخو الإسكندر لأبيه «فيليب أريدايوس Philip Arrhidaeus» الذي لُقِّب (بفيليب الثالث) بالاشتراك مع ابن الإسكندر الأكبر من زوجته (روكسانا) إن جاء المولود ذكرًا، وقد جاء المولود ولدًا في أغسطس عام ٣٢٣ ق.م. ولُقِّب بالإسكندر الرابع، وبعد ذلك منحت القيادة العليا للجيوش في آسيا إلى «برديكاس Perdiccas» فاستطاع أن ينصب نفسه وصيًّا على «فيليب أريدايوس» الذي كان معروفًا بالبلاهة وضعف العقل وفقدان القدرة على أن يحكم بنفسه وعلى الإسكندر الرابع الطفل، ثم قسمت الإمبراطورية بين الزعماء المقدونيين وكانت مصر من نصيب «بطليموس Ptolemaeus ابن لاجوس»، يساعده في إدارة البلاد «كليومنيس» النقراطيسي وهو من أهالي نقراطس الذي كان الإسكندر الأكبر قد عينه مشرفًا على الشؤون المالية، ولكنه صار بمثابة الحاكم الفعلي لمصر.

رحيل بطليموس الأول إلى مصر

ولم يُضِع بطليموس بن لاجوس الوقت في فض منازعات رفاقه من القواد، فبادر إلى تركهم ورحل إلى مصر مسرعًا لإقامة دولة جديدة يونانية النزعة والأهداف موجهًا عناية كبرى لازدهارها ورقيها عمرانيًّا وتجاريًّا، وقد تجلت آثار هذه العناية الموفقة فيما وصلت إليه مدينة الإسكندرية في عهده وعهد ابنه بطليموس الثاني (فيلادلف) من علو شأن جعلها أعجوبة العالم المعروف في ذلك الحين، ولاسيما بعد أن صارت عاصمة لملك البطالمة في عهد بطليموس الأول.

بطليموس وصفاته واهتمامه بالأمور العامة

ويوضح التاريخ المأثور عن وثائق البردي أن بطليموس بن لاجوس كان جنديًّا شجاعًا تتسم أخلاقه بالبشاشة والسماحة والإخلاص في العمل، والغيرة على المصالح العامة مع الحصافة في الرأي، والتمسك بعصبيته المقدونية بوصف كونه من طبقة النبلاء المقدونيين، وكانت مظاهر العظمة والأبهة لا تعنيه بقدر عنايته واهتمامه بالأمور العامة وشؤون الدولة كبيرها وصغيرها، وقد حقق أماني الإسكندر الأكبر فجعل مدينته الخالدة غاية في العظمة والأهمية بما ضمنها من منشآت فخمة نافعة، ولم يقصر في شق الطرق التجارية لربطها بكافة مدن وقرى الدلتا، وكان في أعماله حازمًا، واقعيًّا، جم النشاط، ذا عزيمة وإرادة قوية وقدرة كبيرة على الاحتمال والعمل.

وقد استطاع أن يضمن لنفسه الولاية على مصر وفاقًا للطريقة الفارسية أي أن يكون مرزبانًا عليها بحيث يتولى حكمها دون منازع، وقد تم له ذلك في أثناء التسوية التي اتفق قواد الإسكندر على تنفيذها إثر موته.

حرصه على توطيد دعائم دولته

وكان وصول بطليموس بن لاجوس إلى مصر في صيف عام ٣٢٣ ق.م. ليحكم بصفة (ساتربا) أي واليًا، وأهم ظاهرة يتسم بها حكمه وسياسته الداخلية والخارجية هي حرصه على توطيد أركان دولته وبعده كلية عن غرور العظمة، وقد حالفه التوفيق في اتباع هذه السياسة الحكيمة المبنية على الإدراك الصحيح لمركزه وإمكانياته والتقدير السليم للظروف التي نتجت بعد موت الإسكندر في آسيا وأوروبا فكان هدفه الأساسي هو تأييد سلطانه في مصر، ومن أجل تحقيق هذا الهدف رأى أنه من الملائم إخضاع بعض المناطق المجاورة لسلطانه ولاسيما على الحدود الشرقية والغربية ليتحاشى استطاعة غزو مصر فجأة من البر، وليقيم لحكمه مناطق نفوذ في بحر إيجيه، ولاسيما في الجزر لتكون بمثابة حاميات أمامية تضمن له السيطرة على البحر.

وحالفه التوفيق – من جهة أخرى – في إحباط المؤامرات التي دبرت ضده في أوائل عهده بالحكم، فركز بذلك أقدامه خصوصًا بعد أن قضى في حزم وثبات على تلك المؤامرات دون الالتجاء إلى التهور أو الرعونة، حرصًا منه على تفادي التعرض للأخطار في غير مبرر، ومن ثم استطاع تأسيس دولة البطالمة في مصر (انظر مادة البطالمة).

مطامع قواد الإسكندر الأكبر

ولم يمضِ غير عام واحد على تقسيم إمبراطورية الإسكندر حتى ظهرت مطامع قواده فاستأثر «برديكاس» بالسلطة العليا والوصاية على عرش مقدونيا كما تقدم القول، فحمل ذلك الاستئثار أربعة من القواد على التآمر ضده، وكان بطليموس ابن لاجوس من بينهم.

ضم برقة إلى سلطان بطليموس

وفي هذه الأثناء سنحت الفرصة لضم برقة إلى سلطانه، وذلك إثر الخلاف الذي قام بين الأحزاب المختلفة في ذلك الإقليم، فبادر إلى إخضاعهم جميعًا إلى سيطرته في نهاية عام ٣٢٢ ق.م. وقد أكسبه هذا الانتصار السريع شهرة وأهمية جعلته يقرر التخلص من تبعيته «لبرديكاس» ومن مساعده (كليومنيس) الذي ألصق به بعض التهم جرت إلى محاكمته وقتله.

وكان «برديكاس» قد صمم على إخضاع بطليموس لسلطانه فبادر إلى الزحف على مصر، ولكنه فشل في حملته، إذ عجز عن عبور نهر النيل فتآمر عليه ضباطه بقيادة «سليوقس Seleucus» وقتلوه سنة ٣٢١ ق.م.

لقب سوتير الذي أُضفي على بطليموس

ولقب «سوتير Sôter» الذي يحمله بطليموس بن لاجوس يعني «المنقذ Le Sauveur» ويقال إن هذا اللقب أضفي عليه لإنقاذه الإسكندر الأكبر من الموت في إحدى معاركه في الهند، ولكن «ديودور الصيقلي» يقول إن الروديسيين هم الذين أضفوا عليه هذا اللقب، وهو أحد ألقاب الآلهة، ويلقبه العرب «بالمنطقي» لأنه كان حصيفًا لم يدخر وسعًا في تنمية ثروة مصر، وتوطيد دعائم قوتها، وتبعه في ذلك ابنه فيلادلف (انظر هذه المادة).

ظهور كاساندروس على مسرح السياسة واغتيالة أسرة الإسكندر

ولم يستمر الأمر على النحو الذي ظهر عقب قتل «برديكاس» عام ٣٢١ ق . م . ، فبعد عامين فقط من هذا التاريخ ، مات (أنتيباتروس) الذي اتفق قواد الإسكندر على تعيينه وصيًّا عامًّا على الإمبراطورية ، وذلك في التقسيم الجديد الذي أقروه أثناء اجتماعهم في سوريا لإعادة توزيع أقاليم الإمبراطورية ، ومن ثم تمكن «كاساندروس Cassandros» ابن (أنتيباتروس» بمساعدة بطليموس الذي زحف على سوريا الجنوبية وأرسل أسطوله إلى بحر إيجيه للمعاونة ، تمكن من أن يهاجم بلاد اليونان نفسها ، وأن يأخذ في صفّه الملك الأبله فيليب الثالث ، وزوجته الطموح «يوريديكي Eurydice» بسبب كرههما للملكة «أولمبياس Olympias» والدة الإسكندر الأكبر التي بادرت إلى التآمر على الملك وزوجته ، ثم اغتالتهما خلال عام ٣١٧ ق . م ، أما «روكسانا» الفارسية وابنها الإسكندر الرابع الطفل فقد بقيا رهينتين لدى «كاساندروس» ، وبعد أن نجح «كاساندروس» في الاستيلاء على مقدونيا وقعت الملكة العجوز «أولمبياس» في يديه فأسرع إلى اغتيالها .

أنتجونس واستيلاؤه على الإمبراطورية الفارسية

غير أن هذه الأحداث لم تحل الموقف السياسي المعقد ، فبعد موت «أنتيباتروس) طمع «أنتجونس Antigonus» الأعور أحد قواد الإسكندر في الاستئثار بالإمبراطورية ، فاتجه نحو بابل وطالب واليها «سليوقس Seleucus» بتقديم الحساب عن ولايته بعد أن استولى على الخزائن الملكية في صوصه ، فلجأ «سليوقس» إلى مصر مستنجدًا ببطليموس ، ومن ثم صارت الإمبراطورية الفارسية بأسرها – باستثناء مصر – تحت سيطرة أنتجونس .

وإزاء هذا الطمع من جانب «أنتجونس» تحالف بطليموس ، ولوسيماخس ، وكاساندروس ، ووجهوا إنذارًا إلى أنتجونس بأن يتنازل عن معظم المناطق التي استولى عليها أخيرًا ، على أن تعود بابل إلى سليوقس وسوريا الجنوبية إلى بطليموس ، وفريجيا على الدردنيل إلى لوسيماخس ، وأن يعترف بسلطان كاساندروس على مقدونيا واليونان ، وبعض مناطق آسيا الصغرى مع توزيع ما استولى عليه من خزائن صوصه على الجميع بالتساوي .

ورفض أنتجونس الإنذار فنشبت بينه وبين القواد المتحالفين حرب استمرت من عام ٣١٥ إلى ٣٠١ ق . م . وقد أفلح أنتجونس خلالها في الاستيلاء على سوريا الجنوبية ورد بطليموس إلى ما وراء غزة ، ثم اتجه إلى اليونان لمقاومة كاسندروس ، وهناك حاول تأليب المدن اليونانية عليه ، إذ أعلن سياسة الحرية والاستقلال لجميع المدن اليونانية ، وخلال عام ٣١٣ق . م . قاد بطليموس حملة على جزيرة قبرص ، ونجح في الاستيلاء عليها وقام بشن هجوم جديد على سوريا الجنوبية وحقق انتصارًا حاسمًا في موقعة غزة عام ٣١٢ ق . م . ثم تقدم واستولى على فلسطين وفينيقيا ، ولكن انتصاراته لم تدم طويلاً إذا اضطر إلى الانسحاب من فلسطين ، وأجبر على الانسحاب من إقليم برقة بسبب ثورة واليها عليه ، وهكذا فقد بطليموس معظم ممتلكاته الخارجية في عام واحد هو عام ٣١١ق . م .

وفي هذا العام نفسه ٣١١ ق . م . وجد القواد الآخرون أن لا جدوى من استمرار الحرب، فعقدوا اتفاقًا يقضي بتنازل بطليموس عن سوريا الجنوبية، وبأن يعترف «أنتجونس» بكاسندروس حاكمًا على اليونان حتى يبلغ الإسكندر الرابع سن الرشد، ولكن لم يمض عام واحد على هذا الاتفاق حتى خشي كاسندروس أن يبطل حقه في السيطرة على اليونان – وفاقًا لاتفاق عام ٣١١ ق . م . – إذا بلغ الإسكندر الطفل سن الرشد فقتله، واغتال أمه روكسانا عام ٣١٠ ق . م . وهكذا كانت نهاية أسرة فيليب الثاني وأسرة الإسكندر الأكبر .

وقد أفضى قتل الملك الشرعي إلى فقد اتفاق عام ٣١١ق . م . كل قيمة فعلية، ومن ثم أخذ بطليموس في العمل على تقوية سيطرته على البحر، وإنشاء إمبراطورية بحرية في بحر إيجيه متخذًا من جزيرة قبرص التابعة لسلطانه مركزًا لهجومه الجديد .

وفي عام ٣٠٩ ق . م . قاد أسطولاً قويًّا واستولى على ليكيا في آسيا الصغرى، وعلى جزيرة كوس التي اتخذها مقرًّا لقيادته في المنطقة، ثم استولى في العام التالي على جزر الكيكاديس، ويذهب بعض المؤرخين إلى أنه حصل على لقب «سوتير، أي المنقذ» لدى استيلائه على هذه الجزر بحجة إنقاذها من استبداد كاسندروس، وواصل بطليموس فتوحاته فنزل بجيوشه إلى كورنثه في قلب بلاد اليونان فهدد نفوذ كاسندروس وأنتجونس معًا، ولقلة التأييد الذي لقيه من المدن اليونانية قفل راجعًا إلى مصر وترك حامية عسكرية هناك، وكان ذلك خلال عام ٣٠٨ ق . م . الذي استطاع أن يسترد فيه سيطرته على إقليم برقة في ليبيا كما يظهر .

ولم يبق أنتجونس مكتوف اليدين إزاء انتصارات بطليموس في اليونان، ففي عام ٣٠٧ ق . م . وصل ابنه ديمتريوس إلى ميناء بيريه فسقطت حكومة الأقلية التي كونها بطليموس في اليونان، وعندما حاول القيام بحركة مضادة هاجم ديمتريوس قبرص، وانتصر على بطليموس وأسطوله وقضى على نفوذه البحري في موقعه سلاميس عام ٣٠٦ ق . م . وعندها أضفى أنتجونس على نفسه لقب «الملك» مما اعتبره القواد الآخرون تحديًا لهم، فأضفوا على أنفسهم هذا اللقب نفسه وصاروا ملوكًا في أقاليمهم وذلك منذ عام ٣٠٥ ق . م .

ولم يرض أنتجونس بهذا الوضع فقرر الاستيلاء السريع على مصر بعد أن سلب من بطليموس ممتلكاته الخارجية، غير أن بطليموس تحصن داخل مصر، وفي شتاء عام ٣٠٦ ق . م . زحف أنتجونس على مصر بَرًّا، وزحف ابنه ديمتريوس عليها بحرًا، ولظروف طبيعية قاسية فشلت الحملة عند بلوزيوم فانسحب أنتجونس من مصر، وعمل إلى حصارها اقتصاديًّا فلم يفلح لأن أهل جزيرة رودس لم ينضموا إليه في هذا الحصار، وذلك للروابط الاقتصادية العظيمة الفائدة التي كانت تربطهم تجاريًّا بالاقتصاد المصري الزاهر .

وفي عام ٣٠٢ ق . م . تكوَّن حلف جديد ضد أنتجونس فاستولى بطليموس على سوريا الجنوبية للمرة الثالثة ثم انسحب بسبب إشاعة ذكرت أن أنتوجنس انتصر على خصومه الآخرين، ولكن هذه الإشاعة كانت كاذبة لأن الحلفاء انتصروا في موقعة فاصلة عند «إيسوس Jesus» عام ٣٠١ ق . م . حيث قتل أنتجونس وفرّ ابنه ديمتريوس إلى إفيسوس، واجتمع القادة المنتصرون، وأعادوا توزيع الإمبراطورية على النحو التالي: كاسندروس في مقدونيا

واليونان، ولوسيماخوس في آسيا الصغرى، وسليوقس في بابل وسوريا، وبطليموس في مصر فقط.

ولم يرض بطليموس عن هذا التقسيم لأنه كان يعتبر نفسه صاحب الحق الأول في سوريا الجنوبية، وقد عاد لاحتلالها في المرة الرابعة، وأخذ في العمل على استعادة سيادته البحرية فاستولى على قبرص عام ٢٩٤ ق.م. وكانت ماتزال تحت سيطرة ديمتريوس، وأعقب ذلك بتأكيد نفوذه في بحر إيجيه، وحمايته لجزر الكيكلاديس عام ٢٨٧ ق.م.

ولنعد الآن إلى عهد بطليموس بن لاجوس بالحكم، فقد نشبت أمامه مشكلة جثة الإسكندر الأكبر والعمل وسع الطاقة على دفنها بالإسكندرية، وكانت رغبة الإسكندر أن يُدفَن بواحة سيوة في معبد والده الإله آمون، غير أن بطليموس «سوتير» عجل بالاستيلاء على جثته لدفنها في «منف» ومكانها الحالي البدرشين، وليس في سيوة، ولم تنقل الجثة إلى الإسكندرية إلا في عهد بطليموس الثاني الملقب «بفيلادلف».

ويقول بعض المؤرخين إن جثة الإسكندر وضعت في تابوت من الذهب المطروق، وبقي التابوت حوالي عامين في بابل إما للانتهاء من إعداد العربة التي خصصت لنقله، وإما للاتفاق على تحديد المكان الذي يدفن فيه الإسكندر، وبعد هذه المدة بدأ الموكب سيره إلى دمشق، ثم إلى مصر، حيث كان بطليموس في انتظاره، ولكن (برديكاس) بعث مساعده «بوليمون Polémon» إلى سوريا لمحاولة منع وصول الجثة إلى «منف Memphis» غير أن بطليموس زحف على سوريا في جيشه واستولى على التابوت كما تقدم.

ويقال إن بطليموس الحادي عشر الملقب «بالإسكندر الأول» نهب قبر الإسكندر الأكبر، واستولى على تابوته الذهبي على غرار ما فعله بالنسبة إلى قبور آبائه وأجداده. ويقال في رواية أخرى أن هذا الملك البطلمي استبدل بالتابوت الذهبي تابوتًا من الزجاج، ويذهب بعض المؤرخين إلى أن «أنتيوخوس جريبوس Antiochus Grypus» هو الذي وضع الجثة في تابوت من الزجاج، ومن المؤرخين من ذهبوا إلى أن كليوباترا (انظر هذه المادة) هي التي جمعت كل النفائس التي كان قبر الإسكندر الأكبر يضمها، واستولت عليها لتفرِّج عسرها المالي.

ولقد ذكرت من قبل الدعائم الأساسية التي قامت عليها سياسة بطليموس «سوتير» الخارجية، أم سياسته الداخلية في مصر، فقد كان هذا المقدوني يعتبر نفسه الوريث الشرعي للإسكندر الأكبر، ومن هنا نشأت فكرة تشييد مقابر «السوما» التي دفن فيها الإسكندر وملوك البطالمة الآخرين، وكان موقعها بين مسجد النبي دنيال والكنيسة المرقسية الحالية التي يطل بابها الخلفي على شارع النبي دنيال.

وسبق القول بأن بطليموس بن لاجوس أضفى على نفسه لقب «ملك» على غرار قواد الإسكندر الأكبر الآخرين وذلك بعد أن ظل واليًا على مصر حتى عام ٣٠٥ ق.م. ومن ثمّ صار في نظر رعاياه المصريين فرعونًا لمصر، وإلَهًا من آلهتهم، واتخذ لنفسه لقب «الملك الإله ابن الإله»، وكان عمره أربعين سنة، ومنذ ذلك التاريخ كان ملوك البطالمة يُسَمون جميعًا «بطليموس» ويحملون لقب العبادة التي كانوا يُعبَدون بها حتى في أثناء حياتهم.

ومنذ قدومه إلى مصر بادر إلى أخذ مقاليد الحكم في يده، ومارس السلطان الملكي المطلق فكان رئيس الدولة الفعلي سياسيًّا واجتماعيًّا ودينيًّا.

ولم يسر على النهج الذي كان الإسكندر يريد تحقيقه وفاقًا لفلسفة سياسية، ومُثُلٍ حضارية يسعى لبلوغها، وهي الإبقاء على رجال الإدارة والمديرين المصريين، ووضع المناصب التي تمس مصلحة الإمبراطورية العليا كالجيش والمالية في أيدي الإغريق، فقد عمل جاهدًا على الاعتماد في إدارة حكمه على المقدونيين والإغريق، ولاسيما في الجيش والإدارة، ولم يجد كبير عناء في ذلك لأن الإسكندر الأكبر ترك حامية وفيرة العدد حينما قرر العودة إلى بابل، ولابد أن بطليموس جلب معه عددًا آخر من المقدونيين والإغريق علاوة على من كان منهم في نقراطس أو ممفيس، وكان المقدونيون يؤلفون الطبقة الراقية في المدينة والسكندريون والمصريون وأبناء الشعوب الأخرى – ما عدا اليهود – يكونون طبقة الأحرار.

واتباعًا لسياسة ثابتة تشجع وتنظم هجرة الإغريق إلى مصر، منح الجنود ورجال الإدارة الإغريق قطعًا من الأرض تمكنهم من الاستقرار في كنفها وقت السلم، ولاسيما أن نظام المرتبات الثابتة لم يكن متبعًا في ذلك الحين، وعزز وجود الإغريق في مصر بالكثرة التي أرادها بطليموس أنه عاد من انتصاراته في الحرب ضد خصومه من قواد الإسكندر الأكبر الآخرين، ومعه عدد كبير من الجنود ليكونوا في خدمة دولته الناشئة.

وكان بين هؤلاء الإغريق الذين استوطنوا مصر عدد من الشخصيات البارزة من ذوي المواهب في الآداب والفنون، أمثال ديمتريوس الفاليري الذي قام بتأسيس مكتبة الإسكندرية الشهيرة، وهو من مشاهير الفلاسفة السياسيين الأثينيين، وتيموثيوس الأثيني الذي ينتمي إلى أسرة دينية عريقة، وكان حجة في الديانة الإغريقية، وكاليماخس الشاعر، وإرانسثنيس الجغرافي.

مدينة نقراطس وإبقاء بطليموس عليها

ولم تكن مصر خالية من الإغريق قبل تشييد الإسكندرية، فقد كانت بها جالية يونانية كبيرة العدد كان من نتائج وجودها في وادي النيل تأسيس مدينة «نقراطس Naucratis» التي يقوم في مكانها في الوقت الراهن «نقراش وكوم جعيف ونبيرة» بمركز إيتاي البارود في غرب الدلتا، ويذكر التاريخ أن هذه المدينة التي شيدت على فرع النيل الكانوبي (فرع رشيد) خلال عام ٦١٢ ق.م. في عهد أبسماتيك مؤسس الأسرة السادسة والعشرين الفرعونية صارت فيما بعد مركزًا تجاريًّا مزدهرًا يضم جالية إغريقية كبيرة حشدها الملك أحمس الثالث في القرن السادس عشر قبل الميلاد، ولم تكن نقراطس مستعمرة من الطراز الإغريقي المألوف، وإنما مؤسسة تجارية في قطر أجنبي، وكان وجودها في مصر دليلاً على العرفان بالجميل للإغريق الذين لم يبخلوا على المصريين بالعون للتخلص من الاستعمار الفارسي، فأمدوهم بأسطول عديد الوحدات، وتطوع للانضمام في جيوشهم كثير منهم كانوا يرفضون الانضمام إلى الجيوش الفارسية لإخماد ثورة المصريين، وهكذا ظلت العلاقات الطيبة تسود المعاملات المختلفة بينهم طوال العهد الفارسي.

لم ينشئ مدنًا أخرى سوى (بطلمية) في الصعيد

ولقد أبقى بطليموس على هذه المدينة التي لم تندثر إلا في القرن الثالث الميلادي، كما أبقى على الإسكندرية تخليدًا لذكرى مؤسسها الإسكندر الأكبر، ولم ينشئ من المدن سوى مدينة واحدة في أعلى الصعيد هي «بطلمية Ptolemais»، لتكون تخليدًا للحكم البطلمي في مصر ومركزًا لحامية تدافع عن جنوب دولته وموقعها الحالي «المنشاة» بمحافظة جرجا.

توزيع اليونانيين على المدن لعدم تكوين «دول المدن» وفقًا لفلسفة أرسطو

وبعد أن استوطن الإغريق هذه المدن الثلاث، وزع بطليموس الفائض منهم على الأرض الزراعية في قرى وبلدان النومات المختلفة ولاسيما في نوموس بالفيوم، وبهذه الوسيلة في التوزيع منع بطليموس قيام نظام «دول المدن» في اليونان لتكون مستقلة في إدارتها وهو نظام لا يتفق ونظام حكم البطالمة في مصر، ومن ثم استطاع بعثرة الإغريق في الأراضي الزراعية ليزيدوا من الإنتاج ويسهموا في خطة التنمية الاقتصادية في البلاد، وكان قضاؤه على دول المدن في مصر تنفيذًا لفلسفة أرسطو (انظر مادة أرسطو) التي تأثر بها إلى أبعد حد حينما كان في البلاد المقدوني يشارك الإسكندر الأكبر في تلقي الدروس على يد هذا الفيلسوف المقدوني.

كان محبًا للعلوم والآداب ومثقفًا ومؤلفًا

وعلاوة على الصفات التي ذكرت قبلاً، كان بطليموس الأول «سوتير» راعيًا للعلوم والآداب التي تأخذ منابعها من مناهل المعرفة والثقافة اليونانية، وكان يجلس في قصره مع الحكماء والعلماء، ويناظرهم ويفيد من معارفهم ومعلوماتهم، وقد عهد إلى «إستراتون دي لامبيساك Straton de Lampsaque» عالم الطبيعة، و«فيليتياس» بتربية ابنه «فيلادلف»، وهذه النزعة الأدبية لا تستغرب منه، فقد كان هو نفسه على حظ وافر من الثقافة في عهده، فهو مؤلف كتاب سيرة الإسكندر الأكبر، وقد فصل في أبوابها جميع حروبه وغزواته، وإذا كان هذا الكتاب قد فُقِد فإن ما دوّنه بطليموس في ثناياه كان أهم المصادر التي اعتمد عليها المؤرخون الذين جاؤوا بعده، واطلعوا على كتابه، وذلك في تدوين هذه السيرة.

ولقد جاء في تفصيل سيرة بطليموس «سوتير» أنه كان يحضر دروس الهندسة على يد «إقليدس»، وهو منتبه مصغٍ كأحد التلاميذ، وكان مشبعًا بآراء أرسطو وكلفًا بالفلسفة وآراء الفلاسفة.

وما من شك في أن هذه الصفات كانت قمينة بأن تساعده على تأسيس الدولة البطلمية، وإقامة ملكها العريض الجاه على دعائم صلبة، ويؤكد مؤرخو سيرته أنه كان أول مقرر لنظام المنح العلمية تشجيعًا للعلماء على البحث والإنتاج.

المعلومات الخاصة بطفولته وصباه

والمعلومات المتعلقة ببطليموس الأول في طفولته وصباه قليلة جدًّا، وتكاد تنحصر في أنه ينتمي إلى أسرة متوسطة الحال من نبلاء مقدونيا، وأنه تربى وتعلم في شبابه بالقصر الملكي مع الإسكندر وذلك اتباعًا للقاعدة التي كانت سائدة حيال أبناء طبقة الأشراف، وأثناء حروب الإسكندر صار أحد أعضاء حرسه الخاص، فكان حارسًا على حياته، ومستشارًا

في هيئة أركان حربه، وقد أخلص في خدمته وأظهر تفوقًا في مواهبه وقدرته الحربية وذلك في معارك عديدة، وكان إلى جانب كل ذلك لا يقل حماسة عن الإسكندر في بث الروح الهيلينية، والثقافة الإغريقية في البلاد التي آلت مقاليدها إليه منذ قدومه إليها في صيف عام ٣٢٣ ق. م.

كان له الفضل الأكبر في تقدم الإسكندرية الحضاري والعمراني

وما من شك في أنه كان لبطليموس الأول «سوتير» الفضل الأكبر في تقدم الإسكندرية الحضاري، ورقيها العمراني الباهر على مر القرون، تشع من أرجائها البهيجة أنوار الحضارة والمعرفة، فتهدي المدلجين – في ظلام العصور السحيقة – إلى طريق العلوم والفنون وتبيِّن لهم سبيل التقدم الإنساني في نهج الرقي الفكري، وتتبوأ أرقى مكان بين مدن العالم في ذلك الحين، لدرجة أن الجغرافيين القدامى وجدوا في رقيها وازدهارها ما يسمح لهم بأن يطلقوا اسمها على البحر الأبيض المتوسط فيسمونه «بحر الإسكندرية»، هذا وقد كان لها – علاوة على مركزها الثقافي الممتاز – مركز اقتصادي جم النشاط يمتد نطاقه إلى قرطاجة (تونس الآن) وروما والهند، وظل هذا النشاط الدائب بين أحضانها ثمانية عشر قرنًا، إذ لم يفتر إلا بعد اكتشاف البرتغاليين الطريق إلى آسيا بالدوران حول رأس الرجاء الصالح في جنوب إفريقيا.

ارساء الإسكندر للمدينة وتخطيط دينوقراطس لها

ويدلنا التاريخ على أن الإسكندر الأكبر أرسى أساس الإسكندرية في شهر طوبة (يناير – فبراير) عام ٣٣١ ق. م. ثم قفل راجعًا إلى الشرق ليتم حروبه وفتوحاته وقضى نحبه في بابل عام ٣٢٣ ق. م. فاقتسم قواد إمبراطوريته على النحو المفصل قبل.

وكان قد عهد بتخطيط المدينة إلى المهندس «دينوقراطس Dinocrates» الرودي، فقام بهذا العمل وجعل بعض شوارعها المستقيمة تقاطع البعض الآخر في زوايا قائمة على هيئة رقعة الشطرنج، وقد قامت الإسكندرية لتحل محل قرية «راقودة» المصرية والتي كان مكانها حتى كوم الشقافة.

سرعة تشييد المدينة

ولم يتوان بطليموس «سوتير» في سرعة تشييد المدينة فلم يمض غير وقت قصير على إنشاء معالمها الأولى حتى اعتبرت المدينة الثانية في الدنيا بأسرها، وما لبثت أن صارت عاصمة العالم، ومحط إعجاب الشعوب ولاسيما عندما جعل منها بطليموس الأول عاصمة دولته بدلاً من «ممفيس»، فوفد عليها العلماء والطلاب من كل صوب وحدب، واستوطنها خليط كبير من أبناء الأمم المختلفة فسكنتها جاليات من اليونانيين، والمقدونيين، والهنود، واليهود يدينون بعقائد شتى، وبذلك أصبحت نقطة اتصال وثيق بين الإغريق والمشارقة.

وكانت شوارع المدينة في عهد بطليموس «سوتير» قد أخذت في ارتداء زينتها الجميلة، واكتسبت الأبنية المقاومة على جانبيها روعة وبهاء مما أضفى عليها حلة من الرونق الوضّاح، ولاسيما في الشارع الكانوبي الذي يشتق اسمه من قرية «كانوبوس Canopus» التي كانت بالقرب من ضاحية أبي قير الحالية، وقد اشتهرت هذه القرية في العهد البطلمي بأنها صارت موطن الملاذ مما أكسبها سمعة خلقية سيئة.

وقد عثر محمود باشا الفلكي (انظر هذه المادة) على قطع من قاعدة الشارع الكانوبي تدل على أن رصفه كان بالأحجار السوداء، وذكر أن رصف شوارع المدينة بأسرها حدث بعد عدة قرون من تاريخ إنشائها مما يدل على أن هذا الرصف حدث في العهد الروماني.

أما الأبنية التي كانت تقوم على جانبيه، فيصفها المؤرخون بأنها ذات بوائك، وعقود تقوم على أعمدة من الرخام الملون، وكان الشارع الرئيسي المقاطع للشارع الكانوبي يبدأ بالقرب من «رأس لوخياس Cap Lochias» (السلسلة) في الشمال، وينتهي عند ترعة شيديا في الجنوب، وكان يمتد - على وجه التقريب - في الشارع الذي يحمل الآن اسم «قناة السويس»، وكان عرضه ١٤ مترًا مثل الشارع الكانوبي، أما الشوارع الطولية والعرضية الأخرى وعددها ١٦ شارعًا فكان عرضها ٧ أمتار.

وما من شك في أن الشارع الكانوبي كان يمتد في المسافة التي يستقيم فيها طريق الحرية الآن، وكان يدعى في أوائل القرن العشرين «بشارع باب شرقي» أو «شارع باب رشيد»، ومازال قسم الشرطة الواقع عند حدائق الشلالات يسمى «قسم باب شرقي».

المباني مزينة بأعمدة من الرخام الملون وبداخلها الحدائق

ولقد حرص بطليموس (سوتير) على أن تكون مباني الإسكندرية ومنشآتها غاية في الرونق والبهاء، ويؤيد ذلك وصف المؤرخين الذي يطنبون في روعة هذه المباني، ويقولون إنها كانت مزينة بأعمدة من الرخام الملون تقوم على جانبي الطرق مشيدة على أبهى طراز، وبداخلها حدائق منسقة حافلة بالكروم وشجر الجميز، ويصل إليها ماء الشرب عن طريق قنوات تتصل بالخزانات (الصهاريج)، وماء الشرب يأتيها من قناة تتفرع من النيل عند شيديا (كوم الجيزة الآن)، ولذا سميت القناة بترعة شيديا، وكان ابتداء تفرعها من النيل على بعد ١٧ كيلو مترًا من الإسكندرية، وتتخذ مجرى يطابق مجرى قناة المحمودية - الحديثة تقريبًا - ويبدو أن قناة شيديا كانت تمد قرية راقودة والقرى المجاورة لها بالماء العذب زمن الفراعنة، وقد جاء ذكر ذلك في قصة الإسكندرية التي تنسب إلى كالليسثنس، فقد قيل فيها إن المياه العذبة كانت راقودة وقراها من ١٢ قناة تتفرع من قناة كبيرة، وقد رُدِمت القنوات الصغيرة عند بناء الإسكندرية لتشق الشوارع فوقها، أما القناة الكبيرة فكانت فرعين عند بزاي (حجر النواتية حاليًّا) يتجه أحدهما إلى قرية كانوبوس.

المنازل العادية تتكون من طبقات لتخزين المياه

أما المنازل العادية في الشوارع الثانوية فكانت مشيدة فوق قناطر تستند إلى أعمدة بعضها فوق بعض حتى الطبقة الثالثة لتكون بمثابة صهاريج لخزن مياه الأمطار، وكانت هذه المنازل من أربع طبقات في الأماكن المرتفعة من المدينة، وتتخذ مجرى يطابق مجرى قناة المحمودية الحديثة تقريبًا، ويبدو أن قناة شيديا كانت تمد قرية راقودة والقري المجاورة لها بالماء العذب زمن الفراعنة، وقد جاء ذكر ذلك في قصة الإسكندرية التي تنسب إلى كاللبسثنيس، فقد قيل فيها إن المياه العذبة كانت تمد راقودة وقراها من ١٢ قناة، تتفرع من قناة كبيرة، وقد ردمت القنوات الصغيرة عند بناء الإسكندرية لتشق الشوارع

فوقها، أما القناة الكبيرة فكانت فرعين عند بتراي (حجر النواتية حاليًّا)، يتجه أحدهما إلى قرية كانوبوس.

قانون البناء

وكانت قوانين البناء تحتم ترك قدم على الأقل بين كل منزل وآخر، إلا إذا كان هناك اتفاق بين الجارين على إقامة جدار مشترك، وقال المؤرخ والفيلسوف اليهودي «فيلون Philon» إن المدينة كانت وقت إنشائها مقسمة إلى خمسة أحياء أطلق على كل منها حرف من حروف الهجاء الأولى اليونانية وهي: ألفا، بِيْتا، غاما، دِلْتا، سِيْلون، وكان أهم هذه الأحياء الخمسة: الحي الملكي أو حي القصور الملكية المطل على الميناء العظيم، ويشغل أكثر من ربع المدينة، ويمتد بين البحر والشارع الكانوبي (طريق الحرية الآن) مكونًا الجزء الأكبر من المدينة الجديدة.

وكما هي الحال في كل العصور خشي بطليموس «سوتير» والملوك البطالمة من بعده شر التخريب اليهودي، ولاسيما بعد أن نزح إلى الإسكندرية الجديدة عدد كبير من يهود مدينة دمنهور ومدن القطر المصري الأخرى بغية السيطرة على الكيان الاقتصادي فيها، ولتفادي هذا الضرر خصص لإقامة الطائفة اليهودية حي (دِلْتا) الذي يقع مكانه الحالي في المنطقة الكائنة بين «رأس لوخياس – لسان السلسلة» وبداية حي كامب شيزار وتشمل مدافن الإسرائيليين، ولم يذكر التاريخ شيئًا مفصلاً عن معالم هذا الحي في العهد الذي شيدت فيه مدينة الإسكندرية، وإن كان يذكر أن أفراد الجالية اليهودية كانوا من طبقتين عليا ودنيا، وكان المسنون منهم يتولون تصريف أمورهم، ولامتلاك عدد كبير من طبقتهم العليا لأموال طائلة أضفيت على الجالية بأجمعها سمعة الثراء، أما الأعمال التي يزاولونها فأهمها التجارة والصناعة الخاصة بالمجوهرات والمصوغات والمواد الحديدية وظهر منهم مؤلفون وكتاب أسهموا في ترجمة التوراة.

ولم يمنح بطليموس «سويتر» ولا خلفاؤه من ملوك البطالمة لليهود الحقوق التي كان المواطنون السكندريون من مقدونيين ويونانيين يتمتعون بها عند تشييد المدينة، والتي منحت للمصريين بعد ذلك، إذ كان اليهود يُعتَبَرون أفراد جالية أجنبية سُمِح لها بنظام إداري وتشريعي خاص، ولهم سجلات لقيدهم على حدة، وتطبق عليهم قوانين خاصة في بعض الأحيان، ويعيشون في معزل عن مواطنيهم بسبب تباين عقيدتهم الدينية، ولكن هذا الحذر لم يعنِ شيئًا، فعندما سنحت الفرصة ليهود الإسكندرية بالإسهام في القضاء على العهد البطلمي في مصر لم يترددوا في معاونة «أوكتافيوس» الروماني على دحر «أنطونيوس» وزوجته «كليوباترا» (انظر هذه المادة) بأن بادر الجنود اليهود إلى الزحف من دمنهور لنجدة القائد الروماني بالإسكندرية، ولذا كوفئوا على هذه المعاونة الغادرة بمنحهم حقوق المواطنين والسماح لهم بالانتقال إلى سكنى المدينة فاختاروا جسر «الهيتاستاد» وكان قد اتسع عرضه بسبب تراكم الغرين على حافتيه الغربية والشرقية من ترعة «شيديا» التي يحمل اسمها شارع بجهة الإبراهيمية بضاحية الرمل (انظر مادة شيديا) وجسر «الهيتاستاد» بادر بطليموس «سوتير» إلى إنشائه في مستهل عهده بالحكم لوصْل المدينة بجزيرة «فاروس» التي تضم الآن قسم الجمرك بأسره، وكان طول هذا الجسر ١٢٣٥ مترًا، وأطلق عليه اسم «جسر الهيتاستاد» لأن طوله كان يعادل سبعة استادات يونانية، وكان

عرضه عند إنشائه ٣٠ مترًا ثم اتسع هذا العرض على مر السنين من جراء تراكم الطمي فتحول إلى برزخ وصل اتساعه إلى أكثر من ١٢٥٠ مترًا، ولم يكن فوقه غير قليل من الأبنية حتى القرون الوسطى، أما الآن فقد صار من أغزر أحياء المدينة اكتظاظًا بالسكان.

ويقع الجزء البطلمي في المنطقة الممتدة بين كوم الناضورة بشارع الباب الأخضر (شارع السكة الجديدة) بقسم اللبان، وشارع صفر باشا بقسم الجمرك، ومازالت حارة اليهود وسط هذه المنطقة بالذات عند زاوية شلتوت مما يدل يقينًا على أن الناحية التي اختارها اليهود لسكناهم داخل المدينة هي هذه الحارة نفسها، ولاسيما أن المؤرخين يجمعون على أن سكان حي (دلتا) اليهود أبدوا الرغبة في الإقامة فوق الجسر لوقوعه بين الميناء الشرقي والميناء الغربي وجوّه اللطيف بين البحرين وقربه من موطن التجارة، و الحركة الاقتصادية مما يسهل عليهم مزاولة نشاطهم المعروف في هذا الميدان، وممارستهم تقديم القروض بالربا الذي هو عصب ثرائهم على مر الأجيال.

ويشمل اتساع جسر الهيتاستاد الآن جميع الشوارع والمباني التي يحدها شارع الباب الأخضر شرقًا، وشارع إسماعيل صبري باشا غربًا، ورصيف الميناء الشرقي شمالاً والدائرة الجمركية من باب الواردات إلى باب الكرسته جنوبًا.

وصف جسر الهيتاستاد

ولقد أدى تشييد «جسر الهيتاستاد» الذي وصل المدينة بجزيرة فاروس إلى خلق ميناءين أحدهما في الشرق، وأطلق عليه اسم «بورتوس ماجنوس Portus Magnus» أي الميناء العظيم، وهو الميناء الشرقي الحالي، والآخر في الغرب وسمي «بورتوس يونستوس Portus Eunostus» أي ميناء السلام أو العود الأحمر، وهو الميناء الغربي الحالي الذي يضم الدائرة الجمركية في حيزه الواسع.

وترك في «جسر الهيتاستاد» وقت إنشائه ممران لعبور السفن من أحد الميناءين إلى الآخر أحدهما عند بدايته بكوم الناضورة، والآخر عند نهايته في الطرف الجنوبي من جزيرة فاروس أي عند تقاطع شارع إسماعيل باشا صبري (انظر هذه المادة) بشارع صفر باشا بالقرب من ضريح سيدي العدوي، وذكر «هيرتيوس Hirtius» أنه كان عند كل ممر حصنان لحمايتهما، وحدد محمود باشا الفلكي مكان الحصن الذي كان عند بدايته بأنه كوم الناضورة، ومكان الحصن الذي كان عند نهايته بأنه في موقع حمام صفر باشا الذي هُدِم، وذكر بعض المؤرخين أنه كان عند كل ممر من الممرين قنطرة مرتفعة تستطيع السفن العبور من تحتها إلى أحد الميناءين.

الميناء الملكي بجانب لسان السلسلة

وبالقرب من «رأس لوخياس Cap Lochias» (لسان السلسلة) خصص بطليموس «سوتير» ميناء صغيرًا أطلق عليه اسم «الميناء الملكي» وكان يقع في الجزء السفلي من رأس لوخياس في شرق جزيرة «أنتيرودوس Antirrhodus» التي اختفت تحت سطح البحر إثر انخفاض مستوى المدينة في العصور المنصرمة، وكان تجاه الجزيرة الصخرية الصغيرة التي أقيمت فوقها المنارة العجيبة، التي سيأتي ذكرها فيما بعد، حاجز أمواج يمتد شرقًا صوب «رأس لوخياس» فيحمي الميناء الشرقي من التيارات المائية والرياح الشمالية.

الميناء الشرقي والميناء الغربي وتخصص كل منهما

وكان الميناء الشرقي «بورتوس ماجنوس» المرفأ التجاري الأساسي للمدينة وظلّ على هذا الحال طوال العصر الإسلامي، أما الميناء الغربي «بورتوس يونستوس» فكان مخصصًا للسفن الحربية، وظل كذلك حتى القرن السابع عشر الميلادي ثم استخدم لرسو السفن التجارية بعد ذلك، ولم يكن يسمح لسفن المسيحيين بدخوله حتى عام ١٢١٨هـ (١٨٠٣م).

إقامة سوتير أسوار المدينة لحمايتها

ولحماية الإسكندرية من الغارات الخارجية أقام بطليموس الأول أسوارًا حولها... وأدخل خلفاؤه تعديلات شتى على هذه الأسوار حسب تغير مساحة المدينة نفسها عبر السنين، وتدل أقوال المؤرخين على أن هذه الأسوار أقيمت عقب الانتهاء من تشييد المدينة.

وتدل الأبحاث العلمية الخاصة بالآثار في مدينة الإسكندرية على أن الأسوار التي ظلّ بعضها قائمًا حتى عام ١٢٢٦هـ (١٨١١م) وهي الأسوار التي أمر بإصلاحها محمد علي ووجدها محمود باشا الفلكي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لدى تأليفه كتاب «الإسكندرية القديمة Alexandrie L'Antique» الذي أتمه خلال عام ١٨٦٦م، أن الجانب المواجه منها للمدينة قد تهدم، هذه الأسوار لم تكن تلك التي كانت تحيط بالمدينة في عهد البطالمة علاوة على أنها لا تشغل مكانها القديم نفسه، ويذهب بعض المؤرخين إلى أنها شيدت أيام أحمد بن طولون (انظر مادة ابن طولون) وذلك اعتمادًا على ما ذكره وأكده «المكين» الكاتب العربي الحجة دون أسانيد متينة.

وكانت هذه الأسوار الحديثة خلال عام ١٨١١م الآنفة الذكر تتكون من حائط خارجي يصل ارتفاعه إلى ٦,١٠ من الأمتار، وخلف الحائط في معظم الجهات سور داخلي أكثر ارتفاعًا، وأعرض سمكًا يبعد عن الحائط الخارجي سبعة أمتار ونصف المتر، وكانت الأبراج العديدة تتخلل السورين على مسافات متقاربة.

اكتشاف الفلكي للأسوار حول المدينة من رأس لوخياس

وقد اكتشف الفلكي آثار الأسوار القديمة البطلمية وقال في كتابه «الإسكندرية القديمة» إنه وجد بطريق الحفر وراء «رأس لوخياس» (السلسلة) أساسات يبلغ عرضها خمسة أمتار بنيت من أحجار صغيرة وبلاط مكون من الجير وقطع الطوب الصغيرة وذكر أن بقايا هذه الأسوار كانت تشاهد حتى ذلك الحين على امتداد شاطئ البحر في مسافة قدرها ٣٠٠ متر وذلك في الجزء الواقع بين أسفل لسان السلسلة وبين جهة الشاطبي (أي حتى مبنى إدارة جامعة الإسكندرية الحالي على وجه التقريب)، ثم تابع الفلكي الحفر في مسافة طولها كيلو مترين، فعثر فيها على بقايا الأسوار ووجد أنها من نوع من البناء نفسه، وبعرض خمسة أمتار دائمًا، وذلك في الجهات الممتدة على شاطئ البحر من مبنى إدارة الجامعة حتى بداية «كامب شيزار» حيث ينحني السور ويتجه جنوبًا في امتداد الشارع الواقع خلف كلية الهندسة إلى القرب من تقاطعه مع الشارع الكانوبي (طريق الحرية الحالي)، وقد علم الفلكي من سكان هذه الجهات أنهم قاموا بهدم الحائط في

هذين الجزأين من السور، واستخدموا أحجاره في إقامة بعض المباني الخاصة.

ومن نقطة اقتراب السور من تقاطعه مع الشارع الكانوبي، وعلى امتداد ٧٠٠ متر وجد الفلكي تعذر البحث عن آثاره بوساطة الحفر لأن الماء كان ينبثق في هذه المسافة على عمق مترين فقط، غير أن الباحثين عن الأحجار أبلغوه أنهم شاهدوا السور، يستمر في امتداده خلال مسافة السبعمائة متر بعرض خمسة أمتار وبنوع البناء الآنف الذكر نفسه إلى أن يصل إلى المسجد الصغير والمنازل المتواضعة الكائنة بجهة الحضرة المنخفضة السطح بالنسبة إلى مستوى البحر، وهكذا عثر الفلكي على خط سير الأسوار القديمة البطلمية في مسافة قدرها ثلاثة كيلومترات.

ومن منطقة الحضرة واصل الفلكي بحثه، فأجرى حفريات في ثمانية دروب مختلفة، واتضح له أن السور يتجه من مسجد الحضرة صوب الجنوب الغربي ثم يسير في امتداده متعرجًا نحو الغرب فالشمال إلى أن يصل إلى الميناء الغربي «يونستوس Eunostus» ميناء العود الأحمد، وفي معظم هذه المسافة الأخيرة تأكد الفلكي من أن السور يتخذ في سيره مكان ترعة المحمودية الحالي ابتداء من حي الحضرة مارًّا بحي محرم بك، فكرموز، فكفر عشري، ثم يتجه شمالاً صوب الميناء الغربي مخترقًا جزءًا من مينا البصل.

أما الجزء الذي كان يكمل الأسوار المحيطة بالمدينة والممتد على طول شاطئ البحر من الميناء الغربي إلى «رأس لوخياس السلسلة» فيرجح الفلكي أنه كان رصيفًا لتيسير شحن وتفريغ السفن التي كانت تأتي إلى الميناء، وتصل إلى درجات هذا الرصيف، ويطابق هذا الترجيح ما ذكره المؤرخ «سترابون Strabon» في هذا الشأن.

ولم يترك الفلكي أمر هذا الجزء من السور إلى مجرد الترجيح، فاستمر على البحث الدقيق، واستطاع اكتشاف بقايا الرصيف بمعاونة الصيادين في زورق استقله طوال يوم هادئ الجو، فرأى هذه البقايا بكل تعرجاتها في المنطقة الممتدة من «رأس لوخياس – السلسلة» إلى مكان «القيصريون»، أي إلى الموقع الذي يبدأ عنده شارع صفية زغلول الذي كان يحمل اسم «شارع السلسلة» فيما مضى لقيام المسلتين اللتين كانتا أمام معبد «القيصريون» الذي شيدته الملكة «كليوباترا» تكريمًا لحبيبها «أنطونيوس»، وقد أخذت المسلتان لتقام إحداهما في لندن، والثانية في نيويورك، وكانت تلك البقايا على عمق مترين، أو ثلاثة أمتار تحت سطح الماء، مما يقطع بنقصان مساحة المدينة على شاطئ الميناء الشرقي بسبب الزلازل، ولا سيما في الجهتين الشمالية، والشرقية من هذا الشاطئ.

تحديد الفلكي لطول الأسوار البطلمية

ولما كان جسر «الهيتاستاد» قد وصل عرضه في الميناء الشرقي إلى النقطة من الشاطئ المقابلة لشارع النبي دانيال (شارع السوما قديمًا) وذلك بفعل تراكم الطمي من ترعة شيديا، وتراكم مخلفات الهدم وزحف الرمال على الساحل، فشمل جزء رصيف الميناء الشرقي الحالي الواقع بين شارع النبي دانيال، وابتداء اللسان المتجه إلى حصن قايتباي عند نقطة شرطة الأنفوشي، فقد اكتشفت في بداية النصف الثاني من القرن الماضي أجزاء أخرى من السور عند وضع أسس البيوت الحديثة التي أقيمت في جهات متفرقة من قسم المنشية، وهكذا استطاع الفلكي بفضل أبحاثه الدقيقة الموفقة

تحديد طول أسوار الإسكندرية في العهد البطلمي بمسافة قدرها ١٥,٨٠٠متر، وتصل هذه المسافة إلى ١٦,٤٠٠ متر إذا أضيفت مسافة الستمائة متر التي كان طريق أنطونيوس يمتد فيها داخل البحر عند معبد «القيصريون Caesareum»، وقد اختفى هذا الطريق تحت سطح البحر بفعل الزلازل التي اجتاحت الإسكندرية، وكان في نهايته مبني «التيمونيوم» أي مبنى إدارة تموين السفن وكان في بداية إنشائه قصر الأنطونيوس.

ولزيادة تحصين المدينة ضد الغارات الخارجية أمر بطليموس (سوتير) بحفر خندق طويل كان يملأ من ماء النيل وقت الحاجة لزيادة وسائل الدفاع عن الإسكندرية.

مناعة أسوار الإسكندرية

ويدل على مناعة أسوار الإسكندرية القديمة أن «أنتيوخس الرابع ملك سوريا الملقب بإيبيفان Epiphanes Antiochus IV» (أي المجيد)، الذي قام حكمه عام ١٧٤ إلى ١٦٤ ق.م. لم يستطع اقتحامها في سنة ١٧٠ ق.م. في عهد بطليموس السادس الملقب بغيلو ماتر (أي المحب لأمه) (انظر مادة البطالسة)، وأن الإمبراطور «دقلديانوس» الروماني وقف أمامها ثمانية أشهر في عامي ٢٩٥، ٢٩٦م قبل أن يستطيع اقتحام المدينة.

اختفاء أجزاء من الصخور والساحل وطريق أنطونيوس

واختفاء الميناء الملكي في أسفل «رأس لوخياس – لسان السلسلة» واختفاء جزء كبير من رأس لوخياس، إذ كان عرضها أكثر من كيلو متر، وهي الآن لا تزيد على ٣٠ مترًا فقط، واختفاء جزيرة أنتيرودس، والرصيف الممتد على ساحل الميناء الشرقي بعمق مترين أو ثلاثة أمتار تحت سطح البحر، وطريق أنطونيوس ومبنى التيمونيوم في طرفه الشمالي، والصخور العديدة التي تتخلل مساحة الميناء في الشمال والشرق والغرب، كل هذه العوامل الطبيعية تقطع بأن مساحة الإسكندرية من جهة الميناء الشرقي قد نقصت بمقدار كبير، وذلك في المسافة الممتدة من رأس لوخاس – السلسلة» إلى نقطة بداية جسر الهيتاستاد عند مكان كوم الناضورة الحالي، وقد استعادت المدينة الكثير من هذا النقصان عن طريق اتساع جسر الهيتاستاد في حيز الميناء الغربي، وفي حيز الشرقي بسبب تراكم الطمي من ترعة شيديا، وتراكم الأنقاض، وزحف الرمال على جانبيه لدرجة أن عرضه بلغ في عهد الفلكي أكثر من ١٢٥٠مترًا بعد أن كان ٣٠ مترًا فقط وقت إنشائه.

أصل كلمة المنشية

وتشمل هذه الزيادة في المساحة قسم المنشية بأسره وجزءًا من قسم الجمرك، ولعل كلمة (المنشية) التي يحملها قسم المدينة الذي تولد عن اتساع جسر الهيتاستاد ترجع إلى كلمة المنشأة أي الجهة الحديثة التي نشأت عن ذلك الاتساع، وقد يخالف هذا الرأي قول الكثير من أهالي الإسكندرية أن الكلمة أطلقت على ميدان محمد علي (ميدان التحرير الآن) عقب إعادة بناء المنازل والمنشآت القائمة على جانبيه بعد أن خربتها الحرائق خلال عام ١٨٨٢م وهو العام المشؤوم الذي كان بداية الاحتلال الإنجليزي الغاشم للقطر المصري.

الأسوار الحديثة للمدينة وأبوابها التي وجدها العرب عند الفتح

وفيما يتعلق بأسوار المدينة الحديثة اللاحقة للعهد البطلمي والتي يقال إن مشيدها هو أحمد بن طولون فإنه يحسن التعرض لها في شيء من التفصيل في هذا الجزء من البحث، وذلك بعد التحدث عن الأسوار الأقدم منها التي كانت قائمة وقت الفتح الإسلامي.

فقد وجد العرب عند الفتح أن لتلك الأسوار أبوابًا عديدة ذكروا منها: باب البحر الموصل إلى «رأس لوخياس - السلسلة» وكان يتوسط حيز الميناء الشرقي القوسي، وباب رشيد أو باب الشمس، وهو باب الشرق ولابد أن موقعه كان في الجهة الشرقية من قسم شرطة باب شرقي وعلى وجه التقريب أمام المستشفى اليوناني «كوتسيكا» التابع الآن لهيئة التأمين الصحي، علمًا بأن طريق الحرية المار بهذه الجهة كان يدعى إلى وقت غير بعيد «بشارع باب رشيد»، ثم باب السدرة، ويقول بعض المؤرخين العرب إن شجرة سدرة، وهي شجرة النبق، كانت خارج هذا الباب عند الفتح العربي للمدينة، ومازال الحي الواقع في جنوب مدرسة رأس التين (المدرسة الإيطالية سابقًا) والذي يشمل الجهة الكائنة بين هذه المدرسة ومنطقة عمود السواري وشارع كرموز حتى ترعة المحمودية يسمى «حي باب سدرة» والباب الأخضر، وكان العرب يطلقون عليه اسم «باب الأموات»، لأنه يؤدي إلى مقابر كوم الشقافة وجبّانة عمود السواري، ومازال اسم «الباب الأخضر» يطلق على شارع «السكة الجديدة» الذي يضم الصاغة الكبرى، ويطل عليه كوم الناضورة وينتهي عند باب الكرسته (أي باب الأخشاب باللغة التركية)، إذ كانت الواردات من الأخشاب إلى القطر المصري تخرج عادة من هذا الباب بالدائرة الجمركية، وباب القمر وكان في الجهة الجنوبية من المدينة أي في قسم مينا البصل.

ويذكر بعض المؤرخين أن أسوار المدينة القديمة هُدِمت عند الفتح العربي، وأن الخليفة العباسي المتوكل على الله أمر ببناء أسوار جديدة في عام ٢٤٤هـ (٨٥٨م) وليس أحمد ابن طولون كما يؤكد «المكين» الكاتب العربي، وكما يظن بعض الناس، وذلك لحماية المدينة من الغزو الإغريقي، وإذا كانت هذه الأسوار هي التي وجدت آثارها عام ١٢١٥هـ (١٨٠٠م) فإن رقعة مدينة الإسكندرية تكون قد ضاقت إلى نصف ما كانت عليه وقت الفتح الإسلامي.

وقد رممت هذه الأسوار في عهد الظاهر بيبرس رابع سلاطين المماليك البحرية في مصر، وقد امتد حكمه إلى عام ٦٧٦هـ (١٢٧٧م) ورممت مرة ثانية خلال عام ٧٠٣هـ (١٣٠٣م)، عقب زلزال أطاح بسبعة عشر برجًا من أبراجها ثم تناولها الإصلاح الشامل في عهد السلطان الغوري (انظر مادتي بيبرس والغوري).

وتدل جميع هذه المنشآت على أنها آثار عجيبة من وسائل التحصين التي ظلت متبعة في كثير من المدن حتى العصور الوسطى، وليس من المستطاع تحديد تاريخ إنشاء كل منها بالضبط، ومن الثابت أن حصنًا يسمى (حصن الرمَّان) كان يقوم على بُعْد قليل خلف الأسوار، ويرجح كثيرًا أن مكانه كان بجوار محطة الرمل أي بميدان سعد زغلول الحالي.

ويتضح من الخريطة التي رسمت لمدينة الإسكندرية عند نزول الحملة الفرنسية بها عام ١٧٩٨م (١٢١٣هـ) أن باب

الشمس (باب رشيد) كان موجودًا، وكانت المسلتان قائمتين بالقرب من البحر عند بداية شارع صفية زغلول الحالي، وكذلك الكنيسة المرقسية، ومعبد اليهود بالشارع الذي أطلق عليه اسم النبي دانيال، وكانت جبانة اليهود في مكانها الراهن، وكذلك جبانات المسيحيين بجهة باب شرقي.

وما دمنا بصدد أبواب مدينة الإسكندرية قديمها، وحديثها؛ يحسن ذكر بعض التفصيلات الأخرى استيفاءً للبحث من شتى نواحيه.

ففي فجر القرن العشرين الحالي شاهدت بقايا بعض هذه الأبواب ماتزال قائمة تتحدى الزمن، ففي أقصى الجهة الغربية من المدينة وعلى بُعد قليل من ضاحية «الدخيلة» بحي المكس عاصرت بابًا يسمى باب العرب، وكان رجال خفر السواحل يتولون التفتيش عنده لضبط المهربات، أو المخدرات التي قد تتسرب إلى الإسكندرية من الغرب، أو عن طريق البحر بوساطة القوارب أو السفن.

وكانت أطلال باب آخر يدعى: «باب القمر» تشاهد خلف صهاريج زيت النفط (البترول)، ومخازن منتجات شركة الملح والصودا بجهة المكس، ومازالت المنطقة التي تضم هذه الأطلال تدعى: «وادي القمر».

وكان باب القباري يقوم عند ملتقى شارع المكس المتجه صوب الورديان بشارع جبل الزيتون الواقع خلف أسوار محطة السكك الحديدية للبضائع، وقد محت آثار هذا الباب شركة «جواني استاني وأولاده للأخشاب» بحجة شرائها الأرض واسعة خلفه لتخزين أخشابها.

أما آثار «باب سدرة» فظلت قائمة تتحدى القدم إلى عهد غير بعيد، فبوابته الكبيرة كانت موجودة خلف الباب الحديدي لمعهد «الدون بوسكو» للصناعات بشارع الخديوي الأول (شريف حاليًّا)، وكانت تواجه بداية شارع سيدي أبي الدرداء بالضبط.

وعندما منح هذا المعهد قطعة الأرض التي تقوم فوقها مبانيه الحالية، بثمن اسمي زهيد أو ربما بالمجان، أزالت إدارته البوابة الأثرية الضخمة البناء، وشيدت في مكانها وفي مكان جزء من الربوة التي كانت خلفها فصول التعليم الصناعي.

وقد كانت تلك البوابة ذات قنطرة قوسية، وكانت الربوة خلفها تمتد من شارع عمود السواري إلى نهاية شارع راغب باشا عند ميدان «باب عمر باشا»، وخلف الربوة مباشرة سور يصل عرضه إلى خمسة أمتار ووراء السور خندق يصل عمقه إلى ثمانية أمتار من المؤكد أنه حفر لحماية المدينة من غارات الأشرار الليلية.

ولو أن البلدية لم تمنح معهد «الدون بوسكو» قطعة الأرض هذه لكان في الوسع امتداد شارع أبي الدرداء ليخترق في استقامته حي كرموز، مما كان يؤدي إلى زيادة العمران في هذا الحي الشعبي الهام ويبقي على تخطيط المدينة القديم الذي وضعه المهندس «دينوقراط»، ليأتي شكلها مطابقًا لرقعة الشطرنج، وكان امتداد الشارع يمر بالبوابة الأثرية الضخمة العالية في منظر سياحي شيق، ويلاحظ أن شارع أبي الدرداء هو أحد الشوارع العرضية الأحد عشر، وكان يبدو في الجنوب من ترعة شيديا (أي بعد ترعة المحمودية بقليل) ويحاذي شارع كرموز الذي يمر بربوة عمود السواري، ثم يسير في شارع

أبي الدرداء، ويخترق المباني التي تعترضه متجهًا في شارع تريستا (الشيخ إسماعيل شلبي حاليًّا) ثم يقاطع شارع السبع بنات، ويسير صوب الشمال إلى أن يصل إلى كوم الناضورة.

لو أن البلدية لم تمنح تلك القطعة لمعهد «الدون بوسكو» الإيطالي لتغير شكل حي باب سدرة، وبالتالي قسم كرموز بأسره، ولكن هي الامتيازات التي كان يتمتع بها أفراد الجاليات الأجنبية إبَّان سنوات الاحتلال الإنجليزي الممقوت، فقد كان لأعضاء القومسيون البلدي الستة عشر من الجاليات الإنجليزية، والفرنسية، والإيطالية، واليونانية، نفوذ قوي واسع النطاق ترتب عليه استيلاء هيئات هذه الجاليات الأجنبية الجشعة على أحسن قطع الأراضي موقعًا دون النظر إلى تشويه تخطيط المدينة الأصيل.

وعند نهاية شارع راغب باشا في نقطة تقاطعه مع شارع الخديوي الأول «شارع شريف حاليًّا» (انظر مادة شريف باشا) ميدان ومنطقة يطلق عليها حتى الآن اسم «باب عمر باشا»، وسمعت في مرحلة الشباب من بعض المعمرين أن في هذا المكان كان يقوم أحد أبواب المدينة الجديدة، ولما تولى عمر لطفي باشا منصب محافظ الإسكندرية في المدة من ٢٠ إبريل على ١٠ من أغسطس عام ١٨٧٤م (١٢٩١هـ)، ثم في المدة من ١٢ أكتوبر عام ١٨٨١م (١٢٩٩هـ) إلى ٢٥ يوليو عام ١٨٨٢م (١٣٠٠هـ)، كان من بين إجراءاته المتسمة بالعنف إصدار الأوامر بأن يبيت خارج سور المدينة كل من يفد عليها من هذا الباب بعد غروب الشمس مع القبض عليه وجلده، ولعل هذه الأوامر القاسية كانت السبب في تسمية الباب باسم هذا المحافظ مع أنه لم يشيد في عهده.

وقد رأيت الآثار الباقية من «الباب الجديد» الذي مازال شارع ابن الخطاب يحمل اسمه، وكانت هذه الآثار على مقربة من باب محطة مصر القديمة الذي يقع مكانه الحالي عند بداية مبنى التليفونات في الموقع الذي يلتقي فيه شارع إسماعيل مهنا (عبد المنعم سابقًا) بشارع (محطة مصر) (شارع مرسي بدر حاليًّا)، وكانت آثار هذا الباب تتكون من عمودين ضخمين على جانبي الشارع، يعلوها عقد قوسي يشده عمود آخر فوقه ثكنة (قشلاق) لرجال الشرطة، وعلى جانب أحد العمودين مركز من مراكز الشركة شيد فوقه مبنى حكومي كان مخصصًا لسكنى حكمدار المدينة الإنجليزي، وكان يشغل المتسع بين العمودين الأساسيين عمود رابع من الأعمدة القديمة.

وكان الشارع الذي يبدأ من الشارع الكانوبي (طريق الحرية الآن) ويحمل اسم (شارع محطة مصر)، ينحني إلى اليسار أمام باب المحطة القديمة، أي عند بداية مبنى التليفونات الحالي، ثم يمر تحت آثار «الباب الجديد» ويسير في ارتفاع حتى تقاطع شارع «ابن الخطاب» بشارع «محرم بك»، حيث كانت في هذه النقطة القنطرة التي تمر تحتها القطارات متجهة إلى القاهرة أو آتية منها، وبعد هذه القنطرة التي هدمت عقب الانتهاء من تشييد محطة مصر الجديدة، كان شارع محرم بك، وشارع ابن الخطاب يأخذان في الانخفاض التدرجي بسبب علو تلك القنطرة.

وكان على يمين آثار «الباب الجديد» في اتجاه حي محرم بك المحطة القديمة بمبانيها، وسككها الحديدية الممتدة في الرحبة، التي نسقت في حيزها نصف الحديقة العامة التي يحدها من الشرق مبنى محطة «مصر الجديدة»، والحديقة المستديرة التي

أمامها، و بها قاعدة تمثال كانت مخصصة ليقوم فوقها تمثال الملك فؤاد الأول، وتحمل الآن رمز شعلة ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢م، ومن الغرب الشارع الذي به مستشفى أحمد ماهر وسوق السمك، ومن الجنوب شارع ابن الخطاب وبداية شارع محرم بك، ومن الشمال مبنى التليفونات المركزي.

وعلى يسار آثار «الباب الجديد» كانت حفرة قليلة العمق يدل شكلها على أنها كانت خندقًا وراء سور المدينة، وكانت وسط هذه الحفرة مخازن الشرطة التي نقلت إلى مبناها الجديد بشارع بلجيكا (شارع سليمان يسري الآن)، ويلي هذه الحفرة في الشرق المكان الذي أقيمت في حيزه محطة مصر الجديدة، ويقيم كل هذه الرقعة الفسيحة الآن ميدان الحرية بحدائقه وشوارعه العديدة، وقد تقرر إقامة المحطة الجديدة نهائيًا في يوم ٣٠ من مايو عام ١٩١٠م، على شرط ألا يحول بناؤها دون سهولة المرور بين جهتي الباب الجديد، وكوم الدكة.

وفي المكان الذي أقيمت فيه هذه المحطة الجديدة كانت أحكام الإعدام حتى مستهل القرن العشرين، تنفذ في المجرمين شنقًا أمام الناس عند مطلع النهار.

ويقول علي باشا مبارك (انظر هذه المادة) في كتابه «الخطط الجديدة – الجزء السابع» إن أبواب الإسكندرية التي كانت في السور خمسة هي «باب غرب» ومنه كان الوصول إلى القباري ثم إلى المدينة، و«باب القرافة» في مقابلة جسر الهيتاستاد، وما من شك في أنه الباب الأخضر الذي قال العرب عند الفتح إنه كان يدعى «باب الأموات» لأنه يؤدي إلى مقابر كوم الشقافة، و«باب الميدان»، وكان على الميناء الكبير (الميناء الشرقي) محل باب البحر القديم، و«باب العمود» أو «باب سدرة»، و«باب رشيد» الذي يعرف الآن بباب شرقي.

ويصف علي باشا مبارك هذه الأبواب «بأنها كانت مبنية من أحجار، وعمد قديمة، وفي أعتابها أعمدة كاملة. فكان في عتبة كل باب عمود، وفي أعلاه عمود يمتد بعرض العتبة»، وهذا الوصف ينطبق تمامًا على «الباب الجديد» الذي شاهدته في عهد الشباب.

وما دمنا بصدد تخطيط الإسكندرية القديمة، أرى من الملائم ذكر شيء عن وصف شواطئها من حي رأس التين إلى ضاحية الرمل كما رأيتها في مستهل القرن العشرين حين كنت في آخر سنوات الطفولة، ثم ذكر بعض الشواهد التي قد تحدد مواقع الشوارع الطولية والعرضية كما خططها «دينوقراطس»، وذلك بتطبيق هذه المواقع على أماكن الشوارع الرئيسية الحالية في أنحاء المدينة قدر المستطاع، وعلى وجه التقريب دائمًا.

ففيما يتعلق بالشواطئ فقد شاهدتها تمتد على النحو التالي:

١) من رأس التين إلى حي السيالة: كان البحر قبل بناء الرصيف وبعد ردم جزء كبير من المساحة الرملية، يلمس في ترامیه على تلك المساحة الرملية العشش المقامة من الصفيح القديم على مقربة من قصر رأس التين، وكانت هذه العشش مبعثرة في المكان الذي يضم الآن جزءًا من الحديقة العامة الواقع بجانب ثكنات السلاح البحري، ويضم الأبنية الجديدة التي من بينها مدرسة البنات الثانوية، ثم يستمر البحر في ترامیه فيلاصق الأبنية القديمة المشيدة في الحيز القوسي لخليج الأنفوشي، أو ينحسر عنها مسطحات رملية متفاوتة الاتساع تارة منبسطة، وتارة مرتفعة حتى الجسر الأثري الذي يصل حي السيالة بحصن «الأطة»، وعند منتصف هذا الجسر كانت

قنطرة صغيرة تنفذ تحتها مياه خليج الأنفوشي الرحب لتلتقي بمياه «البحر الصُغَيَّر» الذي يترامى خليجًا ضحلاً في الجزء الكائن بين حصني «الأطة» وحصن قايتباي.

وقد أزيلت العشش الصفيحية، واختفى أصحابها الذين كانوا يزاولون تربية الماعز، ويمارسون الحرف المتواضعة، ولم يبق من مظاهر القدم على طول خليج الأنفوشي سوى بعض المنازل المستغرقة في القدم التي يستطاع الاستدلال عليها من الأجزاء البارزة من واجهاتها وتسمى في العرف السكندري «بالخراريج»، وتتميز بأن عصبها من الكتل الخشبية التي تسندها عادة كتل أخرى تستند إلى حائط الطبقات الأرضية من هذه المنازل في شكل مائل نحو الأسفل، ويمتلك هذه المنازل القديمة أسر عريقة في الحسب السكندري، ففي طريق الخليج الغربي وعلى مقربة من مكان عشش رأس التين يقوم إلى الآن منـزل عائلة الجزيري، وقد اشتهر رجالها بالثقافة الدينية، وفي وسطه منـزل شيمي بك ومطحنه، ومنـزل أسرة الرافعي مفتي الإسكندرية قديمًا، وفي شرقه بيتا أسرتي المسيري، والمحتسب المطلان على مساكن السيالة المتواضعة، وبعض هذه المنازل العتيقة تنخفض عتباتها عن مستوى الشارع لارتفاع قارعته.

وقد ردمت المساحة الرملية من الخليج ليقوم فوقها شارع قصر رأس التين العريض، الذي يسير الترام وسطه، وشيدت على حافته الجنوبية العمارات السكنية الحديثة، وكانت هذه المساحة الفسيحة مكانًا لعدد كبير من دور الصناعة (الترسانات) الخاصة يتولى أصحابها إنشاء القوارب والزوارق المختلفة الأنواع وقوارب نقل البضائع المسطحة القاع (البراطيم)، وكذلك المراكب التجارية الصغيرة (اللنشات)، وذلك في طول تلك المساحة وعرضها، وفي أعياد الربيع وخلال فصل الصيف كانت هذه المساحة الرملية تستقبل المحتفلين بهذه الأعياد يصحبهم أولادهم فيقضون سحابة النهار في مرح وسرور يداعبون الرمال ويتمتعون بالاستحمام في خليج الأنفوشي الضحل، وكلمة الأنفوشي يرجع أصلها إلى عائلة إيطالية كان أفرادها يمارسون صيد الأسماك في قوارب كبيرة كانت تسمى «البلانص» واسم هذه العائلة الحقيقي «أونفوشي Unfoussi» وكان بعض أحفادها يعيشون بالإسكندرية حتى العقد الثالث من القرن العشرين الحالي ويشتركون في انتخاب أعضاء المجلس البلدي على أساس أنهم يدفعون لسكانهم إجارة شهرية تزيد على ستة جنيهات.

وقد طغى رصيف الأنفوشي على مساحة الخليج نفسه، فحسر الماء عن منازله القديمة لمسافة لا تقل عن خمسين أو ستين مترًا، وأقيم على الأجزاء الباقية من مساحته الرملية بعض طارمات الاستحمام جهة رأس التين والقليل من دور الصناعة «الترسانات» في الأجزاء الوسطى، وشيدت في الجزء الغربي دار للسينما الصيفية ومسرح «يوسف وهبي»، وفوق الجسر وقنطرته ومسطح البحر «الصُغَيِّر» مستشفى رأس التين العام ومركز لخفر السواحل كملحق لحصن «الأطة» وحلقة للأسماك، ومبنى لقسم التنظيم يتبع المحافظة تليه مدرسة ابتدائية ثم نقطة شرطة الأنفوشي.

وفوق اللسان الذي كان يمتد ضيقًا من مكان نقطة الشرطة، أقيم بعد توسيع عرضه نادي اليخت، ومعهد الأحياء المائية، والمتحف البحري الذي يليه حصن قايتباي، وعلى امتداد المسافة التي تبدأ من جسر «طابية الأطة» وتنتهي عند شارع ٢٦ يوليو مارة ببداية شارع السيد محمد كريم أقيمت

المساكن الجديدة، ولم يبق من الأبنية القديمة في هذه المسافة إلا بناء القهوة الذي كان البحر يصل قربها، أو كانت مقرًّا للصيادين «ومعلميهم»، يزاولون فيها بيع الأسماك بالمزايدة في الصباح الباكر.

٢) مياه البحر التي تغمر شارع السيد محمد كريم: كانت مياه البحر تغمره قبل إنشاء رصيف «الكورنيش»، الذي استغرق تشييده من رأس التين حتى لسان السلسلة (رأس لوخياس)، المدة من عام ١٩٠٩ إلى ١٩١٢م (١٣٢٧ – ١٣٣١هـ) أي أربعة أعوام كاملات.

ففي فصل الشتاء حينما يكون البحر هائجًا كانت الأمواج تزحف على الشاطئ الرملي المتعرج فتصل إلى قرب مستشفى النقراشي الحالي، وإلى المنازل العتيقة التي مازال عدد قليل منها قائمًا بين بداية شارع السيد محمد كريم ومسجد أبي العباس، وقد غارت بعض عتباتها فانخفض مستواها عن مستوى الشارع بعمق ملحوظ.

وكانت تلك الأمواج لا تنفك عن لمس درجات مسجد البوصيري الرخامية وقد جلست عليها في عهد الطفولة مرات كثيرة ولاسيما عندما يأتي شم النسيم وتوضع في كفيّ الحناء في الليلة السابقة وأهرول في الصباح الباكر إلى الدرجات الرخامية أزيل الحناء عن الكفين ثم أغمسهما في ماء البحر ليبقى أثر الحناء فيهما طويلاً أخضر اللون.

وبعد مسجد البوصيري كان الموج يزحف ثورته ليرتطم بسور مدرسة الجمعية المصرية الكائنة عند بداية شارع إسماعيل باشا صبري ثم تظهر دار المحافظة القديمة، وكانت في مكان المنازل الجديدة المطلة على شارع السيد محمد كريم وإسماعيل باشا صبري وفرنسا (الشهيد مصطفى حافظ الآن) ويتابع زحفه ليصل إلى بداية شارع سوق الطباخين، فشارع سنان باشا، فميدان القناصل (ميدان عرابي الآن)، فمبنى مصلحة البريد الذي هدم، وكان مكانه خلف القنصلية الفرنسية، فشارع الميناء الشرقي فبداية شارع النبي دنيال، فمحطة الرمل فالأزاريطة، فلسان السلسلة، ومن ثم يواصل الكورنيش تعرجه الشديد الالتواء حتى نهاية المدينة تتخلله بعض الكثبان.

ومن سياق هذه المناظر التي وصفتها يتضح ما يأتي:

- أن الأبنية الحديثة المقامة في حضن المسافة القوسية التي تشغل جميع جوتة الأنفوشي لم تكن موجودة في فجر القرن العشرين الحالي وكذلك السينما الصيفية ومسرح يوسف وهبي ومستشفى رأس التين ومركز خفر السواحل وحلقة الأسماك ومبنى التنظيم والمدرسة الابتدائية ونقطة الشرطة ونادي اليخت ومعهد الأحياء المائية والمتحف البحري.
- أن جميع المنازل والعمارات التي يحدها من الجنوب شارع السيد محمد كريم، ومن الشمال تجاه البحر شارع ٢٦ يوليو لم يكن لها أثر في ذلك الحين، وكذلك جميع المنازل والعمارات والمنشآت التي يحدها جنوبًا شارع الغرفة التجارية (سعيد الأول سابقًا) وميدان سعد زغلول وشارع السلطان عبد العزيز (الدكتور عبد الحميد بدوي الآن)، ويحدها شمالاً الجزء الباقي من شارع ٢٦ يوليو الممتد بين ميدان عرابي ولسان السلسلة لم تكن موجودة؛ إذ

كانت أماكنها شاطئ رملي يتسع في بعض الجهات وينحسر في بعضها الآخر.

- أن الأبنية المختلفة الواقعة في الجهة الشمالية من خط ترام الرمل، ويحدها جنوبًا شارع الإسكندر وشمالاً شارع السلطان عبد العزيز، لم يكن لها أثر، فكان خط ترام الرمل يسير في أرض فضاء على يسار المتجه نحو ضاحية الرمل حتى ساحل البحر في كل هذه المسافة.

- أنه من منطقة الشاطبي إلى منطقة قصر المنتزه كانت حافة الكورنيش المتعرجة لا تضم إلا أبنية قليلة مبعثرة على طول امتداده، ولم تشيد هذه القلادة الحالية من الأبنية العالية الفخمة إلا بعد الانتهاء من إنشاء طريق الكورنيش (طريق الجيش حاليًّا) في أواخر العقد الثالث من القرن العشرين.

ومن المعالم العالقة بذهني الدالة على خلو سواحل الإسكندرية الممتدة على طول خليج الأنفوشي وعلى الميناء الشرقي، والكورنيش من لسان السلسلة (رأس لوخياس) حتى قصر المنتزه، ذلك الملهى الخشبي (الكازينو) الذي كان نصفه يقوم على قوائم حديدية مغروسة في البحر عند بداية شارع «سنان باشا» بالقرب من نقطة المطافئ الحالية الكائنة خلف مبنى طرود البريد، وكان هذا الكازينو لرجل سوري يدعى «شيبان»، والكازينو الخشبي المطل على البحر مباشرة خلف مبنى الغرفة التجارية الحالي المطل على ميدان وتمثال سعد زغلول، والكازينو الخشبي الذي كان في مكان «حلواني التريانو» بعمارة يحيى باشا أمام تمثال سعد زغلول، وحمامات البحر العامة التي كانت في مكان القنصلية الإيطالية المطلة على شارع ٢٦ يوليو المحاذي للميناء الشرقي، ومحطة ترام الرمل التي كانت تشغل مكان «سينما ستراند»، وكان ترام الرمل عبارة عن خط سكة حديد يسير عليها قطار بخاري حتى السنوات الأخيرة من القرن العشرين، ومن محطة فليمنج بالرمل رأيت في عهد الطفولة البحر دون أي عائق أمامي.

والآن وقد اتضحت معالم سواحل المدينة من رأس التين إلى المنتزه، أجد من الملائم ذكر بعض الشواهد التي قد تحدد مواقع الشوارع التي خططها «المهندس دينوقراطس» عند تشييد الإسكندرية، وذلك بتطبيق مواقعها المبينة في خريطة محمود باشا الفلكي على أماكن الشوارع الرئيسية الحالية في أقسام المدينة المختلفة.

لقد ذُكر قبلاً أن الفلكي توصل عن طريق الحفريات إلى العثور على بقايا من رصف الشوارع في كافة أنحاء المدينة، ثم أثبت أن هذه الشوارع كانت سبعة طولية، وأحد عشر عرضية، وأن الطولية تخترق حيز المدينة من الشرق إلى الغرب وتقاطعها العرضية متجهة من الشمال إلى الجنوب، وجميع الشوارع تجعل من مساحة المدينة رقعة تشبه رقعة الشطرنج ذات المربعات المنسقة.

ومن الخريطة التي رسمها خلال عام ١٨٦٦م (١٢٨٣هـ) وألحقها بكتابه «الإسكندرية القديمة»، يستطاع تحديد موقع تلك الشوارع بكيفية تقريبية بالنسبة إلى مواقع الشوارع الرئيسية الحالية وذلك على النحو التالي:

إن الشارع الطولي الأول في الجهة الشمالية القريبة من البحر كان يمتد – وفاقًا لرسمه على الخريطة الفلكية – في

الموقع الذي يمتد فيه شارع (أمبرواز راللي – شارع بورسعيد الآن)، يقاطع شارع (سترابون – سليم حسن حاليًّا)، ثم يواصل امتداده في شارع (فيلادلف – ابن رافع الآن)، وكانت بدايته عند كلية سان مارك تقريبًا ونهايته عند شارع (سوتير – الدكتور مصطفى مشرفة الآن)، وكان بينه وبين الشارع الطولي الثاني ٢٩٤ مترًا نحو الجنوب.

إن الشارع الطولي الثاني كان يسير في المسافة التي يخترقها خط ترام الرمل، وكان يبدأ من كلية سان مارك وينتهي عند محطة الرمل قاطعًا شارع الإسكندر الأكبر، وميدان سعد زغلول حتى بداية شارع صفية زغلول (شارع المسلة قديمًا).

إن الشارع الطولي الثالث كان يبدأ من كامب شيزار، ويمتد مخترقًا شارع (بلبتين – محمد فؤاد جلال حاليًّا)، فشارع (كانوب – أحمد فؤاد نور الآن)، ثم يخترق وسط مقابر اليهود والمسيحيين بجهة الشاطبي، ثم يسير وسط حدائق الشلالات الشمالية إلى أن يلتقي بشارع (السلطان حسين كامل – الشهيد صلاح مصطفى حاليًّا) فيسير فيه، وفي شارع (المستشفى اليوناني – إسطنبول الآن) ثم يخترق بعض الأبنية ويلتقي بشارع سيزوستريس، ويخترق بعد ذلك بعض الأبنية الأخرى لينتهي عند شارع سيدي أبي الدرداء على وجه التقريب، وكان بينه وبين طريق الحرية في الجنوب ٢٩٤ مترًا.

إن الشارع الطولي الرابع وهو الشارع الكانوبي العظيم، كانت بدايته عند حي كامب شيزار، وكان يسير في طريق الحرية بعرض ١٤ مترًا ثم يخترق شارع سيدي المتولي فشارع إسحق النديم، حتى تقاطعه مع شارع الكوبري القديم، ثم يمر بشارع المنير لينتهي في منطقة مينا البصل، وبينه وبين الشارع الخامس ٢٩٤ مترًا نحو الجنوب.

كما أن الشارع الطولي الخامس كان يبدأ عند حي كامب شيزار، ويسير محاذيًا للشارع الكانوبي (طريق الحرية) في الجنوب وعلى بعد ٢٩٤ مترًا منه، ويتضح من خريطة الفلكي أن امتداده كان يخترق حي الحضرة، ثم شارع السعادة، فشارع أسوان، ويلتقي بميدان «وابور المياه»، ثم يخترق حدائق الشلالات الجنوبية، ويسير بعد ذلك في (شارع بلجيكا – باتريس لومومبا الآن)، فشارع (الأمير عبد القادر – سليمان يسري حاليًّا)، فشارع (الأمير عبد المنعم – إسماعيل مهنا الآن)، ثم يخترق بعض المباني مقاطعًا شارع الكبرى القديم، ويسير بعد ذلك مقاطعًا شارعي أساكل الغلال وسكالاريدس لينتهي في حي مينا البصل.

إن الشارع الطولي السادس كان يأخذ في بدايته من حي «أمبروزو» بجهة منطقة الفرخة، ويسير محاذيًا للشارع الخامس مخترقًا الأبنية والأراضي الفضاء حتى شارع (جرانفيل – الملعب الرياضي الآن)، ثم يمتد في شارع حسين فهمي الواقع خلف مبنى جمعية الإسعاف، ويمر بسور محطة مصر، ثم يخترق ميدان الجمهورية، ويمر في الشارع الكائن خلف مبنى التليفونات ليتجه في خط مستقيم صوب مينا البصل مارًّا بشارع (الخديوي الأول – شريف حاليًّا).

أما بالنسبة إلى الشوارع العرضية الأحد عشر التي كانت تقاطع الشوارع الطولية الموضحة قبل، فيستبين من خريطة الفلكي ما يأتي:

إن الشارع العرضي الأول من الجهة الشرقية للمدينة كان يبدأ من البحر عند بداية حي كامب شيزار ويسير في (شارع دهان)، ثم يقاطع (شارع الأمير إبراهيم – عمر لطفي الآن) وطريق الحرية، ويسير في شارع (الحضرة القبلية)، ويقاطع بعد ذلك شارع (السراي نمرة ٣ – الشهيد جلال الدسوقي حاليًّا)، ثم يخترق المباني القائمة جنوبي المستشفى الإيطالي إلى أن ينتهي عند ترعة المحمودية، أي عند ترعة شيديا القديمة التي كان موقعها في جنوب المحمودية بقليل، وكانت تغذي الإسكندرية بالماء العذب من النيل عن طريق فرعه الكانوبي (فرع رشيد حاليًّا)، وكان هذا النوع يصب في البحر عند قرية كانوبوس ومن ثم اشتق اسمه القديم.

إن الشارع العرضي الثاني كان يبدأ من البحر يسير في شارع (أرشميد – محمد شفيق غربال الآن)، ثم يقاطع شارعي بورسعيد (أمبروازاللي سابقًا) وعمر لطفي (الأمير إبراهيم سابقًا) عند كوبري تراجان، ويسير تراجان (لطفي السيد حاليًّا) الذي يمتد خلف كلية الهندسة، ثم يقاطع طريق الحرية ويستمر في الشارع الواقع أمام مستشفى المواساة، ويقاطع خط السكة الحديد بالقرب من محطة البضائع بالحضرة، ثم يخترق بعض المباني ويسير في شارع ابن ملاعب إلى أن يصل إلى ترعة المحمودية ويخترقها إلى مكان ترعة شيديا في جنوبها.

إن الشارع العرضي الثالث كان يبدأ من البحر عند منطقة الشاطبي، ويسير في شارع (سترابون – سليم حسن الآن) ويقاطع شارعي بورسعيد (أمبروزراللي سابقًا) والإسكندر الأكبر، ثم يواصل امتداده في شارع أفلاطون، ويقاطع طريق الحرية، ويخترق مكان مستشفى طلبة الجامعة الحالي، ويسير خلف وابور المياه ويقاطع بعد ذلك شارع (السراي نمرة ٣، الشهيد جلال دسوقي الآن)، وخط السكة الحديد، ويخترق بعض المباني ويسير أخير في شارع (إديث كافيل – فاطمة الزهراء الآن) إلى أن يصل إلى ما بعد ترعة المحمودية بقليل حيث كانت ترعة شيديا.

إن الشارع العرضي الرابع كان يأخذ بدايته عند رأس لوخياس (لسان السلسلة) في الشمال، ويمتد في شوارع: ابن ميمون، وعبد الرحمن باشا رشدي، وسعيد باشا الغرياني، والكبري، وترعة الفرخة شرقي، وترعة الفرخة غربي، «وقد صارت كل هذه الشوارع تحمل اسم طريق قناة السويس»، ويقاطع هذا الشارع في سيره طريق الحرية ويخترق حديقة الشلالات الجنوبية، ويمر تحت كبرى السكة الحديد بجهة الفرخة، وينتهي عند مكان ترعة شيديا بعد أن يمر بكوبري محرم بك على ترعة المحمودية.

إن الشارع العرضي الخامس كان يبدأ بعد لسان السلسلة (رأس لوخياس) عند البحر في الطرف الشرقي من الميناء الشرقي (الميناء العظيم) ويمتد في شارع (سوتير – الدكتور مصطفى مشرفة حاليًّا)، ثم يقاطع شارع الإسكندر الأكبر، ويخترق حدائق الشلالات البحرية والقبلية، وخط السكة الحديد، ثم يسير في شارع (الرصافة – نبيل الوقاد الآن) إلى أن يصل إلى ترعة شيديا في جنوب ترعة المحمودية بقليل.

إن الشارع العرضي السادس كان يبدأ عند البحر في الميناء الشرقي ويمتد في شارع «شمبوليون»، ثم يقاطع شارع الإسكندر الأكبر، فميدان الخرطوم، فشارع (السلطان حسين كامل – الشهيد صلاح مصطفى حاليًّا)، ويخترق بعد

ذلك بعض المباني وجزءًا من كوم الدكة الشرقي، فميدان جمعية الإسعاف، فالسكة الحديد ويقاطع بعد ذلك شارع محرم بك، ويخترق المباني إلى شارع عرفان، ويسير بعد ذلك حتى يصل إلى ترعة شيديا بعد المحمودية بقليل.

إن الشارع العرضي السابع كان يبدأ عند البحر في الميناء الشرقي، ويمر بين مبنى القنصلية الإيطالية وميدان تمثال سعد زغلول، ثم يمتد في شارع (المسلة – صفية زغلول الآن) مقاطعًا شارع (سعد زغلول – محطة الرمل سابقًا) ويقاطع بعد ذلك شارع (السلطان حسين كامل – الشهيد صلاح مصطفى الآن)، ويسير مخترقًا مبنى محطة مصر الجديد، ويقاطع شارع محرم بك، ثم يخترق المباني إلى أن يصل إلى شارع بدوي بك، فشارع محسن باشا، فيمتد فيهما حتى يصل إلى ترعة شيديا بعد المحمودية بقليل.

إن الشارع العرضي الثامن كان يأخذ بدايته عند البحر في الميناء الشرقي ويمتد (النبي دانيال – شارع السوما قديمًا) بعد أن يقاطع شارع زغلول ثم يقاطع ميدان الجمهورية وشارع مسجد الحضري ويخترق المباني، ويسير بعد ذلك في شارع المهدي العباسي لينهي عند ترعة شيديا جنوبي ترعة المحمودية بقليل.

إن الشارع العرضي التاسع يبدأ عند البحر من الميناء الشرقي، ثم يخترق مبنى المحكمة الكلية بميدان إسماعيل الأول (ميدان عرابي الآن) ويقاطع شارع السيد محمد كريم، ويخترق بعض المباني، ويقاطع شارع سيدي المتولي ليسير في شارع الخديوي الأول (شريف حاليًّا) ويخترق بعد ذلك بعض المباني الأخرى، ثم يسير في شارع العمري وأخيرًا يخترق بعض المباني ليصل إلى ترعة شيديا جنوبي ترعة المحمودية.

إن الشارع العرضي العاشر كان يبدأ عند البحر من الميناء الشرقي، ويقاطع شارع السيد محمد كريم، ويخترق مبنى طرود البريد، وبعض المباني، ثم يقاطع ميدان محمد على (ميدان التحرير الآن) ليسير في شارع سيدي أبي الدرداء ويخترق بعد ذلك مبنى معهد «الدون بوسكو» الصناعي حيث كان «باب سدرة» يقوم، ويمر بعد ذلك بشارع النيل، وحتى يصل إلى ترعة شيديا جنوبي المحمودية، ويدل على صحة هذا التخطيط التقريبي لهذا الشارع أنه عُثِر على أحجار من الجرانيت في شارع أديب، وعمود رخامي في شارع سنترال المحاذي لشارع أديب، ثَبُت أن الأحجار والعمود كانت مقامة على ساحل البحر، مما يؤكد أن مياه البحر كانت تصل إلى ميدان السانت كاترين (المنشية الصغيرة) وأن الحي الواقعة فيه بداية شارع سعد زغلول عند مبنى التلغراف الإنجليزي، وميدان المنشية قد انتزع ٢٣ من البحر وصار جزءًا من المدينة عن طريق اتساع عرض جسر الهيتاستاديوم.

إن الشارع العرضي الحادي عشر كانت بدايته عند كوم الناضورة، حيث كانت بداية جسر الهيتاستاد الذي شيده بطليموس الأول (سوتير) وبعد أن يخترق بعض المباني كان يمتد في شارع الجنينة بقسم اللبان، ويقاطع بعد ذلك شارع الخديوي (شريف الآن)، ثم يخترق الجبانات الإسلامية حتى عمود السواري (مكان السيرابيوم قديمًا)، ومن ثم يمتد في شارع كرموز حتى يصل إلى ترعة شيديا جنوبي المحمودية بقليل، ويبدو أن هذه الشوارع كانت تحمل أسماء أفراد الأسرة المالكة، بدليل أن الوثائق البردية تذكر أسماء عدد من هذه الشوارع يحمل اسم «أريسينوس فيلادلفوس» زوجة بطليموس الثاني التي كانت شقيقته في الوقت نفسه.

ولقد استعنت في تحديد مواقع هذه الشوارع الثمانية عشر بإحدى الخرائط الموجودة بقسم التخطيط بالمحافظة (البلدية سابقًا) وساعدني في ذلك مهندسان اثنان من مهندسي هذا القسم مساعدة جديرة بالثناء والتقدير .

ولنعد الآن إلى الحديث عن مراحل حياة «بطليموس الأول ابن لاجوس الملقب بسوتير» لنتعرف بقية سير هذه المراحل وتأثيرها في كيان مدينة الإسكندرية بعد أن جعل منها عاصمة ملكه فصارت عاصمة العالم الدنيوي المعروف في ذلك الوقت .

فبمجرد إعلان استقلاله عن مقدونيا خلال عام ٣٠ ق . م . الميلاد ، بادر إلى تنفيذ المشروعات الحيوية التي عقد العزم على القيام بها لتعزيز ملكه وضمان استقلاله ، وفي مقدمتها بناء أسطول ضخم يوضح التاريخ أن عدد وحداته وصل إلى ٣٥٠٠ سفينة من أحجام كبيرة وصغيرة ومن أنواع حربية وتجارية شتى ، وما من شك في أن جميع تلك السفن قد شيدت في أحضان دار صناعة (ترسانة) الإسكندرية ، وكان مكانها عند قلعة كوم الناضورة ، حيث كانت بداية جسر الهيتاستاد أي على البحر في غرب أول هذا الجسر الذي كان عرضه ٣٠ مترًا فقط ، ولا يطمر مكان (الترسانة) ، وفي أحضان دار صناعة بحيرة مريوط ، وكان لهذه البحيرة ميناءان أحدهما داخلي والآخر على البحر ، ويقول «إسترابون» إن البضائع التي كانت ترد على الميناء الداخلي من مدن القطر المصري تفوق في كمياتها تلك التي كانت ترد من الخارج على الميناء البحري ، ومن ثم كان الميناء الواقع على البحيرة أهم وأنشط تجاريًّا واقتصاديًّا من الميناء الواقع على البحر .

ويدل وجود دار صناعة بشاطئ هذه البحيرة لإنشاء السفن وإصلاحها على أنها كانت في العهد البطلمي والروماني أعمق بكثير مما هي عليه في الوقت الراهن ، ويلاحظ أن جزءًا كبيرًا منها قد ردم حديثًا ليتسع نطاق المدينة في ناحيتها الجنوبية .

ويوضح التاريخ أنه كان على ضفافها المراسي والأرصفة الكبيرة التي يستطاع التعرف على آثارها في سهولة ، ولاسيما في الذراع الغربي منها وفي الجزر التي تتخلل حيزها .

وأهم العوامل التي حولت ماءها من عذب إلى مالح ، طغيان البحر الأبيض المتوسط عليها مرتين في أثناء ثماني سنوات ، ففي الفترة الواقعة بين عامي ١٢١٦ و١٢١٩هـ (١٨٠١ – ١٨٠٤م) كان الفرنسيون في مصر ، وكان بين بحيرة أبي قير التي كانت مساحتها تبلغ ٣٠,٠٠٠ فدان ، والتي اختفت بالتجفيف ، وبين بحيرة مريوط برزخ يرتفع عن مستوى البحيرتين ، وتجري عبره الترعة القديمة التي كانت تغذي الإسكندرية بالماء العذب ، فأخصبت الأرض على حافتيها ، وزرعت بالكروم والنخيل ، وقامت المنازل الخلوية ذات البساتين على امتدادها .

ولحرمان الحملة الفرنسية وحاميتها بالمدينة من ماء الشرب ، وعزلها عن باقي القوات الفرنسية في داخل القطر قطع الإنجليز البرزخ في ١٢ من إبريل عام ١٢١٦هـ (١٨٠١م) ، فتدفقت مياه بحيرة أبي قير ومعها مياه البحر على بحيرة مريوط تدفقًا عارمًا ، إذ إن منسوب بحيرة أبي قير كان أعلى من منسوب بحيرة مريوط بنحو ثلاثة أمتار ، ولم يمض على ذلك التاريخ غير ٣٣ يومًا حتى صار منسوب البحيرتين متعادلاً ومساويًا لمنسوب البحر .

وظلت الحال كذلك حتى عام ١٢١٩هـ (١٨٠٤م)، إذ سدت ثغرة البرزخ، وعادت الترعة تمد المدينة بمائها العذب، ويلاحظ أن بحيرة أبي قير كانت تعرف ببحيرة الإسكندرية في العهد الإسلامي.

وعندما احتل الإنجليز الإسكندرية إبان حملة «فريزر» قطعوا البرزخ مرة ثانية في شهر مايو عام ١٢٢٢هـ (١٨٠٧م)، ليحولوا دون هجوم المصريين على قواتهم الغاصبة، فحماهم البحر من الهجوم ولكن قطع البرزخ أدى إلى حرمانهم من ماء الشرب.

وفي مستهل هام ١٢٢٣هـ (١٨٠٨م) سدت ثغرة البرزخ من جديد، فأخذت المياه تجف في بحيرة مريوط، واستمر الجفاف التدرجي إلى عام ١٣١٠هـ (١٨٩٢م)، إذ أعيد تنظيم شؤون الري والصرف في مديرية البحيرة وصادرت بحيرة مريوط مصبًّا لعدد من مصارف غرب الدلتا.

ولحفظ منسوبها على المستوى الثابت أقيمت محطة مضخات المكس لرفع مياه الصرف الزائدة وإلقائها في البحر، ومن ثم بقي منسوب البحيرة منخفضًا عن منسوب البحر بجوالي ثلاثة أمتار، وبذلك تحققت صيانة الإسكندرية من طغيان مياه الصرف عليها، ويتم في الوقت الحاضر ردم أجزاء من هذه البحيرة العتيدة لمواجهة التوسع العمراني للمدينة بما يتفق وزيادة عدد سكانها المطردة.

وبعد هذه النبذة المقتضية عن الأطوار التي مرت بها بحيرة مريوط عبر التاريخ نرجع إلى سيرة بطليموس (سوتير) لنرى أنه كان من البديهي، وقد أنشأ ذلك الأسطول الضخم، أن يتجه تفكيره إلى تشييد منار يرشد السفن العديدة الوافدة على الإسكندرية إلى مدخل الميناء العظيم (الميناء الشرقي) وميناء العود الأحمر (الميناء الغربي)، ولاسيما بعد أن أنشأ جسر الهيتاستاد الذي أدى إلى اتساع رقعة الإسكندرية وتحويلها إلى مدينة تجارية من الدرجة الأولى في جميع العالم بسرعة مذهلة.

وتنفيذًا لهذا الاتجاه الحصيف عهد إلى المهندس «سوستراتوس الكندي Sostrate de Cnide» ببناء المنار الهائل الذي ظل ستة عشر قرنًا يوصف بأنه من عجائب الدنيا النادرة، فقام هذا المهندس بوضع تصميمه ومباشرة تشييده فوق الجزيرة التي يقع في حيزها حصن «قايتباي» حاليًّا، وكانت هذه الجزيرة مفصولة عن جزيرة «فاروس»، وفي مرحلة الطفولة عبرت الجزء الضحل الموصل إلى الحصن رافعًا ذيل قفطاني إلى ما فوق الركبتين في مرات زيارة الحصن مع الأقارب أو الزملاء في المدرسة مما يثبت أن الصخرة كانت مفصولة عن جزيرة «فاروس» حتى وقت غير بعيد، ويلاحظ أن أهل حي السيالة كانوا يطلقون عليها اسم «البرج الزفر» وهي تسمية لم أتوصل إلى معرفة سبب إطلاقها.

ولم يغفل محمود باشا الفلكي البحث العلمي لتحديد مكان المنار تحديدًا لا يقبل الشك مستندًا في ذلك على ما دونه المؤرخ «سترابون» و«يوليوس قيصر» فالمؤرخ «سترابون» يذكر: «أن الطرف الشرقي للجزيرة (أي جزيرة فاروس) يتكون من صخرة محاطة بالماء من جميع الجوانب، ويعلوها برج هائل من عدة طبقات شيد بشكل بديع عجيب من رخام أبيض، ويحمل اسم الجزيرة نفسه، وقد أقامة المهندس «سوستراتوس من جزيرة كنيدوس» محسوب الملوك، تحية للملاحين كما تقول النقوش المحفورة عليه.

والواقع أنه على شاطئ منخفض من كل جانب، ومجرد من الموانئ، مزين بالصخور، فكان لابد أن توضع علامة مرتفعة حتى لا يغيب مدخل الميناء عن أعين الملاحين القادمين من أعالي البحار».

وهذا الوصف الدقيق يحدد مكان المنار بالضبط، ويعين موقعه فوق الصخرة التي يشغلها الآن حصن قايتباي.

وجاء في تعليقات يوليوس قيصر بالكتاب الثالث «الحرب الأهلية» قوله: «يضيق مدخل الميناء إلى درجة أن أية سفينة لا تستطيع أن تلجه برغم المسيطرين على المنار، وخاف قيصر أن يستولي عليه العدو، فأسرع بالاستيلاء عليه على الرغم من انشغاله في جهات أخرى، وأنزل به قواته، واحتله ووضع به حامية، وبذا صار في موقف يضمن له تمامًا وصول المواد الغذائية والمدد عن طريق البحر، وقد بعث أيضًا إلى جميع البلدان المجاورة يطلب إرسال هذه المواد».

ولا يكون لهذه الفقرة أي معنى إذا لم يقصد بها قيصر مدخل الميناء الشرقي الضيق والمنار القائم فوق الصخرة في شرق جزيرة «فاروس» أي في مكان حصن قايتباي بالذات، ولاسيما أن للميناء الغربي ثلاثة مداخل في مسافة تزيد على ثمانية كيلومترات طولاً، وليس مدخلاً واحدًا ضيقًا، وهو ما ينطبق على مدخل الميناء الشرقي في ذلك الحين.

ولا يتفق أغلب المؤرخين مع «إسترابون» في أن المنار كان مشيدًا من الرخام الأبيض، إذ يقولون إنه بني من الحجر، وزخرف بلوحات منحوتة من المرمر والبرونز، ويذكر بعض المؤرخين الذين تناولوا وصف المنار أن تشييده استغرق اثنتي عشرة سنة، وهذا يطابق الواقع ويدل على أن افتتاحه حدث في أوائل حكم بطليموس الثاني الملقب بفيلادلف (انظر هذه المادة) الذي تولى الحكم عقب تنازل أبيه عن العرش عام ٢٨٥ ق.م. – بعد حكم دام ٣٩ عامًا – وكان الافتتاح في الفترة الواقعة بين عامي ٢٨٠ – ٢٨٧ ق.م.

وبما أن استقلال بطليموس «سوتير» بحكم مصر كان في عام ٣٠٥ ق.م.، فمن المحتمل جدًّا أن يكون قد قرر بناء المنار في فترة الستة والعشرين عامًا الواقعة بين عامي ٣٠٦ – ٢٨٠ ق.م. أو في فترة الثمانية والعشرين عامًا المنصرمة بين عامي ٣٠٦ – ٢٧٨ ق.م. أي قبل بداية حكم بطليموس الثاني (فيلادلف) بخمسة أو بسبعة أعوام، وقد دشن المنار ووهب لبطليموس الأول وزوجته، وبورك باسم «الإلهين المخلصين Theoi Soteres».

ويؤكد عدد من المؤرخين القدماء أن نفقات بنائه بلغت ثمانية آلاف «تلان Talent» أي ما يعادل مائة وستين ألفًا من الجنيهات على وجه التقريب، وكان يربط الصخرة التي أقيم فوقها بجزيرة «فاروس» جسر مائل يرتفع تدريجًا فوق ستة عشر قوسًا وبلغ طوله ٦٨ مترًا، وأقيم أمام الجزء الأول من المنار سور ضخم لحمايته من هياج البحر، وكان لهذا السور إفريز.

ويعتبر منار الإسكندرية العجيب الأنموذج الأول الذي شيدت على نمطه جميع منارات العالم، ويشتق الاسم الذي أطلق عليه وهو «فار Phare» بالفرنسية من اسم جزيرة «فاروس» غير أن العرب أطلقوا عليه عند الفتح كلمتي: المنار والمنارة.

ويقول المقريزي في كتابه «الخطط»: «إن هذه الكتابة كانت بالجهة الجنوبية من المنار، ومنقوشة برصاص مدفون بقلم يوناني وطول كل حرف ذراع وعرضه شبر».

وترجمة العبارة التي كتبت على المنار – وفاقًا لما ذكر في كتب بعض المؤرخين – هي «سوستراتوس بن دكسيفانس من كنيدوس إلى الإلهين المنقذين باسم الملاحين»، وما من شك في أن هذين الإلهين هما بطليموس الأول وزوجته بعد تأليههما.

ويصفه عالم الآثار الفرنسي «جان فرانسوا شامبليون Jean-François Champollion» وهو أول من حل رموز اللغة الهيروغليفية المصرية من الكتابة المنقوشة على حجر رشيد الشهير، يصفه هذا العالم بأنه كان صرحًا شامخًا من أنفع المباني التي شيدها بطليموس الأول (سوتير)، وكان من عدة طبقات، وارتفاعه ١٥٠ ذارعًا، وبداخله درج يوصل بسلم حلزوني إلى جميع غرفه، وتستطيع الحيوانات الصعود إلى أعلاه حاملة الوقود إلى المنار، وهذا الوصف يطابق وصف المؤرخ العربي ياقوت الذي زاره صحبة بعض العلماء فقال: «إن له درجات واسعة يستطيع الفارس أن يصعدها بفرسه»، غير أن هذا المؤرخ العربي لم ير في المنار ما يستوجب العجب، إذ يقول إنه بناء عادي يشبه الحصن أو الصومعة.

ويجمع كثير من المؤرخين على أن ارتفاعه كان ١٣٥ مترًا، وأن نوره كان يمتد إلى ٣٠ ميلاً في عرض البحر وأنه كان يُوقَد بالحطب، والقطران، وكان مزودًا بمنظار يدور بواسطة مرايا عاكسة للأشعة، ولكن لم يثبت بصفة قاطعة أن انعكاس الأشعة كان ينبثق من مرايا المنظار، إذ يرى بعض المؤرخين الآخرين أن المنظار قد يكون من سطح معدني مصقول يعكس ضوء النار ليلاً وأشعة الشمس نهارًا، أو قد يكون من حجر شفاف أو من الزجاج، ويقولون إن الجالس تحت هذه المرايا يستطيع رؤية المراكب على بُعْد سحيق، فهل توصل علماء الإسكندرية إلى صنع العدسات، وزودوا المنار بها في ذلك العهد القديم.

ويذهب محمود باشا الفلكي في كتابه «الإسكندرية القديمة» إلى أن عرض المنار كان يتراوح بين ٤٠ – ٥٠ ذراعًا أو بليترًا ونصفًا بالمقاس اليوناني القديم، أما الارتفاع فإنه – وفاقًا لتقدير المسعودي وأحد الكتاب الذين شاهدوه وفلافيوس جوزيف اليهودي – كان يتراوح بين ١٠٠ – ١٢٠ مترًا أو أربعة بليترات تقريبًا، ويستند الفلكي في تقدير هذا الارتفاع إلى أن الثلاثمائة ستاد التي كانت ترى على مسافتها شعلة المنار يمكن أن تتراوح بين مائتين وثلاثمائة ستاد أي نحو ٤٠ كيلومترًا، وذلك لأن الارتفاع الواجب للمبنى الذي يراه القادم من البحر على هذا البعد لابد أنه كان أكثر بقليل من ١١٠ من الأمتار، ويتفق الدكتور جمال الدين الشيال مع الفلكي في أن الارتفاع لا يزيد على ١٢٠ مترًا.

وظل المنار يؤدي عمله المفيد حتى الفتح الإسلامي عام ٢١هـ (٦٤١م) ويصفه العرب بأنه «بناية رحبة شاهقة من الحجر الأبيض مربعة الشكل، ضخمة التركيب، يقوم عمود عليها من الآجر والملاط على هيئة البرج المثمن، يستدق شيئًا فشيئًا إلى أن يصبح برجًا مستديرًا تتوجه قبة، وبها غرف كثيرة ولها شرفات إذا وقف فيها الإنسان رأى جميع أحياء المدينة وضواحيها إلى مسافات بعيدة، وهذا الوصف الدقيق يتفق في جملته مع وصف المؤرخين الأجانب الذين يضيفون

إلى الوصف المتقدم أن تمثالاً لأحد الآلهة بارتفاع سبعة أمتار كان يقف فوق القبة، ولعل هذا الإله هو «بوسيديون إله البحار».

ووصف المنار ابن الشيخ أبو الحجاج يوسف بن محمد الأندلسي الذي عاش بالإسكندرية بعض الوقت فقال في عام ٥٦١هـ (١١٦٥م) إنه كان من أربع طبقات ترتفع الأرضية منها إلى نحو ٦٠ مترًا، وكانت مربعة الشكل كثيرة المنافذ، عديدة الحجرات إذ يصل عددها إلى ٣٠٠ حجرة تضم مساكن للعمال ومخازن للأدوات، والآلات اللازمة لإدارة المنار، وكان سطح هذه الطبقة مزينًا بأربعة تماثيل من البرونز في كل ركن من السطح ينتصب تمثال وجميعها تمثل الإله «تريتون Triton» أحد آلهة البحار وهو ابن الإله «نبتون Neptune» و«أمفتريت Amphitrite»، وكان على واجهته الجنوبية – أي المواجهة للمدينة – النقش الذي ذكرت ترجمته قبل، وكانت الطبقة الثانية مثمنة الأضلاع وارتفاعها ٣٠ مترًا، والطبقة الثالثة مستديرة الشكل يعلوها مصباح أقيم على عمد ثمانية، تحمل قبة فوقها تمثال يصل ارتفاعه إلى سبعة أمتار.

ويتفق وصف ابن الشيخ في تفصيلاته مع الوصف الذي دوّنه مؤرخو العرب عند الفتح الإسلامي مما يجعل الوصفين أقرب إلى الحقيقة التي كان عليها المنار في العصور الغابرة، ولابد أن ابن الشيخ اعتمد على المراجع التي تؤيد وصفه والتي كانت موجودة في وقته بالإسكندرية.

وتوالت على هذا المنار التاريخي العجيب أحداث الزمان فقضت على آثاره شيئًا فشيئًا، ففي عام ٨١هـ (٧٠٠م) سقط المصباح[١]، وفي عام ٢٦٧هـ (٨٨٠م) قام أحمد ابن طولون بترميم ما تبقى منه، ثم رمم مرة أخرى في عام ٣٧٠هـ (٩٨٠م)، وأضيفت أجزاء على الطبقة الثانية المثمنة الشكل، وفي عام ٤٩٤هـ (١١٠٠م) أصابه الزلزال، فلم يبق منه غير الطبقة الأولى المربعة الشكل، وقد بني فوقها مسجد لا يعرف اسم بانيه، وفي عام ٧٢٤هـ (١٣٢٤م) حطم زلزال ما تبقى منه فصار كومة من الأنقاض، وخلال عام ٨٨٥هـ (١٤٨٠م) أقام قايتباي (انظر مادة قايتباي) على هذه الأنقاض حصنًا جُدِّدَت مبانيه في عهد محمد علي (١٨٠٥ – ١٨٤٨م)، ثم قضى عليه الإنجليز في أثناء اعتدائهم الغاشم على الإسكندرية في ١١ يوليو عام ١٨٨٢م (١٢٩٩هـ) خلال الثورة العرابية الوطنية، وهكذا كانت نهاية المنار العجيب، ولم يبق للتاريخ من آثاره سوى أنموذج مصغر من هيكله وُجِد بأبي صير بجهة مريوط.

ومنذ عهد قريب وجهت مصلحة الآثار عنايتها لحصن «قايتباي» بوصف كونه الأثر الباقي من مكان المنار، فرممت مبانيه وقوَّتها ليكون مكانًا سياحيًّا يجد السائحون في أرجائه آثار الماضي ومعالم الحاضر، ويُضاء المبنى كل ليلة فيُرى مغمورًا بالنور الكهربي من الميناء الشرقي على طول ساحله القوسي الممتد من السلسلة إلى الحصن.

(١) هناك قصة شائعة تزعم أن أحد أباطرة العصر البيزنطي أمر بإسقاط المصباح عندما أراد مهاجمة مصر، لأنه يرشد عن السفن وهي في عرض البحر، ومن ثم يستطاع تدميرها قبل الاقتراب من الشاطئ.

وما دمنا بصدد منار الإسكندرية يحسن أن نذكر هنا نبذة مركزة عن المنار الحالي الذي يقع مكانه على بعد ٥٠٠ متر من قصر رأس التين (انظر هذه المادة) في الطرف الغربي من جزيرة «فاروس» ويقول علي باشا مبارك (انظر هذه المادة) في كتابة «الخطط الجديدة» إن محمد علي عَيَّن لإنشاء هذا المنار في مكانه الراهن مظهر باشا (انظر مادة محمد مظهر باشا) فبناه على أحسن هندام، وجعل ارتفاعه ٦٠ مترًا، ونوره يُشاهَد من ثمانية فراسخ في البحر، ويقول إسماعيل سرهنك (انظر مادة سرهنك باشا) إن نوره يشاهَد من ١٦ ميلاً، ويستطرد علي باشا مبارك فيقول: وبتشييد هذا المنار عمت المنفعة وكثرت الفوائد.

والمعلومات التي استقيتها من الصديق المهندس «علي الحمّادي» أحد كبار مهندس الموانئ والمنائر تدل على أن «فنار رأس التين» الحالي شيد من الحجر الأبيض المعشق بأربطة من الرصاص المصبوب، وشكله أسطواني، ويرتفع مبناه ٤٥ مترًا عن سطح البحر، ويصعد إلى أعلاه بسلم حلزوني من الحجر، ويبلغ قطره الداخلي خمسة أمتار ونصف المتر، وقطره الخارجي تسعة أمتار ونصف المتر لأن عرض حائطه متران.

وفوق بنائه حجرة من الخشب يصعد منها إلى فانوس الإضاءة بسلم من الحديد ارتفاعه ثلاثة أمتار، وارتفاع المنار إلى منتصف الفانوس خمسة وخمسون مترًا وقوة نوره الكهربي تعادل مليون شمعة، والفانوس ثابت، أما العدسة فتتحرك بالتيار الكهربي ووزنها حوالي ٣٠٠٠ كيلو جرام وهي عائمة في حوض من الزئبق ويصل نورها إلى ٢٠ ميلاً بحريًّا، وعندما يكون الجو صحوًا تتراوح هذه المسافة بين ثلاثين وخمسة وثلاثين كيلومترًا.

ومحمد مظهر مشيد المنار، ولد بالقاهرة من أب تركي وأم مصرية، وأرسله محمد علي في بعثة علمية إلى فرنسا عام ١٢٤٢هـ (١٨٢٦م)، وكان عمره في ذلك الحين ١٧ عامًا، ومن ثم يكون مولده في عام ١٢٢٥هـ (١٨١٠م)، وقد تخصص في دراسة علم الهندسة وسافر إلى إنجلترا للسياحة، وتطبيق العلم على العلم عام ١٢٥١هـ (١٨٣٥م)، وعاد في ذلك العام نفسه إلى مصر، وقد نال شهرة واسعة النطاق بسبب أعماله الهندسية في فن التشييد، ولاسيما المنشآت البحرية، فهو باني القناطر الخيرية، ومشيد فنار الإسكندرية، وقد تقلد مناصب هامة في الدولة إلى أن صار وزير الأشغال وكانت وفاته عام ١٢٩٠هـ (١٨٧٣م) بالغًا من العمر حوالي ٧٦ عامًا.

ولعل من المفيد تدوين ما قاله الرحالة المغربي أبو عبد الله محمد اللواتي الطنجي المعروف «بابن بطوطة» في وصف المنار حين زيارته للإسكندرية في أول جمادى الأولى عام ٧٢٥هـ (١٣٢٥م) لدى البدء في رحلته إلى المشرق وصفه له عند عودته إلى بلاد المغرب خلال عام ٧٥٠هـ (١٣٤٩م)، إذ من هذين الوصفين يتضح ما كان عليه منار الإسكندرية العجيب من كيان كلي، ويستبين في جلاء مكانه من المدينة الذي يتفق تمامًا مع ما ذهب إليه العالم محمود الفلكي من أن هذا المكان هو موضع حصن قايتباي الحالي، فابن بطوطة يقول:

«إنه بناء مرتفع ذاهب في الهواء، وبابه مرتفع عن الأرض، وإزاء بابه بناء بقدر ارتفاعه وضعت بينها ألواح

خشب يعبر عليها إلى بابه، فإذا أزيلت لم يكن له سبيل، وداخل الباب موضع لجلوس حارس المنار، وداخل المنار بيوت كثيرة، وعرض الممر بداخله تسعة أشبار، وعرض الحائط عشرة أشبار، وعرض المنار من كل جهة من جهاته الأربعة مائة وأربعون شبرًا، وهو على تل مرتفع ومسافة ما بينه وبين المدينة فرسخ واحد في برّ مستطيل يحيط به البحر من ثلاث جهات إلى أن يتصل البحر بسور المدينة فلا يمكن التوصيل إلى المنار في البرّ إلا من البلد، وفي هذا البر المتصل بالمنار مقبرة الإسكندرية.

وقصدت المنار عند عودتي إلى بلاد المغرب عام خمسين وسبعمائة فوجدته قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه، وكان الملك ناصر – رحمه الله – قد شرع في بناء منار مثله بإزائه فعاقه الموت من إتمامه».

ومن هذين الوصفين يتضح صحة ما ذهب إليه الفلكي في تحديد مكان المنار البطلمي بأنه كان في الموقع الذي يقوم فيه الآن حصن قايتباي، فقول ابن بطوطة إن المنار كان فوق تل مرتفع على مسافة فرسخ واحد من المدينة في برّ مستطيل يحيط به البحر من ثلاث جهات إلى أن يتصل البحر بسور البلد، وإن بهذا البر المتصل بالمنار مقبرة الإسكندرية، يزيل الشك في المكان الذي حدده الفلكي، فحصن قايتباي كان ومايزال في طرف برّ يحيط به البحر من ثلاث جهات، هي الجهة المطلة على خارج الميناء الشرقي في الشمال والجهة المطلة على حصن «الأطة» في الغرب والجهة المطلة على الميناء الشرقي في الشرق، والبعد بين الحصن ومقابر الإسكندرية القديمة التي كانت في الجهة الغربية من مسجدي أبي العباس والبوصيري (وقد رأيتها في سن الطفولة) لا يزيد على فرسخ واحد، وهذا يدل في غير شك على أن المنار كان في هذا المكان بالذات فوق التل كما يذكر ابن بطوطة، أو فوق الصخرة كما يذكر الفلكي، وهو الصخرة التي كانت جزيرة صغيرة منفصلة عن المدينة وقت إنشائها، ويؤكد قول ابن بطوطة أنه رأى إزاء باب المنار بناءً بقدر ارتفاع الباب، وبينه وبين الباب ألواح خشب للعبور عليها إلى المنار قول كثير من المؤرخين الذي شاهدوا المنار في أوج عظمته، إن جسرًا مائلاً كان يربط صخرة المنار بجزيرة، وأخيرًا تتفق المقاسات التي ذكرها ابن بطوطة (بالأشبار) مع المقاسات التي حددها الفلكي بالأذرع لعرض المنار على وجه التقريب، وقول ابن بطوطة إن بداخل المنار بيوتًا عديدةً يؤيد قول ابن الشيخ إنها كانت تضم حجرات عديدة.

ولقد آمن بطليموس الأول (سوتير) منذ بداية حكمه بأن من حسن السياسة العملية المنتجة إجازة اختلاط بني جنسه من المقدونيين، واليونانيين بالمصريين لتوثيق الروابط الاجتماعية بينهم توصلاً للعمل الجماعي على تقدم العمران في البلاد واستغلال المرافق الاقتصادية؛ لينعم برخائها أفراد الشعب جميعًا، ومن الوسائل التي لجأ إليها في هذا الشأن توحيد العقيدة الدينية للقضاء على المنازعات الجامحة التي تترتب على فوارق الأديان، ويذكر المؤرخ «بلوتارك Plutarch» الإغريقي الذي عاش في الحقبة الواقعة بين عامي ٤٥ – ١٢٥م، والذي قام بعدة رحلات في آسيا ومصر، يذكر هذا المؤرخ أن بطليموس كوّن لجنة من علماء المصريين، والإغريق المتبحرين في العلوم الدينية لتنفيذ فكرة توحيد العقيدة، فاستقر رأيها على أن تتألف العبادة الجديدة من الإله «أزوريس» وزوجته «إيزيس» وابنهما «حوريس» «حاربوكراتس Harpocrates»، وكان من بين أعضاء هذه اللجنة الكاهن المصري «مانيثون Manethon» والكاهن اليوناني تيموثيوس Timotheos».

وكان للمصريين ديانتهم وعقائدهم الموروثة الراسخة في نفوسهم منذ أقدم العصور، وكان لليونانيين ديانتهم ومذاهبهم العقائدية، وللقضاء على هذه النزعات الدينية المتضاربة تذكر المؤلفات التاريخية القديمة أن بطليموس (سوتير) هو الذي أحضر تمثال الإله «سيرابيس Sérapis» من «سينوب Sinope» إحدى مدن الأناضول، أو من مكان آخر في آسيا الصغرى.

ودلت أبحاث العالم «فلكن Wilken» على أن «الإله سيرابيس» ما هو في الحقيقة إلا صورة من الإله المصري «أوزير–حابي Osir–Hapi» الذي هو عند اليونانيين «أوزيرابيس Osirapis»، وقد اشتق من هذا الاسم اسم «سيرابيس» فكان إلَهًا مصريًّا ذا صبغة هيلينية.

ويبدو أن ما فعله بطليموس الأول ينطوي على رفع مكانة العجل «آبيس» بعد هلاكه – وهو الإله المصري – إلى مرتبة لائقة بالحواضر، وتمثيله للناس على النسق الموائم للأفكار اليونانية، فاستعان في ذلك بتمثال جلبه من آسيا الصغرى، في صورة رجل في مقتبل العمر، قوي البنية، جميل الطلعة، يشبه في كل هذه الصفات الإله اليوناني «زيوس Zeus» إله الآلهة، ورب الأرباب عند الإغريق.

وتدل الدلائل القوية على أن جلب بطليموس للإله «سيرابيس» كان القصد منه الدعاية في الخارج، إذ كان الغرض من إقامة تمثاله بالإسكندرية، أن يكون الإله الراعي للإمبراطورية البطلمية التي كان «سوتير» يحلم بإنشائها، وأن يضفي على هذه الإمبراطورية المرتقبة مزيدًا من الهيبة، والمكانة الدينية المرموقة بإضافة الإله المصري – أو المتمصر على الأصح – إلى مجموعة الآلهة الهيلينية العالمية.

غير أن أحلام بطليموس «سوتير» في هذه الناحية لم تتحقق، إذ لم يقبل على عبادة هذا الإله الجديد – في أول الأمر – سوى سكان الإسكندرية وممفيس، تبعهم في اعتناق عبادته المستوطنون من اليونانيين في القطر المصري، وصارت الإسكندرية فيما بعد المركز الرسمي لعبادة ذلك الإله الدخيل ووضعت لممارسة عبادته طقوس وتقاليد خاصة تتفق في كيانها العام مع الطقوس والتقاليد الهيلينية.

ثم انتشرت عبادة الإله «سيرابيس» في أنحاء القطر المصري، فشيدت له معابد على شكل «السيرابيوم» بالإسكندرية في عواصم الأقاليم وحتى في القرى المتواضعة، فكان في «فيلادلفيا» بالفيوم معبد لسيرابيس أقامته الجالية اليونانية، وكانت فيلادلفيا قرية نموذجية شيدها «أبولونيوس Apollonius» وزير مالية بطليموس الثاني «فيلادلف» وأطلق عليها اسم مليكه، وجعل تخطيطها على نسق الإسكندرية مستطيلة وشوارعها متقاطعة في زوايا قائمة كرقعة الشطرنج فصارت أنموذجًا تاريخيًّا يظهر ما أخفته الأجيال من معالم الإسكندرية البطلمية، وأقدم معابد «سيرابيس» التي شيدت في الأقاليم هو معبد ممفيس، وقد صار هذا الإله عميد آلهة الإمبراطورية البطلمية.

وما من شك في أن بطليموس الأول «سوتير» كان أول من شيد المعالم الأولى لمعبد السيرابيوم فوق الربوة التي يستوي فوقها حتى الآن عمود السواري في الجهة التي كانت تضم قرية «راقودة» عند إنشاء الإسكندرية والتي تقع بين شارع كرموز وحي كوم الشقافة، إذ ليس من المقبول منطقيًّا أن يحضر بطليموس الأول معبودًا جديدًا دون أن يهيئ له معبدًا يليق بالمكانة العالية التي أضفاها عليه بين الآلهة.

وإذا كانت اللوحات التي عثر عليها خلال عامي ١٣٦٣ و١٣٦٤هـ (١٩٤٣ - ١٩٤٤م) ضمن الودائع التي وضعت في حجر الأساس عند بناء «السيرابيوم» السكندري تدل على أنها تحمل اسم «بطليموس الثالث» «إيفرجيت Évergète» الملقب «بالمحسن le Bienfaiteur» الذي حكم من عام ٢٤٦ إلى عام ٢٢١ ق.م. واسم أخته وزوجته «برنيس الثانية Bérénice II»، فإن ذلك لا يقوم برهانًا قاطعًا على أن بطليموس الأول وابنه بطليموس الثاني لم يسهما بنصيب إيجابي في تشييد مجموعة الأبنية العجيبة الفخمة التي كان السيرابيوم البطلمي يتكون منها.

ولقد فطن «السير هارولد إدريس بيل» العالم الخبير في أوراق البردي إلى ذلك، فقال في كتابه «الهيلينية في مصر» عندما تعرض لموضوع «السيرابيوم» ما يأتي: «وتدل اللوحات التي عثر عليها ضمن المحتويات التي اشتمل عليها الحجر الأساسي أن المؤسس للسيرابيوم هو بطليموس الثالث، ولكن هذا الجناح الخاص به لا يمكن أن يكون بحال هو أول ما أنشئ من المؤسسات».

وإزاء ما تقدم يستطاع القول - في غير تردد - إن مؤسس السرابيوم الأول كان «بطليموس - سوتير» حيث وضع تمثال المعبود «سيرابيس» الذي أتي به لتوحيد العقيدة الدينية في ملكه، وعهد إلى المهندس الإغريقي «بادمينسكس» بوضع تصميمه، ومباشرة إقامته على الطراز اليوناني، ومما يؤيد ذلك، ويؤكده قول «بوزنياس»: «إن بطليموس بن لاجوس شيّد السرابيوم في مكان معبد صغير كان هيكلاً لعبادة إيزيس وأوزوريس براقودة»، وقد تبعه في الإنشاء التوسعي للمعبد ابنه فيلادلف وحفيده إيفرجيل.

ومن اللوحات العشر التي عثر عليها في أساس «السرابيوم» يستدل على الفخامة التي كان عليها هذا المعبد العظيم، فأولاها من الذهب الخالص، والثانية من الفضة، والثالثة من البرونز، فلا غرابة إذن في الوصف الذي يضفيه المؤرخون على هذا الأثر الإغريقي معبرًا عن روعة التشييد، وسمو الفن مما يدخله في زمرة المنشآت العجيبة في فن العمارة الرائع التعبير، وقد كُتِب على جميع اللوحات العشر نصان أحدهما بالهيروغليفية بالمداد الأسود، وترجمته «ملك الجنوب والشمال وريث الآلهة الإخوة الذي اختاره آمون قوية حياته رع بن الشمس بطليموس للأبد بنى المعبد والسور المقدس»، والنص التالي باليونانية، وكتب بالضغط بقلم صلب على اللوحات المعدنية الثلاث وترجمته: «الملك بطليموس ابن بطليموس وأرسينوي، الآلهة الإخوة أقاما لسيرابيس المعبد والسور المقدس»، واللوحات موجودة بالمتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية.

وقد جاء في هذا الوصف الذي دبجته أقلام عدد من المؤرخين القدامى أن «السرابيوم مجموعة من الأبنية الرائعة الجمال، تحيط بها أسوار متينة، أقيمت عند مدخلها قبة شامخة مذهبة فوق أعمدة من الصخر الملون ترتفع مزدوجة في دائرتين، وهذه القبة الجميلة تسمى «الأقداس» أي البيت، وخلف الأسوار من المدخل شيدت عقود متينة تنتهي إلى أبنية تحت الأرض مكونة من طبقات بعضها فوق بعض، ومن ثم فإن السيرابيوم بأكمله يعد حصنًا عظيمًا من الناحية الدفاعية علاوة على قيمته الفنية والأثرية.

ومسطح هيكل السرابيوم مربع الشكل، أما مسطح المعبد الكلي فمستطيل، ويصل إليه الزائر بعد صعود سلم من مائة

درجة تبدأ من الطريق الموصل إلى «السرابيوم»، أما العربات فلها طريق مُعَبَّد في ناحية أخرى.

فإذا وصل الزائر إلى مدخل «السرابيوم» بهرته فخامة هذا المدخل ذي الأعمدة الأربعة الضخمة، والباب العظيم المصنوع من معدن الشَّبَهْ (أي النحاس المخلوط)، فإذا ما بلغ وسط «السرابيوم» أخذته دهشة الروعة الفائقة بما يضم هيكل «سيرابيس» من أبنية ارتقت إلى ذروة الجمال والأبهة في فن العمارة، تنهض فوق قمة الربوة وتؤلف مركزًا يشتمل على منشآت مستطيلة الشكل، مكونة من بهو فسيح جدرانه من الرخام، تزينه أعمدة من أثمن أنواع المرمر البهيج، ويتوسطه تمثال المعبود «سيرابيس» المصنوع من الخشب الملبس بالعاج والذهب ترصعه الأحجار الثمينة، ويمسك بيده اليسرى حربة ذات شفرتين، وتحت يده اليمنى صورة ذات ثلاث رؤوس هي رأس الذئب، ورأس الأسد، ورأس الكلب حولها أفعى هائلة.

وسقوف هذا المعبد النادر مغطاة بالذهب ومحلاة بالنقوش ذات الألوان الزاهية، وأرضيته مفروشة بالمرمر الثمين، أما أبوابه العديدة فآية من آيات الفن الرائع من حيث العظمة والفخامة، ورؤوس الأعمدة المحيطة به مغطاة بطبقة من الذهب، ويتخلل أرضيته المرمرية عقود تؤدي إلى حجرات شيدت في حيز «السرابيوم» نفسه، وقد خصص بعضها لمكتبة تضم عددًا كبيرًا من نفائس المجلدات (وهي غير المكتبة الأم التي سيأتي ذكرها في حينه) وخصص البعض الآخر لتنسيق مشاهد ترمز لآلهة مصر القديمة».

وعلى العموم فمدخل «السرابيوم» يضم أنواعًا من الزينة، والنقوش الباهرة، وأصنافًا من المرمر، ومعدن الشَّبَه لا تقدر بثمن.

وعندما يغادر الزائر الهيكل يجد نفسه وسط مستطيل تقوم في أرجائه أبنية بديعة الرونق، بهية المنظر تشغل مرتفع «السرابيوم» بأسره، وأول ما يشاهده هو ذلك الصف من الأعمدة الجليلة التي تحيط بهيكل «سيرابيس» من الخارج موازية في نسقها لصف الأعمدة المحيطة بالفناء جميعه، ويصل الصفين في أربعة خطوط، أربعة من الأعمدة تخرج من المحيطة بالهيكل، وتنتهي إلى المحيطة بالفناء على هيئة صليب، كما يشاهد الزائر بحرم المعبد مسلتين قديمتين وحوضًا كبيرًا من المرمر الجميل.

وإذا سار الزائر بعد ذلك صوب الأعمدة المحيطة بالفناء المرتفع من السرابيوم يجد خلفه قلادة من الأبنية الشامخة الجميلة.

هذا هو الوصف الشيق الذي أضفته المراجع التاريخية القديمة على معبد السرابيوم العتيد إبان وجوده مكتمل الكيان، والبنيان في العهد البطلمي.

ويؤيد ضخامة الأسوار التي كانت تحيط بحيزه قول محمود باشا الفلكي في كتابه «الإسكندرية القديمة» الذي أتمه في شعبان عام ١٢٨٣هـ (١٨٦٦م)، إن الحفريات التي قام بها بالقرب من منطقة عمود السواري كشفت عن اثني عشر حائطًا، سُمْك كل منها متران، وقد وجد الفلكي أن بعض جدران هذه الحوائط كانت ماتزال ظاهرة فوق الأرض وقت قيامة بأعمال الحفر حول المنطقة، كما وجد عددًا كبيرًا من

الأعمدة الصحيحة، والمحطمة في هذه المنطقة، وقال إن مباني معبد السرابيوم كانت تمتد في مساحة تشمل محيطًا مربعًا طول كل ضلع من أضلاعه أكثر من ١٨٠ مترًا وذهب إلى الاحتمال بأن عمود السواري كان مركز هذا المحيط.

وتطرق الفلكي إلى القول بأن العدد الكبير من الأعمدة المحيطة بالمنطقة ورؤوسها وقاعداتها وأجزائها الكاملة التي اكتشفها يدل بالتأكيد على أن مبنى السرابيوم كانت تزينه مداخل مسقوفة وبوابات مقوسة وصفوف هائلة من الأعمدة من ناحيتي الشمال والشرق، إن لم يكن على طول هاتين الواجهتين، فعلى الأقل في جزء كبير منهما.

ويؤيد قيام الأعمدة التي اكتشفها الفلكي في حرم «السرابيوم» قول المؤرخين العرب عند الفتح الإسلامي إنه «من آثار المدينة بقايا السرابيوم»، وهي عدد كبير من العمد تعرف «بسواري سليمان»، ولعل اسم «عمود السواري» الذي يطلق حتى الآن على العمود الأثري القائم فوق ربوة «السرابيوم» يرجع إلى تلك العمد التي رآها العرب عند الفتح، وكشف الفلكي عنها، وكان أهل الإسكندرية يطلقون عليها عبارة «سواري سليمان» ويقول ابن بطوطة أن العمود كان قائمًا وقت زيارة هذا الرحالة المغربي للإسكندرية بعد عام ٧٢٥هـ (١٣٢٥م) وسط غابة من النخيل.

ومن جهة أخرى أثبت المؤرخون الذين زاروا الإسكندرية بعد ذلك أن أكثر هذه العمد كان قائمًا في القرن الثالث عشر الميلادي، وجاء ذكر القبة الخضراء الهائلة الرائعة المنظر في بعض الكتب التي تحدثت عن أبهة «السيرابيوم» ورونقه، فقال «أفتونيوس» إنه رأى «أكروبول Acropole» الإسكندرية العالي ووصف قبته بأنها عظيمة لها حافة دائرية محلاة برؤوس تمثل الكواكب السبعة السيارة، وكلمة الأكروبول يونانية وتدل على أماكن المدن المرتفعة التي تستعمل قلاعًا، ومازال أكروبول مدينة أثينا من الآثار الخالدة اليونانية، وهو يقوم على أعلى مكان في المدينة بأعمدته الكثيرة، وشكله الهندسي المستطيل.

أما الدرجات المائة التي كان سلم السيرابيوم يتكون منها فقد ذكرها «روفان Ruffin» صاحب كتاب «وصف مصر القديمة»، ويدل على حقيقة وجودها أن ربوة السيرابيوم الصناعية ترتفع عن مستوى الطريق بحوالي ١٨ أو ١٩ مترًا.

وهذا الارتفاع أثبته الفلكي في كتابه الآنف الذكر وقال: «إنه يتفق تمامًا مع المائة درجة التي ذكرها روفان الذي كان يعيش بالإسكندرية في حوالي النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي».

ويضيف «روفان» إلى ما تقدم أن الأبنية السفلى «للسرابيوم» مقسمة إلى أجزاء سرية كانت تستخدم في أغراض غامضة، وأما الأبنية القائمة فوقها فهي عبارة عن قاعات للمحاضرات، وللتعليم الديني، ولسكنى الرجال الذين يهبون أنفسهم للدين، والزهد، وفي الوسط يقوم المعبد المزين بالأحجار الكريمة مشيدًا فوق عمد من الرخام وبه تمثال للإله «سيرابيس»، وهو ضخم الحجم لدرجة أن ذراعه اليمنى تلمس الحائط من جهة ويده اليسرى تلمس الحائط من الجهة الأخرى.

ويؤكد وجود الأبواب الكثيرة المؤدية إلى معبد «السرابيوم» قول «مرسلان» عن هذا المعبد العظيم: إن بالمدينة جملة هياكل

أكبرها وأوسعها وأرفعها شأنًا معبد «السرابيوم» الذي لا يستطاع وصفه لغريب صنعه وعجيب فنه، فقد رأيت أبوابه الكبيرة المنمقة بالأعمدة، والتماثيل التي لا مثيل لها والتي تكاد أن تنطق، فآمنت بأنه ليس في الدنيا ما يشبه «السيرابيوم» أو يداني «هيكل الكابيتول»، و«الكابيتول Le Capitol» هو معبد «جوبيتير Jupiter» إله القوة ورب الأرباب عند الرومان، وقد شيد معبد الكابيتول فوق تل «كابيتولين Capitoline» أحد تلال مدينة روما السبعة حيث كانت تتم مراسم تتويج الظافرين.

أما عن مكتبة «السرابيوم» فيقول الفلكي إن الكتّاب القدامى قد اتفق رأيهم على أن هذا المعبد كان يضم مكتبة كبيرة، ونحن نجد المؤرخين العرب يذكرون أن (عمود الأعمدة) المعروف عند الأوروبيين باسم «عمود بومبي»، ونحو مائة من الأعمدة المحيطة كانت تحمل اسم «دار الحكمة» ومكتبتها التي قيل أن عمرو بن العاص أمر بحرقها، ولعل الفلكي يقصد بذلك المكتبة الوليدة التي ضُمّت إلى السرابيوم بعد حرق جزء من المكتبة الأم في أثناء حملة يوليوس قيصر على الإسكندرية.

ولقد أقام الرومان على أطلال السيرابيوم البطلمي معبدًا آخر للإله «سيرابيس» مربع الشكل، وقد جاء هذا الوصف في كتب مؤرخي القرن الرابع عشر الميلادي، ويبدو أن السرابيوم «البطلمي هدم خلال ثورة يهود الإسكندرية في عهد الإمبراطور «تراجان Trajan» (انظر هذه المادة) الذي حكم الدولة الرومانية في المدة من عام ٩٨ إلى عام ١١٤م، ثم أعيد تشييده مربع الشكل تصل مساحته إلى ١٨٠×١٨٠=٣٢,٤٠٠ متر حسب طول كل من أضلاعه الأربعة التي اكتشفها الفلكي عام ١٢٨٣هـ (١٨٦٦م) كما ذكر فيلا، وكان ذلك في عهد الإمبراطور «هادريان Hadrian» (انظر هذه المادة) الذي حكم في المدة من عام ١١٧ إلى عام ١٣٨م، والذي ازدهرت في عهده الإمبراطورية الرومانية، وكان أكبر مشجع للصناعة، والآداب، والعلوم.

وبما أن الحفريات أثبتت أن معبد «السرابيوم البطلمي» كان مستطيل الشكل يبلغ طول ضلعه الممتد من الشرق إلى الغرب بمحاذاة شارع أبي مندور حوالي ٧٧ مترًا فقط، فإنه من المستطاع القول بأن «السرابيوم» الروماني كان أوسع من البطلمي بنحو ثلاثة أضعاف.

وعندما صار الدين المسيحي دين الدولة الرومانية دمرت جميع المعابد والهياكل الوثنية خلال عام ٣٩١م، وشمل التدمير «السيرابيوم الروماني» وبنيت على أنقاضه كنيسة للقديس «يوحنا المعمداني Jean Baptiste» الذي عمد السيد المسيح من مياه نهر الأردن وقطع «هيرود أنتيباس» رأسه، وقدمها على صينية إلى «سالومية» بنت زوجته «هيروديا»، وقد ظلت هذه الكنيسة قائمة حتى القرن العاشر الميلادي.

ولم يبق في مكان «السرابيوم» البطلمي والروماني، سوى أثر لم تأت على كيانه العظيم أحداث العصور المتعاقبة هو «عمود السواري» وفي الجهة الغربية من هذا العمود سلم يؤدي إلى سراديب نحتت في الصخور وطُليت بالملاط الجيري في بعض أجزائها، يتخللها فتحات يرجح أنها كانت رفوفًا لمجلدات المخطوطات من لفافات البردي، ولاسيما للمجلدات التي نقلت إلى «السرابيوم» عقب الحريق الذي شب في أسطول الإمبراطور «يوليوس قيصر Jules César» في

الميناء الشرقي، وأصاب جزءًا من مكتبة الإسكندرية الشهيرة، وذلك إبان حملة هذا الإمبراطور الأولى على الإسكندرية، وأطلق على مجموعة هذه المجلدات «المكتبة الوليدة». وقد وصف «روفان» هذه الحُجر، إذ رآها بنفسه.

وكشفت الحفريات التي أجراها الفلكي خلال عام ١٢٨٩هـ (١٨٧٢م) عند وجود عدد من التماثيل لبعض الحيوانات وصور للطيور المصنوعة من الجرانيت، وأعمدة كثيرة مكسورة، وتيجان أعمدة، وأبدانها مبعثرة تحت قارعة شارع كرموز الذي يمتد من شارع الخديوي الأول (شريف حاليًّا) إلى ترعة المحمودية، مارًّا بعمود السواري، وقد نقل معظم هذه الآثار إلى متحف الإسكندرية اليوناني الروماني، وبقي البعض الآخر بالمنطقة نفسها.

ومن جهة أخرى كشفت الحفريات التي أجريت خلال عام ١٣١٥هـ (١٨٩٥م) عن أعمدة أخرى على جانبي شارع كرموز، وعن جدران على عمق قليل في مكان يبعد ثمانين مترًا عن عمود السواري في الجهة الجنوبية الشرقية منه.

وأثبت البحث أن بعض الآثار الفرعونية التي عثر عليها في منطقة عمود السواري من مخلفات معبد السرابيوم كانت موجودة بمنطقة قرية «راقودة» (كوم الشقافة الآن)، وأن البعض الآخر حُمِل إلى الإسكندرية في الأزمنة القديمة من منطقة عين شمس (المطرية حاليًّا).

ولدى صعود الزائر إلى أعلى التل، وقبل أن يصل إلى قاعدة عمود السواري يجد مسطحًا منبسطًا أقيم عليه تمثال كبير الحجم من الجرانيت الوردي يمثل ملكًا من الدولة الفرعونية الحديثة وقفت خلفه إحدى الآلهة لحمايته، ثم يجد إلى يسار العمود تمثال جعران كبير من الجرانيت الوردي عليه كتابة هيروغليفية تدل على أنه صنع في عصر الدولة الفرعونية التاسعة عشرة، وإلى الجنوب من قاعدة العمود يجد الآثار الفرعونية الآتية:

- تمثالين كبيرين لأبي الهول من الجرانيت الوردي.
- تمثالاً ثالثًا لأبي الهول من الجرانيت الأسود يحمل اسم «حور محب» من ملوك الأسرة الثامنة عشرة، وقد مات عام ١٣٢٠ق.م.
- تمثالين أحدهما من الجرانيت الوردي، والآخر من الجرانيت الأسود «لرمسيس الثاني» أحد ملوك الأسرة التاسعة عشرة، وقد حكم مصر في الفترة من عام ١٣٣٠ إلى ١٢٧٠ق.م. بعد أن خلف أباه «سيتي الأول» على العرش، ويطلق عليه اليونانيون اسم «سيزوستريس».
- جزءًا من تمثال مصنوع من الجرانيت الأشهب باسم بسماتيك الأول أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين (٦٣٣ – ٩٠٦ ق.م.).

وبالمتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية تمثال من الجرانيت للإله «سيرابيس» يصوره جالسًا على كرسي، وقد اشتمل بمشمل طرح نصفه على كتفه، ووضع نصفه الآخر على ركبتيه، وذراع التمثال اليمنى محطمة إلى فوق المرفق، وبالمتحف أيضًا أنموذج من العملة التي كانت متداولة في زمن بطليموس الأول (سوتير) على أحد وجهيها صورة وجهه من

جانبه الأيمن ويبدو كبير الأنف، عريض الجبهة، دقيق الفم، بارز الذقن، متجعد الشعر، وفي الوجه الآخر من العملة صورة نسر يقف على فرع شجرة، وقد فرد جناحه الأيسر، وحول الوجهين اسم الملك باليونانية، وبطليموس (سوتير) هو أول من ضرب النقود من الذهب والفضة والبرونز، وذلك في حوالي عام ٣٠٦ قبل الميلاد، وكان على أحد وجهي العملة البرونزية رسم رأس الإله «زيوس آمون».

ويضم المتحف اليوناني الروماني تمثالاً للإله «سيرابيس» في شكل العجل المقدس أبيس، وتمثالاً للإلهة «إيزيس» اكتشف بجهة الرأس السوداء بضاحية الرمل شرقي الإسكندرية، وهي في ثيابها الطويلة يعلوها الوشاح، وفي يدها آنية صغيرة وذراعها اليمنى محطمة، وتمثالاً نصفيًّا للإله «أوزوريس» يظهره في شكله الفرعوني وعلى صدره الرسومات المقدسة، وفوق رأسه شعار الألوهية العالي، وتمثالاً للإله حربوقراط يصوره عاريًا وفي يده الوشاح يتدلى حتى الأرض، وهو يضع أصابع يده اليمنى على ذقنه في تأمل كسيف، ومن مجموعة هذه الآلهة الثلاثة اشتق اسم الإله البطلمي «سيرابيس» كما تقدم القول، وما من شك في أن التماثيل المتعلقة بالإله سيرابيس ليس لها علاقة بالتمثال الهائل الذي ذكره كثير من المؤرخين القدامى، ووصفوه بأنه كان من النحاس الخالص وأنه من الكبر بحيث كان قدمه يبلغ قامة الرجل الممدد في طوله، وقد وجده العرب عند الفتح قائمًا فوق صخرة في البحر، وأطلقوا عليه اسم «شرحيل»، وبجواره على الساحل قبة خضراء رائعة البناء، ويقال أن الوليد الخليفة الأموي أمر بإذابته واستخدام نحاسه في الشؤون الصناعية، وما من شك في أن الجزيرة اختفت تحت سطح البحر.

وعندما تولى بطليموس الأول «سوتير» حكم مصر كان لديه جيش يصل عدده إلى مائتي ألف رجل أغلبهم من الإغريق الوافدين على البلاد استجابة لدعوته، فأجزل لهم العطاء، وكان المقدونيون يتولون أرفع المناصب في الجيش وفي الإدارة، هذا علاوة على جمع كبير من الموظفين الطامعين في الوظائف والثراء، وكان بطليموس يحصل على موارد مالية سنوية بعضها عينية تقدر بنحو ثلاثة ملايين من الجنيهات، وأغلبها من مختلف الضرائب الكثيرة الأنواع التي فرضها، مما أتاح الفرصة للتعمير، وبذل الجهود في الزراعة والصناعة والتجارة وساعد كل ذلك بطليموس على تشييد عاصمته الجديدة الإسكندرية، وإدخال التحسينات عليها وإحضار طائفة كبيرة من العلماء والأدباء والفنانين.

وكان من بين هؤلاء العلماء الفيلسوف الإغريقي «ديمتريوس الفاليري Demetrius Phalereus» الذي نفي من أثينا، فلجأ إلى رحاب بطليموس الذي بادر إلى الاستفادة من عمله وشهرته العالمية، وعهد إليه بأمانة المكتبة التي اعتزم تكوينها، واشترى لها كتبًا في كل فن، وقد قدر عدد مجلداتها عند نهاية حكمه بما يقرب من مائتي ألف مجلد من ورق البردي والجلود.

وديمتريوس الفاليري هو عند الفرنسيين Demetrius de Phalère قد كان من أكابر الخطباء الأثينيين، وعظماء رجال الحكومة كما كان من المؤرخين المشهورين إلى جانب شهرته الفلسفية العالمية، وتولى منصب حاكم مدينة أثينا من قبل «كاساندر» المقدوني الذي اعتلى عرش مقدونيا، وأخضع البلاد اليونانية لحكمه عام ٣١٨ق.م، والذي تزوج أخت الإسكندر الأكبر، وأهلك أفراد أسرة هذا الفاتح العظيم وصار

ملكًا على جميع البلاد اليونانية عام ٣٠١ ق.م. ومات عام ٢٩٧ ق.م.

وقد مات ديمتريوس الفاليري عام ٢٨٣ ق.م. بعد أن ألّف عدة رسائل في موضوعات شتى (انظر مادة إسكندر الأكبر)، وينتسب ديمتريوس إلى حي الفاليري «Phaleron» بمدينة أثينا، وكان أحد الموانئ الثلاثة لهذه المدينة في العصور القديمة، ووفد ديمتريوس الفاليري على الإسكندرية عام ٢٠٧ ق.م. كلاجئ سياسي، فأكرم بطليموس الأول وفادته وعهد إليه بمهمة إنشاء الجامعة، أو دار الحكمة التي تضم المكتبة الذائعة الصيت.

٧٢٢- سوق راتب باشا - شارع - بقسم المنشية

اطلب ترجمة صاحب السوق في كلمة «راتب باشا» الذي له حارة باسمه في قسم الجمرك.

٧٢٣- سولت - شارع - بقسم الرمل (محمود أبو العلا حاليًّا)

هو المارشال الفرنسي «نقولا جان دي دييه سولت Nicolas Jean-de-Dieu Soult»، ولد ببلدة سان أمانس سولت بمقاطعة (تارن) عام ١٧٦٩، وكان له دور هام في الأعمال الحربية التي أعدت قبل وبعد وفاته (زوريخ)، والدفاع عن مدينة جنوة بإيطاليا، وكان من نتائج هذه الأعمال الانتصار الباهر الذي أحرزه الجيش الفرنسي في معركة «أوسترليتز» الشهيرة أيام حكم نابليون بونابرت، وقد منح المارشال سولت عقب ذلك لقب «دوق دلماسيا» ولاسيما بعد معركة تلسيت، ونال شهرة عظيمة في الحروب ضد إسبانيا، وعلى الأخص في يوم «تولوز» الحربي ذي الشهرة الخاصة، وذلك خلال العام ١٨١٣م، وقد تنكر لنابليون بونابرت على الرغم من الرعاية الفائقة التي لقي منه ذلك خلال المدة التي أعقبت نفي نابليون بونابرت ورجوع أمراء البوربون للحكم في فرنسا. وتولى وزارة الدفاع ووزارة الخارجية في عهد ملك فرنسا لويس فيليب، وقد ترك مذكرات لم يتمها قبل موته عام ١٨٦٧م.

وكان المارشال «سولت» في عام ١٨٤٦م يشرف على تعليم الطلاب المصريين الذين أرسلهم محمد علي إلى فرنسا لتلقي العلوم الحربية في المدرسة التي أنشأها بباريس وأطلق عليها اسم «المدرسة الحربية المصرية» وجعل رياستها وتعيين أساتذتها لوزير الحربية الفرنسية، وكان ذلك التاريخ «الجنرال دي سانت يون».

أما صاحب اسم الشارع الجديد فاطلب ترجمته في «محمود أبو العلا».

٧٢٤- السيّالة - حارة - بقسم الجمرك

يطلق اسم السيالة على إحدى حارات قسم الجمرك، كما يطلق على الحي الذي يضم المنطقة الواقعة بين مسجد أبي العباس المرسي شرقًا، وشارع قصر رأس التين (السلطان سليم سابقًا)، وهو الشارع الممتد على خليج الأنفوشي.

وحي السيالة يعتبر أقدم أحياء مدينة الإسكندرية الوطنية ويشغل جزءًا كبيرًا من جزيرة «فاروس Pharos» التي سمّاها البطالمة بهذا الاسم، ومن كلمة «فاروس» اشتق لفظ

«فار Phare» أي الفنار الذي عرف فيما بعد إلى لفظة «منار ، أو منارة» ، ويرجع ذلك إلى أن بطليموس الأول شيد منار الإسكندرية القديم العجيب فوق جزيرة صغيرة ملاصقة لجزيرة «فاروس» ويقوم فوقها الآن حصن قايتباي ، وقد هدم المنار بفعل الزلزال عبر القرون المنصرمة .

والسيالة هي الجيب الكبير في لغة أهل الريف المصري ، وفي لغة صائدي السمك العرفية تعني كلمة السيالة المكان الذي يباع فيه السمك بالمزاد ، أو الممارسة ويطلق عليه الآن «حلقة السمك» .

ويقيني هو أن كلمة السيالة التي أطلقت على هذا الحي كلمة محرّفة عن اللقب المغربي الذي تحمله أسرة مغربية هي أسرة «سِيَالة» ، ومازال بعض أفرادها يعيش في كنف مدينة الإسكندرية ، وكان مستقرها الأصيل في حي السيالة بالذات .

ومنطقة السيالة ضيقة الحارات والأزقة ، ومعظمها ملتوية السياق ، يضلّ في جوانبها الذين يطرقونها أول مرة ، وكان يسكنها في نهاية القرن التاسع عشر ، وبداية القرن العشرين عدد كبير من أسر الإسكندرية العريقة النسب والحسب ، وكان أهلها في ذلك الحين لا ينسجمون مع سكان منطقة رأس التين ، ومن ثم كانت تقوم بين شبّانها ، وفتواتها المشاجرات الدامية ، ولاسيما في أعياد شم النسيم ، والفطر ، والأضحى ، وحتى في مواكب العرائس والعرسان ، وكان «فتوة» السيالة ، وفتاها الصنديد «حميدو الفارس» الذائع الصيت .

وكان في أرجائها قهوة خميخم الشهيرة ، وفي أحضانها ولد الشاعر الساخر بيرم التونسي ، وترعرع وقال القصائد ، والأزجال الأولى من فنه الساخر .

وتقوم فيها زاوية السيالة التابعة لوزارة الأوقاف ، ومن العائلات التي نشأت في كنف السيالة عائلات الناضوري ، وزين الدين ، والمسيري ، والمحتسب ، وأبو هيف ، وجنينة ، وسوكة ، وحِدّاية .

٧٢٥- سيبويه - شارع - بقسم المنتزه

هو أبو بشير عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب سيبويه من موالي قبيلة الحارث بن كعب العربية ، ويقول بعض مؤرخي سيرته أنه من موالي قبيلة الربيع بن زياد الحارثي ، وقد كان شيخًا من أئمة فقهاء النحو على مذهب أهل البصرة (انظر مادة البصرة) ، ويقول ابن خلّكان في كتابه «وفيات الأعيان» أنه كان أعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو ، ولم يضع أحد مثل كتابه في هذا العلم من علوم اللغة ، وقال الجاحظ (انظر هذه المادة) لم يكتب الناس كتابًا مثل كتابه ، وجميع كتب الناس عليه عيال .

وقد تعلم سيبويه النحو على يد الخليل بن أحمد (انظر إلى هذه المادة) وعلى يد عيسى بن عمر ، ويونس بن حبيب وغيرهم ، وأخذ اللغة عن أبي الخطاب المعروف بالأخفش (انظر هذه المادة) وغيره .

ولقب سيبويه فارسي وينطق سيبَويه أو سيبُويه (بفتح الباء أو ضمها) ومعناه باللغة العربية «رائحة التفاح» ، ويقول المستشرق «كرنكوف Krenkoof» إن بعض الناس ينطقون

هذا اللقب بالباء المضعفة وهذا خطأ لأننا إذا قسنا هذه الكلمة بالأسماء الفارسية الكثيرة القديمة التي تتضمن اللازمة «وي» نرجح إلى أبعد الحدود أنها كانت تنطق «سِيبْوِي»، وأنها كانت عبارة تحمل معنى التدليل والإعزاز وتدل على «التفاحة الصغيرة» وليس على رائحة التفاح، ويؤيد قول هذا المستشرق، ويؤكده قول إبراهيم الحربي إن سيبويه لقب بهذا الاسم لأن وجنتيه كانتا كالتفاحتين، وكان رحمه الله عليه في غاية الجمال.

ويحيط بتاريخ مولده، وتاريخ وفاته، ومكانهما كثير من البلبلة، والاضطراب، ويظهر من أوثق الروايات التي يركن إلى صحتها أنه ولد في البيضاء بناحية مدينة شيزار من أعمال فارس، وقدم البصرة في حداثته ودرس فيها على يد شيوخ فقهائها، ولاسيما على يد العالم الجليل الخليل بن أحمد المتوفى عام ١٧٥هـ (٧٩١م)، ولابد أن سيبويه حضر الدروس على يد الخليل في السنين العشر الأخيرة من حياة شيخه، ولذا يرجح جدًّا أن تكون وفاته قد حدثت خلال عام ١٧٧هـ (٧٩٣م)، وقد نَيَّف على الأربعين عامًا.

وتحيط البلبلة أيضًا بمكان وفاته ولكن الخطيب صاحب تاريخ بغداد يقول عن ابن دريد (انظر هذه المادة) إن سيبويه مات بمدينة شيزار وبها قبره، ويذكر أبو سعيد الطوّال أنه رأى قبره هناك، وقد كتبت عليه ثلاثة أبيات من شعر سليمان بن يزيد العدوي وهي:

ذَهَبَ الأَحِبَّةُ بعد طولِ تَزَاوُرِ
وَنَأَى المزارُ فأسلموكَ وأقشَعُوا

تركوكَ أوحَشَ ما تكونُ بقفْرةٍ
لم يؤنسوكَ وكُرْبة لم يدفعوا

وقضى القضاءُ وصِرتَ صاحب حُفْرةٍ
عنك الأَحِبَّةُ أعْرَضوا وتَصَدّعوا

وبما أن ابن دريد قد عاش عدة سنين في فارس ويُعَدّ خير راوية لعلوم البصريين، فإنه من المحتمل جدًّا أن تكون روايته هي الصحيحة.

وما من شك في أن سيبويه من شيوخ الأئمة في العلوم العربية، وأن كتابه في النحو الذي كان ثمرة لقريحة رجل لم يطل به العمر قد لقي مثل هذا الإقبال من الناس عامة. ذلك أن فقهاء العرب قد درجوا دائمًا على التعظيم من شأن الكتب التي ألفها الطاعنون في السن، ومع ذلك لم يركنوا إلى الحطّ من قدر كتاب سيبويه أو الخفض من علو شأنه العلمي.

وقد ذهب سيبويه إلى بغداد من البصرة، وكان الكسائي (انظر هذه المادة) في ذلك الحين يتولى تعليم وليّ عهد هارون الرشيد (انظر هذه المادة) فجمع الخلفية هارون بينهما فتناظرا، وزعم الكسائي أن العرب تقول: «كنت أظن الزنبور أشد لسعًا من النحلة فإذا هو إيّاها»، فقال سيبويه: «ليس المثل كذا بل فإذا هو هي»، وطال الجدل بين العالمين، واتفقا أخيرًا على مراجعة عربي خالص لا يشوب كلامه شيء من كلام أهل الحضر، وكان ولي العهد شديد العناية بالكسائي لكونه معلمه، وكانت هذه المناظرة في حضرة الوزير يحيي بن خالد البرمكي المتوفى عام ١٨٢هـ (٧٩٨م)، وقد انتصر الكسائي على سيبويه بمراجعة العربي، ولعل الكسائي عدو سيبويه الذي

لا يعرف وازعًا من الضمير اشترى العربي بالمال ليؤيده في زعمه الباطل.

وعلى الرغم من أن سيبويه تلقى جائزة سنية من الوزير يحيى البرمكي (انظر مادة البرامكة) إثر هذه المناظرة الخبيثة فإنه وجد غضاضة مريرة فيما لحقه من هزيمة مدبّرة فعاد إلى بلاد فارس ولم يعد إلى العراق بعد ذلك، ويقال: إنه مات من الغم والكمد لتألب علماء العراق عليه في المناظرة.

وقد أودع سيبويه ثمرات دراساته الكتاب الكبير الذي صنفه في النحو العربي، ويقول أصحاب كتب الطبقات: إنه يضم ألف ورقة، والواقع هو أن هذا الكتاب يُعدّ أكبر مؤلف في بابه عن علم البصريين، وقد صار منذ تأليفه عمدة جميع الدراسات العربية في علم النحو، وتشريفًا لقدره كان يعرف باسم «الكتاب» فقط، ومن الراجح أن الفرصة لم تتح لسيبويه لتدريس كتابه، أو قراءته على تلاميذه، وقد تولى هذه المهمة شيخه الأخفش الذي اضطلع بعد وفاة تلميذه بمراجعة كتابه مراجعة دقيقة.

ولم يقتصر الاهتمام بدراسة كتاب سيبويه على البصريين، وإنما امتد هذا الاهتمام البالغ إلى غير البصريين، وإذا كان هذا العالم الفارسي ينطق العربية بلسان تشوبه عجمة واضحة فإن كتابه يُعَدّ دائمًا من الكتب العمدة في اللغة العربية الفصحى.

ويتسم أسلوبه - على غرار المؤلفات العربية الأولى - بالإطناب الكثير، والحجج الطويلة المملة، غير أنه حافل بعدد كبير جدًّا من الشواهد المستقاة من القرآن الكريم، علاوة على اشتماله على ما يقرب من ألف بيت من الشعر بعضها لشعراء مجهولين، ومع ذلك يستشهد بها في كتب النحو التي كتبت بعد سيبويه اعتمادًا على ما ناله كتابه من ثقة فائقة.

وقد لقيت هذه الأبيات شارحًا قديرًا في شخص أبي الحسن سعيد السيرافي المتوفى عام ٣٦٨هـ (٩٧٨م)، وكثر بعد ذلك عدد الشراح لكتاب سيبويه ومن أهمهم مكانة: المبرّد، والأخفش، والرمّاني، وابن السراج، والزمخشري، وابن الحاجب، وأبو العلاء المعري (انظر هذه المواد)، وبقي هذا الكتاب يدرَّس بشغف طوال قرون عدة.

وبقي من الكتاب ثلاث نسخ مطبوعة، علاوة على قطع منه شرحها بعض العلماء الأوروبيين، وترجمة باللغة الألمانية، وأحسن الطبعات وأكملها طبعة القاهرة المزودة بشرح السيرافي.

وتوفي الإمام النحوي سيبويه عام ١٧٧هـ (٧٩٣م)، وقد نيف على الأربعين عامًا، أي في عزّ رجولته.

٧٢٦- السيد إبراهيم جودة - شارع - بقسم المنشية (الهماميل سابقًا)

كان السيد إبراهيم جودة أحد رجال الشرطة الأبطال، الذين استشهدوا في ٢٥ من شهر يناير عام ١٩٥٢م (١٣٧٢هـ) دفاعًا عن مدينة الإسماعيلية ضد جنود الاحتلال الإنجليزي الذي كان يجثم على الصدور بكابوسه المفزع منذ أن وطئت أقدم بني التاميز أرض مصر في ١١ يوليو عام ١٨٨٢م، عقب ضرب الإسكندرية بمواقع سفنهم الحربية بقيادة أمير البحر «سيمور».

والشرطي الشهيد الباسل السيد إبراهيم جودة بن أحمد جودة ولد بالإسكندرية بحي كوم الشقافة بقسم كرموز في ٢١ من إبريل عام ١٩١٠م (١٣٢٨هـ)، والتحق بشرطة المدينة برتبة عسكري في ٨ من مارس عام ١٩٣٧م (١٣٥٦هـ)، وفي أول مايو عام ١٩٤٩م (١٣٦٨هـ) نقل إلى شرطة مديرية المنوفية (محافظة المنوفية حاليًّا)، ثم نقل بعد ذلك إلى مدينة الإسماعيلية بمحافظة القناة (انظر مادة الإسماعيلية).

وقد أبدى الجندي السيد إبراهيم جودة بسالة بطولية فائقة في المعركة غير المتكافئة التي وقعت بين الجنود الإنجليز الذين كانوا يرابطون في منطقة القناة قبل رحيلهم إلى غير رجعة في يونية عام ١٩٥٦م.

ففي ٢٥ من يناير عام ١٩٥٢م حدثت هذه المعركة الغادرة، إذ هجم جنود الاحتلال البريطانيون على مخفر الإسماعيلية فلم يستسلم رجال الشرطة من جنود وضباط، وأخذوا يدافعون عن مخفرهم دفاع الأبطال في شجاعة، واستبسال، واستمروا على دفاعها المستميت حتى نفدت ذخيرتهم، وقتل معظمهم في سبيل الحق والوطن في موقعة غير متكافئة من حيث العتاد والرجال فسجلوا باستشهادهم صفحة في سجل الوطنية ستبقى خالدة في سفر التاريخ على مر الأجيال.

وفي ذلك اليوم المشهود نفسه استشهد الجندي الباسل السيد إبراهيم جودة وكان عمره ٤٢ عامًا.

٧٢٧- السيد أحمد مراد - حارة - بقسم اللبان (بيني بك سابقًا)

عسكري بالشرطة، استشهد أثناء قيامه بواجباته.

واطلب ترجمة صاحب الاسم القديم في كلمة «بيني بك».

٧٢٨- السيد الخولي - شارع - بقسم المنتزه (إدوار راي بك سابقًا)

هو السيد إبراهيم الخولي، ولد بميت ميمون مركز السنطة بمحافظة الغربية في ١١ من نوفمبر عام ١٩٠٩م (١٣٢٧هـ)، وبعد أن حصل على شهادة الدراسة الابتدائية عام ١٩٢٠م (١٣٣٩هـ) التحق بخدمة الشرطة في ٢٨ من مايو عام ١٩٣٣م (١٣٥٢هـ)، ويدل هذا التاريخ على أنه زاول إحدى المهن أو شغل بعض الوظائف الحرة قبل التحاقه بالشرطة، ومازال بالصفوف في خارج الهيئة إلى أن رقي لرتبة الملازم اعتبارًا من أول ديسمبر عام ١٩٤٩م (١٣٦٩هـ)، ثم رقي إلى رتبة الملازم أول في أول يوليو عام ١٩٥٢م (١٣٧٢هـ)، ونقل إثر ذلك إلى مديرية أمن بني سويف، ثم عاد إلى مديرية أمن الإسكندرية بقسم شرطة الجمرك في ٨ من مارس عام ١٩٥٣م (١٣٧٣هـ)، وفي أول إبريل عام ١٩٥٤م (١٣٧٤هـ)، نقل إلى فرق أمن المدينة حيث زاول عمله في جد ونشاط إلى أن كان يوم ١٥ من يونية عام ١٩٥٧م (١٣٧٧هـ) فأطلق عليه العسكري المجند المدعو أحمد أبو الليل الرصاص فمات على الفور شهيد القيام بواجبه، وقد نال الجندي القاتل جزاءه إذ حكم عليه بالإعدام شنقًا، ونفذ فيه الحكم العادل في يونية

عام ١٩٥٧م (١٣٧٧هـ)، وكان عمر الضابط الشهيد السيد إبراهيم الخولي وقت اغتياله حوالي ٤٩ عامًا.

وقد منح وسام الاستحقاق من الطبقة الرابعة تقديرًا لما أداه من خدمات أدت إلى قتله، وهو يقوم بواجبه العسكري الشريف.

٧٢٩ – سيدي أبو الدرداء – شارع – بقسم اللبان

«أبو الدرداء» هو الصحابي الجليل الذي ليس له أيه صلة بأبي الدرداء السكندري الذي يطلق عليه عامة أهل الإسكندرية اسم «سيدي أبو الدردار»، وإذن فمن الخطأ أن يذهب الاعتقاد إلى أن الضريح الموجود في الشارع الذي يحمل اسم الصحابي يضم رفاته الطاهرة.

فأبو الدرداء كان أحد صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو «عويمر» في بعض الروايات، و«عامر» في بعضها الآخر، ويختلف مؤرخو سيرته في اسم أبيه أيضًا، فمن قائل إنه قيس بن زيد، ومن قائلين آخرين إنه عبد الله أو ثعلبة أو زيد، غير أن المؤرخين يتفقون على أن أباه من الأنصار المنتمين إلى قبيلة الخزرج إحدى القبيلتين اللتين كانت لهما الزعامة والسلطة بالمدينة (يثرب) وقت أن هاجر إليها النبي الكريم.

واعتنق أبو الدرداء الدين الإسلامي متأخرًا إذ كان يدرس أصول الدين الجديد؛ ليكون إسلامه عن اقتناع وإيمان قويين.

وكان يزاول التجارة قبل إسلامه، ويتصف بالشجاعة والفروسية والحكمة بين قومه، وكان يوصف بأنه «أمة في رجل» وروي عن النبي أنه قال: «إن الله وعدني إسلام أبي الدرداء».

وعقب اعتناق الإسلام بعد وقعة بدر في السنة الثانية للهجرة صار من شبان صحابة الرسول، فتتلمذ على يده، وتلقى تعاليمه المحمدية، وغمرت نفسه الروحانية فآثرها على المادية، وترك التجارة وتفرغ للعبادة (انظر مادة بدر).

وقد آخى النبي بينه وبين سلمان الفارسي الصحابي المشهور، ومنذ ذلك الحين بقيت الروابط الأخوية وثيقة العرى بينهما دعامتها الود الصادق، وقد زار سلمان أخاه أبا الدرداء يومًا فشكت إليه زوجته تعبده المستمر فنصحه قائلاً: «إن لربك عليك حقًّا، ولجسمك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا».

ويقول بعض الرواة إنه اشترك في غزوة أُحُد وأن النبي عليه السلام أمره بأن يرد من كانوا فوق الجبل من الأعداء، فاستطاع ردهم بمفرده بحسن بلائه، فنظر النبي إلى الأعداء، وهم يفرون أمامه وقال: «نعم الفارس عويمر غير أُفَّة» أي غير جبان تُضجره الشدائد فيقول: أُفٍّ – أفٍّ (انظر مادة أُحُد).

ولما كان المؤرخون يختلفون في اسمه أهو «عويمر، أم عامر» فإنه من الجائز الميل إلى قول بعض المؤرخين بأنه يُشك في أمر اشتراكه في وقعة أُحُد، وأن أول اشتراكه في الحرب كان في وقعة الخندق، ومن ثم يستطاع الظن في أن عويمر الذي ذكره الرسول أنصاري آخر غير أبي الدرداء.

ولقب أبي الدرداء مشتق من كلمة «درداء» التي تعني الطفلة، أو الفتاة، أو المرأة التي ذهبت أسنانها ومذكرها أردد من فعل دَرَدَ، ولقِّب الصحابي بأبي الدرداء نسبة إلى ابنته

«الدرداء»، وكانت زوجته تلقب بأم الدرداء واسمها الحقيقي هجيعة، وكانت تابعية، وقد تزوجها بعد وفاة زوجته الأولى «خيرة» وكانت صحابية، وتجمع المراجع التاريخية على أن أم الدرداء كانت فقيهة زاهدة، راجحة العقل، قوية الفهم، رائعة الجمال، وأنها روت الحديث من زوجها، وعن أبي هريرة، وبقيت وفية لزوجها بعد وفاته.

وكان أبو الدرداء في حياة رسول الله أحد الصحابة الخمسة الذين عملوا على جمع القرآن الكريم، وهم – وفاقًا لما ذكره ابن سعد في طبقاته – معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأُبيّ بن كعب، وأبو أيوب، وأبو الدرداء، وجميعهم من الأنصار.

وكان رسول الله يقول عن أبي الدرداء: «عويمر حكيم أمتي» وكان الصحابة يقولون: «أتْبَعْنا للعلم والعمل أبو الدرداء» (انظر مادتي عبادة بن الصامت، وأبو أيوب).

وفي خلافة عمر بن الخطاب تولى القضاء بالمدينة المنورة، وذلك لما لمسه الخليفة فيه من كريم الأخلاق وحسن السجايا، وحب العدل والإنصاف، وقد عرف النبي في صاحبه الشاب هذه الخصال الحميدة، فقال عنه إنه حكيم الأمة الإسلامية.

والواقع هو أن هذا الصحابي النزيه كان من أجل قضاة المسلمين في صدر الإسلام، فقد كان شديد الحرص في تقصي الحقائق في كل ما كان يعرض عليه من قضايا، خشية أن يضيع حق من صاحبه، وحتى لا يفلت مذنب من القصاص العادل، ولكي يقضي بالعدل البعيد عن الشبهات كان كثيرًا ما يستدعي المتقاضين بعد الحكم ليعرضوا عليه قضاياهم، فينظر فيها مرة أخرى ليتأكد من أن حكمه عادل لا يتطرق إليه الشك، ولم يكن متزمتًا يتلمس خطايا الناس لينزل بهم العقاب، بل كان يفهم الطبيعة الإنسانية ويرى أن لكل إنسان أخطاء لأنه ليس من المعصومين، ومن ثم كان يقول: «لا تكلفوا الناس ما لم يكلفوا، ولا تحاسبوا الناس دون ربهم، ابنَ آدم عليك بنفسك، فإن تتبع ما يرى في الناس يَطُلْ حزنه، ولا يُشْفَ غيظه». ومما يدل على سعة علمه، وتفقهه أنه عندما كان معاذ بن جبل في طور الاحتضار سأله الصحابة أن يوصيهم فقال: «التمسوا العلم عن أربعة: أبي الدرداء، وسلمان، وابن مسعود، وعبد الله بن سلاّم»، ولم يتعد ابن جبل قول الحق في غزارة علم أبي الدرداء، فقد كانت الدعوة إلى طلب العلم غايته في الحياة، فظل ينهل من منابعه، ويدعو الناس إلى اكتسابه في غير ملل أو يأس، ومن أقواله في هذا الصدد: «اطلبوا العلم، فإن عجزتم فأحبوا أهله، فإن لم تحبوهم فلا تبغضوهم»، ويقول: «لا يكون عالِمًا حتى يكون متعلمًا، ولا يكون عالِمًا حتى يكون بالعلم عاملاً»، ويؤكد هذا المعنى بقوله: «ويل للذي لا يعلم مرة، وويل للذي يعلم ولا يعمل سبع مرات».

وكان هذا الصحابي الجليل من خيرة العبّاد، وكان يجد في ذكر الله العزاء والسلوى، بل ويفضله على الإحسان، وفي ذلك يقول: «ألا أخبركم بخير أعمالكم وأحبها إلى مليككم وأنماها في درجاتكم، خير من أن تغزوا عدوَّكم فيضربوا في رقابكم، وتضربوا في رقابهم، خير من إعطاء الدراهم والدنانير؟»، قالوا: «وما هو يا أبا الدرداء؟»، قال: «ذكر الله، ذكر الله أكبر»، وكان يقول: «ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، وإنما الخير أن يعظم حلمك، ويكثر علمك، وأن تباري الناس في عبادة الله عز وجل، فإن أحسنت حمدت الله تعالى، وإن أسأت استغفرت الله».

ومن تفانيه في حب الله كان حبه لما يكره الناس، فكان يحب الفقر، والمرض، والموت، فكان يقول: «ثلاثة أُحبهن ويكرههن الناس: الفقر والمرض والموت، أحب الفقر تواضعًا لربي، وأحب المرض تكفيرًا لخطيئتي، وأحب الموت اشتياقًا للقاء خالقي».

وكان يدعو الناس إلى التسامح والعفو عند المقدرة والسعي وراء الرزق الحلال بالعمل الشريف، وقد اشترك في الفتوحات الإسلامية لنشر الدعوة المحمدية، فبعثه عمر بن الخطاب صحبة طائفة من الفقهاء في الدين إلى الشام ولاسيما دمشق لتعليم الناس القرآن الكريم، وأحكامه وبقي هناك إلى عام ١٧هـ.

وفي الفقرات الآتية دلائل واضحة على ما كان عليه هذا الصحابي التقي الورع من أخلاق حميدة وصفات نبيلة، وما كان ينطوي عليه قلبه من رحمة وشفقة على اليتامى والمساكين، كما تدل هذه الفقرات على ثقافته الواسعة النطاق وأسلوبه الرصين، فقد كتب إلى أخيه في الله «سلمان الفارسي» يبصره بمواضع الخير ويدعوه إلى أخذ نصيبه من الآخرة كما أخذ نصيبه من الدنيا فيقول له: «يا أخي! ارحم اليتيم وأدْنِه منك، وأطعمه من طعامك، فإني سمعت رسول الله صلى الله وسلم يقول، وقد أتاه رجل يشتكي قساوة قلبه، فقال له رسول الله: أتحب أن يلين قلبك؟ فقال نعم، قال: «أدنِ اليتيم منك، وامسح رأسه، وأطعمه فإن ذلك يُلين قلبكَ، وتقْدِرُ على حاجتك».

ويا أخي! إني حُدِّثت أنك اشتريت خادمًا، وإني سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول «لا يزال العبد من الله وهو منه ما لم يخدم، فإذا خدم وجب عليه الحساب، وإن أم الدرداء سألتني خادمًا وأنا يومئذ موسر، فكرهت ذلك لما سمعت عن الحساب، ويا أخي: من لي ولك بأن نوافي يوم القيامة، ولا نخاف الحساب. . . يا أخي: لا تغْترن بصحابة رسول الله، فإنا قد عشنا بعده دهرًا طويلاً، والله أعلم بالذي أصبناه بعده.

ومن وصاياه التي تدعو إلى الورع والزهد النقي قوله لأهل دمشق يعظهم: «يا معشر أهل دمشق! ألا تستحون!! تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تبتغون، فقد كان القرون من قبلكم يجمعون فيوعون، ويأملون فيطيلون، ويبنون فيوثقون، فأصبح جمعهم بورًا، وأملهم غرورًا، وبيتهم قبورًا، هذه عادٌ قد ملأت ما بين عدن إلى عمَّان أموالاً وأولادًا، فمن يشتري مني تركة أهل عادٍ بدرهمين؟».

ولكن أهل دمشق لم يستجيبوا لدعوته، ولم يُقبلوا على تعاليمه، وانصرفوا إلى جمع المال من التجارة معرضين عن تحصيل العلوم وذكر الله وعبادته.

واشترك أبو الدرداء – بعد تفقيه الناس بالشام – في فتح مصر، وكان من قواد الحملة العربية عند استيلاء المسلمين على حصن «نابليون» بقيادة عمرو بن العاص، ثم أسهم في غزو الإسكندرية خلال عام ٢١هـ (٦٤١م) وأقام في كنفها وقتًا قصيرًا ذهب بعده إلى الفسطاط ليشرف هو وبعض الصحابة على بناء قبلة جامع عمرو بن العاص هناك، وقد شيد هذا الجامع عام ٢١هـ أي في السنة نفسها التي تم فيها فتح الإسكندرية، وكان من بين هؤلاء الصحابة الزبير بن العوام، وعبادة بن الصامت، والمقداد بن الأسود (انظر هذه المواد).

ومن الفسطاط عاد أبو الدرداء إلى المدينة وصار – بما تلقى من علم غزير – أحد مشاهير الصحابة العلماء بمفاهيم القرآن الكريم، وما يتضمنه من أحكام وشرائع وبعد أن اشترك في الحملة التي قادها معاوية بن أبي سفيان (انظر هذه المادة) لفتح جزيرة قبرص حيث أخذته الرحمة فيبكي لآلام الأسرى القبارصة، عينه الخليفة عثمان بن عفان (انظر هذه المادة) إمامًا وقاضيًا لدمشق.

وكان أبو الدرداء إلى جانب علمه وفقهه وورعه وزهده وتقواه يجيد الشعر فيقول في أسلوب ورع عامر بقدرة الله العليا:

يريد المرء أن يُعطى مُناه

ويأبى الله إلا ما أرادَا

يقول المرء: فائدتي ومالي

وتقوى الله أفضل ما استفادَا

ولم يستغل هذا الصحابي الجليل مركزه السامي في القضاء لينعم بالثراء والرفاهية، فظل على زهده النقي، ولم يفتن بمباهج الدنيا ونعيمها الزائل، فقد طلب يزيد بن معاوية الزواج من ابنته الدرداء فرفض، وخطبها بعد ذلك رجل من عامة الشعب فقبل خطبتها، ولما شاع الخبر قال: «إني نظرت للدرداء، ما ظنكم بالدرداء إذا قامت على رأسها الخصيان ونظرت في بيوت يلتمع فيها البصر؟ أين دينها منها يومئذ؟».

فالصحابي الزاهد يخاف على ابنته من مفاتن الحياة، ويختار لها الحياة الوارعة في ظل الزوج المتواضع، فلا تغتر، ولا يزعزع رسوخ دينها زخرف الدنيا وبهجتها.

وتوفي أبو الدرداء بمدينة دمشق خلال عام ٣١هـ (٦٥٢م) ودفن بها، وبقيت أم الدرداء على وفائها المتين لزوجها العظيم بعد أن فاضت روحه الطاهرة إلى عالم الأبدية، ومن بين دلالات هذا الوفاء الصادق قولها لمعاوية بن أبي سفيان حين خطبها وهي ماتزال على جمالها وحسنها: «لا!! والله لا أتزوج زوجًا في الدنيا حتى أتزوج أبا الدرداء إن شاء الله في الجنة».

هذا هو أبو الدرداء الصحابي كما يذكر التاريخ المأثور سيرته العطرة، وليس من المستطاع تحريف التاريخ في سهولة تجعل هذا الصحابي الفاضل يتخذ من الإسكندرية مقرًّا لمثواه الأبدي، وقد أراد خالقه أن يدفن بعاصمة الدولة الأموية بجانب نهر بَرَدَى.

أما من هو أبو الدرداء السكندري فما من شك في أن أهل الإسكندرية القدامى قد أرادوا تخليد ذكرى زيارة أبي الدرداء الصحابي لمدينتهم، فأعدوا الضريح الموجود حتى الآن بالشارع الذي يحمل اسمه، وذلك في زمن متأخر جدًّا بعد الفتح العربي للإسكندرية، فصار موضع تبركهم واحترامهم يقيمون له مولدًا كل عام، ولاسيما أن بعض المراجع تذكر أنه ألقى بعض الدروس في الفقه والحديث بمكان يقرب من موضع الضريح، وذلك في أثناء إقامته القصيرة بالإسكندرية.

ومن الغريب أن الأسطورة وجدت لها مكانًا بارزًا حول هذا الضريح فنسبت إليه الكرامات، بل المعجزات الخارقة للعادة، وأول هذه الكرامات الإشاعة القائلة بأن المهندس الذي كلف بنقل الضريح أصابه الشلل المفاجئ مع أن حقيقة الأمر تثبت غير ذلك تمامًا.

ففي مستهل العقد الرابع من القرن العشرين رأت بلدية الإسكندرية نقل بعض الأضرحة التي كانت تقع في عرض عدد من الشوارع الهامة فتحول دون توسيع عرضها لسهولة المرور، وسير وسائل النقل، ولاسيما الترام والحافلات «الأتوبيسات» وكنت في ذلك الحين مختزلاً لمناقشات جلسات القومسيون البلدي باللغة الفرنسية التي ظلت لغته الرسمية من يوم إنشائه عام ١٨٩١م (١٣٠٩هـ) إلى يوم تمصيره عام ١٩٤٣م (١٣٦٣هـ)، وجعل اللغة العربية لغة مناقشاته وتدوين محاضره.

وعندما اقترح مدير البلدية العام «أحمد صديق» (انظر هذه المادة) إقامة مجمع الأضرحة بجوار مسجد أبي العباس المرسي وهو يضم الأولياء: محمد أبو وردة، ويوسف الجعراني، ومحمد الغريب، ومحمد الشريف الحسيني، ومحمد الطرودي، ومحمد صلاح الدين، ومحمد المنقعي، ومحمد شريف المغربي، ومحمد بركة، ومحمد الغريب اليمني، ومحمد إجابة، ومحمد إمام الحرمين، ومحمد الحلواني، وابن وكيع الشهير «بأبي نواية»، أقول عندما اقترح المدير العام ذلك، استثنى الضريح المنسوب لأبي الدرداء لاستطاعة جعله وسط الميدان الصغير الكائن بجوار مديرية الأمن التي كانت مقرًّا للمحافظة قبل تطبيق الحكم المحلي، وانتقالها إلى دار البلدية بطريق الحرية (طريق الزعيم جمال عبد الناصر حاليًّا).

ودار مديرية الأمن الحالية كانت في بداية القرن العشرين مدرسة يديرها الآباء اليسوعيون «الجزويت» وقد تخرج منها عدد غير قليل من المصريين الذين شغلوا مناصب هامة في الحكومة، لأن نظام التعليم فيها كان يوائم برامج نظارة المعارف في ذلك الحين.

وقال المدير العام أحمد صديق في تلك الجلسة إن وضع الضريح المنسوب إلى أبي الدرداء وسط ذلك الميدان يسهل مدّ قضبان الترام في انحناءين على يمينه، وعلى يساره، وهكذا يبقى الضريح في مكانه لهذا السبب دون سواه.

وليس في محضر المجلس البلدي ولا في أية ورقة رسمية من أوراق قسم الهندسة بالبلدية ما يدل على صحة القول الغريب الذي يدعي أصحابه بأن نقل الضريح لم يتم بسبب الشلل المفاجئ الذي أصاب ذراعي المهندس المكلف بنقل الضريح، كما تقول الأسطورة السائدة في هذا الشأن.

ومن جهة أخرى راجت في أثناء الحرب العالمية الثانية التي بدأت في أواخر عام ١٩٣٩م (١٣٥٨هـ) أسطورة أخرى من نسج الخيال كانت حديث الناس، ولاسيما العامة وموضع إعجاب الكثيرين، وكان مروّجو هذه البدعة سكان المنازل وأصحاب الحوانيت والمتاجر المجاورة لضريح أبي الدرداء السكندري، فلم يتورعوا عن التأكيد الجازم بأن الكثيرين منهم شاهدوا بأعينهم وليّ الله صاحب الضريح يقوم من رقدته الأبدية مدثرًا في ثيابه البيضاء ليتلقى بين ذراعيه «الطربيد» الضخم الذي ألقته إحدى الطائرات الألمانية أو الإيطالية على تلك الجهة، وبهذه الكرامة الفذة، بل هذه المعجزة المذهلة نجا الحي بأكمله من الدمار الشامل، وقيل في ذلك الحين إن رجلاً يونانيًّا كان بين المشاهدين فأخذ يؤكد بلغته العربية المحرفة «أنا سُفتُه بِإِنَيَّا دول».

هذا هو ملخص الأسطورة التي تناقلتها الألسن، وانتشر أمرها لا في مدينة الإسكندرية فحسب، وإنما في مختلف مدن القطر المصري وقراه.

أما حقيقة ما حدث فقد دُوِّنت تفصيلاتها في سجل الغارات الجوية اليومية، وسمعت هذه التفصيلات من المرحوم أمير البحر حمدي الديب الذي كان يتولى رياسة الدفاع المدني بالإسكندرية، وأكدها أمامي جملة وتفصيلاً «الكولونيل ثورنتون» الذي كان ضابط الاتصال بين السلطات المصرية، والقيادة الإنجليزية بالنسبة إلى تنسيق أعمال هذا الدفاع، وكان يشغل في الوقت نفسه وظيفة المفتش العام بالبلدية، وكان الاثنان كثيري التردد على مكتبي بالإدارة العامة، إذ كنت مديرًا لإدارة سكرتارية البلدية العامة حينذاك.

فذكر الاثنان أن الطربيد ألقي بمظلة، فلما اقترب من الأرض علقت المظلة بفرع شجرة فارعة بالفناء الكائن أمام مبنى المحافظة (مديرية الأمن حاليًّا)، فلم يلمس الطربيد الأرض ولم ينفجر، وجاء المختصون بإبطال مفعول المفرقعات بالجيش البريطاني، ونزعوا صمام التفجير (الكبسولة) وحملوا الطربيد إلى ثكنات مصطفى باشا بضاحية الرمل، حيث كان الإنجليز يعسكرون طوال مدة الاحتلال البغيض، وعلمت من أمير البحر حمدي، والكولونيل ثورنتون أن كلاً منهما دوَّن حقيقة هذا الحادث، وسجله اليومي المتعلق بالدفاع المدني.

ومن ذلك الحين وحتى الآن تقام للضريح المنسوب للصحابي أبي الدرداء حفلات باهرة في بعض أيام شهر رمضان، فيزين الضريح بالأزهار والمصابيح الكهربية، وتضاء هذه المصابيح أمام الحوانيت والمتاجر والمصانع الواقعة على جانبيه في قلائد تخالطها أوراق الشجر الخضراء والورود، وتمتد هذه الزينة الكبيرة النفقات من ابتداء شارع «سيدي أبو الدرداء» عند مسجد العمري إلى نهاية مبنى مديرية الأمن، ويحيي الحفلات أحد مشاهير القراء، وكان أولى أن تصرف هذه المبالغ في تشييد المدارس والمستشفيات.

أما قبل حدوث معجزة «الطربيد» المزعومة فكان المولد السنوي يقتصر على عربات بائعي الحمص والحلوى كأي مولد من موالد أولياء الله المتواضعين المبعثرة أضرحتهم في أرجاء الإسكندرية، وقد صار ضريح أبي الدرداء حامي الحيّ بأسره وببركاته التي أجبرت الطربيد اللعين على ألا ينفجر بالقرب منه فيقلق راحة صاحبه السرمدية!!.

يحز في النفس سماع أن بعض المؤرخين من كبار الأساتذة الجامعيين يذكرون أسطورة الشلل الذي أصاب مهندس البلدية، وأسطورة الطربيد الذي حمله صاحب الضريح على ذراعيه، وغيرهما من الأساطير الخرافية على أنها أقوال متداولة على ألسنة الناس دون الرجوع إلى المصادر الوثيقة الرسمية التي تضم حقائق هذه الترهات ليستطيعوا نفيها بصفة قاطعة، فلا تعلق بأذهان الثاني ولاسيما البسطاء والجهلة، فتصير مع مرور الزمن معجزات أو كرامات على حين أنها أكاذيب ألبسها هؤلاء المؤرخون ثوبًا يوحي بأنها في زمرة الحقائق الثابتة فتستقر في الأذهان على هذا الوضع.

وكان من السهل على أي مؤرخ يتوخى الصدق إنصافًا للتاريخ الرجوع إلى سجلات الأقسام الهندسية ببلدية الإسكندرية لنفي القول بأن أحد مهندسيها أصيب بالشلل عندما شرع في نقل الضريح المنسوب لأبي الدرداء، والرجوع إلى سجلات الدفاع المدني في أثناء الحرب العالمية الثانية ليعرف كيف نزل الطربيد بمظلة فعلق بالشجرة فأسرع المختصون إلى إفساد مفعوله المدمر، ولم تكن لصاحب الضريح أية كرامة

في هذا الشأن، كما كان من السهل تنبيه الأذهان إلى أن أبي الدرداء الصاحبي لم يكن من أصحاب الكرامات، إذ لم يكن إلا عالِمًا فقيهًا، ومحدثًا ثقة، وأديبًا، وشاعرًا، بعيدًا عن أن تنسب إلى روحه الطاهرة أساطير كان هو من أشد الداعين إلى نبذها، والتمسك بالقرآن الكريم، والسنة المحمدية الخالصة من كل الشوائب والشعوذة.

فمتى نجعل للحقائق قدسيتها – ولاسيما في تسجيل الأحداث التاريخية – ونقلع عن تصديق الشائعات والأقاويل والأساطير والخرافات، ولا ندسها فيما نكتب عن الوقائع التاريخية لتأتي منـزّهة عن كل ما يشوب حقيقتها من أكاذيب ونـزهات وذلك باستقصاء هذه الحقائق من مصادرها الرسمية؟ فنحن في عهد الذرة، والصواريخ الموجهة، وغزو الفضاء، وهبوط الإنسان على سطح القمر، وهو عهد لا يحتمل تزويد الأذهان بمعوقات التقدم نحو التحرر الفكري، والاعتماد على العلم والمعرفة وحدهما في كل ما نريد الوصول إلى كنهه، وأساس عناصره.

والضريح المنسوب إلى أبي الدرداء يكاد يكون مستطيل الشكل لأن ضلعيه المواجهين لخطي الترام في امتدادهما من شارع شريف (الخديوي الأول سابقًا) إلى شارع القائد جوهر عند ميدان «السانت كاترين» أطول بقليل من ضلعيه الغربي والشرقي، وقد أقيم على شكله الحالي الأنيق خلال عام ١٩٤٧م (١٣٦٧هـ) بعد أن كان متواضعًا في شكله الكلي، وينقسم مبناه إلى قسمين متساويين في الغرب والشرق، ويفصل كل منهما ممر له بابان نصفان من الحديد المشبك المكون من خطوط مستقيمة ودوائر، والجزء الأوسط من مبنى الضريح أعلى من الجزأين الغربي والشرقي اللذين يكوّنان جناحين، لكل جناح نافذتان طويلتان في الجنوب وفي الشمال، وثلاث نوافذ قصيرة في الغرب وفي الشرق وكل هذه النوافذ مقنطرة في أجزائها العليا.

ومدخل الضريح من الجهة الشمالية، أما المدخل المماثل في الجهة الجنوبية فمغلق بسبب وجود القبر المنسوب إلى أبي الدرداء خلفه، وكل من المدخلين يقوم على عمودين مربعي الشكل من الأسمنت، فوقها قنطرة تعلو المبنى نفسه، وسقف البناء في كيانه العام من الخراسانة المسلحة مقسم إلى مربعات.

وعلى يمين ويسار المدخل ثلاث قناطر يقوم كل منها على عمودين ولهذه الأعمدة الاثني عشر تيجان زخرفية عند بداية القناطر التي تشمل من الجهتين الغربية والشرقية مساحة الجزأين الكائنين على يمين ويسار المدخل، وبكل منهما ضريحان بعلوّ متر، مشيدان من البناء، وفوق كل من الأضرحة الأربعة غطاء من الموزيكو الأحمر اللون، وبين القناطر الست أبواب من الحديد المشبك، وكل هذه الأبواب يعلوها الدهان الزيتي الأخضر، ويزين سقف الضريح الكلي، وكذلك القناطر رسوم زخرفية جميلة زاهية الألوان.

وعلى طول الجهة المقابلة للمدخل ضريح مستطيل بعلو يزيد على المتر مغطى بالجوخ الأخضر، يقال إنه لأبي الدرداء، ويقال أسطوريًّا بأن الأضرحة الأربعة الأخرى لأولاده، مع أنه لم يرزق إلا بالدرداء وابن واحد هو بلال، وكانت وفاة الاثنين بدمشق، وليس الإسكندرية كما كانت تدعي الأسطورة التي يصورها بعض المؤرخين وبينهم المحدثون على أنها رواية تناقلتها الألسن كما يكون لها نصيب من الصحة،

وهذا ما كان يصح أن يذكره هؤلاء المؤرخون بهذا الأسلوب الذي قد يؤوله العامة على أنه حقيقة واقعة من التاريخ .

ومن الغريب أن قول هؤلاء المؤرخين لا يؤيده سكان المحال المحيطة بالضريح ، ولا حارسة الضريح نفسها وهي عجوز ذهبت إلى زيارتها بالضريح صباح يوم ٢٠ نوفمبر عام ١٩٧٢ (١٥ شوال عام ١٣٩٢هـ) وقد ذكر جميع هؤلاء أن الأضرحة الأربعة لمجهولين ، لم تعرف لهم أسماء ولا ألقابًا ، ولاحظت في أثناء الزيارة أن النذور التي يلقى بها المتبركون بأبي الدرداء السكندري ، وبالأضرحة المجهولة مربحة للغاية ولها صندوقان أحدهما بجانب المدخل ، والآخر بجانب القبر المنسوب لأبي الدرداء .

وما من شك في أن الحارسة وأخاها الذي يتولى شؤون الضريح يجنيان من النذور أكبر الكسب المالي على مر الأيام والشهور ، وكما يقول المثل العامي: «رزق الهِبْل على المجانين» ، فهل من رقابة دينية سليمة تضع حدًّا لهذه المهزلة المالية؟

ومثل الضريح المنسوب للصحابي الجليل أبي الدرداء أضرحة لا حصر لها بجميع أنحاء القطر المصري تعزى لكبار الصحابة ، والعلماء ، والفقهاء وعلى الأخص لكبار الصوفيين ، مع أنهم جميعًا لم يدفنوا بمصر ، ولم تطأ أقدام بعضهم أرضها ، أو لم تدبّ أقدامهم على الأرض .

وليس من الصدفة البحتة وجود اثني عشر من الأولياء الذين نقلت رفاتهم إلى مجمع الأضرحة بجوار مسجد أبي العباس المرسي يحملون اسم «محمد» وهم أربعة عشر!! ، أو ليس ذلك يدل على الافتعال ويشكك إلى حد بعيد في صحة وجود معظم هؤلاء الأولياء فعلاً؟ وقد يقال أن رفاتهم وجدت مدفونة عند نقلها إلى المجمع ولكن معظم من عاصروا هذا النقل يذكرون أن الذي تواتر على الألسن هو أن الرفات لم يعثر عليها وأن الأمر كان يقضي بإخفاء هذه الحقيقة بالتكبير المرتفع وذكر الله من المكلفين بالعمل تفاديًا من إثارة الشعور العام ، وهكذا تم النقل في تستر حصيف بالنسبة إلى معظم هؤلاء الأولياء .

ويذكر في ضريح أبي الدرداء السكندري وليَّان من أولياء الله السكندريين ، كان نصيب أولهما الدفن في جبانة عمود السواري بحي باب سدرة ، واندثار ذكراه واختفاء كراماته المزعومة ، وكان نصيب الآخر ذيوع الصيت ، وإقامة مسجد فوق المكان الذي اختاره مروّجو الإشاعات ليكون ضريحًا له على الرغم من أن الكرة الأرضية لم تحمله في يوم من الأيام .

ووليّ الله الأول كان يدعى «سيدي الخال» رأيته في مرحلة الطفولة ، إذ كان يتخذ موضع تسوّله أمام «فرن القرقاش» ومكانه الآن عند ناصية شارع رأس التين ، وشارع «الميدان» (محمود فهمي النقراشي حاليًّا) .

كان هذا الرجل أبلهًا ، وكانت إحدى الأسر التي كانت تسكن حي السيالة تستغله ، وتستولي كل يوم على ما يجود به المحسنون عليه ، وكانت تأويه بالليل تحت سلم البيت الذي تقيم فيه ، وتلبسه – سبكًا للولاية والدروشة – غرارة من الخيش مبرقشة بقطع مربعة صغيرة من القماش الأحمر والأخضر والأزرق والأصفر ليبدو في هيئة الزاهدين في الدنيا الراغبين في ثواب الآخرة ، وكانت تلك الأسرة تذيع بين الناس – من وقت لآخر – أنها وجدت سيدي الخال خاليًا

من جسده، لأنه ذهب لأداء صلاة العشاء في الحرم النبوي أو في المسجد الأقصى، وكانت هذه الخرافة تلقى من السُذّج والجهلة قبولاً وتصديقًا لا يناقَش.

وكنا نحن الأطفال لا نأبه بهذه الإشاعات، ولا نخشى كرامات سيدي الخال، فكنا إذا مررنا بمكانه أمام «فرن القرقاش» لا نتورع عن التهكم والتهليل بالقرب منه بالكلمات الهادئة فكان المسكين يلقي بعصاه الطويلة الغليظة نحونا، فتصيب أرجلنا فنهرب ضاحكين.

وتوفي سيدي الخال بعد قرار الحكومة منع الدفن في المنازل أو في أنحاء المدينة وقصره على جبانات باب سدرة، وعمود السواري بجهة كوم الشقافة.

وأراد «فتوات» حي السيالة وأفراد الأسرة التي كانت تستغل «سيدي الخال» الأبله، أراد هؤلاء وغيرهم من سكان حي الجمرك أن يجعلوا «لسيدي الخال» ضريحًا تجمع له النذور، ويقام فوقه مسجد في المستقبل.

ولحبك تمثيليتهم أخذوا يخفون نعش ولي الله المزعوم في أزقة حي السيالة الضيقة الملتوية ثم يندسّون بين المشيعين – وكانوا ألوفًا – ويصيحون في مجموعات «الله أكبر، الله أكبر، طار نعش سيدي الخال» فيدوِّي صوتهم، ويردده المشيعون السذج في شوارع السيالة، وسيدي أبي العباس، وسيدي الموازيني والميدان، ويعلو التكبير والتهليل إلى عنان السماء.

وكنت بين الأطفال الخبثاء الذين يتتبعون النعش في ظهوره واختفائه بالأزقة الملتوية ثم نستغرق في الضحك لهذه المهزلة التي صدقها المشيعون عن جهل وفي غير مناقشة للوقوف على حقيقتها.

وتدخل رجال الشرطة وضباطها وأرغموا «الفتوات» على إظهار النعش والسير به إلى الجبانة، وهكذا دفن «سيدي الخال» بين عباد الله العاديين، وهكذا شطب اسم «سيدي الخال» من قائمة الأولياء أصحاب الأضرحة وحرم «الفتوات» وأفراد الأسرة المستغلة من النذور الفياضة.

أما ولي الله الآخر الذي يذكرني بالضريح المنسوب لأبي الدرداء، فيرجع إدراكي لقصته المثيرة إلى أواخر القرن التاسع عشر، إذ كنت أحفظ القرآن في كتّاب الشيخ الحنش بحارة الكيّال، وكنا عندما يحل فصل الربيع نقضي بعض أيام الجمع في غيط العنب بقسم كرموز حيث نرتع ونمرح، وبعد العصر نجمع النوّار الأصفر، وننظمه عقودًا، ونعود فرحين.

ولم أر في ذلك الحين البعيد أي أثر لضريح وليّ من أولياء الله في نهاية الجهة المواجهة لامتداد شارع راغب باشا، إذ كان الغيط غيطًا بالمعنى الصحيح، مزروع الأرض بالخضروات، ولم يكن به من المساكن غير عدد قليل، معظمها على حافة ترعة المحمودية في اتجاه كرموز.

وفي خلال العقد الأول من القرن العشرين عدت إلى ارتياد غيط العنب لأمارس لعبة كرة قدم مع بعض الزملاء في الدراسة، ووجدنا بالقرب من المكان الذي اتخذناه ملعبًا، والذي أقامت وسطه بعد ذلك شركة أراضي غيط العنب عمودًا، وجدنا أناسًا يقيمون الذكر حول ضريح من صنع أيديهم أطلقوا عليه اسم «سيدي كِريْم» بكسر الكاف والراء وسكون الياء والميم، وجرّنا الفضول وحب الاستطلاع

إلى سؤال كبار السن في هذه الجهة فأجمعوا على أن هؤلاء الذاكرين الخاشعين من «أصحاب الكيف» المدمنين على تدخين الحشيش، ويتخذون الضريح وسيلة لإخفاء «غرزتهم» عن رجال الشرطة، ويرسلون أحدهم ليقف عند ترعة المحمودية فإذا وجد أن رجال الشرطة يشرعون في القيام بإجراء «كبسة للغرزة» أسرع إليهم، فيلقون بالجوزة وأدوات الكيف في بحيرة الملاحة القريبة جدًّا من ضريحهم الأسطوري، وأمعنوا في الذكر الصاخب.

وتوالت السنون وإذا «بسيدي كِريْم» حقيقة ماثلة، وإذا بمسجد يقام فوق ضريحه، ولله في خلقه شؤون.

فإلى متى ننساق وراء مروّجي الأساطير، والخرافات، وإلى متى الخوف، أو الإحجام عن مواجهة هذه الأكاذيب بالحقائق التاريخية الدافعة للقضاء عليها قبل استفحال أمرها، وتغلغلها في أذهان البسطاء من الناس ونحن في زمن يتطلب يقظة العقول، وفطنة الإدراك؛ ليسير في الشرق في سبيل التقدم الحضاري والرقي العلمي في غير تردد أو تقاعس؟

رحم الله أبا الدرداء وزوجته الوفية المخلصة وابنته الدرداء التي صارت كنيتها خالدة في سجل التاريخ الإسلامي المجيد لما قدمه أبوها من عمل صالح، وأنزل المولى القدير على قبورهم في دمشق سبل رضوانه إلى يوم القيامة.

٧٣٠- سيدي البوصيري - شارع - بقسم الجمرك

هو محمد بن سعيد بن حمَّاد بن محسن بن أبي سرور بن حبَّان بن عبد الله البوصيري، ويُكَنَّى بشرف الدين من بني حينون، الذين هم فرع من قبيلة صنهاجة الكبيرة التي كان مقرها المركزي القطر الجزائري، والتي كانت المنافسة بينها وبين قبيلة زناتة على أشدها عبر القرون الماضية، وإذا صح أن البوصيري من أصل صنهاجي فيكون جزائري الأرومة على التخصيص، مغربيًّا على التعميم، مصري الإقامة والشاعرية، وأمه من «دلاجي» وهي بلدة تقع غرب النيل، ويقول بعض المؤرخين إنه ولد بهذه البلدة في أول شوال عام ٦٠٨هـ (٧ مارس ١٢١٣م) ومن ثم لقب بالدلاصي، ويقول البعض الآخر إنه ولد في قرية «بوصير» أو «أبو صير»، ومن ثَمَّ لقِّب بالبوصيري، ولاعتزازه بمغربيته أطلق عليه لقب الصنهاجي في بعض مراجع سيرته، وأبوصير بلدة والده وجاء في بعض المراجع أنها بوصير الملق الواقعة بين الفيوم وبني سويف، ولكن الباحث المدقق يجد صعوبة في تعيين «بوصير» أو «أبو صير» التي منها والده والتي تقول بعض المراجع إنها مسقط رأسه، إذ بالقطر المصري عدة قرى بهذا الاسم هي: مكان أطلال معبد «تابوزيرس ماجنا Taposiris Magna» بالوجه البحري، وقد ظل اسم «أبو صير» يطلق عليه، و«أبو صير» وهي قرية بمركز السنبلاوين بمديرية الدقهلية (محافظة الدقهلية حاليًّا)، وبلدة «أبو صير» الكبيرة بمركز المحلة الكبرى بمديرية الغربية (محافظة الغربية حاليًّا) وكانت تسمى «بوصيربنا» في العصور الوسطى، وقرية «أبو صير» الواقعة في الجنوب الغربي من مدينة القاهرة بين سقّارة والجيزة، ويطلق عليها اليوم اسم «بوصير السدر».

وهناك بلدة أخرى تسمى «بوصير» هي بوصير الملق عند طرف الفيوم بمديرية بني سويف (محافظة بني سويف حاليًّا) وكانت تسمى «البهنسا»، ويطلق عليها أيضًا اسم «بوصير

قوريدس Kuraidis»، ويقال إن مروان الثاني آخر ملوك بني أميّة قتل بها عام ١٣٢هـ (٧٤٩ – ٧٥٠م)، ومازال قبره معروفًا في «بوصير الملق»، وبالفيوم بلدة أخرى تسمى «بوصير دفنو»، وفي الشلال الثاني صخرة تسمي «بوصير».

ومما تقدم يصعب الجزم بأن البوصيري ينسب إلى بلدة «بوصير الملق» على حدود الفيوم، فقد يكون مولده بقرية «أبوصير» بمركز السنبلاوين أو بقرية «أبوصير» بمركز المحلة الكبرى حيث عمل موظفًا رِدْحًا من الزمن.

ولا تذكر المراجع التاريخية الكثير عن مراحل طفولته، وإن كانت تشير في إيجاز غامض إلى أنه درس مبادئ الكتابة والقراءة والحساب، وحفظ القرآن الكريم في أحد «الكتاتيب» بمسقط رأسه، ثم ذهب إلى القاهرة، وانتظم طالبًا بمسجد «الشيخ عبد الظاهر»، حيث تلقى بعض العلوم الشرعية والقرآنية واللغوية، ويظهر أن هذا المسجد لم يكن من مساجد العلم الشهيرة، وإنما مسجد متواضع في أحد أحياء القاهرة الصغيرة لا يعدو أن يكون «كتّابًا» من الدرجة الأولى.

ويستدل من شعره على أنه بدأ حياته فقيرًا قليل الموارد المالية، فاستغل موهبته في حسن الخط، وعمل بعض الوقت في كتابة شواهد القبور.

ثم سعى جاهدًا إلى شغل وظيفة من وظائف الدولة واستطاع – عن طريق وساطة أولي الأمر – الحصول على وظيفة مباشرة (أي كاتب) ببلبيس بمديرية الشرقية (محافظة الشرقية حاليًّا).

ولقلة معرفته بالحساب، ولأن أساس وظيفته يقوم على هذه المادة، تراه يلجأ إلى تعويض هذا النقص بهجو زملائه من المستخدمين، ويرميهم بجهل الحساب الذي هو موطن ضعفه فيقول:

كتّابنا لو كنتُ مالك أمرهَمُ

لرددتُهم جمعًا إلى الكتَّابِ

لا يعرفون من الحساب دقيقةً

سبحان رازقهم بغير حسابِ

ويتعدى في هجوه الزملاء إلى هجو موظفي الدولة جميعًا متحاشيًا ذم رجال الجيش بعامل التقية فيقول:

نقدْتُ طوائفَ المستخدمينا

فلمْ أرَ فيهمُو رجلاً أمينَا

فَخُذْ أخبارهُمْ منى شفاهًا

وأنظُرْني لأُخْبِرَكَ اليقينَا

فقد عاشرْتُهم ولَبِسْتُ فيهم

مع التجريبِ من عمري سنينَا

نعم إن هذا الشعر يدل في كيانه العام على النقد الاجتماعي، ولكنه يظهر في الوقت نفسه كمين وجدان الشاعر الذي يرى الحياة قاتمة المنظر، لما ينطوي عليه وجدانه من طموح جامح تشعل لهيبه خيبة الأمل وعثرة الإخفاق.

ولقد أدى به هذا الهجو العنيف المستمر إلى الفصل من الوظيفة نتيجة لتعريضه بزملائه، ومستخدمي الدولة دون تحفظ.

وعقب هذا الفصل نراه بالقاهرة يدير كتّابًا لتعليم الصبية ثم لا يبرح أن يبرم بالكتّاب، وبمن فيه من الأطفال فينعى حظه السيئ في هذه الأبيات التي تصور ضيق صدره بعياله وعيال كتّابه معًا:

قد صارَ كتَّابي وبيْتي من بني
غيري وأبنائي كبرج حمامِ

أعطيهمُ عقلي وآخذُ عقلهم
فأبيعُ نوري منهم بظلامِ

كيفَ الخلاص من البنين ومنهمُ
قومٌ ورايَ وآخرون أمامي

أصبحتُ من حملي همومهم على
هرَمي كأنّي حاملُ الأهرامِ

وكما يضيق صدرًا بأولاده، يضيق ذرعًا بزوجته الولود، ويجأر بالشكوى من خصوبتها فينشد:

إن زُرْتُها في العامِ يومًا أنْجَبَتْ
وأتتْ لِستَّةِ أشهرٍ بغلامِ

أوَ هذه الأولادُ جاءتْ كلها
مِنْ فعل شيخ ليس بالقوَّام؟

وأظنَّ أنهم لعظم بليَّتي
حَمَلَتْ بهم لا شك في الأحلامِ

ويشكو مرَّ الشكوى من هذه الزوجة، ومن تحريض أختها على الإمعان في النكاية به فيقول على لسان هذه الأخت الخبيثة حين زارتها زوجته:

قومي اطلبي حقكِ منهُ بلا
تخلفٌ منكِ ولا فترهْ

وإن تأبَّى فخذي ذقنه
ثمّ انتفيها شعرةً شَعْرَهْ

ثم يصف نتيجة هذا التحريض الشيطاني، وما وقع له من زوجته عقب عودتها من بيت أختها بهذين البيتين:

واسْتَقْبَلَتْني – فتهَدَّدُتَها
فاسْتَقْبَلَتْ رأسي بآجُرَّهْ

وباتت الفتنة ما بيْننا
من أوَّلِ الليل إلى بُكْرَهْ

وإن دلت هذه الأبيات الأربعة على شيء فإنما تدل في وضوح على جانب حقيقي من أخلاق وليّ الله البوصيري، فهو كعباد الله الآخرين يثور ويغضب، ويتلقى الضرب من زوجته، ويشاحن هذه الزوجة طويلاً ولا يتورع عن مخاصمتها في عنف شديد، وهذه صفات تبتعد بصاحبها عن المجال الذي يجب أن يعيش الزاهد التقي المتعبد في كنفه لا يبرحه ولا يرضى بغيره من مفاتن الدنيا ونزاعها بديلاً.

ولم يأنف البوصيري عن الحنين إلى الوظيفة مرة أخرى بعد أن مسته الفاقة بسبب كثرة العيال، وشحوب الرزق من أطفال الكتّاب بالقاهرة، ونتيجة لشكواه الملحة والرجاء الحار الذي استنجد به الوزير الصاحب «بهاء الدين علي بن محمد» وذلك بقصائد تفيض بالضراعة عاد إلى الوظيفة الحكومية وعين «كاتبًا مباشرًا بالمحلة الكبرى»، وعاد إلى نقد زملائه، وهجوهم، واقتراح الإصلاحات التي بدت له ومدح الأمير «عز الدين أيدمر» الذي وَليَ الحكم في المحلة الكبرى على ما قام به من إصلاح، ومن الغريب أن يمدح البوصيري هذا الأمير على قسوته الوحشية التي أخمد بها الفتنة التي قام بها بعض سكان البادية فيقول مخاطبًا هذا الأمير:

زجرْتَهُم بعقوباتٍ منوعةٍ
وفي العقوباتِ للطاغينَ مُزْدَجَرُ

فمعشرٌ ركبوا الأوتادَ فانقطعت
أمعاؤُهُمْ فتمنّوا أنهم نُحِروا

ومعشرٌ قُطِعَت أوصالُهُم قطعًا
فما يُلفِّقُها خيط ولا إبَر

ومعشرٌ بالظبا طارتْ رؤوسُهُمُ
عن الجسومِ فقلنا إنها أكَرُ

ومعشرٌ سُمِّروا فوق الجيادِ وقد
شَدَّتْ جسومَهُم الألواحُ والنسرُ

فهل يصح للصوفي المتعبد الزاهد الورع التقي أن يرى في هذه الفظائع البشعة، وهذه الصور الوحشية القاسية، وفي هذه المأساة الإنسانية التي يدمى لها الضمير الحي، مادة مدح ومفخرة لأمير جبَّار ينسج البوصيري من لوحتها السوداء قصيدة تمجد فظائعها، وتفصل هذه الفظائع على النحو المدوّن قبل؟ هل يصح هذا من صاحب البردة الذي قال إن النبي الكريم الداعي للرحمة والشفقة وصاحب رسالة المساواة بين الناس والعطف على الضعفاء قد جاءه في المنام وأملى عليه عجز أحد أبياتها، وما كان للنبي أن يقول الشعر بنص القرآن الحكيم.

هذا ما أقف عنده متعجبًا ومستغربًا وحائرًا في التوفيق بين الشاعر البوصيري الذي يمجد تلك المأساة، وبين البوصيري وليّ الله صاحب البردة، وصاحب الضريح والمسجد الفخم بحي الجمرك بالإسكندرية!! وأقف مقارنًا بين مسلك البوصيري الذي يمدح قتل الناس بالأوتاد (الخوازيق) تخترق أجسامهم وهم عليها قعود وتمزيق أوصالهم إربًا إربًا وإطارة رؤوسهم بالسيوف، وتسمير أجسامهم فوق الجياد وبين مسلك العالم الزاهد الورع التقي ابن أبي رندقة الطُّرطوشي (انظر مادة سيدي الطُّرطوشي) الذي لم يخش سطوة الوزير الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي فذهب من الإسكندرية إلى القاهرة ليسدي له النصح، ويطلب منه الرفق بالرعية وإقامة العدل بينهم، ولم يثنه عن التمسك بالفضائل استدعاء هذا الوزير له، واعتقاله، وبقاؤه معتقلاً إلى ما بعد قتل الأفضل سنة ٥١٥هـ (١١٢١م).

وبرم البوصيري بالمحلة الكبرى، وبموظفيها، وأهلها الذين لم يقصر في هجوهم جميعًا، مما جعلهم ينقمون عليه

ويسعون للإيقاع به، فلجأ مرة أخرى إلى استجداء الكبراء السابقين من معارفه لتدبير أمره، وإبعاده عن هذا الصراع الذي يعجز عن مواجهته، وقد أصبح في طور الشيخوخة، ومن ثم نجده يعود إلى القاهرة ويرتزق من فتح كتّابه مرة ثانية، ومما كان الكبراء والعظماء يجودون به عليه من عطاء ومنح، ويظهر أن عودته إلى القاهرة كانت بعد شغله وظيفة كتابية في مدينة سخا، وبعد أن صار في سن متقدمة لا يقوى على حمل أعباء التوظف.

ويظهر استجداؤه وإلحاحه في طلب العون المادي وشكواه من كثرة العيال ومن لجاجة زوجته وعتوها في قصيدته المريرة التي بعث بها إلى «تاج الدين حفيد بهاء الدين بن حنا» ومن أبياتها:

مَنْ شخصٍ ذي عِلّةٍ وعيَالِ
ثقلتْ ظهرَهُ بغيرِ ظهير

أثقلوهُ وكلَّفوهُ مَسيرًا
ومن المستحيل سَيْرُ «ثبير»

وعَتَتْ أُمُّهُمْ عليَّ ولجَّتْ
في عُتُوٍّ من كبرتي ونفورِ

ودَعَتْ دونهم هنالك بالويلِ
لأمرٍ في نفسِها والثبورِ

إلى أن يقول عن أولاده:

وكزُغْبِ القطا ورائي فِراخٌ
من إناثٍ أعُولُهُم وذكورِ

يتعاوونَ كالذئابِ وينْقضُّون
من فَرطِ جوعِهِم كالنُّسورِ

وحتى هذه الصورة التي يبرزها في البيتين الأخيرين يكاد يهجو أولاده بوصفهم كالذئاب العاوية وكالنسور المفترسة عند الجوع.

واستقر البوصيري بالقاهرة، ودخل في زمرة المتصوفين، ولعل ذلك كان بعامل التنفيس عن متاعبه في الحياة، وفقره المزمن، والضيق من زوجته المناكفة التي يقول فيها:

وبليَّتي عُرْسٌ بُليتُ بمقتِها
والبعلُ ممقوتٌ بغير قيامِ

جَعَلَتْ بإفلاسي وشَيْبي حجَّةً
إذْ صرتُ لا خلفي ولا قُدَّامي

ويتضح من هذه الشكوى ومن غيرها التي ذكرت قبل، أن شاعرنا كان غير موفق في حياته الزوجية التي قد يرجع الكثير من أسباب نكدها إلى سلوكه في الصبا والكهولة والشيخوخة، ويدل على ذلك انعدام أثر ذريته في الحياة العلمية والاجتماعية، مما يوضح أنه كان قليل العناية بتنشئتهم ليخلفوه ولو في الناحية الأدبية، وكان المستشرق «رينيه باسيه René Basset» مصيبًا في قوله إن التاريخ لم يذكر إلا القليل

من سيرة حياته، ومن ثم يكون المؤرخون لم يتوصلوا من المراجع إلى معرفة التفصيلات التي توضح مبلغ تأثيره على أولاده العديدين، ومقدار عنايته برعايتهم وتثقيفهم.

ولم تكن حياة البوصيري الشعرية كلها هجو وشكوى، فقد طرق باب الغزل كما طرق باب المجون، فمن غزله في المرأة هذه الأبيات:

ابتسمتْ عن مثلِ كأسِ الحُميَّا
نَظَم الماءُ عليها حبابَا

سمتُها لثمَ الثنايا فقالت
إنَّ من دونك سُبْلاً صِعابَا

حَرَسَتْ عقرب صَدْغي خدي
وَحَمَتْ حَيَّةُ شعري الرُّضابَا

وَيْحَ منْ يَطلبُ من وَجْنتي
الوردَ أو من شفتي الشرابَا

ويدل البيت التالي على صبابته، وهواه وانصياعه لسلطان الغرام:

كيفَ أعْصي الهوى وطينةُ قلبي
بالهوى قبلَ آدمَ معجونَة

أما في المجون فيكفي للتدليل عليه قوله على لسان حمارته التي استعارها أحد النظار، ورغب في شرائها منه فأبى، فبعث إليه بالأبيات التالية التي تقول الحمارة فيها إلى هذا الناظر الطامع في حيازتها:

يا أيُّها السيدُ الذي شهدتْ
ألفاظُهُ لي بأنَّه فاضل

ما كان مثلي يُعَيِّرُه أحدٌ
قَطْ، ولكنْ سيِّدي جاهل

لو جرَّسوهُ عليَّ مِنْ سَفَهٍ
لقلتُ غيظًا عليه يسْتاهِل

طال بي شوقي إلى وطني
والشوقُ داءٌ – لاذقتَهُ – قاتل

وبُغْيَتي أن أكون سائبةً
من بلدي في جوانبِ الساحل

لا تطمَعُوا أن أكون عندكم
فذاكَ ما لا يرومُهُ العاقل

وبعد هذا فما يَحِلُّ لكم
مِلكي فإنِّي مِنْ سَيِّدي (حَامِل)

ويتبين من هذه الأبيات أن شعر المجون كان يخالط بعض قصائده، وفي البيت الأخير الذي ينتهي بأن الحمارة (حامل) ما يكفي للدلالة على ذلك.

وقد مدح البوصيري النظار، والأمراء بعدد كبير من القصائد التي تضم الثناء والمغالاة فيه الشيء الكثير، ومن قوله في مدح الشيخ «أبي الحسن الشاذلي»:

قِطبُ الزمانِ وغوثُهُ وإمامُهُ
عيْنُ الوجودِ لسانُ سرِّ المُوجِدِ

فَتَلَقِ ما يُلقي إليك فنطقُهُ
نطقٌ بروح القدسِ أي مُؤَيِّدِ

إلى أن يشبه الشيخ بمصباح ينبعث منه نور النبوة فيقول:

مِنْ كُلِّ ناحيةٍ سناهُ يلوحُ مِنْ
مِصباحِ نورِ نُبُوةٍ مُتَوَقدِ

ومدحه لأبي الحسن الشاذلي (انظر مادة أبي الحسن، ومادة الشاذلي) يعد فاتحة مرحلة التصوف التي اندمج في كيانها، واتخذ من أئمتها هداة ومرشدين لتقواه بعد أن بلغ سن الشيخوخة، ويستشف من نزعته الصوفية أنها كانت تميل إلى الشيعة في أطوار تلونها على غرار المتصوفة في زمانه الذين يعتنقون المذهب الصوفي على أساس من تعاليم السنة الممتزجة بالولاء الشديد لآل بيت النبي الكريم، ومن ثم نراه بعد أن يمدح الشاذلي وتلميذه أبا العباس المرسي الذي يقول فيه بوصف كونه خليفة الشاذلي:

اليومَ قامَ فتى «علي» بعدَهُ
كيما يُبَلِّغَ مرشدًا عن مرشدِ

فكأنَّ «يُوشع» بعد موسى قائمٌ
بطريقهِ المثلى قيامَ مؤكِدِ

فاصْحَبْ «أبا العباسِ أحمدَ» آخذ
يَدَ عارفٍ بَهَرَ النفوسَ ومنجدِ

نراه بعد هذا المديح يخاطب رسول الله بقصيدته الهمزية موضحًا مأساة قتل علي بن أبي طالب، وابنه الحسين، وعترته، وما جناه بنو أمية على آل البيت من مصائب، وما اقترفوه من قسوة فيقول:

وبرَيْحانَتَين طيبُهما منكَ
الذي أودعْتُهُما الزَهْراءُ

كنتَ تَؤْويهما إليك كما
آوتْ من الخطِّ نُقْطتيْها الياءُ

من شهيدين ليس مُنْسيني
اللطفُ مصابيهما ولا كرْبلاءُ

ما رَعَى فيهما زِمامَكَ
مرؤوسٌ وقد خانَ عهدكَ الرؤساءُ

أبْدَلوا الود والحفيظةَ في
القربى وأبدت ضبابها النافقاء

وقست منهم قلوبٌ على من
بَكَتْ الأرضُ فقدَهُمْ والسماءَ

فابكهم ما استطعتَ إن قليلاً

في عظيم من المُصابِ البُكاءُ

غير أن نزعته الشيعية لم تكن لتنسيه مآثر الخلفاء الراشدين ، فيذكر بالخير أبا بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان في هذه القصيدة نفسها ، ومن التأمل في قصائده التي من هذا اللون يستطاع القول بأنه كان سُنِّيًّا يميل إلى التشيع ، وإلى القدرية التي نلمسها في قوله:

أئمة الدين كلٌّ في محاولةٍ

إلى صَوابِ اجتهادٍ مِنْه مَوكُولُ

ليقْضيَ اللَّهُ أمرًا كان قَدَّرَهُ

وكُلُّ ما قدَّر الرحمنُ مفعولُ

وتلونت حياة البوصيري بعد ذلك باللون الصوفي الغامض الذي يركن إلى المعاني الرمزية التي تشبه الأحاجي ، مثلها في ذلك مثل الفنون التجريدية التي تعرض الآن على الناس ، فإذا قال المشاهدون إنهم لا يفقهون لهذه اللوحات معنى اتهموا بقلة الإدراك ، وقصور حاسة الذوق السليم ، ومن شعره في هذا اللون الصوفي القصيدة التي يمدح بها الوزير أحمد زين الدين فيقول فيها:

«كشفُ الغِطاءِ» لهُ فليسَ كحائرٍ

في دينِهِ من أمرِهِ مترددِ

لولا يخاطِبُنَا بقدرِ عقولِنا

جاءت «معارفهُ» بما لم نَعْهَدِ

يطوي من التقوى حشاهُ على الطوى

ويبيتُ سهرانًا مقضَ المرقدِ

ويغُضُّ من مغسولتين بدمعهِ

مكحولتينِ من الظلامِ بأثمدِ

وفي سبيل صوفيته لم يتوان في الدفاع القوي عن الصوفيين ، فكان يؤيد آراءهم ، ويجرّح آراء الفقهاء الذي يعارضون قول أهل التصوف ، وادعاءهم في الكشف عن الكرامات بما لهم من مكانة روحية تقربهم من الله ، وتجعل منهم أئمة في العلوم الغيبية ، فيقول للصاحب شمس الدين بن برهان الدين في هذا الصدد:

ما ضَرَّهم قولُ المعاندِ ، إنَّهم

بفِعَالهم أقوى الأنامِ نُفُوسَا

كَمْ ذمهمْ جَهْلاً وأنكرَ حالَهُمْ

قومُ يَلونَ الحكمَ والتدْريسَا

فَرددتُ قَوْلَهُمُ بقولي ضاربًا

مثلاً على «الخِضْرِ» السلام و«موسى»

فهو بهذه الأبيات يصعد بالصوفيين إلى مرتبة العلو الرباني ويضع المعارضين لأقوالهم ورموزهم في موضع موسى عليه السلام حين سار مع وليّ الله الخضر ، وكان يسأله عن المتناقضات التي يأتيها في الرحلة فيقول له الخضر: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ ، ومن ثم فالبوصيري يرمي الفقهاء وأهل التدريس بجهل مكانة الصوفيين الروحية

التي يعسر على هؤلاء العلماء فهمها وتفسيرها، وما فيها من ألغاز محيرة، وكل هذا الانتحال السخيف يركن إليه من ضاقت دائرة علومهم، وثقافتهم التي تثير الأذهان، وترتفع بمستوى الإدراك فلا يقبل الأحاجي، والأساطير ويرفض كل ما لا يقوم على أساس المنطق والعلم الصحيح، وكل هذا يدل على أن البوصيري وأمثال البوصيري، يركنون إلى الروحانية الغامضة للتخلص من انكشاف أمرهم، إذا واجهتهم الأدلة العلمية الصحيحة التي تُعجز من قصرت معارفهم الصحيحة عن مجابهة تلك الأدلة بالحجج المنطقية القائمة على الأسس المؤدية إلى المعرفة الحقة بالأمور الدنيوية المعقدة، والأمور الدينية الصحيحة التي لا يشوبها الإبهام، أو الدجل، ولا سيما في الدين الإسلامي الحنيف دين الفطرة والبساطة البعيد كل البعد على التأويل الغامض، لأنه واضح المعالم، جليّ المبادئ السامية التي تهدي إلى الرشد من السبل المستقيمة غير المعوجة، أو المنحرفة، أو الملتوية.

ويمهد البوصيري لتوبته، واستغفاره، وطلب الشفاعة من رسول الله، وقبل أن ينظم في مدحه «البردة»، فهو يذهب إلى الديار الحجازية لتأدية فريضة الحج، وينشد أمام القبر النبوي الشريف قصيدة من مائة وخمسين بيتًا يقول في مطلعها:

وَافَاكَ بالذنبِ العظيمِ المذْنِبُ
خَجِلاً يُعَنِّفُ نَفْسَهُ ويُؤَنِّبُ

ضاقَتْ مذاهِبُهُ عليه فما لَهُ
إلا إلى حَرَمٍ بِطِيبَةَ مَهْرَبُ

مُتقطِّع الأسباب مِنْ أعمالِهِ
لكنَّهُ بِرَجائِهِ مُتسبِّبُ

وَقَفَتْ بجاهِ المصطفى آمالُهُ
فكأنَّهُ بذنوبِهِ يتقرَّبُ

وبَدَا له أنَّ الوقوفَ ببابِهِ
بابٌ لغفرانِ الذنوبِ مُجَرَّبُ

وعاد البوصيري إلى القاهرة واستقر بها، وأخذ ينظم القصائد في المدح النبوي، ومن روائع هذه القصائد بائيته ذات الجرس العذب، والرنين الحلو، فيقول في مطلعها:

بمدح المصطفى تحيا القلوبُ
وتُغْتَفَرُ الخطايَا والذنوبُ

نبيٌّ كاملُ الأوصافِ تمتْ
محاسنُهُ فَقِيْلَ له الحبيبُ

كأنَّ حديثَهُ زَهْرٌ نَضيرٌ
وحامِلُ زهْرِهِ غُصْنٌ رطيبُ

ولي طرفٌ لمرآهُ مَشُوقٌ
ولي قلبٌ لذِكراهُ طَروبُ

ويلاحظ أن في شعر البوصيري من السلاسة والبساطة ما يجعله سهلاً ممتنعًا لا يصعب على القارئ ترديده، والترنم، به ثم حفظه في يسر.

ولعل أروع قصائده على الإطلاق، بل من أروع ما نظم شعراء العروبة قاطبة همزيته التي تقع في ٤٥٧ بيتًا بعنوان «أم القرى في مدح خير الورى»، وقد اهتم بشرحها نفر كثير، ويستهل البوصيري هذه القصيدة العصماء بقوله:

كيف ترقَى رُقيَّكَ الأنبياءُ
يا سماءً ما طاوَلَتْها سَمَاءُ

لم يُساووكَ في علاكَ وقَدْ
حالَ سَنَى مِنْكَ دونَهُمُ وسناءُ

أنتَ مصباحُ كلِّ فَضْلٍ فما تصدُرُ
إلا عَنْ ضَوْئَكَ الأضْواءَ

ثم يناجي النبي الكريم قائلاً:

يا رحيمًا بالمؤمنينَ إذا ما
ذَهَلَتْ عَنْ أبنائَها الرُّحَمَاءُ

يا شفيعًا في المذنبينَ إذا
أشْفَقَ مِنْ خَوْفِ ذَنْبِهِ البراءُ

تَتَباهَى بكَ العصورُ وتسمو
بكَ عَليا ما فوقَها عَلْياءُ

وبَدَا للوجودِ منكَ كريمٌ
من كريمٍ آباؤُهُ كُرَمَاءُ

حبَّذا عِقْدُ سُؤْدَدٍ وفخارٍ
أنتَ فيه اليتيمةُ العَصْماءُ

ومُحَيًّا كالشمسِ منكَ مضيءٌ
أسْفَرَتْ عَنْهُ ليلةٌ غرَّاءُ

ليلة المولدِ الذي كانَ للدين
سُرورٌ بيومِهِ وازْدِهاءُ

والقصيدة التي اشتهر بها البوصيري، وأذيع بها صيته في أرجاء العالم العربي والإسلامي هي قصيدة «البردة»، ويقال إنه هو الذي أطلق عليها هذا الاسم بعد أن كان قد عنونها باسم «الكواكب الدرية في مدح خير البرية».

«والبردة» في اللغة العربية هي كساء أسود مربع فيه صقر تلبسه الأعراب والجمع «بُرَدُ» بضم الباء وفتح الراء، وجاء هذا الجمع في قول الشاعر:

والبَسْ لكلِّ زمانٍ بُرْدَةً حضرت حتى
تُحاكَ لك الأخرى من البُرَدِ

وأطلق بعض أدباء العروبة اسم «البردة» على القصيدة التي نظمها الشاعر «كعب بن زهير بن أبي سُلمى»، وأتى بها رسول الله في مسجده بالمدينة، وأنشدها أمامه مستشفعًا بها عنده، وكان الرسول قد أهدر دمه بسبب قصائد نال فيها الشاعر النبي، فلما سمع الرسول هذه القصيدة عفا عنه، وأعجب بها ولا سيما بهذه الأبيات:

أُنْبِئتُ أنَّ رسولَ اللَّهِ أوْعَدَني
والعَفْوُ عند رسولِ اللَّهِ مَأمُولُ

مهلاً هَدَاكَ الذي أعطاك نافِلةَ
القرآنِ فيها تفاصيلٌ وتأويلُ

لا تأخُذنِّي بأقوالِ الوشاةِ ولم
أذنبْ وقد كثرت فيَّ الأقاويلُ

إنَّ الرسولَ لنورٌ يُسْتضاءُ بهِ
مُهَنَّدٌ من سِيُوفِ اللَّهِ مَسلولُ

ويقولون إن الرسول عليه السلام خلع بردته عند سماعه البيت الأخير، وألقاها على كعب بن زهير تأييدًا لعفوه عنه، ومكافأة له على القصيدة التي لقبت «بالبردة» لهذا السبب (انظر مادة ابن زهير).

وتشبيهًا بهذه القصيدة أطلق البوصيري، أو غيره من الأدباء على قصيدته الميمية اسم البردة وهي التي مطلعها:

أَمِنْ تذكري جيرانٍ بِذي سَلمِ
مَزَجْتَ دَمْعًا جَرَى من مُقْلةٍ بِدَمِ؟

وهناك قصص أسطورية ذكرت في بعض المراجع تقول إن سبب التسمية أقوال البوصيري نفسه الذي ذكرها «ابن شاكر الكتبي» في كتابة «فوات الوفيات»، وما رواه «الصفدي» في كتابه «الوافي بالوفيات»، وتتلخص هذه الأقوال في أن البوصيري أصيب بالفالج الذي أبطل نصفه ففكر في نظم قصيدته، واستشفع بها إلى الله أن يعافيه، فرأى النبي، فمسح على وجهه بيده وألقى عليه «بردة» فانتبه من النوم، ثم لقي فقيرًا أخبره أن رسول الله استمع إلى قصيدته وألقى على صاحبها بردته، وكان لقاء البوصيري لهذا عقب خروجه من بيته، وقد شفي تمامًا من الفالج.

أما الحكاية الأخرى التي تعزى التسمية إليها فهي أن البوصيري رأى رسول الله في المنام، وكان قد عجز عن تكملة بيت في هذه القصيدة، فلما أنشد بعض أبياتها، وتوقف عند هذا البيت أكمله النبي، وفي اختلاف الرواة في نص هذا البيت ما يدل على بهتانها، فبعضهم يؤكد أن عجز البيت الذي أكمله الرسول هو النصف الثاني من البيت:

محمدٌ سيّدُ الكونينِ والثقلين
والفريقين من عُرْبٍ ومِنْ عَجَمِ

والبعض الآخر يصر على أن العجز هو الجزء الثاني من البيت:

فمبلغُ العِلم فيه أنّه بَشَرٌ
وأنَّه خيرُ خَلْقِ اللَّهِ كُلّهم

والناقد الحصيف لا يرى في هذين العجزين ما يدل على أن البيتين خير ما في القصيدة، علاوة على أن رسول الله معصوم من قول الشعر بنص الآية القرآنية الشريفة: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾.

ويلاحظ أن تكملة البيت الثاني وردت في بيت للشاعر «الصرصري» المتوفى عام ٦٥٦هـ، أي قبل البوصيري بأربعين عامًا وقبل أن يفكر في نظم قصيدته، وهذا البيت هو:

محمدٌ خيرُ خَلقِ اللَّهِ كُلِّهِمِ

وهو الذي لِفَخَارِ المجد يَنتسِبُ

ومن جهة أخرى فإن هذه التكملة جاءت في قصيدة البوصيري المسماة «ذخر الميعاد»، إذ قال في أحد أبياتها:

والمصطفى خيرُ خَلقِ اللَّهِ كُلِّهِمُ

له على الرُّسْلِ ترجيحٌ وتفضيلُ

وكل هذا يدل على أن قصة الرؤية، وما ترتب عليها من قصص وأساطير، لا يمكن أن يستقيم مع العقل والمنطق ويوحي بأن هذه الرؤية من وضع الرواة، أو من وحي الخيال الذي سيطر على مفهوم البوصيري بعد اندماجه في الصوفية، وما يحيط بها من تفكير روحاني غامض المعالم عويص الألغاز.

فالإنسان لا يرى في الأحلام إلا ما يكون قد شاهده، أو شاهد أجزاءه في اليقظة، ومن ثم لا يستطيع العقل السليم أن يتصور أن رسول الله قد مثل أمام البوصيري في المنام وهو لم يره قط.

وتفسير الأحلام – من الناحية العلمية ووفاقًا لأصول علم النفس التجريبي – يرفض مثل هذه التخيلات الباطلة، فالإنسان يحلم عندما يكون في مرحلة النعاس وليس في مرحلة النوم العميق، إذ هو يفقد النزوع (الإرادة) ويبقى له الكثير من شعوره الإدراكي، والوجداني، وذلك بسبب لمس خلايا الوصل في المجموعة العصبية لأطراف الخلايا العصبية ذات السيقان والأطراف الهدبية من رؤوسها وذيولها، وينتج عن لمس خلايا الوصل المجردة من الأطراف، والذيول للخلايا العصبية لمسًا خفيف، فيرى الإنسان في النعاس ما قد يكون قد رأى في اليقظة، أو يركب على ما يكون قد رآه صورًا خيالية أخرى، ويكون من مجموع هذه الصور الحلم الذي يتذكره عقب اليقظة، وقد تمادى الدجالون والمشعوذون في تفسير هذه الظاهرة النفسية، وجعلوا من أنفسهم علماء بالغيب، وعلم الغيب عند الله وحده ولا يعلمه إلا هو.

يضاف إلى ذلك أن رؤية رسول الله عليه السلام لا تتاح إلا لمن رآه عين الرؤية، أي لمن كان من معاصريه من أهل مكة والمدينة، أما قول النبي الكريم: «من رآني فقد رآني حقًّا» فإنه مقصور على الذين كانوا في زمنه.

وإزاء ما تقدم لا يسع الباحث عن الحقيقة إلا أن يشك في الرؤية التي يقال إن البوصيري رآها في منامه، وفي تكملة النبي الكريم لأحد أبيات القصيدة وخلع بردته، وإلقائها على البوصيري مما لا يتفق والمنطق السليم والتصور العلمي القائم على الحقائق المجردة، ولاسيما في زمننا هذا، زمن العلم ومعجزاته التي لم تدع للأساطير والخرافات بابًا تلج منه إلى أذهان المثقفين، وتستولي على وجدانهم.

وفي قصيدة «البردة» أبيات أثارت اعتراض الفقهاء وأئمة الشريعة وعلى رأسهم «الإمام ابن تيمية»، إذ يرى هؤلاء العلماء الأجلاء في هذه الأبيات إغراقًا في المدح إلى حد الخروج على العقيدة الإسلامية مثل قوله:

فإنَّ من جُودِكَ الدنيا وضرتها

ومن علومك عِلْمُ اللوحِ والقلمِ

فكيف تكون الدنيا والآخرة، وهما مجلى ملكوت الله، ومن وجود سيدنا محمد؟ وكيف يمكن أن يكون علم اللوح

والقلم من علوم النبي مع أن العلوم المثبتة «باللوح» وهي «علم الغيب» ليس يعلمها إلا الله وحده بنص القرآن الكريم .

ولم تجد قصيدة من الاهتمام الواسع النطاق مثلما لاقت البردة منه فتناولها الأدباء والعلماء بالشرح والتفسير في مؤلفات تعد بالعشرات ، وبمكتبة محافظة الإسكندرية (مكتبة البلدية سابقًا) نسختان ثمينتان ، منها مخطوطتان كلاهما منقوشة بالذهب على أرضية من اللازورد ، الأولى برسم خزانة السلطان الملك الظاهر خدمة المملوك توزي الملكي الظاهري ، والثانية كتب بذيلها «برسم الست المصونة الكبرى عائشة ابنة إسماعيل الخازن» ، وبالمكتبة طائفة قيمة من الشروح المخطوطة للقصيدة .

وأثرت «البردة» في الأدب العربي تأثيرًا ظاهرًا ، فعارضها كثير من الشعراء نخص بالذكر منهم: محمود سامي البارودي بقصيدة من روائع شعره قال فيها:

محمدٌ خاتم الرُّسْلِ الذي خضعتْ
له البريَّة من عُرْبٍ ومن عجمِ

سميرُ وَحْي ومجني حكمةٍ وندى
سماحةٍ وقرى عافٍ وريّ ظمي

وأحمد شوقي الذي بدأ قصيدته بقوله:

ريمٌ على القاعِ بين البانِ والعلم
أَحَلَّ سَفكَ دمي في الأَشْهر الحُرُمِ

وبعض أبيات هذه القصيدة تغنيها السيدة أم كلثوم من لحن رياض السنباطي .

ومن أبيات «البردة» في مدح الرسول الكريم قول البوصيري:

أَكْرِمْ بخلق نبيٍّ زانه خُلُقٌ
بالحسنِ مشتملٍ بالبشر مُتَّسِمِ

كالزهرِ في ترفٍ والبدرِ في شرفٍ
والبحرِ في كرمٍ والدهرِ في هِمَمِ

كأَنَّهُ وهو فردٌ من جلالِتهِ
في عسكرٍ حين تلقاهُ وفي حَشمِ

وإذا كان المؤرخون يجمعون على أنه ولد في أول شوال عام ٦٠٨هـ (٧ مارس سنة ١٢١٣م) ، فإنهم يختلفون في تحديد تاريخ وفاته ، فحاجي خليفة وابن حجر الهيثمي يقولان إنه توفي سنة ٦٩٤هـ (١٢٩٤ - ١٢٩٥م) ، ويقول السيوطي والعماد الحنبلي: إن وفاته كانت عام ٦٩٥هـ (١٢٩٥ - ١٢٩٦م) ، بينما يقول المقريزي وابن شاكر وأغلب المؤرخين إنه توفي خلال عام ٦٩٦هـ (١٢٩٦ - ١٢٩٧م) ، ووصفه بعض كتَّاب سيرته بأنه كان قصير القامة ، نحيف الجسم ، وقد دلل هو نفسه على هذا الوصف بقوله:

وَرُبَّ أديبٍ ذي لسانٍ كمِبْرِدٍ
بَدَا مِنْ فمٍ كالكير أو هو كِيْرُ

إذا ما رآني عافَني واستقلني
كأنِّي في قعرِ الزجاجةِ سُور

ويعجبهُ أنِّي نحيفٌ، وأنَّهُ

سَمينٌ يَسُرَّ الناظرين طَريرُ

ولمْ يدْرِ أنَّ الدُرَّ يصغُرُ جُرْمُهُ

ومقدارُهُ عند الملوكِ خطيرُ

وكانت ثقافته شخصية، ويوضح ذلك أنه لم يقم بالتدريس ولكنه كان على معرفة قوية بالديانتين اليهودية والمسيحية، وبسيرة أهل بيت الرسول والصحابة، ووقائع الصراع الدموي الذي أثاره بنو أمية، وكان الأسلوب القرآني يغلب على كثير من قصائده مع التجائه إلى التعبيرات المصرية السائدة في عصره، والدعابات والنكتة وأحيانًا إلى القول الخالي من الاحتشام.

أما مكان وفاته فقد كان ومايزال موضع جدل وشك وحيرة، فالمؤكد أنه عاش بالقاهرة، وقد تقدمت به السن، ولا يختلف في ذلك أحد المؤرخين، بل إن من بينهم من يؤكد أنه مات بالقاهرة ودفن بها، ومن هؤلاء المقريزي في كتابه «المقفى»، وقد جاء به أن البوصيري توفي في البيمارستان (المستشفى) المنصوري بالقاهرة، ومنهم الرحالة المغربي «العيّاشي» الذي قال إنه زار قبره بالقاهرة عام ١٠٧٣هـ (١٦٦٣م) أي بعد وفاته بحوالي ٣٦٧ سنة، وقد أخذ بقول «العياشي» المستشرق «رينيه باسِّيه» فذكر بمقاله في دائرة المعارف الإسلامية قوله «وكان قبره قريبًا من قبر الإمام الشافعي».

ومما يزيد موضوع مكان وفاته تعقيدًا أنه كان بالقاهرة عالم جليل هو المحدث «أبو القاسم هبة الله بن علي البوصيري»، الذي توفي بالقاهرة عام ٥٩٨هـ (١٢٠١م)، ومحدث آخر اسمه الشيخ الشهاب أحمد بن أبي بكر البوصيري، وذكر بوصيري ثالث في شذرات الذهب للعماد الحنبلي، ومن ثم يصعب معرفة مكان الشاعر البوصيري من هؤلاء الثلاثة، فهل القبر الذي زاره الرحالة «العياشي» لأحد هؤلاء الثلاثة؟ أهو لشاعرنا البوصيري، وبذلك يكون ضريحه بالإسكندرية خاليًا من جثمانه على غرار ضريح أبي الدرداء، وإمام الحرمين؟ الجواب عن ذلك من الصعوبة بحيث لا يستطيع الباحث المدقق الجزم وتقديم إجابة تفصل في النزاع وتحدد بكيفية قاطعة مكان قبر الشاعر البوصيري في مدينتي القاهرة والإسكندرية.

وإذا كان الشاعر البوصيري قد زار الإسكندرية ليلتقي بأبي العباس المرسي ويتتلمذ على يده في الصوفية، فإن هذه الزيارة لا تدل بصفة قاطعة على أنه لازم أبا العباس، واستقر بالإسكندرية حتى وافته المنية، نعم إنه مدح أبا العباس بقصيدة من مائة وأربعين بيتًا، ولكن ذلك لا يدل على إقامته المستمرة بجانب شيخه إلى أن لاقى ربه، ولاسيما أن ابن عطاء السكندري تلميذ أبي العباس المرسي المفضل، ولم يذكر في كتابه «لطائف المنن في مذاهب أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن» صحبة البوصيري لأستاذه، وكل ما قاله هو أن البوصيري مدحه بقصيدة «سينية قصيرة»، وكذلك عبد الوهاب الشعراني الذي ترجم لعدد كبير من الصوفيين في «طبقاته»، لم يذكر شيئًا عن البوصيري، مع أنه تحدث عن أبي الحسن الشاذلي، وتلميذه أبي العباس المرسي بتوسع.

ومن كل ما تقدم قد يكون من الملائم الميل إلى أن البوصيري زار الإسكندرية، واتصل بأبي العباس المرسي، ومدحه ولكن لم يستقر بها، وإذا أخذنا بهذا الميل يكون من المرجح أن شاعرنا توفي بالقاهرة وأن ضريحه بالإسكندرية

ما هو إلا مقام يُزار للتبرك على غرار غيره من أضرحة المدينة الخالية من أصحابها.

وليس من المحتم الأخذ بقول بعض المؤرخين المحدثين الذي يرون أن الشاعر البوصيري توفي بالإسكندرية، ودفن بها مثل الحسن بن الحاج محمد الكوهن الفاسي المغربي وصاحبي كتاب «الوسيط في الأدب العربي وتاريخه»، وهما أحمد السكندري ومصطفى عنان، وقد جاء بهذه المؤلفات أن البوصيري «توفي بالإسكندرية وله فيها مقام مشهور يزار»، إذ لا يمكن الاعتماد على هذه المؤلفات للوثوق في أن البوصيري دفن بالإسكندرية لأنها لم تأت بالسند الذي يطمئن له، ولأنها كتبت خلال القرن الهجري الحالي، ومن ثم فليس لها حجة المعاصرة، ولا ما يقرب منها، وإزاء ما تقدم يكون من المحتمل القريب من الحقيقة هو الميل إلى أن البوصيري دفن بالقاهرة، كما تقدم وأنه لم يبق لقبره هناك أثر لطول العهد ومر القرون.

ومسجد البوصيري بالإسكندرية شيد سنة ١٢٧٣هـ (١٨٥٦م) ويثبت ذلك التاريخان الموضوعان على الباب، وعلى اللوحة القرآنية التي بجوار المحراب، أما الدرج الرخامي الموجود بالواجهة المطلة على شارع السيد محمد كريم (شارع التتويج سابقًا)، وكذلك بعض الغرف الملحقة بالمسجد، فكل هذا أقيم خلال عام ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م)، وهذا المسجد من أبهى مساجد المدينة.

ويتكون المسجد من قسمين: الأول الصحن المعَدّ للصلاة، وهو مغطى بسقف مدهون بنقوش عربية مختلفة في وسطه قبة ترتفع على ستة أعمدة من الحديد، ولهذا القسم مدخل رئيسي يفتح على المدرج الرخام ويقع على شارع السيد محمد كريم، وملحق بهذا الصحن الضريح في غرفة مستقلة وله باب خلفي يفتح على شارع ضيق يحمل اسم البوصيري، وتعلو حوائط الصحن والضريح إزارات زرقاء مكتوب عليها برقائق الذهب وبخط فارسي بارز نص البردة، وبالخط الثلث آيات القرآن الكريم، والخطان من آيات الفن الجميل، وتتدلى من قبة إيوان القبلة ثريا من الحديد المطروق على شكل أوراق الشجر وهي كبيرة وجميلة يحيط بها بين الأعمدة الحديد الستة دائرة حديد مفرغة يخرج منها مصابيح كثيرة تضاء بالكهرباء، وكانت تضاء بغاز الاستصباح في الماضي، وقبة الصحن المرتفعة من الصاج، والقسم الثاني عبارة عن صحن مكشوف من الوسط محاط بأعمدة يعلوها سقف، وبوسط الصحن المكشوف بناء دائري في صنابير المياه للوضوء.

وقد أقيم المسجد على الطراز العثماني، يشبه إلى حد ما نظيره في مسجد محمد علي بالقلعة، وملحق بهذا الصحن ثلاث خلوات تعلو كل منها قبة، وكانت لبعض فقهاء المذاهب في الماضي، ويقع المسجد في منطقة حافلة بالمساجد، إذ بجواره مسجد أبي العباس المرسي (انظر مادة سيدي أبي العباس)، ومسجد أبي الفتح، وياقوت العرش (انظر مادة سيدي ياقوت) ومسجد نصر الدين، والضريح المجمع الذي يضم اثني عشر وليًّا كانت أضرحتهم مبعثرة في أواسط بعض شوارع المدينة، فنقِلوا إلى هذا المجمع في عام ١٩٣٢م.

وكان مسجد البوصيري صغيرًا قبل تجديده في عهد سعيد باشا والي مصر الذي تقول الأساطير، وما أكثرها أنه رأى البوصيري في المنام، فأمره ببناء مسجده، فأمر ببنائه على

الفور تبركا بوليّ الله صاحب قصيدة البردة الشهيرة، وهكذا تكون القصيدة تشرفت برؤية رسول الله في منام صاحبها، وأقيم المسجد تبركًا برؤية صاحبها في مقام سعيد باشا.

وأطلقت بلدية الإسكندرية على الجهة التي يقوم بها مسجد البوصيري، ومسجد أبي العباس المرسي ومجمع الأضرحة اسم «ميدان المساجد»، وفرضت في تخطيطه الجديد أن تكون المنازل التي تقام في محيطه ذات بوائك، وقد أقيم بعض هذه المنازل على هذا النمط العربي، وسيتم شكل الميدان الدائري بعد تهدم المنازل القديمة الواقعة الآن في حيزه.

٧٣١ – سيدي تمراز – ميدان – بقسم الجمرك

٧٣٢ – سيدي تمراز – حارة – بقسم الجمرك

٧٣٣ – سيدي تمراز – شارع – بقسم الجمرك

تبدأ قصة سيدي تمراز عندما مُنح حسن باشا الإسكندراني (انظر هذه المادة) في عهد محمد علي مكافأة مالية عقب انتصاره على القائد اليوناني «ميوليس Mioulis» في معركة «إسبادا Spada» البحرية، إذ أغرق الأسطول المصري بقيادته إحدى سفن هذا القائد، وأسر سفينة أخرى، وقادها إلى ميناء الإسكندرية، وقد اشترى بهذه المكافأة قطعة الأرض المثلثة أمام السراي التي تزوج بها، وسميت بعد وفاته باسم ابنه محسن باشا، وكان في ذلك الحين برتبة الصاغ (أي الرائد)، ويطلق على هذه الجهة حتى الآن اسم «التمرازية» وقد هدمت سراي محسن باشا، ومحلها الآن عمارة سكنية، وعندما أحيل الفريق البحري حسن الإسكندراني على المعاش خلال عام ١٨٥٠م (١٢٦٧هـ) قام هو وأتباعه من رجال البحرية بإزالة كومة التراب التي كانت تغطي قطعة الأرض المثلثة، فوجدوا في مكان مسجد سيدي تمراز الحالي قبرًا يعلوه شاهد باسم «تمراز»، ولكي يشغل الإسكندراني في أوقات فراغه قام هو وزملاؤه الضباط والبحّارة ببناء زاوية فوق هذا القبر سميت في أمرها «زاوية البحّارة»، ثم صارت مسجد سيدي تمراز الذي تقول المصادر الفرنسية التاريخية: إنه كان محافظًا لمدينة الإسكندرية.

ويقول علي باشا مبارك (انظر هذه المادة) في كتابه «الخطط التوفيقية» الذي صدر عام ١٣٠٥هـ (١٨٨٧م) إن مسجد الشيخ تمراز كانت أرضيته منخفضة، وفي عام ١٢٦٢هـ (١٨٤٥م) جدده المرحوم حسن باشا الإسكندراني ناظر ديوان البحرية، وردم أرضيته وصار يُصعد إليه بسلم، وبه ضريح الشيخ علي التمرازي، وله مولد كل سنة ثمانية أيام وقت زيادة النيل (أي في شهر أغسطس).

ويظهر أن علي باشا مبارك استقى معلوماته عن هذا المسجد من سكان الجهات المجاورة له، فحسن باشا الإسكندراني، حسب المستندات التي اطلعت عليها لدى حفيدته السيدة عصمت حسن محسن الإسكندراني الحائزة على لقب «أم البحرية»، والكاتبة المؤرخة التي أصدرت كتبها باسم «بنت بطوطة»، حسب هذه المستندات يتضح أن حسن باشا الإسكندراني لم يقم هو وزملاؤه ببناء «زاوية البحّارة» مكان المسجد الحالي إلا بعد إحالته على التقاعد في عام ١٨٥٠م (١٢٦٧هـ)، وإذا كان الإسكندراني قد جدد الزاوية، وجعلها مسجدًا فيكون قد فعل ذلك بعد ذلك التاريخ وليس قبله في عام ١٨٤٥.

هذا فيما يتعلق بمكان المسجد ومراحل إقامته في أول الأمر، أما عن سيدي تمراز صاحب الضريح الذي يضمه المسجد، والذي عثر عليه حسن باشا الإسكندراني، وكان فوقه شاهد باسم «تمراز» دون ألقاب أخرى، فمن المفيد ذكر ما جاء بالمصادر التاريخية بصدد هذا الاسم.

فتاريخ المماليك يوضح أن الأمير تمراز الشمسي المحمودي الظاهري من أصل جركسي، وقد جلبه إلى مصر الخواجا محمود خلال عام ٨٣٩هـ (١٤٣٥م) فاشتراه الملك الأشرف برسباي (انظر مادة برسباي) فأظهر من الفطنة والذكاء ما جعل برسباي يضمه هو وقايتباي (انظر هذه المادة) إلى المماليك الكتابية، ولما توفي برسباي اشتراه الظاهر جقمق (انظر مادة جقمق) من بيت المال، واستمر في رق جقمق حتى أعتقه، فتولى عدة مناصب في عهد هذا السلطان، ولما تولى الظاهر بلباي الحكم بعد وفاة جقمق ساءت العلاقة بينهما فأمر «بلباي» بالقبض عليه وإرساله إلى دمياط (انظر هذه المادة) وذلك خلال عام ٨٧٢هـ (١٤٦٧م).

ولما لم يدم حكم «بلباي» إلا أقل من شهرين استرد تمراز حريته، وأنعم عليه السلطان الملك الظاهر أبو سعيد بأن يكون مقدمًا للألف، فعلا قدره بعد ذلك، وعندما تولى الحكم السلطان الأشرف قايتباي، إذ كان أحد أقربائه (ويقال إن قايتباي كان خاله) عينه عام ٨٧٣هـ (١٤٦٨م) كاشفًا على أعمال الغربية، فصار يخرج إليها كل سنة للكشف على الجسور ويقيم بها شهرًا.

وكانت ثقة قايتباي في الأمير تمراز عميقة جدًّا، ذلك أن هذا الأمير كان كريم النفس، وفيًّا، ورعًا، تقيًّا، لا يخون عهدًا ولا يسعى إلى الشر، وقال ابن إياس (انظر هذه المادة) في حقه: إنه كان أميرًا جليلاً معظمًا دَيِّنًا، كثير البر والصدقة، محسنًا للناس، جميل الهيئة، وله آثار معروفة، منها ما فعله بالجسور التي أقامها بالغربية، وقد رثاه الشعراء عقب وفاته، وكان عمره وقت قتله يقارب الثمانين.

وقد رقّاه السلطان قايتباي إلى رتبة رأس نوبة النواب، وكان يصحبه في جميع رحلاته، وكان يكل إليه الكثير من الأعمال التي كان يخشى عواقبها.

وفي عام ٨٨٥هـ (١٤٨٠م) عينه قايتباي ليتولى نيابة الشام، فرفض مدعيًا الفقر وعدم الرزق فغضب عليه السلطان، فلزم منزله وصرف نقباءه عن بابه إلى أن زالت الجفوة بينهما فطلع إلى القلعة، وتسلم الخلعة من السلطان، ونزل إلى داره في احتفال عظيم.

وأخذ يترقى في المناصب بعد ذلك إلى أن وصل إلى وظيفة الأتابكية عام ٩٠١هـ (١٤٩٥م) أي نائب السلطان، وعندما اشتد المرض على السلطان قايتباي صعد تمراز إلى القلعة، فوجد سيده يحتضر ويقول ابن إياس: إن الأمير تمراز قال له: «يا مولاي السلطان إن الأحوال قد فسدت، ومن الرأي أن تسلطن سيدي محمد»، فلم يرد السلطان جوابًا، فأخذ تمراز سيدي محمد بن السلطان، وكان فتى صغيرًا لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، ونزل به إلى باب السلسلة بالقلعة فأجلسه في المقعد الذي هناك، وجلس معه ليوليه السلطنة، فلم يشعر تمراز إلا وقد هاجمته العساكر كالجراد المنتشر، فقبضوا عليه وقيدوه وسجنوه بالبرج الذي بباب السلسلة، ثم عقب ذلك اليوم نزلوا به وهو مقيد بقيدين أحدهما برجليه

والآخر بركبتيه، وخلفه أوجا (أي جندي) بخنجر فنزلوا به من باب الميدان، وتوجهوا به إلى البحر فأنزلوه في الحراقة (أي المركب) وتوجهوا به إلى الإسكندرية، فسجن بها، وكان ذلك سنة ٩٠١هـ، ومنذ ذلك التاريخ لم نسمع عن تمراز شيئًا.

ومن هذه العبارة الأخيرة يتضح أن أخبار الأمير تمراز الشمسي انقطعت عند سجنه بالإسكندرية، ومن ثَمَّ يستطاع القول بأن الضريح الذي يضمه مسجد سيدي تمراز هو ضريح الأمير تمراز الشمسي، وليس ضريح الشيخ علي تمراز الذي ذكره الشعراني في كتابه «الطبقات»، والذي قال عنه أنه كان من القواد الصالحين الذين حاربوا مع الظاهر بيبرس (انظر مادة بيبرس)، ولاسيما أن الشعراني لم يذكر المكان الذي دفن فيه، ولا أية معلومات يستدل منها على أن «علي تمراز» أو «علي التمرازي» الذي ذكره علي باشا مبارك هو سيدي تمراز صاحب الضريح الذي يضمه المسجد الحالي، خصوصًا وأن الضريح الذي كشف عنه حسن باشا الإسكندراني خلال عام ١٨٥٠م، كان فوقه شاهد باسم «تمراز» فقط دون ألقاب تحدد شخصيته.

وما من شك في أن اسم «علي تمراز» الذي كتب علي الضريح ما هو إلا ترديد لما ذكره الشعراني وعلي باشا مبارك.

ولم تنته الرواية بالنسبة للأمير تمراز عند هذا الحد، فقد جاء بالجزء السادس من كتاب «بدائع الزهور» لابن إياس نفسه ما يزيد أمر هذه الرواية تعقيدًا، إذ ذكر في هذا الجزء بالصحيفة رقم ٥٩٨ أن الأمير تمراز أخرج من سجن الإسكندرية سنة ٩٠٢هـ (١٤٩٦م)، وأنعم عليه الملك الناصر أبو السعادات، وعينه أتابكي، غير أنه هرب بعد ذلك، وقتل في شهر ذي الحجة من العام نفسه، ودفن بالقرب من قبر قايتباي، وهذا القول يتعارض تمامًا مع قول ابن إياس في موضع آخر من كتابه «بدائع الزهور» أن تمراز سجن بالإسكندرية عام ٩٠١هـ، ومنذ ذلك التاريخ لم يسمع عنه شيء، فأي الروايتين تذكر الحقيقة؟

والرأي عندي هو أن اللَّبس وقع في الروايتين بالنسبة إلى قبر قايتباي بالقاهرة، وحصن قايتباي بالإسكندرية، ومنها يستطاع استخلاص أن الصحيح هو أن تمراز دفن بالقرب من حصن قايتباي الذي يقع مسجد سيدي تمراز على مسافة غير بعيدة منه.

وكان هذا الأمير واسع الثراء فكانت ثروته تقرب في ضخامتها من ثروة السلطان، ومن ثم استطاع أن يبني كثيرًا من العمائر لم يبق منها غير مسجده بالقاهرة التي تزعم إحدى الروايات أنه يضم رفاته.

ويقع مسجد سيدي تمراز بالإسكندرية في نهاية شارع رأس التين بقسم الجمرك عند التقائه بشارع إسماعيل صبري باشا (انظر هذه المادة) أمام مكان سراي محسن باشا التي هدمت.

وفي عام ١٩٤٠م (١٣٥٩هـ) قامت وزارة الأوقاف بإزالة الزاوية الصغيرة، وتشييد المسجد الحديث الذي يعد تحفة فنية من تحف الإنشاء المعماري الحديث.

فمدخله المطل على شارع رأس التين في الجهة الشرقية منه يقوم على عمودين من البناء فوقها قنطرتان تزينهما النقوش البارزة، ولهذا المدخل درجتان من المزايكو وترتفع فوقه المئذنة شاهقة بشكلها الهندسي البديع، وبشرفاتها المخصصة للأذان، وتنتهي مديدة ذات كرة، يخرج منها الهلال النحاسي.

أما داخل المسجد فحدِّث عن بهائه وزخارفه ولا حرج، فعلى يمين الداخل حجرة صغيرة للإمام وبها مطلع المئذنة، ويقوم إيوان المسجد الأوسط فوق ١٢ عمودًا من الرخام الثمين المعرج بالخطوط العريضة السوداء متقاطعة في شكل مربعات، وقواعدها مربعة، أما هي فمثمنة لها تيجان زخرفية فوقها عقود من البناء الزخرفي.

وتشتمل قبة الصحن على عدد كبير من الزخارف الملونة البديعة وكذلك أسقف الرواقات، وبهذه القبة الفنية ١٦ نافذة بالزجاج الملون، وشكل المسجد الكلي مربع تقريبًا، وفي الركنين الشرقي والغربي من الضلع الجنوبي قبتان صغيرتان تتخللهما فراغات زجاجية ملونة، وفي الركن الغربي على يمين المحراب والمنبر ضريح «الشيخ علي تمراز»، يحيط به سياج من الحديد المشبك الجميل الصنع، ويقع الضريح تحت إحدى القبتين.

والمنبر من الخشب الثمين المصنوع على الطراز العربي (الأرابيسك)، والمحراب مزين بالنقوش الزاهية البديعة، وبعاليه كتب بالخط الثلث الذهبي البارز الآية القرآنية الكريمة من سورة آل عمران: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾.

وعلى يمين المحراب ويساره آيتان من سورة الحج هما: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾، والآيتان بالخط الثلث البارز المذهب فوق شريط عريض باللون الأخضر الزاهي.

وخلف أعمدة إيوان المسجد الوسط رواق يجده الداخل من الباب الرئيسي، ويحمل هذا الرواق عمودان مزدوجان في شكل بهيج، وعمودان منفردان، وخلف الإيوان من الضلع الغربي للمسجد رواق آخر يقوم على ستة أعمدة في صف واحد، وكل هذه الأعمدة من الرخام المعرج بالخطوط العريضة السوداء، وتتدلى من قبة الإيوان الوسطى الفخمة ثريا وسط طوق دائري كبير به عدد من المصابيح الكهربية على هيئة القناديل.

والميضأة ودورة المياه في الضلع الشمال من مربع المسجد بهما باب خلفي للدخول إليهما أو الخروج منهما بعد الصلاة.

وعلى العموم فمسجد سيدي تمراز من أبهى مساجد الإسكندرية الحديثة التي تُعَدّ من آيات الفن الهندسي البديع الرونق والتنسيق، وفي تقديري أن تشييده كلّف وزارة الأوقاف ما لا يقل عن مائة ألف من الجنيهات، في حين أن مصر في حاجة ماسة إلى المدارس والمستشفيات والجامعات والمباني العامة النافعة، وكان من اليسير بناء مساجد بسيطة كملحقات لهذه المباني تمشيًا وروح الإسلام الذي لا يقر الإسراف ويدعو إلى التوسط في كل الشؤون، ولاسيما أن مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام كان في منتهى البساطة من حيث التكاليف.

٧٣٤ – سيدي جابر – شارع – بقسم سيدي جابر

يقوم الخلاف بين كتّاب السير على تحديد شخصية سيدي جابر الذي أطلق اسمه على هذا الشارع وعلى المسجد الذي جددته وزارة الأوقاف حديثًا، فمن قائل إنه جابر بن عبد الله الأنصاري الذي يتصل نسبه بأسرة ناصرت رسول الله عليه الصلاة والسلام لدى هجرته إلى المدينة «يثرب»، ومن قائل إنه جابر الأنصاري الخزرجي الملقب بأبي إسحق.

ولكن لم يرد في كتب التاريخ المأثور الذي يعتمد عليه أن أحد هذين الجابرين قد وفدَ على الإسكندرية، وتوفي بها بعد أن ظل مقصد العلماء والفقراء، وأنه ألّف كتابًا في المنطق، والبيان، وعلم الكلام، وأن مؤلفاته لم تتعد المسودات، ومن ثَمّ لم تخرج إلى حيز الوجود عن طريق المطابع أو النسخ وأنه توفي في منتصف شهر رمضان عام ٧٧٩هـ (١٣٧٧م)، ودفن في مقبرة الشاطبي البعيد جدًّا عن الضريح الذي يعزى إليه حاليًّا.

أما الدلائل التي يستطاع الركون إلى قوتها في اطمئنان، فتشير إلى أن «سيدي جابر» ما هو إلا «أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني الأندلسي» الملقب بابن جبير (انظر مادة ابن جبير) الذي وافته المنية عام ٦١٤هـ (١٢١٧م)، ودفن بالإسكندرية بعد أن قام برحلاته الكثيرة، وألف كتابًا عن هذه الرحلات يعد من أهم المصادر التاريخية، ولاسيما بالنسبة إلى تاريخ جزيرة صقلية (انظر مادة صقلية).

ولعل القول بأن جابر الأنصاري قد حلَّ بالإسكندرية يرجع إلى ما ذكره أبو المحاسن بن تغري بردي (انظر مادة أبو المحاسن) في كتابه عمن روى عن جابر الأنصاري صاحب عمرو أنه قال: «وصحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلاً أبين منه، ولا أنصع ظرفًا، ولا أكرم جليسًا، ولا أشبه بعلانية منه»، ولكن أبو المحاسن لم يذكر كنية جابر هذا أو ألقابه أو أين قال هذه العبارات عن عمرو بن العاص أو من أين أتى.



محطة قطار سيدي جابر

ولما عجز الرواة عن إثبات حضور جابر الأنصاري بن عبد الله إلى الإسكندرية، قالوا إنه جابر الأنصاري الخزرجي الجزي أبو إسحق، وتعللوا بأن مؤلفاته لم تنشر لرداءة خطه، على حين أنه في رأيهم كان مقصد علماء وفقهاء الإسكندرية وبهذه الصفة العلمية كان من السهل عليه أن يكلف بعض مريديه بنسخها في حياته، فلا تكون رداءة خطه حائلاً دون ذلك.

ومن الغريب أن هؤلاء الرواة يعطون لمؤلفات سيدي جابر عنوانات للدلالة على وجودها في نسيج خيالهم الخصب، وهي: «المنهج المغرب في الردّ على المُعْرِب»، و«الإغراب في ضبط عوامل الإعراب»، و«تقصي الواجب في الرد على ابن الحاجب» (انظر مادة ابن الحاجب)، و«إيجاز البرهان في مجاز القرآن»!! فهل من الجائز التسليم في سهولة بأن جميع هذه الكتب لم تجد سبيلها إلى النسخ، أو النشر، أو يعثر على مخطوطات منها؟

ومن أقوال هؤلاء الرواة التي تستحق الدهشة أن الشيخ سيدي جابر كان جليل القدر، واسع العلم، ولكنه ضئيل الذكر، وهذا لا يتفق مع قولهم أنه كان مقصد علماء وفقهاء الإسكندرية .

ومن جهة أخرى ينسبون إليه المعرفة بفنون الشعر، ويذكرون من نظمه هذين البيتين:

في الناسِ مَنْ لا يُرتَجَى نَفْعُهُ

إلا إذا مُسَّ بأضْرارِ

كالعُودِ لا يُطمعُ في طيبهِ

إلا إذا أُحْرِقَ بالنَّارِ

وهذا المعنى مقتبس من قول أحد الشعراء في حق سفيه أساء إليه فقال:

يزيدُ سفاهةً وأزيد حِلْمًا

كعودٍ زادَهُ الإحراقُ طيبَا

ويدّعون أنه ولد في حوالي عام ٦٠٠هـ (١٢٠٣م) بعد أن حددوا تاريخ وفاته بالإسكندرية خلال النصف من شهر رمضان عام ٧٧٩هـ (١٣٧٧م)، ومن ثم يكون قد عاش ١٧٩ عامًا، وهو عمر لم يبلغه أحد من الناس في أي عصر من العصور إلا من ذكرهم القرآن الكريم ويُعَدّون من المعجزات الإلهية.

وقد أثبت شيخ العروبة «أحمد زكي باشا» (انظر هذه المادة) بالأدلة القاطعة أن أحدًا ممن يحملون اسم جابر من صحابة رسول الله لم يحضر إلى الإسكندرية وهم ٢٥، منهم عشرة من الأنصار، ولم يدفن منهم أحد بالقطر المصري، وأهدى الشيخ طاهر الجزائري (انظر هذه المادة) إلى أحمد زكي باشا ورقة بخط المؤرخ القديم ابن العَديّ الحلبي، جاء فيها أن الرحالة ابن جبير الأندلسي كان قائمًا بالتدريس في مكان مسجد سيدي جابر الحالي، ومن ثم يؤكد شيخ العروبة أن المدفون في هذا المسجد هو ابن جبير نفسه.

ويذهب بعض الرواة إلى أن سيدي جابر هو «جابر بن إسحق بن إبراهيم الأنصاري» الذي نشأ بالأندلس ثم استقر بالإسكندرية وبنى له زاوية بضاحية الرمل، ظل بها إلى أن

توفي عام ٦٩٧هـ (١٢٩٧م) ولكن هذا القول يحتاج إلى إثبات تاريخي يطمئن إليه، ولاسيما أن علي باشا مبارك ذكر في كتابه «الخطط التوفيقية» (الجزء السابع) أن هذا المسجد قديم بجوار سراي الرمل، ويقال له مسجد سيدي جابر الأنصاري، ولم يتناول التجديد في هذا المسجد سوى القبة، وقول علي باشا مبارك أنه يقال للمسجد مسجد سيدي جابر الأنصاري يدل على الاحتمال وليس التأكيد بأن المدفون في حيزه هو جابر الأنصاري أحد صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام، ويلاحظ أن ما ذكره علي باشا مبارك كان في عام ١٣٠٥هـ (١٨٨٧م) أي وقت طبع كتابه «الخطط التوفيقية».

وقد أزيل المسجد القديم كليًّا خلال عام ١٩٥٥م (١٣٧٥هـ)، وشيدت وزارة الأوقاف مكانه المسجد الحالي الحسن الرونق، ويتكون من صحن مربع يتوسطه صحن أصغر مغطى، تحيط به الأروقة من جميع جهاته، وهي رواقان في جهة المحراب، ورواق واحد في الجهات الثلاث الأخرى، وفوق الرواق من الجهة الشمالية طبقة ثانية عبارة عن شرفة (أو صندرة) مخصصة للسيدات.

ويغطي الصحن المربع سقف مرتفع عن الأجزاء الأخرى من سقف المسجد، وفتح في هذا الارتفاع نوافذ للإضاءة، وللمسجد ثلاثة أبواب أحدها في الجنوب، ويؤدي إلى داخل المسجد وإلى ضريح «سيدي جابر»، والثاني في الشمال، والثالث يؤدي إلى دورة المياه وفيها الميضأة.

والضريح في حجرة مربعة تعلوها رقبة مثمنة تقوم على مقرْنصات، ويعلو الرقبة قبة المسجد، ويقوم الصحن ذو السقف المرتفع فوق ثمانية أعمدة من الرخام أجزاؤها العلوية ذات تيجان، وفوق كل منها مشيدات تكوِّن بوائك ذات عقود قوسية، وتتدلى من السقف ثريا كبيرة ذات مصابيح كثيرة.

والمحراب مزين بالرسوم الزخرفية والمنبر جميل الصنع من الخشب الثمين، والمئذنة تقوم بجانب المدخل الرئيسي الشامخ، وهي مربعة الشكل فوقها شرفة تقوم مربعة أيضًا على أعمدة رفيعة من الخرسانة المسلحة، ويعلوها سقف شيدت فوقه حلية تنتهي بكرة يبرز منها الهلال النحاسي.

ومدخل المسجد له درجات ونوافذ كثيرة مستطيلة، فوقها نوافذ على الطراز العربي.

ولسيدي جابر (أو ابن جبير على الأصح) مولد سنوي يستمر ثمانية أيام، وكان هذا المولد في فجر القرن العشرين الحالي مجالاً لاقتراف المعاصي طوال أسبوعه، فكانت الأكواخ المشيدة من الغاب والسعف تمتد في سياقها على طول الطريق في المسافة الواقعة بين المسجد القديم، ومحطة السكة الحديد في مكانها الحالي، ومن بين المباذل التي كانت ترتكب في غير حياء، رقص الغوازي، وتدخين الحشيش، وكثير من الموبقات الفاحشة.

وعلاوة على (غلقان) الحمص واللّب والسوداني، وعين الغفير التي تحمل بركة وليّ الله جابر إلى منازل رواد المولد، كان معظم هؤلاء الرواد يتزودون بسلات التين المفروشة القاع بورق شجر التين الشهي الطعم، إذ إن معظم أراضي هذه الجهة كانت تموج بشجر التين المشهور، ولم يبق من هذه الأشجار

شيئًا في الوقت الحاضر بعد أن أقيمت في منابتها العمارات السكنية، فتغير منظر المنطقة بأسرها تغيرًا تامًّا.

٧٣٥ - سيدي الزُّهْري - حارة - بقسم اللبان

ما من شك في أن سيدي الزُهْري هذا ما هو إلا أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله ابن الحرث بن زهرة القرشي الزهري، أحد الفقهاء والمحدثين والأعلام التابعين بالمدينة، وقد رأى عشرة من صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام، وأن الضريح الذي يعزى لهذا الفقيه التابعي أقيم تبركًا به على غرار الكثير من الأضرحة التي تحمل أسماء كبار الصوفيين والتابعين وبعض الصحابة أمثال سيدي عبد القادر الكيلاني، وسيدي أبو الدرداء، وسيدي جابر الأنصاري، والمقدسي، وإمام الحرمين (الجويني) وكل هؤلاء لم يدفنوا في الإسكندرية، وإنما أقيمت لهم أضرحة للتبرك بذكراهم وتخليد هذه الذكرى، وإقامة الموالد لكل منهم مرة في السنة بغية المكسب من رواج بيع الحلوى والحمص والسوداني، وما إلى ذلك.

وتعميمًا للفائدة التاريخية أدوِّن فيما يلي ترجمة الفقيه التابعي الزُهْري، فقد رأى عشرة من الصحابة كما تقدم القول وروى عنه جماعة من الأئمة منهم مالك بن أنس (انظر مادة الإمام مالك) وسفيان بن عيينة وسفيان الثوري، ورُوِي عن عمرو بن دينار أنه قال: أي شيء عن الزهري؟ أنا لقيت عمر ابن الخطاب وهو لم يلقه، وأنا لقيت ابن عباس ولم يلقه، فلما قدم الزهري مكة قال عمرو بن دينار: احملوني إليه، وكان قد عجز عن السير، فحمل إليه ولم يرجع إلى أصحابه إلا ليلاً فقالوا كيف رأيته؟ قال: والله ما رأيت مثل هذا القرشي قط في العلم والفقه، وقيل لمكحول: من أعلم من رأيت؟ قال: ابن شهاب الزهري، فقيل له ثم من؟ قال ابن شهاب وكرر ذلك مرة ثالثة.

وقد حفظ الزهري علم الفقهاء السبعة، وهم فقهاء المدينة المشهورون، ومن ثم كتب عمر بن عبد العزيز في أثناء خلافته العادلة، كتب إلى الآفاق قائلاً: عليكم بابن شهاب الزهري، فإنكم لا تجدون أحدًا أعلم بالسنّة الماضية منه.

وحضر الزهري يومًا مجلس هشام بن عبد الملك، وعنده أبو الزناد عبد الله بن زكوان (انظر مادة ابن زكوان) فسأله هشام أي شهر كان يخرج العطاء فيه لأهل المدينة فقال الزهري: لا أدري، فسأل ابن زكوان فقال في المحرم، فقال هشام للزهري: يا أبا بكر هذا علم استفدته اليوم، فرد الزهري يقول: إن مجلس أمير المؤمنين أهل أن يستفاد منه العلم فرضي هشام عن هذا الجواب الحصيف.

وقد أخذ الزهري العلم عن عبد الرحمن بن هرمز (انظر مادة سيد بن عبد الرحمن)، وزيد بن ثابت (انظر مادة ابن ثابت)، وعروة بن الزبير بن العوام، وحفظ فقه علماء المدينة، وحديثهم، وكان من أسبق العلماء إلى تدوين العلم، واتصل بكثير من خلفاء بني أمية، وكان موضع احترامهم، كعبد الملك ابن مروان وهشام واستقضاه يزيد بن عبد الملك، وتوفي في رمضان عام ١٢٥هـ (٧٤٣م).

وليس من المحقق أنه توفي بالإسكندرية، والأغلب هو أن الضريح الذي أطلق عليه اسم سيدي الزهري أقيم للتبرك بهذا العالم الجليل.

٧٣٦- سيدي الصوري - شارع - بقسم العطارين

لقب الصوري ترجع نسبته إلى مدينة صور الواقعة على البحر الأبيض المتوسط بمحافظة الجنوب بالجمهورية اللبنانية، وكانت في الزمن القديم من عواصم الفينيقيين، ويرقى تاريخ تأسيسها إلى الألف الثالث قبل الميلاد، وكان بينها وبين قدماء المصريين صلات تجارية وثيقة.

وسيدي الصوري هو تاج الدين أبو الحسن علي بن فاضل ابن سعد الله، الصوري الأصل، المصري الدار، وقد نزح والده إلى الإسكندرية من دمشق وتوفي بها عام ٥٦٨هـ (١١٧٢م)، فكفل تاج الدين أبا الحسن عليًّا جدّه والد أمه أبو الفرج الأرمنازي الذي نزح هو الآخر إلى الإسكندرية، صحبة ابنته «أم علي تقية الأرمنازي» التي اشتهرت «بست النعم»، وكانت من فضليات سيدات الإسكندرية ولها شعر جيد وقصائد، وتقاطيع حلوة الأسلوب والخيال، وقد صحبت العالم المشهور الحافظ السلفي (انظر مادتي ست النعم والسلفي) عندما استقر بالإسكندرية، وكانت ولادتها في عام ٥٠٥هـ (١١١١م) بدمشق، وتوفيت بالإسكندرية عام ٥٧٩هـ (١١٨٣م) بعد أن رزقت بولدها تاج الدين أبي الحسن علي الصوري.

ويقول ابن خلِّكان في كتابه «وفيات الأعيان»: إن تاج الدين الصوري كان فاضلاً في النحو والقراءات، وكان حسن الخط والضبط لما يكتبه، وقد توفي بالإسكندرية في ١٥ من شهر صفر عام ٦٠٣هـ (١٢٠٦م) بعد أن بلغ من العمر سنًّا عالية.

ويقول الشعراني إن الصوري كان صوفيًّا وَرِعًا، وكان يقول: إن أعمال الصادقين بالقلوب، وأعمال المرائين بالجوارح.

وما من شك في أن علمه وصوفيته التقية الورعة جعلت منه أحد أولياء الإسكندرية الصالحين، ولا سيما أن أمه «ست النعم» كانت من أصدق المتعبدات، وقد مدحت العالم السلفي بقصائد صوفية بارعة استحقت منه الثناء على علمها وتدينها.

ولسيدي الصوري مسجد في الشارع الموازي للشارع الذي يحمل اسمه بقسم العطارين، ويقع هذا المسجد على ناصية ذلك الشارع، وشارع شريف (الخديوي الأول سابقًا) وهو مسجد من الطبقة الثالثة التابعة لوزارة الأوقاف، ويقول علي باشا مبارك في الجزء السابع من كتابه (الخطط التوفيقية): «إن هذا المسجد كان أولاً ضريحًا، عليه مقصورة من خشب، فبناه الميري مسجدًا مع بناء سور الاستحكامات، والضريح داخله، وله حضرة كل ليلة سبت، ويصرف عليه من الأوقاف».

ومن هذه النبذة التاريخية، يستبين أن المسجد كان ضريحًا يُزار، ثم أقامت الحكومة عليه المسجد الحالي عندما شيدت بعض الاستحكامات في هذه الجهة التي ضمت بعد ذلك فناء محطة مصر القديمة التي كانت تشغل ميدان المحطة (ميدان الجمهورية حاليًّا)، ومبنى سنترال التليفونات، ومستشفى أحمد ماهر، ومحطة مصر الجديدة، وكانت تضم ربوة كوم الدكة التي أزيلت وظهر تحتها المسرح اليوناني المكشوف، وبُنِي فوق أرضها مبنى سلاح الإشارة عند ناصية شارع النبي دانيال سور الاستحكامات الذي يذكره علي باشا

مبارك في كتابه الخطط الذي طبع عام ١٣٠٥هـ (١٨٨٧م)، فهو السور الذي كان يتخلله: باب سدرة عند مسجد العِمَري، وباب عمر باشا عند بداية شارع راغب باشا، والباب الجديد عند بداية شارع محرم بك. ومسجد سيدي الصوري الحالي مستطيل الشكل يطل مدخله على الجهة الغربية منه، ولابد أنه جُدِّد حديثًا، إذ تبدو مبانيه وكأنها من الأسمنت المسلح، يقوم سقفه على ستة أعمدة مربعة الشكل في صفين، وفوق أربعة منها منور له ١٢ نافذة مربعة للتهوية، وعلى يمين الداخل إلى صحن المسجد، المنبر المصنوع من الخشب العادي، تليه القبلة، تزينها زخارف ذات طابع عربي، وقواعد الأعمدة، وكذلك أسفل الحوائط، كل ذلك مدهون باللون الأزرق القاتم في مربعات على شكل الرخام الملون.

وعلى يسار الداخل في ضلع صحن المسجد الغربي والشمالي ضريح كتب على غطائه الأخضر «مقام سيدي محمد الصوري»، وهذا يدل على الخطأ البيِّن في اسم وليّ الله الصوري وهو تاج الدين، ولكن هذا الخطأ نجده في معظم أسماء أولياء الله بالإسكندرية، إذ يُضْفَى على كل منهم اسم «محمد» تبركًا برسول الله عليه الصلاة والسلام.

ويعلو حجرة الضريح قبة جوفها مزين بالزخارف العربية تتدلى من وسطها ثريا متوسطة الحجم، وللمسجد خمسة نوافذ خشبية عادية، وله شرفة (سندرة) صغيرة فوق دورة المياه لا تستخدم منذ زمن بعيد.

أرى من أمانة البحث التاريخي ذكر شاعر مجيد يحمل لقب الصوري – هو عبد المحسن بن محمد من أهل صور – وكان شاعرًا بارعًا في الوصف، وكانت وفاته خلال عام ٤١٩هـ (١٠٢٨م)، وقد قال في وصف جميل رآه يسبح في ماء!:

رأيتُ ما لم يَرَهُ راءِ
ماءً غَدَا يسبحُ في ماءِ

أوْمأْتُ باللحظِ إلى جِسمهِ
فكادَ أنْ يُدْميهِ إيمائي

وقال يهجو رجلاً بخيلاً نزل عليه ضيفًا:

وأخٍ مَسَّهُ نُزولي بِقَرْحٍ
مِثلما مسَّنى من الجوعِ قَرْحُ

قيل لي: إنَّه جَوادٌ كريمٌ
والفتى يعْتريه، بُخلٌ وشُحُّ

بِتُّ ضَيْفًا له كما حَكَمَ الدهْـ
ـرُ، وفي حكمه على الحرِّ قُبْحُ

قال لي إذ نزلْتُ، وهو من السّكْـ
ـرةِ، والهَمِّ طافحٌ ليس يصحو!

لِم تَغَرَّبْتَ؟ قلتُ: قال رسولُ اللَّـ
ـهِ، والقولُ منه نُصْحُ ونُجُح!

سافِرُوا تغنَمُوا فقال: وقد قا
ل تمامَ الحديث: صوموا تصحوا

٧٣٧ – سيدي الطُّرطوشي – حارة – بقسم الجمرك

هو ابن أبي رنْدقة الطُّرطوشي، واسمه الكامل أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف سليمان بن أيوب النهري، ويعرف بالطُّرطوشي وابن أبي رَنْدَقة أو رُندُقة، وكان أحد أئمة الفقه والحديث، إذ كان حجة فيهما، وقد ولد هذا العالم الجليل في مدينة طُرْطوشة وإليها ينسب، وجاء في وصف ياقوت الحموي لهذه المدينة أنها عظيمة ومن أكبر مدن الأندلس، وتقوم على سفح جبل إلى الشرق من مدينتي بلنسية وقرطبة، وعلى مسافة عشرين ميلاً من البحر، في الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة الإسبانية، وكان مولده خلال عام ٤٥١هـ (١٠٥٩ – ١٠٦٠م).

ولم تذكر المراجع التي دوَّنت سيرته شيئًا عن أسرة أبيه، أما عن أسرة والدته فقد ذكر هو في كتابه «سراج الملوك» قصة خالٍ له فقال: إن شقيق والدته من مدينة «سَرْقَسطة» وإن أسرة والدته من هذه المدينة، وكان أفرادها من رجال الحرب المبرَّزين، ويسرد الطُّرطوشي قصة خالِه – أبي الوليد ابن فتحون – فيقول إنه كان فارسًا من أشجع فرسان العرب والعجم، وكان السلطان الأندلسي «المستعين» يُجري عليه في كل عطية خمسمائة دينار، ولجأ إلى شجاعته وإقدامه في حروبه ضد الإفرنج.

واسم والده الوليد، ولكن المراجع تذكر أن ابنه أبا بكر يعرف بابن أبي رَنْدَقة، وتقول هذه المراجع إن لفظة «رَنْدَقة» إفرنجية، وهذا يحمل على الظن بأن أباه ينحدر من أصلٍ إسباني مسيحي، غير أن سلسلة نسبه تقطع بأنه عربي قريشي فهري الأصل.

وفي مدينة طُرطوشة نشأ عالمنا الجليل، وفي مسجدها الجامع تلقَّى علومه الأولى، ثُمَّ رحل إلى سَرْقَسطة مَوْطن أسرة والدته، واتصل بكبير علمائها في ذلك الحين، القاضي أبي الوليد الباجي (انظر مادة الباجي) الذي تولى زعامة العلم بعد وفاة وصيفه ومنافسه ابن حزم (انظر هذه المادة)، ويظهر أن الطُّرطوشي بدأ يتتلمذ على يد الشيخ الباجي وهو في سن العشرين أي حوالي عام ٤٧٠هـ (١٠٧٧م)، وتُجمع المراجع على أن الطُّرطوشي تعلَّم فرائض الدين والحساب في مسقط «طرطوشة»، ولكنها لم تذكر شيئًا عن شيوخه في هذه المرحلة من مراحل تعلمه.

وليس في سيرته ما يدل على الحرفة، أو الصناعة التي زاولها في صباه، وهو نفسه يقول في كتابه «سراج الملوك» إنه لم يكن يعرف التجارة ولم تكن له حرفة يرجع إليها عندما همَّ بالرحيل إلى المشرق في طلب العلم، ويُسْتَنتج من هذا القول أن والده كان من المشتغلين بالعلم، وأنه وجَّه ابنه الوجهة التي يرضاها، وأنه كان على شيء من الثراء مما كَفَل لابنه العيش في أثناء تعليمه بطرطوشة ثم بسرقسطة، وإلى أن بلغ الخامسة والعشرين من عمره، ويدل على هذا الثراء – من جهة أخرى – أن فقيهنا خرج من الأندلس قاصدًا المشرق مزودًا بنفقة وافرة، كما ذكر في كتابه الآنف الذكر.

وما من شك في أن الطُّرطوشي تأثر بِرُصفائه من الأندلسيين والمغاربة الذين شدُّوا الرحال إلى المشرق للاستزادة من العلم والمعرفة وهم كثيرو العدد، وأراد أنه يحذو حَذْوَ

أستاذه «الباجي» الذي أدى فريضة الحج، ومكث في مكة ثلاث سنوات، وزار مدن الشرق الكبرى، واتصل بعلمائه وأعلامه وأخذ عنهم وأخذوا عنه، ثم رجع إلى وطنه بعد ثلاثة عشر عامًا، حصل خلالها على العلم الغزير، والتجارب الناضجة، والقدرة على الجدل والمناقشة، وأثار في محافل العلم الأندلسية اهتمامًا كبيرًا.

وليس من الغريب أن يدفع الشوق الطُّرطوشي إلى الرحيل إلى الشرق ثم اتخاذ الإسكندرية موطنًا له في آخر المطاف وأن يقيم في أرجائها مدرسته التي ظل نورها يسطع زمنًا طويلاً، فالإسكندرية في ذلك الوقت كانت رِباطًا كبيرًا وثغرًا إسلاميًّا مرموقًا، وكانت المحط الأول لرحلة مسلمي المغرب والأندلس لينهلوا من علوم المشرق ومعارفه، وبعد عودتهم من الحج وزيارة المدن العلمية الكبرى يقصدون الإسكندرية في طريق العودة إلى أوطانهم، وكان بعضهم – ولاسيما العلماء وطلاب العلم – يؤثرون الإقامة الدائمة بها ليستزيدوا من علمٍ يطلبونه، أو لينشروا علمًا حصَّلوه.

وزادت صلة الإسكندرية بأهل المغرب تَوَثُّقًا منذ قيام الدولة الفاطمية بمصر، واتخاذ الفاطميين القاهرة مقرًّا لخلافتهم، فقد جاؤوا بجيوشهم المغربية وصارت البلاد المغربية ولاية تابعة لمصر الفاطمية، ومن ثم كثرت رحلات المغاربة والأندلسيين إلى مصر، وإلى الإسكندرية بوجه خاص، وعلى الرغم من مذهب الدولة الفاطمية الشيعي، وعلى الرغم من الجهود التي بذلت لنشر هذا المذهب ظلت الإسكندرية سنيَّة تسير على المذهب المالكيِّ المنتشر في البلاد المغربية حتى الآن، ومن كبار علماء المغرب المالكيين الذين استقروا بالإسكندرية بعد رحلتهم إلى المشرق فقيهنا «ابن أبي رُنْدُقة الطُّرطوشي».

ففي عام ٤٧٦هـ (١٠٨٣– ١٠٨٤م) غادر الطُّرطوشي الأندلس، وهو في الخامسة والعشرين من العمر ليبدأ رحلته إلى المشرق، فذهب إلى مكة حيث أدى فريضة الحج، وأقام بعض الوقت يلقي الدروس، ثم سافر إلى بغداد التي كانت في ذلك الحين من أكبر مراكز العلم في العالم الإسلامي، فاتصل بعلمائها المبرَّزين وتتلمذ عليهم وأخذ عنهم، وكان يتولى شؤون الشرق في ذلك الوقت نظام الملك (انظر هذه المادة) وزير الملكين السلجوقيين: ألب أرسلان وملكشاه (انظر مادة ملكشاه)، وكان نظام الملك عالمًا يحب العلم، ويقدر أهله ويقربهم إليه ويرعاهم ويمنحهم جزيل العطاء، وقد امتدح الطُّرطوشي سياسة هذا الوزير العلمية، وأشاد بجهوده الموفقة في هذا السبيل، ودوَّن كل ذلك في كتابه «سراج الملوك»، ويُذْكر لهذا الوزير بالثناء والتقدير أنه منشئ المدارس في العالم الإسلامي، بعد أن كانت المساجد إلى عصره هي معاهد العلم، تُعْقد فيها حلقاته ودروسه.

فقد شيد معاهد شتى للتدريس وأوقف الكثير من المالية للإنفاق الدائم عليها، وأطلق عليها اسم «المدارس» وحملت كل منها اسمه فكانت تسمى «النظامية»، وكانت أكبرها وأشهرها مدرسة بغداد التي تتلمذ بها الطُّرطوشي على يد علمائها من كبار الفقهاء والمفكرين، وعلى رأسهم أبو حامد الغزالي (انظر مادة الغزالي) وأبو إسحق الشيرازي، وفي أثناء دراسته ببغداد حفظ الكثير من الشعر الصوفي الذي سمعه من الجرجاني (انظر هذه المادة) وأبي محمد التميمي وغيرهما، وهو يهدف إلى الزهد والتقشف وعبادة الله والمداومة على ذكره، وقد رواه عن هؤلاء العلماء الزاهدين في كتابه «سراج الملوك»، ومن أمثلة هذا اللون من الشعر الصوفي هذه الأبيات:

بالله رَبِّك كم قصرٍ مررت به
قد كان يعمر باللّذات والطَّرَب

طارت عُقاب المنايا في جوانبه
فصاح من بعده بالوَيْلِ والحَرَبِ

وقول الشاعر:

أيّها الرافع البناء رُوَيْدًا
لن تذود المَنونَ عَنْكَ المباني

إن هذا البناء يَبْقى وتفْنَى
كل شيء أبقَى من الإنسان

وسمع الطُّرطوشي من بعض علماء العراق فلسفة التناسخ، وفلسفة انبثاق الحي من الميِّت، وانبثاق الميت من الحيِّ، ولعله سمع بشعر عمر الخيام في هذا المعنى، إذ كان من معاصريه، ومن ثَمّ كوّن فلسفته الخاصة في الحياة، والتي تقوم على الزهد والعُزوف عن اللذات، والشهوات، والجَرْأة على كل عظيم في سبيل إحقاق الحق والعدل، وفي سبيل تدعيم أوامر الله، ولعقيدته السنية الراسخة لم يتأثر بما سمع من فلسفة التناسخ المنحرفة.

ومن بغداد ذهب الطُّرطوشي إلى البصرة، حيث تتلمذ على يد أبي التَّسْتَري، ومن هناك ذهب إلى الشام بعد أن قضى بالعراق المدة الواقعة بين عامي ٤٧٨ و ٤٨٠هـ (١٠٨٥ – ١٠٨٧م) أي قُرابة عامين، وقد بلغ الثلاثين من العمر، وبلغ من النضج الفكري، وأصالة الرأي، والعلم، ما يؤهله للتدريس ونفع الناس بعلمه، وفي هذه المرحلة من حياته العلمية اتسمت أخلاقه بما جعله يُوصَف عن جدارة بأنه كان الزاهد العالم، وقد قال الكثير من أجلة الصالحين «إن الذي عند أبي بكر الطُّرطوشي من العلم هو الذي عند الناس والذي عنده مما ليس عند غيره هو دينه».

وتُجمع المراجع على أنه قضى الفترة التي قضاها في الشام يعلِّم الناس فأقبلوا عليه، وأحبوه، وأفادوا من علمه، فعلا قدره، وذاع صيته، وقد عاش هناك متقشفًا عابدًا زاهدًا، إذا أكل ففي شقفٍ من الفَخَّار منصرفًا عن أهل الحكم والسلطان، رافضًا برَّهُم، مشتدًّا عليهم في القول، وإسداء النصح.

وقال عنه ابن فرحون: «إنه عاش بالشام مدرسًا فأخذ الناس عنه العلم الغزير، وكان بينهم الإمام العالم الزاهد الوَرِع الديِّن المتواضع المتقشف، القانع من الدنيا باليسير، وقدم تقدم الفقه مذهبًا وخلقًا، وكان أبي النفس مجانبًا للسلطان، معرضًا عنه وعن أصحابه، شديدًا عليهم، وكان يقول: «إذا عرض لك أمران، أمر دنيا وآخرة فبادر بأمر الآخرة يحصل لك أمر الدنيا والآخرة».

وقد أثارت صراحته والتزامه قول الحق وإباء نفسه ضغينة بعض الحاسدين من أهل بيت المقدس، فسعوا به لدى حاكمها ولم يستطيعوا النيل منه، واستدعاه هذا الحاكم فرفض الذهاب إليه.

ويظهر أنه زار – بعد بيت المقدس – دمشق حيث أقام بعض الوقت ثم طوَّف في معظم مدن الشام وذهب إلى الشمال، فزار حلب، ثم أنطاكية، وكان ذلك خلال عام ٤٩٠هـ (١٠٩٦م)، ومن ثم يكون قد بلغ من العمر الأربعين

بعد أن قطع في الشام فترة تقرب من العشر سنوات قضاه في تحصيل العلم والتدريس.

ووفد على الإسكندرية وهي قريبة التخلص من محنة قاصمة، فقد كانت شؤون الدولة الفاطمية الوشيكة الانهيار في قبضة يد الوزير المفوض الأفضل شاهنشاه (انظر مادة الأفضل) الذي تولى الوزارة في عهد الخليفتين الفاطميين «أبي تميم معد المستنصر بالله» و«أبي القاسم أحمد المستعلي بالله».

فبعد وفاة المستنصر بالله قام النـزاع على الخلافة، فقال ابنه الأكبر «نزار»: إن الخلافة من حقه، ولكن الوزير المفوض «الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي» (انظر هذه المادة) قال: إنها لابنه الأصغر أبي القاسم أحمد الذي لقب «بالمستعلي بالله» وكان طفلاً صغيرًا، فتم للأفضل السيطرة الكاملة على الحكم، وقد وقعت هذه الأحداث عقب موت المستنصر عام ٤٨٧هـ (١٠٩٤م).

وفي تلك السنة نفسها فرّ «نزار بن المستنصر» مع أتباعه إلى الإسكندرية، ونادى بنفسه خليفة فيها، ولكن الوزير الأفضل شاهنشاه تبعه، واستطاع التغلب عليه، ثم قتله هو وأتباعه، وكان «نزار» رجلاً كامل النضوج عند موت أبيه، ولم تكن العلاقة بينه وبين الأفضل طيبةً في أثناء حياة المستنصر بالله، إذ كان يشوبها الكرْه المتبادل، ومن ثم عمل الوزير على إقصائه ليخلو له الجو، ويستمر على تمتعه بالسلطان، والسيطرة على شؤون الدولة.

وقد أصاب الإسكندرية من هذا النـزاع ومن حصارها بسبب انضمام أهلها وأعيانها إلى «نزار» ومناصرته كثير من التخريب، علاوة على أن الأفضل أسرف في الانتقام من أهلها لدرجة أنه أمر بقتل عدد كبير من علمائها، فتعطلت الشعائر الدينية، ولم تقم صلاة الجمعة في مساجدها، ومن ثم وجد الطُّرطوشي لدى وصوله إليها أنها خالية من تضاريس العلم فأخذ في بثه بين سكانها، على الرغم من التعب الشديد الذي كان سائدًا في جميع أنحائها، فلم يعبأ بالاضطهاد الذي يلاقيه العلماء بسبب اتباعهم للمذهب المالكي وابتعادهم عن المذهب الشيعي مذهب الدولة الرسمي، ولم يَهَب السلطات في مصر فبدأ يدرّس، وينشر العلم على المذهب المالكي قائلاً: «إن سألني الله تعالى عن المقام بالإسكندرية قلت له: وجدت قومًا ضالِّين فكنت سبب هدايتهم».

وذاع صيته سريعًا فأقبل الناس على حلقات دروسه طلابًا وعلماء، وبعد قليل تزوج من سيدة مُوسِرة من سيدات الإسكندرية أطلقت يده في أموالها ووهبته دارًا من أملاكها، اتخذ من طبقتها العليا مسكنًا، ومن طبقتها السفلى مدرسة لنشر التعليم، والتمسك بالمذهب السنِّي المالكي، وكانت هذه السيدة إحدى خالات أبي الطاهر ابن عوف بن مكي، صاحب المدرسة الشهيرة بالإسكندرية، وأحد أفراد أسرة الفقهاء العتيدة، وكان مؤذن المدرسة شيخ صالح، اسمه أبو القاسم نجا بن علي بن الحسن الرملي، وقد صار بعد وفاة الطُّرطوشي مؤذنًا لمدرسة السلفي الذي يظن أنه مدفون بمسجد القاضي سند بن عنان.

ولم يلبث أن سافر إلى القاهرة لزيارة «الأفضل شاهنشاه» الذي كان قد أضْفَى على نفسه لقب «الملك الأفضل» ولم تكن هذه الزيارة لطلب وِدِّه أو عطائه، وإنما لنصحه وَوَعْظِه وطلب الرفق بالناس، وفتح أبواب قصره لسماع شكاواهم،

وقد دوَّن الطُّرطوشي خبر هذه الزيارة في كتابه «سراج الملوك» فقال: «فلمّا دخلت على ملك مصر وهو الأفضل ابن أمير الجيوش (أي بدر الجمالي) فقلت: سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته، فردّ السلام على نحو ما سلَّمت ردًّا جميلاً، وأكرمني إكرامًا جزيلاً، وأمرني بدخول مجلسه، وأمرني بالجلوس فيه، فقلت: أيها الملك، إن الله سبحانه وتعالى قد أحلَّك محلاًّ عاليًا شامخًا، وأنزلك منزلاً شريفًا باذخًا، وملَّكَكَ طائفة من ملكه، وأشركك في حكمه، ولم يرض أن يكون أمر أحدٍ فوق أمرك، فلا ترضَ أن يكون أحدٌ أَوْلَى بالشكر منك»، ثم يسدي إليه النصح فيقول: «وليس الشكر باللسان، ولكنه بالفعال والإحسان، فاتق الله فيما خوّلك من هذه الأمة، فافتح الباب، وسَهِّل الحجاب، وانصر المظلوم، أعانك الله على ما ولاّك، وجعلك كهفًا للملهوف، وأمانًا للخائف». وختم نصحه بهذا البيت:

والناس أكيس من أن يَحْمَدوا رجلاً

حتى يروْا عنده آثار إحسان

وما من شكٍ في أن الأفضل شاهنشاه أظهر تقبله لهذا النصح القويم وأضمر الحقد للطرطوشي لأن المستبد يكره النقد الحرّ المخلص ويُفَضِّل المديح والإطراء ولو كان باطنه النفاق الخبيث.

وعاد الطُّرطوشي إلى الإسكندرية ليستأنف التدريس، وكان له الفضل في أن يتبع أسلوبًا جامعيًّا في إلقاء دروسه، فلم تُقْتَصَر حلقات تعليمه على المدرسة التي أنشأها تحت مسكنه، وإنما تعدت ذلك إلى استصحاب طلابه الكثيري العدد إلى البساتين والأماكن الخلويّة، وهناك كان يُلْقي دروسه عليهم، ويسمع منهم ما حفظوه من الدروس السابقة، وكان لا يقل عدد طلابه في كل من هذه الرحلات الترفيهية العلمية عن أربعمائة طالب.

وكان قاضي الإسكندرية في ذلك الوقت أبو طالب أحمد ابن حديد أحد أفراد أسرة بني حديد كبرى الأسر السكندرية مكانةً وعلمًا وثروة وسلطانًا وجاهًا. وكان منصب القاضي في ذلك العهد يلي مَنصب حاكم المدينة في المكانة، علاوةً على ما كان له من اختصاصات دينية، ومالية واسعة النطاق، فكان يشرف ماليًّا على الضرائب والأوقاف والجزية وعلى دار الضرب (السك) وعلى المكوس، هذا فضلاً عما كان للقاضي ابن حديد من ثروة طائلة تمكنه من بذل العطايا والهبات وفتح قصره لكل قاصدٍ، ولا سيما الشعراء الذين يكيلون له المدائح، ويتمادون في الإشادة بذكره، وكان لقصره بستان جميل تزينه نافورة كبيرة من الرخام.

وكان ابن حديد يطمع في أن يسعى إليه الطُّرطوشي عقب وصوله إلى الإسكندرية، ليكون من رجال حاشيته، يغدق عليه النعم، ولكن الطُّرطوشي الزاهد الورع لم يكن من هذا الصنف من الرجال، إذ كان العالم المعتزّ بفضل علمه والمثقف الذي يأنف عيشة الترف الباذخة التي كان ابن حديد يحياها هو وحاشيته من طالبي المتعة المتملقين، ولعل الطُّرطوشي كان يأخذ على ابن حديد بعض تصرفاته المالية المريبة، فأطلق لسانه في نقد هذه التصرفات نقدًا عنيفًا قاسيًا مما أوغر صدر القاضي ابن حديد عليه.

وكان الطُّرطوشي قد أصدر فتاوى عديدة تعارض بعض النظم التي تأخذ بها الدولة الفاطمية، ومنها تحريم الجبن الذي

يستورده الروم، وقد ألَّف في هذا التحريم رسالة، كما أفتى ببطلان العادات والتقاليد التي كانت سائدة بالإسكندرية متنافية مع أصول الدين الإسلامي، وقد ألف في نقد هذه العادات كتابه «بدع الأمور ومحدثاتها»، ومن جهة أخرى كان موكبه إذا خرج إلى التدريس في البساتين والأماكن الخالية يضم المئات من الطلاب، وكان ذلك يُلْفت الأنظار ويشكِّل منافسة قوية خطيرة للقاضي ابن حديد وتحديًا لمركزه المرموق في المدينة، ولاسيما أن مريدي الطُّرطوشي كانوا من المترددين على قصر القاضي وانفضّوا من حوله وصاروا يتناقلون فتاوى أستاذهم الطُّرطوشي، وعلى الأخص تلك التي تهاجم تصرفات ابن حديد كقاضٍ مما أساء إلى سمعته بين أهل الإسكندرية.

وللقضاء على هذا التحدي المرير جمع ابن حديد كل هذه المآخذ وأبلغها إلى الوزير الأفضل شاهنشاه مُصوِّرًا الطُّرطوشي كرجلٍ خطير على الإسكندرية، وسكانها، ولم يكن الوزير الأفضل قد نسي ثورة الإسكندرية، ووقوفها في صف «نزار ابن المستنصر» ومقاومتها لجيوشه، ووجد من جهة أخرى أن استمرار هذا العالم المغربيّ الزاهد الثائر على نقد سياسة الحكومة، ونقد المجتمع، والحكام، ومن بينهم القاضي ابن حديد وما يُصْدره من أحكام، ونقد النظم، والقواعد المالية المتبعة، وتحريم الجبن الرومي، وغيره من المأكولات المستوردة من أوروبا، فإنه سيكون سببًا في قيام الصعاب الكثيرة في وجه الدولة، وينقص من هيبتها في أعين الناس ويُحَرِّض الشعب على مقاطعة السلع الأجنبية، مما يؤثر على موارد الدولة المالية التي تحصلها عن طريق الضرائب والمكوس، والوزير الأفضل يعرف الطُّرطوشي منذ قابله لأول مرة، ويذكر وَعْظَه ونصحه القاسي اللاذع وجرأته النادرة في قول الحق، لكلِّ هذا وجد الأفضل وجوب حسم الأمر بسرعة فأرسل يستدعي الطُّرطوشي دون إبطاء.

وفي القاهرة حدد الوزير الأفضل إقامته بالفسطاط في مسجد الرَّصَد الجنوبي، ومنع الناس من الاتصال به، والأخذ عنه، وعيَّن له بضعة دنانير كراتب شهري، وسمح لخادمه بالإقامة معه.

ولقد طال اعتقال الطُّرطوشي بالقاهرة، وامتنع عن أكل شيء مما يرسله الأفضل إليه، وظل في المعتقل إلى أن اغتيل الأفضل شاهنشاه في اليوم الأخير من شهر رمضان عام ٥١٥هـ (١١٢١م)، بتدبير من الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله.

وعاد الطُّرطوشي إلى الإسكندرية واجتمع إليه الطلاب يستمعون إلى دروسه المفيدة، وحتى لا يسير الوزير الفاطميّ الجديد على الطريق الخاطئ الذي كان الوزير الأفضل يسلكه، بادر الطُّرطوشي إلى تأليف كتاب في فن السياسة والحكم، وما يجب أن يكون عليه الراعي والرعية، وقد استغرق تأليف هذا الكتاب الحصيف القيِّم سنة كاملة، ويلاحظ أن المهدي ابن ثومرت مؤسس دولة الموحدين في المغرب (انظر مادة ابن ثومرت) تأثر بما جاء بهذا الكتاب من أنه عندما تتلمذ على يد الشيخ الطُّرطوشي طوال مدة إقامته بالإسكندرية وطبَّق بعض النظريات التي تضمنها الكتاب على تأسيس الدولة الموحدية في المغرب الأقصى (مراكش)، وفي شهر شوال عام ٥١٦هـ (١١٢٢م) سافر الطُّرطوشي إلى القاهرة حاملاً هذا الكتاب الذي سماه «سراج الملوك» ليُهْديه إلى الوزير الجديد «المأمون

البطائمي» الذي أكرم وفادته، وجلس بين يديه كأحد تلاميذه، وأمر له براتب يومي قدره خمسة دنانير، لم يقبل الطُّرطوشي الزاهد منها إلا اثنين، وهو الراتب الذي كان يصرف إليه مدة اعتقاله في عهد الأفضل، وقد ألَّف كتاب «سراج الملوك» باسم البطائمي وأهداه إليه، ويُعدّ هذا الكتاب من الطلائع في هذا اللون من التفكير العربي السياسي، ويعتبر الطُّرطوشي في هذا الصدد، من رُوَّاد المفكرين الأوائل في الإسلام الذين حاولوا التأليف في علم السياسة، وفن الحكم، وهم قليلون منهم الغزالي في كتابه «الذهب المسبوك في نصيحة الملوك» (انظر مادة الغزالي)، وابن طباطبا في كتابه «الفخري في الآداب السلطانية»، وعبد الرحمن بن خلدون «في المقدمة» (انظر مادة ابن خلدون).

وقد قسَّم الطُّرطوشي كتابه «سراج الملوك» إلى أربعة وستين فصلاً، وأوضح في هذه الفصول المواعظ التي تقال للملوك ومقامات العلماء والصالحين عند الأمراء والسلاطين، ومنافع السلطان، ومضارِّه والخصال التي يقوم عليها السلطان، وما يجب أن يكون عليه الوزراء، وعلاقات الملوك بالجند، وبيت المال، والأعمال التي تؤدي إلى إصلاح الرعية.

وهو يبدأ كل فصل من فصول الكتاب بتقرير المبدأ الخلقي الذي يرى أن يتحلَّى به الملك والوزير والوالي والقاضي، ويروي لتفسير ذلك بعض القصص، والأمثال التي يقتبسها من سير الأنبياء، والخلفاء الصالحين والملوك والحكماء السابقين من شتَّى الأجناس، وفي مختلف العصور، وهو بذلك يرى أن السياسة والأخلاق شيء واحد متكامل العناصر، وليس شيئين منفصلين، وهو بذلك يختلف عن فلاسفة العصر الحديث الذين يُفَرِّقون بين السياسة والأخلاق، ويتفق في تفكيره مع القدماء من فلاسفة اليونان.

ويعترف ابن خلدون بفضل الأسبقية في هذا المضمار للعالِم الطُّرطوشي، وإن كان يتعالى عليه ويفخر بما دوَّنه في مقدمته من آراء.

ولم يكن الهدف من تأليف كتاب «سراج الملوك» علميًّا بحتًا كما هي الحال بالنسبة إلى مقدمة «ابن خلدون»، وإنما كان هدفًا فنيًّا أُريدَ به التأثير في النفوس بالقصة، والأمثال، والحكم، والمواعظ الحسنة، وإن كان الطُّرطوشي أقلَّ تبحرًا من ابن خلدون في علم الاجتماع، ولكن يجب أن يقاس نجاح مؤلفه بالنسبة إلى قصده، وقد ضمَّن الطُّرطوشي كتابه تجاربه المفيدة وآراءه القيمة مما يدل على سعة اطلاعه، ومعرفته الشاملة لأصول الفقه والتشريع الإسلامي والتاريخ والآداب، ومن نماذج أسلوبه ما كتبه في الفصل الذي عقده للدلالة على فضل الولاة والقضاة إذا عدلوا، فهو يقول في مستهل هذا الفصل:

«ليس فوق رتبة السلطان العادل رتبة، كما أن خيره يَعُمّ، كذلك ليس دون رتبة السلطان الجائر رتبة لأن شرَّه يعم، وكما أنه بالسلطان العادل تَصْلُح البلاد والعباد، كذلك بالسلطان الجائر تفسد البلاد والعباد وتُقْتَرَف المعاصي والآثام، وذلك أن السلطان إذا عدل، انتشر العدل في رعيته، فأقاموا الوزن بالقسط، وتعاطوا الحق فيما بينهم، وإذا جار السلطان انتشر الجَوْر وعمَّ العباد، فرقَّت أديانهم واضمحلت مُروءاتُهم، ففشَتْ فيهم المعاصي، وذهبت أمانتهم، فَضَعُفَت النفوس، وقنطت القلوب، فمنعوا الحقوق وتعاطوا الباطل، وبخسوا

المكيال والميزان... فَرُفِعَت منهم البركة... وأمسكت السماء غيْثَها».

ومن وصفه القيم لخطورة منصب السلطان، والمهام الملقاة على عاتقه قوله: «إن الخلق في شغلٍ عنه وهو مشغول بهم، والرجل يخاف عدوًّا واحدًا وهو يخاف ألف عدو، والرجل يضيق بتدبر أهل بيته وعياله ضيْعته وهو مدفوع لسياسة أهل مملكته، وكلما رتق فَتْقًا من حواشي مملكته انفتق آخر، وكلّما لَمَّ منها شعثًا رثّ آخر...».

ثم يبرهن على ضرورة قيام الحكومات بالإشراف على شؤون الشعوب في حدود الإنصاف والعدالة، فيقول إن الناس جبلوا على حب الانتصاف وبُغْض الإنصاف، فإذا لم يكن لهم سلطان عادل صاروا كالسمك في البحر يأكل كبيرهم صغيرهم، ومن ثَمّ يصبح أمرهم فوضى، ويضم كتاب «سراج الملوك» مجموعة من القِصَص تتفاوت في طرافتها وتعبيرها، وقد طبع ببولاق بالقاهرة عام ١٢٨٩هـ وعام ١٣١٩هـ.

وللعالم الطُّرطوشي مؤلفات أخرى بلغ عددها اثنين وعشرين مؤلفًا، لم يبق منها سوى تسعة أحدهما كتاب «سراج الملوك» الآنف الذكر، أما الأخرى فهي:

- «مختصر لتفسير الثعالبي» (انظر مادة الثعالبي): وهو مختصر كتاب الثعالبي الكبير الذي فاق غيره من التفاسير واسمه «الكشف والبيان في تفسير القرآن»، وكان الطُّرطوشي يُدَرِّس هذا المختصر في المسجد الأقصى بعد أن أتم تأليفه، وبدار الكتب المصرية بالقاهرة نسخة مخطوطة من الجزء الثاني من هذا المختصر.
- «التعليقة في الخلافات»: والخلاف هو أحد العلوم التي تلقى الطُّرطوشي أصولها في صباه على يد أستاذه أبي الوليد الباجي، واستزاد منها في أثناء رحلته في العراق، وقد وضع هذا الكتاب بالإسكندرية في خمسة أجزاء.
- «شرح لرسالة الشيخ ابن أبي زيد القيرواني»: وهي رسالة في الفقه المالكي الذي كان القيرواني من أكبر علمائه.
- «نقد إحياء علوم الدين للغزالي»: ولعل هذا النقد ذكره الطُّرطوشي في رسالة بعث بها إلى صديقه أبي مظَفَّر، أبدى فيها رأيه في الغزالي وكتابه نتيجة لمناقشة الغزالي في هذا الكتاب عندما تقابل العالمان بالإسكندرية في أثناء زيارة الغزالي لها.
- «رسالة في تحريم جبن الروم»: وقد ألفها بالإسكندرية، وكانت من بين الأسباب التي أثارت عليه القاضي ابن حديد، والوزير الأفضل شاهنشاه.
- «الحوادث والبدع» أو «بدع الأمور ومحدثاتها»: ألفه بالإسكندرية، ويضم نقدًا للمجتمع الإسلامي والبدع التي انتشرت فيه، ويثبت فيه أن هذه البدع تتنافى مع أصول الدين والشريعة، وقد نشره الأستاذ محمد الطالبي من علماء تونس عام ١٩٥٩م.

- «كتاب الفتن» وتناول فيه الفتن التي سادت العالم الإسلامي في ذلك الحين إذ كان هذا العالم يجتاز مرحلة تسودها الانقسامات.

- «كتاب بر الوالدين»: والغالب على الظن أنه ألفه في سن الكهولة بعد أن تزوج، وقد تجاوز الأربعين من عمره بالإسكندرية، ومن شعره في هذا الكتاب:

لو كان يَدْري الابن أيَّة غُصَّةٍ
يتجرَّع الأَبوانِ عند فِراقه

أُمٌّ تَهيجُ بوجده حَيْرانةً
وأَبٌ يَسِحُّ الدمع من آماقِه

يتجرعان لبيْنِه غُصَصَ الرَّدَى
ويبوح ما كتماه من أشْواقِه

لَرَثى لِأُمٍّ سُلَّ من أحشائها
وبكى لِشيْخٍ هامَ في آفاقه

ولبدَّل الخُلُق الأبيَّ بعطفه
وجزاهما بالعذب من أخلاقه

وما من شكٍّ في أن هذه الأبيات لم تكن إلا تعبيرًا عن وُجْدان الطُّرطوشي نفسه، ويلاحظ أن كلمة «حيرانة» قد تكون من الأخطاء اللغوية إذ صحتها «حيرى» لأن تأنيث الصفات المنتهية بالألف والنون يكون بقلب الحرفين إلى «ى» فمؤنث «سكران» «سكرى» عدا الأسماء الأربعة عشر وهي: «دخنان وخمصان وأليان وحبلان وسخنان وسيفان وصحيان وصوجان وعَلاَّن وقشوان ومَصَّان وموتان ونديان ونصران».

وله من المؤلفات المعروفة أو المنسوبة إليه: رسالة في تحريم الغناء واللهو على الصوفية في رقصهم وسماعهم، وتحريم الاستمناء، ونزهة الإخوان المتحابين في الله، ورسالة العُدَّة عند الكروب والشدة، وكتاب الدعاء، وكتاب النهاية في فروع المالكية، وكتاب نفائس الفنون، واختصار كتاب أخلاق رسول الله لأبي محمد عبد الله بن جعفر بن حيّان، والرسالة التي بعث بها إلى ابن تاشفين في المغرب الأقصى، وهي تشتمل على وَصَايَاه لأبي يعقوب بن تاشفين بأن يتقي الله، وأن يشيع العدل بين رعاياه.

وإلى جانب علمه وفقهه كان الطُّرطوشي أديبًا بارزًا، يدل على ذلك أسلوبه السهل الممتع الرائع، ولاسيما في كتابه «سراج الملوك»، ويزين هذا الأسلوب بعض المحسنات البديعية كالسجع والجِناس والتضمين ولكن في غير إسراف، وقد خالف في ذلك كتَّاب عصره.

وكان الطُّرطوشي شاعرًا مقلاًّ، فروى هو بعض ما نظم في كتابه «سراج الملوك»، ورَوَى عنه مؤرخوه بعضًا آخر، ويدل ما عُرِف من أشعاره على أنها متوسطة المقدار، فلا هي بالجيدة ولا بالرديئة، وتدور موضوعاتها حول نظام حياته في الزهد، والعبادة أو تعبِّر عن انفعالاته، وتجاربه في الحياة، وله بعض القصائد الغزلية مما يدل على أنه كان ذا عاطفة مشبوبة فأحسَّ لوعة الحب، وألم الفراق، ولعل هذا اللون من الشعر قد نظمه وهو في ريعان الشبان.

ومن شعره في الزهد قوله:

إن لله عبادًا فُطُنا
طلَّقوا الدُنْيا وخافوا الفِتَنا

فكَّروا فيها، فلمَّا علموا
أنها ليست لحيٍّ وَطَنَا

جعلوها لُجَّة، واتخذوا
صالح الأعمال فيها سُفُنا

ومن شعره المعبِّر عن انفعالاته النفسية وتجاربه في الحياة قوله:

إذا كُنْتَ في حاجةٍ مُرْسِلاً
وأنت بإنجازها مُغْرَمُ

فأرْسِلْ بِأكْمَه خلاّبةٍ
به صَمَمٌ أغْطَشٌ أبْكَمُ

وَدَعْ عنك كل رسول سوى
رسولٍ يقال له الدِرْهَم

ومن شعره الغزلي الرقيق قوله:

أُقلِّب طرْفي في السماءِ تردّدًا
لعلِّي أرى النجم الذي أنت تَنْظر

وأسْتَعرض الركبان من كلِّ وجهةٍ
لعلِّي بِمَنْ قد شمَّ عَرْفَكَ أظْفَر

وأستقبل الأرواح عند هُبوبها
لعلَّ نسيم الريح عنك يُخَبر

وأمشي وما لي في الطريق مآرب
عسى نغمة باسم الحبيب تُذكر

وألمح مَنْ ألقاه من غير حاجةٍ
عسى لمحة من نور وجهك تُسْفِرُ

ومن تلاميذ الطُّرطوشي: أبو بكر ابن العربي (انظر مادة ابن العربي)، وأبو علي الصَّدَفي (انظر مادة الصدفي)، والمهدي ابن ثومرت (انظر مادة ابن ثومرت) مؤسس دولة الموحدين في المغرب، والقاضي عياض (انظر هذه المادة).

وقد نبغ من تلاميذه عدد من العلماء كان لهم إسهام قوي في الحركة العلمية بالإسكندرية، وذلك بفضل نشاطه العلمي الوافر الذي بذله طوال حياته، وبرز من هؤلاء العلماء بصفة خاصة «سند بن عنان» (انظر مادة القاضي سند) وهو الذي خلف أستاذه الطُّرطوشي في مدرسته، وأبو الطاهر بن عوف ابن مكيّ (انظر مادة ابن مكي) الذي اتخذ له مدرسة مستقلة، وإلى هذين العالمين الجليلين انتقلت قيادة الحركة الفكرية العلمية في الإسكندرية بعد وفاة الطُّرطوشي وظلا يحملان لواءها سنين طويلة.

هذا هو عالِمُنا الفقيه الزاهد الثائر الورع الذي عاش بالإسكندرية، راضيًا بالقليل، مُنْكِرًا للذات، عزيز النفس، عاطر السيرة، كريم الأخلاق، ملتزمًا قول الحق في صراحة لا يشوبها المَلَق، لم يبدها السلطة والسلطان ولا يدنّسها الاستجداء بغية رضائهم، وقد وصفه ياقوت نقلاً عن أبي الحسن المقدسي في كتابه «الرُقَيَّات»: بأنه «نشر العلم بالإسكندرية وعليه تفقّه أهلُها»، ولقَّبه القاضي عياض «بالإمام الورع» ونعته السيوطي (انظر هذه المادة) بأنه «أحد الأئمة الكبار».

وفي ليلة السبت لأربع بقينَ من شهر جمادى الأولى عام ٥٢٠هـ (١١٢٦م)، فاضت روح الطُّرطوشي الطاهرة إلى بارئها راضية مرضية بالغًا من العمر ٦٦ عامًا وصلَّى عليه ولده محمد ودفن في مقبرة «وَعْلَة» الذي قال المؤرخ ابن خلِّكان: «إنها كانت قريبة من البرج الجديد قبليَّ الباب الأخضر»، والباب الأخضر كان أحد أبواب الإسكندرية الهامة، ويقع في الجهة الغربية من أسوارها، ومازال اسم الباب الأخضر يطلق على الشارع الممتد من طريق النصر إلى باب الكرسته (الدكتور محمد عبد المنعم الشرقاوي حاليًّا)، وهو باب الجمارك رقم ١٤ (انظر مادة باب الكرسته)، وفي نهاية شارع الباب الأخضر يقع شارع «سيدي الطُّرطوشي» حيث الزاوية المتواضعة التي تضم رفات أَجَلّ علماء الإسكندرية، وأكرم أوليائها جميعًا.

ومن المحزن المؤسف أن تظل الزاوية التي أقيمت حول قبره متواضعة في كيانها لا تتفق إطلاقًا، ولما لهذا العالم الجليل من مكانة علمية ذائعة الصيت. ولست الوحيد في إبداء هذا الأسف المرير، فقد سبقني إليه المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال عميد كلية الآداب السابق بجامعة الإسكندرية، إذ ذكر في كتابه «أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي» وصفًا قاتمًا لهذه الزاوية قائلاً: «إذا دخلت هذا المسجد وجدت إلى اليسار مباشرة ضريحًا لسيدي علي العقباوي (انظر هذه المادة) وبجانب القبلة يوجد باب يُفْضِي إلى غرفة مهملة إهمالاً عجيبًا، للأسف بها ضريحان، الأول منهما لسيدي محمد الأسعد، والثاني هو ضريح عالمنا الكبير سيدي أبي بكر الطُّرطوشي».

ومن المؤسف حقيقة أن يترك ضريح هذا العالم الكبير مهملاً هذا الإهمال، تعلوه وتعلو المكان كله الأتربة، وليس به أي شاهد أو لوحة رخامية تثبت اسمه وتاريخ وفاته، ونبذة قصيرة عن سيرته، فإلى إدارة الأوقاف بمدينة الإسكندرية، وإلى محافظة الإسكندرية، وأهلها الكرام، نتوجه بالرجاء أن يعتنوا بهذا المسجد وبنظافته وتجديده وبإثبات هذه اللوحة إحياءً لذكرى هذا العالم الزاهد الثائر، فهم بهذا يعنون بناحية مجيدة من تاريخ الإسكندرية.

هذا ما دوَّنه الدكتور الشيال في كتابة الآنف الذكر، وأجد من الغريب العجيب أن يُهمَل شأن هذا الإمام الكبير حتى فيما مضى من السنين، فقد جاء في الخطط الجديدة (الخطط التوفيقية) لعلي باشا مبارك (انظر هذه المادة) أن الزاوية أَخْنَى عليها الدهر فصارت خَرِبَةً، وقام المرحوم السيد إبراهيم مورو (انظر مادة مورو) بإصلاحها عام ١٢٧٠هـ (١٨٥٣م)، وأتمت إصلاحها والدة الخديوي إسماعيل بعد ذلك، وفي زمن علي باشا مبارك، كانت وزارة الأوقاف تتولى الإنفاق عليها.

ولقد أديت صلاة المغرب في هذه الزاوية المتواضعة في أحد أيام شهر مايو عام ١٩٦٣م (١٣٨٣هـ) فألفيتها قديمة

في حاجة ماسة إلى الإصلاح، وهي مكونة من رحبة للصلاة يقوم سقفها على أربعة أعمدة من الحجر الجيري، وعمودين من الرخام، ونوافذها قليلة ومساحتها ١٥×١٥ مترًا تقريبًا، وعلى يمين الداخل منبر متواضع فُرِشَ بالحصير القديم المهلهل، وقال مؤذن الزاوية وحارسها إن الحصير الذي تفرش به الزاوية يجود بثمنه الخيرون من المصلين الذين يتبرعون بطلاء الزاوية سنويًّا بالجير الملون، وطلاء أخشابها بالدهان الزيتي، وللزاوية سندرة تكاد أن تنقضّ لقدمها، وعلى يسار المنبر وبعد القبلة باب يؤدي إلى قاعة كبيرة بها قبلة أخرى، وتقوم هذه القاعة على أربعة أعمدة من الحجر الجيري، وعلى يمين الداخل ضريحان أحدهما للشيخ العظيم الطُّرطوشي، وليس بالقاعة إضاءة ولا حصير، إذ هي عبارة عن جزء مهجور من الزاوية، وعلى كل من الضريحين ستر أخضر أبلاه القدم يكاد يقول للقائمين على شؤون دور العبادة إن هذا الوضع لا يليق بعالم جليل عظيم القدر والشأن يتجاوز علمه وقدره كافة مشايخ الإسكندرية وأوليائها الصالحين الذين تضم المساجد الرحبة رفاتهم مشتملة على فخامة التشييد وفاخر الأثاث، ولا يُستطاع معرفة أي من الضريحين يضم رفات الطُّرطوشي.

وفي شهر ديسمبر عام ١٩٦٨م (١٣٨٨هـ) أديت صلاة العصر في الزاوية فوجدتها على الحالة التي وصفتها من قبل، وعلمت من إمامها أن المصلين مازالوا يتبرعون بثمن حصيرها، وطلاء حوائطها، ودهان أخشابها سنويًّا، وأدهشني أن يهوديًّا يدعى «أبرامينوداهان» كان صاحب متجر حديد بجوار الزاوية تبرع لها «بثريا» قيمتها مائتا جنيه، ولما أقيم مسجد محمد كريم بداخل قصر رأس التين، انتزع الثريا من الزاوية وعلقت بهذا المسجد الفخم، فتبرع أحد المحسنين بشراء «ثريا» أخرى هي الوحيدة الآن بالزاوية، ولا تدفع وزارة الأوقاف من نفقات الزاوية إلا مرتب الإمام والمؤذن.

وشكوت هذا الإهمال المؤسف للسيد محافظ الإسكندرية في ٢١ ديسمبر عام ١٩٦٨م، فأحضر مدير مأمورية الأوقاف وتلقى تقريرًا كتابيًّا من إمام الزاوية بالحالة المحزنة التي وصفتها وأمر سيادته بإصلاح الزاوية وتزويدها بكل ما يلزم لتظهر بالمظهر اللائق بالعالم الطُّرطوشي الجليل، كما أمر بصنع ستر من الصوف الأخضر الفاخر يُطَرَّز بالخيوط المذهَّبة ويكتب عليه تاريخ ميلاد ووفاة الفقيه العظيم، ونبذة قصيرة عن تاريخ حياته العاطر، والأمل وطيد في أن تنفذ هذه الإصلاحات بما يتفق ومكانة عالم الإسكندرية الكبير.

ومع ذلك فإني أتوجه إلى الطُّرطوشي العالم الثائر في عليائه الروحانية وأقول له: «لا عليك يا سيدي، لا عليك، أن تضم رفاتك الطاهرة هذه الزاوية المتواضعة، فقد قمت في حياتك الحافلة بجلائل الأعمال، زاهدًا في الدنيا وزخرفها، لا تهمك المظاهر ولا يغريك الجاه، فأنت ترقد في زقاق تشغله الأيدي العاملة الكادحة، تسمع روحك الكريمة أصوات كفاحهم من أجل لقمة العيش الشريفة، فترنّ في مسمعك السرمديّ كأنها الأنغام الموسيقية الصادرة من سواعد المكافحين الذين أحببتهم طوال حياتك، ولم تبخل عليهم بعلمك الغزير.

ولقد عبرت عن إحساسك بجهل الناس بأقدار الرجال، وقلت في بيتين من شعرك إن الحاجات تُقضَى بالدراهم، وليس بالتبحر في العلوم والمعرفة، وكأنك كنت تتنبأ بالزاوية الصغيرة التي تضم رفاتك، ولو كانت لك أوقاف من الأثرياء الذين وهبوها لمن كانوا على قليل من العلم الصحيح، وكثير

من الزعم بالاتصال بالخالق في سذاجة هي بلاء الأجيال الماضية، أقول لو كان لك ذلك لكان مثواك الأخير في مسجد ضخم يقوم على الأعمدة الرخامية، والصوانية الهائلة وتحلّيه النقوش والزخارف، ويغطي ضريحك ستر من المخمل الأخضر المزيَّن بالنقوش الذهبية على غرار أضرحة من هم أقل منك وَرَعًا وزهدًا وعلمًا.

جعل الله مثواك جنة الخلد فأنت بها قمينٌ، وأمطر على روحك الرحمة والغفران، إنه خير من يُثيب العاملين المصلحين، فقد اشتهرْت بالزهد، وإنكار الذات في جميع مراحل حياتك الناصعة الصفحات، فأنت الزاهد الورع، ومن ثم لا يهمك أي نوع من المظاهر الدنيوية التي حجبت عنك في حياتك وفي مماتك.

وكان الزهد والعزوف عن مباهج الدنيا رائديك طوال الفترة التي عشتها في الشام تعلم الناس؛ فتفيدهم بعلمك وفقهك ودروسك النافعة، وتعيش إلى جانب هذا متقشفًا عابدًا زاهدًا، إذا أكلت تناولت طعامك في شَقَفٍ من الفخار، وإذا سعى إليك أصحاب الحُكم والسلطان يريدون بِرَّك انصرفت عنهم، وقسوت في قول الحق، وإسداء النصح لوجه الله تعالى، ولقد أثارت صراحتك والتزامك العدالة في غير هَوَادَة أو مهادنة حِقْد الحاسدين والنمّامين من أهالي بيت المقدس؛ فسعوا بك لدى حاكمها، فاستدعاك، فَأَبَتْ نفسك الكبيرة من أن تُلَبِّي دعوته، لأنك كنت تعرف مقدار قدرك، وما لك من مكانة علمية عالية لا يغريها الإقبال على ذوي النفوذ بغية الغُنْمِ المادي.

وصدق الحميري في كتابه «صفة جزيرة الأندلس» حين قال وهو يتناول سيرتك العطرة: «إن زهدك أكثر من علمك».

وفي الإسكندرية لم تُخِفْك سطوة قاضيها ابن حديد، ولم تأبه بمكانة أسرته في هذه المدينة، فأعرضت عن مصاحبته، ومصانعته، والسير في ركابه، ولو فعلت لنلت من العطاء والنعم الكثير، ولعشت في رغدٍ مغدقٍ وفي بُحْبوحَةٍ من العيش المُخْضَرِّ الجوانب، ولكن اعتزازك برجولتك وعلمك وورعك حال دون انصياعك لهذا النوع من الحياة التي يكتنفها الخضوع والخنوع والذلة، فقمت معارضًا لفتاواه، وتصرفاته المالية المريبة، فحقد عليك، ووشى بك لدى الأفضل شاهنشاه ففضَّلْت الاعتقال على المماراة والنفاق والتملق، وكنت طوال مدة الاعتقال لا تأكل إلا حلالاً مما يجمعه لك خادمك من نبات الأرض.

فنم بخيرٍ جُزِيت عن الإسكندرية وعن أهلها جميعًا خيرَ الجزاء».

٧٣٨ – سيدي عبد الرازق – شارع – بقسم العطارين

٧٣٩ – سيدي عبد الرازق – حارة – بقسم العطارين

يقوم مسجد عبد الرازق الوفائي على ربوة، ما من شك في أنها كانت تكوِّن الجزء الغربي من التل الصناعي الذي أقيم في عهد الحملة الفرنسية على مصر، وقد أزيل هذا التل منذ عهد قريب، ووجد تحته مسرح روماني مكشوف، والمسجد

يطل على شارع النبي دنيال من واجهته الشرقية، وأمامه مركز التشهيلات الحربية الذي أقيم حديثًا، ويطل المسجد من واجهته الشمالية على الجهة المجاورة لشارع البرديسي.

وعُثِرَ تحت هذا المسجد على آثار يرجع تاريخها إلى العصر البطلمي، والروماني فبجانبه الجنوبي الشرقي ينتصب عمود من الجرانيت الأحمر ذو قاعدة من الجرانيت الأسود، وقد ذكر محمود باشا الفلكي في كتابه «الإسكندرية القديمة» أن هذا العمود كان أحد الأعمدة الكثيرة جدًّا التي كانت منازل شارع السوما (شارع النبي دنيال الحالي)، والشارع الكانوبي (شارع الحرية سابقًا والآن شارع الزعيم جمال عبد الناصر)، كانت منازل هذين الشارعين تقوم عليها في بوائك رائعة التنسيق والسياق، وأيَّد قول الفلكي العثور على عمودين من نوع عمود مسجد سيدي عبد الرازق في حفرة عمقها ثمانية أمتار ظهرت عندما شُرِعَ في وصل شارع الأمير عبد القادر (سليمان يسري حاليًّا) بشارع عبد المنعم (إسماعيل مهنا حاليًّا)، وكان العمودان مطروحين في قاع الحفرة على العمق نفسه الذي ترتكز فيه قاعدة عمود المسجد مما يدل على أن هذه الجهة كلها كانت على مستوى الشارع الكانوبي أي بانخفاض قدره ثمانية أمتار عن مستواها الحالي.

ولا يعرف عن سيدي عبد الرازق الوفائي شيء يدل على سيرة حياته العلمية، أو الصوفية، وذلك على الرغم من شهرة مسجده بين مساجد الإسكندرية، وقد أصبح أحد المساجد الثلاثة التي يُصلَّى على الموتى في رحابها، على غرار مسجد العُمَري ومسجد عبد اللطيف، ويقول علي باشا مبارك في كتابه «الخطط التوفيقية» إن ناظر هذا المسجد أحمد النقيب جدده سنة ١٢٨٠هـ (١٨٦٣م).

والمسجد من المساجد العالية، ومدخله الرئيسي من شارع النبي دنيال، وله سور يعلوه الحديد المشبك وفي السور بابان من الحديد، وكل باب يقوم على عمودين من الرخام فوقهما حلية زخرفية، ويُفْضِيان إلى وصيد رحب، وسطه مفروش بالنجيل، وله سلّمان على الجانبين من الرخام بِعُلُوّ ١٩ درجة يؤديان إلى ردهة بطول الضلع الشرقي من المسجد مبلَّطة، ووسطها باب الدخول يقوم على عمودين رخاميين بعاليه زخارف بارزة وكوّتان (طاقتان)، وعلى يسار الداخل المحراب بزخارفه على شكل الرخام والألوان فوقه بالخط الثلث المذهب الآية القرآنية: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾، والمنبر صنع كله من الأربسكا الدقيقة الصنع، وصحن المسجد مستطيل يقوم على ثمانية أعمدة ضخمة مربعة الشكل لها قواعد مربعة وتيجان مزخرفة، يعلوها أعمدة تكميلية تصل إلى ارتفاع السقف الشاهق، والإيوان الأوسط على أربعة من هذه الأعمدة يعلوه منور مربع له ١٦ نافذة للضوء والتهوية تتدلى من سقفه ثريا حديثة، ويدل بناء المسجد الحالي بالخرسانة المسلحة على تجديده كلية، وأنه لم يبق من معالمه شيء عندما جدده ناظره أحمد النقيب عام ١٨٦٣م.

وفي الركن الشرقي من الصحن شرفة مربعة (صندرة) بين عمودين فقط لها سياج من الخشب «الأربسكا» ويصعد إليها بسلم حلزوني، وبجانبها الميضأة ودورة المياه المكشوفة الفسيحة.

ونوافذ المسجد من الخشب المشبك مربعات وهي عالية وكبيرة، وفي الضلع الغربي من الصحن باب يؤدي إلى ضريح سيدي عبد الرازق، والضريح وسط مُصلاّة كبيرة قائمة على

أربعة عقود من البناء، فوقها قبة عالية بنقوش بارزة، ولها أربع طاقات زجاجية، وتتدلى منها فوق الضريح ثريا على الطراز العربي، ويفصل حجرة الضريح عن مُصلاّة ثانية قائمة على عقدين باب كله من الأربسكا الدقيقة، ولهذه المُصَلاة باب يؤدي إلى صحن المسجد.

وما من شك في أن وزارة الأوقاف أنفقت على تجديد المسجد بحالته الراهنة مبالغ كبيرة، ويمتاز هذا المسجد بأنه المقر المركزي لقراء القرآن الكريم وأنه يُصَلَّى على الموتى في وصيده الرحب.

٧٤٠ - سيدي المتولي - شارع - بقسم العطارين

٧٤١ - سيدي المتولي - شارع - بقسم اللبان

جاء بكتاب الطبقات للشعراني أن سيدي إبراهيم كان يبيع الحمص المسلوق بالقرب من جامع الأمير شرف الدين بالحسينية بالقاهرة، ومن أساطير الشواني أن هذا الوليّ كان يرى النبي عليه الصلاة والسلام في المنام، ثم كان يراه في اليقظة!! وكان يعيش في عهد السلطان قايتباي (انظر مادة قايتباي) فوقع غلاء في ذلك الحين، فكان هذا الوليّ يعجن للفقراء الدقيق في الزاوية ويخبزه لهم، ثم ذهب إلى القدس، وزار ضريح السيدة مريم العذراء.

وفي واجهة ضريح سيدي المتولي بالإسكندرية، بالشارع المسمى باسمه سبيل يشرب الناس منه إلى الآن، وقد أعده الحاج سيد محمد مصطفى على نفقته، وذلك بصفة وفاء لنذر نذره لولي الله سيدي المتولي، إذ كان الحاج سيد يتمنى أن يرزقه الله بطفل يرثه، وهو طبيب أسنان مازال يزاول مهنته بحي المنشية حتى الآن، ولما أنجب طفلة شيد السبيل في عام ١٩٤٦م.

٧٤٢ - سيدي محمد وكيع - حارة - بقسم الجمرك

جاء في كتاب «ضبط الأعلام» الذي ألفه أحمد باشا تيمور (انظر مادة أحمد تيمور) أن ابن وكيع كان أحد أولياء الله الصالحين بمدينة الإسكندرية، وكان يدعى بابن وكيع التِّنِّيسي، وكان مشهورًا بورعه وتقواه، وتوفي بالإسكندرية في يوم الثلاثاء الموافق ٢٣ من جمادى الأول سنة ٣٩٣هـ (١٠٠٢م)، ولقب «وكيع» جاءه عن جدّه أبي بكر محمد ابن خلف وكيع.

هذا ما ذكره أحمد باشا تيمور، على حين أن ابن خلِّكان يذكر في كتابه «وفيات الأعيان» - وهو أقدم من كتاب أحمد تيمور بزمن بعيد - أن ابن وكيع هو أبو محمد الحسن بن علي بن محمد بن خلف بن حيَّان بن صدقة بن زياد الضبيِّ، المعروف بابن وكيع «التنِّيسي»، وأصل جده من بغداد، وكان مولد ابن وكيع ببلدة «تنيس»، ويقول ابن بطوطة إن بلدة «تنيس» كانت بلدًا عظيمًا شهيرًا، وهي الآن خراب وإليها ينسب الشاعر المجيد أبو الفتح بن وكيع، وحاضره هذه الناحية هي مدينة «بلطين» (أي بلطيم الآن).

ويضيف ابن خلِّكان أن ابن وكيع كان من الشعراء المبرزين في زمانه، وله ديوان شعر يضم ما نظم من قصائد، ثم ذكر ابن خلِّكان بعض هذه القصائد في الغزل الرقيق الحاشية، وفي الزهد ثم أكد أن وفاته كانت في ٢٣ من جمادى الأولى عام ٣٩٣هـ (١٠٠٢ - ١٠٠٣م) بمسقط رأسه «تنيس»، ودفن في المقبرة الكبرى في القبة التي بنيت له بها، ويلاحظ

أن تاريخ الوفاة الذي ذكره أحمد باشا تيمور هو التاريخ نفسه الذي أورده ابن خلِّكان، فهل سيدي محمد وكيع وليّ الله نفسه الذي ذكره ابن خلكان بفارق أن أحمد تيمور يذكر: أن وفاته كانت بالإسكندرية، وابن خلكان يقول: إن الوفاة حدثت في تنيس؟

وهل هو أبو محمد الحسن بن علي أو أبو الفتح بن وكيع كما ذكره ابن بطوطة؟ كل هذا التناقض يرجع إلى تعداد المراجع التاريخية وقلة توخيها الدقة.

وبما أن بقسم الجمرك حارة تحمل اسم «ابن وكيع» وحارة أخرى تحمل اسم «سيدي محمد وكيع» فمن المحتمل أن إحداهما لابن وكيع الشاعر الذي مات بمدينة تنيس، والأخرى لوليّ الله محمد بن وكيع الذي مات بالإسكندرية، والذي ذكره أحمد باشا تيمور دون ذكر تاريخ مولده ومكانه.

وكان ضريح سيدي محمد وكيع في الحارة التي تحمل اسمه وبقي كذلك إلى عام ١٩٣٢، إذا اقترح المرحوم أحمد صديق مدير البلدية العام نقله إلى مجمع الأضرحة الذي أقيم بجانب مسجد أبي العباس المرسي، وذلك لتوسيع الشوارع التي كانت هذه الأضرحة تحول دون استقامتها وتوسيعها.

٧٤٣- سيدي المُنَيِّر - شارع - بقسم اللبان

هو القاضي أبو العباس أحمد بن أبي القاسم ناصر الدين ابن المُنَيِّر، ولد بالإسكندرية في شهر ذي القعدة عام ٦٢٠هـ (١٢٢٣م) وكان فقيهًا مالكيًّا من تلاميذ أبي القاسم القباري (انظر المادة القباري) المقربين إليه، وأخذ العلم عن أبيه، وعن ابن رواج، ثم عن القباري.

وتولى التدريس بمسجد العطارين ثم تولى الإفتاء والقضاء وبلغ منصب نائب حاكم الإسكندرية في فترة من حياته، كما عهدت إليه نظارة الأوقاف وشؤون المساجد بالمدينة، وكان مشهورًا بالصلاح والتقوى والورع، ومن مؤلفاته «مقامات القباري» الذي أوضح فيه مناقب أستاذه وسيرته وأحاديثه، وله كتاب آخر بعنوان «الضياء المتلالي في تعقيب الإحياء للغزالي»، وهو ردّ على الغزالي في كتابه «إحياء علوم الدين»، وكتاب ثالث في تفسير القرآن الكريم بعنوان «البحر الكبير في نخب التفسير»، هذا علاوة على رسالة في تفسير حديث الإسراء وكتاب «الانتصاف من الكشاف» هاجم فيه الزمخشري (انظر هذه المادة) صاحب كتاب «الكشاف».

والمُنَيِّر من أسرة سكندرية عريقة في العلم، إذ تضم - غير ناصر الدين - علماء آخرين كان لهم دور مرموق في الحركة الفكرية والثقافية بالمدينة.

ويختلف المؤرخون في تاريخ وفاته بالإسكندرية فيقول معظمهم إنه توفي عام ٦٨٢هـ (١٢٨٥م) ويقول محمد بن أحمد بن إياس في كتابه «بدائع الزهور في وقائع الدهور»: إن وفاته حدثت خلال عام ٦٨٩هـ في عهد الملك المنصور قلاوون، فإذا أخذنا بالتاريخ الأول يكون قد توفي وعمره ٦٣ عامًا، وإذا أخذنا بالتاريخ الثاني يكون قد بلغ السبعين من العمر عند الوفاة.

وللمُنَيِّر مسجد من مساجد الإسكندرية العتيدة التي تفخر بها المدينة لما تضم من روعة وجمال، وهو يقع بجهة سوق الجمعة بقسم اللبان حيث يوجد شارع يحمل اسم هذا العالم الجليل القدر والشأن.

والمسجد من أكبر المساجد القديمة مساحة ومن أحسنها تنسيقًا، فمدخله الرئيسي في شارع «المُنَيِّر» وله باب عظيم الكبر يُقفل من الداخل بالمزاليق الخشبية على الطراز القديم، ويقع هذا الباب في الجهة الشمالية من المسجد الذي يقوم صحنه على ١٢ عمودًا من الرخام الإيطالي، لها قواعد مربعة، ويعلوها تيجان زخرفية جميلة، وفوق أعمدة الإيوان الوسط الأربعة منور مربع الشكل له ١٢ نافذة للضوء والتهوية، وتتدلى من سقفه ثريا من النحاس المفرّغ على شكل قبة من الطراز العربي بها ٢٤ مصباحًا كهربيًّا، وعلى يمين ويسار هذه الثريا ثريتان أصغر منها، ومن نوعها المفرغ الجميل بكل منها ١٨ مصباحًا، وبصحن المسجد تسع نوافذ كبيرة فوق كل منها نافذتان من الزجاج الملون، وعلى جانبي المحراب عمودان من الرخام على هيئة الضفيرة، تزخرفها نقوش برتقالية اللون، هما والمحراب، الذي تعلوه الآية القرآنية الكريمة: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ ﴾، ثم يعلو هذه الآية كوَّة (طاقة) مستديرة بالألوان الزجاجية، وعلى يسار المحراب أربع لوحات بالخط الثلث البارز بها آيات قرآنية، والمنبر من الخشب الثمين وعلى يمينه حجرة الإمام، وبالجهة الجنوبية من المسجد باب كبير يطل على شارع المعزِّي المتفرع من شارع الباب الأخضر، ويؤدي هذا الباب إلى ردهة يفصلها عن صحن المسجد جدار به نوافذ، وعلى يمين الداخل باب مغلق يؤدي إلى مدافن أسرة الناضوري، ثم يلي هذا الباب باب ضريح سيدي المُنَيِّر في مصلاة كبيرة يتوسطها الضريح يحيط به سياج من الحديد المشبك، ويعلوه قبة من الزجاج، وقد كتب على غطائه الأخضر بالخط الثلث من خيوط الذهب اسم المنير، وألقابه وآية الكرسي تحتها عبارة تقول: «إن مشيد المسجد هو إبراهيم بك الناضوري سِرُّ تجار الإسكندرية (سابقًا) وذلك عام ١٣٠٩هـ (١٨٩١م)»، ولمصلاة الضريح محراب آخر ونوافذ، ويعلو الضريح قبة كبيرة على بوائك زخرفية عربية ذات شكل قوسي.

ولصحن المسجد شرفة (صندرة) للسيدات تستوعب ربع مساحة الصحن، وفي الركن الشمالي الشرقي من الصحن باب يُفْضي إلى الميضأة، ودورة المياه، وهي مكشوفة وفسيحة جدًّا، ومئذنة المسجد ذات شرفة واحدة للآذان يعلوها عمود طويل في نهايته كرة يخرج منها الهلال النحاسي.

وما من شك في أن مسجد سيدي المنير كان صغيرًا قبل أن يهدمه ويشيد مكانه المسجد الكبير الحالي إبراهيم بك الناضوري خلال عام ١٣٠٩هـ (١٨٩١م).

٧٤٤ – سيدي الواسطي – شارع – بقسم اللبان

اطلب ترجمته في «الواسطي».

٧٤٥ – سيدي ياقوت – حارة – بقسم الجمرك

يقْبع مسجد سيدي ياقوت العَرْش في الطرف الغربي من ميدان أبي العباس المرسي، ويقوم أمامه مجمّع الأضرحة الذي شيد عام ١٩٣٢م ليضم رفات أولياء الله الذين كانت أضرحتهم في سعة بعض شوارع المدينة تنفيذ لقرار المجلس البلدي بناء على اقتراح أحمد صديق المدير العام.



مسجد سيدي ياقوت

وسيدي ياقوت العرش ولد ببلاد الحبشة لأنه من أصل حبشي، واسمه الكامل ياقوت بن عبد الله، وقد وفد على الإسكندرية، وتتلمذ على يد أبي العباس المرسي، ولعله حضر دروسًا على يد أبي الحسن الشاذلي أستاذ أبي العباس، وكان من أحب التلاميذ إلى قلب أبي العباس، إذ كان يقوم على خدمته طوال حياته فقرَّبه أبو العباس إلى نفسه ثم زوَّجه من ابنته السيدة بهجة حفيدة أبي الحسن الشاذلي (انظر مادتي سيدي أبي العباس والشاذلي).

وتدل ترجمة حياة سيدي ياقوت على أنه كان عابدًا زاهدًا مستغرقًا في الصوفية والشاذلية، ويقول علي باشا مبارك في كتابه «الخطط التوفيقية»: إن مسجد سيدي ياقوت كان قد تهدم وهُجِر، فجدده أحمد بك الدخاخني شيخ طائفة البنائين بالإسكندرية سنة ١٢٨٠هـ (انظر مادة الدخاخني) وأقام شعائره، ووقف عليها أوقافًا، وكان سيدي ياقوت إمامًا في المعارف عابدًا زاهدًا وهو من أجلّ من أخذ عن سيدي أبي العباس المرسي، وهو حبشي ولد ببلاد الحبشة، وكانت له بنت فزوَّجها للإمام شمس الدين بن اللبان، وماتت في حياة زوجها فعند وفاته أوصى أن يُدفن تحت رجليها احترامًا لوالدها، ومناقب سيدي ياقوت شهيرة بين الطائفة الشاذلية، وتوفي رضي الله عنه سنة ٧٠٧هـ (١٣٠٧م)، ودفن في مسجده وقبره مشهور يُزار، وله مولد كل سنة «ليلة واحدة في رمضان»، ولا يعرف تاريخ مولده، وليس له مؤلفات، وتقوم شهرته على زهده وصوفيته وورعه وتقواه، وكل ما يعرف عنه هو ما دوَّنه علي باشا مبارك في كتابه على النحو المذكور آنفًا (انظر مادتي علي باشا مبارك وابن اللبان).

ومدخل مسجد سيدي ياقوت يطل على الشارع الذي يحمل اسمه في الجهة الغربية، وباب هذا المدخل كبير به زخارف محفورة، وتعلوه أبنية مقنطرة ذات زخارف بارزة، وهو مغلق ويفتح في المناسبات فقط، وعلى يمين الداخل من هذا الباب المحراب وجزؤه الأعلى من القيشاني وفوقه كوَّة (طاقة) مفرغة بالزجاج الملون، وبأعلى المحراب الآية الكريمة: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ ﴾.

وصحن المسجد يقوم على ستة أعمدة من الموزايكو، وهي مثمنة ذات قواعد زخرفية وتعلوها تيجان عربية الزخارف يقوم فوقها أعمدة مربعة من البناء، وإيوان المسجد الأوسط يرتفع على أربعة من هذه الأعمدة ويعلوه منور مسقوف له نوافذ في أضلاعه الأربعة وتتدلى من سقفه ثريا كهربية على النمط الحديث، ويستبين من كيان المسجد العام أن التجديد طرأ عليه حديثا فغيَّر بعض المعالم التي كان عليها يوم أن جدده أحمد بك الدخاخني، إذ إن سقفه الحالي، وعقود أعمدته من الخرسانة المسلحة، وفوق ثلث مساحة الصحن شرفة (صندرة للسيدات) والمنبر من الخشب الثمين على الطراز الأربسكا، وفي الضلع الشمالي من صحن المسجد ثلاثة أبواب اثنان يؤديان إلى المصلاة الكبيرة، والأوسط يؤدي إلى الضريح، وهو مقصورة مربعة من الخشب الثمين نصفها قضبان، والنصف الأعلى من مربعات الزجاج الأبيض، وسقفها مزين بالرسوم الجميلة الزاهية وهي وسط الحجرة، وبداخلها قبر ياقوت العرش، يغطيه سِتْر أخضر، وعلى حائط الحجرة شريط بالدهان الأصفر كتب عليه آية الكرسي بالخط الفارسي، وفوق الضريح قبة كبيرة.

والمصلاة فسيحة وتقوم على أعمدة من البناء، ولها منور مربع به نوافذ من جميع الجهات، والمسجد بأسره يتخلله عدد كبير من النوافذ على الطراز العربي، والميضأة ودورة المياه على يمين الخارج من المصلاة من الباب المطل على ميدان سيدي أبي العباس في الجهة الشرقية من المسجد الذي ليس له مئذنة.

ومن شطحات الشعراني الأسطورية عند تعرضه لترجمة سيدي ياقوت قوله إن هذا الوليّ كان يشفع في الناس وحتى في الحيوانات!!! وقد جاءته يمامة ذات يوم تشكو من مؤذن جامع عمرو بالقاهرة فركب إلى مصر معها ودخل الجامع وقال للمؤذن: إن اليمامة أخبرته أنه يذبح فراخها فأقلع المؤذن عن فعلته، وفي هذه الرواية خرافة ضخمة، وأسطورة تنافي المنطق، وتدل على شطحات الشعراني التي تجعل من كتابه «الطبقات» مؤلفًا لا يركن إليه في كتابه التاريخ.

ومن أساطير الشعراني في ترجمة ياقوت العرش أن لقبه «العرش» يرجع إلى أنه كان يسمع أذان حملة العرش في الملكوت الأعلى، أو سمِّي كذلك لأن قلبه كان لم يزل تحت العرش، وما في الأرض إلا جسده!!!.

فانظر أيها القارئ الكريم كيف يصور هؤلاء الكتاب الأولياء على غير حقيقتهم مما كان له أسوأ الأثر في نفوس عامة الشعوب الإسلامية، فصدقوا هذه الخرافات التي تخالف مبادئ الدين الإسلامي السمحة التي تدعو إلى القوة والإدراك الصحيح الصادق، والبعد عن التواكل، ونبذ كل ما يخالف الحقيقة والواقع ويقعد بالمسلمين عن طلب المعالي والرقي الاجتماعي في شتى الميادين العلمية، والاستعداد الحربي والتضحية بالأرواح في سبيل الله والأوطان.

٧٤٦- سيريزي - شارع - بقسم العطارين (شركة مصر حاليًا)

هو المهندس البحري الفرنسي «سيريزي Cerisy» الذي استقدمه محمد علي من ميناء طولون عندما اهتم بتشييد دار الصناعة (الترسانة - أو الترسخانة كما كنا ندعوها) على النمط الأوروبي الحديث، وذلك عقب الكارثة التي حلت بالأسطول المصري، والأسطول التركي في موقفه «نافارين» بشبه جزيرة المورة بجنوب بلاد اليونان في أكتوبر عام ١٨٢٧م (١٢٤٣هـ)، فاستعان سيريزي بالحاج عمر جودة (انظر هذه المادة) وبعدد كبير من الفنيين الفرنسيين والإيطاليين والمالطية، وبلغ عدد الذين يعملون بالترسانة من المصريين ٥٠٠٠ عامل ارتفع بعد ذلك إلى ٨٠٠٠، أعدت لهم ولأسرهم أكواخ بالقرب من دار الصناعة برأس التين، وبلغت مساحة الترسانة في ذلك الحين ٦٠ فدانًا، ويمتد ساحلها على الميناء الغربي حوالي ربع ميل، وتم إنشاؤه خلال عام ١٢٤٢هـ (١٨٢٨م)، وأخذت تؤدي عملها عام ١٢٤٧هـ (١٨٣١م) فاستطاعت القيام بإنتاج عدد من السفن الحربية الكبيرة كان أكثرها مزودًا بمائة مدفع، ويقول كلوت بك إن التعديلات المفيدة التي أدخلها سيريزي بك (وقد منحه محمد علي رتبة البكوية) على بناء السفن المصرية في ذلك الحين سبقت وقت إدخالها على السفن الحربية الفرنسية بزمن طويل، ذلك لأن سيريزي كان له مطلق الحرية في إظهار مواهبه الهندسية والفنية ومهارته في بناء السفن، ولم يهمل هذا المهندس تعميق الجزء الكائن أمام موقع الترسانة من الساحل فصار صالحًا لاستقبال أكبر السفن الحربية المستخدمة في ذلك الوقت، وجلب لمختلف ورش الترسانة العمال المصريين من كافة مدن القطر المصري وقراه فتعلموا فنون بناء السفن واكتسبوا خبرة ومهارة استطاعوا بفضلها أن يحلوا محل العمال الأجانب، ورقي سيريزي بك إلى رتبة اللواء، ولما استقال سيريزي بك بسبب ضغط الدول الأوروبية وتجار السفن عليه وكان هؤلاء التجار يحصلون على أرباح طائلة من بيع سفنهم لمصر، خلفه في إدارة الترسانة: حسن بك السعران (انظر هذه المادة) ومحمد بك الاستانبولي.

أما الاسم الجديد للشارع فاطلبه في (شركة مصر).

٧٤٧- سيرين - شارع - بقسم محرم بك (منصور فهمي حاليًا)

سيرين هو والد ابن سيرين وكان يعمل صانعًا في قدور النحاس، وأصله من جَرْجَرايا، وقد أسره خالد بن الوليد وصار من بين سبايا الحرب، ثم تزوج صفية مولاة أبي بكر الصديق، ورزق منها بولده الذي عاصر حسن البصري (انظر هذه المادة)، ويعد محمد بن سيرين واحدًا من الطبقة الثانية من رواة الحديث، وقد روى عن أبي هريرة (انظر هذه المادة) وعن عبد الله بن عمر، وعن أنس بن مالك (انظر هذه المادة) وعن غيرهم من أئمة رواة الأحاديث النبوية، واستقر ابن سيرين بالبصرة، واشتهر هو وأخته حفصة بالورع والتقوى، والعزوف عن الدنيا ومباهجها، وكان يعتبر حجة في تأويل الرؤيا، ولذلك فإن كثيرًا من الكتّاب المتأخرين دوّنوا رسائل في هذا الصدد، ونسبوها إليه مثل الرسالة التي عنوانها «منتخب الكلام في تفسير الأحلام»، وقد طبعت هذه الرسالة بالقاهرة عام ١٢٨٥هـ (١٨٦٨م)، ثم طبعت مرة أخرى عام ١٣١٢هـ (١٨٩٤م)، كما طبعت على هامش كتاب «تأثير

الأنام في تعبير المنام» لعبد الغني النابلسي، وكتاب «الجوامع» الذي طبع بالقاهرة عام ١٣١٠هـ (١٨٩٢م).

وتوفي ابن سيرين بالبصرة عام ١١٠هـ (٧٢٨م).

أما ترجمة صاحب الاسم الجديد للشارع فاطلبها في (منصور فهمي).

٧٤٨- سيزار - شارع - بقسم العطارين (إمام إبراهيم حاليًا)

سيزار هو الاسم الإفرنجي «لقيصر» وبما أن بقسم العطارين شارعًا يحمل اسم قيصر، فاطلب ترجمته المتعلقة بهذا الاسم.

وانظر ترجمة الاسم الجديد للشارع في (إمام إبراهيم).

٧٤٩- سيف الإسلام - شارع - بقسم مينا البصل

أول من لقب بسيف الإسلام هو خالد بن الوليد (انظر هذه المادة) المخزومي الصحابي، وقد أطلق عليه هذا اللقب البطولي النبي عليه الصلاة والسلام، واطلب ترجمة حياته، وفتوحاته، وأعماله الحربية البطولية في (خالد بن الوليد).

أما الرجل الثاني الذي قلدته شهرته البحرية الفذة لقب «سيف الإسلام» فهو الأمير الشرقي المعروف في التاريخ باسم (أسد البحر).

ففي عام ٨٩٠هـ (١٤٨٥م) ولد بالمشرق غلام لم يحدد التاريخ بكيفية قاطعة فيما بعد إلى أية أمة ينتسب! أهو عثماني الجنسية؟ أم هو عربي القومية؟ أم هو عثماني عربي معًا؟ وذلك بعد أن خضع الشرق العربي لسلطان الفاتحين القادمين من الشمال.

غير أن الثابت في التاريخ وبإجماع، هو أن ذلك الغلام صار فيما بعد من عظماء الرجال، وملأ ذكر سيرته سمع الدنيا، إذا أصبح بطلاً قوميًّا تحيطه الملايين بالاحترام والتقديس، ويلقبه المؤرخ العثماني عبد الرحمن شرف بك «بنلسون العثمانيين»، ويقول الأديب التركي علي رضا سيفي في الكتاب الذي أصدره عن حياته «إن شخصيته العظيمة فاقت جميع شخصيات العظماء في زمانه، إذ هو يفضل جميع قواد الإمبراطور «شارل كان» في المقدرة العسكرية».

وأنه كان إلى جانب ذلك حر الطبع، كريم الشمائل، لا تبهره المناصب العالية في الدولة، يعامل أسراه معاملة إنسانية، فهو رجل البحر بكل ما في هذه الكلمة من معنى.

ويقول المؤرخ الليبـي المعاصر عمر الباروني «إن أعمال هذا البطل العظيم، وخاصة موافقته على تأسيس أول مقبرة مسيحية في قاعدته، والسماح للمسيحيين بإقامة شعائرهم الدينية بكل حرية، وتسريحه الأسقف «نيقولا ماريا كارتشولو» أسقف مدينة قطانيا من بعد أسره، جميع هذه الأعمال تشعرنا بتسامحه في الشؤون الدينية، ولاسيما في مثل ذلك الدور من التاريخ الذي اشتهر بالتعصب الديني.

ولقد عاصر سيف الإسلام (أسد البحر) السلطان سليمان القانوني، والإمبراطور شارل كان «شارل الخامس»، والقائد البحري خير الدين بارباروس، والأميرال الجندي «أندريا دوريا»، وجوان لافاييت رئيس منظمة مالطة الذي كان يمتاز

بمعرفته الدقيقة لشمال إفريقيا وبخبرته في الأساطيل البحرية وبشجاعته النادرة.

وكان مولد «أسد البحر» في المشرق على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، وخاض عددًا كبيرًا من المعارك البحرية طوال عمره المديد، وخرج منها سالمًا منتصرًا.

وتدل سيرة حياته على أنه ولد ونشأ في بيت متواضع شريف، فأبوه كان مزارعًا ويدعى «ولي» وأمه كانت تنتسب إلى آل البيت واسمها «مؤمنة»، وكان «أسد البحر» مولعًا منذ حداثة سنه بألعاب القوى كالمصارعة، ورمي السهام، وكانت العادة في زمانه أنه إذا اشتدت سواعد الشبان بادروا إلى الانضمام لفرق فرسان البحر الذين يدعون «باللوند»، وفي مستهل حياته البحرية خدم مدة في إحدى السفن الحربية الأميرية حيث تعلم الفنون البحرية، وصار من أمهر المدافعين، ومن أقدر الأدلاء في البحر.

ولإشباع طموح نفسه الدافق اشترى بالاشتراك مع بعض رفاقه سفينة خاصة تولى رياستها، وسرعان ما أحرز نجاحًا مبهرًا في فنون القرصنة، مما حدا به إلى شراء سفينة أكبر، ومن ثم ذاعت شهرة «أسد البحر» وقويت رهبته في عرض البحر الأبيض المتوسط وطوله، لدرجة أن اسمه صار معروفًا عند جميع رجال البحر في ذلك العهد.

وانضم «أسد البحر» بعد ذلك إلى زعيم القراصنة في ذلك الحين «خير الدين بارباروس» وكبير رؤساء البحَّارة دون منازع، وقد ولد خير الدين بجزيرة «متلين Metellin» حوالي عام ٨٨٨هـ (١٥١٦م)، وكان في أول أمره قرصانًا تحت قيادة أخيه عرُّوج بن يعقوب الملقب ببارباروس الأول (أي ذي اللحية الشقراء) وقد اكتسب شهرة فائقة لمهارته وشجاعته، وبعد أن أسهم بنصيب مرموق في توطيد الحكم التركي في شمال إفريقيا العربي، وبعد أن صار حاكمًا على القطر الجزائري، استدعاه السلطان سليمان الأول إلى الأستانة، وعينه وزيرًا للبحرية العثمانية، وتوفي خير الدين في ٤ من يوليو سنة ٩٥٣هـ (١٥٤٦م) بالغًا من العمر ٦٣ عامًا، ودفن بالمسجد الذي تبناه في «بيوك دره».

وعندما صار خير الدين بارباروس وزيرًا للبحرية العثمانية وجد «أسد البحر» أن يحرز نصرًا جديدًا للدولة بإخضاع «الجنوبيين» عقب عقد تركيا معاهدة صلح مع جمهورية البندقية «فينيسيا»، وخلال هذه الأعمال البحرية الجريئة وقع «أسد البحر» أسيرًا في قبضة خصومه بإحدى مدن جزيرة قورسيقا حيث باغته أمير البحر الجنوبي «أندريا دوريا» بعدد من السفن يفوق عدد سفنه بكثير، إذ كان لدى «أسد البحر» اثنتا عشرة سفينة، وكان لدى خصمه سبعين سفينة.

وأرغم هذا البطل البحري على القيام بالتجديف على غرار الأسرى العاديين، وظل على تلك الحالة أربع سنوات ذاق خلالها ألوانًا قاسية من العذاب والتنكيل.

وفي هذه الأثناء استنجد «فرانسوا الأول» ملك فرنسا بالسلطان سليمان القانوني، ليعاونه على استرداد قلعة «نيس» الكائنة في جنوب فرنسا من الإمبراطور شارل الخامس إمبراطور إسبانيا، فأمده سليم بأسطول كبير بقيادة خير الدين بارباروس، وفي طريقه إلى «نيس» أمر بإرسال أسطوله قبالة مرفأ جنوه، وصوب المدافع على المدينة، ولم يقبل «بارباروس» أية جزية سوى فك أسر صديقه «أسد البحر»، وكان له ما أراد، وليثأر

من خصومه الألداء طفق «أسد البحر» يهاجم شواطئ إيطاليا وإسبانيا، ويذيق أهلها مر العذاب، وحط مدينة «نابولي» بأسرها، وعقب هذه الحملات البطولية عرف «أسد البحر» بلقب جديد هو «سيف الإسلام»، ثم استولى بعد ذلك على المهدية بتونس مما أثار حفيظة الإمبراطور شارل - كان (شارل الخامس) - فألَّب أساطيل أوروبا على الأساطيل العثمانية، فحاصرت المهدية مدة طويلة دون جدوى، وعقب سقوطها استطاع «أسد البحر» الهرب بأسطوله من جزيرة حربة، حيث ظل ينظم فرقته وأسطوله وعزم أمير البحر الجنوبي «أندريا دوريا» على أسر «أسد البحر» ولكنه استطاع التسلل بسفنه من شمال الجزيرة إلى جنوبها، بأن شق فيها قناة بسرعة مذهلة، وتوفي هذا البطل البحري في طرابلس الغرب، ودفن بجوار المسجد الكبير الذي بناه هناك، وذلك في حوالي عام ٩٧٣هـ (١٥٦٥م) بالغًا من العمر نحو ٨٠ عامًا ميلاديًّا.



حرف الشين



٧٥٠- الشاذلي - حارة - بقسم المنشية

٧٥١- الشاذلي - شارع - بقسم العطارين

يطلق لقب الشاذلي على كل متصوف يتبع الطريقة الشاذلية التي أنشأها «أبو الحسن الشاذلي» ، ومن ثَمَّ قد تكون تسمية هذه الحارة وهذا الشارع نسبة إلى رجلين من أتباع الطريقة الصوفية كان يقيمان بهاتين الجهتين ، ولاسيما أن كثيرًا من حارات مدينة الإسكندرية وأزقتها وشوارعها سميت بأسماء البارزين من سكانها ، أو من ملاك المنازل القائمة على حافتيها ، وفي حالات كثيرة باسم أول البانين أو المقيمين بها ولو كانوا من السيدات الخاملات الذكر .

غير أن لقب الشاذلي عرف به - بصفة خاصة - أحد كبار الصوفيين الذين كان لهم أثر عميق في انتشار إحدى الطرق الصوفية في العالم الإسلامي ، فقدسه الناس ونسبوا إليه الكرامات والأعمال الخارقة للمألوف ، كرؤية النبي عليه الصلاة والسلام في المنام ، وتلقي الأوامر منه بل وتلقي بعض الأوامر من الله جلّ جلاله مباشرة ، فارتفعوا بمقامه إلى مرتبة الأنبياء المرسلين ، وقد كانت هذه المزاعم وماتزال من آفات المجتمع العربي الإسلامي مما أدى إلى تغلغل التواكل في كيان هذا المجتمع .

ويضرع المفكرون في العصر الحاضر إلى الله أن يزيل كابوسه المخيف عن الصدور لتسير الأمة العربية والشعوب الإسلامية في طريق الحضارة دون معوق يحول دون لحاقها بالأمم المتحضرة ولاسيما في عهد الذرة وغزو الفضاء الراهن .

هذا ونجد في تاريخ البعثات العلمية التي أرسلها محمد علي إلى فرنسا عام ١٨٤٤م (١٢٦٠هـ) اسم حسن الشاذلي أفندي ، وقد رأيت من الملائم أن أدوِّن فيما يلي ترجمة الشيخ الصوفي وطالب البعثة إتمامًا للفائدة:

١) **أبو الحسن الشاذلي**: واسمه الكامل تقي الدين أو نور الدين أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبَّار الشريف الزرويلي الشاذلي ، ويذهب ابن عطاء الله السكندري (انظر مادة ابن عطاء الله) في كتابه «اللطائف والمنن» إلى أن وصل نسبه بالخليفة علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت النبي الكريم ، فيذكر بعد جده عبد الجبَّار سلسلة من الجدود الآخرين ليصل نسبه بالحسن بن الإمام عليّ ، وهي سلسلة تسرد هؤلاء الجدود منذ وفاة الحسن إلى عام ٥٩٣هـ (١١٩٦م) تاريخ ميلاد الشاذلي ، وما من شك في أنه ليس من السهل التأكد من حقيقة هذه الأنساب المتعاقبة طوال هذه المدة التي استغرق مضيها ستة قرون لتتسرب أرومتها النبوية الشريفة من مكة والمدينة إلى المغرب الأقصى حيث ولد الشيخ الشاذلي ، خصوصًا وأن التاريخ يذكر الشك القوي في انتساب عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية في تونس إلى الدوحة النبوية وذلك عند مبايعته خليفة للفاطميين عام ٢٩٧هـ (٩٠٩م) أي قبل ميلاد الشاذلي بثلاثة قرون تقريبًا ، وعلى كل حال فإن هذه الصلة من الإنسان منحته لقب الشريف .

ومن جهة أخرى فإن آلافًا كثيرة جدًّا من الناس لا يجدون صعوبة تذكر في وصل نسبهم بالحسن أو بالحسين ليحملوا لقب «الشريف» دون أن تمتّ أنسابهم بأية صلة إلى آل البيت المحمدي ، ففي كثير من البلدان الإسلامية يملك هؤلاء الناس حججًا يكتبها المختصون في هذا العمل الساذج

تسمى كل منها «شجرة العائلة»، وهي تسرد في أسطرها أسماء تجري بموجب آبائهم وأجدادهم، إلى أن يصل إلى أحد أحفاد علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء، ومازالت هذه الحجج تدبّج وتباع لمن يريدون أن يظلموا أسباط النبي بحمل أنسابهم المجهولة في أصولها الصحيحة الحقيقية، ومن العسير جدًّا أن يحتفظ أفراد الأسرة المتعاقبون بأسماء وألقاب الغابرين من أجدادهم أكثر من قرن أو قرن ونصف على أبعد تقدير، فكيف يستطاع الاحتفاظ بأسماء الأجداد ستة قرون أو أكثر، اللهم إلا إذا كانت من باب الاختراع والتخمين؟

ولنعد الآن إلى سيرة أبي الحسن الشاذلي، فنقول إن بعض المؤرخين يقولون أنه ولد بقرية «غُمارة» عام ٥٩٣هـ (١١٩٦م)، وهي قرية تقع بالقرب من ميناء «سِبْتة» على البحر الأبيض المتوسط عند برزخ جبل طارق بالريف المراكشي، بينما يذكر آخرون أنه ولد في شاذلة وهي موضع بجبل زعفران بالقطر التونسي، ومن ثمَّ سمِّي بالشاذلي، وهذا القول الأخير أدعى إلى التصديق لأن التسمية الأخرى التي أطلقت عليه وهي «الزرويلي» لا تنفي مولده بشاذلة، إذ قد يكون سببها نزوح أهله من مراكش «المغرب الأقصى» إلى تونس، قبل أن يولد بوقت قصير أو طويل، وتنتمي هذه الأسرة إلى قبيلة «عموان»، إحدى قبائل المغرب الأقصى، وهي القبيلة نفسها التي ينتمي إليها «عبد الرحمن القنائي» أشهر أولياء الصعيد المصري، ومازال ضريحه موضع تقديس الناس بمدينة قنا (انظر هذه المادة) وانتماء الشاذلي إلى هذه القبيلة يقوِّي الاحتمال بأنه من أصل بربري مغربي وليس من أرومة عربية خالصة تدل على عروبته الأصيلة.

ونشأ أبو الحسن في قرية «غمارة» وفي كنفها تلقى علومه الأولى وحفظ القرآن الكريم، وللاستزادة من العلم رحل إلى تونس معرضًا عن المدن الكبرى في المغرب الأقصى مثل فاس، حيث جامعة القزوين ومراكش وسِبْتَة وغيرها من المدن التي كانت تضم العديد من العلماء والفقهاء والمفكرين، ويرجع سبب تفضيله تونس على غيرها من البلدان إلى أن المذهب الشيعي كان قد بسط سيطرته على شمال إفريقيا المغربي بقيام الدولة الفاطمية في ربوعه خلال القرن الرابع الهجري، وبقيام الدولة البويهية في الشرق وبسط سيادتها على العراق المركز الرئيسي للدولة العباسية المتداعية الأركان في ذلك القرن نفسه.

وفي القرنين الخامس والسادس الهجريين بدأ المذهب السنِّي يستعيد سيادته إثر ضعف الدولتين الفاطمية والبويهية وقيام دولة سنيّة هدفها الأساسي القضاء على المذهب الشيعي أينما كان، ففي الشرق سادت دولة الأتابكة والسلاجقة والأيوبيين والمماليك في مصر والشام، وفي المغرب سيطرت دولة الموحدين في المغرب والأندلس، وكان معظم سكان هذه الدول السنية يغالون في المحافظة على قواعد المذهب السنّي ويرون في الحركات الرامية إلى نشر الآراء الفلسفية خروجًا على السنَّة وجنوحًا إلى إعادة سيطرة المذهب الشيعي تحت شعار التفلسف الذي كان الشيعيون يأخذون به ويسمحون بتدريسه مع علوم الأوائل.

وفي هذا العصر نفسه حدث انقسام العالم الإسلامي إلى دول عديدة، فصرف اهتمام بعضها عن البعض الآخر، وحدث في أثنائه ضعف العالم الإسلامي مما جرأ الأوروبيين المسيحيين على غزو الشام بواسطة الصليبيين وغزو الأندلس

بوساطة الطامحين إلى إعادة هذه البلاد إلى السلطان المسيحي بالقضاء النهائي على الدويلات الإسلامية الضعيفة المتفككة الروابط في شبه الجزيرة الإسبانية.

وفي هذا الجو المليء بالأحداث الجسام نشطت الحياة الروحية وقويت الحركة الصوفية وكثر عدد المتصوفين بسبب الروح المتخاذلة المعترفة بالعجز عن حماية الأقطار الإسلامية من هجمات المغيرين الأجانب، ومن ثَمّ ركن المتعلمون من المسلمين إلى القوة الروحانية العليا بغية الإحساس في كنفها بالاطمئنان النفسي ولجؤوا – مع الأسف الشديد – إلى التدين الجامح والاستغراق الكلي في العبادة والزهد يلتمسون فيهما السكينة وينسون في رحاب الله عوامل القلق والاضطراب والفزع، ومن ثَمَّ نشطت الحركة الصوفية وأخذ بعض الصوفيين يمارسون حياة روحية خالصة، وأخذ البعض الآخر يخلط التصوف بالفلسفة والروح بالفكر.

وما من شك في أن هذا الغلو في التدين قد جرَّ أفدح الويلات على الإسلام والمسلمين لأن هذا الغلو التديني صرف الملايين في العالم الإسلامي بوجه عام وفي العالم العربي بشكل خاص عن الروح الجهادية لطرد الأعداء من بلادهم بقوة السلاح والكفاح الدائب، وجرَّ بهم إلى الاستسلام لظروف الدهر دون أن يتغلبوا عليها بالصمود والصبر والجهاد في سبيل دينهم وأوطانهم، ويقيني أن معظم هؤلاء المتصوفين لم يفقهوا التصوف على حقيقته الفلسفية، ومازالوا يجهلون هذه الحقيقة، فأدى ذلك إلى ما تشكو منه الأمة العربية والإسلامية من بدع وتواكل يتفاقم ضررها على مر السنين.

فقد كان بين صحابة رسول الله رجلان ينطبق على زهدهما النقي وتقواهما الخالصة لله وحده وكفاحهما البطولي في سبيل الدين الإسلامي، وإعلاء كلمته في غير تواكل أو خنوع أو استكانة، وهذان الرجلان الورعان هما أبو ذَرّ الغفاري وحذيفة، وإذا رددنا كلمة «صوفي» إلى الكلمة اليونانية وهي «صوفي» أي الحكمة، وقد تكونت منها ومن لفظ «فيلو» أي الصديق أو الصاحب، كلمة «فيلوسوف» أي فيلسوف، فإن هذا المعنى ينطبق على الرجل الحكيم الصائب الرأي الجاد في كل مراحل سلوكه، وليس على الرجل المستغرق في العبادة والزهد والانصراف عن الدنيا وعن كل ما يتطلبه وطنه وأهله من جهوده وأعماله الخيرة المثمرة، ويلاحظ أن كلمة «صوفي» بالمفرد لم تطلق لأول مرة إلا في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري على «جابر بن حيَّان» الذي عاصر هارون الرشيد في معظم سنوات حياته، وجابر بن حيَّان من أهل الكوفة وكان شيعيًّا من المشتغلين بالكيمياء (انظر مادة جابر بن حيَّان)، وكان في الوقت نفسه من أصحاب الفلسفة.

ويؤيد إرجاع كلمة «صوفي» إلى كلمة الحكمة باللغة اليونانية أن اسم «صوفيا» منتشر حتى الآن بين المسيحيين، ويطلق على مسجد إسطنبول الجامع اسم «آيا صوفيا» لأنه كان في الأصل كنيسة «للقديسة صوفيا Sainte Sophie» الأرملة المسيحية التي عُذِّبت حتى الموت في عهد الإمبراطور الروماني «أدريان» فأُدخلت في زمرة الشهداء النصارى، ويقول معظم المفكرين المسلمين إن كلمة الصوفي مشتقة من الصوف، والتصوف في عرفهم مصدر الفعل الخماسي المصوغ من كلمة صوف للدلالة على لبس الصوف، ومن ثمَّ كان المتجرد لحياة الصوفية يسمى صوفيًّا، ويعني أن هذا القول تخريج لتثبيت

الزعم بأن الكلمة عربية وليست يونانية، مع أن التحليل المدوَّن قبل يردُّ التصوف إلى معناه الحقيقي وهو اتباع الحكمة التي لا تجر صاحبها إلى الدجل أو الشعوذة، وهما أمران يأباهما الإسلام الذي هو دين الفطرة النقي من كل الخزعبلات التي تحط من شأنه كدين يهدي إلى الرشد ويحضّ على الكرامة والشجاعة والجهاد والعلم الصحيح والقوة في الحق والابتعاد عن الخنوع أو الخضوع أو الاستكانة للتفرغ الكلي للزهد والتعبد دون السعي في مناكب الأرض والأكل من أرزاقها بالعمل وعرق الجبين في غير تواكل أو استضعاف.

ولقد أسخط الفقهاء والمتكلمون رؤيتهم أناسًا يتحدثون عن نشدان الضمير والاحتكام إلى قضائه الباطن، في حين أن شريعة القرآن الكريم تحاسب على الأعمال الظاهرة وتعاقب الناس على آثامهم، ولا حيلة لها مع النفاق في الدين، ومن ثَمَّ عمل هؤلاء الفقهاء الحكماء في العصور الأولى للإسلام على أن يوضحوا للناس أن حياة الصوفية مؤدية بهم لا محالة إلى الزيغ لأنهم يقولون إن النيَّة مقدمة على العمل، وإن السنة خير من الفرض، وإن الطاعة خير من العبادة، وكانت فرق الخوارج أول الفرق الإسلامية التي ظهرت عداوتها للصوفية.

ثم أجمع أهل السنَّة بعد ذلك على إنكار التصوف وأخذ ابن حنبل على التصوف أنه يغذي الفكر ويصرف أصحابه عن ظاهرة العبادة، ويحملهم على طلب الخلوة مع الله، فيستبيحون إغفال الفرائض، وجعل بعض تلاميذ ابن حنبل المتصوفة طائفة من الزنادقة الروحانية، أما المعتزلة والظاهرية فيستنكرون العشق في الله لأنه يقوم من الناحية النظرية على التشبيه، ويقوم من الناحية العملية على الملامسة والحلول وهو ما يستنكره الدين الإسلامي ويتبرأ منه.

وكان لابد للتصوف أن ينزلق في متاهات علم ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) مثل البحث في مسائل الجوهر الفرد والمادية والاتفاق، وهي أبحاث تنكر روحانية البحث بل بقاءها وتخلط بين الوحدة الوجودية والوحدة العددية، مما أدى إلى انزلاق الصوفية في زندقة الحلولية، ومن ذلك قولهم إن النفوس المقبلة على الله تستطيع أن تتصل بالحضرة الإلهية!! وزعمهم أن الصوفي يتوصل إلى مخاطبة الله في حالة دخوله مرحلة الوجد الكلي الذي يؤدي إلى التغيير في أعماق نفس العبد فيصله إلى الذات الإلهية إدماجًا، وهذا الزعم يجعل لله سبحانه وتعالى أولياء في الأرض وشواهد.

وهو زعم مردود لاستحالة وقوعه ومنافاته للدين لأنه يغلِّبُ جسم الإنسان الفاني على الذات الإلهية، إذ ليس لذاتين أن يتحيزا مكانًا بعينه في وقت واحد.

وقد حار علماء الإسلام في تعديل الخلاف الكبير في العقيدة بين مذهب الوحدة عند المتصوفة ومذهب أهل السنّة الصحيح، فذهبوا إلى أن التصوف دخيل في الإسلام وأنه مأخوذ إما من رهبانية الشام، وإما من أفلاطونية اليونان الجديدة، وإما من زرادشتية الفرس وإما من فيدا الهنود.

وكان لفظ «الصوفي» حتى القرن الثالث الهجري يدل على بعض زهَّاد الشيعة بالكوفة، وعلى طائفة من الثائرين بالإسكندرية، كما كان يدل على الزندقة لامتناع بعض من أُطلق عليهم لقب «الصوفي» عن أكل اللحم.

وظهرت صيغة الجمع «الصوفية» عام ١٩٩هـ (٨١٤م) في أخبار الفتنة التي اجتاحت الإسكندرية في ذلك الحين، وكانت هذه الصيغة تدل حتى ذلك العهد على مذهب من

مذاهب التصوف الإسلامي يكاد يكون شيعيًّا نشأ في الكوفة، وكان «عَبْدَك» الصوفي آخر أئمته، وكان لا يأكل اللحم وتوفي في بغداد عام ٢١٠هـ (٨٢٥م).

وكانت العلامة الدالة على الصوفي عند معتنقي الصوفية القدامى هي «أن يفتقر بعد الغنى ويُذَلّ بعد العِزّة ويُخْفى بعد الشهرة»، وهذه الصفات تتعارض مع القرآن والشريعة الإسلامية كل التعارض، إذ الإسلام يحض على السعي والكسب الحلال لتأدية الزكاة للمحتاجين ويحض على العزة في النفس والسلوك وينهى عن الذلة والخنوع ويحض على الشهرة ليكون بين المسلمين قادة أكفاء يشتهرون بأعمالهم الصالحة وبطولتهم في سبيل الله، وفي سبيل رفع مستوى المجتمع الذي يعيشون في كنفه.

ومن العجيب أن أهل التصوف يؤثرون العلوم الإلهامية دون التعليمية ويعدونها المعرفة الحقيقية والمشاهدة اليقينية التي يستحيل معها إمكان الخطأ، ولذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون والبحث عن الأقاويل والأدلة، بل قالوا إن الطريق إلى تحصيل تلك الدرجة بتقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والإقبال بكل الهمة على الله تعالى!! ولكن كيف يرتقي تفكير هذا الصنف من الناس دون التعمق في التعليم وتحصيل المعرفة بالدروس لتثقيف الإدراك والارتفاع به إلى أعلى درجة مستطاعة؟؟ أرُقي الإنسان في مدارج الحضارة يأتي بالانقطاع إلى العبادة والزهد وترديد الأذكار والأوراد دون توسيع أفق العقل البشري بالعلوم والمعارف في شتى المجالات الفكرية؟؟ أَوَ ليس التمسك بهذا السلوك سبيلاً إلى بقاء الإنسان خاملاً جاهلاً لا فائدة منه للمجتمع، ولاسيما في الوقت الحاضر الذي هو عصر العلم في أرقى معارفه؟؟ إلا أن أتباع هذا الطريق المؤدي إلى الجهل والذلة لأقسى ما يَبْتلي المجتمع العربي والإسلامي بأفدح الضرر في الحياة الإنسانية.

ويقول المرحوم الأستاذ مصطفى عبد الرازق شيخ الجامع الأزهر الأسبق في تعليقه على كلمة «تصوف» في دائرة المعارف الإسلامية، إن المتصوفة تعرضوا للكلام في حقائق الموجودات العلوية والسفلية على وجه لا يفهمه من لم يشاركهم في أذواقهم ومواجدهم، ثم قالوا: «إن أهل المجاهدة يدركون كثيرًا من الواقعات قبل وقوعها!!! ويتصرفون بهممهم وقوى نفوسهم في الموجودات السفلية وتصير طوع إرادتهم!!! وتوغلوا في ذلك كله متأثرين بمذاهب الإسماعيلية!!! واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم وظهر في كلامهم القول بالقطب ومعناه رأس العارفين، وهو بعينه ما تقوله الرافضة، وبلغ تأثرهم بهذه المذاهب المفرطة من مذاهب التشيع أنهم لما أرادوا أن يجعلوا لباس خرقة التصوف أصلاً لطريقتهم رفعوه إلى عليّ – رضي الله عنه».

وفي هذا التحليل القيم للأستاذ عبد الرازق ما يعطينا فكرة واضحة عن أهل التصوف، فهم يزعمون أن التعمق في تصوفهم يجعلهم علماء بالغيب وعلم الغيب عند الله وحده، فإدراكهم للكثير من الواقعات قبل وقوعها – كما يدّعون – يضعهم في صف أرفع من صفوف الأنبياء والمرسلين الذين يقرون أن علم الغيب من خصائص خالق الوجود، وأما تأثر المتصوفة بمذاهب الإسماعيلية فظاهر فيما يدعون من معرفة للعلوم الروحانية التي علمها عند الله وبلوغ أقطابهم درجة سماوية عليا تقربهم من صاحب العرش الواحد القهار.

ويستطرد الأستاذ عبد الرازق فيقول: «إن للمتصوفة ألفاظًا موهمة الظاهر، صدرت عن كثير من أئمتهم يعبرون عنها في اصطلاحهم بالشطحات، والشطح لفظة مأخوذة من الحركة، يقال يشطح إذا تحرك، وهي عبارة مستغربة في وصف وَجْدٍ فاض بقوته وهاج لشدة غليانه وغلبته، فهي حركة أسرار الواجدين إذا قوي وَجْدُهم فعبروا عن وجدهم بعبارات يستغرب سامعها، ومن ذلك ما يُروى عن أبي يزيد البسطامي المتوفى سنة ٢٦١هـ (٨٧٥م) أنه قال عن الله: «رفعني مرة فأقامني بين يديه»، وقال لي: «يا أبا يزيد إن خلقي يحبون أن يروك»، فقلت: «زَيِّني بوحدانيتك، وألْبِسْني أنانيتك، وارفعني إلى أحَدِيَّتك حتى إذا رآني خلقك قالوا رأيناك، فتكون أنت ذاك ولا أكون أنا هناك!!!»، وحكي عن هذا الصوفي أيضًا أنه قال: «أول ما صرت إلى وحدانيته فصرت طيرًا جسمه من الأحدية وجناحه من الديمومة، فلم أزل أطير في هواء الكيفية عشر سنين حتى صرت إلى هواء مثل ذلك مائة ألف ألف مرة، فلم أزل أطير إلى أن صرت في ميدان الأزلية فرأيت فيها شجرة الحادية» (انظر مادة البسطامي).

فهذه الأقوال التي ترددت على لسان أبي يزيد البسطامي ولسان غيره من كبار المتصوفة تجعل منهم أكبر من أنبياء يخاطبون الله جل جلاله وكأنه منهم، ويدعون على الخالق المهيمن القدير أقوالاً لا يقبلها عقل ولا يستسيغها ذوق علمي حصيف، ولكن تنفذ إلى وجدان العامة وقليلي الحظ من الثقافة، فيعتقدون أنها صحيحة ويؤمنون بقائليها في غير تحفظ، فيسيطر هؤلاء على البسطاء من الناس بهذا النفوذ الروحاني الموهوم الذي يقعد بهم عن النظر إلى الحياة نظرة فاحصة حقيقية، فيستسلمون للأوهام التي لا تفيدهم في السلوك العلمي المنتج المفيد.

وقد أصاب الأستاذ عبد الرازق في قوله عندما تعرض لما يزعمه الصوفيون في الوقت الراهن من كرامات للأولياء: «إنه لا يريد التعرض لدور الانحطاط الذي انتهى إليه التصوف في العهود المتأخرة بعد صدر الإسلام وفجره وضحاه، وهو الدور الذي مازلنا نشهده والذي جعل من طريقة الإخلاص والزهد والورع والعرفان والخير أداة غش ومطامع وجهل وفساد».

والواقع أن معنى التصوف كان ينطبق على العبادة الخالصة لله سبحانه وتعالى، مشفوعة بالورع والزهد في الدنيا وزخرفها مع العمل الصالح في سبيل الله وفي سبيل الإنسانية، بغية الوصول بالإنسان المسلم إلى أرقى درجات الكمال من حيث الجهاد والإنتاج المثمر المفيد في جميع أطوار الحياة، في غير استغلال أو جشع أو تعدٍّ على حقوق الغير أو الوصول إلى السيطرة على النفوس الساذجة، بمزاعم يرفضها العقل والعلم رفضًا قاطعًا، بل يتبرأ منها الدين الإسلامي الحنيف دين الفطرة الإنساني.

هذه هي خلاصة ما يراه العقل البصير في التصوف وما يتمناه كل مسلم في عصر العلم والحضارة الراهن من رجوع إلى الواقعية الحقة في العبادة التي تخلص في سبيلها إلى الله تعالى، وتخلص في دنياها إلى رفعة العالم الإسلامي بالعمل والعلم الجاد المتطور بغية اللحاق بركب الأمم الراقية دون النظر إلى الخلف ودون الركون إلى عوامل التخلف، حتى نقضي على أطماع الطامعين فيما لدى العرب والمسلمين في كافة بقاع الأرض من أرزاق مغدقة الثروات جزيلة القيمة المادية، وإن كان ولابد من أن يكون بيننا متصوفون، فليكونوا على مثال أبي ذرٍّ الغفاري وحذيفة من زهَّاد صدر الإسلام.

وعندما كان أبو الحسن الشاذلي في أوائل سنوات نشأته، كان بالمغرب العربي أبو مدين التلمساني الذي أُضفي عليه لقبُ القطب الغوث، وأبو مدين هو شعيب بن الحسين الأندلسي (انظر مادة أبو مدين) ولد بالأندلس وقضى معظم حياته الصوفية بالقطر الجزائري ومات ودفن في طي تربته، وبعد أن حفظ القرآن الكريم نزح إلى فاس لتحصيل العلم، ثم تحول بكليته إلى التصوف حتى بلغ مرتبة «القطب الغوث» عند المتصوفة، وذلك بعد اتصاله بالصوفي المشهور عبد القادر الكيلاني (انظر مادة عبد القادر الكيلاني) واستكمال دراسته الصوفية على يديه في مكة وفي العراق، واستقر «أبو مدين» بميناء بجاية بالجزائر، وأخذ في تعليم مريديه، ولما كانت تعاليمه الصوفية تخالف مذاهب فقهاء دولة الموحدين عقدوا النية على اغتياله فأرسل السلطان الموحدي «أبو يوسف يعقوب الملقب بالمنصور» يستدعيه إلى فاس، فخرج أبو مدين للسفر إليها في ركب مع أتباعه ولكنه توفي في مكان يبعد فرسخًا واحدًا عن مدينة تلمسان عام ٥٩٤هـ (١١٩٧ – ١١٩٨م) ودفن حسب وصيته برباط العبَّاد بالقرب من هذه المدينة ومازال قبره يزار حتى الآن، ومن تلاميذ أبي مدين الفيلسوف الشهير «ابن العربي» (انظر هذه المادة).

وكانت الدولة الموحدية في المغرب الأقصى ترعى في أول قيامها الحياة الفكرية وتشجع العلماء والمفكرين، ومن أمرائها الذين خصوا الحركة العلمية برعايتهم «أبو يعقوب يوسف ابن عبد المؤمن» الذي تولى الحكم عام ٥٥٩هـ (١١٦٣م) وتوفي عام ٥٨٠هـ (١١٨٤م) وكان على علم غزير بأخبار العرب وتاريخ أيامهم ومآثرهم في الجاهلية والإسلام، وقد وجّه عناية شديدة لتوسيع محيط إدراكه ومعرفته، وكان محبًّا للعلماء وللفلاسفة بوجه خاص، فقرب إليه عددًا كبيرًا منهم فعاش في بلاطه الفيلسوف المغربي ابن الطفيل (انظر هذه المادة)، وهو أحد من حاولوا المزج بين الفلسفة والتصوف، وقدم لأبي يعقوب صديقه ابن رشد (انظر هذه المادة) فقربه إليه وولاه قضاء إشبيلية.

ولكن المجتمع الإسلامي المغربي في ذلك الحين لم يرض عن سياسة الخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف ذلك، لأن هذا المجتمع كان شديد التمسك بالمذهب السنِّي والمحافظة على قواعده وأصوله ونبذ كل ما يخالف هذه القواعد والأصول، وقد استجاب الخليفة أبو يوسف بن أبي يعقوب يوسف لرغبات المجتمع فاضطهد الفلاسفة واتهم ابن رشد بالزندقة وحاكمه عام ٥٩١هـ (١١٩٤م)، وأرسل في استدعاء «أبي مدين» للقضاء عليه وعلى تعاليمه الصوفية، ويقال أنه أمر بأن يكبل بالحديد ويرسل إليه مقيدًا ولكنه توفي قرب تلمسان كما تقدم القول.

وفي هذا الجو القاتم بالنسبة للمفكرين ولاسيما الفلاسفة منهم، لم يكن في وسع الكثير من أئمتهم إلا الرحيل عن المغرب الأقصى وفي مقدمتهم محيي الدين ابن العربي الذي ترك الأندلس والمغرب عام ٥٩٨هـ (١٢٠١م) بعد أن شاهد مأساة أستاذه في الفلسفة ابن رشد وأستاذه في التصوف أبي مدين (انظر هاتين المادتين).

وإزاء هذا الاضطهاد الفكري بادر أبو الحسن الشاذلي الى الذهاب إلى تونس حيث كانت حرية الفكر مكفولة إلى حد ما، وحيث يقيم بعض كبار المتصوفة أمثال أبي سعد الباجي وأبي محمد المهدي، وقد عاصرهم أبو الحسن

طوال تلقيه التعاليم الصوفية في البلاد التونسية خصوصًا وأن تعاليم أبي مدين الروحية الصوفية كانت تسيطر على الأذهان وتغذي الميل إلى التصوف، والإقبال على الزهد والاندماج في الروحانية بغية الوصول إلى الاندماج في الله، على حد ظن المغرقين في التصوف، وفي هذا الوسط المشبع بالصوفية نشأ أبو الحسن وتلقى تعليمه التصوفي، ولكنه لم يقنع بهذا القدر من العلم الروحاني، فعزم على الرحيل إلى الشرق لتأدية فريضة الحج ثم الاستزادة من التعليم على أيدي شيوخ المشرق الصوفيين المشهورين، وقد بدأ رحلته هذه عام ٦١٥هـ (١٢١٨م) وهو في الثانية والعشرين من العمر، وقد مر برحلته على الإسكندرية، وبعد الحج زار الشام والعراق وأخذ عن علمائهما واستمع إليهم ولاسيما العبّاد والزهاد والمتصوفة، وفي العراق اتصل اتصالاً وثيقًا بالشيخ أبي الفتح الواسطي (انظر مادة الواسطي) أكبر تلاميذ الرفاعي (انظر هذه المادة)، وذلك عام ٦١٨هـ (١٢٢١م) وكانت للواسطي منـزلة رفيعة عند الرافعية، مما جعلهم يرسلونه إلى مصر لنشر الطريقة الرفاعية في ربوعها، فوصل إلى الإسكندرية عام ٦٣٠هـ (١٢٣٢م)، وأقام بها مدة يعظ الناس ويدعوهم إلى طريقته، وكان يلقي دروسه في مسجد العطارين (انظر مادة مسجد العطارين)، وقامت بينه وبين فقهاء المدينة وعلمائها مساجلات وخصومات علمية وفقهية كثيرة بسبب تمسك هؤلاء العلماء والفقهاء بالمذهب السني المالكي الذي لا يقبل النـزعة الصوفية الفلسفية المؤدية إلى الإبهام والشطط والقول بالكرامات والوصول بالعبادة والزهد إلى المراتب العلوية القريبة من الله في وحدانيته التي لا تقبل الشركاء في عليائها وتنـزهها عن أي نوع من الإشراك في فرديتها الإلهية التي لا يدانيها أحد من المخلوقات، وتوفي الواسطي بالإسكندرية عام ٦٣٢هـ (١٢٣٤م) ومازال ضريحه قريبًا من ضريح الذي يعزى خطأ لأبي الدرداء الصحابي المتوفى في دمشق عام ٣١هـ (٦٥١م) (انظر مادة سيدي أبي الدرداء).

وقد حزن الشيخ أحمد الرفاعي في العراق لوفاة الواسطي أشد الحزن وأجمع الصوفيون العراقيون على إرسال أحمد البدوي (انظر مادة البدوي) ليتزعم طائفة الرفاعية في مصر وذلك عام ٦٣٥هـ (١٢٣٧م) ولكن البدوي أنشأ له طريقة صوفية خاصة هي الطريقة الأحمدية أو السطوحية.

وعلى الشيخ أبي الفتح الواسطي تعلم أبو الحسن الشاذلي طوال إقامته بالعراق واعترف له بالعلم الغزير ولاسيما في المعرفة الروحانية الصوفية.

وتنقل الشاذلي بعد ذلك في بلدان الشرق لا يطلب العلم فقط وإنما البحث عن «القطب الغوث» الذي هو قطب الأقطاب عند المتصوفة و«القطب الغوث» في عرفهم رجل عظيم وسيد كريم يحتاج إليه الناس عند الاضطرار في تبيين ما خفي من العلوم المبهمة والأسرار، ويطلبون منه الدعاء لأنه مستجاب الدعاء لو أقسم على الله لأبره، ولا يكون القطب قطبًا غوثًا إلا إذا اجتمعت فيه جميع صفات الأقطاب الذين هو رئيسهم، وهكذا يكون القطب الغوث عند المتصوفة أرقى إنسان في الوجود لأنه مستجاب عند الله، لا يرد له طلب كأنه أحد الأنبياء المرسلين أو أرقى درجة منهم.

ولما فاتح أبو الحسن الشاذلي أستاذه الواسطي فيما يجول بخاطره أخبره الواسطي بأنه القطب الغوث في وطنه المغرب ونصحه بالعودة إلى بلاده ليلتقي به، وبعد رحلة طويلة يقول أبو الحسن أنه لقي القطب الغوث الذي يبحث عنه، وهو

«عبد السلام بن مشيش»، وكان ابن مشيش – حسب قول الشاذلي – يتعبد في قمة جبل، فاغتسل الشاذلي وخرج من علمه!!! وطلع إليه فقيرًا فناداه باسمه وذكر أسماء أجداده ونسبه إلى أن وصل بهذا النسب إلى رسول الله عليه السلام!!! وفي هذه الرواية ما يدل على أن ابن مشيش من علماء الغيب!! ولم لا؟ والقطب الغوث لا يحجبه عن خفايا الغيب وأسراره أي حجاب، فيعرف ما ظهر عند الناس وما بطن، وليس تصديق ذلك بعسير على أذهان المغرقين في روحانية التصوف العميق الغور العالم بأسرار الكون أرضية كانت أو سماوية.

ولاسيما إذا كان من بسطاء العقول الذين نرى الآلاف بل الملايين منهم في جميع الأقطار العربية والإسلامية، وقد نكبت كلها بشرور الاستعمار على مر القرون فطمست هذه الشرور الخبيثة على إدراكهم المتفتح نتيجة تركهم في الجهل يعمهون، وما من شك في أن الخلاص من قيود الاستعمار والاستغلال وبزوغ شمس الحرية على معظم هذه الأقطار سيقضي إن شاء الله قريبًا على المعتقدات التي تخالف الدين الإسلامي الناصع الشرائع الهادي إلى سواء السبيل في غير تواكل أو ضعف أو تصديق للبدع.

ويستمر الشاذلي في وصف أول مقابلة له مع ابن مشيش فيقول أنه أقام عنده أيامًا إلى أن فتح الله على بصيرته ورأى لابن مشيش خوارق عادات، وكرامات، وابن مشيش أحد أقطاب الصوفيين الأربعة في المغرب العربي، وقد دفن في جبل العالم قرب دزان عام ٦٢٦هـ (١٢٢٨م) وله كتاب «إعانة الراغبين في الصلاة» وهو مخطوط في لندن.

وأخذ الشاذلي عن أستاذه «القطب الغوث» حب الله والفناء في هذا الحب وأوصاه بأن يدمن على الشرب والمحبة وكأسهما مع السكر والصحو وكلما أفاق أو استيقظ يشرب حتى يكون سكره به، وحتى يغيب بجماله عن المحبة وعن الشرب والشراب والكأس بما يبدو له من نور جماله وقدس كماله وجلاله، وفي هذه الجمل ما يدل على الأحاجي والتشبيه الغامض من سكر وشراب ويقظة بعد الشرب وغياب عن الحياة الواقعية، وكل ذلك ليفنى العُبَّاد في الذات الإلهية فناءً مطلقًا في غيبوبة روحانية تستلزم الغياب الواقعي عن الدنيا وضياع الوقت في هذه الغيبوبة التي لا تفيد الإنسانية بشيء عملي يضع لبنة في كيان حضارتها ورقيها المادي والمعنوي.

ولما طهَّر الشاذلي نفسه من حب الدنيا ومن الإقبال على الخلق – كما أوصاه ابن مشيش طوال تتلمذه على يده بمدينة فاس بالمغرب الأقصى – وبعد أن أحب الله وفني في حبه وصفت نفسه وصار أهلاً للولاية، وقمينًا بوراثة «القطبانية» الصوفية، كما أراد ابن مشيش أمره هذا الأستاذ الروحي بالرحيل عن المغرب الأقصى والسفر إلى البلاد التونسية، ولإثبات إحدى الكرامات الغيبية لابن مشيش ذكر في سيرة الشاذلي أن هذا القطب الغوث تنبأ له بما سيحدث في مستقبله، فخاطبه قائلاً: «ارحل إلى إفريقية (أي تونس كما كان العرب يسمونها منذ الفتح الإسلامي) واسكن بها بلدة تسمى شاذلة، فإن الله يسميك الشاذلي، وبعد ذلك تنتقل إلى مدينة تونس، ويؤتى عليك من قبل السلطنة، وبعد ذلك تنتقل إلى بلاد المشرق وترث القطبانية»، وليس في ذلك التنبؤ كرامة فبعض كتاب السير بل معظمهم يذكرون أن أبا الحسن ولد في شاذلة كما تقدم القول، أما رحيله إلى الشرق بعد الإقامة في تونس

فأمر وقع بالفعل ثم أقحم على ابن مشيش ليكون كرامة من كراماته الخارقة للعادة.

وسافر أبو الحسن إلى تونس – تنفيذًا لأمر أستاذه – ولدى وصوله إليها لقي حطّابًا يُدعى أبا الحسن الأبرقي من أهل شاذلة القريبة من مدينة تونس فدله عليها، وفي الطريق ظهرت له كرامات الشاذلي فقبّل يده وحلت به البركة، فأقبلت الدنيا عليه في الرزق، وهكذا بدأت الكرامات الشاذلة تظهر منذ هذه القصة الساذجة، إذ إن التعرف على قرية شاذلة لم يكن بالعسير على الشاذلي الذي ولد في أحضانها وعرف الكثير عن مكانها من والديه وأقاربه، ولكن كان لابد من بزوغ شمس الكرامات عقب إتمام مدة التتلمذ على يد الأستاذ ابن مشيش لتحيط الشاذلي بهالة باهرة من الروحانية الربانية تمهيدًا لدخوله في حيز القطبية الغوثية فيما بعد، وكان لابد من أن يُغدق الله على الأبرقي بفضل الكرامات الشاذلية الباهرة.

وتدعيمًا لهذا الدخول المنتظر تأتي الرواية بشيخ يدعى ابن سلامة الحبيبي وتجعله يطلب من صوفي كبير يسمى أبا حفص الجاسوس أن يكون من تلاميذه، فينصحه بأن ينتظر قدوم أستاذه الحقيقي من المغرب، فارتقب حضوره بين فقراء المغاربة حتى لقيه واتخذه شيخًا وصاحبًا، وهكذا سبقت الدعاية وفادة الشاذلي على تونس.

ولم يسكن الشاذلي بقرية شاذلة نفسها، بل لجأ إلى غار في جبل زغوان المطل عليها تأسيًا بأستاذه ابن مشيش، واتخذ من هذا الغار رباطًا يتعبد فيه متقشفًا زاهدًا يشاركه في كل ذلك تلميذه الحبيبي، وطالت إقامة الشاذلي بالغار وذاعت شهرته وآمن الناس بولايته على غرار كل زعماء المتصوفة الذين يشتهر أمرهم بعد فترة النسوك بالانقطاع في غار أو في متاهة من متاهات البيداء، ومن ذلك الحين عرف بالشاذلي وقصده المريدون من الأماكن والبلدان المجاورة ومن ثَمَّ أخذ يغادر صومعته ويذهب إلى مدينة تونس يعظ وينشر دعوته وطريقته التي عرفت «بالشاذلية» والتي تفرعت منها على مر السنين أكثر من خمس عشرة طريقة أهمها: الوفائية، والعروسية، والجزولية، والهفونية.

ولم تكن مدينة تونس غريبة عليه فقد تلقى بها دروسه الأولى وهو في مرحلة الطفولة وأقام بها بعض الوقت في مرحلة الشباب، وناظر في أرجائها بعض العلماء والفقهاء، ثم وفد عليها في هذه المرحلة من حياته وهو مكتمل الرجولة، وافر العلم بالصوفية، قادر على الدخول في حالات الوجد والإتيان بالكرامات، ولذلك اشتد إقبال الملتمسين لتعاليمه وبركاته على حلقات وعظه، ونشر طريقته.

وكثر عدد مريديه وأتباعه فصار إذا سار أو تنقل مشوا في ركابه بالمئات، ويصف «المناوي» في كتابه «الكواكب الدرية» موكبه فيقول: «إذا ركب الشيخ أبو الحسن تمشى أكابر الفقراء وأكابر الدنيا حوله، وتنتشر الأعلام على رأسه وتضرب الكاسات بين يديه»، وهذا الوصف ينطبق تمامًا على ما يحدث حتى اليوم في مواكب العارفين بالله من زعماء الطرق، فتنتشر حولهم الرايات السوداء أو الحمراء أو الخضراء أو الملونة وتدق أمامهم «البازات» أي الكاسات والطبول، وزيد عليها الرقص الخليع عند أولاد أبي الغيظ، ويبتسم العقلاء من زمننا الراهن عند مرور هذا الموكب ويقولون في مرارة ساخنة: «ها هم أصحاب تَسَّم – تسِّم قد أتوا»، فمتى تتخلص فئات الأمة من هذه المواكب الصاخبة التي لا تؤدي إلا إلى الضياع وانتشار

العادات التي لا يقرها الدين الإسلامي ولا ترضى عنها شريعة محمد صلوات الله عليه لأنها مدعاة إلى التواكل وتصديق البدع.

وكان من نتائج هذه المواكب الدالة على البدع أن اطرد نموها وتنوعت أشكالها فتفرع منها مواكب سيدي عبد السلام الأسمر وسيدي ابن عيسى التي تضم مجموعة كبيرة من ضاربي الدفوف الرحبة، يتقدمهم بعض أبناء الطريقتين وهم يتصنعون الدخول في الوجد الكلي (أي يتطورن) ويقلد بعضهم الأسود بالزئير الساذج أو بعض الحيوانات المتوحشة وهم يطوحون بالرؤوس في حركات غاية في العنف تتدلى من وسط رؤوسهم شعور طويلة تتوافق في هزاتها تطويح الرؤوس وحركات الأبدان، ويدخل البعض الآخر الدبوس في خده الأيمن ليخرج من الخد الأيسر، وهو يزمجر بين تكبير زملائه في الطريقة، والدبوس عبارة عن كرة من النحاس لها دلايات تخرج من حولها وتنتهي بقطع نحاسية مستديرة، وفي الكرة الدبوس النحاس بطول ٥٠ سنتيمترًا، وهو الذي يخترق خدي المنطور الشديد الوجد الذي لا يشعر بالألم بفضل كرامة سيدي عبد السلام أو سيدي ابن عيسى، ومن هذه المناظر المؤلمة اتخذ المئات بل آلاف من الرجال والنساء والأطفال خرق وجوههم أو صدورهم بالدبابيس أمام رواد المقاهي والمحال العامة، في مناظر مؤذية تمجها الأذواق، ويدعو الناس الله أن يقرب وقت اختفائها من البلاد هي، والنوم فوق السيوف أو اللوحات المليئة بالمسامير، أو وضع اللهب في الأفواه، وكل هذه الشعوذة أخذت عن طرق السلامية والعيسوية والرفاعية والأحمدية وما إليها. . . التي مازال مريدوها يمارسون هذه الألوان من الأعمال التي تعزى إلى كرامات الأولياء أصحاب هذه الطرق، وهي لا تمتّ إلى الكرامات بِصلة، إذ يأتي بها الآن المتسولون في الطرقات وأمام المحال العامة، بل وفي مركبات الترام دون رقيب أو حسيب، وهذا ما جره التصوف غير النقي على الأمة العربية والإسلامية من ويلات.

وكان من الطبيعي أن تثير مواكب الشاذلي الحافلة الصاخبة سخط الفقراء والعلماء السنيين في تونس لدخولها في طائفة البدع، وكان هذا السخط الغاضب للحق ولأصول الشرع سببًا في جر الشر على الشاذلي، فتعرض للكراهية والنقد اللاذع ولاسيما من قاضي الجماعة وعالمها في مدينة تونس أبي القاسم ابن البراء الذي لاحظ أن الناس ينفضون من حوله، وهو الواعظ السُّنِّي القائل بالكتاب والسنة، ويهرعون إلى حلقات الشاذلي ومواكبه، يلتمسون البركات من الوالي القطب، فلم يسع ابن البراء إلا أن ينبه سلطان تونس أبا زكريا ابن أبي زيد بن أبي محمد عبد الواحد الحفصي الذي بدأ حكمه عام ٦٢٤هـ (١٢٢٧م)، والذي بعد أن خرج على طاعة الدولة العباسية واتخذ لنفسه لقب أمير المؤمنين وأسس الدولة الحفصية ونقل التراث العربي الأندلسي إلى بلاده، فصارت تونس مركزًا عمرانيًّا وثقافيًّا هامًّا، وبعد أن زود دار الكتب التونسية بنحو ٣٦,٠٠٠ كتاب من الكتب القيمة، وبعد أن استولت جيوشه على قسطنطينية وبجاية والجزائر وتلمسان والأندلس تلبية لاستنجاد أهله به، بعد كل هذه الأعمال المجيدة وافته المنية في ميناء عنَّابة (بونة) عام ٦٤٧هـ (١٢٤٩م).

إلى هذا السلطان الحفصي المثقف توجه ابن البراء بالتنبيه محذرًا من نفوذ الشاذلي المطرد على عامة الشعب مما قد يؤدي إلى استطاعته بإقامة ملك خاص به اعتمادًا على أنه من نسل

عليّ بن أبي طالب وفاطمة الزهراء، وذلك على غرار ما فعل الفاطميون إقامة دولتهم في تونس، ومن جهة أخرى اتهم ابن البراء الشاذلي بالزندقة والإلحاد والخروج على الدين، مما قد يؤثر على غير المثقفين من الشعب فيضلون سواء السبيل.

وعقد أبو زكريا الحفصي اجتماعًا حضره الفقهاء والعلماء، وأخذوا يستجوبون أبا الحسن الشاذلي وهو يرد عليهم، وما من شك في أن حصافة أبي زكريا أبت أن تبين الشاذلي في ذلك الحين، وقد التف حوله آلاف المريدين الذين يستطيعون إحداث الاضطراب الشديد في أمور الدولة، ففض الاجتماع واستبقى الشاذلي لديه بعض الوقت، ثم انصرف وقد عزم على الرحيل من تونس ليأمن تربص ابن البراء به ويمنع الفتنة التي قد تنشب بين أتباعه ومريديه وبين الفقهاء والعلماء وأنصارهم من أهل السنَّة السليمي العقيدة، ولا سيما أن العامة غير المثقفين من الشعوب يأتون على كل ما هو خير ونافع في الأوطان، إذا هم وقعوا تحت تأثير أصحاب الكرامات التي يتقبلها العامة دون تمحيص عقلي ناضج لتبيان صحتها أو زيفها.

ولم ير الشاذلي بُدًّا من مغادرة القطر التونسي لتأدية فريضة الحج ويقال أنه وعد أبا زكريا الحفصي بالعودة إلى تونس بعد قضاء حاجته.

وقد وصل الشاذلي إلى الإسكندرية في عهد الملك الكامل محمد الأيوبي (انظر مادة الكامل) الذي حكم مصر طوال الفترة الموافقة بين عامي ٥٧٦ و٦٣٦هـ (١١٨٠ – ١٢٣٨م) والذي قلده ريكاردوس قلب الأسد ملك الإنجليز بقلادة الفرسان الصليبيين في عكا، لما كان بينه وبين أبيه الملك العادل (انظر مادة العادل) من الصداقة، وعلى أيامه، تم تشييد القلعة بالقاهرة.

في أيام هذا الملك وصل الشاذلي إلى الإسكندرية وقد سبقه إلى القاهرة رسول يحمل رسالة من الفقيه أبي البراء مذيلة بتوقيع عدد من الشهود العلماء، توجه نظر الملك الكامل إلى أن الشاذلي يؤكد أنه شريف علوي، ومن ثم فهو يسعى إلى إعادة ملك الفاطميين الشيعيين، وجاء في الرسالة أن الشاذلي شوش على التونسيين بلادهم وكذلك سيفعل بمصر.

ومعلوم أن الأيوبيين سنيو المذهب وقد قضوا على المذهب الشيعي والدولة الفاطمية في مصر، ويخشون الحركات الشيعية التي تبغي إعادة الحكم الفاطمي إلى السلطة، وإزاء هذه الرسالة بادر الملك الكامل إلى إصدار أمره باعتقال الشاذلي عند وصوله إلى الإسكندرية وإرساله محروسًا إلى القاهرة على الفور، فحمل إلى القلعة وحوكِم أمام جمع من الفقهاء والعلماء، ولنفيه الطموح إلى إعادة الحكم الشيعي الفاطمي، وتأكيده بأنه لن يقيم بمصر إلا وقت عبوره الى الأراضي الحجازية أُخلِي سبيله.

وبعد أداء فريضة الحج عاد الشاذلي إلى تونس، لا ليقيم فيها ولكن ليصطحب كبار مريديه، وعلى رأسهم أحد تلاميذه المقربين «أبي عباس المرسي» (انظر مادة سيدي أبو العباس) الذي كان قد خرج عام ٦٤٠هـ (١٢٤٢م) من سِبْتة هو ووالداه وأخوه قاصدين الحج، فغرقت سفينتهم في البحر الأبيض المتوسط ونجا هو وأخوه من الغرق وأقاما بتونس وتعرف أبو العباس على الشاذلي ولازمه منذ عودته إلى تونس وصاحبه عند رحيله هو ومريديه نهائيًّا إلى الإسكندرية عام

٦٤٢هـ (١٢٤٤م) ومن الكرامات التي تعزى إلى الشاذلي قوله لأبي العباس: «لقد رُفِعت إليّ منذ عشر سنين» أي أنه اتصل به روحيًّا عندما بلغ أبو العباس السابعة عشرة من عمره، لأن ميلاد أبو العباس كان عام ٦١٦هـ (١٢١٩م) وقول الشاذلي أنه: «رُفِعَ إليه» يدل على اتخاذه مكانة رفيعة جدًّا، لدرجة أن أولياء الله يرفعون إلى مقامه السامي ليمنحهم قبوله الرباني، وليس من السهل على العقول قبول هذا الاتصال الروحي بين الشاذلي وبين الفتى أبي العباس عبر الأثير، ومن تونس إلى ميناء سِبْتة بالريف المراكشي حيث كان أبو العباس يتمتع بالشباب بين أفراد أسرته ولا يفكر إطلاقًا أن يصير وليًّا من كبار أولياء الله.

ولكي يكون نزوح الشاذلي إلى مصر بكرامة عظيمة بعد إقامته في تونس عامين قضاهما في تصفية أموره وانتهيا عام ٦٤٢هـ (١٢٤٤م) يقول الرواة أن أبا الحسن قال: «رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لي: يا عليَّ انتقل إلى الديار المصرية فإنك تربي فيها أربعين صديقًا».

ولابد من وقفة عند قول الرواة في رؤية أبي الحسن الشاذلي للنبي الكريم في المنام، وهو قول يكثر ذكره في سير الصوفيين بنوع خاص، ولو رجعنا إلى سبب حدوث الأحلام من ناحية علم النفس التجريبي لاستطعنا أن نرجع هذا السبب إلى عمل الجهاز العصبي في الإنسان الذي تصدر أرجاعه العكسية والمكتسبة (أي الأعمال الغريزية والتقليدية) عن الخلايا العصبية المنتشرة ملايينها الهائلة العدد في جميع أجزاء الجهاز العصبي، ابتداءً من مركزها الرئيسي في مناطق المخ والمخيخ، والخلايا العصبية على نوعين: الأولى ذات فرشاة في أعلى جسمها وساق في أسفله وأهداب في نهاية الساق، والثانية ذات جسم فقط، فإذا استغرق الإنسان في النوم يكون سبب استغراقه انفصال خلية الوصل ذات الجسم فقط عن الخلية ذات الفرشاة والساق والأهداب، أما إن كان الإنسان في حالة النعاس فإن فرشاة الخلية تبقى متصلة اتصالاً خفيفًا جدًّا بخلية الوصل التي أمامها وتبقى الأهداب هذه الخلية نفسها متصلة بلمس خفيف تجلب الوصل الذي تحتها وهكذا يستمر التيار العصبي ساريًا في ضعف في الجهاز العصبي، وعندها تحدث الأحلام التي لا تحدث أبدًا في حالة الاستغراق في النوم العميق.

وفي الأحلام يرى الإنسان ما قد يكون قد رآه في اليقظة أو يركب على ما يكون قد رآه صورًا خيالية أخرى، ويتكون من مجموع هذه الصور الحلم الذي يتذكره عقب اليقظة، وقد تمادى الدجّالون والمشعوذون في تفسير هذه الظاهرة النفسية وجعلوا من أنفسهم علماء بالغيب، وعلم الغيب عند الله وحده ولا يعلمه إلا هو، ومازال عدد هائل من هؤلاء الدجّالين يحتالون على بسطاء العقول بابتزاز أموالهم.

يضاف إلى ذلك أن رؤية رسول الله عليه الصلاة والسلام على حقيقته لا تتاح في المنام إلا لمن رآه عين الرؤية، أي لمن كان من معاصريه من أهل مكة والمدينة، أما قول النبي الكريم: «من رآني في المنام فقد رآني حقًّا»، فإنه مقصور على الذين كانوا في زمنه.

ومن ثم لا يسع الباحث عن الحقيقة المنطقية من ناحية علم النفس التجريبي إلا أن يشك في صحة قول الرواة بأن الشاذلي رأى رسول الله فأمره بالرحيل إلى مصر ليربي أربعين صديقًا.

ولم تكن الإسكندرية ومعالمها غريبة على الشاذلي، إذ زارها في ذهابه إلى الحج وعودته منه، وأعجب بأحيائها

وبحرها وشواطئها المترامية الرملية؛ ولهذا فضل الإقامة في كنفها هو وذلك العدد الكبير من المريدين الذين صاحبوه، وفي مقدمتهم أبو العباس المرسي، وخادمه الأمين أبو العزائم ابن سلطان، ومحمد القرطبي، والأخوان أبو الحسن وأبو عبد الله البجائي.

ويقول كتّاب سيرته أنه دخل هو وأتباعه الإسكندرية من باب سدرة (انظر هذه المادة) بعد أن مروا بعمود السواري، وتسمية هذا الباب ترجع إلى عهد الفتح العربي للمدينة، إذ وجد العرب عند هذا الباب سِدْرة وهي شجرة النبق فأطلقوا عليه اسم «باب السدرة» ثم حُرِّف الاسم فصار «باب سدرة» دون أداة التعريف.

وفي حيٍّ كوم الدكة - وكان يدعى في الزمن الغابر كوم الدماس - اتخذ أبو الحسن الشاذلي مسكنًا لإقامته، أما حلقات دروسه ومواعظه وشرح طريقته الصوفية، فكان يعقدها بمسجد العطارين (انظر هذه المادة) القريب من مسكنه وبالليل كان يعقد مجالسه في داره، وكان من بين تلاميذه - غير أبي العباس المرسي - أبو القاسم القباري وابن المنير (انظر مادتي القباري وسيدي المنير) ومكين الدين الأسمر، وأمين الدين جبريل، وفي الإسكندرية تزوج وولد له أولاد منهم شهاب الدين أحمد، وأبو الحسن علي، وأبو عبد الله محمد شرف الدين، وقد كان يقطن بدمنهور.

والحق يقال إن أبا الحسن الشاذلي لم يكن يفهم التصوف، بعد النسك والتقشف الذي أخذ نفسه به في أول مراحل حياته الصوفية - كما ذكر من قبل - أقول لم يكن يفهم التصوف بعد هذه المرحلة على أنه بطالة وخمول وانقطاع كلي للزهد والعبادة على غرار المتصوفة من معاصريه وبعض المشعوذين حتى اليوم، بل كان يفهمه على أنه صفاء في النفس، وتقوى خالصة لله، وحب له، وتعلق به، وارتفاع الروح في القول والعمل عن الدنايا، وهذا المفهوم للتصوف لا يقعد بالإنسان عن السعي وطلب الرزق الحلال دون التظاهر بالفقر الذي هو نوع من الادعاء، واتباعًا لهذا المفهوم كان الشاذلي يعيش حياة منعمة رغدة، فكان يلبس الفاخر من الثياب ويركب أحسن الجياد، ويذم الملابس المرقعة التي يرتديها بعض أصحاب الطرق، ذلك لأنه كان يجد في هذه الملابس الحقيرة صوتًا يقول عن صاحبها: «أنا فقير فأعطوني إحسانًا، ومن ثَمَّ كان يقول: «ليست الصوفية بالرهبانية ولا بأكل الشعير والنخالة، وإنما بالصبر على الأوامر واليقين في الهداية».

وفي هذه الناحية يعزى لأبي الحسن في بعض الروايات وإلى خوجلي بن عبد الرحمن بن إبراهيم في بعض الروايات الأخرى، وكان مثل شيخه أبي الحسن يلبس الثياب الفاخرة، ويتبخر بالعود الهندي، ويتعطر، ويجعل الزباد الحبشي في لحيته وثيابه، يعزى لأحدهما أن رجلاً فقيرًا من الطريقة القادرية دخل إلى أحدهما وقال له: «يا سيدي ما عُبِدَ الله بهذا اللباس الذي عليك»، فأمسك الشيخ أبو الحسن أو خوجلي ابن عبد الرحمن بملابس هذا الرجل الخشنة من الشعر وقال: «ولا عُبِدَ الله بهذا اللباس الذي عليك، لباسي يقول للناس أنا غني عنكم فلا تعطوني، ولباسك يقول للناس أنا فقير إليكم فأعطوني».

ويلاحظ بالنسبة إلى هذه القصة أن الشاذلي غيَّر سلوك حياته الصوفية المتقشفة الناسكة بعد أن لبس الخرقة على يدي أستاذه ابن مشيش، وبعد انقطاعه عن الناس للتعبد في غار

بجبل زعوان بالقرب من قرية شاذلة بتونس، فالتسربل بالبُرَدِ الجميلة الثمينة، وركوب خير الجياد يدل على أنه انصرف إلى متع الدنيا وملاذها، وطيب طعامها بعد أن دانت له الولاية وأصبح من كبار الصالحين لا يخشى منازعته في ولايته الصوفية بعد استتباب الأمر لطريقته الشاذلية ودخول الآلاف من المريدين في زمرة رجاله المخلصين!!

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال يطلب الإجابة عنه، وهو من أين له الإنفاق المغدق الذي يتطلبه السير في هذه الحياة الرغدة الممتعة؟ من أين له الحصول على الموارد المالية اللازمة لهذه العيشة الراضية؟ أكانت له حرفة أو تجارة تدرّ عليه ربحًا جزيلاً يسد مطالب هذه الحياة؟ ولم يذكر كتّاب سيرته ما يدل على ذلك أو يدعو إلى الاحتمال بأن أسرته كانت من أغنياء المغرب الأقصى مما يجعلها قادرة على مدّه براتب شهري ييسِّر له ذلك الإنفاق خصوصًا وأننا نعرف أنه أنجب أولادًا تتطلب تربيتهم الكثير من المال!! وقد خرج من المغرب الأقصى شبه مطرودا!!

لا يسع الباحث في هذا الصدد إلا أن يذهب في الظن إلى أن موارده المالية كانت تأتيه عن طريق دفع مريديه وتلاميذه المتصوفين هذه النفقات متعاونين في جمعها يوميًّا أو شهريًّا على غرار من نراه حتى الآن بالنسبة إلى موارد مشايخ الطرق الصوفية المختلفة الذين لا يكدون في الحصول عليها، وهي تتدفق عليهم من الإتاوات التي تفرض على المريدين وإخوان الطريقة، أو من نذور الأولياء الذين يزعمون هؤلاء المشايخ أنهم من نسلهم عبر الأجيال المنصرمة، وأمثلة ذلك كثيرة في نقباء مساجد كبار الأولياء في القطر المصري.

ولنعد الآن إلى السير في ركاب شيخنا أبي الحسن الشاذلي لنر أنه كان يدعو أتباعه إلى العمل والسعي في طلب الرزق، ويكره المريد العاطل الذي يركن إلى البطالة، ويرتزق من سؤال الناس، وكان يرى في العمل نوعين من العبادة، إذ يقول لمريديه: «عليكم بالسبب – أي العمل – وليجعل أحدكم مكوكه سبحته أو تحريك أصابعه في الخياطة أو الضفر سبحته»، وما كان له أن يدعو إلى غير ذلك واعتماد معيشتهم على ما يكسبون من أرزاق بالكد والعمل والكفاح من أجل لقمة العيش، وهم المصريون الكرماء البسطاء الذين كانوا مضيافين على مر القرون الخالية ومازالوا على هذا السلوك من الحياة حتى الآن، ولاسيما إزاء الأولياء أو أدعياء الولاية.

ولم يقتصر الشاذلي في وعظه على مدينة الإسكندرية وإنما جعله يشمل أكبر رقعة في القطر المصري، فكان دائم الرحلات إلى المدن المصرية الكبرى، فتردد على مدينة دمنهور حيث زوّج ابنته رقيّة إلى الشيخ علي الدمنهوري (انظر مادة الدمنهوري)، ثم زار دمياط والمنصورة ومعظم دول الوجه القبلي الكبرى، وذلك في أثناء رحلاته الكثيرة إلى الحج، ومن جهة أخرى تردد كثيرًا على القاهرة، وفي جميع هذه المدن كان يعقد حلقاته المعتادة للوعظ ونشر دعوته إلى الطريقة الشاذلية، وتذكر المراجع أنه كان يعقد حلقاته بالقاهرة في مسجد المقياس بجزيرة الروضة أو في مدرسة الكاملية التي بناها السلطان الكامل محمد الأيوبي لتدريس الحديث بوجه خاص.

وكان يتردد على حلقات وعظه عدد من مشاهير العلماء الذين كانت القاهرة تعمر بهم من أمثال عز الدين عبد السلام (انظر مادة العزّ بن عبد السلام) العالم الجريء القوي

وتقي الدين ابن دقيق العيد أحد كبار القضاة، ومحيي الدين ابن سراقة من أعلام المدرسة الكاملية، وابن عمرو عثمان بن الحاجب (انظر مادة ابن الحاجب) وهو من أبرز علماء العصر بالنحو وعلم اللغة العربية، ومكين الدين الأسمر شيخ القراء وابن صلاح (انظر هذه المادة) وهو مفتي الشام ومحدثها في ذلك الوقت، وعبد العظيم المنذري (انظر مادة المنذري) المحدث العظيم وشيخ المدرسة الكاملية، وكثيرًا ما كانت تقوم بينه وبينهم مناقشات ومساجلات علمية في مسائل الصوفية المختلفة ولا سيما فيما كان يقوله خاصة باقترابه من الله عن طريق التصوف على طريقته الشاذلية، وما من شك في أن هذه المناقشات كانت تنطوي على معارضة هؤلاء العلماء.

وأهم الكتب التي كان الشاذلي يقرؤها على مريديه أو يشرحها لهم في الحلقات التي كان يعقدها، وكلها من الكتب الصوفية، كتاب ختم الأولياء لمحمد بن عبد الله الترمذي (انظر مادة الترمذي) وهو من علماء القرن الثالث الهجري، وكتاب قوت القلوب لأبي طالب المكي من علماء القرن الرابع، والرسالة القشيرية لأبي القاسم القشيري (انظر مادة القشيري) وتتناول هذه الرسالة علوم الصوفية وتاريخهم، وكتاب «إحياء علوم الدين» لأبي حامد الغزالي (انظر مادة الغزالي) والقشيري والغزالي من رجال القرن الخامس، وكتاب الشفاء في التعريف بحقوق المصطفى للقاضي عياض (انظر هذه المادة) وهو من رجال القرن السادس.

ومن المسلَّم به عند مؤرخي سيرة الشاذلي أن بصره كفّ بعد استقراره بالإسكندرية بأربعة أعوام، أي خلال عام ٦٤٦هـ (١٢٤٨م) على وجه التقريب، وعندما دخل عليه أبو العباس المرسي عقب فقدانه بصره سأله عن عمره فقال أبو العباس أنه بلغ الثلاثين، فرد الشاذلي قائلاً: «بقيت عليك عشرة أعوام وترث الصديقية (القطبانية) من بعدي»!! أو ليس في هذا القول ما يشم منه رائحة التدرج في الرتب الكهنوتية عن طوائف الرهبان المسيحية التي تمنح رجالها الدرجات حتى يصلوا إلى مرتبة «الكردنالية» ومن الكرادلة يختار «البابا» الكاثوليكي؟؟ كيف تحدد مدة التقوى والتعبد الصافي بأربعين سنة؟! والدين الإسلامي الحنيف السمح يقول إن أكرم الناس عند الله أتقاهم، دون تحديد للسن أو نوع العبادة التي يمارسها ما دامت في حدود كتاب الله وسنة رسوله الأمين؟؟ إلا أن الإسلام دين الفطرة القويم لا يقرّ هذا التحديد الزمني للصالحين من عباد الله المخلصين ولا يرضى عن منح القطبانية لمن يختارهم أحد شيوخ الطوائف الصوفية، لأنه يمنح التفوق في العبادة لكل من يخلص القلب والروح لعبادة الخالق الأحد، ويعمل عملاً صالحًا ويجاهد في سبيل الله وفي سبيل الحق وإعلاء كلمته مهما كان سن رجولته، مادام قد نال حظه من العلم والمعرفة ليقدر على تولي المراكز القيادية في أمته ووطنه.

وحتى في سبب مرض عينيه وفقده بصره لا يركن الشاذلي إلى تعليل هذا المرض بما يصيب الأعين من الأمراض المعروفة منذ القدم، وإنما يزعم أنه «لقي أحد الأولياء في إحدى سياحاته فيعرض عليه كلامًا في التوحيد جعل الولي يصيح ويفقد الحياة»، ثم يقال لأبي الحسن الشاذلي: «يا علي لمَ فعلت ذلك؟ لتعاقبن بذهاب بصرك» فإن صحت هذه الرواية يَكون الشاذلي قد قال في أمر التوحيد كلامًا لا يصح أن يقال في شأن هذه العقيدة التي هي أساس الإسلام الأول ودعامته القوية، وهذا ما لا يصح أن يصدر عن وليّ من أولياء الله يحمل القطبانية الصوفية الغوثية.

وفي عام ٦٤٧هـ (١٢٤٩م) وصلت الحملة الصليبية الكبرى إلى دمياط بقيادة الملك لويس التاسع ملك فرنسا، وارتد الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى المنصورة بجيوشه ثم توفي، فأخفت زوجته شجرة الدرّ (انظر مادتي الملك الصالح وشجرة الدر) خبر وفاته، واستدعت ابنه تورانشاه من حصن كيفا، وذهب العلماء إلى المنصورة لرفع الروح المعنوية بين الجنود وحضِّهم على القتال المقدس في سبيل الله، ومن بينهم المفتي عز الدين بن عبد السلام ومجد الدين القشيري، ومحيي الدين بن سراقة، ومجد الدين الأخميمي (انظر مادة الأخميمي) والشاذلي.

ويقول تلميذ الشاذلي ابن عطاء الله السكندري (انظر مادة ابن عطاء الله) نقلاً عن مكين الدين الأسمر أن هؤلاء العلماء أخذوا يتكلمون في خيمة بمعسكر الجنود المصريين فيما يجب فعله لتقوية العقيدة الدفاعية لطرد الأعداء من البلاد، ولما جاء دور الشاذلي للإدلاء برأيه طفق «يتكلم بالأسرار الصوفية العجيبة والعلوم الروحانية الجليلة»، فانظر أيها القارئ في هذا الأمر الغريب، جنود الأعداء تدنس أرض مصر وتحتل دمياط، والشيخ الشاذلي يتكلم بالأسرار الصوفية العجيبة في وقت لا يصح فيه إلا الكلام الصريح المفهوم الذي يضع الخطط المفيدة المؤدية إلى دفع الجنود إلى الجهاد المقدس لإنقاذ الوطن!!! ويختتم ابن عطاء الله هذه الرواية الغريبة بقوله: «إن المفتي عز الدين بن عبد السلام خرج من صدر الخيمة وفارق موضعه وقال: «اسمعوا هذا الكلام الغريب، القريب العهد من الله»، والصحيح الذي يتفق مع المنطق أن العالم ابن عبد السلام خرج من الخيمة لإظهار استيائه من هذا الكلام الغريب الذي لا يفيد في تلك الظروف الحرجة القاسية.

ومن أغرب الغرائب أن يذكر مؤرخو سيرته أنه كان كثير الأحلام يلتمس في عالم الروح مخرجًا لتلك الأزمة إلى أن أتاه رسول الله وبشّره بالنصر، ويقول الشاذلي في هذه الرؤية: «كنت بالمنصورة، فلما كانت ليلة الثامن من ذي الحجة بتُّ مشغولاً بأمر المسلمين. . . وأدعو الله في أمر السلطان والمسلمين، فلما كان آخر الليل، رأيت فسطاطًا واسع الأرجاء عاليًا في السماء، يعلوه نور وتزدحم عليه خلق من أهل السماء وأهل الأرض عنه مشغولون، فقلت: لمن هذا الفسطاط؟ فقالوا: لرسول الله عليه السلام»، وبعد أن تقدم إلى الرسول الكريم في جمع من العلماء الذين كانوا معه بالمنصورة يبشره النبي بالنصر ويأمره بأن يكتب إلى السلطان بذلك، فانظر يا رعاك الله كيف كانت العقول تُحشَى بالأوهام فتسوق بسطاء العامة إلى الاعتقاد الجازم بصحتها، فتلهيهم عن الحقائق التي تأخذ بيدهم في سبيل الرقي والعلم والابتعاد عن تصديق ما لا يتفق والمنطق الصحيح، والمعرفة الخالصة من الشوائب الممقوتة التي جرت على العقول الإسلامية شر البلاء وأفدح النكبات الإدراكية.

وبعد انتصار المصريين على الصليبيين بفضل جهادهم البطولي المظفر وليس بفضل أحلام الشيخ الشاذلي الوهمية، عاد الشاذلي إلى الإسكندرية وتابع وعظه وتبشيره للصوفية الشاذلية، يقصده الكبار ليكونوا من مريديه، ويقصده الصغار ملتمسين بركاته، ويقصده العامة لطلب شفاعته لدى رجال الدولة لقضاء مطالبهم.

ويظهر أن كثرة وساطته لقضاء مطالب من يلجؤون إلى شفاعته جعلت ولاة الأمور في الدولة يبرمون بهذه الوساطة مما حدا بالشيخ تقي الدين بن دقيق العيد أن يقول: «جهل

ولاة الأمر بقدر الشيخ أبي الحسن الشاذلي لكثرة تردده في الشفاعات»، ولست بذاهب إلى الظن بأن كثرة الوساطة كانت تؤدَّى لغير وجه الله، ولكن كثرتها على هذا النحو وتبرّم ولاة الأمور بها يجعلها عرضة للاحتمال لأنها تدخل في نطاق المحسوبية.

ولم يستفد العلم بشيء من صوفية الشاذلي الذي لم يقدم للتراث الثقافي العربي أي كتاب يضيف لبنة إلى كيانه العام، إذ كل ما وصل إلى الناس من بعده لا يعدو أن يكون كلامًا نقله مريدوه وأصحابه عنه، وكان يقول أن كتبه هي أصحابه، فهل العالم الواسع الأفق الغزير المعروفة يكتفي بنقل الأصحاب عنه دون أن يدوِّن آثاره العلمية في كتب يُرجع إليها لتزيد المطلعين علمًا وإدراكًا؟

وأهم ما نقل عنه: الأحزاب، فقد قال مدونو سيرته أنه كان يذكر في حزب البَرِّ: «اللهم إنا نسألك لسانًا رطبًا بذكرك، وقلبًا منعمًا بشكرك، وبدنًا هيِّنًا ليِّنًا بطاعتك، وأعطنا من ذلك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، كما أخْبر به رسولك صلى الله عليه وسلم حسب ما علمته بعلمك، وأَغِنَّا بلا سبب، واجعلنا سبب الغنى لأوليائك، وبرزخًا بينهم وبين أعدائك، إنك على كل شيء قدير»، وهكذا تستمر الأحزاب والأدعية التي رواها مريدوه عنه وليس من السهل – من وجهة التحقيق التاريخي – معرفة ما إذا كان الشاذلي هو واضعها حقًّا أو وضعها تلاميذه ومريدوه بعد وفاته، لأنها لم تدون بخطه في رسالة أو مؤلف يطمئن المطّلع عند الرجوع إليه.

وكان الشاذلي يذهب إلى الحج كل سنة عن طريق الصعيد، ويجاور بمكة طوال شهر رجب، وما بعده إلى انقضاء الحج، ثم يعود إلى الإسكندرية عن طريق الصعيد بعد زيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام، وفي عام ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) خرج إلى الحج كعادته ولما وصل إلى حميثرة أصابه مرض شديد فأحس بدنوّ أجله، فجمع أصحابه وأوصاهم بالتمسك بالطريقة الشاذلية مع التقوى والصلاح، كما أوصاهم بصفة خاصة بتزويد «حزب البحر» وهو أحد أحزابه، وفي هذا المكان من الصحراء الشرقية المصرية المؤدي إلى عيذاب على البحر الأحمر، فاضت روحه إلى بارئها، وكان ذلك في شهر شوال من تلك السنة، وصلى عليه القوم يؤمهم أبو العباس المرسي، وكانت وفاته في أيام الملك المنصور نور الدين علي بن الملك المعز أيبك التركماني، وفوق قبره الذي مازال الناس يزورونه ويعظمونه أقام أحد سلاطين المماليك قبة عالية، ومن الغريب أن المستشرق «دي ساسي» يؤكد أنه دفن في ناحية «مُخا» باليمن، ولكن ابن بطوطة ذكر في كتاب رحلته أنه زار قبره في حميثرة، ووجد عليه قبريّة مكتوبًا فيها اسمه ونسبه متصلاً بالحسن بن علي – رضي الله عنهما، وكان عمره وقت وفاته حوالي ٦٣ عامًا، وكان آدم اللون، نحيف الجسم، طويل القامة، خفيف العارضين، طويل أصابع اليدين.

ويستخلص من سيرة الشاذلي أنه كان شيخًا صوفيًّا سائحًا يدعو إلى الفناء في الله بالذكر وقراءة الأدعية والأحزاب، وكان يعلِّم مريديه الزهد في الدنيا والإقبال على الله، ويحثهم على الذكر في كل وقت، وفي كل مكان، وفي كل حال، وسلك سبيل التصوف، وكانت عقيدته التوحيد.

ومريدوه الأولون لا يعرفون الخلوة، ولا الخانقاه ولا الذكر الصاخب، ولا أي ضرب من ضروب الضياع الفكري في الوجد الشديد (أي الخروج عن جادة الصواب)، وكان أشهر تلاميذه الكثيرين في مصر تاج الدين بن عطاء الله السكندري وأبا العباس المرسي (انظر مادة سيدي أبي العباس) ومعظم شيوخ الطرق في شمال غربي إفريقيا يرجعون إلى طريقته.

وقد خلَّف عددًا من الأحزاب التي تقرأ بانتظام أو في أحوال خاصة وهي:

المقدمة الغَزيِّة للجماعة الأزهرية، وحزب الإخوة، وحزب البرّ، وحزب البحر، والحزب الكبير، وحزب الطمس على عيون الأعداء، وحزب النصر، وحزب اللطف، وحزب الفتح أو حزب الأنوار، وصلاة الفتح والمغرب، وأوراد شتى وأفكار، ووصية كتبها إلى تلاميذه، وتنسب إليه قصيدة صوفية.

وأكثر أقواله مذكورة في كتاب تلميذه ابن عطاء الله السكندري الذي ألفه عام ٦٩٤هـ (١٢٩٤م)، وتُذْكر أحزاب أخرى غير التي ذكرت قبل، وأدعية للشاذلي في كتاب اللطائف، وكتاب المفاخر، الذي يشتمل على بيان مفصل للمقامات التي لابد أن يجتازها المريد، ويؤخذ منها أنها تهدف إلى أن يفنى هذا المريد في الذات الإلهية!!

وتقوم طريقته الصوفية على أصول خمسة هي: تقوى الله في السر والعلانية، واتباع السنّة المحمدية في الأقوال والأفعال، والإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار، والرضا عن الله في القليل والكثير، والرجوع إلى الله في السراء والضراء.

وهذه الأصول الخمسة من أقوم المبادئ النبيلة لو أنها طبقت بمعناها ومراميها السامية، ولكن التحليل الذي دُوِّن قبل لمفهوم الصوفية عند الشاذلي وأتباعه يُظهِر مدى التناقض في القول والتطبيق عند أبي الحسن الشاذلي.

ولم يُرِدْ الشاذلي أن يؤسس طريقة بالمعنى المقصود من هذا التعبير، وإنما كان يريد من تلاميذه أن يمضوا فيما كانوا عليه من حِرَف ومهن وعمل قبل التتلمذ على يده، وأن يقرنوا أعمالهم بالذكر ما استطاعوا لذلك سبيلاً، وقد عرض عليه بعضهم ترك أعمالهم ليصحبوه في جولاته، فأمرهم بالبقاء فيما هم عليه، وكان التسول عند الشاذلية مذمومًا، وكانوا لا يقبلون عون الحكومات لأماكن اجتماعهم، ولم يكن في ذهن أبي الحسن الشاذلي ولا في ذهن خليفته أبي العباس المرسي إقامة الزوايا أو ما يشبهها، وقد قال مترجمو سيرة أبي العباس المرسي مادحين «إنه لم يضع حجرًا على حجر قط»، ويؤيد هذا القول أن مكان مسجد أبي العباس الضخم الفخم بقسم الجمرك بالقرب من حصن قايتباي كان معروفًا لدينا، نحن أبناء فجر القرن العشرين، بالمزار أي المكان الخالي الذي كان مريدو أبي العباس يزورونه فيه ليستمعوا إلى دروسه الصوفية ومواعظه بعد أن صار خليفة أبي الحسن الشاذلي.

وليس من مبادئ الشاذلية الأولى رفض المناصب الكبيرة ذات الرزق الوافر، ولا العزوف عن حياة الترف والرفاهية، ومازالت هذه المبادئ متبعة عند المتمسكين بالطريقة الشاذلية الحقة، وما من شك أن الفناء في الله وحده هو الهدف الأسمى للشاذلية، وطريقة الوصول إلى هذه الدرجة الروحية العالية تتركز في الإكثار من تلاوة وترديد الأذكار والأدعية في صيغ معينة وبعدد محدد، ويقال إن أبا الحسن الشاذلي

كان يراعي في إرشاده حاجات كل مريد من أتباعه ويسمح له بأن يتبع شيخًا آخر، إذا كان يرى أن طريقته أقوى تأثيرًا في تربيته روحانيًا، وهكذا يكون الفناء في الله بالذكر الطويل المستغرق وضياع الوقت عبثًا.

ويؤكد الشاذليون وشيوخهم أنهم سنيون متشددون ولذا كانوا ينكرون كل ما يخالف السنَّة، ومع ذلك فإن ابن تيمية وجه إليهم النقد اللاذع الشديد ولكن اليافعي (انظر هذه المادة) المؤرخ رد على نقد أصحاب ابن تيمية، ولكن رده لم يكن مدعمًا بالحجج القوية مثل نقد ابن تيمية.

والأمور الثلاثة الجوهرية التي يعتقد الشاذلية أنهم اختصوا بها هي أنهم جميعًا مثبتون في اللوح المحفوظ!!! أي أنهم منذ الأزل قد قدر لهم سلوك هذه الطريقة، وأن سُكْر الفناء في الله يعقبه صحو، أي أن السُكْر لا يستمر معهم فيمنعهم من مزاولة أعمالهم في الحياة، وأن القطب في كل العصور واحد منهم!!! ومن ثَمَّ فهم بهذه الصفات أعلى من مخلوقات الله وعباده.

ومن العسير تتبع انتشار الطريقة الشاذلية ذلك لأنها لم تتخذ لاجتماعاتها مساجد أو زوايا، غير أنه من المحتمل جدًّا أن أول جماعاتها تكونت في تونس، ولكن أبا العباس المرسي مكث في الإسكندرية ٣٦ سنة، وكان خليفة أبي الحسن وتوفي بها عام ٦٨٦هـ (١٢٨٧م)، ولم ير وجه واليها ولا أرسل إليه ولا أقام حجرًا على حجر، على أن علي باشا مبارك (انظر هذه المادة) يذكر في كتابه (الخطط التوفيقية – الجزء السابع) أن بالإسكندرية مسجدًا باسم أبي العباس، وما من شك أن تلاميذه هم الذين شيدوا كما يذكر مسجدًا باسم تلميذه ياقوت العرشي وثالثًا باسم ابن عطاء الله السكندري المتوفى عام ٧٠٩هـ (١٣٠٩م) وهو مؤلف كتاب اللطائف، ويلاحظ علي باشا مبارك أن المغاربة هم أكثر من يترددون على مسجد أبي العباس.

وانتشرت الشاذلية بنوع خاص في بلاد المغرب العربي ولاسيما في الجزائر كما انتشرت في جهات أخرى من العالم الإسلامي ولأتباعها زوايا عديدة في كثير من البلدان.

ولم يؤلف الشيخ أبو العباس المرسي كتبًا مثل شيخه أبي الحسن الشاذلي ولكن أحد تلاميذهما ابن عطاء الله السكندري ألّف كتبًا كثيرة طُبِع منها كتابان هما: كتاب «اللطائف والمنن في مناقب الشيخ أبي العباس وأستاذه الشيخ أبي الحسن»، وكتاب «مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح»، وهو على هامش لطائف المنن للشعراني، أما تلميذ أبي العباس المرسي «ياقوت العرش» فقد ألف كتابًا في المناقب، وهناك كتاب يشتمل على ترجمة لأبي الحسن الشاذلي ألفه بعد ذلك محمد بن قاسم الحميري بن الصباغ باسم «درر الأسرار» وهو اقتباس من كتاب «المفاخر العلية في المآثر الشاذلية» لابن عيّاد، ويذكر السيوطي (انظر هذه المادة) في كتابه «بغية الدعاة» أحد المؤلفين الشاذليين هو «داود بن عمر بن إبراهيم السكندري» المتوفى عام ٧٣٣هـ (١٣٣٢م) (انظر مادة سيدي داود).

٢) حسن الشاذلي أفندي: وكان من تلاميذ مدرسة الألسن وقت أن كان رفاعة بك الطهطاوي (انظر مادة رفاعة بك، ومادة الطهطاوي) ناظرًا لها، ولما أَتَمَّ دراسته فيها بتفوق، اختير للسفر إلى فرنسا بين طلاب البعثة الرابعة التي أرسلت في عهد محمد علي عام ١٨٤٤م (١٢٦٠هـ) للتخصص في علم

الإدارة الملكية (الحقوق)، وكان مرتبه الشهري طوال مدة البعثة ٢٥ قرشًا، وبدأ دراسته هناك وأتمها في ١٦ نوفمبر عام ١٨٤٩م (١٢٦٦هـ) أي أن بعثته استغرقت أكثر من خمس سنوات، وعاد إلى مصر في تلك السنة وعُيِّن أستاذًا للإدارة الملكية في مدرسة الألسن، وقال عنه صالح مجدي بك في كتابه «حلية الزمن بمناقب خادم الوطن» الذي أصدره عام ١٨٧٥م (١٢٩٢هـ) عندما تعرض في هذا الكتاب لطلاب الدفعة الأولى التي تخرجت على يد رفاعة بك من مدرسة الألسن، قال عن حسن الشاذلي ما يأتي: «إن من هؤلاء الطلاب المرحوم حسن أفندي الشاذلي الذي تعلم الإدارة الإفرنجية بمدينة باريس، وكان يجيد طرق التدريس، ولا يعرف تاريخ ومكان مولده أو تاريخ ومكان وفاته.

٧٥٢- الشاشي - شارع - بقسم محرم بك

اسمه الكامل أبو بكر محمد بن أحمد الشاشي، وتلقبه المراجع التاريخية بفخر الإسلام وفقيه بغداد الكبير، وقد تتلمذ على يد أبي إسحاق الشيرازي الذي كان إمام وقته في جميع بلدان العراق، والذي وصفه أحد الشعراء من شعراء زمانه بقوله:

تراهُ من الذكاءِ نحيفَ جِسْمٍ
عَلَيْهِ مِنْ تَوَقُّدِهِ دليلُ

إذا كان الفتى ضخم المعاني
فليس يضيرهُ الجسمُ النحيلُ

وبعد أن أتم الشاذلي دراسته، وتولى التدريس بالمدرسة «النظامية» الكبرى ببغداد التي أنشأها «نظام الملك» (انظر هذه المادة) انتهت إليه رياسة الطائفة الشافعية، وله مؤلفات وصفت بأنها حسنة، وقد عُيِّن في الفقه بالعراق بعد أستاذه أبي إسحق الشيرازي، وتولى التدريس بالمدرسة النظامية عام ٥٠٤هـ (١١١٠م).

وكان من تلاميذ الشاشي في الفقه، العالم الورع التقي أبو بكر بن أبي رندقة الطرطوشي (انظر مادة سيدي الطرطوشي) عندما ذهب إلى العراق بعد تأديته فريضة الحج وقبل استقراره بمدينة الإسكندرية.

٧٥٣- شافعي (الدكتور) - شارع - بقسم مينا البصل

اطلب ترجمته في «الدكتور شافعي».

٧٥٤- الشافعي - شارع - بقسم محرم بك

هو الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي القرشي المُطَّلبي صاحب المذهب الذي يسمى بلقبه، وهو أحد المذاهب الفقهية الأربعة وينتهي نسبه إلى المطلب بن عبد مناف، ومن ثَمَّ فهو يلتقي مع رسول الله عليه الصلاة والسلام في جدّه عبد مناف، وأمه فاطمة بنت عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

ويجد مؤرخو سيرة الإمام الشافعي عسرًا في تحديد السنين المتعلقة بحوادث حياته، إذ المصادر التي يستطاع الرجوع إليها في هذا الصدد نادرة جدًّا، ولقد كان المسعودي (انظر هذه المادة) المتوفى عام ٣٦٣هـ (٩٧٣م) أول مؤرخ ذكر الشافعي في مصنفاته، والوثائق التي يمكن الاطمئنان إليها في هذا المقام هي: حجة وقف بيتيه في مكة المؤرخة في شهر صفر

عام ٢٠٣هـ (أغسطس عام ٨١٨م)، ووصيته المؤرخة في شعبان عام ٢٠٣هـ (فبراير عام ٨١٩م)، وحجة وقف بيته في الفسطاط، وعلى الرغم من حذف الأسماء والتواريخ منها فإنه مما لا شك فيه أنها تخص الشافعي وتنسب إليه قطعًا.

والتراجم التي كتبت عنه في تواريخ متأخرة، اعتمدت في السرد على «المناقب» التي دوّنها داود الظاهري المتوفى عام ٢٧٠هـ (٨٨٣م)، والساجي المتوفى عام ٣٠٧هـ (٩١٩م)، وابن أبي حاتم (انظر هذه المادة) المتوفى عام ٣٢٧هـ (٩٣٨م) وغيرهم، ولكن هذه المناقب يشوبها كثير من القصص من ذلك أن الخطيب البغدادي نقل عن ابن عبد الحكم قصة مولد الإمام الشافعي التي تزعم أن هذا المولد يقترن بظهور كوكب المشترى فوق مصر.

وينتسب الإمام إلى قبيلة قريش، فقد كان هاشميًّا، وكانت أمه من قبيلة أزد اليمنية، كما جاء في بعض الروايات أو كانت علوية، كما تذكر بعض الروايات الأخرى وهي الأصح.

ويقول كثير من المؤرخين أن مولده كان خلال عام ١٥٠هـ (٧٦٧م) بحيّ اليمن في مدينة غزة بفلسطين (انظر مادة غزة) وتوفي ولده وهو في المهد فعنيت أمه بتربيته عناية فائقة وأرسلته إلى مكة ليتربى بين أهله، وكان عمره وقتئذ عشرة أعوام، وكانت حياة طفولته ضيقة الحال، رقيقة العيش، وفي مكة أكبّ على حفظ القرآن الكريم وجمع الحديث وروايته، ويقول الشعراني في كتابه «الطبقات الكبرى» إن الشافعي كان يكتب ما يستفيده من الجلوس إلى العلماء والفقهاء في العظام، ونحوها لعجزه عن شراء الورق حتى ملأ منها خبايا، وقد تلقى العلم على كبار رواة الحديث أمثال سفيان بن عُيينة ومسلم بن خالد الزنجي وغيرهما، ثم رحل إلى البادية حتى لا تكون في لسانه عجمة فلزم قبيلة هذيل، وكانت أفصح القبائل، وحفظ لهجتهم الفصحى، كما حفظ أشعارهم لدرجة أنه صار من رواتها.

وعندما بلغ العشرين من عمره أُذِن له بالإفتاء، وكان في الوقت نفسه يقرأ ويحفظ الموطأ استعدادًا للالتقاء بالإمام مالك ابن أنس، فلما التقى به في المدينة المنورة أوصاه بتقوى الله واجتناب المعاصي لكيلا يطفئ نور الخالق في قلبه، ومن ذلك التاريخ لزم الإمام مالك مدة تسع سنوات تلقى عليه في خلالها فقه المدينة، وكان في الوقت نفسه يقوم برحلات في أنحاء البلدان العربية للتعرف على أحوال أهلها وشؤونهم الاجتماعية.

وعقب وفاة الإمام مالك (انظر هذه المادة) عاد الشافعي إلى مكة ثم ذهب إلى نجران، وكانت تابعة لليمن فتولى فيها عملاً مكّنه من نشر لواء العدل بين الناس في صرامة وحزم، فلم يستهوه الملق أو النفاق، أو مصانعة الولاة، ولما كان العدل لا يرضي النفوس التي تميل إلى الظلم لقضاء مآربها، وكان بنجران أحد الولاة من هذا الصنف الخسيس، فقد تعرض الشافعي لكيد هذا الوالي ودسه والوشاية به واتهامه لدى العباسيين بأنه علوي، وترتب على هذه الوشاية أن أحضر الخليفة هارون الرشيد الإمام الشافعي ووجه إليه التهمة فانبرى يدافع عن نفسه وأقنع الرشيد ببراءته، وأثبت له علمه وفقهه، وهكذا استطاع الشافعي النجاة من وشاية والي نجران باليمن والاستقرار بالعراق مدة من الزمن جمع في خلالها العلم بفقه العراقيين، ومن ثَمَّ اجتمع في صدره فقه المكيين والمدنيين

والعراقيين جميعًا، ونقل عن القاضي محمد بن الحسن تلميذ أبي حنيفة فقه الحنفية وما دوّن في كتبهم.

ويذكر بعض الرواة أن إقامته بالعراق استغرقت أكثر من عامين أخذ يفكر بعد انقضائهما في أمر آخر غير الفتاوى والفروع الجزئية، وهو وضع مقاييس لمعرفة الحق والصواب من الآراء المتضاربة التي يقول بها الحجازيون والعراقيون في الأمور الفقهية المختلفة، وذلك دون أن يحكم ببطلان أحد النظرين جمله من غير ميزان دقيق ضابط.

وعلى أساس هذا التفكير المنطقي الحصيف شرع في وضع مناهج الاستنباط، لتكون بمثابة الميزان القياسي، وفي سبيل الوصول إلى ذلك، توافر على الأحكام يعرف ناسخها ومنسوخها، وعلى السنّة يحدد مكانها من الشريعة والتثبت من صحيحها، وتمييزه عن غيره، والتعرف على طرق الاستدلال بها، ومقامها من القرآن الكريم، وتحديد ضوابط الاجتهاد والأبعاد التي تُرسم للمجتهدين فلا يتجاوزونها ليأمنوا من الشطط.

ومن أجل وضع هذا التفكير الصائب العميق الغور، طالت مدة إقامته بمكة بعد الرجوع إليها من العراق، وفي أثنائها اجتمع بفقهاء المدينة وبأحمد بن حنبل (انظر مادة ابن حنبل) وغيره من فقهاء العراق فأخذوا عنه أسس منهجه القيم.

ويلاحظ أن ذلك العصر كان عصر وضع المناهج، ففي غضونه وضع أبو الأسود الدؤلي مناهج الفصحى وقواعدها، والخليل بن أحمد قواعد العروض ومناهجه، والجاحظ مناهج النقد الأدبي هو والمبرّد وغيرهما، ومن ثَمَّ لم يكن من المستغرب وضع الشافعي منهج الاستنباط وأصوله.

وفي سنة ١٩٥هـ (٨١٠م) عاد إلى العراق ليعلن منهجه وقد اكتمل علمه وصار هذا المنهج يشتمل على قواعد عامة، لا حلولاً جزئية ولا فتاوى وأقضية خاصة، وجميع هذه القواعد والأسس المتينة مدوّنة في كتب تتضمن الشروح المتعلقة بكل منها، والفروع التي استنبطها من هذه القواعد، ومن ثَمَّ استطاع الشافعي أن يُملي هذه الكتب على تلاميذه فدوّنوا الرسالة الموضحة لمنهجه كما دوّنوا كتاب «الأم» المشتمل على الفروع وعلى مناهج أخرى مثل كتاب جماع العلم، وكتاب إبطال الاستحسان، وقد دوّن معظم هذه الكتب تلميذه الزعفراني، واستغرقت إقامته ببغداد في هذه المرة حوالي سنتين رجع عقبها إلى مكة ثم عاد مرة ثالثة إلى بغداد خلال عام ١٩٨هـ (٨١٣م)، ونزح بعد شهر إلى مصر، فوصلها في أوائل عام ١٩٩هـ (٨١٤م)، وما من شك في أن السبب الأساسي في سفره إلى مصر كان تغلغل السيطرة الفارسية على الخلافة العباسية ولاسيما إبان النـزاع الرهيب الذي قام بين ولدي هارون الرشيد: الأمين والمأمون، فالأمين عربي يريد سيطرة العروبة على مهام الحكم والمأمون من أم فارسية، ويريد أن يصبغ الخلافة بالصبغة الفارسية، ومن جهة أخرى قرب المأمون – وقد آلت إليه الخلافة – فقهاء المعتزلة وأبعد الفقهاء والمحدثين، وما كان للشافعي وهو العربي القرشي أن يرضى بالمقام في ظل السيطرة الفارسية، وفي دار خلافة تبعد الفقهاء وتقرب المعتزلة.

وقد اختار الشافعي مصر لوجودها وسط العالم الإسلامي بين المشرق والمغرب الذي يضم الأندلس العربية، يضاف إلى ذلك أن مصر كانت تتمتع بمكانة علمية مرموقة، ولاسيما بإقامة تلاميذ الإمام مالك في كنفها، ومن جهة أخرى كان

والي مصر في ذلك الحين عربيًّا قرشيًّا عباسيًّا فأكرم مثوى الشافعي، وأجرى عليه حصة من بيت المال بوصف كونه من آل الرسول عليه الصلاة والسلام.

وأقام الشافعي بالفسطاط وأخذ يلقي دروسه في جامعها، واتسمت هذه الدروس بطابع خاص، إذ شرع في إلقائها على تلاميذه، يزن الفقه بالموازين التي وضعها، وحدد أبعادها، فوزن فقه العراقيين وفقه الإمام مالك، واضطر إلى مخالفته على الرغم من أنه أحد تلاميذه، ومن ثَمَّ كان من أستاذه بمنـزلة أرسطو من أفلاطون، وقد قال أرسطو حين سُئل عن هذا الخلاف: «إن أفلاطون صديقي ولكن صداقتي للحق أوثق».

وحينما علم أن بعض الناس يطلبون نزول المطر وهم يرفعون قلنسوة الإمام مالك تبركًا وتضرعًا بها، بادر إلى إعلان كتابه «اختلاف مالك» ليثبت للناس أن أستاذه بشر مثلهم يصيب ويخطئ، ولم يكن من المعصومين المنـزهين عن الخطأ، وتعدى نقده للآراء، ووزنها بميزان العقل والمنطق إلى نقد آرائه القديمة نفسها، وهكذا نجد له طائفتين من المؤلفات إحداهما تشتمل على كتبه في العراق والأخرى كتبه في مصر، ولكن دون أن يغير من مذهبه شيئًا.

وقد كان الشافعي واسع الأفق، قوي الإدراك، حاضر البديهة، عميق الفكرة، بعيد الفهم، لا يقف في تفكيره عند حد حتى يصل إلى الحق كاملاً، وكان قوي البيان، واضح التعبير، فصيح اللسان والبيان، نافذ البصيرة، قوي الفراسة، وهي صفات لازمة للمُناظر الأريب الذي يستطيع جذب الخصوم إليه، وللأستاذ الحصيف الذي يوائم بين طاقة تلاميذه في الفهم وبين طاقته في التدريس، وتبيان القدر المناسب من الحقائق العلمية، وكان الشافعي مخلصًا غاية الإخلاص في طلب الحقائق في كل أطوار العلم، فإذا اصطدم إخلاصه للحقائق بما أَلِفَه الناس من آراء، أعلن آراءه الخاصة في تصميم وقوة، ويستنتج من ذلك أن الناس في عصره كانوا بين متعصب لعليّ بن أبي طالب، وناقم عليه، فأعلن في غير مواربة أنه يفضل أبا بكر الصديق على عليّ، فبادر الناس إلى اتهامه بمناصبة العلويين العداء، كما اتُّهم – من جهة أخرى – بأنه رافضي من الشيعة، وفي ذلك يقول:

إن كان رفْضًا حُبُّ آلِ محمدٍ
فليَشْهد الثَّقَلانِ أنَّي رافضي

وما من شك في أن الإمام الشافعي من أئمة ناشري الحديث، وأنه أقام مذهب أهله، وقد نصر السنّة المحمدية على خصومها، واستنبط منها الأحكام، وقد أدى ذلك إلى رجوع كثير من العلماء عن المذاهب التي كانوا يعتنقونها إلى مذهبه، وفي مصر رحل الناس إلى دروسه من كافة الأقطار الإسلامية.

ومن أقواله المأثورة:

«إذا صح الحديث عندي فهو مذهبي، وأظلم الناس لنفسه من تواضع لمن لا يكرمه، ورغب في مودة من لا ينفعه، وليس العلم ما حُفظ وإنما العلم ما نفع، ولو علمت أن الماء البارد ينقص مروءتي ما شربته».

وكان الشافعي كريمًا إلى أبعد حد، فقد قدم من اليمن بعشرة آلاف دينار، فضرب خباءه خارج مكة، وكان الناس

يأتون إليه، فما برح حتى فرقها كلها، وما سأله أحد شيئًا إلا احمرّ وجهه حياءً من السائل.

ومن صفاته الاجتماعية أنه كان يخضب لحيته بالحناء فتبدو حمراء قانية، ويجعلها مرة أخرى صفراء اتباعًا للسنّة، وكان مقتصدًا في لباسه ذا هيبة ووقار، وقد نقش على خاتمه «كفى الله ثقة لمحمد بن إدريس».

وكان رحمه الله كثير العلل، ومنها داء البواسير الدامية التي كانت تنغص عيشته بآلامها المستمرة.

وقد دخل عليه الربيع ليلة وفاته، فسأله عن حاله فأجاب: «أصبحت من الدنيا راحلاً، ولإخواني مفارقًا، ولكأس المنية شاربًا، ولسوء أعمالي ملاقيًا، وعلى الكريم واردًا»، ثم بكى.

وتوفي الإمام الشافعي بالقاهرة ليلة الجمعة من شهر رجب بعد المغرب سنة ٢٠٤هـ (٨١٩م) بالغًا من العمر حوالي ٥٤ عامًا ميلاديًّا، ومازال ضريحه قائمًا بها بالقرافة الكبرى.

ومن شعره في الحكم قوله:

وعَيْنُ الرضَا عن كلِّ عَيْبٍ كليْلةٌ
كما أنَّ عَيْنَ السُخْطِ تُبْدِي المَساوِيَا

فإن تَدْنُ منِّي تَدْنُ مِنك مودَّتي
وإنْ تَنْأَ عنِّي تَلْقَني عنكَ نائِيَا

كِلانا غَنِيٌّ عَنْ أخِيْه حياتَهُ
ونحنُ – إذا مِتْنَا – أشدُّ تغانِيَا

ويؤكد أصحاب الطبقات أن ظهور المذهب الشافعي كان أولاً بمصر، فكثر أتباعه بها، ثم ظهر بالعراق وغلب على أهل بغداد وخراسان ونوران والشام واليمن، ثم تغلغل فيما وراء النهر، وفي بلاد فارس والحجاز وبعض بلاد الهند، ودخل بعد ذلك في شمال إفريقيا العربي والأندلس بعد عام ٣٠٠هـ (٩١٢م)، وقد قال عبد الرحمن بن خلدون (انظر مادة ابن خلدون): «إن مقلدي الشافعي بمصر أكثر مما سواها، وكان مذهبه قد انتشر بالعراق وخراسان وما وراء النهر، وقاسم الشافعية الحنفية في الفتوى والتدريس في جميع الأمصار، وعظمت مجالس المناظرات بينهم، وشحنت كتب الخلافات بأنواع استدلالاتهم، ثم درس ذلك كله بدروس المشرق وأقطاره».

ثم انتشر المذهب الشيعي في مصر إبَّان عهد الفاطميين، ثم عاد إليها المذهب الشافعي في زمن صلاح الدين الأيوبي إلى أن انتهى الأمر إلى سراج الدين البلقيني شيخ الإسلام بمصر، وهو أكبر الشافعية فيها وكبير العلماء، بل وأكبر العلماء من أهل مصر.

ولما أخذت الدولة الأيوبية في إنعاش مذهب السنة في مصر ببناء المدارس للفقهاء وغير ذلك من الوسائل جعلت للمذهب الشافعي الحظ الأكبر من عنايتها، فخصت به القضاء لكونه مذهب الدولة، وكان بنو أيوب كلهم شافعية.

وعندما خلفت الدولة التركية البحرية الدولة الأيوبية استمر العمل في القضاء على المذهب الشافعي إلى أن أخذ الظاهر بيبرس بنظام القضاة الأربعة، فكان لكل قاضٍ التحدث فيما يقتضيه مذهبه بالقاهرة والفسطاط وميز القاضي الشافعي

بتنصيب النواب في سائر بلاد القطر، وكانت له المرتبة الأولى بينهم، ثم يليه القاضي المالكي فالحنفي فالحنبلي، ولما استولى العثمانيون على الحكم أبطلوا نظام القضاة الأربعة، وحصروا القضاء في الحنفي لأنه مذهبهم، ولم يزل مذهب الدولة الرسمي حتى اليوم، إلا أن ذلك لم يؤثر في انتشار المذهبين الشافعي والمالكي بين السكان، ولاسيما في الصعيد وفي الوجه البحري، وكانت مشيخة الأزهر – وهي رياسة العلماء الكبرى – محصورة في علماء الشافعية منذ عام ١١٣٧هـ (١٧٢٤م) إلى أن تولاها الشيخ محمد المهدي العباسي عام ١٢٨٧هـ (١٨٧٠م) ثم لم تنحصر بعد ذلك في مذهب من المذاهب الأربعة.

وأدخل المذهب الشافعي في الشام القاضي أبو زرعة محمد بن عثمان الدمشقي وتبعه القضاة من بعده، وانتشر هذا المذهب فيما وراء النهر عن طريق محمد بن إسماعيل القفال الكبير الشاسي المتوفى عام ٣٦٥هـ (٩٧٥م).

وفي أواخر عهد الدولة الفاطمية في مصر أقام الوزير السُّني الشافعي ابن السلار مدرسة بالإسكندرية للعالم الحافظ السلفي (انظر مادة السلفي) فكانت أول مدرسة للشافعية في الإسكندرية بل وفي القطر المصري بأسره، وظلّ السلفي يدرس بها الحديث قرابة ٦٠ عامًا، ويقول ابن إياس في «بدائع الزهور»: «ولما اشتد المرض على الإمام الشافعي أوصى بألا يغسله إلا أمير البلد»، وكان في ذلك الحين محمد بن السرّي بن عبد الحكم، فلما توفي ليلة الجمعة من شهر رجب عام ٢٠٤هـ (٨١٩م) حضر محمد بن السري فذكرت له وصية الإمام فقال: «هل توفي الإمام وعليه دين؟»، فقيل: «عليه سبعون ألف درهم»، فقضاها عنه ابن السري وقال: «هذا غسلي إياه، وإنما كنى عن الدَّين الذي عليه لأقضيه عنه».

وقيل إن الإمام أوصى بأن تصلي عليه السيدة نفيسة رضي الله عنها، فلما مات أحضروا نعشه عندها، فضربت لها ستارة وصلت عليه من خلفها، ثم حمل من عندها ودفن في تربته.

وقيل إن الإمام الشافعي لما ساح في الأرض في طلب الحديث، وقصد التوجه إلى نحو مصر أنشد في حلقة دروسه قبل أن يدخل إلى مصر هذين البيتين من نظمه حيث قال:

وإنِّي أرى نفسي تتوقُ إلى مصر
ومن دونها عرضُ المهامِهِ والقفْرِ

فواللَّهِ ما أدري: أَلِلعِز والغِنَى
أُساقُ إليها، أم أُساقُ إلى قبري

فكان الأمر كذلك ودفن بمصر، وكانت وفاته في أيام الخليفة المأمون.

وكان الإمام – رضي الله عنه – حسن الخلق، قليل الغضب، سخيّ النفس، وقد عاصر الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه، وقرأ عليه الموطأ في المدينة الشريفة، وعاصر أيضًا الإمام أحمد بن حنبل.

ومما يحكى عن الإمام الشافعي أنه قال: «كنت في المسجد جالسًا، وإذا بلصٍّ قد سرق نعلي من غير علمي، ثم مضى إلى بيتي فقال للجارية إن الإمام قد سُرِق نعله، ولم يجد ما يمشي فيه، فأرسلوا له نعلاً حتى يجيء به إلى البيت، فبينما أنا جالس في المسجد، وإذا الجارية قد أقبلت من باب المسجد ومعها

نعل ، فقلت لها: وما هذا؟ فقالت: قد جاء إلينا رجل ، وقال: إن الإمام قد سُرِق نعله ولم يجد ما يجيء به إلى البيت ، فأتوا إليه بنعل غيره ، فعلمت أن القائل للجارية هو اللص ، فتعجبت من لطافة هذا اللص ، إذ لم يدعني أجيء إلى بيتي حافيًا .

رحم الله الإمام الشافعي العظيم ، وجعل مثواه جنة الفردوس ثوابًا ، لما أرى للفقه الإسلامي من نفع عميم .

٧٥٥ - شافعي رحمي - شارع - بقسم محرم بك

إذا كان شافعي رحمي من مواليد مديرية بني سويف فإن له صلة وثيقة بمدينة الإسكندرية التي تولى منصب وكيل محافظتها مرتين ، وشافعي رحمي هو شافعي يعقوب رحمي ابن يعقوب بن أحمد بن سالم ، وينتهي نسبه إلى السيد موسى الذي هاجر من تونس إلى مصر عام ١٠٨٠هـ (١٦٦٩م) واستقر بناحية مِيْدوم من أعمال مديرية بني سويف (محافظة بني سويف حاليًّا) ، وقد ولد شافعي رحمي بهذه الناحية في ٢٠ من سبتمبر عام ١٨٢٨م (١٢٥٤هـ) ، ولجده السيد موسى ضريح يزار حتى الآن ، وذلك بوصف كونه من أولياء الله الصالحين .

وقد تلقى تعليمه الأوّلي بكتّاب «بوش» ، ثم بمدرسة أبي زعبل ، فمدرسة المهندسخانة ببولاق عام ١٨٤٠م (١٢٥٦هـ) حيث ظلّ بها أربع سنوات ، اختير عقبها ليكون أحد أعضاء البعثة العلمية الرابعة ، فألحق بالمدرسة الحربية المصرية التي أنشأها محمد علي بمدينة باريس بفرنسا عام ١٨٤٤م (١٢٦٠هـ) وجعلها تحت رياسة وزير الحربية الفرنسية الذي كانت له سلطة تعيين ناظرها وأساتذتها .

وبدأ شافعي رحمي دراسته الحربية بهذه المدرسة في مستهل افتتاحها في ذلك العام نفسه ، وكان مرتبه الشهري طوال مدة البعثة ٢٥٠ قرشًا ، وفي أول ديسمبر عام ١٨٤٦م (١٢٦٣هـ) أدى الامتحان النهائي ، وكان ترتيبه الثامن في التخرج برتبة الملازم الثاني ثم ألحق بمدرسة «سومير saumur» للفرسان ، وظل بها عامين التحق بعدهما بالجيش الفرنسي للمران مدة عام آخر ، وقد منحه ملك فرنسا رتبة اليوزباشي (النقيب) مع وسام «جوقة الشرف la légion d'honneur» لتفوقه في مناورة حربية تجريبية .

وفي شهر يوليو عام ١٨٤٨م (١٢٦٥هـ) عاد إلى مصر وألحق بالفرقة الأولى للفرسان ، وكان جميع ضباطها من الأتراك الأُميين الذين يجهلون الكتابة والقراءة ، ومن عجائب ذلك العهد أن هذا الجندي النابه أُقصي عن الامتحان لنيل رتبة الرائد؛ وذلك بسبب المحسوبية التي كان الأتراك والأجانب يحظون برعايتها في فِرَق الجيش ، بل وفي الوظائف العامة .

وكلف شافعي رحمي بعد ذلك بكشف الجبال في الصحراء الشرقية عبر المنطقة الواقعة بين السويس وأسوان فقام بهذا العمل الفني خير قيام ، وقدّم تقريرًا عن مهمته متضمنًا نتائج مفيدة .

وعقب ذلك عُيِّن مدرسًا لمادتي الحساب والهندسة لضباط فرقة الفرسان الخامسة ، وفي عهد سعيد الأول (انظر هذه المادة) عُيِّن مهندسًا لقسم المساحة بمديريتي بني سويف والفيوم ثم مهندسًا في مشروع شق قناة السويس خلال شهر مارس عام ١٨٥٥م (١٢٧٢هـ) تحت رياسة لينان بك الفرنسي (انظر مادة لينان باشا) .

وتولى بعد ذلك رياسة مشروع إنشاء ريّاح مديرية البحرية، وكان مأخذه من النيل في جنوب القناطر الخيرية، ثم اشترك مع علي مبارك (انظر مادة علي باشا مبارك) في مشروع امتداد مياه بحر يوسف، وبعد أن عمل وقتًا قصيرًا في شق قناة السويس مرة أخرى عاد إلى وظيفة بمدينة دمياط (انظر هذه المادة) كمأمور لأقسامها الهندسية، فقام بتصميم وتشييد مباني محافظتها وديوان ضبطيتها ومحجرها الصحي وجمركها، ثم رسم بشواطئها خريطة دقيقة شاملة.

ولما بلغ خبر هذه الأعمال الهندسية النافعة الخديوي إسماعيل (انظر مادة الخديوي الأول) منحه رتبة الرائد، ومنحته شركة قناة السويس في الوقت نفسه خمسة عشر ألف فرنك (أي ٦٠٠ جنيه مصري) مكافأة له على هذا المشروع الهندسي الذي كانت في أشد الحاجة إليه.

وفي شهر مارس عام ١٨٦٨م (١٢٨٥هـ) عُيِّن مهندسًا بديوان الأشغال، واختاره الخديوي إسماعيل لمراقبة الأعمال المتعلقة بالعمارات التابعة لخاصته، ثم شغل وظيفة مهندس الخاصة الخديوية فخطط وأنشأ حديقة الأزبكية، وعُيِّن وهو في هذه الوظيفة عضوًا في لجنة قناة السويس ونال رتبة البكباشي (المقدم).

ثم اختير أمينًا لجمرك دمياط ووكيلاً لمحافظتها، فزاد في عهده إيراد الجمارك زيادة مطردة النمو بفضل مراقبته الحازمة المحكمة وتدبيره الصائب، ونال من أجل ذلك رتبة القائمقام (العقيد) عام ١٨٦٩م (١٢٨١هـ) ثم رتبة الأميرالاي (العميد) في العام التالي.

وعُيِّن بعد ذلك محافظًا للإسماعيلية، فاستتب الأمن في عهده، وفي ٢٣ سبتمبر عام ١٨٧١م (١٢٨٨هـ) نقل وكيلاً لمحافظة الإسكندرية، وبعد أن تقلب في وظائف عدة عُيِّن ناظرًا للمدرسة التجهيزية بالقاهرة، ومدرسة المهندسخانة ومدرسة الإدارة (مدرسة الحقوق فيما بعد) ثم عاد وكيلاً لمحافظة الإسكندرية عام ١٨٧٧م (١٢٩٤هـ) ثم عضوًا بمجلس استئناف مصر بعد عامين.

وفي عهد الخديوي توفيق (انظر مادة توفيق الأول) عُيِّن محافظًا لرشيد في ٨ من أغسطس عام ١٨٩٧م (١٢٩٦هـ)، ثم مفتشًا عامًّا للملاحات والمحاجر والمعادن ونال رتبة المتمايز، وبقي في هذه الوظيفة الأخيرة إلى أن أحيل على التقاعد في أول إبريل عام ١٨٨٨م (١٣٠٦هـ) بعد أن قضى أربعين عامًا في خدمة الحكومة كان فيها مثالاً وقدوة حسنة للموظف المخلص المجدّ في خدمة وطنه، ووافته المنية في ٢٦ من ديسمبر عام ١٩٠٢م (١٣٢٠هـ) بالغًا من العمر ٧٤ سنة.

ومن آثاره الفكرية مذكراته المكتوبة بخط يده التي بقيت محفوظة لدى ولده محمد صدقي باشا (انظر هذه المادة) الذي كان وزيرًا للأوقاف، وقد دوّن في هذه المذكرات خلاصة علومه وأحوال حياته وما وقع له من أحداث خلال الوظائف التي شغلها، وكان مشهورًا طوال حياته بكرم الأخلاق وطيبة القلب والاستقامة والتقى.

٧٥٦- الشامي - زقاق - بقسم الجمرك

هو محمد الشامي، تعلم بالمدارس المصرية، ثم التحق بمدرسة الطب ووقع عليه الاختيار ليكون من بين طلاب البعثة الطبية التي أرسلها عباس الأول إلى بلاد النمسا، فسافر إليها

في ٣١ من أكتوبر عام ١٨٥٠م (١٢٦٧هـ)، وكان مرتبه الشهري طوال مدة البعثة ٥٠ قرشًا فقط، لأنه تخرج من مدرسة الطب المصرية برتبة «الأسبيران» أي تلميذ الضابط، وكان يقبض هذه القروش الضئيلة بالإنابة عنه في مصر عبد المنعم أحمد رئيس السواقي بحدائق وحقول القلعة، وظل الشامي مثابرًا على دراسته إلى أن أتم تعليمه الطبي وعاد إلى الوطن في ٢٢ من يناير عام ١٨٥٥م (١٢٧٢هـ) فتكون مدة بعثته قد استغرقت خمس سنوات، وعقب رجوعه عُيِّن طبيبًا بالجيش المصري في عهد سعيد الأول.

ولا يعرف تاريخ أو مكان وفاته.

٧٥٧- الشباسي - شارع - بقسم محرم بك

لعله محمد الشباسي بك الذي له شارع باسمه بقسم محرم بك نفسه، وتأتي ترجمته في المادة التالية «الشباسي» مباشرة.

ومازال بالإسكندرية أفراد أسرة تحمل لقب الشباسي، وقد اتصلت ببعض أفرادها علَّني أعرف شيئًا عن صاحب اسم هذا الشارع، فلم أحصل على شيء يدل على أصل هذه الأسرة، وما إذا كانت تمتّ بالنسب والقرابة إلى الطبيب المشهور محمد بك الشباسي (انظر مادة الشباسي بك).

٧٥٨- الشباسي بك - شارع - بقسم محرم بك

أصل أسرة محمد الشباسي من شباسي الملح بمديرية الغربية (محافظة كفر الشيخ حاليًّا)، وكان مجاورًا بالأزهر، فوقع عليه الاختيار لتعلم الطب بمدرسة أبي زعبل التي أسسها محمد علي عام ١٢٤٢هـ (١٨٢٦م) لتسع ١٢٠٠ مريض، وكان أول ناظر لها كلوت بك (انظر هذه المادة)، وبعد أن أتم محمد الشباسي تعليمه بهذه المدرسة سافر مع أعضاء البعثة الطبية إلى فرنسا وبدأ دراسته في شهر نوفمبر عام ١٨٣٢م (١٢٤٨هـ)، وكان مرتبه الشهري طوال مدة البعثة ثلاثة جنيهات، وبعد أن أتم دراسته عاد إلى مصر عام ١٨٣٨م (١٢٥٤هـ) فعُيِّن مدرسًا بمدرسة الطب المصرية، وكان يدرس التشريح الخاص والتحضير، وكلف علاوة على هذه الوظيفة بعيادة المستشفيات العسكرية والملكية معًا فزاده هذا المران براعة في فنِّه، وقد أدى للحكومة خدمات مفيدة، وفي عهد الخديوي إسماعيل اختارته شركة قناة السويس (انظر هذه المادة) طبيبًا لموظفيها وبقي في خدمة الشركة سنوات عدة اعتزل بعدها الخدمة بسبب الشيخوخة، ومنح رتبة البكوية، ولزم بيته إلى أن أدركته الوفاة في ١٤ من يونية عام ١٨٩٤م (١٣١٢هـ) بالغًا من العمر تسعين عامًا، ومن ثمّ يكون ميلاده في حوالي عام ١٨٠٤م (١٢١٩هـ).

وقد ألف محمد الشباسي كتاب «التنقيح الوحيد في التشريح الخاص الجديد»، وطبع عام ١٨٤٥م (١٢٦٢هـ) وكتاب «التنوير في قواعد التحضير» وطبع عام ١٨٤٨م (١٢٦٥هـ).

٧٥٩- شحاتة عيسى - حارة - بقسم الرمل

٧٦٠- شحاتة عيسى - حارة - بقسم محرم بك

قد يكون الاسمان لرجلين من سكان هاتين الحارتين أو أصحاب العقارات القائمة على جانبيهما ولم أستطع التعرف على سيرتيهما، غير أن هناك «شحاتة عيسى» آخر، كان أحد أعضاء بعثة علمية بفرنسا، وفيما يلي ملخص سيرته:

تعلم مبادئ القراءة والعلوم بمدارس مصر، ودخل مدرسة السواري المصرية، ثم اختير منها للسفر إلى فرنسا في بعثة علمية عام ١٨٤٤م (١٢٦٠هـ) والتحق بالمدرسة الحربية المصرية التي أنشأها محمد علي بباريس لتعليم المصريين، وجعل رياستها لوزير الحربية الفرنسية، وخَوَّله سلطة تعيين ناظرها وأساتذتها، وبدأ دراسته بهذه المدرسة في أول ديسمبر عام ١٨٤٦م (١٢٦٣هـ) ثم أتمّ دراسته الحربية بمدرسة أركان الحرب الفرنسية، والتحق بالجيش الفرنسي بعد التخرج مدة عام للتمرين، وعاد إلى مصر في أوائل عهد عباس الأول، والتحق بخدمة الجيش المصري حتى وصل إلى رتبة الأميرالاي (العميد)، وفي عهد إسماعيل قسمت المدرسة الحربية إلى أقسام هي: مدرسة المشاة، ومدرسة الفرسان، ومدرسة المدفعية، ومدرسة الهندسة الحربية، ومدرسة أركان الحرب، وجعل لكل مدرسة ناظر خاص يرجع في أموره إلى رئيس إدارة هذه المدارس، وقد عُيِّن شحاتة عيسى ناظرًا لمدرسة أركان الحرب، وعين «ميرشير بك Mircher Bey» رئيسًا لإدارة هذه المدارس وكان ذلك عام ١٨٦٥م (١٢٨٢هـ).

ولا يعرف تاريخ ميلاده ولا تاريخ ومكان وفاته.

٧٦١ – الشرقاوي – حارة – بقسم مينا البصل

لفظة الشرقاوي كنية يُكنى بها كل من كان موطن أسرته الأصلي مديرية الشرقية (محافظة الشرقية الآن)، ولعل هذه الحارة سميت باسم أحد سكانها القدماء، أو أحد ملاك عقاراتها ممن ينتمون بالأصل إلى هذه المحافظة، غير أنه إتمامًا للفائدة، أذكر هنا ترجمة طالب يدعى محمد محمد الشرقاوي، وفيما يلي بعض تفصيلات هذه الترجمة:

تعلم في مكاتب مصر ثم دخل مدرسة الطب المصرية بقسم الصيدلة، فأتم دراسته بها وتخرج برتبة ملازم أول، ثم اختير للسفر إلى فرنسا عام ١٨٤٧م (١٢٦٤هـ) للتخصص في علم الأقرباذين، وكان مرتبه الشهري طوال مدة البعثة ٣٠٠ قرش خصص منه لعائلته ١٠٠ قرش بتوكيل درويش زيدان، وقد عاد إلى مصر وشغل منصبًا طبيًّا فيها.

وتوفي بعد مرض عضال لم يشف منه، وكانت وفاته في ٢٤ من ربيع الثاني عام ١٢٧٩هـ (١٨٦٢م).

٧٦٢– شريف – ممر – بقسم العطارين (صادق عمارة حاليًّا)

اطلب ترجمة شريف في كلمة «شريف».

واسم الممر الجديد في «صادق عمارة».

٧٦٣– شريف – شارع – بقسم محرم بك (الخديوي الأول سابقًا)

وهو شارع واحد ممتد في أقسام المدينة الخمسة.

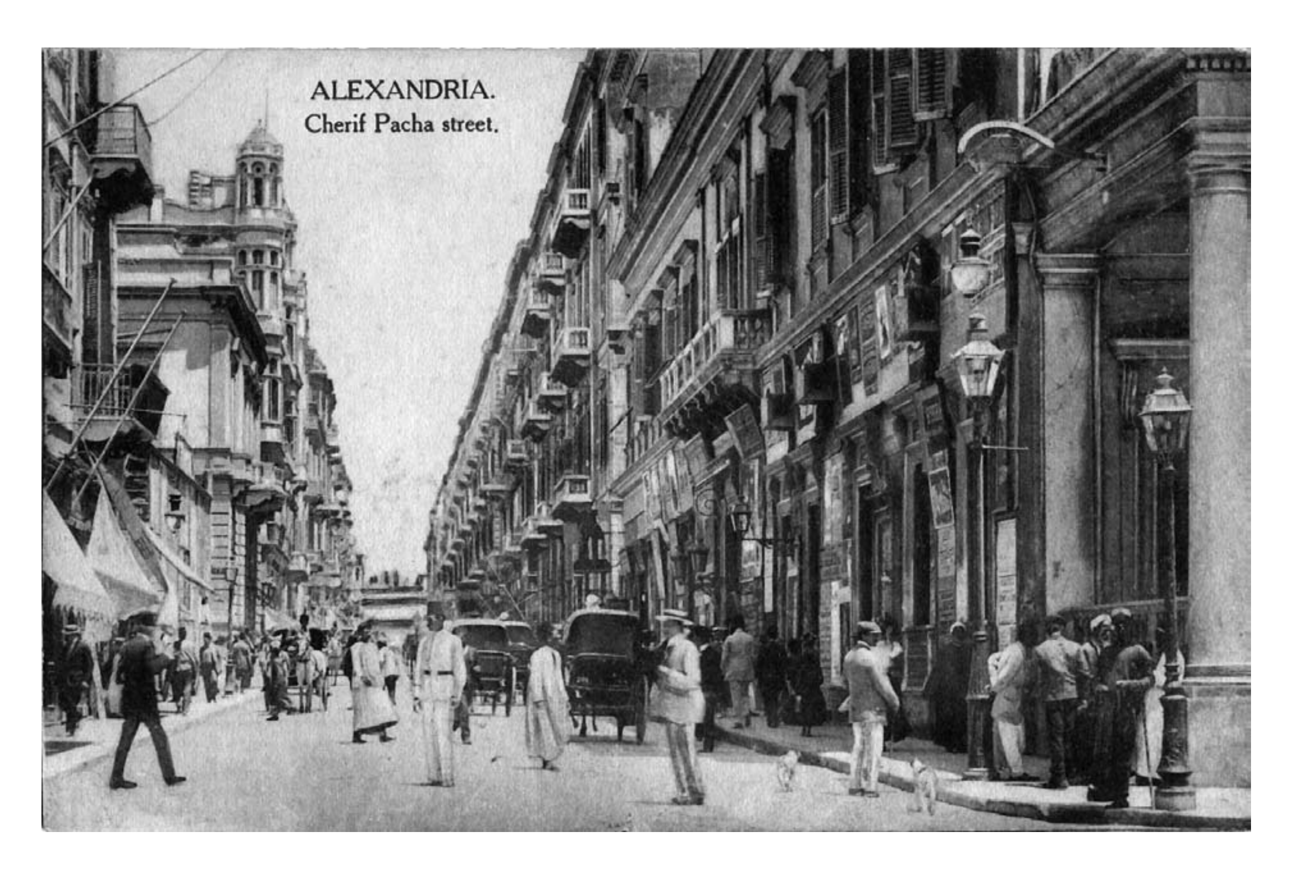
٧٦٤– شريف – شارع – بقسم العطارين

٧٦٥– شريف – شارع – بقسم كرموز

٧٦٦– شريف – شارع – بقسم اللبان

٧٦٧– شريف – شارع – بقسم مينا البصل

هو محمد شريف، ولد بالقاهرة عام ١٨٢٣م (١٢٣٩هـ)، وقيل إن مولده كان في عام ١٨٢٦م



شارع شريف باشا بقسم العطارين

(١٢٤٢هـ)، وكان والده وقتئذ قاضي مصر الموفد من قِبَل سلطان تركيا، ومن ثَمَّ فهو تركي الأصل، ورحل والده إلى تركيا وتولى قضاء مكة بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ، ولدى مروره بمصر استبقى محمد علي محمد شريف وألحقه بالمكتب العالي بالخانقاه حيث كان أبناؤه وأبناء كبار رجال حكومته يتلقون العلم.

وفي عام ١٨٤٤م (١٢٦٠هـ) بعث إلى فرنسا لتعلم الفنون الحربية بالمدرسة الحربية المصرية التي أنشأها محمد علي بباريس، ليتعلم في كنفها المصريون وكانت تحت رياسة وزير الحربية الفرنسية الذي كان يعين ناظرها وأساتذتها، فبدأ شريف دراسته بها في ١٦ من أكتوبر من تلك السنة، وفي أول ديسمبر من عام ١٨٤٦م (١٢٦٣هـ) اجتاز شريف الامتحان النهائي، وكان ترتيبه الخامس في التخرج فمنح رتبة الملازم الثاني ثم التحق «بمدرسة أركان الحرب الفرنسية École d'État-Major» فظل بها سنتين ثم انتظم في سلك الجيش الفرنسي للمران مدة سنة أخرى، عاد بعدها إلى مصر عام ١٨٤٩م (١٢٦٦هـ) وكان ذلك في أوائل حكم عباس الأول، فعين بأركان حرب سليمان باشا الفرنساوي (انظر هذه المادة) الذي كان سردار الجيش المصري، فتوثقت بينهما رابط المودة وتزوج شريف ابنته، واشتهر من ذلك

الحين بشريف باشا الفرنساوي، وفي عهد سعيد الأول عُيِّن قائدًا بفرقة الحرس، وترقى في السلك العسكري حتى وصل إلى رتبة اللواء، ثم ترك الجيش وعُيِّن مديرًا لديوان الخارجية في يناير عام ١٨٥٨م (١٢٧٥هـ) وظل يشغل هذا المنصب إلى ٩ من يناير عام ١٨٦١م (١٢٧٨هـ) إذ عُيِّن في عهد الخديوي إسماعيل رئيسًا لمجلس الأحكام، وتولى إدارة ديوان المعارف في ١٨٦٣م (١٢٨٠هـ)، وديوان الداخلية والخارجية في العام نفسه، وبقي في هذا المنصب إلى ٩ من يناير عام ١٨٦٦م (١٢٨٣هـ)، ثم أسندت إليه رياسة مجلس الشورى الذي شكله إسماعيل وجعل أعضاءه من كبار رجال حكومته، وناط به النظر في جميع المشروعات التي كان يرى تنفيذها، وقد قرر أعضاء هذا المجلس نفسه تأسيس مجلس شورى النواب، ووضعوا لائحة لانتخاب أعضائه ولائحة توضح حدود وظائفه وأعماله، وقد حلّ مجلس شورى النواب محل المجلس المخصوص ابتداءً من ١٨ نوفمبر من عام ١٨٦٦م (١٢٨٣هـ) وكان شريف أول رئيس له، وكان له اليد الأولى في إنشائه، وفي عام ١٨٧٦م (١٢٨٤هـ) أسند إليه إسماعيل نظارة المعارف مع نظارة الخارجية، وقد ناب عن مصر في ١٨ من مايو عام ١٨٧٣م (١٢٩٠هـ) في توقيع اتفاقية البريد بين مصر وإنجلترا، وفي ٤ من أغسطس عام ١٨٧٧م (١٢٩٤هـ) وقّع عن مصر معاهدة إبطال تجارة الرقيق بعد أن وضع نصوصها فيفيان الإنجليزي، وفي ٧ من إبريل ١٨٧٩م (١٢٩٧هـ) ألّف أول وزارة برياسته، واحتفظ فيها بنظارة الداخلية والخارجية.

وفي عهد توفيق ألّف وزارته الثانية، وكان ذلك في ٢٦ من يونية عام ١٨٧٩م (١٢٩٧هـ)، ثم استقال وشكلت الوزارة برياسة توفيق نفسه، ثم شكلت بعد ذلك برياسة رياض باشا الذي ظل في الحكم إلى أن قامت الثورة العرابية الوطنية، فأسقطتها وتولى رياستها شريف باشا من جديد، واحتفظ بوزارة الداخلية.

وبمجرد أن تدخل قنصلا إنجلترا وفرنسا في أمر مراجعة اللجنة التي عُيِّنت من مجلس النواب لميزانية الحكومة استقال شريف وخلّفه في رياسة الوزارة محمود سامي البارودي باشا الذي استقال بعد قليل، وعاد شريف باشا لرياسة الوزارة، وأعقبه إسماعيل راغب باشا، ويُذكر لشريف باشا أنه قاد الحركة الدستورية التي تزعمها عبد السلام المويلحي في البرلمان، وقام هذا الحزب بوضع خطة للإصلاحات المالية، فعهد لشريف باشا بتأليف وزارته في إبريل عام ١٨٧٩م (١٢٧٩هـ) وكانت تضم العناصر المصرية السليمة، ويُذكر لشريف باشا أيضًا أنه حينما تولى توفيق الحكم وعيّنه رئيسًا للوزراء في ٢٦ من يونية عام ١٨٧٩م (١٢٧٩هـ) أعد دستورًا فرفضه توفيق، فاستقال شريف إثر ذلك وخلّفه رياض باشا.

واشترك شريف عند ذاك في تأليف الحزب الوطني بحلوان الذي أصدر بيانًا ضد رياض باشا في الرابع من شهر نوفمبر ١٨٧٩م (١٢٧٩هـ)، ولما قامت الثورة العرابية المجيدة في التاسع من سبتمبر عام ١٨٨١م (١٢٩٩هـ) كان شريف رجل الدولة الوحيد الذي وثق فيه الحزب العسكري ثقة أدت إلى أن يعهد إليه الخديوي بتأليف الوزارة الجديدة في ١٥ من سبتمبر، وقد جمع شريف جمعية من أعيان البلاد لموازنة النفوذ العسكري بالنفوذ الشعبي، وعقدت هذه الجمعية أولى جلساتها في السادس والعشرين من شهر ديسمبر، وسرعان ما

انضم الوطنيون بالجمعية إلى العسكريين في مناهضة الخديوي توفيق وزارته التي كان الرأي أنها واقعة تحت النفوذ السياسي والإشراف المالي للدول الأجنبية العظمى، وكان شريف غير راغب في التعاون مع المجلس عند التصويت على تعديل القوانين الخاصة بالميزانية؛ ولذلك استقال في يناير عام ١٨٨٢م (١٣٠٠هـ)، وخلفه في رياسة الوزارة محمود سامي البارودي باشا (انظر مادة سامي البارودي)، وفي العاشر من أغسطس من العام نفسه وعلى أثر وقوف الخديوي موقفًا معاديًا من الحركة العرابية أصبح شريف باشا رئيسًا للوزارة (١٨ أغسطس عام ١٨٨٢م) وظل في هذا المنصب بعد خيانة الحركة العرابية والاحتلال الإنجليزي المشؤوم، ولكن اصطدم بالوزارة الإنجليزية وممثلها في مصر عندما طلبت في صفاقة حقيرة الجلاء عن السودان، إذ رأى شريف أن في هذا الجلاء خطرًا سياسيًّا واقتصاديًّا على مصر، ومن ثم قدم استقالته في ديسمبر عام ١٨٨٣م (١٣٠١هـ) احتجاجًا على هذا التصرف الاستعماري الجائر، فقبلت استقالته، وشكلت الوزارة برياسة نوبار باشا الذي قبل الجلاء عن السودان، وقد جاء في كتاب استقالة شريف باشا أن السودان ولاية من ممتلكات الدولة العليا فوضت مصر في أن تكون عهدة لديها، وأن إنجلترا طلبت أن ننفذ نصائحها دون مناقشتها مع أن مقترحاتها مخالفة لفحوى النظم الثورية الصادرة في ٢٨ من أغسطس سنة ١٨٧٨م (١٢٩٦هـ) التي نص فيها على: «أن الخديوي يجري أحكام البلاد باشتراكه مع النظار، وبناء على ذلك نطلب قبل استعفاءنا لأنه لا يمكن لنا والحالة هذه أن ندير البلاد على أصول شورية».

وقد بَرَّ شريف باشا بمضمون كتابه ولم يتولَّ رياسة الوزارة بعد ذلك وعاش بعيدًا عن السياسة، وقد أصابه مرض الكبد وعانى منه ثلاثة أعوام ذهب في أواخرها إلى مدينة «جراتز Graz» للاستشفاء، وهناك أدركته الوفاة فقضى نحبه في أوائل إبريل عام ١٨٨٧م (١٣٠٥هـ) فعاش شريفًا ومات شريفًا، وقد نقل جثمانه إلى القاهرة في ٢٧ إبريل من العام نفسه، وكان قد نال رتبة المشير.

والشوارع الخمسة الممتدة في خمسة أقسام من المدينة وتحمل اسم شريف هو شارع «السوما» نفسه الذي جعله المهندس «دينوقراط» (انظر هذه المادة) مخطط مدينة الإسكندرية في عهد الإسكندر الأكبر، جعل هذا الشارع الرئيسي يمتد من باب البحر المطل على الميناء الشرقي إلى باب الغرب بجهة المكس، ثم أطلق على هذا الشارع اسم «السوما» أي الجسد، لأن بطليموس الأول «سوتير» دفن في كنفه جثمان الإسكندر الأكبر (أي جده)، ويقول بعض المؤرخين أن جزْءَه الأول (شارع النبي دنيال الحالي) كانت به قبور البطالمة إلى جانب قبر الإسكندر.

أما ترجمة صاحب الاسم القديم للشارع فاطلبها في «الخديوي الأول».

٧٦٨– شريف باشا – شارع – بقسم العطارين (صلاح سالم حاليًّا)

انظر ترجمة شريف باشا في كلمة «شريف»، وترجمة الاسم الجديد للشارع في «صلاح سالم».

٧٦٩- الشريف الرضي - شارع - بقسم اللبان

هو أبو الحسن محمد بن أبي طاهر الحسيني بن موسى سليل الحسين بن علي بن أبي طالب، عن طريق موسى الكاظم (انظر مادتي الإمام علي والكاظم) ومن ثم لقِّب هو وأخوه عليّ المرتضى بلقب الموسوي، وكان والده نقيب الطالبيين (أي نقيب الأشراف من آل البيت أحفاد عليّ من زوجته فاطمة الزهراء)، في عهد بني بويه في بغداد، وقد ولد الشريف الرضي ببغداد عام ٣٥٩هـ (٩٧٠م)، ويتضح من سيرة حياته أنه نضج عقليًّا في سن مبكرة جدًّا، ويقول معاصره «الثعالبي» (انظر هذه المادة) إنه نظم الشعر ولم يتجاوز العاشرة بعد، ويدل ديوانه على أنه نظم أقدم قصائده خلال عام ٣٦٤هـ (٩٨٤م)، أي حين كان في الخامسة عشرة من عمره، ويؤكد الثعالبي والمؤرخون الذين نقلوا عنه، أن الشريف الرضي كان أعظم شعراء الطالبيين غير منازع، بل وأعظم شاعر أنجبته قريش، وإذا علم أن القصائد التي نظمت في عهده وكانت دون أشعاره بكثير، على الرغم من أن هذا العهد كان حافلاً بالشعراء، تبين لنا أن قول الثعالبي كان صادقًا بعيدًا عن المغالاة.

وكان الشريف الرضي - لعلو منزلته وشرف نسبه - ذا نفس أبية ومكانة رفيعة بين الناس، وكانت تحيط به هالة من الهيبة والجلالة والورع والعفة والتقشف والحب الصادق لأهله، وكان لاستقامته في أمور الدنيا والدين يرى في نفسه صاحب فضل عظيم، وهذا ما جعله يميل إلى الفخر في شعره والتحدث بكرم أخلاقه والإشادة بعلو نسبه وحسبه.

وكان عصره عصر تنافس في الآداب والعلوم بين الدولة العباسية والدول التي خرجت على طاعتها، فقرأ الشريف الرضي كتب الأوائل في العلم والأدب، وحذق اللغة العربية وفروعها واطلع على علوم الدين الإسلامي، وصنف في ذلك كتبًا علاوة على ما ألف من كتب في الأدب والتاريخ، وكان اهتمامه الفائق بالأدب واللغة من أعمق العوامل النفسية التي جعلت منه أحد كبار الشعراء العرب ويتفوق على شعراء وأدباء زمانه، ثم إن مقدار ما نظم من شعر في حياته القصيرة الأجل يعد عجيبًا، ذلك أن ديوانه الأصيل كان يضم أربعة مجلدات.

وشِعْر الشريف الرضي من أمتع ما نظم في الشعر العربي وأجزله من حيث المعاني والجرس وجمعه للمعاني النفيسة والفلسفية وصور الاجتماع ونقده وشكوى الزمان والأيام، وقصائده الطويلة الكثيرة تزخر بالتأمل في الحياة شرح دواخل النفوس.

فلم يكن يركن إلى الخيال البحت في إنشاده، ولم ينزع إلى تصيد المعاني بغية إظهار براعته في نظم الكلام والتصرف في انتقاء المعاني، ومن ثم لم يكن شاعرًا فنيًّا فحسب، وإنما شاعر يريك صورة نفسه المليئة بالحِكَم والعِبَر التي اكتسبها من تجاربه واطلاعه على الشعر الفلسفي، والمزدحمة بعوامل التهكم على الناس وعلى الحياة نفسها، ولذلك كان معظم شعره تعبيرًا صادقًا عما يجيش في وجدانه من إباء وعزة وفخر بقومه وحب للفضيلة ومكارم الأخلاق.

والواقع هو أن هذه السجايا الحميدة تتمثل واضحة في الصفات العامة لشعره الذي تكثر فيه قصائد الفخر والرثاء

والشكوى والقليل من قصائد المدح، وقد أجاد في كل هذه الألوان من الشعر إجادة تشهد له بسعة دائرة اطلاعه وقوة خياله وخصبه.

والتأمل في الحياة وأسرارها، والتمعن في أخلاق الناس المتباينة تكثر معانيها في قصائده، كما تكثر المعاني التي لها ميول إلى الأشراف والخواص وإظهار الأنفة التي توضح خيلاءه، وجرّ هذا التعمق في طرق هذه المعاني إلى الابتعاد عن الخيال الصرف، ولذا كان أحسن شعره في الرثاء والشكوى، ومن خصائص شاعريته أنه يعطي عناية خاصة للمعنى أكثر من عنايته باللفظ والصنعة، ومن ثم خرج شعره رصينًا، وافر المعاني، واسع التأمل، دقيق الخيال، يشتمل على طائفة كبيرة من الآراء الفلسفية التي تشبه ما في شعر أبي الطيب المتنبي من الحِكَم الفلسفية العرضية، ويظهر أن شاعرنا قد قرأ شعره وأعجب به وعمد إلى محاكاته في هذا الاتجاه، وإن كان يمزج هذه الحكم في كثير من أنواع شعره في أسلوب سهل رشيق يمتاز بالرقة وسلاسة العبارة والقوة مثل قوله:

وفي شِدَّةِ الدهرِ اعتبارٌ لعاقلٍ
وفي لذَّةِ الدُنيا غُرورٌ لِواثِقِ

وأكثرُ من شاورتَهُ غيرُ حازمٍ
وأكثرُ من صاحبتَ غيرُ الموافقِ

إذا أنتَ فتَّشْتَ القلوبَ وَجَدْتَها
قلوبَ الأعادي في جُسومِ الأصادِقِ

وعندي من الود الذي لا يشوبُهُ
لِحاظُ المُرائِي أو كلامُ المنافقِ

أغالِطُ نفسي بعدَ مَرْأى ومَسْمَعٍ
ولا أنظرُ الدنيا بعينِ الحقائقِ

وما جَمْعِيَ الأموالَ إلا غنيمةٌ
لمن عاشَ بَعْدي واتهامٌ لرازقي

وأكثر ما عني به شاعرنا هو أن يكون من الشعراء ذوي الرأي والتفكير الصائب، وأما أسلوبه فيستبين منه أنه كان يعرف الجيد من الغث؛ فجاء أسلوبه بليغًا لا يشوبه التكلف ولا القصد، كان يحلو له محاكاة بعض من سبقه من فحول الشعراء ولاسيما المتنبي الذي غلب على تفكيره ونسجه للكلام، وقد ظهر ذلك في كثير من شعر حتى يخال من يقرؤه أنه نقله عن المتنبي نقلاً مثل قوله:

خطوبٌ لا يقاوِمُها البقاءُ
وأحْوالٌ يَدِبُّ لها الضراءُ

ودَهْرٌ لا يَصِحُّ به سقيمٌ
وكيف يَصِحُّ والأيامُ داءُ؟

وأملاكٌ يَرَوْنَ القتل ظلمًا
وفي الأقوالِ لو قَنَعوا الفِداءُ

ونجده في بعض الأحيان يقلد ابن الرومي أو البحتري في السهولة والرقة والابتعاد عن التكلف وجفاء الصنعة مثل مدحه للطائع لله إذ يقول:

همةٌ كالسماءِ بُعْدًا وكالريــ
ــح هُبُوبًا في كلِّ شرقٍ وغرْبِ

ونزاعٌ إلى العُلا يفطمُ العيــ
ــش على الوِرْدِ بينَ ماءٍ وعُشْبِ

رُبَّ بؤسٍ غدا عليَّ بِنُعْمَى
وبعادٍ أفضى إليَّ بقربِ

وإذا قلَّبَ الزمان لَبيبٌ
أبصرَ الجَدَّ حربَ عقلٍ ولُبِّ

والمدقق في أسلوبه يجد أنه مزيج من التقليد والابتكار على غرار الكثرة من الشعراء والكتّاب، إذ إن العقل البشري لا يخلق فكرًا أو خيالاً من العدم، وإنما يستعرض ما رأى من صور، وما سمع من آراء وأفكار، ويكوِّن منها صورة أو فكرة يطبعها بطابعه الخاص فتصبح من لزومياته، وتلاحظ في أسلوبه أيضًا السهولة والصعوبة، وإن كان أكثره يتسم بالسلاسة الفطرية، وفي أسلوبه الوضوح والغموض، والوضوح في شعره أغلب من الغموض، ومن شعره في الشكوى وضيق الصدر الذي كان ينتابه في كثير من الأوقات فيركن إلى التنفيس عن بؤس نفسه، وضيق الدنيا في عينيه فيندب حظه وأيامه الماضية ويعلل النفس بالآمال أحيانًا قوله:

وما كلُّ أيامِ المشيبِ مريرةٌ
ولا كلُّ أيامِ الشبابِ عذابُ

أُؤَمِّلُ ما لا يَبْلُغُ العُمْرُ بعضَهُ
كأنَّ الذي بَعْدَ المشيبِ شبابُ

إذا شئتُ قلَّدْتُ الزمانَ وصافَحتْ
لِحاظِي أمورًا كلُّهُنَّ عُجابُ

وإذا بث شكواه وتوجعه احتضن قيثاره وأخذ ينشد:

فأينَ مِنَ الدهرِ استماع ظُلامتي
إذا نظرَتْ أيَّامُهُ في المظالمِ

ولم أدْرِ أنَّ الدهرَ يخفضُ أهلَهُ
إذا سكنتْ فيهم نفوسُ الضراغمِ

سأصبرُ حتَّى يعلَمَ الصَبْرُ أنَّني
ملكتُ به دَفْعَ الخطوبِ الهواجمِ

والواقع هو أن هذه الشكوى المريرة كانت تصدر عن فؤاد أضناه المرض وألَحّت عليه العلل، فقد كان الشريف الرضي ضعيف البنية يدل على ذلك قوله في إحدى قصائده أن الشيب بدأ يخط رأسه عند بلوغه الحادية والعشرين، ولعل من أسباب اعتلال صحته انشغاله على أبيه الذي ظل سجينًا في شيراز زمنًا طويلاً بسبب الاضطراب الذي ساد بغداد نتيجة محاباة أمراء البويهيين للشيعة محاباة ظاهرة، وما نجم عن ذلك من غيظ أهل السنّة، وكان أبوه قد اعتزل منصب نقيب الطالبيين

في العراق فكُرِّم الشريف الرضي بتوليته هذا المنصب الجليل، ويقول الثعالبي إنه تولى المنصب عام ٣٨٨هـ (٩٩٨م)، ولكن مقدمة قصيدته إلى بهاء الدولة يشكره على أمر تقليده قيادة قافلة الحج مصحوبة ببراءة توليه منصب النقيب كانت خلال عام ٣٧٩هـ (٩٨٩م)، وفي السنة التالية أنعم عليه بهاء الدولة بلقب الرضي وبلقب الشريف بعد ذلك بثلاث سنوات أي في ذي القعدة عام ٤٠١هـ (١٠١٠م).

ومن آثار مرضه المزمن على نفسه الكئيبة إتقانه الرثاء إلى أبعد حد حتى صارت المراثي أفضل أشعاره وأجمعها للمعاني الفلسفية، لأنها ليست من الكلام العام الذي يقال لكل إنسان، ولا من باب تعداد الفضائل، وإنما هي أقرب إلى المواعظ منها إلى غيرها من ضروب المراثي، وقد كان متشائمًا حتى في مراثيه التي يمزجها عادة بالسخط على الحياة وبالحكم والأمثال، فاسمعه وهو يرثي والدته فيقول:

أبْكيكِ لو نفعَ الغَليلَ بُكائي
وأقولُ لو ذَهَبَ المقالُ بدائي

وأعودُ بالصبر الجميل تعزِّيًا
لو كان بالصبرِ الجميلِ عَزَائي

طورًا تُكاثِرُني الدموعُ وتارةً
آوي إلى أكْرومَتي وحَيَائي

ما كنتُ أذْخَرُ في فِداكِ رَغِيْبَةً
لو كان يرجِعُ مَيِّتٌ بفداءِ

لو كانَ يدفَعُ ذا الحمام بقوةٍ
لتكدَّستْ عُصُبٌ وراءَ لوائي

قومٌ إذا مروا بأغبابِ الثَرى
كحلوا العيون بأثمد الظلماء

يمشونَ في حَلَقِ الدروعَ كأنَّهم
صُمُّ الجلامِدِ في غدير الماءِ

قد كنتُ آملُ أن أكون لك الفِدا
مما ألَمَّ، فكنتِ أنتِ فدائي

وحتى في غزله نجد هذه الروح الشاكية تسيطر على وجدانه الشاعري فيحتضن القيثار يغني في رقة لا يشوب صفاءها فحش أو هجر:

قال لي صاحبي غداةَ التَقَيْنا
نَتَشَاكي حَرَّ القُلوبِ الظَّماءِ

كنتَ خيَّرْتني بأنكَ في الوجْـ
ــد عقيدي وأنَّ داءَكَ دائي

ما ترى النّفر والتجميل للبيْـ
ـن فماذا انتظارُنا للبكاءِ

لم يقُلْها حتى انثنيْتُ لما بي
أتلقَّى دمعي بفضْلِ رِدائي

وفي هذه الأبيات من السلاسة العذبة والجرس الرنان والرقة في التعبير البديع ما يجعل قارئها يحس بأنه يقرأ شعرًا حديثًا من أرق ما نظم في هذا اللون من الشعر العربي .

ومن هذا اللون الغزلي الحلو تشبيب بالحبيبة ووصفها في أسلوب غاية في روعة المعاني وبديع القول:

يا ظبيةَ البانِ تَرْعَى في خمائلِهِ
لِيهنِكِ اليومَ أنَّ القلبَ مرعاكِ

الماءُ عندَكِ مَبْذولٌ لشاربِهِ
وليسَ يُرْويك إلا مَدْمعي الباكي

هبَّتْ لنا من رياحِ الغَوْرِ رائحةٌ
بعدَ الرُّقاد عَرَفْناها بريَّاكِ

ثم انثَيْنا إذا ما هزَّنا طَرَبٌ
على الرِّحالِ تَعَلَّلنا بذكراكِ

سَهْمٌ أصابَ وراميهِ بذي سلمٍ
مَنْ بالعراقِ ، لَقَدْ أبْعَدْت مَرْماكِ

حكتْ لحاظُكِ ما في الرِّيم من مُلَحٍ
يومَ اللقاءِ ، وكان الفضلُ للحاكي

كأنَّ طرْفَكِ يومَ الجِزْعِ يُخبِرُنا
بما طَوَى عنكِ من أسماءِ قتلاكِ

أنتِ النعيمُ لقلبي والعذابُ له
فما أمَرَّكِ في قلبي وأحْلاكِ

عندي رسائلُ شوقٍ لستُ أذكرها
لوْلا الرقيبُ لقد بلَّغْتُها فاكِ

وفي شعره حين يفخر وصف دقيق لنفسيته العالية وسلوكه الحميد في الحياة وبعده عن الفحش وتمسكه بالوقار وعزة السريرة فيقول:

لغيرِ العُلا منِّي القِلَى والتجنبُ
ولَوْلا العُلاَ ما كنتُ في الحبِّ أرغَبُ

إذا اللَّه لم يعْذِرْكَ فيما ترومُهُ
فما الناسُ إلا عاذلٌ ومؤنِّبُ

ملكتُ بِحِلْمي فَرْصَةً ما اسْتَرَقَّها
مِنَ الدهرِ مفتولُ الذراعين أغلبُ

فإنْ تَكُ سِنِّي ما تطاول باعُها
فلِي مِنْ وراء المجد قلبٌ مُذرَّبُ

فحسبِيَ أنِّي في الأعادي مُبغَّضٌ
وأنِّي إلى غُرِّ المعالي مُحَبَّبُ

وللحكمِ أوقاتٌ ، وللجهلِ مِثْلُها
ولكنَّ أيامي إلى الحلمِ أقربُ

يصولُ عليَّ الجاهلونَ ، وأعْتَلي
ويُعْجِمُ فيَّ القائلونَ ، وأُعْرِبُ

يَرَوْنَ احتمالي غُصَّةً ، ويَزيدُهُمْ
لواعج ضِغْنٍ أنَّني لَسْتُ أغْضَبُ

وأُعْرِضُ عن كأس النديم كأنها
وميض غمامٍ غائر المُزْنِ خُلَّب

وقورٌ ، فلا الألحانُ تأسرُ عَزْمتي
ولا تمكرُ الصهباءُ بي حينَ أشربُ

ولا أعرفُ الفَحْشاءَ إلا بوصفها
ولا أنطِقُ العوْراءَ والقلبُ مُغْضَبُ

تحلَّمُ عن كرِّ القوارصِ شيمَتي
كأنَّ مُعيدَ الذَّمِ بالمدحِ مُطنِبُ

لساني حَصَاةٌ يقْرعُ الجهلَ بالحِجا
إذا نالَ منِّي العاضِهُ المتوثِّبُ

ولستُ براضٍ أن تمسَّ عزائمي
فُضالاتُ ما يُعْطِي الزمانُ ويسْلُبُ

غرائبُ آدابٍ حباني بحفظها
زماني ، وصَرْفُ الدهرِ نِعَم المؤدِّب

وهذه النماذج المختارة من شعر الشريف الرضي في الحكمة وتقليد بعض فحول الشعراء والشكوى من صروف الزمان لمرضه العضال والرثاء الصادق الحزين والغزل العذب الحلو الجرس والمعاني والفخر النبيل ، توضح شاعريته الفذة في جلاء وتدل على نفسيته وقرارة وجدانه العامر بالخلال الحميدة والفضائل المثلى .

وليس من العسير أن نجد أثر هذه الشاعرية الصافية الينبوع ، الغزيرة التدفق ، واضح المعالم في شعر كثير من الشعراء القدامى والمحدثين على السواء ، ونجده ماثلاً بصفة خاصة في شاعرية شيخ الشعراء المحدثين في مصر إسماعيل صبري (انظر هذه المادة) الذي نقل هذا التأثير إلى فحول تلاميذه: أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وخليل مطران ومحمد عبد المطلب وأحمد نسيم .

ولقد اشتد المرض على الشريف الرضي خلال عام ٤٠٣هـ (١٠١٢م) اشتدادًا خطيرًا حتى يئس الناس من شفائه ، ولكنه تعافى بعد شهرين واستطاع أن يبعث بقصيدة مدح إلى سلطان الدولة الذي حل محل بهاء الدولة في الحكم ، وكانت قصيدته الأخيرة التي نظمها في مدح سلطان الدولة مؤرخة في شهر صفر عام ٤٠٤هـ (١٠١٣م) ، وتوفي الشريف الرضي في صباح يوم الأحد السادس من محرم عام ٤٠٦هـ (٢٦ من يونية عام ١٠١٦م) بالغًا من العمر حوالي ٤٧ عامًا ، ودفن بمنزله في حي الأنباب في ضاحية الكرخ من ضواحي بغداد ، وكان المنزل والقبر قد تهدما في عهد ابن خلكان .

وقد جمع أصدقاؤه قصائده الكثيرة ، وماتزال مخطوطات ديوانه محفوظة ومنها نسختان مطبوعتان إحداهما بمدينة

بمباي في مجلد واحد، والأخرى في بيروت في مجلدين ومنها مخطوطان في المتحف البريطاني، وكان الشريف الرضي يؤرخ كل قصيدة بنظم ولاسيما المراثي التي قالها في شخصيات بارزة من شخصيات عصره، ولذا أصبحت هذه القصائد ذات قيمة تاريخية هامة، والشريف الرضي صاحب الفضل في مصنفه في شرح القرآن الكريم هما: «معاني القرآن»، و«مجازات القرآن»، كما كان له الفضل في جمع كتاب (نهج البلاغة) المحتوي على كثير مما نسب إلى الإمام علي بن أبي طالب من الخطب والرسائل البليغة، مما يحسب من الطراز الأول في بلاغة الكلام.

٧٧٠- شعبان هريدي (الدكتور) - شارع - بقسم باب شرقي

انظر ترجمته في «الدكتور شعبان هريدي».

٧٧١- شكري القوتلي - شارع - بقسم الرمل (الملكة فريدة سابقًا)

ولد شكري القوتلي في حوالي عام ١٨٩١م (١٣٠٩هـ) بسوريا، وعندما بلغ السابعة عشرة من عمره أُرسِل إلى الآستانة لإتمام دراسته العليا، وكان ذلك خلال عام ١٩٠٨ أي في العام نفسه الذي صدر فيه الدستور العثماني، وهو الدستور الذي قضى على حكم السلطان عبد الحميد الاستبدادي وأحْيا الثقة في نفوس العرب وضاعف من إيمانهم بمستقبل الأمة العربية المستقلة.

وبعد أن قضى خمس سنوات من الدراسة عاد إلى دمشق، وفي أثناء إقامته بالآستانة استطاع أن يؤسس هو وإخوانه العرب جمعية وطنية أطلقوا عليها اسم جمعية العربية الفتاة، ولما عاد إلى دمشق أخذ يدعو لها ويبشر بمبادئها، وأخذ إخوانه يبثون الدعوة إليها في جميع أقطار الوطن العربي وصارت أهداف الجمعية الأساسية الدعاية إلى التحرر والوحدة.

وعندما بدأ جمال باشا السفاح التركي تنكيله بالأحرار العرب، واضطهاد المفكرين منهم، سجن شكري القوتلي مرتين وكان اعتقاله في المرة الثانية في سجن «خان الباشا» بدمشق مع جماعة كبيرة من شباب البلاد ورجال الأمة الأحرار.

ولما كانت لدى شكري القوتلي وثائق الجمعية الدالة على أسماء أعضائها، وكان يرى التعذيب الذي كان إخوانه يتعرضون له، وذلك من نافذة زنزانته، خشي أن ينتهي به التعذيب إلى الإفضاء في ساعة من ساعات الضعف بما اؤتمن عليه من أسرار، مما يؤدي إلى إعدام ما لا يقل عن ثلاثمائة شاب من خيرة شباب العرب، فقرر الانتحار واستطاع أن يحصل من سجانه على شفرة حلاقة قطع بها شريان يده اليسرى، غير أن السجان هرول إلى الطبيب الذي أنقذ القوتلي من الموت.

وبينما كان شكري في المستشفى اندلع لهيب الثورة العربية، وأعلن الثوار أنهم سيقومون بإعدام من لديهم من أسرى الأتراك إذا استمر هؤلاء في التنكيل بأحرار العرب، فأفرج عمن بقي منهم في قيد الحياة وغادر شكري السجن ليعاود نضاله في شكل آخر... ولكن الحرب العالمية الأولى انتهت وترك الأتراك البلاد العربية.

وتوج فيصل بن الحسين ملكًا على سورية فتجدد أمل العرب في إقامة دولة مستقلة تحقق أمنيات العاملين في حركة

البعث العربي القومي، ومن ثَمَّ بادر هؤلاء الأحرار إلى تأسيس حزب الاستقلال، الذي كان امتداد لجمعية «العربية الفتاة» لمتابعة النضال في سبيل تحرير أجزاء جديدة من الوطن العربي الكبير، وقد أسهم القوتلي في حكومة فيصل التي تألفت عام ١٩٢٠.

ولكن سرعان ما تحقق استقلال هذه الدولة العربية حين اجتاحت الجيوش الفرنسية سوريا واحتلتها بعد مأساة ميسلون.

وكان شكري القوتلي من المتحمسين لاستقلال العرب، وقد تنازل عن أملاكه للمقاومة الشعبية وكتب علي نفسه صكًّا سلمه للأمير زيد بن الحسين، ولما دخل الفرنسيون سوريا صادروا جميع هذه الأملاك وفرضوا عليها غرامة حربية كبيرة.

وقد قاوم القوتلي الاستعمار الجديد مع الكثيرين من المناضلين فحكمت عليه المحكمة العرفية الفرنسية بالإعدام، ولكنه استطاع الفرار إلى مصر وبقي فيها إلى صدور العفو العام خلال سنة ١٩٢٤ عن جميع السياسيين، فعاد إلى دمشق ثم حُكِم عليه بالإعدام مرة أخرى لاشتراكه في الثورة السورية، واستطاع في هذه المرة أيضًا مغادرة البلاد للتنقل بين فلسطين والحجاز ومصر داعيًا لتأييد وطنه، ونصرة الشعب السوري، حتى صدر عفو جديد، فعاد إلى دمشق في عام ١٩٣١ وأسهم بجهود مثمرة في تكوين عدد من الشركات، وفي إقامة المشروعات الوطنية التي كانت نواة لاقتصاديات سوريا.

ثم توالت الأحداث السياسية وأضرب الشعب السوري ٥٨ يوما في عام ١٩٣٦ مطالبًا بالاستقلال، وانتهى الأمر إلى المفاوضات الفرنسية السورية في باريس ثم إلى إعلان استقالة هاشم الأتاسي من رياسة الجمهورية في سنة ١٩٣٦، واستمرت الحال على المقاومة إلى أن نشبت الحرب العالمية الثانية في أواخر عام ١٩٣٨.

وتزعم القوتلي الحركة المنادية بانتزاع الاستقلال من فرنسا إلى أن اعترفت هذه الدولة بحق الشعب السوري في حكم بلاده، وعندها انتخب القوتلي رئيسًا للجمهورية في ١١ من أغسطس عام ١٩٤٣ وكان قد انتخب عضوًا بالمجلس النيابي عام ١٩٤٢.

ولتمسك فرنسا ببقاء إدارة الجيش وسلطانه في يديها مع بعض السلطات الأخرى التي تنقص من سيادة الشعب على مقدراته، دخل الشعب السوري المناضل معركة الجلاء التي استمرت حتى عام ١٩٤٥ الذي وقع فيها الاعتداء الفرنسي الغاشم على دمشق، إذ ضربت بالقنابل المدمرة والحارقة لإخماد الحركة الثورية، ولم يوافق القوتلي – وكان مريضًا – على عقد معاهدة صلح مع فرنسا تملي فيها شروطها المجحفة.

وانتقلت المسألة السورية إلى هيئة الأمم المتحدة واتفقت سوريا ولبنان على عرض مشكلتهما على مجلس الأمن، وبعد مناقشة عنيفة قرر هذا المجلس في عام ١٩٤٦م وجوب جلاء الجيوش الأجنبية عن سوريا ولبنان في أسرع وقت ممكن، وفي ١٧ من إبريل من ذلك العام نفسه ارتفع العلم السوري على الثكنات التي كان الجيش الفرنسي يحتلها في سوريا، وقد تجدد انتخاب القوتلي رئيسًا للجمهورية في عام ١٩٤٨م وفي

عام ١٩٥٥م، ثم أسهم في تحقيق الوحدة بين مصر وسوريا باسم الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٥٨م ولكنه صار من أنصار الانفصال الذي حدث بعد أقل من عامين.

وفي حرب فلسطين ١٩٤٨م كان القوتلي رئيسًا للجمهورية السورية، فلم تبخل حكومته على المجاهدين بمال أو رجال، فكانت الوحيدة التي وفت بالتزاماتها كاملة، كما أعلن ذلك السيد عبد الرحمن عزام أمين الجمعية العربية العام، وقد أرسلت سوريا فوجين من الجنود لفك الحصار عن القوات المصرية في الفالوجة.

٧٧٢- شكور باشا - شارع - بقسم العطارين (الرائد سامح الرفاعي حاليًا)

ولد يوسف شكور بمدينة الإسكندرية عام ١٨٥٥م (١٢٧٢هـ) ولما بلغ سن الشباب، سافر إلى فرنسا، والتحق بمدارس مدينة «ليون» وأتم علومه بها، ثم عاد إلى مصر، فتقدم للامتحان في المجلس الأعلى لصندوق الدَّين بالقاهرة وبعد نجاحه في الامتحان أسند إليه بعض المناصب في نظارة المالية حيث اطردت ترقيته، إلى أن عهدت إليه الحكومة المصرية بتنظيم المجلس البلدي بالإسكندرية لدى إنشائه عام ١٨٩١م (١٣٠٩هـ)، وبعد أن أتم تنظيم إدارته صار مديرًا لهذا المجلس، وكان أول مدير له، وقد ترك الخدمة خلال عام ١٩٠٨م (١٣٢٦هـ) وتولى إدارة شركة «البيرة» الجعة بالإسكندرية وكان اسمها «شركة بيرة الأهرام»، وفي ذلك قال الشاعر إسماعيل صبري هذين البيتين:

أَيْنَ شَكُّور هَلْ العَلْـ
ـياءُ في حُبِّ نَفَتْهُ
أَكَلَتْهُ البِيْرَةُ اليَوْ
مَ تُرَى أَمْ شَرِبَتْهُ؟

وما من شك في أن يوسف شكور الذي نال رتبة الباشاوية قبيل توليه إدارة المجلس البلدي، كان من أسرة سورية استقرت بمدينة الإسكندرية وكان معظم أفراد تلك الأسر - ولاسيما المسيحية منها - يتلقون العلم في المدارس الفرنسية الذائعة الانتشار بالمدينة مثل مدارس «الفرير»، و«الجزويت» وغيرها، وبعد تخرجهم كانوا يتسربلون ثوب الفرنسي الأجنبي وينفصلون تمامًا عن جنسيتهم الأصلية العربية، ولم يقض على هذه النزعة البغيضة إلا بعد قيام الثورة المصرية في يوليو عام ١٩٥٢م (١٣٧٢هـ) التي أعلت صفة العروبة في جميع أقطار الوطن العربي، فصار إخواننا أهل الشام لا يجنحون إلى تلك العنجهية الأجنبية السخيفة ولا يأنفون من الاعتراف بعروبتهم المجيدة في السر والعلانية.

ولا يعرف تاريخ وفاة شكور باشا وإن كنت قد سمعت في أول عهدي بالتوظف ببلدية الإسكندرية في أكتوبر عام ١٩١٢م (١٣٣٠هـ) أن وفاته حدثت بالإسكندرية ودفن بمدافن باب شرقي.

أما ترجمة صاحب الاسم الجديد للشارع فاطلبها في «الرائد سامح الرفاعي».

٧٧٣- شمبوليون - شارع - بقسم باب شرقي

ولد «جان فرانسوا شمبوليون Jean-François Champollion» ببلدة «فيجاك Figeac» بفرنسا عام ١٧٩٠م، وكان أحد هؤلاء الرجال الذين لا يرهقهم العمل

المتواصل، ما دام يوصلهم إلى أهدافهم العلمية، فعندما بلغ السابعة عشرة من عمره أي في عام ١٨٠٧م قدم إلى جمعية الفنون والعلوم بمدينة «جرينوبل Grenoble» بحثه الذي تناول فيه جغرافية مصر القبطية، وفي سن الحادية والعشرين عندما كان أستاذًا بكلية الآداب بجامعة هذه المدينة نفسها نشر مؤلفه عن «مصر في عهد الفراعنة»، ولما بلغ الحادية والثلاثين كان قد حل رموز حجر رشيد الهيروغليفية، الذي حمله الكابتن «بوشار Bouchard»، أحد ضباط حملة بونابرت إلى باريس مع بعض الآثار المصرية الأخرى والحجر من البازلت الأسود ارتفاعه ١١٣سم، وعرضه ٧٥سم، وسمكه ٢٧سم.

وفي الوقت نفسه الذي توصل فيه شمبوليون إلى حل رموز حجر رشيد وأخذ يتلو ترجمة هذه الرموز الفرنسية في معهد الفنون والعلوم بباريس ويتلو كتابة المرسل إلى «م. داسييه M. Dacier» بشأن اللغة الهيروغليفية المصرية كانت بعض القوارب تشق طريقها في نهر السين إلى مكان المعرض الذي خصص لأجزاء قبر «سيتي الأول» الذي اكتشفه «بلزوني Belzoni» (انظر هذه المادة) وحمله إلى باريس لعرضه، مما أذاع صيته ووضعه في الصفوف الأولى من مكتشفي الآثار المصرية، ويعجب «شمبوليون» من إهمال علماء البعثة التي صاحبت نابوليون في مصر لهذا الأثر القديم القيم وإغفال تقديره الأثري العلمي الذي جعل أهل باريس بل وأهل فرنسا جميعًا يوجهون اهتمامهم البالغ للكشوف الأثرية المصرية وللحضارة المصرية وأطوارها المختلفة على مر القرون الغابرة.

ولقد قامت ضجة كبرى حول قيام شمبوليون بحل رموز حجر رشيد ومعرفة اللغة الهيروغليفية، من ذلك أن عالم الطبيعيات «توماس يونج T. Young» الإنجليزي (انظر مادة يونج) زعم أنه سبق شمبوليون في هذا المضمار وتبعه في هذا الزعم كل من «سبون وسيفارث وكلابروث».

وأخذ أخو شمبوليون الأكبر على عاتقه الدفاع عن حقوق أخيه، وقام عدد من أعضاء معهد الفنون والعلوم بالانضمام إلى خصوم شمبوليون الذي تُوِّج رأسه بإكليل الغار وهو مايزال في عهد الشباب، ومن ثَمَّ رفضت أكاديمية المخطوطات والآداب عدة مرات قبول شمبوليون بين أعضائها.

واشتدت الخصومة نحو الأخوين وسُعِيَ بهما لدى الملك «لويس الثامن عشر» ملك فرنسا، وكان على رأس هذه السعاية الشريرة «جومار Jomard» وكان شمبوليون يزهو بتلقيب نفسه «بالمصري» فدعا «جومار» نفسه بعامل الحسد والحقد «المصري الذي لا يبارى» وصار توماس يونج لدى خصوم شمبوليون المصري الصميم.

ولكن شمبوليون لم يستسلم لليأس فترك الدفاع عنه لأخيه الأكبر وأخذ هو في البحث عما يؤيد نظريته فيما يتعلق باللغة الهيروغليفية المصرية، ولم يمض غير ثلاثة شهور على ذلك حتى وجد عونًا قويًّا في «فريدريك كايّو Frédéric Cailliaud» الذي قدم له – علاوة على عدة صور نسخها عن النقوش الفرعونية على الآثار – مومياء من العصر البطلمي مغطاة بالكتابات الهيروغليفية ومعها ترجمتها باللغة الهيراطيقية والديموطيقية، وقد ساعدت هذه الكتابات شمبوليون على إتمام أبحاثه وتأكيد صحتها.

وإذا كان «فريدريك كايّوو» جغرافيًّا، ومن المشتغلين بالجيولوجيا (علم طبقات الأرض)، فإن ذلك لم يمنع محمد علي من تكليفه بالبحث في صحراء العرب عن مناجم الزمرد

التي كان الفراعنة يستغلونها والتي وصفها الكتاب العرب في كثير من الإعجاب، ولقد ذهب «كايّوو» من إدفو إلى جهة البحر الأحمر ووجد المناجم على الحالة التي تركها الفراعنة عليها، ولم يجد فيها ما يشجع على استغلالها لنضوب مواردها تقريبًا، وفي عام ١٨١٦م حاول - صحبة «دروفيتي» (انظر هذه المادة) - فتح المدخل الرئيسي لمعبد أبو سمبل (انظر هذه المادة) دون جدوى.

وقدم «كايّوو» إلى شمبوليون كذلك قائمة بأسماء الملوك الفراعنة حسب أزمنة توليهم الحكم وتوضح أسماءهم الملوكية التي لقبوا بها، وقد أدت هذه القائمة خدمة جليلة لشمبوليون عاونته على ترجمة الحروف الهيروغليفية ترجمة صحيحة، ومن ثَمَّ يكون هذا العالم الأثري أول من توصل إلى ترجمة اللغة المصرية القديمة.

وفي عام ١٨٢٧م قدم شمبوليون إلى ملك فرنسا «شارل العاشر» مذكرة حدد فيها المهام التي سيقوم بها خلال رحلته إلى مصر، وهي تتركز في تكملة المعلومات التي يعرفها الفرنسيون عن مصر القديمة وذلك بكيفية علمية ثابتة تشمل الفنون المعمارية والطقوس الدينية والفنون، والصناعات المختلفة قبل أن يأتي الزمن أو التجديد العمراني على الآثار القديمة الحالية فتذهب المعلومات المتعلقة بها إلى الفناء دون الإفادة منها.

وعلى الرغم من خصومه انضم الملك شارل العاشر إلى وجهة نظره، ومن ثَمَّ استطاع شمبوليون أن يحصل على الموافقة على شراء مجموعة الآثار التي اكتشفها قنصل إنجلترا في مصر «سالت Salt» وأن يقوم بعرضها في ١٥ من ديسمبر عام ١٨٢٧م بمتحف «اللوفر» بباريس في جناح خاص أطلق عليه اسم «الجناح المصري» وقام بافتتاحه الملك شارل العاشر بنفسه.

وفي شهر يونية عام ١٨٢٨م وافقت الحكومة الفرنسية على سفر بعثة «شمبوليون» إلى مصر وعلى رأسها نخبة من علماء الآثار، وتلبية لرغبة «الغراندوق دي توسكان» انضمت بعثة إيطالية إلى البعثة الفرنسية برياسة المستشرق «روزيليني Rosellini»، وفي ١٨ من أغسطس عام ١٨٢٨م وصلت البعثتان إلى الإسكندرية، ولكن «دروفيتي» بذل قصارى جهده لإحباط أعمال البعثتين، إذ إن منافسه قنصل إنجلترا «سالت» كان قد مات عام ١٨٢٦م وكان يأمل أن يظل سيد الموقف في كل ما له شأن بالحفريات والآثار يتصرف فيها على هواه دون رقابة هاتين البعثتين مما يحد من سلطانه المطلق في هذا السبيل، ومن ثَمَّ أخذ يكتب إلى شمبوليون وروزيليني (انظر هذه المادة) بأن الظرف غير ملائم ولاسيما أن فرنسا كانت قد انحازت إلى جانب اليونان مما أدى إلى تحطيم أكثر قطع الأسطول المصري في موقعة نافارين بشبه جزيرة «الموره» في جنوب البلاد اليونانية.

غير أن شمبوليون لم يستسلم للهزيمة وطلب مقابلة محمد علي فقدمه «دروفيتي» إليه وكان أن رفض الباشا إصدار الفرمانات الخاصة بالتنقيب، وبعد أن اتصل شمبوليون بالوزراء في هذا الصدد وافق محمد علي على رحلة البعثتين العلمية إلى داخل البلاد وطلب من شمبوليون ترجمة النقوش المحفورة على مسلتي كليوباترا بالإسكندرية، وعلى إثر ذلك رحل شمبوليون إلى القاهرة، وبعد أن وصف لأخيه في الكتب التي أرسلها إليه تباعًا ما رآه بالعاصمة من احتفالات بالمولد النبوي تتخللها الأذكار، كما تتخللها الملاهي الصاخبة ومنها الماجنة،

بدأ الرحلة إلى الصعيد، وبدأ بزيارة آثار دندرة واستطاع أن يحدد زمن وجودها من النقوش المحفورة عليها، ثم استمر في رحلته فزار الوادي الكبير وإسنا والكاب وفي وادي الفيلة لاحظ التخريب الذي قام به اللصوص والذي أحدثته فيضانات نهر النيل على عظمة الآثار الفرعونية العظيمة.

وفي أول يناير عام ١٨٢٩م وصل إلى وادي حلفا وكتب إلى المسيو «م. داسييه M. Dacier» يقول: «إنني فخور الآن، فقد تابعت في رحلتي نهر النيل من مصبه إلى الشلال الثاني وأستطيع إبلاغكم أنه ليس هناك أي سبب يدعو إلى تعديل ما دوّنته سابقًا بشأن الحروف الهجائية الهيروغليفية فهي صحيحة كل الصحة».

وأكب أول الأمر على بحث الآثار المصرية التي ترجع إلى العهدين البطلمي والروماني ثم بحث النقوش المحفورة على المعابد والقصور والقبور الفرعونية.

وعلى الرغم من الدوار الذي يصيبه أحيانًا، وعلى الرغم من الحرمان والجوع والحمى وأوجاع داء المفاصل الذي كان يعاوده، فيرغمه على أن يحمل في محفة، على الرغم من كل هذا لم يتوان في السير قدمًا في أبحاثه الأثرية، ففي معبد «أبو سمبل» خلع ملابسه الخارجية، وزحف على بطنه ليلج من الباب الصغير في درجة حرارة عالية جدًّا، وهكذا فعل شمبوليون في جميع معابد النوبة والصعيد، لم يترك واحدًا منها دون أن يحل رموز ما كتبه الفراعنة أو الأقدمون على حوائطها، مما يشرح عادات وتقاليد العصور التي أقيمت فيها، وحالة بناتها الاجتماعية والعمرانية، ومما تقدم يتضح أن هذا العالم الأثري لم يقصر في رفع النقاب عن الوجه الذهبي لمصر القديمة، فرآه الأوروبيون وبهروا بجماله وعظمته التاريخية وحضارته المدهشة.

ومن جهة أخرى لم يقصر في تصحيح النظريات العلمية التي قال بها من سبقه فكان يبدي معلوماته في عرض لا يحتمل الشك أو التأويل الخاطئ، ومن ثمّ وضع الأصول التاريخية للآثار المصرية في مواضعها الحقيقية، وذلك على الرغم من المرض ومن الدسائس التي كان «دروفيتي» لا يكف عن ملاحقة أضرارها المسمومة والسعي لدى معارفه بفرنسا لمنع النفقات اللازمة لاستمراره على العمل في مصر.

ومن الأعمال الخالدة التي قام بها الوصول بأبحاثه العلمية الدقيقة إلى تحديد شخصية رمسيس الثاني وفصلها عن شخصية رمسيس الثالث، وكان المؤرخون الإغريق يجعلون من الملكين شخصية واحدة يطلقون عليها اسم «سيزوستريس» (انظر هذه المادة) وكان له الفضل في تحديد شخصيات ملوك الأسرة الفرعونية الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين، وفي إزاحة الستار عن العديد من الشخصيات المصرية القديمة من ملوك وعظماء وعن معاركهم الحربية وانتصاراتهم وعن الأسرى من يهود وسوريين ونوبيين وعن ملابسهم وملابس الكهنة من جلود الفهود وعن أعياد وحفلات مصر القديمة.

وفي عام ١٨٢٩م عاد شمبوليون إلى القاهرة ثم ذهب إلى الإسكندرية حيث قابله محمد علي بالترحيب الحار فقدم إليه مذكرة تتضمن المعلومات الأولية عن تاريخ مصر والمطالبة بضرورة العمل على إنقاذ الآثار المصرية وصيانتها من التلف أو الضياع، وكانت هذه المذكرة مصحوبة بقائمة تبين أماكن الأبنية الأثرية التي كانت موجودة في عام ١٨٢٩م ومن بينها

آثار النوبة والمعابد المقامة على ضفتي النيل بين الشلال الأول والشلال الثاني .

وبعد الإقامة أسبوعين بالإسكندرية أبحر شمبوليون إلى فرنسا ووصل إلى ميناء طولون في أول يناير عام ١٨٣٠م ، ومن هذا الميناء كتب إلى صديقه وراعيه «م . داسييه M . Dacier» يقول: «إني أعلم أن القدماء يمثلون مصر ببقرة حلوب ، وقد حلبها محمد علي وساقها للعمل من الصباح إلى المساء ، وهكذا ترون يا سيدي ماذا صنعت نصائح «دروفيتي» وجومار وأمثالهما من أدعياء رعاة الشعوب ، فمصر بحالتها الراهنة تثير الرعب والرحمة ، وإني لأقولها مدويّة صريحة على الرغم من السيف المحلى بالذهب الذي قدمه الباشا إليّ كهدية تعبر عن رضائه وتقديره» ، ويتضح من هذا القول أن «دروفيتي» كان يسيطر على محمد علي ، ويحثه على استغلال الشعب المسكين في غير رحمة .

ولم ينس شمبوليون مصر بعد عودته إلى باريس ، ففي مارس عام ١٨٣٠م عين – على الرغم من دسائس خصومه وحقدهم – أستاذًا لمادة الآثار المصرية في «كولدج دي فرانس» (كلية فرنسا) ، وسرعان ما أخذ في تحضير ما يلزم لنشر مؤلفه الكبير «آثار مصر والنوبة» ، ولكن صحته المعتلة لم تستطع المقاومة والتغلب على عناء السهر ومصارعة الهموم واحتمال البرد الشديد ، فأصيب بداء الرئتين ومات متأثرًا بمرضه في ٤ من مارس عام ١٨٣٢م ، بالغًا من العمر ٤٢ عامًا .

وقد قام مساعدوه في البعثة بمصر بإتمام مؤلفه «آثار مصر والنوبة» وقام مساعده الرسام «نستور لهوت Nestor L'Hôte» بالسفر إلى مصر مرتين لرسم بعض الآثار التي تضمنها المؤلف ، ولموت هذا الرسام في عنفوان الشباب قام ابن أخته «مارييت» (انظر مادة ماريت باشا) بتكملة ما بدأه خاله ، أما أجرومية «شمبوليون» الهيروغليفية فقد ظهرت في عام ١٨٣٥م بعد موته بثلاثة أعوام .

وشمبوليون هو الذي أوصى بنقل مسلات الأقصر إلى باريس ، وتنفيذًا لذلك أرسل ملك فرنسا شارل العاشر البارون «تايلور Taylor» ليطلب الإذن من محمد علي بنقلها ، وكان ذلك في إبريل عام ١٨٣٠م ، فوافق الباشا على طلب ملك فرنسا ، كما وافق على نقل مسلة كليوباترا وحال قيام الثورة في فرنسا دون ذلك ، ولكن النقل تم في عهد الملك «لويس فيليب» تحت إشراف شمبوليون ، ووصلت المسلة الغبية من مسلات الأقصر إلى باريس في ديسمبر عام ١٨٣٣ بفضل احتياطات المهندس «ليبا Lebas» .

٧٧٤– شمس الدولة – شارع – بقسم محرم بك

يحمل لقب شمس الدولة اثنان ممن ذكر المؤرخون سير حياتهم وهما:

١) أبو طاهر بن فخر الدولة البويهي (الملقب بشمس الدولة): فعندما توفي أبوه فخر الدولة نودي به واليًا على همذان وكرمانشاه ، وكان صغير السن ، ولما كبر أخوه مجد الدولة الذي خلف أبوه فخر الدولة في الملك رأى أن ينحي أمه سيدة عن الوصاية عليه ودبر مؤامرة لذلك مع الوزير أبي علي بن علي بن القاسم عام ٣٩٧هـ (١٠٠٦م) وفكر في الاستعانة بالزعيم الكردي بدر بن حسنويه ، ولكن بدرًا خرج إلى الري مع شمس الدولة وزجّ بمجد الدولة في السجن ، وسلمت عقب ذلك مقاليد الحكم لشمس الدولة الذي لم يكن كيِّسًا

ليّن العريكة مثل مجد الدولة، وعندما أطلق سراح مجد الدولة نودي به حاكمًا مرة أخرى، ومن ثم عاد شمس الدولة إلى همذان.

وفي عام ٤٠٥هـ (١٠١٤ - ١٠١٥م) قتل الجنود بدر بن حسنويه، فاستولى شمس الدولة على جزء من أملاكه، ولما حاول حفيد بدر وهو طاهر بن هلال بن بدر منازعته، هزمه وسجنه، وكان أبوه طاهر بن هلال في هذه الأثناء مسجونًا بأمر من سلطان الدولة، فبادر إلى إطلاق سراحه وإرساله على رأس جيش لاسترداد الأراضي التي احتلها شمس الدولة، ولكنه هزم عام ٤٠٥هـ (١٠١٥م) وقتل في هذه المعركة واستولى شمس الدولة على مدينة الري وعندها فرّ مجد الدولة وأمه، ولما أراد تعقبهما ثار عليه الجنود فأجبر على العودة إلى همذان وعاد مجد الدولة وأمه إلى الري.

وفي عام ٤١١هـ (١٠٢٠ - ١٠٢١م) ثار عليه الترك فاستنجد بأبي جعفر بن كاكويه والي أصفهان وتمكن بفضل نجدته من طرد الأتراك المشاغبين من المدينة.

وفي عام ٤١٢هـ (١٠٢٢م) خلف شمس الدولة على الحكم ابنه «سماء الدولة» ولكن همذان سقطت في أيدي الكاكويهيين في مدى عامين وكان ذلك خلال عام ٤١٤هـ (١٠٢٤م).

٢) توران شاه بن أيوب بن شادي بن مروان (الملقب بالملك المعظم شمس الدولة): هو أخو السلطان الناصر صلاح الدين (انظر مادة صلاح الدين) وكان يكبره سنًّا وكان صلاح الدين يكثر الثناء عليه ويرجحه على نفسه، ثم بلغه أن رجلاً باليمن يدعى عبد النبي بن مهدي يزعم أن ملكه سينتشر حتى يملك الأرض بأسرها، وكان قد ملك كثيرًا من بقاع اليمن واستولى على معظم حصونها ودعا لنفسه في خطبة الجمعة.

وكانت أقدام السلطان صلاح الدين قد ثبتت وكبرت قواته العسكرية في مصر، فجهز أخاه شمس الدولة بجيش، فسافر إلى اليمن في شهر رجب عام ٥٦٩هـ (١١٧٣م) وهزم عبد النبي المهدي وقتله واستولى على معظم البلاد ووزع العطايا والمنح، وكان كريمًا أريحيًّا، ولما استقامت له الأمور هناك كره المقام بها لأنه من بلاد الشام أصلاً، وهي كثيرة الخيرات فكتب لأخيه صلاح الدين يستأذنه في العودة إلى الشام ويشكو حاله وما يقاسيه من افتقار لمعظم حاجاته، فردّ عليه صلاح الدين بأن اليمن كثيرة الأموال وهي مملكة كبيرة، فأحضر رسول أخيه وقال لمتولي خزانته أرسِل هذا الكيس من النقود إلى السوق لشراء كذا وكذا من الفاكهة وأرسِل هذا الكيس الآخر لشراء قطعة من الثلج، وكان صاحب خزانته يرد في كل مرة إن هذا لا يوجد باليمن، فالتفت إلى الرسول وقال له: «ماذا أصنع بالمال إذا لم أنتفع به في ملاذي، وما أشتهي من نعم الدنيا؟ إن المال لا يؤكل وإنما هو وسيلة يبلغ بها الإنسان ما يريد»، فعاد الرسول إلى صلاح الدين وأخبره الأمر، فأذن لشمس الدولة بالعودة إلى الشام، وكان السلطان على حصار حلب فوصل إلى دمشق عام ٥٧١هـ (١١٧٥م)، ولما رجع صلاح الدين إلى مصر استخلف شمس الدولة بدمشق فأقام بها ردحًا من الزمن ثم انتقل إلى مصر.

وتوفي شمس الدولة في شهر صفر عام ٥٧٦هـ (١١٨٠م) بمدينة الإسكندرية ونقلت أخته ست الشام بنت أيوب جثته إلى دمشق حيث دفنت في المدرسة التي أنشأتها بظاهر المدينة، ودفنت هي بعد وفاتها بجانب قبر ولدها حسام الدين بن عمر

ابن لاشين، وقبر زوجها ناصر الدين أبي عبد الله محمد بن أسد الدين شيركوه صاحب حِمْص.

وكان القاضي الفاضل (انظر هذه المادة) يكاتب شمس الدولة عندما كان باليمن وبالشام ويرسل إليه بقصائده التي تفيض بالشوق إليه.

وكان أخوه صلاح الدين قد أرسله لفتح بلاد النوبة قبل إرساله إلى اليمن وذلك عام ٥٦٨هـ (١١٧٢م) فوجدها قليلة الأرزاق فترك ورجع إلى القاهرة ومعه الكثير من الرقيق، وكانت له من أخيه إقطاعات ولكنه مات وعليه من الديون مائتا ألف دينار فقضاها عنه صلاح الدين لعلمه أنه كان ينعم بها على من يستحقونها من خلصائه ومن المحتاجين إلى العون المادي.

٧٧٥- الشموس - شارع - بقسم كرموز

الشموس جمع شمس، والشمس نجم من ملايين النجوم الموجودة في الكون، وهي وسط بين النجوم، فلا هي بلغت من الكبر حجم النجوم العملاقة، ولا هي بالصغيرة إلى الحد الذي يضمها إلى أقزام النجوم الكونية، غير أنها كل شيء بالنسبة إلى البشر، فحياة الإنسان متوقفة على الضوء والحرارة المنبعثين منها، ولولاهما لتحول العالم الأرضي إلى صعيد قاحل لا حياة فيه.

وبتحليل خواص الشمس اتضح بما لا يقبل الشك أن الأرض وليدتها ويبلغ قطر الشمس ١,٣٨٥,٠٠٠ كيلومتر، أي أنها أكبر من الأرض ملايين المرات، أما خواصها المغناطيسية فتتفق تمامًا مع خواص الأرض، وتدور مثل الأرض حول محورها من الغرب إلى الشرق، غير أن دورانها يختلف عن الأجسام الصلبة، إذ إن خط استوائها يتم دورة كاملة حول محورها في خمسة وعشرين يومًا ونصف اليوم، وتستغرق الدورة الكاملة لقطبيها أكثر من ذلك بتسعة أيام، وتستبين هذه الظاهرة من ملاحظة ما يسمى بالبقع الشمسية التي يستطاع رؤيتها وتصويرها أثناء حركتها حول سطح الشمس، ويظهر أن الصينيين كانوا أول من لاحظوا وجود البقع الشمسية بالعين المجردة، وكان ذلك في المائة الثانية من التاريخ الميلادي، غير أن العالم جاليليو كان أول من نبه الأذهان إلى وجودها، وذلك في القارة الأوروبية عام ١٦١٠م (١٠١٩هـ) عندما شاهد من خلال مجهره الذي اخترعه في ذلك الحين، وهو ما أطلق عليه اسم التلسكوب.

وتتركز البقع الشمسية عادة في المنطقة الكائنة بين خطي عرض ٣٥° جنوبًا وشمالاً من خط الاستواء في قرص الشمس، وتبدأ مسارها من خطوط العرض العالية في هيئة دوامات دائرية مزدوجة ذات مغناطيسية قطبية متعاكسة ثم تتحول إلى أشكال ملتوية عندما تبدأ في الانحدار صوب خط الاستواء الشمسي، وتختفي هذه الدوامات بعد أسابيع قليلة، ويرتفع نشاط البقع الشمسية إلى أعلى حد، كل إحدى عشرة سنة على وجه التقريب وذلك عندما تصل درجة حرارة الشمس إلى أعلى من المعدل المعتاد، ومن ثَمَّ يزداد تبخر المياه وذوبان الجليد في جهات كثيرة على سطح الأرض، مما يترتب عليه هطول أمطار غزيرة في مناطق مختلفة قد يصاحبها عواصف مغناطيسية متكررة قد تحدث أحيانًا تغييرات فجائية في حركة إبرة البوصلة وتسبب تأثيرات ضعيفة في الموجات اللاسلكية، وتكوِّن البقع الشمسية منطقة أبرد مما حولها في العادة، كما

تكون مركزًا لمجال مغناطيسي قوي، وقد يندفع منها على جو الأرض العلوي بعض الجزيئات المشحونة بالكهرباء فتحدث الاضطرابات الجوية والطبيعية الآنفة الذكر.

وبتحليل الضوء استطاع العلماء معرفة التركيب الشمسي والوقوف على عناصره وذلك من خلال الطيف، وثبت لهم أن كثيرًا من عناصر الشمس توافق تمامًا العناصر التي تتكون منها الكرة الأرضية فيما عدا بعض العناصر الثقيلة، وظهر أن هذه العناصر الثقيلة لا تظهر في تحليل الألوان الطيفية (قوس قزح) بسبب تسربها إلى باطن الشمس نفسها. ومما يجدر ذكره هو أن عنصر «الهيليوم» قد كشف عنه العلماء في الكوكب الشمسي قبل أن يكتشف على الأرض بسنوات عدة، ومع وجود العناصر الثقيلة في الشمس فإن كثافتها لا تزيد على كثافة الماء بأكثر من مرة ونصف، وهذا ما يؤكد أن الشمس ليست صلبة في تكوينها، وأنها مازالت في الحالة الغازية، ولكن لابد من أن تكون طبقتها الداخلية واقعة تحت ضغط مرتفع جدًّا بسبب الشد الناجم عن جاذبيتها الهائلة.

وللشمس سطح محدد تحديدًا ظاهرًا على الرغم من أنها غازية، وقد أطلق على هذا السطح اسم النطاق الضوئي، ويحيط به من الخارج طبقات من الغاز أكثر انخفاضًا في درجة الحرارة ولكنها ماتزال متوهجة وتسمى بالنطاق اللوني، ومن وراء هذه الطبقات الغازية تبرز ألسنة من اللهب تسمى بالنتوءات، وقد يصل ارتفاع بعضها إلى أكثر من ٨٠,٠٠٠ كيلومتر، وتمتد منطقة أخرى يطلق عليها اسم منطقة الإكيل الشمسي آلاف من الكيلومترات بعد المنطقة السابقة.

وتعزى الهالة البيضاء التي تظهر حول الشمس أثناء الكسوف الكلي إلى انعكاس ضوئها على الحبيبات ذات الجسم الجزئي التي تنتشر حول قرص الشمس، ويكون طيف هذه الهالة مشتملاً على بعض خطوط واضحة لا تظهر في نتائج التحليل الطيفي للضوء العادي للشمس في غير أوقات الكسوف، ويميل العلماء إلى أن هذه الخطوط الغريبة ليست عناصر جديدة شمسية وإن كان من المحتمل أن تكون نتيجة لوجود ذرّات للعناصر الشمسية العادية في غير حالاتها المألوفة.

وتصل درجة الحرارة في سطح الشمس الخارجي إلى حوالي ٤٠,٠٠٠ درجة مئوية وتصل عند المركز الداخلي إلى حوالي أربعين من الدرجات، وقوة إضاءة السنتيمتر المربع من سطح الشمس تساوي ٥٠,٠٠٠ شمعة، وتمد هذه المساحة الأرض بطاقة تعادل قوتها قوة تسعة من الخيل في الساعة ومن الطاقة الحرارية الكلية المنبعثة من الشمس لا يصل إلى سطح الأرض سوى جزء من بليونين ومائتي مليون، وتبلغ هذه الطاقة الكلية ما يوازي خمسة ملايين من الخيل في الساعة، وذلك لكل ميل مربع من سطحها، ومازالت الجهود تبذل لاستطاعة الإفادة من هذه الطاقة الهائلة وتحويلها إلى حركة آلية أرضية، ويحسن في هذا الصدد القول بأن بعض هذه المحاولات كللت بالنجاح فاخترعت الأفران الشمسية لطهو الطعام وأقيمت بعض المراكز لكبت أجزاء من تلك الطاقة، واستخدامها في الأغراض الأرضية المختلفة، وتقوم هذه المحاولات على أساس الاستعانة بالمرايا لتركيز الحرارة على غلايات بخارية، وماتزال هذه التجارب في مرحلة التطوير، وما من شك أن العلم لن يقف عن هذا الحد من المعرفة وأنه سيصل يومًا إلى

معرفة استعمال طاقة الشمس الكلية في الأغراض المتعلقة برفاهية الإنسان وتهيئة أسباب الراحة لمعيشته وصحته، وإن كان الإنسان لم يستفد من طاقة الشمس الحرارية حتى الآن فإن النباتات تستخدم هذه الطاقة فتحولها إلى نشاط حيوي مفيد وذلك عن طريق عملية التمثيل الضوئي.

ولقد بحث العلماء منذ كثير من الأعوام عن مصدر الطاقة الشمسية وهل هذه الطاقة ستخمد بعد زمن معين أو ستبقى على مر القرون القادمة؟ وقد طرأ هذا التساؤل نتيجة لما لوحظ أن المخزون من الحرارة الداخلية للشمس لا يكفي للمعدل الذي تمدنا به بحالة مستمرة إلا لمدة بضعة آلاف من السنين، غير أن النظريات الجيولوجية الحديثة الخاصة بتاريخ الأرض أثبتت أنها كانت تحصل على كميات من الحرارة لا تقل عن المعدل الحالي وذلك منذ أحقاب طويلة جدًّا، وظن بعض العلماء أن قوة ارتطام الشهب الكثيرة العدد بسطح الشمس قد يكون عنصرًا من عناصر تزويدها بالطاقة الحرارية، ولكن سرعان ما أوضحت الحسابات الفلكية أن ذلك لن يكفي، ومن جهة أخرى قام فرض آخر يقول أن الشمس تنكمش في الحجم بمعدل خمس وسبعين ياردة في كل عام زمني وأن الحركة الدائبة لمادتها نحو المركز تكفي لتوليد الطاقة اللازمة. غير أن هذه النظرية لم توائم تقديرات علماء الجيولوجيا لعمر الأرض. هذا علاوة على أن كيفية تحول الطاقة الحرارية إلى طاقة ضوئية لم تلق تفسيرًا صحيحًا حتى الآن. ولدى اكتشاف الراديون بوساطة المسيو «كوري» وزوجته واكتشاف العناصر المشعة الأخرى التي تتحلل ذاتيًّا وتشع طاقة حرارية كبيرة مستمرة، خال بعض الباحثين أنها مفتاح السر، ولكن سرعان ما أوضحت الأبحاث أنه من غير المحتمل أن يكون بالشمس كميات كافية من هذه العناصر لتفسير هذا الإمداد الضخم من الطاقة الحرارية التي تصدر عن الشمس.

واتجهت الأنظار بعد ذلك إلى نظرية «أينشتاين» عالم الذرّة المشهور، وهي النظرية التي تفترض أن المادة والطاقة ما هما إلا شيء واحد، وأنه يستطاع تحويل إحداهما إلى الأخرى، وقد ثبتت هذه النظرية علميًّا في القنابل الذرية وعلى أساس نظرية أينشتاين يمكن القول بأن المادة في الشمس قد تتحول إلى طاقة حرارية دائمة، ومعنى ذلك أنه لكي تحتفظ الشمس بمعدل إشعاعها الحالي يجب أن تفقد كتلتها الكلية ما يعادل أربعة ملايين من الأطنان في الثانية الواحدة، وليست هذه الكمية مزعجة بالنسبة إلى حجم الشمس الهائل.

والاعتقاد الحديث هو أنه من الجائز أن يكون في الشمس عمل مستمر يتحول عن طريقه غاز الهيدروجين الذي يكون معظم كتلة الشمس إلى هيليوم وتنطلق من هذا التحول كميات ضخمة من الطاقة الحرارية، وهذا العمل نفسه هو الذي يحدث عند انفجار القنبلة الذرية.

ويلاحظ أن أقرب النجوم جميعًا إلى الأرض نجم غامض يعرف «بالأقرب القنطوري»، إذ يبعد عنا بمقدار ٢٥ مليون من الأميال، وهو يقع في أقصى النصف الجنوبي للكرة السماوية، ومن ثَمَّ يتضح أن بُعد أقرب النجوم إلى الأرض يعادل بُعد الشمس عنا بما يقرب من ٢٧٠,٠٠٠ مرة، ولم يكشف عن هذا النجم إلا منذ قريب بالنظر إلى قلة الضوء الذي ينبعث منه، ومن ثَمَّ يتضح أن النجوم تبعد عن الأرض بمسافات فضائية شاسعة بخلاف الكواكب السيارة ومنها الشمس والقمر.

وتقع الأرض في قبضة الجاذبية الشمسية القوية وتدور حول الكوكب الشمسي مرة في السنة، ولو كانت الأرض في شكلها كاملة التكور لاقتصر أثر قبضة جذب الشمس فيها على منعها من الانفلات منطلقة في الفضاء اللانهائي، ولكن الأرض كما هي ليست تامة التكور، إذ هي أقرب إلى شكل الكمثرى، كما ثبت ذلك يقينًا لرجال الفضاء الروس والأمريكان الذين يحاولون في الوقت الحاضر الهبوط على سطح القمر، ومن ثَمَّ فالأرض منبعجة قليلاً عند خط الاستواء وجذب الشمس هذا الجزء المنبعج يغير اتجاه محور الأرض في الفضاء ببطء ولكن باستمرار، ونتيجة ذلك قطب السماء – وهو المنطقة من السماء التي يشير نحوها محور الأرض – يدور في السماء في دائرة يحتاج لإتمامها إلى ٣٥٨٠٠ سنة وتعرف هذه الظاهرة بمبادرة الاعتدالين.

وليس هذا كل ما في الأمر فالقمر أيضًا يجذب الأرض إليه جذبًا ينشأ عنه ترنح صغير سريع يعرف «بتمايل محور الأرض» يضاف إلى الحركة الأكثر اتئادًا وهي الناتجة عن جذب الشمس.

وكل هذه الحركات تكوّن السبب في أن محور الأرض كان فيما مضى يتجه في اتجاه مخالف لاتجاهه الحالي، فالإنسان الذي عاش منذ ٥٠٠٠ سنة كان يرى السماء تدور حول نقطة كوكب التنين، وسيرى الإنسان بعد ٥٠٠٠ سنة أن السماء تدور للسبب نفسه حول نقطة في كوكب قيفاوس.

وعلى ذكر الشمس ومقدارها يحسن معرفة أن القمر يبدو في السماء متساوي الحجم مع الشمس تقريبًا، وعند كسوف الشمس يغطي القمر قرصها تمامًا، وتفسير ذلك هو أن الشمس على بُعد يعادل بُعد القمر عن الأرض بحوالي ٤٠٠ مرة، وأن قطرها يعادل قطر القمر بنحو ٤٠٠ مرة، ويعادل قطر الأرض بحوالي ١٠٩ من المرات أي ١,٣٨٥,٠٠٠ كيلومتر كما تقدم، ومعنى ذلك أن الشمس أكبر من الأرض ١٠٩ من المرات في كل اتجاه، أي في الطول والعرض والارتفاع، ومن ثَمَّ فإنه من المستطاع أن تستوعب الشمس ١,٣٠٠,٠٠٠ أرض في حيزها الكلي.

وتسير الأرض بنا حول الشمس فتتم الدورة الكاملة مرة في كل عام وبذلك تكون في كل لحظة من اللحظات في الجانب الآخر من الشمس المقابل بالضبط للموضع الذي كنا فيه قبل هذه اللحظة بستة أشهر، وعلى هذا الأساس تكون على بُعد ١٨٦,٠٠٠,٠٠٠ ميل من ذلك الموضع.

وتمثل أمواج البحر ضوء الشمس، وهو مزيج من أضواء كثيرة الألوان، والبرهان على ذلك يتضح إذا أمررنا الضوء من خلال منشور أو من إبريق زجاجي مملوء بالماء، وتبين لنا الطبيعة نفسها هذه الظاهرة عندما تمرر الضوء من خلال قطرات المطر المنهمر صيفًا، فتخرج لنا قوس قزح، ومن المعلوم أن ضوء الشمس يتألف من أمواج وأن الألوان المختلفة تنشأ عن أمواج متباينة الطول، فالضوء الأحمر ينشأ عن أمواج طويلة والأزرق عن أمواج قصيرة، والأمواج المختلفة المكوِّنة لضوء الشمس تضطر إلى تذليل العقبات التي تعترضها في الجو، كما تضطر أمواج البحر إلى مغالبة حاجز الأمواج في الموانى لتخطيها، وتلك العوائق تفعل في أمواج الضوء ما يحدثه حاجز الأمواج في البحر، فالموجات الطويلة المكوِّنة للون الأحمر لا تتأثر كثيرًا، على حين أن الموجات القصيرة المكونة للون الأزرق تتشتت في جميع الجهات، وذلك إذا

صادفت في الجو ذرّات من التراب تحولها عن طريقها ثم تحولها ذرّات أخرى من الرماد عن طريقها الثاني، وهكذا إلى أن تصل إلى أعيننا عن طريق يشبه في تعرجه طريق وميض البرق، وينتج عن ذلك أن الموجات الزرقاء تلج إلى الأعين من جميع الجهات، وهذا هو السبب الذي يُظهر لنا زرقة الجو، أما الموجات الحمراء فتأتي إلى الأعين مستقيمة لا تتأثر بالمعوقات الجوية وتلج فيها مباشرة، وبهذه الأشعة الحمراء نبصر الشمس حين نبصرها، وليست هذه الأشعة كل ضوء الشمس بل هي ما تخلّف منه بعد أن رشحت العقبات الجوية الكثير من الضوء الأزرق الذي يتخلله، وهذا الترشيح يجعل ضوء الشمس أشد احمرارًا مما كان عليه قبل دخوله منطقة الجو الأرضي، وبقدر ازدياد العوائق التي تصادف ضوء الشمس في الجو بقدر ما يزداد مقدار الضوء الأزرق الذي يُستنزف منه، وتبعًا لذلك يزداد منظر الشمس احمرارًا، وهذا يفسر السرّ في أن الشمس تبدو محمرة أكثر من احمرارها العادي إذا أبصرناها من خلال ضباب أو سحاب من البخار، ويفسر أيضًا سبب ظهور الشمس بلون أحمر خاص عند الشروق وعند الغروب، فضوء الشمس لا بد له من شق طريقه بين عدد كبير من العوائق الجوية قبل أن يصل إلينا في اتجاه شديد الميل، وهذا يفسر منظر الغروب البديع بلونه الشفقي البهيج.

ومن كل ما تقدم يتضح أن ضوء الشمس يتألف من مزيج يجمع كافة الألوان التي يحللها جو الأرض قبل أن تصل إلينا، ولكي نعيد تكوين لون ذلك الضوء الحقيقي يجب أن نمزج زرقة السماء بصفرة أشعة الشمس المباشرة أو حمرتها، وهذا المزج يُنتج الضوء الذي يكون في بياض الفولاذ والذي نراه بمجرد الخروج من النطاق الجوي الأرضي.

ويرجع إلى فعل الجو في تحليل الضوء الشمسي كثير من مناظر الأرض الجميلة التي نبصرها كزرقة السماء في النهار الصافي وبها الشمس عند الشروق والغروب بلونها البرتقالي أو الأحمر الأرجواني وألوان السحب البهيجة في الصباح الباكر وعقب اختفاء قرص الشمس في الأفق وقت المغرب، كل هذا نراه على سطح الأرض، فإذا ما تجاوزنا منطقة الجو الأرضي دخلنا عالمًا جوّيًا ينقسم إلى ضوء ساطع، أو ظل حاد لا وسط فيه بينهما، وعندئذ نرى الشمس على حقيقتها فتبدو ككرة ساطعة من ضوء تخالطه زرقة، ثم نراها في سماء حالكة الظلمة كمنتصف الليل البهيم، لأنها في هذه الحالة لا تتعرض لجو الأرض يتلقف أشعتها فيشتتها في كل الجهات.

وسطح الشمس لا يستقر في سكونه فهو دائمًا في حركة دائبة عنيفة، وهو هائج يغلي ويتفجر بطرق شتى، أما جوفها فعبارة عن مركز هائل من مراكز توليد القوة لا ينقطع له عمل، والطاقة التي تتولد وتنساب في داخلها تجعلها ساخنة إلى حد مريع، وينتج عن ذلك اندفاع تيار نحو سطحها عظيم الحرارة، فإذا بلغ هذا التيار السطح تحول إلى شعاع يتدفق في الفضاء، ويبدو أن الطبقات العليا من سطح الشمس تتقلب لتعرِّض أشد جنباتها حرارة إلى الفضاء حتى تيسر انسياب الشعاع المحبوس بسرعة كبيرة، ولتصريف الطاقة الشمسية إلى أبعد حد، نشاهد نافورات من اللهب ضخمة التكوين تتخلل السطح تسمى «نتوءات»، وتندلع إلى علوّ مئات الآلاف من الأميال فوق هذا السطح، وتكون هذه النتوءات قرمزية اللون في العادة وكثيرًا ما تتشكل بصور غريبة، وبعضها يظل ساكنًا جذوره راسخة في جسم الشمس، وينمو البعض الآخر، ويتفرع إلى أعلى بانطلاقات تبلغ آلاف الأميال في الدقيقة،

وفي أشكال تشبه عش الغراب الضخم الأحمر يهوي بعد ذلك على هيئة الشجرة أو على صورة الحيوانات الهائلة المنقرضة، وقد ظهر عند كسوف الشمس عام ١٩١٩م نتوء على صورة آكل النمل الهائل، إذ قدر البعد بين خرطومه وذيله بنحو ٣٥٠,٠٠٠ ميل وقد أخذ هذا الشكل الحيواني في رفع خرطومه وذيله على سطح الشمس ثم زاد عدد أرجله وأخذ يقفز إلى أعلى فوصل إلى علو ٤٧٥,٠٠٠ ميل وعندئذ حال الغروب دون الاستمرار في تصويره ومراقبة غريب أحواله.

ويبدو على سطح الشمس غير هذه المناظر العجيبة من اللهب القرمزي فجوات هائلة مظلمة فاغرة يقرب شكلها من شكل فوهات البراكين الثائرة تقذف بالنار وبالمادة الشمسية التي تسمى بكلف الشمس.

وأثبت علم الفلك الحديث أن طبيعة تكوين جو الشمس تختلف عن طبيعة تكوين جو الأرض، وذلك على الرغم من احتواء الجو الأرضي على الغازات الخفيفة الموجودة في جو الشمس، وعلى الرغم من احتواء الجو الشمسي على مواد فلزيّة ثقيلة كالبلاتين والفضة والرصاص والكثير من المواد الموجودة على الأرض وجميعها على صورة أبخرة بسبب الحرارة الشديدة التي تبعث من الجو الشمسي مما يستحيل معه بقاء أية مادة في حالة الجمودة أو السيولة.

وكل هذه المعلومات الحقيقية صارت معروفة علميًّا بفضل الآلة المعروفة باسم «مبين الأطياف أو الأسبكتروسكوب» التي تحلل الضوء الشمسي وتخبِّر عن أنواع الذرات التي يصدر ضوء الشمس عنها، وما من شك في أن المعلومات الفلكية التي دوَّنها رواد الفضاء الروس والأمريكان ستكشف عن حقائق جديدة قد تغير من المعلومات التي حققها علم الفلك بوساطة الآلات الفلكية الأرضية.

والضغط فوق سطح الأرض يبلغ نحو ١٥ رطلاً على البوصة المربعة وداخل مرجل البخار في قاطرات السكك الحديدية يصل إلى ٢٠ ضغطًا جويًّا، ولكن عند مركز الشمس يقدر الضغط الجوي بما يعادل الضغط الأرضي بحوالي ٤٠ ألف مليون مرة، وإزاء هذا الجو الهائل الضغط والحرارة تتفكك الذرات ولاسيما ذرات الأكسجين التي تصبح منعدمة الوجود في مركز الشمس الهائل الحرارة، ولذا يدل العلم على أن هذا المركز يشمل على مجموعة متنوعة من نوايات الذرات، وكهاربها تندفع في شتى الجهات بلا نظام أو ترتيب.

ومازال علم الفلك يرى أن نجمنا ذا جاذبية قوية اقترب من الشمس في الزمن الغابر السحيق القدم، فانتزع من جسمها جهة عالية فوق سطحها ثم بعد هذا النجم عنها، وعندها تكونت المجموعة الشمسية التي من بينها كوكب الأرض الذي نعيش فوقه، وقد حدث هذا الانفصال من جسم الشمس منذ ٣٠٠٠ مليون سنة في تقدير علماء الفلك، وكان انفصال الجزء الذي تتركب منه المجموعة الشمسية على هيئة «سيجار» مدبب عند نهايته وضخم في وسطه، وقد أخذت وحدات هذه المجموعة من السيارات الكبيرة تدور حول الشمس في مسارات واسعة الدوائر أو ضيقتها حسب بعدها أو قربها من الشمس.

وقد توصل علم الفلك إلى ترتيب هذه السيارات الكبيرة التي تؤلف المجموعة الشمسية على النحو الآتي:

«عطارد Mercury»، وهو أقرب السيارات إلى الشمس، ويليه في البُعد «الزهرة Venus»، ثم «الأرض» ثم «المريخ Mars»، ثم «النجيمات»، ثم «المشترى Jupiter»، ثم «زحل Saturn»، ثم «أورانوس Uranus» ثم «نبتون Neptune»، وأخيرًا «بلوتو Pluto» وهو أبعد السيارات عن الشمس (انظر مواد عطارد والزهرة والمريخ وزحل).

وعلى أساس الترتيب المبين قبل، يكون دوران هذه السيارات حول الشمس وئيدًا، أو سريعًا حسب بُعدها، «فعطارد» يتم دورته حول الشمس في سير بطيء على حين أن «بلوتو» يتمها مسرعًا جدًّا.

٧٧٦- الشنقيطي - حارة - بقسم باب شرقي

يحمل لقب الشنقيطي عدد كبير من العلماء منهم أكثر من واحد إلى مصر، وأذكر فيما يلي بعض هؤلاء المفكرين الذين أتيحت لي الفرصة في أن أتعرف على بعض النواحي المتعلقة بترجمة حياتهم وهم:

١) **محمد محمود بن التلاميذ الشنقيطي**: وقد وفد على مصر في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي وأثار معركة لغوية نحوية على النحاة يخطئهم فيها لما ذهبوا إليه وقرروه في مختلف كتبهم وأصبح من قواعد النحو الأولية من أن عمر ممنوع من الصرف، وقد استطاع بهذه المعركة أن يثير جو الحياة الأدبية في مصر حتى صارت حديث الناس جميعًا بين جادّ وساخر، وكان ابن التلاميذ الشنقيطي عنيف الخصومة، حاد الطبع، سريع البادرة، يبالغ في التهجم، فأدى ذلك إلى إتاحة الفرصة لهذه المعركة النحوية اللغوية أن يشتد نقاشها وأن يتردد صداها في كل مكان، وكان قد أقام بالإسكندرية ردحًا من الزمن.

ولم يقف أحد مواطنيه بعيدًا عن المعركة فشارك فيها بكتاب رد فيه على ابن التلاميذ بعنوان «الدرر في منع عمر» وهذا المواطن هو:

٢) **أحمد بن الأمين الشنقيطي**: الذي نزح إلى القطر المصري بعد ابن التلاميذ، وعلاوة على كتابه «الدرر في منع عمر» الآنف الذكر ألف كتابًا قيمًا آخر بعنوان «الوسيط في تراجم أدباء شنقيط»، وقد جاء في الفصل الذي عقده للكلام على سكان شنقيط، وجنسهم أنهم من حيث الجنس الأصيل قبائل من البربر التي كانت تقطن صحراء المغرب، ثم دخلها العرب في الفتح الإسلامي فتغلبوا على هؤلاء السكان فصاروا قسمين: عربًا وبربرًا ثم تجنسوا جنسين هما: الزوايا والحسان.

ثم قال في هذا الفصل: «وحيث أوضحنا لك انقسام هؤلاء القوم في الأصل فتتكلم على ما هم عليه الآن فتقول: ما رأينا أحدًا منهم يقر على نفسه بأن أصله من سكان تلك البلاد (أي من غير العرب) إلا أن قبيلة لمتونة حفظ لها التاريخ أصلها، والخلاف في المتونة بين المؤرخين قديم، فالأكثر أنهم من حمير ودخلوا بلاد المغرب في الجاهلية»، ويتضح من قول أحمد بن الأمين الشنقيطي المدون قبل، أن أهل شنقيط الذي أطلق عليها المستعمرون الفرنسيون الاسم الروماني القديم «موريتانيا» ينكرون في قوة أنهم من أصل بربري ويؤكدون أنهم عرب ترجع عروبتهم إلى عرب اليمن القحطانيين، وهم العرب العاربة، أما العدنانيون فهم عرب مستعربة، وقد أقام أحمد الشنقيطي بالإسكندرية عدة أعوام.

ولا تختلف الصورة التي نشاهدها لشعب شنقيط العربي في الوقت الراهن عن الصورة التي رسمها الشيخ أحمد الأمين

لهذا الشعب في كتابه «الوسيط» من ناحية الحوافز الإسلامية والعربية التي تعمل في داخله وتوجه نشاطه وتجعل منه شعبًا شاعرًا إلى جانب كونه شعبًا عالِمًا، وهذه الشاعرية تخبر عن الحرص على اللغة العربية والتراث العربي إلى جانب الموهبة الشعرية والمزاج الفني.

وإذا كانت هذه الشاعرية لم تجد من الأسباب ما يصلها بالعالم العربي في المشرق ويوضح لنا بعض صورها ويمدنا بشيء من نتاجها فإن بعض من زاروا شنقيط أخيرًا يعطوننا بعض المعلومات المفيدة في هذا الشأن، فقد سأل هؤلاء الزائرون أهل هذه البلاد عن عدد السكان فكان جوابهم أنهم نحو مليون شاعر، وبالفعل اتضح أن جميع أهالي شنقيط (موريتانيا) شعراء بالسليقة، ويدل على ذلك ويؤكده ويبين كثيرًا من تلك الشاعرية في خلال القرنين السابقين للاستعمار الفرنسي ما جاء في كتاب «الوسيط» الذي هو الكتاب الوحيد الذي يمدنا بما نعرف عن هذا الأفق القصي الذي يقع في أقصى الطرف الغربي للعالم العربي الإسلامي.

ومؤلف هذا الكتاب وفد على مصر بعد أن أدى فريضة الحج وطوَّف في العالم الإسلامي يتصل بعلمائه، ويطلع على خزائن الكتب في مختلف أرجائه حتى انتهى به المطاف في أرض مصر، وقد بلغها في عام ١٩٠٢م (١٣٢٠هـ) فاستقر بها، وكانت مصر قد أفاقت من الغفوة التي انتابتها إثر الاحتلال البريطاني الممقوت فأخذت تزاول نشاطها الثقافي، وتستجد ألوانًا من النشاطات الأخرى، فأجمع الشيخ أحمد الأمين أمره على أن يسهم بما يملك من ثقافة إسلامية عربية في هذا النشاط، فأخرج كتاب «الدرر اللوامع في شرح جمع الجوامع» لجلال الدين السيوطي ثم قفاه بكتابه الآخر المسمى «الدرر في منع عمر».

ومضت حياة ابن الأمين في مصر نشيطة مثمرة، كما تدل على ذلك قائمة الكتب التي ألفها في خلال الأعوام العشرة التي قطعها فيها، وكان عام ١٩١١م (١٣٢٩هـ) من أخصب سني حياته في مصر، إذ أخرج في أثنائها أربعة كتب منها كتابان لابن مالك هما: «الإعلام بمثلث الكلام»، و«تحفة المودود في المقصور والممدود»، والثالث هو «كتاب شرح المعلقات العشر وأخبار قائليها»، وأخيرًا كتاب «الوسيط» المتقدم الذكر.

وكانت وفاة الشيخ أحمد بن الأمين الشنقيطي في عام ١٩١٣م (١٣٣١هـ)

٣) **الشيخ حبيب الله الشنقيطي**: وقد وفد على مصر بعد وفاة الشيخ أحمد بن الأمين ببضعة أعوام وكان عالمًا جليلاً ومحدثًا لامعًا، وتولى التدريس بالجامع الأزهر، وترك في نفوس أبنائه الطلبة أثرًا بليغًا مازالوا يذكرون فضله حتى الآن.

٤) **ماء العينين الشنقيطي**: كان من أهل السياسة، ومن أساتذة الدين الإسلامي في المغرب العربي، وله مؤلفات في الفلسفة والتصوف والروحانيات، وتوفي في قصبة تيزنيت عام ١٩١٠م (١٣٣٠هـ).

ومن بين المصادر التي أطلقت عليها مصدر يذكر اسم «الإمام الكبير الشنقيطي والشنقيطي الصغير»، وكانا من أعاجيب الدنيا في الحفظ واستيعاب ما يقرآن من أخبار وسير وشعر، ولعل هذا القول المبهم ينطبق على اثنين من الشنقيطيين الأربعة الذين دوّنت تراجمهم.

ومادمنا بصدد العلماء الشنقيطيين أجد من الملائم ذكر شيء عن شنقيط ذلك القطر العربي الذي يحتل طرف الجناح الغربي من العالم العربي الممتد من الخليج إلى المحيط .

وقد أطلق على شنقيط اسم «موريتانيا Mauritania» وهو اسم اشتق منه كلمة «مور Maure» التي أطلقها الفينيقيون بعد إنشائهم دولة قرطاجة في تونس على سكان شمال إفريقيا ، وهم أهل المغرب الأدنى والأوسط والأقصى ، وماتزال شنقيط تعرف عند أهل الدول الغربية الأوروبيين والأمريكانيين وغيرهم من الشعوب الإفرنجية باسم موريتانيا ، وكان هذا الاسم يطلق في العصور القديمة على جميع الأقطار التونسية والجزائرية والمراكشية وشنقيط ، وفي عهد احتلال الرومان لهذه الأقطار قسمت موريتانيا إلى قسمين : موريتانيا الطنجية وموريتانيا الغربية وتضم شنقيط .

وبدأت قصة الاستعمار الفرنسي لشنقيط منذ عام ١٨٥٤م (١٢٧١هـ) بمناوشات وغزوات كانت تشن من السنغال ، ولكنها كانت تعود بخسائر فادحة بسبب شجاعة الشنقيطيين وبسالتهم في القتال ، وفي عام ١٩٠٢م (١٣٢٠هـ) انتهز الفرنسيون فرصة الخلافات والمشاكل الداخلية وغزوا البلاد من السنغال بكتائب من السنغاليين أطلقوا عليها اسم الفيلق الإفريقي ، وبعد المعارك الطاحنة والمذابح الفظيعة التي ارتكبها الغزاة استطاع «مولاي وِلْد الزين» قتل السفاح الفرنسي «جزافييه كوبولاني Xavier Coppolani» المسؤول عن مذبحة «بوجادوم» واستمر القتال بين المدافعين عن البلاد وبين المستعمرين الفرنسيين حوالي ٣٢ سنة ، إذ لم يتوقف القتال نهائيًّا إلا في ٦ من إبريل عام ١٩٣٤م (١٣٥٣هـ) .

وتقع جمهورية شنقيط (موريتانيا) الإسلامية العربية بين الجزائر في الشمال الشرقي ومالي في الجنوب ، والسنغال في الجنوب الغربي ، والمحيط الأطلنطي في الغرب ، والصحراء الإسبانية في الشمال الغربي ، وتبلغ مساحتها ١,١٦٩,٠٠٠ كيلو متر مربع ويزيد عدد سكانها في الوقت الحالي على مليون ، ومن أهم ثرواتها المعدنية الحديد والنحاس والذهب وأهم صادراتها المواشي والسمك والحديد والصمغ والملح واللحوم والجلود وعملتها الفرنك الإفريقي وعيدها الوطني في ٢٨ نوفمبر من كل عام ، وفي ٢١ من مارس عام ١٩٥٨م (١٣٧٨هـ) وضع رئيس الجمهورية «مختار وِلْد داده» الحجر الأساسي لمدينة «نواكشوط» العاصمة الواقعة على المحيط الأطلنطي .

وحافظ أهل شنقيط على عروبتهم وإسلامهم على الرغم من قسوة الاستعمار وعنت المستعمرين ، فكان العلماء يعلمون الناس الكتابة بالجريد واليراع ويستعملون الصمغ والفحم لقلة الحبر ، أما ورق الكتابة فكانوا يستعيضون عنه بألواح ينتزعونها من الأشجار ، وكانوا يجلسون على الأرض يرتلون القرآن الكريم ، ويحفظون الأدب ، ويتغنون بقصائد الشعراء العرب ويحفظون سيرهم من الكتب الأثرية التي يتوارثها العلماء أبًا عن جد .

ومن الغريب أنه لا يوجد في هذه البلاد أحد يجهل القراءة والكتابة ، وذلك على الرغم من أساليب الاستعمار التي حرمتهم من كل الوسائل التي تأخذ بيدهم في سبيل العلم والرقي الحضاري .

واللغة العربية لغة البلاد الوطنية، غير أن اللغة الرسمية هي الفرنسية وتستعمل في الدواوين الحكومية، وكان الشنقيطي ينفر من تعلم اللغة الفرنسية لاعتقاده أنها خطر على دينه الإسلامي، ولكن وقوع الجمهورية الموريتانية ضمن المجموعة الفرنسية تحتم استخدام هذه اللغة، ومن ثَمَّ نزح إلى البلاد عدد هائل من السنغاليين الذين يجيدون الفرنسية واحتلوا مناصب كثيرة حساسة، وفرضوا لغتهم في المدارس، ولما قررت الحكومة جعل اللغة العربية مادة إجبارية في السنتين الأوليين من التعليم الثانوي قامت مظاهرات دموية في البلاد، ويتمتع السود بكافة حقوق المواطنين لأنهم حصلوا على الجنسية الموريتانية التي يكفي للحصول عليها التزوج من فتاة موريتانية الجنسية، وساعد على هذا التغلغل العميق أن السنغاليين يدينون بالإسلام وهكذا قفزت نسبتهم من ٥٪ عام ١٩٦٠ إلى ٢٠٪ عام ١٩٦٦م وتصل هذه النسبة إلى ٤٠٪ في بعض المدن.

ومن الغريب أن الدول العربية التي اعترفت بموريتانيا هي الجزائر وتونس واليمن والجمهورية العربية المتحدة وسوريا، أما الجامعة العربية فقد رفضت انضمامها إليها وهذا ما يدعو إلى الأسف الشديد، إذ إن الموافقة على هذا الانضمام يتيح الفرصة للدول العربية أن تزاحم السنغال وفرنسا والدول الأجنبية في هذا القطر العربي الصميم لترفع من درجة عروبته بتزويده بالمعلمين والخبراء العرب، وبكل ما يعيد أهله إلى العروبة الصميمة، ولغتها العربية لغة القرآن الكريم، وما من شك في أن السعي إلى تغيير عقلية هذا الشعب الأصيل والعمل على الانطلاق به إلى مجتمع القرن العشرين لا يمكن أن يتم إلا بمساعدة العرب جميعًا لمعاونته على الوقوف على قدميه من أجل مستقبل أفضل له ولأبنائه.

واسم جمهورية شنقيط يرجع إلى اسم مدينة شنقيط الكائنة في وسط الجمهورية، وكان اسمها القديم «آبير» وكانت مدينة عظيمة تموج بالنشاط العلمي وتعج بالسكان العرب المسلمين، محافظة على إقامة حدود الشريعة الإسلامية، وحدث أن ارتكب أحد عظمائها جريمة قتل وكانت العقوبة الواجب تطبيقها عليه هي قتله، ولكن الخوف من حدوث حرب أهلية جعل كبار المسؤولين يكتفون بنفي القاتل، فغضب أكثر أهل المدينة لإهمال حد من حدود الله فهجروها إلى مختلف أنحاء موريتانيا.

واجتمع القاتل بثلاثة من أهل شنقيط وقرروا بناء شنقيط جديدة على مسافة ميلين من القديمة ونجحت المدينة الجديدة وازدهرت، وما كادت تبلغ الأربعين من عمرها حتى كانت شنقيط القديمة مهجورة تمامًا من سكانها، وشنقيط الجديدة تشابه مدن العصر الحجري القديم فطرقها أزقة رملية ضيقة ومنازلها مكونة من أحجار متراصّة فوق بعضها البعض ومياهها يستخرجها الصبية من بطن الأرض فيقومون بدور الدواب لإنزال خشبة الشادوف الطويلة لجلب المياه من الأعماق، وليس في المدينة مظهر واحد من مظاهر حياة القرن العشرين.

وعدد الجمال في شنقيط المدينة الجديدة كبير، ولكنه كان أكثر من ذلك أضعاف المرات في الماضي، إذ كان هذا العدد يصل إلى ٥٠ ألفًا تحمل ملح هذه الجهة الجبلي، الموجود بكميات هائلة جدًّا في «كديت الجلد» على هيئة ألواح، زنة اللوح منها ٢٠ كيلوجرامًا، وتنقله إلى مدينة «سان لويس» عند مصب نهر السنغال في رحلات تستغرق كل منها أشهر في الذهاب وشهرًا في الإياب حاملة الثياب والذهب والفول والذرة والسكر والأرز.

وكديت الجلد هي أرض سبخة تبعد ٢٠٠ كيلومتر عن مدينة شنقيط يقصدها الرجال مع جِمالهم في الصيف لقطع كتل الملح بمعدل عشرين لوحًا يقطعها الرجل في اليوم، وكان الإنتاج السنوي يتراوح بين عشرين وخمسة وعشرين ألف لوح، ينقل كل جمل منها تسعة ألواح خلال الرحلة الطويلة عبر الصحراوات والمفاوز.

ولقد ظل سكان موريتانيا يعيشون على هامش الحياة، وظلت المرأة كمتاع يباع ويشترى، ولا رأي لها ولا صوت، حتى طبق الحكم الجمهوري فمنحها جميع الحقوق التي يتمتع بها الرجل، وتأخر المرأة في هذه البلاد نتيجة حتمية لتأخر الرجل في ركب الحضارة، غير أن إقبال السكان من الجنسين على مدارس محو الأمية يبشر بالتقدم المطرد.

وإحساس الشعب الموريتاني بعروبته لا يعادله إحساس أي شعب آخر، ومع ذلك فهو يعيش في عزلة عن أي نشاط عربي مع أن اتصاله بالعروبة كان عام ٢٣هـ عندما فتح العرب بلاده.

وليست موريتانيا فقيرة من حيث الثروة المعدنية، بل على العكس فيها من المعادن والثروات والمياه الشيء الكثير ولكنها ماتزال أرضًا بكرًا لم تمسها الأيدي المنتجة، فحول مدينة شنقيط ينتشر معدن الحديد على هيئة سلاسل من الجبال، وقد وجد الخبراء أن جبال «سفاريات» و«كديت الجلد» ما هي إلا كتلة هائلة من الحديد، فقاموا بفحص عينات منها بمدينة داكار عاصمة السنغال خلال عام ١٩٥١، وكانت نتيجة الفحص أن أحجار هذه الجبال تحتوي على نسبة تعادل ٩٤,٢٥٪ من أكسيد الحديد، وهي نسبة تعادل أعلى نسبة حديد موجودة في مناجم العالم، ويقدر احتياطي هذه الثروة الحديدية بما يزيد على ١٠٠ مليون طن، منها ٤٠ مليون طن يستطاع أخذه من فوق سطح الأرض بنسف جبل كديت الجلد الذي يمتد ٢٥ كيلو مترًا ويرتفع ٨٥٠ مترًا عن سطح البحر، وتستغل هذه المناجم الآن شركة أجنبية ويصل الإنتاج السنوي إلى أربعة ملايين من الأطنان وتتقاضى الحكومة ٥٠٪ من أرباح الشركة، وأظهر المسح الجيولوجي في عامي ١٩٥٩ و١٩٦١ أن تربة موريتانيا تضم اليورانيوم والكوبالت والمنجنيز والذهب والبترول وغيرها من المعادن النافعة.

وقد اكتشف النحاس عام ١٩٤٦م وتقدر كمياته بنحو نصف مليون طن، وبدئ استخراجه في عام ١٩٥٢م، كما استخرج الذهب بمعدل ٦٠٠ كيلو جرام سنويًّا.

٧٧٧- شهاب الدين - شارع - بقسم مينا البصل

قد يكون اسم شهاب الدين لأحد ملاك العقارات المقامة على جانبي هذا الشارع أو أحد سكان هذه العقارات القدامى لأن كثيرًا من أسماء شوارع الإسكندرية تحمل أسماء الملاك أو السكان، وقد أطلقت عليها هذه الأسماء في السنين الأولى لإنشاء بلدية الإسكندرية الذي حدث في عام ١٨٩١م (١٣٠٩هـ).

غير أن التاريخ يذكر كثيرًا من مفكري العرب الذين يحملون لقب «شهاب الدين» من بينهم خمسة، أجد من المفيد للقراء الوقوف على تراجمهم المدونة فيما بعد حسب وجودهم في قيد الحياة:

١) شهاب الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن إسماعيل أبو شامة: كان مؤرخًا عربيًّا وفقيهًا لغويًّا، ولد في مدينة دمشق بالشام في ٢٣ من ربيع الأول عام ٥٩٩هـ (١٠ يناير ١٢٠٣م) ودرس العلم في مسقط رأسه، ثم رحل إلى الإسكندرية حيث تعلم فقه اللغة العربية والأصول.

وعندما عاد إلى دمشق عُيِّن شيخًا في المدرسة الركنية وأثار حول نفسه الشبهات في جريمة حدثت في ذلك الحين، فقتله جماعة من العامة ثارت عليه ثائرتهم، وكان قتله في ١٩ من رمضان عام ٦٦٥هـ (٣ يونية ١٢٦٨م)، بالغًا من العمر حوالي ٦٦ عامًا.

وأهم مؤلفاته كتاب «الروضتين في أخبار الدولتين» وهو يتضمن تاريخ السلطانين نور الدين وصلاح الدين، وقد نقل في كتابه هذا كل ما كتبه ابن أبي طيئ في سيرة صلاح الدين التي فقدت.

وقد طبع كتاب شهاب الدين في القاهرة في مجلدين عام ١١٩٢هـ (١٢٨٧ – ١٢٨٨م) ونشر «باربييه دي مينار Barbier de Meynard» النص العربي لهذا الكتاب، ثم نشر ترجمته الفرنسية التي قام بها.

٢) شهاب الدين الحلبي: واسمه الكامل محمود سليمان الملقب بشهاب الدين الحلبي، ولد بمدينة دمشق في سوريا عام ٦٤٤هـ (١٢٤٢م)، وتلقى العلم على يد علماء الشام، وتخرج في علوم اللغة العربية على يد ابن مالك النحوي (انظر مادة ابن مالك)، وكان من نوابغ عصره في الأدب والكتابة والشعر.

وقد رحل إلى مصر واتصل بسلاطين المماليك فعُينِّ رئيسًا لديوان الإنشاء في عهد الملك الناصر بن قلاوون (انظر مادة ابن قلاوون) تاسع سلاطين المماليك البحرية، وقد دام حكمه من عام ٦٩٢ إلى ٧٤٢هـ (١٢٩٣ – ١٣٤١م).

ولشهاب الدين الحلبي شعر كثير نشر في كتب الأدب المختلفة، ومن نثره الفني في البلاغة قوله: «البلاغة تسحر الألباب حتى تُخَيِّل العَرَضَ جواهر، وتخيل الهواء المدْرَك بالسمع لانسجامه وعذوبته في الذوق نَهَرًا، ولكنه سحر لم يَجْنِ قتل المسلم المتحرز فيتأول في حله، وإذا كان في الحديث ما هو عُقْلَة للمستَوفِز فهذا أنشوطة نشاط البليغ وحلٌّ عِقال عقله».

ويقول في وصف الكتابة: «خَطُّهُ شَرَكُ العقول وفتنةٌ تَشْغَلُ المطمئن بملاحة المرئيِّ المكتوب عن فصاحة المقول، ولو لم يكن البيان سحرًا لما تجسَّدت منه في طرسه هذه الدرر، ولو لم يكن بعض السحر حلالاً لما انجلى ظلام النقش عما يُهتَدَى به من الأوضاح والغُرر».

٣) شهاب الدين بن ماجد: وقد دونت ترجمته في «ابن ماجد» فاطلبها في هذه المادة.

٤) أحمد بن محمد بن شهاب الدين الخفاجي المصري (المعروف بالشهاب الخفاجي): ولد بسرياقوس بالقطر المصري، وتلقى دروسه بالقاهرة ثم رحل مع أبيه إلى الحرمين وسافر بعد ذلك إلى الآستانة حيث عُيِّن قاضيًا على مقاطعة الروملي ثم قاضيًا لمدينة سلانيك، وفي عهد السلطان العثماني مراد عُيِّن قاضيًا للعسكر بمصر، واستقال بعد ذلك ورحل إلى دمشق ثم سافر إلى حلب وعاد بعد ذلك إلى الآستانة.

وكان أديب عصره عالِمًا باللغة وعلومها، كاتبًا شاعرًا مؤلفًا، ومن أشهر مؤلفاته «ريحانة الألباب» وهو كتاب على تراجم لبعض أدباء عصره، ثم كتاب «شفاء الغليل بما في لغة العرب من الدخيل» جمع فيه طائفة من الألفاظ الدخيلة والمعرَّبة، وضمنه أبحاثًا مفيدة.

ومن شعره في حب مصر وحنينه إليها وإلى نيلها قوله:

إنَّ وَجْدِي بمصرَ وَجْدٌ مُقيمٌ
وحنيني كما تَرَوْنَ حنيني

لم يَزَلْ في خيالي النيلُ حتَّى
زادَ عن فكرَتي ففاضَتْ عُيُوني

ومن شعره في المديح هذه الأبيات:

فدَيْتُكَ يا مَنْ بالشجاعةِ يَرْتدي
وليسَ لِغَيْرِ السُّمْرِ في الحرب يَغْرِسُ

فإنْ عَشِقَ الناسُ المها وعيونَها
من الدَلِّ في روضِ المحاسِنِ تنْعِسُ

فَدِرْعُكَ قَدْ ضَمَّتكَ ضمَّةَ عاشقٍ
وصارت جميعًا أعْيُنًا لك تحْرُسُ

وقوله مضمنًا:

يا صاح إن وافيْتَ روضةَ نَرْجَسٍ
إيَّاك فيها المشيَ فهو مُحَرَّمُ

حاكت عيونَ معذِّبي بِذُبولها
ولأجل عينٍ ألفُ عينٍ تكرمُ

والتضمين في عجز البيت الثاني مازال يضرب مثلاً من الأمثال السارية فيقول مَنْ يغفر ذنب من أذنب في حقه من أجل إكرام محسن يحترمه ويجله «لَجْلِ عين تكرم ألف».

وتوفي شهاب الدين الخفاجي عام ١٠٦٩هـ (١٦٥٨م).

ومن نثره الفني، الجزل الأسلوب والمعاني قوله في مدح الأمير مَنجك في «ريحانة الألباب»: «الأمير محمد بن مَنْجك الجركسي أصلاً ومحتدًا، الشامي منشأً ومولدًا، أديب أريب، ونجيب وابن نجيب، أورق عوده بالشام وأثمر، فإذا عُدَّت السجايا عَرَضًا فسجاياه جوهر، نشأ بها والدهر أبيض أقمر، ونادم العيش والعيش أخضر، وللبقاع تأثير في الطباع، والعِرْق كما قيل لغرسه نزّاع، ومن كان جار الرياض، ليس طبعُهُ بُرْدَ نسيمها الفضفاض، كما لبس النهر الجاري درع النسيم الساري.

وقد نَسَجَتْ كفُّ النسيم مُفاضَةً
عليه وما غيرُ الحَبَابِ لها حَلَقْ

وقد صحبني بِجُلَّقٍ (أي دمشق) ونسيمه سَجْسَج، وخيوط شبيبته بيد الكهولة لم تنبح، ولازمني إذ رأى انعطافي عليه، وشِبْه الشيء منجذب إليه».

وقد اختار شهاب الدين الخفاجي للأمير منجك طائفة كبيرة من الشعر دوّنها في كتابه «ريحانة الألباب» منها الأبيات

الآتية التي تدل في وضوح على علو شأنه في الأدب والشعر وأنه كان نادرة عصره:

سقَى اللَّهُ يومَ القصرِ إذْ كان بَيْننا
حديثٌ كمُرفَضٍّ الجُمانِ المُنَضَّدِ

برَوْضٍ يَجولُ الماءُ تحتَ ظِلالِهِ
كأَيْمٍ مروعٍ أو حُسامٍ مُجَرَّدِ

يلوحُ به قاني الشقيقِ وقَدْ حَكَى
لواحِظَ مخمورٍ كُحِلْنَ بأثمدِ

ويَهْمي به قطر الندَّى فتخالُهُ
مُبَدَّدَ عِقدٍ في فراشِ زُمُرُّدِ

ومن قوله في الحكم:

لا تَتَّهِمْ بالسوء دَهْرَك إنَّهُ
جبلٌ يُجيبُ صَداكَ منه صَداءُ

مِرْآتكَ الدُنيا وفعلك صورةٌ
فيها فما الشَنْعَاءُ والحسناءُ؟

ومن هذه الأشعار العذبة الجرس يبين أن الأمير منجك أمتن من شهاب الدين الخفاجي من حيث الشاعرية وخصوبة الخيال ومن ثم يكون التلميذ قد برَّ أستاذه.

٥) شهاب الدين المصري: ولد بمكة المكرمة عام ١٢١٨هـ (١٨٠٣م) ولما بلغ الحلم رحل إلى القاهرة والتحق بالجامع الأزهر، وعقب تخرجه تقلب في الوظائف، إلى أن عُيِّن مديرًا لجريدة «الوقائع المصرية» بالقاهرة ووكل إليه تصحيح مطبوعات المطبعة الأميرية ببولاق.

وقد ألف كتابًا بعنوان «سفينة الملك ونفيسة الفلك»، ووضع عدة أغانٍ، وله ديوان يضم أشعاره.

وكانت وفاته خلال عام ١٢٧٤هـ (١٨٥٧م) ودفن بالقاهرة بالغًا من العمر حوالي ٥٥ عامًا.

٧٧٨- الشهيد اسماعيل عبد الرحمن فهمي - شارع - بقسم باب شرقي (الأميرة أمينة سابقًا)

هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن إسماعيل فؤاد، ووالده من كبار رجال وزارة التربية والتعليم، إذ تولى منصب مدير عام منطقة شرق القاهرة التعليمية، وقد ولد إسماعيل عبد الرحمن فهمي بحيّ السيدة زينب بالقاهرة في ١٤ من ديسمبر عام ١٩٣١م، وموطن جدّه الأصلي أبو قرقاص بمحافظة المنيا بالصعيد المصري.

وقد تلقى دراسته الابتدائية بمدرسة الزيتون بالقاهرة حتى عام ١٩٤٢، وتابع دراسته الثانوية بمدارس: النقراشي النموذجية بالقاهرة، وأسوان الثانوية، وطنطا الثانوية، وقنا الثانوية، ثم بمدرسة الرمل الثانوية حيث حصل على الشهادة عام ١٩٤٧، وكان أول من أسس الكشافة البحرية بأبي قير ومنح من أجل ذلك نوط الجدارة، وكان حصوله على شهادة الثانوية العامة بمجموع درجات يؤهله للالتحاق بكلية الطب، ولكنه قدم في الكلية البحرية أيضًا، وقد قبل في الكليتين

ولكنه فضل الالتحاق بالكلية البحرية في سنة ١٩٤٨ وتخرج منها عام ١٩٥١ ، ويتضح من ملف خدمته أنه كان هادئ الطبع ، رزينًا ، غيورًا على وحدته ، ميَّالاً للبحث والاطلاع ، ولدى تزويد القوات البحرية بسلاح الطوربيد عام ١٩٥٥ ، نُقِل على قوة الزوارق وعُيِّن أركان حرب لها .

وعندما أعلن تأميم قناة السويس كلف بالتوجه بزورقه إلى مدينة السويس ، فوصلها في ٢٦ من يوليو عام ١٩٥٦ ، وذلك للدفاع عن مدخل القناة ، وظل يعمل هناك طوال شهري أغسطس وسبتمبر إلى أن أصيب بمرض الحمى فنقل إلى مستشفى رأس التين البحري بالإسكندرية وذلك في أوائل شهر أكتوبر عام ١٩٥٦ .

وفي أثناء العدوان الثلاثي الغاشم على مصر في ٢٩ من ذلك الشهر نفسه كان مايزال مريضًا ، فآثر الخروج والاشتراك في المعركة على البقاء بالمستشفى لإتمام علاجه .

ويقول والده إنه استقل سيارة أجرة وأسرع إلى منزل أسرته في حي سيدي بشر برمل الإسكندرية ، وهناك بادر إلى ارتداء ملابسه العسكرية وودع والدته وإخوته في ثقة وإصرار على خوض المعركة والالتحام بالعدو ، وقبيل مغادرته المنزل أعطى شقيقاته ووالدته ووالده بعض الأشياء الخاصة به وأخذ من كل منهم شيئًا ، وذلك ليكون لدى كل منهم تذكار يذكرهم به ومازال والده يحتفظ بمسبحته ، وفي موقعة البرلس الفدائية البطولية تولى قيادة زورق الطوربيد رقم ٢٢٨ واستشهد يوم ٤ من نوفمبر عام ١٩٥٦م ، بالغًا من العمر ٢٥ عامًا (اطلب تفصيلات معركة البرلس في ترجمة جلال الدسوقي) ، وكان الشهيد برتبة رائد .

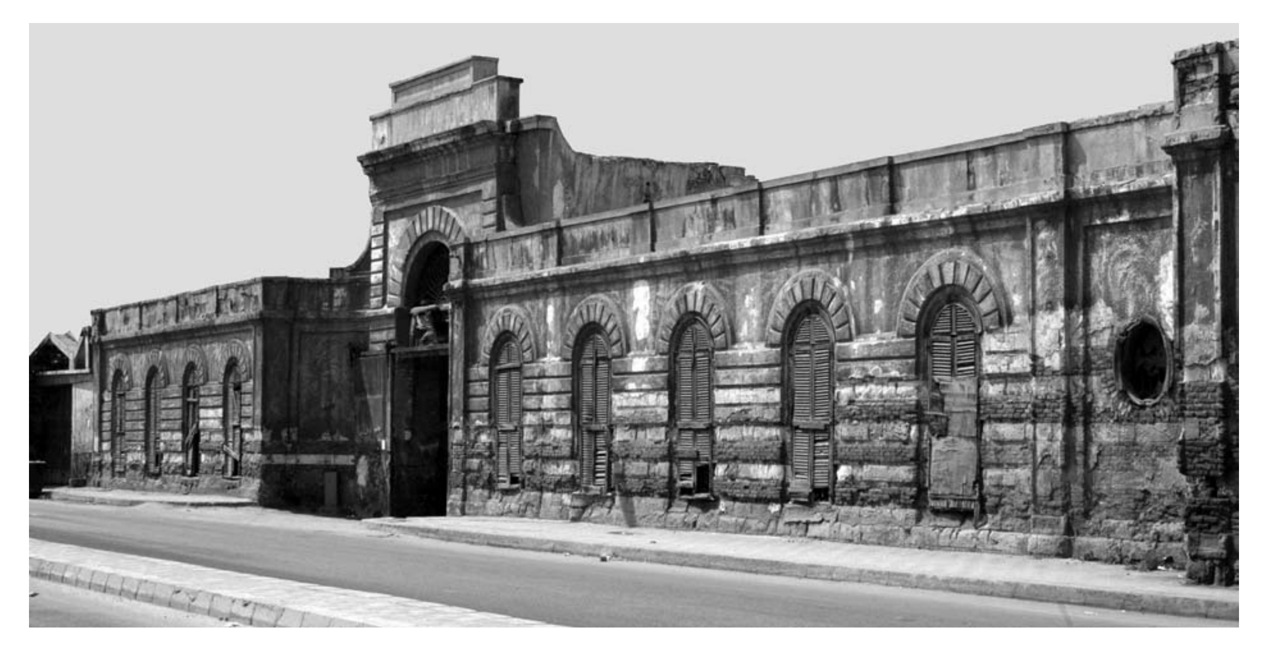
أما ترجمة صاحبة اسم الشارع القديم فاطلبها في (الأميرة أمينة) .

٧٧٩- الشهيد جلال الدسوقي - شارع - بقسم باب شرقي (السراي نمرة ٣ سابقًا)

ولد جلال الدسوقي بالقاهرة في ٤ من أكتوبر عام ١٩٢٧م ، والتحق بعد إتمامه الدراسة الثانوية بكلية البوليس ثم تحول منها إلى الكلية الحربية في ١٥ من أكتوبر عام ١٩٤٦م ، وكانت هوايته المفضلة لعبة السلاح ، وقد أحرز فيها بطولات عديدة ، منها بطولة دورة البحر الأبيض المتوسط لعام ١٩٥١م ، وكان من بين الطلبة الأوائل الذين تخرجوا من الكلية البحرية في دفعة التخرج الأولى ، ثم أرسل في بعثة تعليمية إلى الخارج حيث درس المسائل المتعلقة بالطوربيد وعاد من بعثته؛ ليقوم بقيادة أول مجموعة من زوارق الطوربيد في البحرية المصرية ، وتدل التقارير المتعلقة بسير حياته في السلاح البحري على أنه كان مثلاً أعلى للتفاني في عمله إيمانًا منه بحق وطنه عليه .

وعقب تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦م وقع الاعتداء الثلاثي الغاشم على الجمهورية العربية المتحدة من فرنسا وبريطانيا وربيبتهما إسرائيل .

وفي غروب يوم أول نوفمبر عام ١٩٥٦م ، قررت قيادة السلاح البحري تخفيف هجمات طائرات الأعداء على المدن المصرية وذلك بالقضاء على ما تستطيعه حاملات طائرات العدو من نشاط مدمر ، وكانت هذه الحاملات ترتاد المنطقة الواقعة بين البرلس والإسكندرية ، وتنفيذًا لهذا القرار استدعت



مدخل السراي نمرة ٣

القيادة قائد مجموعة زوارق الطوربيد «المقدم جلال الدسوقي» وأوضحت له الموقف وخطتها لمواجهته وتركت له حرية إصدار قراره، فأسرع إلى أخذ مجموعة من زوارق الطوربيد في تلك الليلة نفسها ليقوم بتفتيش المنطقة الكائنة بين رشيد وبرج العرب بعمق ٥٠ ميلاً داخل البحر، وذلك بحثًا عن حاملات الطائرات وضربها، غير أنه عاد من مهمته يوم ٢ من نوفمبر دون أن يعثر عليها، وعندما اشتد الهجوم الجوي في يوم ٣ نوفمبر على بورسعيد، وطول القناة، وعلى السويس، عادت فكرة القضاء على حاملات الطائرات المعادية في البحر الأبيض المتوسط بوساطة مجموعة من زوارق الطوربيد، وتنفيذ الخطة في مياه المنطقة الواقعة بين الإسكندرية ودمياط في أثناء الليل دون التعرض في ساعات النهار للاشتباك إلا عند الضرورة القصوى أو في حالة الدفاع عن النفس.

وبعد ظهر يوم ٣ من نوفمبر عام ١٩٥٦م أخذ المقدم جلال الدسوقي يعد مجموعة الزوارق المكونة من الزورق ٢٢٧ بقيادة النقيب صبحي إبراهيم نصر، والزورق ٢٢٨، بقيادة النقيب إسماعيل فهمي، والزورق ٢٢٠ بقيادة الملازم أول علي صالح علي (انظر الشهداء: جلال الدسوقي، إسماعيل عبد الرحمن فهمي، صبحي إبراهيم نصر، علي صالح علي) وكانت هذه المجموعة رابضة بالميناء الشرقي عند حاجز الأمواج بالقرب من حصن قايتباي بالإسكندرية ومستعدة للانطلاق لتأدية المهمة التي نيطت بها.

وقبيل الظلام كان ضغط قذف الطوربيدات قد ارتفع إلى الدرجة اللازمة للعمل، وكان أحد ضباط البحرية قد قابل قائد المجموعة المقدم جلال الدسوقي وأبلغه تعليمات القيادة وكانت تقضي بوجوب إبحار الزوارق في موعد يتناسب

مع وصولها إلى مكان المعركة وهو بين بورسعيد والبرلس، وعودة الزوارق على الفور بعد تحقيق الغرض إلى الميناء الشرقي، أو إلى أقرب مبيت مأمون طبقًا لتطورات الموقف واستمرار صمت اللاسلكي طوال المعركة، على أن تبلغ إدارة العمليات عند تمام المهمة بكلمة السر «جمال» ويمكن كسر الصمت اللاسلكي عند الضرورة القصوى.

وقد أبلغ جلال الدسوقي أن وحدات العدو البحرية تتكون من: أربع حاملات طائرات، وبارجتين إحداهما فرنسية، وعدد كبير من المدمرات والطرادات، وثلاث حاملات جنود سبق تحركها من جزيرة مالطة في أول نوفمبر في طريقها إلى بورسعيد.

وعندما اقتربت الزوارق في ٤ نوفمبر من بورسعيد، ولم تعثر على وحدات العدو، استدارت عائدة، وكانت سرعتها ٢٥ عقدة في المتوسط، وعلى بعد عشرة أميال من منار البرلس انفرج الضباب الذي يخيم على المنطقة وظهرت قطع الأسطولين البريطاني والفرنسي، ونسي المقدم البطل جلال الدسوقي الحذر لتحاشي هذه المعركة غير المتكافئة - ولاسيما في وضح النهار - وبشعور الوطنية المتأججة في وجدانه أصدر أوامره بتغيير وجهة الزوارق والسير بأقصى سرعة صوب أسطول العدو، وعندما اقتربت المجموعة من الهدف أطلقت طوربيداتها فأغرقت طرادًا فرنسيًّا وأعطبت مدمرة بريطانية من طراز ديرنج، ثم أخذت تسرع السير نحو الإسكندرية، غير أن الأسطول أرسل ١٢ طائرة لمطاردة الزوارق الثلاثة وما لبثت أن أمطرتها بوابل من الصواريخ.

ولم تستمر المعركة مع الطائرات سوى فترة قصيرة فأخذ الزورق ٢٢٧ في الاحتراق، وتحطم الزورقان ٢٢٨ و٢٢٠ وابتلع البحر أبطال الزوارق الثلاثة إلا ضابط سوري وسبعة من صف الضابط، والجنود من طاقم الزورق ٢٢٨، ولفظت مياه البحر عند شاطئ البرلس - بعد عدة أيام من المعركة البطولية - ستًّا وستين جثة لستة وستين إنجليزيًّا وفرنسيًّا.

وكانت قوة الزوارق الثلاثة مكونة من عشرة ضباط واثنين وثلاثين صف ضابط، وجندي استشهد منهم ٣٦ ضابطًا وجنديًّا.

ومما تقدم يتضح أن البطل المقدم جلال الدسوقي قاد في ٤ من نوفمبر عام ١٩٥٦م أجرأ معركة فدائية باسلة ضد قطع كبرى من الأساطيل الإنجليزية والفرنسية، فحقق لبلاده نصرًا فذًّا، وسطر للبحرية المصرية صحائف من المجد والفخار، وكان عمر البطل جلال الدسوقي عند استشهاده حوالي ٢٩ عامًا.

أما ترجمة الاسم القديم للشارع، فاطلبها في (السراي نمرة ٣).

٧٨٠- الشهيد صبحي إبراهيم نصر - شارع - بقسم محرم بك (إسماعيل مختار سابقًا)

اطلب ترجمته في «صبحي إبراهيم نصر».

واطلب ترجمة صاحب الاسم القديم للشارع في (إسماعيل مختار).

٧٨١- الشهيد صلاح مصطفى - شارع - بقسم العطارين (السلطان حسين كامل سابقًا)

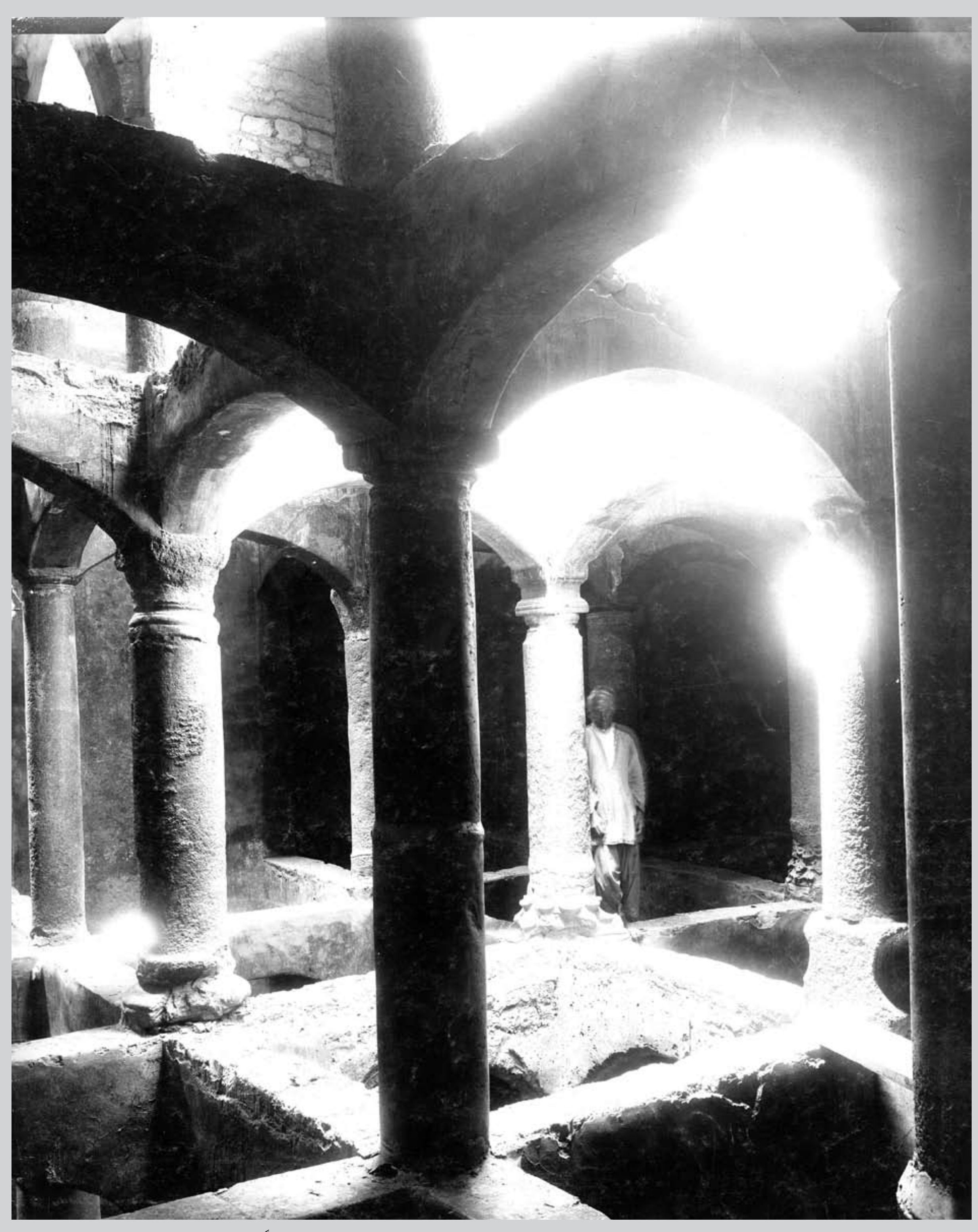
٧٨٢- الشهيد صلاح مصطفى - شارع - بقسم محرم بك (السلطان حسين كامل سابقًا)

ولد الشهيد صلاح مصطفى في ٢ يناير عام ١٩٢١م (١٣٤٠هـ) بمدينة طلخا واسمه بالكامل المدون بشهادة الميلاد هو محمود صلاح الدين علي مصطفى أحمد، وكان والده تاجر جلود بشارع عبد القادر بمدينة المنصورة، واشتهر باسم الحاج علي مصطفى أحمد، وتجري في دمائه البسالة التي ورثها عن جده الأكبر صلاح الدين مصطفى الذي اشترك عام ١٢٤٩م (٧٥٠هـ) في القضاء على الصليبيين بمدينة المنصورة، والقبض على ملك فرنسا لويس التاسع وسجنه في دار ابن لقمان، وكان محمود الطفل يصغي إلى ما يقصه والده عند عودته إلى المنزل من أعمال حكام الاحتلال الإنجليزي وأعوانهم وأذنابهم واستغلال كل هؤلاء لموارد البلاد وامتصاص ثرواتها، وبدأ محمود صلاح الدين دراسته الابتدائية بمدرسة المنصورة، وكان يمر على بيت ابن لقمان ويقرأ قصة جدوده وبطولتهم الفذة، وعندما كان يقطع مرحلة تعليمه الثانوي بعد أن حصل على الشهادة الابتدائية عام ١٩٣٢م (١٣٥١هـ) كان قد استوعب إلى حد بعيد كل ما وصل إلى ذهنه من قصص ووقائع، وكان محمود في طفولته وصباه وديعًا ذكيًّا ومَثَلاً أعلى في حسن السلوك، وكريم الخلق، وقد كان دائمًا من الأوائل في الدراسة وعرف بين أقرانه برجولته المبكرة، وحصل على شهادة البكالوريا عام ١٩٣٧م (١٣٥٦هـ) وكان قويًّا في اللغة العربية خاصة، ويردد آيات الذكر الحكيم ويترنم بها.

ودخل الكلية الحربية عام ١٩٣٧م (١٣٥٦هـ) وتخرج منها في إبريل عام ١٩٣٩م (١٣٥٨هـ) حاصلاً على المرتبة الأولى للدفعة، إذ حصل على ٨٢٪ من مجموع الدرجات، وذكر أمام اسمه في تقريره بالكلية «ذكي ونشط، وله معلومات تامة وجيدة، واستعداده حسن، وجيد في دراسة الحرب وممتاز في حمل السلاح»، وعُيِّن عقب التخرج ملازمًا ثانيًا في مركز تدريب المدفعية بالقاهرة، وظل يتنقل بين هذا المركز ومرسى مطروح إلى عام ١٩٤٠م (١٣٥٩هـ)، ثم نقل إلى البطارية الخامسة المضادة للطائرات، ورقي في أول مارس عام ١٩٤١م (١٣٥٩هـ) إلى رتبة اليوزباشي (النقيب)، ونقل إلى سلاح الحدود، ونال رتبة الصاغ (الرائد) في ٨ من مارس عام ١٩٤٨م (١٣٦٨هـ)، وعندها بدأ في دراسة أركان الحرب وتخرج من كليتها عام ١٩٥٢م (١٣٧٢هـ).

وعند قيام الثورة الوطنية المباركة في ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢، كان محمود صلاح الدين في اللواء الثاني مشاة بالإسكندرية ثم نقل إلى رفح في ٨ أكتوبر من العام نفسه، وألحق بقيادة الحرس الوطني في أول أغسطس عام ١٩٥٣م (١٣٧٣هـ)، وظل بالحرس الوطني إلى أن عُيِّن في ١٥ من فبراير عام ١٩٥٥ ملحقًا عسكريًّا بالأردن وتسلم عمله في عمان يوم ١٤ من مايو عام ١٩٥٥م (١٣٧٥هـ)، وكان قد منح رتبة القائمقام (العقيد) في مارس من العام نفسه.

وتزوج في ٢١ من مارس عام ١٩٤٦م (١٣٦٦هـ)، وهو برتبة النقيب ورزق بثلاثة أولاد هم: نبيل وولد عام



صهريج النبيه بشارع الشهيد صلاح مصطفى (السلطان حسين كامل سابقًا)

١٩٤٧م (١٣٦٧هـ)، وسامية وولدت عام ١٩٤٩م (١٣٦٩هـ)، ونادية وولدت عام ١٩٥٢م (١٣٧٢هـ)، وكان يعامل أولاده كأصدقاء ويحدثهم دائمًا عن الوطنية وعزة العروبة وقوميتها، وكان محمود صلاح الدين طوال مدة خدمته كملحق عسكري بالأردن يزكي الروح الوطنية العربية في نفوس الأردنيين واللاجئين الفلسطينيين على السواء، وفي ١٤ من يوليو عام ١٩٥٦م (١٣٧٦هـ) ظل يعمل بمكتبه بالسفارة المصرية بعمان إلى الثانية والنصف بعد الظهر، ثم غادر المكتب وهم بركوب سيارته ليعود إلى منـزله ولكن الساعي محمد عبد النور أسرع إليه وأخبره بوجود طرد باسمه، وأحضر الساعي الطرد الصغير وعليه طوابع بريد أردنية وكتب عليه «مطبوعات»، وقد صُدِّر من القدس، وعندما فصل الورقة الصفراء الموضوعة فيه ليرى عنوان الكتاب انفجرت قنبلة شديدة الانفجار كانت موضوعة في حفرة داخل الكتاب، وتطايرت مع الكتاب أجزاء من جسم البطل الشهيد وتناثر دمه حوله وتمزق جسده، وأصيبت بطنه ويداه ووجهه، فنقل إلى المستشفى الإيطالي بعمان، وتقدم العرب لنقل الدم إليه وأجريت له عمليات فاستؤصِل جزء من أمعائه، وبذلت الجهود لإنقاذ حياته، ولكن القضاء قد حمَّ، وقال الشهيد: «الحمد لله. . . بلّغوا أهل مصر لكي يحذروا ويتنبهوا»، وفاضت روحه الطاهرة إلى بارئها راضية مرضية بعد أن أدى صاحبها واجبه الوطني على خير ما يرضي العروبة ورب العروبة، وحمل جثمانه الطاهر إلى القاهرة، ودفن في يوم ٢٢ يوليو عام ١٩٥٦م (١٣٧٦هـ) عن ٣٥ عامًا.

وما من شك في أن الرجعية العربية وحقدها وضغينة الصهيونية ضد العرب هما السببان في مصرع البطل المصري الشهيد.

٧٨٣- الشهيد علي صالح - شارع - بقسم محرم بك (الأميرة نعمت سابقًا)

هو النقيب بحري علي صالح، ولد بالإسكندرية والتحق بالكلية البحرية عقب حصوله على شهادة التوجيهية (شهادة إتمام الدراسة الثانوية) عام ١٩٥٠م (١٣٧٠هـ).

ولدى تخرّجه أُلحق بسلاح زوارق الطوربيد، ويُذكر عن أخلاقه أنه كان دائم التفاؤل، لا تفارق الابتسامة ثغره، وكان محبًّا لوحدته العسكرية جريئًا مقدامًا.

وفي أول نوفمبر عام ١٩٥٦م (١٣٧٦هـ) كانت هجمات الطائرات المعادية على المدن المصرية تشد إثر الاعتداء الثلاثي الغاشم على مصر بسبب تأميم قناة السويس وهو الاعتداء الذي اشتركت فيه بريطانيا وفرنسا وإسرائيل.

ولتخفيف تلك الهجمات الظالمة قررت قيادة السلاح البحري القضاء على ما تستطيعه حاملات طائرات الأعداء من نشاط وذلك بالتصدي لها في المنطقة الواقعة من بحيرة البرلس والإسكندرية.

فأسرع الشهيد جلال الدسوقي (انظر هذه المادة) إلى أخذ مجموعة من زوارق الطوربيد في مساء يوم أول نوفمبر عام ١٩٥٦م وشرع يبحث عن قطع الأسطول المعادية.

وكانت مجموعة الزوارق التي تولى قيادتها مكونة من ثلاث وحدات هي: الزورق ٢٢٧، يقوده النقيب صبحي إبراهيم نصر، والزورق ٢٢٨، يقوده النقيب إسماعيل عبد الرحمن فهمي، والزورق ٢٢٠، يقوده الملازم أول علي صالح علي، هذا خلاف زورق القيادة الذي يتولاه الشهيد جلال الدسوقي (انظر مادتي: إسماعيل عبد الرحمن فهمي، وصبحي إبراهيم نصر).

وفي يوم ٤ نوفمبر عام ١٩٥٦م، كانت مجموعة الزوارق على بعد عشرة أميال من منار البرلس، وعندما انفرج الضباب المخيم على المنطقة ظهرت قطع الأسطولين البريطاني والفرنسي فلم يتمالك القائد جلال الدسوقي تحت ضغط الحماس الوطني من أن يصدر أوامره بالسير بأقصى سرعة صوب وحدات الأعداء، وعندما اقتربت الزوارق منها أطلقت طوربيداتها، فأغرقت طرادًا فرنسيًّا، وأعطبت مدمرة بريطانية من طراز «ديرنج» ثم أخذت تسرع السير نحو الإسكندرية، ولكن أساطيل العدو أرسلت ١٢ طائرة أمطرت الزوارق وابلاً من الصواريخ، فقضت عليها في سرعة ولم ينج من رجالها إلا ضابط سوري، وسبعة من صف الضابط والجنود من طاقم الزورق ٢٢٨، فكانت هذه الموقعة البحرية من أجرأ المعارك الفدائية الباسلة.

وكان الضابط علي صالح علي من بين شهداء المعركة مسجلاً باستشهاده صفحة خالدة من صفحات الجهاد البطولي في سبيل الله والوطن.

أما ترجمة صاحبة اسم الشارع القديم فاطلبها في «الأميرة نعمت».

٧٨٤- الشهيد مصطفى زيّان - شارع - بقسم محرم بك (الأبعادية سابقًا)

٧٨٥- الشهيدة أم صابر - شارع - بقسم محرم بك (أديت كافيل سابقًا)

كانت الشهيدة الريفية فاطمة «أم صابر» من سكان قرية كفر عبده (انظر هذه المادة)، وكان هذا الكفر بكل ما فيه من منازل وحوانيت ومستودعات مخازن للسلاح والذخيرة المعدة لمحاربة القوات الإنجليزية التي كانت تحتل منطقة القناة تنفيذًا لاتفاقية عام ١٩٣٦م (١٣٥٥هـ) التي تنص على بقاء الإنجليز عشرين عامًا في هذه المنطقة يجلون بعدها عن مصر، ولما زاد عدد جنود الاحتلال عن القدر المحدد في الاتفاقية، إذ وصل حوالي ٨٠,٠٠٠ جندي، ألغت حكومة مصطفى النحاس هذه المعاهدة من طرف واحد لمخالفة الإنجليز لنصوصها، وأخذ الفدائيون يهاجمون المعسكرات الإنجليزية في جميع أرجاء تلك المنطقة ويقومون بأعمال بطولية تدل على أصالة الروح القتالية في الشعب المصري كلما أتيحت له الفرصة لإبرازها.

وكان لابد أن يتعرض كفر عبده لأذى الجنود البريطانيين الغاشم، وأم صابر التي اشتهرت بهذا اللقب، كانت تلك الفلاحة الشجاعة التي وهبت حياتها لحب مصر، وحب الأرض التي تعيش في كنفها الرحيم، وكانت تحمل بين جنبيها قلبًا عامرًا بالوطنية مستعدًّا للتضحية، عامرًا بالكراهية والبغضاء للإنجليز الغاصبين الذين كانوا يقومون بحملات تفتيشية كل ليلة تقريبًا تشمل جميع منازل كفر عبده بحثًا عن الأسلحة والذخيرة التي كان الفدائيون في منطقة القناة يتزودون بها

لموالاة ضرباتهم القاسية العنف في معسكرات البريطانيين، وذلك بالهجمات الجريئة المفاجئة الموفقة.

وكان زوج أم صابر قد لقي حتفه فاستشهد برصاصة إنجليزية غادرة قبل عام ١٩٥١م بعشر سنوات تقريبًا، وكانت أم صابر حاملاً، فأوصاها وهو في طور الاحتضار قائلاً: «إذا أعطاك الله ولدا فَرَبِّيه على حب الانتقام لأبيه من هؤلاء الظلمة الغادرين»، وسرعان ما قامت الشهيدة أم صابر تنادي على الفدائيين: «تعالوا وتسلموا السلاح والذخيرة»، وكانت كميات كبيرة منها مخبأة في بيتها بمكان لا يعرفه أحد بعد زوجها إلا هي، وظلت الفدائية الفلاحة أم صابر على إخفاء الأسلحة وتزويد الفدائيين على مر الأيام، وظل كفاح الفدائيين على أشده يكيلون الضربات للإنجليز في عقر معسكراتهم فَيَقْتُلون ويُقْتَلُون في سبيل الله، وحرية الوطن العزيز عليهم، وهو «مصرهم الخالدة».

وفي أول شهر يناير عام ١٩٥١م (١٣٧١هـ) كانت أم صابر تستقل إحدى الحافلات (الأتوبيسات) مع بعض الركاب وكانت تحمل تحت ثيابها الريفية كمية من الذخيرة والأسلحة الخفيفة لتوصلها إلى الفدائيين في مكان محدد، وكان الإنجليز يتصورون أن الأسلحة مع كل ركاب الحافلة فأمروا بتفتيشهم جميعًا، ولكن أم صابر رفضت وقالت للضابط الإنجليزي: «أنت نجس وكل أيديكم نجسة»، وأصرت على رفض التفتيش، وعندها أمر الضابط بإطلاق الرصاص عليها فصعدت روحها الطاهرة إلى بارئها راضية مرضية بعد أن أدت واجبها الوطني على خير ما يرضي الله، وهكذا سطرت أم صابر صفحة مجيدة في سجل الاستشهاد البطولي النسائي، رحم الله أم صابر وأسكنها فسيح جناته.

وفاطمة أم صابر ولدت بقرية دنشواي (انظر هذه المادة) من أبوين فلاحين فقيرين، اشتهرت أسرتاهما بالوطنية والشجاعة، وكان لبعض أفراد هذه الأسرة تاريخ مجيد في الثورة العرابية التي اشتعلت نيرانها عام ١٨٨٢م فحارب بعضهم في صفوف الجيش المصري، واستشهد نفر منهم، وشرد نفر آخر بسبب وطنيته وإخلاصه لمصر، ولم يبق من هذه الأسرة المجاهدة غير والد فاطمة وعمها، وقد عاشا ليموتا شهيدين بالجلد بالسياط في مذبحة دنشواي المشؤومة.

وكانت فاطمة وقت هذه المذبحة المروعة في السابعة من العمر فشهدت أباها يجلد حتى الموت وهي محمولة على كتف أمها، ورأى ابن عمها إبراهيم أباه يجلد وهو على كتف أمه، وكبر الطفلان وصار إبراهيم من طلبة العلم بالأزهر، ثم تزوج بنت عمه فاطمة، وخرج من الأزهر ثائرًا حتى أرهب الأعداء الإنجليز، وسرعان ما دبر له رجال الاحتلال مكيدة بشعة كاذبة ثم حُوكِم، وحكم عليه بالإعدام ظلمًا وعدوانًا.

وفي يوم إعدامه كانت بنت عمه فاطمة تضع ابنها «صابر»، وكان قد أوصاه بأن ينتقم الطفل له إذا كان ذكرًا، وقد ترملت فاطمة، ولم تشأ التزوج وتفرغت لتربية ابنها، وبعد ٣٣ عامًا؛ كانت هي وابنها في منطقة القناة وجاء يوم ١٦ أكتوبر عام ١٩٥١، فهبّ الشعب المصري مطالبًا بالثأر والانتقام، فقاد صابر زملاءه في معسكرات «فايد» إلى الإضراب عن معاونة الإنجليز فقتل برصاصة آثمة في اليوم المحدد لزفافه.

ولم تبكِ الأم وهي تنظر إلى جثة وحيدها، وعزمت على الانتقام وأخذت تنقل العتاد والذخيرة إلى المجاهدين حتى فازت بالشهادة في سبيل الوطن.

٧٨٦- الشوربجي - حارة - بقسم الجمرك

اطلب ترجمته في «مسجد الشوربجي» الكائن بقسم المنشية حيث هناك شارع باسم المسجد.

٧٨٧- الشيباني - شارع - بقسم العطارين

كنية الشيباني ترجع في أصلها إلى بني شيبان الذين كانوا سدنة الكعبة، أي الذين يحجبونها «بالكسوة» التي تطرز بخيوط الذهب، وترسل إلى مكة كل عام، وكان بنو شيبان يبيعون «الكسوة» القديمة قطعًا للتبرك بها.

ويحتفظ التاريخ بترجمة حياة ثلاثة ممن كان لهم دور بارز في الحياة العربية والكيان الإسلامي العام وهم:

١) المثنى بن حارثة الشيباني: كان أحد أفراد بني شيبان الذين ذهبوا إلى المدينة وبايعوا رسول الله وذلك خلال السنة التاسعة من الهجرة، وفي عهد الخليفة أبي بكر الصديق صار المثنى الشيباني أميرًا على قومه بني شيبان، وكانوا يقيمون في ذلك الحين على حدود الصحراء فيما يلي سواد العراق، وبادر الشيباني إلى جمع كلمة قومه على الجهاد في سبيل الله، وأخذ يغير بهم على أطراف السواد، وأسفل الفرات مروعًا الفرس، يقتل الكثير منهم، ويستولي على الغنائم العظيمة مما أثار الاضطراب في صفوفهم، ونشر الرعب في نفوسهم.

وعندما عيّن الخليفة أبو بكر خالد بن الوليد (انظر هذه المادة ومادة أبو بكر الصديق) قائدًا للحملة العسكرية على العراق، ضم إليه المثنى الشيباني، الذي صار بعد ذلك أكبر مساعد لخالد بن الوليد في حروبه، فكان يشترك معه في المعارك الكبرى ويقوم بالإنابة عنه في معظم المهام الحربية الخطيرة التي تحتاج إلى الفطنة والدهاء.

وفي العام الثالث عشر الهجري أمر أبو بكر خالد بن الوليد بالذهاب إلى الشام لنجدة المسلمين، إذ إن جيوش الروم كانت قد تجمعت في اليرموك (انظر هذه المادة)؛ فانفرد المثنى الشيباني بقيادة الجيش في العراق.

وكان الفرس قد حشدوا له جيشًا ضخمًا بإمارة هرمز جاذوية، وجهزوا هذا الجيش بفيل ضخم مدرب على الحرب، فخرج المثنى إليهم بعد أن ضم إلى جيشه الكتائب المتفرقة في القرى والثغور، واقتتل الجيشان في عنف وضراوة وتمكن هو وجماعة فدائية من جنوده من قتل الفيل الذي كانت خيول المسلمين تجزع منه، وعندها حمل المسلمون على الفرس وهزموهم شر هزيمة فولوا الأدبار وفتك جيش المثنى الشيباني بجنودهم، وتسمى هذه المعركة التاريخية معركة بابل.

وكان أبو بكر قد اتخذ قرارًا بحرمان الذين ارتدوا عن الإسلام ثم عادوا إلى دين الله من شرف القتال في سبيل الله، فذهب المثنى الشيباني إلى المدينة وأقنع أبا بكر بالعدول عن هذا القرار لحاجة الجيوش الإسلامية إلى هؤلاء المقاتلين، فاستجاب أبو بكر لنصيحة المثنى وأمر عمر بن الخطاب (انظر مادة ابن الخطاب) وهو يحتضر بأن يرسل الناس مع المثنى على الفور، فأمر عمر الناس بالذهاب مع المثنى إثر وفاة أبي بكر.

وهبَّ المسلمون من مهاجرين وأنصار إلى الجهاد، فعهد الخليفة عمر بن الخطاب بقيادتهم إلى أبي عبيدة بن مسعود الثقفي وجعل المثنى الشيباني تابعًا له، فخاض مع قائده

أبي عبيدة الثقفي الحرب في موقعة النمارق ضد الفرس، وكان النصر فيها للمسلمين.

وغضب الفرس لتتابع هزائمهم فأعدوا جيشًا كبيرًا بقيادة أمهر قوادهم وهو جاذويه وعقدوا له «لواء كسرى» نفسه وزودوا جيشه بعدد كبير من الفيلة، وسار الجيش الفارسي حتى بلغ الموقع الذي عسكر فيه الجيش الإسلامي، ثم أرسل القائد جاذويه إلى أبي عبيدة يأمره بأن يعبر الجسر الذي بين الجيشين أو يعبر هو الجسر بجيشه، فاستكبر أبو عبيدة أن يكون المسلمون أقل شجاعة من الفرس وأمر جيشه بالعبور والتحم الجيشان وقتل الفيلة عددًا كبيرًا من المسلمين، ولما ضرب أبو عبيدة أحد الفيلة بالسيف وقطع خرطومه ثار الفيل وركله برجله ثم وضعها على صدره حتى مات، وعندها دبّ الهرج في صفوف المسلمين فأمرهم المثنى الشيباني بعبور الجسر في تقهقرهم وحفظ بذلك بقية الجيش من الإبادة، وتسمى هذه الموقعة المشؤومة بموقعة الجسر.

واستجمع الفرس أمرهم وأعدوا جيشًا آخر بقيادة «مهران» واشتبكوا مع الجيش العربي بقيادة المثنى الشيباني في معركة «البُوَيْب» التي حارب فيها نصارى بني تغلب مع إخوانهم العرب المسلمين جنبًا إلى جنب فهزموا الفرس شر هزيمة، ولاحقوهم يقتلون جنودهم دون هوادة حتى امتلأت الأرض بجثثهم، وقُدِّرت خسائرهم في الأرواح بمائة ألف قتيل.

ولما تولى «يزدجرد بن كسرى» ملك الفرس، كوّن جيش كبيرًا جدًّا، وحثّ أهل السواد بالعراق على مناهضة العرب، فأمر عمر بن الخطاب المثنى الشيباني بالارتداد إلى حافة الصحراء انتظارًا للمدد، وعندما حضر المدد بقيادة سعد ابن أبي وقاص (انظر مادة ابن أبي وقاص) كان المثنى قد فارق الحياة متأثرًا بجراحه التي أصيب بها في معركة الجسر.

وكان المثنى الشيباني أشبه الناس بخالد بن الوليد في اكتمال ملكة الحرب عنده، وتمتعه بالشجاعة والبسالة وسرعة الخاطر، وحدة الذكاء، وانتهاز الفرص، ومباغتة العدو، والاستهانة بالحياة، وطلب الاستشهاد في سبيل الله.

ولم تصعد روحه الطاهرة إلى بارئها إلا بعد أن دوَّى اسمه في فارس، وأصبح مثار فزع فيها، ومصدر اضطراب لها.

وما من شك في أن الشارع الذي يحمل اسم الشيباني بقسم العطارين قد خصص لتخليد ذكرى هذا القائد الفدائي العظيم البطولة.

غير أن الأمانة التاريخية تقتضيني تدوين ترجمة كل من الشيبانيين الآخرين وهما:

٢) أبو عبد الله محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني: كان مولى بني شيبان وكان فقيهًا حنفيًّا، ولد بمدينة واسط عام ١٣٢هـ (٧٤٩ – ٧٥٠م) ونشأ في الكوفة، ودرس على يد أبي حنيفة في شبابه، وتأثر به فقصر همه على الأخذ «بالرأي» ثم ألقى دروسه في مسجد الكوفة وهو في العشرين من عمره، واستزاد من علم الحديث على سفيان الثوري والأوزاعي (انظر هذه المادة)، وخاصته مالك بن أنس (انظر الإمام مالك) الذي حضر دروسه في المدينة طوال ثلاث سنوات، غير أنه يدين في علمه بالفقه لأبي يوسف (انظر هذه المادة).

ولما ظفى على مكانة أبي يوسف بدروسه حاول أبو يوسف أن يوليه القضاء في الشام أو في مصر، ولكن الشيباني رفض هذا المنصب.

وعندما استفتاه الخليفة العباسي هارون الرشيد في مسألة الإمام يحيى بن عبد الله الزيدي (انظر مادة الزيدية) أخطأ ففقد الحظوة عند الخليفة، وصار هارون الرشيد يشك في أنه من المتشيعين للعلويين، أما الحقيقة فإنه كان على مذهب المرجِئة على غرار بعض شيوخه، ثم ابتعد فيما بعد عن نشاطه الشيعي فعينه هارون الرشيد قاضيًا على الرقة عام ١٨٠هـ (٧٩٦م).

وبعد أن عُزِل من منصبه أقام في بغداد إلى أن أمره الخليفة بأن يصحبه في رحلته إلى خراسان فتوفي بها بقرية رنيوية بالقرب من الري عام ١٨٧هـ (٨٠٣م) بالغًا من العمر حوالي ٥٤ عامًا.

وكان الشيباني من أهل الرأي المعتدلين، وكان يعتمد في دروسه على الحديث قدر الاستطاعة، ومن جهة أخرى كان من علماء النحو المبرزين.

ويُذْكَر من تلاميذه الإمام الشافعي (انظر مادة الشافعي) الذي كتب ردًّا يجادله فيه عنوانه (كتاب الرد على محمد بن الحسن) وذلك في كتاب «الأم».

ويرجع الفضل في انتشار المذهب الحنفي في أول أمره إلى الشيباني وأبي يوسف، وآثار الشيباني التي كُتِب عليها كثير من الشروح هي أقدم الآثار التي استطاع الفقهاء بوساطتها الحكم على مذهب أبي حنيفة (انظر هذه المادة)، وإن كانت هذه الآثار تختلف في كثير من النقط عن آراء أبي حنيفة نفسه، ومن تلاميذه المبرزين أسد بن الفرات (انظر مادة ابن الفرات).

ومن أهم مؤلفات الشيباني كتاب «الأصل في الفروع» أو «المبسوط» وكتاب «الجامع الكبير»، وكتاب «الجامع الصغير» وكتاب «السير الكبير» في أربعة مجلدات، وكتاب «الآثار»، وكتب فوق ذلك نسخة من «الموطأ» لشيخه مالك بن أنس أضاف إليها نقدًا كثيرًا.

٣) أبو عمرو إسحق بن مرار الشيباني: ويقول أبو منصور الأزهري إنه كان يُعرف بالأحوص، وينحدر بالنسب إلى أسرة ريفية من الأعيان في فارس إلا أنه كان مولى رجل من قبيلة شيبان ولذا عُرِف بالشيباني.

وكان أعظم علماء النحو الكوفيين ويقال إنه لقِّب بالشيباني لأنه كان مؤديًا لأولاد الخليفة العباسي هارون الرشيد الذين كانوا يدرسون على يزيد بن مزيد الشيباني.

ولا يعرف على وجه التدقيق تاريخ ميلاده، ولا تاريخ وفاته، إذ قيل إنه توفي عام ٢٠٥ أو ٢٠٦ أو ٢١٣هـ، والتاريخ الأخير هو الأرجح، إذ روي أنه توفي في اليوم نفسه الذي توفي فيه الشاعر أبو العتاهية، والمغني إبراهيم الموصلي (انظر هذه المادة)، وقد وافتهما المنية في عام ٢١٣هـ (٨٢٨م).

ولم يشتهر أبو عمرو الشيباني بالنحو فحسب، بل اشتهر كذلك برواية «الحديث»، وذكر المؤرخون أنه من الثقات في «مسند» أحمد بن حنبل (انظر هذه المادة).

وقد تلقى العلم على يد أشهر شيوخ مدرسة الكوفة وقضى وقتًا طويلاً بين العرب الرحّل وجمع الأشعار والمادة اللغوية، ثم انتقل إلى بغداد في أواخر أيامه وعمد في مراحل حياته الأولى إلى جمع طائفة كبيرة من أشعار القبائل العربية، وأعد مجموعة منها تشمل على قصائد ثمانين قبيلة فأفاد منها كثير من الكتّاب المتأخرين الذين جمعوا دواوين الشعر العربي القديم.

وقد تفوق على رصفائه في العناية بالإشارات التاريخية المدونة في القصائد القديمة التي يظهر أن كثيرين غيره كانوا يجهلونها أو لا يعنون بها مثل الأصمعي.

وعلى الرغم من تقاه وظهوره بالورع، كان الشيباني يدمن الخمر أحيانًا، ولم يبق من مؤلفاته إلا كتاب «الجيم» الذي كان يبغي أن يكون معجمًا للغة العربية ولكنه لم يتمه، وما من شك في أن كتاب «العين» لمؤلفه الخليل بن أحمد هو الذي أوحى إليه القيام بتأليف كتاب «الجيم»، الذي رتبه على حروف الهجاء العربية، وبلغ به إلى حرف «الجيم» فقط، وتوجد من هذا الكتاب نسخة وحيدة في مكتبة الأسكوريال بإسبانيا، وهو من أقدم الكتب في اللغة العربية.

ويقول كتّاب سيرته أنه رفض أن يملي كتاب «الجيم» على أحد، ولذلك لم تؤخذ منه نسخة إلا بعد وفاته.

وللكتاب قيمة علمية خاصة، ذلك أنه يجمع بين دفتيه طائفة كبيرة من العبارات المأثورة عن بعض القبائل، والمحقق هو أنه استخلص هذه العبارات من الدواوين الثمانين القديمة لقبائل العرب التي استطاع جمعها.

وذكر مؤرخو سيرته مؤلفات أخرى فقدت جميعها منها: غريب المصنف، وكتاب الخيل، وغريب الحديث، وكتاب الكتّاب، وكتاب اللغات، وكتاب النوادر.

ومن تلاميذ أبي عمرو الشيباني البارزين: ثعلب، وابن السكيت، وأبو عبيد القاسم بن سلاّم، وعمرو ابنه هو والإمام أحمد بن حنبل.

وقال يعقوب بن السكيت صاحب كتاب «المنطق» أن أستاذه أبا عمرو الشيباني بلغ من العمر ١٠٨ من الأعوام، وكان يكتب بيده إلى أن مات.

٧٨٨- الشيخ إبراهيم أبو قرطام - شارع - بقسم مينا البصل (أزوالدفني سابقًا)

كان من العلماء الأجلاء الذين حاضروا مدة طويلة بمسجد الحاج عيسى بمنطقة مينا البصل، وقد تلقى دروسه الدينية في جامع الشيخ الذي شيده بالإسكندرية إبراهيم باشا الشيخ (انظر هذه المادة) وأطلق عليه اسم الجامع الأنور منافسة للجامع الأزهر بالقاهرة.

وكان الشيخ إبراهيم أبو قرطام يلقي دروسًا في الدين على عادة الناس بمسجد الحاج عيسى بمينا البصل وذلك كل يوم بعد صلاة العصر، وبعد صلاة المغرب، ثم صار إمامًا لهذا المسجد، واهتدى على يديه عدد كبير من عامة الناس فصاروا مواطنين صالحين بفضل وعظه وإرشاده.

وتوفي الشيخ إبراهيم خلال عام ١٣٤٢هـ (١٩٢٣م) بعد أن تجاوز الستين عامًا بقليل، وخلف ولده الشيخ

عبد الله إبراهيم قرطام، الذي صار إمامًا لمسجد الحاج عيسى بكفر عشري خلفًا لوالده.

أما صاحب الاسم القديم للشارع، فاطلب ترجمته في (أزوالدفني).

٧٨٩- الشيخ إبراهيم باشا - شارع - بقسم المنشية

الشيخ إبراهيم باشا كان عميد أسرة «الشيخ» المعروفة بمدينة الإسكندرية بأن عددًا من أفرادها تولوا قيادة الحركة الفكرية الدينية في معظم سنوات القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وهو جزائري الأصل من بلدة «قالمة» الواقعة في الجنوب الشرقي من ميناء «سكيكدة» التي أطلق عليها الاستعمار الفرنسي اسم «فيليب فيل»، وهي على الخط الحديدي الممتد من ميناء «عنابة» (بونة) إلى مدينة قسنطينة، ثم إلى مدينة الجزائر، وتقوم على ارتفاع ٢٧٧ قدمًا من سطح البحر، وكانت بلدة «قالمة» تدخل في نطاق نفوذ القطر التونسي قبل الاتفاق النهائي على الحدود بين تونس والجزائر في عهد الحكم التركي.

وما من شك في أن لقب «الشيخ» الذي تحمله هذه الأسرة يرجع في نسبه الأصيل إلى الأسرة العريقة المشهورة في تاريخ البلاد الجزائرية، والتي تنسب في أرومتها إلى «سيدي محمد الشيخ» الملقب «بالأمغار» (أي الرئيس باللغة البربري القبائلية)، وكان أديبًا عالِمًا بالحديث، وتفسير القرآن الكريم متبحرًا في الفقه الإسلامي، وكان يأخذ بالشورى في شؤون حكمه لدويلة السعديين الأشراف في المغرب الأقصى، وقد فتح مدينة تلمسان بعد أن شيد مُرسى «أغادير» في جنوب القطر المراكشي، واستغرق حكمه الفترة الواقعة بين عامي ٩٤٦ و٩٦٥هـ (١٥٣٩ - ١٥٥٧م)، وكان هذا الحكم يبسط نفوذه على المغرب الأقصى والجزء الغربي من القطر الجزائري، وبعد اغتياله عام ٩٦٥هـ (١٥٥٧م)، رحل ما بقي من أسرته إلى الشرق واستقر بعضهم في بلدة «قالمة» مسقط رأس إبراهيم باشا الشيخ صاحب هذه الترجمة، وينتسب إلى أولاد «سيدي محمد الشيخ» أبو العباس أحمد بن محمد بن المختار بن سالم التجّاني، منشئ الطريقة الصوفية التجّانية أو (التيجانية)، المولود في قرية عين ماضي عام ١١٥٠هـ (١٧٢٧م)، وهي قرية تقع على مشارف الصحراء الكبرى وسط البلاد الجزائرية.

وأطلعني أحفاد الشيخ إبراهيم على صورة زنكغرافية للأمر الصادر من محمد علي إلى محرم بك محافظ الإسكندرية بتاريخ ٢٤ محرم عام ١٢٣٦هـ (١٨٢٠م) بوجوب نفي الشيخ إبراهيم باشا الشيخ إلى موطنه الأصيل «قالمة» لأنه أفتى بتحريم أكل ذبيحة المواشي والأغنام التي يتولى ذبحها اليهود أو النصارى، على ألا تستولي الحكومة على أملاكه بوضع اليد، وكان هذا الأمر نتيجة احتجاج علماء وفقهاء الإسكندرية على هذه الفتوى واتهام الشيخ بالخروج على الشريعة الإسلامية التي لا تحرم هذا الذبح.

وبعد أن أثبت إبراهيم أن فتواه لا تُعَد خروجًا على قواعد الشرع مُنِح حق الرجوع إلى الإسكندرية، فبادر إلى تشييد المسجد الذي يحمل اسم الأسرة حتى اليوم، وذلك بجانب منزله في نهاية شارع الميدان (شارع محمود فهمي النقراشي حاليًّا)، وتم التشييد في عام ١٢٤٠هـ (١٨٢٤م) وجعل بين الطبقة الأولى العلوية وبين صحن المسجد بابًا «خوخة»

ليدخل منه هو وأفراد أسرته لتأدية الصلوات الخمس في أوقاتها، وكان هذا المسجد العتيد وقت إنشائه يسمى «الجامع الأنور» ليكون فرعًا للجامع الأزهر بالإسكندرية، وفي بعض الروايات المستقاة من أهالي الإسكندرية القدامى أن تسميته بالجامع الأنور كانت على سبيل المنافسة للجامع الأزهر في القاهرة.

أما في الوقت الراهن فيطلق عليه اسم «جامع الشيخ»، ويقع في دائرة اختصاص قسم شرطة المنشية، وقد استولت عليه وزارة الأوقاف هو وما خصص له من أعيان وقف الشيخ.

وكان الشيخ إبراهيم وابنه الشيخ سليمان (انظر مادة الشيخ سليمان باشا) يمارسان التدريس بالجامع يوميًّا لأنهما كانا من العلماء المشهورين المتضلعين في العلوم الدينية والدنيوية، وكانت تدرس بالجامع كافة العلوم الأزهرية من فقه ولغة وأصول، علاوة على الفلك، وكان يضم مكتبة كبيرة تشتمل على أمهات الكتب العربية الدينية والتاريخية والعلمية، وقد أصابها الحريق في مستهل الحلقة الخامسة من القرن العشرين الحالي، ثم استولت وزارة الأوقاف على ما تبقى منها عام ١٣٨١هـ (١٩٦١م)، ولم تقم إلا بجزء من ترتيب فهرستها وحفظها في مكان يليق بقيمتها الثقافية المفيدة، إذ مازالت مبعثرة تتعرض للتآكل والضياع في بعض مخازن مديرية الأوقاف بالإسكندرية.

وزاول التدريس بالجامع بعد الشيخ إبراهيم وولده الشيخ سليمان أولاد الشيخ سليمان، وهم المشايخ محمود أحمد ومحمد وإبراهيم وحسن، وكانوا جميعًا من علماء الدين المبرّزين، فتخرج على أيديهم عدد كبير من الطلاب، أضيف إلى العدد الذي تخرج على أيدي أبيهم وجدهم، وكان لهؤلاء الطلاب بيت بجانب الجامع ينزلون به لاسيما الغرباء منهم، وسمي الشارع الذي يضم هذا البيت «شارع طلبة العلم» (انظر هذه المادة) ويظهر أن معظم نفقات هؤلاء الطلبة كانت تصرف من مال الشيخ إبراهيم وابنه الشيخ سليمان وأحفاده من بعدهما عن طريق الوقف.

ولقد أدى «جامع الشيخ» لأهالي الإسكندرية أجلَّ الخدمات العلمية مدة طويلة من الزمن أفاد خلالها طائفة كبيرة العدد من طلاب العلم والراغبين في استيعابه، وذلك عن طريق الدروس النظامية التي كانت تلقى به على مدار أيام السنة، والدروس الدورية التي كانت تلقى بعد صلاة العصر، وبعد صلاة المغرب لكل من يريدون الإفادة منها.

ولما استقر الرأي على إنشاء المعهد الديني بالإسكندرية عام ١٣٢١هـ (١٩٠٣م) كان المفروض أن يتلقى العلم بجامع الشيخ بوصف كونه من أكبر المساجد في المدينة، ولأنه كان معدًّا لهذه الغاية التعليمية بما كان يضم من مدرسين وبيتًا للطلبة، ومكتبة حافلة بأمهات الكتب، غير أن أحفاد الشيخ إبراهيم اشترطوا لإقامة المعهد الديني بجامع جدّهم تدريس علم الفلك بين مواد الدراسة، ولرفض الجهات المسؤولة هذا الشرط عُدِل عن اتخاذ الجامع مقرًّا للمعهد الديني، وصار الطلبة يتلقون دروسهم في اثني عشر مسجدًا مبعثرة في أنحاء المدينة، إلى أن أُعِدّ المكان الملائم للمعهد الذي نقل فيما بعد إلى جهة الورديان، ثم استقر أخيرًا في مبناه الحالي بالقرب من حديقة النزهة.

وعلى الرغم من ذلك ظل جامع الشيخ يؤدي رسالته العلمية إلى ما بعد إنشاء المعهد الديني السكندري، فكان قبلة المتعطشين للتزود بالعلم والمعرفة ولاسيما من أبناء الإسكندرية.

وشيد الشيخ أحمد الشيخ - أحد أنجال الشيخ سليمان - المسجد الكائن بشارع محرم بك عام ١٣١٨هـ (١٩٠٠م)، وكان رحمة الله عليه يتولى التدريس به بعد ظهر كل يوم أي بعد فراغه من التدريس بجامع جده (جامع الشيخ)، وتوفي الشيخ أحمد عام ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م)، ودفن بالجامع الذي شيده، وفي عهد الشباب رأيت الشيخ أحمد مرارًا يتخذ من صيدلية خوري مكانًا لجلوسه في أثناء أوقات الفراغ، وكانت هذه الصيدلية أمام قسم شرطة المنشية الذي هدم في حوالي ١٩٦٤م.

والشيخ إبراهيم باشا الشيخ هو قيد مسجد العمري (انظر مادة العمري) الكائن في نهاية شارع سيدي أبي الدرداء (انظر هذه المادة)، وعلى ناصية شارع شريف (الخديوي الأول سابقًا) ومسجد سيدي القروي بقسم المنشية (انظر هذه المادة).

ومما يذكر بالثناء والفخر لمحمد الكبير أحد ولدي أبي العباس التجّاني مؤسس الطريقة التجّانية، والذي ينتمي بالأرومة إلى «سيدي محمد الشيخ» جدّ الشيخ إبراهيم باشا، الشيخ الأكبر (انظر مادة التيجاني) أن محمد الأكبر هذا كان من ألدّ أعداء الحكم التركي في الجزائر، ففي عام ١٢٤١هـ (١٨٢٦م) أعدّ جيشًا من مريدي الطريقة التجّانية الصوفية وأتباعها، وهاجم مدينة «معسكر»، وخرج «حسين باي» والي وهران لملاقاته، والتحم الجيشان بجهة غريس عند المصاف وأسفرت المعركة عن تقهقر جيش محمد الكبير بسبب تخلي معظم الذين انضموا إلى جيشه في نواحي المعسكر عن القتال.

ولم يركن محمد الكبير إلى الفرار من ميدان القتال، وصمَّم على منازلة خصومه الأتراك وأعوانهم هو وثلاثمائة من مريدي الطريقة المخلصين الذين ينتمون إلى قبيلة الأرباع، ويذكر الأمير محمد بن الأمير عبد القادر الجزائري في كتابه «تحفة الزائر في مناقب الأمير عبد القادر» أنهم عقلوا أنفسهم كما تُعقل الإبل وقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم، وبعث الباي حسين حاكم وهران برأس محمد الكبير إلى مدينة الجزائر فعلقت على بابها، وأرسل «داي الجزائر» سيف محمد إلى السلطان محمود الثاني سلطان تركيا في سنة ١٢٢٤هـ (١٨٢٧م)، ويدل هذا الدفاع المجيد والاستبسال في القتال المستميت على الشجاعة النادرة، وإن كان أخوه محمد الصغير وأتباع التجانية قد ناصروا بعد ذلك الحكم الفرنسي في الجزائر وحاربوا الأمير عبد القادر.

ويدل شكل بناء «جامع الشيخ» على الطريقة التي كانت متبعة وقت تشييده في إقامة المساجد، وهي أن يكون من طبقةٍ سفلى تستخدم «خانًا» أي (مخزنًا كبيرًا) لإيداع بضائع الغرباء عن الإسكندرية وإيوائهم ليلاً بعد أن يؤدوا فريضة الصلاة والاستماع إلى الدروس الدينية، وطبقةٍ عليا تستوعب المسجد ومحرابه ومِنْبَره ومكتبته وحجرة شيخه الخاصة، وقد شُيِّد على هذا النمط بالإسكندرية بعض المساجد الأخرى، أهمها مسجد تربانة بشارع الشهيد مصطفى حافظ (شارع فرنسا سابقًا) ومسجد الشوربجي بالشارع المتفرع من شارع الميدان

(شارع محمود النقراشي حاليًّا) (انظر مادتي: مسجد تربانة ومسجد الشوربجي).

وأجد من الملائم في هذا الصدد أن أذكر شيئًا من السياق التاريخي الذي يستطاع من خلاله التعرف على دويلة السعديين الأشراف التي ينتمي إليها الشيخ إبراهيم الشيخ، فقد قامت هذه الدويلة على أنقاض دويلة بني وطّاس في المغرب الأقصى، ويَرُدّ السعديون الأشراف نسبهم إلى أصلٍ عربي، من ينبع بالأراضي الحجازية، ويؤكدون أن هذا النسب يصل بالتسلسل عبر الأجيال إلى محمد النفس الزكية.

وفي عام ٩٢٢هـ (١٥١٦م) تولى زعامتهم أبو العباس أحمد، فحملهم على الجهاد في سبيل الله للقضاء على البرتغاليين وطردهم من جميع ثغور المغرب الأقصى، وفي عام ٩٤٦هـ (١٥٣٩م) نجح محمد الشيخ الملقب بالأمغار في الاستيلاء على مدينة مراكش وجعلها حاضرة ملكه، ثم واصل القتال ضد البرتغاليين فأجلاهم عن الثغور المراكشية وشيد ميناء أغادير عام ٩٤٧هـ (١٥٤٠م)، وفتح بعد ذلك مكناس وفاس، وزحف على تلمسان وأفلح في طرد الأتراك منها، وبعد اغتياله عام ٩٦٥هـ (١٥٥٧م) تولى الحكم ابنه عبد الله إلى أن قام بالزعامة أحمد بن محمد الشيخ الملقب بالمنصور وقد أطلق على عهده اسم «عهد السعديين الذهبي» لانتصاراته العديدة وغِناه الهائل وقضائه المبرم على البرتغاليين ولاسيما في معركة وادي المخازن في ٤ أغسطس سنة ١٥٧٨م (٩٨٦هـ)، حيث لقي ملك البرتغال سباستيان حتفه، وفي عهد السعديين الأشراف شُيدت جامعة القرويين الشهيرة في مدينة فاس، وهي أقدم الجامعات الإسلامية ومن أهم الآثار العمرانية، ومازالت تؤدي رسالتها العلمية الدينية حتى الآن.

ولعل الشيخ إبراهيم أراد أن يجدد عهد أجداده الأولين، فأقام جامعة بالإسكندرية على غرار جامعة القرويين.

ومن الإنصاف التاريخي أن نذكر لدويلة السعديين الدور الهام الذي قامت به خلال سني حكمها، فعلاوة على المقاومة القوية ضد الهجمات الإسبانية والبرتغالية والتركية، ووقف تدخل النفوذ الأجنبي في شؤون المغرب فقد استطاع أمراؤها التغلغل في المناطق الصحراوية حتى نهر النيجر، ثم وصلوا إلى تمبكتو في جمهورية مالي الحالية، وشيدوا جامعتها الشهيرة.

غير أن هذه الحملات التي تدرج عدد جنودها من أربعة آلاف إلى ثلاثة وعشرين ألفًا في المدة من عام ٩٩٩ إلى ١٠٢٨هـ (١٥٩٠ – ١٦١٨م) لم تحقق الأغراض الاقتصادية التي أُرسلت من أجلها، فقد عجز هؤلاء الجنود عن استغلال المناجم في تلك المنطقة النائية، وأخذ عددهم ينقص إلى أن صاروا أقلية تدفع الضرائب للحكام المحليين، ولو كانوا على قسط وافر من العلم لاستطاعوا الاحتفاظ بالثروة الإفريقية الهائلة في تلك الأقاليم الشاسعة، ولصدوا عنها قوافل الأوروبيين التي أخذت تطرق سواحل إفريقيا الغربية في ذلك الحين، ثم تنتشر في الداخل بحثًا عن الذهب وعن باقي خيرات القارة الهائلة بوسائلها الاستعمارية الاستغلالية، وليتغير عندئذ وجه التاريخ بالنسبة إلى الفتح الإسلامي العربي للقارة السوداء.

ولجامع الشيخ ذكريات طيبة في نفوس أهل الإسكندرية القدامى، فعنده كانت تنتهي «جَلْوَة» سيدي أبي العباس المرسي (انظر مادة سيدي أبي العباس) التي تبدأ من مسجده في

يوم ١٥ رمضان من كل سنة، وهو موعد مولده السنوي، فيركب خليفة الطرق الصوفية جواده المُطَهَّم يُمْسِك بزمامه مشايخ هذه الطرق، ويحيط به حاملو الرايات الملونة الدالة على مختلف مذاهب الصوفيين من أيوبية وتيجانية ورفاعية وأحمدية وغيرها، ويتقدمه أولاد سيدي عبد السلام الأسمر وسيدي ابن عيسى يضربون الدفوف الرحبة في سياقٍ منتظم على أنغام «السلامية» الرتيبة، ويَسْبق هؤلاء ضاربو الكاسات والصنّاجات وأولاد «أبي الغيط» برقصاتهم الخليعة وحاملو المشاعل التي كانت توقد بالحطب الملتهب، ثم صارت مصابيح كبيرة «كلوبات» توقد بزيت النفط، وكانت هذه «الزفة» المائجة الصاخبة تخترق شوارع أبي العباس، فالموازيني، فالميدان، وعندما يصل جواد الخليفة إلى باب «جامع الشيخ» يقرأ الناس فاتحة الكتاب الكريم، ويترجَّل الخليفة ليصعد درجات الجامع العديدة فيقود حَلْقة الذكر في صحن الجامع حتى موعد السحور.

وكانت مِهْرجانات «الدورة» التي تقام عدة مرات على مدار السنة تنتهي بدورها عند هذا الجامع العتيد، فكانت تبدأ من مسجد أبي العباس أيضًا بعد العصر، وتضم أبناء الطرق الصوفية وأرباب الحرف المختلفة يزاولون حرفهم وصناعاتهم فوق عربات أعدت خِصِّيصًا لذلك، يتقدمهم أولاد سيدي عبد السلام، وسيدي ابن عيسى، والموسيقى، والنقزان، ولاعب المِشْعال، وأولاد أبي الغيط، وحاملو القماقم البللورية الملونة المزينة بالورود والرياحين يرشون بمائها المعطر المتفرجين على الجانبين، ولاسيما الفتيات الجميلات، وعند باب الجامع ينفضّ السامر ويَخْمُد صَخَب المِهرجان ويذهب المشتركون فيه إلى شؤونهم المعيشية بعد أن يكونوا قد استمتعوا بيوم بهيج، حلو المناظر، بديع السياق.

واستمرت أسرة الشيخ إبراهيم باشا الشيخ على بناء المساجد ففي يوم الجمعة الموافق ١٢ من شهر شعبان عام ١٣٧٨هـ (٢٠ فبراير ١٩٥٩) افتتح مسجد محرم بك الجديد بشارع محرم بك على مقربةٍ من مسجد الشيخ أحمد بن الشيخ سليمان بن إبراهيم باشا الشيخ، وقد نبتت فكرة تشييد هذا المسجد الفخم في وجدان شقيقات المرحوم سليمان عبد الحميد الشيخ أحد أحفاد الشيخ إبراهيم باشا الذي تخرج من كلية الحقوق بجامعة القاهرة عام ١٣٤٧هـ (١٩٨٢م)، ووافته المنية في عهد الرجولة الناضجة دون أن يتزوج، ولتخليد ذكراه وتكريمه سعت شقيقاته إلى تنفيذ فكرة بناء المسجد، ووافقهن إخوته الآخرون فتنازلوا جميعًا عن ميراثهم في المنزل الكبير الذي كان الأستاذ سليمان يقيم به، وتولت الشقيقات الثلاث نفقات البناء فوق أرض هذا المنزل، فبُدِئ في تشييده عام ١٣٧٣هـ (١٩٥٣م) واستغرق هذا التشييد حوالي ستة أعوام.

وتعتبر رسالة هذا المسجد الجديد تكملة لرسالة مساجد أسرة الشيخ بمدينة الإسكندرية وهي: جامع الشيخ، ومسجد العمري، ومسجد القروي، ومسجد محرم بك القديم الذي بناه الشيخ أحمد. ومساحة المسجد الجديد تبلغ ستمائة متر مربع، يحيط بجدرانه من الداخل سُفُل من الرخام المزين بالنقوش العربية بارتفاع متر ونصف المتر، ويعلو هذا السُّفُل شريط آخر من الرخام عرضه عشرون سنتيمترًا، كتبت عليه بعض آيات سورة الفتح من بدايتها بالحفر، ثم طليت باللون الأخضر، وبأعلى المسجد كتب آيات من سورة الرحمن.

وبالمسجد شرفة (صندرة) للسيدات لها مدخل خاص، وتبلغ مساحتها مائتي متر مربع وهي مفصولة تمامًا عن القسم

الخاص بالرجال، وأسقفها مزينة بالنقوش العربية الزخرفية، وبآيات مختارة من سورة النور، ويتفرع منها دورة مياه خاصة بالسيدات غطيت حوائطها بالقيشاني الأبيض.

وبالمسجد شرفة أخرى للرجال مساحتها مائة متر مربع، في مقدمتها محراب مزين بنقوش عربية، أما محراب المسجد الرئيسي فعرضه ثلاثة أمتار وارتفاعه ستة، وصنع منبره من خشب الصنوبر المطعم بسن الفيل، وكذلك كرسي المقرئ، وزودت حجرة إذاعة الأذان بأحدث الآلات، ولها مكبرات للصوت في أماكن عدة من المسجد، ويتفرع منها أربعة مكبرات أخرى بالمئذنة، وتبلغ مساحة الفناء الخارجي للمسجد مائة متر مربع، ويبلغ ارتفاع مئذنته ستة وأربعين مترًا، وهي تحمل نقوشًا عربية جميلة، وله قبة من الخرسانة المسلحة ارتفاعها ستة وعشرون مترًا وقطرها عشرة أمتار، وتقوم على أربعة عمد، كسيت برخام دقيق الصنع مزين برسوم عربية ذات ألوان مختلفة، وزين داخلها بنقوش عربية مذهبة اللون، وكتب بها آية الكرسي، وآية من سورة آل عمران، وجميع أبواب المسجد ونوافذه من خشب الصنوبر وبالنوافذ زجاج ملون جميل.

ويتسع المسجد لثلاثة آلاف من المصلين، ويعد من التحف الفنية، إذ يقوم بناؤه كله على أربعة عُمُدٍ تحمل قبته، وتتسع رحبته الخارجية لنحو ألف من المصلين، وللمسجد حديقة مساحتها خمسمائة ذراع مربعة، وقدر ثمن أرضه بعشرين ألفًا من الجنيهات، وارتفعت نفقات بنائه إلى خمسين ألفًا، وقام بتشييده بعد وضع تصميماته المهندس ثابت أحد كبار مهندسي بلدة الإسكندرية السابقين.

ويتضح مما تقدم أن الشيخ إبراهيم الشيخ وبعض أفراد أسرته من العلماء قد أسهموا بنصيب مرموق في تنشيط الحركة الثقافية بالإسكندرية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والحلقات الثلاثة الأولى من القرن العشرين الحالي، رحمهم الله وأثابهم على ما قدمت أيديهم من نفعٍ علمي مفيد، إنه لا يضيع أجر العاملين.

ومن المفيد التطرق إلى تدوين نبذة توضح وصف جامع الشيخ إبراهيم باشا الحالي، فسلَّمه الرئيسي يبدأ من شارع الميدان (محمود فهمي النقراشي حاليًّا)، وهو يكوَّن من درجات كثيرة تنتهي إلى رواق عريض يكتنف صحن المسجد من الجهتين الغربية والشمالية، وكان هذا الرواق مخصصًا لاستذكار الطلبة لدروسهم في فترات الراحة بين الدروس، وأمام نهاية السلم باب صحن المسجد، وهو مربع فسيح تقع القبلة في نهايته الشرقية وإلى جانب القبلة المنبر.

ويقوم سقف الجامع على أعمدة من الرخام البسيط، وعلى يمين المنبر كانت قاعة المكتبة التي أصابها الحريق واستولت وزارة الأوقاف على ما تبقى منها.

وفوق مدخل صحن المسجد طبقة عليا «صندرة» مخصصة للسيدات، وكان عدد كبير منهن يواظب على حضور الدروس في الزمن الماضي، وعلى يمين صحن المسجد باب كان يؤدي إلى مسكن الشيخ إبراهيم، شيد المسجد، وبجانب هذا الباب سلم يؤدي إلى الطبقة السفلى وبها الميضأة.

٧٩٠- الشيخ أحمد أبو علي - شارع - بقسم الرمل

هو أحمد أبو علي بن الشيخ محمد بن أحمد بن علي بن زياد، وقد أطلق لقب أبو علي على أفراد الأسرة لأنها من أصل أندلسي من إشبيلية، ولقب «أبو» يطلق عادة على كثير من الأسر المغربية، وتختصر في لفظة «بو» فيقال بو علي، وبو علاّم، وبو مدين، وهكذا كما هي العادة في لقب «ابن» الذي نراه شائعًا عند المغاربة والمشارقة.

وكان الشيخ محمد أبو علي إمام ومفتي دائرة سعيد الأول، وقد ولد ابنه الشيخ أحمد أبو علي عام ١٨٦٩م (١٢٨٦هـ) بمنزل والده بدرب شغلان بقسم الدرب الأحمر بالقاهرة، وكان هذا الحي مستقر موظفي الحكومة وموظفي القصر لقربه من القلعة، وبدأ الشيخ أحمد يحفظ القرآن على يد الفقيه الشيخ محمد قنديل، ثم أرسله والده إلى الأزهر، وتعلم على يد كبار علمائه، ومنهم المشايخ: البولاقي والمرصفي والبسيوني والنجار، وكان في الوقت نفسه يجتمع بالشيخ الشنتوري، والشيخ يوسف المنيلاوي، وعبده الحمولي، وغيرهم من المنشدين والموسيقيين، ويشترك مع المنشدين منهم لميله إلى الموسيقى منذ الصغر، ولحسن صوته، ولقد اعتنت أسرته بتثقيفه فشبّ مولعًا بالأدب والشعر إلى جانب الموسيقى والغناء، ثم عين بالقسم الأدبي في الوقائع المصرية في وظيفة محرر، وكان رئيس التحرير في ذلك الحين الشيخ عبد الكريم سلمان الكاتب المشهور، وكان الشيخ أحمد أبو علي يتصل في الوقت نفسه بالشيخ علي يوسف (انظر هذه المادة) صاحب جريدة المؤيد وغيره من الأدباء والكتاب.

ثم انتقل صحبة والده إلى الإسكندرية بعد استقالته من الوقائع المصرية، وأقام هو ووالده بمنزل عمه الشيخ أحمد أبو علي أستاذ قصر الأمير طوسون أحد أولاد سعيد الأول، وكان هذا المنزل بجنينة العيوني بقسم اللبان، ومازال المنزل قائمًا إلى الآن، وسمي الشارع باسم عمه شارع (أبو علي) (انظر هذه المادة)، ولم يخلد الشيخ أحمد أبو علي إلى الفراغ عقب إقامته بالإسكندرية فعاد إلى الاستزادة من العلم بجامع الشيخ إبراهيم باشا (انظر هذه المادة) مع أبناء عمومته.

وفي ذلك الحين بدأت البلدية في تكوين مكتبتها في عهد مديرها الأول يوسف شكور باشا، فأعلن عن وظيفة مساعد لأمين المكتبة وكان أجنبيًّا سويسريًّا يدعى فكتور لوريس، ورئيسًا لقسمي المكتبة الفرنسي والعربي، ففاز الشيخ أحمد في الامتحان الذي عقد لهذا الغرض في أوائل عام ١٨٩٢م (١٣١٠هـ) وكانت المكتبة في تلك السنة تشغل حجرة صغيرة من المتحف اليوناني الروماني بجانب دار البلدية، ثم نقلت إلى هذه الدار فاحتلت ثلاث حجر في الجهة الخلفية المطلة على شارع المتحف، ولم يكن بها وقت إنشائها سوى بضع عشرات من الكتب الإفرنجية، فسعى الشيخ أحمد أبو علي إلى الاستكثار من المجلدات العربية وكلّل سعيه بالنجاح لدى الحكومة بالقاهرة، فأهدت المكتبة ٤١٣ كتابًا عربيًا من المؤلفات التي أنتجتها مطبعة بولاق الأميرية، وقد بذل الشيخ أحمد جهدًا مثمرًا في جمع الكتب، وشراء الكثير منها، وعني بترتيبها وتنظيمها، وكان يبحث عن الكتب النادرة ملاقيًا في ذلك الصعوبات الجمة، وكان يعير المخطوطات اهتمامًا كبيرًا، فيحققها وينسبها إلى مؤلفيها والعصور التي كتبت فيها، ثم قام بتأليف الفهرست التاريخي للقسم العربي

بالمكتبة في ستة مجلدات، واضطلع بهذا المجهود بمفرده عام ١٩٢٣م (١٣٤٢هـ) وكانت المكتبة قد نقلت في هذا العام نفسه إلى المدرسة الإيطالية القديمة التي مازالت بها معامل التحليل بشارع أبي الدرداء، وكان بجزء منها ملجأ الشيوخ الذي حل محله الآن قسم صحة اللبان، وفي عام ١٩٣٨م (١٣٥٧هـ) نقلت إلى مكانها الحالي بشارع المهندس أحمد إسماعيل (انظر هذه المادة) شارع منشا سابقًا، ويرجع الفضل في تسمية أغلب شوارع المدينة إلى الشيخ أبو علي، فقد عكف خلال عام ١٩١٠م (١٣٢٩هـ) على اختيار أسماء مشاهير الرجال من علماء وفقهاء وأدباء وحربيين لوضعها على شوارع المدينة وحاراتها وضواحيها، متوخيًا في ذلك انتقاء الأسماء التاريخية العربية اللامعة، والتي كان لها الأثر في إنماء الحضارة العالمية، وفي عام ١٩٣١م (١٣٥٠هـ) تولى مراجعة وتصحيح فهرس الشوارع والحارات مرتبًا على حروف الهجاء ومازال هذا المجلد المرجع الرئيسي في قسم التنظيم بالمحافظة يضاف إليه ما يستجد من الشوارع المسماة.

ويدل على اهتمام هذا العالم الأزهري بالمكتبة أن عدد المجلدات العربية بلغ في عام ١٩٠٠م (١٣١٨هـ) ٢٩٥٦ كتابًا وأخذ هذا العدد يتزايد حتى يطغى على المجلدات الإفرنجية، فبلغ في إحصاء عام ١٩٦٥م (١٣٨٥هـ) ٦٥,٥٠٠ على حين أن عدد المجلدات الإفرنجية بلغ في هذا الإحصاء ٤٦,١٠٠ مجلد.

وكان الشيخ أبو علي قد انتقل من منزل عمه بشارع أبي علي باللبان إلى المنزل الذي اشتراه والده بجهة كوم الدكة، ومن أعماله الأدبية شرح كتاب «المنتحل» للثعالبي، وذيله بكتاب تراجم شعراء المنتحل سماه «المنتخل في تراجم شعراء المنتحل» وأصدره عام ١٩٠٣م (١٣٢١هـ).

ومما يذكر له أنه كان منتظمًا في سلك حلقات الفيلسوف الإسلامي السيد جمال الدين الأفغاني حينما كان بالأزهر واستقى من ينبوع علمه وأدبه.

وله شعر على النمط العربي القديم ومقطوعات في التهاني والمراثي والخواطر والحكم وبعض الموشحات على الطريقة الأندلسية في الغزل والوصف، وتأثر بتطور الشعر العصري الحديث فأخذ ينظم القصائد في أسلوب عذب ونشر بعضها في الصحف والمجلات، ومازال ديوانه الذي سماه «ربيع العمر وزهرة الحياة» لم ير النور، ومازالت قصائده مخطوطة لدى ولده السيد إسماعيل أبو علي، الذي كان موظفًا بالبلدية، وأحيل على التقاعد أخيرًا لبلوغه السن القانونية، ولعله يشرع في طبع هذا الديوان ليزيد التراث الأدبي المصري بما دبجه يراع أبيه.

ومن نماذج شعره قوله في الحكم:

إنَّ الشبابَ ربيعُ دُنيا ... نَا ومَرعاها الخصيبِ

والشيبُ مهما حدثوا ... عنه فَوَاديه جديب

فاحفظ شبابكَ إنَّهُ ... إن فرَّ منك فلا يؤوب

أسرفتَ في عهدِ الصبَا

فأتى يحاسبك المشيب

أما عن الموسيقى وولعه بها فالحديث عن ذلك مستفيض فقد كان موسيقيًّا بطبيعته، حسن الصوت، سريع الحفظ، مستمر الاتصال بكبار الملحنين والموسيقيين في عصره، ولا يستبعد أن يكون قد اتصل بالشيخ سيد درويش، وقد كان يسكن بجواره، وتوفي عام ١٩٣٦م (١٣٥٥هـ).

هذا هو الشيخ أحمد أبو علي، وليس بعسير على لجنة تسمية الشوارع أن تعيد اسمه إلى أحد الشوارع التي لم تُسمَّ بعد تخليدًا لذكراه، ولما أداه للأدب والفن من خدمات مثمرة.

أما ترجمة صاحب اسم الشارع الجديد فاطلبها في «عمرو النجومي» أحد شهداء العروبة الأبطال.

٧٩١- الشيخ إسماعيل شلبي - شارع - بقسم المنشية (تريستا سابقًا)

هو الشيخ محمد إسماعيل شلبي ولد في بلدة القنايات مركز الزقازيق بمحافظة الشرقية في ١٩ من سبتمبر عام ١٩١١م (١٣٢٩هـ)، وتولاه والده حتى حفظ القرآن الكريم، وله من العمر تسع سنوات، ثم التحق بدار العلوم، وتخرج فيها عام ١٩٣٧م (١٣٥٦هـ)، وكان أثناء دراسته مكبًّا على قراءة دواوين الشعر، وحفظ الكثير منها مما تضم من أجود القصائد ولاسيما دواوين أبي تمام والبحتري والمتنبي وأبي العلاء المعري والبارودي وشوقي، وله في كل من هذه الدواوين أبحاث تدل على استيعابه لما اشتملت عليه من جيد الشعر من كافة ألوانه، وقد عرف عنه منذ شبابه الميل إلى الإرشاد الديني والإصلاح الاجتماعي، وعقب تخرجه من دار العلوم عين مدرسًا بمدرسة ديروط الأميرية، وخلال هذه المدة عكف على إتمام دراسة تفسير القرآن ودراسة الفقه على المذاهب الأربعة، وفي هذه الفترة نفسها كان يتردد على بلدته «القنايات» وأفلح في تكوين جمعية خلال عامي ١٣٥٧- ١٣٥٨هـ (١٩٣٨ - ١٩٣٩م) لتحفيظ القرآن الكريم، ووهبها قطعة أرض لتقيم مبناها فوقها، وماتزال هذه الجمعية تؤدي رسالتها التعليمية، فيدرس في كنفها القرآن والحديث والفقه، وسميت فيما بعد «جمعية التقوى والإرشاد الإسلامية» وتتبع الآن وزارة الأوقاف، وفي عام ١٣٥٩هـ (١٩٤٠م) اجتاز مسابقة الترقية إلى التدريس بالمدارس الثانوية بامتياز، وعين مدرسًا بمدرسة ديروط الثانوية في العام نفسه، ولما عُيِّن في سنة ١٣٦١هـ (١٩٤٢م) مدرسًا بمدرسة المعلمين الأولية بالإسكندرية، ازداد نشاطه، وظهر هذا النشاط في مساجد المدينة ونواديها وهيئاتها الثقافية، واتخذ من نقد النظم الاجتماعية الفاسدة ومن توعية الشعب سياسيًّا ودينيًّا واجتماعيًّا وسيلة لإرشاده، وكان في هذا الإرشاد شديد النقد لنظام الحكم السائد في ذلك الحين، مما أوغر صدور القائمين على شؤون التعليم، ومن ثَمَّ صدر الأمر بنقله إلى مدينة قنا، وكان قد أفلح خلال مدة إقامته بالإسكندرية في تأسيس جمعية «التقوى والإرشاد» التي سجلت بوزارة الشؤون الاجتماعية برقم ٦١، واتسع نطاق عملها، فأنشأت فروعًا لها في أحياء كرموز والرمل والمنشية وكوم الدكة والورديان، ولم يزده نقله إلى قنا عام ١٣٦٦هـ (١٩٤٦م) إلاّ مضاءً وقوة عزيمة، فأنشأ لجمعية الإرشاد والتقوى فروعًا في قنا وسوهاج وجرجا والمنيا والعسيرات وقوص وقفط ودشنا وغيرها من بلاد الصعيد، وماتزال بعض هذه الفروع تؤدي رسالتها حتى

الآن، ثم صدرت الأوامر بإعادته إلى الإسكندرية بعد فشل أمر نقله إلى قنا حيث عمّ نشاطه معظم مديريات الصعيد، وقد ظل مدرسًا بقنا في المدة من ٩ فبراير عام ١٩٤٦م (١٣٦٦هـ) إلى ١٩ من إبريل من العام نفسه أي سبعين يومًا، واستطاع في هذه الفترة القصيرة تكوين كل الفروع المتقدمة الذكر في غير كلل أو ملل.

وقد نظمت جمعية الإرشاد والتقوى روابط لكل منها عمل خاص وهي:

- رابطة «اقرأ» وتتولى تعليم الأميين القراءة والكتابة.
- لجنة «أصلحوا ذات بينكم» ومهمتها التوفيق بين المختصمين من المسلمين.
- كتيبة «افعلوا الخير» وهدفها الحصول من الأغنياء على حق الفقراء من أموالهم وتوزيعه على المحتاجين في إحسان مرتب، وتمد الجمعية أسرات كثيرة حسب البحث الاجتماعي لحالة كل أسرة بإعانات موسمية وشهرية وفي الظروف الطارئة من فقر أو مرض.
- روابط الحج والصلاة وهداية الشباب وهي تعمل في هذه النواحي بكل ما وسعت جهودها من نشاط.

ولم تأل الجمعية جهدًا في القيام بواجباتها الوطنية كلما حلت بمصر أزمة صحية، أو حربية فتجند الأطباء والشباب المجاهدين وتجمع الإعانات من الموسرين لهذا الغرض، وفي حرب فلسطين ضد الصهيونية وإسرائيل قدمت الجمعية المساعدات القيمة مما كان موضع تقدير المسؤولين.

وعندما أدى فريضة الحج عام ١٣٧١هـ (١٩٥١م) خطب في المسجد النبوي، واتخذ من الإذاعة السعودية منبرًا عامًّا لعرض آرائه الإرشادية، ومن ثَمَّ أوفده رجال الثورة عضوًا في بعثة هيئة التحرير للحج والزيارة عام ١٣٧٥هـ (١٩٥٥م)، وفي هذه الفترة التحق بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية، قسم الدراسات العليا، وكان أول الناجحين في دبلومها عام ١٣٧٢هـ (١٩٥٢م)، وقد اتخذ من مسجد رمضان شحاتة بشارع القائد جوهر بقسم المنشية محرابًا دينيًّا لنشر تعاليمه الدينية والقومية، ولاسيما في أيام العدوان الثلاثي الغاشم على بورسعيد في أواخر عام ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م) وكان إمامًا لهذا المسجد، وقد اختير أثناء العدوان عضوًا في هيئة التعبئة القومية وشارك في المؤتمرات التي كانت تعقد آنذاك في اتحاد الشباب القومي، والاتحاد القومي العام، وقد عمل بعد نقله من قنا إلى الإسكندرية مدرسًا في معهد المعلمين الخاص، فمدرسًا أولاً لمدرستي الورديان والإسكندرية الثانويتين، ثم وكيلاً لمدرسة دسوق الثانوية، فمحرم بك الثانوية، وكان في الوقت نفسه ناظرًا للمدرسة البحرية بطريق الندب، وفي عام ١٣٨١هـ (١٩٦١م) اختير مقررًا عامًّا للتعبئة القومية وعضوًا في اللجنة العليا للتعبئة القومية بمحافظة الإسكندرية.

وكان للأستاذ محمد إسماعيل شلبي عقل موهوب وقلم سيال، فألّف ما يربو عن العشرين كتابًا أشهرها: «الفريضة العادلة»، وهو بحث قيم في العدالة في تقسيم التركة على الورثة مع القانون المعمول به الآن في المواريث، و«كتاب تفسير سورتي لقمان والشورى»، وكتاب «المرشد المفيد في تفسير القرآن المجيد»، وهو يعرفنا كيف نفسر القرآن الكريم ونربط بينه وبين العصر الحاضر، والعلم الحديث، هذا علاوة

على عدة رسائل دينية وقومية في النواحي الثقافية، وقد قامت الهيئة المحلية لرعاية الفنون والآداب بالإسكندرية – وكان المرحوم أحد أعضائها – بطبع آخر كتاب له وعنوانه «من وحي الميثاق»، ووافته المنية يوم الجمعة الموافق ٥ من ربيع الأول عام ١٣٨٣هـ (٢٦ يوليو عام ١٩٦٣م)، بالغًا من العمر ٥٢ عامًا، وكانت وفاته بمدينة الزقازيق ونقل جثمانه إلى بلدة القنايات حيث دفن، وترك الأستاذ شلبي أولادًا صغارًا، وولدًا شابًّا هو الأستاذ حسن شلبي خريج كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، وقد أطلقت محافظة القاهرة اسمه على أحد شوارع حدائق القبة (شارع محمد شلبي) تقديرًا لجهوده في خدمة الدعوة الدينية القومية، وهو شقيق الشيخ مصطفى شلبي المدرس بمعهد الزقازيق الديني، والدكتور عبد الفتاح شلبي مفتش أول اللغة العربية بوزارة التربية والتعليم، والأستاذ سعد شلبي مدرس أول بمدرسة بني سويف الثانوية.

٧٩٢ – الشيخ البحيري – حارة – بقسم كرموز

هو الشيخ خطاب منصور البحيري، ولد بميت لوزة من أعمال الدقهلية مركز ميت غمر، وكان قبل نزوحه إلى الإسكندرية عمدة ميت لوزة مسقط رأسه، وعندما هاجر إلى الإسكندرية هو وأولاده، زاول تجارة الحبوب وأقام بالحارة التي تحمل اسمه حتى الآن بجهة كفر عشري بقسم كرموز.

وكان الشيخ البحيري متبحرًا في الفقه وعلم التوحيد، إذ كان من خريجي الجامع الأزهر، ومن زملاء الشيخ عليش (انظر هذه المادة)، وغيره من كبار العلماء، ولتقواه وصلاحه جعل منه سكان حي كفر عشري وليًّا، وأضفوا عليه لقب الشيخ، وقد توفي في هذا الحيّ في حوالي عام ١٢٣٢هـ (١٨١٦م) بعد أن عمَّر نحو ١١٨ عامًا.

وتوارث أفراد أسرته عن جدهم الأكبر أن أصلهم من الحجاز، وقد أسلم جدهم الأعلى بعد موقعة بدر حنين (انظر مادة بدر)، وأن هذا الجد جاء إلى مصر أيام الفتح الإسلامي ضمن جنود القائد العربي عمرو بن العاص ثم استوطن هو وأفراد أسرته بقرية ميت لوزة حيث ولد الشيخ البحيري.

هذا وقد كان بالأزهر في أواخر القرن التاسع عشر أحد كبار العلماء يدعى الشيخ محمد بحيري وكان أحد أعضاء الإدارة بالجامع، وعندما عرض على الإدارة موضوع إنشاء مجلس للأزهر ومناهج التعليم، قال هذا الشيخ الجامد: «إننا نعلم الطلاب كما تعلمنا نحن»، ولما قال له الشيخ محمد عبده: «وهذا الذي أخاف منه» قال البحيري: «ألم تتعلم أنت في الأزهر؟»، فأجاب محمد عبده: «إنني لم أبلغ هذه المرتبة من العلم إلا بعد أن مكثت عشر سنين أكنس من دماغي ما علق به من وساخة الأزهر»، فسكت الشيخ البحيري كمدًا.

٧٩٣– الشيخ البشري – حارة – بقسم مينا البصل

اطلب ترجمته في «الشيخ سليم البشري».

٧٩٤– الشيخ البنا – حارة – بقسم الجمرك

هو الشيخ محمد صالح البنّا ولد بمدينة رشيد عام ١٢٠٢هـ (١٧٨٧م)، وكان والده مفتي رشيد وتولى الإفتاء عقب وفاة أبيه الشيخ أحمد البنا الرشيدي، الذي توفي في أوائل القرن السابع عشر ودفن برشيد مثل ابنه صالح، وأصل أسرة البنا من أشراف مكة، وقد رحلوا إلى المغرب، واستقروا بالريف

المراكشي، ثم نزحوا إلى مصر، وأقاموا برشيد، إذ كانت في ذلك الحين أهم موانئ القطر.

وقد حفظ الشيخ محمد صالح البنا القرآن الكريم على يد والده برشيد، ثم أخذ يدرس العلم بها إلى أن ذهب إلى القاهرة عام ١٢٢١هـ (١٨٠٦م)، حيث تلقى العلوم الشرعية والنظرية بالأزهر على يد طائفة من العلماء من بينهم المشايخ محمد الأمير، والشرقاوي، والدسوقي، والدمهوجي، وأحمد الطحطاوي مفتي الديار المصرية، وأحمد الصاوي المالكي الذي أخذ عنه الطريقة الصوفية الخلوتية، واستمر على تحصيل العلم حتى بلغ منه درجة عالية أهلته للإفتاء بإجازة مشايخه الآنفي الذكر.

وبعد أن أدى فريضة الحج عام ١٢٣٢هـ (١٨١٦م)، استقر بمسقط رأسه رشيد حيث تولى الإفتاء على المذهب الحنفي بأمر من محمد علي، فكان يلقي دروسه الفقهية والشرعية بجامع الجندي، ويلقي بعضها بجامع زغلول الذي كان قبل تهدمه فرعًا من الأزهر يقصده الطلاب من الوجه البحري.

وفي عام ١٢٦٦هـ (١٨٤٩م) تولى الإفتاء بمدينة الإسكندرية، وكان يلقي دروسه وينشر طريقته الخلوتية بمسجد أبي العباس المرسي، وعلاوة على ذلك كان يقوم بالوعظ والإرشاد، وتعليم أفراد الشعب أصول دينهم بمسجد الشوربجي بشارع الميدان (محمود فهمي النقراشي حاليًا)، وبعد صلاة المغرب كان يشرف على حلقات الذكر بمسجد أبي العباس، وكان انتقاله إلى الإسكندرية مفتيًا بأمر من عباس الأول.

وفي عام ١٢٨٤هـ (١٨٦٧م) أدى فريضة الحج للمرة الثانية مع ولديه الشيخ محمد محمد البنا (انظر مادة الشيخ محمد البنا) والشيخ عبد الله البنا، وقام بإلقاء بعض الدروس الفقهية والدينية بالحرم المكي، ثم عاد إلى الإسكندرية حيث احتفل الأهالي بعودته احتفالاً عظيمًا، وفي عام ١٢٨٦هـ (١٨٦٩م) ذهب إلى القاهرة لإعداد لائحة الأطيان بأمر من سعيد الأول، فتولى الإفتاء في أثناء غيابة ابنه محمد محمد البنا.

وكان يقطن طوال مدة إقامته بالإسكندرية في منزل خلف ضريح سيدي محمد الشريف بقسم الجمرك وسمي الشارع الذي به هذا المنزل باسم «شارع البنا».

وانتقل إلى رحمة الله عام ١٢٨٥هـ (١٨٦٨م) بالغًا من العمر حوالي ٨٢ عامًا، ودفن بمسجد سيدي المغاوري (انظر هذه المادة)، وله مقام يُزار بهذا المسجد حتى الآن، وقد رثاه الكتاب والشعراء لما كان عليه من مكانة دينية وصوفية وعلمية عالية المقدار.

وأجد من واجب الوفاء لما كانت عليه أسرة البنا بالإسكندرية من ورع وتقوى وعلم أن أدوِّن هنا سيرة ابن الشيخ محمد صالح البنا الثاني عبد الله البنا الذي أطلق اسمه على حارة بقسم الرمل في الأربعينات من القرن العشرين.

وقد ولد الشيخ عبد الله ابن الشيخ محمد صالح البنا بمدينة رشيد عام ١٢٥١هـ (١٨٣٥م)، حيث حفظ القرآن الكريم وجوَّده، وفي عام ١٢٦٥هـ (١٨٤٨م) أخذ في تلقي العلوم الشرعية والفقهية والنظرية على يد شقيقه الأكبر الشيخ محمد محمد البنا، وعندما رحل إلى الإسكندرية صحبة والده الشيخ

محمد صالح أكبّ على تحصيل العلوم والمعارف وتلقى دروسه على يد والده، وعلى يد الأساتذة الذين كانوا يلقون دروسهم الكبيرة الفائدة في جامع الشيخ إبراهيم باشا (انظر مادة الشيخ إبراهيم باشا) الذي كان يحمل اسم الجامع الأنور منافسة للجامع الأزهر، وكانت تدرس فيه العلوم الدينية والدنيوية وعلم الفلك، وقد جدّ الشيخ عبد الله البنا في التحصيل حتى نال من العلم قسطًا وافرًا.

وفي عام ١٢٧٧هـ (١٨٦٠م) أجازه والده بالإفتاء والتدريس، وإلقاء الدروس الصوفية على الطريقة الخلوتية، ثم حصل على هذه الإجازة خلال عام ١٢٧٩هـ (١٨٧٢م) من الشيخ مصطفى المبلط أحد كبار علماء الشافعية بالأزهر، وبعد أن أدى فريضة الحج عام ١٢٨٤هـ (١٨٦٧م) صحبة والده، وشقيقه أمره، والده بالتدريس في مسجد أبي العباس المرسي، وعقب نقل شقيقه الشيخ محمد محمد إلى منصب الإفتاء بالقاهرة جلس مكانه على سجادة السادة الخلوتية وتصدى لإعطاء العهد الخاص بهذه الطريقة الصوفية وقراءة الأوراد، وفي ذلك الوقت لقِّب بأبي السرور، ولم يتقلد أية وظيفة حكومية وكرّس حياته للتدريس، وقراءة الأوردة، وقد حاز على كسوة التشريفة الدينية العلمية من الدرجة الثانية، وله مؤلفات في قصص الإسراء، والمولد النبوي الشريف، وليلة النصف من شعبان ويوم عاشوراء، وبقيت كل هذه المؤلفات مخطوطة لم تنشر.

وكان الشيخ عبد الله من الورع، والتقوى، والصلاح لدرجة أن جميع أهالي الإسكندرية كانوا يرفعون مقامه إلى مقام الولاية، فكان عندهم جميعًا من أولياء الله الصالحين، وقد شاهدت في صباي مظاهر هذا التبجيل الصادر عن الاحترام العميق، فكان الجالسون في الحوانيت والمتاجر والمقاهي على امتداد المسافة بين بيته بجانب مسجد أبي العباس، ومسجد سيدي المغاوري بالقرب من باب الترسانة يقفون ويُهرعون إليه لتقبيل يده عند ذهابه إلى هذا المسجد لتأدية الصلوات وعند عودته إلى مسجد أبي العباس لإلقاء دروسه.

وتوفي هذا الشيخ التقي الورع عام ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م) ودفن بمسجد سيدي المغاوري بأمر خاص، وله بهذا المسجد مقام يزار حتى الآن، وكانت جنازته مظاهرة دينية كبيرة وكان له من العمر حوالي ٩٢ عامًا.

٧٩٥- الشيخ حسونة - شارع - بقسم مينا البصل

قد يختلط الأمر على قراء هذه الترجمة فيظنون أن المقصود بتسمية هذا الشارع هو الشيخ حسونة النواوي شيخ الجامع الأزهر (أي الشيخ الإسلامي الأسبق)، ولكن بحثي عن صاحب الاسم الحقيقي لهذا الشارع دلّني إلى أحد أولاده هو الأستاذ محمد نصر الدين حسونة الذي كان – وقت بحثي منذ ثلاث سنوات أي خلال عام ١٩٦٧م – برتبة عميد بمديرية الأمن ويشغل وظيفة مساعد مدير الأمن بالإسكندرية، ومن المعلومات التي استقيتها منه اتضح بصفة قاطعة أن الشارع سمي باسم والده الشيخ حسونة حسن بسيوني بن بسيوني عفيفي، وكانت والدته من العائلة الأباظية بالشرفية أي جركسية الأصل.

وقد ولد الشيخ حسونة بالإسكندرية بحي الورديان بقسم مينا البصل خلال عام ١٨٨٤م (١٣٠٣هـ) ودرس بالأزهر إلى أن أرغمه والده على مزاولة التجارة معه، وتتركز في بيع

المواد الغذائية والسلع المصنوعة بالأيدي مثل الخيام والملاحف والحبال والأحذية اليدوية (البلغ) وما إليها من المصنوعات التي تروَّج بين بدو الصحراء الغربية في المنطقة الواقعة بين الإسكندرية ومريوط، ومازال بعض أحفاده يزاولون هذه التجارة نفسها حتى الآن ومنهم من اتخذ تجارة الغلال مورد رزق له.

وكان للشيخ حسونة مندرة يجتمع بها الفقراء وأهل العلم لإحياء الليالي الدينية ولاسيما طوال شهر رمضان من كل سنة، ومازالت هذه المندرة تؤدي رسالتها الدينية حتى الوقت الراهن.

وتوفي الشيخ حسونة بشارع محمد متولي بالمنزل الذي بناه بجهة الورديان، وكانت وفاته في شهر إبريل عام ١٩٥٦م (١٣٧٦هـ) بالغًا من العمر حوالي ٧٢ عامًا، مما يدل على أنه عمَّر بعض الوقت.

وكان الشيخ حسونة يسبق زمانه من حيث التحرر الفكري، فإحدى بناته ناظرة حضانة الورديان، والأخرى مدرّسة بمدرسة عرفان الإعدادية بمحرم بك، أما أولاده الآخرون فهم: محمود الذي تعلم بالأزهر، ثم زاول التجارة، وعبد الحليم وكان كاتبًا أولاً بالحجر البيطري، ومحمد نور الدين ويزاول التجارة هو الآخر.

٧٩٦- الشيخ حسين سليمان - شارع - بقسم المنتزه

ولد الشيخ حسين سليمان بالإسكندرية في تاريخ لم أستطع الوقوف عليه، وقد نزح والده الشيخ سليمان إلى الإسكندرية صغير السن وكان موطنه الأصيل مدينة بنها واسم جده عبد الوهاب.

وتلقى الشيخ حسين تعليمه الديني بجامع الشيخ الذي شيده بالإسكندرية إبراهيم باشا الشيخ (انظر هذه المادة) ليضارع بالجامع الأزهر، وكان هذا الجامع يسمى الجامع الأنور في السنوات الأولى من إقامته لينافس الجامع الأزهر في رسالته الدينية الثقافية.

وبدأ الشيخ حسين حياته العملية بالتدريس بمدرسة مكارم الأخلاق الإسلامية هو والشيخ حسين أبو علي (انظر هذه المادة)، إذ كان الاثنان من مؤسسيها، وبقي الشيخان يمارسان التعليم إلى أن ضمت المدرسة إلى مدارس جمعية العروة الوثقى عند تكوينها، وبعد فترة من الزمن عُيِّن الشيخ حسين ناظرًا لمدرسة أبي بكر الصديق براغب باشا، ورقِّي بعد ذلك إلى وظيفة مفتش أول اللغة العربية لمدارس العروة الوثقى التي انتشرت بالإسكندرية، ومن جهة أخرى كان الشيخ حسين سليمان عبد الوهاب من أعلام الأدب بالمدينة.

ووافته المنية خلال عام ١٣٦٤هـ (١٩٤٤م) بالغًا من العمر ٦٠ عامًا، أي أنه ولد في حوالي عام ١٢٦٠هـ (١٨٨٤م)، وكان من أوائل الذين أقاموا مساكنهم بمنطقة سيدي بشر التي أصبحت مصيفًا مشهورًا بجوها وبحرها.

٧٩٧- الشيخ خفاجة - شارع - بقسم كرموز

هو الشيخ خفاجة سيف الله إبراهيم بن محمد بن عمر بن خفاجة الإسكندري المالكي، ولد عام ١٢٤٥هـ (١٨٢٩م)

وتلقى العلم بالأزهر، وأخذ عن مشاهير علماء عصره كالشيخ مصطفى البولاقي والشيخ إبراهيم الباجوري، ثم أقام بالإسكندرية وأتم علومه بجامع الشيخ (انظر هذه المادة) ثم اشتغل بالتدريس في هذا الجامع الذي كان ينافس الأزهر في تعليم اللغة العربية والفقه والفلك، وقد تخرج على يدي الشيخ خفاجة كثيرون من طلاب العلم، ويظهر أن عبد الله النديم وعبد العزيز جاويش (انظر هاتين المادتين) قد حضرا عليه الدروس، كما كان أستاذًا للمشايخ إبراهيم وحسن ومحمد، أولاد الشيخ سليمان باشا الشيخ ابن إبراهيم باشا الشيخ (انظر هاتين المادتين) الذي أنشأ جامع الشيخ من ماله وأوقف عليه الكثير من أملاكه، وبنى للطلبة بيتًا خلف الجامع أطلق على الشارع الذي كان به هذا البيت «شارع طلبة العلم».

وتوفي الشيخ خفاجة خلال عام ١٣١٠هـ (١٨٩٢م) بالإسكندرية.

٧٩٨- الشيخ الدواخلي - شارع - بقسم مينا البصل

نشأ هذا الشيخ نشأة مضطربة عجيبة، وبدأ حياته على غرار عادة أهل زمانه بالتعليم في الأزهر، حيث لازم كبار العلماء ولاسيما الشيخ الشرقاوي (انظر هذه المادة) إلى أن تأهل للتدريس، ولما جاءت الحملة الفرنسية مصر عام ١٢١٣هـ (١٧٩٨م) لم يظهر لرجالها العداء، بل أقبل عليهم وأقبلوا عليه فأفاد من وراء ذلك أجزل الفائدة، ثم جمع بعد ذلك ثروة كبيرة، وذلك عندما قتل الفرنسيون عديله الحاج مصطفى البشتيلي الذي قاد الثورة ضدهم في حي بولاق واستشهد في سبيل الدفاع عن وطنه، وعقب إعدام البطل البشتيلي، استولى الشيخ الدواخلي على ثروته وما كان له من مال لأنه لم يترك وارثًا.

وأخذ الشيخ الدواخلي يتجسس على أصحاب نعمته الفرنسيين، ويزود السيد أحمد المحروقي (انظر مادة المحروقي) بأخبارهم، وكان المحروقي مهاجرًا مع السيد عمر مكرم (انظر مادة عمر مكرم)، وملازمًا للجيش التركي في الشام، وكان المحروقي ومكرم لم يخضعا للحكم الفرنسي عقب انتصاره على الثورة في البلاد فصحبا جيش إبراهيم باشا الكبير في تقهقره صوب الشرق، ثم إلى الشمال نحو المنصورة، ثم إلى سيناء، حيث انهزم هذا الجيش، هو وجيش الأتراك في ١٧ فبراير عام ١٧٩٩م (١٢١٤هـ) فلجأ الاثنان إلى مدينة «يافا» إلى أن غزاها نابليون بونابرت.

فلما رحل الفرنسيون عن مصر في يوليو وسبتمبر عام ١٨٠١م (١٢١٥هـ)، وعاد الجيش التركي إليها قدَّم السيد أحمد المحروقي الشيخ الدواخلي إلى القائد المنتصر يوسف باشا، وأعلى من ذكره عند رجال الدولة فبرز اسمه منذ ذلك الحين في الحركات السياسية، وصار من المقربين لدى رجال الحكم ومن الطامعين في مكان الصدارة إلى أن حدثت الجفوة بين محمد علي والسيد عمر مكرم بسبب الوقيعة التي قام بها الشيخان الدواخلي والشرقاوي عند محمد علي في حق عمر مكرم لأنهما كان يخفيان في طويتهما أطماعًا، ويبيّتان لعمر مكرم الغدر، وكان ذنبه عندهما أنه كان يشغل مكان الصدارة الذي يتطلع كل منهما إليه.

وحدث أن أعد محمد علي قائمة حساب ليرسلها إلى تركيا وذكر فيها مبالغ قال إنه جباها من الناس وفاقًا لأوامر

قديمة أصدرها يوسف باشا الصدر الأعظم حينما كان بمصر أيام الحملة الفرنسية وطلب من الزعماء والعلماء تذييلها بأسمائهم، فرفض عمر مكرم التوقيع عليها، وكان الشيخ الدواخلي أحد الذين ذيلوها بتوقيعاتهم كشهود على صحة قول محمد علي.

ثم كان الشيخ الدواخلي ممن عملوا جاهدين على نفي السيد عمر مكرم إلى دمياط في ٢٧ جمادى الآخرة عام ١٢٢٤هـ (١٠ أغسطس ١٨٠٩م)، ومهدوا لمحمد علي بذلك اتخاذ الخطوة الثانية في سبيل انفراده بالحكم المطلق للبلاد وإبعاد الشعب عن الإشراف على شؤونها.

ونال الشيخ الدواخلي الحظوة إثر نفي عمر مكرم عند محمد علي، ولما توفي الشيخ السادات (انظر مادة السادات) – الذي كان قد أعيد إلى تقلد نقابة الأشراف بعد نفي السيد عمر مكرم – خلع محمد علي على الدواخلي وظيفة نقيب الأشراف.

وكان محمد علي قد عمم الضرائب، فلم يستطع العلماء أو الأعيان الوقوف في وجهه بسبب خضوع الدواخلي لحكمه وتأييده له.

واتفق أن تجرأ الدواخلي على محمد علي ببعض القول، وتجرأ على بعض أتباعه، فخاشنهم وآلمهم في بعض محاوراته، فسعوا به لدى محمد علي وأوغروا صدره عليه فنفاه إلى مدينة دسوق، ثم نقله إلى المحلة الكبرى حيث قبع في عقرها لا ينقطع عن الشكوى والأنين والاسترضاء دون أن يستجيب الباشا لشكواه وأصر على رفض رجائه.

وظلّ بالمحلة الكبرى يعاني ألم النفي والحرمان، إلى أن وافته المنية بعد أن عاد إلى القاهرة، وكانت وفاته خلال عام ١٢٣٤هـ (١٨١٨م).

وحبذا لو استعاضت لجنة تسمية الشوارع بمحافظة الإسكندرية عن اسم الشيخ الدواخلي باسم عديله الشهيد «مصطفى البشتيلي» الذي استولى الدواخلي على ماله، وما كان له لدى الفرنسيين من نقود اغتصبوها من قبل الغدر به وإعدامه، فتكون اللجنة بذلك قد وضعت الأمور في نصابها العادل.

٧٩٩– الشيخ سليم البشري – شارع – بقسم الجمرك

ولد الشيخ سليم البشري عام ١٢٤٨هـ (١٨٣٢م) في محلة بشر من أعمال مركز شبراخيت من مديرية البحيرة (محافظة البحيرة حاليًّا)، ولما بلغ التاسعة من عمره حضر إلى القاهرة، وكان قد أتم حفظ القرآن، وبعد أن أتم تعلمه في الأزهر تولى التدريس فيه، ثم عُيِّن شيخًا لمسجد السيدة زينب وبعد ذلك ببضعة أعوام عُيِّن شيخًا ونقيبًا للسادة المالكية، ثم اختير عضوًا في مجلس إدارة الأزهر، وقد تولى مشيخة الأزهر مرتين.

وكان مشهورًا بتبحره في علوم الحديث، ولذا كان قبلة الفقهاء والراغبين في الكشف عن الحقائق الدينية ولاسيما في الفقه المالكي، والحديث، والتفسير، وهي المواد التي كان يقوم بتدريسها.

وكان يمتاز بروح أدبية رفيعة، ويطرب لسماع الشعر ويهتز له، وكانت له مكتبة ضخمة تضم نفائس الكتب الدينية والفقهية إلى جانب كتب الأدب ودواوين الشعر الجاهلي والإسلامي، وقد أفاد من هذه المكتبة القيمة ابنه الشيخ عبد العزيز البشري (انظر هذه المادة) واستوعب منها ما وسعه قدرة استيعابه، ولشغف الشيخ سليم بالأدب قام بشرح قصيدة نهج البردة، لأنه كان شديد الإعجاب بأمير الشعراء أحمد شوقي (انظر مادة أحمد شوقي بك) ناظمها، وعلق عليها، ونشرها في كتاب اسمه «وضح النهج».

وإلى جانب هذه الخصال العلمية الغزيرة، كان الشيخ سليم محسنًا شديد العطف على الفقراء والمحرومين، وكان لهم من مرتبه قدر معلوم كل شهر، وقد لبى نداء ربه خلال عام ١٣٣٦هـ (١٩١٧م) بعد أن عمر ما يقرب من تسعين عامًا.

ورثاه شاعر النيل حافظ إبراهيم بقصيدة ألقاها عند دفنه في ١٧ أكتوبر سنة ١٩١٧م (١٣٣٦هـ) عدد فيها من مناقبه فقال:

فَمَا في الناطقينَ فَمٌ يُوَفِّي
عَزَاءَ الدِّين في هذا المُصابِ

قَضَى الشيخُ المحدِّثُ وهو يُمْلِي
على طُلاَّبهَ فَصْلَ الخِطابِ

ولم تَنْقُصْ لَهُ التِّسْعونَ عَزْمًا
ولا صدَّتْهُ عَنْ دَرْكِ الطلابِ

وما غالَتْ قريحَتَهُ الليالي
ولا خانَتْهُ ذاكرةُ الشَّبابِ

٨٠٠- الشيخ طموم - شارع - بقسم مينا البصل

أسرة طموم من أقدم الأسر التي برزت في العلوم والمعارف بمحافظة المنوفية، وعملت جهد الطاقة على نشرها في أرجاء المحافظة بأسرها، ومن بين أفرادها اثنان من خريجي دار العلوم، والثالث ترك الدار قبل حصوله على إجازة التدريس، والرابع كان عالِمًا أزهريًّا من أجلّ العلماء، وفيما يلي ترجمة الشيخين محمد ومصطفى طموم:

١) **الشيخ محمد طموم**: ولد في بلدة شبرا باص مركز شبين الكوم، وحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة ثم تولى تعليمه وتثقيفه جده الشيخ محمد طموم الكبير، وعندما آنس فيه الذكاء والاستعداد لاستيعاب العلم كلفه بحفظ مجموعة المتون وشرح له مبادئ الدراسات الأزهرية، ثم أرسله إلى الأزهر ليتم تعليمه، وحصل الشيخ محمد طموم على شهادة العالمية من الدرجة الأولى في ١٥ من المحرم عام ١٢٨٩هـ (١٨٧٢م) في عهد الشيخ محمد المهدي العباسي (انظر مادة المهدي العباسي) شيخ الجامع الأزهر في ذلك الحين، وكان عمره ٢٢ عامًا، ومن ثَمَّ يكون قد ولد عام ١٢٦٧هـ (١٨٥٠م)، وعند تكوين هيئة كبار العلماء كان الشيخ محمد طموم في طليعة من اختيروا لهذه الهيئة الجليلة، وتولى - علاوة على ذلك - مشيخة المالكية ومفتيها، وكان زميلاً لسعد زغلول في التلمذة على يد الشيخ محمد عبده، وقد كان هو والإمام محمد عبده عضوي اللجنة الوحيدة

المتخصصة في القيام بامتحان طلبة الشهادة العالمية، ولدى افتتاح مدرسة القضاء الشرعي كان الشيخ محمد طموم أول من اختير للتدريس فيها، وتخصص في تدريس علمي الحديث والتوحيد، ووافته المنية في ١٤ من رمضان عام ١٣٣٦هـ (٢١ من يونية عام ١٩١٨م) بالغًا من العمر ٦٨ سنة.

٢) **الشيخ مصطفى طموم:** ولد بقرية شبرا باص مركز شبين الكوم عام ١٢٧٢هـ (١٨٥٥م) وتخرج في دار العلوم عام ١٣٠١هـ (١٨٨٣م)، وعُيِّن بنظارة المعارف في ٢٦ من مايو من العام نفسه في وظيفة مدرس بالمدرسة الخديوية بالقاهرة، ثم نقل إلى مدرسة طنطا الابتدائية إثر سوء تفاهم حدث له مع جعفر والي باشا، ومكث في هذه المدرسة إلى أن نقل إلى مدرسة عباس للبنين، وكان الشيخ مصطفى طموم رسولاً من رسل النهضة الحديثة وعلمًا من أعلام عصره، لعلمه بأسرار اللغة العربية وسعة اطلاعه وغزارة مادته، إذ كان كثير القراءة في كتب الأدب واللغة، كما كان متفانيًا في خدمتها عاملاً على إحيائها ونشرها، وكان في طليعة من بسَّطوا قواعد اللغة بالكتب المشهورة ليسهل على النشء تناولها واستيعابها، وظلّ في عمله نحو ٣٢ عامًا حتى أحيل على التقاعد في ٥ من يناير عام ١٩١٥م (١٣٣٤هـ)، وتوفي في ٨ من أكتوبر ١٣٥٤هـ (١٩٣٥م) عن ثمانين سنة، وظلّ طوال الأعوام العشرين التي قطعها بالمعاش مثابرًا على القراءة والاطلاع وقرض الشعر وتحرير الرسائل وتفسير القرآن الكريم.

ومن مؤلفاته: كتاب «سراج الكتبة»، وكتاب «تحفة الأحبة» وكلاهما في رسم الحروف، واشترك في تأليف كتب الدروس النحوية للمدارس الابتدائية والثانوية، ودروس البلاغة مع الأساتذة: محمود عمر وحفني ناصف ومحمود دياب، وكان هذا الكتاب القيم يدرس بالمدارس الثانوية حتى الحلقة الثالثة من القرن العشرين.

٨٠١- الشيخ طنطاوي جوهري - شارع - بقسم كرموز

٨٠٢- الشيخ طنطاوي جوهري - شارع - بقسم العطارين

ولد الشيخ طنطاوي جوهري عام ١٢٨٧هـ (١٨٧٠م)، بكفر عوض الله حجازي بمديرية الشرقية (محافظة الشرقية حاليًا) ونشأ به، وكان يزاول الأعمال الزراعية وتلقى تعليمه الأولى في قرية «الغار» بلد جدته لأمه، وكان مشهورًا بجودة الحفظ والذكاء المفرط، ثم سافر إلى القاهرة والتحق بالأزهر، ثم دخل دار العلوم وتخرج فيها عام ١٣١١هـ (١٨٩٣م)، وعين عقب تخرجه مدرسًا بدمنهور، ثم نقل مدرسًا بدار العلوم، فمدرسًا بمدرسة «الخديوية»، ودرس بعد ذلك بالجامعة المصرية، وأكبَّ على تعلم اللغة الإنجليزية أثناء تدريسه «بالخديوية»، وقد انتفع بهذه اللغة في تأليفه إلى حد بعيد، وكان الشيخ طنطاوي عالمًا وأديبًا فيلسوفًا، وترك من المؤلفات عددًا كبيرًا من الكتب القيمة، وكان علمه لا ينحصر في دائرة محدودة، بل كان في إلقاء دروسه كالقاموس الذي يحيط بكل ألوان الثقافة علمًا، وقد طُلِبَ لتولي أحد مناصب القضاء فرفض، وكان رئيسًا لجمعية المواساة الإسلامية بالقاهرة، وتولى رياسة تحرير «مجلة إسلامية» مدة من الزمن، وعاش نحو ٧٠ عامًا، وهو صحيح الجسم، معافى البدن، قوي الذاكرة، مشرق المحيا، بفضل ما اختطّ من نظام صحي خاص بعد إحالته على التقاعد، وحينما كان مدرسًا

بدار العلوم كان يحلِّق في درسه كالطائر في قفص يحاول أن يرد نفسه إلى حدود المنهج الدراسي، فلا يطاوعه علمه، ولا يساعده تبحره، فكان يقرر المسألة فيستشهد في شرحه بصغار الهوام والحشرات، ثم يرتفع بطلابه في أجواء من عالم الفلك والسماوات، فلا يكاد ينتهي من الدرس حتى يشعر تلاميذه أنهم قاموا برحلة جوية بعيدة المدى شاهدوا خلالها عالم السماوات، وفي درس آخر يجعلهم وكأنهم طافوا بالحقول فتأملوا غرائب النبات أو تنقلوا بين السهول والجبال، فأدركوا عجائب الكائنات، وكل ذلك في عبارات سلسة، عذبة الجرس، حلوة السياق، فيها من الحكم ما يستوجب الوقوف عنده والتأمل في معانيه، وكان هذا شأنه في جميع الدروس التي كان يلقيها على طلبته في جميع مراحل التعليم التي مارسها، أما مؤلفاته، فالقارئ يتصفحها فلا يتعثر في لفظة، ولا يستصعب فكرة، فكأنه فيما يكتب يقص على قارئه ألذ الحكايات وأغرب الوقائع، ويجوب به الآفاق، ويخترق الحجب ويغور وينجد، ثم لا يجد قارئه صعوبة في تفهم كل ذلك، وإذ به يحس أنه أمام مشاكل علمية ونظريات دقيقة ونتائج مدهشة، ما كان له ليدركها لو لم يقرأ ما كتبه هذا العالم في طيات مؤلفاته، ولقد ذاعت شهرته العلمية فإذا حل سائح شرقي بمصر سأل عن الشيخ طنطاوي الجوهري كما يسأل السائح الأجنبي عن الأهرام أو أبي الهول، فكان معروفًا في إيران والهند والصين وإندونيسيا وبلاد العرب والتركستان، وقد يسمي أهل تركستان مدارسهم وجامعاتهم وكتبهم باسمه فيقولون «جامعة طنطاوية» و«مدرسة جوهرية» و«عقائد جوهرية» لما يرون فيه من رمز لحجة الإسلام، والواقع هو أن الشيخ طنطاوي جوهري لم يكن عالِمًا كسائر العلماء، بل كان ممتازًا في جميع النواحي، فهو عالم ديني إسلامي وطني، وهو عالم اجتماعي عالمي جمع بين الثقافتين الدينية والحديثة، ومزج المسائل الدينية بالآراء الاجتماعية والسياسية.

وقد جاهد ما وسعه طاقته بقلمه وبرأيه في رفعة شأن الإسلام والانتصار لمبادئه، مظهرًا في وضوح مشرق أنه دين العقل والتجديد وليس دين التسليم والتقليد، ومن ثم فهو يهدف في كل أحاديثه وتآليفه إلى التوفيق بين العلم وبين ما جاء به القرآن، وإلى أن العلم إذا حسن فهمه كان أداة صالحة لتفهم روح الدين، وكان الشيخ من أخلص الناس لقضية مصر واستقلالها منذ فجر النهضة إلى وقت وفاته، فهو أحد قادة النهضة السياسية والدينية ومن رؤساء الحركة السياسية والاجتماعية، ففي مؤلفيْه، «نهضة الأمم وحياتها»، و«نظام العالم والأمم» يندد بالدول التي تؤسس كيانها الدولي على أسنة الحراب وقصف المدافع، وتخريب البلاد، ودك الحصون، ذلك لأنه يتمنى أن تقيم الدول حياتها على تبادل المنافع والمحبة والإخاء، كما كان يرى سقراط، وهو في ذلك يوافق الرأي الذي يتشدق به بعض الدول الاستعمارية لتخدع الرأي العالمي بألفاظ الديمقراطية والإخاء والمساواة، وهو بعد يبغي من صميم قلبه أن تكون الجماعة الإنسانية أسرة واحدة يسودها السلام، ولا يفرق بينها لغة أو دين، ولا تفصلها عن بعضها جبال وبحار ومحيطات، ولا يبعدها عن الانسجام خطوط دفاع وهجوم، وقد كانت للشيخ الجليل أحلام في السياسة ويرجو أن يحل مشكلة السلام في العالم وهي المشكلة التي ينوء بها مجلس الأمن حتى الآن، فكان كما يقول بعض علماء الغرب في كتابه «أين الإنسان» يرسم للعالم بأسلوب فلسفي عميق طريقه السوي إلى السلام المستقر

الدائم الذي رسمه الله تعالى بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ .

وكان آخر مؤلفاته – وهو بالتقاعد – تفسيره الموسوم «بالجواهر» وقد أتم تفسير القرآن الكريم في خمسة وعشرين مجلدًا ، ثم كتب المجلد السادس والعشرين لاستدراك ما فاته ، وفي هذا التفسير طبّق القرآن على النظريات الحديثة واستخرج النظرية العلمية من نصوص كتاب الله فجاء تفسيره مزيجًا من علوم الأمم قديمها وحديثها ، مع التوفيق بين الآراء الحديثة والأفكار الدينية ، ولاسيما في مسألة الأرواح التي ألف فيها كتابًا ، وقد ترجم تفسيره إلى اللغة الأوردية فأقبل عليه أهل الهند إقبالاً منقطع النظير ، هذا وقد ترجم معظم مؤلفاته إلى اللغات الأوروبية واللغات الشرقية خاصة ، وقد ترك نحو ثلاثين مؤلفًا منها: «الأرواح» ، و«أصل العالم» ، و«أين الإنسان» ، و«التاج المرصع بجواهر القرآن والعلوم» وينقسم إلى ٥٢ بابًا أو جوهرة ، و«جمال العالم» وهو سلسلة من الدراسات في الحيوان والطير والهوام والحشرات ، و«جواهر التقوى» ، و«جواهر العلوم» ، و«النظر في الكون بهجة الحكماء وعبادة الأذكياء» ، وكثيرًا من الرسائل منها: «الحكمة والحكماء» ، و«ما المقصود من العالم» ، و«وجهة العالم واحدة وهي النظام العام» ، وقطع شعرية معربة من الإنجليزية ، وجملة قصائد ، ومن مؤلفاته أيضًا: «الزهرة في نظام العالم والأمم» ، و«السر العجيب في حكمة تعدد أزواج النبي» ، و«سوانح الجوهري» ، و«مذكرات في أدبيات اللغة العربية» ، و«ميزان الجواهر في عجائب هذا الكون الباهر» ، و«نظام العالم والأمم أو الحكمة الإسلامية العليا» وهو في جزأين ، و«النظام الإسلامي» ، و«نهضة الأمة وحياتها» ، و«الجموع ونصوص الكلم» ، و«التفسير المسمى بالجواهر» ، وهو موسوعة علمية إسلامية حديثة أكثر فيها من الكلام عن العلوم الحديثة كالفلك والنبات والحيوان .

٨٠٣– الشيخ طه محمد – شارع – بقسم الجمرك (ابن أبي حاتم سابقًا)

يعتبر الشيخ طه محمد من أوائل المفكرين في إرساء دعائم التعليم الحر بمدينة الإسكندرية ، وقد صادفت مدرسته نجاحًا باهرًا في المحيط الإسكندري ، وتخرج على يديه طائفة كبيرة من المثقفين الذين شغلوا المناصب الهامة في الدولة بعد أن أتموا تعليمهم العالي بالمعاهد العليا أو الجامعات .

وينتمي الشيخ طه محمد إلى أسرة قاهرية الأصل تحمل لقب «المُسَلَّمي» ، وقد نزح بعض فروعها إلى الجنوب حتى أسوان ونزح البعض الآخر إلى مختلف المحافظات ، واستقر جدّ الشيخ محمد طه محمد بالإسكندرية حيث ولد الشيخ في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي .

وبما أن الباقين من أفراد أسرته في قيد الحياة يؤكدون أن الشيخ طه الذي توفي عام ١٩١٩م (١٣٣٨هـ) قد تجاوز المائة عام من العمر ، فإن ميلاده يكون قد حدث في الأعوام العشرة الأولى من القرن التاسع عشر .

وبدأ الشيخ طه تعليمه في أحد الكتاتيب كعادة طالبي العلم في ذلك الحين ، ثم التحق بجامع الشيخ إبراهيم باشا الذي كان ينافس الجامع الأزهر ، بما كان يقدمه للطلبة من علوم دينية ودنيوية (انظر مادة الشيخ إبراهيم باشا) ، وبعد أن أتم تعليمه الثانوي بهذا الجامع ، التحق بالأزهر إلى أن حصل

على شهادة «العالمية»، ثم عُيِّن مدرسًا للغة العربية بمدرسة رأس التين في أول نشأتها، وكان لا يقتصر في التعليم على اللغة العربية بل كان يلقن تلاميذه العلوم الدينية والمبادئ الوطنية، مما أدى إلى انتقاد الناظر والمفتشين ولاسيما الإنجليز منهم، وعلى رأسهم مستشار نظارة التعليم في ذلك الحين المستر «دانلوب» الذي كانت مهمته الأساسية الحيلولة دون انطلاق نظم التعليم في البلاد مما يتعارض ومصالح سياسة الاحتلال الإنجليزي البغيضة.

وإزاء هذا الحَجر الخبيث على حرية التعليم لم يجد الشيخ طه محمد بُدًّا من تقديم استقالته من التعليم الحكومي، وتوجيه نشاطه الثقافي إلى التعليم الحر، فبادر إلى إنشاء المدرسة التي عرفت باسمه عند ناصية التقاء شارع رأس التين بشارع صفر باشا، أمام الفرن الذي مازال يعرف باسم «فرن حبيب» حتى الآن.

وكانت هذه المدرسة العتيدة تضم في أول أمرها قسمين أحدهما للتعليم الابتدائي، والآخر للمرحلة الأولى من التعليم الثانوي التي تؤهل إلى الحصول على شهادة الكفاءة، وكانت مواد التاريخ والجغرافيا والأشياء (وهي المعلومات العامة حاليًا) تدرّس بإحدى اللغتين الإنجليزية أو الفرنسية، ويدل على أن الشيخ طه لم يقصر في تزويد مدرسته بنخبة طيبة من المدرسين الأكفاء، أنه لم يمض غير وقت قصير على افتتاح المدرسة حتى ازدحمت فصولها بأبناء الطبقتين الراقية والمتوسطة بمدينة الإسكندرية، إلى جانب أبناء الطبقة المتواضعة الذين لم يبخل الشيخ طه بمد ظل رعايته الرحيمة عليهم، وذلك بقبولهم إما بنصف مصروفات أو بالمجان قدر طاقة الاستيعاب منهم.

ولم يكن هذا المعلم الجاد من أوائل من أقاموا دعامات التعليم النظامي الحر للبنين فحسب، إذ كان في الوقت نفسه أول من أنشأ مدرسة نظامية للبنات بالإسكندرية بجانب مدرسة البنين، ومن ثَمَّ أصبح أول مدير لمدرستين تضمان الراغبين في العلم من الجنسين، وصار يدعى «بالشيخ طه محمد خوجة» أي الشيخ طه المدرس بالتركية.

ويظهر أن اهتمامه الكبير بمدرسة البنين جعله يتنازل عن مدرسة البنات بعد عدة سنوات من افتتاحها لرجل يدعى رجب أفندي زوج فاطمة هانم التي كانت إحدى مدرسات هذه المدرسة التي عرفت بعد ذلك «بمدرسة فاطمة هانم خوجة» أو مدرسة «خوجة هانم»، وقد تخرجت على يدي هذه السيدة الفاضلة طائفة كبيرة من بنات الإسكندرية المثقفات يحملن الشهادة الابتدائية، وقد كسرن بذلك الحواجز التي كانت تحول دون تعليمهن إلا في منازل «المعلمات» أمثال «تيزه عائشة» بشارع الجزايرلي بقسم الجمرك، وكان التعليم في كتّابها النسائي مقصورًا على تحفيظ قصار السور من القرآن الكريم وأشغال التطريز على المنسج ومعرفة مبادئ القراءة والكتابة.

وقد حقق الشيخ طه محمد ما كان يصبو إليه من نجاح في التعليم الحر، فعقب افتتاح مدرسته ازدحمت فصولها الابتدائية والثانوية بأبناء معظم الأسر السكندرية المعروفة، ومن بينها عائلات: خطاب وحداية وغانم وأبو هيف وأبو الخير وقناوي والديب والعباني والعبادي وجميعي وسوكة وغربال وقرة والمسيري وبدوي وهنو وجنينة والسنهوري واللقاني وذهبي وزهدي والناضوري والجزايرلي ومحمد سعيد والنقراشي.

وقد تخرج منها طائفة وصل أفرادها إلى مناصب الدولة الرفيعة أمثال محمود فهمي النقراشي رئيس الوزراء الأسبق، والدكتور عبد الحميد بدوي وكيل محكمة العدل الدولية، وحسين فهمي، والدكتور نجيب قناوي، والدكتور عبد السلام ذهني المشرع القانوني، ومحمد المفتي الجزايرلي رئيس محكمة النقض ووزير الأوقاف، ومحمد شفيق غربال، والدكتور عبد الرزاق السنهوري، وحسين سري رئيس الوزراء الأسبق، وكل هؤلاء تلقى تعليمهم الابتدائي والمرحلة الأولى من تعليمهم الثانوي بمدرسة «الشيخ طه» التي ظلت تؤدي رسالتها التربوية النافعة أكثر من نصف قرن.

ولم يكن بالإسكندرية وقت إنشاء «مدرسة الشيخ طه» غير مدرسة أهلية أخرى هي مدرسة «فالون Valon»، وهو رجل فرنسي أنشأ مدرسته بشارع الترسانة الواقع خلف سور الدائرة الجمركية، ويمتد من باب الواردات إلى أن يتقاطع مع شارع رأس التين عند مدرسة رأس التين الأميرية القديمة، وكان المسيو «فالون Valon» يدرس اللغة العربية واللغة الفرنسية وتساعده في التدريس إحدى بناته، وكانت الأسر الميسرة تسارع إلى إرسال أبنائها إلى هذه المدرسة تظاهرًا بالثراء ومجاراة الحضارة الأوروبية، فلما افتتحت مدرسة الشيخ طه محمد تحول هذا التيار إليها، ومن ثَمَّ لم يستطع المسيو فالون مواصلة المنافسة للشيخ طه فباع مدرسته إلى جمعية العروة الوثقى التي أطلقت عليها اسم «مدرسة إبراهيم الأول الابتدائية»، وظلت هذه المدرسة خلف سور الترسانة إلى أن نقلت إلى مبناها بجهة مسجد طاهر بك في نهاية شارع الحجازي بالقرب من خليج الأنفوشي، وظلت هناك إلى أن نقلت إلى مبناها الجديد بالقرب من مكان مدرسة رأس التين الأميرية عند ملتقى شارع الترسانة بشارع رأس التين.

ولقد شجع قيام مدرسة «الشيخ طه» بالتعليم الحر بعض الجمعيات الخيرية على إنشاء مدارس التعليم الابتدائي للبنين والبنات في الإسكندرية وفي غيرها من مدن القطر المصري، فافتتحت مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية وتعددت مدارس «العروة الوثقى» ومدارس المساعي المشكورة بطنطا وغيرها من المدن الداخلية، وهكذا كان الشيخ طه أحد مؤسسي التعليم الحر بالقطر المصري الذي ساعد إلى حد بعيد على انتشار التعليم الابتدائي في مصر، على الرغم من محاربة الإنجليز لمشروعاته المفيدة وعلى رأسهم «المستر دانلوب» مستشار نظارة المعارف العمومية في ذلك الحين البغيض.

فجمعية العروة الوثقى واصلت تقدمها السريع في إنشاء المدارس الابتدائية، فأقامت مدرسة عباس الثاني في حي اللبان بشارع الخديوي الأول، ومدرسة سعيد الأول بمحرم بك وتشغلها مدرسة العباسية الثانوية حاليًّا، ومدرسة رياض بمحطة فلمنج بالرمل، ومدرسة تranديل هانم للبنات بالرمل أيضًا، ثم شيدت مدرسة محمد علي الصناعية بالشاطبي، والملجأ العباسي للأيتام ثم المدرسة الثانوية للبنين، وهكذا غطت هذه الجمعية المحسنة كافة أنحاء مدينة الإسكندرية بمدارسها الحرة التي خرّجت جيلاً هائل العدد من المتعلمين، واصل أكثرهم دراسته الثانوية ثم العالية، وناقشتها الجمعية الخيرية الإسلامية في تعدد المدارس الابتدائية، مما كان له أحسن الأثر في رفع مستوى التعليم الابتدائي بالإسكندرية وفي بعض المدن الأخرى.

وعندما طبقت نظارة المعارف نظام فصل التعليم الابتدائي عن الثانوي اضطر الشيخ طه محمد إلى قَصْر التعليم في مدرسته العتيدة على الفصول الابتدائية لنيل شهادتها، فكان التلاميذ يخرجون من مدرسته أقوياء في اللغة العربية وإحدى اللغتين الفرنسية أو الإنجليزية، وكان ذلك سبب نجاحهم في الحياة الفكرية واعتلاء عدد كبير منهم مناصب القيادة في الدولة.

وظلت مدرسة الشيخ طه ترفع شعلة التعليم الابتدائي المتين إلى أن خبت شعلة حياته الطموحة المكافحة خلال عام ١٩١٩م (١٣٣٨هـ) وقد تخطى العام المائة من عمره.

وعندما اقتصرت المدرسة على التعليم الابتدائي، سميت المدرسة الابتدائية المصرية (طه محمد)، وعقب وفاة الشيخ طه تولى ابنه الأكبر إدارة المدرسة التي بقيت تؤدي رسالتها التربوية النافعة حتى عام ١٩٤٠م (١٣٥٩هـ) وذلك عقب وفاة ابنه الأصغر.

وكانت مدرسة الشيخ طه تمنح إعانة سنوية من القومسيون البلدي وتحصل على إعانة رمزية من وزارة الأوقاف، بينما لم تمنحها نظارة المعارف أو وزارة المعارف أية إعانة، وذلك بسبب مناهج التعليم الوطني التي كانت تدرس بها، والتي لم يكن توافق مزاج الوزارة في ذلك العهد الاستبدادي عهد الاحتلال والتسلط الأجنبي على مقدرات الوطن وسلوك المواطنين.

وكان الشيخ طه محمد زاهدًا في مناصب الشرف فقد رفض رتبة البكوية التي عرضها عليه الخديوي عباس الثاني، كما رفض قبول امتلاك قطعة شاسعة من الأرض بصفة هدية، وقد أنعم عليه السلطان عبد الحميد بالنيشان المجيدي.

ولم تكن مدرسته ركيزة من ركائز التعليم في المدينة فحسب بل كانت مقرًّا لرجال العلم والدين يجتمعون كل ليلة في كنفه فيتناقشون في الأمور الدينية والعلمية والأدبية، وكانت هذه المنتديات الثقافية تضم كبار رجال التعليم وكبار علماء العهد الديني، وعلى رأس هؤلاء وهؤلاء الشيخ حمزة فتح الله والشيخ عبد المجيد اللبان ومحمد سعيد وإسماعيل سري وكثير من المستشارين ورجال القضاء الأهلي والشرعي.

ومن مآثر هذا الرجل الخيِّر أنه كان يُظِل الأيتام برعاية خاصة، فكان إذا أتموا دراستهم عنده سعى معهم إلى توظيفهم، لما كان له من مكانة مرموقة عند أولياء الأمور في المصالح الحكومية التي كان الكثير منها يتخذ مقره الرئيسي بالإسكندرية، كالجمارك والحجر الصحي والموانئ والمنائر والبوسطة والمحافظة والبلدية.

ولم يهمل الشيخ طه محمد تربية أولاده فكان منهم محمود حمدي الذي تولى سكرتارية المحكمة المختلطة، وحسين سري، وقد تولى سكرتارية محافظة الإسكندرية ومن ذريته الأطباء والمهندسون والقانونيون وغيرهم.

٨٠٤- الشيخ عبد المجيد اللبان - شارع - بقسم الجمرك

ولد الشيخ عبد المجيد اللبّان في بلدة «سنديون» مركز فُوَّه بمحافظة كفر الشيخ عام ١٨٧٠م (١٢٨٧هـ)، وأصل أسرته من أشراف مكة نزحت إلى القطر المصري منذ القرن الخامس عشر الميلادي عن طريق ميناء القصير على البحر الأحمر، واستقر اثنان من أفرادها في مدينة سوهاج بالصعيد، واستقر اثنان آخران ببلدة «سنديون» مسقط رأس الشيخ عبد

المجيد إبراهيم يوسف اللبان ، وقد حضرت الأسرة من مكة تحمل لقب اللبان الذي اشتهرت به حتى الآن ، ومازالت فروعها بسوهاج وفُوَّه وسنديون ورشيد .

وتلقى الشيخ عبد المجيد دروسه الأولى بكتّاب القرية حيث حفظ الأجزاء الكثيرة من القرآن الكريم ، ثم أُلحق بالأزهر وظل يدرس في كنفه العلوم الدينية والفقهية حتى نال شهادة العالمية عام ١٣٣٣هـ (١٩١٤م) ، وكان عمره حوالي ٤٤ عامًا ، لأن الدراسة بالأزهر كانت تطول سنواتها بهذا القدر .

وبدأ حياته العملية بالتدريس في معهد الإسكندرية الديني على النظام الحديث الذي قرره الأزهر وذلك عند إنشاء هذا المعهد مباشرة ، ثم نقل بعد ذلك للتدريس بالقسم العالي بالأزهر ، واختير عقب ذلك ليكون شيخًا لمعهد الإسكندرية الديني حيث قضى معظم سنوات حياته العملية ، ولذلك أطلقت البلدية اسمه على أحد شوارع قسم الجمرك الذي كان المعهد الديني في كنفه حتى نقله إلى قسم الورديان ، ثم إلى مبناه الكبير الحالي بجوار حديقة النـزهة .

وقد تمتع الشيخ عبد المجيد اللبان بمكانة اجتماعية شعبية بين أهالي الإسكندرية ، إذ كان له نشاط واسع النطاق في حركات الثورة بالمدينة ، ولاسيما في ثورة عام ١٩١٩م ، إذ كان في مقدمة المظاهرات ومن أشهر الخطباء في المساجد والكنائس ، وممن كانوا يتبادلون الخطابة في أكبر مساجد الإسكندرية ، وكنائسها بين المشايخ والقساوسة لإلهاب الشعور الوطني ، والحماسة الشعبية تأييدًا لطلب الاستقلال وجلاء الإنجليز عن مصر ، ومناصرة لرجال الوفد المصري ضد الاحتلال البريطاني والأسرة المالكة السابقة .

وقد اعتقل الشيخ عبد المجيد اللبان إثر حوادث ثورة عام ١٩١٩ ، ثم أجبر على الإقامة الجبرية في بلدة «سنديون» مدة من الزمن ، وكان معه في هذا الاعتقال الشيخ محمد يوسف اللبان ابن عمه الذي زامله في الدراسة والتخرج من الأزهر وفي الحركات الثورية الشعبية ، وقد نفي إلى الشام مدة الحرب العالمية الأولى .

وكان الشيخ عبد المجيد اللبان رئيسًا لكثير من الجمعيات الخيرية التي تقوم بأعمال البر والإحسان والنشاط الديني والاجتماعي .

وله مؤلفات في الفقه الشافعي وأصول الدين والأخلاق ، ووافته المنية بالقاهرة عام ١٩٤٢م (١٣٦١هـ) بالغًا من العمر حوالي ٧٢ عامًا ودفن في مقابر الإمام الشافعي .

ومن ذريته الدكتور إبراهيم اللبان الذي وصل إلى رتبة عميد دار العلوم ، وسعد اللبان الذي تولى وزارة المعارف ، وقد اشترك في الحركة الوطنية منذ عام ١٩٢١ ، وقد اشتركت معه بقصيدة من شعري في حفل انتخابيٍّ أقيم بجانب زاوية سيدي داود بقسم الجمرك لتأييد انتخاب محمد باشا سعيد لأول مجلس نيابي في عهد وزارة المرحوم سعد زغلول باشا ، وقد ألقى سعد اللبان خطابًا وطنيًّا ، وكان مازال شيخًا معممًا ، ثم تحول بعد ذلك إلى حزب من الأحزاب السياسية المناهضة لحزب الوفد المصري ، واستطاع بذلك أن يقفز إلى كرسي الوزارة رحمه الله .

٨٠٥- الشيخ علي محمود - شارع - بقسم الرمل (كيراليو سابقًا)

ولد الشيخ علي محمود بالقاهرة بحيّ سيدنا الحسين عام ١٨٧٨م (١٢٩٥هـ)، وكان من مشاهير المقرئين وله أنغام خاصة في ترتيل القرآن الكريم، قد عاصر الإذاعة المصرية ومازالت لقراءته شرائط تسجيل تذاع من وقت إلى آخر ليستمتع السامعون بعذوبة صوته، وإجادته للقراءات المختلفة.

ومن جهة أخرى كان الشيخ علي محمود صاحب مدرسة خاصة في ترنيم الأناشيد الدينية التي تغنى في المساجد، وفي الحفلات العامة والخاصة، وقد ذاع صيته واشتهر بحسن الصوت وقوة الأداء في تلاوة القرآن وفي إلقاء الأناشيد صحبة بطانته من المذهبجية.

وقد لحن طائفة كبيرة من هذه الأناشيد التي مازالت تردد والتي يتغنى بها بعض مشاهير المنشدين ومنهم المشايخ طه الفشني، والفيومي، وعبد السميع بيومي، والبهتيمي، وغيرهم ممن تتلمذوا على يد الشيخ علي محمود في طريقة قراءة القرآن وإلقاء الأناشيد الدينية، وكذلك التواشيح الدينية وكلها باللغة العربية الفصحى.

ومن أشهر المقطوعات التي أنشدها: السعد أقبل بابتسام، خلياتي ولوعتي وغرامي، أنا منك دووَدلَهِ وغيرها.

ووافته المنية عام ١٩٤٦م (١٣٦٦هـ) بالغًا من العمر حوالي ٦٩ عامًا.

٨٠٦- الشيخ علي يوسف - شارع - بقسم اللبان (سيريجو سابقًا)

ولد الشيخ علي يوسف في شهر جمادى الآخر عام ١٢٨٠هـ (١٨٦٣م) في بلدة بالصفور مركز سوهاج، ونشأ يتيمًا إذ توفي والده السيد أحمد يوسف في السنة الثالثة لمولده، فعادت به أمه إلى بلدتها «بني عدي» مركز منفلوط بمديرية أسيوط (محافظة أسيوط حاليًّا) وهي بلدة اشتهرت بكثرة علمائها، وهناك حفظ القرآن ثم تلقى العلم على يد الشيخ حسن الهواري أحد العلماء المشهورين في تلك البلدة وقتئذ وذلك في الفترة الواقعة بين عامي ١٢٩١ - ١٢٩٩هـ (١٨٧٤ - ١٨٨١م)، وفي تلك السنة الأخيرة حضر إلى القاهرة، وأكبّ على الدراسة في الأزهر، وإلى جانب دراسته ظلّ يختلف إلى مجالس الأدباء، ويدرس كتب السير والتاريخ، وصادف تلك الحقبة وقت النهضة التي نفخ ضرامها بالإرشاد والتنبيه السيد جمال الدين الأفغاني (انظر مادة الأفغاني)، وبالإنشاء والتعليم والتأليف الشيخ حسين المرصفي (انظر مادة المرصفي)، فأفاد من كل ذلك في ترويض قلمه على الكتابة السهلة، وإتقان النثر الفني كما يقول الشيخ عبد العزيز البشري (انظر هذه المادة).

ونظم الشيخ علي يوسف الشعر، وقام بنشر ديوان صغير أسماه (نسمة السحر)، ثم أنشأ مجلة أسبوعية علمية أدبية أسماها (الآداب) ظلت تصدر طوال ثلاث سنوات، وأصدر عقب ذلك جريدة (المؤيد) اليومية السياسية التجارية التي صار لها شأن يذكر في عالم الصحافة، وفي الحركة السياسية في مصر والشرق، إذ كانت آنذاك الجريدة الوطنية الإسلامية الوحيدة في القطر المصري، وكانت لا تنفك عن

شن الحملات النقدية الشديدة على الإنجليز، وعلى سياستهم الاستعمارية البغيضة، وكان سعد زغلول ورياض باشا (انظر هاتين المادتين) من أكبر أنصاره على القيام بعمل الصحافة.

وفي مستهل القرن العشرين تزوج الشيخ علي يوسف من السيدة صفية ابنة السيد أبو الفتوح عبد الخالق السادات شيخ السادة الوفائية، وكان قد خطبها من والدها لصلة الصداقة الوثيقة التي كانت بينهما فرضيت الفتاة وسكت الأب، فعقد العقد في بيت البكري (انظر هذه المادة) من غير علم والدها، فرفع الوالد الأمر إلى المحكمة الشرعية طالبًا فسخ العقد لعدم الكفاءة في النسب، ودافع الشيخ علي يوسف عن نفسه وأثبت شرف نسبه بتسجيل اسمه في دفتر الأشراف، وقضت المحكمة بالحيلولة المؤقتة بين الزوجين ثم قضت بعد ذلك بفسخ العقد في أغسطس عام ١٩٠٤م (١٣٢٢هـ)، فاستأنف الزوج الحكم أمام المجلس الابتدائي الشرعي في محكمة مصر الشرعية الكبرى فقضى المجلس بتأييد الحكم في أول أكتوبر من تلك السنة، وكان لهذه القضية ثورة في الرأي العام فاضت بها الصحف وأكثر فيها الشعراء، ويقال إن والد الفتاة لجأ إلى المعتمد البريطاني الذي له ضلع فيما صدر من أحكام.

ولقد حزّ هذا الأمر في نفس شاعر النيل حافظ إبراهيم فنشر في ذلك الحين قصيدة ينعى فيها على المصريين بعض العيوب الاجتماعية، وما يراه من فوضى الرأي، وقلة الثبات عليه فقال في مطلعها:

حَطَمْتُ اليراعَ فلا تعجبي
وَعِفْتُ البيانَ فلا تَعْتُبي

فما أنتِ يا مصرُ دارَ الأديب
ولا أنتِ بالبلدِ الطَّيبِ

وكَمْ فيكِ يا مصرُ من كاتبٍ
أقالَ اليراعَ ولم يَكْتُبِ

إلى أن يقول:

أمورٌ تمرُّ وعيشٌ يمرُّ
ونحنُ مِنَ اللَّهْوِ في مَلْعَبِ

وشَعْبٌ يَفِرُّ من الصالحاتِ
فِرار السليمِ من الأجْرَبِ

وَصُحْفٌ تَطِنُّ طنينَ الذُبابِ
وأخْرَى تَشِنُّ على الأقرب

وهذا يلوذ بقصر الأمير
ويدعو إلى ظلّه الأرْحَبِ

وهذا يلوذُ بقصرِ الأميرِ
ويُطنِبُ في وِرْدِهِ الأعْذَبِ

ثم يتطرق في قصيدته إلى المنافقين الذين تدفقوا على دار الشيخ علي يوسف يزفون إليه التهاني عندما انتصر على خصومه ونال الأوسمة من سلطان تركيا فيقول:

فَمَا للتَّهاني على دارِهِ
تَسَاقَطُ كالمطرِ الصَّيِّبِ؟

وما للوُفودِ على بابِهِ
تَزُفُّ البشائرَ في مَوْكِبِ؟

وما للخليفةِ أسْدَى إليه
وِسَامًا يليقُ بِصَدْرِ الأَبِي؟

وكان لمسألة الزواج على النحو الآنف الذكر دويّ كبير في جميع الأوساط، وقد استغل ذلك ضد الشيخ علي يوسف خصومه السياسيون.

وعندما أصدر جريدة «المؤيد» حالفه النجاح فكانت صحيفة يومية ناجحة إلى حد بعيد، وقد طور طبعها على أول مطبعة (روتاتيف) في البلاد، ولذلك فهو يذكر دائمًا على أنه علم من أعلام الصحافة المصرية، ولذا عرف عند بعض الكتاب في ذلك الحين بأنه (الشيخ المؤيد) أو (شيخ الصحافة الإسلامية في عصره)، وكان من نتائج انتصاره على خصومه أن تولى في كهولته مشيخة السجادة الوفائية.

وعدد الشيخ عبد العزيز البشري مناقبه فقال: «كان رجلاً شديد العقل، قوي النفس، حديد العزم، وافر الشجاعة، وجمع إلى ذكاء العزيمة حدة الذهن ورباطة الجأش».

ومن أقواله المشهورة: «والله لا يعنيني أن يكون الناس جميعًا في صف واحد، وأنا والحق الذي أعتقده بإزائهم في صف واحد».

وفيما يلي أنموذج من أسلوبه الذي خطه تحت عنوان «لا تعصب في مصر»:

«التعصب بالمعنى المعروف في الغرب عن أهل الشرق، وبعبارة أخرى عند المسيحيين عن المسلمين، هو انبثاث روح العداء والبغضاء من الآخرين ضد الأولين، انبثاثًا يحمل على الاعتداء عليهم حينًا بعد حين، والتعصب بهذا المعنى رذيلة من الرذائل التي ينهى عنها الدين الإسلامي والقوانين الاجتماعية، وفي نظر الأوروبيين هو التوحش الذي يفتك بنفوس الأبرياء كلما ثار ثائره، أو هو أشبه بالغول الكاسر الذي يندفع بعماية فيفترس كل ما في طريقه من نفوس البشر، التعصب على هذا النحو مجموع أرواح شريرة لا نظام لها في ثورانها وعدوانها، نعوذ بالله أن تُرزَأ أمة بهذا البلاء العظيم، قالوا إن المصريين متعصبون تعصبًا دينيًّا، ومعنى هذا أنهم يكرهون المخالفين لهم في الدين كراهة عمياء، يعتدون عليهم بروح البغضاء المتناهية كلما سنحت لهم فرصة الافتراس أو استفزهم صائح.

في البلاد من قديم الزمان أديان مختلفة يتجاور أهلوها في المنازل، ويتشاركون في المرافق، ويتنافسون في الأعمال، فلم تكن بين المسلمين والأقباط تلك الروح الشريرة، ولو كانت في فطرة المسلمين أو فطرة الفرقين للاشت الأكثرية الأقلية في عصور مضت وخصوصًا في عصور كانت الجهالة فيها سائدة، وكان بعض الحكام من المماليك وغيرهم يبذرون بذور البغضاء بين الفريقين لا لخدمة دينية إسلامية، ولكن لأغراض شتى منشؤها الشهوات والمطامع، ولكن التواريخ تدل على أن الفريقين عاشا على الوئام والسلام في كل الظروف أو أكثرها».

وكانت وفاة الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد في ٢٥ من أكتوبر عام ١٩١٣م (١٣٣٢هـ)، وكانت هذه الجريدة يتلقفها القراء في كل مساء حين يصل القطار

إلى الإسكندرية، وكنت في عهد الشباب من المواظبين على قراءتها دون انقطاع.

وقد رثى شاعر النيل حافظ إبراهيم الشيخ علي يوسف بقصيدة ألقاها في حفل تأبينه الذي أقيم بمنزل صهره السادات في ٥ ديسمبر عام ١٩١٣م (١٣٣٢هـ) فأشاد بما أداه الشيخ بوساطة جريدته (المؤيد) من خدمات جليلة ولا سيما في جمع شمل المسلمين في كافة بقاع الأرض فقال:

لَوْلا (المُؤَيِّدُ) ظَلَّ المسلمونَ على
تَناكُرٍ بينهم في ظُلْمَةِ الحُجُبِ

تعارَفُوا فيه أرْواحًا وضمَّهُمُ
رغم التَنَائي زِمَامٌ غيرُ مُنْقَضِبِ

في مصرَ في تونسٍ في الهندِ في عدنٍ
في الرُّوسِ في الفُرسِ في البحرينِ في حَلَبِ

هذا يَحنُّ إلى هذا وقد عُقِدَتْ
مودَّةٌ بينهم موصولةُ السَّببِ

٨٠٧ - الشيخ محمد البنّا - حارة - بقسم الرمل

هو الشيخ محمد بن صالح البنا (انظر مادة الشيخ البنا) وكنيته أبو العز، ولد بمدينة رشيد عام ١٢٤٣هـ (١٨٢٧م) حيث حفظ القرآن الكريم، وجوَّده وتلقى العلم على يد والده الشيخ محمد صالح، وعلى يد الشيخ إبراهيم الجارم الشافعي، وبرع بصفة خاصة في العلوم الفقهية كما أتقن العلوم الأخرى وتفوق فيها.

وفي عام ١٢٦٥هـ (١٨٤٨م) أجاز له والده التدريس، فقام بذلك في مسجد الجندي، وجامع زغلول، ولاسيما الفقه على يد المذهب الحنفي، مع نشر تعاليم الطريقة الصوفية الخلوتية على غرار والده وجدّه الشيخ أحمد البنا الرشيدي الذي ينتمي بالأصل إلى الريف المراكشي.

وفي عام ١٢٧٠هـ (١٨٥٣م) حصل على إجازة التدريس العالية من الشيخ الباجوري وفي عام ١٢٧٧هـ (١٨٦٠م) أجازه والده بالإفتاء، والتدريس، وإعطاء العهود لمريدي الطريقة الخلوتية، وفي عام ١٢٧٩هـ (١٨٦٢م) أجازه العلامة الشيخ مصطفى المبلَّط أحد كبار علماء الشافعية بالأزهر.

وكان قد انتقل إلى الإسكندرية صحبة أبيه الشيخ محمد صالح البنّا عام ١٢٦٦هـ (١٨٤٩م) الذي تولى الإفتاء عنها وفاقًا لأمر عباس الأول، وعندما طلب سعيد الأول والده إلى القاهرة لإعداد لائحة الأطيان تولى الإفتاء مكانه طوال مدة غيابه، وعقب وفاة والده عام ١٢٨٥هـ (١٨٦٨م) جلس مكانه على سجادة السادة الخلوتية، وفي عهد الخديوي إسماعيل عُيِّن مفتيًا لمجلس الإسكندرية وظل في هذا المنصب ثلاث سنوات، منح خلالها كسوة التشريفة العلمية من الدرجة الأولى، وتلقى التهاني من الشعراء والكتّاب ومن بينهم الشيخ حمزة فتح الله (انظر هذه المادة) مفتش اللغة العربية بنظارة المعارف في ذلك الحين.

ولما نُحِّي العباسي مؤقتًا من مشيخة الأزهر، ووظيفة مفتي الديار المصرية، صدر أمر عال في ٢٨ ربيع أول عام ١٣٠٤هـ (٢٢ يناير عام ١٨٨٧) بتقليده منصب مفتي الديار المصرية،

وفي ٢٧ شوال عام ١٣٠٦هـ (٢٥ يونية عام ١٨٨٨م)، نقل الشيخ محمد محمد البنا إلى وظيفة مفتي نظارة الحقانية، وكان ذلك النقل تمهيدًا لإعادة الشيخ العباسي إلى وظيفته، وفي أثناء مرض الشيخ العباسي بعد ذلك أحيلت أعمال الإفتاء على الشيخ محمد البنا علاوة على أعماله في نظارة الحقانية، فقام بمهام الوظيفتين على الوجه المُرضي، ومن جهة أخرى كان مواظبًا على إلقاء الدروس بالأزهر يوميًا.

ومن مؤلفاته: شرح على الدردير سماه «لقطة العاجز الفقير لتوضيح بعض معاني الدردير»، والدردير هو أحمد الدردير أحد أقطاب الطريقة الخلوتية، ولد في بني عدي بالصعيد، وتعلم بالأزهر، وخلف الشيخ الحفني في الطريقة والتصوف، وله مؤلفات في الفقه والبيان والتصوف منها الفريدة البهية في العقائد التوحيدية وتوفي عام ١١٩١هـ (١٧٧٧م).

ومن مؤلفات الشيخ محمد البنا: رسالة على حاشية أبي السعود عن الأشباه والنظائر في الفقه، وكتاب سماه «الفتح الرباني على الزقاني» وهو ضمن مكتبة جامع الشيخ إبراهيم باشا التي تسلمتها مديرية الأوقاف بالإسكندرية.

وبقي في منصبه بنظارة الحقانية حتى ٤ جمادى الآخرة عام ١٣١٣هـ (١٨٩٥م)، إذ طلب من الخديوي عباس الثاني إحالته على التقاعد لكبر سنه واعتلال صحته.

وبعد أسبوع واحد من هذا التاريخ وافته المنية بالغًا من العمر ٦٩ عامًا، ودفن بالقاهرة بقرافة المجاورين.

٨٠٨- الشيخ محمد بركة - شارع - بقسم الجمرك

لقب «بركة» تحمله أكثر من أسرة من أسر الإسكندرية العريقة في النسب، ومما يدل على ذلك وجود حارة بقسم محرم بك تحمل اسم «بركة»، والأسرة المعروفة بقسم الجمرك هي الأسرة التي نزح جدها من المغرب الأقصى (مراكش) إلى الإسكندرية في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، واسمه الكامل الحاج أحمد محمد بركة، وقد استقر بهذا الشارع الذي يحمل اسمه حيث ابتنى له منزلاً، وصفة المشيخة التي أضفيت عليه كانت في ذلك الحين تضفى على معظم المغاربة الذين يتخذون من القطر المصري وطنًا ثانيًا لهم، ولا سيما إذ كانوا على شيء من الثقافة الدينية.

والواقع هو أن الحاج أحمد محمد بركة أو الأصح أحمد محمد بن بركة - جريًا على التسمية المغربية - كان من هواة القراءات الدينية، فبجانب مزاولته تجارة الزيوت، حمل معه لدى نزوحه إلى الإسكندرية عددًا من الكتب الدينية التي تتناول الفقه وسير الصالحين، وبعد أن مارس تجارة الزيوت ردحًا من الزمن اتجه إلى مدينة الزقازيق ليشتغل بتجارة الحبوب والغلال، وبعد مدة نقل تجارته إلى «نكلا العنب» وإلى الإسكندرية حيث كان يتلقى المحاصيل بالمراكب النيلية.

وكان مضيافًا أوقف على أعمال البر دارًا خصص جزءًا منها لاستقبال وإقامة صحبه وذويه الذي كانوا يفدون من المغرب في طريقهم إلى الحج، أو لمزاولة التجارة وللاجتماع بأصدقائه وأقاربه الذين يحبون القراءات الدينية وتبادل الآراء فيها، وكان من بينهم عميد أسرة العوامري الشيخ منصور

رئيس مجلس القرعة (انظر مادة العوامري) والسيد/ محمد شهيب من كبار التجار المغاربة الوافدين على الإسكندرية (انظر مادة شهيب)، وفي أثناء إقامة الحاج أحمد بن بركة بالإسكندرية رُزِقَ بولدين هما محمد أحمد محمد بن بركة وأحمد أحمد محمد بن بركة، واستقل أولهما بتجارة الصادر وزاول ثانيهما التجارة المحلية، وكانت له محمصة (مقلة) بشارع الجمرك القديم، كانت له شهرة ذائعة لما كانت تقدمه للمشترين من أجود أنواع الحمص، والسوداني، واللب، وتوفي الحاج أحمد بركة في منتصف القرن التاسع عشر على وجه التقريب.

وأنجب ابنه محمد ولدين هما محمد عبد القادر بركة وعبد القادر محمد بركة، وكان ميلاد الأول عام ١٨٩٣م (١٢١١هـ)، وميلاد الثاني عام ١٨٩٦م (١٢١٤هـ)، وقد درس كل منهما القانون وتخرج من مدرسة الحقوق بالقاهرة، واتجه محمد عبد القادر إلى الاشتغال بالمحاماة، وكان من أعلام القانون المدني مخلصًا لعمله، وكان كاتبًا ممتازًا، وشاعرًا رقيقًا، تناول بشعره الأحداث السياسية المعاصرة، وأسهم في الحركة الوطنية بنصيب مرموق، واختير بالتزكية عضوًا في البرلمان المصري، نائبًا عن دائرة غيط العنب بقسم كرموز، وكان ينفق مكافأة النيابة البرلمانية على المعوزين من أهل دائرته الانتخابية، ووافته المنية عام ١٩٨٣م (١٣٥٧هـ) بالغًا من العمر ٤٦ عامًا، وكان المرحوم الأستاذ محمد عبد القادر بركة زميلي في الدراسة منذ الطفولة، إذ نعمت بصداقته الوفية منذ كنا بمدرسة إبراهيم الأول الابتدائية التابعة لجمعية العروة الوثقى الإسلامية، وكان مقرها بالقرب من مسجد طاهر بك بشارع الحجاري، وأعجبت بوطنيته الصادقة الحماسية في عهد الشباب ودفاعه القوي عن حقوق الشعب الذي كان يرسف في أغلال الاحتلال البريطاني، والإقطاع، والحكم الاستبدادي الذي لا يقيم لنفع الأمة وزنًا، ومن أشعاره الرصينة هذه الأبيات من قصيدة رثاء نظمها عقب انتحار الشاعر الصربي «ميلان اسكوفتش» الذي لم يتحمل ذل بلاده تحت نير الغزو الأجنبي:

إيهِ لليأسِ قَدْ أضلَّ رشادَهْ
وَعَوادي الأيامِ تَنْفي رُقادَهْ

شاعرٌ يشهدُ الأمانيَّ تُطوى
ويرى الأيام تطوي بلادَهْ

ظلَّ يبكي في صهل «فوصوه» شعْبًا
وَهَبَ المجدَ أمنَهُ وجهادَهْ

هائمًا يَنْظِمُ الدموعَ قَصِيْدًا
إنَّ قولَ القصيد منه عِبَادَهْ

يا إلهي حُمَّ القضاءُ بِشَعْبٍ
كان أَوْلى بأن ترى أمجادَهْ

كان أَوْلى برحمةٍ منكَ تترى
وقَمِيْنًا بأن ينالَ مُرادَهْ

طالما نازَلَ الخطوبَ بِعَزْمٍ
لا تفلُّ الدهورُ منه عِنَادَهْ

رُبَّ يومٍ خِفْنا عليهِ المنايا
شَهَدَ الناسُ حَرْبَهُ وجِلادَهْ

كيفَ أبقَى وأشْهَدُ الصِّرْبَ تفْنَى
إنَّ عيني تظُنُّ كِذْبَ الشهادهْ

ثمَّ لَمَّا رأى الشكوك يقينًا
ورأى الدمعَ قد أبى إمدادَهْ

لم يشَأْ غَيْرَ أنْ ينوحَ دِماءً
وبسيفِ الغاراتِ أدْمَى فؤادَهْ

ومن شعره في الغزل العذب الحلو الجرس قوله لمن أحب:

يا مَنْ أسَرْتِ فؤادي
ولستُ أطلبُ فكِّي

إنِّي رضيتُ بِذُلِّي
وفيكِ ضيَّعْت نُسْكي

فهلْ تصونينَ وُدِّي
وتَشفقينَ لِضَنْكي

وترحمينَ شبابي
فماليَ اليومَ مبكي

الحبُّ أسكرَ روحي
بالخمرِ مِنْ شَفَتيْكِ

والحبَّ شرعي وديني
والحبَّ في مُقْلتيكِ

ووضع المرحوم الأستاذ محمد عبد القادر بركة نشيدًا وطنيًّا، لحَّنه الأستاذ رمضان عكاشة قال فيه:

نحنُ شعب النيلَ شعبُ الاتحادْ
مَجَّدَتْ آباءَنَا كلُّ العِبادْ

قدْ أرَدْنَا في إباءٍ وعنادْ
نَصْرَ مِصْرٍ أمّنا فخر البلادْ

قدْ أمَرْنا الدهرَ حِيْنًا فأطاعْ
ونشرِنا النورَ في كلِّ البقاعْ

سائلوا الأهرامَ عنا كيف شاعْ
بأسُنا في الكونِ والدنيا جِهادْ

عاش وادي النيل حرًّا والألى
قد أذاعوا صوتَ مصرَ في الملا

عاشَ شعبٌ قد مضى نحو العُلا
بنُفُوسٍ أقسمت ألاَّ تُسادْ

مصرُ نفديها ونفدي نيلَهَا
قد سَرَى في كلِّ قلبٍ حُبُّها

كلُّ ما نملكُ في الدنيا لها

من نفوسٍ وكنوزٍ واجتهادْ

ومازال أخوه الأستاذ عبد القادر بركة – أطال الله عمره – ينعم بالحياة في ظل التقاعد، وننعم بصحبته المتسمة بالوداعة والطيبة، وقد تدرج في وظائف مصلحة الجمارك إلى أن شغل منصب مدير الإدارة القضائية، ثم منصب مراقب عام التعريفات، والتثمينات وهو من هواة الأسلوب الغني المتقن، وقد أسهم بنصيب مرموق في تطوير لغة المصالح وجعلها تتمشى مع الفصحى، وهو يميل إلى قرض الشعر وله فيه جولات قصيرة.

وتقتضي الأمانة التاريخية أن أنبه الأذهان إلى أن بين أولياء الله الصالحين الذين نقلت رفاتهم إلى مجمع الأضرحة بجوار مسجد سيدي أبي العباس المرسي ولي من هؤلاء الأولياء يدعى سيدي محمد بركة، وكان ضريحه في سعة أحد شوارع المدينة، فاقترح مدير البلدية العام المرحوم أحمد صديق خلال عام ١٩٣٢ على القومسيون البلدي نقل الأضرحة الموجودة في بعض الشوارع إلى هذا المجمع، فوافق المجلس البلدي على هذا الاقتراح ونقل رفات الأولياء إلى المجمع، ومن بينهم سيدي محمد بركة الذي لم أستدل على ترجمة حياته، إذ إن ضريحه في المجمع لا يحمل أية تفصيلات لهذه الترجمة.

٨٠٩- الشيخ محمد تاج الدين – شارع – بقسم العطارين

هو الشيخ محمد بن محمد تاج الدين، ولد ببلدة ديروط بحيرة، التابعة لمركز المحمودية بمحافظة البحيرة عام ١٢٨٩هـ (١٨٧٢م)، وأتم دراسته الدينية بالجامع الأزهر بالقاهرة، وعُيِّن عقب تخرجه مدرسًا بمعهد الإسكندرية الديني ثم رقي إلى وظيفة مراقب، ثم وظيفة وكيل للمعهد نفسه، ورشح في ذلك الحين لرياسة معهد طنطا الديني، فلم يقبل النقل من الإسكندرية لما كان له بها من مكانة اجتماعية مرموقة، فقد تولى بها وكالة جمعية الشبان المسلمين، ثم رياستها، ووكالة جمعية منع المسكرات، ثم رياستها، ورياسة جمعية إرشاد الخلف إلى الحق، ومن جهة أخرى كان يفضل جو الإسكندرية لملاءمته لحالته الصحية.

ومن مؤلفاته «الرسالة الرملية في فصل الخلاف بين أهالي الرمل ودعاة الوهابية»، وقد وضع هذه الرسالة بسبب الخلاف والنـزاع بين سكان الرمل ودعاة الوهابية، كاد يؤدي إلى نتائج وخيمة، فكلف محافظ الإسكندرية الشيخ محمد تاج الدين بالعمل على حل هذه المشكلة الدينية الخطيرة، وقد أدت رسالته الآنفة الذكر إلى فض النـزاع إذا اقتنع الفريقان بما جاء بها من بيانات وحجج، وله كتاب آخر في التوحيد كان يدرس بمعهد الإسكندرية الديني، هذا إلى جانب أنه كان يجيد الشعر الذي يلقيه في المناسبات الدينية ولا سيما بجمعية الشبان المسلمين.

وتوفي في ٢٤ أغسطس عام ١٩٣٤م (١٣٥٣هـ) بالغًا من العمر حوالي ٦٣ عامًا، وصلى عليه شيخ الأزهر الشيخ الظواهري ودفن بجبانة المنارة بالإسكندرية، ومن ذريته المرحوم الشيخ محمد كامل تاج الدين من علماء الأزهر، والمرحوم الشيخ عبد الرحمن تاج الدين من علماء الأزهر، وكان أمينًا لمكتبة معهد الإسكندرية الديني، ومن أحفاده الدكتور مصطفى كامل تاج الدين، والمهندس عبد الحميد كامل تاج الدين بهيئة الكهرباء والغاز، والدكتور عبد الله كامل تاج الدين بكلية طب الإسكندرية، ومحمد

عبد الرحمن تاج الدين المدرس بمدرسة العباسية الثانوية، والدكتور مصطفى كمال عبد العليم بجامعة عين شمس، والرائد طيار جلال عبد العليم بالقوات الجوية.

٨١٠- الشيخ محمد الخليجي - شارع - بقسم محرم بك (الكتاب سابقًا)

ولد الشيخ محمد عبد الرحمن الخليجي بالإسكندرية في ٥ من ذي الحجة عام ١٢٩٢هـ (١٨٧٤م) بحي كوم الشقافة (انظر هذه المادة)، وحفظ القرآن الكريم وجوَّده بكتّاب حسن بك عبد الله الملحق بجامع الميري بالحيّ نفسه، ثم درس العلم بهذا الجامع التابع لمشيخة علماء الإسكندرية.

ورحل بعد ذلك إلى القاهرة والتحق بالجامع الأزهر، إلى أن حصل على الشهادة الأهلية في ١٨ من جمادى الثاني عام ١٣٢٤هـ (٩ أغسطس عام ١٩٠٦م) وقد درس الفقه على المذهب الحنفي، وكانت اللجنة التي امتحنته وأجازته مكونة من الشيخ يوسف الشاذلي، والشيخ عبد المجيد اللبان، والشيخ عبد الله دراز (انظر مادتي يوسف الشاذلي والشيخ عبد المجيد اللبان)، وكان شيخ الجامع الأزهر في ذلك الحين الشيخ عبد الرحمن الشربيني.

والعلوم التي اجتاز الامتحان فيها: الحديث علم الكلام، والفقه الحنفي، والنحو، والصرف، والمعاني، والبيان، وتفسير القرآن، وجاء في الشهادة التي حصل عليها أنه «يسوغ له أن يكون في وظائف الإمامة والخطابة والوعظ والتعليم العام»، وقد عُيِّن عقب ذلك مدرسًا بمدارس العروة الوثقى الخيرية الإسلامية، ثم ناظرًا لمدرسة توفيق الأول، فمدرسًا للغة العربية بمدرسة محمد علي الصناعية بالشاطبي، وهي تعادل المدارس الصناعية الثانوية، وظل يمارس التعليم من ١٩ سبتمبر عام ١٩٠٣م (١٣٢١هـ) إلى ٢ مايو عام ١٩٦١م (١٣٨١هـ) أي ما يقرب من ٥٨ عامًا، إذ كانت تمد له الخدمة عامًا بعد عام بفضل النتائج المُرضية التي كان التلاميذ يصلون إليها عن طريق تفانيه في تعليمهم.

وفي أثناء حياته العملية تتلمذ في علم القراءات على الشيخ عبد العزيز كحيل الذي أجازه بالقراءة لنفسه وبالتعليم في أي مكان وزمان، وكانت هذه الإجازة في ١ من شوال عام ١٣١٢هـ (١٨٩٥م)، أما في تدريس الحديث فإجازته حصل عليها من الشيخ عبد الرحمن الإنباري قاضي الإسكندرية عن المحدث الشيخ عبد الله بن سالم البصري والشيخ محمود بن سليمان باشا الشيخ.

وقد قضى الشيخ الخليجي حياته دارسًا، ومعلمًا، ومؤلفًا، وموجهًا، فصار مرجعًا، وحجة في علم القراءات القرآنية من نحو، وصرف، وتفسير، وبلاغة، وشريعة، ولاسيما في أحوال الميراث.

ولقد عاصرته عقب حصوله على إجازة تعليم القراءات، إذ كنت صديقًا لأخيه الأصغر أحمد بهجت زميلي في الدراسة، وكان منزله يطل على ترعة المحمودية بغيط العنب في الجهة الواقعة بين كوبري كرموز وكوبري راغب باشا، وكنت أقوم أنا وأخوه أحمد بكتابة نسخ من البراءات التي كان يجيز بها القراء للقرآن الكريم، وكنا نكتبها بالحبرين الأخضر والأحمر من النسخة الأصلية بخطه وذلك في لفافة من الورق قد يبلغ طولها أكثر من عشرة أمتار، وكان يذكر فيها تسلسل مشايخ القراءات إلى أن يصل إليه هو ثم يذكر أنه بعد اختيار

الطالب، والتأكد من صحة قراءاته وتجويده قد أجازه للقراءة في أي مكان وزمان.

وكان الشيخ محمد قصير القامة نحيل الجسم سمح الوجه أبيضه، تجلل لحيته الخفيفة منظره وهيبته، وكان ورعًا تقيًّا زاهدًا وديعًا في حديثه وفي مناقشته، عالِمًا غزير المعرفة بأصول الدين، متبحرًا في النحو يرجع إليه في دقائقه ومعضلاته العويصة.

وقد تتلمذ على يديه عدد كبير من القراء من حملة كتاب الله رجالاً ونساءً من جميع أنحاء القطر المصري ومن الأقطار العربية الشقيقة، علاوة على من تتلمذ على يديه بطريق المراسلة، فكان يراسلهم ويعلمهم ويبعث إليهم بمؤلفاته المطبوعة دون مقابلة مالية.

وكان عضوًا عاملاً في لجنة وزارة الأوقاف لاختيار المتقدمين لقراءة القرآن، أما تلاميذه فكانوا الأوائل دائمًا على مستوى الجمهورية.

وبلغ عدد الكتب التي ألفها في قراءات القرآن الكريم ستة وعشرين كتابًا، طبع بعضها ومازال البعض الآخر مخطوطًا، ومنها: «متن الألفية الخليجية في القراءات العشرية»، وشرح هذه الألفية، و«تيسير الأمر لما زاده حفص من طريق النشر»، و«شرح الرائية في رسم المصاحف العثمانية»، و«نيل العلا في قراءة ابن العلا»، و«النظم اليسير في قراءة ابن كثير»، و«المنظومة الخليجية لضبط متشابهات الآيات القرآنية»، (وهي من شعره الرصين العلمي)، و«توجيهات القراءات»، «التجميل السليم بعد آي الكتاب الحكيم»، و«الدروس التجويدية الكبيرة»، وقد وعدت وزارة الأوقاف بطبع ما لم يطبع منها تخليدًا لتراثه العلمي.

وله في النحو: كتاب «لاسيما»، و«النبراس الوضاء في الفرق بين الضاد والظاء»، و«إسناد الأفعال إلى الضمائر».

ولقد تعمق الشيخ الخليجي في إثبات نسبه فتوصل عن طريق المراجع الموثوق في صحتها إلى أن هذا النسب يرجع إلى عباس الهاشمي عم رسول الله عليه الصلاة والسلام، وأوضح أن لقب الخليجي منشؤه يصل إلى جده الأكبر «محمد الخليجي» الذي كان حاكمًا للوجه البحري في عهد الخليفة العباسي المقتدر بالله الذي دام حكمه من عام ٢٩٦هـ (٩٠٨م) إلى عام ٣٢٠هـ (٩٣٢م).

وكان مقر جده الأكبر «محمد الخليجي» بالإسكندرية واشتهر بالخليجي نسبةً إلى خليج الإسكندرية الذي كان يعرف في العهد البطلمي بترعة شِيدْيا وهي الترعة التي كانت تسري في جنوب ترعة المحمودية الحالية بمسافة قصيرة.

وتوفي هذا العالم التقي الورع في ٢٠ من شهر ذي الحجة عام ١٣٩٠هـ (٢٦ فبراير عام ١٩٧٠م) بالغا من العمر ٩٦ عامًا قضى معظمها في رحاب القرآن يحفظه في صدره، ويعلمه للناس قراءةً وتجويدًا، ويفسر معانيه وحكمه تفسيرًا قائمًا على العلم بالبلاغة وقواعد اللغة العربية النحوية والبيانية.

ولم تهمل الدولة تكريم ذكراه تقديرًا لما أداه من خير للعلوم القرآنية، فأقامت وزارة الأوقاف حفل تأبين بمسجد أبي العباس المرسي حضره وزيرها السيد الدكتور عبد العزيز كامل وألقى كلمة مُنَوِّهًا بفضله وعلمه، وقال: إن

وزارة الأوقاف قررت تخليد ذكراه بإنشاء معهد للقراءات بالإسكندرية وإطلاق اسمه على إحدى قاعات التدريس له.

وقال صديقه وزميله الأستاذ فتح الله الغنام في تأبينه إنه كان معلمًا مثاليًّا أخرج للوطن رجالاً كانوا القدوة الحسنة في الإصلاح بما وضع في نفوسهم من مبادئ العلم والمعرفة والخلق الكريم والتوجيه السليم، وقد كانت كل توجيهاته وإرشاداته مستمدة من القرآن الذي عكف على خدمته بتأليف كتب في تجويده فنهل كثير من القراء من بحر علمه وفيض حكمته، وكان الشيخ الخليجي فاهمًا لكتاب الله حق الفهم، فكتب في توضيح آياته، وتعمق في استنباط دقائق معانيه وأسراره، وهذه الأعمال الجليلة ناتجة عن دراية باللغة، وفهم لدقائقها، وإلمام بالكثير من مفرداتها.

والواقع هو أن الشيخ محمد الخليجي كان متبحرًا في النحو، فما من قاعدة نحوية كنت ألجأ أنا أو أخوه الأصغر إليه في توضيحها، إلا وكان يبينها في جلاء تام، وإيجاز محكم يثبتها في ذهننا على مر الأيام.

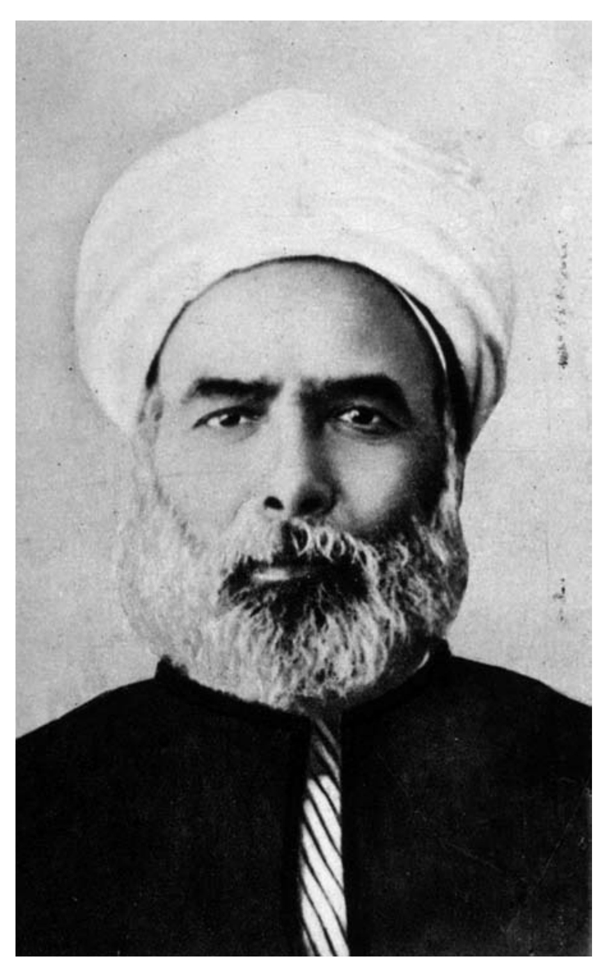
وكان رحمه الله أبًا مثاليًّا، فعلى الرغم من موارده المالية المحدودة التي ترجع في شحها إلى زهده وعفته، لم يأل جهدًا في تربية أولاده، والوصول بثقافتهم إلى الدراسات العليا، فابنه الأكبر كان مدرسًا وهو محمد، أما أولاده مسعود وحسن ومحمود ومصطفى فمهندسون بالطيران والمعهد العالي الصناعي والشبكة الكهربية لترام الرمل.

رحمه الله رحمة سابغة وارفة الظلال وأدخله فسيح جناته.

أما ترجمة الاسم القديم للشارع فاطلبها في «الكاب».

٨١١- الشيخ محمد عبده - شارع - بقسم الجمرك

يقول الشيخ محمد عبده في الفصل الذي كتبه عن سيرته إنه ولد عام ١٨٤٨م (١٢٦٥هـ)، ولكن بعض كتّاب سيرته يذهبون إلى أنه ولد قبل هذا التاريخ بأعوام يختلفون في تحديد عددها، كما اختلفوا في تعيين القرية التي ولد فيها فقالوا إنه محلة نصر وقالوا إنها قرية شتراء.



الشيخ محمد عبده

أما عن نسبه فيقول هو إن أباه ينتهي في نسبه إلى جد تركماني جاء من بلاد التركمان في جماعة من أهله، وتدّعي والدته «جنينة عثمان» أنه من بيت عربي قرشي يمتّ بالنسب إلى الخليفة عمر بن الخطاب (انظر مادة ابن الخطاب)، ولا يؤكد الشيخ كل هذه الأنساب فيقول: «ولكن ذلك كله روايات متوارثة لا يمكن إقامة الدليل عليها»، ويتخذ محمد عبده من الشك في الأنساب موضوعًا يظهر فيه أنها كانت عماد الأسر فيما يتعلق بالجاه والحسب أيام الجاهلية، فجاء الإسلام ينكر الإفراط والغلو في اعتبار الأنساب القيمة الأساسية لقدر الأسرة ومحتدها، إذ قال الله في قرآنه الحكيم: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾، وقال الرسول عليه الصلاة والسلام: «ائتوني بأعمالكم ولا تأتوني بأنسابكم».

وكان مولد الشيخ محمد عبده في عهد عباس الأول الذي أمر بإغلاق المدارس التي شيدها محمد علي، ولم يبق منها غير الحربية، ووجه كل اهتمامه لرفع مستوى الجيش.

ونشأ الشيخ في قرية محلة نصر التي أجمع المؤرخون على أنه القرية التي لجأت إليها أسرته تخلصًا من جور الحكام وتعسفهم، وقد ملأت هذه المظالم وحكاياتها الرهيبة نفس الطفل، وأفعمتها بالثورة على الاستبداد، ودرج في حياة الطفولة في كنف أبوين كريمي الخلق، طاهري السريرة، على غرار أبناء الفلاحين الذين يتوارثون العادات والتقاليد جيلاً بعد جيل.

وكان من الأمور التي تعلمها في قريته أن الكرامة وعلو المنزلة يجب ألا يرتكزا على الثروة، فقد كان الحكام – على الرغم من تعسفهم – يقدرون أباه «عبده خير الله» ويجلونه لمروءته وشهامته وشجاعته، ويفضلونه على عمدة القرية، مع أنه لم يكن في سعة من الرزق والجاه مثل هذا العمدة، وتعلم محمد عبده أمرًا آخر، وهو الانتصار للعدل، والثورة على الظلم والظالمين، ويرجع هذا الشعور إلى ما أصاب جده «حسن خير الله» الذي كان له من بني عمه وذويه عصبة تتكون من اثني عشر رجلاً، فتمكن رجل ظالم من الوشاية بهم مدعيًا أنهم يحملون أسلحة ويقفون في وجه الحكام لدى تنفيذهم الأحكام الجائرة، فزجّوا جميعًا في السجون ونُهِب ما كان في بيت ابنه عبده من تراث، فهاجر مع أهله إلى مديرية الغربية ولكن الواشي تبعه بحقده، فأُخذ إلى السجن ولم يفرج عنه إلا بعد فترة طويلة.

ولم يذهب محمد عبده إلى كتّاب القرية ليكون تحت رحمة عصا الفقيه القاسية، ومن ثم لم يكن يهتز عند إلقائه الدروس على طلابه في الأزهر على غرار كافة المشايخ الذين قضوا طفولتهم في الكتاتيب، إذ هم يهتزون تلقائيًّا عندما يجلسون متربعين مهما تكلفوا السكون.

وتعلم محمد عبده القراءة والكتابة في منزل أبيه، وحفظ القرآن على أحد حافظيه، فسلم بذلك من التشويش على عقليته ومن القسوة التي تخمد نزوعه إلى الحرية والانطلاق، وهي القسوة التي لا يسلم منها الطفل في الكتاب تحت رحمة عصا الفقيه الظالمة.

ولكنه لم يكد يبلغ الرابعة عشرة من العمر حتى أرسله والده إلى الجامع الأحمدي بمدينة طنطا لتجويد القرآن، وكان أخوه لأمه مدرسًا فيها، فأقام معه بتعلم القراءة والتجويد، ثم انتقل بعد عامين إلى مجالس العلم في ذلك الجامع.

وقطع من عمره عامًا ونصف العام، وهو لا يفهم شيئًا من قواعد اللغة العربية (الأجرومية) كمعنى الكلام، ومعنى الإعراب، إذ كان أستاذه يضيق ذرعًا بأسئلته التي كان يبغى بها معرفة تلك القواعد ليستوعبها، ويثبتها في ذهنه وذلك لعقم طريقة التعليم، خصوصًا وأن المدرسين كانوا يفاجئون الطلاب باصطلاحات نحوية أو فقهية ولا يعتنون بشرحها وتفهيم معانيها لمن لا يعرفها.

وليأسه من التعليم هرب من الدروس واختفى عن أخواله ثلاثة أشهر، عثر أخوه عقبها عليه، وأعاده إلى الجامع الأحمدي، ولكنه صارح أخاه بكرهه للتعليم، فأعاده إلى قريته محلة نصر ليعمل فلاحًا، وفي نيته ألا يعود إلى طلب العلم.

وفي عام ١٨٦٥م (١٢٨٢هـ) تزوج، وكان قد بلغ السابعة عشرة من العمر، ولم يمض غير أربعين يومًا حتى جاء والده، وأرغمه على العودة إلى طنطا في طلب العلم على الرغم من ضراعته وتصريحه بأنه خلق للعمل وليس للعلم الذي لا يفهم منه شيئًا.

وعهد به والده إلى قريب شديد البأس ليوصله إلى طنطا، وكان الحر لافحًا في الطريق، وإذا به يحث فرسه على السرعة وينطلق بها إلى منزل أخواله بقرية «كنيسة أورين»، حيث التقى بشيخ جليل من أخوال أبيه يدعى الشيخ درويش، وكان هذا الشيخ صوفيًّا طيب القلب، نافذ البصيرة، فروَّده على القراءة وأخذ يفسر له ما يقرأ، وما هي إلا خمسة أيام حتى صارت القراءة وتفهم ما يقرأ أحب الأشياء إليه، وكره ما كان الشبان يحببونه إليه من ركوب الخيل واللعب بالسيف وما إلى ذلك من فنون اللهو والزهو.

وعاد إلى الجامع الأحمدي بروح علمية جديدة، وأقبل على الدرس والتحصيل، وسرعان ما ملأ الطموح سريرته فذهب إلى القاهرة عام ١٨٦٦م (١٢٨٣هـ) للالتحاق بالأزهر.

ووجد في الأزهر ما كان يكرهه في الجامع الأحمدي بطنطا، إذ كان التعليم عقيم الأساليب، تافه الموضوعات، يلقيه أساتذة جامدون عاكفون على التراث الموروث من العصور الغابرة المظلمة لا يبغون به بديلاً، فهم يقرؤون للطلاب المتون العربية، ثم يقرؤون الشروح على المتون، ثم حواشي الشروح ويغرقون الطلاب في احتمالات عقيمة لا تنتهي إلى الجزم بشيء وتدع العقول مبلبلة، والأذهان حائرة مرتابة.

ولكن الطلاب كانوا مجبرين على حفظ ما يقرؤون ويسمعون، وهم لا يفهمون شيئًا من كل ذلك، وهكذا يتخرج هؤلاء الطلاب، وهم جهلة فيغتر بهم الناس، ويزدادون على أيديهم جهلاً على جهلهم.

ولم يمتنع محمد عبده عن هذه الدروس العقيمة، فكان يحاول الانتفاع منها قدر المستطاع، ويبحث في الوقت نفسه في كتب الأزهر عن أشياء لا تدرَّس فيه تائقًا إلى العلوم الفلسفية، والرياضية ملتمسًا إياها عند من يدعي علمها فيخطئ مرة، ويصيب مرة أخرى إلى أن حضر جمال الدين الأفغاني إلى مصر لأول مرة عام ١٨٦٩م (١٢٨٦هـ).

أقبل هذا المصلح النابغة على مصر بفكره الحر، ونفسه القوية حاملاً إلى المصريين النور الذي يبدد الظلمة التي كانوا يحيونها، وأخذ يبث في نفوسهم تعاليمه التقدمية، ويقرأ على من يؤمون مجلسه في طلب العلم طائفة مختارة من الكتب

العربية والإفرنجية المعرَّبة في شتى فروع الفلسفة والتاريخ والسياسة والاجتماع مستخلصًا منها العبر التي تحرر الأذهان وتهيئ العقول إلى الثورة على الأساليب العنيفة وترجّي بالخلاص من القيود التي تقيد الأذهان، فكان ذلك فتحًا جديدًا في التعليم، والتوجيه الفكري يخالف ما كان سائدًا ذلك الحين.

وبادر محمد عبده إلى الذهاب ليتصل بهذا المفكر الفذ وسرعان ما أخذ يستفيد من دروسه في العلوم الفلسفية والكلامية والرياضية، ولم يقصر في حث زملائه طلبة الأزهر على ارتياد مجالس الأفغاني على الرغم من أقوال المشايخ بأن تلك العلوم تؤدي إلى زعزعة العقائد الصحيحة.

وقد كان للأفغاني في نفس محمد عبده أعمق الأثر من حيث التوجيه الصحيح المستنير فزهده في الاستغراق في التصوف، ورغَّبه في الاطلاع على الكتب الحديثة التي تتضمن أحسن ما أنتجه المفكرون الغربيون، ثم دربه على الإنشاء والكتابة في الموضوعات الإصلاحية الاجتماعية.

ولم يتقاعس محمد عبده في نشر الدعوة إلى الإصلاح، وهو مايزال طالبًا، وكان ذلك سببًا في نقمة المشايخ عليه، وفي مقدمتهم الشيخ عليش (انظر هذه المادة) الذي كان ينقم على الأفغاني، وعلى تعاليمه التقدمية، وعندما سمعه يلقي دروسًا حديثة على بعض الطلاب هم بضربه بالعكاز، غير أن محمد عبده لم يهب هذا التهديد وجعل يضع عصا بجانبه ليدافع بها عن نفسه إذا تجرأ عليش على ضربه بالعكاز.

وجهر الأساتذة الآخرون بمعاداته والتعهد بألا يعطى أية درجة في الامتحان، ولكن عندما فحصت الإجابات لم يسعهم إلا أن يمنحوه الدرجة الثانية وإن كان أحدهم قد أقسم بأنه إذا كان فوق الدرجة الأولى درجة لمنحه إياها.

وبعد ستة وعشرين سنة، لم يسع مشيخة الأزهر إلا أن تمنحه العالمية من الدرجة الأولى عام ١٩٠٤م (١٣٢٢هـ) لترد إليه اعتباره وحقه المسلوب.

وفي عام ١٨٧٧ كان الشيخ محمد عبده مدرسًا بالجامع الأزهر، وقد ناهز الثلاثين من العمر، ولم يكن هذا المنصب ليقعده عن التحصيل، فشرع يتبحر في العلم، فاتجه إلى النظر في علوم العرب بعد أن نهل حتى ارتوى من الآداب الغربية.

وكانت الدروس الحديثة التي يلقيها على الطلاب خطوة أولى في سبيل إصلاح الأزهر وتجديد مناهج التعليم فيه، والخروج على الطرق العقيمة التي ألفها المدرسون والطلاب وذلك بإدخال العلوم والموضوعات التي تتمشى وروح العصر، وتساعد على تحرير العقول من الأوهام وتدفع الأمة في طريق التقدم.

وقد لاقى في ذلك، الصعاب والعنت، ولاسيما من زملائه المدرسين الذين ذهب بعضهم إلى رميه بالكفر والزندقة وإفساد عقائد الطلاب، ولم يعفه كل ذلك عن مواصلة طريق الإصلاح غير عابئ بما يقول المتزمتون.

وهذا الإصلاح التعليمي المتطور كان نتيجة الأثر العميق الذي وضعه جمال الدين الأفغاني في نفس محمد عبده فنقله من التفكير الأزهري الجامد في ذلك الحين إلى التفكير الموضوعي المتحرر الذي يواكب تقدم العصر الحضاري والاجتماعي، ومن ثم كان محمد عبده يقول إن والده وهبه

حياة يشاركه فيها أخواه: علي ومحروس، أما الأفغاني وهبه حياة يشاركه فيها الأنبياء: إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد والأولياء والقديسون.

ونتيجة لإصراره على إصلاح التعليم الأزهري وإدخال التجديد العصري على برامجه، اختير الشيخ محمد عبده في أواخر عام ١٨٧٨م (١٢٩٥هـ) لتدريس مادة التاريخ في دار العلوم، فأخذ يقرأ على طلابه مقدمة ابن خلدون (انظر هذه المادة) لما فيها من آراء اجتماعية قيمة، وما تبديه من العوامل التي تؤدي إلى رقي الأمة، أو تنحدر بها إلى هاوية الانهيار، وكان يشرح هذه العوامل شرحًا مستفيضًا، ويطبق بعضها على ما يجري في الأمة المصرية.

ويقول مصطفى عبد الرازق (انظر هذه المادة) إنه كان يتحاشى حضور الدروس التي يلقيها محمد عبده في الرواق العباسي حفاظًا على دينه، وذلك لما كان يسمعه من المدرسين عن كفر محمد عبده وإلحاده، وذات يوم حضر درسه وكان يفسر القرآن الكريم فقال عند انتهاء الدرس: «اللهم إن كان هذا إلحادًا فأنا أول الملحدين».

وفي سنة ١٨٧٨م (١٢٩٥هـ) نفسه عين الشيخ محمد عبده مدرسًا للعلوم العربية في مدرسة الألسن الخديوية، فبدأ يعمل فيها على تكوين جيل جديد يحافظ على إحياء اللغة العربية الفصحى ويثور على الاستبداد والظلم.

وإلى جانب تدريسه بالأزهر ودار العلوم ومدرسة الألسن كان يفتح منزله للشبان الراغبين في التجديد والإصلاح، فيلقي عليهم دروسًا في الأخلاق والسياسة، ويقرأ لهم أمهات كتب الأخلاق والاجتماع العربية والمترجمة عن اللغات الأخرى.

وما من شك في أن الشيخ محمد عبده قد أسهم بنصيب وافر في بث الروح الإصلاحية الثورية في نفوس طائفة كبيرة من أهل عصره الذين اتخذوه قدوة لهم ومثلاً أعلى لحياتهم الفكرية والاجتماعية، ومنهم عدد ممن استحقوا لقب العظمة أمثال: سعد زغلول، وقاسم أمين، وأحمد تيمور، ومصطفى المنفلوطي ومصطفى عبد الرازق (انظر هذه المادة) وعبد الرحمن البرقوقي.

وكان جمال الدين الأفغاني ومريدوهم قد اتصلوا بالأمير توفيق، واتفقوا معه على تغيير شكل الحكومة وجعلها مسؤولة أمام مجلس نيابي إذا ما تولى عرش مصر، ولكن عندما أجبر الخديوي إسماعيل على التنازل عن العرش لابنه توفيق انقلب الخديوي الجديد على أصدقائه، فأمر بأخذ الأفغاني ليلاً في عربة مقفلة، وأرسل من السويس إلى الهند ثم بادر إلى عزل محمد عبده من مدرستي الألسن، ودار العلوم، وأرغمه على الإقامة بقريته «محلة نصر» لا يبرحها حتى يؤذن له، وزجّ بدعاة الإصلاح في السجون، وكان ذلك عام ١٨٧٩م (١٢٩٧هـ).

وكان الأفغاني يثق في أن محمد عبده سيكون له خير سلف، ومن ثمّ كان يدعوه بكلمة «الصديق»، ويقول محمد باشا المخزومي إن الأفغاني قال في آخر أيامه بالآستانة إنه ترك في مصر التي أحبها الشيخ محمد عبده طودًا من العلم الراسخ وعرمرمًا من الحكمة والشمم وعلو الهمم، ثم يعجب الأفغاني من إغفال أعوان محمد عبده تأليف جماعة تكافح وتناضل حتى يجلو الإنجليز عن مصر.

وظلّ الشيخ في قريته إلى أن أعيد تأليف مجلس النظار برياسة رياض باشا (انظر هذه المادة) فسعى في العفو عنه وكلفه الإسهام في تحرير «الوقائع المصرية» جريدة الحكومة الرسمية، فأدخل عليها التجديد بعد أن ضم إلى تحريرها نخبة من تلاميذ الأفغاني، وفي مقدمتهم سعد زغلول وكان مجاورًا بالأزهر في ذلك الحين وكان في مستهل العقد الثالث من عمره.

وكان من نتائج هذا التجديد أن صارت «الوقائع» مهيمنة على الأمة والحكومة بما كان يكتبه من مقالات في إصلاح العمل وتقويم الأخلاق وإقرار الحق والعدل وخدمة المصلحة العامة، وتخليص اللغة العربية من الأساليب والاصطلاحات العقيمة التي شاعت فيها خلال عصور الانحطاط.

ولم تكن رياسة تحرير «الوقائع المصرية» غريبة عليه، فقد كان يكتب المقالات الضافية في جريدة الأهرام، وهو مايزال طالبًا بالأزهر فنوَّه في هذه المقالات بفضل الصحافة، وما تظهره للقراء من أسباب الانحطاط، وعوامل الرقي، وما تشرحه لهم من آراء ناضجة تهديهم إلى خير طرق الإصلاح، ثم يبصر أفراد الشعب بوجوب النضال الفعال ضد الاستعمار، مع نبذ الخلافات الدينية والطائفية لحماية الوطن ووقايته من أعدائه ومن عوامل الانهيار ووجوب تضامن الشعوب المستعمرة للتخلص من الاستعباد البغيض ومن عشرات المقالات التي دبجها قلمه، وهو يمارس رياسة الوقائع تتضح وجوه الإصلاح التي كان يهدف إليها وتتبين شخصيته، وأمانيه فهو الوطني الواعي الذي يجد في الوحدة الوطنية خير عون على بلوغ الآمال، ويجد في القيام بالواجب والتمسك بالحق وسيلة لكمال الإنسان اجتماعيًّا.

وهو يعد مصلحًا اجتماعيًّا يدعو إلى الخير ونشر المدنية، وإقرار السلام، والعدل والتمسك بالفضائل والأخلاق الكريمة، ويحث مواطنيه على إنشاء الجمعيات الخيرية التي تساعد المحتاجين، وتغيث الملهوفين، وتحض على المحبة والتضامن والتعاون، ويهيب بالفلاحين أن يسترجعوا الأراضي التي اغتصبها الدائنون الأجانب في حياة الخديوي إسماعيل المعزول، وذلك بالعمل والاقتصاد في الإنفاق، ويرجو من مواطنيه أن يعملوا أكثر مما يقول أكثرهم دون عمل.

ومن جهة أخرى وجه الشيخ محمد عبده اهتمامه البالغ للإصلاح الديني، فكتب مقالات عدة في حكم الشريعة في تعدد الزوجات حمل فيها على الذين اتخذوا من هذا التعدد طريقًا لصرف الشهوة، وهو ما لا يجيزه الشرع ولا يقبله العقل، ومن ثم عاد إلى الاقتصار على واحدة لصعوبة العدل الذي اشترطته الآية القرآنية، وانتقد في شدة ما يجري بالمساجد من دق الطبول وآلات اللهو وهو ما يعرف «بالحضرات» واستنكر «بدعة الدوسة» التي يرمى فيها الناس على الأرض ويمر أحد مشايخ الطرق الصوفية على أجسادهم وقال إنها منافية للدين الذي كرم الإنسان، كما هاجم كثيرًا من البدع الأخرى والاعتقاد في الخرافات السخيفة.

ودعا إلى الحرية وإقرار حقوق الإنسان، إذ كان على يقين من أن الوطن لا يكون وطنًا إلا إذا سادت الحرية في أرجائه، وأن البلاد لا تسعد إلا إذا استتب فيها القانون دون تحيز لكبير أو ممالأة لذي سلطان، ولكنه لا يؤيد الحرية المطلقة من كل قيد وإنما يؤيد الحرية البعيدة عن الطموح الجامح الذي يؤدي إلى الانحلال، ولذا فهو يرى الاستعانة بالقوانين الوضعية

لفرض الفضائل على أفراد الشعب والحد من أي طغيان يعوق دفع الأمة في سبيل الإصلاح الصحيح .

وأفضل القوانين عنده هي الصادرة عن الأمة نفسها بموافقة الرأي العام ورضاه ، وتدل هذه الآراء المتحررة على أن محمد عبده كان من دعاة الحكم الدستوري ومن المؤيدين للشورى بشرط التدرج في اكتسابها شيئًا فشيئًا دون طفرة جامحة قد تؤدي إلى عكس المأمول .

وكانت من دعائم طريقته إلى الإصلاح العناية بالتربية التي تجعل الإنسان يحس بنفع بلاده كما يحس بنفعه الشخصي ، ومن ثم يجب العمل الجاد على نشر التعليم ، وتيسير سبله للراغبين في التزود منه ، مع تجديد مناهج الدراسة ، وجعلها توائم الأساليب الحديثة التي ترفع مستوى العقل ، وتحض على الاعتماد على النفس ، والتمييز بين الصالح والطالح ، وبين الحق والباطل ، إذ يؤدي ذلك إلى خلق جيل جديد قادر على السير بالوطن إلى العزة والمتعة .

وكان لمقالاته الكثيرة في التعليم تأثير كبير في الأوساط العلمية ، وقد حدا ذلك رياض باشا رئيس مجلس النظار إلى تأليف مجلس أعلى يكون له الحكم الفاصل في إدارة المعارف وعَيَّن محمد عبده فيه ، وكان لهذا المجلس وللشيخ محمد عبده عدة اقتراحات نافعة ، ولم تخلُ مناقشاته من مصادمات أكثرها ضد آرائه ولاسيما فيما يتعلق باقتراحه الخاص بإشراف نظارة المعارف على المدارس الأجنبية ، وقد كان له النصر في النهاية على معارضة الأعضاء الأجانب لهذا الاقتراح الوطني النافع .

وكان من المحتمل جدًّا أن توضع مقترحات المجلس الأخرى موضع التنفيذ لولا قيام الثورة العرابية وربما كان ذلك من الأسباب التي دفعت محمد عبده إلى معارضة هذه الثورة في أول الأمر .

وللثورة العرابية أسباب عديدة ، وأول ما ظهر منها كان بسبب الإسراف الذي واكب أواخر حكم الخديوي إسماعيل ، فقد بلغت ديون مصر للدول الأجنبية ما يزيد على مائة مليون جنيه ، ولضمان دفع هذه الديون مع فوائدها الباهظة بدأت الدول الأوروبية بالتدخل السافر في شؤون مصر الداخلية وأخذت في الاستيلاء على أكثر مرافق الدولة وكان الفلاحون أكثر الناس شقاء عقب هذه الكارثة الاقتصادية ، فكانت النساء يأتين إلى الأسواق لبيع لوازم بيوتهن من الأدوات والأثاث وبيع الملابس لدفع الضرائب الفادحة المفروضة على رجالهم حتى لا يرين هؤلاء الرجال – بل والأولاد أيضًا – يُضرَبون بالسياط ، ويعذبون أمام أعينهن ، إذا لم تدفع الضرائب إلى الجباة الظالمين ، وقد أثارت كل هذه المظالم نقمة الشعب على الخديوي إسماعيل المسرف المستهتر ، وكان الأفغاني روح هذه النقمة ، والنافخ في نارها لتشتعل وتقضي على هذا الطغيان الباغي .

ولما وجد إسماعيل نفسه بين هذين الخطرين ، خطر نقمة الشعب ، وخطر تدخل الأجانب فضل مجابهة الخطر الأول فأظهر عطفه على الحركة الوطنية الشعبية ، وأخذ يشجعها ويوجهها ضد التدخل الأجنبي ، فعزم الأجانب على إبعاده عن العرش ، وعلم الباب العالي في الآستانة ذلك ، فبادر إلى إقالة إسماعيل وحل محله ابنه توفيق الذي تنكر لوعوده الوطنية كما تقدم القول .

وكان محمد عبده يبادل رياض باشا الثقة والمحبة ولما وجد الآمال الشعبية قد انهارت بنفي المصلح الأفغاني، وبتنكر الخديوي توفيق لوعوده غير رأيه في الطريقة المؤدية إلى الإصلاح الذي ينشده، فشرع يعمل على توجيه مساعي الأحرار إلى الشعب، وتعليمه وتهيئته لمبادئ الحرية على مراحل؛ مخافة ازدياد النفوذ الأجنبي، ولاسيما أن إنجلترا وفرنسا كانتا تطمعان في الاستيلاء على مصر.

وكان رياض باشا يرى أن الأخذ بمبدأ التدرج في الإصلاح هو الطريق الأمثل، وكان مع ذلك يسالم الإنجليز والفرنسيين، فأخذ الشعب وأخذت الجرائد في محاربته على الرغم من نواياه الحسنة في الرقي بالشعب على مراحل، ومن ثمّ أخذ الناس وأخذت الجرائد في مهاجمة محمد عبده لانتمائه إلى رياض باشا.

وقام الصراع حادًّا بين فئتين من دعاة الإصلاح، فئة تدعو إلى الحرية التدريجية عن طريق نشر التعليم وتفهيم أفراد الشعب الحقوق والواجبات، وفئة تدعو إلى إقرار الحرية السياسية، وحرية الفرد وإنشاء مجلس نيابي تستمد الحكومة سلطتها منه وتكون مسؤولة أمامه، وكان معظم أفراد الفئة الثانية ممن تعلموا في أوروبا، وظل الصراع بين الفئتين إلى قيام الثورة العرابية.

ولم تبدأ هذه الثورة من إحدى الطائفتين ولكن من طائفة العسكريين وعلى رأسهم أحمد عرابي وأخذت تطالب بمساواة المصريين بالضباط الشركس، ثم اتسعت وطالبت بالمجلس النيابي، وانضم إلى عرابي سلطان باشا فانضم إلى الثورة كثير من علماء الأزهر والأعيان ثم الشعب بأجمعه.

وكان محمد عبده يلتقي بأحمد عرابي ويناقشه في آرائه ويؤكد له أن الطريق الصحيح هو تعليم الأمة لتفهم حقوقها وواجباتها، ثم تطالب بالحرية وإقامة الحكم النيابي، ولعل فيما حدث بعد ذلك من نتائج الثورة العرابية ما يؤيد رأي محمد عبده، إذ إن الثورة غاصت في خضم من الدسائس الأجنبية وخيانة بعض أنصارها وارتماء الخديوي توفيق في أحضان المستعمرين لإنقاذ عرشه، وقد أفضى كل ذلك إلى الاحتلال الإنجليزي وكابوسه المخيف وإلى القبض على زعمائها والحكم عليهم بالنفي المؤبد، وحُكِم على محمد عبده بالنفي ثلاث سنوات بعد أن قضى في السجن ما يزيد على ثلاثة أشهر، وكان هذا الحكم بسبب انضمام الشيخ إلى الثورة بمجرد أن لجأ الخديوي إلى الإنجليز لحمايته فأيقن أن الثورة أصبحت قومية، وأن واجب الشعب كله يقضي بالوقوف صفًّا واحدًا في وجه الغاصبين، وكان هو ومحمود سامي البارودي كاتبي البيان الذي نشره «الحزب الوطني» عن أهداف الحركة الوطنية ومبادئها، وعندما ضرب الأسطول الإنجليزي الإسكندرية قام محمد عبده بدعوة المواطنين إلى التطوع في الجيش لصدّ العدوان الأجنبي والدفاع عن مصر، واستقلالها، وقد كتب كل هذه الآراء في الوقائع المصرية.

ولم يتورع الخديوي توفيق عن أذى مصر في أحلك ساعات محنتها، فعندما قال له أحد كبار الضباط في معيته إن الإسكندرية ستحرق إذا لم يطلب من ذي الفقار المحافظة على المدينة أجاب هذا الخديوي الخائن: ستين سنة. . . وهز كتفيه ثم أردف قائلاً: «فلتحترق الإسكندرية كلها ولا يبق طوبة على طوبة. . . حرب بحرب. . . كل ذلك يقع على رأس عرابي وعلى رؤوس أولاد الكلب الفلاحين (أي

المواطنين) . . . »، ومن الغريب أمر هذا الخديوي أنه احتفل بانتصار الإنجليز على شعبه وقبوله التهاني من الوجهاء على احتلال البلاد وسلب أرزاقها بوساطة جنود الاحتلال وكثير من الأجانب الانتهازيين .

وعاد الشيخ محمد عبده من المنفى خلال عام ١٨٨٨م (١٣٠٦هـ) وسكن في شارع الشيخ ريحان بالقاهرة وتحمل عقوق بعض أصدقائه على مضض، فكانوا يتحاشون مقابلته خوفًا من الحكام، ثم سعى بعض معارفه لدى الخديوي توفيق فأظهر رضاه عنه، ولكنه أمر بتعيينه قاضيًا في المحاكم الأهلية ورفض إعادته إلى التدريس بدار العلوم حتى لا يؤثر بتعاليمه السياسية المتحررة على الطلبة .

فاضطر قبول منصب القاضي، ومارس أعباءه بمحاكم بنها، والزقازيق، وعابدين بالقاهرة، ثم ارتقى سنة ١٨٩٠م (١٣٠٨هـ) إلى منصب مستشار في محكمة الاستئناف، ويؤكد عارفوه أنه كان يحرص في أحكامه على تطبيق العدل والإنصاف دون التقيد بالنصوص القانونية في حرفيتها .

وخلال مدة توليه القضاء أكب على تعلم اللغة الفرنسية، وقال في هذا الصدد: «وجدت أنه لا يمكن لأحد أن يدعي أنه على شيء من العلم يتمكن به من خدمة أمته ويقتدر به على الدفاع عن مصالحها كما ينبغي إلا إذا كان يعرف لغة أوروبية» .

وكان قبل ذلك قد أخذ في تعلمها أثناء الحوادث العرابية ثم تركها، وحين سافر إلى فرنسا وأقام بها عشرة أشهر حال عمله في تحرير جريدة «العروة الوثقى» واجتماعه المستمر بالأفغاني ورفاقه من العرب دون مواصلة دراستها، ولما عين في القضاء وجد الفرصة سانحة لمواصلة تعلمها، إذ إن قوانين البلاد مستمدة في أغلبها من القوانين الفرنسية، وكان وقتذاك في الرابعة والأربعين من عمره، ولم يصل في تعلمه إلى التكلم بالفرنسية في سهولة .

ثم واظب على حضور الدروس في كليات باريس وجنيف كلما سافر إلى فرنسا أو سويسرا في أيام العطلة الصيفية، فأتقن تلك اللغة وترجم عنها كتاب «التربية» للفيلسوف الإنجليزي هربرت سبنسر .

وظل الشيخ محمد عبده مستشارًا في محكمة الاستئناف تسع سنوات، وفي ٢٥ يوليو ١٨٩٩ (١٣١٧هـ) عين عضوًا في مجلس الشورى، وكان رئيس المجلس عمر لطفي باشا، وهو أبغض الناس عليه بعد سلطان باشا، لما علمه من خيانتهما لوطنهما في أثناء الثورة العرابية، فقال في هذا الشأن: إنه ليشقُّ عليّ أن أحضر جلسات هذا المجلس تحت رياسة هذا الخائن لوطنه الجاني عليه وأنا لا أستطيع أن أراه، فكيف أعمل في مجلس هو رئيس له؟» .

ولم يمض غير شهر حتى عاجلت المنية عمر لطفي باشا فأصبح للشيخ محمد عبده الكلمة المسموعة والصيت الذائع، فأخذ في دراسة كل ما يعرض على المجلس من مسائل دراسة فاحصة دقيقة بغية الوصول إلى نتائج عادلة، مع التوجيه إلى الفصل فيها بالإنصاف، وفاقًا لمبادئ الديمقراطية الصحيحة والشورى .

وبعد أيام قليلة صدر أمر الخديوي عباس حلمي الثاني بتعيينه مفتيًا للديار المصرية، تنفيذًا لقرار مجلس النظار، وكان الشيخ حسونة النواوي قد استقال من مشيخة الجامع الأزهر

ومنصب الإفتاء، وقد تاقت نفس محمد عبده إلى مشيخة الأزهر لينفذ الإصلاح الذي يبغيه، ولكن الخديوي حال دون تحقيق أمنيته.

ولم تكن تلك المرة هي الأولى أو الأخيرة التي وقف فيها الخديوي عباس موقف الخصومة من محمد عبده بعد أن قرَّبه منه في أول عهده بالحكم، وقوَّى أمله في تحقيق الإصلاح الذي ينشده، فقد أخذ يناصبه العداء الصريح، ذلك لأن الإنجليز لم يدعوا للخديوي مجالاً ليظهر رغبته في الإصلاح في دواوين الحكومة، فلم يجد أمامه مجالاً غير ديوان الأوقاف والجامع الأزهر والمحاكم الشرعية، وهي جهات دينية كان المحتلون يحجمون عن التدخل السافر في شئونها، فصار من همّ الخديوي السيطرة عليها دون منازع، وكان الشيخ محمد عبده يقاوم نفوذه عليها بكل قوته.

ولقد نازع محمد عبده الخديوي عباس في مسائل عديدة، منها إفتاؤه بأن أرض الخديوي التي كان يبغي التنازل عنها لديوان الأوقاف في مقابلة أراضي البناء في الجيزة يجب أن يحدَّد سعرها وسعر أراضي الأوقاف بوساطة لجنة برياسة مهندس ديوان الأوقاف، وقد أسفر التقويم عن وجوب دفع الخاصة الخديوية ٢٥ ألفًا من الجنيهات، علاوة على أرض الخديوي الزراعية، ومنها معارضته لهذا الخديوي في مجلسه نفسه حينما أراد منح كسوة التشريفة لإمام السراي الخاص، عوضًا عن أحد العلماء، إذ قال له محمد عبده إن هذه الكسوة تمنح تطبيقًا لقانون أصدره الخديوي، فإذا أراد منحها مخالفة لهذا القانون فعليه أن يصدر قانونًا آخر بذلك، فغضب الخديوي لهذا التصريح الجريء غضبًا شديدًا، وغضب مرة أخرى عندما قبل أن يقف تحت العلم الإنجليزي ليستعرض فرقة من جيش الاحتلال، مما أثار غضب محمد رشيد رضا (انظر مادة رشيد رضا)، فهاجم هذا الضعف في جريدته «المنار»، واتهم الخديوي عباس بمصانعة الإنجليز زيادة عن والده الخديوي توفيق، الذي كان يشرف فقط على الاستعراض من نافذة قصره.

وأراد الخديوي مصالحة محمد عبده بشرط ابتعاده عن محمد رشيد رضا، فأبى في كبرياء، وقال إن صديقه رشيد رضا ترجمان أفكاره، وأنه يفضل العزل من وظيفة الإفتاء على أن يتخلى عن هذا الصديق المخلص، وجرب الخديوي الوقيعة نفسها مع رشيد رضا، فلم يفلح.

ثم لجأ الخديوي بعد ذلك إلى إثارة موضوع الفتوى التي أصدرها محمد عبده لرجل من الترنسيفال، سأله في شرعية لبس القبعة، وفي أكل الذبيحة التي يتولاها غير المسلم، ووجوب صلاة الشافعيين خلف الحنفيين، فأفتى محمد عبده بأن لبس القبعة غير محرم، وأكل الذبيحة التي يقوم بذبحها أهل الكتاب حلال، والصلاة خلف الحنفية أو خلف الشافعية جائز شرعًا.

أثار الخديوي موضوع هذه الفتوى وحرض أتباعه على تكفير محمد عبده في فتواه، ولكن هذا الموضوع حُسِم عقب اجتماع فئة من كبار علماء المذاهب الأربعة في الأزهر، وتقريرهم أن الفتوى صحيحة ولا خروج فيها عن الشريعة الإسلامية.

وكانت للشيخ محمد عبده فتاوى جريئة كانت تثير حفيظة خصومه وتدفعهم إلى مهاجمته في عنف لا يعرف الهوادة، منها فتواه لسائل من الهند في الاستعانة بغير المسلمين كلما

كان في هذه الاستعانة خير للطوائف الإسلامية المحتاجة، فأفتى بأن ذلك جائز لنفع المسلمين المحتاجين، ثم فتواه بإن إيداع الأموال في صندوق التوفير حلال.

وعمل محمد عبده جهد الطاقة على إصلاح المحاكم الشرعية طوال توليه منصب الإفتاء، فقدم تقريرًا مفصلاً عن نواحي هذا الإصلاح إلى ناظر الحقانية، طالب فيه بإعداد الأماكن الملائمة للقضاة والكتبة، وتأمين استقلال القضاء والنيابة بتنفيذ الأحكام الشرعية بوساطة السلطات التنفيذية، وأن يكون القضاة الشرعيين من الأزهر بعد إصلاح التعليم فيه، وذلك بإنشاء قسم للتعليم القضائي يتخرج منه القضاة، وقسم آخر يتخرج منه الكتبة، وتوسيع دائرة اختصاص المحاكم الشرعية، والكف عن قصر مناصب القضاء الشرعي على الحنفيين، لأن فقه المذاهب الأربعة متقارب، وتأليف لجنة من العلماء لوضع كتاب في أحكام المعاملات الشرعية ينطبق على مصالح الناس في هذا العصر الحديث.

ولكن هذا التقرير وما تضمنه من إصلاح لم يقابَل إلا بالاحتجاج الصارخ والشغب في أوساط الشيوخ والقضاة، والإدعاء بأن محمد عبده قد خرج على الأوضاع المتوارثة، وهكذا انتهت هذه الفتنة المغرضة بسكوت الحكومة على المشروع الذي كانت قد أعدته لإصلاح المحاكم الشرعية، مستمدًا من تقرير الشيخ محمد عبده.

وكانت أمنية الشيخ محمد عبده الملحة تتركز في إصلاح التعليم، ليس فقط في الجامع الأزهر، ولكن في هذا الجامع العتيد، وفي الجامع الأموي بدمشق، وجامع الزيتونة بتونس، وجامع القرويين بمراكش.

وكان يرى أن طلاب الأزهر هم عماد التعليم والوعظ والإرشاد في العالم الإسلامي، ولاسيما بعد أن حل الاحتلال الإنجليزي بعد عام ١٨٨٢م (١٣٠٠هـ) من نشاط التعليم في البلاد عن طريق المدارس النظامية، وإغلاق المدارس في وجه التلاميذ بحجة الاقتصاد في النفقات لإنقاذ مالية البلاد، فاندفع راغبو العلم إلى المعاهد الدينية، ومن ثَمَّ كان لزامًا أن يصلح التعليم في هذه المعاهد لتخريج طلبة على جانب قويم من الثقافة النيرة، وكان يرى أن الإصلاح المنشود يصادف عقبات من المشايخ الغافلين المتمسكين بالتقاليد التعليمية البالية، والمحاربين لكل جديد وإن كان يؤدي إلى الإصلاح.

ولما أعيته الحيلة إلى بلوغ غايته المصلحة ألف كتابًا أوضح فيه حقيقة الأزهر، وحقيقة أخلاق وعقلية مشايخه وتأثيرهم على عقول المسلمين ونشره باللغة العربية وبإحدى اللغات الأجنبية ليعرف المسلمون وغيرهم ما هو عليه هذا الجامع العظيم الأثر من ضعف وتأخر .

وكان كل جديد ينادي به المصلحون يعد بدعة عند مشايخ الأزهر الجامدين، وكل إصلاح يعد كفرًا وإفسادًا للأخلاق، وزعزعة للعقائد الدينية الإسلامية، فكانت الاستعاضة عن حوض الوضوء في المساجد بالحنفيات تزيل البركة، وإنشاء صيدلية في الجامع الأزهر للمعالجة بالعقاقير الأوروبية خروج على التسليم بالقدر الإلهي، والاهتمام بالنظافة تفرنجًا وتخنثًا يبعدان الطلاب عن الرجولة والفضيلة.

وقد وصف الأستاذ أحمد أمين الحالة التي كان عليها الأزهر في ذلك الحين فقال في كتابه «فيض المخاطر» إن بيئة هذه الجامعة الدينية تنتج عقولاً جامدة ونفوسًا خامدة إلا أن

يتداركها الله بمدد من الخارج، وقد ذكر الشيخ محمد عبده نفسه أنه حاول أن يغسل أثر هذه البيئة فنجح في بعض وفشل في بعض، فإن رأيت نابغة خرج منها فبرغمها لا بفضلها.

وقال الأستاذ مصطفى عبد الرازق (انظر هذه المادة) «إن الأزهر تحول إلى تكية، فادعى العلم فيها من ليس من أهله وتظاهر بطلبه كل فارٍّ من خدمة الجند، فشوهد فيها تلاميذ يربو سنهم على الستين، وعلماء لا يعرفون من العلم إلا أسماء العلوم».

هذه هي جامعة الأزهر في ذلك العهد، وهذه هي جامعة الأزهر التي حلم الشيخ محمد عبده بإصلاحها وقضى معظم حياته ساعيًا لهذا الإصلاح بغية جعْلها مدرسة تؤدي وظيفتها التربوية، فتخرج للوطن قضاة عادلين ومعلمين ماهرين ووعاظًا هادين إلى سواء السبيل يأخذون بوطنهم إلى معارج العمران والرقي.

ولم ينجح محمد عبده في تحقيق حلمه في عهد الخديوي توفيق، فلما جلس عباس الثاني على العرش، وبدأ في مناوأة الإنجليز في أول أمره، أوصاه محمد عبده بإصلاح الأزهر والأوقاف، والمحاكم الشرعية ليستعين بمن تضم من رجال على بلوغ غايته في وقف التدخل الإنجليزي والأجنبي في شؤون الدولة.

ومن ثم وافق الخديوي عباس على تكوين مجلس إدارة للأزهر يضم كبار العلماء المنتخبين وفاقًا للقانون الصادر في هذا الشأن ويضم عضوين تعينهما الحكومة وكان أحدهما محمد عبده، وليستميل مشايخ الأزهر إلى هذا الإصلاح سعى في تحسين مرتباتهم الشهرية المنتظمة وجعل الحكومة تمد الأزهر بمبلغ من مال الأوقاف سنويًّا، ثم وجه عنايته في مجلس الإدارة إلى نظام التدريس والامتحان وبيان وسائل العلوم ومقاصدها وجعل التدريس يوصل إلى الغاية منه.

٨١٢- الشيخ اللقاني - حارة - بقسم اللبان

هو الشيخ إبراهيم اللقاني، ويرجع لقبه إلى قرية اللقّانة بالقرب من مدينة شبراخيت بمحافظة البحيرة، ومازال معظم أفراد أسرة اللقاني يقيمون بالإسكندرية ويقيم بعضهم بدمنهور.

وقد ولد الشيخ إبراهيم بالقاهرة خلال عام ١٨٤٨م (١٢٦٥هـ) في عائلة ثرية، إذ كان والده من كبار تجار المصوغات والجواهر.

وبعد أن تلقى تعليمه الأولي في أحد الكتاتيب، ألحقه والده بالأزهر فأظهر تفوقًا مرموقًا في معرفة دقائق اللغة العربية والشريعة الإسلامية وأصول الفقه على المذاهب الأربعة.

وفي هذه المرحلة من حياته اتصل بالمصلح الإسلامي الكبير جمال الدين الأفغاني (انظر مادة الأفغاني) وسرعان ما صار من أتباعه المقربين ومريديه المقدرين لتعاليمه وآرائه الحرة التقدمية على غرار معاصريه أمثال الشيخ الإمام محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥)، ومحمود سامي البارودي (١٨٣٨ - ١٩٠٤)، والصحفي عبد الله النديم (١٨٤٥ - ١٨٩٦)، ولطفي السيد (١٨٧٢ - ١٩٦٣) (انظر هذه المواد).

وحدث تحول جذري في حياة إبراهيم اللقاني، ففي ١٨٧٢م (١٢٨٩هـ)، كان من بين الخمسين طالبًا الذين اختيروا من الجامع الأزهر ليكونوا الركيزة الأولى لمعهد دار

العلوم، فظلّ يدرس في هذا المعهد عامين كاملين، ثم فُصِل بناءً على طلبه ليعود إلى الأزهر لاستكمال دراسته، وهكذا شاء له القدر أن يسير في اتجاه آخر غير الاتجاه العلمي الذي كان ينتظره، لو أنه استمر على الدراسة في دار العلوم وتخرج منها يحمل شهادتها التعليمية المرموقة.

ولدى تخرجه من الأزهر عُيِّن في وظيفة «مأمور تفتيش» بوزارة الداخلية، ويقول الدكتور جمال الدين الرمادي في كتابه عن الشيخ عبد العزيز البشري (انظر هذه المادة) وهو الكتاب رقم ٢٤ في سلسلة كتب «أعلام العرب» إن الأدباء في ذلك الحين كانوا يجتمعون في مقهى «ماتاتيا» بالقاهرة، وفي هذا المقهى اتفق عثمان جلال (انظر هذه المادة) وإبراهيم اللقاني على إصدار جريدة أدبية أسبوعية باسم (نزهة الأفكار) التي لم يطل عمرها.

غير أن الدكتور إبراهيم عبده يذكر في كتابه «تطور الصحافة المصرية» أن الاتفاق على إصدار هذه الجريدة كان بين عثمان جلال وإبراهيم المويلحي وليس إبراهيم اللقاني.

وإني أرجح قول الدكتور الرمادي في هذا الصدد، ويؤيد ذلك أن إبراهيم المويلحي ظلّ يشغل منصب مدير بوزارة المالية حتى عزل الخديوي إسماعيل خلال عام ١٨٧٩م (١٢٩٧هـ)، ثم لحق الخديوي المعزول في تلك السنة نفسها وأصدر جريدة الإتحاد بإيطاليا.

وما كان لإبراهيم المويلحي أن يشترك في إصدار جريدة «نزهة الأفكار» الأدبية التقدمية الآراء وهو يشغل منصبًا حكوميًّا يمنعه من ممارسة مثل هذا النشاط الذي يمت للسياسة بصلة وثيقة، وبقي في هذا المنصب إلى أن غادر القطر المصري ليكون سكرتيرًا خاصًّا للخديوي إسماعيل في منفاه.

ولقد كانت آراء إبراهيم اللقاني، وعثمان جلال التي وضحت في أول عدد صدر من جريدة «نزهة الأفكار» غريبة على الصحافة المعاصرة، وبعيدة كل البعد عن تلك التي كان الخديوي يبتغيها، ومن ثمّ لم يسكت على هذا التغيير في التعبير وإبداء الآراء الحرة لأنه كان يريد صحافة حرة على غرار الصحافة الغربية ولكن في الحدود التي يرضاها هو، أي في أضيق مجال مستطاع.

وهكذا نجح وزير حربيته في توجيه نظره إلى الخطر الذي قد يترتب على ما ينشر في الجريدة من أقوال تهدف إلى التمسك بالحقوق ونشر الحقائق التي تتمشى مع الواقعية، وسرعان ما اقتنع الخديوي بأقوال وزير الحربية فأصدر أمره بإلغاء الجريدة عقب صدور العدد الثاني منها فماتت ولاتزال في مهدها.

ولحيوية نشاط إبراهيم اللقاني الدافق سارع إلى قبول تولي رياسة تحرير جريدة «مرآة الشرق» السياسية العلمية لصاحبها سليم عنحوري الدمشقي وكانت تصدر في يومي السبت والأربعاء من كل أسبوع وقد بدأ صدورها في عام ١٨٧٩م.

ويدل اشتراك اللقاني مع سليم عنحوري في الصحافة إلى جانب مهام وظائفه الأخرى، على أنه كان من أنشط العاملين في المجال الفكري المعاصر ومن دعامات الصحافة في مراحل قيامها الأولى بمصر، وأنه يستحق عن جدارة أن تكون له مكانته المرموقة في تاريخ الصحافة المصرية وفي تطورها وتقدمها.

وعندما قامت الثورة العرابية الوطنية في عام ١٨٨٢م (١٣٠٠هـ)، بادر اللقاني إلى الانضمام لرجالها وأسهم بجهوده في الحركة الشعبية الثورية.

وفي نهاية هذه الثورة حكم عليه بالنفي ثلاث سنوات، فاختار مدينة بيروت بلبنان مستقرًّا لمنفاه.

وقد جرَّد جميع من اشتركوا في الثورة العرابية – سواء أكان هذا الاشتراك مباشرًا أم غير مباشر – من كل حقوقهم المدنية ومن كل ما كانوا يتمتعون به من امتيازات، بل ومن كافة الوظائف التي كانوا يشغلونها ومن مرتبات هذه الوظائف المالية، وكان الشيخ اللقاني واحدًا منهم.

وقضى مدة النفي في بيروت صحبة الإمام الشيخ محمد عبده الذي كان ناظرًا للقسم العربي للمطبوعات، وصحبة حسن الشمسي محرر جريدة «المفيد»، والشيخ أمين يوسف أحد مواطني دمياط الثائرين.

ومن منفاه بالبلاد الشامية كتب طائفة كبيرة من الرسائل التي بقيت ذائعة الصيت في عالم الأدب والسياسة لما تنطوي عليه من أسلوب أدبي رصين، وتعمق دقيق في روائع اللغة العربية.

وعندما عاد من منفاه كان قد حرم من وظيفته الحكومية فلجأ إلى ميدان المحاماة لفصاحته المشهورة ومعرفته الواسعة الأفق بالشريعة الإسلامية عن طريق دراسته بالأزهر ومعرفته بالقوانين عن طريق الاطلاع المستمر، واتخذ له مكتبًا أمام المحكمة الأهلية بباب الخلق.

ولمقدرته الفائقة في الإلقاء، ولتضلعه القوي في اللغة العربية، ذاع صيته كأحد المحامين النابهين المفوهين في ذلك الحين، ومن ثم كانت قاعة الجلسة تغصّ بالمترددين عليها كلما كان يترافع ولاسيما في القضايا الجنائية.

فقد كان على قدرة فائقة في ابتكار المرافعات المؤثرة والمدعمة بالحجج القوية التي تستغرق ساعات طوالاً في غير ملل أو كلل من جانب القضاة أو الحاضرين، وقد تدرب على مهنة المحاماة عدد كبير من المحامين الناشئين في كنف مكتبه.

وتزوج عام ١٨٨٦م (١٣٠٤هـ) من السيدة عزيزة صبري، وكانت ترملت منذ قليل، وأنجب منها ولده «سني اللقاني» خلال عام ١٨٨٨م (١٣٠٦هـ)، أي بعد زواجه بعامين، ويدل انتقاؤه لاسم «سني» – أي الرفيع القدر – ليطلقه على ولده على تعلقه وتعمقه اللغوي خصوصًا وأن هذا الاسم قليل الشيوع.

وقد تقلب المرحوم «سني اللقاني» في الوظائف الحكومية إلى أن وصل إلى منصب وكيل وزارة المالية لسعة مداركه الاقتصادية والمالية، وهو والد المهندس «راداميس اللقاني» مدير إدارة التدريب المهني والكفاية الإنتاجية بشركة مصر للغزل والنسيج الرفيع بكفر الدوار، وقد اختار «سَني بك اللقاني» اسم «راداميس» لولده نتيجة إعجابه بالبطل المصري «راداميس» الذي قاوم احتلال الأحباش لمصر، وصار بطل المأساة الغنائية (الأوبرا) عايدة التي ألفها «ماريت باشا» (انظر هذه المادة) ووضع ألحانها الخالدة الموسيقار الإيطالي «فيردي» (انظر هذه المادة)، استجابة لطلب الخديوي إسماعيل؛ ليفتتح بها دار الأوبرا بالقاهرة عقب فتح قناة السويس.

وكان سني بك اللقاني من هواة الاستماع إلى الأوبرات، ومن ثم كان اختياره لاسم ولده. ومازال منزله بمحطة الجلاء (فيكتوريا سابقًا) بقسم المنتزه، ويسكنه ولده وأسرته، واختار المرحوم سني اللقاني اسم عايدة لابنته الدكتورة عايدة أستاذة علم الأقرباذين (اليكزولوجية) بكلية الطب بجامعة الإسكندرية.

ومن آثار الشيخ اللقاني الثقافية توليه تعليم وتثقيف «محمد المويلحي» (١٨٥٨ - ١٩٣٠م) (انظر هذه المادة)، وهو صاحب كتاب «حديث عيسى بن هشام» الذائع الصيت، وكان والده إبراهيم بك المويلحي قد قبل أن يكون سكرتيرًا للخديوي إسماعيل في منفاه بإيطاليا فاختار أخوه عبد السلام بك المويلحي الشيخ إبراهيم اللقاني لهذا الغرض، فلم يقصر في تعريف تلميذه «محمد المويلحي» بالأوساط السياسية والأدبية في البلاد إلى جانب تزويده بالعلم ولاسيما فيما يتعلق بقواعد اللغة العربية وآدابها، كما حاول تبصيره بمشاكل الساعة فجعله يشارك في مناقشات رجال الفكر والسياسة، وفي محادثاتهم المختلفة الأغراض ويشجعه على إبداء رأيه جهارًا في كل ما يعي وما يسمع، وكان كل ذلك بمثابة المدرسة الحقيقية التي كونت مدارك محمد المويلحي كما كونت مدارك الرجال البارزين على مر العصور.

ومن جهة أخرى جعل الشيخ اللقاني تلميذه على اتصال دائم بالحركة العرابية التي كان هو أحد مشجعيها ومن أوائل روادها.

وكان إبراهيم اللقاني من المترددين على منتدى السيدة نازلي فاضل الأدبي، ليسهم بآرائه الأدبية الممتعة في «أدب الصالونات» التي كانت السيدة نازلي من أوائل رائداته في العالم العربي الحديث، وكان يرتاد صالونها مع اللقاني في أواخر القرن التاسع عشر نوابغ الأمة المصرية ومن بينهم الإمام محمد عبده، وسعد زغلول وقاسم أمين، وما من شك في أن اللقاني تابع هذه المنتديات الصالونية في اجتماعات «الآنسة مي زيادة» (انظر مادة الآنسة مي) صحبة الشيخ عبد العزيز البشري، وغيره من أدباء ومفكري عصره (انظر مادة الشيخ عبد العزيز البشري).

وكان إبراهيم اللقاني معروفًا بسعة التفكير، وعمق الإدراك، وطيبة القلب، وحب الحياة الرغدة ذات السعة المغدقة التي تصور عيشة العظماء بكل معانيها، وكان مشهورًا بنبل الأخلاق وكرم السجايا، وكانت آراؤه الاجتماعية متحررة وتقدمية.

وكان إلى جانب بلاغته وفصاحته في الخطابة والكتابة يجيد الشعر وينظم القصائد في شتى ألوان القريض ولاسيما في الأغراض الوطنية، وقد أسهم بنصيب مرموق في الاجتماعات الأدبية والسياسية الأسبوعية التي كانت تعقد بمنـزل سعد باشا زغلول.

ولعلاقاته الوثيقة الأخوية بكل من حسن الشمس محرر جريدة «المفيد» ورشيد رضا (انظر هذه المادة) صاحب جريدة «المنار»، وعبد الله النديم (انظر هذه المادة) محرر جريدتي: «الطائف والأستاذ»، فلا يستبعد أنه اشترك بمقالاته وأبحاثه في تحرير هذه الجرائد بأسماء مستعارة.

وكانت أيامه الأخير غير مشرقة وتغلفها القتامة بسبب مرضه بداء السل العضال مما حدّ كثيرًا من نشاطه الأدبي

وأدخل على نفسه اليأس والقنوط، وعملاً بنصيحة الأطباء بأن يركن إلى الإقامة الخلوية الطلقة الهواء انتقل من منزله بالظاهر إلى المنزل الذي اشتراه بالعباسية على حافة الصحراء، وكانت هذه الجهة خلوية قليلة العمران في ذلك الحين.

وكانت وفاته بهذا المنزل في ١٨ يناير عام ١٩٠٨م (١٣٢٦هـ) بالغًا من العمر ٦١ عامًا، وأطلق اسمه على شارع رئيسي بالقاهرة وبه مجلس الوزراء (شارع عباس سابقًا) بمصر الجديدة.

وتقديرًا لعلمه، وبلاغته، وجهاده في سبيل حرية وادي النيل منح رتبة البكوية قبل وفاته ببضع سنين.

وتدل الصورة الشمسية (الفوتوغرافية) التي اطلعت عليها على أنه كان أبيض البشرة، وسيم الوجه، ضيق العينين شيئًا، ممدود الحاجبين، يطلق شاربيه ليمتدا بطرفيهما إلى الأعلى، أنيق الملابس الإفرنجية التي يظهر منها قميصه الأبيض وزيقه (ياقته) الدائرية المنشاة يحيط بها وتتدلى منها الأُربة (الكرفاته) بعقدتها الضخمة المربعة الخطوط.

ومن مقالاته السياسية في جريدة «مرآة الشرق» كتب بالعدد رقم ١٧ من هذه الجريدة في ٢٣ من إبريل عام ١٨٧٩م يقول:

«إن الاستبداد يُوجب أن تقتصر آراء الأمة وأفكارها وأعمالها على رأي رجلٍ واحدٍ وأفكاره وأعماله، فلا رأي إلا رأيه ولا فكر إلى فكره، فهو الفاعل بإرادته فقط، وجميع الأفراد مقودون كالآلات غير الشاعرة في يدِ صانعٍ يديرها كيفما يريد، فهو يستعملهم حسب إرادته، ويسيّرهم وفق آرائه، ويسوقهم إلى طرق شهواته وأغراضه، فلا يدعهم يظهرون ما أودع الله فيهم من الأفكار والأخلاق، وسائر المزايا الإنسانية التي منحهم الله إياها لنيل سعادتهم وبلوغ كمالهم، فتكون الأمة بأسرها كأنها ذاك الرجل الواحد.

وقد علمنا أن السعادة الإنسانية لا تُنال إلا بالاجتماع على وجه التعاون وقيام كلٍّ بأداء وظيفةٍ تكون ركنًا لنظام الهيئة الاجتماعية، وهذا إنما يتم إذا استعمل كُلٌّ قواه وآلاته فيما أُعِدَّت له، وإلا كان الاجتماع كلا اجتماع فلا يترتب عليه أثره الحقيقي فتُفْقد السعادة ويحل محلها الشقاء».

ففي هذه النبذة من مقال إبراهيم اللقاني ما يدل على اتجاهه السياسي في ذلك الحين أي في سنة ١٨٧٩م، إذ كان الإرهاص يعتصر الشعب المصري ويهيئه للثورة العرابية، إبراهيم اللقاني – في هذه الناحية – كان من دعاة الثورة على الحكم الاستبدادي وعلى الاستبداديين الذين يحرمون أفراد الشعب من الانطلاق الحر نحو سعادة الحرية والتمتع بمزاياها الحسنة، فهو أحد هؤلاء الوطنيين الداعين إلى كسر قيود الاستعباد والتخلف.

أما أسلوبه فينطوي على البراعة، وانتقاء الألفاظ، ويظهر بصورة واضحة التعبير اللفظي في تلك الحقبة من تاريخ مصر الأدبي.

وقد سارت جميع مقالاته بجريدة «مرآة الشرق» على هذا النحو الوطني الثائر، فهو يوجه النقد البنّاء الصادق إلى الحاكمين وإلى سياستهم الداخلية والخارجية، وإلى الإنجليز، وكل دولة تبغي الانتقاص من حقوق الشعب المشروعة التي يكفلها الضمير الإنساني والقوانين الوضعية العادلة.

وتبرز بلاغته التعبيرية الواضحة في الكلمة التي ألقاها بمناسبة تعيين سعد زغلول مستشارًا قضائيًّا خلال عام ١٨٩٢م (١٣١٠هـ)، فبعد أن ألقى بعض المحامين كلماتهم في هذه المناسبة وقف إبراهيم اللقاني قائلاً:

«يا سعدُ، وفي هذا اللفظ من معاني الإجلال والتعظيم ما يكفيني كلمة المقال، فيا سعد قد عزّ عليّ القول في هذا المقام مع ما لي من الأثرة والاختصاص بك، والاحتفاظ على جليل قدرك، وفضلك إلى حدٍّ يحتبس معه لساني في البيان، فأقتصر الآن على أن أهنئك من قلبٍ يخالطه الأسف على انسلالك من بيننا، وقد كنت واسطة عِقدِنا، وبقدر هذا الأسف نهنئك على اتصالك بخطة القضاء... ولكن علام؟ هل انتقلت إلى مقامٍ تكون أثرى وأوسع دنيا مما كنت فيه؟ كلا... بل إلى مقام يحس فيه رزقك على راتب زهيد... فعلام نهنئك؟ هل انتقلت إلى مقام تزاول فيه عِلْمًا لم تكن تزاوله أو تزداد سعة فيه؟ وقد كنت فيه قصير الباع؟ كلا... اللهم إلا أن يكون علم الاقتصاد... فبأي شيء نهنئك؟ لأنك كنت تناضل عن الحق، وتحارب للإنصاف، وتجاهد للعدل، ولم يكن بيدك؛ فأصبحت والعدلُ بيدك يُطلبُ منك الحق...».

وكتب إلى قريب له وهو على فراش الموت ينتظر قدوم ولده سني من أوروبا حيث كان يدرس سنوات عدة: «هل لي أحد سواك تعنيه مواساتي وتخفف نوازلي؟ كيف هِنْتُ عليك فتركتني أيامًا أحارب هذه النوازل، وأنت تعلم ضعفي عن مكافحتها؟ إن لك صديقًا آخر يجب أن تواسيه ولكن أما كان في وسعك تقسيم المواساة بيني وبينه، إلا إذا كنت ترى أن نوازلي غير جديرة باهتمامك؟ وهي على حالتها الراهنة، أشد والله من نازلة الموت، فإذا كنت لا تراها كذلك فهل تراها شيئًا يستهان به، وأنت والد لا يجهل فعل الإشفاق في نفس الوالد؟.

هذا عتاب قصدت به التلهي عن البكاء، ولم يصلني منك ردٌّ، وقد أصبح وصول الباخرة وشيكًا».